سلسلة الدروس العلمية للدعوة السلفية "٤"

الحلية

بشرح القضايا الكلية للاعتقاد في الكتاب والسنة

تأليف
عيسى مال الله فرج

غراس
للنشر والتوزيع والدعاية والإعلان

سلسلة الدروس العلمية للدعوة السلفية "٤"

الحلية

بشرح القضايا الكلية للاعتقاد في الكتاب والسنة

تأليف

عيسى مال الله فرج



الطبعة الأولى

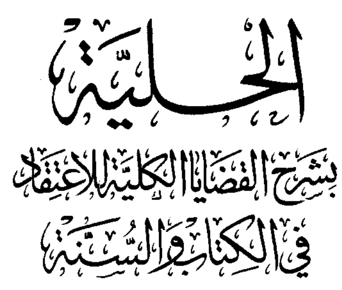
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م



الكويت - شارع الصحافة - مقابل مطابع الرأي العام التجارية

هاتف: ٤٨١٩٠٣٧ فاكس ٤٨٣٨٤٩٥
الجهراء: ص. ب: ٢٨٨٨ - الرمز البريدي: ١٠٣٠
Website: www. gheras. com
E-Mail: info@ gheras.com




الحلية
بشرح القضايا الكلية للاعتقاد
في الكتاب والسنة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟
ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ
وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

[الأنعام: ١٥٣]

المقدمة

إن الحمد للَّه، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده اللَّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠- ٧١].

أما بعد:

فإن «أصدق الحديث كتاب اللَّه، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار».

فهذا شَرْح **لكتاب «القضايا الكلية للاعتقاد في الكتاب والسنة»** للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق حفظه اللَّه(١).

والذي دفعني لشرح هذا الكتاب أمران(٢):

الأول: اشتمالُه على عامة القضايا العلمية والعملية.

---

(١) اعتمدت فيه على نسخة الطبعة الخامسة بتاريخ ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م. وكانت الطبعة الأولى قد صدرت في ٢ محرم سنة ١٣٩٣هـ الموافق ١٩٧٣م وكانت تحتوى على ٥٢ قضية فقط. وسيُرمز لكلام الشيخ «بالمصنِّف».

(٢) وقد ألقى الشيخ هذه القضايا كمحاضرات في مسجد التركيت (في منطقة الخالدية) ومسجد العلبان (في كيفان) وتم تسجيل هذه المحاضرات بحمد اللَّه وكان لي شرف حضور جميع هذه المحاضرات بحمد اللَّه.



الثاني: تشجيعُ الشيخ حفظه اللّه وثقته، بأن أقوم بشرح الكتاب.

وقد حاولتُ أن أشرحه بطريقة علمائنا السابقين رحمهم اللّه، أي بأن آتي بجزء من متن المُصَّنِف، ثم أقوم بشرحه، وليس شرحَ النقاط شرحاً عاما مجملا.

وكما حاولت أن أشرح العبارة شرحاً سهلًا قدر استطاعتي لأن المصنِّف كتبه حتى يقرأه ويفهمه عامَّةُ الناس.

وأخيراً لا يسعني إلا أن أشكر اللّهَ تعالى أن وفقني لإتمام هذا البحث.

ثم الشكر لكل من ساندني سواءً بتوجيه أو تصحيح.

وفي الختام لا أزعم بأني أَعْطَيْتُ هذه المهمةَ أو الكتابَ حقَّه، ولكنْ هو جهد المُقِلِّ فإن كان حقاً وخيراً فهو من اللّه فللّه الحمد والمنة، وإن يكن غير ذلك فمني ومن الشيطان. ولا أقول: إلا أن كلُّ رأي يخالف الكتابَ والسنةَ وما قاله سلفُ هذه الأمة فأنا راجعٌ عنه في الحياة قبل الممات.

وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين

وكتبه

عيسى مال اللّه فرج

الخميس ١٦ رجب ١٤٢٧ هـ - الموافق ١٠ / ٨ / ٢٠٠٦ م

أولا: مسائل الإيمان بالله تعالى

قال المُصَنِّفُ حفظه اللّه:

«يؤمن أهل السنة والجماعة ويشهدون ونؤمن معهم بحمد اللّه ونشهد بأنّ»:

قوله: (الإيمان باللّه تعالى)

الشرح: الإيمان باللّه هو الأصل الأول من الأصول الاعتقادية وهو أول أركان الإيمان كما جاء في حديث جبريلٍ عندما سأل النبيَّ عن الإيمان فقال: «الإيمان أن تؤمن باللّه. . . الحديث»(١).

والإيمان باللّه: هو الاعتقاد الجازم بأن اللّه ربُّ كلِّ شيء ومليكُه وأنه الخالق الرازق المحيي المميت وأنه المستحق لأن يفرد بالعبودية والذل والخضوع وجميع أنواع العبادة وأنه المتصف بصفات الكمال والمنزُّه عن كل عيب ونقص، وهذا هو الأساس الأول الذي يقوم عليه بناء شخصية المسلم(٢).

قوله: (يؤمن):

الإيمان في اللغة: التصديق(٣) أو (هو الإقرار بالشيء عن تصديق به)(٤) أي الإقرار المتضمن للتصديق، والاعتراف المستلزم لقبول الأخبار، والإذعان للأحكام.

الإيمان في الشرع: التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، وعمل الجوارح.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) الكواشف الجلية ٥٣ .
(٣) لوامع الأنوار ١/٤٠٣ .
(٤) وهذا قول الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ، إذاً ليس كلُ من صدَّق مخبرا يكون قد آمن به، فاللّه قد أخبر عن المشركين أنهم كانوا مصدقين بالنبي ﷺ، ولم يُدخلهم هذا في جملة أهل الإيمان، قال تعالى :
﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ سورة الأنعام/ ٣٣ (شرح الواسطية ١/ ٣٥) .



وهذا قول الإمام أحمد وسفيان الثوري وأبو ثور والبخاري والفضيل بن عياض ومالك والشافعي والأوزاعي وإسحاق بن راهويه وعبد اللّه بن المبارك وابن تيمية وابن القيم وسائر أهل الحديث وأهل المدينة وأهل الظاهر رحمهم اللّه تعالى.

فقولنا (التصديق بالقلب): لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥]

وقوله ﷺ: في حديث الشفاعة: «انطلق فَمَن كان في قلبه مثقال حبة من بُر أو شعيرة من إيمان، ثم من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»(١).

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وقوله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أَحبَّ إليه من والده وولده»(٢).

وقولنا: (الإقرار باللسان):

والقول باللسان: كالنطق بالشهادتين، شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه والإقرار بلوازمها.

قال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ [المائدة: ١١١]. وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ [الشورى: ١٥]. وقوله ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللّه وأني رسول اللّه»(٣).

---

(١) من حديث أبي هريرة رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه البخاري وأحمد والنسائي من حديث أبي هريرة.
(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجة من حديث أبي هريرة وابن عمر وغيرهما.

قولنا: (وعمل الجوارح والأركان):

وهو مما لا يؤدى إلا بها مثل القيام والركوع والسجود، والمشي في مرضاة اللّه كنقل الخطا إلى المساجد وإلى الحج والجهاد في سبيل اللّه عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك.

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢][١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإنسان ظاهر وباطن، فظاهرُه قولُ اللسان وعمل الجوارح، وباطنهُ تصديق القلب، وانقياده ومحبته، فلا ينفع ظاهر لا باطن له، ولا يُجزئُ باطن لا ظاهر له، إلا إذا تعذّر بعجز أو إكراه أو خوفِ هلاكٍ.

فَتَخَلُّفُ العمل ظاهرا مع عدم المانع دليل على فساد الباطن وخلوه من الإيمان ونقصُه دليل نقصه، وقوتُه دليل قوته.

فالإيمان قلب الإسلام، ولُبُّه. واليقين قلب الإيمان ولبه وكل علم وعمل لا يزيد الإيمان واليقين قوةً فمدخول، وكلُّ إيمان لا يبعث على العمل فمدخول[٢].

وقال شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهو (الإيمان) مركّب من أصل لا يتم بدونه، ومن واجب ينقص بفواته نقصا يستحق صاحبه العقوبة، ومن مستحب يفوت بفواته علو الدرجة. فالناس فيه ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق»[٣].

---

(١) معارج القبول ٢/ ١٥ - ١٩ (بتصرف).
(٢) الكواشف الجلية ٦٥٠ - ٦٥١.
(٣) مجموع الفتاوى ٧/ ٦٣٧.



مسائل تتعلق بمبحث الإيمان

الأولى: أركان الإيمان.

الثانية: الإيمان قول وعمل صالح.

الثالثة: الإيمان يزيد وينقص.

الرابعة: فاسقُ أهل القبلة مؤمنٌ ناقص الإيمان

الخامسة: اختلاف الناس حول مسمى الإيمان.

السادسة: تفاضل أهل الإيمان[١].

السابعة: لا يَكْفُرُ المؤمن بالمعاصي إلا إذا استحلها[٢].

الأولى: (أركان الإيمان)

وهي ستة كما جاءت في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «بينما نحن جلوس عند رسول اللّه ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب... قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره...» الحديث[٣].

فأركان الإيمان هي:

١- الإيمـــان باللّه ٢- الإيمان بالملائكة ٣- الإيمان بالكتب ٤- الإيمان بالرسل ٥- الإيمان باليوم الآخر ٦- الإيمان بالقدر.

---

(١) سيأتي شرح لهذه الجملة في الفقرة ٧٥ إن شاء الله.

(٢) سيأتي شرح لهذه الجملة في الفقرة ٧٨ إن شاء الله.

(٣) رواه مسلم والترمذي وأبو داود والنسائي وسيأتي شرح مفصلة لهذه الأركان في الفقرات القادمة بإذن اللّه.

الثانية: الإيمان قول وعمل:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢- ٤].

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]. أي صلاتكم إلى بيت المقدس(١).

وقال رسول اللَّه ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا اللَّه وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان»(٢).

الثالثة: (يزيد وينقص)(٣):

قال تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، وقوله: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١].

وقوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وعن حنظلة الأسدي رضي الله عنه قال: لقيني أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال: «كيف أنت يا حنظلة؟» قال قلت: «نَافَقَ حنظلةُ !» قال: «سبحان اللَّه ! ما تقول؟ قال: قلت: «نكون

(١) رواه البخاري في كتاب الصلاة والتفسير وأخبار الآحاد والطبري في تفسيره ٢/ ١٧ .
(٢) رواه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة.
(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة قول علي بن المديني ١٦٧، وقول أبو حاتم وأبو زرعة الرازي (المصدر السابق) . ولوامع الأنوار ١/ ٤١١ .



عند رسول اللّه ﷺ يُذكرنا بالنار والجنة حتى كأنّا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول اللّه ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد الصغار فنسينا كثيرا» قال أبو بكر رضي الله عنه : «فوا للّه إنا لنلقي مثل هذا»، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول اللّه ﷺ قلت: نافق حنظلة يا رسول اللّه فقال رسول اللّه ﷺ: وما ذاك؟! قلت: يا رسول اللّه نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي العين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيرا فقال رسول اللّه ﷺ: «والذي نفسي بيده أن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذِكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، لكن يا حنظلة ساعةً وساعة ثلاث مرات»[(١)].

والحاصل أن الإيمان عند السلف ومن وافقهم من أئمة أهل السنة والعرفان يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان.

قال شيخ الإسلام: وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان فيه عن الصحابة ولم يعرف فيه مخالف منهم فروى الناس من وجوه كثيرة مشهورة عن حماد بن سلمة عن أبي جعفر عن جده عمير بن حبيب الخطمي وهو من أصحاب رسول اللّه ﷺ قال: «الإيمان يزيد وينقص» قيل له: وما زيادته ونقصانه؟ قال: «إذا ذكرنا اللّه ووحدناه وسبحناه فتلك زيادته وإذا غفلنا ونسيناها فذاك نقصانه»[(٢)].

إيمـانـنـا قـول وقـصـد وعـمـل   تَزيده التقوى وينقصُ بالزلل[(٣)]

الرابعة: فاسق أهل القبلة مؤمن ناقص الإيمان:

أي أن فاسق أهل القبلة لا يُنفى عنه مطلقُ الإيمان بفسوقه، ولا يوصف بالإيمان التام ولكن هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فلا يُعطى الاسمَ المطلق، ولا يُسلب مطلقَ الاسم، والمراد بالفسق هنا هو الأصغر وهو عمل

---

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجة من حديث حنظلة الأسدي.
(٢)لوامع الأنوار ١/ ٤١١ .
(٣) لوامع الأنوار ١/ ٤٠٣ .



الذنوب والكبائر التي سماها اللّه ورسوله فسقاً وكفراً وظلماً مع إجراء أحكام المؤمنين على عاملها. فإن اللّه تعالى سمى الكاذب فاسقاً فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦].

ومع هذا لم يُخرج ذلك الرجل الذي نزلت فيه الآية من الدين بالكلية ولم ينف عنه الإيمان مطلقا ولم يمنع من جريان أحكام المؤمنين عليه وكذلك قال النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[١]. وقد استبّ كثيراً من الصحابة على عهده وفي حضرته فوعظَهم وأصلح بينهم، ولم يكفِّرهم بل بَقوا أنصارَه وآزروه في الدين

وقال ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض»[٢].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحجرات: ٩]:

فسمى اللّه تعالى كلّا من الطائفتين المقتتلتين (مؤمنة) وأمر بالإصلاح بينهما ولو بقتال الباغية ثم قال: ﴿فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

ثم لم ينف عنهم أخوة الإيمان مطلقا فقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠][٣].

الخامسة: اختلاف الناس حول مسمى الإيمان:

بعد أن بيّنا مذهب السلف حول الإيمان ننتقل إلى أقوال بعض الفرق حول مسمى الإيمان.

١ - الإيمان هو المعرفة بالقلب، أو التصديق[٤]:

هذا قول (الجهمية) وهو قول فاسد، لأن لازمه أن فرعون وقومه كانوا مؤمنين،

---

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم من حديث ابن مسعود وأبي هريرة وغيرهما.
(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم وحديث جرير وابن عمر وغيرهما.
(٣) معارج القبول ٢/ ٣٤٢ .
(٤) لوامع الأنوار ١/ ٤٠٤ وشرح السنة ٨٠، ٨١ .



فإنهم عرفوا صدق موسى لفرعون، قال تعالى حاكياً عن موسى قوله: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]:

وقوله تعالى عنهم: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

وأهل الكتاب كانوا يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم ومع ذلك لم تُدخلهم هذه المعرفةُ في دائرة الإيمان، وقال أبو طالب (عم النبي ﷺ):

ولقد علمتُ أن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبّة ... لوجدتني سمحا بذاك مبينا

بل إبليس عندهم كامل الإيمان فإنه لم يجهل ربه بل هو عارف به ولهذا قال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجرات: ٣٦]، وقال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

وأبو حنيفة وأصحابه لا يجوزون الاستثناء في الإيمان بكون الأعمال منه ويذمون المرجئة، والمرجئة عندهم الذين لا يوجبون الفرائض، ولا اجتناب المحارم بل يكتفون بالإيمان.

وقد علل (أبو حنيفة) تحريم الاستثناء فيه بأنه لا يصح تعليقه على الشرط لأن المعلق على الشرط لا يوجد إلا عند وجوده، كما قالوا في قوله: أنت طالق إن شاء اللّٰه.

قال ابن تيمية: إن الذين استثنوا من السلف والخلف لم يقصدوا فيه الإنشاء، وإنما كان استثناؤهم في إخباره عما قد حصل له من الإيمان.

فإذا كان قصد السائل: أنت عند اللّٰه مؤمن من أهل الجنة، فأقول: أنا كذلك إن شاء الله. أما إذا كان قصده أنت مؤمن أي لست بكافر. أو الإيمان الذي يعصم الدم والمال فأقول: أنا مؤمن(١).

(١) التفسير الكبير لابن تيمية بتصرف بسيط ١/ ١٣٩ - ١٤٠ .



٢ - الإيمان هو الإقرار باللسان فقط[1]:

وهذا قول (الكرامية) وهؤلاء عندهم أن المنافقين مؤمنون كاملو الإيمان ولكنهم يقولون إن المنافق مؤمن وهو مخلد في النار لأنه آمن ظاهرا لا باطنا وإنما يدخل الجنة من آمن باطنا وظاهرا.

٣ - الإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان[2]:

أي أنهم أخّروا العمل، وهذا قول المرجئة والماتريدية ويروى عن أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ وهؤلاء عندهم أن الناس كلهم سواء بالإيمان ولا يستثنون فيه: أي لا يقولون: «إنّا مؤمنون إن شاء اللّه»، «بل إنّا مؤمنون»[3]. وكذلك يقولون (المرجئة) إنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، مع أن بعض الأعمال وصف اللّهُ ورسوله أَنَّ تَرْكَها كُفْرٌ ومُوجبةِ لدخول النار

كما قال ﷺ: «**بين الإيمان والكفر ترك الصلاة**» وقال تعالى عن أهل النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر ٤٢-٤٣]

قوله: (أهل السنة والجماعة)

ش: ومصطلح أهل السنة له إطلاقان:

الإطلاق العام: والمراد به ما يكون في مقابل الرافضة (خاصة فيما يتعلق بأثبات خلافة الخلفاء الثلاثة - أبي بكر وعمر وعثمان)؛ فتدخل في مصطلح أهل السنة جميع الفِرق والطوائف المنتسبة إلى الإسلام كالأشاعرة والماتُريديه وغيرها - عدا الرافضة - كما عَنْوَنَ شيخ الإسلام بكتابه في الرد على الرافضي «منهاج السنة». وعليه يصح تقسيم المسلمين إلى سنة ورافضة.

---

(١) لوامع الأنوار ١/ ٤٠٤ .

(٢) لوامع الأنوار ١/ ٤٠٤ .

(٣) انظر شرح الطحاوية ٣٧٣ - ٤٠٢ .

الإطلاق الخاص: والمراد به أهل الحديث والسُنَّة المحضة والسّلف، أي ما يكون في مقابل أهل البدع والأهواء، والفِرق والمقالات المحدثة وهو الأكثر استعمالًا وعليه كُتب الجرح والتعديل، فإذا قالوا عن الرجل: أنه صاحب سُنة أو كان سُنياً أو من أهل السنة ونحوها. فالمراد أنه ليس من إحدى الطوائف البدعية: كالخوارج والرافضة والجهمية، والمعتزلة، والمرجئة، والأشاعرة والصوفية. . . وغيرهم من أهل البدع؛ فهؤلاء لا يدخلون في مصطلح أهل السنة بالإطلاق الخاص(١).

معنى الجماعة:

الجماعة في اللغة: من جمع، يقال: جمع المتفرق، والجماعة ضد الفُرقة(٢). وقد تُطلق الجماعة ويراد بها:

الأول: السواد الأعظم من أهل الإسلام، ويدخل فيهم أهل العلم والاجتهاد، دخولا أولياً.

الثاني: جماعة المجتهدين دون غيرهم من الناس(٣).

الثالث: جماعة الصحابة على وجه الخصوص.

الرابع: أنها جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمر ما، وهو الإجماع.

الخامس: أنها جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير، فلا يجوز الخروج عليهم فيه(٤).

وبهذا يظهر معنى السنة والجماعة والذي لا بد فيه من أربعة أمور هي:

---

(١) انظر منهاج السُنّة النبوية لابن تيمية رحمه الله ٢/ ٢٢١ تحقيق د. محمد رشاد سالم، ومنهج الاستدلال ١/ ٢٨ - ٨٤ د. عثمان بن علي حسن. ومنهج الأشاعرة في العقيدة للدكتور: سفر بن عبد الرحمن الحوالي والتمييز في بيان أن مذهب الأشاعرة ليس على مذهب السّلف العزيز للشيخ حاي بن سالم الحاي حفظه اللّه.

(٢) لسان العرب ٨/ ٥٣ .

(٣) اختيار البخاري انظر صحيح البخاري ١٣/ ٣١٦ «فتح الباري»، واختيار الترمذي انظر سنن الترمذي ٦/ ٣٣٥ كتاب الفتن.

(٤) وهو اختيار أبو جعفر الطبري رحمه الله انظر فتح الباري ١٣/ ٣٧ .

أ - الاقتداء بالرسول ﷺ وصحابته الكرام. ب- الاجتماع على الحق الذي دلّ عليه الكتاب والسنة. ج- الالتفاف حول أولياء الأمور من المسلمين.

د- المنهج المتبع في العلم الذي جاء به الرسول ﷺ وثبت عليه أصحابهُ والأئمةُ والتابعين وتابعوهم.

قوله: (ونشهد)

ش: أي نقر بقلوبنا، ناطقين بألسنتنا[١] لأن الشهادة نطق، وإخبار عمّا في القلب، وأصلها من شهود الشئ. أي حضوره، ورويته. فكأن هذا المخبر عما في قلبه الناطق بلسانه كأنه يشاهد الأمر بعينه.

ثم اعلم أن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه فلها أربع مراتب:

١ - علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته

قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

٢ - تَكَلُّمه بذلك وأن لم يُعلِم به غيره بل يتكلم بها مع نفسه ويتذكرها وينطق بها أو يكتبها، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]، فجعل ذلك منهم شهادة، وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة، ولم يؤدوها عند غيرهم[٢].

٣ - أن يُعلِم غيره بما يشهد به ويخبره به ويبيّنه له

ومرتبة الإعلام والإخبار نوعان:

إعلام بالقول، وإعلام بالفعل، وهذا شأن كل مُعلّم لغيره بأمر، تارة يعلمه به بقول

---

(١) للشيخ محمد صالح العثيمين - رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) يشير لقوله تعالى: «شهد اللّه أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم».



وتارة بفعل، ولهذا كان من جعل داره مسجدا وأبرزها وفتح طريقها وأذن للناس بالدخول والصلاة فيها مُعْلِما أنها وقف وإن لم يتلفظ.

ومما يدل على أن الشهادة تكون بالفعل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧]، والحال أنهم شاهدون ومقرون على أنفسهم بالكفر، بشهادة حالهم وفطرهم[١].

وما أحسن قول الشاعر:

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحد

٤ - أن يلزمه بمفهومها وبأمره بها

وأما مرتبة الأمر بذلك والإلزام به فإن مجرد الشهادة لا يستلزمه لكن شهادته سبحانه وتعالى في هذا الموضع[٢] هي شهادة مَنْ حَكَم به وقضي وأمر وألزم عباده كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو، فقد أخبر وأَعْلَم وحكم وقضى أن ما سواه ليس بإله وأن ألوهية ما سواه باطلة[٣].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن ٤٤٥ طبعة جمعية إحياء التراث الإسلامي.
(٢) يشير لقوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].
(٣) شرح الطحاوية ٨٩ والكواشف الجلية ٣٨ - ٤٠ (بتصرف) .

وجود الله تعالى

القضية الأولى: قال المصنف حفظه الله:

«الله هو الإله الحق الذي شَهِد بوجوده وربوبيته ووحدانيته كُلُ موجود»

ش: ويسمى هذا بتوحيد الربوبية كالإقرار بأنه خالق كل شيء وأنه ليس للعَالَم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال، وهذا التوحيد حق لا ريب فيه وهو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام، وطائفة من الصوفية، وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاؤوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له قالت رسلهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ وهذا يحتمل شيئين (أحدهما) أفي وجوده شك فإن الفطرة شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به فإن الاعتراف به ضروري في الفِطَر السليمة ولكن قد يَعْرِض لبعضها شك واضطراب فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سابق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما فلا بد لهما من صانع وهو الله لا إله إلا الله هو خالق كل شيء وإلهه ومليكه. (والمعنى الثاني) في قولهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أي أفي إلهيته

وتفرده بوجوب العبادة له شَكٌ وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له، فإن غالب الأمم كانت مُقِرّة بالصانع ولكن تَعْبُدُ معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم، وتقربهم من الله زلفى(١).

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٦٩١-٦٩٢ .



ولهذا نجد أن اللّه سبحانه وتعالى يثبت هذه القاعدةَ عن طريق رسله في سور وآيات كثيرة كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٥٩- ٦٥].

ومِثلُه قَولُ نوح لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٠- ١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ [العنكبوت: ٦٣] أي هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يَخْلق ولا يَرْزق(١).

وأشهر مَنْ عُرِف تجاهلهُ وتظاهرُه بإنكار الصانع، فرعون وقد كان مستيقنا به في الباطن كما قال له موسى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٩١ .



وقال تعالى عنه وعن قومه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤][(١)].

وهذا التوحيد يسمى كذلك بالتوحيد العِلْمي الخبري الاعتقادي أو توحيد المعرفة والإثبات قال تعالى في مقام إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥- ٣٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ أي من غير رَبٍّ ومعناه أَخُلقوا من غير شيء خلقهم فوُجِدوا بلا خالق؟ وذلك مما لا يجوز أن

يكون لأن تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الاسم فلا بد له من خالق[(٢)].

أول واجب على العبيد ... معرفة الرحمن بالتوحيد
إذ هو من كل الأوامر أعظم ... وهو نوعان أيا من يفهم
إثبات ذات الرب جلّ وعلا ... أسمائه الحسنة صفاته العلى[(٣)]
وأنه الربّ الجليل الأكبر ... الخالق البارئ والمصور
باري البرايا منشئ الخلائق ... مبدعهم بلا مثال سابق

وهذا يدركه راعي الإبل في الصحراء. والذي يقول: «البعرة تدلّ على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدل على العليم الخبير[(٤)]؟!».

* * *

(١) شرح العقيدة الطحاوية ٧٦ .
(٢) معارج القبول ١/ ٤٧ .
(٣) معارج القبول ١/ ٤٥ .
(٤) العقيدة في الله للشيخ عمر الأشقر ٥٩ .

توحيد الذَّات

القضية الثانية: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«ونؤمن أنه سبحانه وتعالى بذاته فوق عرشه مستوٍ على النحو الذي يليق بجلاله كما مدح بذلك نفسه في سبع آيات من كتابه وأن عرشه فوق سبع سماواته».

الشرح: وهذه الفقرة تتضمن أربعَ قضايا هي:

١ - إثبات الذّات للَّه عز وجل.

٢ - إثبات العلو للَّه عز وجل.

٣ - إثبات العرش للَّه عز وجل.

٤ - إثبات الاستواء لله تعالى.

أولا: إثبات الذّات للَّه عزّ وجلّ:

وهو الإقرار بأن للَّه ذاتاً لا تشبه ذوات المخلوقين.

١ - قال رسول اللَّه ﷺ: «إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب قط إلا ثلاثا: ثنتان في ذات اللَّه تعالى: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣][1].

٢ - وقول خبيب رضي الله عنه عندما أراد الكفار قتله:

ولست أبالي حين أقتل مُسْلِمَا ... على أي جنب كان في اللَّه مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلوٍ ممزعي[2]

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء وأبو داود كتاب الطلاق ٢/ ٢٦٤ واللفظ له. أما الثالثة فهو قوله للملك عن زوجته سارة: «أنها أخته».

(٢) رواه البخاري كتاب التوحيد.

٣- وقال سهل بن عبد اللَّه التستري وقد سئل عن ذات اللَّه؟

فقال: «ذات اللَّه موصوفة بالعلم، غير مدركَةٍ بالإحاطة، ولا مرئيةٍ بالأبصار في دار الدنيا، وهي موجودة بحقائق الإيمان من غير حد ولا إحاطة ولا حلول، وتراه الأعينُ في العقبى ظاهرا في ملكه وقدرته، وقد حَجَبَ الخلقَ عن معرفة كُنْهِ ذاته ودلّهم عليه بآياته فالقلوب تعرفه، والعيون لا تدركه، ينظر إليه المؤمن بالأبصار، من غير إحاطة ولا إدراك نهاية»(١).

وَقَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِ التَّابِعِينَ فِي صِفَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رضي الله عنه - حَيْثُ قَالَ: «إِنْ كَانَ اللَّهُ فِي صَدْرِي لَعَظِيمًا وَإِنْ كُنْت بِذَاتِ اللَّهِ لَعَلِيمًا».

أَرَادَ بِذَلِكَ أَحْكَامَ اللَّهِ، فَإِنَّ لَفْظَ الذَّاتِ فِي لُغَتِهِمْ لَمْ يَكُنْ كَلَفْظِ الذَّاتِ فِي اصْطِلَاحِ الْمُتَأَخِّرِينَ بَلْ يُرَادُ بِهِ مَا يُضَافُ إِلَى اللَّهِ كَمَا في قول خبيب رضي الله عنه، وحديث إبراهيم عليه السلام السابقين. وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وَنَحْوُ ذَلِكَ.

فَإِنَّ ذَاتَ تَأْنِيثُ (ذُو) وَهُوَ يُسْتَعْمَلُ مُضَافًا يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الْوَصْفِ بِالْأَجْنَاسِ فَإِذَا كَانَ الْمَوْصُوفُ مُذَكَّرًا قِيلَ ذُو كَذَا؛ وَإِنْ كَانَ مُؤَنَّثًا قِيلَ ذَاتُ كَذَا كَمَا يُقَالُ ذَاتُ سِوَارٍ.

فَإِنْ قِيلَ أُصِيبَ فُلَانٌ فِي ذَاتِ اللَّهِ فَالْمَعْنَى فِي جِهَتِهِ وَوُجْهَتِهِ: أَيْ فِيمَا أَمَرَ بِهِ وَأَحَبَّهُ؛ وَلِأَجْلِهِ.

ثُمَّ إِنَّ الصِّفَاتِ لَمَّا كَانَتْ مُضَافَةً إِلَى النَّفْسِ فَيُقَالُ فِي النَّفْسِ أَيْضًا إِنَّهَا ذَاتُ عِلْمٍ وَقُدْرَةٍ وَكَلَامٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ حَذَفُوا الْإِضَافَةَ وَعَرَّفُوهَا فَقَالُوا: الذَّاتُ الْمَوْصُوفَةُ أَيْ النَّفْسُ الْمَوْصُوفَةُ فَإِذَا قَالَ هَؤُلَاءِ الْمُؤَكِّدُونَ «الذَّاتُ» فَإِنَّمَا يَعْنُونَ بِهِ النَّفْسَ الْحَقِيقِيَّةَ؛ الَّتِي لَهَا وَصْفٌ وَلَهَا صِفَاتٌ.

وَالصِّفَةُ وَالْوَصْفُ تَارَةً يُرَادُ بِهِ الْكَلَامُ الَّذِي يُوصَفُ بِهِ الْمَوْصُوفُ؛ كَقَوْلِ الصَّحَابِيِّ فِي ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أُحِبُّهَا لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَتَارَةً يُرَادُ بِهِ الْمَعَانِي الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا الْكَلَامُ: كَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ.

---

(١) شرح الطحاوية ٢٤٠.



والجهمية وَالْمُعْتَزِلَةُ وَغَيْرُهُمْ تُنْكِرُ هَذِهِ وَتَقُولُ: إِنَّمَا الصِّفَاتُ مُجَرَّدُ الْعِبَارَةِ الَّتِي يُعَبَّرُ بِهَا عَنْ الْمَوْصُوفِ.

والكلابية وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ مِنْ الصفاتية قَدْ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الصِّفَةِ وَالْوَصْفِ فَيَجْعَلُونَ الْوَصْفَ هُوَ الْقَوْلَ؛ وَالصِّفَةَ الْمَعْنَى الْقَائِمَ بِالْمَوْصُوفِ. وَأَمَّا جَمَاهِيرُ النَّاسِ فَيَعْلَمُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ لَفْظِ الصِّفَةِ وَالْوَصْفِ مَصْدَرٌ فِي الْأَصْلِ؛ كَالْوَعْدِ وَالْعِدَةِ؛ وَالْوَزْنِ وَالزِّنَةِ؛ وَأَنَّهُ يُرَادُ بِهِ تَارَةً هَذَا؛ وَتَارَةً هَذَا. وَلَمَّا كَانَ أُولَئِكَ الجهمية يَنْفُونَ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ وَصْفٌ قَائِمٌ بِهِ: عِلْمٌ أَوْ قُدْرَةٌ؛ أَوْ إرَادَةٌ أَوْ كَلَامٌ - وَقَدْ أَثْبَتَهَا الْمُسْلِمُونَ - صَارُوا يَقُولُونَ: هَؤُلَاءِ أَثْبَتُوا صِفَاتٍ زَائِدَةً عَلَى الذَّاتِ.

وَقَدْ صَارَ طَائِفَةٌ مِنْ مُنَاظِرِيهِمْ الصفاتية يُوَافِقُونَهُمْ عَلَى هَذَا الْإِطْلَاقِ وَيَقُولُونَ: الصِّفَاتُ زَائِدَةٌ عَلَى الذَّاتِ الَّتِي وَصَفُوا - لَهَا صِفَاتٌ وَوَصْفٌ - فَيُشْعِرُونَ النَّاسَ أَنَّ هُنَاكَ ذَاتًا مُتَمَيِّزَةً عَنْ الصِّفَاتِ وَأَنَّ لَهَا صِفَاتٍ مُتَمَيِّزَةً عَنْ الذَّاتِ. وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الذَّاتَ الْمَوْصُوفَةَ لَا تَنْفَكُّ عَنْ الصِّفَاتِ أَصْلًا وَلَا يُمْكِنُ وُجُودُ ذَاتٍ خَالِيَةٍ عَنْ الصِّفَاتِ. فَدَعْوَى الْمُدَّعِي وُجُودُ حَيٍّ عَلِيمٍ قَدِيرٍ بَصِيرٍ بِلَا حَيَاةٍ وَلَا عِلْمٍ وَلَا قُدْرَةٍ؛ كَدَعْوَى قُدْرَةٍ وَعِلْمٍ وَحَيَاةٍ لَا يَكُونُ الْمَوْصُوفُ بِهَا حَيًّا عَلِيمًا قَدِيرًا بَلْ دَعْوَى شَيْءٍ مَوْجُودٍ قَائِمٍ بِنَفْسِهِ قَدِيمٍ أَوْ مُحْدَثٍ عَرِيَ عَنْ جَمِيعِ الصِّفَاتِ مُمْتَنِعٌ فِي صَرِيحِ الْعَقْلِ[1].

ثانيا: إثبات صفة العلو للّه عزّ وجلّ:

١ - القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]، وقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٧- ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦- ١٧].

(١) مجموع الفتاوى ٣/ ٣٣٤، ٣٣٥ .



٢ - السنة:

أ - حديث معاوية بن الحكم السُّلَمي رضي الله عنه قال: كانت لي غنم بين أُحُد والجوانية، فيها جارية لي فأطلقتها ذات يوم، فإذا الذئب قد ذهب منها بشاة، وأنا رجل من بني آدم، فَأَسِفْتُ فصككتها، فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فَعَظُّم ذلك عليّ، فقلت: «يا رسول اللَّه أفلا أعتقها؟» قال: «أدعها»، فدعوتها فقال

لها: «أين اللَّه؟» قالت: «في السماء»، قال: «من أنا؟» قالت: «أنت رسول اللَّه» ﷺ، قال: «اعتقها فإنها مؤمنة»[١]. وقول الجارية: «في السماء». ليست (في) هنا للظرفية بل هي بمعنى (على)، كما قال تعالى للسحرة على لسان فرعون: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١].

ب - حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء؟ يأتيني خبر السماء صباحا ومساء»[٢].

ج - حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الميت يحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس. . . فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها اللَّه تعالى»[٣].

د - قول النبي لسعد بن معاذ رضي الله عنه: (لقد حكمت فيهم[٤] حكم الملك من فوق سبع سماوات)[٥].

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والنسائي وغيرهم.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه أحمد في مسنده والحاكم في المستدرك على شرط البخاري ومسلم (مختصر العلو للألباني ٨٥)، والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدا - يراجع كتاب مختصر العلو للعلي الغفار للذهبي تحقيق الألباني.
(٤) يهود بني قريظة.
(٥) رواه النسائي والبيهقي وصححه الألباني في مختصر العلو ٨٧ .

٣ - أقوال السَّلف:

آ - حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن ابن عباس دخل عليها وهي تموت فقال لها: كنتِ أَحبَّ نساء رسول اللَّه ﷺ ولم يكن يحب إلا طيبا وأنزل اللَّه براءتك من فوق سبع سماوات(١).

ب - عن الإمام الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ عالم أهل الشام في زمانه قال: «كُنَّا والتابعون متوافرون» نقول: «إن اللَّه عز وجل فوق عرشه ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته»(٢).

ج - وعن الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ إمام دار الهجرة قال: «اللَّه في السماء وعلمه في كل مكان لا يخلو منه شيء»(٣).

د - وعن حماد بن زيد رَحِمَهُ اللَّهُ الحافظ وهو أحد الأعلام، قال: «وأن اللَّه على العرش، وأن اللَّه فوق السماوات، وأنه ينزل إلى السماء الدنيا وحجتهم على ذلك النصوص والآثار». ومقالة الجهمية أن اللَّه تبارك وتعالى في جميع الأمكنة (تعالى اللَّه عن قولهم) بل هو معنا أينما كنّا بعلمه(٤).

وَقد افْتَرَقَ النَّاسُ فِي هَذَا الْبَابِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْوَالٍ:

القول الأول: وَهَم السَّلَفُ وَالأَئِمَّةُ يَقُولُونَ: إنَّ اللَّهَ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَكَمَا عُلِمَ الْمُبَايَنَةُ وَالْعُلُوُّ بِالْمَعْقُولِ الصَّرِيحِ الْمُوَافِقِ لِلْمَنْقُولِ الصَّحِيحِ وَكَمَا فَطَرَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ خَلْقَهُ؛ مِنْ

---

(١) رواه عثمان الدارمي وقال الألباني وسنده صحيح على شرط مسلم (مختصر العلو ١٣٠).

(٢) رواه البيهقي في كتاب الأسماء والصفات، وقال ابن تيمية في العقيدة الحموية ١/ ٤٣١ مجموعة الرسائل الكبرى:
إسناده صحيح وتبعه عليه ابن القيم في (الجيوش الإسلامية ٤٣).

(٣) رواه عبد اللَّه في السنة، وأبو داود في المسائل ٢٦٣ والآجري ٢٨٩ واللالكائي ١/ ٩٢ قال الألباني وسنده صحيح مختصر العلو١٤٠ .

(٤) رواه ابن أبي حاتم الرازي (كتاب الرد على الجهمية) وعبد اللَّه بن أحمد بن حنبل في (السنة) وقال شيخنا الألباني بعد أن خرجه: إسناده صحيح وصححه ابن تيمية (الحموية) انظر مختصر العلو ٤٧ .

إقْرَارِهِمْ إِيَّاهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْقَوْلُ الثَّانِي: قَوْلُ مُعَطِّلَةِ الجهمية وَنُفَتْهُمْ وَهُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ. لَا هُوَ دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ وَلَا مُبَايِنَ لَهُ وَلَا محايث لَهُ؛ فَيَنْفُونَ الْوَصْفَيْنِ الْمُتَقَابِلَيْنِ اللَّذَيْنِ لَا يَخْلُو مَوْجُودٌ عَنْ أَحَدِهِمَا كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ أَكْثَرُ الْمُعْتَزِلَةِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ.

الْقَوْلُ الثَّالِثُ: قَوْلُ حُلُولِيَّة الجهمية الَّذِينَ يَقُولُونَ: إنَّهُ بِذَاتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ النجارية- أَتْبَاعُ حُسَيْنٍ النَّجَّارِ- وَغَيْرُهُمْ مِنْ الجهمية وَهَؤُلَاءِ الْقَائِلُونَ بِالْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ: مَنْ جِنْسِ هَؤُلَاسِ فَإِنَّ الْحُلُولَ أَغْلَبُ عَلَى عُبَّادِ الجهمية وَصُوفِيَّتِهِمْ وَعَامَّتِهِمْ وَالنَّفْيُ وَالتَّعْطِيلُ أَغْلَبُ عَلَى نُظَّارِهِمْ وَمُتَكَلِّمِيهِمْ كَمَا قِيلَ: مُتَكَلِّمَةُ الجهمية لَا يَعْبُدُونَ شَيْئاً وَمُتَصَوِّفَةُ الجهمية يَعْبُدُونَ كُلَّ شَيْءٍ.

الْقَوْلُ الرَّابِعُ: قَوْلُ مَنْ يَقُولُ إنَّ اللَّهَ بِذَاتِهِ فَوْقَ الْعَالَمِ وَهُوَ بِذَاتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَهَذَا قَوْلُ طَوَائِفَ مِنْ اَهْلِ الْكَلَامِ وَالتَّصَوُّف كَأَبِي مُعَاذ وَأَمْثَالِهِ وَقَدْ ذَكَرَ الْأَشْعَرِيُّ فِي الْمَقَالَاتِ هَذَا عَنْ طَوَائِفَ وَيُوجَدُ فِي كَلَام- اسلمية- كَأَبِي طَالِبِ الْمَكِّيِّ وَأَتْبَاعِهِ: كَأَبِي الْحَكَم بْنِ برجان وَأَمْثَالِهِ- مَا يُشِيرُ إلَى نَحْوِ مَنْ هَذَا كَمَا يُوجَدُ فِي كَلَامِهِمْ مَا يُنَاقِضُ هَذَا[(١)].

ثالثا: إثبات العرش للّه عز وجلّ[(٢)]:

١ - الكتاب:

قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٤- ١٦]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٦- ٨٧].

٢ - السنّة:

أ - عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إله إلا اللّه العظيم

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ١٩٧- ٢٩٩).

(٢) وسيأتي مزيد بحث في القضية السادسة ص ٦٠ .

الحليم، لا إله إلا اللّه رب العرش العظيم، لا إله إلا اللّه رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم»(١).

ب - وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال وجنازة سعد موضوعة: «اهتزّ لها عرشُ الرحمن»(٢).

ج - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من آمن باللّه ورسوله وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان، كان حقا على اللّه أن يدخله الجنة. . . إن الجنة مائة درجة أعدها اللّه للمجاهدين في سبيله، كل درجتين بينهما كما بين السماء والأرض فإذا سألتم اللّه فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، وفيه تُفجّر أنهار الجنة»(٣).

رابعا: إثبات الاستواء للّه تعالى

والاستواء يأتي في اللغة على معاني ثلاثة:

١ - **مطلق**: ومعناه الكمال والتمام والاعتدال: «استوى الرجل» إذا بلغ أشده، كقوله تعالى: عن موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤].

وكقوله تعالى: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

٢ - مُعدّى:

أ - إذا عُدِّي بـ (على) معناه الاستقرار والعلو

قال الأخفش: «استوى أي: علا، تقول: استويتُ فوق الدابة وعلى ظهر البيت أي

(١) متفق عليه.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه البخاري.



علوته، واستوى على ظهر الدابة أي استقر»[١].

وقال داود بن علي الأصبهاني: كنت عند (ابن الأعرابي)[٢] فأتاه رجل فقال: «ما معنى قول اللَّه عز وجل: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾؟» فقال ابن الأعرابي: «هو على عرشه كما أخبر» ؛ فقال: «يا أبا عبد اللَّه إنما معناه استولى»، فقال ابن الأعرابي: «ما يدريك؟ العرب لا تقول استولى على الشيء حتى يكون له مضاد فأيهما غلب فقد استولى أما سمعت قول النابغة:

إلا لمثلك أو من أنت سابقه سبق الجواد إذا استولى على الأمد»[٣]

ب - إذا عُدِّي بـ (إلى) معناه ارتفع وصعد:

قال الخليل بن أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: أتيتُ أبا ربيعة الأعرابي وكان مِن أَعلَم مَنْ رأيتُ وكان على سطح، فلما رأيناه أشرنا إليه بالسلام فقال: «استووا»، فلم ندر ما قال، فقال لنا شيخ عنده يقول لكم: «ارتفعوا»، قال الخليل: هذا من قوله

تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾ [فصلت: ١١][٤].

وقال الفَراء: وقد قال ابن عباس في: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ صعد[٥]، وذهب إليه الإمام الطبري في تفسيره.

وذهب بعض أهل التفسير إلى أن معناه (القصد والإقبال)، كما قال ابن كثير في قوله

---

(١) لسان العرب ١٤/ ٤١٤

(٢) ابن الأعرابي: إمام اللغة أبو عبداللَّه، محمد بن زياد بن الأعرابي الهاشمي، ولد بالكوفة سنة خمسين ومائة، قال ثعلب: لزمت ابن الأعرابي تسع عشرة سنة، وكان يحضر مجلسه زهاء مائة إنسان، وما رأيت بيده كتابا قط انتهى إليه علم اللغة، والحفظ. قال الأزهري: ابن الأعرابي صالح زاهد ورع صدوق، حفظ ما لم يحفظه غيره.

(٣) لسان العرب ١٤/ ٤١٤ .

(٤) مختصر العلو ١٧١ .

(٥) قال الألباني: وإسناده إلى الفراء لا بأس به (مختصر العلو ١٦٧) وانظر لسان العرب ١٤/ ٤١٤، الطبري ١/ ١٩٥ .



تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]، أي قصد إلى السماء. والاستواء ههنا متضمن معنى القصد والإقبال، لأنه عُدّي بإلى[١]، ورجحه كذلك العلامة عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢].

٣ - مقروناً با(لواو) معناها المساواة والمماثلة:

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦].

ويقال استوى الماء والخشبة، أي مع الخشبة و(الواو) بمعنى (مع) هنا[٣].

الخلاصة: إن لفظ استوى في اللغة إذا عُدّي بـ (على) لا يمكن أن يُفهم منه إلا العلو والارتفاع والاستقرار والصعود كما ذكرها ابن القيم في النونية:

فلهم عبارات عليها أربع ... قد حصلت للفارس الطّعانِ
وهي استقر وقد علا وكذلك ... ارتفع الذي ما فيه من نُكرانِ
وكذلك قد صعد الذي هو رابع ... وأبو عبيدة صاحب الشيباني
يختار هذا القول في تفسيره ... أدرى من الجهمي بالقرآنِ[٤]

أدلة استواء الله على العرش[٥]:

١ - الكتاب:

قال تعالى﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/١٠٢ .
(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/٤٠ طبعة جمعية إحياء التراث.
(٣) لسان العرب ١٤/٤١٠ .
(٤) النونية لابن القيم.
(٥) انظر بحث العرش في القضية السادسة ص ٦١ .

﴿ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: ٣]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤].

٢ - السنة:

أ - عن قتادةَ بن النعمان رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لما فَرَغَ اللّه مُن خلقه استوى على عرشه»[١].

٣ - آثار السلف:

أ - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «العرش فوق الماء، واللّه فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم»[٢].

ب - وعن أبي مطيع الحكم بن عبد اللّه البلخي صاحب (الفقه الأكبر) قال: سألتُ أبا حنيفة رحمه الله عمّن يقول: «لا أعرف ربي في السماء أو في الأرض!»، فقال: «قد كفر، لأن اللّه تعالى يقول: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ وعرشه فوق سماواته»، فقلت: «إنه يقول: «أقول على العرش استوى»، ولكن قال: لا يدري العرش في السماء أو في الأرض» قال: إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر»[٣].

ج - وعن علي بن الحسين بن شقيق رحمه الله قال: قلت لعبد اللّه بن المبارك رحمه الله:

(١) رواه أبو بكر الخلال في كتاب السنة لابن أبي عاصم ،وقال شيخنا الألباني رواته ثقات.
(٢) رواه عبد اللّه بن أحمد بن حنبل في كتاب السنة وأبو القاسم الطبراني وأبو القاسم اللالكاني قال الألباني إسناده صحيح (مختصر العلو ١٠٣) .
(٣) رواهما صاحب الفاروق (مختصر العلو ١٣٦) والطحاوية ٣٢٣ .

«كيف نعرف ربنا عزّ وجل؟» قال: «في السماء السابعة على عرشه، ولا نقول كما تقول الجهمية: إنه هنا في الأرض».

فقيل هذا لأحمد بن حنبل، فقال: «هكذا هو عندنا»(١). وفي رواية اسحاق بن راهويه زيادة (بائن من خلقه)(٢).

د - وعن سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «كنت عند ربيعة بن أبي عبد الرحمن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فسأله رجل فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟»

فقال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، ومِن اللّه الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق»(٣).

ويروى كذلك هذا القول عن الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

هـ - وعن الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقد قيل له: «اللّه فوق السماء السابعة، على عرشه، بائن من خلقه، وقدرته وعلمه بكل مكان؟

قال: نعم وهو على عرشه ولا يخلو شيء من علمه»(٤).

* * *

---

(١) مختصر العلو للألباني ١٥١ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) قال شيخنا الألباني أخرجه اللالكاني في السنة والإمام الذهبي في مختصر العلو للعلى الغفار ١٣٢ وقال ابن تيمية في الحموية ٨ رواه الخلال بإسناد كلهم أئمة ثقات.

(٤) ومثله يروى عن اسحق بن راهويه (مختصر العلو ١٨٩، ١٩١).

القضية الثالثة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«. . . أنه سبحانه وتعالى الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، وأن صفاته كلَّها كَمَا هي أبدية، فهي كذلك أزلية، ليس لأوليته ابتداء، ولا لآخريته انتهاء».

الشرح: (الأول، والآخر):

اللَّه عز وجل الأول لأنه كان قبل الأشياء كلها فهو الأول الذي لم يتقدمه شيء، وهو الآخر لأنه الباقي بعد فناء(1).

وقال الفرّاء: هو (الأول): قبل كل شيء، و (الآخر): بعد كل شيء

١ - الكتاب:

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

٢ - السنة:

أ - قال رسول اللَّه ﷺ: «اللّهم ربَّ السموات السبع ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء فالق الحَبِّ والنوى منزل التوراة والإنجيل والقرآن أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء»(2).

ب - وعن عمران بن الحصين رضي الله عنهما قال: «دخلت على النبي ﷺ وعقلت ناقتي بالباب، فأتاه ناس من بني تميم»، فقال: «اقبلوا البشرى يا بني تميم»، قالوا: «قد بَشَّرْتنا فأعطنا» - مرتين - ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذا لم تقبلها بنو تميم» قالوا: «قبلنا يا رسول اللَّه» قالوا: «جئناك نسألك عن أول هذا الأمر»، قال: «كان اللَّه ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على

---

(١) اشتقاق أسماء اللَّه ٢٠٤ لأبي القاسم الزجاج.
(٢) رواه مسلم من حديث أبي هريرة.



الماء وكتب في الذِّكر كل شيء وخلق السموات والأرض»[١].

ج - كان رسول اللّه ﷺ يأمرنا إذا أخذنا مضجعنا أن نقول: «اللّهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء»[٢].

الأول المُبدي بلا ابتداءِ والآخر الباقي بلا انتهاءِ

قوله: (الظاهر والباطن):

ش: الباطن: اسم الفاعل من بطن، وهو باطن إذا كان غير ظاهر.

الظاهر: خلاف الباطن فاللّه ظاهر باطن، وهو باطن لأنه غير مُشاهد كما تشاهد الأشياء المخلوقة (عزّ عن ذلك وعلا) وهو ظاهر بالدلائل الدالة عليه وأفعاله المؤدية إلى العلم به ومعرفته فهو ظاهر مدرك بالعقول والدلائل، وباطن غير مشاهد كسائر الأشياء المشاهدة في الدنيا- عز وجل عن ذلك وتعالى علوا كبيرا -.

ويجوز في اللغة أن يكون الباطن: العالِم بما بطن، أي خفي كقولك: بطن فلان بفلان: أي خفي به فعرف باطن أمره، وهؤلاء بطانة فلان: أي خاصته.

ويجوز أيضا أن يكون الظاهر: القوي كقولك: «ظهر فلان بأمره فهو ظاهر عليه» أي قوي عليه[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اللّهم ربّ السموات السبع ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقضِ عني الدين واغنني من الفقر»[٤].

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) اشتقاق أسماء اللّه الحسنى ١٣٧ .
(٤) رواه مسلم.



قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى، في أثناء كلامه على هذه الأسماء الأربعة وهي الأول والآخر والظاهر والباطن:

«هي أركان العلم والمعرفة، فحقيق بالعبد أن يبلغ في معرفتها إلى حيث ينتهي به قواه وفهمه، واعلم أن لك أنت أَوَّلا وآخراً وظاهرا وباطنا، بل كل شيء فله أول وآخر وظاهر وباطن، حتى الخطرة واللحظة والنفس وأدنى من ذلك وأكثر، فأولية اللَّه عز وجل سابقة على أولية كل ما سواه وآخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه، فأوليته سابقة لكل شيء، وآخريته بقاؤه بعد كل شيء وظاهريته سبحانه: فَوْقِيتُه وعلوه على كل شيء، ومعنى الظهور يقتضي العلو، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه، وبطونه سبحانه أحاطته بكل شيء بحيث يكون أقرب إليه من نفسه، وهذا القرب غير قرب المُحب من حبيبه، هذا لون، وهذا لون فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة وهي إحاطتان زمانية ومكانية. . . فلا توارى منه سماءٌ سماءً ولا أرضٌ أرضاً ولا يحجب عنه ظاهرٌ

باطناً بل الباطن له ظاهر والغيب عنده شهادة والبعيد منه قريب، والسر عنده علانية، فهذه الأسماء الأربعة تشمل على أركان التوحيد[1].

قوله (أَزَلِيَة):

ش: وأن صفاته كلها كما هي أبدية فهي كذلك أزلية.

فاللَّهُ أزلي بذاته وأسمائه وصفاته، الذي لا ابتداء لأوليته، ولا انتهاء لآخريته، وليس شيء في أسمائه وصفاته متجددا حادثا لم يكن قبل ذلك، كذلك له كمال الربوبية ولا مربوب واسم الخالق ولا مخلوق وهو العليم قبل إيجاده المعلومات، والسميع قبل إيجاده المسموعات، والبصير قبل إيجاده المبصرات، وكذلك سائر أسمائه وصفاته أزلية بأزلية ذاته باقية ببقاء ذاته،لم يزل متصفا بها في أوليته، وكذلك لم يزل متصفا

---

(١) معارج القبول ١/ ٧٩ .



بها في سرمديته ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق، ولا بإحداثه البرية استفاد اسم الباري، . . . . . . وكذلك وَصَف نفسَه تبارك وتعالى فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ و﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ و﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ إلى غير ذلك. قال ابن عباس: أي لم يزل كذلك[١].

* * *

---

(١) معارك القبول ١/ ٨٥ .

القضية الرابعة: قال المُصنِّف حفظه اللَّه:

«. . . . . أن ذاته سبحانه وتعالى لا تشبه شيئا من مخلوقاته﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وأنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد».

قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

الشرح: اتفق أهل السنة على أن اللَّه ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله ف﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ رَدٌّ على الممثلة المُشبهة ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ رد على النفاة المعطِّلة.

فَمَن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوق فهو المُشبه المبطل المذموم، ومن جعل صفات المخلوق مثل صفات الخالق فهو نظير النصارى في كفرهم(١).

وهاتان الصفتان من صفات ذاته تعالى، وهما متضمنتان اسميه (السميع والبصير)

يقول جل ثناؤه واصفا نفسه بما هو به، وهو يعني نفسه السميع لما تنطق به خلقه من قول، البصير لأعمالهم لا يخفى عليه من ذلك شيء ولا يعزب عنه علم شيء منه، وهو محيط بجميعه مُحصي صغيره وكبيره(٢).

وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ [الكهف: ٢٦].

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: وذلك في معنى المبالغة في المدح كأنه قيل ما أبصره

---

(١) الطحاوية ٩٩ .

(٢) جامع البيان ٢٥/١٣ للطبري.



وأسمعه، وتأويل الكلام ما أبصر اللّه لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع لا يخفى عليه من ذلك شيء وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٨- ٢٢٠].

وقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «الحمد للّه الذي وَسِع سمعُه الأصوات، لقد جاءت المجادِلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل اللّه عز وجل: قد سمع اللّه قول التي تجادلك. . . الآية. . . الحديث»[١][٢].

قال ابن القيم:

وهو السميع يرى ويسمع كل ما ... في الكون من سرٍّ ومن إعلانِ

ولكل صوت منه سمعٌ حاضرٌ ... فالسرُّ والإعلان مستويانِ

والسمع منه واسع الأصوات لا ... يخفى عليه بعيدها والداني

وهو البصير يرى دبيب النملة السـ ... ـوداء تحت الصخر والصوّانِ

ويرى مجاري القوت في أعضائها ... ويرى نياط عروقها بعيانِ

ويرى خيانات العيون بلحظها ... ويرى كذاك تقلب الأجفانِ

(١) رواه البخاري تعليقا في كتاب التوحيد من صحيحه والنسائي وابن ماجة وابن جرير.
(٢) معارج القبول ١/ ١٦٠ (بتصرف).

قوله: (الواحد)

ش:

أ - الفرد الذي لا ثاني له من العدد كقولك - إذا قصدت العدد - الواحد والثاني والثالث والرابع والخامس، وما أشبه ذلك فاللّه عز وجل الواحد الأول، الأحد الذي لا ثاني له ولا شريك ولا مثيل ولا نظير، لم يسبقه في أوليته شيء (عز وجل عما يقول الظالمون علوا كبيرا).

ب - الواحد أيضا: الذي لا نظير له ولا مثل، كقولهم: فلان واحدُ قومِه في الشرف أو الكرم أو الشجاعة[١].

الكتاب:

١- قال تعالى حاكيا عن يوسف عليه السلام: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

٢- قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥].

٣- قال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

قوله: (الأحد الفرد)

ش: قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص].

وهو الذي لا ضدّ له، ولا ندّ له، ولا شريك له في ألوهيته وربوبيته، ولا متصرف معه في ذرة من ملكوته ولا شبيه له، ولا نظير له في شيء من أسمائه

وصفاته فهو أحد في إلهيته لا معبود بحق سواه، ولا يستحق العبادة إلا هو، ولذا قضى ألا نعبد إلا إياه، وهو أحد في ربوبيته فلا شريك له في ملكه ولا مضاد ولا منازع

(١) اشتقاق أسماء اللّه الحسنى للزجاج ٩٠-٩١ .



ولا مغالب، أحد في ذاته وأسمائه وصفاته فلا شبيه له ولا مثيل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾. فكما أنه الأحد الفرد الصمد في ذاته وإلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته فهو المتفرد في ملكوته بأنواع التصرفات(١).

وفيه إشارة لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يعني هو الواحد الأحد الذي لا نظير له، ولا، وزير، ولا نديد، ولا شبيه، ولا عديل، ولا يُطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على اللّه عز وجل لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله(٢).

قوله: (الصَّمَدُ)

ش: والصَّمَدُ في اللغة:

١ - السيد: المطاع الذي قد انتهى سؤدده فالناس يصمدونه في حوائجهم أي يقصدونه ويعتمدونه(٣). ٢- الذي لا جوف له.

٣- الذي لا يَطْعم الطعام. ٤- الصَمْدُ: المكان المرتفع الغليظ من الأرض(٤).

وأجمع أهل اللغة أن الصمد عند العرب السيد - المعنى الأول - ومثله عن ابن عباس وأبو وائل وابن مسعود وزيد بن أسلم(٥).

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هو السيد الذي قد كَمُل في سؤدده والشريف الذي قد كَمُل في شرفه، والعظيم الذي قد كَمُل في عظمته والحليم الذي قد كَمُل في حلمه، والعليم الذي قد كَمُل في علمه، والحكيم الذي قد كَمُل في حكمته، وهو الذي

---

(١) معارج القبول ١/ ٨١.
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٦٠٧.
(٣) اشتقاق أسماء اللّه ٢٥٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٦٠٧ ويُروى القول الثاني عن ابن مسعود وابن عباس وابن المسيب وغيرهم وهو ضعيف كما قال الألباني في كتاب السنة لابن أبي عاصم وصحيح عن مجاهد مقطوع (الألباني المصدر السابق ١/ ٣٠٠).
(٥) الصحاح ٢/ ٤٩٩، واللسان (٤/ ٢٤٩٥ - ٢٤٩٦).

قد كَمُل في أنواع الشرف والسؤدد وهو اللَّه سبحانه، هذه صفته لا تنبغي إلا له. وقال الحسن وقتادة: هو الباقي بعد خلقه[١].

وروده في القرآن الكريم: ورد مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص].

معنى الصَّمَدُ في حق اللَّه تعالى:

المعنى الأول: هو الذي ليس بأجوف ولا يأكل ولا يشرب (قال ابن جرير).

المعنى الثاني: هو الذي لا يحرج منه شيء (قاله ابن جرير).

المعنى الثالث: هو الذي لم يلد ولم يولد (قاله ابن جرير).

المعنى الرابع: هو السيد الذي قد انتهى سؤدده (قاله أبو وائل).

المعنى الخامس: بل هو الباقي الذي لا يفنى (قاله الحسن وقتادة).

المعنى السادس: هو السيد الذي يُصمد إليه الخلائق في حوائجهم (قاله ابن عباس).

وقال الزّجّاج: والأصح: أنه السيد المصمود إليه في الحوائج[٢].

قال ابن القيم في نونيته:

وهو الإله السّيدُ الصَّمد الذي ... صَمَدَتْ إليه الخلقُ بالإذْعَان

الكاملُ الأوصافِ كَماله ما فيه ... من كلِّ الوُجُود من نُقْصان

* * *

(١) معارج القبول ١/ ٨٥ وسنده صحيح مقطوع (الألباني كتاب السنة/ ٣٠١).

(٢) انظر النهج الأسمى في شرح أسماء اللَّه الحسنى للشيخ/ محمد حمود النجدي ٥٢٥ - ٥٢٨ (باختصار).



القضية الخامسة: قال المُصَنِّف حفظه اللّه:

«........ أنه سبحانه وتعالى لا يحِلُّ في شيء من مخلوقاته ولا يُحَلُّ فيه شيء من مخلوقاته، وأن كل ما سواه فمخلوق بأمره خاضع لمشيئته»

قوله: (لا يحِل في شيء من مخلوقاته):

الشرح: إن عقيدة (الحلول): من العقائد التي تخالف المعتقدات الإسلامية والتي كانت موجودة في الديانات الهندية والنصرانية وغيرهما من الديانات المنحرفة وتبعهم في هذه العقيدة بعض الفرق والطوائف المنسوبة إلى الإسلام كبعض المنسوبين إلى التصوف.

ويقصد الصوفية بالحلول: إن روح اللّه سبحانه وتعالى حلّت في بعض الأجسام التي اصطفاها واختارها، فانقلبت هذه الأجسام البشرية إلى آلهة تسير على الأرض، وتعيش بين الناس وكان (الحلاج) من أشهر المتصوفة القائلين بهذا القول وقد شرح عقيدة الحلول بقوله:

«من هذّب نفسه في الطاعة وصبر على اللذات والشهوات ارتقى إلى مقام المقربين، ثم لا يزال يصفو ويرتقي في درجات المصافاة حتى يصفو عن البشرية، فإذا لم يبق فيه من البشرية حظ، حلّ فيه روح الإله الذي حل في عيسى بن مريم، ولم يرد حينئذ شيئا إلا كان كما أراد وكان جميع فعله فعل اللّه تعالى»[١] (تعالى اللّه عن ذلك علواً كبيراً).

لهذا لما بدأ القول بالحلول وجعل المتصوفة غايتهم من التصوف أن يتشبهوا

بصفات اللّه في زعمهم فيكون أحدهم إلها يعلم كل شيء ويتصرف في كل شيء، فإن هذا الحال استمر بهم حتى وصلوا في النهاية إلى القول بوحدة الوجود، وأن كل شيء إنما هو اللّه، وأن اللّه هو الذي في الكون وحده، وليس هناك شيء آخر معه[٢].

---

(١)التصوف بين الحق والخلق ٦١ لمحمد فهر شقفة نقلا عن دائرة المعارف القرن العشرين ١٠/ ٣٥٤ .

(٢) الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة ص ٦٩ للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق حفظه اللّه [لمزيد من الفائدة يراجع هذا الكتاب].

ويروى أن (أبا يزيد البسطامي) دخل مدينة فتبعه منها خلق كثير فالتفت إليهم فقال: «إني أنا اللّه لا إله إلا أنا فاعبدون».

فقال الناس: جُنَّ أبو يزيد، وتركوه[١].

ويقول عبد الكريم الجيلي:

إذا تجلى اللّه تعالى على عَبْدٍ من عبيده في اسم من أسمائه استظل العبد تحت أنوار ذلك الاسم فمتى ناديت الحق بذلك الاسم أجابك العبد لوقوع ذلك الاسم عليه. فإن ارتقى وقوّاه اللّه وأبقاه بعد فنائه كان اللّه مجيبا لمن دعا هذا العبد. فإن قلت مثلا يا محمد!، أجابك اللّه: «لبيك وسعديك» ثم إذا قوي العبد في الترقي تجلى الحق له في اسمه الرحمن ثم في اسمه الرب ثم في اسمه الملك[٢].

وقال عبد الغني النابلسي:

أطوفُ على ذاتي بِكاسات خمرتي ... واستّمع الألحان في حال حضرتي
وانفخ مزماري وأصغي لصوته ... وأضرب دفّي حين ترقص قَينتي
أحنّ إلى ذاتي صباحا وفي المساء ... وغاية قصدي في العوالِم رؤيتي
وما أنا إلا مَن أحب وإن مَن ... أحبُ أنا من غير شك وشُبهةِ
وقد كنتُ عرشي واستويتُ عليه من ... قديم زماني في الوجود برحمتي
وأسجدتُ أملاكي بأمري لمظهري ... فكان سجودي لي وآدم قبلتي[٣]

(١) تلبيس إبليس ص ٢٤٥ .
(٢) التصوف بين الحق والخلق ٦٢ نقلا عن الإنسان الكامل ص ٣٨ .
(٣) المصدر السابق ص ٦٧ نقلا عن دائرة معارف القرن العشرين ١٠/ ٩٨٢، ٦٩٣ .

وقال (ابن عربي):

فلولاه لما كنا ولا نحن ما كانا
فإن قلنا بأنا هو يكون الحق إيانا
فيظهرنا ليظهر هو سرارا ثم إعلانا(١)

(تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا).

فإذا كان الله قد كفّر من قال (إن الله ثالث ثلاثة) فكيف هؤلاء الذين يقولون إن الله كل شيء؟ (والعياذ بالله).

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨- ٩٥].

(الحلولية) و (الاتحادية):

قال ابن تيمية رحمه الله: هم صنفان:

قوم يخصونه - أي الله سبحانه وتعالى - (عياذا بالله) بالحلول أو الاتحاد في بعض الأشياء كما يقوله النصارى في المسيح عليه السلام والغالية في علي رضي الله عنه وقوم في أنواع من المشايخ وقوم في بعض الملوك، وقوم في بعض الصور الجميلة إلى غير ذلك من الأقوال التي هي شرٌّ من مقالة النصارى.

وَصِنْف يعمون فيقولون بحلوله أو اتحاده في جميع الموجودات- حتى الكلاب

---

(١) المصدر السابق ص ٦٨ نقلا عن الفتوحات المكية ص ٥٩ .

والخنازير والنجاسات وغيرها- كما يقول ذلك قوم من الجهمية ومَنْ تبعهم من الاتحادية: كأصحاب ابن عربي وابن سبعين وابن الفارض والتلمساني والبلياني وغيرهم.

ومذهبُ جميع المرسلين ومَن تبعهم من المؤمنين وأهل الكتب أن اللَّه سبحانه خالق العالمين ورب السموات والأرض وما بينهما، ورب العرش العظيم والخلق جميعهم عباده وهم فقراء إليه.

وهو سبحانه فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه، ومع هذا فهو معهم أينما كانوا كما قال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

فهؤلاء (الضَّلال الكفار) الذين يزعم أحدُهم أنه يرى ربه بعينيه وربما زعم أنه جالسه وحادثه أو ضاجعه! وربما يعيِّن أحدهم آدميا إما شخصا أو صبيا أو غير ذلك، ويزعم أنه كلمهم، يستتابون فإن تابوا وإلا ضربت أعناقهم، وكانوا كفارا إذ هم أَكْفَرُ من اليهود والنصارى الذين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ فإن المسيح رسول اللَّه كريم وجيه عند اللَّه في الدنيا والآخرة ومن المقربين، فإذا كان الذين قالوا: إنه هو اللَّه وأنه اتحد به، أو حلّ فيه، قد كفّرهم وعَظَّم كُفرَهم، بل الذين قالوا إنه اتخذ ولدا حتى قال:

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٨٨- ٩٣].

فكيف بمن يزعم في شخص من الأشخاص أنه هو؟

هذا أَكْفَرُ من الغالية الذين يزعمون أن علياً رضي الله عنه أو غيرَه من أهل البيت هو اللَّه.

وهؤلاء هم «الزنادقة» الذين حرّقهم علي رضي الله عنه بالنار وأمر بأخاديدَ خُدَّت لهم عند



باب (كِندة) وقذفهم فيها بعد أن أجّلهم ثلاثا ليتوبوا، فلما لم يتوبوا أحرقهم بالنار، واتفقت الصحابة رضي الله عنهم على قتلهم، لكن ابنَ عباس رضي الله عنهما كان مذهبه أن يُقتلوا بالسيف بلا تحريق، وهو قول أكثر العلماء وقصتهم معروفة عند العلماء(١).

قوله: (وأن كل ما سواه فمخلوق بأمره)

ش: سواء كان هذا نبي مرسل أو مَلَكٌ مُقرب فما سوى اللَّه فهو مخلوق مربوب، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

وهذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية أي أوجِدوا من غير موجد؟

أم هم أَوجَدوا أنفسهم: أي لا هذا ولا ذاك بل اللَّه هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا(٢).

وقال تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود:٥٦] أي تحت قهره وسلطانه وهو الحاكم العادل الذي لا يجور في حكمه فإنه على صراط مستقيم(٣).

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

قوله: (خاضع لمشيئته)

ش: قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨- ٢٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن

(١) مجموع الفتاوى ٣/٣٩١- ٣٩٣ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/٣١١ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ٢/٥٩١ .

يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ١٩- ٢٠].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلا قال للنبي ﷺ: «ما شاء اللَّه وشئت» فقال: «أَجعلتني للَّه ندا؟ قل ما شاء اللَّه وحده»[١].

فالعبد وإن كانت له مشيئة فمشيئته تابعة لمشيئة اللَّه، ولا قدرةَ له على أن يشاء شيئا إلا إذا كان اللَّه قد شاءه[٢].

* * *

(١) رواه أبو داود والنسائي في السنن الكبرى وابن السني وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ١٣٩.

(٢) فتح المجيد ٣٧٠ وسيأتي تفصيل هذه المسألة في باب الإيمان بالقضاء فقرة ٦٥ إن شاء اللَّه تعالى.

توحيد الصفات

القضية السادسة: قال المصنف حفظه اللَّه:

«أنه سبحانه الحي القيوم بذاته، المقيم لكل ما سواه، فالعرش والكرسي والسماوات والأرض وكل ما فيهما لا قيام لشيء من ذلك إلا به، ولا بقاء لعرش ولا كرسي، ولا سماء، ولا أرض ولا ملائكة ولا جن ولا إنس إلا بإقامة اللَّه لهم ورعايته وحفظه. . . فكل شيء مفتقر إليه ولا يفتقر هو إلى شيء جلّ وعلا».

الشرح: توحيد الصفات:

هو إفراد اللَّه تعالى بأسمائه وصفاته وذلك بإثبات ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، ويسمى كذلك التوحيد في الإثبات والمعرفة، فبعض أهل العلم يجعل توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات قسما واحدا وتوحيد الألوهية قسما ثانيا.

فتوحيد الإثبات:

هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه، فاللَّه ليس كمثله شيء في ذلك كله، كما أخبر به عن نفسه، وكما أخبر رسول اللَّه ﷺ.

وغالب سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد بل كل سورة في القرآن؛ فالقرآن إما خبر عن اللَّه وأسمائه وصفاته وهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي(١).

---

(١) شرح الطحاوية ٨٨ .



قواعد في أدلة الأسماء والصفات[١]:

القاعدة الأولى: أسماء اللَّه وصفاته لا تثبت بغير الكتاب والسنة

القاعدة الثانية: الواجب في نصوص القرآن والسنة إجراؤها على ظاهرها دون تحريف لا سّيما نصوص الصفات.

القاعدة الثالثة: ظواهر نصوص الصفات معلومة لنا باعتبار المعني ومجهولة لنا باعتبار الكيفية[٢]:

أ- أما كونُها معلومةً لنا من جهة المعنى لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

والتدبر لا يكون إلا فيما يمكن الوصول إلى فهمه ليتذكر الإنسان بما فهمه منه، وكون القرآن بلسان عربي لِيَعقلَه مَنْ يفهم العربية، يدل على أن معناه معلوم وإلا لما كان هنا فرق بين أن يكون باللغة العربية أو غيرها.

ب - وأما كون ما أخبرَنا به عن نفسه مجهولا لنا من جهة الكيفية لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

فإنّ نَفْيَ الإحاطة باللَّه عِلْماً، شامل للإحاطة بذاته وصفاته فلا يعلم حقيقة ذاته وكُنهَها إلا هو سبحانه وتعالى.

---

(١) بحث قواعد الأسماء والصفات هو اختصار مبسّط لكتاب القواعد المثلى في أسماء اللَّه وصفاته الحُسنى لشيخنا العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ، أحببت أن أضعها بين يدي القارىء حتى يسهل عليه فهم الأسماء والصفات خاصة في الفقرات التالية.

(٢) وعُلم بهذا بطلان مذهب المفوضة الذين يفوضون علم معاني نصوص الصفات، ويدّعون أن هذا مذهب السلف والسلف بريئون من هذا المذهب، وتواترت الأقوال عنهم بإثبات المعاني لهذه النصوص إجمالا أحيانا وتفصيلا أحيانا أخرى وتفويضهم الكيفية إلى علم اللَّه عز وجل (القواعد المثلى ٣٥).



القاعدة الرابعة: ظاهر النصوص ما يتبادر منها إلى الذهن من المعاني وهو يختلف بحسب السياق وما يضاف إليه الكلام، فالكلمة الواحدة يكون لها معنى في سياق ومعنى آخر في سياق، وتركيب الكلام يفيد معنى على وجه، ومعنى آخر على وجه.

فلفظ (القرية) مثلا يراد به القوم تارة، ومساكن القوم تارة أخرى:

فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٥٨].

ومن الثاني قوله تعالى عن الملائكة ضيف إبراهيم: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١].

وتقول: (صنعتُ هذا بيدي) فلا تكون اليد كاليد في قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

لأن اليد في المثال أضيفت إلى المخلوق فتكون مناسبة له، وفي الآية أضيفت إلى الخالق فتكون لائقة به، فلا أحد سليم الفطرة صريح العقل يعتقد أن يد الخالق كيد المخلوق أو بالعكس(١).

قواعد في أسماء اللّه تعالى

١ - أسماء اللّه تعالى كلها حسنى:

أي بالغة في الحسن غايته، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

٢ - أسماء اللّه تعالى أعلام وأوصاف:

أعلام باعتبار دلالتها على الذات، وأوصاف باعتبار ما دلّت عليه من المعاني وهي بالاعتبار الأول مترادفة لدلالتها على مسمى واحد وهو اللّه عز وجل وبالاعتبار الثاني متباينة لدلالة كل واحد منهما على معناه الخاص: فالحي العليم القدير السميع البصير

---

(١) وقد ذكر ابن تيمية هذه بالقاعدة الثالثة بالرسالة التدمرية.

الرحمن الرحيم العزيز الحكيم كلها أسماء لمسمى واحد هو اللَّه سبحانه وتعالى لكن معنى الحي غير معنى العليم ومعنى العليم غير معنى القدير وهكذا.

٣ - أسماء اللَّه تعالى إن دلّت على وصف متعدٍ[١] تضمنت ثلاثة أمور:

أحدها: ثبوتُ ذلك الاسم للَّه عزّ وجل.

الثاني: ثبوت الصفة التي تضمنتها للَّه عزّ وجل.

الثالث: ثبوت حكمها ومقتضاها.

- مثال ذلك: (السميع) يتضمن إثبات (السميع) اسما للَّه تعالى وإثبات (السمع) صفة له وإثبات حكم ذلك ومقتضاه وهو أنه يسمع السِّر والنجوى كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

وإن دلّت على وصف غير متعدّ تضمنت أمرين:

أحدها: ثبوت ذلك الاسم للَّه عز وجل

الثاني: ثبوت الصفة التي تضمنتها للَّه عز وجل.

مثال ذلك: (الحي) يتضمن إثبات (الحي) اسما للَّه عز وجل، وإثبات الحياة صفة له.

٤ - دلالة أسماء اللَّه تعالى على ذاته وصفاته تكون بالمطابقة وبالتضمن وبالالتزام[٢].

مثال ذلك: (الخالق) يدل على ذات اللَّه وعلى صفة الخلق بالمطابقة ويدل على الذات وحدها، وعلى صفة الخلق وحدها بالتضمن، ويدل على صفة العلم والقدرة بالالتزام، ولهذا لما ذكر اللَّه خلق السموات والأرض قال: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

---

(١) هو ما يتعدى لمفعول.

(٢) ذكرها الحافظ الحكمي في معارج القبول ١/ ٦٦.

٥ - أسماء اللّه تعالى توقيفية:

أي لا مجال للعقل فيها وعلى هذا فيجب الوقوف فيها على ما جاء به الكتاب والسنة فلا يزاد فيها ولا ينقص لأن العقل لا يمكنه إدراك ما يستحقه تعالى

من الأسماء فوجب الوقوف في ذلك على النص لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

لكنها في الحق توقيفية لنا بذا أدلة وفيه

٦ - أسماء الله تعالى غير محصورة بعدد معين(١)

لقوله ﷺ: «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك»(٢).

وما استأثر اللّه تعالى به في علم الغيب لا يمكن أحد حصره ولا الإحاطة به.

فأما قوله ﷺ: «إن للّه تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة»(٣) فلا يدل على حصر الأسماء بهذا العدد ولو كانت (الواو) للحصر لكانت العبارة: «إن أسماء اللّه تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة»(٤).

٧ - الإلحاد في أسماء اللّه تعالى هو الميل بها عمّا يجب فيها، وهو أنواع:

الأول: أن ينكر شيئا منها، أو مما دلت عليه من الصفات والأحكام كما فعل أهل التعطيل.

---

(١) ذكر هذه القاعدة كذلك الشيخ حافظ بن أحمد حكمي في معارج القبول ١/ ٦٣.

(٢) رواه احمد وابن حبان والحاكم وصححه الألباني الصحيحة ١/ ١٩٩.

(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة.

(٤) ولم يصح عن النبي ﷺ تعيين هذه الأسماء والحديث المروي عنه في تعيينها ضعيف انظر كلام الشيخ ابن عثيمين رحمه الله ص ١٤ القواعد (وكذلك ضعيف الجامع) ولقد قيل في إحصائها: (أ) أحصى ألفاظها وعددها. (ب) فهم معانيها ومدلولها. (ج) دعاؤه بها سواء دعاء ثناء وعبادة أو دعاء طلب ومساءلة (لوامع الأنوار ١٢٧).



الثاني: أن يجعلها دالة على صفات تشابه صفات المخلوقين كما فعل أهل التشبيه (التمثيل) .

الثالث: أن يسمى اللّه تعالى بما لم يسمّ به نفسه كتسمية النصارى له (الأب) وتسمية الفلاسفة إياه (العلة الفاعلة) .

الرابع: أن يشتق من أسمائه أسماءً للأصنام كما فعل المشركون في اشتقاق العزّى من العزيز واشتقاق اللات من اللّه.

والإلحاد بجميع أنواعه محرَّم لأن اللّه تعالى هدد الملحدين بقوله: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَـٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨].

٨ - **وجوب الإيمان بما أخبر به اللّه ورسوله** سواء عُرف معناه أم لم يُعرف

وذلك لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَـٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَـٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾ [النساء: ١٣٦].

ولأن خبر اللّه صادر عن علم تام فهو أعلم بنفسه وبغيره كما قال تعالى: ﴿قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ١٤٠].

وهكذا خبر النبي ﷺ صادر عن علم فإنه ﷺ أعلم الناس بربه وأسمائه وصفاته وأحكامه. وخبره أصدق أخبار البشر وكلامه أفصح كلام البشر، وقصده أفضل مقصود البشر، فهو أنصح الخلق للخلق، فقد اجتمع في خبر اللّه تعالى وخبر رسوله ﷺ كمال العلم وكمال الصدق وكمال البيان وكمال القصد والإرادة. وهذه هي مقومات قبول الخبر.

- وعامة هذا الباب (باب الأسماء والصفات) منصوص عليه في الكتاب والسنة متفق عليه بين سلف الأمة[1].

(١) تقريب التدمرية ٥٠ (هذه هي القاعدة الثانية عند ابن تيمية).



قواعد في صفات اللَّه تعالى:

١ - صفات اللَّه كلها صفات كمال لا نَقْصَ فيها بوجه من الوجوه كالحياة والعلم والقدرة.

٢ - باب الصفات أوسع من باب الأسماء، وذلك لأن كل اسم متضمن لصفة ولأن من الصفات ما يتعلق بأفعال اللَّه تعالى، وأفعاله لا منتهى لها كما أن أقواله لا منتهى لها كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

فمن صفاته المجيء قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، والإتيان: قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠].

فنصف اللَّه تعالى بهذه الصفات على الوجه الوارد ولا نسميه بها فلا نقول إن من أسمائه (الجائي والآتي) وإن كنا نخبر بذلك عنه ونَصِفُه بها.

٣ - صفات اللَّه تعالى تنقسم إلى قسمين:(١)

أ - ثبوتية: وهي ما أثبته اللَّه تعالى لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ وكلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه كالحياة والعلم والاستواء على العرش والوجه واليد ونحو ذلك فيجب إثباتها للَّه تعالى حقيقة على الوجه اللائق به.

ب - منفية (سلبية): وهي ما نفاه اللَّه سبحانه عن نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ وكلها صفات نقص في حقه كالموت والنوم والجهل والنسيان والعجز والتعب فيجب نفيها عن اللَّه تعالى لما سبق مع إثبات ضدها على الوجه الكامل وذلك لأن ما نفاه اللَّه تعالى عن نفسه، فالمراد به بيان انتفائه لثبوت كمال ضده.

- مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾(٢) فنفي الموت عنه يتضمن كمال حياته.

---

(١) وقد ذكر هذه القاعدة ابن تيمية في الرسالة التدمرية بالقاعدة الأولى.
(٢) راجع تقريب التدمرية للشيخ ابن عثيمين والتحفة المهدية للشيخ فالح بن مهدي آل مهدي ١٣٣ .



٤ - الصفات الثبوتية تنقسم إلى قسمين:

أ - ذاتية: وهي التي لم يزل ولا يزال متصفا بها كالعلم والقدرة والسمع ومنها الصفات الخبرية كالوجه واليدين والعينين.

ب - الفعلية: وهي التي تتعلق بمشيئته إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها كالاستواء على العرش والنزول والفرح والضحك.

٥ - صفات اللّه تعالى توقيفية لا مجال للعقل فيها، فلا تُثبتْ للّه تعالى من الصفات إلا ما أثبته لنفسه في الكتاب أو رسوله ﷺ في السنة.

٦ - يلزم من إثبات الصفات التخلِ عن محظورين عظيمين:

أحدهما التمثيل: وهو اعتقاد المثبَت أن ما أثبته من صفات اللّه تعالى مماثل لصفات المخلوقين وهذا اعتقاد باطل قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾(١).

والتشبيه كالتمثيل وقد يُفرق بينهما بأن التمثيل التسوية في كل الصفات والتشبيه والتسوية في أكثر الصفات، لكن التعبير بنفي التمثيل أولى لموافقة القرآن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

الثاني: التكييف: وهو أن يعتقد المثبت أن كيفية صفات اللّه تعالى كذا وكذا من غير أن يقيدها بمماثل وهذا اعتقاد باطل قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

ولهذا لم سُئل الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، كيف استوى؟ أَطْرق رَحِمَهُ اللَّهُ برأسه حتى علاه الرحضاء (العرق) ثم قال: «الاستواء غير مجهول(٢) والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة»(٣).

---

(١) ذكر ابن تيمية في الرسالة التدمرية بالقاعدة الرابعة راجع تقريب التدمرية ٦٤ .
(٢) أي لغتاً ومعناً.
(٣) القواعد المثلى.

هل أسماء اللّه تعالى وصفاته من المتشابه؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: أما إدخال أسماء اللّه وصفاته أو بعض ذلك في المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا اللّه، واعتقادُ أن ذلك هو المتشابه الذي استأثر اللّه بعلم تأويله، وأنه لا يفهم معناه، فنقول: أما الدليل على ذلك فإني ما أعلم عن أحد من السلف ولا من الأئمة، أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ ولا غيره أنه جعل ذلك من المتشابه الداخل في هذه الآية[١] ونفى أن يعلم أحد معناه، وجعلوا أسماء اللّه وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمي الذي لا يُفهم، ولا قالوا إن اللّه ينزل كلاما لا يفهم أحد معناه وإنما قالوا كلمات لها معان صحيحة. قالوا في أحاديث الصفات: تمر كما جاءت ونهوا عن تأويلات الجهمية.

وأحمدُ (ابن حنبل) قد قال في أحاديث الصفات: تمر كما جاءت في أحاديث الوعيد مثل: «من غشنا فليس منا»[٢]،[٣].

ثم اعلم أن الصحابة الكرام قد تنازعوا في كثير من مسائل الأحكام وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة إيمانا بلا انفصام، ولكن بحمد اللّه تعالى لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة على كل حال. فكلمتهم واحدة من أولهم إلى آخرهم لم يسموها تأويلا ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلا، ولم ينفوا شيئا منها إبطالا ولا ضربوا لها أمثالا ولم يدفعوا في صدورها وإعجازها، بل ولم يقل أحد منهم يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها. بل تلقوها بالقبول والتسليم وقابلوها بالإيمان والتعظيم[٤].

---

(١) يشير لقوله تعالى ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧].

(٢) رواه مسلم و ابن ماجه.

(٣) رسالة الإكليل في المتشابه والتأويل لابن تيمية. (بتصرف).

(٤) لوامع الأنوار ١/ ٦ .

وحقا ما قاله الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ:

دين النبي محمدٍ آثار — نِعم المطّيةُ للفتى الأخبار
لا تغدُ عن عِلم الحديث وأهله — فالرأي ليل والحديث نهار
ولربما جهل الفتى طُرق الهُدى — والشمس طالعة لها أنوار

ورحم اللّه القائل:

العلم قال اللّه قال رسوله — قال الصحابة ليس خُلف فيه
ما العلم نصبك للخلاف سفاهة — بين النصوص وبين رأي فقيه
كلا ولا رد النصوص تعمداً — حذرا من التَّجسيم والتَّشبيه
حاشا النصوص من الذي رُميت به — ممن فرقه التعطيل والتمويه

قوله (الحي القيوم)

ش: (الحي): في كلام العرب: خلاف الميت، والحيوان خلاف الموات فاللّه عز وجل الحي الباقي الذي لا يجوز عليه الموت ولا الفناء (عز وجل وتعالى عن ذلك علوا كبيرا) ولا تعرف العرب عن الحي والحياة غير هذا(١)

قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥].

فهو الحي الذي لم تُسبق حياته بالعدم ولم تُعقب بالفناء(٢).

والحياة التي يتصف بها الرب جل وعلا تليق بذاته كما أن الحياة التي يتصف المخلوق بها مناسبة لحاله(٣).

---

(١) اشتقاق أسماء اللّه الحسنى ١٠٢ .
(٢) معارج القبول ١/١٣٨ .
(٣) منهج جديد لدراسة التوحيد ١/٢٧ .

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ كان يقول: «أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت الذي لا يموت والجن والإنس يموتون»(١).

ش: (القيوم): فيعول من قام يقوم، وهو من أوصاف المبالغة في الفعل وهو من قوله عز وجل: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣].

أي يحفظ عليها ويجازيها ويحاسبها وقال أبو عبيدة: القيوم: القائم وهو الدائم الذي لا يزول(٢).

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١-٢].

وقال تعالى: ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١].

وكان رسول اللَّه ﷺ يقول إذا قام من صلاته من الليل: «اللَّهم لك الحمد أنت قيّام السماوات والأرض ومن فيهن».

وفي لفظ آخر: «أنت قيّم السموات والأرض»(٣)، وكون اللَّه سبحانه وتعالى قيّوم، وقيّم، وقيّام السموات والأرض فلهذا معان عديدة منها:

١ - **القيام الخاص على كل نفس** مما خلق فإن من معاني القيام في اللغة المُدِّبر كما قال ابن الأعرابي: «القيوم والقيام والمُدبِّر واحد».

واللَّه سبحانه وتعالى القيوم والقائم على كل نفس بتدبير شؤونها ورزقها كما قال جلّ وعلا: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦].

فاللَّه جلّ وعلا هو الرزاق، العليم، المدبر لشؤون خلقه سبحانه وتعالى، وهذا من معاني القيوم.

---

(١) متفق عليه.
(٢) اشتقاق أسماء اللَّه ١٠٥ .
(٣) رواه البخاري.



٢ - **المراقبة والمحاسبة**: والإحصاء كما قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣].

أي مراقِب لأعمالها، محاسِب لها مُحصٍ لكل ما تفعله، وهو يتضمن علم اللَّه بكل شيء وسمعه وبصره بكل شيء سبحانه وتعالى وقال جل وعلا: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

٣ - **القيام بالنفس**: فاللَّه جل وعلا يقوم بنفسه لا يقوم بغيره بل هو الغني عن كل ما سواه سبحانه وتعالى فليس بفقير إلى شيء بل هو الغني عن كل ما سواه بل أفتى علماء السلف بِكُفْر مَن قال إن اللَّه محتاج إلى ما خلق إنساناً أو جناً أو

ملائكة أو عرشا أو كرسيا وهذا معنى: «لا حول ولا قوة إلا باللَّه» فليس لأحد قوة ولا قيام إلا بمدد وعون من اللَّه سبحانه وتعالى.

آثار العلم بالصفتين السابقتين:

والصفتان السابقتان الحي القيوم للَّه تبارك وتعالى تورث في قلب المؤمن حب اللَّه وخشيته وتعظيمه:

حب اللَّه: لأنه يقيم الإنسان بما ييسر له من أسباب العيش والقيام والحياة.

وخشيته: لأن اللَّه هو القائم على كل نفس بعلمه وسمعه وبصره سبحانه وتعالى، وهما دليل قوته سبحانه.

وتعظيمه: لأن السموات والأرض في كف الرحمن كخردلة في يد أحدنا[1].

حي وقيوم فلا ينامُ ... وجلّ أن يُشبهه الأنامُ
لا تبلغ الأوهامُ كُنْهَ ذاته ... ولا تكيّف الحِجا صفاته

(١) منهج جديد لدراسة التوحيد ٣١ للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في صفة الحي القيوم:

هـذا ومـن أوصـافـه الـقـيـوم والـقـيـوم فـي أوصـافـه أمـران
إحداهـمـا الـقـيـوم قـام بـنـفـسـه والـكـون قـام بـه هـمـا الأمـران
فـالأول اسـتـغـنـاؤه عـن غـيـره والـفـقـر مـن كـل إلـيـه الـثـانـي
والوصف بالقيوم ذو شأن عظيم هكذا موصوفة أيضا عظيم الشأن
والحي يتلوه فأوصاف الكمال هـمـا لأفـق سـمـائـهـا قـطـبـان
فـالـحـي والـقـيـوم لـن تـتـخـلـف الأوصاف أصلا عنهما ببيان[(١)]

قوله: (العرش)

ش: والعرش في اللغة: السرير الذي للملك.

قال تعالى عن بلقيس: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣].

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني السرير، أي أجلسهما معه على سريره[(٢)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لما خلق اللَّه الخلق كَتَب في كتاب فهو عنده فوق العرش أن رحمتي تغلب غضبي»[(٣)].

صفة العرش:

١- **عظيم**: قال تعالى: ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦].

---

(١) النونية لابن قيم ١٥١ .
(٢) تفسير القرآن الكريم ٢/ ٦٤٥ .
(٣) متفق عليه.

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض»(١).

فإذا كان هذا الكرسي الذي قال اللّه عنه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

نسبته إلى العرش كنسبة الحلقة في فلاة من الأرض (سبحانك ربنا ما عبدناك حق عبادتك).

٢ - **له قوائم**: قال رسول اللّه ﷺ: «فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي؟ أم جوزي بصعقة الطور»(٢).

٣ - **فوق الجنة**: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن في الجنة مائة درجة أعدها اللّه للمجاهدين في سبيله، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم اللّه فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»(٣).

٤ - **حملة العرش**: قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا﴾ [غافر: ٧].

وقال رسول اللّه ﷺ: «أُذن لي أن أُحدِّث عن ملك من ملائكة اللّه عز وجل من حملة العرش ما بين شحمة أذنه وعاتقه مسيرة سبعمائة عام تخفق الطير»(٤).

---

(١) رواه ابن جرير قال الألباني حديث صحيح (شرح الطحاوية ٣١٢).
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه أبو داود وصححه الألباني ١٥١.

تمجيد اللَّه نفسه باستوائه على العرش وأنه رب العرش:

وقد امتدح الرب نفسه بأنه مُستوٍ على عرشه كقوله: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه ١-٥].

وامتدح نفسهَ في أكثرَ من آية بأنه صاحب العرش: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٥].

وأنه رب العرش: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢][(١)].

قوله: (الكرسي)

ش: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر قدره إلا اللَّه تعالى[(٢)].

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

قوله: (فكل شيء مفتقر إليه)

ش: لا غنى لنا عنه طرفة عين، فكما أن جميع المخلوقات مفتقرة إليه تعالى في وجودها فلا وجود لها إلا به، فهي مفتقرة إليه في قيامها فلا قوام لها إلا به، فلا حركة ولا سكون إلا بإذنه.

---

(١) العقيدة في اللَّه ١٥٩ .

(٢) رواه ابن أبي شيبة والحاكم قال الألباني صحيح موقوفا شرح الطحاوية ٣١٢ .

فللخالق مُطْلق الغنى وكمالُه، وللمخلوق مطلق الفقر إلى اللّه وكماله، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

والآيات في هذا الباب كثيرة جدا وعن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي. . . . يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته. فاستطعموني أطعمْكم يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفرْ الذنوب جميعا فاستغفروني أغفرْ لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني»(١).

وكان رسول اللّه ﷺ يقول في الاستسقاء: «الحمد للّه رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين لا إله إلا اللّه يفعل ما يريد، اللّهم أنت اللّه لا إله إلا أنت، أنت الغني ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث واجعل ما أنزلت علينا قوة وبلاغا إلى حين»(٢).

قوله: (ولا يفتقر هو إلى شيء جل وعلا)

ش: حتى لا يظن ظان أنه خلق السموات والأرض أو العرش والكرسي لحاجته وافتقاره سبحانه وتعالى فهو مستغن عن العرش وما دونه قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: «ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم»(٣).

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ﴾ [محمد: ٣٨].

---

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم.

(٢) رواه أبو داود من حديث عائشة، قال صاحب معارج القبول واسناده جيد ١/ ١٧٠ .

(٣) الطحاوية ٣١٣ (بتصرف).



القضية السابعة: قال المُصنِّف حفظه اللَّه:

«أنه سبحانه وتعالى العليم الخبير الذي يحيط علمُه بالأولين والآخرين، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض، وأنه ما من حركة ولا سكون إلا وقد عَلِم وقوعَه ويعلم حال وقوعه، وأنه سبحانه لا يضل ولا ينسى».

قوله: (العليم)

الشرح: فالعلم نقيض الجهل، عَلمَ عِلْما وعَلَمَ هو نفسه. ورجل عالِم وعليم من قوم علماء وعلّام وعَلّامة إذا بالغت في وصفه بالعلم أي عالم جدا.

وعَلِمتُ الشيء: عرفته وخبرته، وعلمَ بالشيء شعر به، والعليم: على وزن فعيل من أبنية المبالغة(١).

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، قال تعالى: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]، قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٧٠]، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [التغابن: ١٨].

وقال تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦] وقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [سبأ: ٤٨].

وعن جابر رضي الله عنه قال: كان رسول اللَّه ﷺ يُعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمهم السورة من القرآن يقول: «إذا همّ أحدُكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللَّهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللَّهم فإن كنت تعلم هذا الأمر - ثم يسميه - خَيْرٌ لي. . . .»(٢).

(١) النهج الأسمى ١٧٧ للشيخ محمد الحمود النجدي.
(٢) متفق عليه.



وعن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا اللّه، لا يعلم ما في غد إلا اللّه، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا اللّه، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا اللّه، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا اللّه»[(١)].

وعلمه بما بدا وما خفي أحاط علما بالجّلي والخفي

ومما أثبته اللّه عز وجل لنفسه وأثبته له رسول اللّه ﷺ أنه عليم بعلم، وأن علمه محيط بجميع الأشياء من الكليات، والجزئيات وهو من صفاته الذاتية، وعلمه أزلي بأزليته وكذلك جميع صفاته فقد علم تعالى في الأزل جميع ما هو خالق، وعلم جميع أحوال خلقه، وأرزاقهم، وآجالهم، وأعمالهم، وشقائهم وسعادتهم ومَن منهم مِن أهل الجنة والنار[(٢)].

كما جاء في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إن أول ما خلق اللّه القلم ثم قال له: اكتب، قال: يا رب وماذا أكتب؟ قال اكتب مقاديرَ كلِ شيء حتى تقوم الساعة»[(٣)].

آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - إثبات العلم التام الكامل الشامل للّه وحده

فلا يشابهه أحد من مخلوقاته في كمال علمه قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

بل ويعلم الأشياء دقيقَها وجليلَها، صغيرها وكبيرها، كما قال سبحانه وتعالى:

(١) متفق عليه ومنه الآية: ﴿إن اللّه عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾. [الفرقان: ٣٤].
(٢) معارج القبول ١/ ١٦٢ .
(٣) رواه أبو داود وصححه الألباني في شرح الطحاوية ٢٩٤ .

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

٢ - **إن الله لكمال علمه** يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، أي أنه سبحانه وتعالى يعلم الأمور الماضية التي وقعت، والأمور المستقبلية التي لم تقع بعد، ويعلم الأمور التي لن تقع لو فرض أنها تقع كيف تقع، وهذا من كمال علمه بالغيب وعواقب الأمور، وهو معتقد أهل السنة والجماعة اتباع السلف الصالح والأدلة على ذلك كثيرة(١):

أ - علمه بالأمور الماضية:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١- ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

وقال رسول الله ﷺ: «كتب الله مقاديرَ الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء»(٢).

ب - علمه بالأمور الحاضرة:

قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣]. وقال تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١] وقال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ﴾ [التوبة: ١٠].

ج - **علمه بالأمور المستقبلية:** قوله تعالى لإبليس عليه لعنة الله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة: ٢٣٥].

---

(١) النهج الأسمي ١٨١ .
(٢) رواه مسلم ٢٦٥٣ .

د - عِلْمه بالأمور التي لن تقع لو وقعت كيف كانت تقع:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧- ٢٨].

يذكر اللّه حال الكفار إذا وُقِفوا يوم القيامة على النار وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال يتمنون أن يُردوا إلى الدار الدنيا فيعملوا عملا صالحا ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين، بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنفسهم من

الكفر والتكذيب والمعاندة ثم قال مخبرا عنهم أنهم لو ردوا إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه من الكفر والمخالفة(١).

وقال تعالى عن المنافقين وحالهم في غزوة تبوك: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٦- ٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ﴾ أي معك إلى الغزوة: ﴿لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ أي لكانوا تأهبوا به: ﴿وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ أي أبْغَضَ أن يخرجوا معكم قدرا: ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي أخرهم. فقال: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ﴾ ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فأخبر بأنه يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ فأخبر عن حالهم كيف يكون إذا خرجوا ومع هذا ما خرجوا(٢).

٣ - **أن الخلق لا يحيطون علما بالخالق**: أي لا يعلمون شيئا عن ذاته وصفاته إلا ما أطلعهم اللّه سبحانه عليه عن طريق رسله وكتبه المنزلة قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ١٤٤ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٩٨ .



﴿مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

٤ - قلة ما بأيدينا من العلم بالنسبة لعلم اللَّه تعالى:

ومع كثرة المعلومات التي تعلَّمها بنو آدم وتشعبِها إلا أنها قليلة جدا بالنسبة لعلم اللَّه تعالى الواسع قال سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وفي قصة الخضر مع موسى عليهما السلام: «فلما ركبا في السفينة جاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة أو نقرتين قال له الخضر: يا موسى ما نقص علمي وعِلْمُك من علم اللَّه إلا مثلَ ما نقص هذا العصفورُ بمنقاره من البحر»[1].

٥ - الفرق بين علم الخالق وعلم المخلوق:

عِلْمُ اللَّه جلّ ثناؤه لا يعتريه نقص أبدا من نسيان أو جهل أو علم ببعض أمور الخلق وجهلٍ بغيرها. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

وهو سبحانه لا يشغله عِلمْ عن علم كما لا يشغله سمع عن سمع، وأنى للمخلوق مثلُ هذه الصفات فهم يولدون جهلة لا يعلمون شيئا ثم يتعلمون شيئا فشيئا. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨][2].

وصدق زهير في قوله:

وأعلمُ ما في اليوم والأمس قبله ... ولكني عن علم ما في غدٍ عمي[3]

قال ابن القيم[4] رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهو العليم أحاط علما بالذي ... في الكون من سِّر ومن إعلان

---

(١) متفق عليه.
(٢) النهج الأسمى (بتصرف).
(٣) ديوان زهير بن أبي سلمى ٢٩ .
(٤) النونية لابن القيم.

وبكل شيء علمه سبحانه فهو المحيط وليس ذا نسيان
وكذاك يعلم ما يكون غدا وما قد كان والموجود في ذا الآن
وكذاك أمر لم يكن لو كان كيف يكون ذا إمكان

قوله: (الخبير)

ش: أي: العالِم بالشيء يقال: (خبرت الشيء واختبرته): إذا علمته[1].

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨]، وقال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما كانت ليلتي التي كان النبي ﷺ فيها عندي انقلب فوضع رداءه وخلع نعليه فوضعهما عند رجليه وبسط طرف إزاره على فراشه فاضطجع فلم يلبث إلا ريثما ظن أن قد رقدت فأخذ رداءه رويدا وانتعل

رويدا وفتح الباب فخرج ثم أجافه[2] رويدا، فجعلت درعي في رأسي[3]، واختمرت[4] وتقنّعت إزاري ثم انطلقت على أثره حتى جاء البقيع فقام فأطال القيام ثم رفع يديه ثلاث مرات ثم انحرف فانحرفت فأسرع فأسرعت فهرول فهرولت فاحضر فأحضرت[5] فسبقته فدخلت فليس إلا أن اضطجعت فدخل فقال: مالكِ يا عائش! حشيا رابية[6] قالت: قلت: «لا شيء». قال: «لَتخبريني أو لَيخبرنّي

(١) اشتقاق أسماء الله ١٢٧ .
(٢) ثم أجافه: أي أغلقه.
(٣) درع المرأة: قميصها.
(٤) وهو ما تستر به المرأة رأسها.
(٥) الاحضار: العدو وهو فوق الهرولة.
(٦) و (حشيا) معناه قد وقع عليك الحشا وهو الربو والتهيج الذي يعرض للمسرع في مشيه =

اللطيف الخبير. .»[١].

قوله: (لا يضل ولا ينسى)

ش: والإضلال من الصفات لتي نفاها تعالى عن نفسه، وأصل الضلال: العدول عن الطريق المستقيم، ويضاده الهداية، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨]. ويقال الضلالُ لكل عدول عن المنهج عمدا كان أو سهوا، يسيرا كان أو كثيرا وقد يأتي الضلال بمعنى النسيان كما قال تعالى عن شهادة المرأة: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢] أي تنسى[٢].

قال تعالى حاكيا عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٠ - ٥٢]، ففرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق، ورزق، شرع فرعون يحتج بالقرون الأولى أي الذين لم يعبدوا اللّه أي فما بالهُم إذا كان الأمر كذلك لِمَ لمْ يعبدوا ربك، بل عبدوا غيره؟ فقال له موسى في جواب ذلك: هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند اللّه مضبوط عليهم، وسيجزيهم بعملهم، في كتاب اللّه وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمار: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ أي لا يشذ عنه شيء ولا يفوته صغير ولا كبير ولا ينسى شيئا.

يصف عِلْمَه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئا، تبارك وتعالى، وتقدس وتنزّه[٣].

أما (النسيان) فهي ترك الإنسان ضبطَ ما اسُتودِع إما لضعف قلبه، وإما عن غفله، وإما عن قصد حتى ينحرف عن القلب ذكره، وإذا نُسب إلى اللّه فهو تَرْكُه إياهم استهانة

= والمحتد في كلامه من ارتفاع النفس وتواتره (رابية) أي مرتفعة البطن.

(١) رواه أحمد ومسلم والنسائي.

(٢) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ٢٩٧-٢٩٨ (بتصرف).

(٣) تفسير القرآن الكريم ٣/ ١٧٢ .

بهم ومجازاة لما تركوه قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١][(١)] . وعلى هذا يكون للنسيان معنيان:

المعنى الأول: الذهول عن شيء معلوم، مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦][(٢)]. وعلى هذا فلا يجوز وصف اللّه بالنسيان بهذا المعنى على كل حال.

المعنى الثاني: التَّرك عن علم وعمد مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤] وهذا المعنى ثابت للّه عز وجل قال تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ [السجدة: ١٤].

وقال تعالى في المنافقين: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ وفي صحيح مسلم في كتاب الزهد والرقاق عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا يا رسول اللّه: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فذكر الحديث وفيه: «إن اللّه تعالى يلقى العبد فيقول أفظننتَ أنك ملاقِ؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني».

وتَرْكُه سبحانه للشيء صفة من صفاته الفعلية الواقعة بمشيئته، التابعة لحكمته، قال اللّه تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧] وقال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٩]، والنصوص في ثبوت التَّرك وغيره من أفعاله المتعلقة بمشيئته كثيرة معلومة، وهي دالة على كمال قدرته وسلطانه، وقيام هذه الأفعال به سبحانه لا يماثل قيامها بالمخلوقين وإن شاركه في أصل المعنى كما هو معلوم عند أهل السنة[(٣)].

قال ابن القيم رحمه الله.

وكذلك النسيان جَلَّ إلهنا ... لا يعتريه قطّ من نسيانِ

---

(١) المفردات للراغب الأصفهاني ٤٩١ .

(٢) ومثال ذلك قوله تعالى لآدم ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ وقوله عن موسى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ﴾ وغيرها كثير.

(٣) مجموع فتاوي العقيدة لشيخنا الفاضل محمد بن صالح العثيمين رحمه الله ١٧١-١٧٤ .

القضية الثامنة: قول المصنف حفظه اللَّه:

«نؤمن أن الله سبحانه وتعالى هو رب كل شيء ومليكه والمتصرف فيه، وأنه لا شريك له في ملكه، ولا ظهير له، ولا معين له من خلقه».

قوله: (ربّ)

الشرح: كلمة (الربّ): استعمل العرب في لسانهم هذه الكلمة ويقصدون بها ثلاثة معاني أساسية وكل هذه المعاني قد جاءت في القرآن والسنة حقيقة في وصف اللَّه سبحانه وتعالى وهي:

أولا: المربي، والمتعهد، والقائم، والمصلح لشأن غيره:

قال الراغب: الرب في الأصل التربية وهو إنشاء شيء حالا فحالا إلى حدّ التمام. ولا يقال: الرب مطلقا إلا للَّه تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات(١).

واللَّه سبحانه وتعالى هو رب العالمين ورب السموات والأرض بهذا المعنى لأنه القائم سبحانه وتعالى وحده على كل نفس بالتربية والتعهد والإصلاح فهو الرابُّ للإنسان نطفة، فعلقة، فمضغة، فعظاما، فخلقا آخر، فطفلا، فشابا، فشيخا، وهو القائم بحفظ السموات والأرض،كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ [فاطر: ٤١].

وهو الرزاق والمتعهد لكل دابة قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ [هود: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ﴾ [النحل: ٦٩] فالذي هدى النحل إلى طرائق حياته على هذا النحو العجيب هو اللَّه سبحانه وتعالى، فالرب الخالق، المربي، المتعهد، المصلح شأنَ هذه الدواب إنما هو اللَّه وحده سبحانه وتعالى وهذا أول معنى من

---

(١) المفردات في غريب القرآن ١٨٤ .



معاني كلمة (الرب)[1].

ثانيا: الصاحب والمالك:

وتقول العرب: «أنا ربُّ الإبل» كما قال عبد المطلب «أنا صاحب الإبل ومالكها».

وكما سأل الرسول ﷺ أحد الأعراب فقال له: «أربُّ إبل أم ربُّ غنم»؟ أي ألك إبل أم غنم؟ ويقولون: ربُّ الدار أي صاحبها ومالكها، وقد جاء إطلاق الرب على اللَّه سبحانه وتعالى بهذا المعنى كثيرا في القرآن الكريم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٩] والشِّعْرى: نجم معروف كانت تعظِّمه العرب فأمرهم سبحانه أن يعظِّموا مالكه وخالقَه. وكذلك ربُّ مكة كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ [النمل: ٩١]. وكذلك ربُّ البيت كما قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ [قريش: ٣]، أي: مالكه وصاحبه وهو ربُّ العالمين أيضا لأنه خالقهم والمتصرف فيهم سبحانه وتعالى لا رب، ولا مالك، لشيء في السموات والأرض غيره.

ثالثا: السيد الآمر الناهي:

جاء في (لسان العرب): رببتُ الناس أي: سِستهم وكنت فوقهم ومن ذلك رد صفوان بن أمية (لقول أحد مُسلِمة الفتح، بعد هزيمة المسلمين في حُنَيْن في أول المعركة وقوله: «غَلَبَتْ واللَّه هوازن» !: اسكت، لأن يَرُبَّني رجل من قريش خير من أن يربَّني رجل من هوازن) ومعنى يُربني هنا: يسودني، ويتولى شأن حكمي وليس بمعنى (عبدا)، ولا بمعنى يربني من التربية.

قال تعالى: آمرا نبيه محمدا ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٧٢ .



تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦١- ١٦٤].

فقد أمره أن يقول متعجبا للكفار هل أتخذ سيدا لي، ووليا لي، ومعبودا لي، وآمرا وناهيا لي غيرَ اللَّه؟ وقال تعالى ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

واتخاذهم الأحبار: وهم علماء اليهود، والرهبان: وهم علماء النصارى أربابا من دون اللَّه هو اتخاذهم مُشرِّعين آمرين ناهين في الحلال والحرام، فالمُحِلُّ والمحرِم هو اللَّه سبحانه وتعالى، والمُبطِل لتحليل اللَّه وتحريمه مُدع للربوبية، ومَنْ وافقه واتبعه وأطاعه فقد اتخذه ربًا من دون اللَّه عز وجل.

آثار الإيمان بهذه الصفة:

إذا آمن المؤمن بهذا وامتلأ قلبه يقينا بذلك آنست روحه باللَّه واطمأن إلى جواره، ولم تزلزله الأعاصير والفتن وتوجه إلى ربه دائما بالدعاء والالتجاء والاستعاذة وكان دائما متوكلا على ربه واثقا به كما يظل دائما خائفا من تقصيره وذنبه لأنه يعلم قدرة ربه عليه ووقوعَه تحت قهره وسلطانه فتحصل له بذلك التقوى والتقوى هي غاية الأمر بل هي غاية الوجود الإنساني(١).

قوله: (ولا ظهير له):

ش: يشير لقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢] أي مُعين(٢). فقد بين تبارك وتعالى أنه الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد الذي لا نظير له

---

(١) منهج جديد لدراسة التوحيد للمصنف حفظه اللَّه ٤٠-٥٠ (بتصرف).
(٢) المفردات للراغب ٣١٨ .

ولا شريك له، بل هو المستقلُّ بالأمر وحده من غير مشارك ولا منازع ولا معارض فقال: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي من الآلهة التي عُبدت من دونه ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي لا يملكون شيئا استقلالا ولا على سبيل الشركة: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي ليس للّه من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور بل الخلق كلهم فقراء إليه عبيد لديه قال قتادة في قوله عز وجل: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي من عون يعينه بشيء[(١)].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٥٨٩ وهذا كقول القائل للذي ليس له سند من عائلة أو قبيلة (فلان ليس له ظهر).

القضية التاسعة: قال المصنف حفظه اللَّه:

«أنه سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم الذي وَسعتْ رحمتُه كلَّ شيء وتنزه عن الظلم والجور».

قوله: (الرحمن الرحيم)

الشرح: (الرحمن الرحيم): صفتان للَّه عزّ وجل مشتقتان من الرحمة فالرحمن (فعلان) والرحيم (فعيل)[1].

والرحمة هي الرِقة والتَّعطُّف، والاسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة و(رحمن) أشد مبالغة من (رحيم) لأن بناء (فعلان) أشد مبالغة من (فعيل) ونظيرهما نديم وندمان[2].

معنى الاسمين في حق اللَّه تعالى:

القول الأول: الرحمن: هو ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا وللمؤمنين في الآخرة.

الرحيم: هو ذو الرحمة للمؤمنين يوم القيامة واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩].

وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. فَذَكَر الاستواء باسمه (الرحمن) ليضم خَلْقَه برحمته وقال: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

فَخَصَّ المؤمنين باسمه الرحيم، ولكن يُشكل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

---

(١) اشتقاق أسماء اللَّه ٣٨ .

(٢) النهج الأسمى ١/ ٦٧ .



القول الثاني:

الرحمن: دالٌّ على صفة ذاتية.

الرحيم: دال على صفة فعلية

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف، والثاني للفعل.

فالأول دال على أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته»(١).

ورود هذين الاسمين في الكتاب والسنة:

الرحمن: قال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

وعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ بعث رجلا على سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «سلوه لأي شيء يصنع ذلك»؟ فسألوه فقال: (لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها) فقال النبي ﷺ: «أخبروه أن اللّٰه يحبه»(٢).

وعن عبد اللّٰه بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن»(٣).

وعن عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «قال اللّٰه عز وجل: أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته»(٤).

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ٢٤ .
(٢) رواه البخاري ١٣/٣٤٧ .
(٣) رواه البخاري في التاريخ وأبو داود والترمذي والحاكم.
(٤) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والبخاري في الأدب وصححه الألباني الجامع ٤٣١٤ .

قوله (الرحيم):

قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

وقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

آثار الإيمان بهذين الاسمين:

١- إثبات صفة الرحمة للَّه رب العالمين:

من صفات اللَّه تعالى الثابتة بالكتاب والسنة - الرحمة - وهي صفة كمال لائقة بذاته كسائر صفاته العُلى فلا يجوز لنا أن ننفيها أو نعطِّلها لأن ذلك من الإلحاد في أسمائه[١].

٢ - سعة رحمة اللَّه تعالى:

قال تعالى إخبارا عن حملة العرش ومَنْ حوله، أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

يخبر اللَّه تعالى شأنه عن رحمته التي وسعت وشَملت كلَّ شيء في العالم العلوي والسفلي، البّر والفاجر، المسلم والكافر، فما من أحد إلا وهو يتقلب في رحمة اللَّه تعالى آناء الليل وأطراف النهار، ولكنْ للمؤمنين الرحمة الخاصة بهم، والتي يسعدون بها في الدارين ولذلك قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فالكافر لا رحمة له في الآخرة.

٣- رحمة اللَّه تغلب غضبه:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن اللَّه تعالى لما خلق الخَلْقَ كتب بيده على نفسه: إن رحمتي تغلب غضبي»[٢].

---

(١) النهج الأسمى ١/ ٧١ .
(٢) رواه احمد وابن ماجة والترمذي واللفظ له وصححه الألباني برقم ١٧٥٥ صحيح الجامع.

٤ - للَّه جلّ ثناؤه مائة رحمة:

وقال رسول اللَّه ﷺ: «إن للَّه مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فيها يتعاطفون وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها - وفي رواية - حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدِها خشية أن تصيبه - وأَخَّرَ تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»(١).

٥ - اللَّه سبحانه وتعالى أرحم بعباده من الأم لولدها:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال قُدم على رسول اللَّه ﷺ بسبي فإذا امرأة من السبي تبتغي، إذ وجدت صبيا في السبي أخذته فألصقته ببطنها، وأرضعته، فقال لنا رسول اللَّه ﷺ: «أترون هذه المرأةَ طارحةً ولدَها في النار؟» قلنا: لا واللَّه !

وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال ﷺ: «اللَّه أرحم بعباده من هذه بولدها»(٢)(٣).

٦ - إرسال الرسل وإنزال الكتب لهداية الناس وإرشادهم:

لما يصلحهم في الدنيا والآخرة وهذه أكبر رحمة لعباده ولذلك قال تعالى في القرآن: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢]، وقال في شأن ختم الرسل ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال عن التوراة: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [الأحقاف: ١٢](٤).

قوله: (وتنزه عن الظلم والجور):

ش: (الظُلم) عند أهل اللغة وكثير من العلماء:

وَضْعُ الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) النهج الأسمى (بتصرف).
(٤) منهج جديد لدراسة التوحيد ١/ ٢٠ .

وقته أو مكانه والظلم يقال في مجاوزة الحق(١).

و (الجور) هو في العدول عن الحق قال تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ [النحل: ٩]. أي عادل عن الحجة، وقال بعضهم الجائر من الناس هو الذي يمنع من التزام ما يأمر به الشرع(٢).

فاللّه تعالى نزّه نفسه عن الظلم، وهذه من الصفات المنفية أي التي نفاها اللّه عن نفسه قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا»(٣).

واللّه تعالى لا يظلم مع قدرته سبحانه لا لعجزه فإن النفي قد يكون لعدم قبول المحل فالجدار لا يظلم، وأحيانا يكون لعجزه، وهذا كذلك منفي عن اللّه تعالى فالإنسان لا يخاف الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة، حتى يأمن من ذلك وإنما يأمن مما يمكن، فلما آمنه من الظلم بقوله: ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ [طه: ١١٢]، علم أنه ممكن مقدور عليه. وقد فسّر بعضُ السلف الآية السابقة، بأن (الظلم) أن تُوضع عليه سيئات غيره، و(الهضم): أن ينقص من حسناته، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥].

فاللّه نزّه نفسه عن فِعْلِ ما لا يصلح له ولا ينبغي له كقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]. فهذا إنكار على من حسب أنه يفعل هذا وإخبار أن هذا حكم سيىء

---

(١) المفردات ٣١٥ .

(٢) المصدر السابق ١٠٣ .

(٣) رواه أحمد ومسلم.



قبيح، وهو ما يُنزَّه الربُّ عنه(١).

وكذاك ظلم عباده وهو الغني فما له والظلم للإنسان

ومن كمال عدله يوم القيامة أنه يقتص حتى من الحيوانات كما قال ﷺ: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يُقاد للشاة الجلحاء(٢) من الشاة القرناء»(٣). ولهذا حذر من الظلم بين العباد قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

ووصيتُه ﷺ لمعاذ رضي الله عنه عندما أرسله إلى اليمن بقوله: «... واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين اللَّه حجاب»(٤).

***

(١) شرح الطحاوية ٥٠٧-٥٠٨ (بتصرف).
(٢) التي لا قرن لها.
(٣) رواه مسلم ٢٥٨٢ .
(٤) متفق عليه.

القضية العاشرة: قول المُصَنِّف حفظه اللّه:

«أنه سبحانه وتعالى العليم، الحكيم الذي يضع كل أمر في نصابه، والذي لا يفعل شيئا سدى وعبثا»

الشرح: قوله: (الحكيم): هو الذي أفعاله مُحكمة مُتقنة لا تفاوت فيها، ولا اضطراب ومنه قيل (بناء مُحكم): أي قد أتقن وأَحْكَمَ فاللّه عز وجل حكيم كما وصف نفسه بذلك لإتقان أفعاله واتساقها وانتظامها وتعلق بعضها ببعض.

وهو مشتق من حَكَمة اللجام وهي: الحديدة التي تمنع الفرس وترده إلى مقصد الراكب، وكذلك الحكيم من الناس إنما سُمي حكيما لأنه يتمنع من فعل القبائح ويمنع نفسه منها:

ابني حنيفة أَحْكموا سفهاءكم إني أخاف عليكم أن أغضبا[1]

وكذلك حُكْمُ الحاكم على المحكوم عليه إنما هو يلزمه أمرا واجبا عليه، وكذلك الحاكم بين الناس إنما هو الفاصل بينهم بعلمه، والملزمُ لهم ما لا يمكنهم مخالفته[2].

فاللّه تعالى هو الحَكَم وهو الحكم وهو الحاكم سبحانه وتعالى بمعنى القاضي.

قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الإعراف:٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠].

وقال ﷺ: «إن اللّه هو الحَكَمُ وإليه الحُكم»[3].

---

(١) البيت لجرير في ديوانه ٥٠، تاج العروس «حكم» ٨/ ٢٥٣ .
(٢) اشتقاق أسماء اللّه ٦٠-٦١ .
(٣) رواه أبو داود والنسائي والحاكم عن هانئ بن يزيد وصححه الألباني (صحيح الجامع ١٨٤٥).



آثار الإيمان بهذا الاسم:

١- أن الحُكمَ للَّه وحده فلا شريك له في حكمه كما لا شريك له في عبادته:

وقال تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، [يوسف: ٤٠- ٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

وبذلك نعلم أن الحلالَ هو ما أحَلَّه اللَّه والحرام ما حرمه اللَّه، والدين هو ما شرعه اللَّه، فكل تشريع من غيره باطل والعمل به بدل تشريع اللَّه عند من يعتقد أنه مثله أو خير منه كفر بواح فلا نزاع فيه(١).

٢ - كلام اللَّه حكيم ومحكم:

وكيف لا يكون بهذه الصفة وهو كلام أحكم الحاكمين ورب العالمين.

وقد وصف اللَّهُ القرآنَ العظيم بأنه حكيم محكم في ثمان آيات منها قوله: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وقال تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [١-٢].

وهذا يقتضي تحكيم كتاب اللَّه بيننا في كل شيء كما قال لرسوله ﷺ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾[المائدة: ٤٩].

ليس هذا فقط بل يجب التسليم لحكمه ظاهرا وباطنا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١].

٣ - خَلْق اللَّه سبحانه مُحكم لا خلل فيه ولا قصور:

قال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

---

(١) أضواء البيان ٧/ ١٦٢ للعلامة/ محمد أمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣].

أي خَلَقَهن طبقة بعد طبقة مستويات ليس فيهن اختلاف ولا تنافر، ولا نقص ولا عيب(١) وهذا أمر معلوم قطعا بما يُعلم من عظمته وكمالِ صفاته وتتبعِ حكمته في الخلق والأمر، وقد تحدى عبادَه وأَمَرَهم أن ينظروا ويكرروا النظر والتأمل هل يجدون في خلقه خللا أو نقصا وأنه لا بد أن ترجع الأبصار كليلة عاجزة عن الانتقاد على شيء من مخلوقاته(٢).

٤ - كراهةُ التّكنّي بأبي الحَكَم:

فعن هانيء بن يزيد أنه لما وفد إلى رسول اللّه ﷺ مع قومه سمعهم يُكنونه بأبي الحكم فدعاه رسول اللّه ﷺ فقال: «إن اللّه هو الحَكَم وإليه الحُكم فَلِمَ تُكنى أبا الحكم؟» فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمتُ بينهم فَرَضِي كِلا الفريقين، فقال رسول اللّه ﷺ: «ما أحسن هذا، فمالَك من الولد؟» قال: «لي شُريح ومُسلم وعبد اللّه»، قال: «فمن أكبُرهم؟» قلت: «شريح» قال: «فأنت أبو شريح»(٣).

قال ابن القيم(٤):

وهو الحكيم وذاك من أوصافه ... نوعان أيضا ما هما عدمانِ
حُكم وإحكام فكل منهما نوعان ... أيضا ثابتا البرهانِ

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير.
(٢) الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين ٥١ للشيخ عبدالرحمن بن ناصر آل سعدي.
(٣) أخرجه أبو داود والبيهقي والنسائي والحاكم واسناده صحيح صححه الألباني في الجامع والإرواء والمشكاة.
(٤) الحق الواضح المبين.

والحكمة العليا على نوعين أيـ ـضاً حصلا بقواطع البرهان
إحداهما في خلقه سبحانه أيضا وفيها ذانك الوصفان
إحكام هذا الخلق إذ إيجاده في غاية الإحكام والإتقان
وصدوره من أجل غايات له وله عليها حمد كل لسان
والحكمة الأخرى فحكمة شرعة أيضا وفيها ذانك الوصفان

قوله: (لا يفعل شيئا سدًى وعبثا)

ش: كما في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥- ١١٦].

الاستفهام في قوله: «أفحسبتم» للإنكار، والحسبان هنا معناه: الظن. يعني أظننتم أنا خلقناكم عبثا لا لحكمة، وأنكم لا تُرجعون إلينا يوم القيامة فنجازيكم

على أعمالكم إن خيرا فخير وإن شرا فشر ثم نزّه جلّ وعلا نفسَه عن أن يكون خلقهم عبثا وأنهم لا يرجعون إليه للحساب والجزاء.

فعظّم وقدّس ونزّه نفسَه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله ومنه خلقكم عبثا[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨- ٣٩].

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦- ٣٩].

---

(١) أضواء البيان ٥/ ٨٣١ (بتصرف).



وقوله: (سُدًى)

ش: أي مهملا لا يحاسب ولا يجازى وهو محل إنكار ظن ذلك في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

يعني لا يُبعث، أو لا يُؤمر، ولا يُنهى، والظاهر أن الآية تعم الحالين أي ليس يُترك في هذه الدنيا مهملا. لا يُؤمَر ولا ينهى ولا يُترك في قبره سدى. لا يُبعث بل هو مأمور منهي في الدنيا ومحشور إلى اللّه في الدار الآخرة[١].

وقوله: (عبثا)

ش: يجوز إعرابه حالا لأنه مصدر مُنكر. أي إنما خلقناكم في حال كوننا عابثين، ويجوز أن يُعرب مفعولا من أجله: أي خلقناكم لأجل العبث لا لحكمة اقتضت خَلقِنا إياكم وأعربه بعضهم مفعولا مطلقا وليس بظاهر.

قال القرطبي: (عبثا): أي مهملين والعبث في اللغة: اللعب، ويدل على تفسيره في الآية باللعب قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾[٢].

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٨١ .
(٢) أضواء البيان ٥/ ٨٣١-٨٣٢ .

القضية الحادية عشر: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«نؤمن أن ربنا سبحانه وتعالى يحب، ويرضى، ويفرح، ويضحك، وكذلك يسخط، ويمقت، ويكره، ويغضب، وفي كل ذلك لا يشبه شيئا من خلقه».

قوله: (يحب ويرضى، ويفرح، ويضحك، ويسخط، ويمقت، ويكره ويغضب).

الشرح: وهذه القضية تتناول ثمان صفات للَّه عزّ وجلّ:

أولا: (الحب)

قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان: سبحان اللَّه وبحمده، سبحان اللَّه العظيم»(١).

وقوله ﷺ: «ما من الكلام شيء أحب إلى اللَّه عز وجل من: الحمد للَّه وسبحان اللَّه، واللَّه أكبر، ولا إله إلا اللَّه، هن أربع فلا تكثر عليّ ولا يضرك بأيهن بدأت»(٢).

وقوله ﷺ لِأشج عبد القيس: «إن فيك خصلتين يحبهما اللَّه عز وجل ورسوله: «الحِلم والأناة»»(٣).

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «من أحب لقاء اللَّه أحب اللَّه لقاءه ومن

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم.



كره لقاء الله كره الله لقاءه»[١].

وقال ﷺ: «إن الله إذا أحب أهل بيت أدخل عليهم الرفق»[٢].

وقال ﷺ: «إن الله تعالى إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل. . .» الحديث[٣].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لَأُعطين الرايةَ رجلا يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، فلما أصبح دعا علي بن أبي طالب. . .»[٤].

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال كتب أبو الدرداء إلى مسلمة بن مخلد: «سلام عليك أما بعد فإن العبد إذا عمل بطاعة الله أحبَّه اللَّهُ فإذا أحبه اللَّهُ حبّبه إلي عباده. . .»[٥].

علامات حب الله تعالى للعبد والحث على التخلق بها والسعي في تحصيلها:

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وفي الحديث القدسي إن الله تعالى قال: «من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي

---

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه ابن أبي الدنيا عن جابر قال الألباني صحيح (الصحيحة ١٧٠٤).
(٣) رواه مسلم من حديث أبي هريرة.
(٤) رواه البخاري.
(٥) الأسماء والصفات للبيهقي ٤٩٨ .

يطش بها، ورجله التي يمشي بها[١] وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنّه»[٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهو الودود يحبهم ويحبه ... أحبابُه والفضل للمنان

وهو الذي جعل المحبة في قلو ... بهم وجازاهم بحب ثان

هذا هو الإحسان حقا لامعـ ... ـاوضة ولا لتوقع الشكران

ثانيا: (يرضى):

ش: قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩] قال تعالى: ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]. وقال تعالى: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ [الليل: ٢٠-٢١].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إن اللّه تعالى يرضى لكم ثلاثا، ويكره لكم ثلاثا، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل اللّه جميعا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه اللّه أمركم. . .»[٣].

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن اللّه تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة»: يا أهل الجنة! فيقولون: «لبيك وسعديك»، يقول: «هل رضيتم»؟ فيقولون: «وما لنا ألا نرضى، وقد أعطيتنا مالم تُعط أحدا من خلقك». فيقول عزَّ وجلَّ: «ألا أُعطيكم أفضل من ذلك؟» قالوا: «يا رب، وأي شيء أفضل

(١) قال الخطّابي: هذه أمثال والمعنى: توفيق اللّه لعبده في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء وتيسير المحبة له فيها بأن يحفظ جوارحه عليه من مواقعة ما يكره اللّه من الأخطاء الى اللّهو بسمعه ومن النظر إلى ما نهى اللّه عنه ببصره ومن البطش فيما لا يحل له بيده ومن السعي إلى الباطل. (نقلا عن رياض الصالحين ص ١٥٨ في الهامش - النووي).

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه أحمد وسلم.



من ذلك؟» فيقول: «أُحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ بعث خاله واسمه (حرام) (أخا أم سلَيم) في سبعين رجلا فَقُتِلوا يوم (بئر معونة) قال إسحق: فحدثني أنس بن مالك قال: أنزل علينا ثم كان من المنسوخ: «إنا قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا»(٢).

قال ابن القيم رحمه الله:

أوما علمت بأنه سبحانه ... حقا كَلَّم حزبه بجنانِ
فيقول جلّ جلاله هل أنتم ... راضون؟ قالوا نحن ذو رضوانِ
أم كيف لا نرضى وقد أعطيتنا ... مالم ينله قط من إنسانِ؟
هل ثَمّ شيء غير ذا فيكون أفضل ... منه نسأله من المنانِ؟
فيقول: أفضل منه رضواني فلا ... يغشاكم سخط من الرحمنِ

ثالثا: (يفرح)

ش: عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «للّهُ أشدُ فرحا بتوبة عبده المؤمن، من رجل قَالَ(٣) بأرض فلاة، دوية، ومهلكة، ومعه راحلته، عليها طعامه، وشرابه، نزل عنها فنام، وراحلته عند رأسه، فاستيقظ، وقد ذهبت، فذهب في طلبها، فلم يقدر عليها حتى أدركه الموت من العطش، فقال: «واللّه لأرجعن، فلأموتن حيث كان رحلي، فرجع، فنام، فاستيقظ، فإذا راحلته عند رأسه عليها طعامه وشرابه»(٤). هذا حديث جليل فيه بشارة عظيمة ترتاح لها قلوب التائبين، المحسنين ظنهم بربهم، الصادقين في توبتهم، الخالعين ثياب الإصرار على

---

(١) رواه البخاري.
(٢) متفق عليه.
(٣) النوم ظُهرا.
(٤) متفق عليه.

المعاصي، البعيدين عن سوء الظن بمن لا يتعاظمه ذنب، ولا يبخل بمغفرته ورحمته على عباده الطالبين لعفوه الملتجئين إليه في مغفرة ذنوبهم وحصول مطلوبهم. فهذا الفرح منه بتوبة التائب يناسب محبته له، ومودته له، فلهذا الكشف والبيان والإيضاح لا مزيد عليه في ثبوت هذه الصفة(١).

رابعا: (يضحك)

ش: بلا صفة تصف ضَحِكَه جل ثناؤه، فلا يشبّه ضحكه بضحك المخلوقين، بل نؤمن بأنه يضحك كما أعلم النبي ﷺ، ونسكت عن صفة ضحكه جل وعلا إذ اللَّهُ عز وجل استأثر بصفة ضحكه، لم يطلعنا على ذلك فنحن قائلون بما قال النبي ﷺ، مصدقون بذلك بقلوبنا، منصتون عما لم يبين لنا مما استأثر اللّه تعالى بعلمه(٢) وهو سبحانه يضحك متى شاء، كيف شاء، نؤمن بذلك ونصدقه ولا ندري كيفيته ولسنا مطالبين بأن ندري وقد ثبت في ذلك أخبار صحاح منها(٣).

الأدلة على صفة الضّحك:

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «يضحك اللّه إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر، كلاهما يدخل الجنة يقاتل هذا في سبيل اللّه فيُقتل ثم يتوب اللّه على القاتل فيقاتل في سبيل اللّه فيستشهد»(٤).

٢ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه فقلن ما عندنا إلا الماء فقال رسول اللّه ﷺ: «من يضيف هذا؟» فقال رجل من الأنصار: «أنا»، فانطلق به إلى امرأته فقال: «أكرمي ضيف رسول اللّه ﷺ» فقالت: «ما عندنا إلا قوت الصبيان»، فقال: «هيئي طعامك، وأصلحي سراجك، ونوّمي صبيانك إذا أرادوا العشاء» فهيأت

---

(١) الكواشف الجلية ٤٥٨ .
(٢) كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب ٢٣٠ .
(٣) كتاب العقيدة في اللّه ١٦٣ للشيخ عمر الأشقر حفظه اللّه.
(٤) متفق عليه.



طعامها، وأصلحت سراجها، ونوّمت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح السراج فأطفأته وجعلا يريانه كأنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح، غدا على رسول اللَّه ﷺ فقال: (لقد ضَحِك اللَّه أو عجب من فعالكما) وأنزل اللَّه عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩](١).

٣ - وعن نعيم بن هبار رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «الشهداء الذين يقاتلون في سبيل اللَّه في الصف الأول، ولا يلتفتون بوجوههم حتى يقتلوا، فأولئك يلقون في الغرف العلا في الجنة يضحك إليهم ربُك، إن اللَّه تعالى إذا ضحك إلى عبده المؤمن فلا حساب عليه»(٢).

٤ - ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ عن آخر رجل يخرج من النار: «. . . ثم يفرغ اللَّه تعالى من القضاء بين العباد، ويبقى رجل مُقبل بوجهه على النار، وهو آخر أهل الجنة دخولا، فيقول: «أي رب اصرف وجهي عن النار، فإنه قد قشبني ريحها، وأحرقني ذكاؤها»، فيدعو اللَّه ما شاء أن يدعوه، ثم يقول اللَّه تبارك وتعالى: «هل عسيتَ إن فعلت ذلك أن تسأل غيره؟» فيقول: «لا أسألك غيره». فيعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء اللَّه، فيصرف وجهه عن النار، فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء اللَّه أن يسكت، ثم يقول: «أي رب ! قدمني إلى باب الجنة»، فيقول اللَّه تعالى: «أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك لا تسألني غير الذي أعطيتك؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك» فيقول: «أي رب»، فيدعو اللَّه حتى يقول له: «فهل عسيت» إن أعطيتك ذلك أن تسألني غيره؟ فيقول: «لا، وعزتك»، فيعطي ربه ما شاء من عهود ومواثيق، فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا قام على باب الجنة انفهقت له الجنة، فيرى ما فيها من الخير والسرور، فسكت ما شاء اللَّه أن يسكت ثم يقول: «أي رب ! أدخلني الجنة»، فيقول اللَّه تبارك وتعالى:

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه الطبراني في الأوسط وأحمد في المسند وابي يعلى في مسنده وصححه الألباني، صحيح الجامع ٣٧٤٠ .



«أليس قد أعطيت عهودك، ومواثيقك أن لا تسألني غير ما أعطيت؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك» فيقول: «أي رب! لا أكون أشقى خلقك»، فلا يزال يدعو حتى يضحك اللَّه منه، فإذا ضحك اللَّه منه قال ادخل الجنة)[١].

وفي رواية عند مسلم من حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه أن اللَّه يقول لهذا الرجل: (يا ابن آدم ! أترضى أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ فيقول: «أي رب! أتستهزئ بي وأنت رب العالمين؟» وضحك رسول اللَّه ﷺ فقال: «ألا تسألوني مم ضحكت؟

فقالوا: «ممّ ضحكت يا رسول اللَّه؟» قال: «مِن ضَحِك رب العالمين حين قال: «أتستهزئ بي وأنت رب العالمين؟» فيقول: «لا أستهزئ بك، ولكني على ما أشاء قادر»[٢].

٥ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: (إذا كان يوم القيامة جمع اللَّه الأولين والآخرين فيجئ اللَّه تبارك وتعالى والمؤمنون على قوم فيقف عليهم فيقول: «هل تعرفون ربكم؟» فيقولون: «إن عرّفنا نفسه عرفناه» ويرد عليهم ثلاثا ويردون عليه ثلاثا: «إن عرَّفنا نفسه عرفناه فيتجلى لهم يضحك»[٣].

خامسا: (يسخط):

ش: السَّخط والسُّخط: الكراهية للشيء وعدم الرضا به[٤].

وقيل هي: الغضب الشديد المقتضي للعقوبة[٥].

قال تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة:٨].

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه ابن خزيمة وأحمد والترمذي وابن أبي عاصم في سننه واللفظ له وصححه الألباني ١/ ٢٧٨١ السنن لابن أبي عاصم.
(٤) النهاية لابن الأثير ٢/ ٣٥٠ .
(٥) المفردات للراغب ٢٢٧ .



وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ [محمد:٢٨].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن اللّه تعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة! فيقولون: «لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك» فيقول: «هل رضيتم»؟ فيقولون: «وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك»

فيقول: «ألا أعطيكم أفضل من ذلك»؟ فيقولون: «يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟» فيقول: «أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا»[(١)].

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في الثلاثة النفر من بني إسرائيل الأبرص والأقرع والأعمى، وقول المَلَك الذي جاء بصورة بشر للأعمى: «أمسِك مالك فإنما ابتُليتم، فقد رُضي عنك وسُخِط على صاحبيك»[(٢)].

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه في رؤية اللّه: «... ثم يُقال له: «الآن نبعث شاهدنا عليك» ويتفكر في نفسه: من ذا الذي يشهد عليّ؟ فيُختم على فيه، ويقال لفخذه، ولحمه، وعظامه: «انطقي»! فتنطق فخذه، ولحمه، وعظامه بعمله وذلك ليُعذر من نفسه، وذلك المنافق وذلك الذي سخط اللّه عليه)[(٣)].

وعنه أيضا يقول: قال رسول اللّه ﷺ: «يوشك إن طالت بك مدة أن ترى قوما في أيديهم مثل أذناب البقر يغدون في غضب اللّه ويروحون في سخط اللّه»[(٤)].

وعنه أيضا عن النبي ﷺ قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان اللّه لا يلقي لها بالا يرفعه اللّه بها درجات وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط اللّه لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم»[(٥)].

---

(١) رواه أحمد و البخاري ومسلم والترمذي.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه مسلم في الترهيب.
(٤) رواه مسلم.
(٥) رواه أحمد في مسنده ومالك في الموطأ والبخاري والترمذي وابن ماجه.

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «كنت نائمة إلى جنب رسول اللّه ﷺ ففقدته من الليل، فلمسته بيدي، فوضعت يدي على قدمه وهو ساجد»؛ يقول: «اللّهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»(١).

وهكذا يتعلق رسول اللّه ﷺ بصفات اللّه ويلوذ بها ويستعيذ بها ويجعلها ورده في أهم عبادته، وفي أعظم حالة عبوديته فليست هناك حالة أعظم من السجود.

ففي السجود تجتمع الجوارح والقلب وهو التعبير الكبير على العبودية فماذا يقول

الجهمية (قَبحهم اللّهُ) في صدّ الناس عن أسماء اللّه وصفاته؟ التي هي سعادة الدارين، وهي متعلق نبينا ﷺ وهي عروته الوثقى وهي مفزعة في شدته وكربه لا مفزع له سواها، فالإمام مالك ومشايخه وتلامذته يؤكدون هذه الحقيقة بهذه الأسانيد وهذه الروايات.

سادسا: (يمقت)

ش: والمقت البغض الشديد لمن تراه تعاطى القبيح. يقال مَقَت مقاتة فهو مَقِيت ومَقّته فهو مقيت وممقوت(٢).

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [غافر: ١٠]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ [فاطر: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

وعن عياض المجاشعي رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا. . وإن اللّه نظر إلى أهل الأرض

(١) رواه مسلم وأصحاب السنن.
(٢) المفردات ٤٧٠ .



فمقتهم[١] عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب[٢]»[٣] الحديث.

سابعا: (يكره):

ش: كما أن هناك أعمالًا يحبها اللّه فهناك أيضا أعمالٌ، لا يحبها اللّه بل يكرهها ويبغضها، وكراهيته وبغضه سبحانه حق على وجه يليق بذاته الكريمة[٤].

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٦].

وقال ﷺ: «إن اللّه تعالى حرّم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنعاً وهات، كَرِه لكم قيل وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال»[٥].

وعن الحسين بن علي رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إن اللّه تعالى يحب معالي الأمور وأشرفها ويكره سفاسفها»[٦].

وعن عبد اللّه بن جعفر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إن اللّه تعالى مع الدائن حتى يقضي دينه مالم يكن دينه فيما يكره اللّه»[٧].

وجاء كذلك في الحديث القدسي الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن اللّه تعالى قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب. . .يكره الموت وأنا أكره مساءته»[٨].

وعن محجن بن الأدرع رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن اللّه تعالى رضي لهذه الأمة

---

(١) (مقتهم) المقت أشد البغض والمراد بهذا المقت والنظر ما قبل بعثة رسول اللّه ﷺ.
(٢) إلا بقايا من أهل الكتاب والمراد بهم الباقون على التمسك بدينهم الحق من غير تبديل.
(٣) رواه أحمد ومسلم.
(٤) العقيدة في اللّه ١٧٠ .
(٥) متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة.
(٦) رواه الطبراني وقال شيخنا الألباني صحيح، (صحيح الجامع ١٨٩٠).
(٧) البخاري في تاريخه وابن ماجة والحاكم صحححه الألباني (صحيح الجامع ١٨٢٥).
(٨) البخاري عن أبي هريرة وأبو نعيم في الحلية والبيهقي.

اليُسر وكِره لها العُسر»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال اللّه تبارك وتعالى: إذا أحب عبدي لقائي أحببت لقاءه وإذا كره لقائي كرهت لقاءه»[٢].

ففي هذا النَّص العظيم محبة اللّه لعبده إذا أحب لقاءه، وكراهة اللّه للقاء عبده إذا كره لقاءه، فمحبة اللّه صفته اللائقة به وبكماله ومحبة العبد لائقة به وبضعفه وعجزه، وكراهية اللّه صفة تليق به وبكماله، وجلاله، وإحسانه وكراهة المخلوق صفة تليق به وبعجزه وتقصيره، فهذا الحديث الجامع لهاتين الصفتين من جوامع كلمه ﷺ[٣].

ثامنا: (يغضب)

قال تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ [طه: ٨١]، وقال تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧].

وعن عطاء بن يسار رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «اللّهم لا تجعل قبري وثنا يُعبد. اشتد غضب اللّه على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[٤].

وكما جاء في حديث الشفاعة الطويل الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه قال: «أُتي رسول اللّه ﷺ بلحم، فدفع إليه منها الذراع وكانت تُعجبه. . . فيقول آدم: «إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته

---

(١) رواه الطبراني وصححه الألباني (صحيح الجامع ١٧٦٩).
(٢) رواه مالك في الموطأ ١/ ٢٤٠، والبخاري.
(٣) العقيدة السلفية ١٥١ .
(٤) رواه مالك وصححه في مسنده الألباني (تحذير الساجد ٢٦).

نفسي نفسي. . . نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري»[١].

وهكذا كل نبي من أُولي العزم من الرسل يقول ذلك إلى أن يأتوا إلى النبي ﷺ.

وعن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان[٢] أتى على سلمان، وصهيب، وبلال في نفر فقالوا: «واللَّه ما أَخذتْ سيوفُ اللَّه من عنق عدو اللَّه مأخذها»، قال، فقال: أبو بكر: «أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟» فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «يا أبا بكر! لعلك أغضبتهم؟ لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك». فأتاهم أبو بكر، فقال: يا إخوتاه! أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر اللَّه لك يا أخي[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «اشتد غضب اللَّه على قوم فعلوا هذا برسولهم ﷺ وهو حينئذ يشير إلى رباعيته»[٤].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «اشتد غضب اللَّه على رجل يقتله رسول اللَّه في سبيل اللَّه عزَّ وجلَّ»[٥].

«في سبيل اللَّه» احترازاً ممن يقتله في حدٍ أو قصاصٍ، لأن من يقتله في سبيل اللَّه كان قاصدا قتل النبي ﷺ.

وعن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه عن رسول اللَّه ﷺ قال: «من حلف على يمين صبرٍ[٦] يقتطع بها مال امرئ مسلم، هو فيها فاجر، لقي اللَّه وهو عليه غضبان»[٧].

---

(١) رواه أحمد و البخاري ومسلم.
(٢) كان أبو سفيان يومئذ كافرا.
(٣) رواه أحمد ومسلم.
(٤) رواه مسلم ١٧٩٣ .
(٥) متفق عليه.
(٦) (صبر) وتسمى اليمين الغموس.
(٧) رواه أحمد والبخاري ومسلم.

قوله: (وفي كل ذلك لا يشبه شيئا من خلقه).

ش: ومذهب السلف وسائر الأئمة: «إثبات صفة الغضب، والرضا، والعداوة، والولاية، والحب، والبغض ونحو ذلك من الصفات التي ورد بها الكتاب السنة ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة باللَّه تعالى، كما يقولون مثل ذلك في السمع والبصر والكلام وسائر الصفات»[(١)].

قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ فهذا الآية المحكمة من كتاب اللَّه عزَّ وجلَّ هي دستور أهل السنة والجماعة في باب الصفات فإن اللَّه قد جمع بين النفي والإثبات فنفى عن نفسه المثل وأثبت لنفسه سمعا وبصرا[(٢)].

وقال: نعيم بن حمّاد شيخ البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَنْ شبّه اللَّه بخلقه كَفَر، ومن جحد ما وصف اللَّه به نفسه كَفَر، وليس فيما وصف اللَّه به نفسَه أو وصفه به رسوله ﷺ تشبيه ولا تمثيل»[(٣)].

وقيل:

ومن لم يتوقّ النفي والتشبيه زل ولم يُصب التنزيه[(٤)]

وظاهرة التشبيه قديمة وقد ظهرت مناقضةً لظاهرة التعطيل في أسماء اللَّه وصفاته وأكثر الفِرق التي اتصفت بها: فِرق الشيعة الأوائل قبل أن يكونوا معتزلة، فردّ السلف هذه الظاهرة الخبيثة ولعلها تفرّعت من الحلول الصوفي الذي نشره دعاة الضلال ولهذا جاء كثيرا على لسان السلف مَن شبّه اللَّه بخلقة فقد عبد صنما ومن عطّل اللَّه عن صفاته وأسمائه فقد عبد عدما[(٥)].

---

(١) شرح الطحاوية ٥٢٤ .
(٢) شرح الواسطية للعلامة محمد خليل هراس ١٨ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
(٣) شرح الواسطية لمحمد خليل هراس ١٩ .
(٤) الطحاوية ٢٣٧ أبو جعفر الطحاوي.
(٥) العقيدة الإسلامية القسم الخامس ١٦٣ .

القضية الثانية عشر: قال المصنف حفظه اللَّه:

«أنه سبحانه وتعالى يلطف ويرحم، ويُنَجِّي عبادَه المؤمنين، كما أنه يَخْذِل ويعذب، وينتقم، ويستدرج، ويمكر بعبيده الظالمين».

قوله: (يلطف)

الشرح: قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩].

وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤].

وقوله في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الطويل عندما ذهب النبي ﷺ للدعاء لأهل البقيع وفيه قال رسول اللَّه ﷺ: «لَتُخبريني أو لَيُخبرنّي اللطيفُ الخبير»(١).

و **(اللطيف)**: هو الذي اجتمع له الرفق في الفعل، والعلم بدقائق المصالح وإيصالها إلى مَن قدّرها له من خلقه. يُقال: لطيف به، وله(٢).

و **(اللطيف)**: من أسمائه الحسنى وهو الذي يلطف بعبده في أموره الداخلية المتعلقة بنفسه، ويلطف بعبده في الأمور الخارجية عنه، فيسوقه، ويسوق إليه ما به صلاحه من حيث لا يشعر، وهذا من آثار علمه، وكرمه، ورحمته، فلهذا كان:

المعنى الأول: لَّلطِيف: أنه الخبير الذي أحاط علمُه بالأسرار، والبواطن، والخبايا، والخفايا، ومكنونات الصدور، ومغيبات الأمور وما لَطفَ ودَقَّ من كل شيء.

المعنى الثاني: لَّلطِيف: لُطفُه بعبده، ووليّه الذي يريد أن يتم عليه إحسانه، ويشمله

---

(١) رواه أحمد ومسلم والنسائي.
(٢) نهاية غريب الحديث ابن الأثير ٤/ ٢٥١ .

بكرمه ويرقيه إلى المنازل العالية، فييسره لليسرى، ويجنبه العسرى، ويجري عليه من أصناف المحن التي يكرهها وتشق عليه، وهي عين صلاحه، والطريق إلى سعادته كما امتحن الأنبياء بأذى قومهم بالجهاد في سبيله وكما ذكر اللّه عن يوسف عليه السلام[1]. وكيف ترقّت به الأحوال ولَطَفَ اللّهُ به وله بما قدره عليه من تلك الأحوال التي حَصَلَ له في عاقبتها حسنُ العقبى في الدنيا والآخرة، وكما يَمتحنُ أولياءَه بما يكرهونه لينيلهم ما يحبون، ولهذا قال ابن القيم رحمه الله: (فيريك عِّزته) أي بامتحانك بما تكره (ويبدي لطفه) في العواقب الحميدة السارة. فكم للّه من لُطْفٍ، وَكَرَمٍ لا تدركه الأفهام، ولا تتصوره الأوهام، وكم استشرف العبد على مطلوب من مطالِب الدنيا: من ولاية، أو رياسة، أو سبب من الأسباب المحبوبة فيصرفه اللّه عنها، ويصرفها عنه، رحمة به لئلا تضره في دينه، فيظل العبد حزينا من جهله وعدم معرفته بربه، ولو علم ما ادُّخر له في الغيب وأُريد إصلاحه فيه لَحَمَدَ اللّه، وشكره على ذلك فإن اللّه بعباده رؤوف رحيم، لطيف بأوليائه[2].

قال ابن القيم رحمه الله:

وهو اللطيف بعبده ولعبده	**واللُّطف في أوصافه نوعانِ**
إدراك أسرار الأمور بِخِبرة	**واللّطُف عند مواقع الإحسانِ**
فيُريك عِزّتَه ويُبدي لطفه	**والعبد في الغفلات عن ذا الشانِ**

وعلى هذا يكون معنى اللطيف:

١- أنه الذي لا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت، أي هو لطيف العلم.

٢- هو البرّ بعباده الذي يلطف ويرفق بهم من حيث لا يعلمون ويرزقهم من حيث لا يحتسبون.

---

(١) وهي من أوضح القصص القرآنية التي تتجلى بها صفة لطف اللّه سبحانه وتعالى بعباده.
(٢)الحق الواضح المبين في شرح القافية الشافية لابن القيم تأليف عبد الرحمن آل السعدي ٦١-٦٢ .



قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا لَا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

٣- هو الذي لطف على أن يُدرك بالكيفية، وعلى الأول والثالث يكون من أسماء الذات وعلى الثاني يكون من أسماء الأفعال(١).

قوله: (ويُنَجّي عبادَه المؤمنين)

ش: إنجاؤه الأنبياء والمرسلين:

قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ [يونس: ٧٣] أي في السفينة وهي تسير بهم على وجه الماء الذي قد طبّق جميع الأرض حتى طغت على رؤوس الجبال، وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعا وقيل بثمانين ميلا، وهذه السفينةُ جارية على وجه الماء، سائرة بإذن اللَّه، وتحت كنفه، وعنايته، وحراسته وامتنانه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١- ١٢](٢).

وكذلك صالح عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦]، وذلك أن ثمود أصبحوا يوم الخميس (بعد أن عقروا الناقة يوم الأربعاء وأمهلهم نبيُّهم ثلاثة أيام) وهو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفّرة، كما وعدهم صالح عليه السلام وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة ووجوههم مسودة، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا(٣) وقعدوا ينتظرون نقمَة اللَّهِ وعذابه (عياذا باللَّه من ذلك) لا يدرون ماذا يُفعل بهم؟ ولا كيف يأتيهم العذاب؟ ولما أشرقت الشمسُ جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزهقت النفوس في ساعة واحدة(٤).

وقال تعالى عن هود عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨] وهو الريح العقيم فأهلكهم اللَّه عن آخرهم ونجّى هود

(١) النهج الأسمى ١/ ٢٤٤ للشيخ محمد الحمود النجدي. (ط ١ سنة ١٩٩٢ م الذهبي).
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٦٨.
(٣) تحنّطوا: أن تطيبوا أو تزينوا.
(٤) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٠٦.

وأتباعه من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه[١].

وعن قوم شعيب قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤]، قوله جاثمين أي: هامدين لا حراك بهم؛ وذكر ها هنا أنه أتتهم صيحة وفي (الأعراف) رجفة، وفي (الشعراء) عذابُ يوم الظلة، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذا النقم كلها وإنما ذُكر في كل سياق ما يناسبه[٢] وعن لوط قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ [الصافات: ١٣٤].

وكذلك موسى وقومه قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٤٩]، ولهذا قال ﷺ في تعليله لصوم عاشوراء: «هذا يوم عظيم نجّى (أنجى) اللّه فيه بني إسرائيل»[٣]، قال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٥٠].

إنجاؤه للدعاة والصالحين:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

فَنصَّ على نجاة الناهين وهلاك الظالمين وسكت عن الساكتين[٤].

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦] يقول تعالى فهلّا وُجد في القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض وقوله (إلا قليلا): أي وجد منهم من هذا الحزب قليل لم يكونوا كثيرا وهم الذين

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٩١ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٦٠٢ .
(٣) رواه البخاري.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٤٣ .

أنجاهم اللّه عند حلول غضبه وفجأة نقمته[١].

إنجاؤه بعض الفسّاق والكفار من بعض الأخطار والكوارث الدنيوية

ومع هذا فقد ينجي اللّهُ تعالى أحيانا لحكمة يراها سبحانه بعضاً من الفساق والكفار كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

أما في الآخرة فلا نجاة إلا لمؤمن:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢].

قوله: (يخذل):

ش: الخَذْلُ: تَرْكُ الإغاثة والنُصرة[٢]. وتَرْكُ مَن يُظن به أن ينصره نُصرته ولذلك قيل خذلت الوحشيةُ ولدَها[٣] كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٩] أي كثير الخذلان[٤].

قال تعالى بعد غزوة أُحد عندما انهزم المسلمُونَ وأُصيب رسولُ اللّه ﷺ وقُتل من قُتل من الصحابة: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

أقول: إذا كان هذا هو حال الصحابة ومعهم النبي ﷺ، خلَّى اللّهُ بينهم وبين المشركين، بسبب معصية بعض الصحابة لأمر من أوامر النبي ﷺ باجتهادهم.

فكيف بمن يعصي اللّه جهارا نهارا، قاصدا متعمدا، هذا فضلا عمن يكفر؟

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللّهُ: «قد أجمع العارفون باللّه أن التوفيق: أن لا يوكِّلك اللّه إلى

(١) المصدر السابق ٦١٠ .
(٢) النهاية لابن الأثير ١٦/٢ .
(٣) المفردات للراغب.
(٤) المصدر السابق.

نفسك، والخذلان: أن يُخَلّي بينك وبينها، فالعباد متقلبون بين توفيقه وخذلانه، بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبَه من هذا وهذا، فيطيعه ويرضيه ويذكره ويشكره بتوفيقه، ثم يعصيه ويخالفه ويسخطه ويغفل عنه بخذلانه له، فهو دائر بين توفيقه وخذلانه، فإن وَفقّه فبفضله ورحمته وإن خذله فبعدله وحكمته، وهو تعالى المحمود في هذا وهذا، له أتم حمد وأكمله، ولم يمنع العبدَ شيئا هو له، وإنما منعُه ما هو مجرد فضله وعطائه وهو أعلم حيث يضعه، وأين يجعله.

فإذا علِم العبُد هذَا المقام وشهده وأعطاه حقه، علم ضرورته وفاقته إلى التوفيق والهداية في كل نَفَس ولحظة وطرفة عين.

عَلِمَ أن توحيده وإيمانه مُمسَك بيد غيره (اللّه) لو تخلى عنه طرفة عين لثل عرشه، ولخرّت سماء إيمانه على الأرض، وأن الممسك له من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه».

فدأب هذا المُشَاهِد لهذا المقام أن يقول بقلبه ولسانه: «يا مُقلّب القُلوب ثبّت قلبي على دينك، يا مُصرِّف القُلوب صرّف قلبي إلى طاعتك».

ودعواه: «يا حي يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك»[(١)].

قوله: (ويعذب، وينتقم)

ش: قال تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الطلاق: ٨].

وقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥]. وعن شدة انتقامه قال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ بالأعراف: ٣٦].

(١) مدارج السالكين شرح منازل السائرين لابن قيم الجوزية.



وقال تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٥].

وقال جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

وقال جلّ ذِكره: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦].

وكما ذكرنا في (قواعد الأسماء والصفات) فإنه لم يَرد في أسماء اللَّه تعالى الحسنى اسم (الفاعل) من العذاب، والانتقام ولكن نُسب الفعل إليه سبحانه وتعالى ولذلك فلا يجوز اشتقاق اسم من هذه الأفعال كأن يقال: (المعذب) أو (المنتقم) بل يُنسب الفعل فقط إليه سبحانه كما نسبه إلى نفسه جلّ وعلا، ويجب الوقوف فيها عند ما جاء به النص فقط واتصاف اللَّه سبحانه وتعالى بشدة العقوبة وقوة الانتقام لا ينافي اتصافَه بالرحمة والمغفرة والرأفة والمودة ولا تناقض بين هذا وهذا، وذلك أن رحمته ومغفرته ينالها من يستحقها، كما أن انتقامه وعذابه وبطشه تعالى ينزل على من هو أهل له، كما قال تعالى: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

صور من عذاب اللَّه وانتقامه في الدنيا والآخرة:

ومما يدل على اتّصاف الرب جلّ وعلا بشدة العقوبة وقوة البطش وهو الانتقام، هذه القرون التي أهلكها اللَّه لما كذّبوا الرسولَ وعتوا عن أمره سبحانه وتعالى قال تعالى بعد أن ذكر تكذيب قوم عاد، وثمود، وتكذيب قارون، وفرعون وهامان: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠][1].

وقال تعالى عن عذابه وانتقامه في الآخرة: ﴿۞ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ

---

(١) منهج جديد لدراسة التوحيد ١/ ٥٩-٦٣ (بتصرف).



كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩- ٢٢].

آثار الإيمان بهاتين الصفتين على المؤمن:

١- الإيمان بما وصف اللَّه سبحانه به نفسه هو أول واجب على المسلم.

٢- خشوع قلب المؤمن واقشعرار جلده كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣].

فالقرآن فيه بيان لصفة اللَّه عزَّ وجلَّ وانتقامه وعذابه مما يهدّ الجبال لو كان مُوجّها إليها كما قال تعالى﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١].

٣- ومن ثمراته وآثاره الخوفُ والوَجَلُ والاستقامة على أمر اللَّه سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ٨- ١١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٥- ١٧]

وقال ﷺ: (من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة اللَّه غالية ألا إن سلعة اللَّه الجنة)(١)(٢).

---

(١) رواه العقيلي وأبو نعيم في الحلية والحاكم في المستدرك وصححه الألباني (٦٢٢٢ صحيح الجامع).
(٢) منهج جديد لدراسة التوحيد ١/ ٦١- ٦٥ .



قوله: (ويستدرج)

ش: كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وكقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥- ٥٦] وكقوله تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥][1].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢].

ومعناه أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه، ويعتقدوا أنهم على شيء، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ أي وسأملي لهم أي: أُطول لهم ما هم فيه[2].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ٤٤] أي أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي فتحنا عليهم أبواب كل الرزق مما يختارون وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم (عياذا باللّه) من مكره ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ [الأنعام: ٤٤] أي من الأموال والأولاد، والأرزاق ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ أي على غفلة: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ أي آيسون من كل خير.

قال الوالبي عن ابن عباس: «المُبلس الآيس»، وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: (من وسّع اللّه عليه فلم ير أنه يُمكر به فلا رأي له، ومن قُتِر عليه فلم ير أنه يُنظر له فلا رأي له، ثم قرأ الآية (السابقة) ثم قال: مُكِر بالقوم ورب الكعبة أُعطوا حاجتَهم ثم أُخذوا)[3]، وقال قتادة: «بغت القومَ أمرُ اللّه، وما أخذ اللّه قوما قط إلا عند

---

(١) قوله: (وتزهق أنفسهم) الآية. أي ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم (عياذا باللّه من ذلك) وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما يهم فيه (ابن كثير ٢/ ٣٩٩).

(٢) ابن كثير ٢/ ٢٩٩ .

(٣) رواه ابن أبي حاتم نقلا عن ابن كثير ١٤٩ .

سكرتهم، وغرتهم، ونعمتهم، فلا تغتروا بالله فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون[(١)].

وقال مالك عن الزهري رحمهما الله عند قوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قال: «رخاء الدنيا ويسرها».

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: ٣٢].

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢][(٣)].

قوله: (ويمكر)

ش: قال تعالى مُخوفا ومحذّرا من مخالفة أوامره والتجرؤ على زواجره: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧]. أي الكافرة، ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ أي عذابنا ونكالنا ﴿بَيَاتًا﴾ أي ليلا ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ لا أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٩٨]. أي في حال شغلهم وغفلتهم ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ أي بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم في حال سهوهم وغفلتهم: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا

(١) رواه ابن أبي حاتم نقلا عن ابن كثير ١٤٩ .
(٢) رواه أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم (تفسير ابن كثير ٢/ ١٤٩).
(٣) متفق عليه.



﴿ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]. ولهذا قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق، موجل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن(١).

وقال إسماعيل بن رافع رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مِن الأمن مِن مَكْرِ اللَّه: إقامةُ العبد على الذنب يتمنى على اللَّه المغفرة»(٢).

وهذا هو تفسير المكر في قول بعض السلف: (يستدرجهم اللَّه بالنعم إذا عصوه، ويُملي لهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر) وهذا هو معنى المكر والخديعة، ونحو ذلك، ذكره ابن جرير بمعناه(٣).

فالأمن من مكر اللَّه: أي استدراج اللَّه للعبد وسلبه ما أعطاه من الإيمان (نعوذ باللَّه من ذلك) وذلك جهل باللَّه، وبقدرته، وثقة بالنفس وعُجب بها(٤).

موقف العصاة من مكر اللَّه:

قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١].

فقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي أشد استدراجا وإمهالا حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذَّب. وإنما هو في مهلة ثم يؤخذ على غرة منه(٥). ثم شَرَع اللَّهُ يشرحُ صفة هذا المكر الذي لا ينطلي على اللَّه قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٦١ .
(٢) رواه ابن أبي حاتم.
(٣) فتح المجيد ٣١٣ .
(٤) فتح المجيد ٣١٥ .
(٥) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٥٢ .

مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٢- ٢٣].

ضعف مكر الماكرين:

ومَكْرُ الماكرين مهما بلغ فهو ضعيف، كما قال تعالى: ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠] أي يبطل ويفسد(١).

وروى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

يقول: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال وكذا قال «الحسن البصري» ووجّهه «ابن جرير» بأن هذا الذي فعلوه بأنفسهم من شركهم باللّه وكفرهم به ما ضر ذلك شيئا من الجبال ولا غيرها وإنما عاد وبال ذلك عليهم(٢).

أمثلة من مَكْرِ اللّه بالكفار:

١- مَكْرُه سبحانه بأعداء عيسى عليه السلام عندما وشوا به إلى ملك ذلك الزمان وكان كافرا: أن هنا رجلا يضل الناس ويصدهم عن طاعة الملك، وأنه يفرق بين الأب وابنه، فبعث في طلبه وبِأَخْذه وبِصَلْبه، فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظفروا به نجاه اللّه تعالى من بينهم وألقى اللّهُ شبهَه على رجل ممن كان عنده في المنزل فأخذوه وأهانوه وصلبوه ووضعوا على رأسه الشوك وكان هذا من مكر اللّه بهم(٣) ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

٢- وبمثل هذا مَكْرُ اللّهِ لصالح عليه السلام عندما تقاسم الرهط على قتله قال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠].

وبمثل هذا لنبينا محمد ﷺ ليلة الهجرة الذي قال تعالى في شأنها: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٦٠٤ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٩٧ .

(٣) المصدر السابق ٣/ ٣٩٢ (بتصرف).

القضية الثالثة عشرة: قال المُصنِّف حفظه الله:

«نؤمن أنه سبحانه وتعالى يتكلم كما يشاء كما قال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾، وينزل ويقترب من عباده كما يشاء (ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا عند ثلث الليل الآخر)، وأن له وجها ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾، ويداً ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾، وقدماً (فيضع ربُّ العزة قدمه فيها)، وساقاً: (يكشف ربنا عن ساقه) وأن شيئا من صفاته سبحانه وتعالى لا يشبه صفاتُ المخلوقين».

قوله: (يتكلم كما يشاء)

الشرح: وهذا مما أثبته ربنا عزَّ وجلَّ لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ.

أولا من الكتاب:

١ - قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٢]، وقوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٨٧]، وقوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ [المائدة: ١١٦] وقوله: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقوله سبحانه: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقوله سبحانه: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

وقوله سبحانه: ﴿وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

وقوله سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ﴾ [الفتح: ١٥]، وقوله سبحانه: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ [الكهف: ١٠٩].



ثانيا: السنة:

١ - قوله ﷺ في حديث احتجاج آدم وموسى عليهما السلام عند ربهما وقول آدم لموسى عليهما السلام «أنت موسى الذي اصطفاك اللّه تعالى برسالاته وبكلامه»(١).

٢ - وقول إبراهيم رضي الله عنه في حديث الشفاعة: «... ولكن عليكم بموسى فإنه كليم اللّه» وفي رواية: «ولكن ائتوا موسى، عبداً آتاه اللّه التوراة وكَلّمه تكليماً»(٢).

٣ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن نبي اللّه ﷺ قال: «إذا قضى اللّهُ الأمرَ في السماء ضربت الملائكةُ بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: «ماذا قال ربكم»؟ قالوا: الحقَ وهو العلي الكبير»(٣).

٤ - وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن اللّه تبارك وتعالى إذا أحب عبدا نادى جبريل: إن اللّه قد أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماء: «إن اللّه قد أحب فلانا فأحبوه»، فيحبه أهل السماء ويُوضع له القبول في الأرض»(٤).

٥ - وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان»(٥).

٦ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يقول اللّه تعالى يا آدم! فيقول: «لبيك وسعديك» فينادي بصوت: «إن اللّه يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار»(٦).

٧ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ «إن اللّه تعالى يقول لأهل

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) متفق عليه.
(٤) متفق عليه.
(٥) رواه البخاري.
(٦) رواه البخاري.

الجنة: «يا أهل الجنة» ! فيقولون: «لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك» فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: «وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك»، فيقول: «ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟» فيقولون: «يا رب وأي شيء أفضل من ذلك»؟! فيقول: «أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعدُ أبد»[١].

٨ - ومن حديث عبد اللّه عن عمر رضي الله عنه أن رجلا سأله: «كيف سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى؟» قال: (يدنو أحدُكم من ربه حتى يضع عليه كنفه فيقول تعالى: «أعملتَ كذا وكذا»؟ فيقول: «نعم»، ويقول: «أعملتَ كذا وكذا؟» فيقول: «نعم»، ويقول: «أعملتَ كذا وكذا؟» فيقول: «نعم» فيقرره ثم يقول: «إني سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»[٢].

ففي هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الكثيرة وغيرها إثبات صفة الكلام للّه حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته، وحقيقة الإيمان بصفة الكلام للّه أنه الاعتقاد الجازم بأن اللّه تعالى لايزال متكلما إذا شاء، بما شاء، كيف شاء، متى شاء، وأنه يتكلم بكلام يُسمعه من شاء من خلقه، وأنه متكلم بكلام قديم ذاتي وجودي غير مخلوق، ولا محدث، ولا حادث، لا يشبه كلامَ الخَلْق بل اتفق أئمة السلف على أن كلام اللّه مُنَزَّل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود[٣].

وقال ابن القيم رحمه الله:

واللّه ربي لم يزل متكلّماً ... وكلامه المسموع بالآذانِ
صدقاً وعدلا أُحكمت كلماته ... طلبا وإخباراً بلا نقصانِ
ورسوله قد عاذ بالكلمات من ... لدغ ومن عيّ ومن شيطانِ

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه البخاري
(٣) الكواشف الجلية ٣٦٣ وشرح الطحاوية ١٨١ ولوامع الأنوار ١/ ١٣٢ ومعارج القبول ١/ ١٧١ ورسائل في العقيدة. لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ٨٦ .

أيعاذ بالمخلوق حاشاه من الإ ... شراك وهو معلم الإيمانِ
بل عاذ بالكلمات وهي صفاته ... سبحانه ليست من الأكوانِ
والله قد نادى الكليم وقبله ... سمع الندا في الجّنة الأَبوانِ
وأتى الندا في تسع آيات له ... وصفاً فراجعها من القرآن
أيصح في عقلٍ وفي نقلٍ ندا ... ليس مسموعا لنا بآذانِ؟

إلى أن قال:

أم أجمع العلماء والعقلاء ... من أهل اللِّسان وأهل كل لسانِ
أن الندا الصوت الرفيع وضده ... فهو النجا كلاهما صوتانِ
ومخاطب ومُحاسب ومنبئ ... ومحدِّث ومُخبر بالشانِ
ومُكلم متكلّم بل قائل ... ومحذر ومُبشِر بأمانِ
هاد يقول الحق يرشد خلقه ... بكلامه للحق والإيمانِ
فإذا انتفت صفة الكلام فكل ... هذا مُنتَفٍ متحقق البطلانِ
وإذا انتفت صفة الكلام كذلك ... الإرسال منفي بلا فرقانِ
فرسالة المبعوث تبليغ كلامِ ... المرسل الداعي بلا نقصانِ

قوله: (وينزل ويقترب من عباده كما يشاء)

ش: ونزول ربنا سبحانه وتعالى نزولًا يليق بجلاله كما وردت به الأحاديث الصحاح:

١ - عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ينزل الله تعالى إلى السماء الدنيا كلَّ ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول، فيقول: أنا الملك، أنا الملك من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له؟ فلا



يزال كذلك حتى يضيء الفجر»[١].

٢ - وعنه ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «ينزل اللَّه تعالى في السماء الدنيا لثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ أو يسألني فأعطيه؟ ثم يبسط يديه يقول: من يُقرض غير عديم ولا ظلوم؟»[٢].

٣ - وعن جبير بن مطعم عن رسول اللَّه ﷺ قال: «ينزل اللَّه في كلِّ ليلة إلى سماء الدنيا فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ حتى يطلع الفجر»[٣].

٤ - وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفر فأغفر له؟»[٤].

٥ - وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه إذا كان يومُ القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم»[٥].

٦ - وعن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري ﷺ قالا: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه تبارك وتعالى يُمهل حتى إذا ذهب شطر الليل، نزل إلى سماء الدنيا، فيقول: من يستغفرني فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه؟ حتى ينشق الفجر ثم يرتفع»[٦].

٧ - وعن أبي بكر الصديق ﷺ عن النبي ﷺ قال: «ينزل اللَّه تبارك وتعالى ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا فيغفر لكل نفس إلا إنسان في قلبه شحناء أو مشرك

---

(١) رواه مسلم والترمذي وأبو داود.
(٢) رواه مسلم والترمذي وأبو داود.
(٣) رواه أحمد والنسائي والدارمي وابن خزيمة وصححه الألباني (صحيح الجامع ٨١٦٧).
(٤) متفق عليه.
(٥) رواه الترمذي والحاكم وصححه الألباني (صحيح الجامع ١٧١٣).
(٦) رواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة ١/ ٢١٩ قال الألباني وسنده صحيح.

بالله عزَّ وجلَّ»[١].

٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة نزل الرب إلى العباد»[٢].

٩ - وعن أبي ثعلبة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا كان ليلة النصف من شعبان يطلع الله عزَّ وجلَّ إلى خلقه فيغفر للمؤمنين ويترك أهل الضغائن وأهل الحقد بحقدهم»[٣].

١٠- وقوله ﷺ: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً أو أمة من النار، من يوم عرفة، وإنه ليدنو، ثم يباهي بهم الملائكة فيقول: ماذا أراد هؤلاء. . .»[٤].

الآثار:

١ - الحافظ ابن خزيمة قال: «نشهد شهادةَ مُقرٍ بلسانه، مصدق بقلبه بما في هذه الأخبار من ذكر نزول الرب من غير أن يصف الكيفية لأن نبينا المصطفى لم يصف لنا كيفية، نزول خالقنا إلى سماء الدنيا وأعلمنا أنه ينزل والله جل وعلا (لم يترك) ولا نبيه رضي الله عنه ببيان ما بالمسلمين إليه الحاجة من أمر دينهم فنحن قائلون مصدقون بما في هذه الأخبار من ذكر النزول غير متكلفين القول بصفته أو بصفة الكيفية»[٥].

٢ - قول إسحق بن إبراهيم بن راهويه رحمه الله، قال أبو عبد الله الرباطي: حضرتُ مجلس الأمير عبد الله بن طاهر ذات يوم، وحضر إسحق بن راهويه، فسُئل عن حديث النزول: «أصحيح هو»؟ فقال: «نعم»، فقال له بعض قواد عبد الله: «يا أبا يعقوب! أتزعم أن الله ينزل كل ليلة؟» قال: «نعم» قال: «كيف ينزل؟» قال: «أَثبته فوق حتى

---

(١) المصدر السابق ١/ ٢٢٢ وصححه الألباني.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه الطبراني وابن أبي عاصم ٥١١ والبيهقي وحسّنه الألباني في صحيح الجامع ٧٧١ والصحيحة ١١٤٣ .

(٤) رواه مسلم من حديث عائشة ٢/ ٩٨٣، والنسائي وابن ماجة.

(٥) كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب ١٢٥ وكذلك معارج القبول ١/ ٢١٤ .



أصف لك النزول» فقال له الرجل: «أثبته فوق» فقال له اسحق: «قال اللّه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] فقال الأمير عبد اللّه بن طاهر: «هذا يوم القيامة»، فقال إسحق: «أعز اللّه الأمير ومن يجيء يوم القيامة من يمنعه اليوم»؟[١].

٣ - وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا قال الجهمي: «أنا أكفر برب يزول من مكانه». فقل: «أنا أؤمن برب يفعل ما يشاء»، ويروي عن يحيى بن معين مثله[٢] والأوزاعي.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكذا نزول الرب جلّ جلاله ... في النِّصف من ليل وذاك الثانِ
فيقول لست بسائل غير بأحـ ... ـوال العباد أنا العظيم الشانِ
من ذاك يسألني فيُعطى سؤله ... من ذا يتوب إليّ من عصيانِ
من ذاك يسألني فأغفر ذنبه ... فأنا الودود الواسع الغفرانِ
من ذا يريد شفاءه من سقمه ... فأنا القريب مجيب من نادانِ
ذا شأنه سبحانه وبحمده ... حتى يكون الفجر فجرا ثانِ

قوله: (وأن له وجها)

ش: مذهب أهل السنة والجماعة أن للّه تعالى وجها حقيقيا يليق به موصوفا بالجلال والإكرام قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

من السنة:

١ - حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول اللّه ﷺ:

«إن اللّه لا ينام، ولا ينبغي أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل

---

(١) شرح حديث النزول لابن تيمية ٣٩ .
(٢) شرح حديث النزول لابن تيمية ٤١ .

النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور[١] (أو النار) لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره»[٢].

٢ - وعن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن الرجل إذا دخل في صلاته أقبل اللَّهُ عليه بوجهه، فلا ينصرف عنه حتى ينقلب أو يحدث حدث سوء»[٣].

٣ - وعن عمار بن ياسر ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «اللَّهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا لي، اللَّهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الإخلاص في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيما لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بالقضاء، وأسألك بَرْد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، من غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللَّهم زيّنا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»[٤].

وعن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من استعاذ باللَّه فأعيذوه، ومن سألكم بوجه اللَّه فأعطوه»[٥].

٤ - عن عبد اللَّه بن قيس ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظرون إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[٦].

---

(١) قال الألباني: هذا الحجاب هو الذي يحجب الأبصار كلها أن تراه سبحانه وتعالى في الدنيا وهو الذي أشار إليه
النبي ﷺ بقوله حين سئل: هل رأيت ربك؟ نور إني أراه) مختصر العلو ٨٦ بالهامش.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه ابن ماجة قال الألباني حديث حسن (صحيح الجامع ١٦١٤).

(٤) رواه النسائي والحاكم وصححه الألباني (الجامع ١٣٠١).

(٥) رواه أحمد وأبو داود حديث حسن ٠ صحيح الجامع ٦٠٢٠ .

(٦) رواه ابن أبي عاصم وقال الألباني وإسناده صحيح على شرط الشيخين (كتاب السنة ١/ ٢٧٢).



٥ - وعن عبد اللّه بن عمرو رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا دخل المسجد قال: «أعوذ باللّه العظيم، وبوجهه الكريم، وبسلطانه القديم من الشيطان الرجيم. .»[١].

وقال أبو الحسن الأشعري: «للّه تعالى وجه بلا كيف، كما قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾قال: «ونصّدق بجميع الروايات التي يثبتها أهل النقل» وقال القاضي أبو بكر بن الباقلاني: فإن قال قائل: «فما الدليل على أن للّه تعالى وجها»؟ قيل له: «قول اللّه تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾».

وقال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه : «وله تعالى يد، ووجه، ونفس فما ذكر اللّه تعالى في القرآن من ذكر الوجه، واليد، والنفس فهو له صفات بلا كيف»[٢].

٦ - وعن جابر رضي الله عنه ، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]. قال رسول اللّه ﷺ: **(أعوذ بوجهك)** قال: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: **(أعوذ بوجهك)** ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال رسول اللّه ﷺ: **(هذا أهون أو هذا أيسر)**[٣].

قال محمد بن اسحق[٤]: «جميع علمائنا من أهل الحجاز، وتهامة، واليمن، والعراق، والشام، ومصر، يثبتون للّه عزَّ وجلَّ ما أثبته اللّه لنفسه، من غير تشبيه وجه الخالق بوجه أحد من المخلوقين عز ربنا وجل عن شبه المخلوقين وجلّ عن مقالة المعطلين»[٥] ثم ساق الأدلة بعد ذلك.

وقال محمد بن إسحق[٦] في قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]. دلالة أن وجه اللّه صفة من صفات اللّه، صفة الذات، لا أن وجه اللّه هو اللّه ولا أنه

---

(١) رواه أبو داود وصححه الألباني (صحيح الجامع ٤٧١٥).
(٢) لوامع الأنوار ١/ ٢٢٧ .
(٣) رواه البخاري وأحمد والنسائي والطبري.
(٤) هو ابن خزيمة.
(٥) الحجة في بيان المحجة للأصبهاني تحقيق الشيخ محمد بن ربيع بن هادي ١/ ١٩٩ .
(٦) هو ابن منده. المصدر السابق ١/ ٢٠١ .

وجهه غيره، لأن وجهه لو كان اللّه لقرئ ويبقى وجه ربك ذي[١] الجلال والإكرام.

قال (ابن خزيمة): «وزعمت الجهمية أن أهل السنة ومتبعي الآثار القائلين بكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ المثبتين للّه عزّ وجلّ من صفاته ما وصف اللّه به نفسه في محكم تنزيله، المثبت بين الدفتين، وعلى لسان نبيه ﷺ بنقل العدل عن العدل موصولا إليه مشبهة جهلا منهم بكتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ، ونحن نقول وعلماؤنا جميعا أن لمعبودنا عزَّ وجلَّ وجها، كما أعلمنا اللّه في محكم تنزيله، ووصفه بالجلال والإكرام، وحكم له بالبقاء، وهو محجوب عن أبصار أهل الدنيا لا يراه بشر مادام في الدنيا ووجه ربنا قديم لم يزل باق لا يزال، فنفي عنه الفناء، ووجوه بني آدم محدثة مخلوقة، لم تكن فكوَّنها اللّه فانية غير باقية، فهل في هذا تشبيه وجه ربنا عزَّ وجلَّ بوجوه بني آدم غير اتفاق اسم الوجه وإيقاع اسم الوجه على وجه بني آدم كما سمي اللّه تعالى وجهه وجها»[٢].

قوله: (ويدا)

ش: ومذهب أهل السنة والجماعة أن للّه تعالى يدين اثنتين مبسوطتين بالعطاء والنعم وهما من الصفات الذاتية الثابتة له حقيقة على الوجه اللائق به[٣].

فمن أدلة الكتاب:

الآية التي ساقها المصنف حفظه اللّه كذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤] وقوله سبحانه: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٨٣] وقوله تعالى لإبليس: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]. وقوله: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

---

(١) أي: فليكون حينئذ صفة لـ (ربك) ولكنه لما كان صفة لـ (وجه) في الاعراب وهو الرفع. (المحجة في بيان المحجة ١/ ٢٠١ الهامش).

(٢) الحجة في بيان المحجة ١/ ٢٠٢ .

(٣) رسائل في العقيدة للشيخ ابن عثيمين ٧٢ .

ومن أدلة السنة:

١ - حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «يد اللّه ملأى لا يغيضها نفقة، سخاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يغض ما في يده وكان عرشه على الماء وبيده الميزان يخفض ويرفع»[١].

٢ - ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «احتجّ آدم وموسى فقال موسى: أنت آدم الذي خلقك اللّه بيده، ونفخ فيك من روحه. . .» الحديث[٢].

وفي رواية: «فقال آدم: يا موسى اصطفاك اللّه بكلامه، وخَطّ لك التوراة بيده»[٣].

٣ - وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن اللّه أخذ الميثاق من ظهر آدم بـ (نعمان)[٤] يوم عرفة. وأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذّرِّ ثم كلمهم قبلا قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]»[٥].

٤ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن اللّه تعالى لما خلق الخلق كتب بيده على نفسه: إن رحمتي تغلب غضبي»[٦].

٥ - وعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «إن اللّه تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»[٧].

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة والسنة لعبد اللّه بن أحمد بن حنبل والبيهقي في شعب الإيمان.
(٤) (نَعمان): بالفتح ثم السكون، وآخره نون، وهو نعمان الأراك، وهو بين مكة والطائف. وقيل: واد لهذيل على ليلتين من عرفات، وقيل إنه واد قريب من الفرات على أرض الشام (معجم البلدان لياقوت الحموي ٥/٢٩٣) وقد يكون الأول أرجح. واللّه أعلم.
(٥) رواه أحمد والنسائي والبيهقي وصححه الألباني (الجامع ١٧٠١).
(٦) الترمذي وابن ماجة وصححه الألباني (صحيح الجامع ١٨٠٣).
(٧) رواه أحمد ومسلم.

٦ - ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن اللّه تعالى يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه، فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره، حتى أن اللقمة لتصير مثل أُحد»[١].

٧ - ومن حديث أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهم أن رسول اللّه ﷺ قال:

«يقبض اللّه الأرض يوم القيامة ويطوي السموات بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟»[٢].

٨ - ومن حديث المغيرة بن شعبة وهو على منبره يقول: قال رسول اللّه ﷺ: «إن موسى سأل ربه عزَّ وجلَّ، فقال: «يا رب أخبرني بأدنى أهل الجنة منزلة»؟. فقال: «يا رب فأخبرني بأعلاهم منزلة»: قال: «هذا الذي أردت فسوف أخبرك» قال: «غرستُ كرامتهم بيدي وختمتُ عليها، لم تر عين ولم تسمع أذن، ولم يخطر ذلك على قلب بشر. . .» الحديث[٣].

٩ - وعن النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «الميزان بيد الرحمن يرفع قوما ويخفض آخرين»، قال أبو حنيفة رضي الله عنه في الفقه الأكبر: له يد ووجه ونفس كما ذكر تعالى في القرآن من ذكر اليد والوجه والنفس فهو له صفة بلا كيف ولا يقال: إن يده قدرته ونعمته لأن فيه إبطال الصفة. انتهى[٤].

فائدة ما جاء من ذكر الكف والإصبع:

١- عن هشام بن حكيم رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن اللّه أخذ ذرية آدم من ظهره ثم أشهدهم على أنفسهم: «ألست بربكم؟» قالوا: «بلى»، ثم أفاض بهم في كفيه. .» الحديث[٥].

---

(١) الترمذي وصححه الألباني (صحيح الجامع ١٩٠٢).
(٢) البخاري والنسائي وابن ماجة.
(٣) رواه مسلم وابن خزيمة في كتاب التوحيد ٦٩ .
(٤) شرح العقيدة الطحاوية ٢٤٠ .
(٥) البيهقي والطبراني والبزار وصححه الألباني (١٧٠٢ الجامع).



٢ - وعن ابن مسعود ﷺ قال: «جاء حَبر من الأحبار إلى رسول اللّه ﷺ فقال: «يا محمد» إنا نجد أن اللّه يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع فيقول: «أنا الملك»، **فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر ثم قرأ:** ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧](١).

٣ - وعن عبد اللّه بن عمرو بن العاص ﷺ سمع رسول اللّه ﷺ يقول: «قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن عزَّ وجلَّ كقلب واحد يصرفه كيف يشاء» ثم قال رسول اللّه ﷺ: «اللّهم مُصرِّف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك»(٢).

٤ - وعن أنس قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن اللّه عزَّ وجلَّ وعدني أن يدخل الجنة من أمتي أربعمائة ألف، فقال أبو بكر ﷺ : «زدنا يا رسول اللّه»

قال: وهكذا (وجمع يديه) فقال: «زدنا يا رسول اللّه»، فقال: هكذا (وجمع يديه)، فقال عمر ﷺ : «حسبك يا أبا بكر» فقال أبو بكر ﷺ : «دعنا يا عمر ما عليك أن يدخلنا اللّه الجنة كلنا»، فقال عمر ﷺ : «إن اللّه تعالى إن شاء أن يدخلنا الجنة بكف واحد فَعَل»، فقال النبي ﷺ: «صدق عمر»(٣).

وقال العلامة الشيخ محمد بن أحمد السفاريني: «فإذا استحضرت ما ذكرناه وفهمت معنى ما تلوناه، فاعلم أن مذهب السلف الصالح وعلماء الحنابلة ومَن وافقهم من أهل الأثر أن المراد باليدين إثبات صفتين ذاتيتين تسميان يدين تزيدان على النعمة والقدرة، محتجين بما مر من الآيات القرآنية والأخبار النبوية، ولا يصح تأويل من قال إن المراد باليد: بالقدرة، فإن قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] لا يصح أن يكون معناه: بقدرتيّ

---

(١) متفق عليه.
(٢) أحمد ومسلم والاجري والدار قطني في كتابه الصفات.
(٣) أحمد وابن أبي عاصم فلي سننه قال الألباني واسناده صحيح على شرط مسلم (كتاب السنة لابن أبي عاصم ١/ ٢٦٢).

مع تثنية اليد ولو صح ذلك لقال إبليس: " وأنا أيضا خلقتني بقدرتك، فلا فضل له عليّ بذلك، فإبليس مع كفره كان أَعْرف بربه من الجهمية ولا دليل لهم في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ [يس: ٧١].

لأنه تعالى جمع الأيدي لما أضافها إلى ضمير الجمع ليتناسب الجمعان فاللفظان للدلالة على الملك والعظمة ولم يقل (أيدي) مضافا إلى ضمير المفرد ولا (أيدينا) تثنية اليد ومضافا إلى ضمير الجمع فلم يكن قوله: (مما عملت أيدينا) نظير قوله: (لما خلقت بيدي)[١].

قوله: (وَقَدَما)

ش: نُثبت أن للّه قدماً سبحانه وتعالى للأدلة التالية:

١ - حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «لا تزال جهنم يُلقى فيها»، وتقول: «هل من مزيد» حتى يضع الجبار تبارك وتعالى فيها قدمه فهنالك تنزوي[٢] وتقول: «قط، قط»[٣].

٢ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «تحاجت الجنة والنار فقالت النار: «أُوثرت بالمتكبرين والمتجبرين»، وقالت الجنة: «مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم»، قال اللّه تبارك وتعالى للجنة: «أنتِ رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي»، وقال للنار: «إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي» ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رِجْلَه فتقول:

«قط، قط، قط»، فهنالك تمتلئ وينزوي بعضها إلى بعض ولا يظلم اللّه عزَّ وجلَّ من خلقه أحدا وأما الجنة فإن اللّه عزَّ وجلَّ ينشئ لها خلقاً»[٤].

---

(١) شرح الطحاوية ٢٤١ .
(٢) تنزوي: أي ينضم بعضها إلى بعض.
(٣) قط قط: أي حسبي حسبي وتكرارها لتأكيد الأمر (ابن الأثير في النهاية) ويقول القاضي عياض فتقول النار قد كفى كفى مثل قط قط.
(٤) البخاري.

قال ابن حجر في الفتح بعد هذا الحديث: «واختلف في المراد بالقدم فطريق السلف في هذا وغيره مشهورة وهو أن تمر كما جاءت ولا يتعرض لتأويله بل نعتقد استحالة ما يوهم النقص على اللّه»(١).

قوله: (وساقا)

ش: أي ونثبت أن للّه سبحانه وتعالى ساقاً

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى مَن كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقا واحدا»(٢)(٣).

* * *

(١) الفتح ٨/ ٥٩٦ وعَلّق على هذا الشيخ محب الدين الخطيب رحمه الله بقوله: (وهذا هو الصواب الذي كان عليه سلف الأمة من الصحابة إلى الأئمة المتبوعين، وباب التأويل هو الذي دخل منه جميع أصحاب مذاهب الضلال إلى ضلالاتهم والغيب قد استأثر اللّه بعلمه وكما قال الإمام مالك في الاستواء (الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة (الفتح ٨/ ٥٩٦).

(٢) متفق عليه.

(٣) وأورده كذلك ابن كثير في تفسير الآية ٤/ ٤٣٠ .

القضية الرابعة عشرة: قال المُصَنِّف حفظه اللّه:

«نؤمن أنه سبحانه وتعالى القويَ العزيز وأنه على كل شيء قدير، وأنه لا يعجزه شيء ولا يؤوده حفظ السموات والأرض، ولا حول ولا قوة لأحد ولا لشيء إلا به سبحانه، وأنه الفعال لما يريد».

قوله: (القوي)

الشرح: وهو من أسماء اللّه الحسنى فاللّه عزّ وجل قوي، قادر على الأشياء كلها، لا يعجزه شيء منها[(١)].

قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أي لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب)[(٢)].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج: ٤٠].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وصف نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديرا، وبعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل كل شيء ذليل لديه فقير، إليه ومن كان القوي العزيز ناصره فهو المنصور وعدوه هو المقهور». قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١][(٣)] ومن قوته سبحانه وتعالى أن أَصْل رزقه إلى جميع العالم، وأن السموات والأرض جميعا قبضته يوم القيامة، وأنه يمسك السموات والأرض أن تزولا، وأنه يبعث الأموات

---

(١) اشتقاق أسماء اللّه ١٤٩ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٥٣ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٥٠ .



بعدما تمزقوا، ومن قوته إيجاد الأجرام العلوية والسفلية[١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهو القوي له القوة جميعا تعـ ـالى رب ذي الأكوان والأزمانِ

قوله (العزيز):

ش: قال الراغب: «العزيز الذي يَقهر ولا يُقهر».

والعزيز في كلام العرب على أربعة أوجه:

الوجه الأول العزيز: الغالب القاهر

أ - العِزة: الغلبة

- المعازة: المغالبة ومنه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]. أي غلبني في محاورة الكلام ومنه قولهم (من عزّ بزّ) أي من غلب سلب.

ب - والعزازة: مصدر العزيز أيضا

الوجه الثاني: والعزيز: الجليل الشريف ومنه قولهم: إذا عزّ أخوك فَهُن[٢].

وكذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] أي ليخرجن الجليل الشريف منها الذليل.

الوجه الثالث: العزيز بمعنى القوي - يقال «عزّ فلان بعد ضعف أي قوي»

الوجه الرابع: العزيز بمعنى الشيء القليل الوجود والمنقطع النظير، يقال: (عزّ الشيء عِزّةً فهو عزيز) غير موجود النظير والمثل جل وتعالى عن ذلك علوا كبيرا[٣]، فهو سبحانه العزيز: الذي هو اسم من أسمائه قال تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

(١) الكواشف الجلية ١٤٣ .
(٢) معناه: إذ غلبك وقهرك فلم تقاومه فتواضع له فإن اضطرابك عليه يزيدك ذلا (تهذيب اللغة).
(٣) اشتقاق أسماء الله ٢٣٧ .



﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦]. وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

وقال تعالى: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣].

وهو سبحانه له العزة صفة، قال تعالى عن إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]. فالعزة التي للَّه هي الدائمة الباقية، وهي العزة الحقيقية الممدوحة وقد تستعار العزة للحمية والأنفة فيوصف بها الكافر والفاسق، وهي صفة مذمومة ومنه قوله تعالى: ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

وأما قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]. فمعناه: من كان يريد أن يعز فليكتسب العزة من اللَّه، فإنها له ولا تنال إلا بطاعته. . .(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «يبقى رجل بين الجنة والنار وهو آخر أهل النار دخولا الجنة، فيقول: «رب اصرف وجهي عن النار، لا وعزتك لا أسألك غيرها»(٢) وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقول: «أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت الذي لا يموت والجن والإنس يموتون»(٣).

قال ابن القيم رحمه الله:

وهو العزيز فلن يرام جنابه ... أنَّى يرام جناب ذي السلطانِ
وهو العزيز القاهر الغلّاب لم ... يغلبه شيء هذه صفتانِ
وهو العزيز بقوة هي وصفه ... فالعز حينئذ ثلاث معانِ
وهي التي كملت له سبحانه ... من كل وجه عادم النقصانِ

---

(١) قال ابن حجر: والذي يظهر أن مراد البخاري بالترجمة إثبات العزة للَّه رَدا على من قال إنه العزيز بلا عزة كما قالوا العليم بلا علم (فتح الباري ١٣/ ٣٦٩-٣٧٠).

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه أحمد والبخاري.



قوله: (وأنه على كل شيء قدير)

ش: وأهل السنة عندهم أن اللّه على كل شيء قدير، وكل ممكن فهو مندرج في هذا. . وهذا الأصل هو الإيمان بربوبيته العامة التامة، فإنه لا يؤمن بأنه رب كل شيء إلا من آمن أنه قادر على تلك الأشياء، ولا يؤمن بتمام ربوبيته وكمالها إلا من آمن بأنه على كل شيء قدير(١).

و (كل) من صيغ العموم، و (القدير): أبلغ في الوصف بالقدرة من القادر، لأن القادر اسم الفاعل من قدر. بقدر فهو قادر وقدير: فعيل، وفعيل من أبنية المبالغة وهو من صفات الذات(٢).

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ٦].

وقوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨].

وقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، وقوله: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أي أن اللّه على كل ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير». وقال ابن جرير: «إنما وَصف اللّه تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع لأنه حذّر المنافقين بأسَه وسطوته، وأخبرهم أنه بهم محيط، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير».

ومعنى قدير: قادر كما أن معنى عليم عالم(٣).

---

(١) شرح الطحاوية ١٤٣ .
(٢) اشتقاق اسماء اللّه ٤٨ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٠ .

وقال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «والقوة» من صفات الذات، وهي بمعنى القدرة، ولم يزل سبحانه وتعالى ذا قوة وقدرة، ولم تزل قدرته موجودة قائمة به موجبة له حكم القادرين وقال البيهقي رَحِمَهُ اللَّهُ: «القوي»، التام القدرة، لا ينسب إليه عجز فهي حالة من الأحوال، ويرجع معناه إلى القدرة، والقادر هو الذي له القدرة الشاملة، والقدرة صفة له، قائمة بذاته و (المقتدر) هو التام القدرة الذي لا يمتنع عليه شيء[(١)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهو القدير فليس يعجزه إذا ... ما رام شيئا قط ذو سلطان

قوله: (وأنه لا يعجزه شيء)

ش: لكمال قدرته قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ [الأنفال: ٥٩].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تحسب يا محمد أن الذين كفروا سبقوا أي فاتونا فلا نقدر عليهم، بل هم تحت قهر قدرتنا وفي قبضة مشيئتنا فلا يعجزوننا، كقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [النور: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الرسالة: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠]. فخلت منهم منازلهم، وسُلِبوا ما كانوا فيه من النعيم بعد كمال القوة وكثرة العدد والعدة وكثرة الأموال والأولاد، فما أغنى ذلك شيئا ولا دفع عنهم من عذاب اللّه من شيء لما جاء أمر ربك، لأنه تعالى لا يعجزه شيء إذا أراد كونه في السموات والأرض[(٢)].

---

(١) فتح الباري ١٣/ ٣٦٠ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٥٥ .



قوله: (ولا يؤوده حفظ السموات والأرض)

ش: قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(لا يؤوده حفظهما)** أي لا يثقله ولا يكترثه حِفْظُ السموات والأرض، ومن فيهما ومن بينهما، بل ذلك سهل عليه، يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء فلا يعزب عنه شيء ولا يغيب عنه شيء والأشياء كلها حقيرة بين يديه...»(١).

وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥].

أي: أفأعجزنا ابتداءُ الخلق حتى هم في شك من الإعادة؟ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أولم ير هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، أي ولم يكترثه خلقهم بل قال لها: «كوني» فكانت بلا ممانعة ولا مخالفة، بل طائعة مجيبة خائفة وجِلة، أفليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ كما قال عزَّ وجلَّ في الآية الأخرى ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

ومثله قوله تعالى﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

قال ابن كثير في قوله **(وما مسّنا من لغوب)**: أي من إعياء ولا تعب ولا نصب(٢) لكمال قدرته.

---

(١) المصدر السابق ١/ ٣٣٣ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٤١ .

قوله: (ولا حول ولا قوة لأحد ولا لشيء إلا به سبحانه)

ش: قال ابن الأثير: الحول ها هنا: الحركة، يقال: حال الشخص يحول إذا تحرك، والمعنى: لا حركة ولا قوة إلا بمشيئة اللَّه تعالى.

وقيل: الحول: الحيلة، والأول أشبه[١] كما جاء في حديث أبي رافع، قال: كان النبي ﷺ إذا سمع المؤذن، قال مثل ما يقول حتى إذا بلغ حي على الصلاة حي على الفلاح، قال: لا حول ولا قوة إلا باللَّه[٢]. ومثله عن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول اللَّه ﷺ إذا غزا قال: «اللَّهم أنت عضدي، وأنت صبري، بك أَحُول، وبك أَصُول، وبك أقاتل»)[٣] أي: أتحرك.

وقال الطيبي في وجه المناسبة: «فأنه يقول هذا أمر عظيم لا أستطيع مع ضعفي القيام به إلا إذا وفقني اللَّه تعالى بحوله وقوته»[٤].

وقال أبو جعفر الطحاوي رحمه الله في معرض تفسير «لا حول ولا قوة إلا باللَّه»، نقول: لا حيلة لأحد، ولا تحول لأحد، ولا حركة لأحد عن معصية اللَّه إلا بمعونة اللَّه، ولا قوة لأحد على إقامة طاعة اللَّه، والثبات عليها إلا بتوفيق اللَّه، وكل شيء يجري بمشيئة اللَّه تعالى، وعلمه، وقضائه، وقدره[٥] ولهذا كان الرسول ﷺ يكثر من ذكر (لا حول ولا قوة إلا باللَّه) كقوله دبر كل صلاة حين يُسلِّم: «لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا حول ولا قوة إلا باللَّه»[٦].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «من أكل طعاما فقال الحمد للَّه الذي أطعمني هذا ورزقنيه من

---

(١) النهاية لابن الأثير ١/ ٤٦٢ .
(٢) رواه احمد والدارمي وابن خزيمة عن معاوية ورواه البخاري مختصرا.
(٣) أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبان صححه الألباني (صحيح الجامع ٤٧٥٧).
(٤) عون المعبود صديق حسن خان ١/ ٦٨٦ .
(٥) متن الطحاوية ١٣ فقرة ٨٧ وكذلك شرح الطحاوية ٥٠٢ .
(٦) رواه مسلم .



غير حول ولا قوة، غُفر له ما تقدم من ذنبه»(١).

وقال ﷺ لأعرابي: «قل: لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، اللّه أكبر كبيرا والحمد للّه كثيرا وسبحان اللّه رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العزيز الحكيم» الحديث.

قوله: (وأنه الفعّال لما يُريد)

ش: قوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]. و (الفعّال) اسم مبني لمبالغة الفعل يجري في ضروب من صفاته(٢). أي مهما أراد فعله لا معقب لحكمه، ولا يُسأل عمّا يفعل لعظمته وقهره وحكمته وعدله، كما روينا عن أبي بكر الصديق أنه قيل له وهو في مرض الموت: «هل نظر إليك الطبيب»؟ قال: «نعم»، قالوا: «فما قال لك»؟ قال: «قال لي: إني فعّال لما أريد»(٣).

وقال تعالى: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: قال تعالى ذكره لعباده: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ يقول: لو أراد اللّه أن يحجزهم بعصمته وتوفيقه إياهم عن معصيته فلا يقتتلوا ما اقتتلوا، ولا اختلفوا، ولكن اللّه يفعل ما يريد بأن يوفق هذا لطاعته والإيمان به فيؤمن به ويطيعه ويخذل هذا فيكفر به ويعصيه(٤).

---

(١) رواه أحمد وأصحاب السنن والحاكم وحسنه الألباني صحيح الجامع.
(٢) اشتقاق أسماء اللّه لأبي الزجاجي ١٥٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٦٤٠.
(٤) جامع البيان ٣/ ٢.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، فكل ما أراد فِعْلَه واقتضته حكمته فَعَلَه تبارك وتعالى لا يَرده أحد عن مراده[١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٤] وذلك بعد أن ذكر أنه يدخل الذين آمنوا جنات تجري من تحتها الأنهار أنه يعطي ما يشاء من كرامته أهلَ طاعته، وما شاء من الهوان لأهل معصيته[٢].

وقال تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. لعظمته وعزته وكمال قدرته لا يقدر أحد أن يمانعه أو يعارضه لا بقول ولا بفعل ولكمال حكمته ووضعه الأشياء في مواضعها وإتقانها، أحسن كلَ شيء يقدره العقل فلا يتوجه إليه سؤال لأن خلقه ليس فيه خلل ولا إخلال.

(وهم): أي المخلوقين كلهم (يُسألون) عن أفعالهم، وأقوالهم لعجزهم، وفقرهم ولكونهم عبيدا قد استحقت أفعالهم، وحركاتهم فليس لهم من التصرف والتدبير في أنفسهم ولا في غيرهم مثقال ذرة[٣].

ومن أفعاله هلاك الكفرة والمجرمين والمكذبين المعاندين، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٦- ٧]. أي ألم تر بقلبك وبصيرتك كيف فعل ربك بعاد، هذه الأمة الطاغية؟[٤] وهؤلاء كانوا متمردين، عتاة جبارين، خارجين عن طاعته، مكذبين لرسله، جاحدين لكتبه، فَذَكر تعالى كيف أهلكهم، ودمرهم، وجعلهم أحاديث وعبر[٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ٢٦٠ للسعدي.
(٢) جامع البيان للطبري ٩/ ١١٨ .
(٣) تيسير الكريم الرحمن للسعدي ٥/ ١٣٢ .
(٤) المصدر السابق ٧/ ٢٨٨ .
(٥) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٦٥٤ .

وكذلك أصحاب الفيل الذين قال اللّه فيهم:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ① أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ② وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ③ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ④ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾ [الفيل]. أي: أما رأيت من قدرة اللّه وعظيم شأنه، ورحمته بعباده، وأدلة توحيده، وصدق رسوله ﷺ ما فعله اللّه بأصحاب الفيل الذين كادوا بيته الحرام، وأرادوا إخرابه[١] وهذه من النعم التي امتن اللّه بها على قريش فما صرف عنهم من أصحاب الفيل الذين كانوا عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها فأبادهم اللّهُ وأَرْغَم أنوفَهم[٢].

* * *

(١) تيسير الكريم المنان ٨/ ٣٢١ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٧١١ .

القضية الخامسة عشرة: قال االمُصَنِّف حفظه اللَّه:

«نؤمن أن اللَّه سبحانه وتعالى هو البر الكريم ذو الفضل والإحسان الذي ما من نعمة إلا منه، وما من عطاء إلا من عنده، وأنه لا راد لإحسانه ولا ممسك لفضله».

قوله (البَرّ)

الشرح: من أسمائه الحسنى البرّ

يقال: بررت والدي أبرهما، وهو رجل بر بوالديه، وذلك إذا أطاعهما.

واللَّه تعالى برّ بخلقه في معنى: أنه يحسن إليهم ويصلح أحوالهم(١) وكذلك إنعامه وإفضاله عليهم(٢).

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨]. ومعناه: الرفيق بعباده، يريد بهم اليسر، ولا يريد بهم العسر، ويعفو عن كثير من سيئاتهم، ولا يؤاخذهم بجميع جناياتهم ويجزيهم بالحسنة عشر أمثالها ولا يجزيهم بالسيئة إلا مثلها، ويكتب لهم الهمّ بالحسنة، ولا يكتب عليهم الهمّ بالسيئة(٣).

آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - مِن بِره سبحانه بعباده ما أعطاهم، وقسم لهم من الصحة والقوة والمال والجاه والأولاد والأنصار مما يخرج عن الحصر، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وكذلك ما مَنّ به على المؤمنين من التوفيق للإيمان والطاعات، فمنه سبحانه الإيجاد ومنه الإعداد ومنه الإمداد، فله الحمد في الأولى والمعاد.

---

(١) تفسير أسماء اللَّه الحسنى لأبي اسحاق الزجاج ٦١ .

(٢) اشتقاق أسماء اللَّه ١٩٩ .

(٣) قاله الحليمي، انظر النهج الأسمى للشيخ محمد الحمود حفظه اللَّه ٢/ ٦٠٥ .

٢ - ومن بِره سبحانه وتعالى بعباده إمهاله للمسيء منهم وإعطاؤه الفرصة بعد الفرصة للتوبة مع قدرته على المعالجة بالعقوبة قال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨]

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

ومنها أن يعرف برّه سبحانه في ستره عليه حال ارتكاب المعصية مع كمال رؤيته له ولو شاء لفضحه بين خلقه فحذروه وهذا من كمال برّه.

٣ - ولن ينال العبدُ بِرَّ اللّه تعالى به في الآخرة إلا باتباع ما يفضي إلى برّه ومرضاته ورحمته قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢][1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

والبِرّ في أوصافه سبحانه ... هو كثرة الخيرات والإحسانِ
صدرت عن البرّ الذي هو وصفه ... فالبِر حينئذ له نوعانِ
وصف وفعل فهو برّ محسن ... مولى الجميل ودائم الاحسانِ

قوله: (الكريم)

ش: قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (من أسماء اللّه تعالى الكريم) وهو الجواد المعطي الذي لا ينفد عطاؤه وهو الكريم المطلق)[2]، وقال (الزجّاج) - رَحِمَهُ اللَّهُ - الكريم: الجواد والكريم: العزيز، والكريم: الصفوح. هذه ثلاثة أوجه للكريم في كلام العرب كلها جائز. وصِف اللّه عزَّ وجلَّ بها، فإذا أُريد بالكريم الجواد أو الصفوح تعلق بالمفعول به لأنه لا بد من متكرم عليه ومصفوح عنه موجود، وإذا أُريد به العزيز

(١) النهج الأسمى ٦٠٦-٦٠٩ (بتصرف).
(٢) النهاية لابن الأثير ٤/١٦٦ .

كان غير مقتض مفعولا»[١] والكرم سرعة إجابة النفس وكريم الخلق وكريم الأصل[٢].

قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الأنفطار: ٦]. قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ:

«لو قال لي ما غرك بي»؟ لقلتُ: «ستورك المرخاة». وقال أبو بكر الورّاق لو قال لي: «ما غرّك بربك الكريم»؟ لقلت: «غرني كرم الكريم»[٣].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه رحيم حييّ كريم يستحي من عبده أن يرفع إليه يديه ثم لا يضع فيها خيرا»[٤]. ومن حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول اللَّه ﷺ قال: (إن اللَّه كريم يحب الكرماء، جواد يحب الجود ويحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها»[٥].

قوله: (ذو الفضل والإحسان)

ش: قال الحليمي: ومنها (ذو الفضل) وهو المنعم عما لا يلزمه[٦].

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: ٦١].

---

(١) اشتقاق اسماء اللَّه ١٧٦ .
(٢) تفسير أسماء اللَّه الحسنى ٥٠ .
(٣) (١) تفسير ابن كثير ٤/ ٦٢٠ .
(٤) رواه الحاكم وصححه الألباني (الجامع ١٧٦٨).
(٥) ابن عساكر والضياء وصححه الألباني (صحيح الجامع ١٨٠٠).
(٦) النهج الأسمى ٢/ ٧٩٠ .

قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الشورى:٢٢].

وقال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأما قوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾: فإنه خبر من اللّه جَلّ ثناؤه عن أن كل خير ناله عبادُه في دينهم ودنياهم فأنه من عنده ابتداءً وتفضلا منه عليهم ومن غير استحقاق منهم ذلك عليه[١].

وقوله ﷺ في حديث الاستخارة: «. . . اللّهم إني استخيرك بعلمك، واستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم»[٢]. واللّه تعالى محسن ويحب الإحسان كما في حديث سمرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن اللّه تعالى محسن فأحسنوا»[٣] وبين الرسول ﷺ من الأمور التي يجب الإحسان فيها كما روي شداد ابن أوس عن النبي ﷺ أنه قال: «إن اللّه محسن يحب الإحسان، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحدّ أحدكم شفرته، ثم ليرح ذبيحته»[٤].

قوله: (الذي ما من نعمة إلا منه)

ش: نعم اللّه سبحانه وتعالى كثيرة جدا لا يمكن عدها ولا حصرها كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةًۗ﴾ [لقمان: ٢٠]. يقول تعالى منبها خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة بأنه سخر لهم ما في السموات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم، وما يخلق فيها من سحاب وأمطار وثلج وبرد، وجَعْلُه إياها سقفا محفوظا، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار وأسبغ

(١) جامع البيان ١/ ٣٧٨ .
(٢) رواه أحمد والبخاري وأصحاب السنن.
(٣) رواه ابن أبي عاصم وابن عدي في الكامل وصححه الألباني (الجامع ١٨٢٣).
(٤) رواه الطبراني في الكبير وصححه الألباني (الجامع ١٨٢٤).

عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب وإزاحة الشبه والعلل[١].

ومن هذه النِّعم:

١ - إكمال الدين لهذه الأمة، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

٢ - تأليف القلوب بين المسلمين، قال تعالى: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

٣ - إنجاؤه لبعض رسله وأوليائه، قال تعالى عن يونس ﷺ: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: ٤٩].

٤ - جريان السفن في البحر، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ [لقمان: ٣١].

واجبنا تجاه هذه النعم:

١ - **الإيمانُ والاعتراف بهذه النعم** ونسبتها إليه سبحانه، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [فاطر: ٣].

ومثله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

يقول تعالى مخبرا عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين في صرفه أعداءهم وهزمه إياهم عَامَ تِألبوا عليهم وتحزبوا، وذلك عام الخندق[٢].

٢ - **إظهار نعمته على العبد:** فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إن اللّه تعالى إذا أنعم على عبد نعمة يحب أن يرى أثر النعمة عليه. .»[٣].

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/٤٩٦ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/٥١٧ .
(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان وصححه الألباني في (الجامع ١٧١١).

٣ - التحدث بها: قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

قال رسول الله ﷺ: «من أعطى شيئاً فَوَجَدَ فَلْيَجْزِ به، ومن لم يجد فليثني به فإن أثنى به فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره»(١). وعن جابر أيضا قال: قال رسول الله ﷺ: «من أبلى بلاء فذكره فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره»(٢).

وقال أبو نضرة رحمه الله قال: كان المسلمون يرون أن من شكر النعم التحدث بها)(٣).

٤ - شكرُ اللّه مُسْدِي هذه النعم

والشكر يكون بلسان المقال:

كما قال تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [النمل: ١٩]، وقال تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤].

وتارة بلسان الحال:

وهذا يكون بالالتزام بالطاعات والابتعاد عن المنكرات قال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧]، أي بما جعلت لي من الجاه والعز والنعمة فلن أكون معينا للكافرين بك المخالفين لأمرك(٤).

تبديل نعم اللّه كفرا هو من أكبر أسباب العذاب في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١].

ومثله قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨].

قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه «هم مشركو قريش أتتهم نعمةُ اللّه: الإيمان فبدلوا

(١) أبو داود والترمذي والبخاري في الأدب وحسنه الألباني (الجامع ٦٠٥٦).
(٢) أبو داود والضياء وصححه الألباني (الجامع ٥٩٣٣).
(٣) ابن جرير الطبري في تفسيره.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٢١.

نعمة اللّه كفرا وأحلوا قومهم دار البوار»[١]. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]. قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه[٢]. وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

قوله: (وما من عطاء إلا من عنده)

ش: سواء كان هذا العطاء دنيويا أو أخرويا وسواء كان هذا العطاء لمؤمن أو فاسق فاجر، قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء]. يخبر تعالى أن كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة نمدهم فيما فيه، (من عطاء ربك) أي هو المتصرف الحاكم الذي لا يجور فيعطي كلًا ما يستحقه من السعادة والشقاوة، فلا رادّ لحكمه ولا مانع لما أعطى، ولا مغير لما أراد[٣].

وهناك عطاء خاص للمؤمنين في الآخرة قال تعالى: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، يخبر تعالى عن أتباع الرسل أن مأواهم الجنة ماكثين فيها أبدا (عطاء غير مجذوذ) أي غير مقطوع[٤] وقال تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣٦].

أي هذا الذي ذكرناه جازاهم اللّه به وأعطاهموه بفضله ومَنّه وإحسانه ورحمته عطاء حسابا أي كافياً وافياً سالماً كثيراً تقول العرب: «أعطاني فأحسبني» أي كفاني، ومنه

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٥٩٢ .
(٢) المصدر السابق ٢/ ٣٥٣ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٩ .
(٤) المصدر السابق.



حَسْبُ اللَّه أي اللَّه كَافٍ[١]، وكان رسول اللَّه ﷺ إذا فرغ من الصلاة قال: «لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللَّهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجدِ منك الجدُّ»[٢][٣].

قوله: (وإنه لا راد لإحسانه ولا ممسك لفضله)

ش: قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢١]، أي مَن هذا الذي إذا قطع اللَّهُ عنكم رزقه يرزقكم بعده؟ أي لا أحد يعطي ويمنع ويخلق ويرزق وينصر إلا اللَّه عزَّ وجلَّ وحده لا شريك له[٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمرانك ٧٣].

ومن الآثار الإيمانية التي تنبني عليها:

١ - حَمْد اللَّه وشكره قال تعالى عن داود وسليمان عليهما السلام: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥].

٢- سؤال العطاء منه سبحانه: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ بالنساء: ٣٢]. وفي قوله تعالى على لسان مريم: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] فما كان من شأن زكريا عليه السلام إلا أن قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨]

قال ابن القيم رحمه الله:

هو مانعٌ مُعْطٍ فهذا فضله والمنع عين العدل للمنان
ويعطي برحمته ويمنع من يشاء بحكمة واللَّه ذو سلطان

(١) المصدر السابق ٤/ ٤٩١ .
(٢) الجَد: الغِنى، أي: لا ينفع ذا الغنى منك غناه وإنما ينفعه الإيمان والطاعة.
(٣) متفق عليه.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٢١ .



٣ - نسبة الإحسان والعطاء والفضل إليه:

كما قال تعالى عن سليمان وموقفه بعد أن جيء له بعرش سبأ: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

٤ - التوكل على الله:

قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]. وقال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦].

٥ - الرضا والاقتناع بما قسمه الله له:

والاستعفاف بما في أيدي الناس وعدم حسدهم:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩].

وقوله تعالى عن أهل الكتاب واليهود خاصة: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ﴾ [النساء: ٥٤].

وقوله تعالى في زواج الفقراء: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

٦ - عدم البخل وإمساك فضل الله عن الناس:

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة: ٧٦].





القضية السادسة عشرة: قال المُصَنِّف حفظه الله:

«نؤمن أن اللّه سبحانه أعظم وأجل من أن يحيط أحدٌ من خلقه عِلْما به ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾، وأنه ليس بعد سلطانه سلطان، ولا بعد مُلكه مُلْك، وأنه لا يستطيع أحد أن يُثني عليه كما أثنى هو على نفسه، ونؤمن أنه لا يعلم اللّهَ على حقيقته إلا اللّه سبحانه وتعالى».

قوله: (المحيط)

الشرح: المحيط في اللغة اسم الفاعل من قولهم: أحاط فلان بالشيء فهو محيط به إذا استولى عليه، وضم جميع أقطاره ونواحيه حتى لا يمكن التخلص منه ولا فوته، فاللّه عزَّ وجلَّ محيط بالأشياء كلها لأنها تحت قدرته. ولا يمكن لشيء منها الخروج عن إرادته فيه ولا يمتنع عليه منها شيء.

وقد قال اللّه تعالى: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، أي علم كل شيء على حقيقته بجميع صفاته فلم يخرج شيء منها عن علمه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

يقول تعالى لرسوله ﷺ محرضاً له على إبلاغ رسالته ومخبرا له بأنه قد عصمه من الناس، فإنه القادر عليهم وهم في قبضته وتحت قهره وغلبته(٢).

أما الخَلْقُ فلا يحيطون به علما. كما قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلهم.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

أي لا يطلع أحد من علم اللّه على شيء إلا بما أعلمه اللّه عزَّ وجلَّ وأطلعه عليه

---

(١) اشتقاق أسماء اللّه ٤٦ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٥٥ .



ويحتمل أن يكون المراد لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته إلا بما أطلعهم اللَّه عليه كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾(١).

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]. وهذا قريب من قول صاحب الطحاوية رَحِمَهُ اللَّهُ (إن اللَّه سبحانه وتعالى لا تبلغه الأوهام ولا تدركه الأفهام، فتوهمت الشيء ظننته وفهمته: علمته فاللَّه لا ينتهي إليه وهم ولا يحيط به علم.

وقيل الوهم ما يرجى كونه أي يظن أنه على صفة كذا والفهم: هو ما يحصله العقل ويحيط به واللَّه تعالى لا يعلم كيف هو إلا هو سبحانه وتعالى وإنما نعرفه سبحانه بصفاته وهو أنه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٣- ٢٤].

قوله: (وأنه ليس بعد سلطانه سلطان)

ش: السلطان في كتاب اللَّه قد يأتي بمعنى الحجة والدليل والبرهان:

كقوله تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الحج: ٧١].

وقال تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٣٢ .



ويأتي تارة بمعنى القوة والقهر والأمر الكوني القدري:

كما قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن: ٣٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي لا تستطيعون هربا من أمر اللَّه وقدره بل هو محيط بكم لا تقدرون على التخلص من حكمه والنفوذ عن حكمه فيكم، أينما ذهبتم أُحيط بكم، وهذا في مقام الحشر والملائكة محدقة بالخلائق سبع صفوف من كل جانب فلا يقدر أحد على الذهاب. (إلا بسلطان) أي إلا بأمر اللَّه[١] وكقوله تعالى عن الشيطان: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩- ١٠٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإن قيل: فقد أثبت له على أوليائه ههنا سلطانا، فكيف نفاه بقوله تعالى حاكيا عنه مقرراً له؟: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ﴾ [سبأ: ٢١- ٢٢].

قيل: السلطان الذي أثبته له عليهم غير السلطان الذي نفاه من وجهين:

أحدهما:

أ - أن السلطان الثابت: هو سلطان التمكن منهم وتلاعبه بهم وسوقه إياهم كيف أراد بتمكينهم إياه من ذلك بطاعته وموالاته؟.

ب - والسلطان الذي نفاه: سلطان الحجة فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها غير أنه دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٨٩ .



الثاني: أن اللّه لم يجعل له عليهم سلطانا ابتداء البتة، ولكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته، ودخولهم في جملة جنده وحزبه، فلم يتسلط عليهم بقوته فإن كيده ضعيف، وإنما تَسَلّطَ عليهم بإرادتهم واختيارهم، والمقصود: أن مَن قَصَده أعظم أولياءه وأحبابه ونصحائه فأخذه وأخذ أولاده وحاشيته وسَلّمهم إلى عدوه كان من عقوبته: أن يسلط عليه ذلك العدو نفسه.

قوله: (ولا بَعْدَ مُلكه مُلك)

ش: اللّه سبحانه وتعالى هو الملك كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: ٢٣].

وكذلك فهو مالك الملك سبحانه وتعالى المتصرف كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

فالثابت لمن ملك من المخلوقين شيئا من متاع أو أرض أو تصرف في مجموعة من الناس أنه مستخلف ومورث ومختبر ومبتلى وليس ملكا حقيقيا بمعنى التصرف المطلق، والتملك الدائم، وانتفاء المسؤولية والابتلاء والاختبار، أما اللّه فهو المالك على الحقيقة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(إن اللّه يَملكنا ذاتا وتصرفا وعبودية) ولم يرض اللّه سبحانه وتعالى ولا يرضى أن يكون له شريك في ملكه لا على وجه الخلق سبحانه وتعالى ولا على وجه التصرف المطلق أي التصرف بهوى ودون التقيد بأوامره قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

وقال تعالى عن نفسه ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا



﴿ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٣][(١)].

وعندما أَهْلكَ اللَّهُ قومَ ثمود لظلمهم قال: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾[الشمس: ١٤].

فلا يخاف اللَّه سبحانه وتعالى عاقبة تصرف له تعالى اللَّه أن يكون له ند أو معقب.

أثر الإيمان بهذه الصفة:

١ - الإقرار والاعتراف بهذه الصفة:

إذا عَلِم العبدُ هذا، فأول واجب عليه أن يقر بهذا وأن يعترف به، لأن هذه صفة كمال ومدح للَّه سبحانه وتعالى، وأول التوحيد أن تشهد للَّه بما شهد سبحانه وتعالى به لنفسه ولذلك كان رسول اللَّه ﷺ يقول صباحا ومساء (أصبحنا وأصبح الملك للَّه، أمسينا وأمسى الملك للَّه)[(٢)] وهذا اعتراف وذكر منه ﷺ أنه المالك لكل شيء والمالك للملك كله هو اللَّه سبحانه وتعالى وإذا قام الليل افتتح صلاته بقوله:

(اللَّهم لك الحمد أنت مَلِك السّموات الأرض ومن فيهن)[(٣)] وبذلك يشعر المؤمن وهو قائم في صلاته أنه أمام من مَلَكَ أمره، ومَلَك أمر الناس جميعا فلا يرهب جبارا في الأرض ولا يخاف غير ربه تبارك وتعالى.

٢ - الاعتراف بأن للَّه الأمر والحُكم:

لأنه من مَلَك حَكَم، وكان هذا مما أنكره العرب أن يأتمروا بغير ما تمليه أهواؤهم وعقولهم وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥- ١١٦]، قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (عبثا): أي لا تُؤمرون ولا تُنهون. ثم عقَّب اللَّهُ على (عبثا) بقوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ ولذلك أيضا

(١) القطمير: هو اللفافة التي تكون على نواة التمرة، (ابن كثير ٣/ ٧٢٧) (القشرة الرقيقة البيضاء المحيطة بالنواة).
(٢) رواه مسلم من حديث عبد اللَّه بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان لنبي اللَّه ﷺ إذا أمسى قال أمسينا.
(٣) متفق عليه.



رفض سبحانه وتعالى أن يكون لغيره معه شيء وفي الأمر والحكم كما قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠] وجعل هذا من العبادة فقال بعد ذلك: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ١٩]. وقال تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧].

٣ - الإيمان بالمسؤولية أمام اللّه سبحانه وتعالى:

ولذلك فنحن نقرأ في كل ركعة من صلاتنا ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٣]. وكان الرسول ﷺ يقرؤها تارة ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وكلا اللفظين متضمن للآخر فالملك يملك ومن ملك حكم وخَصّ اللّهُ سبحانهَ وتعالى يومَ الدين هنا لأنه يكون ظاهرا للناس جميعا يوم القيامة، كما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «يَقبضُ اللّه الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض»(١) وعندئذ يعترف الجميعُ للّه رب العالمين بأنه الملك وحده وبهذه المسؤولية يلغي الحب والاحترام لكل طاغوت يشرع من عند نفسه، ويبقى في القلب الحب والتعظيم والتقديس والطاعة المطلقة للّه وحده رب العالمين وملك الناس سبحانه وتعالى(٢).

قوله: (وأنه لا يستطيع أحد أن يثني عليه كما أثنى هو على نفسه)

ش: قال النووي: (الثناء): الوصف الجميل والمدح والمجد والعظمة ونهاية الشرف كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «فقدتُ النبي ﷺ ذات ليلة (في الفراش) فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدمه وهو في المسجد وهما منصوبتان» وهو يقول: «اللّهمّ إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»(٣).

---

(١) رواه البخاري.

(٢) منهج جديد لدراسة التوحيد (الأسماء والصفات) ١/ ٥١-٥٨ للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق حفظه اللّه.

(٣) رواه مسلم وأصحاب السنن.



وكان رسول اللَّه ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: «اللَّهم ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، اللَّهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجدُّ»(١).

قوله: «ونؤمن أنه لا يعلم اللَّهَ على حقيقته إلا اللَّهّ سبحانه وتعالى»(٢).

* * *

(١) رواه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) وقد تكلّمت عن هذه النقطة في الفقرة السادسة عشر عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ بما يغني عن الإعادة.

حكمـة الخلـق

القضية السابعة عشرةَ: قال المُصَنِّف حفظه اللّه:

«نؤمن ونشهد أن اللّه سبحانه وتعالى ما خلق الخلق من ملائكة وجن وإنس وسموات وأرض إلا ليعبدوه ويسبحوه، وأنه ما من شيء إلا وهو يسبح بحمده، ويقدس له بلسان مقاله أو بلسان حاله».

قوله: «نؤمن ونشهد أن اللّه سبحانه وتعالى ما خلق الخلق من ملائكة وجن وإنس وسموات وأرض إلا ليعبدوه ويسبحوه. .»

الشرح: قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

الخلق: أصله التقدير المستقيم ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] أي إبداعهما بدلالة قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] وهذا لا يكون إلا للّه، ويستعمل في إيجاد الشيء من الشيء. نحو قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: ١]. ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ٤]. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].

قوله (إلا ليعبدوه)

ش: قال ابن كثير ومجاهد والربيع بن أنس رحمهم اللّه: أي إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم. وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أي إلا ليقروا بعبادتي طوعا أو كرها استدلالا بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥].

والسجود والعبادة كلاهما خضوع وتذلل للّه جل وعلا، واختار هذا القولَ ابنُ جرير الطبري. وقد رجح الإمام الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ القول الأول[1] وقال: التحقيق أن شاء اللّه

---

(١) وكذلك ابن تيمية في دقائق التفسير تحقيق محمد السيد الجليد ٤/ ٥٢٩ .



في معنى هذه الآية الكريمة (إلا ليعبدون) أي: إلا لآمرهم بعبادتي وابتليهم أي اختبرهم بالتكاليف، ثم أجازيهم على أعمالهم، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وإنما قلنا إن هذا هو التحقيق في معنى الآية لأنه تدل عليه آيات محكمات من كتاب اللّه فقد صرح تعالى في آيات من كتابه أنه خلقهم ليبتليهم أيهم أحسن عملا، وأنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم.

* قال تعالى في أول سورة هود: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ ثم بين الحكمة في ذلك فقال: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [هود: ٧].

* وقال تعالى في أول سورة الملك: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك: ٢]. وقال تعالى في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [الكهف: ٧].

فتصريحه جلّ وعلا في هذه الآيات المذكورة بأن حكمة خلقه للخلق هي ابتلاؤهم أيهم أحسن عملا يفسر قوله: (ليعبدون) وخير ما يُفسر به القرآنُ، القرآنُ.

وقد أنكر تعالى على الإنسان حسبانه وظنه أنه يُترك سدى أي مهملا لم يؤمر ولم ينه وبيّن أنه ما نقله من طَور إلى طور حتى أوجده إلا ليبعثه بعد الموت، أي ويجازيه على عمله قال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦-٣٧](١) إلى قوله: ﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [القيامة: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ المؤمنون: ١١٥] أي أفظننتم أنكم مخلوقون عبثا بلا قصد ولا إرادة منا، ولا حكمة لنا؟ وقيل للعبث: «أي لتلعبوا، وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب ولا عقاب»: ﴿وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ أي لا تعودون في الدار الآخرة، لا ليس الأمر كذلك، إنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر اللّه عزَّ

---

(١) أضواء البيان للعلامة الشنقيطي رحمه الله ٧/ ٦٧١ .

وجلّ، ثم نبعثكم ليوم لا ريب فيه فنجازي كلَ عامل بعمله، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وهذا بقوله تعالى لأهل النار توبيخا وتقريعا وتبكيتا بعد ما رأوا الحقائق عَيْنَ اليقين ثم قال تعالى منزها نفسه عما حسبوه ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [طه: ١١٤].

أي تقدّس أن يخلق شيئا عبثا فإنه الملك الحق المنزّه عن ذلك: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثا، وإنما خلقهم ليعبدون ويوحدوه(١).

قوله: «وأنه ما من شيء إلا وهو يسبح بحمده ويقدس له بلسان مقاله، أو بلسان حاله».

ش: قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأصل التسبيح: التنزيه، والتقديس، والتبرئة من النقائص، ثم استعمل في مواضع تقرب منه اتساعا، يقال: سبّحته، أُسَبّحُه تسبيحاً، وسبحانا، فمعنى سبحان اللّه: تنزيه اللّه(٢).

قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

يخبر تعالى أنه: تُقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن، أي: من المخلوقات، وتنزهه، وتعظمه، وتبجله، وتكبره عما يقول هؤلاءِ المشركون وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته:

ففي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

---

(١) معارج القبول ١/ ٣٠ .
(٢) النهاية لابن الأثير ٢/ ٣٣١ .



وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد اللَّه: (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) أي لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس لأنها بخلاف لغاتكم، وهذا عام في الحيوانات، والجمادات، والنباتات[١] وممن يُسبِّح له من مخلوقاته:

١ - تسبيح الملائكة:

قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وقال عنهم أيضا: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥].

٢ - تسبيح الأنبياء:

قال تعالى عن موسى: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقال تعالى: عن يونس عليه السلام: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

٣ - تسبيح الرعد:

قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣].

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذا سمع صوت الرعد قال: «سبحان من سَبَّحْتَ له» وروى كذلك عن ابن عباس، وأبي هريرة، وطاووس رضي الله عنهم في معنى قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ يعني: ويعظم اللَّهَ الرعدُ، ويمجده فيثني عليه بصفاته، وينزهه مما أضافه إليه من أهل الشرك به، ومما وصفوه به من اتخاذ الصاحبة والولد (تعالى ربنا وتقدس) وقوله: (من خيفته) يقول: وتسبيح الملائكة من خيفة اللَّه ورهبته[٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٧ .

(٢) جامع البيان ١٤/ ١٢٤ .



٤ - تسبيح الطير:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

يخبر اللّه تعالى أنه يسبح له من في السموات والأرض أي من الملائكة والأناسي والجان والحيوان حتى الجماد كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ أي في حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه، وهو يعلم ما هي فاعلة ولهذا قال تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ أي كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عباد اللّه عزَّ وجلَّ ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء[(١)].

٥ - تسبيح الجبال:

قال تعالى﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ الأنبياء: ٧٩].

أي وسخرنا مع داود الجبال والطيرُ يسبحن معه إذا سبح، وقال قتادة رضي الله عنه: «أي يصلين مع داود إذا صلى»[(٢)].

وقال ابن كثير رحمه الله: وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا ترنّم به، تقف الطير في الهواء فتجاوبه وترد عليه الجبال تأويبا، ولهذا لما مرّ النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيب جدا فوقف واستمع لقراءته وقال: (لقد أوتي هذا مزمارا من مزامير آل داود)[(٣)] يعني أبا موسى[(٤)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/٣٢٦ .
(٢) جامع البيان ١٧/ ٥٤ .
(٣) أحمد والنسائي وابن ماجة وصححه الألباني (الجامع ٥١٢٤) .
(٤) تفسير القرآن العظيم ٣/٢٠٧ .

القضية الثامنة عشرة: قال المُصنِّف حفظه اللَّه:

«ونشهد أن كل من تَأَبى عن تقديس اللَّه وعبادته من ملائكة أو جن أو إنس، يطرده اللَّهُ ويلعنه، كائنا من كان، وأن من نازع اللَّه في ألوهيته، ودعا إلى عبادة نفسه، أو عبادة غير اللَّه يلعنه ويعذبه ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

قوله: «ونشهد أن كل من تأبى عن تقديس اللَّه، وعبادته من ملائكة، أو جن، أو إنس يطرده اللَّه ويلعنه كائنا من كان».

الشرح: (أبى) عليّ - إباء، وإباءة: استعصى، والشيء: كرهه، ولم يرضه، وفي القرآن الكريم: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[التوبة: ٣٢]. وعنه: ترفع فهو: آب من قوم أباة[1]. قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧٢- ١٧٣].

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ﴾ لن يستكبر.

وقال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لن يحتشم المسيح أن يكون عبدا للَّه ولا الملائكة المقربون».

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾: أي: فسيجمعهم إليه يوم القيامة ويفصل بينهم بحكمه العدل الذي لا يجور فيه، ولا يحيف، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: فيعطيهم من الثواب على قدر أعمالهم الصالحة ويزيدهم من فضله وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾أي امتنعوا من طاعة اللَّه

---

(١) المعجم الوجيز ٤ .



وعبادته واستكبروا عن ذلك[١].

أما الملائكة فهم لا يستكبرون عن عبادة اللّه، ولهذا أول ما صدر لهم الأمر الإلهي بالسجود لآدم سجدوا، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾ [الأعراف: ١١].

وقال تعالى عن النار﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وأما الجنّ فمنهم المؤمن المسلم الطائع ومنهم العاصي والكافر المعاند، قال تعالى على لسانهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١].

وقال تعالى عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤].

ومن هذا البعض الذي كَفَر إبليسُ، قال تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر ٣٠-٣١]. فكان جزاؤه في الدنيا أن طُرد من رحمة اللّه ومن الجنة، قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣].

وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٨].. وقال تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٤- ٣٥].

أما في الآخرة فقال تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ۝٩٤ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤- ٩٥].

أما الإنس فهم الأكثر (والعياذ باللّه) امتناعا عن طاعة اللّه.

فقوم نوح لما دعاهم نبي اللّه نوح قال تعالى عنهم: ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧] فما كانت النتيجة؟.

قال تعالى عنهم: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١- ١٢].

(١) تفسير القرآن العظيم ١/٦٥١- ٦٥٥ .



وعاد قوم صالح: قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥- ٧٦].

فماذا كانت النتيجة؟

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ١٩- ٢٠].

والمنافقون: قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ ورَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥].

ما هي النتيجة؟

قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦].

وقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. وقال تعالى عنهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

قوله: «وأن من نازع اللّه في ألوهيته، ودعا إلى عبادة نفسه، أو عبادة غير اللّه يلعنه ويعذبه».

ش: نزع الشيء ينزعه، نزعا فهو منزوع، ونزيع، والمنازعة: المجاذبة في الأعيان والمعاني[(١)].

---

(١) كما في الحديث: أنه ﷺ صلى يوما فلما سلم من صلاته قال: مالي أنازع القرآن (أي أجاذب في قراءته؟) وذلك أن بعض المأمومين جهر خلفه فنازعه قراءته فشغله فنهاه عن الجهر بالقراءة في الصلاة خلفه (لسان العرب ٨/ ٣٤٩-٣٥١-٣٥٢).

ومن أوائل من عُرِف عنه هذا:

١) النمرود مَلِك بابل:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٥٨].

فكانت العاقبة:

أن بَعَثَ اللَّهُ إلى ذلك الملِك (النمرود) الجبار، مَلَكاً يأمره بالإيمان باللَّه فأبى عليه، ثم دعاه الثانية فأبى، ثم الثالثة فأبى، وقال: اجمع جموعك، وأجمع جموعي، فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس، وأرسل اللَّه عليهم بابا من البعوض، بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها اللَّه عليهم، فأكلت لحومهم، ودماءهم، وتركتهم عظاما بادية، ودخلت واحدة منها في منخري الملك، فمكثت في منخري الملك أربعمائة سنة عذبه اللَّه بها، فكان يضرب برأسه بالمرازب في هذه المدة حتى أهلكه اللَّه بها[١].

٢) فرعون مصر:

قال تعالى عنه: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣- ٢٤].

قال ابن عباس ومجاهد ﷺ وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]. بأربعين سنة وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

فكانت العاقبة:

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥- ٢٦].

أي انتقم اللَّهُ منه انتقاما، جعله به عبرة، ونكالا لأمثاله من المتمردين في الدنيا:

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٣٦ .

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩] والمراد بقوله: ﴿نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي في الدنيا والآخرة[١]، وقال تعالى: ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٩٠- ٩٢].

قال ابن كثير: (وجاوزتْ بنو إسرائيل البحر، فلما خرج آخرهم منه، انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى، وهو في مائة ألف أدهم، سوى بقية الألوان، فلما رأى ذلك: (أن البحر أصبح كالجبل العظيم، وأن الأرض قد نشفت) هاله، وأحجم، وهاب، وهمّ بالرجوع ! وهيهات، ولات حين مناص ! نفذ القدر، واستُجيبت الدعوة، وجاء جبريل عليه السلام على فرس وديق حائل، فمرّ إلى جانب حصان فرعون، فحمحم إليها، واقتحم جبريل البحر، فاقتحم الحصان وراءه، ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئا، فتجلّد لأمرائه وقال لهم: ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا، فاقتحموا كلهم عن آخرهم. فأمر الله البحر أن يرتطم عليهم[٢].

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩][٣].

أي من ادعى منهم أنه إله من دون الله، أي مع الله: ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي كل من قال ذلك، وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه كقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١][٤] بل إن الله سبحانه وتعالى يقرر هذا لعيسى بن مريم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ

(١) المصدر السابق.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٦٥ بتصرف.
(٣) ضمير الرفع في (يقل) والنصب في (يجزيه) عائد للملائكة.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٩٥ .

ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

وهذا مما يخاطب اللَّه به عبده ورسوله عيسى بن مريم ﷺ قائلا له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون اللَّه. وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد[1].

* * *

(١) المصدر السابق ٢/ ١٣٥ .



القضية التاسعة عشرة: قال المُصنِّف حفظه اللَّه:

«ونؤمن أن العبادة التي لا يقبل اللَّه من أحد غيرها هي الطاعة المطلقة للَّه سبحانه فيما عقل معناه، وما لم يُعقل معناه، مع كمال الذل، والخضوع والحب للَّه سبحانه».

قوله: (ونؤمن أن العبادة)

الشرح: العبادة في اللغة:

هي التذلل، والخضوع، يقال طريق معبّد: أي مذلل.

العبادة في الشرع: هي طاعة اللَّه بامتثال ما أمر اللَّه به على ألسنة الرسل.

وقيل أيضا: العبادة اسم جامع لكل ما يحبه اللَّه ويرضاه من الأعمال، والأقوال، والأفعال الظاهرة والباطنة(١).

لهذا فعندما أنزل اللَّه على رسوله ﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

اشتد ذلك على صحابة رسول اللَّه ﷺ فأتوا رسولَ اللَّه ﷺ ثم جثوا على الركب وقالوا: (يا رسول اللَّه! كُلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة، والصيام، والجهاد، والصدقة، وقد أُنزلت عليك هذه الآية، ولا نُطيقها فقال رسول اللَّه ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: «سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» فلما أقرّ بها القومُ، وذَلّت بها ألسنتهُم أنزل اللَّه في أثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها اللَّه فأنزل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا

---

(١) العبودية لابن تيمية.



كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾(١).

فهذا هو موقف المسلم الذي حقق معنى العبودية للَّه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

وهذه هي البيعة التي كان يبايع الصحابة عليها كما قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ﴾ [المائدة: ٧]: وهذه هي البيعة التي كانوا يبايعون عليها رسول اللَّه ﷺ عند إسلامهم.

كما قالوا: «بايْعنَا رسولَ اللَّه ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وأثرة علينا، وألا ننازع الأمرَ أهلَه»(٢).

وهذه الطاعة المطلقة للَّه سبحانه فيما عقل معناه، وما لم يُعقل معناه.

كما قال صاحب الطحاوية رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أن مبنى العبودية والإيمان باللَّه وكتبه ورسله، على التسليم، وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع، ولهذا لم يَحْكِ اللَّهُ سبحانه عن أمة نبي صدّقت بنبيها وآمنت بما جاء به، إنها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به، ونهاها عنه، وبلغها عن ربها ولو فعلتْ ذلك لما كانت مؤمنة بنبيها، بل انقادت وسلّمت، وأذعنت وما عَرفت من الحكمة عرَفتْه، وما خُفي عنها لم تتوقف في انقيادها وتسليمها على معرفته، ولا جعلت ذلك من شأنها، وكان رسولها أعظم عندها من أن تسأله عن ذلك، كما في الإنجيل: «يا بني إسرائيل لا تقولوا: لم أَمَرَ ربُنا؟ ولكن قولوا: بم أمر ربنا؟» ولهذا كان سلف هذه الأمة التي هي أكمل الأمم عقولا ومعارف وعلوما لا تسأل نبيَها لِم أمر اللَّه بكذا؟ ولم نهى عن كذا؟ ولم قدّر كذا؟ ولم فعل كذا؟ لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان، والاستسلام، وأن قَدَمَ الإسلام لا تثبت إلا على درجة التسليم،

---

(١) رواه أحمد ومسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/٤٣ والحديث رواه البخاري من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



فأول مراتب تعظيم الأمر التصديق به، ثم العزم الجازم على امتثاله، ثم المسارعة إليه والمبادرة به. والحذر عن القواطع والموانع، ثم بذل الجهد والنصح في الإتيان به على معرفة حكمته، فإن ظهرت له فَعَلَه، وإلا، عطّله، فإن هذا ينافي الانقياد، ويقدح في الامتثال، قال القرطبي ناقلا عن ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فمن سأل مستفهما راغبا في العلم. ونفى الجهل عن نفسه، باحثا عن معنى يجب الوقوف في الديانة عليه، فلا بأس به، فشفاء العيّ السؤال، ومن سأل متعنتا[1] غير متفقه، ولا متعلم، فهو الذي لا يَحِلُ قليلَ سؤاله ولا كثيره[2] وأن تكون هذه الطاعة والانقياد مع كمال الذل، والخضوع للَّه سبحانه وتعالى، فقد ينقاد الأسير، والعبد المملوك، والمكرَه لكن دون الإذلال، والانكسار، والخضوع، والحب، فلا يكون بهذا عابداً.

قال القرطبي: «أصل العبادة التذلل، والخضوع وسُميَت وظائف الشرع على المكلفين عباداتٌ: لأنهم يلتزمونها، ويفعلونها خاضعين متذللين للَّه تعالى !».

قوله: (والحب لله سبحانه)

ش: قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «أخبر تعالى أن من أحب من دون اللَّه شيئا كما يحب اللَّه تعالى فهو ممن اتخذ من دون اللَّه أندادا، فهذا نِدٌّ في المحبة لا في الخلق والربوبية فإن أحدا من أهل الأرض لا يُثبت هذا الندّ بخلاف ند المحبة فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون اللَّه أندادا في الحب والتعظيم».

---

(١) (متعنتا): قال ابن الأنباري: أصل التعنت التشديد فإذا قالت العرب: فلان يتعنت فلانا ويعنته فمرادهم بتشدد عليه ويلزمه بما يصعب عليه آراؤه وجاءني فلان متعنتا إذا جاء يطلب زلتك (لسان العرب ٢/ ٦١- ٦٢).

(٢) شرح الطحاوية ٢٩٠-٢ .

(٣) مدارج السالكين.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ وفي تقدير الآية قولان:

أحدهما: والذين آمنوا أشد حبا للّه من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها ويعظمونها من دون اللّه.

الثاني: والذين آمنوا أشد حبا للّه من المشركين بالأنداد للّه.

ورجح ابن تيمية القول الأول، ويقول: «إنما ذُموا بأن شرّكوا بين اللّه وبين أندادهم في المحبة، ولم يُخلصوها للّه، كمحبة المؤمنين له، وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم وهم في النار، أنهم يقولون لآلهتهم وأندادهم وهي محضرة معهم في العذاب: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧- ٩٨]، ومعلوم أنهم لم يساووهم برب العالمين في الخلق

والربوبية وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم وهذا أيضا هو العدل المذكور في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]. به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾إشارة إلى دليل المحبة، وثمرتها، وفائدتها، فدليلها وعلامتها: اتباع الرسول ﷺ وفائدتها وثمرتها محبة الرسول لكم، فما لم تحصل منكم المتابعة فمحبتكم له غير حاصلة، ومحبته لكم منتفية[١].

واعلم أن كمال المحبة لا تصلح إلا للّه، ومتى أحب العبد بها غيره كان شركا لا يغفره اللّه، وهي محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع، والتعظيم، وكمال الطاعة وإيثاره، على غيره، فهذه المحبة لا يجوز تعلقها بغير اللّه أصلا[٢].

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هي المنزلة التي يتنافس فيها المتنافسون، وإلى عملها

---

(١) فتح المجيد ٢٩٠-٢٩١ (بتصرف).

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٦٨ .



شمّر السابقون، وعليها تفانى المحبون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقُرّة العيون، وهي الحياة التي من حُرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده ففي بحار الظلمات، والشقاء: الذي من عدمه حلّت بقلبه جميع الأسقام، واللذة: التي من لم يظفر بها فَعَيْشُه كله هموم وآلام...[1].

* * *

(١) مدارج السالكين.

القضية العشرون: قال المُصنِّف حفظه اللَّه:

«ونؤمن أن الدين الذي لا يقبل اللَّه سواه من مَلك أو جِن أو إنس هو الإسلام: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

والإسلام: هو الاستسلام للَّه بالطاعة والخضوع».

الشرح: الإسلام، هذا الاسم الطيب الذي سمّى اللَّه به هذه الأمة تشريفاً، ورفعةً لها في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «اللَّه سماكم» وبمثله قال قتادة، ومجاهد والضحاك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١).

ويقول ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: يقول اللَّه تعالى ذكره: اجتباكم اللَّه، وسمّاكم أيها المؤمنون باللَّه وآياته، من أمة محمد ﷺ: مسلمين ليكون محمد رسول اللَّه ﷺ شهيدا عليكم يوم القيامة بأنه قد بلّغكم ما أُرسل به إليكم، وتكونوا أنتم شهداء حينئذ على الرسل أجمعين، أنهم قد بلغوا أممهم ما أُرسلوا به إليهم(٢).

وروى الإمام النسائي رَحِمَهُ اللَّهُ بسنده عند تفسير هذه الآية عن الحارث الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول اللَّه ﷺ قال: «من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثي جهنم» قال رجل: «يا رسول اللَّه، وإن صام، وإن صلى؟ قال: «نعم، وإن صام، وإن صلى، فادعوا بدعوة اللَّه التي سمّاكم بها المسلمين المؤمنين عباد اللَّه»»(٣).

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: ومعنى الدين في هذا الموضع: الطاعة والذلة كما في قول الشاعر:

---

(١) جامع البيان للطبري ١٧/٢٠٨ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) رواه النسائي وأحمد والترمذي والحاكم وصححه الألباني (الجامع ١٧٢٠).

ويوم الحزَن اذ حشدت معدُ وكان الناس إلا نحن دينا[١]

والإسلام: هو الانقياد بالتذلل، والخشوع، والفعل منه (أسلم) بمعنى: دخل في السِّلم، كما يقال: أقحط القوم: إذا دخلوا في القحط، وأربعوا: إذا دخلوا في الربيع، فكذلك أسلموا: إذا دخلوا في السِّلم: وهو الانقياد بالخضوع وترك الممانعة، فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ أن الطاعة التي هي الطاعة عنده، الطاعة له، وإقرار الألسن والقلوب له بالعبودية والذلة، وانقيادها له بالطاعة فيما أمر ونهى، وتذللها له بذلك من غير استكبار عليه، ولا انحراف عنه، دون إشراك غيره من خلقه معه في العبودية والألوهية[٢].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنه دين أنبيائه ورسله، وأتباعهم من أولهم إلى آخرهم، وإنه لم يكن للَّه قط ولا يكون له دين سواه. قال اللَّه تعالى على لسان أول الرسل نوح رَضِيَ ٱللَّهُ: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢].

قال اللَّه تعالى على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]..

وقال اللَّه تعالى على لسان يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لبنيه عند الموت: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وقال اللَّه تعالى على لسان موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

---

(١) (دين): وقوم دين أي دائنون «وكان الناس إلا نحن دينا»، ولم ينسبه ويريد: كان الناس خاضعين في يوم الحزن (لسان العرب نقلا من الطبري في الهامش ٣/ ٢١١.

(٢) جامع البيان للطبري ٣/ ٢١٢.

وقال تعالى: ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

وقال تعالى على لسان ملكة سبأ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

فالإسلام دين أهل السموات، ودين أهل التوحيد من أهل الأرض، لا يقبل اللَّه من أحد دينا سواه، فأديان أهل الأرض ستة: واحد للرحمن، وخمسة للشيطان:

فدين الرحمن هو الإسلام، والتي للشيطان: اليهودية والنصرانية(١) والمجوسية والصابئة ودين المشركين(٢).

قال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني بذلك جل ثناؤه: ومن يطلب دينا غير دين الإسلام ليدين به، فلن يقبل اللَّه منه، وهو في الآخرة من الخاسرين.

أي: من الباخسين أنفسهم حظوظها من رحمة اللَّه عزَّ وجلَّ(٣).

وقال الإمام البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

نزلت في اثني عشر رجلا ارتدوا عن الإسلام وخرجوا من المدينة، وأتوا مكة كفارا منهم الحارث بن سويد الأنصاري فنزلت فيهم: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾(٤).

* * *

(١) بعد التحريف والتزييف وأديان الشيطان أكثر من ذلك ولكن هذه أمهاتها.
(٢) التفسير القيم للإمام ابن القيم ص٢٠١ .
(٣) جامع البيان ٣/ ٣٣٩ .
(٤) تفسير البغوي ١/ ٣١٣ .

القضية الحادية والعشرون: قال المُصَنِّف حفظه اللّه:

«ونشهد أنه سبحانه لما خلق الَخلْق، جعل لكل شيء قدرا، ومقدارا ومنزلة: فللملائكة أقدارهم ومنازلهم، وللجن كذلك، وللإنس كذلك، وأوجب على كل أحد أن يلزم قدره، ومقداره، ومنزلته».

قوله: (جعل لكل شيء قدرا)

الشرح: قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢-٣].

عن عبد اللّه بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «قدّر اللّه مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»(١).

وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

قال الإمام البغوي رحمه الله: «فسواه، وهيأه لما يصلح له، لا خلل فيه، ولا تفاوت، وقيل: قدّر لكل شيء تقديرا من الأجل، والرزق فَجرَتِ المقادير على ما خلق»(٢).

وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

قال قتادة رحمه الله: أي بأجل، فَحَفِظَ أرزاق خلقه وآجالهم، وجعللذلك أجلا معلوما. وفي الحديث الصحيح: إن إحدى بنات النبي ﷺ بعثت إليه: أن ابناً لها في الموت، وأنها تحب أن يحضره، فبعث إليها يقول: «إن للّه تعالى ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مُسمّى، فَمُروها فلتصبر ولتحتسب»(٣).

---

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذي بلفظ كتب اللّه مقادير رقم ٨/ ٥١ .
(٢) تفسير البغوي (معالم لتنزيل) ٦/ ٧١ .
(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم.

وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجرات: ٢١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: كما يشاء وكما يريد، ولما له في ذلك من الحكمة البالغة والرحمة بعباده، لا على جهة الوجوب بل هو كتب على نفسه الرحمة، قال يزيد بن أبي جحيفة عن عبد اللَّه: «ما من عام بأمطر من عام، ولكن اللَّه يُقسّمه بينهم حيث شاء، عاما ههنا، وعاما ههنا ثم قرأ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾.

ورواه ابن جرير. . عن الحكم بن عتبة قال: «ما عام بأكثر من عام، ولا أقل، ولكنه يُمطَر قوم، ويُحرم آخرون بما كان في البحر»[١].

قوله: (فللملائكة[٢] أقدارهم ومنازلهم)

ش: كما قال اللَّه تعالى عنهم ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي له موضع مخصوص في السموات ومقامات العبادات لا يتجاوزه ولا يتعداه. . . فعن عبد الرحمن بن العلاء بن سعد عن أبيه أن رسول اللَّه ﷺ قال يوما لجلسائه: (أَطَّت[٣] السماء وحق لها أن تئط، ليس فيها موضع قدم إلا عليه مَلَك راكع أو ساجد ثم قرأ الآية»[٤] وروي مثله عن مسروق عن عائشة وابن عباس[٥].

قوله: (وللجن كذلك وللإنس كذلك)

ش: كما قال تعالى﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٧٢ .
(٢) سيأتي مزيد بيان في باب ثانيا (الإيمان بالملائكة).
(٣) (أطَّت): أطا وأطيطا: صوت (المعجم الوجيز).
(٤) رواه ابن مردويه وصححه الألباني (صحيح الجامع ١٠٣١).
(٥) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣٢ .

أي: لا تستطيعون هربا من أمر اللّه وقدره بل هو محيط بكم لا تقدرون على التخلص من حكمه ولا النفوذ عن حُكمه فيكم أينما ذهبتم أحيط بكم[(١)].

فلكل خلق من مخلوقات اللّه سبحانه وتعالى قدر ومنزلة لا يتجاوزها سواء كانت هذه المنزلة جاها أو صفة، ولهذا جاء في حديث ابن صياد أن رسول اللّه ﷺ قال له: (ماذا ترى؟ قال: (يأتيني صادق وكاذب) قال رسول اللّه ﷺ: «خلّط عليك الأمر» قال رسول اللّه ﷺ (إني خبّأت لك خبيئا) وخبأ له: ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠]، فقال: (هو الدُّخ)[(٢)] فقال: (اخسأ فلن تعدو قدرك)[(٣)].

فالفاسق والكافر يكابر والمؤمن يقر ويلتزم ويعترف:

كما قال تعالى حاكيا عن عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦- ١١٨].

* * *

(١) المصدر السابق ٤/ ٣٥٠.
(٢) الدُّخ: الدخان.
(٣) متفق عليه.



القضية الثانية والعشرون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«ونشهد أنه سبحانه وتعالى أمر الجن والإنس بعبادته لم يخلقهم إلا من أجل هذه العبادة وأنه ابتلاهم بالخير والشر واختبر طاعتهم وأن الجن والإنس كلٌ منهم يكسب الخير والشر باختيار نفسه، ولكن أحدا منهم لا يُوقع الخير إلا بتوفيق من اللَّه وإعانة، ولا يوقع الشر جبرا على الله، ولكن في إطار إذنه ومشيئته».

قوله: «أَمَر الجن والإنس بعبادته ولم يخلقهم إلا من أجل هذه العبادة».

الشرح: قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (إلا ليعبدون) أي: إلا لآمرهم أن يعبدوني وأدعوهم إلى عبادتي) يؤيده قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [التوبة: ٣١].

وقيل: «معناه إلا ليخضعوا إليّ ويتذللوا ومعنى العبادة في اللغة: التذلل والانقياد فكل مخلوق من الجن والإنس خاضع لقضاء اللَّه ومتذلل لمشيئته. لا يملك أحد لنفسه خروجا عما خلق عليه قدر ذرة من نفع أو ضر».

وقيل: إلا ليعبدونِ إلا ليوحدون، فأما المؤمن فيوحده في الشدة والرخاء وأما الكافر فيوحده في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء بيانه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥][(١)].

ولهذا فإن اللَّه يعذب في الدنيا وكذلك في الآخرة من خرج عن هذه الطاعة،

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ

---

(١) معالم التنزيل للبغوي ٤/ ٢٣٥ .



أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أي من الدواب لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أنس بها وإن لم تفقه كلامه، بخلاف هؤلاء ولأنها تفعل ما خُلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها بخلاف الكافر فإنه إنما خُلق ليعبد اللَّه ويوحده فكفر باللَّه وأشرك به(١).

قوله: (وأنه ابتلاهم بالخير والشر واختبر طاعتهم)

ش: قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

أي: نختبركم بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر وقيل بما تحبون وما تكرهون (فتنة) ابتلاء لننظر كيف شُكركم فيما تحبون وصبركم فيما تكرهون(٢).

وقال تعالى واصفا حال الصحابة رضي الله عنهم يوم الخندق (الأحزاب): ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠- ١١].

كما اختبر اللَّه قبلهم نبيَّه وخليله إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٢- ١٠٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٥٧ .
(٢) معالم التنزيل للبغوي ٣/ ٢٤٤ .

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]. أي لنختبرنكم بالأوامر والنواهي، وليس في تَقدم عِلْم اللّه تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك أو ريب فالمراد حتى نعلم وقوعه ولهذا يقول ابن عباس رضي الله عنهما في مثل هذا: إلا لنعلم آي لنرى[١]. كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣]، قال تعالى: إنما شرعنا لك يا محمد التوجه أولا إلى بيت المقدس ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ليظهر حالُ من تبعك ويطيعك ويستقبل معك حيثما توجهت، ممن ينقلب على عقبه، أي: مرتدا عن دينه[٢].

قوله: «وأن الجن والإنس كل منهم يكسب الخير والشر باختيار نفسه»[٣].

ش: كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١١- ١١٢].

وقال تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦- ٢٧].

فاللّه تعالى قد أثبت أن المخلوق يكسب الخير والشر باختياره.

قوله: «ولكن أحدا منهم لا يوقع الخير إلا بتوفيق من اللّه وإعانة، ولا يوقع الشر جبرا على اللّه لكن في إطار إذنه ومشيئته».

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٣١ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٦٢ .
(٣) وسيأتي شرح لهذه المسألة إن شاء اللّه في الباب السادس (الإيمان بالقضاء والقدر).

ش: وإن كان الكسب باختيار العبد ولكنه لا يقع إلا بتوفيق من اللّه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٥].

وقال تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

أي وما توفيقي في إصابة الحق فيما أريد إلا باللّه تعالى.

ونحن ندعو اللّه كل يوم في صلاتنا كما علّمنا اللّه أن نقرأ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

قال ابن كثير رحمه الله: والهداية ههنا الإرشاد والتوفيق.

وقد تُعدى (بإلى) كقوله تعالى: ﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١].

وقوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣]. وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة وكذلك قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقد تُعدى (باللام) كقول أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]. أي وفقنا لهذا وجعلنا له أهلاً(١).

وكما أنهم لا يُوقعون الخيرَ إلا بتوفيق من اللّه، فكذلك لا يوقعون الشر إلا بإذن من اللّه سبحانه، كما قال تعالى عن هاروت وماروت وتعليم الناس السِّحر: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

قال سفيان الثوري رحمه الله: «إلا بقضاء اللّه».

وقال محمد بن إسحق رحمه الله: «إلا بتخلية اللّه بينه وبين ما أراد»، وقال الحسن

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٠ .

البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ﴾: قال: «نَعَم: من شاء اللَّه سلّطهم عليه ومن لم يشأ اللَّه لم يسلط، ولا يستطيعون من أحد إلا بإذن اللَّه كما قال اللَّه تعالى»[1].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٠٠ .

القضية الثالثة والعشرون: قال المُصَنِّف حفظه الله:

«ونشهد أن اللَّه سبحانه وتعالى خلق آدم من طين هذه الأرض بيديه سبحانه خلقاً مستقلًا، وأمر جبريل الذي هو رُوحُ اللَّه أن ينفخ فيه فصار بشرا بنفخة جبريل، وأن ذلك كان في السماء، وأنه سبحانه أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا، إلا إبليس الذي أبى استكباراً، وكُفراً، وعناداً ولذلك طرد اللَّهُ إبليسَ من رحمته وحذّر آدم منه».

قوله: (ونشهد أن اللَّه سبحانه وتعالى خلق آدم من طين هذه الأرض بيديه سبحانه) .

الشرح: والخلق يطلق ويقصد به:

أ - إيجاد الشيء من غير أصل واقتداء، قال تعالى: ﴿خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ب - إيجاد الشيء من أصل كقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

إن من أسماء اللَّه تعالى (الخالق) وهو الذي أوجد الأشياء جميعَها بعد أن لم تكن موجودة. وأصل الخلق: التقدير، فهو باعتبار تقدير ما منه وجودها، وباعتبار الإيجاد على وفق التقدير: خالق[1].

وقد جاء هذا المعنى بالقرآن والسنة كثيرا:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٣١].

ومن حديث أم الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عن النبي ﷺ قال: «إن اللَّه تعالى خلق الداء والدواء، فتداووا ولا تتداووا بحرام»[2].

ومن حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه تعالى خلق الجنة

---

(١) انظر النهاية لابن الأثير ٢/ ٧٠ .

(٢) رواه الطبراني في الكبير، وصححه الألباني (صحيح الجامع ١٧٦٢)

وخلق النار فخلق لهذه أهلا ولهذه أهلا»[١].

وقد تأتي كلمة (الخلق) بمعنى التشكيل والتصوير:

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [القيامة: ٣٨]. أي فصار علقة، ثم مضغة، ثم شُكّل ونُفخ فيه الروح فصار خلقا سوياً، سليم الأعضاء ذكرا أو أنثى بإذن اللّه وتقديره[٢]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] هذا هو المقسم عليه وهو أنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة، وشكل، منتصب القامة، سوى الأعضاء حَسَنُها[٣]. وقوله تعالى على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، وكذلك كان يفعل، يُصور من الطين شكل الطير، ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن اللّه عزَّ وجلَّ[٤].

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «قال اللّه تعالى: ومن أظلمُ ممن ذهب يخلق خلقاً كخلقي، فليخلقوا حبةً، أو ليخلقوا ذرةً أو ليخلقوا شعيرة»[٥].

قوله: «خلق اللّه سبحانه آدم من طين»[٦].

ش: كما قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. وقال تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١].

---

(١) رواه مسلم.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٨١ .
(٣) المصدر السابق ٤/ ٦٨١ .
(٤) المصدر السابق ١/ ٤٨٥ .
(٥) متفق عليه.
(٦) الطين: هو التراب والماء المختلط وقد يُسمى بذلك وإن زال عنه قوة الماء (المفردات للأصفهاني ٣١٢).



وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ [الصافات: ١١].

اللازب: الثابت الشديد الثبوت[(١)].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ [الأنعام: ٢].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧].

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١].

وجاءت آيات من القرآن تُبيّن أنه مخلوق من تراب، وأخرى أنه مخلوق من صِلصال، والصِلصال: أصله تردد الصوت في الشيء اليابس، وسمي الطين الجاف صِلصالًا. وقيل الصِلصال: المُنتِّن من الطين[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [فاطر: ١١].

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤].

والفخار: الجرار، وذلك لصوته إذا نُقر[(٣)].

وقال تعالى: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣] والمسنون: المتغير[(٤)]. والحماء: طين أسود منتن[(٥)].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن اللّه تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر

(١) الراغب: ٤٤٩ .
(٢) الراغب ٢٨٤ .
(٣) الراغب ٣٧٤ .
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.

والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب وبين ذلك»[(١)]. وأن اللّه خلق آدم بيده كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥][(٢)].

قوله: (خلقا مستقلا)

ش: أي أن اللّه سبحانه وتعالى قد خلق آدمَ بيده خلقا مستقلا، وجعله أصل البشر جميعا فلم يخلقه من نسل غيره، أو من تزاوج بين مخلوق ومخلوق.

قوله: «وأَمَر جبريلَ الذي هو روح اللّه أن ينفخ فيه فصار بشرا بنفخة جبريل».

ش: وهذه الجملة فيها مسائل منها:

أولا: أن روح القدس هو جبريل عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾ [البقرة: ٨٧].

قال ابن جرير رحمه الله: وأولى التأويلات في ذلك بالصواب قول من قال: الروح في هذا الموضع: جبرائيل، فإن اللّه تعالى أخبر أنه أيدّ عيسى به، كما أخبر في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ﴾ [المائدة: ١١٠][(٣)].

وقال تعالى: ﴿نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ النحل: ١٠٢].

قال ابن كثير رحمه الله عن قوله تعالى: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾ أي جبريل، وقوله

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم والبيهقي في سننه وصححه الألباني (صحيح الجامع ١٧٥٩).

(٢) تراجع فقرة (١٣) في صفة اليد.

(٣) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٧٤ .

تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٤] أي أنزله اللّه عليك وأوحاه إليك: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ وهو جبريل عليه السلام، قاله غير واحد من السلف: ابن عباس، ومحمد بن كعب، وقتادة، وعطية العوفي، والسُّدي، والضحاك، والزهري، وابن جريج وهذا مما لا نزاع فيه(١).

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه قوله عن النبي ﷺ لحسّان بن ثابت رضي الله عنه: (أجب عني: اللّهمّ أيده بروح القدس) وفي بعض الروايات: أن رسول اللّه ﷺ قال لحسّان رضي الله عنه: «أُهجهم أو هاجِهم - وجبريل معك»(٢).

ومن شعر حسّان قوله:

وجبريلُ رسول الله فينا وروح القدس ليس به خفاءُ(٣)

ثانيا: أن جبريل هو الذي نفخ في آدم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩] وهو كذلك الذي نفخ في مريم كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]. أي بواسطة المَلَك وهو جبريل رضي الله عنه(٤).

قوله: (وأن ذلك كان في السماء)

ش: لقوله تعالى لآدم وزوجته بعد أن أكلا من الشجرة: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا﴾ [البقرة: ٣٨] يقول تعالى مخبرا عمّا أنذر به آدم وزوجته وإبليس حين أهبطهم من الجنة(٥).

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٤٦٢ .
(٢) متفق عليه.
(٣) ديوان حسان بن ثابت.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٠٦ .
(٥) المصدر السابق ١/ ١٢١ .

قوله: «وأنه سبحانه أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا[١] إلا إبليس الذي أبى استكبارا وكفرا وعنادا ولذلك طَرد اللَّهُ إبليسَ من رحمته».

ش: وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٢] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠] ولهذا كان جزاء إبليس الطرد من رحمة اللَّه ومن الجنة كما قال تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٨]، وقال تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٤].

قوله: (وحذّر آدم منه)

ش: وقال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧].

وقال تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]. تنفيراً عنه، وتحذيرا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

يقول تعالى منبهاً بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم، ومقرّعا لمن اتبعه منهم، وخالف خالقه ومولاه، وهو الذي أنشأه، وابتدأه، وبألطافه رزقه وغذّاه، ثم بعد هذا كله والى إبليس وعادى اللَّه[٢].

---

(١) وهذا السجود لم يكن سجود عبادة، أما كيفيته، فقال الجمهور: كان هذا أمرا للملائكة بوضع الجباه على الأرض، كالسجود المعتاد في الصلاة ؛ لأنه الظاهر من السجود في العرف والشرع؛ وعلى هذا قيل: كان ذلك السجود تكريما لآدم، وإظهاراً لفضله، وطاعة للَّه تعالى، وكان آدم كالقبلة لنا (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٢٩٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٢١ .

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

قال قتادة والسّدي: «كل معصية للّه فهي من خطوات الشيطان»، وقال عكرمة: «هي نزغات الشيطان»، وقال مجاهد: «خطاه أو قال خطاياه»، وقال أبو مجلز: «هي النذور في المعاصي»، وعن مسروق قال: «أُتي عبد اللّه بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بضرع وملح فجعل يأكل، فاعتزل رجل من القوم، فقال ابن مسعود: «ناولوا صاحبكم»، فقال: «لا أريده»، فقال: «أصائم أنت»؟ قال: «لا»، قال: «فما شأنك»؟ قال: «حرّمت أن آكل ضرعا أبداً» فقال ابن مسعود: «هذا من خطوات الشيطان، فاطعم وكفِّر عن يمينك» رواه ابن أبي حاتم(١).

* * *

(١) المصدر السابق ٣/ ٢٧٧ .

القضية الرابعة والعشرون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«ونشهد أن اللَّه خلق حواء من ضلع آدم، وجعلها زوجة له، واختبرهما اللَّه بأن يأكلا من كل ثمار الجنة إلا شجرة واحدة فأكلا منها فأهبطهما إلى الأرض ليعمراها بنسلهما جيلا بعد جيل، وليختبرهم فيها بالطاعة والإنابة والإسلام له فمن أطاع أرجعه إلى الجنة ومن عصى فمصيره النار».

قوله: «ونشهد أن اللَّه خلق حواء من ضلع آدم وجعلها زوجة له».

الشرح: قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

قال الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجعل من النفس الواحدة وهو آدم (زوجها) حواء كما قال قتادة: (وجعل منها زوجها) حواء، فجُعلت من ضلع من أضلاعه ليسكن إليها[(١)].

وقال ابن كثير: ينبّه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأنه خلق منه زوجته حواء، ثم انتشر الناس منهما، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١].

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «لولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام ولم يخنز (أي يفسد وينتن) اللَّحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها»[(٢)].

قوله (ولولا حواء): قال (ابن حجر) في الفتح: «أي امرأة آدم» وهي «بالمد»، قيل سميت بذلك لأنها أم كل حي. وقوله: (لم تخن أنثى زوجها) فيه إشارة إلى ما وقع من

---

(١) تفسير الطبري ٦/ ١٤٢ وكذلك معالم التنزيل للبغوي ٣/ ٣١١ .
(٢) رواه أحمد و البخاري ومسلم.



حواء في تزيينها لآدم الأكل من الشجرة حتى وقع في ذلك، فمعنى خيانتها أنها قبلت ما زين لها إبليس حتى زينته لآدم. ولما كانت هي أم بنات آدم أشبْهنها بالولادة ونزع العِرق، فلا تكاد امرأة تسلم من خيانة زوجها بالفعل أو القول، وليس المراد بالخيانة هنا: ارتكاب الفواحش، حاشا وكلا. كما قال أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]. قال ابن عباس: ما زنتا، أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه، وفي رواية (أنهما كانتا على غير دينهما وقال: (ما بغت امرأة نبي قط. .)[١].

ولكن لما مالت إلى شهوة النفس من أكل الشجرة، وحسّنت ذلك لآدم، عُد ذلك خيانة له، وأما من جاء بعدها من النساء فخيانة كل واحدة منهن بحسبها[٢].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها»[٣].

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فإذا شهد أمرا فليتكلم بخير أو ليسكت، واستوصوا بالنساء، فإن المرأة خُلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، وإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، استوصوا بالنساء خيرا»[٤]. قوله: (استوصوا) قيل معناه: تواصوا بهن. . وقيل معناه: اقبلوا وصيتي فيهن واعملوا بها، وارفقوا بهن، وأحسنوا عشرتهن. وقوله: (خُلقت من ضلع) قيل فيه إشارة إلى أن حواء خُلقت من ضلع آدم الأيسر، وقيل من ضلعه القصير[٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٠٥ .
(٢) ابن حجر في فتح الباري ٦/ ٤٢٤ (دار الريان).
(٣) رواه مسلم.
(٤) متفق عليه.
(٥) ابن حجر فتح الباري ٦/ ٤٢٤ (دار الريان).

فائدة: قال ابن حجر في (الفتح): «وفي الحديث إشارة إلى تسلية الرجال فيما يقع لهم من نسائهم بما وقع من أمهن الكبرى، وأن ذلك من طبعهن فلا يفرط في لوم من وقع منها شيء من غير قصد إليه أو سبيل الندور، وينبغي لهنّ أن لا يتمكنّ بهذا في الاسترسال في هذا النوع، بل يضبطن أنفسهن، ويجاهدن هواهن، واللَّه المستعان»(١).

وقال النووي: «وفي هذا الحديث ملاطفة النساء، والإحسان إليهن، والصبر على عوج أخلاقهن، واحتمال ضعف عقولهن، وكراهة طلاقهن بلا سبب، وأنه لا يطمع باستقامتها، واللَّه أعلم(٢).

ويشهد لهذا قول النبي ﷺ: «.. ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب لِلب الرجل الحازم من إحداكن. .»(٣).

قال ابن حجر: «.. لأنهن إذا كنّ سبباً لإذهاب عقل الرجل الحازم حتى يفعل أو يقول مالا ينبغي فقد شاركته في الإثم وزدن عليه»

وقوله (أذهب) أي: أشد إذهابا، (واللُّب): أخص من العقل، وهو الخالص منه (الحازم) الضابط لأمره، وهذه مبالغة في وصفهن بذلك، لأن الضابط لأمره إذا كان ينقاد لهن، فغير الضابط أولى)(٤).

قوله: «واختبَرهما اللَّه بأن يأكلا من كل ثمار الجنة إلا شجرة واحدة فأكلا منها فأهبطهما الأرض. . .».

ش: قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٥- ٣٦].

---

(١) المصدر السابق.
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١٠/ ٥٧ (دار الريان).
(٣) رواه البخاري.
(٤) فتح الباري ١/ ٤٨٤ .



يقول اللَّه تعالى إخبارا عمّا أكرم به آدم: بعد أن أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس، أنه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء، ويأكل منها ما شاء، رغدا، أي هنيئا واسعا طيبا وأما قوله: (ولا تقربا هذه الشجرة) فهو اختبار من اللَّه تعالى وامتحان لآدم ونهاه وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها»[١].

وقال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩]، فعند ذلك حسدهما الشيطان، وسعى في المكر، والوسوسة، والخديعة ليسلبهما ما هما فيه من النعمة، واللباس الحسن (وقال) كذباً وافتراءً: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ أي لئلا تكونا ملكين أو خالدين ها هنا، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما، كقوله: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠][٢].

قال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]. أي وأقسم، وحلف لهما، قال قتادة: حلف لهما باللَّه حتى خدعهما، وقد يخدع المؤمن باللَّه، فقال: «إني خُلقت قبلكما، وأنا أعلم منكما، فاتبعانِّ أُرشِدْكما»، وإبليس أول من حلف باللَّه كاذبا فلما حلف ظن آدم أن أحدا لا يحلف باللَّه كاذبا فاغتر به[٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [طه: ١١٥- ١٢٠].

فكانت العاقبة الخروج من الجنة، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٧٦ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٧٦ .
(٣) معالم التنزيل للبغوي ٣/ ٢٢٠ (دار طيبة)، وكذلك أول من حسد، وأول من قَاسَ قياساً فاسداً.

ﭐﻟۡﺄَﺭۡﺽِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [البقرة: ٣٦]. أي قرارا أرزاقا وآجالا (إلى حين) أي: وقت ومقدار معين، ثم تقوم القيامة[1].

وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ [طه: ١٢٣].

ونقل ابن كثير عن الرازي قوله: (اعلم أن في هذه الآية تهديدا عظيما عن كل المعاصي من وجوه:

منها: أن من تَصور ما جرى على آدم بسبب إقدامه على هذه الزلة الصغيرة كان على وجَلٍ شديد من المعاصي، قال الشاعر:

يا ناظرا يرنو بعيني راقدِ ... ومشاهدا للأمر غير مشاهدِ
تصل الذنوب إلى الذنوب ... وترتجي درج الجنان ونيل فوز العابدِ
أنسيتَ ربك حين أخرج آدماً ... منها إلى الدنيا بذنب واحدِ

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولكننا سبي العدو فهل تُرى ... نعود إلى أوطاننا ونُسَلَّم[2]

قوله: «وليختبرهم فيها بالطاعة، والإنابة، والإسلام له، فمن أطاعه أرجعه إلى الجنة، ومن عصاه فمصيره النار».

ش: قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ۝ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣- ١٢٦].

قوله: (فإما يأتينكم مني هدى) قال أبو العالية: «الأنبياءُ والرسلُ والبيانُ». وقوله: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ١١٨).
(٢) حادى الأرواح ص ٧ .



قال ابن عباس: «لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة» ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أي خالف أمري، وما أنزلته على رسولي، أعرض عنه تناساه، وأخذ من غيره هداه﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي ضنكا في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعّم ظاهره، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء،فإن قلبه مالم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق، وحيرة، وشك، فلا يزال في ريبه يتردد، فهذا من ضنك المعيشة(١).

وقال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

- **قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين** رَحِمَهُ اللَّهُ يعني: اهبطوا من الجنة جميعا وسوف يأتيكم الهدى مني وينقسم الناس في هذا الهدى إلى قسمين:

قسم يتّبع هُدى اللّه: فهؤلاء لا خوف عليهم ولا هم يحزنون،

وقسم آخر يكفرون ويكذبون بآيات اللّه: وهؤلاء هم أصحاب النار هم فيها خالدون.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والمعنى: إن أتاكم مني هدى فإن من اتبع هذا الهدى فليس عليه خوف مما يُستقبل، ولا حزن على ما مضى.

أما كونه لا خوف عليه في المستقبل فلأنه عمل ما يحصل به الأمن من اتباع هدى اللّه عزّ وجلّ.

وأما كونه لا يحزن فإنه استغل وقته في طاعة اللّه عزّ وجلّ، فلا يحزن على ما مضى منه لأنه لم يُفرّط بل اكتسب فيه خيرا والذي يحزن هو الذي يفوته مطلوبه أو يحصل له مرهوبه.

أما الكافر المكذب بآيات اللّه فهذا جزاؤه أن يخلد في نار جهنم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٢٧ .

ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩] وأصحاب النار هم أهلها الملازمون لها، والخلود هو المكث الدائم، هذا هو الأصل في الخلود إلا أن يقوم دليل على أن الخلود مؤقت فيتبع الدليل(١).

* * *

(١) أحكام القرآن (الفاتحة - البقرة). لشيخنا العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.



توحيد الألوهية - (القصد والطلب)

القضية الخامسة والعشرون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«ونشهد أنه لا يبلغ عَبْدٌ التوحيدَ الخالص إلا إذا كانت محبته ورغبته وخشيته وتعظيمه للَّه عزَّ وجلَّ أعظمَ من كل مخلوق، وإلا إذا كان تَوكلُه على اللَّه وحده وحسْبه للَّه وحده».

قوله: (توحيد الألوهية «القصد والطلب»)

الشرح: التوحيد في اللغة: العلم بأن الشيء واحد.

التوحيد اصطلاحا: علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية مكتسباً من أدلتها النقلية والعقلية.

التوحيد في الشرع: إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدانيته، والتصديق بها ذاتا وصفاتا وأفعالا(١).

(توحيد الألوهية): وهذا التوحيد هو أول الدين وآخره وباطنه وظاهره وهو أول دعوة الرسل وآخرهم، وهو معنى: لا إله إلا اللَّه. ولأجل هذا التوحيد خُلقت الخليقة وأرسلت الرسل وأنزلت الكتب، وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكفارٍ وسعداء أهل الجنة، وأشقياء أهل النار، ويسمى هذا النوع (توحيد الإلهية) لأنه مبني على إخلاص التأله وهو أشد المحبة للَّه وحده(٢) وذل يستلزم إخلاص العبادة، و (توحيد العبادة) لذلك و (توحيد الإرادة) لأنه مبني على إرادة وجه اللَّه بالأعمال (وتوحيد القصد) لأنه مبني على إخلاص القصد المستلزم لإخلاص العبادة للَّه وحده و (توحيد العمل) لأنه مبني على إخلاص العمل للَّه وحده. قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢].

---

(١) تطهير الجنان ٩ (في الحاشية).
(٢) ومعنى التأله: التنسك والتعبد (مختار الصحاح ٣٣).



وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر: ١٢- ١٣][١].

هذا وثاني نوعي التوحيد إفراد رب العرش عن نديد
أن تعبد الله إلها واحدا معترفا بحقه لا جاحدا

قوله: «ونشهد أنه لا يبلغ عَبْدٌ التوحيد الخالص إلا إذا كانت محبته ورغبته وخوفه وخشيته وتعظيمه للّه عزَّ وجلَّ أعظم من كل مخلوق».

ش: **(المحبة)**: لا شك أن محبته سبحانه هي أصل دين الإسلام الذي يدور عليه قطب رحاه فبكمالها يَكمل وبنقصها ينقص توحيد الإنسان[٢].

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. يذكر اللّه تعالى حال المشركين به في الدنيا وما لهم في الدار الآخرة حيث جعلوا له أندادا أي أمثالا ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه وهو اللّه لا إله إلا هو ولا ضد له ولا ند له ولا شريك معه وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ ولحبهم للّه، وتمام معرفتهم به، وتوقيرهم، وتوحيدهم له لا يشركون به شيئا بل يعبدونه وحده[٣].

وقال تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال ابن كثير: هذه الآية حاكمة على كل من ادّعى محبة اللّه وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي، بل يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم[٤].

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٦، ٣٨ .
(٢) فتح المجيد ٢٩٠ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٧٦ .
(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٧٧ .

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرءَ لا يحبه إلا للَّه، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه اللَّه منه كما يكره أن يقذف في النار»(١).

قال ابن تيمية رحمه الله: «فحلاوة الإيمان المتضمنة للذة والفرح تَتْبعُ كمالَ محبة العبد للَّه»، وذلك بثلاثة أمور:

تكميل هذه المحبة، وتفريعها، ودفع ضدها:

فتكميل المحبة: أن يكون اللَّه ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما، فإن محبة اللَّه ورسوله لا يُكتَفى فيها بأصل الحب بل لا بد أن يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما.

تفريع المحبة: أن يحب المرءَ لا يحبه إلا لله.

دفع ضدها: أن يكره ضد الإيمان كما يكره أن يقذف في النار(٢).

الأسباب الجالبة للمحبة:

الأول: قراءة القرآن بالتدبر، والتفهم لمعانيه، وما أريد به.

الثاني: التقرب إلى اللَّه تعالى بالنوافل مع الفرائض.

الثالث: دوام ذِكْرِه على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر هذا.

الرابع: إيثار محابه سبحانه على محابك عند غلبة الهوى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها وتقلبه في رياض هذه المعرفة وميادينها.

---

(١) متفق عليه.

(٢) فتح المجيد ٢٩٦ .



السادس: مشاهدة بِرّه وإحسانه ونِعَمه الظاهرة والباطنة.

السابع: (وهو أعجبها): انكسار القلب بين يديه.

الثامن: الخلوة وقت النزول الإلهي(١) وتلاوة كتابه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين والتقاط أطايب ثمرات كلامهم ولا تتكلم إلا إذا ترجحتْ مصلحةُ الكلام وعلِمت أن فيه مزيدا لحالك، ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين اللَّه عزَّ وجلَّ(٢).

قوله: (ورغبته)

ش: يقال: رغب يرغب رغبة إذا حرص على الشيء وطمع فيه، والرغبة السؤال والطلب(٣).

قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح: ٧- ٨].

أي إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها، وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة، وقم إليها نشيطا فارغ البال، وأخلص لربك النية والرغبة.

وقال الثوري: «اجعل نيتك ورغبتك إلى اللَّه عزَّ وجلَّ»(٤).

وقال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ [القلم: ٣٢].

قيل: رَغِبوا في بذلها لهم في الدنيا، وقيل احتسبوا ثوابَها في الدار الآخرة واللَّه أعلم(٥). وقال تعالى: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩].

---

(١) وذلك إذا مضى ثلثا الليل - كما في الحديث (إن اللَّه يمهل حتى إذا كان ثلث الآخر نزل إلى سماء الدنيا) مسلم.
(٢) فتح المجيد ٢٩١- ٢٩٣ .
(٣) النهاية لابن الأثير ٢/ ٢٣٧ .
(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٦٨٠ .
(٥) المصدر السابق ٤/ ٥٢٣ .

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]. (رَغَبا) طمعا (رهبا) خوفا، رغبا في رحمة اللّه ورَهبا من عذاب اللّه[١].

وقال القرطبي رحمه الله: «أي يفزعون إلينا فيدعوننا في حال الرخاء وحال الشدة، وقيل: المعنى يدعون وقت تعبّدهم وهم بحال رغبة، ورجاء، ورهبة، وخوف، لأن الرغبة والرهبة متلازمان»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إذا دعا أحدُكم فلا يقل اللّهم اغفر لي إن شئت وليعزم[٣] المسألة، وليُعْظم الرغبة فإن اللّه لا يَعْظُمْ عليه شيء أعطاه»[٤].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «قال لي رسول اللّه ﷺ: «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: «اللّهم أسلمتُ وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة[٥] ورهبة إليك[٦] لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فإن متَ من ليلتك فأنت على الفطرة[٧]، واجعلهن آخر ما تتكلم به»[٨].

قوله: (وخوفه)

ش: والخوف من أفضل مقامات الدين وأجلّها وأجمع أنواع العبادة التي يجب إخلاصها للّه تعالى.

---

(١) معالم التنزيل للبغوي ٣/ ٢٦٧ .
(٢) الجامع لأحكمام القرآن للقرطبي ١٢/ ٢٢٣ .
(٣) أي: يجتهد في الطلب.
(٤) أي: يكثر في دعائه من طلب ما يشتهيه.
(٥) رواه مسلم والبخاري في الأدب المفرد.
(٦) رغبة في ثوابك ورهبة من عقابك.
(٧) الإسلام.
(٨) متفق عليه.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، وقال تعالى عن الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠].

وقال تعالى عن عباده الموحدين المخلصين: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦].

أقسام الخوف:

أولا: خوف السِّر:

وهو أن يخاف من غير اللَّه من وثن أو طاغوت أن يصيبه بما يكره: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٦]. وهذا هو الواقع من عبّاد القبور ونحوها من الأوثان يخافونهاويخوفون بها أهل التوحيد إذا أنكروا عبادتها، وأمروا بإخلاص العبادة للَّه وهذا ينافي التوحيد.

ثانيا: أن يترك الإنسان ما يجب عليه خوفا من بعض الناس

فهذا محرم وهو نوع من الشرك باللَّه المنافي لكمال التوحيد كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن كيد عدو اللَّه أنه يُخوف المؤمنين من جنده وأوليائه لئلا يجاهدوهم، ولا يأمروهم بمعروف، ولا ينهوْهم عن المنكر» فعن النبي ﷺ قال: «من التمس رضى اللَّه بسخط الناس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط اللَّه، سخط اللَّه عليه وأسخط عليه الناس»(١).

(١) رواه الترمذي وابن حبان وغيرهما وصححه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنظر صحيح الجامع ٦٠٩٧.



ثالثا: الخوف الطبيعي:

وهو الخوف من عدو أو سَبُع أو غير ذلك فهذا لا يُذم كما قال تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨][١].

قال ابن رجب رحمه الله: «فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب، فكيف يُقدِّمُ طاعةَ من هو فوق التراب على طاعة ربّ الأرباب؟! أم كيف يُرضي الترابَ بسخط الملك الوهّاب؟ إن هذا لشيء عجاب»[٢].

قوله: (وخشيته)

ش: وهي نوع من أنواع العبادة وهي مرادفة للخوف[٣].

قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٣] وقال تعالى في مدح المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه: ١-٣].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يَلِجُ النارَ رجل بكى من خشية اللّه تعالى حتى يعود اللبن في الضرع»[٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨].

أخبر تعالى أن مساجد اللّه لا يعمرها إلا أهل الإيمان باللّه واليوم الآخر، الذين آمنوا

---

(١) فتح المجيد ٣٠٢ .
(٢) المصدر السابق ٣٠٧ .
(٣) خشي: خشية: خاف مخافة، خافه بتعظيم ومهابة (المعجم الوجيز ١٩٧).
(٤) أحمد والترمذي وغيرهما وصححه الألباني (صحيح الجامع ٧٧٧٨).

بقلوبهم، وعملوا بجوارحهم، وأخلصوا له الخشية دون مَن سواه.

وقال ابن عطية: «يريد خشية التعظيم، والعبادة، والطاعة، ولا محالة أن الإنسان يخشى المحاذير الدنيوية وينبغي أن يخشى في ذلك كله قضاء اللّه وتصريفه».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: الخوف عبودية القلب فلا يصلح إلا للّه، كالذل، والإنابة، والمحبة، والتوكل والرجاء، وغيرها من عبودية القلب(١).

قوله: «وتعظيمه للّه عزَّ وجلَّ أعظم من كل مخلوق»

ش: ولا شك أن من تعظيم اللّه تعظيم أوامره، واجتناب معاصيه، وزواجره، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠].

أي: ومن يجتنب معاصيه، ومحارمه، ويكون ارتكابُها عظيما في نفسه (فهو خير له عند ربه) أي فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل، فَكَمَا على فعل الطاعات ثوابُ كثير، وأجر جزيل،كذلك على ترك المحرمات واجتناب المحظورات(٢) وكذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

وأضاف التقوى إلى القلوب لأن حقيقة التقوى في القلب ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في صحيح الحديث (التقوى ها هنا) وأشار إلى صدره(٣) والتعظيم مرادف للتعزير والتوقير، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩].

(**تُعزِروه**) أي: تُعظموه وتُفخموه، قاله الحسن والكلبي، والتعزير: التعظيم والتوقير، واختلفوا في (الهاء) فقال البعض (الهاء) فيهما للنبي ﷺ وهنا وقف تام ثم تبتدئ (وتُسبحوه) أي تسبحوا اللّه (بكرة وأصيلا) أي عشيا، وقيل: «الضمائر كلها للّه تعالى».

---

(١) فتح المجيد ٣٠١- ٣٠٣ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٥٤ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ٣٩، روى الحديث الإمام أحمد ومسلم والترمذي.



فعلى هذا يكون «تعزروه وتوقروه أي تثبتوا له صحة الربوبية، وتنفوا عنه أن يكون له ولد، أو شريك، واختار هذا القول القُشيري: والأولُ قولُ الضحاك»(١).

ولا شك أنه حتى لو ذهبنا إلى قول الضحاك فإن توقيرنا للنبي ﷺ وتعزيرنا له راجع في الحقيقة لأمر اللَّه أي لتعظيمنا أمر اللَّه تعالى واللَّه أعلم.

قوله: (وإلا إذا كان تَوكله على اللَّه وحده).

ش: (وكَلَ) أي: فوّض.

قال أبو السعادات: يقال توكل بالأمر إذا ضمن القيام به، ووكلت أمري إلى فلان إذا اعتمدت عليه، ووكل فلان فلانا إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته أو عجزا عن القيام بأمر نفسه(٢).

وهو من أجَلّ العبادات، وهو اعتماد القلب عليه سبحانه وتعالى، وثقته به، وأنه كافيه(٣).

قال تعالى مخبرا عن قول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ والذين معه حين فارقوا قومهم وتبرأوا منهم؛ فلجأوا إلى اللَّه، وتضرعوا إليه، فقالوا: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤]، أي: توكلنا عليك في جميع الأمور، وسلّمنا أمورنا إليك، وفوضناها إليك، (وإليك المصير)، أي المعاد في الدار الآخرة(٤).

وقال تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ [هود: ٥٦]. وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]. ففي هذه الآية بيان أن التوكل فريضة يجب إخلاصه للَّه تعالى، فإن تقديم المعمول يفيد الحصر، أي وعلى اللَّه فتوكلوا، لا على غيره فهو من أجمع أنواع العبادة وأعظمها، لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة فإنه إذا اعتمد على اللَّه

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٦/١٧٧، روى الحديث الإمام أحمد ومسلم والترمذي.
(٢) فتح المجيد ٣٠٨ .
(٣) معارج القبول ١/ ٣٣٠ .
(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/٤٤٦ .

في جميع أموره الدينية الدنيوية دونَ كُلِّ مَن سواه صح إخلاصه ومعاملته مع اللَّه تعالى فهو من أعظم منازل ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على اللَّه حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا»(١).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: وما رجا أحد مخلوقا، ولا توكل عليه، إلا خاب ظنه فيه؛ فإنه مشرك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: فجعل التوكُّل على اللَّه شرطا في الإيمان فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه وكذلك في (الآية السابقة) جعله دليلا على صحة الإسلام(٢).

والتوكل قسمان:

أحدهما: التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا اللَّه كالذين يتوكلون على الأموات، والطواغيت، في رجاء مطالبهم من نصر، أو حفظ رزق، أو شفاعة، فهذا شرك أكبر.

الثاني: التوكل على الأسباب الظاهرة كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما أقدره اللَّه عليه من رزق أو دفع أذى ونحو ذلك، فهو نوعُ شِرْكٍ أصغر، والوكالة الجائزة هي توكيل الإنسانِ الإنسانَ في فعل ما يقدر عليه نيابة عنه. لكن ليس له أن يعتمد عليه في حصول ما وكل فيه بل يتوكل على اللَّه في تيسير أمره الذي يطلبه أو نائبه، وذلك من جملة الأسباب التي يجوز فعلها، ولا يُعتمدُ عليها بل يعتمد على المسبِّب الذي أوجد السبب أو المسَبَّب(٣).

---

(١) فتح المجيد ٣٠٨ .
(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم وصححه الألباني برقم ٥٢٥٤ (صحيح الجامع).
(٣) فتح المجيد ٣٠٩ .



قوله: (وحسبُه للّه وحده)

ش: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، يحرّض تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران، ويخبرهم أنه حسبهم، أي كافيهم، وناصرهم، ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثُرَتْ أعدادُهم وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي كافيه ومن كان اللّه كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذى لا بد منه، كالحر، والبرد، والجوع، والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ به مراده منه فلا يكون أبدا(٢).

قال بعض السلف: جعل اللّه لكل عمل جزاء من نفسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ ولم يقل: فله كذا وكذا، من الأجر كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافِ عبده، المتوكل عليه، فلو توكل العبد على اللّه حق توكله وكادته السموات والأرض، ومن فيهن، لجعل اللّه له مَخْرجا وكفاه رزقه ونصره(٣).

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩].

فتأمل كيف جعل الفضل للّه والرسول وجعل الحَسْبَ له وحده؟ فلم يقل: وقالوا حسبنا اللّه ورسوله بل جعله خالص حقه كما قال: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [القلم: ٣٢] فجعل الرغبة إليه وحده(٤).

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٢٨/٢ .
(٢) فتح المجيد ٣١١ .
(٣) فتح المجيد ٣١١ .
(٤) المصدر السابق ٣١٠ .

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وذلك بعد مُنْصَرفِ قريش والأحزاب من أحد،بلغه أن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا الكرّة عليهم، فخرج النبي ﷺ في سبعين راكبا حتى أتى (حمراء الأسد) فألقى اللّهُ الرعبَ في قلب أبي سفيان، فرجع إلى مكة بمن معه، ومرّ به ركْبُ مِن (عبد القيس) فقال: «أين تريدون»؟ قالوا: «نريد المدينة». قال: «فهل أنتم مبلّغون محمداً عنّي رسالةً»؟ قالوا: «نعم». قال: «فإذا وافيتموه فأخبروه أنّا قد أجمعنا السّير إليه، وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم».

فمرّ الركبُ برسول اللّه ﷺ وهو (بحمراء الأسد) فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال: «حسبنا اللّه ونعم الوكيل»[1].

❋ ❋ ❋

(١) فتح المجيد ٣١٢ .



القضية السادسة والعشرون: قال المُصنِّف حفظه اللَّه:

«نشهد أن الركوع، والسجود، والذبح، والصوم، والنذر، والحلف، كل ذلك لا يجوز إلا للَّه، ومن صَرَف شيئا من ذلك لغيره فقد أشرك»

قوله: (نشهد أن الركوع)

الشرح: قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله تعالى: (واركعوا) الركوع في اللغة: «الانحناء بالشخص وكل مُنحنٍ راكع»(١).

وقال تعالى: ﴿يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

ومدح اللَّه صحابة النبي ﷺ بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾ [الفتح: ٢٩].

وصف اللَّه سبحانه تعالى الصحابة: بكثرة العمل، وكثرة الصلاة، وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها للَّه عزَّ وجلَّ، والاحتساب عند اللَّه تعالى جزيل الثواب وهو الجنة. . .)(٢).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٤٨- ٤٩]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٣٥ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٦٠ .

قال ابن كثير رحمه الله: (أي إذا أمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا مع المصلين مع الجماعة امتنعوا من ذلك، واستكبروا عنه ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾)(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رجل: «يا رسول الله ! الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحني له»؟ قال: «لا». قال: «أفيلتزمه ويقبله»؟ قال: «لا». قال: «أفيأخذ بيده ويصافحه»؟ قال: «نعم»(٢).

قوله: (والسجود)

ش: قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]. نبه تعالى على (أن الشمس والقمر) مخلوقان ؛ عبدان من عبيده تحت قهره وتسخيره، فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: ولا تشركوا به ؛ فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره فإنه لا يغفر أن يُشرك به ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا﴾ [فصلت: ٣٨]، أي عن إفراد الله بالعبادة له وأبوا إلا أن شرّكوا معه غيره: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٢- ٤٣]. يعني يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال والزلازل والبلاء والامتحان والأمور العظام.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٩٣ .

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه قال الألباني حديث حسن (الأحاديث الصحيحة والمشكاة ٤٦٨٠) .

وقد دخلت بلادَ المسلمين بعضُ الرياضات التي تكون بدايتها ونهايتها انحناءات بين اللاعبين. ولا شك أن هذه دخل ضمن النهي.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٣٠ .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة ؛ فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقا واحدا»(١).

وقال تعالى على لسان الهدهد: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٤- ٢٥].

قال ابن كثير رحمه الله: أي لا يعرفون سبيل الحق التي هي إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من الكواكب وغيرها(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأما وضع الرأس عند الكبراء من الشيوخ وغيرهم أو تقبيل الأرض، ونحو ذلك، فإنه مما لا نزاع بين الأئمة في النهي عنه بل مجرد الانحناء لغير الله عزَّ وجلَّ منهي عنه ففي المسند وغيره «أن معاذ بن جبل رضي الله عنه لما رجع من الشام سجد للنبي ﷺ ؛ فقال: «ما هذا يا معاذ؟» فقال: «يا رسول الله ! رأيتهم في الشام يسجدون لأساقفتهم، وبطارقتهم، ويذكرون ذلك عن أنبيائهم»، فقال: «كذبوا يا معاذ لو كنتُ آمرا أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها، يا معاذ ! أرأيتَ إن مررتَ بقبري أكنت ساجدا»؟ قال: «لا»، قال: «لا تفعل هذا»، أو كما قال رسول الله ﷺ.

بل قد ثبت في الصحيح من حديث جابر أنه ﷺ صلى بأصحابه قاعدا من مرض كان به، فصلوا قياما، فأمرهم بالجلوس ؛ وقال: «لا تعظموني كما تُعظّم الأعاجم بعضها بعضا».

وقال ﷺ: «من سرّه أن يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار» وفي رواية «من أحبّ أن يتمثل له الرجال قياما، فليتبوأ مقعده من النار»(٣).

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٨٠ .
(٣) رواه أحمد وأبو داود والترمذي من حديث معاوية رضي الله عنه وصححه الألباني (الجامع ٥٩٥٧).



فإذا كان قد نهاهم عن القيام مع قعوده وإن كانوا قاموا في الصلاة حتى لا يتشبهوا بمن يقومون لعظمائهم، وبين أن من سرّه القيام له كان من أهل النار، فكيف بما فيه من السجود له، ومن وضع الرأس. . .

وبالجملة فالقيام، والقعود، والركوع، والسجود حق للواحد المعبود، خالق السموات والأرض وما كان حقا خالصا للَّه لم يكن لغيره فيه نصيب(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إنه قد تواتر عن النبي ﷺ نهيه عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها بألفاظ متنوعة تارة يقول: (لا تحرّوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها)(٢) وتارة ينهى عن الصلاة بعد طلوع الفجر حتى تطلع الشمسُ، وبعد العصر حتى تغرب الشمس، وتارة: يذكر أن الشمس إذا طلعت، طلعت بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار، ونهى عن الصلاة في هذا الوقت لما فيه من مشابهة المشركين في كونهم يسجدون للشمس في هذا الوقت وإن الشيطان يقارب الشمس حينئذ ليكون السجود له، فكيف مما هو أظهر شركا ومشابهة للمشركين من هذا؟ وقد قال تعالى فيما أمر رسوله أن يخاطب به أهل الكتاب: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]. وذلك لما فيه من مشابهة أهل الكتاب من اتخاذ بعضهم بعضا أربابا من دون اللَّه، ونحن منهيون عن مثل هذا، ومَن عدل عن هدي نبيه ﷺ وَهدي أصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى ما هو من جنسِ هَدْي النصارى فقد ترك ما أمر اللَّه به ورسوله(٣).

(١) كتاب الزيارة لابن تيمية ١٠١ .
(٢) رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عمر. وتكملة الحديث (. . . فإنها تطلع بقرني شيطان).
(٣) كتاب الزيارة لابن تيمية ١٠٢ .

قوله: (والذَّبح)[1]

ش: الذَّبح لغة: ذبحه ذبحاً، قطع حلقومه.

الذبح شرعا: هو كل ما ذُبح (قطع حلقومه) هديا أو أضحية أو عقيقة وغيرها للّه تعالى، ويقصد التعبد للّه والتقرب إليه.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢- ١٦٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير اللّه، ويذبحون لغير اسمه أنه مخالف لهم في ذلك فإن صلاته للّه. ونسكه على اسمه وحده لا شريك له؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

أي أخلص له صلاتك وذبحك، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام، ويذبحون لها، فأمره اللّه تعالى بمخالفتهم، والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص للّه تعالى[2].

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما الذبح لغير اللّه فالمراد به أن يذبح باسم غير اللّه تعالى، كمن ذبح للصنم أو الصليب أو لموسى أو لعيسى عليهما السلام أو للكعبة ونحو ذلك، فكل هذا حرام، ولا تحل هذه الذبيحة سواء كان الذابح مسلما أو نصرانيا أو يهوديا، نص عليه الشافعي، واتفق عليه أصحابنا، فإن قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير اللّه تعالى والعبادة له كان ذلك كفرا، فإن كان الذابح مسلما قبل

---

(١) الذبح الإسلامي هو إحدى طرق ثلاثة تسمى الذَّكاة لتجهيز الحيوان للأكل: وهذا لا يتحقق إلا بقطع الودجين ويعرفان عند الناس بالشرايين وأناس يسمونها الأوراد، وهما عرقان غليظان محيطان بالحلقوم معروفان لقوله ﷺ في الذبيحة «ما أنهر الدم وذُكر اسم اللّه عليه فكلوا» متفق عليه «ولم يتعرض لذكر الحلقوم والمرئ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ وهذا هو القول الصحيح [الشرح على الزاد ٤٨٦] الصانع، د. مصطفى محمود حلمي، نزار احمد النصف، يوسف يعقوب السلطان».

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٣٩ (دار الأندلس).

ذلك صار بالذبح مرتدا[١]، وعن عليّ رضي الله عنه قال: حدثني رسول اللَّه ﷺ بأربع كلمات: «لعن اللَّه من ذبح لغير اللَّه ؛ لعن اللَّه من لعن والديه ؛ لعن اللَّه من آوى محدثا. لعن اللَّه من غير منار الأرض»[٢]، قوله: (لعن الله)

واللّعن: البُعد عن مظان الرحمة ومواطنها قيل واللعين والملعون من حقت عليه اللعنة أو دعي عليه بها.

قال أبو السّعادات: أصل اللعن: الطرد والإبعاد من اللَّه، ومن الخَلق السبَ والدعاء[٣].

ومثله (الذبح) الإهلال كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

أي ذكر عليه غير اسم اللَّه تعالى، وهي ذبيحة المجوسي، والوثني، والمعطِّل، فالوثني يذبح للوثن، والمجوسي للنار، والمعطل لا يعتقد شيئا فيذبح لنفسه[٤].

والإهلال[٥]: رفع الصوت، يقال: أهلَّ بكذا أي رفع صوته ومنه إهلال الصبي واستهلاله وهو صياحه عند ولادته[٦].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٣/ ١٤١ .
(٢) رواه مسلم.
(٣) فتح المجيد ١٢٥ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٣/ ١٥٠ .
(٥) أصل الإهلال: رفع الصوت والإعلام، فالمقصود بما أهل به لغير اللَّه: فأعلن عنه أنه منذور به لغير اللَّه. سواء كان هذا الإهلال الإعلام قبل الذبح كأن يقال: هذه شاة السيدة فلانة والسيد فلان فيعرف الناس ذلك وأنها مُهَلٌ بها لغير اللَّه ولو سمى الذابح باسم اللَّه فإن هذه التسمية اللفظية لاغية والعبرة بالإهلال الحقيقي بما انطوى عليه من قصد التقرب به لغير اللَّه (تعليق سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله على حاشية فتح المجيد ١٢٥).
(٦) المصدر السابق.



قال الزمخشري: كانوا إذا اشتروا دارا، أو بنوها، أو استخرجوا عينا، ذبحوا ذبيحة خوفا أن تصيبهم الجن ؛ فأضيفت إليهم الذبائح لذلك.

وذكر (إبراهيم المروزي) أن ما ذُبح عند استقبال السلطان تقربا إليه أفتى أهل بخارى بتحريمه لأنه مما أُهل به لغير الله(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [النحل: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣].

قال ابن فارس: (النُّصب) حجر كان يُنصب فيُعبد، وتُصبّ عليه دماء الذبائح وهو النّصب أيضا، والجمع أنصاب.

وقال مجاهد: (الأنصاب) هي حجارة كانت حوالي مكة يذبحون عليها(٢).

لا يذبح للّه بمكان يذبح فيه لغير اللّه:

فعن ثابت بن الضحاك ﷺ قال: «نذر رجل أن ينحر إبلا (ببوانه)(٣) فسأل النبي ﷺ فقال: «هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟» قالوا: «لا» قال: «فهل كان فيها عيد من أعيادهم»؟ قالوا: «لا». فقال رسول اللّه ﷺ: «أَوْفِ بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية اللّه، ولا فيما لا يملك ابن آدم»(٤).

قال ابن تيمية رحمه الله: «العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائد إما بعَوْد سنة، أو أسبوع، أو شهر، أو نحو ذلك وقد يختص العيد بالزمان، أو المكان أو الأعمال، وقد يجمع بين اليوم (الزمان) والعمل فيه، وهو الغالب: فالزمان كقول

(١) فتح المجيد ١٢٧ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٣٩ .
(٣) بوانه: اسم هضبة وراء ينبع قريبة من ساحل البحر.
(٤) رواه أبو داود وصححه الألباني (صحيح الجامع ٢٥٥١).

النبي ﷺ في يوم الجمعة: (إن هذا يوم قد جعله للمسلمين عيدا)[١]، والاجتماع والأعمال كقول ابن عباس رضي الله عنه شهدتُ العيد مع رسول اللّه ﷺ»[٢] والمكان كقول النبي ﷺ: (لا تتخذوا قبري عيدا)[٣] وقد يكون لفظ العيد اسما لمجموع اليوم والعمل فيه كقول النبي ﷺ: (دعهما يا أبا بكر فإن لكل قوم عيداً.)[٤].

قوله: (والصوم)

ش: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

الصيام: «هو الإمساك عن الطعام، والشراب، والوِقاع، بنية خالصة للّه عزَّ وجلَّ لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة، والأخلاق الرذيلة»[٥]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غُفر له ما تقدم من ذنبه ومن صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه»[٦].

قال ابن حجر: «والمراد بالإيمان الاعتقاد بحق فرضية صومه وبالاحتساب طلب الثواب من اللّه تعالى».

وقال الخطابي: «احتسابا أي عزيمة وهو أن يصومه على معنى الرغبة في ثوابه طيبة نفسه بذلك غير مستثقل لصيامه ولا مستطيل لأيامه».

وعن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من صام يوما في سبيل

---

(١) رواه مالك والشافعي وابن ماجة وصححه الألباني (صحيح الجامع ٢٢٥٤).
(٢) وفي رواية البخاري: شهدت الفطر مع النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان - رضي الله عنهم - يصلونها قبل الخطبة.
(٣) صحيح رواه أحمد ٢/ ٣٦٧ وأبو داود ٢٠٤٢ وصححه النووي قي الأذكار وحسنه ابن تيمية في الاقتضاء وابن عبد الهادي والسخاوي في القول البديع ١٥٥ .
(٤) وفي رواية البخاري: (فإنها أيام عيد، وتلك الأيام أيام منى (البخاري برقم ٩٨٧).
(٥) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٨٩ .
(٦) رواه البخاري.



اللَّه بَعّدَ اللَّه وجهه عن النار سبعين خريفا»(١).

قوله: (والنذر)

ش: النذر في اللغة: الإلزام، والعهد.

النذر في الشرع: ما أوجبه المكلّفُ على نفسه من شيء يفعله (أو يتركه) لم يكن ملزما به ولا منهيا عنه، وذلك على سبيل التعبد للَّه تعالى.

قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

قال قتادة: «بما فرض اللَّه عليهم من الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة وغيرها من الواجبات». وقال عكرمة: «يوفون إذا نذروا في حق اللَّه جل ثناؤه» وقال مالك: «النذر هو اليمين»(٢).

من الشرك النذر لغير الله

إذا علمت ذلك: فهذه النذور الواقعة من عباد القبور تقربا بها إليهم ليقضوا لهم حوائجهم، وليشفعوا لهم، كل ذلك شرك في العبادة بلا ريب كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦](٣).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما ما نذر لغير اللَّه كالنذر للأصنام والشمس والقمر والقبور ونحو ذلك، فهو بمنزلة أن يحلف بغير اللَّه من المخلوقات والحالف بالمخلوقات لا وفاء عليه، ولا كفارة وكذلك الناذر للمخلوقات فإن كلاهما شرك، والشرك ليس له حرمة بل عليه أن يستغفر اللَّه من هذا ويتوب»، قال النبي ﷺ: من

---

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم وابن ماجه.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٨٣ .
(٣) فتح المجيد ١٣٦ .

حلف وقال في حلفه: «واللات والعزى فليقل: لا إله إلا الله»(١)(٢).

*** من شروط النذر:**

الشرط الأول: أن يكون طاعة لله تعالى، لحديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»(٣).

الشرط الثاني: أن يكون مما يطيقه العبد، لقوله ﷺ لعقبة بن عامر لما نذرتْ أخته أن تَحج مَاشيةً: «مُر أختك فلتركب. . . فإن الله عن تعذيب أختك نفسها لغني»(٤).

الشرط الثالث: أن يكون فيما يملك ابن آدم، لحديث عمران بن الحصين رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لا يمين عليك، ولا نذر في معصية الربِّ، ولا في قطيعة الرحم وفيما لا تملك»(٥).

قوله: (والحلف)

ش: والحلف أو اليمين عبادة ففيها تعظيم للمحلوف به فلا ينبغي أن يحلف إلا بالله. عن النبي ﷺ قال: «احلفوا بالله، وبروا واصدقوا، فإن الله يحب أن يحلف به»(٦).

ولهذا قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]. الأنداد هو الشرك، أخفي من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل وهو أن تقول: «والله وحياتك يا فلان وحياتي. . »(٧).

---

(١) متفق عليه.
(٢) فتح المجيد ١٣٦ .
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة وصححه الألباني (الجامع ٥٨٦٢).
(٥) رواه أبو داود والحاكم وصححه الألباني (الجامع ٧٧٩٣) وفي رواية مسلم (. . .ولا فيما لا يملك ابن آدم).
(٦) رواه أبو نعيم في الحلية عن ابن عمر وصححه الألباني (الجامع ٢٠٩).
(٧) رواه ابن حاتم (فتح المجيد ٣٦٤).



وعن ابن عباس (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ قال: «إذا حلف أحدكم فلا يقل: ما شاء اللَّه وشئتَ، ولكن ليقل: ما شاء اللَّه ثم شئت»(١).

وقال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفا فليحلف باللَّه وإلا فليصمت»(٢). وقال رسول اللَّه ﷺ: «كل يمين يُحلف بها دون اللَّه شرك»(٣).

وقال رسول اللَّه ﷺ: «ليس منّا من حلف بالأمانة ومن خبب(٤) على امرئ زوجته أو مملوكه فليس منا»(٥). وقال ﷺ: «من حلف بغير اللَّه فقد أشرك»(٦). وقال ﷺ: «من حلف فليحلف برب الكعبة»(٧).

وقال ﷺ: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد(٨)، ولا تحلفوا إلا باللَّه ولا تحلفوا إلا وأنتم صادقون»(٩).

فائدة: قال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله:

ذلك أن حقيقة اليمين والقصد منه: إنما هو تأكيد الحالف قوله بالقسم بالمحلوف به الذي يقدر أن ينتقم منه ويعاقبه إن كان كاذبا ولذلك ترى أكثر العامة

يحلفون باللَّه كذبا غير مبالين. فإذا استُحْلفوا بمن يعظمونه من الموتى والأولياء ويعتقدون له السِّر والتصرف تكعكعوا وصدقوا، وإن كان في ذلك ذهاب بعض ما

---

(١) رواه ابن ماجة وحسنه الألباني (الجامع ٥٠٩).
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه الحاكم عن ابن عمر (الجامع ٤٥٦٧).
(٤) أي: خدع وأفسد.
(٥) أحمد والحاكم (الجامع ٥٤٣٦).
(٦) رواه أحمد والترمذي والحاكم (الجامع ٦٢٠٤).
(٧) أحمد والبيهقي (الجامع ٦٢١٤).
(٨) أي: ما كانوا يعبدونها من الأصنام وغيرها.
(٩) رواه أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وصححه الألباني (الجامع ٧٢٤٩).

يحرصون عليه من منفعة يضحون بها خوفا من عقاب وانتقام وتصرف ذلك الولي فيهم، ويؤكدون اعتقادهم هذا بحكايات مكذوبة يذيعها سدنة هذه المعابد الوثنية لجر النفع المادي باعتقاد العامة في أوليائهم فيحكون أن رجلا سرق سمكة مملحة

وأكلها فاستحلفه المسروق منه باللّٰه فأقسم باللّٰه ثلاث مرات بأنه لم يأخذها، ولم يرها فلم يحصل له شيء، فاستحلفه (بأحمد البدوي) فما كاد يلفظ الاسم حتى سبقت السمكة من بطنه ولفظها وذلك منهم اعتقاد أن (البدوي) أغير وأعز وأقدر من اللّٰه، قبحهم اللّٰه وأخزاهم[١].

***

(١) فتح المجيد ٣٦٤ (بالهامش).



القضية السابعة والعشرون: قال المُصنِّف حفظه الله:

«نشهد أنه لا طواف إلا ببيت الله، ولا تقبيل عبادة إلا للحجر الأسود، ولا شدّ رحال عبادة إلا للمسجد الحرام، ومسجد النبي، والمسجد الأقصى».

قوله: (نشهد أنه لا طواف إلا ببيت الله)

الشرح: قال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أي بيتي» من الأوثان، وقال مجاهد وسعيد بن جبير عن قوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ «أن ذلك من الأوثان، والرّفث، وقول الزور، والرجس»، وروي عنهما وعن عطاء وقتادة: «لا إله إلا الله عن الشرك».

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: إن الله تعالى أمر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يبنيا الكعبة على اسمه وحده لا شريك له، للطائفين به، والعاكفين، ثم ذكر أن البيت إنما أُسس لمن يعبد الله وحده لا شريك له، إما بطواف أو صلاة[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

وهذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله، وأشرك به من قريش في البقعة التي أُسّست من أول يوم على توحيد الله، وعبادته وحده لا شريك له.

وقوله تعالى: ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي أجعله خالصا لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له فالطائف به معروف وهو: أخص العبادات عند البيت؛ فإنه لا يُفعل ببقعة في الأرض سواها[(٢)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/٢٣٦، ٢٣٧ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/٢٩٠، وهذا فيه رد على الذين يطوفون حول القبور والأضرحة.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩].

وقال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب[1] أليات[2] نساء دوس[3] حول ذي الخلصة»[4]. (وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية)[5].

والمعنى أنهم يرتدون إلى جاهليتهم في عبادة الأوثان فتسعى نساء بني دوس طائفات حول ذي الخلصة، فترتج أعجازهن، مضطربة ألياتُهن كما كانت عادتهن في الجاهلية[6].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما مسجد النبي ﷺ والمسجد الأقصى، وسائر المساجد، فليس فيها ما يطاف به، ولا فيها ما يُتمسّح به، ولا ما يُقبّلُ، فلا يجوز لأحد أن يطوف بحجرة النبي ﷺ، ولا بغير ذلك من مقابر الأنبياء، والصالحين، ولا بصخرة بيت المقدس، ولا بغير هؤلاء كالقبة التي فوق جبل عرفات، وأمثالها بل ليس في الأرض مكان يُطاف به كما يطاف بالكعبة.

ومن اعتقد أن الطواف بغيرها مشروع فهو شر ممن يعتقد جواز الصلاة إلى غير الكعبة فإن النبي ﷺ لما هاجر من مكة إلى المدينة صلى بالمسلمين ثمانية عشر شهرا إلى بيت المقدس، فكانت قبلة المسلمين هذه المدة، ثم إن اللّه حوّل

---

(١) أي: تتحرك.
(٢) أليات: وهي في الأصل اللحمة التي تكون في أصل العضو، وقيل: هي اللحمة المشرفة على الظهر والفخذ وهي لحم المقعد.
(٣) دوس: اسم قبيلة في اليمن.
(٤) صنم، وفي النهاية: هو بيت كان فيه صنم لدوس وخثعم وبجيلة وغيرهم وقيل: ذو الخلصة: الكعبة اليمانية التي كانت باليمن فأنفذ إليها رسول اللّه ﷺ جرير بن عبد اللّه رضي الله عنه فخربها.
(٥) متفق عليه.
(٦) مرقاة المفاتيح في شرح مشكاة المصابيح ٩/ ٤٥٠-٤٥١ لملا على القارئ.

الكعبة، وأنزل اللّه في ذلك القرآن كما ذكره في سورة البقرة[١] وصلى النبي ﷺ والمسلمون إلى الكعبة، وصارت هي القبلة، وهي قبلة إبراهيم وغيره من الأنبياء.

فمن اتخذ الصخرة[٢] اليوم قبلة يصلي إليها فهو كافر مرتد ؛ يُستتاب، فإن تاب وإلا قُتل مع أنها كانت قبلة، لكن نسخ اللّه ذلك، فكيف بمن يتخذها مكانا يطاف به كما يطاف بالكعبة؟ والطواف بغير الكعبة لم يشرعه اللّه بحال[٣].

وقال أيضا: «ولا يُشرع الطواف بغير الكعبة من سائر الأرض باتفاق المسلمين ومن اتخذ ذلك: عُرِّف واستُتيب، فإن أصر قُتل بالاتفاق».

قوله: (ولا تقبيل عبادة إلا للحَجَر الأسود)

ش: فضل الحجر الأسود:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللّه ﷺ: «نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضا من اللبن فسودته خطايا بني آدم»[٤].

ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن لهذا الحجر لساناً وشفتين يشهدان لمن استلمه يوم القيامة بحق»[٥].

وروى الشافعي رحمه الله عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «استقبل النبي ﷺ الحجر فاستلمه، ثم وضع شفتيه عليه طويلا»[٦].

---

(١) قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

(٢) أي صخرة بيت المقدس.

(٣) كتاب الزيارة لابن تيمية ١٢١ .

(٤) رواه الترمذي (وصححه) وابن خزيمة والنسائي وقواه ابن حجر في الفتح وصححه الألباني (الجامع ٦٧٥٦).

(٥) رواه ابن خزيمة في صحيح وصححه الحاكم وابن حبان وصححه الألباني (الجامع ٢١٨٠).

(٦) فتح الباري ٣/ ٤٧٥ .

وعن الزبير بن عربي رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «سأل رجل ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن استلام الحجر؟ فقال: «رأيت رسول اللّه ﷺ يستلمه ويقبله»[١]. وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول اللّه ﷺ قال: «إن مسح الحجر الأسود، والركن اليماني، يَحُطّان الخطايا حَطّا»[٢].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

واتفق العلماء على أن من زار قبر النبي ﷺ أو قبر غيره من الأنبياء والصالحين كالصحابة وأهل البيت وغيرهم أنه لا يتمسّح به، ولا يُقبّله، بل ليس في الدنيا من الجمادات ما يُشْرعُ تقبيلها إلا الحجر الأسود، وقد ثبت في الصحيحين أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «واللّه إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ؛ ولولا أني رأيت رسول اللّه ﷺ يقبلك ما قبلتك»، ولهذا لا يُسنّ باتفاق الأئمة أن يُقبّل الرجلُ أو يستلم ركني البيت اللذين يليان الحَجَر، ولا جدران البيت، ولا مقام إبراهيم، ولا صخرة بيت المقدس، ولا قبر أحد من الأنبياء والصالحين... حتى تنازع الفقهاء في وضع اليد على منبر سيدنا رسول اللّه ﷺ لمّا كان موجودا فكرهه (مالك)، وغيره لأنه بدعة، وذكر أن مالكا لما رأى عطاء فعل هذا لم يأخذ عنه العلم، ورخّص فيه (أحمد) وغيره لأن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فعله وأما التمسح بقبر النبي ﷺ، وتقبيله، فكلهم كره ذلك، ونهى عنه، وذلك لأنهم علموا ما قصده النبي ﷺ من حسم مادة الشرك، وتحقيق التوحيد، وإخلاص الدين للّه رب العالمين[٣].

وقول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ولولا أني رأيت رسول اللّه ﷺ قبّلك ما قبلْتك» إنما قال ذلك لأن الناس كانوا حديثي عهد بعبادة الأصنام ؛ فخشي عمر أن يظن الجهال أن استلام الحجر من باب تعظيم بعض الأحجار، كما كانت العرب تفعل في الجاهلية ؛ فأراد عمر أن يُعلّم الناس أن استلامه اتباع لفعل رسول اللّه ﷺ، لا لأن الحجر ينفع ويضر بذاته كما كانت الجاهلية تعتقد في الأوثان»[٤].

---

(١) البخاري.
(٢) رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني (الجامع ٢١٩٠).
(٣) كتاب الزيارة ٨٨-٨٩ .
(٤) فتح الباري ٣/ ٤٦١- ٤٦٣ .

قوله: (ولا شدّ رِحال)

ش: لقول الرسول ﷺ: «لا تُشد الرِحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»[١].

(الرِحال): جمع رحل، وهو للبعير كالسّرج للفرس، وكُني بشدّ الرحال عن السفار لأنه لازمه، وخرج ذكرها مخرج الغالب في ركوب المسافر، وإلا فلا فرق بين ركوب الرواحل والخيل، البغل، والمشي في المعنى[٢] المذكور[٣].

وقوله: (عبادة)

ش: احترازا من شدّ الرحال لغير العبادة كزيارة أقارب، أو علاج، أو سياحة، أو غيرها من السفر المباح فإن هذا لا بأس به.

ولكن غالبا - مع الأسف - ما تُشد الرحال لزيارة القبور وهذا يدخل في النهي الذي ورد بالحديث السابق وبالأحاديث والآثار الآتية:

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنما يُسافَر إلى ثلاثة مساجد: مسجد الكعبة، ومسجدي، ومسجد إيلياء»[٤][٥].

٢ - وعن (قزعة) قال: «أردت الخروج إلى الطور[٦] فسألت ابن عمر، فقال: «أما علمت أن النبي ﷺ قال: «لا تشدّ الرحال: إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد النبي ﷺ، والمسجد الأقصى»، ودع عنك الطور فلا تأته»[٧].

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري وغيرهما.
(٢) وكذلك بالنسبة للسيارة والطائرة والقطار.
(٣) فتح الباري ٣/ ٦٤ .
(٤) إيلياء: المسجد الأقصى.
(٥) رواه مسلم.
(٦) الطور: الجبل الذي كلم الله به موسى عليه السلام.
(٧) أخرجه الأزرقي «في أخبار مكة» ٣٠٤ والهيثمي في «المجمع» ٤/ ٤ وصحح اسناده الألباني أحكام الجنائز ٢٢٦ .

٣ - وعن أبي بُصرة الغفاري أنه لقي أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو جاء، فقال: «من أين أقبلتَ»؟ قال: «أقبلتُ من الطور، صليت فيه» قال: «أما إني لو أدركتك لم تذهب» إني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»[(١)].

ففي هذه الأحاديث تحريم سفر العبادة إلى موضع من المواضع «بخلاف المساجد الثلاثة» مثل مقابر الأنبياء، والصالحين وهي وإن كانت بلفظ النفي «لا تشد»، فالمراد النهي كما قال الحافظ: «على وزن قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وما قال الطيبي: «هو أبلغ من صريح النهي»، كأنه قال: «لا يستقيم أن يُقصد بالزيارة إلا هذه البقاع، لاختصاصها بما اختصت به»[(٢)]. . .

وقوله ﷺ: (إلا إلى ثلاثة مساجد)، أن المستثنى منه عام في المساجد وغيرها، وأن النهي ليس خاصة بالمساجد، ولهذا نُهيا (قزعة، وأبي بُصرة) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن شدّها إلى الطور مستدلين بهذا الحديث، والطور إنما يُسافِر من يُسافرُ إليه لفضيلة البُقعة، فإن اللَّه سماه (الوادي المقدس) والبقعة المباركة، وكلّم كليمه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هناك، وهذا هو الذي عليه الأئمة الأربعة وجمهور العلماء[(٣)].

الخطر على عقيدة التوحيد في القبور لا في المساجد:

ومعلوم أن أحكام الشريعة لا تأتي إلا لحكمة، وهذه الحكمة قد تكون منصوصا عليها،قد لا يُنص عليها، وقد تدرك بالاجتهاد وقد لا تدرك، وقد تدرك جزما، وقد تدرك ظنا، وعلى كل حال أحكام الشرع لها حكم واردة لعلل: إما تحصيل مصالح، وإما دفع مفاسد، فهل تتصورون أن من الحكمة منع زيارة المساجد بشدّ الرحال وإباحة أو مشروعية زيارة القبور ولو بشدّ الرحال؟ . ألستم تعلمون أن فتنة

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي ١٣٤٨ وأحمد في مسنده وصحح اسناده الألباني في أحكام الجنائز ٢٢٦ .

(٢) أحكام الجنائز للألباني ٢٢٦ .

(٣) فتح المجيد.

بني آدم ووقوعهم في الشرك بالله، وعبادة المخلوقين كان منشؤها الغُلو بالأموات من الصالحين؟ ولا يزال الأمر كذلك حتى ساعتنا هذه ففي أكثر البلاد الإسلامية لا تجد مسجدا تُصلي فيه إلا وبُني على قبر.

أما المساجد فما كانت يوما من أيام الدنيا مصدر فتنة وخطر على عقائد أهل التوحيد وأتباع الرسل، فلماذا يتَصور البعض أن الشرع يُعني بالقبور أكثر من عنايته بالمساجد، فيبيح شدّ الرِحال لها في الوقت الذي يمنع فيه من شدّ الرحال للمساجد؟[(١)].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: ولو نذر السفر إلى قبر الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ أو قبر النبي ﷺ، أو إلى (الطور) الذي كلم الله عليه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أو إلى (جبل حراء) الذي كان النبي ﷺ يتعبّد فيه وجاءه الوحي فيه، أو الغار المذكور في القرآن، وغير ذلك من المقابر والمقامات والمشاهد المضافة إلى بعض الأنبياء والمشايخ، أو إلى بعض المغارات، أو الجبال: لم يجب الوفاء بهذا النذر، باتفاق الأئمة الأربعة فإن السفر إلى هذه المواضع منهي عنه، لنهي النبي ﷺ: (لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد)[(٢)].

حتى إن بعضهم يسميه الحج، ويقول: «نريد الحج إلى قبر فلان وفلان»[(٣)].

وممن نُقل عنهم القول بالمنع قبل ابن تيمية بمئات السنين: القاضي عياض بن موسى، والقاضي حسين، واسحاق بن اسماعيل، وأبو محمد الجويني الذي قال: «ومن المدونة: ومن قال: عليَّ المشي إلى المدينة أو بيت المقدس فلا يأتهما أصلا إلا

أن يُريد الصلاة في مسجديهما فليأتهما، فلم يجعل نذر زيارة قبره ﷺ طاعة يجب الوفاء بها، إذ من أَصْلنا أن من نذر طاعة لزمه الوفاء بها، وكان من جنسها ما هو واجب بالشرع، كما هو مذهب أبي حنيفة، أو لم يكن، قال القاضي أبو اسحاق اسماعيل بن إسحاق عقيب هذه المسألة: «ولولا الصلاة فيهما لما لزمه إتيانهما، ثم ذكر أن ذلك في

---

(١) البحث الأمين في حديث الأربعين وصحيح المقال في مسألة شد الرحال للشيخ عبد العزيز بن عمر الربيعان ٧١- ٧٥ .
(٢) كتاب الزيارة ١١٩ لابن تيمية.
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ٢/ ٧٣٠ بتحقيق د. ناصر بن عبد الكريم العقل.

كتب المالكية كالتقريب للقيرواني، والتنبيه لابن سيرين، كتبه محمد بن عبد الرحمن البغدادي، الخادم للطائفة المالكية[١]. وكذلك ممن ذهب إلى منع السفر لغير المساجد الثلاثة ابن تيمية، وكذلك ولي اللّه الدهلوي في (الحجة البالغة) إذ إنه قال: «كان أهل الجاهلية يقصدون مواضع معظّمة بزعمهم يزورونها ويتبركون بها، وفيه من التحريف والفساد ما لا يخفى، فسدّ ﷺ الفساد، لئلا يلحق غير الشعائر الشعائر، ولئلا يصير ذريعة لعبادة غير اللّه، والحق عندي أن القبر، ومحل عبادة ولي من الأولياء، (والطور) كل ذلك سواء في النهي واللّه أعلم»[٢].

الزيارة الشرعية:

أما زيارة الموحدين، فمقصدوها ثلاثة أشياء:

أحدها: تذكّر الآخرة والاعتبار، والاتعاظ وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك بقوله: «زوروا القبور، فإنها تذكركم بالآخرة»[٣]، وقوله ﷺ: «إني كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، فإنها تذكركم الآخرة، ولتزدكم زيارتها خيرا، فمن أراد أن يزور فليزر، ولا تقولوا هجرا»[٤][٥].

الثاني: الإحسان إلى الميت، وأن لا يطولَ عَهْدُه به، فيهجره، ويتناساه، كما إذا ترك زيارة الحي مدة طويلة تناساه. ولهذا شرع النبي ﷺ للزائرين أن يدعوا لأهل القبور بالمغفرة والرحمة، وسؤال العافية فقط، ولم يشرع أن يدعوهم، ولا أن يدعوا بهم، ولا يُصلى عندهم.

---

(١) البحث الأمين للشيخ الربيعان ٥٤ انظر كتاب العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية للإمام الحافظ شمس الدين بن عبد الهادي، وكذلك كتاب الصارم المنكي في الرد على السبكي.

(٢) الحجة البالغة ١/١٩٢ للإمام العلامة الشيخ أحمد المعروف بشاء ولي اللّه بن عبد الرحيم المحدث الدهلوي.

(٣) ابن ماجة وصححه الألباني ٣٥٧٧ (صحيح الجامع).

(٤) الهجر: الكلام الباطل.

(٥) رواه مسلم وأبو داود والبيهقي واحمد والنسائي.

الثالث: إحسان الزائر إلى نفسه باتباع السنة، والوقوف عند ما شرعه الرسول ﷺ فيحسن إلى نفسه وإلى المزور[١].

زيارة قبره الشريف ﷺ:

قال الإمام مالك رحمه الله في المبسوط: «لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ يدعو، لكن يُسلِّم ويمضي»[٢].

ولهذا كرِه مالك رحمه الله وغيره من أهل العلم لأهل المدينة كلما دخل أحدهم المسجد، أن يجيء فيُسلّم على قبر النبي ﷺ وصاحبيه وقال: «إنما يكون ذلك لأحدهم إذا قدم من سفر، أو أراد سفرا ونحو ذلك[٣]. ورخّص بعضهم في السلام عليه إذا دخل المسجد للصلاة ونحوها.

وأما قصده دائما للصلاة والسلام، فما علمتُ أحدا رخّص فيه لأن ذلك النوع من اتخاذه عيدا.

وأيضا فإن ذلك بدعة، فقد كان المهاجرون والأنصار على عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم، يجيئون المسجد خمس مرات يصلون، ولم يكونوا يأتون مع ذلك إلى القبر يسلّمون عليه لعلمهم رضي الله عنهم بما كان النبي ﷺ يكرهه من ذلك، وما نهاهم عنه، وأنهم يسلمون عليه حين دخول المسجد والخروج منه[٤] وفي التشهد[٥][٦].

---

(١) إغاثة اللّهفان لابن القيم ٢٢٣ .

(٢) الشفا للقاضي عياض ٢/ ٨٤ .

(٣) المصدر السابق ٢/ ٨٧، ٨٨ .

(٤) لقوله ﷺ: (إذا دخل أحدكم المسجد فليصلِ على النبي ﷺ وليقل: «اللّهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليسلم على النبي وليقل اللّهم إني اسألك من فضلك». رواه مسلم واحمد والنسائي.

(٥) قوله ﷺ: «.. فإذا جلس أحدكم في الصلاة فليقل التحيات للّه والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة اللّه وبركاته...» رواه البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

(٦) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٧١٧ .

وعن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب - المعروف بزين العابدين - رضوان اللّه عليهم أجمعين - أنه رأى رجلا يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو، فنهاه، فقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته عن أبي عن جدي عن رسول اللّه ﷺ؟ قال: «لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبورا، فإن تسليمكم يبلغني أينما كنتم»[1][2].

وعن سهيل بن أبي سهيل قال رأني الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عند القبر، فناداني (وهو في بيت فاطمة رضي الله عنها يتعشى)، فقال: «هلمّ إلى العشاء!» فقلت: «لا أريده»، فقال: «مالي رأيتك عند القبر؟».

فقلت: «سلمت على النبي ﷺ»، فقال: «إذا دخلت المسجد فسلّم»، ثم قال: أن رسول اللّه ﷺ قال: «لا تتخذوا بيتي عيدا، ولا بيوتكم مقابر، لعن اللّه اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، وصلّوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني. ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء»[3].

*** عدم استقبال القبر عند الدعاء:**

قال ابن تيمية رحمه الله ولهذا قال الفقهاء: «إذا سلّم المسلّم عليه ﷺ وأراد الدعاء لنفسه، لا يستقبل القبر بل يستقبل القبلة»[4].

وذكر الإمام أحمد رحمه الله وغيره: «أنه يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره لئلا يستدبره وذلك بعد تحيته، والصلاة والسلام، ثم يدعو لنفسه»[5].

---

(١) رواه أحمد وأبو داود قال الألباني سنده حسن (تحذير المساجد ١٤٢ بالهامش).
(٢) رواه أبو يعلى في مسنده والحافظ أبو عبد اللّه المقدسي في مختاره وابن أبي شيبة (تحذير المساجد ١٤٠ للألباني) وكتاب الزيارة لابن تيمية ٣٤.
(٣) رواه سعيد بن منصور في سننه وعبدالرزاق في مصنفه: (تحذير المساجد للألباني ١٤١) وكتاب الزيارة لابن تيمية ٣٤.
(٤) كتاب الزيارة ١٣.
(٥) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٧١٤.

قوله: (إلا للمسجد الحرام)

ش: ١ - فضل مكة والمسجد الحرام:

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣- ٤]، وهي أم القرى في قوله تعالى﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢].

٢ - أحب البقاع: لقوله ﷺ عند خروجه منها: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إليّ، ولولا أني أُخرجت ما خرجت»(١).

٣ - فضل الصلاة فيه: لقوله ﷺ: «صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه»(٢).

قوله: «ومسجد النبي ﷺ»

ش: ١ - فضل الصلاة فيه: لقوله ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، فإنه أفضل»(٣).

٢- روضة من رياض الجنة: قوله ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»(٤).

---

(١) رواه أحمد الترمذي وابن ماجة والحاكم وابن حبان وصححه الألباني صحيح الجامع ٧٠٨٩ .

(٢) رواه أحمد وابن ماجة وصححه الألباني (صحيح الجامع ٣٨٣٨) راجع فضائل مكة والسكن فيها للحسن البصري.

(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم.

(٤) متفق عليه.



وقوله ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي»(١).

٣ - **بركة المدينة**: لقوله ﷺ «اللّهم اجعل بالمدينة ضِعفي ما جعلت بمكة من البركة»(٢).

قوله: «والمسجد الأقصى»(٣)

ش: قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

١ - **أولى القبلتين**: عن البراء عن عازب قال: صليت مع رسول اللّه ﷺ نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا - شَكّ سفيان - ثم صُرفنا إلى القبلة(٤).
قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «اتفق علماء المسلمين على استحباب السفر إلى بيت المقدس للعبادة المشروعة فيه كالصلاة، والدعاء، والذكر، وقراءة القرآن، والاعتكاف»(٥).

٢ - **فضل الصلاة فيه**:

عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال تذاكرنا - ونحن عند رسول اللّه ﷺ - أيهما أفضل: أمسجد رسول اللّه ﷺ أم بيت المقدس؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «صلاة في مسجدي أفضل من أربع صلوات فيه، ولنعم المصلّى هو. وليوشكن لأن يكون للرجل مثل شطن(٦) فرسه من الأرض حيث يرى منه بيت المقدس خير له من الدنيا جميعاً»(٧).

* * *

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي.
(٢) رواه احمد والبخاري ومسلم.
(٣) اسم لجميع المسجد الذي بناه سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ.
(٤) متفق عليه راجع فضائل بيت المقدس للإمام محمد بن عبدالواحد بن أحمد المقدسي الحنبلي.
(٥) كتاب الزيارة من ١١٧ أجوبة شيخ الإسلام ابن تيمية.
(٦) شطن: هو الحبل، وقيل: الطّويل منه.
(٧) أخرجه ابن طهمان في «مشيخته»: رقم (٦٢) ومن طريقه وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١/ ١٦٣ - ١٦٤) وقال الألباني في «تمام المنّة» ص ٢٩٤ أخرجه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا، وهو مخرج في «التعليق الرغيب» ٢/١٣٨ . وفي رواية: أن الصلاة في =



القضية الثامنة والعشرون: قال المُصنِّف حفظه اللّه:

«نشهد أنه من أتى كاهنا، أو عرّافا، فصدّقه بما يقول، فَقَد كفر بما أنزل على محمد ﷺ وأن الغيبَ لا يعلمُه إلا اللّهُ؛ ومن ادّعى اطلاعا على الغيب، أو اللوح المحفوظ، فهو كافر مشرك».

الشرح: (الكاهن): في الأصل هو ما يأتيه الرَّئِيُّ[(١)] من ا لشياطين المُسترقَةِ السمعَ تتنزل عليه، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١- ٢٢٣].

وقال الخطابي: «الكهان فيما علم بشهادة الامتحان: قوم لهم أذهان حادّة، ونفوس شريرة، وطبائع ناريةَ، فهم يفزعون إلى الجن في أمرهم، ويستفتونهم في الحوادث فيُلقون إليهم الكلمات»[(٢)].

. . . كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «سأل ناسٌ النبيَ ﷺ عن الكهان؟ فقال: (إنهم ليسوا بشيء) قالوا: «يا رسول اللّه! إنهم يُحدّثون بالشيء يكون حقا»، فقال النبي ﷺ: «تلك الكلمةُ من الحق يخطفها الجني؛ فيُقرْقِرُها في أذن وليه كقرقرة الدجاج، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة»[(٣)].

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إذا قضى اللّهُ الأمرَ في السماء؛ ضربت الملائكةُ بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فُزِّع عن قلوبهم، قالوا: «ماذا قال ربُكم»؟ قالوا: «الحق وهو العلي الكبير»، فيسمعها مُسْترِقو السمع،

= المسجد الأقصى تعدل خمسين ومئتي صلاة فيما سواء إلا مسجدي مكة والمدينة، فإن لهما فضلًا عليه. **ملاحظة**: إنَّ ما درج عليه كثير من الناس بتسمية المسجد الأقصى ثالث الحرمين الشريفين لا أصل له فليس هناك إلا حرمين: هما مكة والمدينة. والبعض يطلقه على مسجد الخليل حتى أنه أصبح يطلق على الجامعة فيقال الحرم الجامعي، واللّه المستعان.

(١) الرئى: يقال للتابع من الجن رئي، سُمّي به لأنه يتراءى لمتبوعه (النهاية ٢/ ١٧٨).

(٢) تيسير العزيز الحميد.

(٣) البخاري.



ومسترقو السمع هكذا بعضه فوق بعض - وصفه سفيان بكفه فَحَرفَها، وبدّد بيني أصابعه؛ فيسمع الكلمة ؛ فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر، أو كاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة»؛ فيقال: «أو ليس قد قال لنا يوم كذا وكذا، كذا وكذا؟ فيُصدَّق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء»(١).

وقد بيّن اللّه تعالى كَذِب الكاهن بقوله: ﴿أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ فسماه أفّاكا ؛ وذلك مبالغة في وصفه بالكذب، وسماه أثيما ؛ وذلك مبالغة في وصفه بالفجور، وقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ أي أكثر ما يقولون الكذبُ ؛ فلا يُفهَمُ منه أن فيهم صادقا، يفســـره قولُ النبي ﷺ: «فيكذب معها مائة كذبة» فلا يكون صدقا إلا الكلمةُ التي سُمعت من السماء(٢).

و(**العرّاف**): الذي يدَّعي معرفةَ الأمور بمقدمات يَستدل بها على المسروق، ومكانَ الضالةِ ونحو ذلك.

قال أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ العرّاف: اسمُ الكاهنِ، والمُنجِّمُ، والرمّالُ ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطريقة(٣).

وقد نهى الإسلام عن إتيان الكُهانِ والعرّافين وسؤالِهم كما جاء من حديث بعضِ أزواج النبي ﷺ «حفصة» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنه ﷺ قال: «من أتى عرّافا ؛ فسأله عن شيء؛ لم تُقْبَل له صلاةٌ أربعين يوما»(٤).

فهذا حُكمُ منْ سأله مطلقا، أما حُكمُ من سأله وصدّقه، فهذا يَكْفرُ كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من أتى عرّافاً، أو كاهناً، فصدقه بما

(١) متفق عليه.
(٢) معارج القبول ١/ ٤٣٤ .
(٣) تيسير العزيز الحميد (١٤١١ بتصرف).
(٤) رواه مسلم.

يقول؛ فقد كفَر بما أُنزل على محمد ﷺ»(١).

قوله: «فقد كَفَر بما أُنزل على محمد ﷺ» قال الطيبي: المراد بالمُنزَّل الكتابُ، والسنة أي: من ارتكب هذه فقد بريءٌ من دين محمد ﷺ، وما أنزل عليه «انتهى»(٢).

وعن عمرانَ بن الحصين رضي الله عنه مرفوعا «ليس مِنّا من تطيَّر، أو تُطيِّر له أو تُكُهِّن له، أو سُحِر له. ومن أتى كاهنا، فصدّقه بما يقول: فقد كَفَر بما أُنزِل على محمد ﷺ»(٣) وكما في حديث معاوية بن الحكم السلمي قال: قلت: «يا رسول اللّه إنّ مِنّا رجالا يأتون الكهانَ قال: (فلا تأتهم»)(٤).

فإذا كانت هذه حال السائل (للكهّان والعرّاف) فكيف بالمسؤول؟! فلا شك أنه أشدُّ كفراً للأسباب الآتية:

أولا: كونُه ولياً للشيطان، فلم يُوحِ إليه الشيطان إلا بعد أن تولاه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ [الأنعام: ١٢١].

ثانيا: الشيطانُ لا يتولى إلا الكفارَ، ويتولّونه، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِۗ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٧].

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ﴾ أي نورَ الإيمان والهدى (إلى الظلمات): أي ظلمات الكفر والضلالة.

رابعا: وقال اللّه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَـٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ

---

(١) رواه الحاكم وقوى إسناده الإمام الذهبي ورواه البيهقي وصححه الحافظ العراقي، ورواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة وصححه الألباني (الجامع ٥٩٣٩).

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤١٠ .

(٣) رواه البزار بإسناد جيد ورواه الطبراني بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله: ومن أتى عرافا إلى آخره وصححه الألباني (الجامع ٥٤٣٥).

(٤) رواه مسلم.



خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩].

خامسا: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]. : تسميته طاغوتا في قوله تعالى نزلت في المتحاكمين إلى كاهن جهينة.

سادسا: وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾، أي: بالطاغوت.

سابعا: أنّ من هداه اللّه للإيمان من الكهان كـ (سواد بن قارب) رضي الله عنه لم يأته (رَئِيُّه) بعد أن دخل في الإسلام، فدلّ على أنه لم يتنزل عليه في الجاهلية إلا لكفره وتوليه إياه حتى أنه رضي الله عنه كان يغضب إذا سُئل عنه.

ثامنا: (وهو أعظمُها) تَشَبهُه باللّه عزَّ وجلَّ في صفاته، ومنازعتهُ له تعالى في ربوبيته؛ فإن علمَ الغيب من صفات الربوبية التي استأثر اللّهُ تعالى بها دون سواه، فلا سَمّيَ له، ولا مُضاهي ولا مُشارك: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

تاسعا: أن دعواه تلك تتضمن التكذيبَ بالكتاب، وبما أرسل اللّه به رسلَه.

عاشرا: النصوصُ في كفر مَنْ سأله عن شيء فصدقه بما يقول: فكيف به نفسه فيما ادّعاه؟[1].

وقد ورد في الكتاب والسنة كثير من الآيات والأحاديث التي تشير إلى ما ذكرنا آنفا منها:

قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦- ٢٧].

فمن ذا الذي يَدّعي علمُ ما استأثر اللّهُ بعلمه عن رسله من الملائكة والبشر؟ كما قال

(١) معارج القبول ١/ ٤٣٥ .



تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [هود: ٣١].

وعن هود عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٢٣].

وعن نبيه محمد ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقوله تعالى عنه أيضا: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقال تعالى عن الملائكة: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣١- ٣٢].

والجنُ كذلك لا يعلمون الغيب، كما قال تعالى عنهم في موت سليمان عليه السلام: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

وقولُ عائشة رضي الله عنها لمسروق رحمه الله: «ومن زعم أن رسول الله ﷺ يخبر بما يكون في غد، فقد أعْظَمَ على الله الفِرْيَة، والله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾ [النمل: ٦٥]»(١).

وهناك حوادثُ كثيرة جدا في السّنة تبين أن النبي ﷺ لا يعلم الغيبَ(٢) منها: أكلُه ﷺ من الشاة المسمومة، وكذلك بعثه لعدد من القواد مع أناس فقتلوهم، وبحثه عن عقد عائشة الذي كان تحت الراحلة، وغيرها.

* * *

(١) رواه مسلم.
(٢) وأما إخباره عن بعض الغيبيات فهذا لإخبار الله تعالى له.

القضية التاسعة والعشرون: قال المُصَنّف حفظه اللّه:

«نشهدُ أن رسول اللّه ﷺ حَمى جانبَ التوحيد، وَسَدّ كلَ الذرائع المُوَصِّلة إلى الشرك؛ فَحَرّم بِناء المساجد على القبور، ونهانا أن نُطْرِيَهُ كما أَطْرت النصارى المسيحَ ابنَ مريم، ونهى عن الصور والتماثيل».

قوله: (سدّ الذرائع)

الشرح: الذرائع: هي الوسائل، والذريعة هي الوسيلة والطريق إلى الشيء، سواء أكان الشيءُ مفسدةً، أو مصلحةً، قولًا أو فعلا، ولكنْ غَلَب اطلاقُ اسمِ الذرائع على الوسائل المفضية إلى المفاسد ؛ فإذا قيل: «هذا من باب سد الذرائع»، فمعنى ذلك أنه من باب منع الوسائل المؤدية إلى المفاسد[1]. واعلم - بارك اللّه فيك- أن النبي ﷺ قد حذّر، وأنذر، وأبدأ وأعاد، وخصّ، وعمّ، في حماية الحنيفية السمحة التي بعثه اللّه بها ؛ فهي حنيفية في التوحيد، سَمْحةٌ في العمل، كما قال بعض العلماء: «هي أشدُّ الشرائع في التوحيد، والإبعادِ عن الشرك، وأسمحُ الشرائع في العمل»[2].

ومن هذه الذرائع التي سَدّها ﷺ:

أولا: سبُّ آلهةِ الكفار:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فنهى اللّهُ - سبحانَه - المؤمنين أن يسبوا أوثانهم، لأنه عَلِم أنهم إذا سبوها نَفَر الكفار، وازدادوا كفرا، قال ابنُ عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: (قالت كفار قريش لأبي طالب إما أن تنهى محمدا وأصحابَه عن سبّ آلهتنا، والغضّ منها وإما أن

---

(١) الوجيز في أصول الفقه ٢٤٥ للدكتور: عبد الكريم زيدان رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٤٧ .

نَسُبَّ إلهَه ونهجوَه) فنزلت الآية.

وقال ابنُ كثير في الآية السابقة: وإن كان منه مصلحة إلا أنه يترتب عليه مفسدةٌ أعظم منها وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين(١).

قال العلماء: حُكمُها باقٍ في هذه الأمة على كل حال، فمتى كان الكافر في منعة، وخِيف أن يَسبَّ الإسلامَ، أو النبيَ عليه السلام، أو اللَّهَ عزَّ وجلَّ؛ فلا يحلُ لمسلم أن يسب صلبانَهم، ولا دينَهم، ولا كنائسَهم، ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك لأنه بمنزلة البعث على المعصية، وعبّر عن الأصنام وهي لا تعقل بـ (الذين) على مُعتقَد الكفرة فيها.

وقيل إنّ في هذه الآية أيضا ضرباً من الموادعة ودليلًا على وجوب الحكم بسَدِّ الذرائع. وفيها دليل على أن المُحِقّ قد يكُفّ عن حق له إذا أدى إلى ضرر يكون في الدين(٢).

ثانيا: نهيُه ﷺ أن يقال: «ما شاء اللَّه وشئت»

فعن قتيلة (امرأة من جهينة) أن يهوديا أتى النبيَ ﷺ فقال: «إنكم تشركون»؛ تقولون: «ما شاء اللَّه وشئت»؛ وتقولون «والكعبة»؛ فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: (وربّ الكعبة)، وأن يقولوا: «ما شاء اللَّهُ ثم شئتَ»(٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنه عنه أن رجلا قال للنبي ﷺ «ما شاء اللَّه وشئتَ» قال: (جعلتني للَّه نِّدا؟ ما شاء اللَّه وحدَه)(٤).

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٢٠ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧/ ٦١ (دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٧).

(٣) رواه الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه . وأحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي والنسائي عن قتيلة بنت صيفي رضي الله عنها ، وصححه، وصححه ابن حجر في الإصابة ٤/ ٣٨٩، وصححه الألباني في الجامع ٤٢٩٦ .

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد ٢/ ٢٦١ برقم ٧٨٣ وأحمد وابن ماجة والنسائي في الكبرى وفي عمل اليوم والليلة ٢١٨٨ .

وذَمَّ الخطيبَ الذي قال: «من يطع اللَّه ورسوله فقد رشد، ومن عصاهما فقد غوى» سدا لذريعة التشريك في المعنى بالتشريك في اللفظ، وحماية لمادة الشرك حتى في اللفظ.

ولهذا قال للذي قال له: «ما شاء اللَّه وشئتَ: أجعلتني للَّه نِدّا؟» فحَسَمَ مادَة الشرك، وسدَّ الذريعةَ إليه في اللفظ كما سدها في الفعل والقصد[1].

ثالثا: لا يقول: «عبدي وأمتي».

قال شارح كتاب التوحيد: «لِما في ذلك من الإيهام من المشاركة في الربوبية؛ فنهى عن ذلك أدبا مع جناب الربوبية، وحماية لجانب التوحيد».

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «لا يقل أحدكم: «أطعم ربك، وضئ ربك» وليقل: «سيدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: «عبدي وأمتي»، وليقل: «فتاي وفتاتي وغلامي»[2] سداً لذريعة الشرك في اللفظ والمعنى وإن كان الرب ههنا هو المالك كرب الدار، ورب الإبل، فعدَلَ عن لفظ العبد والأمَةِ إلى لفظ الفتى والفتاة، ومَنَعَ إطلاقَ لفظ الرب على السيد حماية لجانب التوحيد، وسدا لذريعة الشرك[3].

رابعا: نهيهُ ﷺ عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور والتماثيل:

١ - ولمّا ذكرتْ أمُ سلمة رضي الله عنها لرسول اللَّه ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة، وما فيها من الصور، فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح، أو العبد الصالح؛ بنوا على قبره مسجدا، وصوروا فيه تلك الصور؛ أولئك شرار الخَلْق عند اللَّه»[4].

---

(١) لابن القيم إعلام الموقعين ٣/ ١٤٦ .
(٢) متفق عليه.
(٣) إعلام الموقعين ٣/ ١٥١ .
(٤) متفق عليه.



قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «وهذه العلة هي التي لأجلها نهى الشارعُ عن اتخاذ المساجد على القبور، وهي التي أوقعت كثيرا من الأمم إما في الشرك الأكبر أو فيما دونه من الشرك، فإن النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين».

فإن الشركَ بقبر الرجل الذي يُعتقَد صلاحهُ أقربُ إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر ولهذا تجدُ أهلَ الشرك يتضرعون عندها ويخشعون، ويخضعون، ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت اللّه، فلأجل هذه المفسدة حسمَ النبيُ ﷺ مادتَها حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقا وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته[١].

٢ - وعن أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: «لما نزل برسول اللّه ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها، فقال (وهو كذلك): «لعنة اللّه على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، يحذّرُ ما صنعوا، ولولا ذلك أبرز قبره. غير أنه خشي أن يتخذ مسجدا[٢].

قال القرطبي: «وكل ذلك لقطع الذريعة المؤدية إلى عبادة مَنْ فيها كما كان السبب في عبادة الأصنام». وقال أيضا: «ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي ﷺ فأعْلَوا حيطان تربته، وسدوا المداخل اليها، وجعلوها مُحْدقةً بقبره ﷺ، ثم خافوا أن يُتّخذ موضعُ قبره قبلةً إذا كان مستقبل المصلين، فتُصور الصلاةُ إليه بصورة العبادة؛ فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين، وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره»[٣].

٣ - وعن جندب بن عبد اللّه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ النبيَ ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «إني أبرأُ إلى اللّه أن يكون لي منكم خليل، فإن اللّه قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ألا وإن

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٢١ .
(٢) متفق عليه.
(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٢٤ .

مَن كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك»[١].

٤ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: قال اللّه تعالى: «ومَنْ أَظْلَمُ ممن ذهب يخلق كخلقي، فَلْيخلقوا ذرة، أو لِيخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة»[٢].

٥ - وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول اللّه ﷺ قال: «أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق اللّه»[٣].

٦ - وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «كل مُصوِّر في النار، يُجعَلُ له بكل صورة صوّرها نَفْساً يُعذّب بها في جهنم»[٤].

٧ - وعن أبي الهياج قال: قال لي علي رضي الله عنه: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول اللّه ﷺ؟ لا تَدَعْ صورةً إلا طمستها، ولا قبرا مُشْرفا إلا سويته»[٥].

خامسا: النهي عن إطراء النبي ﷺ

والإطراء: مجاوزة الحد في المدح، والكذِب فيه.

عن عبد اللّه بن الشخير رضي الله عنه قال: «انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول اللّه ﷺ فقلنا: «أنت سيدُنا»، فقال: «السيدُ اللّهُ تبارك وتعالى». وقلنا: «وأفضلنا فضلا، وأعظمنا طوْلا» فقال: «قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان»[٦].

قال صاحب تيسير العزيز الحميد: حمايتهُ ﷺ حِمَى التوحيد عما يشوبه من الأقوال، والأعمال التي يضمحل معها التوحيد، أو ينقص، وهذا كثير في السنة الثابتة عنه ﷺ

---

(١) رواه مسلم.
(٢) متفق عليه.
(٣) متفق عليه.
(٤) متفق عليه.
(٥) رواه مسلم.
(٦) رواه أحمد وأبو داود وصححه الألباني (الجامع ٣٧٠٠).

كقوله: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابنَ مريم، إنما أنا عَبْدُ ؛ فقولوا: «عبد اللَّه ورسوله»[(١)(٢)].

قوله: «لا تطروني»، أي: لا تمدحوني بالباطل، أو لا تجاوزوا الحد في مدحي، ولقد بالغ البعض في المدح:

كما قال البوصيري:

فإن من جودِك الدنيا وضرّتها[(٣)] ومن عُلومك عِلْمُ اللّوح والقلمِ

فجعل الدنيا والآخرة من جوده وجزم بأنه يعلم ما في اللوح المحفوظ[(٤)].

* * *

---

(١) متفق عليه.
(٢) تيسير العزيز الحميد ٧٣١ .
(٣) ضرتها: الآخرة.
(٤) وهذا مناقض للآيات والأحاديث.

القضية الثلاثون: قال المُصَنّف حفظه اللّه:

«نشهد أن الكرامة حق لعبد صالح مؤمن، وأن خَرق اَلعادة قد يكون للفسقة والمجرمين، كما هو للدّجالين والكذّابين ومَنْ عَلم حقيقة الدين استطاع أن يفرق (بين أولياء اللّه وأولياء الشياطين»).

قوله: (ونشهد أن الكرامة حق لعبد صالح مؤمن)

الشرح: وهذه من جملة عقائد أهل السنة من السلف والخلف التي يجب اعتقادُها، ولا يجوز نفيُها[١] أو إهمالُها.

(والكرامة)[٢]: هي أمر خارق للعادة، وغير مقرونة بدعوى النبوة، ولا هو مقدمة، تظهر على يد عبدٍ ظاهرِ الصلاح، ملتزمٍ بمتابعة نبي كلّف بشريعته، مصحوبٍ بصحيح الاعتقاد، والعمل الصالح، عَلِم بها ذلك العبدُ الصالح، أم لم يعلم[٣].

وكرامةُ الأولياء حق ؛ وأنكر الإمام أحمد ﷺ على من أنكرها، وضلّله وقال: «وتوجد في زمن النبوة، وأشراط الساعة، وغيرها، ولا تدل على صدق من ظهرت على يده يما يخبر به عن اللّه تعالى، ولا على ولايته، لجواز سلبها، وأن تكون استدراجا له، وهذا يعني: أن مجرد الخارق لا يدل على ذلك، ولذلك

قال: (ولا يُسكن إليها) ولا يَقْطع هو بكرامته بها، ولا يدّعيها، وتظهر بلا طلبه، تشريفا له ظاهرا، ولا يعلم مَنْ ظهرت منه هو أو غيره أنه وليّ (للّه تعالى) غالبا بذلك، وقيل: «بلى»، ولا يلزم من صحة الكرامات، ووجودها صِدْقُ من يدعيها بدون بينة، أو قرائن جالية تفيد الجزم بذلك، وإن مشى على الماء، وطار في الهواء

---

(١) كالقدرية، قال البغدادي: (وأنكرت القدرية كرامات الأولياء لأنهم لم يجدوا في أهل بدعتهم ذا كرامة) (أصول الدين ١٧٥) وكذلك المعتزلة ومحمد بن حزم.

(٢) لمزيد من الفائدة راجع كتاب شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة «كرامات أولياء اللّه للألكائي بتحقيق الدكتور احمد بن سعيد بن حمدان».

(٣) لوامع الأنوار البهية ٢/ ٣٩٢ .

أو سُخِّرت له الجنُ والسباع، حتى تُنظرَ خاتمتُه، وموافقتُه للشرع من الأمر والنهي، وإن وُجد الخارق من نحو جاهلٍ فهو مَخْرقَة، ومكر من إبليس، وإغواء وإضلال[1].

صور من الكرامات في القرآن:

١ - مريمُ بنت عمران رضي الله عنها:

قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبو الشعثاء، وإبراهيم النخعي، والضحاك وقتادة، والربيع بن أنس، وعطية والعوفي والسّدي: «يعني وجد عندها فاكهةَ الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف».

وقال ابنُ كثير رحمه الله: «وفيه دلالة على كرامات الأولياء»[2].

٢ - صاحبُ سليمان عليه السلام:

قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

قال سعيد بن جبير: «لما تكلم الذي عنده علم من الكتاب دخل العرشُ تحت الأرض فنظر إليه سليمان قد طلع بين يديه» فقال: «هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أَكْفُر» وروى قريب منه عن قتادة[3].

٣ - أهل الكهف:

الذين قال اللّه تعالى عنهم: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥].

---

(١) لوامع الأنوار ٢/ ٣٩٣ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٨٠ راجع شرح أصول أهل السنة ٩/ ٧٦-٨٠ .
(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٩/ ٨١ - ٨٣ .

صور من الكرامات في السّنة:

١ - عن أنس رضي الله عنه أن أسيد بن خضير، وعبّاد بن بشر تحدثا عند النبي ﷺ في حاجة لهما، حتى ذهب من الليل ساعةٌ، في ليلة شديدة الظلمة، ثم خرجا من عند رسول اللَّه ﷺ ينقلبان، وبِيَد كلٍ واحد منهما عُصية، فأضاءت عصا أحدهما لهما حتى مشيا في ضوئها، حتى إذا افترقت بهما الطريق أضاءت للآخر عصاه، فمشى كلُّ واحد منهما في ضوء عصاه حتى بلغ أهلَه[(١)].

٢- وعن ابن المنكدر أن (سفينة) رضي الله عنه مولى رسول اللَّه ﷺ أخطأ الجيش بأرض الروم، أو أُسر، فانطلق هاربا يلتمس الجيش، فإذا هو بالأسد، فقال: يا أبا الحارث[(٢)]: أنا مولى رسول اللَّه ﷺ،كان من أمري كيْت وكيت، فأقبل الأسد، له بصبصة[(٣)] حتى قام إلى جنبه،كلما سمع صوتا أهوى إليه، ثم أقبل يمشي إلى جنبه حتى بلغ الجيش، ثم رجع الأسد[(٤)].

٣ - وعن عروة بن الزبير أن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل خاصمته أروى بنت أوس إلى مروان بن الحكم، وادّعت أنه أخذ شيئا من أرضها ؛ فقال سعيد: «أنا كنت آخذ من أرضها شيئا بعد الذي سمعتُ من رسول اللَّه ﷺ»؟! قال: «ما سمعتَ من رسول اللَّه ﷺ؟» قال[(٥)]: «سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول: «من أخذ شبرا من الأرض ظلما طُوِّقه إلى سبع أرضين» فقال له مروان: «لا أسألك بيّنة بعد هذا»، فقال سعيد: «اللّهم إن كانت كاذبة فاعم بصرَها، واقتلها في أرضها» قال[(٦)]: «فما

---

(١) رواه البخاري.

(٢) وهي كنية الأسد.

(٣) تحريك الذنب.

(٤)رواه البغوي في شرح السنة والحاكم في المستدرك (٣/ ٦٠٦) بنحوه وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وقال الألباني وهو كما قالا. مشكاة المصابيح ٣/ ١٦٧٦ حديث رقم ٥٩٤٩ .

(٥) أي سعيد بن زيد.

(٦) أي عروة بن الزبير.

ماتت حتى ذهب بصرها، وبينما هي تمشي في أرضها إذ وقعت في حفرة فماتت»[١].

٤ - وعن ابن عمر ﷺ أن عمر ﷺ بعث جيشا، وأَمَّر عليهم رجلا يُدعى (سارية) فبينما عمر يخطب، فجعل يصيح: «يا سارية ! الجبلَ»، فقدم رسولُ من الجيش، فقال: «يا أمير المؤمنين ! لقينا عدونا فهزمونا، فإذا بصائح يصيح يا سارية! الجبلَ»، فأَسْنَدْنا ظهورَنا إلى الجبل، فهزمهم اللَّه تعالى[٢].

٥ - وعن عبد الرحمن بن أبي بكر ﷺ قال: «إن أصحاب الصُفة كانوا أناسا فقراء»، وإن النبي ﷺ قال: «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث،[٣] ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس، وإن أبا بكر جاء بثلاثة، وانطلق النبي ﷺ بعشرة، وإن أبا بكر تعشَّى عند النبي ﷺ، ثم لبث حتى صُليتِ العشاء، ثم رجع فلبث حتى تعشَّى النبي ﷺ، فجاء بعدما مضى من الليل ما شاء اللَّه. قالت له امرأته: «ما حبسك عن أضيافك»؟ قال: «أو ما عشيتهم»؟ قالت: «أبوا حتى تجيء»، فغضب[٤] وقال: «واللَّه لا أطعمهُ أبدا»، فحلفَتْ المرأة أن لا تطعمه، وحلف الأضياف أن لا يطعموه. قال أبو بكر: «كان هذا من الشيطان»، فدعا بالطعام، فأكل وأكلوا، فجعلوا لا يرفعون لقمة إلا ربت من أسفلها. أكثر منها. فقال لامرأته: «يا أخت بني فراس ! ما هذا»؟ قالت: «وقُرّة عيني، إنها الآن لأكثر منها قبل ذلك بثلاث مرارٍ» فأكلوا، وبعث بها إلى النبي ﷺ فذكر أنه أكل منها)[٥].

وكراماتُ الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم وإلى وقتنا هذا، مما ذاع وشاع، وملأ الآفاق والأسماع، وضاقت عن إحصائه الدفاتر، وشهدت بوجوده الأكابر والأصاغر،

(١) متفق عليه.
(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة، ورواه ابن عساكر وغيره بإسناد حسن ونحوه مشكاة المصابيح ٣/ ٥٩٥٤ بتحقيق للألباني.
(٣) أي من هؤلاء الفقراء أصحاب الصفة.
(٤) أي على أهله.
(٥) متفق عليه.



ولا ينكره إلا معاند ومكابر فلا جرم، فهو الحق الصُّراح الرادع لأهل الإنكار والكفاح[(١)] وما أحسن قول الشاعر[(٢)].

وكل خارق أتى عن صالحِ ... من تابعٍ لشرعنا وناصحِ
فإنها من الكرامات[(٣)] التي ... بها نقول فاقفُ للأدلة
ومن نفاها من ذوي الضلالِ ... فقد أتى في ذاك بالمحالِ
فإنها شهيرة ولم تزلِ ... في كل عصر يا شقا أهل الزللِ

الاستقامة خير من الكرامة:

قال أبو علي الجوزجاني: «كن طالبا للاستقامة، لا طالبا للكرامة، فإن نفسك مُنْجَبِلة على طلب الكرامة، وربك يطلب منك الاستقامة»[(٤)]، وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذا تقرر ذلك فاعلم أن عدم الخوارق علما وقدرة لا يضر المسلم في دينه، فمن لم ينكشف له شيء من المغيبات، ولم يُسَّخَر له شيء من الكونيات، لا يُنقصه ذلك في مرتبته عند اللّه، بل قد يكون عدم ذلك أنفع له في دينه، إذا لم يكن وجود ذلك في حقه مأمورا به أمر إيجاب أو استحباب»[(٥)].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: وهؤلاء[(٦)] تأتيهم أرواح تخاطبهم، وتتمثل لهم هي جِنٌّ وشياطين فيظنونها ملائكة، كالأرواح التي تخاطب من يعبُد الكواكب والأصنام.

وكان مِن أول من ظهر من هؤلاء في الإسلام: المختار بن أبي عُبيد الذي أخبر به

---

(١) لوامع الأنوار ٢/ ٣٩٤ .
(٢) المصدر السابق.
(٣) والفرق بينها وبين المعجزة أنه لا يصاحبها دعوة النبوة ولا التحدي. (المصدر السابق ٣/ ٣٩٤).
(٤) المعجزة وكرامات الأولياء لابن تيمية ٤٠ - ٤٣ .
(٥) المصدر السابق.
(٦) أي: الفسقة والدجالين.

النبي ﷺ أنه «سيكون في ثقيف كذاب ومبير»(١)(٢).

فقيل لابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما أن المختار يزعم أنه يُنزّل فقالا: «صدق»، قال اللّه تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١- ٢٢٢]. وهذه الأرواح الشيطانية هي الروح الذي يزعم صاحب (الفتوحات)(٣) أنه أُلقي إليه ذلك الكتاب، ولهذا يذكر أنواعا من الخلوات بطعام معين، وشيء معين، وهذه مما تفتح لصاحبها اتصالا بالجن والشياطين، فيظنون ذلك من كرامات الأولياء، وإنما هو من الأحوال الشيطانية، وأعرف من هؤلاء عددا، ومنهم من كان يُحمل في الهواء إلى مكان بعيد ويعود، ومنهم من كان يُؤتى بمال مسروق، تسرقه الشياطين وتأتيه به، ومنهم من كانت تدله على السّرقات بِجُعْلٍ يحصل له من الناس، ولعطاء يُعطونه إذا دلّهم على سرقاتهم، ونحو ذلك(٤)، ولهذا لما أنكروا على أحدهم بتركه الصلاة مع المسلمين في مساجدهم، زعم أنه يصلي بمكة جميع الصلوات، ولو كان بينه وبينها مسافة أيام، وأنشد على ذلك:

وفي طَنطَا(٥) قالوا صلاتي تركتها ... ولم يعلموا أني أُصلي بمكةِ
أُصليّ صلاة الخمس في البيت دائما ... مع السادة الأقطاب أهل الطريقةِ

وكذلك الأسود العنسي الذي ادّعى النبوة كان له من الشياطين من يُخبره ببعض الأمور المغيبة، فلما قاتله المسلمون كانوا يخافون من الشياطين أن يخبروه بما يقولون فيه، حتى أعانتهم عليه امرأته لما تبيّن لها كفره، فقتلوه.

---

(١) مبير: المهلك.
(٢) رواه مسلم.
(٣) محي الدين بن عربي (٥٦٠ - ٦٣٨ هـ/ ١١٦٥ - ١٢٤٠ م) قدوة القائلين بوحدة الوجود صاحب كتاب الفتوحات المكية.
(٤) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ٨٦- ٨٧ .
(٥) وهي من قرى مصر، على النيل المفضي إلى المحلة، وهي من كورة الغربية، بينها وبين المحلة ثمانية أميال (معجم البلدان/ ٤٣).

وكذلك مسيلمة الكذّاب كان معه من الشياطين من يخبره بالمغّيبات، ويعينه على بعض الأمور.

وأمثال هؤلاء كثيرون، مثل الحارث الدمشقي الذي خرج بالشام زمن عبد الملك بن مروان، وادّعى النبوة، وكانت الشياطين تُخرج رجليه من القيد وتمنع السلاح أن ينفذ فيه، وتسبح الرخامة إذا مسحها بيده، وكان يُرى الناس رجالا وركبانا على خيل في الهواء، ويقول: «هي الملائكة»، وإنما كانوا جِنًّا ولما أمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه الطاعن بالرمح، فلم ينفذ فيه، فقال له عبد الملك: «إنك لم تسّم اللَّه»، فسمى اللَّه فطعنه فقتله[١].

ومثل هذه الأحوال حال عبد اللَّه بن صياد[٢] الذي ظهر في زمن النبي ﷺ وأكبر من هؤلاء جميعا الدجال الذي يخرج في آخر الزمان، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ألا أحدثكم حديثا عن الدجال ما حدّث به نبي قومه؟: إنه أعور؛ وإنه يجيء معه بمثل الجنة والنار، فالتي يقول: «إنها الجنة»، هي النار، وإني أنذركم كما أنذر به نوح قومه»[٣].

والمعنى: أنه يأتي بصورتهما معه في نظر الناس، مما يقلب اللَّه تعالى حقيقتهما في حق المؤمنين، وأخبر عنه النبي ﷺ أن الدجال يأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، وأنه يمر بالخربة فيقول لها: «أخرجي كنزك؛ فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا، فيضربه بالسيف، فيقطعه جزلتين رمية القرض، ثم يدعوه، فيُقبل، ويتهلّل وجهه يضحك»[٤].

فإذا قال قائل: «فما هي الضوابط»؟ قلنا:

---

(١) الفرقان لابن تيمية ١٣٤ .
(٢) سبق ذكر قصته.
(٣) متفق عليه.
(٤) وسيأتي إن شاء اللَّه مزيد بيان عند ذكر الدجال.

ضوابط الكرامة:

إن الشريعة كما أنها عامة في جميع المكلفين، وجارية على مختلف أحوالهم

فهي عامة أيضا بالنسبة إلى عالم الغيب وعالم الشهادة من جهة كل مكلف، فإليها نرد كلَّ ما جاءنا من جهة الباطن، كما نرد إليها كل ما في الظاهر، والدليل على ذلك:

الأول: ما تقدم في المسألة قبلها من ترك اعتبار الخوارق إلا مع موافقة ظاهر الشريعة.

والثاني: أن الشريعة حاكمة لا محكوم عليها، فلو كان ما يقع من الخوارق والأمور الغيبية حاكما عليها، بتخصيص عموم، أو تقييد إطلاق، أو تأويل ظاهر، أو ما أشبه ذلك، لكان غيرها حاكماً عليها، وصارت هي محكوما عليها بغيرها، وذلك باطل باتفاق، فكذلك ما يلزم منه.

والثالث: أن مخالفة الخوارق للشريعة دليل على بطلانها في نفسها وذلك أنها قد تكون في ظواهرها كالكرامات، وليست كذلك، بل هي أعمال من أعمال الشيطان، كما حكى عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الفقيه (أبي ميسرة المالكي) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنه كان ليلة بمحرابه يصلي، ويدعو، ويتضرع، وقد وجد رقّة، فإذا المحراب قد انشق، وخرج منه نور عظيم، ثم بدا له وجه كالقمر»، وقال له: «تمَّلأ من وجهي يا أبا ميسرة! فأنا ربّك الأعلى» فبصق فيه، وقال له: «اذهب يا لعين! عليك لعنة اللّه» وكما حكى عن عبد القادر الكيلاني أنه عطش عطشا شديدا، فإذا سحابة قد أقبلت وأمطرت عليه شبه الرّذاذ حتى شرب، ثم نُوديّ من سحابة: «يا فلان أنا ربك، وقد أحللتُ لك المحرمات» فقال له: «اذهب يا لعين فضَمحّلت السحابة». وقيل له: «بم عرفتَ أنه إبليس»؟ قال:

بقوله: «قد أحللتُ لك المحرمات». فهذا وأشباهه لو لم يكن الشرع حكماً فيها لما عُرفت أنها شيطانية[1].

وكذلك اعلم أنه من كان جاهلا بما أمره اللّه به، ونهاه عنه، لم يكن من الأولياء،

---

(١) الموافقات في أصول الشريعة لأبي اسحاق الشاطبي ٢/ ٢٧٥ .

وإن كان فيه زهادة، وعبادة لم يأمر اللّه بها ولا رسوله، كالزهد والعبادة التي كانت في الخوارج والرهبان ونحوهم.

كما أن من كان عالماً بأمر اللّه ونهيه، ولم يكن عاملا بذلك: لم يكن من أولياء اللّه، بل يكون فاسقاً فاجراً، كما قال ﷺ: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كالأترجّة، طعمها طيب، وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة، طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة، طعمها مر ولا ريح لها»[١].

قوله: «ومن علم حقيقة الدين استطاع أن يفرق بين أولياء اللّه وأولياء الشيطان»

ش: (أولياء) قال سيبويه: الوَلاية، بالفتح، المصدر، والوِلاية بالكسر الاسم[٢].

وقال ابن السكّيت: (الوِلاية) بالكسر السلطان و (الوَلاية) بالفتح والكسر النصرة و(الموالاة) ضد المعاداة، ويقال (والى) بينها (وِلاة) بالكسر أي تابع[٣].

الولاية في الشريعة: هي: مرتبة في الدين عظيمة لا يبلغها إلا من قام بالدين ظاهرا وباطنا.

فالولاية لها جانبان:

١- **جانب يتعلق بالعبد**: وهو القيام بالأوامر، واجتناب النواهي، ثم التدرج في مراقي العبودية بالنوافل.

٢- **وجانب يتعلق بالرب سبحانه وتعالى**: وهو محبة هذا العبد، ونصرته، وتثبيته على الاستقامة.

وأما ما يظهر على يديه من عجائب الأمور أو غرائب الأحوال، فإن ذلك شيء

(١) رواه البخاري وأحمد وأصحاب السنن.
(٢) لسان العرب ١٥/٤٠٧ .
(٣) مختار الصحاح ٢٣٧ .



إضافي، وليس من شروط الولاية.

وقد بيّن سبحانه وتعالى في كتابه وسنة رسوله ﷺ أن للّه أولياء من الناس وللشيطان أولياء، ففرّق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

أولياء الرحمن:

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٤].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥- ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

وقال رسول اللّه ﷺ: «أولياء اللّه تعالى الذين إذا رُؤُوا ذُكر اللّه تعالى»[(١)].

وقال رسول اللّه ﷺ: «ألا إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء، إنما وليّي اللّه وصالح المؤمنين»[(٢)].

كيفية الوصول إلى ولاية الله:

قال رسول اللّه ﷺ: «إن اللّه تعالى قال: من عادى لي وليّاً، فقد آذنتهُ[(٣)] بالحرب،

---

(١) رواه الحاكم عن ابن عباس وأبو نعيم وأبي صاعد والديلمي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٨٧).

(٢) متفق عليه.

(٣) أعلنت له وأعلمته.

وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينّه، وإن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعلهُ تردُّدي عن قبض نفسِ المؤمن، يكره الموت، وأنا أكره مساءته»[١].

فأولياءُ اللَّه هم الذين يتقربون إليه بما يقربهم فيه، وأعداؤه هم الذين أبعدهم عنه بأعمالهم المقتضية لطردهم وإبعادهم منه، فقسّم أولياءه المقربين إلى قسمين:

أحدهما: من تقرب إليه بأداء الفرائض، ويشمل ذلك فِعْلَ الواجبات، وترك المحرمات، لأن ذلك كله من فرائض اللَّه التي افترضها على عباده.

والثاني: من تقرب إليه بعد الفرائض بالنوافل، فظهر بذلك أنه لا طريق يوصل إلى التقرب إلى اللَّه، وولايته، ومحبته، سوى طاعته التي شرعها على لسان رسوله ﷺ فمن ادعى ولاية اللَّه والتقرب إليه، ومحبته بغير هذا الطريق، تبيّن أنه كاذب في دعواه، كما كان المشركون يتقربون إلى اللَّه تعالى بعبادة من يعبدونه من دونه، كما حُكِيَ اللَّه عنهم أنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وكما حكى عن اليهود والنصارى أنهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]. مع إصرارهم على تكذيب رُسله، وارتكاب نواهيه، وترك فرائضه[٢].

إذاً فليس لأولياء اللَّه شيء يتميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور المباحات، فلا يتميزون بلباس دون لباس إذا كان كلاهما مباحا، ولا بحلق شعر، أو تقصيره، إذا كان مباحا، كما قيل: «كم من صدّيق في قباء، وكم من زنديق في عباءة». بل يوجد في جميع أصناف أمة محمد ﷺ إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة، والفجور، فيوجدون في أهل القرآن، وأهل العلم، ويوجدون في أهل الجهاد والسيف، ويوجدون في التجّار

(١) رواه البخاري والبيهقي في سننه وأبو نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة.
(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب ٢/٣٣٦ .



والصنّاع والزرّاع[١].

أولياء الشيطان:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨- ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

وقال تعالى عن الخليل إبراهيم عليه السلام يدعو أباه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٥].

وإذا عُرِف أن الناس فيهم أولياءُ الرحمن، وأولياءُ الشيطان؛ فيجب أن يُفرَّق بين هؤلاء وهؤلاء، كما فرّق اللّه ورسوله بينهما[٢]، وبالاستقراء يمكن ذكر بعض الفروق، وسيُقتصر على صفات أولياء الرحمن؛ لأن بضدها تتميز الأشياء:

١- أولياء اللّه هم المؤمنون المتقون.

٢- أولياء اللّه هم الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويقيمون شعائر اللّه

٣- أولياء اللّه لا يتخذون اليهود والنصارى أولياء.

٤- أولياء اللّه يوالون بعضهم بعضا.

---

(١) الفرقان لابن تيمية ١٤١ .
(٢) الفرقان لابن تيمية ٥ .

٥- أولياء اللَّه يقاتلون في سبيل اللَّه.

٦- أولياء اللَّه ليس للشيطان عليهم سلطان.

٧- أولياء اللَّه تعالى الذين إذا رُؤوا ذُكِر اللَّهُ تعالى.

* * *

القضية الحادية والثلاثون: قال المُصَنِّف حفظه اللّه:

«نؤمن أن للّه سبحانه وتعالى الكبرياءَ، والعظمةَ، والمجدَ، وأنه سبحانه لا يُشْفع عنده إلا بإذنه، ولا يُتألّى عليه، ولا يُنازع في كبريائه وعظمته، ولا يُعقَّب على أمره وحُكمه».

قوله: «ونؤمن أن للّه سبحانه تعالى الكبرياء والعظمة والمجد».

الشرح: (الكبرياء): نعتقد أن الكبرياء صفة من صفات اللّه تعالى.

والكبرياء: «العظمة والمُلك»، وقيل: هي عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود، وكمال الصفات، ولا يوصف بها إلا اللّه عزَّ وجلَّ[١].

أي: على وجه المدح، أما إذا اتصف بها العبد فإنها على وجه الذم، لأنه لا يستحقها. قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٦- ٣٧].

قال مجاهد: «يعني السلطان» أي: هو العظيم الممجَد، الذي كل شيء خاضع لديه، فقير إليه[٢]، ومنه الكبير والمتكبر، وهما اسمان للّه تعالى.

فالكبير: العظيم الجليل، وكبرياء اللّه عظمته وجلاله، ومنه قيل: كبّرتُ تكبيرا «وعظّمت عظيما» وتأويله: اللّه أكبر من كل شيء، أي أعظم وأجلّ[٣].

قال تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

---

(١) النهاية لأبي الأثير ٤/ ١٤٠ . أي على وجه المدح، أما إذا اتصف بها العبد فإنها على وجه الذم لأنه لا يستحقها.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٩٥ ث.

(٣) اشتقاق أسماء اللّه لأبي القاسم الزّجاجي ١٥٥ - ١٥٦ .

معنى الاسمين في حق اللّه تعالى:

قال قتادة: (المتكبر) أي: تكبر على كل شر، وقيل: (المتكبر): هو الذي تكبر عن ظلم عباده. وقال عبد اللّه النَسفي: هو البليغ الكبرياء والعظمة.

وعلى هذا يكون معنى المتكبر والكبير:

١- الذي تكبّر عن كل سوء، وشر، وظلم.

٢- الذي تكبّر، وتعالى عن صفات الخلق فلا شيء مثله.

٣- الذي كَبُر وعَظُم ؛ فكل شيء دون جلاله صغير وحقير.

٤- الذي له الكبرياء في السموات والأرض، أي: السلطان، والعظمة.

آثار الإيمان بهذين الاسمين:

إن اللّه أكبر من كل شيء، وأكبر من أن يُعرف كُنْهُ كبريائه وعظمته، وأكبر من أن نُحيط به علما، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]. فاللّه جلّت عظمته أكبر من أن نعرف كيفية ذاته، أو صفاته ؛ ولذلك نُهينا عن التفكر في اللّه ؛ لأننا لن ندرك ذلك بعقولنا الصغيرة القاصرة المحددة فقد قال ﷺ: «تفكروا في آلاء اللّه، ولا تَفكّروا في اللّه عزَّ وجلَّ»[١] وفي رواية: «تفكّروا في خلق اللّه، ولا تفكّروا في اللّه»[٢].

٢ - أن صفة التكبر والكبرياء لا تليق إلا به ؛ ولهذا هدّد اللّه، وتوعّد المستكبرين كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، وقال رسول اللّه ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «إنّ العزّ إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني فيهما عذّبته»[٣].

---

(١) رواه أبو الشيخ والطبراني في الأوسط وابن عدي في الكامل والبيهقي في شعب الإيمان وحسنه الألباني (الجامع ٢٩٧٥ والصحيحة ١٧٨٨).

(٢) رواه أبو نعيم في اكليله من حديث ابن عباس وحسنه الألباني الجامع ٢٩٧٦ والصحيحه ١٧٨٨ .

(٣) رواه الطبراني في الأوسط ومسلم وأحمد وأبو داود والبخاري في الأدب.

٣ - وإذا استشعر العبدُ هذه الصفاتِ للّه، تَواضَعَ لعباد اللّه، وخاصة في طلب العلم، ولم يترفَّع عن الجلوس بين يدي العالم للتعلم[١].

قوله: (والعظمة)

ش: العظيم: ذو العظمة والجلال في ملكه، وسلطانه عزَّ وجلَّ، وكذلك تعرفه العرب في خُطبها ومحاوراتها، يقول قائلهم: «مَنْ عظيمُ بني فلان اليومَ؟» أي: من له العظمة والرئاسة منهم؟ فيقال له: «فلان عظيم» ويقولون: هؤلاءِ عظماءُ القوم[٢]، وقال الأصفهاني[٣]: العظمة صفة من صفات اللّه ؛ لا يقوم لها خلْقٌ، واللّه تعالى خَلَقَ بين الخلق عَظَمَةً يُعظم بها بعضُهم بعضا، فمن الناس من يُعظَّم لمالٍ، ومنهم من يُعظّم لفضلٍ، ومنهم من يُعَظَّم لمعنى دون معنى، واللّه عزَّ وجلَّ يُعَظَّم في الأحوال كلها، فينبغي لمن عرف حق عظمة اللّه أن لا يتكلم بكلمة يكرهها اللّه، ولا يرتكب معصية لا يرضاها اللّه، فهو القائم على كل نفس بما كَسَبت[٤].

فعن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما قال: قال رسول اللّه ﷺ: «ألا وإني نُهيت أن أقرأ القرآن راكعا أو ساجدا، فأما الركوع فعظِّموا فيه الربَّ، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فَقَمِن[٥] أن يُستجاب لكم»[٦].

---

(١) النهج الأسمى ١/ ١٤٠- ١٤٣ (بتصرف).
(٢) اشتقاق اسماء اللّه للزجاجي ١١١ .
(٣) شيخ الإسلام الحافظ الكبير إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصفهاني، ولد سنة ٤٥٧ هـ وتوفي سنة ٥٣٤ وله ثمانية وسبعين عاما.
(٤) الحجة في بيان المحجة ١/ ١٣٠ .
(٥) فَقَمن: حقيق وجدير.
(٦) رواه مسلم.

آثار الإيمان بهذه الصفة:

١ - إثباتُ هذه الصفة (العظمة) للَّه تعالى:

وتعظيمهُ تعظيما مطلقا، فمن عظمته سبحانه إمساك السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

ومن عظمته أنه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، أي هو الحاكم الذي لا مُعقِّب لحكمه. ولا يعترض عليه أحد لعظمته، وجلاله، وكبريائه وعلمه، وحكمته، وعدله، ولطفه، ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾، أي: وهو سائل خلقه عما يعملون، كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢- ٩٣]، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨](١).

٢ - تعظيم شعائر اللَّه وكل ما يُنسب إلى اللَّه:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ﴾ [الحج: ٣٠].

ومن أعظم ما حرّمه اللَّه: الشرك بأنواعه، ومقابل هذا أن يعمل المسلم بأوامر اللَّه التي أمر بها، والتي من أعظمها توحيدُه، وإفرادُه بالعبادة وحده لا شريك له(٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ(٣): أي أوامره، ومن ذلك تعظيم الهَدْي والبُدن، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تعظيمها: استسمانها، واستحسانها، وقال أبو أمامة بن سهل: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «كنا نسمِّن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يُسمِّنون»(٤)(٥).

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٣٧ .
(٢) النهج الأسمى ١/ ٢٦٨ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٩٥ .
(٤) البخاري.
(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٩٥

وعن أبي أمامة ﵁ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «ما أحب عبدٌ عبدا للّه، إلا أَكْرَم ربَّه»(١)، قوله: «ما أحب عبدٌ عبدا للّه» أي: لابتغاء مرضاته، ومعنى «إلا أكرم ربه» أي: عظمه(٢).

قوله: (والمجد):

ش: ومن أسماء اللّه تعالى المجيد، والماجد و (المجد) في كلام العرب: الكرم والشّرف الواسع، يقال: اشتقاقه من قول العرب: أمجدتُ الدابّة علفا، إذا أكثرته لها، فكأن المجيد المبالغ في الكرم(٣)، ورجل ماجد: مِفضال، كثير الخير شريف. والمجيد: فعيل للمبالغة، أي الكريم.

وقيل: «إذا قارن شرفُ الذات حُسنَ الفِعال سمي مجدا، ومنه حديث(٤) قراءة الفاتحة» مَجّدني عبدي «أي شرّفني، وعظّمني»(٥).

(المجيد) الكريم، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ [هود: ٧٣]، أي: هو الحميد في جميع أفعاله، وأقواله، محمود مُمجَّد في صفاته وذاته، ولهذا ثبت في الصحيحين أنهم قالوا: «قد علمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك يا رسول اللّه؟ قال: « قولوا: اللّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وآل إبراهيم، وبارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد»(٦).

وعن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: كان رسول اللّه ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: «اللّهم ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض، وملء ما شئتَ من شيء بعد،

---

(١) رواه أحمد وصححه الألباني (صحيح الجامع ٥٥١٦).
(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٨/ ٧٥٤ لملا علي القاري.
(٣) اشتقاق أسماء اللّه ١٥٢ .
(٤) يشير إلى حديث مسلم . . . فإذا قال: (مالك يوم الدين) قال اللّه: «مجّدني عبدي».
(٥) النهاية لابن الأثير ٤/ ٢٩٨ .
(٦) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٩٤ .

أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد - وكلنا لك عبد - اللّهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»(١)، قوله: (والمجد) أي: العظمة، والكرم.

قوله: «وأنه سبحانه لا يُشفَعُ عنده إلا بإذنه»

ش: الشفاعة(٢): وهو السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم بينهم، يقال شفع يَشْفعَ شَفاعةً، فهو شافع وشفيع، والمُشفِّع: الذي يقبل الشّفاعة، والمُشَفَّع الذي تُقبل شفاعتُه(٣).

قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عزَّ وجلَّ، إنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه في الشفاعة(٤).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٣].

وقال تعالى عن يوم القيامة: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

---

(١) رواه مسلم.
(٢) سيأتي شرح مفصل لهذه القضية في الفقرة ٤٨ إن شاء اللّه.
(٣) النهاية لابن الأثير ٢/ ٤٨٥ .
(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤١١- ٤١٥ .

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام، والأنداد عند اللّه، وهو تعالى لم يَشرع عبادتَها، ولا أَذن فيها، بل قد نهى عنها على ألسِنة جميع رُسله، وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه؟»(١).

وكما جاء في حديث الشفاعة الطويل وفيه: «. . . فآتي تحت العرش، فأقع ساجدا لربي عزَّ وجلَّ، ثم يفتح اللّه عليّ ويُلهمني من محامده، وحُسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي، فيقال: «يا محمد ! ارفع رأسك، سَل تُعطه، اشفع تُشفّع»، فأقول: «يا رب أمتي أمتي، يا رب أمتي أمتي، يا رب أمتي أمتي» فيقول: «أَدخْل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سواه من الأبواب»(٢).

فالنبي ﷺ وهو سيد ولد آدم لا يزيد على أن يقول: «يا رب أمتي، أمتي» حتى يأتي الإذن الإلهي من اللّه تعالى فيقول له: «أَدخْل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن. . .» الحديث.

وهذا أحد شروط الشفاعة وهي: الإذن الإلهي للشافع(٣).

قوله: (ولا يتألى عليه)

ش: أي: يحلف، والأَلِيّة بالتشديد الحلف(٤)، كمن يُقنّط الناس من رحمة اللّه.

فعن جُندب بن جنادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول اللّه ﷺ حدّث أن رجلا قال: «واللّه لا يغفر اللّه لفلان»، وأن اللّه تعالى قال: «من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان، فأني قد

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣٢٦ .
(٢) رواه البخاري ومسلم واحمد واللفظ له.
(٣) والشروط الأخرى سنتناولها إن شاء اللّه في فقرة الشفاعة في الفقرة ٣٥ و ٤٨ .
(٤) تيسير العزيز الحميد ٧٢٤ .



غفرت لفلان وأحبطت عملك، أو كما قال»(١).

قال النووي: معنى يتألى: «يحلف» والأَلِيَّة: اليمين، وفيه دلالة لمذهب أهل السنة في غفران الذنوب بلا توبة إذا شاء اللّه غفرانها(٢).

وروى الإمام البغوي في شرح السنة عن عكرمة بن عمّار، قال: دخلت مسجد المدينة، فناداني شيخ، قال: «يا يماني ! تَعالَ»، وما أعرفه، قال: «لا تقولن لرجل: «واللّه لا يغفر لك أبدا، ولا يدخلك الجنة» قلت: «ومن أنت يرحمك اللّه»؟ قال: «أبو هريرة»، قلت: «إن هذه كلمة يقولها أحدنا لبعض أهله إذا غضب، أو لزوجته أو خادمه»، قال: «فإني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إن رجلين في بني إسرائيل متحابين، أحدهما مجتهد في العبادة، والآخر كأنه يقول: مُذنب»، فجعل يقول(٣): «أقصِر عمّا أنت فيه»، قال: فيقول: «خلِّني وربي»، قال: «فوجده يوما على ذنب استعظمه»، فقال: «أقصِر»، فقال: «خلِّني وربي، أبُعِثتَ عليّ رقيباً، فقال: «واللّه لا يغفر اللّه لك، ولا يدخلك الجنة أبدا»، قال: «فبعث اللّه إليهما مَلَكا، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عنده».

فقال للمُذنب: «أدخل الجنة برحمتي»، وقال للآخر: «أتستطيع أن تَحظُرَ على عبدي رحمتي»؟ قال: «لا يا رب»، قال: «اذهبوا به إلى النار» !! قال أبو هريرة رضي الله عنه : «والذي نفسي بيده تكلم بكلمة، أوبقت دنياه وآخرته»(٤).

وهذا فيه التحذير من التألي على اللّه(٥).

ومثله حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «إذا قال الرجل هَلَك الناسُ

---

(١) رواه مسلم.
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٩/ ١٧٤ .
(٣) أي العابد.
(٤) ورواه كذلك الإمام أحمد والترمذي وصححه الألباني، وابن حبان في صحيحه وحسن اسناده الأستاذ شعيب الأرنؤوط.
(٥) تيسير العزيز الحميد ٧٢٤ .



فهو أهلكُهَم»[١] . روى أهلكهم على وجهين مشهورين برفع الكاف وفتحها، قال الحميدي في الجمع بين الصحيحين (الرفع) أشهر، ومعناها أكثرهم هلاكا، وأما رواية (الفتح): فمعناها هو جعلهم هالكين لأنهم هلكوا في الحقيقة واتفق العلماء على أن هذا الذّم إنما هو فيمن قاله على سبيل الازدراء على الناس واحتقارهم، وتفضيل نفسه عليهم، وتقبيح أحوالهم لأنه لا يعلم سر اللّه في خلقه، قالوا: فأما من قال ذلك تَحزُّناً لما يرى في نفسه وفي الناس من النقص في أمر الدين فلا بأس عليه، كمن قال: «لا أعرف من أمّة النبي ﷺ إلا أنهم يُصلّون جميعا».

هكذا فسّره الإمام مالك وتابعه الناس عليه، وقال (الخطابي) معناه: «لا يزال الرجلُ يعيب الناس ويذكر مساوِيَهم، ويقول فسد الناس، وهلكوا ونحو ذلك».

فإذا فعل ذلك فهو أهلكُهم أي أسوأ حالا منهم بما يلحقه من الإثم في عيبهم، أي العابد، والوقيعة فيهم وربما أداه ذلك إلى العجب بنفسه، ورؤيته أنه خير منهم واللّه أعلم[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «سمع رسول اللّه ﷺ صوت خصوم بالباب، عالية، وإذا أحدهما يستوضع[٣] الآخر ويسترفقه[٤] في شيء، وهو يقول: «واللّهِ لا أفعل».

فخرج عليهما رسول اللّه ﷺ فقال: «أين المُتألّي على اللّه، لا يفعل المعروف؟» فقال: «أنا يا رسول اللّه، فله أي ذلك أحب»[٥].

---

(١) رواه مسلم.
(٢) صحيح مسلم ١٦/ ١٧١- ١٧٦ .
(٣) (يستوضع) أي يطلب منه الوضيعة، أي الحطيطة في الدين.
(٤) (يسترفقه) أي يطلب منه الرفق به.
(٥) في رواية: «. . . من ذا الذي يتألى عليّ. . .» رواه مسلم والبغوي في شرح السنة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وأبو داود في سننه.

قوله: (ولا يُعقَّب على أمره وحُكمِه)

ش: قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

ويدخل في هذا حكمه الشرعي[(١)]، والقدريّ[(٢)]، والجزائي[(٣)].

فهذه الأحكام التي يحكم اللّه فيها، توجد في غاية الحكمة والإتقان، لا خلل فيها ولا نقص، بل هي مبنية على القسط، والعدل، والحمد، فلا يتعقبها أحد ولا سبيل إلى القدح فيها.

بخلاف حُكْم غيره، فإنه قد يوافق الصواب، وقد لا يوافقه[(٤)]، فإنه ما سلم في دينه إلا من سلّم للّه عزَّ وجلَّ ولرسوله ﷺ[(٥)]، والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق دون أن نعارضه بخيال باطل نسميه معقولا، أو نحمله شبهة أو شكا، أو نقدم عليه آراء الرجال وزبالة أذهانهم. فنوحده بالتحكيم، والتسليم، والانقياد، والإذعان، كما نوّحد المرسِل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل[(٦)].

* * *

(١) كإباحة الزواج لأكثر من واحدة - وميراث الذكر ضعف ميراث الانثى، وكالقوامة للرجل، وحجاب المرأة المسلمة.

(٢) كالأمراض التي تصيب الإنسان فلا ينبغي له السخط وكذلك الزلازل والفقر، والغنى، بل ينبغي التسليم بها.

(٣) كالقطع يد السارق، ورجم الزاني المحصن، وجلد القاذف وشارب الخمر، وقتل المرتد، وقاتل النفس، فهذه الأحكام كثير ممن ينتسب إلى الإسلام - مع الأسف - يعقب عليها ويجعلها مجال النقاش، أما إذا جاءته مادة من الدستور والقانون الوضعي لبادرك بقوله: «يجب علينا يا أخي أن نحترم الدستور»، نسأل اللّه لنا ولهم الهداية والرشاد.

(٤) تيسير الكريم المنان لابن سعدي: ٢/ ٤٨٦ .

(٥) شرح الطحاوية: ٢١٦ .

(٦) المصدر السابق: ٢١٧ .

توحيد الحكم والمُلك

القضية الثانية والثلاثون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«نؤمن أن أخبارَ اللَّه كلَّها صدقٌ، وأحكامَهَ كلَّها عدلٌ».

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

قوله: (توحيد الحُكم والمُلك. . .)

الشرح: مقدمة لا بد منها:

أ - إن أقسام التوحيد حقيقة شرعية مأخوذة من نصوص الكتاب والسنة.

ب - إن أقسام التوحيد على ما نقل عن أهل السنة هو تقسيم استقرائي فقد أشار إليه ابن مندّه وابن جرير الطبري وغيرهما، وقرره شيخا الإسلام ابن تيمية وابن القيم، وقرره الزبيدي في تاج العروس والشيخ الشنقيطي في أضواء البيان وآخرون رحم اللَّه الجميع. وهو استقراء تام لنصوص الشرع، وهو مطّرد لدى أهل كل فن، كما في استقراء النحاة كلام العرب إلى اسم وفعل وحرف، والعرب لم تفه بهذا، ولم يعتب على النحاة في ذلك عاتب، وهكذا كل نوع من أنواع الاستقراء(١).

ثم لا شك أنه يجب على كل مسلم أن يتحاكم إلى شرع اللَّه تعالى، لكن القول بأن توحيد الحُكم من أقسام التوحيد وهو قسيم للأنواع الأخرى ومستقل عنها، فهذه دعوى فيها نظر لأسباب كثيرة منها:

الأول: أن فيها إضافة نوع جديد لم يعتبره السَّلف نوعاً مستقلًا، وهم الذين تكلّموا في كل مسائل التوحيد حتى مسألة الحاكمية.

---

(١) التحذير من مختصرات في التفسير (ص٣٠) بكر أبو زيد حفظه اللَّه.
- انظر: الفقه الأبسط (ص ٥١) أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ.
- شرح العقيدة الطحاوية (ص٣١) ابن أبي العز- شرح الفقه الأكبر (ص١٥) لملا علي القارئ.

الثاني: أن ما قصده الشيخ (عبد الرحمن عبد الخالق) حفظه اللّه من توحيد الحكم (الحاكمية) متضمن في أقسام التوحيد التي ذكرها أهل السنة، فأمور الحاكمية إن كان قصد بها إثبات أن الحكم في الخلق والتَّصرُّف، حق للّه تعالى، فهذا من معاني توحيد الربوبية، وهو إفراد اللّه تعالى بخصائص الربوبية للهأفعال اللّه كالخلق والمُلك والرزق التدبير والحُكم، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد: ٤١].

وإن كان مقصوده بالحاكمية وجوب أن يتحاكم الناس إلى اللّه تعالى ورسوله ﷺ. فهذا من توحيد الألوهية وهو إفراد اللّه بالعبودية (أفعال العباد).

وإن كان مقصوده إثبات اسم الحَكَم والحاكم للّه تعالى (وإن قيل أن الحَكَم أبلغ من الحاكم)، إذ لا يستحق التّسمية بحَكَم إلا من يحكم بالحق، لأنها صفة تعظيم في مدح(١).

أقول إن كان هذا هو قصد الشيخ (عبد الرحمن عبد الخالق - حفظه اللّه)، فهذا يمكن إدخاله تحت توحيد الأسماء والصفات إفراد اللّه بأسماءه وصفاته دون تعطيل ولا تمثيل ولا تكييف).

إذاً ما ذُكِر من أمور الحاكمية موجود في أنواع التوحيد الثلاث التي ذكرها علماء أهل السنة والجماعة بحمد اللّه، لذا فلا داعي لتخصيص الحاكمية بإفرادها بالذِّكر واعتبارها نوعا مستقلًا من أنواع التوحيد(٢).

الثالث: أن هذه الإضافة لأقسام التوحيد تحمل نوعاً من الاستدراك على السَّلف في أمر قد استقر عندهم، بحيث قد يتضمّن ذلك تجهيلًا لهم، أو زعماً بأنهم بأجمعهم لم يتفطّنوا إلى هذا النوع ولم يعرفوه، ولم يفردوه بالذِكر رغم كونه مستحقاً لذلك.

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٧٠ لهذا لما وفد إلى رسول اللّه ﷺ مع قومه سمعهم يكنّونه بأبي الحكم فدعاه رسول اللّه ﷺ فقال: «إن اللّه هو الحَكَم...» رواه أبو داود ٤٩٥٥ والبيهقي والنسائي.

(٢) خاصة ما يجلبه هذا التقسيم في أقسام التوحيد من اختلاف ونزاع في وقت أحوج ما تكون فيه الدعوة إلى التآلف وجمع الكلمة (واللّه أعلم) وهو الهادي إلى سواء السبيل.



قوله: «نؤمن أن أخبار اللَّه كلها صدق وأحكامه كلها عدل».

ش: قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

قال قتادة: «صدقا فيما قال، وعدلا فيما حكم، ويقول: صدقا في الأخبار، وعدلا في الطلب».

فكل ما أخبر اللَّه به فحق لا مرية فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل، فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة، كما قال تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٦٥][(١)]، وقال الطبري: أي وكَمُلَت كلمة ربك، يعني القرآن، كملت كلمة ربك في الصدق والعدل[(٢)]، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]. أي: لا أحد أصدق منه في حديثه، وخبره، ووعده، ووعيده، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه[(٣)]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، أي لا أحد أصدق منه قولا، أي خبرا، لا إله إلا هو ولا رب سواه، وكان رسول اللَّه ﷺ يقول في خطبته: «إن أصدقَ الحديث كلام اللَّه، وخيرَ الهدي هدي محمد ﷺ، وشَرَ الأمور محدثاتها، وكلَ محدثة بدعة، وكلَ بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»[(٤)(٥)]. وقال رسول اللَّه ﷺ: «ما أصاب عبدا همّ ولا حزن فقال: اللّهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيّ حكمك؛ عدلٌ فيّ قضاؤك، اسألك بكل اسم هو لك سميتَ به نفسك، أو أنزلته في كتابك»[(٦)] الحديث.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٢٢٦.
(٢) جامع البيان للطبري ٨/ ٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم ١/ ٧٠٧.
(٤) بعد أن يذكر الآيات ثم يقول: «أما بعد فإن أصدق الحديث. . .) رواه أحمد ومسلم والنسائي وابن ماجة عن جابر، وكذلك الترمذي ٢/ ١٧٨ وأبو داود وعبد الرزاق عن ابن مسعود (المصنف ١١/ ١٠٢).
(٥) تفسير القرآن العظيم ١/ ٧٤٠.
(٦) رواه أحمد في مسنده وابن حبان والحاكم وصححه الألباني، انظر الصحيحة ١٩٩.

قال ابن القيم رحمه الله قوله: «ماضٍ فيّ حُكمك، عدل فيّ قضاؤك» تضمن هذا الكلام أمرين: **أحدهما**: مضاء حُكمه في عبده، **والثاني**: يتضمن حمدَه وعدله، وهو سبحانه له المُلك، وله الحمد، وهذا يعني قول نبيه هود عليه السلام: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾، ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾(١) [هود:٥٦]، أي مع كونه مالكا، قاهرا، متصرفا في عباده، نواصيهم بيده، فهو على صراط مستقيم، وهو العدل الذي يتصرف به فيهم، فهو على صراط مستقيم في قوله وفعله، وقضائه، وقدره وأمره ونهيه، وثوابه وعقابه، فخبره كله صدق، وقضاؤه كله عدل، وأمره كله مصلحة، والذي ينهى عن كل مفسدة، وثوابه لمن يستحق الثواب بفضله، ورحمته، وعقابه لمن يستحق العقاب بعدله وحكمه.

وقوله: (عدل فيّ قضاؤك) يتضمن جميع أقضيته في عبده في كل الوجوه: من صحة، وسقم، وغنى، وفقر، ولذة وألم، وحياة وموت، وعقوبة، وتجاوز وغير ذلك(٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، أي: «ولا يقولون قولا يعارضون به الحق، إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر، وأبين، وأوضح، وأفصح من مقالتهم»(٣).

الصدق في الأخبار:

قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

أي أن كل الأخبار التي نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم، وما جرى لهم من الحاجات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نَصر اللّهُ حِزْبَه المؤمنين، وخذل أعداءه الكافرين، كل هذا مما به تثبيت لفؤادك

(١) الفوائد لابن القيم ٣١- ٣٤ (بتصرف).
(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٢٤ .
(٣) المصدر السابق ٢/ ٦١٢ .

أي قلبك يا محمد ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة وقوله: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ أي: في السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف أنجاهم اللّه والمؤمنين بهم، وأهلك الكافرين، جاءك فيها قصص حق، ونبأ صدق، وموعظة يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتذكر بها المؤمنون[1] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١] وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي وما كان لهذا القرآن أن يُفترى من دون اللّه، أي يُكذَب ويُختلق ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المنزلة من السماء، وهو يُصَدّق ما فيها من الصحيح، وينفي ما فيها من تحريف، وتبديل، وتغير، ويحكم عليها بالنسخ، أو التقرير[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ بالقصص: ٨٥].

قال ابن عباس رضي الله عنه: «أي لَرادُّك إلى مكة كما أخرجك منها[3]، وكذلك ما قصّه علينا اللّه تعالى من القصص التفصيلية كقصة كفالة زكريا عليه السلام لمريم، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي نقصه عليك: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

ولا شك أن هذا كذلك فيه تنبيه وبرهان على نبوة محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤] يعني ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي الذي كلم اللّه موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الوادي: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤] لذلك. ولكن اللّه سبحانه وتعالى: أوحى إليك ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [القصص: ٤٥]،

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٦١٢ .
(٢) المصدر السابق ٢/ ٦٥٣ .
(٣) رواه البخاري والنسائي وابن جرير.

أي: وما كنت مقيما في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا حين أُخبرت عن نبيها شعيب، وما قال لقومه، وما ردوا عليه[١].

وهذا كثير جدا في القرآن: كقصة خلق السموات والأرض، وخلق آدم، وما جرى له في السماء مع الملائكة.

ومع تربُصِ أعداء الإسلام في القديم من نصارى، ويهود ومشركين، وفي الحديث من المِلل والنِّحل السابقة بالإضافة إلى الملاحدة وما يُسمّى (بالعلمانيين) إلا أنهم لم يجدوا ولن يجدوا في القرآن والسنة الصحيحة إلا الصدق والحق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢].

العدل في الأحكام:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، أي إنما تتفاضلون عند اللّه تعالى بالتقوى لا بالأحساب[٢]؛ وهذا من كمال عدله أن سوّى بين الناس. ومن أمثلة عدله في الأحكام ما يلي:

أولا: القصاص:

قال (ابن فارس) القاف والصاد، أصل صحيح، يدل على تتبع الشيء، ومن ذلك اشتقاق القصاص من الجراح، وذلك أن يفعل به مثل فعله بالأول فهو شرعا تتبع الدم بالقَوَدُ[٣]، والأصل في القصاص، الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس.

فأما الكتاب فلقوله تعالى: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٥١٥ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٧٧ .
(٣) القود: القصاص وقتل القاتل بدل القتيل (النهاية ٤/ ١١٩).

وأما السّنة فقوله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث... إلى قوله: النفس بالنفس»[١].

وفعله ﷺ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن جارية وُجد رأسها مرضوضا[٢] بين حجرين، فقيل من فعل هذا بك؟[٣] فلان، فلان؟ حتى ذُكِر يهودي، فأومأت برأسها، فأُخذ اليهودي؛ فاعترف، فأمر النبي ﷺ أن يرض رأسه بين حجرين[٤]، وهذا فيه دليل على أن القاتل يُقتل بمثل ما قَتَل به وهي إحدى الروايتين عن الإمام أحمد اختارها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وقال: «هذا أشبه بالكتاب والسنة والعدل». وقال الزركشي: وهي أصح دليلا وهو مذهب عمر بن عبد العزيز رحمه الله، ومذهب الأئمة: مالك، والشافعي وأحمد، وأبو ثور، واختارها الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله، من هذا يظهر العدل، ويكمل معنى القصاص، ويرتدع المجرمون[٥].

ثانيا: الهِبة[٦]

أي ما شرعه اللّه في الإسلام من وجوب العدل بين الأبناء في العطية؛ فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: تصدق عليّ أبي ببعض ماله، فقالت أمي (عمرة بنت رواحة): لا أرضى حتى يشهد رسول اللّه ﷺ فانطلق أبي إلى رسول اللّه ﷺ ليُشهده على صدقتي، فقال له رسول اللّه ﷺ: «أفعلت هذا بولدك كلهم؟» قال: «لا» قال: «اتقوا اللّه واعدلوا بين أولادكم»، فرجع أبي فردّ تلك الصدقة»[٧].

وذلك لأن تخصيص بعض الأولاد دون بعض، أو تفضيل بعضهم على بعض عمل

(١) متفق عليه.
(٢) مرضوضا: أي مدقوقا.
(٣) وكان بها بقية من حياة.
(٤) متفق عليه.
(٥) تيسير العلام شرح عمدة الأحكام لابن بسام: ٢/٣٩٧ - ٤٠٧ بتصرف.
(٦) الهبة: العطية ابتداء من غير عوض.
(٧) متفق عليه.

مناف للتقوى، وأنه من الجور والظلم لما فيه من المفاسد، إذ يسبب قطيعة المفضَل عليهم لأبيهم وابتعادهم عنه، ويسبب عداوتهم وبغضهم لإخوانهم المفضلَّين، حتى كان بعض السلف يسوون بينهم في القُبَل[١] لما في ذلك من العدل، وإشعارهم جميعا بالمودة، وتصفية قلوبهم وإبعاداً للبغض، والحقد والحسد عنهم.

ثالثا: البيوع:

من البيوع التي نهى الشرع عنها: تلقّي الرُكبان، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لا تلقوا الركبان، ولا يبعْ حاضر لباد»[٢].

أي: لا تستقبلوهم قبل بلوغهم إلى سوق البلد.

والركبان: «جماعة الركب، والركب «أصحاب الإبل في السفر».

والمراد ها هنا، هم الذين يجلبون الحبوب وأرزاق العباد والأمتعة إلى السوق[٣] فيتلقاها رجل قبل أن يدخلوا البلد ويعرفوا السعر، فيشتري منهم بأرخص من سعر البلد، وهذا مظنة ضرر بالبائع لأنه إن نزل بالسوق كان أغلى له[٤].

وبيع الحاضر للبادي أن يحمل البدوي متاعه إلى بلد يريد أن يبيعه بسعر يومه فيأتيه الحاضر فيقول: «خَلّ متاعك عندي حتى أبيعه على المهلة بثمن غال، ولو باع البادي بنفسه لأرخص، ونفع البلديين، وانتفع هو أيضا، فإنه أحد أوجه الانتفاع، وهو أن يبيع بربح يسير، ثم يأتي بتجارة أخرى عن قريب، ويربح أيضا وهلم جرا، وهذا الانتفاع أوفق بالمصلحة المنية وأكثر بركة»[٥].

* * *

(١) بضم القاف، وفتح الباء، وجمع «قبلة».
(٢) متفق عليه.
(٣) بلوغ المرام بتعليق صفي الرحمن المبار كفوري ٢٣٤ .
(٤) حجة اللّه البالغة ٢/ ١١٠ للدهلوي.
(٥) المصدر السابق (بتصرف يسير).

القضية الثالثة والثلاثون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«نشهد ونؤمن أن للَّه الخلقَ والأمر وأن الحكم له وحده، وأنه هو الذي يشرع لعبادته ويأمر وينهى، وأن من نازع اللَّه في شيء من ذلك فقد أشرك».

قوله: (ونشهد ونؤمن أن للَّه الخلق والأمر)

الشرح: قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، أي: له الملك والتصرف[١]. فربكم اللَّه الذي خلق السموات والأرض، والشمس والقمرَ والنجومَ، كلُ ذلك بأمره، أَمَرهنَّ اللَّه فأطعن أمره، ألا له الخلق كله، والأمر الذي لا يُخالف، ولا يُرَد أمره دون سواه من الأشياء كلها، ودون ما عبده المشركون من الآلهة الأوثان التي لا تضر ولا تنفع، ولا تخلُق، ولا تأمر، تبارك اللَّه معبودنا الذي له عبادة كل شيء رب العالمين[٢].

فكما أن العبد شهد وأقرَّ بلسان حاله ولسان مقاله أن لا خالق إلا اللَّه فعليه كذلك أن أن يُقر بأن لا آمر على الحقيقة إلا للَّه.

وقال شيخنا العلامة محمد بن صالح العثيمين تعليقاً على قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾، فهذه الجملة تفيد الحصر لتقديم الخبر، إذ إن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

وقال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣].

فهذه الآية تفيد اختصاص الخلق باللَّه[٣] فإفرادهُ بالخلق: أن يعتقد الإنسان أنه لا خالق إلا اللَّه، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٩٥ .
(٢) جامع البيان: ٨/ ٢٠٦ للطبري.
(٣) القول المفيد على كتاب التوحيد: ١/١- ٦ .
(٤) المصدر السابق .



قوله: «وأنّ الحكم له وحَدهُ، وأنّه هو الذي يُشرّع لعبادته، ويأمر وينهى».

ش: كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الشورى: ١٠]. فقد دلت هذه الآية الكريمة على أن ما اختلف فيه الناس من الأحكام فحكمه إلى اللَّه وحده لا إلى غيره، وقد جاء هذا موضحاً في آيات كثيرة.

فالإشراك باللَّه في حُكمه كالإشراك به في عبادته:

قال في حُكْمِه: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].

وقال في الإشراك به في عبادته: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وبذلك تعلم أن الحلال هو ما أحلّه اللَّه، والحرام هو ما حرّمه اللَّه، والدِّين هو ما شرعه اللَّه، فكل تشريع من غيره باطل، والعمل به بدل تشريع اللَّه عند من **يعتقد** أن مثله أو خيرا منه، كُفر بواح لا نزاع فيه، وقد دلّ القرآن الكريم في آيات كثيرة، على أنه لا حكم لغير اللَّه، وأن اتباع تشريع غيره كُفرٌ به.

فمن الآيات الدالة على أن الحكم للَّه وحده قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يوسف: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ القصص: ٨٨]، وقولنه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وكل حكم يخالف حكم اللَّه فهو جهل وجهالة:

فإن كان مع العلم بالشرع فهو جهالة.



وإن كان مع خفاء الشّرع فهو جهل، والجهالة هي العمل بالخطأ سفهاً لا جهلًا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ [النساء: ١٧]، وأما من يعمل السوء بجهل فلا ذنب عليه لكن عليه أن يتعلم[١].

وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾ [النساء: ٦٠]، هذا إنكار من اللّه عزَّ وجلَّ على من يدّعي الإيمان بما أنزل اللّه على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ، كما ذُكرَ في سبب نزول هذه الآية أنها في رجل من الأنصار[٢]، ورجل من اليهود تخاصما، فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد، وذاك يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف، وقيل: في جماعة من المنافقين ممن أظهروا الإسلام، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية، وقيل غير ذلك، والآية أعم من ذلك كله، فإنها ذامة لمن عَدَل عن الكتاب والسنة، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل وهو المراد بالطاغوت هنا[٣].

ثم بَيَنَ أن هذا العُدول عن التحاكم بكتابه من علامات النفاق ؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾ [النساء: ٦١]، أي يعرضون عنك إعراضاً كالمستكبرين عن ذلك، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [البقرة: ١٧٠][٤]، وجعله ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الكفر الأكبر، وهو كفر الإباء والاستكبار، وفي هذا كُفر من عَرَفَ صدق الرسولَ ﷺ وأنه جاء بالحق من عند اللّه، ولم يَنقَدْ له إباءً واستكباراً، وهو

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد: ٢/ ٢٨٣ للشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
(٢) قال الشعبي: في المنافقين.
(٣) تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٩٠ .
(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٩٠، وهذا ما يقوله كثير من الناس اليوم نسأل اللّه السلامة والعافية .

الغالب على كفر أعداء الرسل[١]، بل إن اللّه تعالى قد نفى الإيمان عمّن لم يُحكِّم الرسولَ ﷺ، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]، يُقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يُحكِّم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحُكْم الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، أي إذا حكموك يُطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمتَ به، وينقادون له في الظاهر والباطن، فيُسلِمون لذلك تسليماً كُلياً من غير ممانعة، ولا مدافعة، ولا منازعة[٢].

قوله: (وأن مَن نازَع اللّهَ في شيءٍ مِنْ ذلك فقد أشرَكَ)

ش: (نزع) فلاناً الشيء: جاذبه إياه[٣]، وأصل النزع: الجذب والقلع[٤]، ومنه حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «قال اللّهُ تعالى: الكبرياءُ ردائي، العزُّ إزاري، فمن نازعني في شيء منهما عذّبته»[٥]، وفي رواية أخرى: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار»[٦].

وقال الإمام النووي رحمه الله: «ومعنى ينازعني: يتخلّق بذلك فيصير في معنى المشارك، وهذا وعيد شديد في الكِبر مُصرَّح بتحريمه»[٧].

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ٣٦٦ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٩١ .
(٣) المعجم الوجيز.
(٤) النهاية ٥/ ٤١ .
(٥) رواه مسلم البخاري في الأدب.
(٦) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة وصححه الألباني.
(٧) صحيح مسلم ١٦/ ١٧٣ .

قوله: (في شيء من ذلك)

ش: أي في شيء من حُكمه كمن يُحكِّم غيرَ شرع اللَّه تعالى.

قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

متى يكون من حكم بغير ما أنزل اللَّه كافرا، ومتى لا يكون؟

إن من الممتنع أن يُسمّي اللَّه سبحانه، الحاكم بغير ما أنزل اللَّه كافراً ولا يكون كافراً بل هو كافر مطلقا، إما كفر عمل، وإما كفر اعتقاد[١].

وإليك هذه الأقسام:

القسم الأول: كفر الاعتقاد وهو أنواع:

النوع الأول: أن يجحد الحاكمُ بغير ما أنزل اللَّه أحقية حُكْمِ اللَّه ورسوله. قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من جحد ما أنزل اللَّه فقد كفر»[٢]. واختار ابن جرير الطبري في الآية أنّ المراد بها أهل الكتاب، أو من جحد حكم اللَّه المنزَّل في الكتاب[٣]، وكذلك القولُ في كل من لم يحكم بما أنزل اللَّه جاحدا به، هو باللَّه كافر، وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومجاهد في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] ردا للقرآن وجحدا لقول الرسول ﷺ فهو كافر[٤]. وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضا: «فقد فعل فعلًا يضاهي أفعال الكفار»[٥].

وقال ابن مسعود، والحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هي عامة في كل من لم يحكم بما أنزل اللَّه من المسلمين واليهود والكفار أي معتقداً ذلك ومستحلا له[٦].

---

(١) تحكيم القوانين للشيخ العلامة محمد إبراهيم.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٨٥ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٨٥ .
(٤) أضواء البيان ٢/ ١٠٢ .
(٥) المصدر السابق.
(٦) المصدر السابق.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا ريب أن من لم **يعتقد** وجوب الحكم بما أنزل اللَّه على رسوله فهو كافر، **فمن استحل** أن يحكم بين الناس مما يراه هو عدلًا من غير اتباع لما أنزل اللَّه فهو كافر.

فإنه ما من أُمة إلا وهي تأمر بالحكم بالعدل، وقد يكون العدل في دينها ما رآه أكابرهم، بل كثير من المنتسبين إلى الإسلام يحكمون بعاداتهم التي لم ينزلها اللَّه كسوالف البادية، وكأوامر المطاعين فيهم، ويرون أنّ هذا هو الذي ينبغي الحكم به دون الكتاب والسنة، وهذا هو الكُفر، فإن كثيرا من الناس أسلموا، ولكنْ مع هذا لا يحكمون إلا بالعادات الجارية بينهم التي يأمر بها المطاعون، فهؤلاء إذا عرفوا أنه لا يجوز الحكم إلا بما أنزل اللَّه فلم يلتزموا ذلك بل **استحلوا** أن يحكموا بخلاف ما أنزل اللَّه فهم كفار»[١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ بعد قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ [المائدة: ٤٥]، وهذا مما وُبخت به اليهود وقُرِّعوا عليه فإن عندهم في نفس التوراة أن النفس بالنفس، وهم يخالفون حكم ذلك عمداً وعناداً، ويقيدون النظري[٢]، ولا يقيدون[٣] القرضي[٤] من النظري، بل يعدلون إلى الدّية كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المُحصن، وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار ولهذا قال هناك: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، لأنهم جحدوا حكم اللَّه قصداً منهم وعناداً وعمداً[٥].

فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام

---

(١) منهاج السنة (٥/ ١٣١).
(٢) النظري: أي من بني النظير.
(٣) يقيدون: إقامة الحد.
(٤) قرضي: أي بني قريضة.
(٥) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٨٦ .

الإحسان، فمن استكمل هذه المراتب، وكمَّلها، فقد استكمل مراتب الدين كلها، ومن ترك هذا التحكيم المذكور، غير ملتزم له، فهو كفر ومن تركه - مع التزامه - فله حكم أمثاله من العاصين(١).

قال القرطبي في تفسيره: قال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد رحمه الله: «ومن لم يحكم بما أنزل اللّه رداً للقرآن **وجحدا** لقول الرسول ﷺ فهو كافر. . . انتهى».

النوع الثاني: أن يعتقد الحاكم أن حكم غير الرسول ﷺ أحسن من حكمه، وأتم وأشمل:

لما يحتاجه الناس من الحكم بينهم عند التنازع إما مطلقاً أو بالنسبة لما استجدّ من الحوادث، وإن لم يجحد ما أنزل اللّه، كون حكم اللّه ورسوله حقا.

قال الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «من **اعتقد** أنّ غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حُكم غيره أحسن من حكمه، كالذين يفضلون حكم الطواغيت على حكمه فهو كافر»(٢).

وقال العلامة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله(٣) يكون كافرا: إذا اعتقد أن حكم غير اللّه أحسن من حكم اللّه، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، فتضمنت الآية أن حكم اللّه أحسن الأحكام بدليل قوله تعالى مقررا: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، فإذا كان اللّه أحسن الحاكمين أحكاما، وهو أحكم الحاكمين، فمن ادّعى أن حكم غير اللّه مثل حكم اللّه أو أحسن الأحكام فهو كافر لأنه مكذبٌ للقرآن.

النوع الثالث: أن يعتقد الحاكم أن حكم الشرع الإسلامي كحكم القوانين الوضعية:

فهذا كالنّوعين اللذين قبله في كونه كافراً الكفر الناقل عن الملة يقتضيه ذلك من

(١) المصدر السابق ٣٩٧ .
(٢) نواقض الإسلام لمحمد بن عبدالوهاب، وانظر تحكيم القوانين للشيخ ابن إبراهيم رحمه الله .
(٣) القول المفيد ٢/ ٢٦٧ .

تسوية المخلوق بالخالق، وإن يعتقد كونه أحسن من حكم اللَّه ورسوله[١].

الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «يكون كافرا إذا اعتقد أن حكم غير اللَّه مثل حكم اللَّه»[٢].

النوع الرابع: أن يعتقد الحاكم جواز الحكم بما يخالف حكم اللَّه ورسوله

فهذا كالذي قبله؛ لاعتقاده جواز ما عُلِم بالنّصوص الصحيحة الصريحة القاطعة تحريمه وإن لم يعتقد كون حكم الحاكم بغير ما أنزل اللَّه مماثلا لحكم اللَّه ورسوله[٣].

قال العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: فالحكمُ بغير ما أنزل اللَّه من أعمال أهل الكُفر وقد يكون كُفراً يُنقل عن المِلة، وذلك إذا **اعتقد** حِلّه وجوازه[٤]، وقال عند قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] ثم لا يكفي هذا التحكيم، حتى ينتفي الحرج في قلوبهم والضيق، وكونهم يُحكّمونه على وجه الإغماض، ثم لا يكفي هذا الحكم حتى يُسلّموا لحكمه تسليماً، بانشراح صدر وطمأنينة نفس، وانقياد بالظاهر والباطن.

وقال الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ[٥]: «فمن **استحلّ** الحكم بير ما أنزل اللَّه، أو الزّنا، أو الرّبا أو غيرهما من المحرمات المجمَع على تحريمها، فقد كَفرَ كُفراً أكبر، وظلم ظُلماً أكبر، وفسق فسقاً أكبر».

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[٦]: «يكون كافراً: إذا اعتقد جواز

---

(١) انظر تحكيم القوانين للعلامة محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٢) القول المفيد ٢/ ٢٦٧.
(٣) تحكيم القوانين الوضعية لابن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٤) تيسير الكريم الرحمن: ٢/ ٥٢٩ دار الكتب.
(٥) من تعليق سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز على كلمة الشيخ ناصر الدين الألباني: «المسلمون عدد ٥٥٧ السنة الحادية عشرة الجمعة ١٢ جمادي الأولى ١٤١٦- ١٦ أكتوبر ١٩٩٥».
(٦) القول المفيد: ٢/ ٢٦٧.



الحكم بغير ما أنزل اللّه، بدليل قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] فكل ما خالف حكم اللّه فهو من حكم الجاهلية بدليل الإجماع القطعي على أنه لا يجوز الحكمُ بغير ما أنزل اللّه فالمُحل والمبيح للحكم بغير ما أنزل اللّه مخالف لإجماع المسلمين القطعي، وهذا كافر مرتدّ، وذلك كمن اعتقد حِلَّ الزنا والخمر، أو تحريم الخبز، واللّبن.

القسم الثاني كفر العمل:

وهو من قسمي كفر الحكم بغير ما أنزل اللّه وهو لا يُخرج من الملة[١]، قال عطاء: «كفرٌ دون كفر»[٢]. وقال طاووس مرة: «ليس بكفر ينقل عن الملة»[٣]، وقال: «ليس كمن يكفر باللّه وملائكته وكتبه ورسله»[٤]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس بالكفر الذي تذهبون إليه»[٥]، وقال: «ومن أقرَّ به ولم يحكم فهو ظالم، وفاسق»[٦].

وقال ابن القيم رحمه الله: «فإنه إن **اعتقد** وجوب الحكم بما أنزل اللّه في هذه الواقعة وعدل عنه عصياناً مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا كفر أصغر»[٧]، وقال القرطبي: «إنْ حكم به - أي بغير ما أنزل اللّه - هو معصية، فهو ذنب تدركه المغفرة على أصل أهل السنة في الغفران للمذنبين»[٨].

وقال العلامة الشنقيطي رحمه الله: «أما من فعل ذلك، وهو **مُعتقد** أنه مرتكبُ محرّمٍ

(١) ولا أعنى أن الأعمال لا تخرج بصاحبها من الملة فهناك أعمال تخرج بصاحبها من الملة كالسِّحر أو سبّ اللّه تعالى أو الاستهانة بالمصحف. . . .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٨٥ .
(٣) المصدر السابق، وابن جرير.
(٤) المصدر السابق.
(٥) رواه الحاكم في مستدركه من حديث سفيان بن عيينة، وقال صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه «تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٨٦».
(٦) الطبري ٦/ ٢٥٧ .
(٧) مدارج السالكين: ١/ ٣٦٥ .
(٨) الجامع لأحكام القرآن: ٦/ ١٩١ للقرطبي.

فهو من فُسّاق المسلمين، وأمره إلى اللَّه تعالى إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له[١].

وقال أيضا: «وإنْ حَكَم به هوى، ومعصية فهو ذنب تدركه المغفرة على أصل أهل السنة في الغفران للمذنبين[٢].

وقالت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء:

«. . . وأما من حكم بغير ما أنزل اللَّه وهو يعتقد أنه عاص: لكن حمله على الحكم بغير ما أنزل اللَّه ما يُدفع إليه من رشوة، أو غير هذا، أو «عداوته للمحكوم عليه أو قرابته، أو صداقته للمحكوم له ونحو ذلك فهذا لا يكون كفره أكبر، بل يكون عاصيا. وقد وقع في كُفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق»

وباللَّه التوفيق وصلى اللَّه على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم»[٣].

عبد اللَّه بن قعود: عضو — عبد اللَّه بن غديان: عضو

عبد الرزاق عفيفي: نائب رئيس اللجنة — الرئيس: عبد العزيز بن عبد اللَّه بن باز

وقال مُحدِّث الشام العلامة ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «رجل يقضي بالشرع. . . وليس بالقانون وليس بالنُظم المستوردة قاضي يحكم بـ «قال اللَّه. . . قال رسول اللَّه» لكن في حكومة ما، تبع هواه. . . أعطى الحق لغير أهله. . . هذا حكم بغير ما أنزل اللَّه. . . طيب ماذا نقول فيه. . ارتدّ عن دينه؟!. . . ما ارتد عن دينه. . لا. . أنا أقول هذا. . . انتبه. . . نفترض الآن لكي نتوصل للإجابة على سؤالك أن هذا الذي تتكرر منه المعصية ومخالفة الشرع. . . (فَزَيْد) من الناس من الذين يحكمون بالكتاب والسنة في حكومة ما، حكم بغير الشرع. . . نقول: إن استحل ذلك قلباً فقد كفر وارتدّ عن دينه. . . وإلا فكفره دون كفر[٤]. . . تصور إذاً مهما تكرر هذا

---

(١) أضواء ابيان: ٢/ ١٠٢ .

(٢) المصدر السابق: ١٣ .

(٣) جريدة (المسلمون) عدد ٥٥٧ ص ٧، فتاوى رقم ٥٢٢٦ .

(٤) فتاوى الشيخ الألباني، ومقارنتها العلماء: ٥٧٩ - عكاشة عبد المنان الطيبي نقلًا من الشريط ٧٥٢، مكتبة التراث الإسلامي.



الفعل منه... الجواب: لا يختلف أبداً فإذاً لا فرق بين من لم يتكرر وبين من تكرر... لا فرق بين تكرر قليلًا أو كثيراً... الضابط هو أن يستحل ذلك بقلبه أو، لا...فمهما كان الحكم كثيراً وهو في قرارة نفسه يقول: يا رب اغفر لي... فهذا ليس كافراً... هذا فاسق... هذا عاصي للّه عزَّ وجلَّ».

في حكم واحد، قال: «الزمن تغير... والإسلام لم يعد يصلح للحكم.

إلى آخره... حكم كُفر واحدٍ ارتد عن دينه.. لماذا؟

لأنه استحل مخالفة الشرع بقلبه»[١].

وقال العلامة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا اعتقد أن الحكم بغير ما أنزل اللّه أحسن الأحكام وأنه أنفع للعباد والبلاد وأنه الواجب تطبيقه، ولكن حَمَله البغضُ، والحقدُ للمحكوم عليه حتى حكم بغير ما أنزل اللّه فهو ظالم».

وإذا كان لهوى في نفسه، مثل: أن يَحْكم لشخصٍ لرشوة رُشيّ أو لكونه قريباً، أو صديقاً، أو يطلب من ورائه حاجة أو ما أشبه ذلك مع اعتقاده بأن حكم اللّه هو الأمثل والواجب اتباعه، فهذا فاسق وإن كان أيضا ظالما، لكنّ وصف الفسق في حقه أولى من وصف الظلم[٢]، وقال فضيلته أيضا: «وهذه المسألة أعني مسألة الحكم بغير ما أنزل اللّه من المسائل الكبرى التي ابتُلي بها حُكّام هذا الزمان فعلى المرء أن لا يتسّرع في الحكم عليهم بما لا يستحقونه حتى يتبين له الحق لأن المسألة خطيرة - نسأل اللّه تعالى أن يُصلح للمسلمين ولاة أمورهم وبطانتهم - كما أن على المرء الذي آتاه اللّه العلم أن يبينه لهؤلاء الحُكّام لتقوية الحجة عليهم وتبين المحجة، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينه، ولا يحقرن نفسه عن بيانه، ولا يهابنَّ أحداً فيه ؛ فإن العزة للّه ولرسوله وللمؤمنين واللّه ولي التوفيق»[٣].

---

(١) فتاوى الشيخ الألباني، ومقارنتها العلماء: ٥٧٩ - عكاشة عبد المنان الطيبي نقلًا من الشريط ٧٥٢، مكتبة التراث الإسلامي.

(٢) القول المفيد: ٢/٢٦٨ (ويراجع مجموع فتاوى رسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين).

(٣) مجموع فتاوى محمد بن صالح بن العثيمين: ١/٤٤ .

التحاكم إلى القوانين الوضعية:

الفتوى الأولى: فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء رقم (٦٣١٠):

س: وفيه: فما حكم من يتحاكم إلى القوانين الوضعية، وهو يعلم بطلانها فلا يحاربها ولا يعمل على إزالتها...؟

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه... وبعد:

ج: الواجب التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ عند الاختلاف. قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥] والتحاكم يكون إلى كتاب الله تعالى وإلى سنة الرسول ﷺ، فإن لم يتحاكم إليها مستحلاً[(١)] التحاكم إلى غيرها من القوانين الوضعية بدافع طمع في مال أو جاه أو منصب فهو مرتكب معصية وفاسق فسقاً دون فسق ولا يخرج من دائرة الإيمان...

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

عضو	عضو	الرئيس
عبد الله بن قعود	عبد الله بن غديان	عبد العزيز بن عبد الله بن باز

الثانية: وللشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

بعد أن ذكر القوانين الوضعية المخالفة للشرع والتي ما أنزل الله بها من سلطان قال: «والتي من حَكَمَ بها أو حاكمَ إليها مُعتقداً صحّةَ ذلك وجوازه - فهو كافر الكُفرَ الناقلَ من المِلّةِ، وإن فَعَلَ ذلك بدون اعتقاد ذلك وجوازه؛ فهو كافر الكُفرَ العمليَّ الذي لا

(١) الاستحلال هنا هو الاستحلال العملي وليس الاستحلال العقائدي، فما من عاصي إلا وهو (عند ارتكابه المعصية) مستحلها عملياً. (فليُنتبه) انظر القضية الثامنة والسبعون ص ٦٦٥ عند قوله: «ما لم يستحله».

ينقُلُ عن المِلّة»(١).

الفتوى الثالثة: لسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد اللّٰه بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

١- سئل رَحِمَهُ اللَّهُ عن تبديل القوانين وهل يعتبر كفراً مخرجاً من الملة؟

فأجاب الشيخ ابن باز عن ذلك بقوله: «إذا استباحها يعتبر كافراً كفراً أكبر، أما إذا فعل ذلك لأسباب خاصة من أجل الرشوة، أو من أجل إرضاء أشخاص، ويعلم أنها محرمة فإنه يكفر كفراً دون كفر، أما إذا فعلها مستبيحاً يكون كفراً أكبر، أي إذا استحل الحكم بقانون بغير الشريعة فإنه يكون كافراً.

أما إذا فعلها لأسباب مثل الرشوة، أو العداوة، أو من أجل إرضاء بعض الناس وما أشبه ذلك، فإن ذلك يكون كفراً دون كفر، وهذا الحكم يشمل جميع الصور، وسواء التبديل وغير التبديل.

ويجب على ولي الأمر أن يمنع ذلك وأن يحكم بشرع اللّٰه.

٢- وسئل أيضاً رَحِمَهُ اللَّهُ ما حكم سنّ القوانين الوضعية؟ وهل يجوز العمل بها؟ وهل يكفر الحاكم بسنه لهذه القوانين؟

الشيخ ابن باز: «إذا كان القانون يوافق الشرع فلا بأس، إذا سن قانوناً في شأن الطريق في شأن الشوارع، في غير ذلك من الأشياء التي تنفع الناس وليس فيها مخالفة للشرع، ولكن لتنفيذ الأمور فلا بأس بها.

أما القوانين التي تخالف الشرع فلا، إذا سن قانوناً معناه أنه لا حد على الزاني، ولا حد على السارق، ولا حد على شارب الخمر، فهذا باطل، وهذه القوانين باطلة، وإذا استحلها الوالي كفر، إذا قال أنها حلال، ولا بأس بها، فهذا يكون كفراً، من استحل ما

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل العلامة محمد بن إبراهيم آل شيخ رَحِمَهُ اللَّهُ (ص - ف ٦٢ - ١ في ٩/١/١٣٨٥هـ). وانظر التحذير من فتنة التكفير للعلامة الألباني وابن باز وابن عثيمين رحمهم الله جمع وتقديم وتعليق الشيخ علي بن حسن بن عبد الحميد الحلبي حفظه اللّٰه.



حرم اللَّه كفر»[١].

الفتوى الرابعة: للشيخ عبد المحسن بن حمد العباد البدر حفظه اللَّه:

سُئل في المسجد النبوي في درس شرح سنن أبي داود بتاريخ: ١٦/ ١١/ ١٤٢٠:

هل استبدال الشريعة الإسلامية بالقوانين الوضعية كفر في ذاته؟ أم يحتاج إلى الاستحلال القلبي والاعتقاد بجواز ذلك؟ وهل هناك فرق في الحكم مرة بغير ما أنزل اللَّه، وجعل القوانين تشريعاً عاماً مع اعتقاد عدم جواز ذلك؟

فأجاب: يبدو أنه لا فرق بين الحكم في مسألة، أو عشرة، أو مئة، أو ألف - أو أقل أو أكثر - لا فرق؛ ما دام الإنسان يعتبر نفسه أنه مخطئ، وأنه فعل أمراً منكراً، وأنه فعل معصية، وأنه خائف من الذنب، فهذا كفر دون كفر.

وأما مع الاستحلال - ولو كان في مسألة واحدة، يستحل فيها الحكم بغير ما أنزل اللَّه، يعتبر نفسه حلالًا -؛ فإنه يكون كافراً[٢].

الفتوى الخامسة: للشيخ أحمد بن حجر آل بو طامي رَحِمَهُ اللَّهُ وهل يكفر الحاكم القانوني أو المتحاكم إليه؟

فالجواب: يكفر إذا جحد أحقية حكم اللَّه ورسوله أو اعتقد أن حكم غير اللَّه ورسوله أحكم أو أتم أو أشمل، أو اعتقد أنه مثلها، أو اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم اللَّه ورسوله.

أما إن اعتقد أن حكم اللَّه هو الصواب وهو الأحسن، ولكن حملته شهوته وهواه على التحاكم إلى غير ما أنزل اللَّه أو الحكم به، فلا يكفر كفر اعتقاد، ولكنه كفر نعمة، ومعصية عظمى، وهو أكبر الكبائر[٣].

---

(١) مراجعات في فقه الواقع السياسي والفكر (١٢) إعداد/ عبد اللَّه الرفاعي.
(٢) انظر أقوال علماء الأمة فيمن حكم بغير ما أنزل اللَّه من الأئمة ص ٦٠ جمع وترتيب مليحان بن مرهج الفايد.
(٣) العقائد السلفية بأدلتها النقلية والعقلية (١/ ٤٥).



القضية الرابعة والثلاثون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«نشهد أن كل من أطاع سَيّداً، أو أميراً، أو حاكماً في غير طاعة اللَّه مريداً لذلك، راغبا[١] عن طاعة الله، فهو كافر مشرك، وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

الشرح: إن أهل السنة والجماعة أتباع السلف الصالح رضوان اللَّه عليهم (وإن كانوا يرون أن طاعة الحكام والأمراء والعلماء واجبة) إلا أنهم يرون أن هذه الطاعة مقيدة بطاعة اللَّه سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، فَجَعَل اللَّهُ طاعتَه مستقلّة وطاعة رسوله مستقلّة، وطاعة أولي الأمر تابعة[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ يعني أهل الفقه والدين[٣] وذهب ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ، أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء[٤].

أي أطيعوا أولي الأمر فيما أمروكم به في طاعة اللَّه لا في معصيته، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وعن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: «لا طاعة لأحد في معصية اللَّه إنما الطاعة في المعروف»[٥] وقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ دلّ على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة، ولا يرجع إليهما في ذلك، فليس مؤمنا باللَّه ولا باليوم الآخر[٦].

---

(١) راغبا عن طاعة اللَّه: أي كارها رافضا.
(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد ٢/ ٢٩٥، أي أنها تابعة لطاعة اللَّه وطاعة رسوله ﷺ.
(٣) قاله ابن عباس في تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٨٩ .
(٤) والمقصود بالعلماء: هم العلماء بشرع اللَّه.
(٥) متفق عليه.
(٦) تفسير القرآن العظيم ابن كثير ١/ ٦٨٧ - ٦٩٠ بتصرف.

قال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه بعث رسول اللَّه ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلا من الأنصار، فلما خرجوا وجد(١) عليهم في شيءٍ، قال: فقال لهم: «أليس قد أمركم رسول اللَّه ﷺ أن تطيعوني؟» قالوا: «بلى». قال: «اجمعوا لي حطباً»، ثم دعا بنَارٍ، فأبرمها فيه، ثم قال: «عزمت عليكم لتدخُلنها»، قال: «فهمّ القومُ أن يدخُلوها»، قال: فقال لهم شابٌ منهم: «إنما فررتم إلى رسول اللَّه ﷺ من النار، فلا تدخلوها حتى تلقوا رسول اللَّه ﷺ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها».

قال: فرجعوا إلى رسول اللَّه ﷺ فأخبروه، فقال لهم: «لو دخلتموها ما خرجتم منها أبدا، إنما الطاعة في المعروف»(٢).

وعن عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما عن رسول اللَّه ﷺ قال: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبّ أو كره، ما لم يُؤمر بمعصية، فإذا أُمر بمعصية فلا سمْع ولا طاعة»(٣).

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول اللَّه ﷺ على السّمع والطاعة، في مَنْشَطنا ومَكْرَهنا، وعُسْرِنا، ويُسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله» قال: (إلا أن تروا كفرا بواحاً عندكُم فيه من اللَّه برهان)(٤).

ومن حديث عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة، قال دخلت المسجد فإذا عبداللَّه بن عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة، والناس حوله، مجتمعين عليه، فأتيتهم فجلست إليه. . فقلت له: هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بالباطل، ونقتل أنفسنا، واللَّه تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]، قال فسكن ساعة، ثم قال: أطعه في طاعة اللَّه، واعصه في معصية اللَّه(٥).

---

(١) وجد: أي غضب عليهم.
(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم.
(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم.
(٤) متفق عليه.
(٥) رواه مسلم.



وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]. ، وجاء في تفسير هذه الآية عندما قَدِم عديّ إلى المدينة وكان رئيسا في قومه (طيء) وأبوه (حاتم الطائي) المشهور بالكَرَم، فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول اللَّه ﷺ وفي عنق عَدي صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآيــة: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]. قال: فقلت: «أنهم لم يعبدوهم»! فقال: «بلى! إنهم حرَّموا عليهم الحلال، وأحلّوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إيّاهم»(١)، وكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد اللَّه بن عباس في تفسير الآية السابقة: أنهم اتبعوهم فيما حلّلوا وحرّموا.

وقال السدّي: «استنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب اللَّه وراء ظهورهم»(٢). وكذا عندما أتى ناس إلى النبي ﷺ وقالوا: «تأكلون مما قتلتم، ولا تأكلون مما قتل اللَّه؟ (يعنون أكل الميتة) فأنزل اللَّه: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]»(٣).

ثم قال تعالى: (وإن أطعتموهم) فأكلتم الميتة (إنكم لمشركون) أي حيث عدلتم، عن أمر اللَّه لكم وشرعه إلى قول غيره فقد متّم، فهذا هو الشرك(٤).

وقولُه: (مريداً راغباً)

ش: قَيْدٌ جيد، لأنه قد تكون الطاعة تأويلا، وقد تكون كراهة واضطرارا (وهذا يكون بالجوارح لا بالقلب)(٥)، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، وحتى إذا ترك العالِم ما علِمه من كتاب اللَّه وسنة رسوله واتبع حكم الحاكم المخالف لحكم اللَّه ورسوله ﷺ كان مرتداً كافراً، يستحق العقوبة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي

(١) رواه أحمد والترمذي وحسّنه، وابن جرير وحسنه الألباني، انظر الصحيحة ٣٢٩٣ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٥٩ - ٤٦٠ .
(٣) رواه الترمذي والطبري وأبو داود وابن ماجة وابن أبي حاتم وابن جرير الطبري.
(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٣٠ - ٢٣١ .
(٥) فتح المجيد ٣٩٤ طبعة السلفية وسيأتي لهذه المسألة بيانا وتفصيلا في الفقرة ٧٨ (إن شاء اللَّه).

صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ الأعراف: ١-٣][1].

والخلاصة:[2] إن طاعة الأمراء والعلماء في تحليل ما حرّم[3] اللّه، وتحريم ما أحلّ اللّه يكون على وجهين:

الأول: أن يعلموا أنهم بدّلوا دين اللّه فيتبعونهم على التبديل فيعتقدون تحليل ما حرّم اللّه وتحريم ما أحلّ اللّه اتباعا لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل، فهذا كفر، وقد جعله اللّه ورسوله شِرْكا، وإن لم يكونوا يُصّلون لهم ويسجدون لهم، فكان من

---

(١) مجموع الفتاوى ٣٥/ ٣٧٢ .

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/ ٧٠ .

(٣) قال شيخنا العلامة محمد صالح العثيمين: واعلم أن اتباع العلماء أو الأمراء في تحليل ما حرم اللّه والعكس ينقسم إلى ثلاثة أقسام: **الأول**: أن يتابعهم في ذلك راضيا بقولهم مقدما له ساخطا لحكم اللّه، فهو كافر، لأنه كره ما أنزل اللّه فأحبط اللّه عمله ولا تحبط الأعمال إلا بالكفر، فكل من كره ما أنزل اللّه فهو كافر.

الثاني: أن يتابعهم في ذلك راضيا في حكم اللّه وعالما بأنه أَمْثل وأصلح للعباد والبلاد ولكن لهوى في نفسه اختاره كأن يريد مثلا وظيفة، فهذا لا يكفر ولكنه فاسق.

الثالث: أن يتابعهم جاهلا فليظن أن ذلك حكم اللّه فينقسم إلى قسمين:

أ - أن يمكنه أن يعرف الحق بنفسه فهو مفرط أو مقصر فهو آثم لأن اللّه أمر بسؤال أهل العلم عند عدم العلم.

ب - أن لا يكون عالما ولا يمكنه التعلم فيتابعهم تقليدا ويظن أن هذا هو الحق فهذا لا شيء عليه لأنه فعل ما أمر به وكان معذورا بذلك، ولذلك ورد عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: أن من أفتى بغير علم فإنما إثمه على من أفتاه.

(وأخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجة والدارمي والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين) ولا أعرف له علة، ووافقه الذهبي ولو قلنا بإثمه خطأ غيره للزم من ذلك الحرج والمشقة ولم يثق الناس بأحد لاحتمال خطئه.

فإن قيل لماذا لا يكفر أهل القسم الثاني؟ أجيب أننا لو قلنا بكفرهم لزم من ذلك تكفير كل صاحب معصية يعرف أنه عاص للّه ويعلم أنه حكم اللّه (القول المفيد على كتاب التوحيد ٢/ ٢٦٤ الهامش).



اتبع غيره في خلاف الدّين، واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله اللَّه ورسوله مشركا مثل هؤلاء.

الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتا، لكنهم، أطاعوهم في معصية اللَّه كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي، وهؤلاء لهم حُكمُ، أمثالهم من أهل الذنوب كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما الطاعة في المعروف»[1].

* * *

---

(١) متفق عليه.

ثانيا: الإيمان بالملائكة

القضية الخامسة والثلاثون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«يشهد أهلُ السّنة والجماعة، ونشهد معهم، ونؤمن بِحَوْل اللَّه وقوته: أن الملائكة خلقهم اللَّه من نور، وأقامهم في طاعته وعبادته: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾»[1].

الشرح: الإيمان (بالملائكة) هو الركن الثاني من أركان الإيمان كما جاء في حديث جبريل عليه السلام عندما سأل النبي ﷺ عن الإيمان قال: «الإيمان أن تؤمن باللَّه وملائكته...»[2]، كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وهم عباد اللَّه المكرمون، والسفرة بينه تعالى وبين رسله عليهم الصلاة والسلام، وهم الكِرام خَلقاً وخُلُقاً والكرام على اللَّه تعالى، والبررة الطاهرون ذاتا وصفتاً وأفعالا، المطيعون للَّه عزَّ وجلَّ وهم عباد اللَّه عزّ وجلّ، خلقهم تعالى من نورٍ[3] لما روته عائشة رضي الله عنها وعن أبيها قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «خُلِقت الملائكة من نور، وخُلق الجان من مارج من نار، وخُلق آدم مما وُصِف لكم»[4]. وهم مطبوعون على طاعة اللَّه، ليس لديهم القدرة على العصيان﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦][5].

وقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠] وقال تعالى عنهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥- ١٦٦]، ومع منزلتهم إلا أنهم

---

(١) سورة الأنبياء ٢٧ .

(٢)رواه أحمد ومسلم وأبو داود وغيرهم.

(٣) معارج القبول ٢/ ٦٣ بتصرف.

(٤) رواه مسلم.

(٥) عالم الملائكة الأبرار ٢٩ للشيخ عمر الأشقر حفظه اللَّه.

يخشون اللَّه قال تعالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا أراد اللَّه أن يوحي بالأمر تكلّم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة، أو قال رعدة شديدة خوفا من اللَّه عزَّ وجلَّ، فإذا سمع ذلك أهل السماوات صُعقوا، وخرّوا للَّه سجدا، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه السلام فيكلمه اللَّه تعالى من وحيه بما أراد»(١). وعن جابر رضي الله عنه: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «مررت ليلة أُسري بي بالملأ الأعلى، وجبريل كالحلس(٢) البالي من خشية اللَّه تعالى»(٣).

* لا يتصفون بالذّكورة ولا الأنوثة، وهم ليسوا بنات اللَّه عز وجل ولا أولادا، ولا شركاء معه، ولا أنداداً - تعالى اللَّه عمّا يقول الظالمون والجاحدون والملحدون علوا كبيرا - قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦- ٢٩].

وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الصافات: ١٥١- ١٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

* عِظم خلق الملائكة: قال تعالى عن ملائكة النار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

---

(١) رواه ابن جرير وابن خزيمة والطبراني وابن ابي حاتم واللفظ له وضعفه الألباني في ظلال الجنة ١/ ٢٦٧ برقم ٥١٥ .

(٢) الحلس: كساء يبسط في أرض البيت.

(٣) رواه الطبري في معجمه قال الألباني حديث حسن صحيح [الجامع ٥/ ٢٠٦] .

وقال رسول اللَّه ﷺ: «رأيت جبريل له ستمائة جناح»[١]، وقال رسول اللَّه ﷺ: «أُذن لي أن أُحدِّث عن مَلَكٍ من ملائكة اللَّه تعالى حملة العرش، ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة سنة»[٢].

* * *

(١) رواه البخاري ومسلم واحمد والطبري.

(٢) رواه أبو داود والضياء المقدسي وصححه الألباني (الجامع ٨٥٤).

القضية السادسة والثلاثون: قال المُصنِّف حفظه اللَّه:

«. . . أن اللَّه سبحانه يبعثهم ويقيمهم في أعمال كثيرة عدا التسبيح والتحميد له كإرسال رسالاته إلى رسله من البشر، وتثبيت المؤمنين في القتال، وإحصاء أعمال الناس خيرها وشرها، وحفظ البشر من الحوادث التي لم يرد اللَّه أن يصابوا بها، وقبض الأرواح، وسوق السحاب، ونفخ الروح، وغير ذلك مما بينه اللَّه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ».

قوله: (عدا التسبيح والتحميد له)

الشرح: الملائكة يذكرون اللَّه تعالى، وأعظم ذكرهم التسبيح، يسبحه تعالى حملة عرشه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ [غافر: ٧]. وقال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ [الشورى: ٥]، وتسبيحُهم للَّه دائم لا ينقطع لا في الليل ولا في النهار ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ولكثرة تسبيحهم فإنهم هم المسبحون في الحقيقة وحُقّ لهم أن يفخروا بذلك ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥- ١٦٦][(١)] وقال تعالى عنهم عندما أعلمهم بخلق آدم: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة: ٣٠] وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ﴾ [الزمر: ٧٥]، وقال: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ﴾ [البقرة: ٣٢].

قوله: (يبعثهم ويقيمهم في أعمال كثيرة)

ش: ١- كإرسال رسالاته إلى رسله من البشر:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١]، وقال

---

(١) عالم الملائكة الأبرار/ ٣٠ .



تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢]، وقد يكون جبريل عليه السلام هو الملك المختص بهذه المهمة.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢].

٢- تثبيت المؤمنين في القتال:

وقد أمدّ اللَّه المؤمنين بأعداد كثيرة من الملائكة في غزوة بدر ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٣- ١٢٥].

وقد بينّ اللَّه الحكمة والغاية من هذه الأعداد وهو تثبيت المؤمنين، والمحاربة معهم، وقتال أعداء اللَّه وقتلهم بضرب أعناقهم وأيديهم، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الأنفال: ١٠].

وقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ الأنفال: ١٢]، وكذلك حاربت مع المسلمين في غزوة الخندق، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ﴾ [الأحزاب: ٩]، والمعنيُّ بالجنود التي لم يروها الملائكة كما ثبت في الحديث «أن جبريل جاء الرسول ﷺ بعد رجوع الأحزاب وعلى ثنايا جبريل النقع[1] وكان رسول اللَّه ﷺ يغتسل، فقال للرسول ﷺ: «أوضعتم سلاحكم؟ فإنا لم نضع سلاحنا بعد»، فقال: «إلى أين؟» فأشار إلى

---

(١) النقع (الغبار).



«بني قريظة»[١] وكذلك ما رواه ابن عباس «بينا رجل من المسلمين يشتدّ في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: «أقدم حيزوم»، إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيا، قال: فنظر إليه فإذا هو قد خُطِّم وشُق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع. فجاء الأنصاري فحدّث ذلك رسول اللّه ﷺ فقال: صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة»[٢]،[٣].

وعن رفاعة رضي الله عنه قال جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: «ما تعدون أهل بدر فيكم؟» قال: «من أفضل المسلمين، أو كلمةً نحوها». قال: «وكذلك من شهد بدر من الملائكة»[٤].

٣ - إحصاء أعمال الناس خيرها وشرها:

ومنهم المُوكّل بحفظ عمل العبد من خير وشر وهم الكِرام الكاتبون، فهؤلاء يشملهم قوله عزَّ وجلَّ ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١]، وقال تعالى فيهم: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٧- ١٨]، فالذي عن اليمين يكتب الحسنات، والذي عن الشمال يكتب السيئات، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الأنفطار ١٠- ١٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول اللّه ﷺ «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان اللّه، لا يلقي لها بالا، يرفع اللّه بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط اللّه، لا يلقي لها بالا، يهوي بها في جهنم»[٥].

---

(١) رواه مسلم.
(٢) عالم الملائكة الأبرار (مختصرا).
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه البخاري.
(٥) رواه البخاري.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطىء، فإن ندم واستغفر اللَّه منها، ألقاها، وإلا كُتبت واحدة»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ «قالت الملائكة: ذاك عبدٌ يريد أن يعمل سيئة، وهو أبصر به، فقال: «أرقبوه، فإن عملها فاكتبوها بمثلها، وإن تركها فاكتبوها حسنة، إنما تركها من جراي»(٢)، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

قال: «يكتب كل ما تكلّم به من خير أو شر، حتى أنه لَيُكْتَب قولُه أكلتُ، شربتُ، ذهبتُ، جئتُ، رأيتُ، حتى إذا كان يوم الخميس عُرض قوله وعمله فأُقر منه ما كان فيه من خير أو شر، وأُلقي سائره» وذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩]. وذكر عن الإمام أحمد رحمه الله، أنه كان يئن في مرضه، فبلغه عن طاووس أنه قال: «يكتب المَلَك كل شيء حتى الأنين»، فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله(٣).

٤ - حفظ البشر من الحوادث:

ومنهم الموكّل بحفظ العبد في حِلّه وارتحاله، وفي نومه ويقظته، وفي كل حالاته، وهم المعقبات، قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ﴾ [الرعد: ١٠- ١١] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١].

---

(١) رواه الطبراني في معجمه الكبير وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان وقال شيخنا الألباني حديث حسن (الجامع ٢٠٩٧، والصحيحة ١٢٠٩).

(٢) رواه البخاري ومسلم واللفظ له.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٣٦.



قال ابن عباس رضي الله عنهما في الآية الأولى (له معقبات. .) والمعقبات عن اللّه هم الملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر اللّه تعالى خُلّوا عنه، وقال مجاهد: «ما من عبد إلا له مَلَك موكّل بحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه إلا قال له المَلَك: «وراءَك»، إلا شيء أَذِن اللّه فيه، فيصيبه»، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢]. قال ابن كثير: «أي بدل الرحمن، يمتن سبحانه وتعالى بنعمته على عبيده وحفظه لهم بالليل والنهار وكلاءته وحراسته لهم بعينه التي لا تنام[١]. وقال رجل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إن نفراً من مراد يريدون قتلك»، فقال (أي عليٌ): «إن مع كل رجل مَلَكين يحفظانه مما لم يُقدّر، فإذا جاء القدر خلي بينه وبينه، إن الأجل جُنَّةٌ حصينةٌ»[٢].

٥ - قبض الأرواح:

ونؤمن بمَلَك الموت، الموكّل بقبض أرواح العالمين، قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ السجدة: ١١]، ولا تعارض هذه قوله: ﴿إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ الأنعام: ٦١]. وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ [الزمر: ٤٢].

لأن ملك الموت يتولى قبضتها واستخراجها، ثم يأخذها منه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب، ويناولونها بعده، كل ذلك بإذن اللّه وقضائه وقدره، وحكمه وأمره، فصحّت إضافة التّوفي إلى كلٍّ بحسبه[٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى

(١) معارج القبول ٢/٦٦ .
(٢) البداية ١/ ٥٤ ولعلَ هذا يفسّر كثيرا من الحوادث التي تقع سواء في الطريق أو سقوط بعض الناس من مكان عال ومع هذا لا يصيبه إلا إصابات بسيطة جداً أو ما يكون تحت أنقاض الهدم من الزلازل (واللّه أعلم) .
(٣) شرح الطحاوية/ ٤٤ .

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

وعن البراء بن عازب عن النبي قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكةٌ بيض الوجوه، كأنّ وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوطٌ من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدّ البصر، ثم يجيء مَلَك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: «أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من اللّه ورضوان»، فتخرج، فتسيل كما تسيل القطرة من فيِّ السّقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها... وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سودُ الوجوه، معهم المُسوح، فيجلسون منه مدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: «أيتها النفس الخبيثة! خرجي إلى سخط من اللّه وغضب»، فتفرّق من جسده فينتزعها كما ينتزع السَّفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح... الحديث»[1].

٦- سوق السحاب:

ومنهم المُوكّل بالقَطْر وتصاريفه إلى حيث أمره اللّه عزَّ وجلَّ، وهو ميكائيل عليه السلام، وهو ذو مكانة عليّة ومنزلة رفيعة وشرف عند ربه عزَّ وجلَّ، وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه ويصرفون الرياح والسحاب كما يشاء اللّه عزَّ وجلَّ، وقد جاء في بعض الآثار: ما من قطرة تنزّلُ من السماء إلا ومعها ملك يقررها في موضعها من الأرض.

ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن اليهود أقبلَتْ تسأل النبي ﷺ وكان مما قالوا: «... فأخبرنا مَنْ صاحبك؟ قال: «جبريل عليه السلام»، قالوا: جبريل! ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا. لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان،

---

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن خزيمة والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان وصححه الألباني ١٦٧٦ .



فأنزل اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ إلى آخر الآية[(١)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال لجبريل عليه السلام: «مالي لم أر ميكائيل ضاحكا قط؟ فقال عليه السلام: «ما ضحك ميكائيل منذ خُلِقت النار»[(٢)].

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «الرعد مَلَك من ملائكة اللَّه، موكّل بالسّحاب، معه مخاريق من النار، يسوق السحاب حيث شاء اللَّه»[(٣)].

وقد يسقي بلادا دون بلادٍ، أو قرية دون أخرى، وقد يُؤمر بأن يسقى زرع رجلٍ واحد دون سواه، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «بينا رجل بفلاة في الأرض فسمع صوتا في سحابة يقول: اسق حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرةٍ، فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء فإذا رجل قائم في حديقته يُحوّل الماء بمسحاتهبها فقال له: «يا عبد اللَّه ما اسمك؟» قال: «فلان» للاسم الذي سمع في السحابة، فقال له: «يا عبد اللَّه لم تسألني عن اسمي»؟ قال: «إني سمعت صوتا في السحاب الذي هذا ماؤه» يقول: اسق حديقة فلان لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال: «أما إذ قلت هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج منها، فأتصدق، بثلثه وآكل أنا وعيالي ثلثا، وأرد فيها ثلثا»[(٤)].

٧- النفخ في الروح:

عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول اللَّه ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إنّ أحدكم يجمع خلقُه في بطن أمه أربعين يوما مضغة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم

---

(١) رواه أحمد في مسنده وقال أحمد شاكر صحيح الإسناد ٤/ ١٦١ .

(٢) رواه أحمد ٣/ ٢٢٤ و ابن أبي الدنيا في صفة النار (٢/ ١٥١)، وقال الشيخ الألباني الحديث حسن، صحيح الترغيب برقم ٣٦٦٤ والسلسلة الصحيحة برقم ٢٥١١ - وانظر معارج القبول ٢/ ٦٥ .

(٣) رواه أحمد والطبراني وأبو نعيم في الحلية، والترمذي واللفظ له، قال الألباني حديث حسن صحيح الجامع (٣٥٤٧) والصحيحة ١٨٧٢ .

(٤) رواه مسلم .



مضغة مثل ذلك، ثم يُرسلُ الملك فينفخ فيه الروح، ويُؤمرُ بأربع كلمات بكتب: رزقه، وأجله، وعمله، وشقيٌ أو سعيد»[١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «وكَّل اللَّه تعالى بالرحم مَلَكا، فيقول: «أي ربِّ نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة، فإذا أراد أن يقضي خلقها، قال: أي ربّ ذكرٌ أم أنثى؟ أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه»[٢]. وغير ذلك مما بيّنه اللَّه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ.

٨ - لَعْنهم من سبّ الصحابة:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول اللَّه ﷺ قال: «من سبّ أصحابي فعليه لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين»[٣].

٩ - لعنهم الذين يحولون دون تنفيذ شرع اللَّه:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول اللَّه قال: «من قتل عمدا فَقَوْد يديه، فمن حال بينه وبينه فعليه لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين»[٤]. فالذي يحول دون تنفيذ حكم اللَّه في قتل القاتل عمدا بالجاه أو المال... فعليه هذه اللعنة. فكيف بالذي يحول دون تنفيذ الشريعة كلها؟[٥]... واللَّه المستعان.

* * *

(١) متفق عليه .
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن، الألباني (الجامع ٦٢٨٥).
(٤) رواه النسائي وأبو داود وابن خزيمة وإسناده صحيح وصححه الألباني (صحيح الجامع ٦٤٥٠).
(٥) عالم الملائكة الأبرار ٧٣ وهذا طبعاً إذا كان دون رغبة أولياء المقتول.

القضية السابعة والثلاثون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«نحب الملائكة ونؤمن بهم لمحبتهم المؤمنين ودعائهم لهم، ولاشتراكنا معهم في الإيمان باللَّه وتعظيمه وتقديسه، ولا نفرق بين مَلَكٍ ومَلَك، كما فعلت اليهود، بل نحبّهم لطاعتهم لربهم وسيرهم في مرضاته».

قوله: (نحب الملائكة ونؤمن بهم)

الشرح: كيف لا، وعلاقتنا معم قديمة فمنذ أن خُلق آدم، ونفخ اللَّه فيه من روحه وأمرهم بالسجود لآدم ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص: ٧٣]، وتعليمهم لأبينا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ. فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «خلق اللَّه آدم على صورته، طوله ستون ذراعا، فلما خلقه قال: اذهب فسلِّم على أولئك النفر - وهم نفر من الملائكة جلوس - فاستمع ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك»، فذهب، فقال: «السلام عليكم»، فقالوا: «السلام عليك ورحمة اللَّه»، قال: «فزادوه ورحمة اللَّه»[(١)]، وكذلك علَّمت الملائكة أبناء آدم عن كيفية غُسلِه، فعن أُبيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «لما توفي آدم غسّلته الملائكة بالماء وتراً، وألحدوا له»، وقالوا: هذه سنة آدم في ولده[(٢)].

قوله: (لمحبتهم للمؤمنين)

ش: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه تبارك وتعالى إذا أحبّ عبدا نادى جبريل: «إن اللَّه قد أحبّ فلانا فأحبه»، فيحبه جبريل ثم ينادي جبريل في السماء: «إن اللَّه قد أحبّ فلانا فأحبوه»، فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في الأرض»[(٣)].

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه الحاكم والطبراني في الأوسط وقال شيخنا الألباني صحيح (صحيح الجامع ٥/ ٤٨).
(٣) متفق عليه.



ومن محبتهم للمؤمنين أنهم يُصلّون (صلاتهم الدعاء والاستغفار لهم) لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] فهم يُصلّون على معلم الناس الخير كما في حديث أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله وملائكته، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر، ليُصلون على معلم الناس الخير»(١) وكذلك استغفارهم للمؤمنين قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩].

وكذلك شهودها جنازة المؤمنين الصالحين، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ في سعد بن معاذ رضي الله عنه: «هذا الذي تحرك له العرش، وفُتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفا من الملائكة، لقد ضُمّ ضَمّة، ثم فُرّج عنه»(٢).

وإذا كان هذا هو موقف الملائكة من المؤمنين، فإن موقفهم من الكفرة المكذبين أو العصاة المعاندين يختلف تماما وسنسوق مثلين فقط ليتبين الفرق بين الموقفين.

موقفهم من قوم لوط:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا

(١) رواه الطبراني والترمذي وقال الألباني واسناده صحيح (صحيح الجامع ٢/ ١٣٣).
(٢) رواه النسائي وصححه الألباني (صحيح الجامع ٦/ ٧٢).



﴿رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾ [هود: ٧٧- ٨١].

وذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم، فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطُمست أعينهم، حتى قيل غارت بالكلية، ولم يبق لها محل ولا أثر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٧].

وفي الصباح أهلكهم اللَّه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢- ٨٣] قال ابن كثير في تفسيره: قال مجاهد «أخذ جبريل قوم لوط من سرحهم ودورهم حملُهم بمواشيهم وأمتعتهم، ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم، ثم أكفأها وكان حملهم على حوافي جناحه الأيمن»(١).

وذكر أقوالا مقاربة لهذا القول: لم يورد حديثا يشهد لهذا(٢).

قوله: (لا نفرق بين مَلك ومَلك كما فعلت اليهود)

ش: قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

قال تعالى: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدًى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٧- ٩٨].

وهذا فيه تعريض لليهود الذين كانوا يبغضون جبريل عليه السلام، كما جاء في حديث عبد اللَّه بن سلام رضي الله عنه، أنه بلغه مَقدمُ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم المدينة، فأتاه فسأله عن أشياء قال: «إني سائلك عن أشياء لا يعلمها إلا نبي»، قال: «ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه، وما بال ينزع إلى أمه؟ . . .» قال أخبرني

---

(١) ابن كثير البداية ١/ ١٩٧ .
(٢) الملائكة الأبرار فضيلة الشيخ الدكتور عمر سليمان الأشقر حفظه اللَّه .

بهن جبريل آنفا. قال ابن سلام: فذلك عدو اليهود من الملائكة... الحديث[١].

ثمراتُ الإيمان بالملائكة:

الأولى: العلم بعظمة اللَّه تعالى وقوته وسلطانه، فإن عظمة المخلوق من عظمة الخالق.

الثانية: شكر اللَّه تعالى على عنايته ببني آدم حيث وُكِّل من هؤلاء الملائكة من يقوم بحفظهم، وكتابة أعمالهم وغير ذلك من مصالحهم.

الثالثة: محبةُ الملائكة على ما قاموا به من عبادة اللَّه تعالى، وقد أنكر قوم من الزائغين كونَ الملائكة أجساما وقالوا إنهم عبارة عن قوى الخير الكامنة في المخلوقات، وهذا تكذيب لكتاب اللَّه تعالى وسنة رسوله ﷺ وإجماع المسلمين.

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: ١]. وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠][٢].

* * *

(١) رواه وأحمد البخاري ومسلم.

(٢) رسائل في العقيدة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ. وانظر كتاب عالم الملائكة الأبرار لفضيلة الشيخ الدكتور عمر سليمان الأشقر حفظه اللَّه.



ثالثا: الإيمان بكتب الله

القضية الثامنة والثلاثون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«نشهد ونؤمن أن اللَّه سبحانه أنزل كتبا وصحفا على رسله، وأنها جميعها عند تنزيلها منزهة من العيب، والنقص، والغلط لأنها كلام اللَّه، ونشهد أن كل الكتب السابقة حرّفها أهلها وغيّروها، عدا القرآن، الذي حفظه اللَّه من التغيير والتبديل وسيبقى كذلك إلى قرب قيام الساعة فضلا من اللَّه ورحمة حيث يرفعه اللَّه من الأرض».

قوله: (نشهد ونؤمن أن اللَّه سبحانه أنزَلَ كتباً وصحفاً على رسِله)

الشرح: والإيمان بالكتب هو الركن الثالث من أركان الإيمان.

والإيمان بكتب اللَّه: هو التصديق الجازم بأن للَّه كتباً أنزلها على أنبيائه ورسله وهي من كلامه حقيقة، وأنها نور وهدى وأن ما تضمنته حق وصدق(١).

والكتب: جمع كتاب بمعنى مكتوب والمراد بها هنا الكتب التي أنزلها تعالى على رسله رحمة للخلق وهداية لهم ليصلوا بها إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة.

والإيمان بالكتب يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمانَ بأن نزولها من عند اللَّه حقا.

الثاني: الإيمانَ بما علمنا اسمه منها باسمه كالقرآن الذي نُزّل على محمد ﷺ والتوراة التي أُنزلتْ على موسى عليه السلام، والإنجيل الذي أُنزل على عيسى عليه السلام، والزبور الذي أُوتيه داود عليه السلام، والصحف التي أُنزلت على إبراهيم عليه السلام، وأما ما لم نعلم اسمه فنؤمن به إجمالًا.

الثالث: تصديقَ ما صحّ من أخبارها كأخبار القرآن وأخبار ما لم يبدل أو يُحرّف من

---

(١) الكواشف الجلية ٦٠ .



الكتب السابقة.

الرابع: العملَ بأحكام ما لم ينسخ منها والرضا والتسليم به سواء فهمنا حكمته أم لم نفهمها، وجميع الكتب السابقة منسوخة بالقرآن الكريم، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨][(١)].

فالقرآن الذي أنزل على محمد ﷺ: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧] وقال تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه- ٢].

والإنجيل التي أنزله الله على عيسى عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ [الحديد: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [المائدة: ٤٦].

والتوراة الذي أنزله الله على موسى عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائد: ٦٦].

وقال تعالى ذاماً لليهود الذين أُعطوا التوراة وحملوها للعمل بها ثم لم يعملوا بها: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾[الجمعة: ٥].

والزبور الذي أنزله الله على داود عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].

والصُّحف التي أنزلها على إبراهيم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨- ١٩].

---

(١) رسائل في العقيدة، للشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله (بتصرف بسيط).



وقوله: «وأنها جميعَها عند تنزيلها مُنزهةٌ من العيب والنقص والغلط لأنها كلام اللّه».

ش: ولهذا بيّن اللّه تعالى أن فيها هدى ونورا:

كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ لَا مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣- ٤]. وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ﴾ [المائدة: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٩] وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٢].

وتارة يأمرنا اللّه بتحكيمه وتهديد من يخالف ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ﴾ [المائدة: ٦٦]. وقال تعالى: ﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ﴾ [المائدة: ٤٧].

وهذا كان قبل التحريف والتبديل.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ﴾ [طه: ١١٣]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: ٢٢].

ولهذا لم يجد أعداء الإسلام في القديم والحديث - ولن يجدوا - في القرآن مكانا لمطعنهم مع حرصهم على ذلك وهذا بفضل اللّه وحفظه.

قوله: «نشهد أن كل الكتب السابقة خلا القرآن حرّفها أهلها وغيروها».

ش: لما كانت الرسالات السابقة مرهونة بوقت وزمان محدد، فإنها لم تخلد ولم تبق، ولم يتكفّل اللّه بحفظها، وقد وكّل حفظها إلى علماء تلك الأمة التي أنزلت عليها، فالتوراة وكّل حفظها إلى الربانيين والأحبار، قال تعالى: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾ [المائدة: ٤٤].

ولم يَطِق الربّانيون والأحبار حِفْظَ كتابهم، وخان بعضهم الأمانة فغيروا وبدّلوا وحرّفوا، وحسبك أن تطالع التوراة لترى ما فيها من تغير وتبديل، لا في الفروع، بل في الأصول، فقد نسبوا إلى اللّه ما يقشعرُ الجلد لسماعه، ونسبوا إلى الرسل ما



يترفع الرعاع عن نسبته إليهم(١).

أما هذه الرسالة الخاتمة فقد تكفّل هو بحفظها، ولم يكل حفظها إلى البشر قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ولهذا فأخبار أهل الكتاب تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما عُلم صحته عن النبي ﷺ نقلا صحيحا فهذا مقبول، ولا شك فيه.

الثاني: ما عُلم كذبه بأن يناقض ما عرفناه في شرعنا، وهذا لا يصح قبوله ولا روايته، إلا مع التنبيه على أنه يخالف شرعنا.

الثالث: ما هو مسكوت عنه، لا هو من قبيل الأول، ولا هو من قبيل الثاني. وهذا القسم نتوقف فيه، فلا نؤمن به ولا نُكذّبه وتجوز حكايته، لقوله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم. .»(٢) الحديث.

وهذا القسم غالبه مما ليس فيه فائدة تعود إلى أمر ديني مما أبهمه اللّه تعالى في القرآن، ولا فائدة في تعيينه

تعود على المكلفين في أمر دينهم أو دنياهم(٣) وقد فضحهم اللّه تعالى في القرآن

---

(١) ومن الأدلة على تحريف اليهود للتوراة مثلا: أن النص الأصلي في التوراة هو «خذ ابنك وحيدك الذي تحبه واذبحه» هذا الإبن هو إسماعيل، ولكن اليهود كبُر عليهم أن يذهب إسماعيل وأبناؤه وهم العرب بهذا الفضل، فأقحموا في النص كلمة «اسحق» لينسبوا الفضل لأنفسهم، فأصبح النص في التوراة المحرفة التي بين أيديهم اليوم: «خذ ابنك وحيدك الذي تحبه اسحق واذبحه» «سفر التكوين، الإصحاح الثاني، فقرة (٢) ولكن هذا الذي حرّف النص هنا لم ينتبه إلى التناقض الذي أوجده مع نصوص أخرى في التوراة، فقد ورد في التوراة أن إسماعيل ولد لإبراهيم، وعمر إبراهيم ست وثمانون سنة، انظر «الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين» وعلى ذلك يكو إسماعيل هو ولده وحيده، أما اسحق فتقول التوراة أنه وُلد «وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له اسحق» الإصحاح الحادي والعشرين في سفر التكوين فقرة ٥ (الرسل والرسالات ٢٤١ الهامش) لشيخنا الفاضل الدكتور عمر سليمان الأشقر حفظه اللّه.

(٢) رواه البخاري من حديث أبي هريرة وزاد فيه «وقولوا آمنا باللّه وما أنزل إلينا».

(٣) أصول التفسير وقواعده ١٦١-٢٦٢ الشيخ خالد عبد الرحمن العك.



بهذا الفعل الشنيع (التحريف) كقوله: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ٧٥].

قال السّدي: «هي التوراة حرفوها»، وقال»، وقال مجاهد: «الذين يحرفونه، والذين يكتمونه هم العلماء منهم»(١) وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هم أحبار اليهود»، وكذلك قال السدي وقتادة، وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء؟ وكتابُ اللَّه الذي أنزله على نبيه (محمد ﷺ) أحدث أخبار اللَّه، تقرؤونه غضا لم يشب، وقد حدّثكم اللَّه تعالى أن أهل الكتاب قد بدّلوا كتاب اللَّه وغيّروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا: «هو من عند اللَّه ليشتروا به ثمنا قليلا»، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم، ولا واللَّه ما رأينا منهم أحدا قط سألكم عن الذي أنزل عليكم» رواه البخاري(٢).

أما القرآن فمحفوظ بحفظ اللَّه، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي نزل القرآن الكريم وأنه حافظ له من أن يزاد فيه أو ينقص أو يتغير منه شيء أو يبدل، وبين هذا المعنى في مواضعَ أُخرَ.

كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١- ٤٢]. وقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٦- ١٧]. إلى قوله (ثم إنَّ علينا بيانه) وهذا هو الصحيح في معنى هذه الآية أن الضمير في قوله: (وإنا له لحافظون) راجع إلى الذكر الذي هو القرآن(٣).

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٦٣.
(٢) المصدر السابق ١/١٦٦ - ١٦٧.
(٣) أضواء البيان ٣/ ١٢٠ للعلامة الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: «وسيبقى إلى قرب الساعة فضلا من اللّه ورحمة حيث يرفعه اللّه من الأرض».

ش: كما روى حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عن رسول اللّه أنه قال: «يَدْرس الإسلامُ، كما يدرس وشي الثوب، حتى لا يدري ما صيام ولا صلاة، ولا نسك، ولا صدقة، ويُسرى على كتاب اللّه في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة، يقولون: لا إله إلا اللّه فنحن نقولها»(١).

أي يذهب اللّه تعالى (بالقرآن) العظيم كلامه المنزل على النبي الكريم من المصاحف والصدور وهي من أشد معضلات الأمور، قال رسول اللّه ﷺ: يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتى لا يُدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة ويسري على كتاب اللّه في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية»(٢).

قال في البهجة: «قرر الأئمة أنهُ يرفع أولا من المصاحف وذلك أنهم يبيتون فيصبحون وليس فيها حرف مكتوب ثم يرفع من الصدور عقب ذلك لأعجل زمن، حتى لا يكون شيء منه محفوظا، حتى يقول الحافظ للأخر، وقد سأله الآخر، كنت أحفظ شيئا نسيته لا أدري ما هو»(٣).

وقال عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه: «يطرق الناسَ ريحُ حمراء «يعني في آخر الزمان» من قِبَل الشام، فلا يبقى في مصحف رجل، ولا في قلبه آية»، ثم قرأ ابن مسعود﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦].

***

---

(١) رواه ابن ماجة والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان والضياء وصححه الألباني (صحيح الجامع ٨٠٧٧ والصحيحة ٨٧).

(٢) رواه ابن ماجة والحاكم من حديث حذيفة وصححه الألباني الجامع ٧٩٣٣، والصحيحة ٨٧ .

(٣) لوامع الأنوار البهية ٢/ ١٣١ - ١٣٢ .

القضية التاسعة والثلاثون: قال المُصنِّف حفظه اللَّه:

«نشهد أن القرآن المنزل على محمد ﷺ كلام اللَّه حقا وصدقا ليس بمخلوق، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه معجزةٌ حيّة باقية، تحدى اللَّه به الأولين والآخرين أن يأتوا بسورة مثله بياناً، وبلاغة، ومعنى وأحكاما وأن أحدا مهما أوتي من العلم والفصاحة والبيان، لا يأتي بذلك».

قوله: «ونشهد أن القرآن المنزل على محمد ﷺ كلام اللَّه[1] حقا وصدقا ليس بمخلوق»[2].

الشرح: القرآن كلام اللَّه، منه[3] بدا بلا كيفية قولا، وأنزله على رسوله وحيا، وصدّقه المؤمنون على ذلك حقا، وأيقنوا أنه كلام اللَّه تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فَمَن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمَّه اللَّه وعابه وأوعده سَقَرَ حيث قال تعالى: ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ٢٦].

فلما أوعد اللَّه سَقَرَ لمن قال: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥]، عَلِمنا وأيقنّا أنه قول خالق البشر، ولا يشبه قول البشر[4].

الأدلة من القرآن:

قال تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ

---

(١) سبق الكلام في الفقرة ١٣ عن صفة الكلام للَّه تعالى ما يغني عن الإعادة.

(٢) القول بخلق القرآن من أعظم الفتن التي وقعت في تاريخ الأمة الإسلامية وأصلها مبني على عقيدة التعطيل لصفات اللَّه تعالى، وأول من أظهر هذه المقالة هو الجعد بن درهم وأخذها عنه الجهم ابن صفوان، وأظهرها فنسبت مقالة الجهمية إليه. وقد قيل أن الجهم أخذ مقالته عن أبان بن سمعان، وأخذها أبان عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم، وأخذها طالوت من لبيد بن الأعصم، اليهودي الساحر الذي سحر النبي ﷺ (مجموع الفتاوى لابن تيمية ٥/ ٢٠).

(٣) منه بدأ: يعني أن ابتداء تنزيله من اللَّه لا من جبريل ولا غيره، فجبريل نزل به من عند اللَّه تعالى، كما قال تعالى (نزل به الروح الأمين) (الشعراء ١٩٣ (شرح العقيدة الواسطية ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ ٢/ ٥١٥).

(٤) شرح الطحاوية ١٧٩ .

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦]. يقول تعالى لنبيه صلوات اللّه وسلامه عليه ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أمرتك بقتالهم وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم، ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ أي: استأمنك فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام اللّه أي القرآن تقرؤه عليه وتذكر له شيئا من أمر الدين تقيم به عليه حجة اللّه[١]. وقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧]. يقول تعالى آمراً رسولَه ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه الى الناس ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ أي لا مغير لها ولا محرف ولا مزيل[٢] فسماه اللّه بكلماته.

الأدلة من السنة:

١- عن عائشة رضي الله عنها قالت في حديث الإفك: «وَلَشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم اللّه فيّ بوحي يُتلى»[٣].

٢- وعن عبد الرحمن بن حنيش قال: قال رسول اللّه ﷺ: «أعوذ بكلمات اللّه التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق»[٤].

فهل يقول قائل أنه ﷺ عاذ بمخلوق؟ بل هذا كقوله: «اللّهم إني أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك»[٥]. وكقوله: «أعوذ بعزة اللّه وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»[٦].

الأدلة من أقوال السلف:

١ - عن خلف بن هشام البزار قال: سمعت ابن عيينة[٧] يقول: «ما يقول هذا الروية

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٤٥ .
(٢) المصدر السابق ٣/ ١١٠ .
(٣) متفق عليه.
(٤) رواه أحمد وابن السني وصححه الألباني (شرح الطحاوية ١٩١ الهامش).
(٥) رواه مسلم وأصحاب السنن من حديث عائشة رضي الله عنها .
(٦) رواه البخاري في خلق أفعال العباد وأبو داود والترمذي وأحمد وابن ماجة.
(٧) سفيان ابن عيينة.



يعني (بشر المريسي)؟» قالوا: «يا أبا محمد بن (أبي) عمران: القرآن مخلوق».

قال: «فقد كذب. قال اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فالخلق خلق اللّه، والأمر القرآن»[(١)].

وكذلك قال أحمد بن حنبل، ونعيم بن حماد، ومحمد بن يحيى الذهلي، وعبد السلام بن عاصم الرازي، وأحمد بن سنان الواسطي وأبو حاتم الرازي[(٢)]، رحمهم اللّه.

٢ - وقال وكيع بن الجراح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من زعم أن القرآن مخلوق، فقد زعم أن شيئا من اللّه مخلوق»، فقيل له: «يا أبا سفيان ! من أين قلت هذا؟» قال: «لأن اللّه تبارك وتعالى يقول: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣] ولا يكون من اللّه شيء مخلوق»[(٣)].

٣ - وقال عمرو بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أدركت مشايخنا والناسُ منذ سبعين سنة، يقولون: القرآن كلام اللّه منه بدأ وإليه يعود»[(٤)].

٤ - وعن علي بن الحسين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال في القرآن: «ليس بخالق ولا مخلوق ولكنه كلام اللّه عزَّ وجلَّ»[(٥)].

٥ - وسُئل الحسن بن أبي الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عن القرآن: خالق أو مخلوق؟ قال: «ما هو بخالق ولا مخلوق، ولكنه كلام اللّه».

٦ - وعن معاوية بن عمار الدهني قال: قلت لجعفر بن محمد (بن علي بن الحسين الصادق رضي اللّه عنهم أجمعين): «أنهم يسألون عن القرآن مخلوق هو؟» قال: «ليس بخالق ولا مخلوق ولكنه كلام اللّه».

---

(١) شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة ٢/ ٢١٩ .
(٢) المصدر السابق.
(٣) رواه البيهقي الأسماء والصفات ٢٤٩ .
(٤) رواه البخاري في خلق أقوال العباد ١١٧ .
(٥) عبد اللّه بن أحمد بن حنبل في السنة نقلا من شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكاني ٢/ ٢٣٧ .

٧ - وعن عبد اللّه بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «سمعت الناس منذ تسعة وأربعين عاما»، يقولون: من قال القرآن مخلوق، فامرأته طالق (ثلاثا) بتة، قلت: «ولم ذلك؟» قال: «لأن امرأته مسلمة، ومسلمة لا تكون تحت كافر».

٨ - وروى محمد بن يونس قال: سمعت أبا بكر بن أبي شيبة يقول: «لما جاءت المحنة[١] إلى الكوفة» قال: أحمد بن يونس قال: القَ أبا نعيم فقل له، فلقيت أبا نعيم فقال لي: إنما هو ضرب الأسياط[٢]، قال ابن أبي شيبة: فقلت: «ذهب حديثنا عن هذا الشيخ»، فقيل لأبي نعيم، فقال: «أدركت ثلاثمائة شيخ كلهم يقولون: (القرآن كلام اللّه غير مخلوق»)، وإنما قال هذا قوم من أهل البدع، كانوا يقولون: «لا بأس برمي الجمار بالزجاج»، ثم أخذ زره فقطعه، ثم قال: «رأسي أهون عليّ من زري».

٩ - وعن محمد بن يحيى بن خلف المقري قال: «كنت عند مالك بن أنس سنة ثمان وستين فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد اللّه ! ما تقول فيمن يقول: «القرآن مخلوق؟» قال: «كافر، زنديق اقتلوه»، قال: « إنما أحكي كلاما سمعته»، قال: «لم أسمعه من أحد إنما سمعته منك».

١٠ - وعن الربيع بن سليمان يقول سمعت الشافعي يقول: «من قال القرآن مخلوق فهو كافر».

١١ - وعن الحسن بن أيوب قال: سألت أحمد بن حنبل: «ما تقول في القرآن؟» قال: «كلام اللّه غير مخلوق». قال: قلت: «ما تقول فيمن قال مخلوق؟» قال: «كافر» قلت: «بم أكفرته؟» قال: «بآيات من كتاب اللّه» ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [البقرة: ١٢٠]، و ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [البقرة: ١٤٥]. «فالقرآن عِلْمُ اللّه، فمن زعم أن علم اللّه مخلوق فقد كفر».

١٢ - وعن محمد بن أبي أيوب قال: سألت أبا يوسف، فقلت: «أكان أبو حنيفة

---

(١) المحنة: فتنة القول بخلق القرآن.
(٢) أي الذي لا يوافق المعتزلة بالقول أن القرآن مخلوق فهذا جزاءه.



يقول: القرآن مخلوق؟» قال: «معاذَ اللَّه ولا أنا أقوله». فقلت: «أكان يرى رَأيَ جَهْمْ»؟ فقال: «معاذَ اللَّه ولا أنا أقوله»(١).

١٣ - قول أبي الحسن علي بن اسماعيل الأشعري(٢) «... ونقول إن القرآن كلام اللَّه غير مخلوق...»(٣).

قوله: «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه».

ش: قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. قال ابن كثير: أي ليس للبطلان إليه سبيل، لأنه مُنزّل من رب العالمين ولهذا قال: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي: حكيم في أقواله، وأفعاله، حميد بمعنى: محمود أي في جميع ما يأمر به، وينهى عنه، الجميع محمودة عواقبه وغاياته(٤).

والقول في كتابه المُفَصَّل بأنه كلامه المنزّل
على الرسولِ المصطفى خير الورى ليس بمخلوق ولا بمفترى(٥)

وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة: أنه هو الذي نزل القرآن العظيم، وأنه حافظ له من أن يُزاد منه، أو ينقص، أو يتغير منه شيء، أو يُبدّل، وبيّن هذا المعنى في مواضعَ أُخَر كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١- ٤٢]. وقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦- ١٧]، إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾(٦).

---

(١) هذا والاثار السابقة راجع شرح اعتقاد أهل السنة اهل السنة والجماعة ٢/٢١٦- ٣٦٩ .
(٢) الإمام الذي تنسب له الفرقة الأشعرية.
(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية لابن القيم ١١٤ .
(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٣٠ .
(٥) معارج القبول ١/١٧٩ .
(٦) أضواء البيان ٣/ ١٢٠ .

قوله: «وأنه معجزة حية باقية تحدى اللّٰه به الأولين والآخرين أن يأتوا بسورة مثله».

ش: والمعجزة في اللغة: هي اسم فاعل مأخوذ من العجز المقابل للقدرة.

والمعجزة في الاصطلاح: قال الفخر الرازي: المعجزة أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي مع عدم (سالم) المعارضة.

وقال ابن حمدان في نهاية المبتدئين: «المعجزة هي ما خَرَق العادةَ من قول، أو فعل، إذا وافق دعوى الرسالة وقارنها، وطابقها على جهة التحدي، ابتداء بحيث لا يقدر أحد عليها، ولا على مثلها، ولا على ما يقاربها»(١).

تحدي اللّٰه بالقرآن:

ولقد تدرّج اللّٰه بتحديهم بالقرآن فتحداهم:

أولا: على أن يأتوا بمثل القرآن. قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزل على رسوله لما أطاقوا ذلك، ولما استطاعوا، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا فإن هذا أمر لا يُستطاع، وكيف يُشبه كلام المخلوقين كلامُ الخالق الذي لا نظير له، ولا مثال له، ولا عديل له؟(٢).

ثانيا: تحداهم اللّٰه بعشر سور من القرآن، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، فقد بيّن اللّٰه تعالى إعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ولا بعشر سور مثله، ولا بسورة من مثله، لأنّ كلام الرب تعالى لا يشبه كلام المخلوقين، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات، وذاته لا يشبهها شيء، تعالى، وتقدس، وتنزه،

---

(١) لوامع الأنوار البهية ٢/ ٢٨٩ - ٢٩٠ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٨٦ .



لا إله إلا هو، ولا رب سواه، ثم قال: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ [هود: ١٤]، فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتموهم إليه، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن هذا الكلام منزل من عند اللّه متضمنُ عِلْمَه وأمرَه، ونهيَه[١].

ثالثا: ثم تحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة من مثله.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٧- ٣٨]، أي: إن ادعيتم، وافتريتم، وشككتم في أن هذا من عند اللّه وقلتم كذبا مبينا: «إن هذا من عند محمد، فمحمد بشر مثلكم، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن، فأتوا أنتم بسورة مثله، أي من جنس هذا القرآن واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان[٢] وكرر اللّه هذا التحدي لهم مرة أخرى في المدينة بقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣- ٢٤].

لقد تحداهم كلَّهم متفرقين ومجتمعين، سواء في ذلك أميّهم وكتابيّهم وذلك أكمل في التحدي، وأشمل من أن يتحدى آحادهم الأميّين ممن لا يكتب ولا يعاني شيئا من العلوم، وقد تحداهم بهذا في مكة والمدينة مرات عديدة مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه، ومع هذا عجزوا عن ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾، ولن تنفي التأبيد في المستقبل، أي ولن تفعلوا ذلك أبدا، وهذه أيضا معجزة أخرى: وهو أنه أخبر خبرا جازما، قاطعا، مقدما غير خائف، ولا مشفق أن هذا القرآن لا يُعارض بمثله أبد الآبدين، ودهر الداهرين، وكذلك وقع الأمر، لم يُعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن[٣].

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٥٧٧ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٤٩ .
(٣) المصدر السابق ١/ ٩٢ .

قوله: «بيانا وبلاغة ومعنى وأحكاما، وأنّ أحداً مهما أوتي من العلم والفصاحة، والبيان لا يأتي بذلك».

ش: وأهل السنة والجماعة قرروا أن القرآن مُعْجِزٌ من جميع الوجوه، نَظْما ومعنى، ولفظا، ومنه الإيجاز مع تمام المعنى وهو أبلغ أقسام الإعجاز، ولهذا قيل الإيجاز في الإيجاز نهاية الإعجاز، وهذا موجود في القرآن فعلى سبيل الحذف، مثل قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، أي أهلها.

وعلى سبيل الاختصار نحو قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، فهذه آية، أربع كلمات من ستة عشر حرفا تتضمن ما يزيد على ألف ألف مسألة، قد تصدى لبيانها علماء الشريعة، حتى بلغوا ألوفا من المجلدات.

وأما تشبيه الشيء بالشيء، فنحو قوله تعالى: ﴿أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩].

وأما استعارة المعنى: فكالتعبير عن المضي، والقيام بالصدع، نحو قوله: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤].

وذُكر أن أعرابيا سمع قوله: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤] فلم يتمالك أن وقع على الأرض وسجد، فسُئل عن سبب سجدته فقال: «سجدت في هذا المقام لفصاحة هذا الكلام».

وأما تلاؤم الكلمات والحروف، ففيه جمال المقال، وكمال الكلام، نحو قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٤]، ونحو: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة: ٨٩].

وأما تجانس الألفاظ فنوعان: إما من قبيل المزاوجة كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤]. ونحو: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ﴾ [الشورى: ٤٠].

أو قَبيل المناسبة كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ [التوبة: ١٢٧].

وأما جوامع آيات القرآن فكقوله سبحانه: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، فإنها جامعة لجميع مكارم الأخلاق، وكقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] فإنها مستجمعة لجميع أسباب السياسة والرياسة.



وأما المبالغة في الأسماء والأفعال:

فالأسماء نحو قوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، ونحو: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وأما الأفعال فنحو قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٨]. ونحو: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

وأما حُسن البيان فلتمام العبارة نحو قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: ٢٥].

وللنصيحة والموعظة، نحو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: ٥٧].

وبرهانا على الوحدانية، فنحو قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. .

وأما أخبار عمّا كان، وعما يكون ما بين مجمل ومفصّل، لا إجمالا يعتريه شك، ولا تفصيلا يورث كلالة، وملالة!.

وذكر أن بعض البلغاء قصد معارضة القرآن، وكان ينظر في سورة هود، إلى أن وصل إلى قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ [هود: ٤٤].

فانشقت مرارته من هيبة هذا الخطاب، ومات في حينه!![(١)].

ولهذا لما قال أبو جهل للوليد بن المغيرة: «قل فيه قولا يبلغ قومك إنك مُنكر له». قال: «وماذا أقول؟ فواللَّهِ ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه، ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجنّ، واللَّه ما يُشبه الذي يقول شيئا من هذا، وواللَّهِ إن لقوله الذي يقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى وإنه ليُحطّم ما تحته»[(٢)].

❊ ❊ ❊

---

(١) أصول التفسير وقواعده ٣٠٧ - ٣١١ (بتصرف) وللمزيد من الفائدة يراجع بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز، وكتاب معترك الاقران في إعجاز القرآن للحافظ السيوطي.

(٢) رواه الحاكم ٢/ ٥٠٧ وقال صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه أقره الذهبي ورواه البيهقي ١/ ٥٦٦ من دلائل النبوة (الصحيح المسند من أسباب النزول للشيخ مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله ١٥٢).

القضية الأربعون: قال المُصنِّف حفظه اللَّه:

«نشهد أن اللَّه أنزل القرآن تبيانا لكل شيء مما يصلح الناس في دنياهم وأخراهم، وأنه لا خلاف بين آياته، وأن اللَّه تعبدنا بتلاوته وتدبره وجعل خيرَنا مَنْ تعلمه وعلمه».

قوله: «نشهد أن اللَّه أنزل القرآن تبيانا لكل شيء مما يصلح الناس في دنياهم وأخراهم».

الشرح: قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] قال ابن مسعود رضي الله عنه: «قد بيّن لنا هذا القرآنُ كُلَّ علم وكل شيء»[(١)].

وعندما قيل لسلمان الفارسي رضي الله عنه «قد علّمكم نبيكم ﷺ كل شيء حتى الخِراءة»[(٢)].

قال: «أجل، لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول، أو أن نستنجي باليمين، أو أن نستنجي برجيع، أو بعظم» وفي رواية قال: «قال لنا: المشركون... الحديث»[(٣)].

قال الإمام النووي: «ومرادُ سلمانَ رضي الله عنه أنه ﷺ علّمنا كل ما نحتاج إليه في ديننا حتى الخراءة»، والتي ذكرت أيها القائل: «فإنه عَلّمنا آدابها، فنهانا فيها عن كذا وكذا» واللَّه أعلم[(٤)].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «لعن اللَّه الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات لخلق اللَّه»، فقالت له امرأة في ذلك. فقال: «وما لي لا ألعن من لعن رسول اللَّه ﷺ، وهو في كتاب اللَّه»، فقالت: «لقد قرأتُ ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول؟!» قال: «لئن قرأتيه، لقد وجدتيه! أما قرأتِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [سورة الحشر: ٧] قالت:

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/٧٦٨.

(٢) الخِراءة: بكسر الخاء المعجمة وتخفيف الراء، وبالمد وهي اسم الحدث.

(٣) رواه مسلم.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ٢/ج٣ - ١٥٤.

«بلى» قال: «فإنه قد نهى عنه»[١].

كما أن فيه أصول الصنائع، وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها فمن الصنائع الخياطة في قوله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ [الأعراف: ٢٢] والحدادة في قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦] وقوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبإ: ١٠] والبناء في آيات[٢]، والنجارة: ﴿أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، والغزل: ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ [النحل: ٩٢] والنسيج ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١]، والفلاحة: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣]، والغوص: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً﴾ [النحل: ١٤]، والصياغة: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا﴾ [الأعراف: ١٤٨] [الأعراف: ١٤٨][٣].

وقوله ﷺ: «لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء، برأ بإذن اللَّه عزَّ وجلَّ»[٤]. ففي هذا الحديث تقوية لنفس المريض والطبيب، وحَثٌّ على طلب ذلك الدواء والتفتيش عليه، فإن المريض إذا استشعرتْ نفسُه، أن لدائه دواءً يزيله تعلق قلبه بروح الرجاء، وبردت عنده حرارة اليأس، وانفتح له باب الرجاء، وإذا قويت نفسه انبعثت حرارته الغريزية وكانت سببا لقهر المرض، ودفعه. وكذلك الطبيب إذا علم أن لهذا الداء دواء، أمكنه طلبه، والتفتيش عليه[٥].

ووضع للنظام الغذائي ضوابط كقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١]. قال بعض السّلف: جمع اللَّه الطب كله في نصف آية[٦]. وقال ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا بد فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»[٧]. وقوله ﷺ فيما يسمّى اليوم بالحَجْر الصحي: «الطاعون رجز

(١) رواه البخاري.
(٢) لقوله تعالى في قصة موسى والخضر عليهما السلام: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ [الكهف: ٧٧].
(٣) أضواء البيان ٣/ ٣٤٢ بتصرف بسيط.
(٤) رواه مسلم.
(٥) زاد المعاد ٤/ ١٧ بتحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط بتصرف.
(٦) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٨٢ .
(٧) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم وصححه الألباني الجامع ٥٦٧٤ .

أُرسل على طائفة من بني إسرائيل، وعلى من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض، فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا منها فرارا منه»[(١)].

وكذلك عالج قضية العشق كما قال ابن القيم: هذا مرض من أمراض القلب، مخالف لسائر الأمراض في ذاته، وأسبابه، وعلاجه، وإذا تمكّن واستحكم، عزّ على الأطباء دواؤه، وأعيا العليلَ داؤه. فإن كان مما للعاشق سبيل إلى وصل محبوبه شرعاً وقدراً فهو علاجه كما ثبت من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»[(٢)].

فَدَلّ المُحبَّ على علاجين، أصلي، وبدلي، وأَمرَه بالأصلي وهو العلاج الذي وضع لهذا الداء، فلا ينبغي العدول عنه إلى غيره ما وُجد إلى ذلك سبيلا. وما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لم نر للمتحابين مثل النكاح»[(٣)]، ثم خاطب المجتمع بقوله ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون خُلقه ودينه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»[(٤)][(٥)].

ومن تبيان القرآن لكل شيء ما فيه من عيون أخبار الأمم السالفة ومن عجائب المخلوقات وملكوت السموات والأرض وفيه بدء خلق الإنسان إلى موته، ومن علامات الساعة،وأحوال البعث والنشور، وفيه ما أعده اللّه للطائعين من جنته ورحمته، وما أعده اللّه للكافرين من ناره وغضبه، وكذلك من تبيانه سبحانه وتعالى لما يُصلح الناس في دينهم ودنياهم كقضية القصاص، فإن الإنسان إذا غضب وهَمّ بأن يقتل إنسانا آخر، فتذكر أنه إن قتله قُتل به، خاف العاقبة، فترك القتل، فَحَيي ذلك الذي كان يريد قتله، وحيي هو، لأنه لم يَقتُل فيُقتَل قصاصا فَقَتل القاتل يحيا

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه ابن ماجة والحاكم من حديث ابن عباس وصححه الألباني (الجامع ٥٢٠٠).
(٤) أي: كبير، والمعنى يكثر الزنا، ويلتحق العار، فيقع القتل والفتن.
(٥) رواه الترمذي وابن ماجة والحاكم وحسنه الألباني (الجامع ٢٧٠).

به ما لا يعلمه إلا اللّه كثـرة، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩]، ولا شك أن هذا من أعدل الطرق وأقومها(١).

قوله: (وأنه لا خلاف بين آياته)

ش: قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

يقول تعالى: آمرا لهم بتدبر القرآن وناهيا لهم عن الإعراض عنه، وعن تفهّم معانيه المحكمة، وألفاظه البليغة، ومخبرا لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا تعارض، لأنه تنزيل من حكيم حميد، فهو حَقّ من حق، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]. ثم قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾، أي لو كان مفتعلا مختلقا، كما يقوله من يقوله من جهلة المشركين، والمنافقين في بواطنهم لوجدوا فيه اختلافا، أي اضطرابا وتضادا كثيرا. أي وهذا سالم من الاختلاف، فهو من عند اللّه، كما قال تعالى مخبرا عن الراسخين في العلم حيث قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ أي محكمة ومتشابه حق، فلهذا ردوا المتشابه إلى المحكم، فاهتدوا، والذين في قلوبهم زيغ ردوا المتشابه فَغَوَوا، ولهذا مدح تعالى الراسخين وذم الزائغين(٢).

فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: «لقد جلست أنا وأخي في مجلس ما أحب أن لي حُمر النَّعم: أقبلت أنا وأخي، وإذا مشيخة من أصحاب رسول اللّه ﷺ جلوس عند باب من أبوابه، فكرهنا أن نُفرّق بينهم، فجلسنا حجرة، إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها، حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول اللّه ﷺ مُغضبًا، قد احمرّ وجهه، يرميهم بالتراب»، ويقول: «مهلا يا قوم! بهذا أُهلِكت الأمم من قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكُتبَ بعضَها ببعض، إن القرآن لم

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٤٢٧ - ٤٢٨ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٧٠٤ .

يُكذب بعضُه بعضا، بل يصدق بعضُه بعضا، فما عرفتم فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه»[١].

وكذلك بالنسبة لاختلاف القراءات قد ثبت عن النبي ﷺ من حديث عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم بن حزام قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «سمعت هشام ابن حكيم بن حزام يقرأ في الصلاة سورة الفرقان، في حياة رسول اللّه ﷺ: فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرأنيها رسول اللّه ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة فتهونت حتى سلّم»، فلببته[٢] بردائه فقلت: «من أقرأك هذه السورة التي سمعتُ تقرأ؟» قال: «اقرأنيها رسول اللّه ﷺ»، فقلت: «كذبت ! فإن رسول اللّه ﷺ قد اقرأنيها على غير ما قرأت !»، فانطلقتُ به أقوده إلى رسول اللّه ﷺ، فقلت: «إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرأنيها»، فقال رسول اللّه ﷺ: «اقرأ يا هشام!»، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول اللّه ﷺ: «كذلك أُنزلت»، ثم قال: «اقرأ يا عمر!»، فقرأتُ القراءة التي أقرأني، فقال رسول اللّه ﷺ: «كذلك أُنزلت»، إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه[٣].

قوله: (وأن اللّه تعبّدنا بتلاوته وتدبّره)

ش: واللّه سبحانه وتعالى تعبدنا بتلاوته في أمور منها:

أولًا: الصلاة: حيث إن قراءت الفاتحة ركن في الصلاة:

١- فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن»[٤]. وفي رواية: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[٥].

---

(١) رواه أحمد والبغوي في شرح السنة وابن ماجة والألقاني ح ١١١٩ وصححه الألباني بهامش الطحاوية ٢١٨ .

(٢) فلببته: يقال: لببت الرجل ولببته إذا جعلت في عنقه ثوبه أو غيره وجررته به.

(٣) رواه البخاري.

(٤) متفق عليه.

(٥) متفق عليه.



وكذلك القراءة بشكل عام قال تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ [المزمل: ٢٠].

٢- قال رسول اللَّه ﷺ: «لعلكم تقرؤون خلف إمامكم؟» قلنا: «نعم» قال: «لا تفعلوا إلا بفاتحة الكتاب، فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها»[١].

٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن، فهي خداج، فهي خداج، فهي خداج غير تمام»[٢].

٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوءَ، ثم استقبل القبلة فكبّر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع. .»[٣].

ثانيا: الأجر والثواب على قراءته والاجتماع عليه:

١- عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من قرأ حرفا من كتاب اللَّه فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها: لا أقول (ألم) حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف»[٤].

٢ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق، له أجران»[٥].

٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت اللَّه يتلون كتاب اللَّه، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة وذكرهم اللَّه فيمن عنده»[٦].

(١) الموطأ للإمام مالك والإمام أحمد رحمهما اللَّه وحسنه الألباني في المشكاة برقم ٦٥٤ .
(٢) رواه مسلم وأحمد وأصحاب السنن و(الخداج) النقص، ومنه طفل أخدج.
(٣) أخرجه السبعة واللفظ للبخاري والحديث معروف بحديث مسيء الصلاة.
(٤) رواه الترمذي والدارمي والبخاري في تاريخه وصححه الألباني (الجامع ٦٤٦٩) .
(٥) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة.
(٦) رواه مسلم .

وكذلك أمرنا اللَّه وتعبدنا بتدبره:

قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] أي ذوو العقول، وهي الألباب، جمع لب وهو: العقل. قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واللَّه ما تدبره بحفظ حروفه، وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول قرأت القرآن كله ما يُرى له القرآن في خُلق، ولا عمل»[١]. فالمقصود من التدبر: هو التفكر في آيات اللَّه واتباعه والعمل بها.

وكما أمرنا اللَّه تعالى بتدبره، نهانا عن الإعراض عنه قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالى آمرا بتدبر القرآن وتفهمه وناهيا عن الإعراض عنه»[٢].

وقد يدخل في معنى الهجران الذي اشتكا منه الرسولُ ﷺ لربه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن، ولا يستمعونه، فكانوا إذا تُلي عليهم القرآنُ أكثروا اللغط والكلام في غيره كيلا يسمعوه، فهذا من هجرانه، وتركُ الإيمان به، وتركُ تصديقه من هجرانه، وتركُ تدبره وتفهمه من هجرانه، وتركُ العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعُدولُ عنه إلى غيره من شعر، أو قول، أو غناء، أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره[٣]، من هجرانه فنسأل اللَّه الكريم المنان القادر على ما يشاء، أن يخلصنا مما يُسخطه، ويستعملنا فيما يرضيه من حفظ كتابه وفهمه، والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يحبه ويرضاه إنه كريم وهّاب[٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٤ .
(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٢٦ .
(٣) ومن أكبر أنواع الهجر ما نشاهده الآن في معظم البلاد الإسلامية من ترك تحكيمه واستبداله بالقوانين الوضعية، فاللَّه المستعان.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٢٣ .

قوله: (وجعل خيرنا من تعلمه وعلمه)

ش: كما قال رسول اللّه ﷺ: «خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه»(١).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «أفلا يغدو أحدُكم إلى المسجد فيعْلم أو يقرأ آيتين من كتاب اللّه عزَّ وجلَّ خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل»(٢).

فضل حافظ القرآن:

قال رسول اللّه ﷺ: «يُقال لصاحب القرآن: «اقرأ وارتق، ورتِّل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية كنتَ تقرأ بها»(٣).

فضيلةُ قارئ القرآن:

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجّة، طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة، طعمها طيب، ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مُر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها»(٤).

رَفْعُ شأنِ المسلمين بالقرآن:

وعن عامر بن وائلة: أن نافع بن الحارث لقي عمر بـ (عسفان)(٥). وكان عمر يستعمله على مكة، فقال: «من استعملت على أهل الوادي؟» فقال: «ابن أبزي».

---

(١) رواه أحمد ولبخاري والترمذي وأبو داود وابن ماجة.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه وأحمد أبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم وابن أبي شيبة (وصححه الألباني الصحيحة ٢٢٤٠).

(٤) متفق عليه.

(٥) عسفان: منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة (لسان العرب/ ١٢١).

قال: «ومن ابن أبزي؟» قال: «مولى من موالينا». قال: «فاستخلفت عليهم مولى؟!» قال: «إنه قارئ لكتاب اللَّه عزَّ وجلَّ، وإنه عالم بالفرائض».

قال عمر: «إن نبيكم ﷺ قال: «إن اللَّه يرفع بهذا الكتاب أقواما، ويضع به آخرين»»[١].

تقديمه في اللّحد:

وصاحب القرآن يُقدم في الصلاة، ويُقدم كذلك في القبر بعد الممات: كما في حديث هشام بن عامر رضي الله عنه قال: لما كان يوم أُحد أُصيب من أصيب من المسلمين، وأصاب الناسَ جراحاتٌ، فقلنا: «يا رسول اللَّه ! الحفر علينا لكل إنسان شديد[٢]، فكيف تأمرنا؟ فقال: احفروا، وأوسعوا، واعمقوا، وأحسنوا، وأدفنوا الاثنين، والثلاثة في القبر، وقَدّموا أكثرَهم قرآناً»، قال: فكان أبي ثالث ثلاثة، وكان أكثرهم قرآنا فقدّم»[٣].

* * *

(١) رواه مسلم والدارمي وابن ماجة.

(٢) أي شاق علينا أن نجهز لكل ميت قبر مستقل.

(٣) أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي والبيهقي وصححه الألباني (أحكام الجنائز وبدعها ١٤٢).



القضية الحادية والأربعون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«نشهد أن اللَّه سبحانه وتعالى اختار من البشر أنبياء ورسلا لهداية الناس ودعوتهم إلى طريق اللَّه، وأن أولهم آدم، وآخرهم وخاتمهم محمدا ﷺ وأنهم جميعا إخوانه في الدين دعاة إلى رب العالمين، وإن اختلفت شرائعهُم فعقيدتُهم واحدة».

الشرح: الإيمان برسل اللَّه هو التصديق الجازم بأن للَّه رسلا أرسلهم لإرشاد الخلق في معاشهم، ومعادهم، فقد اقتضت حكمة اللطيف الخبير أن لا يُهمل خلقَه، بل أرسل إليهم رسلا مبشرين ومنذرين، فيجب الإيمان بمن سمّى اللَّه منهم في كتبه على التفصيل، والإيمان جملة بأن للَّه رسلا غيرهم، وأنبياء لا يحصى عددهم إلا اللَّه ولا يعلم أسماءهم إلا هو جلّ وعلا(١).

واللَّه سبحانه وتعالى يصطفي رسلا وأنبياء من البشر ويختارهم على عينه سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥]، أي يختار من الناس رسلا مثل إبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد ﷺ وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام، وأُنزلت الآية حين قال المشركون: أأُنزل عليه الذكر من بيننا، فأخبر أن الاختيار إليه (سبحان اللَّه وتعالى) يختار مَنْ يشاء من خَلْقه(٢) وكقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢] وقال تعالى رادا على المشركين قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

أي: هلّا كان إنزال القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من إحدى القريتين؟ يعنون مكة والطائف: «وأرادوا الوليدَ بن المغيرة وعروةَ بن مسعود الثقفي» فرد اللَّه عليهم هذا الاعتراض، ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ﴾ [الزخرف: ٣٢] أي ليس الأمر مردودا إليهم بل إلى اللَّه عزَّ وجلَّ، واللَّه أعلم حيث يجعل رسالته، فإنه لا ينزلها إلا على

---

(١) الكواشف الجلية في معاني الواسطية للشيخ عبد العزيز الحمد السلمان رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٩٩.

أزكى الخلق، قلبا، ونفسا، وأشرفهم بيتا وأطهرهم، أصلا[١] وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٢٣]، وقال ﷺ: «إن اللَّه تعالى اصطفى كنانة[٢] من ولد اسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم»[٣].

قوله: (وأن أولَّهم آدمُ عليه السلام)

ش: كما جاء من حديث الشفاعة: «. . . فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك اللَّه بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك. .»[٤] وقد ذُكِر في القرآن خمسةٌ وعشرون نبيا ورسولا وهم: آدم، ونوح وإدريس، وصالح، وهود، وشعيب، وإبراهيم، ولوط، ويونس، وإسماعيل، واسحق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وموسى[٥]، وهارون، واليسع، وذو الكفل، وداود، وزكريا، وسليمان، وإلياس، ويحيى، وعيسى، ومحمد صلى اللَّه عليهم أجمعين.

عدد الأنبياء والمرسلين:

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: «يا رسول اللَّه،كم المرسلون؟ قال: «ثلاثمائة وبضعة عشر، جمّاً غفيرا».

وفي رواية أبي أمامة قال أبو ذر: قلت: «يا رسول اللَّه! كم وفاءُ عِدّةِ الأنبياء؟» قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمّاً غفيرا»[٦].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٦٢ .
(٢) اختار هذه القبيلة.
(٣) رواه مسلم .
(٤) رواه أحمد والبخاري ومسلم واللفظ له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
(٥) والخضر عليه السلام وهو العبد الصالح الذي رحل إليه موسى عليه السلام/ البداية والنهاية لابن كثير ١/ ٣٢٦ .
(٦) رواه أحمد وصحح اسناده الألباني (مشكاة المصابيح ٣/ ١٢٢).

وقوله: «وآخرهم وخاتمهم محمد ﷺ»

ش: قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فهذه الآية نَصٌ أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بالطريق الأَوْلى والأَحْرَى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي ولا ينعكس(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول اللَّه ﷺ قال: مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة، قال فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين(٢).

وعن جُبير بن مُطعِم رضي الله عنه قال: قال ﷺ «إن لي خمسةَ أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، يمحو اللَّه بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب، والعاقب الذي ليس بعده نبي»(٣).

٤- ومن حديث ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «وإنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي»(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «فُضّلتُ على الأنبياء بست: أعطيتُ جوامعَ الكَلِم، ونُصرت بالرعب وأُحِلّتْ لي الغنائم، وجُعلت لي الأرض طهورا ومسجدا، وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون»(٥).

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٦٥٠ .
(٢) رواه البخاري ومسلم واللفظ له. وفي رواية ابن عساكر (. . . ختم بي البنيان وختم بن الرسل).
(٣) رواه البخاري ومسلم.
(٤) رواه أحمد ومسلم وأبو داود وغيرهم.
(٥) رواه مسلم والترمذي.



قوله: (وإن اختلفت شرائعهم فعقيدتهم واحدة)

ش: فالرُسل صلوات اللَّه وسلامه عليهم وإن اختلفت شرائعهم في تحديد بعض العبادات والحلال والحرام، لم يختلفوا في الأصل الذي هو إفراد اللَّه سبحانه بتلك العبادات. افترقت أو اتفقت، لا يُشْرك معه فيها غيرُه[(١)] كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة ليس بيني وبينه نبي، والأنبياء أولاد عَلات[(٢)]: أمهاتهم شتى، ودينهم واحد»[(٣)] قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥١- ٥٢]: أي ملتكم ملة، واحدة، كقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢- ٢٣]: أي على ملة.

وقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ١٣].

فَدِينُ الأنبياء واحد، وهو دين الإسلام، لأن بعض الشرائع تتنوع، فقد يُشَرِّع في وقت أمرا لحكمة، ثم يشرع في وقت آخر أمرا آخر لحكمة، كما شرع في أول الإسلام الصلاة إلى بيت المقدس، ثم نسخ ذلك، وأُمر بالصلاة إلى الكعبة، فتنوعت الشريعة والدين واحد، وكان استقبال الشام في ذلك الوقت من دين الإسلام، وكذلك السبت لموسى من دين الإسلام، ثم لما صار دين الإسلام هو الناسخ، وهو الصلاة إلى الكعبة فمن تمسّك بالمنسوخ فليس على دين الإسلام، ولا هو من الأنبياء[(٤)].

* * *

(١) معارج القبول ١/ ٢٩٤ .

(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود.

(٣) العلات بفتح المهملة: الضرائر، وألاد العلات الأخوة من الأب، وأمهاتهم شتى، ومضى الحديث أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع (فتح الباري ٦/ ٤٨٩).

(٤) جامع الرسائل ١/ ٢٨٤ لشيخ الإسلام ابن تيمية.

القضية الثانية والأربعون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«نشهد أن جميع الرسل معصومون عن الكذب على اللَّه، أو الحكم بالهوى أو الوقوع في الفواحش، أو الزيادة والنقص في الدين، وأنهم مُسددون دائما من اللَّه في اجتهاداتهم، وأن اللَّه لا يُقرهم على خطأ أخطئوه باجتهادهم».

قوله: «ونشهد أن جميع الرسل معصومون عن الكذب على اللَّه».

الشرح: العصمة في اللغة: اسم مصدر من عصَم وهي بمعنى المنع(١) وعُصِم مُنِع ووقي(٢) والعاصم: المانع، والحامي، والاعتصام بالشيء: افتعال منه(٣).

وليس كلُ مَنعٍ عِصمة، وإنما العصمة: أن تمنع الشيء أن يلحقه الضرر.

قال تعالى عن ابن نوح: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، أي يتمسّك بحبله وهديه خشية الانحراف(٤).

العصمة في الإصطلاح: العصمة مَنْعُ اللَّهِ عبدَه من السقوط في القبيح من الذنوب والأخطاء ونحو ذلك(٥).

قال الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: الناس متفقون على أن الأنبياء معصومون فيما يُبلِّغونه عن اللَّه، فلا يستقر في ذلك خطأ باتفاق المسلمين(٦).

ولهذا زَكّى اللَّهُ نبيَّه محمدا ﷺ خاصة في مقام تبليغ الرسالة، قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

---

(١) لسان العرب.
(٢) القاموس.
(٣) لوامع الأنوار البهية للسفاريني ٢/ ٣٠٤ .
(٤) أفعال الرسول ﷺ ودلالتها على الأحكام الشرعية ١/ ١٣٧ لشيخنا الدكتور محمد سليمان الأشقر حفظه اللَّه ويراجع لمن أراد المزيد من المعلومات حول هذه القضية.
(٥) المصدر السابق.
(٦) مجموع الفتاوى ٢/ ٢٨٣ ومنهاج السنة ١/ ١٣٠ ونقله عنه السفاريني في لوامع الأنوار ٢/ ٣٠٤ .

أي: ولكنهم يعاندون الحق، ويدفعونه بصدورهم.

ولهذا لما خلا الأخنس بأبي جهل (قبل معركة بدر) قال: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد. أصادق هو أم كاذب؟! فإنه ليس ها هنا من قريش غيري وغيرك يستمع كلامنا! فقال أبو جهل: «ويحك! والله إن محمدا لصادق، وما كذب محمد قط! ولكن إذا ذهبت بنو قصي باللواء، والسقاية، والحجابة، والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟»[(١)].

وكيف يكذب وهو يسمع قول الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ﴾ [الشورى: ٢٤] أي لو افتريت عليه كذبا كما يزعم هؤلاء الجاهلون (يختم على قلبك): أي يطبع على قلبك، ويسلبك ما كان آتاك من القرآن، كقوله جل جلاله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة ٤٤- ٤٧] أي لانتقمنا منه أشد انتقام، وما قَدَرَ أحدٌ من الناس أن يحجز عنه[(٢)].

وأقر أعداؤه بأنه صادق ولا يكذب كما جاء في حديث عبد الله بن عباس أن أبا سفيان بن حرب أخبر أن هرقل أُرسْل إليه ركبٌ من قريش وكانوا تجارا بالشام (وسأله بعضاً من الأسئلة) ثم قال هرقل لأبي سفيان: «وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت: «أن لا»، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله»[(٣)].

قوله: (أو الحكم بالهوى).

ش: حاشاه عن ذلك صلوات الله وسلامه عليه سواء كان هذا هوى نفسه أو هوى غيره وقد زكاه الله بقوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ١- ٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٧٧.
(٢) المصدر السابق ٤/ ١٤٥.
(٣) رواه البخاري.

هذا هو المقسوم عليه، وهو الشهادة للرسول ﷺ بأنه راشد، تابع للحق ليس بضال: وهو الجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم. والغاوي: هو العالِم بالحق، العادل عنه قصدا إلى غيره، فنزّه اللَّهُ رسولَه وشرعَه، عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطرائق اليهود وهي علم الشيء وكتمانه، والعمل بخلافه، بل هو (صلاة اللَّه وسلامه عليه) وما بعثه به من الشرع العظيم في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ أي ما يقول قولا عن هوى وغرض ﴿إن هو إلا وحى يوحى﴾ أي إنما يقول ما أمر به أن يبلغه إلى الناس كاملا موفورا من غير زيادة ولا نقصان[1]. وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [ص: ٢٦]. هذه وصية من اللَّه عزَّ وجلَّ لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل اللَّه[2].

قوله: (أو الوقوع في الفواحش)

ش: قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: أجمع المسلمون على عصمة الأنبياء من الفواحش، والكبائر، والموبقات، وقال العلامة السعد التفنزاني: وفي عصمتهم من سائر الذنوب تفصيل ؛ وهو أنهم معصومون عن الكفر، قبل الوحي وبعده

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣١٥ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٣ .

بالإجماع، وكذا تعمد الكبائر عند الجمهور(١).

عصمة الأنبياء من الصغائر:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإن القول بأن الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام، وجميع الطوائف، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام، كما ذكر «أبو الحسن الآمدي» أن هذا قول أكثر الأشعرية وهو أيضا قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء»، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول(٢).

وقد استدلّ جماهير العلماء على دعواهم بأدلة:

١- معصية آدم بأكله من الشجرة التي نهاه اللّه تعالى عن الأكل منها: قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١١٦- ١٢١]. والآية في غاية الوضوح والدلالة على المراد، فقد صرّحت بعصيان آدم ربه.

٢- ونوح عليه السلام دعا ربه في ابنه الكافر: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥].

فلَامَه ربُه على مقالته هذه، وأَعْلَمَه أن ابنه ليس من أهله، وأن هذا منه عمل غير صالح: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

فاستغفر ربه من ذنبه، وتاب، وأناب: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى

(١) لوامع الأنوار ٢/ ٣٠٥.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٤/ ٣١٩.



بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

والآية صريحة في كون ما وقع منه كان ذنبا يحتاج إلى مغفرة: «وإلا تغفر لي وترحمني»[١].

والخلاصة:

إن اللّه ذكر في قصص أنبيائه، وفي مواضع كثيرة جدا، وقوع الذنب منهم ولكن اللّه عزَّ وجلَّ لا يذكر عن نبي ذنبا إلا أتبعه بذكر توبة النبي منه أو تذكيره، وتنبيهه إلى ذلك كما في قصة آدم مع الشجرة، وطلب نوح نجاة ابنه، وفي مغاضبة يونس، وقتل موسى للقبطي، وقصة داود مع الخصم الذين تسوروا المحراب، وقوله تعالى في قصة ابن أم مكتوم: «عبس وتولى[٢]، أن جاءه الأعمى. . .» ومن أمثال ذلك، مما كان فيه التعليم للنبي الذي وقعت منه المعصية، وضرب المثل لغيره من البشر، حتى يكون القدوة في المسارعة إلى الخيرات، والتباعد عن المعاصي بعد تعليم اللّه له، والمسارعة إلى التوبة من المخالفات والتحصن من أسبابها المؤدية إليها.

وفي السنّة مواضع تدل على ذلك، منها قول النبي ﷺ: «يا أم سليم! أما تعلمين أني اشترطت على ربي، فقلت: إنما أنا بشر، أرضى كما يرضى البشر وأغضب كما يغضب البشر، فأيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل، أن تجعلها له طهوراً، وزكاة، وقربة تقربه بها منك يوم القيامة»[٣].

إن الذين منعوا وقوع الصغائر من الأنبياء أوردوا شبهتين:

الأولى: أن اللّه أمر باتباع الرسل، والتأسي بهم: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. وهذا شأن كل رسول، والأمر باتباع الرسول يستلزم أن يُتبع في أمور تكون ذنوب، ومعاصي وإن كانت صغائر، وهذا تناقض، فلا يمكن أن يأمر اللّه

(١) الرسل والرسالات: للشيخ الدكتور عمر سليمان الأشقر حفظه اللّه ١٠٨ .
(٢) عبس فلان - عبوسا: جمع جلد ما بين عينيه وجلد جبهته وتجهم (المعجم لوجيز ٤٠٤).
(٣) رواه أحمد ومسلم .

عبدا بشيء في حال أنه ينهاه عنه.

وقولهم هذا صحيحا، لو بقيت معصية الرسول خافية غير ظاهرة، بحيث تختلط علينا الطاعة بالمعصية، أما وأن اللّه ينبه رسله وأنبيائه إلى ما وقع منهم من مخالفات، ويوفّقهم إلى التوبة منها، من غير تأخير، فإن ما أوردوه لا يصلح دليلًا، بل يكون التأسي بهم في هذا منصباً على الإسراع في التوبة عند وقوع المعصية وعدم التسويف في هذا.

الثانية: أن هؤلاء توهموا أن الذنوب تنافي الكمال، وأنها تكون نقصاً وإن تاب التائب منها، وهذا غير صحيح، فإن التوبة تغفر الحوبة، ولا يتوجه إلى صاحبها اللّومُ، بل إن العبد في كثير من الأحيان يكون بعد توبته من معصيته خيرا منه قبل وقوع المعصية، وذلك لما يكون في قلبه من الندم، والخوف، والخشية من اللّه. وفي الكتاب الكريم نقرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] فالأنبياء لا يقرون على الذنب، ولا يُؤخرون التوبة، فاللّه عصمهم من ذلك، وهم بعد التوبة أكمل منهم قبلها.

وبذلك انهارت هاتان الشبهتان، ولم يثبتا في مجال الحجاج والنقاش، وحسبنا بالأدلة الواضحة البينة التي تهدي للتي هي أقوم(١).

واعلم إن المنحرفين في مسألة العصمة على طرفي نقيض، كلامها مخالف لكتاب اللّه من بعض الوجوه:

قوم أفرطوا في دعوى امتناع الذنوب، حتى حرَّفوا نصوص القرآن المُخبِرة بما وقع منهم من التوبة من الذنوب، ومغفرة اللّه لهم، ورفع درجاتهم بذلك(٢).

وقوم أفرطوا في أن ذكروا عنهم ما دلَّ القرآن على براءتهم منه، وأضافوا إليهم ذنوباً

---

(١) الرسل والرسالات ١٠٩-١١١ للشيخ د. عمر سليمان الأشقر حفظه اللّه ولمن أراد المزيد فليراجع مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٠/٢٩٣ - ٣١٣، ١٥/ ١٥٠ .
(٢) انظر الفتاوى ٤/ ٣٢٠ .



وعيوباً نزههم اللّه عنها وهؤلاء مخالفون للقرآن وهؤلاء مخالفون للقرآن، ومن اتبّع القرآن على ما هو عليه من غير تحريف كان الأمة الوسط مهتدياً إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين(١).

قوله: (أو الزيادة والنقص في الدين)

ش: كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤- ٤٦]. أي لو تقوّل علينا (محمد ﷺ) - كما يزعمون- مفترياً علينا، فزاد في الرسالة، أو نَقَصَ منها، أو قال شيئا من عنده فنسبه إلينا، وليس كذلك لعاجلناه بالعقوبة، ولهذا قال تعالى: (لأخذنا منه باليمين)، قيل: معناه لانتقمنا منه باليمين لأنها أشد في البطش، وقيل لأخذنا منه بيمينه، (ثم لقطعنا منه الوتين) قال ابن عباس: وهو نياط القلب وهو العِرق الذي القلب معلق فيه(٢).

وقال تعالى عن مشركي العرب: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

---

(١) وأولّ من نقل عنهم من طوائف الأمة القول بالعصمة مطلقاً وأعظمهم قولّا لذلك: الرافضة، فإنهم يقولون بالعصمة حتى ما يقع على سبيل النسيان والسهو والتأويل.
وينقلون ذلك إلى من يعتقدون إمامته، وقالوا بعصمة عليّ رضي الله عنه، والإثنى عشر، ثم «الإسماعيلية» الذين كانوا ملوك القاهرة، وكانوا يزعمون أنهم خلفاء علويون فاطميون، وهم عند أهل العلم من ذرية عبيد اللّه القداح، كانوا هم واتباعهم يقولون بمثل هذه العصمة لأئمتهم ونحوهم، مع كونهم كما قال فيهم أبو حامد الغزالي - في كتابه الذي صنفه في الرد عليهم قال ظاهر مذهبهم الرفض، وباطنه الكفر المحض.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٣٧ .



قوله: «وأنهم مسدَّدون دائما من اللَّه في اجتهادهم، وأن اللَّه لا يقرهم على خطأ، أخطأوه باجتهادهم».

ش: وقد عاتب اللَّه نبيه محمدا ﷺ عندما عبس وجهُه وأعرض عن ابن أم مكتوم قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس: ١- ٣] .

وودّ النبي ﷺ أن لو كف (ابن ام مكتوم) ساعته تلك ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل طمعا في هذا[١].

وقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

فعن سفيان بن عيينة عن مسعر عن عون قال: هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟!. نداء بالعفو قبل المعاتبة، فقال: (عفا اللَّه عنك لم أذنت لهم) وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذنوا رسول اللَّه ﷺ فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ أي: في إبداء الأعذار ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، يقول تعالى هلّا تركتهم لمّا استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم في القعود لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب فإنهم قد كانوا مصّرين على القعود عن الغزو وإن لم تأذن لهم فيه[٢].

***

(١) المصدر السابق ٢/ ٤٧٥ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٦٠٥ .



القضية الثالثة والأربعون: قال المُصنِّف حفظه الله:

«نشهد أن هؤلاءِ الرسلَ بشرٌ مثلنا خُلقوا من طين الأرض وليس منهم من خلق من نور الله، أو نور عرشه كما يقول كفار[1] المسلمين في شأن محمدﷺ، أو من كلمة الله كما يقول كفار النصارى في شأن عيسى، وأنهم يموتون كما يموت البشر، وينسون ويمرضون ويتألمون ويكابدون كما يكابد البشر».

قوله: «نشهد أن هؤلاءِ الرسلَ بشرٌ مثلنا خُلقوا من طين الأرض».

الشرح: قال تعالى ردا على الكفار الذين اعترضوا على الرسل كونهم بشر: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠] أي: كيف نتبعكم بمجرد قولكم، ولما نر منكم معجزة. قال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١] أي: صحيح إنا بشر مثلكم في البشرية، ولكن الله قد منّ علينا بالرسالة والنبوة[2].

وعندما اعترض الكفار على النبي ﷺ واقترحوا بعض الاقتراحات، كان جواب النبي ﷺ واضحاً، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣]. وقال تعالى عن نبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

وأن هذا البشر هو من الإنس الذي خلقه الله من طين كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١]. وقال تعالى عن إبليس: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

---

(١) أي فمن ينتسب للإسلام ويعتقد أنه مسلم.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٦٩٢ .

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام: ٢]. يعني: باهم آدم، الذي هو أصلهم، ومنه خرجوا فانتشروا في المشارق والمغارب[١].

وقال تعالى مخبرا عن ابتداء خلق الإنسان: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]. أي من سلالة من طين، وهو آدم عليه السلام، خلقه اللَّه من صلصال من حمإ مسنون[٢].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٧-٨]. يقول تعالى مخبرا: أنه الذي أحسن خَلْقَ الأشياء وأتقنها وأحكمها، وبدأ خلق أبا البشر آدم من طين، ثم جعلهم يتناسلون كذلك من نطفة من بين صُلْب الرجل وترائب المرأة.

ثم سّواه يعني آدم لمّا خلقه من تراب، خلقاً سوياً مستقيماً[٣].

قوله: «وليس منهم من خُلِقَ من نور اللَّه، أو نور عرشه كما يقول كفار المسلمين في شأن نبينا محمد ﷺ».

ش: ومع الأسف فإن كثيرا من الفرق التي تنسب إلى الإسلام يعتقدون هذه العقيدة «نسأل اللَّه لهم ولنا الهداية»:

أولا: الصوفية:

١- **يقول محي الدين بن عربي:** «بدء الخلق الهباء، وأول موجود فيه الحقيقة المحمدية الرحمانية، الموصوفة بالاستواء على العرش الرحماني، وهو العرش الإلهي».

ويقول: «مثل نوره كمشكاة فيها مصباح»، فشُبه بالمصباح، فلم يكن أقرب إليه قبولا

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١٦٨ .

(٢) المصدر السابق ٣/ ٣٢٣ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٦٠٤ .

من ذلك الهباء إلا حقيقة محمد ﷺ المسماة بالعقل فكان مبتدأ العالم بأسره وأول ظاهرة في الوجود[١].

٢ - ويقول عبدالكريم الجيلاني:

«وأشهد أن سيدنا محمداً ﷺ، المدعو بفرد من بني آدم. وعبده ورسوله المعظم، ونبيه المكرم، ورداؤه المعلم، وطرازه الأفخم وسابقه الأقدم، وصراطه الأقوم، مجلى مرآة الذات، منتهى الأسماء والصفات، مهبط أنوار الجبروت، منزل أسرار الملكوت، مجمع حقائق اللاهوت...»[٢] ويقول كذلك: «لما خلق اللّه سبحانه وتعالى العالم جميعه من نور محمد ﷺ، كان المحل المخلوق منه إسرافيل قلب محمد ﷺ»[٣].

وقال: «خلق اللّه وهم محمد ﷺ من نور اسمه «الكامل» وخلق اللّه عزرائيل من نور وهم محمد ﷺ وقال: «أعلم أن الإنسان الكامل «الحقيقة المحمدية» هو الذي يستحق الأسماء الذاتية والصفات الإلهية استحقاق الأصالة، والمُلك بحكم المقتضى الذاتي»[٤].

٣- ويقول الدّبّاغ: اعلم أن أنوار المكونات كلها من عرش، وفرش، وسماوات، وأرضين، وجنات، وحُجب، وما فوقها، وما تحتها إذا جُمعت كلها، وُجدت بعضا من نور النبي، وأن مجموع نوره لو وُضع على العرش لذاب، ولو وُضع على الحُجب السبعين التي فوق العرش لتهافتت، ولو جُمعت المخلوقات كلها، ووضع ذلك النور العظيم عليها لتهافتت، وتساقطت[٥].

---

(١) الفتوحات المكية ١/ ١٥٢ .

(٢) الفتوحات المكية ١/ ١٥٥ .

(٣) الإنسان الكامل ١٠٢ - ١٠٤ نقلا من كتاب التصوف بين الحق والخلق لمحمد نهر شقفة (الدار السلفية) يقصد بعزرائيل: ملك لموت. ولم يرد حديث صحيح يبين أن ملك الموت اسمه عزرائيل.

(٤) المرجع السابق ص ٣٩٤ .

(٥) الابريز ٢/ ٨٤ للدباغ كتاب رماح حزب الرحيم.

٤ - **يقول التيجاني**[١]: «لما خُلق النورُ المحمدي، جُمِع في هذا النور المحمدي جميعُ أرواح الأنبياء، والأولياء جميعا، جمعا أحدبا، قبل التفصيل، في الوجود العيني، وذلك في مرتبة العقل الأول».

٥- ويقول **الحلواني** في قصيدته «المستجيرة» يخاطب رسول اللَّه ﷺ:

أنشأك نورا ساطعا قبل الورى	**فرداً لفردِ والبرية في العدمِ**
ثم استمدّ جميع مخلوقاته	**من نورك السّامي، فأعظم الكرمِ**
فلذا إليك الخَلق تفزع كلُهم	**في هذه الدنيا، في اليوم الأهمِ**
وإذا دهتهم كريهةٌ فرّجتها	**حتى سوى العقلاء في ذاك النُظمِ**
جُد لي فإن خزائن الرحمن في	**يدك اليمين وأنت أكرم من قسمِ**[٢]

ثانيا: الشيعة:

«**وقال الخُميني**»: «وإن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاما لا يبلغه مَلك مقرب، ولا نبي مرسل، وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث، فإن الرسول الأعظم ﷺ والأئمة عليهم السلام، وكانوا قبل هذا العالم أنوارا فجعلهم اللَّه بعرشه محدقين»[٣].

ولعل بعض القائلين بالحقيقة المحمدية يستدلون بحديث روي عن النبي ﷺ: «أول ما خلق اللَّه نور نبيك يا جابر»[٤].

---

(١) هو عمر بن سعيد بن عثمان الغوني وهو: سنغالي ص ١٤ وهو سنغالي أزهري ولد ١٧٩٧ من بلاد (ديمار) الواقعة في السنغال درس في الأزهر وعاد إلى أفريقيا ليجاهد الوثنيين وينشر الإسلام، توفي سنة ١٨٦٤ م. من تصانيفه: (كتاب رما حزب الرجيم على نحور حزب الرجيم وكتاب (سيوف السعيد) وكتاب (سفينة السعادة) وغيرها (التيجانية لعلي بن محمد الدخيل ص٦٩ - ٧١).

(٢) رسالة لأحمد عبد المنعم الحلواني ص ١٤ نقلا من هذه هي الصوفية لعبد الرحمن الوكيل رحمه الله.

(٣) الحكومة الإسلامية «الخميني» ٥٢ مطابع صوت الخليج - الكويت.

(٤) عزاه العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٣١٠ - ٣١١ برقم ٨٢٧ لعبد الرزاق الصنعاني من حديث جابر بن عبد اللَّه، ولم أجد الحديث في المصنف. وقال الألباني هذا حديث باطل السلسلة الصحيحة ١/ ٨٢٠.



قوله: «أو من كلمة اللَّه كما يقول كفارُ النصارى في شأن عيسى»

ش: كما قالوا على لسان آشعيا: «يَبِس العشب، وذبل الزهر، وأما كلمة إلهنا فتثبت إلى الأبد»(١).

والجواب من أوجه:

أولا: الفرق بين ما يُضاف إلى اللَّه من صفاته، وما يضاف إلى اللَّه من مملوكاته، إن المضاف إلى اللَّه نوعان:

أ - إضافة صفة لا تقوم بنفسها: كالعلم، والقدرة، والكلام، والحياة كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]. وقول النبي ﷺ في حديث الاستخارة: «... ثم ليقل: اللَّهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك»(٢). وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥](٣) فهذا لا يكون إلا إضافة صفة إليه، فتكون قائمة به سبحانه ليست مخلوقة بائنة عنه(٤).

ب - إضافةُ مملوكٍ للَّه مخلوقٍ له بائنٍ عنه، لكنه مُفضّل مُشرَّف لِما خصّه اللَّه به من الصفات التي اقتضت إضافته إلى اللَّه تبارك تعالى، كما خصّ ناقة صالح من بين النوق، وكما خصّ بيته بمكة من بين البيوت، والروح الذي هو «جبريل» من هذا الباب(٥).

قال تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦]. وقوله تعالى: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧]. وإذا قيل «المسيح كلمة اللَّه» فمعناه أنه مخلوق بالكلمة، وأما المسيح نفسه ليس كلاما(٦)، كما قال تعالى عن

(١) الإصحاح التاسع والثلاثين - أشعيا النبي - انظر العهد القيم ص ١٠٣٩ .
(٢) رواه أحمد و البخاري والترمذي وأبو داود.
(٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٢/١٥١- ١٦٥ .
(٤) مجموع الفتاوى ١٧/١٥٢ .
(٥) الجواب الصحيح ٢/١٥٦ .
(٦) الحواب الصحيح ٢/١٥٦ .

آدم عليه السلام: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فالذي خَلَق آدمَ من غير أب ولا أم، قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأحرى، وإن جاز إدعاء البنوة في عيسى لكونه مخلوقا من غير أب، فجواز ذلك في آدم بطريق الأولى؛ ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواها في عيسى أشد بطلانا وأظهر فساداً، ولكن الربّ جلّ جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم، لا من ذكر ولا من أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وكما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى(١).

ثانيا: أن المسيح عليه السلام خُلق من أصلين قال تعالى عن مريم: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٧-١٩]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

والمقصود هنا أن المسيح خُلق من أصلين:

أ - نفخ جبريل.

ب - وأمه مريم، وهذا النفخ ليس هو النفخ الذي يكون بعد مضي أربعة أشهر والجنين مضغة؛ فإن ذلك نفخ في بدن قد خُلق، وجبريل حين نفخ لم يكن المسيح خُلق بعد، ولا كانت مريم حملت، وإنما حملت به بعد النفخ، بدليل قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾، ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم: ٢٢]، ولهذا قيل في المسيح (روح منه) باعتبار هذا النفخ

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٨٩ .



والمقصود أن كل ما يستعمل فيه لفظ التولد من الأعيان القائمة، فلا بد من أن يكون من أصلين[١].

ثالثا: لماذا خُصّ المسيح عليه السلام بتسميته كلمةَ اللّه؟

لأن سائر البشر خلقوا على الوجه المعتاد من ذرية آدم نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم ينفخ فيه الروح، وخُلقوا من ماء الأبوين: الأب، والأم.

وآدم عليه السلام خُلق من تراب وماء، فصار طينا ثم أُيبس الطين، وبقي مدة طويلة، ويقال أربعين سنة، ثم قال له اللّه تعالى: «كُن» فكان، فلم يمر بالأطوار التي تمر بها ذريته.

وأما المسيح عليه السلام فخُلِقَ جسدُه خلقاً إبداعيا بنفس نفخ روح القدس في أمه، قيل له: كن فكان، فكان له من الاختصاص بكونه خُلق بكلمة اللّه ما لم يكن لغيره من البشر، فلما كان لغير المسيح ما يختص به أُبقي اسمُ الكلمة العامة مختصا بالمسيح[٢] فلو كان المسيح نفسَ كلمة اللّه، فكلمة اللّه ليس هي الإله الخالق للسماوات والأرض، ولا هي تغفر الذنوب، وتُجزي الناس بأعمالهم[٣].

فعقيدة أهل السنة والجماعة (أتباع السَّلف الصالح) كما بيّنها القرآن سابقاً، وكما جاء في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: «من شهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبده ورسوله، وابن أمته، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، وأن الجنة حق والنار حق، وأن البعث حق، أدخله اللّه الجنة - على ما كان من عمل - من أي أبواب الجنة الثمانية شاء»[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٧/ ٣٦٣ .
(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٣/٣١٦ - ٣١٨ (باختصار).
(٣) المصدر السابق ٣١٥ .
(٤) متفق عليه.

قوله: (وأنهم يموتون كما يموت البشر)

ش: فالذي لا يموت هو اللّه سبحانه كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. وقال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون﴾ [الأنبياء: ٣٤].

يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: يا محمد ﴿ٱلْخُلْدَ﴾ أي في الدنيا وقوله: ﴿أفإن مت فهم الخالدون﴾ استفهام، بل سيموتون(١). وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦- ٢٧]. وقال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]. قال تعالى عن يحيى عليه السلام: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣] وعن يعقوب عليه السلام: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ [البقرة: ١٣٣]. وعن سليمان عليه السلام: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ١٤].

بل بعض الأنبياء والرسل قتلوا كما قال تعالى حاكيا عن بني إسرائيل: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٧٨].

كما قتلوا يحيى، وزكريا، وحاولوا قتل عيسى عليه السلام، لولا أن رفعه اللّه تعالى، وحاولوا قتل نبينا محمد بالسم، والسحر، وقد قال عليه الصلاة والسلام في مرض موته: «ما زالت أَكْلَةُ خيبر تعاودني، فهذا أوان انقطاع أبهري»(٢).

وقال تعالى عن موته ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. وحدث هذا في غزوة أُحد عندما نادى الشيطان: «ألا إن

---

(١) أضواء البيان ٤/٥٦٨ .

(٢) رواه البخاري.



محمدا قد قُتل»، فحصل ضعف ووهن وتأخر عن القتال فأنزل اللّه هذه الآية وفيها أن محمدا له أسوة بالأنبياء قبله في الرسالة وفي جواز القتل عليه)(١).

قوله: «وينسون ويمرضون ويتألمون ويكابدون كما يكابد البشر»

ش: النسيان، أي جواز أن يعرض عليهم النسيان وهناك أمثلة منها:

١- آدم عليه السلام:

قال تعالى عن آدم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، أي: ولقد وصّينا آدم، وأمرناه، وعهدنا إليه عهدا ليقوم به، فالتزمه، وأذعن له، وانقاد وعزم على القيام به ومع ذلك، نَسِيَ ما أُمر به، وانتفضت عزيمته المحكمة، فجرى عليه ما جرى، فصار عبرة لذريته: وصارت طبائعهم مثل طبيعة آدم، نسي فنسيت ذريته، وخطئ فخطئوا، ولم يثبت على العزم المؤكد، وهم كذلك، وبادر بالتوبة من خطيئته، وأقرّ بها واعترف، فغُفرت له، ومن يشابه أباه فما ظلم (٢) وقال ابن عباس: «إنما سمي الإنسان إنساناً لأنه عُهِد إليه فنسي»(٣).

٢ - موسى عليه السلام:

وما قصّه اللّه علينا في سورة الكهف مما دار بين موسى والخضر عليهما السلام، قال تعالى عن موسى: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾ [الكهف: ٧٣]. أي لا تُضيّق عليّ ولا تشدّ عليّ، ولهذا جاء في الحديث عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «كانت الأولى من موسى نسيانا»(٤).

٣- يوشع بن نون عليه السلام (فتى موسى):

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ [الكهف: ٦١] . أي المكان الذي

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٤٣ (بتصرف).
(٢) تيسير الكريم المنان ٥/ ١٩٤ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٢٦ .
(٤) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٣٢ .

نسيا الحوت فيه، ونسب النسيان إليهما، وإن كان (يوشع) هو الذي نسيه [(١)] وكذا قوله تعالى عنه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٣].

٤- رسولنا محمد ﷺ:

وقد نسي الرسول ﷺ - في غير البلاغ، وفي غير أمور التشريع - كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ إحدى صلاتي العشي [(٢)] فصلى ركعتين، ثم سلّم، فقام إلى خشبة معروضة في المسجد، فاتكأ عليها، كأنه غضبان، ووضع يده اليمنى على اليسرى، وشبّك بين أصابعه ووضع خده الأيمن على ظهر كفه اليسرى، وخرجت السرعان من أبواب المسجد» فقالوا: «قصرت الصلاة»، وفي القوم أبو بكر وعمر فهابا أن يكلماه، وفي القوم رجل يقال له «ذو اليدين»، فقال: «يا رسول الله ! نسيتَ أم قصُرت الصلاة؟» فقال: «م أنسَ، ولم تقصُر»، فقال: «أكما يقول ذو اليدين»؟ فقالوا: «نعم»، فتقدم فصلى ما ترك، ثم سلّم ثم كبّر، وسجد مثل سجوده أو أطول، ثم رفع رأسه وكبّر، وسجد مثل سجوده أو أطول، ثم رفع رأسه وكبّر فربما سألوه (أبي هريرة) ثم سلّم؟

فيقول: أنبئت أن عمران بن حصين قال: ثم سلّم [(٣)].

المرض والتألم والمكابدة

وكذلك كما يعرض عليهم النسيان فإنه يعرض عليهم المرض والألم:

١- إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام:

قال تعالى عنه: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

وأسند المرض إلى نفسه، وإن كان من قدر الله وقضائه وخلقه، ولكن إضافة إلى

---

(١) المصدر السابق ١٢٦ .

(٢) المقصود صلاة الظهر.

(٣) متفق عليه.



نفسه أدبا أي إذا وقعت في مرض، فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره [(١)].

٢- أيوب عليه السلام:

قال تعالى عنه: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]. يذكر تبارك وتعالى عبده ورسوله أيوب عليه الصلاة والسلام، وما كان ابتلاه تعالى به من الضر في جسده، وماله، وولده حتى لم يبق في جسده مغرز إبرة سليما سوى قلبه، ولم يبق له في الدنيا شيء يستعين به على مرضه، وما هو فيه، غير أن زوجته حفظت ودَّه لإيمانها باللَّه تعالى ورسوله، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه، وتخدمه نحواً من ثماني عشرة سنة، وقد كان قبل ذلك في مال جزيل، وأولاد، وسعة طائلة في الدنيا، فسُلِب جميع ذلك، حتى آل به الحال إلى أن أُلقي على مزبلة من مزابل البلدة، هذه المدة بكمالها، ورفضه القريب والبعيد، سوى زوجته رضي الله عنها، فلما طال المطال، واشتد الحال وانتهى القدر، وتم الأجل المقدر، تضرّع إلى رب العالمين، وإله المرسلين، فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين، وأمره أن يقوم من مقامه وأن يركض[(٢)] الأرض برجله، فأنبع اللَّه تعالى عينا، وأمره أن يغتسل منها، فأذهب ما كان في بدنه من الأذى، ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر، فأنبع له عيناً أخرى، وأمره أن يشرب منها، فأذهب جميع ما كان في باطنه من السوء، وتكاملت العافية ظاهرا، وباطناً ولهذا قال تعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ [سورة: ٤٢][(٣)].

٣ - محمد ﷺ:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي يقول في مرضه الذي مات فيه: «يا عائشة ! ما

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٥١ .
(٢) يركض: أصل الركض: الضرب بالرجل (النهاية لابن الأثير ٢/ ٢٥٩) والمفردات (٢٠٢) للراغب.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٢ (باختصار).

أزال أجد أَلَمَ الطعام الذي أكلتُ بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري [(١)] من ذلك السُمِّ»[(٢)] حتى أنه من شدة الوجع كان يقول: «هريقوا عليّ من سبع قِرَب لم تُحلل أوكيتهن»[(٣)].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «دخلتُ على النبي ﷺ وهو يوعك، فمسسته» فقلت: «إنك لتوعك وعكا شديدا»، فقال: «أجل، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم»[(٤)].

وفي غزوة أحد رماه (عتبة بن أبي وقاص) بالحجارة فوقع لشقة، وأُصيبت رباعيته اليمنى السُفلى، وكُلِمت شفتُه السُفلى، وتقدم إليه (عبد اللَّه بن شهاب الزهري) فشجّه في جبهته، وضُرب على وجنته ﷺ ضربة عنيفة حتى دخلت حلقتان من حِلق المغفر في وجنته، وكُسِرَت رباعيته، وشُجّ رأسه،

فجعل الدم يسيل)[(٥)].

ومن حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحد؟ قال: «لقد لقيتُ من قومكِ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على (ابن عبد ياليل بن عبد كلال)، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي»[(٦)].

❋ ❋ ❋

---

(١) الأبهر: عرق مستبطن بالظهر، متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه (فتح الباري ٨/ ١٣١).

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

(٤) متفق عليه.

(٥) الرحيق المختوم للشيخ صفي الدين المباركفوري.

(٦) متفق عليه.



القضية الرابعة والأربعون: قال المُصَنِّف حفظه اللّه:

«نؤمن أن الرسل ما شرّفهم اللّه إلا لتحقيقهم العبودية للّه في أنفسهم، فهم أكمل المؤمنين إيماناً، وأعظَمَهم للّه خشية، وأعلمهم به، وأنه ليس منهم من أحد دعا الناس إلى تعظيمه، وعبادته بل دعوا جميعا الناس إلى عبادة اللّه وحده».

الشرح: ولا شك أن الرسل قد شرفهم اللّه بالكمال في النسب، والحرية ورجحان العقل، وقوة حجة وبيان، فوق هذا كله النبوة والرسالة، وهناك نوع آخر من الكمال وفَّق اللّه رسله وأنبياءه لتحصيله، وهو تحقيق العبودية للّه في أنفسهم، فكلما كان الإنسان أكثر تحقيقاً للعبودية للّه تعالى، كلما كان أكثر رقيا في سُلّم الكمال الإنساني، وكلما ابتعد عن تحقيق العبودية للّه، كلما هبط وانحدر؛ والرسل (صلوات اللّه وسلامه عليهم) حازوا السبقَ في هذا الميدان، فقد كانت حياتهم انطلاقة جادة في تحقيق هذه العبودية، وهذا خاتم الرسل وسيد المرسلين يثني عليه ربه في أشرف المقامات بالعبودية، يصفه بها في مقام الوحي: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].

وفي مقام إنزال الكتاب: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وفي مقام الدعوة: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

وفي مقام الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١][1] وقال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ٢].

قوله: «فهم أكمَلُ المؤمنين إيمانا وأعظمُهم للّه خشية وأعلمُهم به»

ش: ولا شك أن العبد كلما ازداد علما، ازداد إيماناً، وكلما زاد إيمانا ازداد خشية،

---

(١) الرسل والرسالات ٨٤ للشيخ عمر سليمان الأشقر حفظه اللّه.



ولهذا قيل: «من كان باللَّه أَعْرَف كان للَّه أخوف» قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

والأنبياء هم أعلم العلماء باللَّه تعالى وما ينبغي له، ولهذا عندما سألت عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ عن تغير وجهه إذا رأى ريحا، أو غيما؟ قال ﷺ: «يا عائشة! ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عُذِّب قومٌ بالريح، وقد رأى قومٌ العذابَ، فقالوا: (هذا عارض مُمطرنا)[1] وعندما أخبر عن الرهط الذين جاءوا إلى بيوت إحدى زوجات النبي ﷺ فلما أخبرتهم، كأنهم تقالوها (أي عَدّوها قليلة) فلما سمع بهم النبي ﷺ قال: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه؟! فواللَّه إني لأعلمهم باللَّه، وأشدهم له خشية[2]

قوله: «وإنه ليس منهم من دعا الناس إلى تعظيمه وعبادته»

ش: قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩- ٨٠].

أي: ما ينبغي لبشر آتاه اللَّه الكتاب والحكمة والنبوة، أن يقول للناس اعبدوني من دون اللَّه، أي مع اللَّه، فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأَوْلى والأَحْرَى.

فالرُسل صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين، هم السفراء بين اللَّه وبين خلقه في أداء ما حمّلوه من الرسالة، وإبلاغ الأمانة، فقاموا بذلك أتم القيام، ونصحوا الخلق، وبلغوهم الحق ولا يأمروهم بعبادة أحد غير اللَّه، لا نبي مُرسل ولا مَلَك مقرب، ومن دعا إلى عبادة غير اللَّه فقد دعا إلى الكفر[3].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٠١ .

فالملائكة وهي أعظم خَلْقاً من الرسل البشر لم تدعُ إلى هذا، مع كمال عبادتهم، فالرسل وهم من البشر من باب أَوْلى.

قال تعالى عن الملائكة: ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]. قال ابن كثير في تفسير الآية السابقة: أي من ادّعى منهم أنه إله من دون اللَّه أي مع اللَّه ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي كل من قال ذلك، وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه، كقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]. وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وقوله تعالى لعيسى بن مريم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦- ١١٧].

قال العلامة ابن سعدي رحمه الله: وهذا توبيخ للنصارى الذين قالوا: إن اللَّه ثالث ثلاثة، فيقول اللَّه هذا الكلام لعيسى فيتبرأ منه عيسى ويقول: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ عن هذا الكلام القبيح، وعمّا لا يليق، بك ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ أي: ما ينبغي لي، ولا يليق أن أقول شيئا ليس من أوصافي ولا من حقوقي، فإنه ليس أحد من المخلوقين، ولا الملائكة المقربون، ولا الأنبياء المرسلون، ولا غيرهم له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية.

وإنما الجميع عباد مُدبّرون، وخلق مُسخّرون، وفقراء عاجزون ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ فأنت أعلم بما صَدَرَ مني.

﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام، في خطابه لربه فلم يقل عليه السلام: «لم أقل شيئا من ذلك» وإنما أخبر بكلام ينفي عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافي منصبَه الشريف، وأن هذا من الأمور المحالة، ونزّه



ربه عن ذلك أتم تنزيه، وردَّ العِلْمَ إلى عالم الغيب والشهادة، ثم صرّح بذكر ما أَمَرَ به بني إسرائيل، فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ فأنا عبد متبع لأمرك، لا متجرئ على عظمتك: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ أي: ما أمرتهم إلا بعبادة اللَّه وحده، وإخلاص الدين له، المتضمن للنهي، عن اتخاذي وأمي إلهين من دون اللَّه، وبيان أني عبد مربوب، فكما أنه ربكم فهو ربي[1].

بل نجد أن النبي ﷺ ما وجد بابا يؤدي إلى تعظيمه فوق مقامه إلا سدّه[2] وأن التوحيد يجب أن يحمى من كل وجه حتى في الألفاظ.

كما جاء في حديث عبد اللَّه بن الشِّخير رضي الله عنه قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول اللَّه ﷺ فقلنا: «أنت سيدنا»، فقال: «السيد اللَّه، تبارك وتعالى»، قلنا: «وأفضلنا فضلا، وأعظمنا طولا»، فقال: «قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان»[3].

قوله ﷺ: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم» الأمر للإرشاد، ووجه ذلك: أنه لا يجب عليهم أن يقولوا بهذا القول، فلو قالوا: يا رسول اللَّه ! وما أشبه ذلك جاز، إلا أن يقال: إن هذا الأمر يتضمن النهي عن الزيادة فيكون بمعنى لا تقولوا أكثر من ذلك، فإذا حُوِّل إلى هذا المعنى صار الأمر للوجوب.

وقوله ﷺ: «قولوا بقولكم» أي قولهم: أنت سيدنا أو أنت أفضلنا، وما أشبه ذلك وقوله ﷺ: «ولا يستجرينكم الشيطان».

استجراه: بمعنى جذبه وجعله يجري معه، أي لا يستميلنّكم الشيطان ويجذبنكم إلى أن تقولوا قولا منكرا فأرشدهم ﷺ إلى ما ينبغي أن يُفعل، ونهاهم عن الأمر الذي لا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٢/٣٦٦ - ٣٦٨ الطبعة الأولى ١٩٨٨ مكتبة الهدى الإسلامية ومكتبة الخلفان والكتاب الإسلامي.

(٢) راجع فقرة ٢٩ باب سد الذرائع.

(٣) رواه أبو داود وأحمد وصححه الألباني (صحيح الجامع ٣٧٠٠).

ينبغي أن يفعل(١) وقوله من حديث أنس رضي الله عنه :

«. . . يا أيها الناس ! قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد، عبد اللّه ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني اللّه عزَّ وجلَّ»(٢).

قوله: «بل دعوا جميعاً الناس إلى عبادة اللّه وحده».

ش: قال تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]. وقال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣]. وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقال تعالى في إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨].

وقال تعالى عن يعقوب: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وقال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى

(١) القول المفيد للعلامة محمد بن عثيمين رحمه الله ٣/ ٢٧٨ .
(٢) رواه أحمد والنسائي في عمل اليوم والليلة وابن حبان وصحح إسناده ابن عبد الهادي في الصارم المنكي ٢٤٦ .

ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٠].

وقال تعالى عن خاتم رسله محمد: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

* * *

القضية الخامسة والأربعون: قال المُصَنِّف حفظه اللّه:

«نشهد أن الرسل لا يعلمون الغيب إلا ما أطلعهم اللّه عليه ونشروه في الناس وأنهم لم يكتموا شيئاً مما أوحاه اللّه إليهم».

قوله: «ونشهد أن الرسل لا يعلمون الغيب إلا ما اطلعهم اللّه عليه ونشروه في الناس»

الشرح: الغيب: وهو ما غاب عن الإنسان وهو نوعان:

١- **غيب واقع**: وهو غيب نسبي فيكون لشخص معلوماً ولآخر مجهولاً.

٢- **غيب مستقبلي**[(١)]: وهو حقيقي، فهذا الغيب لا يكون معلوماً لأحد إلا اللّه وحده، أو من أطلعه عليه من الرسل. فمن ادعى عِلْمَه فهو كافر، لأنه مكذّب للّه عزّ وجلّ ولرسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

كما قال تعالى عن رسوله محمد ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

أي: ولا أقول لكم إني أعلم الغيب، إنما ذاك من علم اللّه عزَّ وجلَّ، ولا أطلع منه إلا على ما اطلعني عليه[(٢)]. وقال تعالى: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وعن عبد اللّه بن عمر رضي الله عنهما أن رسول اللّه ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا اللّه» ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا

---

(١) وهو المقصود في هذا البحث، انظر شرح الأصول الثلاثة لابن عثيمين ١٥٣ - ١٥٤ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٨١ .

تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ [لقمان: ٣٢][1].

وقال تعالى عن نبيه محمد ﷺ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧- ١٨٨]. فأَمَرَه اللّه تعالى أن يفوض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه اللّه عليه[2].

وقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ [هود: ٣١]. وقال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

بل نجد أن طائراً صغيراً كالهدهد علم شيئا لم يعلمه رسول اللّه سليمان، قال تعالى عن الهدهد: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢].

وهناك وقائع كثيرة تبين أن الرسل لا يعلمون الغيب، فمن ذلك دعاء نوح اللّه أن ينجي ابنه، وهذا إبراهيم عليه السلام لم يعلم أن الضيوف ما هم إلا ملائكة، ولم يعلم أنهم ذاهبون إلى قرى قوم لوط، ونبي اللّه لوط عليه السلام لم يعلم أن هؤلاء الشبان الحسان ما هم إلا ملائكة، وزكريا عليه السلام ما كان يعلم عن الرزق الذي يؤتى لمريم بنت عمران، وكذلك قصة موسى مع الخضر عليهما السلام تبين أن هناك غيب لا يعرفه ولا يعلمه إلا اللّه، ومن أراد اللّه إطلاعه عليه سبحانه. وداود عليه السلام وعدم معرفته بتفاصيل قصة الخصماين، وموسى وعدم علمه بقومه حين عبدوا العجل لولا إعلامُ اللّه له، ونبينا محمد ﷺ، هناك وقائع كثيرة تبين أنه لا يعلم الغيب منها أكله من الشاة المسمومة، وإرساله لسبعين من أصحابه من القراء لبعض القبائل ليعلموهم

---

(١) رواه البخاري.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/٣٦٣ .



الإسلام، فقتلوهم جميعا، وكذلك عدم علمه لنجاسة نعليه حتى أعلمه جبريل عليه السلام.

وأما إخبارُهم عن المغيبات التي ستقع في المستقبل فكثيرة جداً، ويشهد لها باب الفتن والملاحم، والله سبحانه وتعالى قد يُطلع بعض رسله على شيء من الغيب لحكمة يراها سبحانه تعالى. قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦- ٢٧].

وهكذا قال ههنا إنه يعلم الغيب والشهادة وأنه لا يطّلع أحد من خلقه على شيء من علمه إلا مما اطّلعه تعالى عليه، ولهذا قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ وهذا يَعُمُّ الرسولَ المَلَكي والبشري[1].

قال تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

أي: أخبركم بما أكل أحدُكم الآن، وما هو مدّخرٌ له في بيته لغد، وفي ذلك كله آية لكم على صدقي فيما جئتكم به[2].

قوله: «وأنهم لم يكتموا شيئا مما أوحاه إليهم»

ش: ومن خصائص دعوة الرسل:

١- البلاغ المبين:

قال تعالى عن نبينا محمد ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]. وعن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦١- ٦٢]. وعن هود عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٧- ٦٨]. وعن صالح عليه السلام حين عقروا الناقة: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/٥٥٧ .
(٢) المصدر السابق ١/٤٨٦ .

لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وعن شعيب عليه السلام بعد أن أخذت قومه الرجفة: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

٢- عدم الكتمان:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢]. يقول تعالى ناهيا اليهودَ عما كانوا يتعمدونه من تلبيس الحق بالباطل وتمويهه به، وكتمانهم الحقَ، وإخبارهم الباطلَ فنهاهم عن الشيئين معا، وأَمَرَهم بإظهار الحقَ والتصريح به، وأنتم تعلمون ما في ذلك من الضرر العظيم على الناس من إضلالهم عن الهدى المفضي بهم إلى النار(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم (أي مسلك أهل الكتاب) فيصيبهم ما أصابهم، ويسلك بهم مسالكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع الدال على العمل الصالح ولا يكتموا منه شيئا(٢). وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤]، وهذه الآية كذلك نزلت في أهل الكتاب من اليهود.

ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما قال العلماء. ولهذا قال ابنُ كثير رحمه الله في هذه الآية تحذير للعلماء، فإذا كان هذا الوعيد والتحذير للعلماء إن كتموا شيئا، فلا شك أن الأنبياء والرسل صلوات اللّه وسلامه عليهم من باب أَوْلى، وحاشاهم أن يكتموا شيئا(٣).

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٢٤ .

(٢) المصدر السابق ٥٧٩ .

(٣) انظر لمزيد من الشرح ص ٤٣٥ .

القضية السادسة والأربعون: قال المُصَنِّف حفظه اللّه:

«نشهد ونؤمن أن محمدا ﷺ هو خاتم الرسل[١]، وسيدُهم، وأفضلُهم عند اللّه، وأعلاهم منزلة، بلّغ البلاغ المبين، ولم يكتم شيئا مما أوحاه إليه رب العالمين».

قوله: «نشهد ونؤمن أن محمدا ﷺ هو خاتم الرسل».

ش: الختم لغة لها عدة معان:

١- الطبع: ختمة، يختمه، ختما، وختاماً: طبعة[٢].

٢- تغطية الشيء، والاستيثاق منه، بحيث لا يدخله شيء، ولا يخرج منه شيء: والختم على القلب، ألا يفهم شيئا، ولا يخرج منه شيء كأنه طبع[٣].

٣- آخر الشيء، ونهايته، قال الجوهري: (ختمت الشيء ختما فهو مختوم وختمت القرآن: بلغتُ آخره، واختتمتُ الشيء: نقيض افتتحته، وخاتمة الشيء: آخره، ومحمد ﷺ خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام[٤].

النبوة في اللغة:

١- مشتقة من (النبأ) فتكون بمعنى: الإخبار[٥].

٢- مشتقة من (النّباوة أو النّبوة) فتكون بمعنى: الرفعة والعلو[٦].

٣- مشتقة من (النبي) بمعنى: الطريق، أي الطريق إلى اللّه عزَّ وجلَّ[٧].

---

(١) تم تفصيل هذه القضية في الفقرة ٤١ ولكن سأحاول طرح هذه القضية وشرحها بمواضيع مختلفة.
(٢) كتاب المحكم ٥/ ٢٦، لسان العرب ١٢/ ١٦٣، القاموس ٢/ ١٥، تاج العرس ٨/ ٢٦٦ .
(٣) كتاب المحكم ٥/ ٢٦، لسان العرب ١٢/ ١٦٣، تاج العروس ٨/ ٢٦٦، القاموس المحيط ٢/ ١ .
(٤) الصحاح ٥/ ١٩٠٨ ومثله في المحكم ٥/ ٢٦، المفردات للراغب ١٤١- ١٤٣، أساس البلاغة ١٥٣ .
(٥) الجوهري ١/ ١٦١- ١٦٣ .
(٦) المصدر السابق ١/ ١٦٤ . انظر معجم مقايس اللغة لابن فارس ٥/ ٣٨٤ - ٣٨٥ .
(٧) لوامع الأنوار البهية ١/ ٤٩ وانظر شرح الطحاوية ٨٩ .

النبوة في الشرع:

فالنبي: «هو إنسان أُوحى إليه، وتابع شرع من قبله.

أما الرسول فهو إنسان أُوحي إليه وجاء بشرع جديد، على المشهور.

فَبين النبيِ والرسولِ عمومٌ وخصوص مطلق، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا»(١).

ختم النبوّة لغة وشرعاً: إنتهاء إنباء اللّه للناس، وانقطاع وحي السماء.

أولا: الأدلة من القرآن:

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ثانيا: الأدلة من السنة:

ما جاء في حديث الشفاعة الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه عندما يأتون أهل المحشر للاستشفاع به عند اللّه فيقولون: «. . . أنت رسول اللّه وخاتم الأنبياء، وقد غفر اللّه ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك»(٢).

المتنبئون في صدر الإسلام:

ومع هذه الأدلة من الكتاب والسنة على أن محمدا ﷺ خاتم النبيين إلا أنه ظهر كثير من أدعياء النبوة من الدجاجلة والكذابين، ففي الصدر الأول ظهر:

١- **الأسود العنْسي:** اسمه عبهلة بن كعب بن غوث، وقيل (ابن عون) وهو من بلدة

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٩٣، مجمع البيان في تفسير القبرآن ٢٢/ ١٤٨، زاد المسير ٦/ ٣٩٣، الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ١٩٦ الدور المنثور ٥/ ٢٠٤، جامع البيان ٢٢/ ١٦، معالم التنزيل ٦/ ٥٦٥، الكشاف ٣/ ٢٣٩ .

(٢) متفق عليه.



يقال لها (كهف حنان)[١] ادعى النبوة في آخر حياة النبي ﷺ وكانت ردته أول ردة في الإسلام على عهد رسول اللَّه ﷺ، واشتد مُلكه واستغلظ أمره، فأمر الرسولُ ﷺ بقتله، فتم قتله بمساعدة زوجته التي كانت مؤمنة وتزوجها قسرا بعد قتل زوجها، وكانت أكثر من محاولة تفشل لقتله بسبب شيطانه إلى أن تُمكِن منه[٢] وكانت فترة مُلكه ثلاثةَ أشهر وقيل أربعة.

٢- **طليحة بن خويلد**: هو طليحة بن خويلد الأسدي من أسد خزيمة كان من أشجع العرب، يُعد بألف فارس،قَدِم على النبي ﷺ في وفد بني أسد سنة ٩ هـ وأسلموا، ورجعوا إلى بلادهم، ثم زعم أنه يوحى إليه، فوجّه إليه النبي ﷺ (ضرار بن الأزور) وأمرهم بالخروج عليه، فضربه أحدهم بالسيف فلم يصنع فيه شيئا، فظهر بين الناس أن السلاح لا يعمل فيه، فكثر جمعه، خاصة بعد وفاة النبي ﷺ، وقام الصدِّيق رضي الله عنه بإرسال (خالد بن الوليد) رضي الله عنه لقتاله، فَفَرّ إلى الشام مع زوجته، وقيل: بل بقي في قبيلة (كلب) إلى أن مات الصدِّيق ثم أسلم، وحسُن إسلامه، ولحق بجيش المسلمين وأبلى في الجهاد في سبيل اللَّه بلاءً حسناً واستشهد بنهاوند[٣].

٣- **مسيلمة الكذّاب**: وهو مسيلمة بن ثمامة بن كُبيد الحنفي الوائلي ولد باليمامة في قرية قرب العيينة بوادي حنيفة[٤] وهو أحد الأشخاص الذين وفدوا إلى رسول اللَّه ﷺ في العام التاسع الهجري مع جماعة بني حنيفة وكان يقول: «إن جَعَل لي محمد الأمر من بعده تبعته»، فأقبل إليه النبي ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس وفي يد النبي ﷺ قطعة جريدة، حتى وقف على مسيلمة وأصحابه، وقال: «لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن أتعدى أمر اللَّه فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك اللَّه، وإني لأراك الذي

---

(١) البداية والنهاية ٦/ ٣٠٧.

(٢) انظر البداية والنهاية ٦/٣٠٧ - ٣٠٩ والكامل ٢/ ٣٣٦ - ٣٣٨ وتاريخ الطبري٣/ ١٨٥- ٢٣١- ٢٤٠ (باختصار) .

(٣) انظر البداية والنهاية ٦/٣١٨ وتاريخ الطبري ٣/ ٢٦١ معجم البلدان ١/ ٤٨ والكامل ٣/ ٣٤١- ٣٤٨ .

(٤) البداية ٥/ ٥٠ .



رأيت، وهذا أي: (ثابت) يجيبك عني، ثم انصرف»[١] ثم ارتدّ بعد عودة الوفد إلى اليمامة، ولما قدم الوفدُ إلى الصدّيق، قال لهم: «أسمعونا شيئا من قرآن مسيلمة»، قالوا: كان يقول: «يا ضفدع بنت الضفدعين، نقي لكم تنقين لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين، رأسك في الماء وذنبك في الطين».

فأرسل إليه الصدّيقُ كتائبَ الإيمان بقيادة «خالد بن الوليد» رضي الله عنه و «عكرمة بن أبي جهل» و «شرحبيل بن حسنة»، فاستقبلهم مسيلمة بجيش قوامه أربعون أربعين ألف مقاتل، وهزم اللّهُ جيشَ مسيلمة، وقتل اللّهُ مسيلمةَ الكذاب بيد «وحشي بن حرب» قاتل حمزة رضي الله عنه سنة ١١ هـ.

ومن مخازيه أن أحد أتباعه قال له: «أمرر يدك على أولاد بني حنيفة مثل محمد» ففعل وأمرّ يده على رؤوسهم وحنّكهم فقرع كل صبي مسح رأسه، ولثغ كل صبي حنّكه. (وإنما استبان ذلك بعد مهلكه) وأسقط عنهم صلاتي: الصبح والمغرب[٢].

٤- **سُجاح**: هي بنت الحارث بن سويد بن عقفان التغلبية، وكانت من نصارى العرب، وقد ادّعت النبوة بعد موت رسول اللّه ﷺ وحدوث الردة في القبائل فالتف حولها أناس كثير من العرب حتى وصلت إلى اليمامة عند مسيلمة الكذاب فخافها وطلب الاجتماع بها فاستجابت لذلك، ثم رجعت إلى بلادها وأقامت في «قومها بني تغلب» إلى زمن معاوية فأجلاهم عنها عام الجماعة.

ويُذكر أنها أسلمت وحسن إسلامها وأنها انتقلت إلى البصرة وماتت بها وأنه قد صَلّى عليها (سمرة بن جندب) رضي الله عنه عامل معاوية إذ ذاك على البصرة وقيل غير ذلك[٣].

---

(١) متفق عليه.
(٢) أنظر البداية والنهاية ٦/ ٣٢١- ٣٢٧ .
(٣) البداية والنهاية ٦/٣١٩- ٣٢١ .



المتنبئون في العصرين الأموي والعباسي:

١- **المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي**: تظاهر المختارُ أولا بالتشيّع فالتف حوله جماعات كثيرة من الشيعة، ولما وقف محمد بن الحنفية على حقيقة أمره تبرأ منه، ثم ادّعى أن جبريل عليه السلام ينزل عليه، قتل في المعركة التي دارت بينه وبين مصعب بن الزبير عام ٦٧ هـ[(١)].

٢- **الحارث بن سعيد**، وكان مولى لأبي الجلاس، نزل دمشق (وتعبّد بها وتنسّك، وتزهّد ثم مُكر به، ورجع القهقرى على عقبيه، وانسلخ من آيات اللّه تعالى، وفارق حزبَ اللّهِ المفلحين، واتبع الشيطان فكان من الغاوين)، فلما وصل

أمره إلى الخليفة عبد الملك بن مروان، اختفى ببيت المقدس حتى تم إلقاء القبض عليه، فأمر عبد الملك (بخشبة فنصبت، فصلبه وأُمر به فطعن بحربة فقتله، وقد كان عبد الملك حبسه قبل صلبه، وأمر رجالا من أهل الفقه والعلم أن يعظوه ويُعلّموه: أن هذا من الشيطان، فأبى أن يقبل منهم، فصلبه بعد ذلك عام ٧٩ هـ.

ومن مخاريقه أنه كان يأتي إلى الرخامة في المسجد فينقرها بيده فتُسبّح تسبيحا بليغاً حتى يضجّ الحاضرون)[(٢)].

٣- **بيان بن سمعان النهدي**: وهو من بني تميم، ظهر بالعراق بعد المائة ادّعى النبوة، فزعم أنه يعرف اسم اللّه الأعظم، رُفع خَبَرُه إلى خالد بن عبد اللّه القسري في زمان ولايته فظفر به وصلبه، وقيل بل أحرقه[(٣)].

٤ - **المغيرة بن سعيد العجلي**: وهو مولى خالد بن عبد اللّه القسري وهو من أهل الكوفة، زعم أنه رسول نبي، وأن جبريل يأتيه بالوحي من عند اللّه، قبض عليه خالدُ بن عبد اللّه القسري وأوقد له نارا وأحرقه بها وقيل بل قتله سنة ١١٩ هـ[(٤)].

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ٢٨٩- ٢٩٢، الملل والنحل ١/ ١٤٨ .
(٢) البداية والنهاية ٩/ ٢٧- ٢٩ وتلبيس ابليس لابن الجوزي ٤٢٧- ٤٥٧ .
(٣) ميزان الاعتدال ١/ ٣٥٧، الفرق بين الفرق للبغدادي ٢٣٧ .
(٤) الملل والنحل ١/ ١٧٦ البداية والنهاية ٩/ ٣٢٣ تاريخ الطبري ٧/ ١٢٨ .

٥- **أبو منصور العجلي**: وهو رجل من الكوفة وكان منشأه بالبادية وكان أميّا لا يقرأ، ادّعى أن اللّه قد عرج به إلى السماء، وأنه نبي، وهو لا يؤمن بالجنة والنار واستمرت فتنته إلى أن وقف يوسف بن عمر الثقفي والي العراق في زمانه على عوراته فأخذ أبا منصور العجلي وصلبه وذلك في أيام هشام بن عبد الملك(١).

٦- **أبو الخطاب الأسدي**: هو محمد بن أبي زينب من موالي بني أسد بالكوفة ادعى النبوة وأنكر الجنة والنار، واستباح المحرمات، واستمرت فتنته حتى وقف عيسى بن موسى وكان عاملا على الكوفة للمنصور، على خُبث دعوته، فقتله بسبخة الكوفة وقيل صُلب في كناسة الكوفة(٢).

٧- **علي بن الفضل الحميري**: هو علي بن الفضل بن أحمد الخنفري الحميري(٣)، قيل أنه سار ليحج ثم يزور قبر الحسن بكربلاء، والتقى هناك بجد الفاطميين (عبيد اللّه بن ميمون القداح) فتفرس فيه الذكاء فانتدبه للقيام بالدعوة وأمره بالعودة إلى اليمن(٤) وهناك أظهر التنسّك والعبادة، ولما كثُر أتباعه، أعلن مذهبه السيئ(٥) بادعاء النبوة، فصعد المنبر فقال قصيدته التي مطلعها:

خُذي الدّفّ يا هذه واضربي ... وغني هزارك ثم اطربي
تولى نبي بني هاشم ... وجاء نبي بني يعربِ
أحلّ البناتِ مع الأمهاتِ ... ومن فضله زاد حلّ الصبيِ
لكل نبي مضى شرعة ... وهذي شريعة هذا النبي

---

(١) فرق الشيعة ٥٤، الفرق بين الفرق ٢٣١- ٢٢٤ القصل في الملل والنحل ٤/ ١٨٥، مقالات الإسلاميين ١/ ٧٥ .
(٢) مقالات الإسلاميين ١/ ٧٦، الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/ ١٨٧، لوامع الأنوار ١/ ٨٢ .
(٣) أشعة الأنوار ٢/ ٩ للبيجاني.
(٤) غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ١/ ١٩١ .
(٥) أشعة الأنوار ١/ ١٠ .

وبعد فترة قاسية عاشها أهل اليمن في عهده، سخط عليه فيها أهل السماء وأهل الأرض، حتى أقرباؤه وحاشيته لانغماسه في المحرمات، أهلكه اللّه على يد أحد الأطباء عام ٣٠٣ هـ[١].

ونرى أنه بفضل اللّه، ثم بوضوح عقيدة خاتم النبوة في قلوب الناس، وحزم الولاة تم القضاء على هذه الفتنة.

حركات التنبؤ في العصر الحديث:

١- الدعوة البابية:

مؤسسها هو علي بن محمد رضا الشيرازي ادّعى أنه ينسب إلى أهل البيت ولد في شيراز عام ١٢٣٥ هـ يقول في كتابه (البيان)[٢]: «قد خلقتك ورزقتك، وأمنتك، وأجبتك، وبعثتك، وجعلتك مظهر نفسي لتتلون من عندي إياي ولتدعونّ كل من خلقته، إلى ديني هذا صراطُ عَزٍّ منيع، وخلقت كل شيء لك. .»[٣].

ومن تشريعاته أنه نسخ الصلاة بصلاة جديدة، تُصلى عند الزوال ونسخ تجاه القبلة، ونسخ صيام رمضان بصيام شهر أسمه (شهر العلاء) ويصوم منه تسعة عشر يوماً فقط.

لقد انتهت به حياته بادعاء النبوة، ونسخ الشريعة الإسلامية فلم يتحمل المجتمع الإيراني ذلك الإدعاء، وقاومه، وطارده إلى أن انتهت حياته بالإعدام رميا بالرصاص، وذلك في عام ١٢٦٥ هـ.

٢- الدعوة البهائية:

في الحقيقة أن الدعوة البهائية هي البابية السابقة انتقلت إلى مرحلة جديدة بعد مقتل الباب وكان زعيمها أحد أتباع الباب يسمى بالميرزا (حسين علي) ويلقب بالبهاء، وتذكر لنا كتب البهائية طريقة انتقال الخلافة إلى زعيمها:

(١) الحور العين ١٩٩ لنشوان الحميري وتاريخ اليمن الثقافي ٤/ ٨٧ .
(٢) هذا الكتاب يزعم (الباب) أنه وحي أنزل عليه من السماء (ختم النبوة ٢٠٥).
(٣) المصدر السابق، البابية عرض ونقد لإحسان إلهي ظهير رَحِمَهُ اللَّهُ، حقيقة البابية والبهائية.

«إن الباب لما علم بأنه سيُعدم جمَعَ مكتوباته وخاتمه، ومقلمته في جُعبة فأرسلها مع مفتاحها بصحبة شخص اسمه (ملا باقر) ليُسلّمها إلى (ملا عبد الكريم القزويني) في مدينة (قُم) ولما وصلت الجعبة إلى ملا عبد الكريم، قال أنه مأمور بإيصالها إلى (ميرزا حسين علي المازندراني)[١] وقد ادّعى أولا أنه المسيح بن مريم ثم ادّعى النبوة ثم ادّعى الربوبية.

وأكثر أتباعه في أوربا وخاصة فرنسا، وانجلترا، وألمانيا، وكذلك في أمريكا وقد اختلف وأخوه (يحيى) حول الزعامة الدينية فنفته الحكومة العثمانية إلى (عكا) وقد استمر في منفاه مع أسرته، هلك سنة ١٣٠٩ هـ وأوصى بالخلافة إلى ابنه المسمى بعبد البهاء[٢].

٣- الدعوة القاديانية:

أسسها (ميرزا غلام أحمد القادياني) في القرن التاسع عشر الميلادي في الهند ولد في قرية (قاديان) بالهند سنة ١٨٣٩ م وتلقى فيها مبادئ العلوم ومنها الطب وقد أُصيب في شبابه بلوثة عقلية، ونوبات عصبية حادة. وكان قد أقلق الحكومةَ الإنجليزية الإمامُ أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦ هـ) في الهند والمهدوية، فعرفت أن طبيعة المسلمين طبيعة دينية[٣]، فوجدت ضالتها في هذا الرجل (ميرزا غلام) ولهذا قال: «لقد ظللت منذ حداثة سني، وقد ناهزت اليوم الستين، أجاهد بلساني، وقلمي، لأصرف قلوب المسلمين إلى الإخلاص للحكومة الانجليزية النصح لها، والعطف عليها، وأنفي فكرة الجهاد التي يدين بها بعض جُهّالهم والتي تمنعهم من الإخلاص لهذه الحكومة»[٤].

(١) مقالة سانح في البابية ٣٠ نقلا عن عقيدة خاتم النبوة ٢٢٢ .
(٢) الإعلام ٢/ ٢٧١، حقيقة البابية والبهائية ١٤٨ نقلا من عقيدة ختم النبوة ٢٢٣.
(٣) الحركات الهدامة القاديانية ٧- ٨ .
(٤) ملحق بكتاب «شهادة القرآن» من قلم غلام أحمد القدياني الطبعة السادسة ١٠، راجع كتاب الحركات الهدامة القاديانية بقلم أبو الحسن علي الحسني الندوي، وأبو الأعلى المودودي، [محمد الخضر تحسين].



وقال: «ومما هو واضح كالشمس في رابعة النهار، أن باب النبوة لا يزال مفتوحا بعد النبي ﷺ»[١]، وكتب: «أنا نبي وفقا لأمر اللّه، وأكون آثماً أن أنكرتُ ذلك، وإذا كان اللّه هو الذي يُسميني بالنبي، فكيف لي إن أنكر ذلك؟..»[٢].

وقال: «وبما أننا نؤمن بنبوة ميرزا عليه السلام، وغير الأحمدين (القاديانيين) لا يؤمنون بها، فكل رجل من غير الأحمدين كافر بحسب ما جاء في القرآن إذ إن الكفر ولو بنبي واحد هو الكفر»[٣].

وقال أيضا: «... وإلا فقد قال المسيح الموعود أن اسلامَهم أي إسلام المسلمين غيرُ إسلامنا وإلههَم غيرُ إلهنا، وحجهم غير حجنا، وهكذا نخالفهم في كل شيء»[٤].

وللقاديانية فرع (الأدهوري) يتزعمه (محمد علي) صاحب ترجمة القرآن إلى الانجليزية، وله مؤلفات عديدة وتأويلات وتحريفات للآيات القرآنية، ونُشرت هذه الترجمة دون الإشارة إلى أنه قادياني ليظن المطلعون عليها، أن ترجمة صاحبها (محمد علي) هي ترجمة إسلامية من رجل مسلم يحترم القرآن ويخدم وينشر معانيه، وقد هلك في ٢٦ مايو ١٩٠٨.

واجب المسلمين تجاه النبوة:

١- **نشر الوعي**، وتثبيت عقيدة ختم النبوة وذلك باتباع الخطوات الآتية:

أ- **بيان انتهاء النبوة**، وانقطاع الوحي بعد رسول اللّه ﷺ، وأن من يدعيها بعد ذلك

---

(١) حقيقة النبوة، تأليف ميرزا بشير الدين محمود أحمد ابن ميرزا غلام أحمد، الخليفة الثاني للقاديانيين ٢٢٨.

(٢) راجع رسالة المسيح الموعود إلى محرر جريدة (أخبار عام) بلاهور وقد كتب المسيح الموعود هذه الرسالة قبل ثلاثة أيام فقط من وفاته: كتبها في ٢٣ مايو ١٩٠٨ م ونشرت في أخبار عام في ٢٦ مايو سنة ١٩٠٨ يوم وفاته.

(٣) بيان ميرزا بشير الدين في محكمة كوردا سفور المتدرج في عدد الفصل الصادر ٢٦، ٢٧ يونيو سنة ١٩٢٢ م.

(٤) خطبة الخليفة القادياني في عدد الفصل الصادر في ٢١ اغسطس سنة ١٩٢٧ بعنوان نصائح للطلاب.

فهو دجَّال.

ب - **توضيح كمال الشريعة الإسلامية** وتمام الدين بدين الإسلام واستغناء البشرية عن غيره.

جـ - **تعريف الناس** بمعاني الصفات الواردة في الآثار النبوية والتي توهم مشاركَتَهم في الوحي كالمحدّث والمجدد والوليّ.

د - **عدم تمكين** الناشئة من الاطلاع على مؤلفات تلك الفرق المنحرفة مما قد يعرضهم لبلبلة فكرية.

هـ - **تحذير المسلمين من الفرق الضالة**، وكشفها على حقيقتها للناس، مع بيان الطرق التي قد يسلكونها للخداع والتمويه من السحر، والكهانة والتنويم المغناطيسي، والإيحاء النفسي.

٢- **حماية المجتمعات الإسلامية من دعاة الضلال** يجب على الحكومات الإسلامية أن تحمي عقائد المسلمين ومجتمعاتهم من كل وارد غريب، وقيام العلماء بواجب التوضيح والبيان(١).

قوله: «محمد ﷺ . . . وسيدهم وأفضلهم عند الله، وأعلاهم منزلة بلّغ البلاغ المبين».

ش: وهو صلوات ربي وسلامه عليه سيدُ المرسلين فقد قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفَّع»(٢).

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه في أول حديث الشفاعة: «أنا سيد الناس يوم القيامة»(٣).

---

(١) عقيدة ختم بالنبوة المحمدية تأليف أحمد بن مسعد بن حمدان الغامدي ٣٠(١) ٣٠٥ وما هذا البحث إلا اختصار مبسّط للكتاب السابق فجزى مؤلفه خير الجزاء.

(٢) رواه أحمد ومسلم وأبو داود.

(٣) متفق عليه.



ومنه قوله ﷺ: «إن اللَّه اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم»[(١)]، وهو أفضلهم عند اللَّه.

فإن قيل: يُشكِل على هذا، قولُه ﷺ: «لا تُفضّلوني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يُفيق، فأجد موسى باطشا بساق العرش، فلا أدري هل أفاق قبلي، أو كان ممن استثنى اللَّه؟»[(٢)].

فكيف يجمع بين هذا، وبين قوله: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[(٣)]؟.

فالجواب: أن هذا كان له سبب، فعن أبي هريرة قال: «بينما يهودي يعرض سلعة له أعطي بها شيئا كرهه فلم يرضه، قال: لا، والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر»، فسمعه رجل من الأنصار، فلَطَمَ وجهَه، قال: «تقول والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر، ورسول اللَّه ﷺ بين أظهرنا؟» قال: فذهب اليهودي إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: «يا أبا القاسم إن لي ذِمة وعهدا» وقال: «فلان لطم وجهي»، فقال رسول اللَّه ﷺ: «لم لطمتَ وجهَه؟».

قال: قال يا رسول اللَّه: «والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر، وأنت بين أظهرنا» قال: فغضب رسول اللَّه ﷺ حتى عُرف الغضب في وجهه، ثم قال: «لا تُفضلوا بين أنبياء اللَّه، فإنه يُنفخ في الصور فيُصعق من في السموات ومن في الأرض، إلا من شاء اللَّهُ، قال: ثم يُنفخ أخرى فأكون أول من بُعث، أو في أول من بعث فإذا موسى عليه السلام آخذٌ بالعرش، فلا أدري أَحُوسِب بصعقته يوم الطور، أو بعث قبلي؟».

ولا أقول: «إن أحدا أفضل من يونس بن متي عليه السلام»[(٤)] فقال النبي ﷺ هذا، لأن التفضيل إذا كان على وجه الحمية والعصبية وهوى النفس كان مذموما وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥].

---

(١) رواه مسلم والترمذي.
(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم.
(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي واللفظ له.
(٤) رواه البخاري وفي رواية (لا تخيروا بين الأنبياء) رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود.

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فعُلم أن المذموم إنما هو التفضيل على وجه الفخر، أو على وجه الانتقاص بالمفضول وإنما أخبر ﷺ أنه سيد ولد آدم، لأننا لا يمكننا أن نعلم ذلك إلا بخبره، إذ لا نبي بعده يخبرنا بعظيم قدره عند اللّه كما أخبرنا هو بفضائل الأنبياء قبله، صلى اللّه عليهم وسلم أجمعين(١).

ومحمد ﷺ أعلاهم منزلة عند اللّه، وأوضح دليل على ذلك أن خُتم به النبوة والرسالة، وكذلك حادثة الإسراء والمعراج حيث صلى بالأنبياء في بيت المقدس (المسجد الأقصى) لما اجتمع به هو واخوانه من النبيين، ثم أظهر شرفَه وفضلَه عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ له في ذلك(٢).

قوله: «ولم يكتم شيئا مما أوحاه إليه رب العالمين»

ش: مذهب أهل السنة والجماعة اتباع السلف الصالح رضوان اللّه عليهم في أن النبي ﷺ لم يتوفه اللّه حتى بلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، ولم يكتم شيئا مما أوحاه اللّه إليه. وقد دلّ على ذلك الكتاب والسنة وإجماع الأمة:

أولا: الكتاب:

١- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، قال ابن عباس: يعني إن كتمت آية مما أُنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالتي(٣).

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ١٧١- ١٧٣ (بتصرف).
(٢) رواه أحمد من حديث عبد اللّه بن عباس وقال ابن كثير اسناده صحيح «تفسير القرآن العظيم» ٣/ ٢٢، ٢٥، ٣٥.
(٣) تفسير الطبري والقرطبي.

٢- قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. فدلّت هذه الآية على أن الدين قد كمُل وقد قال بعض السلف: وما لم يكن يومئذ دينا فليس بدين.

٣- وقال سبحانه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي فإن توليتم، فلن تضروا الرسول ﷺ شيئا إنما عليه البلاغ، وقد فعل[١].

ثانيا: ومن السنة:

١- ما رواه مسروق عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «من حدّثك أن محمدا ﷺ يكتم شيئا مما أُنزل عليه، فقد كذب»، واللّه يقول: «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك»[٢].

وفي رواية عن عائشة رضي الله عنها قالت: «. . . ولو كان محمد ﷺ كاتما شيئا مما أنزل عليه لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧][٣].

٢- وحديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما سأله أبو جحيفة: قلت لعلي هل عندكم كتاب؟[٤] قال: لا، إلا كتاب اللّه، أو فهم أعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة، قال: قلت: فما هذه الصحيفة؟ قال العقل[٥]. وفكاك الأسير[٦]، وألا يُقتل مسلم بكافر»[٧].

---

(١) روح المعاني للألوسي ١٧٠٧ .
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه مسلم .
(٤) وفي رواية (هل خصكم رسول اللّه ﷺ بشيء).
(٥) العقل: هو الدية: وأصله: أن القاتل كان إذا قتل قتيلا جمع الدية من الإبل فعقلها بفناء أولياء المقتول: أي شدها في عقلها ليسلمها لهم. والعاقلة: هي العصبة والأقارب من قبل الأب (النهاية لابن الأثير ٣/ ٧٨).
(٦) فكاك الأسير: أي اطلاق الأسير (النهاية لابن الأثير ٣/ ٢٧٨).
(٧) رواه البخاري.



ثالثا: الإجماع:

قال الراوي في التفسير الكبير: « أجمع المسلمون على أنه لا يجوز على الرسول ﷺ أن يخون في الوحي والتنزيل، وأن يترك بعض ما يوحى إليه، لأن تجويزه يؤدي إلى الشك في كل الشرائع[(١)] والتكاليف وذلك يقدح في النبوة، وأيضا فالمقصود في الرسالة تبليغ تكاليف اللّه تعالى وأحكامه، فإذا لم تحصل هذه الفائدة فقد خرجت الرسالة عن أن تفيد فائدتها المطلوبة منها»[(٢)].

وقال أبو محمد بن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: «. . . واعلموا أن رسول اللّه ﷺ لم يكتم من الشريعة كلمة فما فوقها. . ولا كان عنده عَلَيْهِ السَّلَامُ سر، ولا رمز، ولا باطن، غير ما دعا الناسَ كلَّهم إليه، ولو كتمهم شيئا لما بلغ كما أمر، ومن قال هذا فهو كافر، فإياكم وكل قول لم يَبِنْ سبيله، ولا وُضحَ دليله، ولا تعّوجوا عما مضى عليه نبيكم ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم»[(٣)].

مُعتَقَدُ الصوفية:

١- قال مؤلف جوهر المعاني: «وسألته رضي الله عنه هل خبر سيد الوجود بعد موته كحياته سواء»؟

فأجاب رضي الله عنه بما نصه: «الأمر العام الذي كان يأتيه عاما للأمة طوى بساط، ذلك بموته ﷺ، وبقي الأمر الخاص الذي كان يلقيه للخاص فإن ذلك من حياته وبعد مماته دائما لا ينقطع»[(٤)].

٢- وقال مؤلف (الجيش الكفيل) وسُئل: «هل النبي ﷺ عالم بفضل صلاة الفاتح

---

(١) وهذا واضح فإذا أمرت بأمر يقال لك: وما أدراك لعل النبي صلى اللّه عليه سلم قد نسخه والعكس فقد تنهى عن محرم ويقال وما أدراك لعل النبي صلى للّه عليه وسلم قد نسخه بالإباحة.

(٢) التفسير الكبير ١٧ : ١٩ المطبعة البهية المصرية.

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢/١١٦ .

(٤) جواهر المعاني ١/ ١٤٠ لعلي بن حرازم.

لما أغلق»؟

فقال: نعم كان عالما به، قالوا: ولِمَ لَمْ يذكره لأصحابه؟

قال لعلمه ﷺ بتأخير وقته وعدم وجود من يظهره اللّه على يديه في ذلك الوقت[١].

معتقد الرافضة:

١- محمد حسين آل كاشف الغطا: «إن حكمة التدريج اقتضت بيان جملة من الأحكام وكتمان جملة ولكنه (سلام اللّه عليه) ودعها عند أوصيائه، كل وصي يعهد بها إلى الآخر لينشرها في الوقت المناسب لها حسب الحكمة، من عام مخصص، أو مطلق، أو مقيد، أو مجمل، مبين إلى أمثال ذلك، فقد يذكر النبي ﷺ عاماً ويذكر مخصَّصه بعد برهة من حياته، وقد لا يذكره أصلا، بل يودعه عند وصية إلى وقته»[٢].

٢- وقال شيخهم المعاصر (بحر العلوم): «لما كان الكتاب العزيز متكفلًا بالقواعد العامة دون الدخول في تفصيلاتها، احتاجوا إلى سنة النبي. والسنّة لم يكمل بها التشريع لأن كثيرا من الحوادث المستجدة لم تكن على عهده ﷺ احتاج أن يُدَّخَر علمُها عند أوصيائه ليؤدوها عنه في أوقاتها»[٣].

٣- وإمامهم (الخُميني) يقول: «إن جبرائيل كان يأتي بعد وفاة النبي ﷺ لفاطمة بأنباء من الغيب، فيقوم أمير المؤمنين بتدوينها، وهذا هو مصحف فاطمة»[٤].

---

(١) الجيش الكفيل بأخذ الثأر ١١٠ نقلا من كتاب التيجانية دراسة لأهم عقائد التيجانية على ضوء الكتاب والسنة تأليف علي بن محمد الدخيل (نشر وتوزيع دار طيبة - الرياض - السعودية).

(٢) أصل الشيعة وأصولها ٧٧ .

(٣) مصابيح الأصول ٤ نقلا من كتاب مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة للدكتور ناصر بن عبد اللّه بن علي القفاري «دار طيبة للنشر والتوزيع».

(٤) كشف الأسرار تأليف الخميني الذي صدر عن دار «انتشارات ازادي/ قم - خيابان أرم» باللغة الفارسية. وترجمه عن الفارسية الدكتور محمد البنداري وقدم له د. محمد أحمد الخطيب وعلق على نسخته العربية الشيخ سليم الهلالي، دار عمار للنشر والتوزيع - عمان الطبعة الثانية ص ١٤٣ .

وهذه النصوص والآراء لبعض الفِرق تدل على أمر خطير، وهو عدم انقطاع خبر السماء عن الناس بوفاة الرسول ﷺ، وهو خلاف لما سقناه من الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة والإجماع، وهو خلاف لما ثبت عن أبي بكر وعمر وأم أيمن ﷺ. فمن حديث أنس رضي الله عنه قال أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاة رسول اللّه ﷺ لعمر: «انطلق بنا إلى أم أيمن، نزورها كما كان رسول اللّه ﷺ يزورها.

فلما انتهينا إليها بكت، فقالا لها: «ما يبكيك؟ ما عند اللّه خير لرسوله ﷺ».

فقالت: «ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند اللّه خير لرسوله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها»[1].

***

(١) رواه مسلم «شرح النووي ١٦/٩- ١٠».



القضية السابعة والأربعون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«نشهد ونؤمنُ أن أحدا من الناس، لا يؤمن إيمانا كاملا، إلا إذا أحبّ رسول اللَّه ﷺ أكثر من حبه لأبويه، وأولاده، ونفسه التي بين جنبيه، وعزَّرَ الرسولَ ﷺ ووقّره، واتّبع ما جاء به، وقدّم طاعته على طاعة كل مخلوق».

قوله: «نشهد ونؤمن أن أحدا من الناس لا يؤمن إيمانا كاملا إلا إذا أحبَّ رسولَ اللَّه ﷺ أكثر من حبه لأبويه، وأولاده ونفسه التي بين جنبيه».

الشرح: قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

أمر اللَّه تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على اللَّه رسوله وجهاد في سبيله.

أي إن كانت هذه الأشياء: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أي فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم(١)، وهذا الآية الكريمة، أعظم دليل على وجوب محبة اللَّه ورسوله وعلى تقديمها على محبة كل شيء.

وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد، على من كان شيء من المذكورات أحب إليه من اللَّه ورسوله وجهاد في سبيله؛ وعلامة ذلك: أنه إذا عُرض عليه أمران أحدهما: يحبه اللَّه ورسوله، وليس لنفسه فيها هوى، والآخر: تحبه نفسه وتشتهيه، ولكنه يُفوت عليه محبوبا للَّه رسوله، أو ينقصه، فإنه إن قدّم ما تهواه نفسه، على ما يحبه اللَّه، دلّ على أنه ظالم، تارك لما يجب عليه(٢).

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٥٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن لابن سعدي ٣/ ٢١٤ الطبعة الأولى مكتبة الخلفاء للكتاب الإسلامي - وفي رواية: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده ولده والناس أجمعين».

وقد بيّن النبيُ ﷺ حدودَ المحبة اللازمة عندما قال له عمر بن الخطاب ﷺ: «يا رسول اللّه ! أنت أحبّ إليّ من كل شيء، إلا من نفسي». فقال: «لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك». فقال له عمر: «فإنك الآن واللّه لأنت أحب إليّ من نفسي»، فقال: الآن يا عمر (١).

ومن علاماتها عدمُ التقدم عليه بالقول، أو العمل، فلا يكون رَأْيُ الإنسان أحب إليه من حديث الرسول ﷺ وحكمه، وأن تكون نصرةُ السّنة والذّبُ عن الشريعة أحبَّ لديه من رعاية مصالحه، والحفاظ على نفسه وأهله، وماله، وجاهه (٢).

وقال ﷺ: «ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون اللّه ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وأن يُحب المرءَ لا يحبه إلا للّه، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار» (٣).

فهذا الحديث يدل على: أن محبة الرسول ﷺ واجبة تابعة لمحبة اللّه لازمة لها، فإنها محبة للّه ولأهله، تزيد بزيادة محبة اللّه في قلب المؤمن وتنقص بنقصها.

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: «فحلاوة الإيمان المتضمنة للذة والفرح تتبع كمالَ محبةِ العبدِ للّه، وذلك بثلاثة أمور: تكميلُ هذه المحبة وتفريغُها، ودفعُ ضدها، فتكميلها أن يكون اللّه ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما، فإن محبة اللّه ورسوله لا يُكتفى فيها بأصل الحب، بل لا بد أن يكون اللّه ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن لوازم محبة اللّه: محبة أهل طاعته، كمحبة أنبيائه ورسله والصالحين من عباده»(٤).

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

---

(١) رواه البخاري.
(٢) السيرة النبوية الصحيحة ٢/ ٦٤٠ للدكتور أكرم ضياء العمري حفظه اللّه.
(٣) متفق عليه.
(٤) فتح المجيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (المكتبة السلفية) ٣٤١-٣٤٦ .



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ١-٢]. فهذه آيات أدّب اللَّهُ بها عباده المؤمنين، فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير، والاهتمام والتبجيل، والإعظام، فأمَرهم بألا يسارعوا في الأشياء بين يديه أي (قبله)، بل يكونوا تبعا له في جميع الأمور.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة»، وقال مجاهد: «لا تفتاتوا على رسول اللَّه ﷺ بشيء حتى يقضي اللَّه تعالى على لسانه».

وكذلك أدّب المؤمنين بألا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته حتى أن عمر رضي الله عنه سَمِعَ صوتَ رجلين في مسجد النبي ﷺ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء فقال: «أتدريان أين أنتما؟» ثم قال: «من أين أنتما؟»

قالا: «من أهل الطائف»، فقال: «لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربا».

وقال العلماء: يُكره رَفْعُ الصوت عند قبره ﷺ[(١)]، كما كان يُكره في حياته عليه الصلاة والسلام، لأنه محترم حيًا، وفي قبره ﷺ دائما، ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبة ممن عاداه[(٢)]. إذ رَفْعُ الصوت للرسول ونداؤه بأعلى الصوت يا محمد! يا محمد! أو يا نبي اللَّه! ويا رسول اللَّه! وبأعلى الصوت إذا صَاحَبه استخفافٌ، أو إهانة، وعدم مبالاة صار كفرا محبطا للعمل قطعاً[(٣)].

وقوله: «وعزّر الرسول ووقّره واتّبع ما جاء به وقدّم طاعته على طاعة كل مخلوق»

ش: كما قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾ أي عظّموه وبجّلوه ووقّروه[(٤)].

---

(١) إلا لضرورة كدرس أو خطبة أو أذان أو إقامة (أيسر التفاسير للجزائري ٥/ ١٢٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٦٥ .
(٣) أيسر التفاسير للشيخ الجزائري ٥/ ١٢٢ .
(٤) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٣٩ ط جمعة إحياء التراث (العرفان).

وقال تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩]: أي تُعزروا الرسولَ ﷺ (وتوقروه)، أي تعظموه وتبجلوه، وتقوموا بحقوقه كما كانت له المنة العظيمة في رقابكم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في (تعزروه): تعظموه، وفي قوله: (وتوقروه) من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام[1].

وها هو ذا (عروة بن مسعود الثقفي) رسول قريش للتفاوض مع النبي ﷺ في الحديبية وقد لاحظ تعظيمَ المسلمين للرسول ﷺ وحبَّهم له، وتفانيَهم في طاعته، فلما رجع إلى قريش قال: «أي قوم ! واللَّه لقد وفدتُ على الملوك، ووفدتُ على قيصر، وكسرى، والنجاشي، واللَّه ما رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه كما يعظّم أصحابُ محمدٍ محمداً»[2][3].

ولا يَكْملُ هذا الحبّ إلا باتباع النبي ﷺ كما قال تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

فهذه الآية لكريمة حاكمة على كل من ادّعى محبة اللَّه وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبعَ الشرعَ المحمدي، والدينَ النبوي في جميع أقواله، وأفعاله وأحواله.

وقال الحسن البصري وغيرُه من السَّلف: زعم قوم أنهم يحبون اللَّه، فابتلاهم بهذه الآية[4] ثم قال تعالى آمرا لكل أحد من خاص وعام: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]. أي خالفوا عن أمره: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، فدلّ على أن مخالفته في الطريقة: كُفر، واللَّهُ لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادّعى وزعم في نفسه أنه محب للَّه، ويتقرب إليه حتى يتابع

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٣٤ .
(٢) رواه البخاري ٢٧٣١ - ٢٧٣٢ وأحمد.
(٣) السيرة النبوية الصحيحة ٢/ ٤٤٠ .
(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٧٧ .

الرسول، النبي الأمي خاتم الرسل ورسول اللّه إلى جميع الثقلين: الجن والإنس، الذي لو كان الأنبياء بل المرسلون بل أولو العزم منهم في زمانه ما وسعهم إلا اتباعهُ، والدخولُ في طاعته، واتباعُ شريعته(١).

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٤٧]، فنفى الإيمان عمن تولى عن طاعة الرسول ﷺ(٢) قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. أي الظافرون، بخير الدنيا والآخرة، والناجون من شرهما لأنهم أتوا بأكبر أسباب الفلاح(٣).

وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. أخبر اللّه أن محمداً ﷺ هو رسول اللّه إليهم أمرهم بإتباعه والإيمان به.

وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ بأن من أطاعه فقد أطاع اللّه، ومن عصاه فقد عصى اللّه وما ذاك إلا لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى(٤).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ النور: ٥١]. أي: سمعنا الدعاء وأطعنا الإجابة(٥).

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النور: ٥١]. وقال ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع اللّه، ومن عصاني فقد عصى اللّه...»(٦).

---

(١) المصدر السابق.
(٢) فتح المجيد ٣٤٤ للشيخ عبدالرحمن بن حسن آل شيخ طبعة المكتبة السلفية.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ٣/ ١٠١ .
(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ٧٠٣ .
(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٥٢ دار المعرفة.
(٦) متفق عليه من حديث الأعمش.

والقرآن يعرض لنا حالَ من لم يطع اللّه والرسول وأطاع العلماء في مخالفتهم لطاعة اللّه ورسوله: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٧].

يصوّر اللّهُ حالَ بعض العصاة وهم يُسحبون في النار على وجوههم، وتُلوى وجوههم على جهنم، يقولون وهم كذلك يتمنون أن لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع اللّه وأطاع الرسول، كما أخبر اللّه عنهم في حال العرصات بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧- ٢٩].

وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا اللّه وأطاعوا الرسول، أي في الدنيا ولم يطيعوا سادتهم يعني: (الأشراف) والكبراء: يعني (العلماء) أي اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة وخالفنا الرسل[1].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٦٨٦ (بتصرف يسير).



القضية الثامنة والأربعون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«نؤمن بشفاعة الرسول ﷺ العظمى يوم القيامة حيث يشفع للناس في فصل القضاء، وخروج الناس من المحشر، وحيث يأذن اللَّه له فيمن يشفع فيهم من المؤمنين فيدخلون الجنة.

ونشهد أن شفاعة الرسول ﷺ حَقٌ لعصاة المؤمنين ونُقر ونشهد أن الرسول ﷺ لا يشفع إلا لمن أَذِنَ اللَّهُ له».

الشرح:

الشفاعة: هي السؤال في التجاوز عن الذنوب، والجرائم. يقال: شفَع يشفَع شفاعة، فهو شافع وشفيع، والمشفِّع: الذي يقبل الشفاعة.

والمشفَّع: الذي تقبل شفاعته(١).

والشفيع: صاحب الشفاعة، والجمع شفعاء، وهو الطالب لغيره أن يتشفع به إلى المطلوب(٢).

أقسام الناس في الشفاعة:

١- فالمشركون، والنصارى والمبتدعون من الغلاة في المشايخ وغيرهم:

يجعلون شفاعة من يعظمونه عند اللَّه كالشفاعة المعروفة في الدنيا(٣).

٢- المعتزلة والخوارج: أنكروا شفاعته ﷺ في أهل الكبائر وشفاعةَ غيره(٤).

٣- أهل السنة والجماعة: أثبتوا الشفاعة وفق الشروط المعتبرة شرعاً.

---

(١) النهاية لابن الأثير.
(٢) القاموس، وتاج العروس.
(٣) أي دون شروط وضوابط.
(٤) العقيدة الطحاوية: ٢٦٠ .

الشفاعة بين الإثبات والنفي:

لقد وردت هناك آيات تنفي الشفاعة، وآيات كذلك تثبتها، فكيف الجمعُ بينهما؟

الآيات التي تنفي الشفاعة:

١- قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨].

٢- قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

٣- وقال تعالى: عن قوم آل يس: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٤٣].

٤ - وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

الأيات التي تُثبت الشفاعة:

١- قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

٢- قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

٣- قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٨- ١٠٩].

٤- وقال تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

٥- قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا يملك الذين يدعون من دونه» أي الأصنام والأوثان «الشفاعة»



أي: لا يقدرون على الشفاعة لهم «إلا من شهد بالحق وهم يعلمون» هذا استثناء منقطع أي: لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم فإنه تنفع شفاعته عندما يأذن له.

الجمع بين الآيات المثبتة والآيات النافية:

قال الشيخ أبو عبدالرحمن مقبل بن هادي الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ[1] بعد أن ساق الآيات السابقة: يتحصّل من هذا أن النفي مقصود به الشفاعة التي تُطلب من غير اللَّه، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] فالشفاعة المثبتة لا تقبل إلا بشروط.

شروط الشفاعة:

١- قدرة الشافع على الشفاعة:

كما قال تعالى في حق الشافع: يُطلب منه وهو غير قادر على الشفاعة: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

فعُلم من هذا أن طلب الشفاعة من الأموات طلب ممن لا يملكها.

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢- ٢٣]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ لَا إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣- ١٤].

٢- إسلام المشفوع له وتوحيده:

قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ والمراد بالظالمين هنا الكافرين، قال البيهقي رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «فالظالمون ها هنا هم الكافرون»، وقال ابن كثير في تفسيره

(١) في كتابه القيم الشفاعة (مع بعض التصرف).
(٢) في الشُعب ١/ ٢٠٥ .

لهذه الآية: أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك باللّه من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير ويستثنى من المشركين أبو طالب (كما سيأتي في باب أنواع الشفاعة).

٣- الإذن للشافع:

قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

٤- الرضا عن المشفوع له:

قال تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

الشفاعة الدنيوية:

بعد أن تكلمنا عن الشفاعة الأخروية يحسن بنا أن نعلم ما هي الشفاعة الدنيوية؟ وهل هي جائزة؟.

الشفاعة الدنيوية الجائزة:

الكتاب: قال تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية السابقة: أي من يسعى في أمر فيترتب عليه خير، كان له نصيب من ذلك، وبالعكس بالنسبة للذي يشفع شفاعة سيئة يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيته.

السُنّة: عن أبي موسى الأشعري، قال: كان رسول اللّه ﷺ إذا جاءه السائل أو طُلبت إليه حاجة قال: «اشفعوا تؤجروا، ويقضي اللّه على لسان نبيه ﷺ ما شاءه»(١).

٢- وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن زوج بريرة كان عبداً يقال له: (مغيث) كأني أنظر إليه

(١) رواه أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي والنسائي والبيهقي والخرائطي في مكارم الأخلاق.



يطوف خلفها يبكي، ودموعه تسيل على لحيته، فقال النبي ﷺ للعباس:

«يا عباس ! ألا تعجب من حبّ مغيث بريرة، ومن بغض بريرة مغيثا؟».

فقال النبي ﷺ: «لو راجعته» قالت: «يا رسول اللَّه ! تأمرني؟ قال: «إنما أشفع»، قالت: «لا حاجة لي فيه»(١).

الشفاعة الغير جائزة:

الكتاب: الآية السابقة وهي: ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥].

السُنّة:

١- عن عائشة رضي الله عنها، أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: «ومن يكلم فيها رسول اللَّه ﷺ؟ ومن يجترئ عليه إلا أسامةُ بن زيد حبّ رسول اللَّه ﷺ»، فكلمّه أسامةُ، فقال رسول اللَّه ﷺ: «أتشفع في حد من حدود اللَّه؟» ثم قام فخطب ثم قال: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيمُ اللَّه لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»(٢).

٢- وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «من حالت شفاعتُه دون حدّ من حدود اللَّه فقد حاد اللَّه في أمره، ...» الحديث(٣).

أنواع الشفاعة

الأولى: الشفاعة الكبرى:

هي العظمى وهي خاصة بنبينا ﷺ من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين

---

(١) رواه أحمد والبخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجة (هذا طبعا بالنسبة للشفاعة الدنيوية الجائزة).

(٢) رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن.

(٣) رواه أبو داود والطبراني والحاكم والبيهقي وصححه الألباني الجامع ٦٠٧٢ والأحاديث الصحيحة ٤٣٨ والارواء.

صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين.

١- فعن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أُعطيت خمسا لم يُعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر وجُعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأُحِلّت لي الغنائم، ولم تَحِلَّ لأحد من قبلي وأُعطيتُ الشفاعةَ، وكان النبي يُبعث إلى قومه، وبُعثتُ إلى الناس عامة»(١).

فقوله: (وأعطيتُ الشفاعةَ)، يعني بذلك العظمى، وهي الأولى: التي يشفع فيها عند اللَّه عزَّ وجلَّ، ليأتي لفصل القضاء، وهي التي يرغب إليه فيها الخلقُ كلُّهم، حتى الخليلُ إبراهيم، وموسى الكليم، وسائرُ النبيين والمرسلين والمؤمنين ويعترف بها الأولون، الآخرون، فهذه هي الشفاعة التي اختص بها دون غيره(٢).

٢- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال أُتي رسول اللَّه ﷺ بلحم، فدُفع إليه الذراع وكانت تعجبه، فنهش منها نهشة، ثم قال: أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون لم ذلك؟ يجمع اللَّه الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيقول بعض الناس لبعض: «ألا ترون إلى ما أنتم فيه؟ ألا ترون إلى ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟» فيقول بعض الناس لبعض: «أبوكم آدم»، فيأتون آدم، فيقولون: «يا آدم! أنت أبو البشر، خلقك اللَّه بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟»».

فيقول آدم: «إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح» فيأتون نوحا، فيقولون: «يا نوح ! أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسمّاك اللَّه عبدا شكورا، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟» فيقول نوح: «إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وأنه كانت لي دعوةٌ دعوت بها على قومي، نفسي

---

(١) متفق عليه.
(٢) النهاية لابن كثير ٢/ ٢٠٤ - الطحاوية ٢٥٥ .

نفسي، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم».

فيأتون إبراهيم، فيقولون: «يا إبراهيم ! أنت نبي اللَّه وخليله من أهل الأرض، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وذكر كذباته، نفسي نفسي، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى».

فيأتون موسى، فيقولون: «يا موسى ! أنت رسول اللَّه اصطفاك اللَّه برسالاته وبتكليمه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟» فيقول لهم موسى: «إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلت نفسا لم أومر بقتلها، نفسي نفسي، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى».

فيأتون عيسى فيقولون: «يا عيسى ! أنت رسول اللَّه وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، قال هكذا هو، وكَلَّمْتَ الناس في المهد، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟» فيقول لهم عيسى: «إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر له ذنبا، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ» فيأتون فيقولون: «يا محمد ! أنت رسول اللَّه، وخاتم الأنبياء، غفر اللَّه لك ذنبك، ما تقدم منه وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟» فأقوم فآتي تحت العرش، فأقع ساجدا لربي عزَّ وجلَّ، ثم يفتح اللَّهُ عَليّ ويلهمني من محامده، وحسنِ الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي، فيقال: «يا محمد ! ارفع رأسك، سل تعطه؟ اشفع تُشفع، فأقول: «يا رب، أُمّتي، أُمّتي، يا رب أُمّتي أُمّتي» فيقول: «أَدْخِل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سواه من الأبواب».

ثم قال: والذي نفسي بيده، لمَا بين مصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجَر أو كما بين مكة وبُصرى»(١).

---

(١) رواه البخاري ومسلم واحمد واللفظ له.



الثانية: الشفاعة لأناس يدخلون الجنة بغير حساب:

كما في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «عُرضت عليّ الأممُ، فرأيت النبي ومعه الرهط»، والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد، إذ رُفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: «هذا موسى وقومه» فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: «هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب، لا عذاب. .» فقام عكاشة بن محصن، فقال: «يا رسول اللَّه، ادع اللَّه أن يجعلني منهم»، قال: «أنت منهم»[١].

الثالثة: الشفاعة لأهل الكبائر من هذه الأمة:

أي: من دخل النار فيخرجون منها، وقد خَفيَ عِلمُ ذلك على الخوارج والمعتزلة، فخالفوا في ذلك، وهذه الشفاعة تشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون أيضا.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قيل: «يا رسول اللَّه من أَسْعدُ الناس بشفاعتك يوم القيامة؟» قال رسول اللَّه ﷺ: «لقد ظننت يا أبا هريرة ألا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيتُ من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا اللَّه خالصا من قلبه»[٢].

ولا شك أن أهل الكبائر داخلون ضِمْناً في هذا الحديث، وأصرح من هذا، الحديث التالي:

- عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[٣].

---

(١) رواه البخاري والترمذي والنسائي ومسلم واللفظ له.

(٢) رواه أحمد والبخاري والآجري في الشريعة.

(٣) صحيح أحمد ورواه الترمذي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه، والخطيب، وصححه البيهقي، وابن كثير «راجع الحديث وطرقه في كتاب الشفاعة للشيخ مقبل بن هادي الوادعي» رَحِمَهُ اللَّهُ ٨٥ وصححه الألباني (صحيح الجامع ٣٧١٤).

الرابعة: الشفاعة في خروج الموحدين من النار:

١- عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (في حديث الشفاعة الطويل): «فيدعني ما شاء اللَّه أن يدعني، ثم يقال لي: ارفع محمد، وقل يُسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم أشفع، فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة، ثم أرجع فأقول: يا رب ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود»[1].

٢- ومن حديث جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال في حديث الورود على الصراط: «ثم تَحلُّ الشفاعةُ، ويشفعون حتى يُخرج من النار من قال لا إله إلا اللَّه وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة»[2].

الخامسة: الشفاعة في تخفيف العذاب عمّن يستحقه:

كشفاعته في عمّه أبي طالب، أو يُخفف عذابهُ، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول اللَّه ﷺ ذكر أبا طالب فقال: «لعلّه تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيُجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه»[3].

قال أبو عبد اللَّه القرطبي في التذكرة» فإن قيل: فقد قال اللَّه تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ﴾.

قيل له: «لا تنفعُه في الخروج من النار، كما تنفعُ عصاةَ الموحدين، الذين يخرجون منها، ويدخلون الجنة» ا هـ.

والظاهر أن هذه الشفاعة خاصة بنبينا محمد ﷺ وكذلك خاصة في أبي طالب (واللَّه أعلم).

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه أحمد ومسلم.
(٣) رواه مسلم.

السادسة: الشفاعة في رفع درجات من يَدْخُلِ الجنة:

فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم وقد وافقت المعتزلة على هذه الشفاعة خاصة.

ومن أدلة ذلك:

١- عن أبي موسى الأشعري لما أُصيب عمُه أبو عامر في غزوة الأوطاس، وأخبر أبو موسى رسول اللَّه ﷺ ورفع يديه وقال: «اللَّهم اغفر لعبيد أبي عامر واجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك»(١).

٢- ومن حديث أم سلمة: أن رسول اللَّه ﷺ دعا لأبي سلمة بعدما تُوفي فقال: «اللَّهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهدِيِّن، واخلفه في عقبه في الصابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره ونور له فيه»(٢).

السابعة: شفاعته ﷺ في أقوام تساوت حسناتهم وسيئاتهم:

«فيُشفع فيهم فيدخلوا الجنة»(٣).

الثامنة: شفاعته ﷺ في أقوام قد أُمر بهم إلى النار أن لا يدخلوها(٤):

ولم أجد لها دليلًا صحيحاً حسب علمي وكل ما وجدته هو:

قول الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا في كتابه «الأهوال»: قال حدثنا سعيد بن محمد الجرمي حدثنا أبو عبيدة الحداد حدثنا محمد بن ثابت البناني عن عبيد اللَّه بن عبد اللَّه ابن الحارث بن نوفل، عن أبيه عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: يُنصب للأنبياء يوم القيامة منابرُ من ذهب. . وما أزال أشفع حتى أعطي صكاكا برجال قد بُعث بهم إلى النار، حتى إن (مالِكا) خازنَ جهنم لَيقول: «يا محمد، ما تركت لغضب ربك على

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) العقيدة الطحاوية ٢٥٧ - والنهاية لابن كثير ٢/ ٢٠٤ . ولم أجد لهذا دليلا من الكتاب والسنة، ولكن أوردها هذا للبيان فقط واللَّه أعلم.

(٤) العقيدة الطحاوية ٢٥٧ والنهاية لابن كثير ٢/ ٢٠٤، الشفاعة للشيخ مقبل بن هادي الوادعي ١١٠ .



أمتك من نقمة»(١).

وعن أبي بكر بن أبي الدنيا قال: حدثنا اسماعيل ابن عبيد بن عمير بن أبي كريمة حدثني محمد بن سلمة عن أبي عبد الرحيم، حدثني زيد بن أبي أنيسة، عن المنهال بن عمرو عن عبد اللّه بن الحارث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يُحشر الناس عراة فيجتمعون شاخصة أبصارهم إلى السماء، يبصرون فصل القضاء، قياما أربعين سنة، فينزل اللّه عزَّ وجلَّ من العرش إلى الكرسي، فيكون أول من يُدعى إبراهيمُ الخليل عليه الصلاة والسلام فيكسى قبطيتين من الجنة»، ثم يقول اللّه عز وجل: ادعوا إليّ النبي الأميّ محمدا، قال فأقوم، فأُكسى حلّة من ثياب الجنة قال: ويُفَجّر لي الحوض، وعرضُه كما بين أيلة إلى الكعبة، قال: فأشرب، وأغتسل، وقد تقطعت أعناقُ الخلائق من العطش، ثم أقوم عن يمين الكرسي، ليس أحد قائم ذلك المقام غيري.

ثم يقال: «سل تعطه، واشفع تشفع»؛ فقال رجل: «أترجو لوالديك شيئا يا رسول اللّه؟ قال إني لشافع لهما أُعطيت أو مُنعت وما أرجو لهما شيئا».

قال الشيخ مقبل رحمه الله: الحديث رجاله رجال الصحيح إلا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة وقد وثّقه الدار قطني، وقال الجعابي: يحدث عن أبي سلمة بعجائب كما في التهذيب والميزان، ويُخشى أيضا من إرساله، فيحتمل أن يكون عبد اللّه بن الحارث سمعه من أبي هريرة ويحتمل أن يكون أرسله واللّه أعلم(٢).

---

(١) قال ابن حجر في التقريب: محمد بن ثابت البناني ضعيف، وقال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» ١٣/ ٨٢: غريب منكر، وقال الألباني في «السلسلة الضعيفة» ٥٠١٣: حديث ضعيف.

(٢) (قلت) وأخشى أن يكون هذا الحديث من هذه الأعاجيب التي حدَّث بها إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة عن أبي سلمة ففي هذا الحديث علتان في السند أ - إسماعيل بن أبي كريمة ب - واحتمال ارسال عبد اللّه بن الحارث ثم إن قول الرسول ﷺ، في الحديث «بالنسبة للشفاعة لوالديه وهما قد ماتا على الكفر: (إني لشافع لهما، أعطيت أو منعت وما أرجو لهما شيئا» فيه مخالفة ظاهرة لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ ثم إن الحديث ليس فيه دليل على ما ذهبوا إليه وهو شفاعته لأناس ذهب بهم إلى النار أن لا يدخلوها.



- والحديث الثاني بنفس السند السابق إلا أن المنهال قال حدثني عبد اللّه بن الحارث أيضا أن نبي اللّه ﷺ قال: «أَمرّ بقوم من أمتي قد أُمر بهم إلى النار، فيقولون: «يا محمد ! ننشدك الشفاعة»، قال: «فأُمر الملائكةُ أن يقفوا بهم»، قال: «فانطلق واستأذن على الرب عزَّ وجلَّ، فيؤذن لي فأسجد وأقول ربِّ قومٌ من أمتي قد أَمرت بهم إلى النار»، قال: «فيقول انطلق فأخرج من شاء اللّه أن تخرج» ثم ينادي الباقون: «يا محمد ! ننشدك الشفاعة» فأرجع إلى الربّ، فأستأذن فيؤذن لي فأسجد فيقول: «ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع» فأقوم فأثني على اللّه ثناء لم يثن عليه أحد، ثم أقول: «قوم من أمتي قد أُمر بهم إلى النار» فيقول: «انطلق فأخرج منهم من قال لا إله إلا اللّه»، فأقول: «ومن كان في قلبه مثقال حبة من إيمان؟» قال: فيقول: يا محمد ! ليست تلك لك، تلك لي. . . »(١).

الشفعـاء:

الأول: نبينا محمد ﷺ للأحاديث السابقة:

وكذلك لحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[الإسراء: ٧٩]. قال: «الشفاعة»(٢).

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يجمع اللّه الخَلْقَ في صعيد واحد، فينفذهم البصر، ويسمعهم الداعي، فيقول: «يا محمد»، فأقول: «لبيك وسعديك والخير في يديك»، والشر ليس إليك وعبدك بين يديك، وبك وإليك والمهدي من

(١) وفي هذا الحديث نفس علل الإسناد السابق، وزيادة إرسال عبد اللّه بن الحارث إلى النبي ﷺ.
(الخلاصة) أن هذا المقام من الشفاعة ليس (عندي) له دليل ثابت من الكتاب والسنة واللّه أعلم.
«فإن أصبت فمن اللّه وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان». إلا أن يُستدل عليها بقول الرسول ﷺ: «ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون باللّه شيئا إلا شفعهم اللّه فيه» رواه مسلم، فإن هذه شفاعة قبل أن يدخل النار فيشفعهم اللّه في ذلك - انظر «الشيخ محمد بن صالح العثيمين - القول المفيد على كتاب التوحيد ١/ ٣٣٥».
(٢) رواه الترمذي وابن أبي العاصم في السنة وصححه الألباني.



هديت، ولا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت».

قال حذيفة: «فذلك المقام المحمود، والذي يغبطه الأولون والآخرون»[١]

وعن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خُيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل شطر أمتي الجنة فاخترت الشفاعة»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «أنا أول من تنشق عنه الأرض وأول شافع وأول مشفَّع»[٣].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «أنا أول شفيع في الجنة»[٤].

وعن عمران بن حصين قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يخرج أقوام من النار بشفاعة محمد ﷺ فيدخلون الجنة ويسمون الجهنمين»[٥].

الثاني: الملائكة:

لقوله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل: «..ثم يقول ربنا: شفعت الملائكة..»[٦].

الثالث النبيون:

لقوله ﷺ في حديث الشفاعة السابق «ثم يقول ربنا... شفعت الملائكة وشفع النبيّون».

الرابع المؤمنون:

لقوله ﷺ في الحديث السابق «ثم يقول ربنا شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون...».

---

(١) رواه ابن أبي العاصم في السنة والطيالسي وصححه الألباني في السنّة لابن أبي العاصم ٧٨٩ .
(٢) رواه أحمد وغيره وصححه الألباني صحيح الجامع ٣٣٣٠ .
(٣) رواه أحمد وابن خزيمة ومسلم وابن أبي العاصم ٧٩٢ .
(٤) رواه مسلم والدارمي وابن خزيمة وابن أبي العاصم.
(٥) رواه البخاري.
(٦) متفق عليه من رواية أبي سعيد الخدري.

وعن عبد اللّه بن الجدعاء رضي الله عنه قال: «سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من بني تميم»[١].

- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال في حديث الشفاعة الطويل: «فَوَالذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشد مناشدة في الحق قد تبين لكم من المؤمنين للّه يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار، يقولون: «ربنا كانوا يصومون معنا، ويصلون، ويحجون».

فقال لهم: «أخرجوا من عرفتم»، فتُحرّم صورهم على النار، فيُخرِجون خلقا كثيرا، ثم يقولون: «ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به» فيقول: «ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير، فأخرجوه»، فيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقول: «ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه»، فيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون: «ربنا لم نذر فيها خيرا».

الخامس الأولاد الصغار:

عن أبي حسّان قال قلت لأبي هريرة رضي الله عنه: «إنه قد مات لي ابنان، فما أنت محدثي عن رسول اللّه بحديث تُطيّب به أنفسنا عن موتانا؟» قال: قال: «نعم» صغارهم دعاميص[٢] الجنة، يتلقى أحدُهم أباه أو قال أبويه فيأخذ بثوبه أو قال بيده كما آخذ أنا بصيغة ثوبك هذا، فلا يتناهى، أو قال فلا يتنهى حتى يدخله اللّه وأباه الجنة»[٣].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث إلا أدخلهم اللّه وإياهم بفضل رحمته الجنة، وقال يقال لهم: «ادخلوا الجنة»، قال فيقولون: «حتى يجيء أبوانا»، قال ثلاث مرات، فيقولون مثل ذلك،

---

(١) رواه الترمذي والدارمي وابن ماجة وصححه الألباني في المشكاة (٥٦٠١) .
(٢) دعاميص: جمع دعموص: وهي دويبة تكون في مستنقع الماء كثيرة الحركة لا تكاد تستقر. والمراد الإخبار بأنهم سيّاحون في الجنة.
(٣) رواه أحمد و مسلم والبيهقي البخاري في الأدب المفرد.

فيقال لهم: «ادخلوا الجنة أنتم وأبواكم»[١].

وقال الإمام أحمد في مسنده ثنا وكيع ثنا شعبه عن معاوية بن عروة عن أبيه قال: إن رجلا كان يأتي النبي ﷺ ومعه ابن له، فقال له النبي ﷺ: «أتحبه؟» فقال: «يا رسول الله! أحبك الله كما أحبه» ففقده النبي ﷺ فقال: «ما فعل ابن فلان؟» قالوا: «يا رسول الله! مات»، فقال ﷺ لأبيه: «أما تحب أن لا تأتي باباً من أبواب الجنة إلا وجدته ينتظرك؟» فقال رجل: «يا رسول الله! أله خاصة، أو لكلنا؟» قال: «بل لكلكم»[٢].

أسباب الشفاعة:

١- **قراءة القرآن**: فعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه، اقرأوا الزهراوين البقرة، وسورة آل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيابتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما، اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة»[٣].

٢- **الصيام**: عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: «أي ربّ، إني منعته الطعام، والشهوات بالنهار فشفّعني فيه»؛ ويقول القرآن: «رَبِّ منعته النوم بالليل فشفعني فيه فيشفع له»[٤].

٣- **سكنى المدينة والموت فيها**: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من أمتي، إلا كنتُ له شفيعا يوم القيامة، أو شهيداً»[٥].

---

(١) ارواه أحمد والنسائي والبيهقي وقال الشيخ مقبل رحمه الله: «وهو على شرط الشيخين» الشفاعة ٢٠٢، وإسناده صحيح.
(٢) سنده صحيح.
(٣) رواه أحمد ومسلم وابن حبان والحاكم والطبراني في الكبير.
(٤) رواه أحمد والطبراني والحاكم وصححه الألباني.
(٥) رواه مسلم وروى معناه أحمد والترمذي ومالك في الموطأ والحميدي والبخاري في التاريخ الكبير.

٤ - الصلاة على النبي ﷺ وطلب الوسيلة له: عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلّوا عليّ، فإنه من صلى عليّ صلاة صلى اللَّه عليه بها عشرا، ثم سلوا اللَّه لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد اللَّه، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلّت له الشفاعة»[(١)].

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من قال حين يسمع النداء اللَّهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته إلا حلّت له الشفاعةُ يومَ القيامة»[(٢)].

٥ - صلاة الموحدين على الميت الموحّد: عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «ما من ميت يُصلي عليه أمّة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له، إلا شُفِّعوا فيه»[(٣)].

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلًا، لا يشركون باللَّه شيئا إلا شفّعهم فيه»[(٤)].

الأسباب المانعة للشفاعة:

كثرةُ اللّعن: فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة»[(٥)].

قال النووي: «لا يشفعون يوم القيامة حين يشفع المؤمنون في إخوانهم الذين استوجبوا النار»[(٦)].

ونسأل اللَّه تعالى أن يرزقنا الشفاعة بفضله، ومنه فإنه على كل شيء قدير[(٧)].

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وأحمد وأبو داود.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي والطيالسي.
(٤) أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجة والبيهقي.
(٥) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والبخاري في الأدب المفرد وفي التاريخ الكبير وأبو نعيم في الحلية والحاكم في المستدرك.
(٦) انظر شرح صحيح مسلم (١٦/ ١٤٩).

التاسعة والأربعون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«نؤمن أن محمدا ﷺ قد أرسلهَ اللَّهُ إلى الناس كافةً عربِهِم وعجمِهم منذ بْعثَتِهِ وإلى قيام الساعة، وأنه رسول اللَّه إلى الإنس والجن جميعا».

قوله: «نؤمن أن محمدا ﷺ قد أرسله اللَّه إلى الناس كافة عربهم وعجمهم منذ بعثته وإلى قيام الساعة».

الشرح: قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

قال تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربي والعجمي ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أي جميعكم وهذا من شرفه وعظمته ﷺ وأنه خاتم النبيين، وأنه مبعوث إلى الناس كافة(١) أهل الكتاب فيكم، وغيرهم(٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]. أي إلى جميع الخلائق من المكلفين، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن اللَّه تعالى فضّل محمداً على أهل السماء، على النبيين»، قالوا: «يا ابن عباس! فبمَ فضّله على الأنبياء؟ قال رضي الله عنهما: إن اللَّه تعالى قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] وقال للنبي ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ فأرسله اللَّه إلى الجن والإنس»(٣).

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، الذي جعله فرقانا عظيما، إنما خصه به ليخص بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء، ويستقل على الغبراء(٤) والأهل من اليهود، والنصارى داخلون في هذا كما قال

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٣٩).
(٢) تيسير الكريم المنان (٣/ ١٠١) الخلفاء للكتاب الإسلامي.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٧١١ .
(٤) المصدر السابق ٣/ ٤١٣ .

تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ [آل عمران: ٢٠].

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة[١] يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار»[٢].

وقال ﷺ: «بعثت إلى الأحمر والأسود»[٣].

وقال: «كان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس عامة»[٤].

وعن أنس رضي الله عنه أن غلاما يهوديا كان يضع للنبي ﷺ وضوءه، ويناوله نعله، فمرض فأتاه النبي ﷺ فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه فقال له النبي ﷺ: «يا فلان! قل لا إله إلا اللَّه» فنظر إلى أبيه فسكت أبوه، فأعاد عليه النبي ﷺ فنظر إلى أبيه، فقال أبوه: «أطع أبا القاسم» فقال الغلام: «أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأنك رسول اللَّه " فخرج النبي ﷺ وهو يقول: الحمد للَّه الذي أخرجه بي من النار»[٥].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «زُويَتْ لي الأرضُ، فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها»[٦].

عام الوفود:

سُمّي العام التاسع بعام الوفود، حيث ابتدأت وفودُ القبائل العربية تَقْدُم من أنحاء الجزيرة العربية معلنةً دخولَها في الإسلام.

---

(١) الأمة: المقصود أمة الدعوة.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم.
(٤) متفق عليه وبداية الحديث «اعطيت خمسا لم يعطهن».
(٥) رواه البخاري واحمد واللفظ له.
(٦) رواه مسلم وأحمد والترمذي وأبو داود.

ومن هذه الوفود وفد (تميم) ووفد (طي)، ووفد (دوس)، ووفد (بني سعد بن بكر)، ووفد (عبد القيس)، ووفد (بني حنيفة)، وفيهم مسيلمة الكذاب، وأنه اشترط لإسلامه أن يكون له الأمر بعد الرسول ﷺ وأن النبي ﷺ قال له إنه لو سأله قطعة (جريد) ما أعطاه.

وكذلك وفد (نجران) وفيهم العاقب، والسيد، حاكما نجران، وقد دعاهم الرسول ﷺ إلى الإسلام فأبوا فدعاهم إلى المباهلة ولكنهما طلبا مصالحة على أن يعطوا الجزية، وكذلك قدم وفد (الأشعريين) من أهل اليمن(١).

إرسال الرسل إلى جميع الطوائف:

١- أرسل النبي ﷺ رسولا إلى ملك مصر (المقوقس) مَلِكَ النصارى في ذلك الوقت في الإسكندرية وكان رسوله إليه حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه فقال خيراً وأكرم الرسلَ وأهدى للنبي ﷺ جاريتين وبغلة وقبِل ﷺ هديته، واصطفى جارية(٢)، وأعطى الأخرى لحسّان بن ثابت(٣).

٢ - بعث ﷺ رسوله إلى كسرى مَلِكَ الفُرس، ولكن مَلِك الفُرس مزّق كتاب النبي ﷺ فدعا عليهم، فقال: «اللّهم مزق مُلكهم كلَّ مُمزق»، فلم يبق لهم مُلك(٤) وكان مما كتبه «. . . فإني رسول اللّه إلى الناس كافة، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم وإن أَبَيْتَ، فإن إثم المجوس عليك(٥).

٣- وكتب كذلك إلى النجاشي كما في حديث أنس رضي الله عنه «أن النبي ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي، وإلى كل جبار، يدعوهم إلى اللّه تعالى وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ»(٦).

---

(١) البخاري ومسلم.
(٢) وهي مارية القبطية فولدت منه إبراهيم.
(٣) طبقات بن سعد ١/ ١٣٤، ٢٦٠ والبداية والنهاية ٤/ ٢٧٢ .
(٤) رواه البخاري.
(٥) رواه أحمد والبخاري وابن جرير الطبري والبداية والنهاية.
(٦) رواه مسلم.



قوله: «وأنه رسول اللَّه إلى الإنس والجن جميعا».

ش: قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

أي طائفة من الجن فلما حضروه قال: «صه، أي انصتوا» وهذا أدب منهم، فلما انتهى وفرغ الرسول ﷺ رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول اللَّه ﷺ واستدل بهذه الآية على أنه في الجن نُذر وليس فيهم رسل.

ثم قال تعالى عنهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٣١- ٣٢].

وهذا فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الثقلين الجن والإنس، حيث دعاهم إلى اللَّه تعالى ثم دعوا أقوامم بالترغيب والترهيب، ولهذا نجع في كثير منهم، وجاءوا إلى رسول اللَّه ﷺ وفودا[(١)].

وقال تعالى عنهم: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١-٢]. يقول تعالى آمرا رسوله ﷺ: «أن يخبر قومه أن الجنّ استمعوا القرآن، فآمنوا به صدقوه وانقادوا»[(٢)] فقد دعاهم ﷺ إلى اللَّه تعالى وقرأ عليهم السور التي فيها خطاب الفريقين (الإنس والجن) وتكليفهم ووعيدهم وهي سورة الرحمن حيث قال فيها: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾، ﴿سنفرغ لكم أية الثقلان﴾، ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[(٣)] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢١٧، ٢١٩ (بتصرف).
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٠ .
(٣) شواظ لهيب النار.



ﭐلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ﴾ حتى قال جابر رضي الله عنه خرج رسول اللّه ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن، من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال: لقد قرأتها (يعني سورة الرحمن) على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردودا منكم، كنت كلما أتيت على قوله ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: «لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد»[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: انطلق رسول اللّه في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرسلت عليهم الشُّهب. فرجعت الشياطين، فقالوا: «ما لكم؟» فقالوا: «حيل بيننا وبين السماء، وأُرسلت علينا الشُّهب» قال: «ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا أمراً ما حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث؟» فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء؟ قال: فانطلق الذين توجهوا نحو (تهامة) إلى رسول اللّه ﷺ (بنخلة) وهو عامد إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن تسمّعوا له، فقالوا: «هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم»، فقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا، وأنزل اللّه عزَّ وجلَّ على نبيه: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ وإنما أوحي إليه قولُ الجن»[٢].

وعن عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه قال: «كُنّا مع رسول اللّه ﷺ ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقيل: «استطير[٣]؟ اغتيل؟» قال: «فبتنا بِشرٍّ ليلة

(١) رواه البزار والحاكم وابن جرير والترمذي واللفظ له وحسنه شيخنا الألباني - رحمه الله - «صحيح الجامع ٥١٣٨».
(٢) رواه البخاري.
(٣) استطير: أي ذُهبت به بسرعة كأن الطير حملته، أو اغتاله أحد، والاستطارة والتطاير: التفرق والذهاب. (النهاية ٣/ ١٥١ - ١٥٢).

بات بها قوم»، فلما أصبحنا إذ هو جاء من قبل حراء، قال: فقلنا: «يا رسول اللَّه! فقدناك فطلبناك فللم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم» فقال: «أتاني داعي الجِنّ فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن» قال: فانطلق بنا النبي ﷺ فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوا (الجن): الزّاد. فقال: كل عظم ذُكر اسم اللَّه عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما.

وكل بعرة أو روثة، علف لدوابكم، قال رسول اللَّه ﷺ: «فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم»[1].

* * *

(١) رواه مسلم.



القضية الخمسون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«نؤمن أن رسول اللَّه ﷺ قد ثبتت له المعجزات الباهرة، والبراهين الناصعة على صدقه، وأمانته، فقد أُنزل عليه القرآن المعجز، وأُسري به إلى القدس من مكة في ليلة واحدة، ويشهد المؤمنون أنه عُرج به إلى السماء في ليلة الإسراء، وشاهد الملائكة المرسلين وكلمهم، وكَلّمه اللَّه سبحانه وتعالى، وأكرمه، وفرض عليه وعلى أمته خمس صلوات في اليوم والليلة».

قوله: «نؤمن أن رسول اللَّه ﷺ قد ثبتت له المعجزات الباهرة والبراهين الناصعة على صدقه وأمانته»

الشرح: والآيات الباهرة، والدلالات الواضحة أكثر من أن تُحصر، فمعجزاته عليه الصلاة والسلام قسمان:

الأولى: الحسية وهي ثلاثة أنواع:

١- **خارجة عن ذاته:** كانشقاق القمر، وطاعة الشجر في المشي إليه، وتسليم الحجر عليه، وحنين الجذع إليه، وشهادة الشاة المشوية.

٢- **العائدة إلى ذاته:** مثل خاتم النبوة بين كتفيه، وما شوهد من خَلقته، وصورته التي يحكم علم الفراسة بأنها دالة على نبوته.

٣- **ما يتعلق بصفاته:** كصدقه، وأمانته، وشجاعته، والشفقة والرحمة على أمته.

الثاني: العقلية وهي ستة أنواع:

١- أنه ظهر في قبيلة ليست من أهل العلم، ولم يرحل إلا مرتين، كلاهما إلى الشام، وكانت مدة سفره قليلة ثم بعد أن خرج بهذا العلم الذي ورد في القرآن العظيم من ذكر قصص الأولين، وتواريخ المتقدمين، ما لم يدانيه، ويخطئه حتى العارفين والمتخصصين قال تعالى عنه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ العنكبوت: ٤٨] ومَنْ له عقل سليم، عَلِم أن هذه



الأحوال لا تتيسر إلا بالتعليم الإلهي، والتوفيق الرباني.

٢- كونه ﷺ قبل ظهور الرسالة لم يكن باحثا عن هذه الأمور، ولا مشغولًا بها حتى يقال أنه وصل إليه بعد طول تأمل وتدبر، ومعلوم أن من انقضى من عمره أربعون سنة ولم يخض في شيء من هذه المطالب ثم إنه خاض فيها دفعة واحدة، فصريح العقل يشهد بأن هذا لا يكون إلا على سبيل الوحي من اللّٰه تعالى.

٣- تحمّله عليه الصلاة والسلام في أداء الرسالة أنواع المتاعب والمشاق، فلم يظهر من عزمه فتور، ثم لمّا انتصر ونفذت أوامرُه في الأموال، والأرواح لم يتغير منهجه في الزهد في الدنيا.

٤- أنه ﷺ كان مستجاب الدعوة وذلك معلوم بالتواتر الضروري لمن عرف سيرته.

٥- ورود البشارة به في الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل وقد أدّعي ذلك ولم يعارضه أهل الكتاب.

٦- إخباره عن الغيوب وصدقه في ذلك، وهذا كذلك باب واسع معلوم بالتواتر[1].

قوله: «قد أنزل عليه القرآن المعجز»

ش: الإعجاز:[2] إثبات العجز، والعجز في التعاريف: اسم للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة، وإذا ثبت الإعجاز ظهرت قدرة المعجز

الإعجاز في القرآن: إظهار صدق النبي ﷺ في دعوة الرسالة بإظهار عجز العرب[3] عن معارضته في معجزته الخالدة[4] وقال الخطابي رحمه الله: «إن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، متضمناً أصح المعاني، من توحيد

---

(١) إيثار الحق على الخلق ٧٩ - ٨٥ للعالم المجتهد أبي عبد اللّٰه محمد بن المرتضى اليماني، رحمه الله (باختصار).

(٢) قال السيوطي: «اعلم أن المعجزة أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة».

(٣) ذُكِر العربُ لأن القرآن والسنة بلسانهم، فإذا هم عجزوا فغيرهم من باب أولى.

(٤) مباحث علوم القرآن ٢٥٨ للشيخ مناع القطان (حفظه اللّٰه) وراجع البرهان للزركشي.



اللَّه وتنزيهه في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان لمنهاج عبادته، في تحليل وتحريم، وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم، وأَمْرٍ بالمعروف ونهي عن المنكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق وزجر عن مساوئها، واضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يتوهم في صورة العقل أمر أليق به منه، مودعا أخبار القرون الماضية، وما نزل من مثلات اللَّه بمن عصى وعاند منهم، مُنبئا عن الكوائن المستقبلة في الأعصار الماضية من الزمان...»[١].

أولا: الإعجاز اللغوي:

إن القرآن الذي عجز العرب عن معارضته لم يخرج عن سنن كلامهم ألفاظا وحروفا، تركيبا وأسلوبا، ولكنه في اتساق حروفه، وطلاوة عبارته في هذا ونظائره بلغ الذروة التي تُعجز أمامها القدرة اللغوية لدى البشر[٢] وها هو الوليد بن المغيرة يقول: «وماذا أقول؟ فواللَّه ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، لا برجزه، ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، واللَّه ما يشبه الذي يقوله شيئا من هذا، وواللَّه إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وأنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله وإنه ليعلو وما يعلى عليه وإنه ليحطم ما تحته»[٣].

وانظر إلى خطابه إلى أصناف الناس بما تطيقه عقولهم، فيراها كل واحد منهم مقدرة على مقياس عقله ووفق حاجته، من العامة والخاصة ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]. وقد جاء القرآن على كثرته وطوله متناسبا في الفصاحة على ما وصفه اللَّه، عزّ وجلّ من قائل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

(١) بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان حمد بن محمد إبراهيم الخطابي.
(٢) مباحث في علوم القرآن ٢٦٦ .
(٣) رواه الحاكم وصححه.

ثانيا: الإعجاز العلمي:

والقرآن الكريم يجعل التفكير السديد، والنظر الصائب في الكون وما فيه أعظم وسيلة من وسائل الإيمان بالله:

* إنه يحث المُسلم على التفكير في مخلوقات الله في السماء والأرض.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠- ١٩١].

* ويحثه على التفكير في نفسه ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ﴾ [الروم: ٨].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧- ٢٠]. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۗ﴾ [الأنعام: ٩٧]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۗ﴾ [الأنعام: ٩٧].

* وعن ظلمات قعر المحيطات﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَاۗ﴾ [النور: ٤٠].

* وعن ظلمة الجنين في بطن أمه: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍۚ﴾ [الزمر: ٦].

* وعن قِلة الأكسجين في طبقات الجو العليا: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

* وعن وحدة الكون وحاجة الحياة إلى عنصر الماء: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].



تنبيه: لا نقصد بهذا أن القرآن الكريم يتضمن كل نظرية علمية فإن هذا بالإضافة إلى أنه خطأ منهجي أساسي ينطوي على ثلاثة محاذير:

١- الهزيمة الداخلية التي تخيل للناس أن العلم هو المهيمن، والقرآن تابع، ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم، فإن لم يجد تشكك وتزعزع.

٢- سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته، وهي أنه حقيقة نهائية مطلقة تعالج بناء الإنسان بناء يتفق - بقدر ما تسمح طبيعة الإنسان النسّية - مع طبيعة هذا الكون وناموسه الإلهي.

٣- التأويل[1] المستمر - مع التمحّل والتكلّف - لنصوص القرآن كي نحملها ونلهث بها وراء الفروض والنظريات التي لا تثبت، ولا تستقر، وكل يوم يجد فيها جديد.

ثالثا: الإعجاز التشريعي:

عندما خلق اللَّه الإنسان أَوْدَع فيه غرائز كثيرة، ولهذا يحتاج الإنسان الحي إلى تربية خاصة لغرائزه، تهذّبها، وتنميها، وتعودها إلى الخير والفلاح لتثبيت العقيدة والفطرة الصحيحة ومن هذه المثبتات:

الأمور التشريعية التي فرضها اللَّه في الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأن تكون في جماعة: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وتشريع للأسرة بأن رباط الأسرة في الزواج المبني على الود والرحمة والسّكن النفسي والعشرة بالمعروف ومراعاة خصائص الرجل والمرأة ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]. وقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

وفي السياسة ونظام الحكم فهي حكومة الشورى والمساواة (العدل) ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] وأن يكون التشريع في

(١) بل التحريف.



الحكومة إسلامي وليس متروكا للناس: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وحياته: الدين والأنفس، والأعراض، والأموال، والعقل: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩]. وقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]. ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾، ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

قوله: (وأُسْرِي به إلى القدس من مكة في ليلة واحدة) .

ش: لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وأُسري برسول اللَّه ﷺ بجسده على الصحيح(١) وهذا هو رأي جمهور العلماء، أن الإسراء كان يقظة بروحه وجسده، مرة واحدة(٢) وأن الإسراء والمعراج كانا في ليلة واحدة(٣) من المسجد الحرام إلى بيت المقدس (المسجد الأقصى) كما جاء من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «أُتيتُ ليلة أسري بي فانطلق بي إلى زمزم، فَشُرح عن صدري، ثم غُسل بماء زمزم ثم أُنزل»(٤).

وفي رواية: «أُتيتُ بالبُراق، وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار، ودون البغل، يضع حافره عند طرفه، فركبته، حتى أتيت بيت المقدس»، وفي رواية «فلم نُزايل ظهره أنا، وجبريل حتى أتيت بيت المقدس(٥)، فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل بإناء

---

(١) مباحث في علوم القرآن ٢٥٨ - ٢٨٠ بتصرف.
(٢) زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٣٤ .
(٣) تفسير الطبري ١٥/ ١٣، ١٤ وزاد المعاد ١/ ٩٩، ٣/ ٣٤، ٤٠ .
(٤) رواه مسلم.
(٥) رواه أحمد والحاكم وأبي يعلى وابن حبان وحسنه الألباني (الجامع ١٢٧).

من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة..»[١].

وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه «وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، فإذا موسى قائم يصلي فإذا رجل ضرب[٢] جعد[٣] كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى بن مريم عليه السلام قائم يصلي، أقرب الناس به شبها عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي، أشبه الناس به شبهاً صاحبكم (يعني نفسه) فحانت الصلاة فأمّهم[٤].

قوله: و«يشهد المؤمنون أنه عُرج[٥] به إلى السماء في ليلة الإسراء، وشاهد الملائكة، والمرسلين، وكلّمه اللّه سبحانه وتعالى، وأكرمه وفرض عليه وعلى أمته خمس صلوات في اليوم والليلة».

ش: جاء عن أنس رضي الله عنه من حديث الإسراء والمعراج عن النبي ﷺ قال: «... ثم عُرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل، فقيل: «من أنت؟» قال: «جبريل» قيل: «ومن معك؟» قال: «محمد»، قيل: «وقد بُعث إليه؟» قال: «قد بُعث إليه» ففُتح لنا، فإذا أنا بآدم، فرحب بي، ودعا لي بخير.

ثم عُرِج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، «فقيل من أنت؟» قال: «جبريل»، قيل: «ومن معك؟» قال: «محمد» قيل: «وقد بُعث إليه؟» فَفُتح لنا، فإذا أنا بابنيّ الخالة: عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا، فرحبا بي، ودعوا لي بخير.

ثم عُرِج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل: «من أنت؟» قال: «جبر»، قيل: «من معك؟» قال: «محمد»، قيل: «وقد بُعث إليه؟» قال: «قد بعث إليه»، ففتح

---

(١) رواه أحمد ومسلم.
(٢) رجل ضرب: هو خفيف اللحم الممشوق المسترقب (النهاية ٣/ ٧٨).
(٣) جعد: ضد السبط والاسترسال يعني: شعر الرأس.
(٤) رواه أحمد ومسلم. ذهب ابن حجر أن صلاته بهم كانت قبل العُروج، بينما يرى «ابن كثير» أنه صلى بهم في بيت المقدس بعد عروجه.
(٥) عرج: العرج: الصعود وقد يكون بمعني شديد الأسر والخَلْقِ (النهاية ١/ ٢٧٥).

لنا، فإذا أنا بيوسف، وإذ هو قد أُعطي شطرَ الحُسن، فرحب بي، ودعا لي بخير.

ثم عُرِج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: «من هذا؟» قال: «جبريل»، قيل: «ومن معك؟» قال: «محمد»، قيل: «وقد بعث إليه؟» قال: «قد بعث إليه»، ففتح لنا، فإذا أنا بإدريس فرحب بي ودعا لي بخير، قال اللَّه تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧].

ثم عُرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل، فقيل: «من هذا؟» قال: «جبري»، قيل: «ومن معك؟» قال: «محمد»، قيل: «وقد بعث إليه؟» قال: «قد بعث إليه»، ففتح لنا، فإذا أنا بهارون، فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عُرِج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل، فقيل: «من هذا؟» قال: «جبريل»، قيل: «ومن معك؟» قال: «محمد» قيل: «وقد بعث إليه؟» قال: «قد بعث إليه»، ففتح لنا، فإذا أنا بموسى، فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عُرِج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: «من هذا؟» قال «جبريل»، قيل: «ومن معك؟» قال: «محمد»، قيل: «قد بعث إليه؟» فقال: «قد بعث إليه»، ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم مُسنِدا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك، لا يعودون إليه، ثم ذُهب بي إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، فلما غشيها من أمر اللَّه ما غشي تغيرت، فما أحد من خَلْقِ اللَّه يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى اللَّه إليّ ما أوحى، ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة.

فنزلتُ إلى موسى، فقال: «ما فرض ربك على أمتك؟» قلت: «خمسين صلاة»، قال: «ارجع إلى ربك فسله التخفيف، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فإني قد بَلوتُ بني إسرائيل وخبرتهم»، فرجعت إلى ربي فقلت: «يا رب خفف عن أمتي» فحط عني خمسا.

فرجعتُ إلى موسى فقلت: «حطّ عني خمسا»، قال: «إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فسله التخفيف».



فلم أزل أرجع بين ربي، وبين موسى، حتى قال: «يا محمد ! إنهنّ خمس كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة، فإن عملها كُتبت له عشرا، ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا، فإن عملها كُتبت سيئة واحدة، فنزلتُ حتى انتهيت إلى موسى، فأخبرته، فقال: «ارجع إلى ربك فسله التخفيف"، فقلت: "قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه»(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «أتيت ليلة أسري بي على قوم تُقرَض شفاهُهم بمقاريض من نار، كلما قُرضت وفّت(٢)، فقلت: «يا جبريل من هؤلاء؟» قال: «خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون، ويقرؤون كتاب اللّه لا يعملون به»(٣).

وعندما رجع وأخبر قريش، كَذَبته، فجلّاه اللّه له، كما قال ﷺ: «لقد رأيتني في الحِجر، وقريش تسألني عن مسراي، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكِربتُ كرباً ما كرِبتُ مثله قط، فرفعه اللّه لي، أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به..»(٤).

ثلاث مسائل في الإسراء:

الأولى: هل الإسراء بالروح والجسد؟

الجواب: أكثرُ العلماء على أن الإسراء كان بالروح والجسد للأدلة التالية:

١- قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]. فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان مناما لم يكن فيه شيء، ولم يكن مُستعظما، فالنائم قد يذهب بأبعد من المسجد الأقصى.

٢- ولو كان مناما لَما بادر كفار قريش إلى تكذيب النبي ﷺ، ولما ارتدت جماعة

---

(١) رواه أحمد ومسلم.
(٢) رجعت كما كانت قبل قصها وقطعها.
(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان وحسنه الألباني (صحيح الجامع ١٢٩)
(٤) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ممن كان قد أسلم، فقريش كانت تضرب به أكباد الإبل شهر ذهاب وشهر إياب.

٣- قوله تعالى: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ فإن (العبد) عبارة عن مجموعة من الروح والجسد.

٤- وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه هي عين أريها رسول اللّه ﷺ ليلةَ أسري به[1].

٥- وقال تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ والبصر من آلات الذات لا الروح.

٦- حمله ﷺ على البراق وهو دابة بيضاء، برّاقة لها لَمَعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب عليه، واللّه أعلم[2].

الثانية: ما المقصود بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٨-٩].

قال ابن كثير رحمه الله أن هذا المقترِب، الداني الذي صار بينه وبين محمد ﷺ إنما هو جبريل عليه السلام وهو قول أم المؤمنين عائشة وابن مسعود وأبي ذر وأبي هريرة رضي اللّه عنهم أجمعين.

وقال عبد اللّه بن مسعود: «أن محمداً ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح»[3].

الثالثة: هل رأى محمد ﷺ ربه؟

حكى القاضي عياض في كتابه الشفا اختلاف الصحابة، ومن بعدهم في رؤيته ﷺ لربه في (الإسراء والمعراج) فقد صحّ عن عائشة، وابن مسعود رضي الله عنهما إنكار ذلك فعن مسروق قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: يا أمتاه هل رأى محمد ﷺ ربه؟ فقالت: لقد قفّ شعري[4] مما قلتُ! أين أنت من ثلاث، منْ حدثكن فقد كذب: من حدّثك أن محمداً

---

(١) رواه البخاري.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٥ .
(٣) رواه البخاري.
(٤) قف شعري: أي قام من الفزع.



ﷺ رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت ﴿لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]. الحديث إلى أن قالت: (ولكن رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين)[١].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول اللّه ﷺ: «هل رأيت ربك؟».

فقال: «نور أنىّ أراه» وفي رواية (رأيت نورا)،[٢] وقد حكى عثمان الدارمي اتفاق الصحابة على أنه لم يره[٣].

وقال بإنكار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين[٤].

أَمَّا قول ابن عباس رضي الله عنهما: «أنه ﷺ رآه بعينه».

فقد ضعفه الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله[٥] وروى عطاء عنه، أنه رآه بقلبه ثم قال (القاضي عياض) وأما وجوبه لنبينا ﷺ والقول بأنه رآه بعينه فليس فيه قاطعٌ ولا نَصّ.

ومن حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (قام فينا رسول اللّه ﷺ بخمس كلمات، فقال: «إن اللّه لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عَمَلُ الليل قبل عمل النهار، وعملُ النهار قبل عمل الليل، حجابه النور»[٦].

وفي رواية: «حجابه النار، لو كشفه لأحرقت، سبحات وجهُه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي.
(٢) رواه مسلم.
(٣) زاد المعاد ٣/ ٣٧ .
(٤) شرح الطحاوية ٢١٣ .
(٥) شرح الطحاوية ٢١٣ قال الألباني ضعيف، أخرجه ابن خزيمة في التوحيد بألفاظ مضطربة عنه موقوفا.
(٦) رواه مسلم.

فيكون معنى قوله لأبي ذر (رأيت نورا) أنه رأى الحجاب، ومعنى قوله: (نور أنّى أراه) النور الذي هو الحجاب يمنع من الرؤية، فأنّى أراه؟

أي: كيف أراه والنور حجاب بيني وبينه يمنعني من رؤيته؟

فهذا صريح في نفي الرؤية واللّه أعلم[١]. ويشهد لما سبق حديث عمر عن النبي ﷺ قال: «يوم القيامة أول يوم نظرت فيه عين إلى اللّه عزَّ وجلَّ»[٢].

* * *

(١) شرح الطحاوية ٢١٣ - ٢١٤ .

(٢) قال الألباني رحمه الله، رواه الدار قطني في الدرر ٦/ ١٩١ وله شاهد مرسل رواه أبو سعيد الدارمي في الرد على الجهمية (شرح الطحاوية ٢١٣ بالهامش) .



القضية الحادية والخمسون: قول المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«نشهد أن الرسول ﷺ قد نَبَعَ الماءُ من بين أصابعه، وأطعَم المئاتِ من الناس بطعام لا يكفي العشرات، وحنّ الجذعُ إليه، وسبّح الحصى، والطعام في يديه، واشتكى إليه البعير».

قوله: «نشهد أن الرسول ﷺ قد نبع الماء من بين أصابعه»

الشرح: ونبع الماء من بين أصابعه حدث كثيرا:

١- فعن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: «كنا نعدّ الآيات بركة، وأنتم تعدونها تخويفا، كنا مع رسول اللَّه ﷺ في سفر فقلّ الماءُ، فقال: «اطلبوا فضلة من الماء»، فجاءوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء ثم قال: «حيّ على الطّهور المبارك، والبركة من اللَّه»، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول اللَّه ﷺ، ولقد كنا نسمع تسبيحَ الطعام وهو يؤكل»[1].

٢- وعن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «أُوتي النبي ﷺ بإناء وهو بالزوراء[2] فوضع يده في الإناء فجعل الماءُ ينبع من بين أصابعه، فتوضأ القوم، قال قتادة: قلت لأنس: «كم كنتم»؟ قال: «ثلاثمائة، أو زهاء ثلاثمائة»[3].

٣- وعن أنس أيضا قال: «خرج النبي ﷺ في بعض مخارجه، ومعه ناس من أصحابه، فانطلقوا يسيرون، فحضرت الصلاةُ، فلم يجدوا ماء يتوضئون، فانطلق رجل من القوم فجاء بقدح من ماء يسير، فأخذه النبي ﷺ فتوضأ ثم مدّ أصابعه الأربع على القدح، ثم قال: «قوموا فتوضئوا»، فتوضأ القوم حتى بلغوا فيما يريدون من الوضوء، وكانوا سبعين أو نحوه[4].

---

(١) رواه البخاري ٦/ ٥٨٧ رقم (٣٥٧٩) .
(٢) الزوراء: مكان معروف بالمدينة عند السوق.
(٣) رواه البخاري (٣٥٧٢) .
(٤) رواه البخاري (٣٥٧٤) .



٤- وعن سالم بن أبي الجعد عن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما، قال: عطش الناس يوم الحديبية، والنبي ﷺ بين يديه ركوة[١] فتوضأ فجهش[٢] الناسُ نحَوه فقال: «ما لكم»؟ قالوا: «ليس عندنا ماء نتوضأ، ولا نشرب إلا ما بين يديك» فوضع يده في الركوة، فجعل الماءُ يثور بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا، قلت: «كم كنتم»؟ قال: «لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة»[٣][٤].

٥- وعن جابر رضي الله عنه قصة أخرى من حديث طويل وفيه: «. . . أن الماء الذي أحضروه له كان قطرة في إناء من جلد، لو أفرغها لشربها يابس الإناء وأنه لم يجد في الركب قطرة ماء غيرها، قال: «فأخذه النبي ﷺ فتكلم وغمز بيده» ثم قال: «ناد بجفنة الركب»، فجيء بها، فقال بيده في الجفنة، فبسطها ثم فرّق أصابعه، ووضع تلك القطرة في قعر الجفنة، فقال: «خُذ يا جابر فَصُبَّ عليّ وقل: «بسم اللَّه»»، ففعلتُ، قال: «فرأيت الماء يفور من بين أصابعه»، ثم فارت الجفنة ودارت حتى امتلأت، فأتى الناس فاستقوا حتى رووا، فرفع يده من الجفنة وهي ملأى[٥].

قال ابن حجر رحمه الله: «وهذه القصة أبلغ من جميع ما تقدم لاشتمالها على قِلة الماء، وعلى كثرة من استسقى منه»[٦].

قال القاضي عياض رحمه الله: «هذه القصة (نبع الماء من بين أصابعه) رواها الثقاتُ من العدد الكثير عن الجمّ الغفير عن الكافة، متصلة بالصحابة، وكان ذلك في مواطن اجتماع الكثير منهم في المحافل، ومجمع العساكر، ولم يرد عن أحد منهم إنكار على رائي ذلك، فهذا النوع ملحق بالقطعي من معجزاته».

---

(١) ركوة: إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء.

(٢) جهش الناس: أي أسرعوا لأخذ الماء.

(٣) يعني ١٥٠٠ رجل.

(٤) رواه البخاري ٦/ ٥٨١ رقم ٣٥٧ .

(٥) رواه مسلم.

(٦) فتح الباري ٦/ ٥٨٦ .



وقال ابن عبد البر عن المزني رحمهما اللّه أنه قال: «نَبْعُ الماءِ من بين أصابعه ﷺ أبلغ في المعجزة من نبع الماء من الحجر حيث ضربه موسى عليه السلام بالعصا فتفجرت منه المياه، لأن خروج الماء من الحجارة معهود، بخلاف خروج الماء من بين اللحم والدم»(١).

قوله: (وأطعم المئات من الناس بطعام لا يكفي العشرات)

ش: كما جاء من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال أبو طلحة لأم سليم: «لقد سمعت صوت رسول اللّه ﷺ ضعيفا، أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء»؟ قالت: «نعم»، فأخرجَتْ أقراصا من شعير، ثم أخرجت خمارا لها، فَلَفتِ الخبزَ ببعضه، ثم دسته تحت يدي ولا ثنتي(٢) ببعضه، ثم أرسلتني إلى رسول اللّه ﷺ، قال: «فذهبت به»، فوجدت رسول اللّه ﷺ، في المسجد ومعه الناس، فقمت عليهم، فقال لي رسول اللّه ﷺ: «أرسلك أبو طلحة؟» فقلت: « نعم»، قال: «بطعام»؟ قلت: «نعم»، فقال رسول اللّه ﷺ لمن معه «قوموا»، فانطلق، وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته، فقال أبو طلحة: «يا أم سليم قد جاء رسول اللّه ﷺ بالناس وليس عندنا ما نطعمهم».

فقالت: «واللّه ورسوله أعلم»(٣)، فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول اللّه ﷺ، فأقبل رسول اللّه ﷺ وأبو طلحة معه، فقال رسول اللّه ﷺ: «هلمّي يا أم سُليم ما عندك»، فأتت بذلك الخبز، فأمر به رسول اللّه ﷺ ففُتّ، وعصرت أم سليم عكة(٤) فأدمته»(٥).

ثم قال رسول اللّه ﷺ فيه ما شاء اللّه أن يقول، ثم قال: «إئذن لعشرة»، فأذن لهم،

---

(١) فتح الباري ٦/ ٥٨٥ .

(٢) لا ثنتي ببعضه: أي لفتني به.

(٣) كأنها عرفت أنه فعل ذلك عمدا ليظهر الكرامة في تكثير ذلك الطعام، ودلّ ذلك على فطنة أم سليم ورجحان عقلها.

(٤) عكّة: والعكّة بضم المهملة تشديد الكاف: إناء من جلد مستدير - يجعل فيه السمن غالبا والعسل.

(٥) أدمته: أي صيرت ما خرج من العكة له إداما.

فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ثم قال: «إئذن لعشرة»، فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «إئذن لعشرة»، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «إئذن لعشرة»، فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «إئذن لعشرة»، فأكل القوم كلهم حتى شبعوا والقوم سبعون أو ثمانون رجلا[١].

وفي رواية: «فقال لي أبو طلحة: يا أنس اذهب فقم قريبا من رسول اللّه ﷺ فإذا قام فدعه حتى يتفرق أصحابه، ثم اتبعه حتى إذا قام على عتبة بابه فقُل له: «إن أبي يدعوك»[٢].

وفي رواية فقال أبو طلحة: «يا رسول اللّه! إنما أرسلتُ أنساً يدعوك وحدَك، ولم يكن عندنا ما يُشبع من أرى، فقال رسول اللّه ﷺ: «ادخل فإن اللّه سيبارك فيما عندك» في رواية قال أبو طلحة» (يا أنس: فضحتنا)[٣].

قوله: (وحَنَّ الجذع إليه).

ش: والحنين: هو الشوق وتَوَقان النفس، كما ثبت في الصحيح أنه: «كان رسول اللّه ﷺ يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر، تحوّل إليه، فحنّ الجذع، فأتاه فمسح عليه»[٤].

وفي رواية أخرى: «فلما وضع المنبرَ، سمعنا للجذع مثل صوت العشار،[٥] حتى نزل رسول اللّه ﷺ فوضع يده عليه»[٦].

وفي رواية: «إن هذا بكى لِما فَقَدَ من الذِكر[٧]، وفي رواية أخرى: (لو لم أحتضنه لحنَّ إلى يوم القيامة)[٨].

---

(١) رواه البخاري ٦/ ٥٨٦ رقم ٣٥٧٨.
(٢) رواه أبو نعيم واصلة في مسلم (فتح الباري ٦/ ٥٨٦).
(٣) انظر الفتح لابن حجر ٦/ ٥٩٠.
(٤) رواه البخاري.
(٥) العشار: هي الناقة التي أتى على حملها عشرة أشهر.
(٦) رواه البخاري.
(٧) (يعني الجذع) رواه أحمد والبخاري.
(٨) رواه مسلم وأحمد وابن ماجة من حديث أنس ابن عباس رضي الله عنهما.

ومن حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «إن امرأة من الأنصار، قالت لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله ! ألا أجعل لك شيئا تقعد عليه، فإن لي غلاما نجارا؟ قال: «إن شئت»، فعملت له المنبر، فلما كان يوم الجمعة، قعد النبي ﷺ على المنبر الذي صُنع، فصاحت النخلةُ التي كان يخطب عندها، حتى كادت أن تنشق، فنزل النبي ﷺ حتى أخذها فضمها إليه، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يُسكَّت حتى استقرت»[١].

قوله: (وسبَّحَ الحصى والطعامُ في يديه)

ش: تسبيح الطعام للحديث السابق[٢] وفيه «لقد كنّا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكل» أما تسبيح الحصى فلم أجد له دليلا صحيحا يثبته.

قال ابن حجر رحمه الله في الفتح: وأما تسبيح الحصى فليست له إلا هذه الطريق الواحدة مع ضعفها وهي عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «تناول رسول الله ﷺ سبع حصيات، فسبّحن في يده، حتى سمعتُ لهن حنينا، ثم وضعهن في يد أبي بكر فسبّحن، ثم وضعهن في يد عمر فسبّحن، ثم وضعهن في يد عثمان فسبحن» أخرجه البزار والطبراني في الأوسط.

وفي رواية الطبراني «فسمع تسبيحهن مَن في الحلقة»، «وفيه.. ثم دفعهن إلينا فلم يُسبِّحن مع أحد منّا»[٣].

---

(١) رواه البخاري ٤/٣١٩ .
(٢) بداية فقرة (٥١) رواه البخاري وأحمد والدارمي.
(٣) (فتح الباري ٦/٥٩٢) ورواه الألكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة رقم ١٤٨٤ - ١٤٨٥ وقال البيهقي في الدلائل كذا رواه صالح بن أبي الأخضر «ولم يكن بالحافظ» عن الزهري عن سويد بن يزيد السلمي عن أبي ذر والمحفوظ ما رواه شعيب بن أبي حمزة عن الزهري، قال: ذكر الوليد بن سويد أن رجلا من بني سليم كان كبير السن، ممن أدرك أبا ذر بالربذة ذكر له عن أبي ذر بهذا.

قوله: (واشتكى إليه البعيرُ)

ش: ١- كما روى يعلى بن مرة الثقفي رضي الله عنه قال: «بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ إذ مررنا ببعير يُسنّى[١] عليه، فلما رآه البعير جرجَر[٢] فوضع جرانه[٣] فوقف عليه النبي ﷺ فقال: «أين صاحب هذا البعير»؟ فجاءه، فقال الرسول ﷺ: **(بِعنيه)** فقال: «بل نَهبهُ لك يا رسول الله، وإنه لأهل بيت ما لهم معيشة غيره».

قال: «أما إذ ذكرت هذا من أمره، فإنه شكا كثرةَ العمل، وقلةَ العلف، فأحسنوا إليه»[٤].

٢- وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: «أردفني رسول الله ﷺ خلفه ذات يوم، فأسرّ إليّ حديثا لا أحدث به أحدا من الناس، وكان أحبّ ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدف[٥]، أو حائش[٦] نخل.

فدخل حائطا لرجل من الأنصار، فإذا جمل، فلما رأى النبيَ ﷺ حنّ وذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح سراته[٧] إلى سنامه، وذفراه[٨] فسكن، فقال: «مَنْ ربُّ[٩] هذا الجمل؟» لمن هذا الجمل؟

فجاءه فتى من الأنصار، فقال: «لي يا رسول الله»، فقال: «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة، التي مَلَّكَك الله إياها؟ فإنه شكا إليّ أنك تجيعه وتدئبه»[١٠][١١].

---

(١) أي يستقى عليه.
(٢) صاح وردد صوته في حلقه.
(٣) مقدم عنقه، وقيل باطن عنقه .
(٤) رواه البغوي في شرح السنة والإمام أحمد والدارمي وصححه الألباني في المشكاة ٣/ ١٨٨ .
(٥) كجدار وشجرة.
(٦) أشجار مجتمعة.
(٧) السراه: الظهر.
(٨) عظم خلف الأذن.
(٩) أي صاحبه ومالكه.
(١٠) أي تتعبه .
(١١) رواه أحمد والحاكم وابن عساكر وصححه الألباني الأحاديث الصحيحة (١/ ٢٨) .



القضية الثانية والخمسون: قال المصنف حفظه الله:

«نؤمن بما فَضّل اللَّهُ به محمداً ﷺ على الأنبياء، وما خصه به من النصر بالرعب، وإحلال الغنائم، وجوامع الكلم، وجَعْلِ الأرض مسجدا وطهورا، وبعثهِ إلى الناس كافة، وخَتْمِ النبيين به، ونشهد أن حوض الرسول حق، ونسأل اللَّه أن يسقينا منه».

قوله: «نؤمن بما فَضّل اللَّه به محمداً ﷺ على الأنبياء وما خصه به من النصر بالرعب، وإحلال الغنائم، وجوامع الكلم، وجعل الأرض مسجدا وطهورا وبعثه إلى الناس كافة[1] وختم النبيين به»[2].

الشرح: النصر بالرُعب:

يشير المصنف لقوله ﷺ: «أُعطيتُ خمساً لم يُعطَهنَّ أحد من الأنبياء قبلي ؛ نُصرتُ بالرُّعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجدا وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ، وأُحِلّت لي الغنائم، ولم تحلَّ لأحدٍ قبلي، وأُعطيتُ الشفاعة، كان النبي ﷺ يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعثتُ إلى الناس عامة»[3].

زاد أبو أُمامة: «ويُقذف في قلوب أعدائي»[4].

وفي رواية البخاري «نُصِرْتُ بالرُعب مسيرةَ شهر» ومفهومة أنه لم يوجد لغيره النصرُ بالرُعب في هذه المدة ولا في أكثر منها، أما ما دونها فلا، لكن لفظ رواية عمر بن شعيب: «ونصرتُ على العدو بالرُعب، ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر» فالظاهر اختصاصه به مطلقا، وهذه الخصوصية حاصلة له على الإطلاق حتى لو كان وحده بغير عسكر، وهل هي حاصلة لأمته من بعده؟ فيه: احتمال[5].

---

(١) راجع الشرح فقرة ٤٩ .
(٢) راجع الشرح فقرة ٤١، ٤٦ .
(٣) متفق عليه.
(٤) أخرجه أحمد.
(٥) ابن حجر في الفتح ١/ ٤٣٧ .

إحلالُ الغنائم: قال الخطابي: «كان مَنْ تقدم على ضربين: منهم من لم يُؤذن لهم في الجهاد، فلم تكن لهم مغانم.

ومنهم من أَذِن له فيه لكن كانوا إذا غنموا شيئا لم يحلّ لهم أن يأكلوه، وجاءت نار فأحرقته، وقيل: المراد أنه خُص بالتصرف في الغنيمة، يُصرِّفها كيف يشاء، والأول أصوب، وهو أن مَنْ مضى لم تحل لهم الغنائم أصلا»(١).

جوامع الكلم: يعني القرآن، جمع اللّه بلطفه في الألفاظ اليسيرة منه معاني كثيرة، واحدها جامعة: أي كلمة جامعة.

ومنه حديث في صفته ﷺ: أنه كان يتكلم بجوامع الكلم، أي أنه كان كثير المعاني قليل الألفاظ(٢).

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «أعطيتُ فواتحَ الكلام(٣) وجوامعه، وخواتمه»(٤)(٥).

أي: أنه يجمع في القول الوجيز المعاني الكثيرة كقوله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»(٦)، وقوله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»(٧)، وقوله ﷺ: «قل آمنت باللّه ثم استقم»(٨)، وقوله: «الدين النصيحة...»(٩) وغيرها من الأحاديث.

---

(١) ابن حجر فتح الباري ١/٤٣٨ .
(٢) النهاية في غريب الحديث ١/٢٩٥ .
(٣) البلاغة والفصاحة .
(٤) حسن الوقف ورعاية الفواصل.
(٥) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، والطبراني وأبو يعلى في مسنده وأحمد في مسنده من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص «وصححه الألباني الجامع ١٠٥٨ والصحيحة ١٤٨٣».
(٦) رواه أحمد عن أنس النسائي عن الحسن بن علي والطبراني عن وابصة بن معبد، وصححه الألباني الجامع ٣٣٧٧ .
(٧) رواه أحمد وابن ماجة عن ابن عباس وصححه الألباني (الجامع ٧٥١٧) .
(٨) رواه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة من حديث سفيان بن عبد اللّه الثقفي.
(٩) البخاري في تاريخه والبزار وصححه الألباني (الجامع ٣٤١٧) عن ثوبان وابن عمر.



وقوله: «وجعل الأرض مسجدا وطهورا»: فقوله: «وجُعلت لي الأرض مسجدا» أي: موضع سجود، فلا يختص السجود منها بموضع دون غيره، وقيل المراد جُعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، لأن عيسى عليه السلام كان يسيح في الأرض، ويصلي حيث أدركته الصلاة، وقيل: إنما أُبيحت لهم في موضع يتيقّنون طهارته، بخلاف هذه الأمة فأبيح لها في جميع الأرض إلا فيما يتيقّنون نجاسته، والأظهر هو أن مَنْ قبله إنما أبيحت لهم الصلوات في أماكن مخصوصة: كالبيَع والصوامع، ويؤيده رواية عمر بن شعيب بلفظ: «وكان من قبلي إنما كانوا يصلون في كنائسهم» هذا نصّ في موضع النزاع، فثبتت الخصوصية، ويؤيده ما أخرجه البزار من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وفيه: «ولم يكن من الأنبياء أحد يصلي حتى يبلغ محرابه».

وقوله: (وطهورا) استدل به على أن الطهور: «هو المطهر لغيره»، لأن الطهور لو كان المراد به الطاهر لم تثبت الخصوصية والحديث إنما سيق لإثباتها، وقد روى ابن المنذر وابن الجارود بإسناد صحيح عن أنس مرفوعا: «وجُعلت لي كل الأرض طيبة مسجداً وطهوراً». ومعنى «طيبة»: طاهرة، واستدل به على أن التيمم يرفع الحدث كالماء لاشتراكهما في الوصف.

وعلى أن التيمم بجميع أجزاء الأرض،[(١)] وأنها باقية للأمة لقوله ﷺ: «وجُعلت لي الأرض مسجدا وطهورا». كما قال رسول اللّه ﷺ: «فُضّلتُ على الأنبياء بست: أعطيتُ جوامعَ الكلم، ونُصرتُ بالرُعب، وأُحِلّت لي الغنائم، وجُعلت لي الأرض طهورا ومسجدا، وأُرسلتُ إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون»[(٢)].

قوله: «نشهد أن حوض الرسول ﷺ حق، ونسأل اللّه أن يسقينا منه»

ش: قوله: (**الحوض**) وهو الحوض المورود، جمع الحوض: حياض وأحواض، وهو مكان تجمّع الماء، والحوض شرعا يكون في عرَصات يوم القيامة، وفيه أحاديث

---

(١) ابن حجر فتح الباري ١/ ٤٣٨، ٤٣٩ تعليق سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله بتصرف بسيط.
(٢) رواه مسلم والترمذي.

متواترة متظافرة وإن رغمت أنوف المبتدعة، المكابرة القائلين بجحوده، المنكرين لوجوده، وأَخْلَقْ بهم أن يُحال بينهم وبين وروده، كما قال بعض السلف: (من كذب بكرامة لم ينلها، ولو اطّلع المنكر للحوض على ما سنورده من الأحاديث قبل مقالته لم يقلها[١].

وقد روى أحاديثَه بضعُ وثلاثون صحابيا، كما بيّن ذلك ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية»، وممن أنكره الخوارج وبعض المعتزلة.

وصف الحوض:

١- عن عبد اللّه بن عمرو قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن موعدكم

لحوضي، طوله كعرضه، وإنه كما بين مكة وأيله، فيه أباريق مثل الكواكب، شرابه أشد بياضا من الفضة، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا»[٢].

٢- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن لي حوضا طوله ما بين الكعبة إلى بيت المقدس، أبيض من اللبن، آنيته عدد النجوم، وإني لأكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة»[٣].

٣- عن حذيفة رضي الله عنه قال: «حوض النبي ﷺ أبيض مثل اللبن، وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج، وأطيب ريحا من المسك، آنيته مثل عدد النجوم، ما بين مكة إلى صنعاء، من شرب منه لم يظمأ بعد أبدا»[٤].

٤- وعنه أيضا قال: «ما بين طرفي حوض النبي ﷺ كما بين أيلة..»[٥].

٥- وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن أمامكم حوضا كما بين

---

(١) النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير ١/ ٣٧٤ .
(٢) أخرجه الإمام أحمد وابن أبي العاصم في السُنّة وصححه الألباني.
(٣) رواه البخاري ومسلم وأحمد (دون الزيادة الأخيرة) وابن أبي العاصم في السنة وصححه الألباني.
(٤) رواه ابن أبي العاصم في السنة وحسن اسناده الألباني.
(٥) رواه أحمد وابن أبي عاصم في السُنّة وحسنه الألباني.

حرباء وأذرح»[١].

٦- وعن عبد اللّه بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول اللّه ﷺ: «حوضي مسيرة شهر، زواياه سواء، وماؤه أبيض من الورق..»[٢]،[٣].

٧- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «ما بين حافتي حوضي ما بين إيلة إلى عُمان، وما بين المدينة إلى صنعاء».

قال القرطبي رحمه الله: وقد ظَنّ بعضُ الناس أن في تحديد الحوض تارة بجرباء وأذرع وتارة بما بين الكعبة إلى كذا، وتارة بغير ذلك اضطراباً.

قال: وليس الأمر كذلك فإنه عليه الصلاة السلام حدّث أصحابه مرات متعددة، فخاطب في كل مرة القوم بما يعرفونه من الأماكن فقد جاء في الصحيح تحديده بشهر.

قال: ولا يخطر في بالك أنه في هذه الأرض، بل في الأرض المبَدّلة.

ونخلص من الأحاديث السابقة من صفات الحوض ما يأتي:

١- لونه: أشد بياضا من اللبن والفضة.

٢- عدد آنيته عدد نجوم السماء.

٣- طعمه أحلى من العسل وأبرد من الثلج.

٤- ريحه: أطيب من المسك.

٥- من شرب منه لا يظمأ بعدها أبدا.

٦- إنه واسع كبير جدا، فقد وصفه النبي ﷺ بأن طوله كمسيرة شهر.

---

(١) متفق عليه.
(٢) الورق: الفضة.
(٣) رواه البخاري ومسلم وابن حبان وابن أبي العاصم في السنّة.

ما مصدر الحوض؟

مصدره الكوثر، كما في حديث أنس رضي الله عنه قال: «بينا رسول اللَّه ﷺ بين أظهرنا في المسجد، إذا أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه مبتسما» قلنا: «ما أَضْحَكَكَ يا رسول اللَّه؟» قال: «لقد أُنزلَنْ عليّ آنفا سورة فقرأ: بسم اللَّه الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [سورة الكوثر].

ثم قال: «أتدرون ما الكوثر»؟ قلنا: «اللَّه ورسوله أعلم، قال: «فإنه نهر وعدنيه ربي عزّ وجلّ عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم في السماء فيختلج العبد منهم» فأقول: «ربّ إنه من أمتي»، فيقول: «إنك لا تدري ما أحدث بعدك»[١].

لكل نبي حوض:

عن سمرة بن جندب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن لكل نبي حوضا يتباهون أيهم أكثر وارده، وإني لأرجو أن أكون أكثر منهم واردة»[٢].

نبينا محمد ﷺ هو فرطنا على الحوض:

فعن عقبةَ بنِ عامر رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إني فرطكم على الحوض واللَّه إني لأنظر إلى حوضي»[٣].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض، ومن وَرَدَ عليّ شَرِب، ومن شرب لم يظمأ أبدا»[٤].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أنا مُمسك بحجزكم من

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي .
(٢) رواه الترمذي - صححه الألباني (راجع ص ١٥٨٩) .
(٣) رواه البخاري ومسلم وابن أبي العاصم في السُنّة.
(٤) رواه أحمد والبخاري ومسلم والآجري وابن أبي العاصم في السُنّة.

النار وتغلبون، تقاصمون فيها تقاصم الفراش والجنادب، وأوشك أن أرسل بحجزكم، وأفرط لكم الحوض وتردون (وتعودون) عليّ جميعا وأشتاتا»(١).

«وأنا فرطكم»: أي متقدمكم إليه، يقال: فرط، يفرط فهو: فارط، وفرط إذا تقدم وسبق القوم ليرتاد لهم الماء، ويهيئ لهم الدلاء، والأرشية(٢).

كثرة الذين يردون الحوض:

فعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «ما أنتم بجزء من مائة ألف ممن يرد عليّ الحوض قلنا «لزيد» كم كنتم يومئذ؟ قال: ستمائة إلى سبعمائة»(٣).

صفة الذين يَرِدون على حوض النبي ﷺ:

أولًا: من يَرِدُ عليه حوضه ﷺ هم فقراء المهاجرين:

فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «حوضي ما بين عدن إلى عمان

إلى أن قال: «وأول الناس عليّ ورودا فقراءُ المهاجرين، الشُّعث رؤوسا، الدّنس

ثيابا، الذين لا تُفتح لهم أبواب السُدد، ولا ينكحون المتنعمات، الذي يعطون كل الذي عليهم ولا يُعطون الذي لهم»»(٤).

ثانياً: المتمسك بسنة النبي ﷺ: فعن أسيد بن حضير رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا، حتى تلقوني غداً على الحوض»(٥).

ثالثاً: عدم إعانة الحكام الظلمة على جورهم سبب لورود حوضه ﷺ: فعن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: «خرج إلينا رسول اللّه ﷺ ونحن جلوس على وسادة من أدم فقال:

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) النهاية لابن الأثير ٣/ ٤٣٤ .
(٣) أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم وصححه الألباني انظر الصحيحة ١٢٣ .
(٤) رواه الإمام أحمد والآجري وابن أبي العاصم في سننه وصححه الألباني.
(٥) رواه أحمد والبخاري ومسلم.

«إنه سيكون أمراء» وفي رواية: «وصفَهم بالجَور» فمن دخل عليهم، فصدقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فليس مني ولست منه، وليس يُرِدُ عليّ الحوضَ، ومن لم يُصدقهم بكذبهم، ولم يُعنهم على ظلمهم، فهو مني وأنا منه، وهو وارد عليّ الحوضَ». وفي رواية قال: «يكذبون ويظلمون»(١).

الذين يصُدّون عن حوض النبي ﷺ:

عن عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض، وليرفعنّ لي رجال، حتى إذا أهويت أتناولهم اختلجوا دوني»(٢).

وعن جابر رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «أنا بين أيديكم فإن لم تجدوني فأنا على الحوض، والحوض ما بين أَيْلةَ إلى مكة، وسيأتي رجال ونساء يُطردون منه فلا يطعموا فيه شيئا»(٣).

ومن هذه الأمور الإحداث في الدين، والنفاق، والارتداد كما في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إني فرطكم على الحوض من مرّ عليّ شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدا ليردنّ عليّ أقوامٌ أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم»(٤).

وفي رواية فأقول (إنهم منّي) فيقال: «إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ؛ فأقول: سحقا سحقا لمن غير بعدي».

قال ابن عباس: «سحقا» بعداً، يقال: سحيق، بعيد، سحقة وأسحقه: أبعده.

وفي رواية البخاري الأخرى: فأقول: (يا ربِّ أصحابي) فيقول: «إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك (إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى)»، وفي رواية أخرى: فأقول: «يا رب مني ومن أمتي».

---

(١) أخرجه الإمام أحمد والنسائي ابن حبان وابن أبي العاصم وصححه الألباني.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه أحمد والآجري في الشريعة والطبري والبزار وابن أبي العاصم حسّن اسناده الألباني.
(٤) رواه البخاري.



كيف يعرف النبي ﷺ أُمته؟

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن حوضي أبعد من أيلة من عدن... وإني لأصدّ الناسَ عنه كما يصدّ الرجل إبل الناس عن حوضه»، قالوا: يا رسول اللَّه أتعرفنا يومئذ؟ قال: «نعم، لكم سيماء ليست لأحد من الأمم، تردون عليّ غراً محجّلين من أثر الوضوء»(١).

سيماء: أي علامة. الغر: جمع أغر وهو الذي في جبهته بياض. المحجل: هو الذي في يديه ورجليه بياض.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي»(٢). فقوله. «روضة من رياض الجنة»:

أ - أي كروضة من رياض الجنة في نزول الرحمة وحصول السعادة بما يحصل من ملازمة حِلق الذكر، لا سيما في عهده ﷺ فيكون تشبيها بغير أداة.

ب - أو المعنى: أن العبادة فيها تؤدي إلى الجنة، فيكون مجازاً.

جـ- أو هو على ظاهره، وأن المراد أنه روضة حقيقة بأن ينتقل ذلك الموضع بعينه في الآخرة إلى الجنة.

هذا مُحَصِّل ما أولّه العلماء في هذا الحديث، قال ابن حجر في الفتح: وذهب ابن حزم إلى الرأي الثاني.

وقوله ﷺ: ومنبري على حوضي:

أ - أن ينقل يوم القيامة فينصب على الحوض، وقال الأكثر المراد منبره بعينه.

ب - وقيل المراد المنبر الذي يوضع له يوم القيامة.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه البخاري.



وذهب ابن حجر إلى ترجيح الأول: وإذا ثبت هذا، علمنا أنه مما يجب على المُكلف معرفتُه الإيمانُ به أن اللّه سبحانه قد أكرم نبينا محمدا ﷺ بهذا الحوض التي فاضت به الأحاديث الكثيرة الصحيحة والصريحة التي يحصل بمجموعها العلم القطعي، إذ روى ذلك عن النبي ﷺ من الصحابة أكثر من ثلاثين صحابيا منهم في الصحيحين ما ينيف على العشرين، ورواه من التابعين مثله وكذلك من بعدهم، وأجمع السلف وأهل السنة من الخلق على اثباته، نسأل اللّه أن يسقينا من حوضه، ويرزقنا شفاعته، آمين.

ولقد اختلف علماء السَّلف حول الحوض أيكون قبل الصراط أم بعده؟ فذهب البعض «القاضي عياض» أنه يكون بعد الصراط لظاهر قوله ﷺ في حديث الحوض «من شرب منه لم يظمأ بعده أبدا» يدل على أن الشرب منه يقع بعد الحساب والنجاة من النار، لأن ظاهرَ حالِ مَن لا يظمأ أن لا يُعذب بالنار وذهب إليه كذلك «البخاري» كما يُستفاد من طريقة ترتيب أحاديثه واستدلوا كذلك بحديث أنس قال: «سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة». فقال «أنا فاعل» قلت: «يا رسول اللّه فأين أطلبك؟» قال: «اطلبني أول ما تطلبني على الصراط» قلت: «فإن لم ألقك على الصراط؟» قال: «فاطلبني عند الميزان»، قلت: «فإن لم ألقك عند الميزان؟» قال: «فاطلبني عند الحوض فإني لا أخطئ هذه الثلاث المواطن»(١).

وقوله ﷺ: «لا أخطئ»: أي لا أتجاوز هذه البقاع، ولا يفقدني أحد فيهن جميعهن، وذهب البعض الآخر إلى أن الحوض سيكون قبل الصراط.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: إن ظاهر ما تقدم من الأحاديث يقتضي كونه قبل الصراط، لأنه يُذاد عنه أقوام يقال عنهم: «أنهم لم يزالوا يرتدون على أعقابهم منذ فارقتهم " فإن كان هؤلاء كفارا فالكافر لا يتجاوز الصراط بل يُكب على وجهه في النار قبل أن يُجاوزه: وإن كانوا عصاة فهم من المسلمين فيُبعد حجبهم عن الحوض، ثم من

---

(١) رواه أحمد والترمذي وحسنه وسكت عنه ابن حجر بالفتح بعد أن ساقه وقال الألباني في تخريج المشكاة إسناده جيد.



جاوز لا يكون إلا ناجيا مسلما فمثل هذا لا يُحجب عن الحوض».

قال القرطبي: «والمعنى يقتضيه، فإن الناس يخرجون عطاشا من قبورهم، فيُقدّم على الميزان والصراط.

قال: «أبو حامد الغزالي» في كتاب علم كشف الآخرة: حكى بعض السلف من أهل التصنيف أن الحوض يورد بعد الصراط، وهو غلط من قائله.

(قلتُ) وهذا ما يطمأن إليه القلب (واللّه أعلم) أما بالنسبة لحديث أنس السابق فإنه لا يفيد الترتيب فكل ما هنالك هو أن النبي ﷺ سيكون في أحد هذه المواطن الثلاث.

❋ ❋ ❋

خامسا: الإيمان باليوم الآخر

القضية الثالثة والخمسون: قال المُصنِّف حفظه اللّه:

«نؤمن أن اللّه قد جعل لكل نفس أجلا، وللحياة على الأرض أجلا تنتهي فيه بالنفخة الأولى في الصور، ثم ينفخ فيه نفخة أخرى فيقوم الناس لرب العباد لفصل القضاء بينهم».

الشرح: والإيمان باليوم الآخر هو الركن الخامس من أركان الإيمان الستة كما جاء في حديث جبريل الذي رواه عمر بن الخطاب ﵁ قال: بينما نحن عند رسول اللّه ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر (إلى أن قال) فأخبرني عن الإيمان قال رسول اللّه ﷺ: «أن تؤمن باللّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر..»(١).

وكثير ما يقرن اللّه تعالى بين الإيمان به والإيمان باليوم الآخر، الإيمان بالمبدأ والإيمان بالمعاد، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [الطلاق: ٢]. ، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [التوبة: ١٨] وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]. فالذي لا يؤمن باليوم الآخر لن يعمل له، وسيكون لسان حاله كمن حكى اللّه عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

---

(١) رواه البخاري ومسلم واللفظ له.



لماذا سُمّي باليوم الآخر؟[١]

سُمّي باليوم الآخر: لأنه لا يوم بعده، فهو آخر المراحل، فالإنسان له في هذه الدنيا خمس مراحل:

١- مرحلة العدم.

٢- مرحلة الحمل في بطن أمه.

٣- مرحلة الدنيا.

٤- مرحلة البرزخ.

٥- مرحلة الآخرة[٢].

ويدخل في الإيمان باليوم الآخر: كل ما أخبر اللّه عنه ورسوله مما يكون بعد الموت[٣].

قوله: «نؤمن أن اللّه قد جعل لكل نفس أجلا، وللحياة على الأرض أجلا تنتهي فيه بالنفخة الأولى في الصور».

ش: فاللّه سبحانه وتعالى بيّن في كتابه وعلى لسان رسوله محمد ﷺ أن هناك أجلًا خاصاً لكل نفس وهناك أجل عام للحياة على هذه الأرض.

الأجل الخاص: قال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ [المنافقون: ١١].

وقال تعالى عن العاصي: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾ [المنافقون: ١٠]. وقال تعالى: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ [الزمر: ٤٢]. وقال تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ [غافر: ٦٧].

---

(١) وله أسماء أخرى.

(٢) شرح العقيدة الواسطية لشيخنا محمد بن صالح العثيمين ٢/٥٢٨ .

(٣) العقيدة الواسطية لابن تيمية.

ومن حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ بعد أن نظر إلى غلام صغير عنده: «إن يعش هذا الغلام فعسى أن لا يبلغ الهرم حتى تقوم الساعة»(١)، «المراد بالساعة هنا موت ذاك القرن وفناء أهله».

الأجل العام(٢): قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]. وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [فاطر: ٤٥].

السِّر في كثرة أسماء اليوم الآخر:

يقول القرطبي: «وكل ما عظم شأنه تعددت صفاته وكثرت أسماؤه، وهذا جميع كلام العرب، ألا ترى أن السيف لما عظم عندهم موضعه، وتأكد نفعه لديهم وموقعه، جمعوا له خمسمائة اسم، وله نظائر»(٣).

الصور: في لغة العرب هو: القرن كما جاء في حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال: جاء إعرابي إلى النبي ﷺ فقال: «ما الصور»؟ قال: «الصور قرن يُنفخ فيه»(٤).

النافخ في الصور:

قال ابن حجر العسقلاني(٥): أُشتهر أن صاحبَ الصور إسرافيلُ عليه السلام، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن طرف صاحب الصور منذ وكّل به مستعد، ينظر نحو العرش، مخافة أن يُؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه، كأن عينيه

---

(١) رواه مسلم.
(٢) الأجل العام: هو يوم القيامة.
(٣) التذكرة ٢١٤ نقلا من كتاب اليوم الآخر للدكتور عمر سليمان الأشقر ٣٠ .
(٤) رواه أحمد والترمذي وأب داود والحاكم وصحح اسناده ووافقه الذهبي وقال الترمذي حسن صحيح وصححه الألباني (٣٨٦٣ الجامع) الصحيحه رقم ١٠٨٠ .
(٥) فتح الباري.

كوكبان دُريَّان»(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «كيف أنتم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنا الجبهة، وأصغى السَّمع ينتظر متى يُؤمر بالنفخ فينفخ؟

قالوا: «كيف نصنع»؟ قال: قولوا: «حسبنا اللَّه ونعم الوكيل، على اللَّه توكلنا»(٢).

كم عدد النفخات في الصور؟

هناك ثلاث نفخات في الصور وهي:

أولا: نفخة الفزع:

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧].

قال ابن كثير رحمه الله: «إن إسرافيل هو الذي ينفخ فيه بأمر اللَّه تعالى، فينفخ فيه أولا نفخة الفزع، ويطولها وذلك في آخر الدنيا حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء فيفزع من في السموات والأرض»، ثم ساق حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ وفيه «... ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً(٣) ورفع ليتاً. قال: وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله(٤) قال: «فيُصعق ويصعق الناس»(٥)(٦).

---

(١)رواه الحاكم وصحح اسناده ووافقه الذهبي وصححه الألباني الأحاديث الصحيحة ٣/ ٦٥ رقم ١٠٧٨ .

(٢) رواه أحمد والترمذي والحاكم وابن حبان والطبري في الكبير وصححه الألباني (الجامع ٤٥٩٢ بالصحيح ١٠٧٨، ١٠٧٩).

(٣) قوله إلا أصغى ليتا ورفع ليتا: الليت هو صفحة العنق، أي أمال عنقه ليسمعه في السماء جيدا: ابن كثير ٣/ ٥٠٢

(٤) يلوط حوض ابله.

(٥) رواه مسلم.

(٦) قال ابن كثير (رحمه الله) فهذه نفخة الفزع، ثم بعد ذلك نفخة الصعق وهو الموت، ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين وهو النشور من القبور لجميع الخلائق (تفسير القرآن العظيم ٣/ راجع كذلك معارج القبول للحكمي ٢/ ٦٥ والكواشف الجلية عن معاني الواسطية ٥٦٦ .

ثانيا: نفخة الصعق:

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]. يخبر اللّه تعالى عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة وهذه النفخة هي الثانية، وهي نفخة الصعق، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا ما شاء اللّه، ثم يحيى أول من يحيى إسرافيل ويأمره أن ينفخ بالصور مرة أخرى وهي النفخة الثالثة نفخة البعث(١).

ثالثا: نفخة البعث أو الحشر والنشور:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢] ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣- ١٤]. ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩]. ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨]. قال ابن كثير: (إذا نفخ في الصور نفخة النشور) ٣/ ٣٤٣ .

وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣]. قال ابن كثير بعد أن ذكر النفخات الثلاث: «ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور وهي هذه النفخة، وقد أكدها، ها هنا بأنها نفخة واحدة لأن أمر اللّه لا يخالف ولا يمانع ولا يحتاج إلى تكرار، قال الربيع: هي النفخة الأخيرة»(٢).

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر: ٦٨- ٧٠]. قال ابن كثير رحمه الله وهي

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٨٢، لوامع الأنوار ٢/ ١٦٠- ١٦٤ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٣٢ .



النفخة الثالثة نفخة البعث فيقومون أحياء بعدما كانوا عظاما ورفاتا، وصاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة وقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي أضاءت إذا تجلى الحق جل وعلا للخلائق لفصل القضاء[١].

كم بين النفختين (الصعق والبعث)؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما بين النفختين أربعون» قالوا يا أبا هريرة! أربعون يوما؟ قال رضي الله عنه: «أبيتُ»، قالوا: «أربعون سنة»؟ قال: «أبيتُ» قالوا: «أربعون شهرا»؟ قال: «أبيت ويُبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب[٢] ذنبه فيه يُركّب الخلق»[٣].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٨١-٨٣).
(٢) عجب الذنب: آخر فقرات العمود من أسفل.
(٣) رواه البخاري.

القضية الرابعة والخمسون: قول المُصَنِّف حفظه الله:

«نشهد أن الجنة والنار مخلوقتان الآن، وباقيتان أبدا، وسرمديتان، وأن أهل الجنة داخلوها ولا شك يوم القيامة، وأهل النار مواقعوها، ولن يجدوا عنها مصرفا».

قوله: «نشهد أن الجنة والنار مخلوقتان الآن»

الشرح: ومن مقتضى الإيمان باليوم الآخر، الإيمان بالجنة والنار، وسنحصر البحث في ثلاثة أمور:

الأول: كونهما حقا لا ريب فيهما ولا شك:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٦- ٥٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٧- ١٠].

وقال تعالى لإبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٢- ٤٤].

وعن عبادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبدُ اللّه ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح



منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله اللَّه الجنة على ما كان من العمل»(١).

والآيات والأحاديث في إثبات هذه الحقيقة كثيرة جدا فكلما ذكر اللَّه الجنة عطف عليها النار، وكلما ذكر أهل النار، عطف عليهم أهل الجنة، فتارة يعد ويتوعد، وتارة يُرغِّب في الجنة ويدعو إليها، ويُرهِّب من النار ويُحذر منها، فنسأل اللَّهَ الجنَة ونعوذ به من النار.

الثاني: كون الجنة والنار مخلوقتين الآن:

والجنة والنار مخلوقتان، فقد اتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان، موجودتان الآن، ولم يزل أهل السنة على ذلك، حتى نبغت نابغة المعتزلة، والقدرية فأنكرت ذلك(٢).

الأدلة من كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ:

قال تعالى عن فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ [غافر: ٤٦]. وقوله تعالى عن الجنة: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وقوله: ﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ [الحديد: ٢١]، وقوله: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾ [النجم: ١٣- ١٥]. فأخبر أن اللَّه أعدها لأوليائه، وأن النبي ﷺ أتاها ليلة المعراج، وقوله تعالى عن النار: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ آل عمرا: ١٣١]. ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١١]. ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾ [الإنسان: ٣١].

فهي أيضا مُعدّة لأعداء اللَّه تعالى.

وقال البخاري في صحيحه باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، ثم ذكر حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا مات أحدكم فإنه يُعرض عليه مقعده

---

(١) متفق عليه.
(٢) فقالت بل ينشئها اللَّه يوم القيامة !! وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله اللَّه، وأنه ينبغي أن يفعل كذا، ولا ينبغي له أن يفعل كذا !! وقاسوه على خلقه في أفعالهم، فهم مشبهة الأفعال، ودخل الجهم فيهم فصاروا مع ذلك معطلة (الطحاوية ٤٧٦).



بالغداة والعشي، فإن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فَمِن أهل النار، يُقال: هذا مقعدك حتى يبعثك اللَّه يوم القيامة»[١] وحديث عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال «اطّلعت في الجنة، فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء»[٢].

وفي حديث أنس رضي الله عنه في قصة الإسراء وفي آخره «. . . ثم انطلق بي جبريل، حتى أتى سدرة المنتهى، فغشيها ألوان لا أدري ما هي، ثم دخلت الجنة، فإذا هي جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك[٣]وعن عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنهما قال: «انخسفت الشمس على عهد رسول اللَّه ﷺ» فذكر الحديث وفيه «. . . فقالوا: «يا رسول اللَّه رأيناك تناولت شيئا في مقامك، ثم رأيناك تكعكعت»؟ فقال: «إني رأيت الجنة، وتناولت عنقودا، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قط أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء» قالوا: «بم يا رسول اللَّه»؟ قال: «بكفرهن»، قيل: «أيكفرن باللَّه»؟ قال: «يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنتَ إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئا»، قالت: «ما رأيت خيرا قط»!![٤].

الثالث: أن الجنة والنار باقيتان لا تفنيان:

وهذا قول جمهور الأئمة من السَّلف والخلف[٥].

أ - أَبَدية الجنة وأنها لا تفنى ولا تبيد، قال تعالى: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]. قال ابن كثير رحمه الله: «معنى الاستثناء ههنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمرا واجبا

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) متفق عليه.
(٤) رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري.
(٥) وقال بفناء الجنة والنار «الجهم بن صفوان» إمام المعطلة، وليس له سلف قط لا من الصحابة، ولا من التابعين لهم بإحسان ولا من أئمة المسلمين (الطحاوية).



بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة اللَّه تعالى فله المنة عليهم دائما، ولهذا يُلهَمون التسبيح، والتحميد كما يُلهمون النفَس، وقال الضحاك والحسن البصري هي حق لعصاة الموحدين الذين كانوا في النار ثم أُخرجوا منها عقب ذلك بقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي غير مقطوع، قاله مجاهد وابن عباس، وأبو العالية وغير واحد لئلا يتوهمَ متوهمٌ بعد ذكره المشيئة أن ثَمّ انقطاعا أو لبسا أو شيئا بل حُكِم له بالدوام، وعدم الانقطاع كما بيّن هناك أن عذاب أهل النار في النار دائماً مردود إلى مشيئته، وأنه بعدله وحكمته عذّبهم ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]. كما قال تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. وهنا طيب القلوب وثبّت المقصود بقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

وقد جاء في الصحيحين: «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح، فيُذبح بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة ! خلود فلا موت، ويا أهل النار ! خلود فلا موت».

وفي الصحيح أيضا فيقال: «يا أهل الجنة إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وأن لكم أن تشّبوا فلا تهرموا أبدا، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا»[١].

وقال تعالى عن الجنة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: ٥٤]. قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أخبر تبارك وتعالى عن الجنة أنه لا فراغ لها، ولا زوال ولا انقضاء، ولا انتهاء، لقوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]. وكقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ وكقوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥][٢].

وقوله ﷺ: «من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس ويخلد ولا يموت»[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٦٠٥ .
(٢) المصدر السابق ٤/ ٥٤ .
(٣) رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لما خلق اللَّه الجنة قال لجبريل: «اذهب فانظر إليها» فذهب فنظر إليها وإلى ما أعدّ اللَّه لأهلها فيها، ثم جاء فقال: «أي رب ! وعِزَّتِك لا يسمع بها أحد إلا دخلها»، ثم حفّها بالمكاره، ثم قال: «يا جبريل ! اذهب فانظر إليها»، فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: «أي رب ! وعِزتِك لقد خشيتُ أن لا يدخلها أحد».

قال: «فلما خلق اللَّهُ النارَ». قال: «يا جبريل ! اذهب فانظر إليها». قال: فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: «أي ربّ ! وعِزتِك لا يسمع بها أحد فيدخلها»، فحفّها بالشهوات ثم قال: «يا جبريل ! اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها»، فقال: «أي رب ! وعِزتِك لقد خشيتُ أن لا يبقى أحد إلا دخلها»[(١)].

ب - أبدية النار ودوامها وأنها لا تفنى[(٢)]

قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١]. وقوله تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا لا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٨- ١٦٩] وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦- ٣٧].

فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم، ولكن لا سبيل إلى ذلك[(٣)].

---

(١) رواه الترمذي وأبو داود والنسائي قال الألباني واسناده صحيح مشكاة المصابيح للتبريزي ٣/ ١١٠ .
(٢) لمزيد من الفائدة راجع (رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار) للإمام محمد بن إسماعيل الصنعاني بتحقيق الألباني.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٧٣٦ .



قال تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٦- ١٠٨]. قال ابن كثير: «هذا جواب من اللَّه تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار».

وعن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنه: أن مَالِكاً يجيبهم بعد أربعين عاما: «إنكم ماكثون» ثم بعد أن يطلبوا الخروج مرة أخرى يرد عليهم بعد قدر الدنيا مرتين: ﴿اخْسَئُواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قال: «فواللَّه ما نبس القوم بعدها بكلمة واحدة، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم». قال: «فشُبِّهت أصواتُهم بأصوات الحمير، أولها زفير وآخرها شهيق»(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤]، وهذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون، يحذرونه من نقمة اللَّه وعذابه الدائم السرمدي، ويُرغِّبونه في ثوابه الأبدي المخلد(٢).

وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠- ١٣].

أي: لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة تنفعه بل هي مضرة عليه، لأن بسببها يشعر بما يُعاقب به من أليم العذاب وأنواع النكال(٣).

فأخبر تعالى في هذه الآيات وأمثالها أن أهل النار الذين هم أهلها خلقت لهم وخُلِقوا لها، وأنهم خالدون فيها أبد الآبدين، ودهر الداهرين، لا فكاك لهم منها ولا خلاص، ولات حين مناص(٤).

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٤٣ ط جمعية إحياء التراث الإسلامي.
(٢) المصدر السابق ٣/ ٢١٤ .
(٣) المصدر السابق ٤/ ٦٤٥ .
(٤) معارج القبول للحافظ بن أحمد حكمي ٢/ ٢٣٢ راجع لمزيد من فائدة الطحاوية ٤٧٦ - ٤٨٨ .

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١):

هذا وخاتمة النّعيم خُلودهم   أبداً بدار الأمن والرضوانِ
أوما سمعت منادي الإيمان يُخبر   عن مناديهم بحسن بيانِ
لكم حياة ما بها موت وعسا   فيه بلا سقم ولا أحزانِ
ولكم نعيم ما به بؤس وما   لشبابكم هرم مدى الأزمانِ
كلا ولا نوم هناك يكون   ذا نوم وموت بيننا أخوانِ
هذا علمناه اضطرارا من   كتاب اللّه فافهم مقتضى القرآنِ

ويقول أيضاً:

أَوَمَا سمعت بذبحة للموت   بين المنزلين كذبح كبش الضانِ
حاشا لذا الملك الكريم وإنما   هو موتنا المحتوم للإنسانِ
واللّه يُنشي منه كبشا أملحا   يوم المعاد يُرى لنا بعيانِ

* * *

(١) النونية لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ نقلا من الكواشف الجلية ٦٠٩ - ٦١٤ .

القضية الخامسة والخمسون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«نشهد أن اللَّه يُخْرِج عصاة المؤمنين مِن النار، الذين دخلوها بسبب معاصيهم التي لم يغفرها اللَّه لهم، ولم يُكفِّرها عملُهم الصالح».

الشرح: وعلى هذا درجَ السلف الصالح والصدرُ الأول من الصحابة والتابعين لهم بإحسان من أئمة التفسير والحديث والسنة، درجوا على أن العُصاة من أهل التوحيد على ثلاث طبقات:

الأولى: قوم رجحت حسناتُهم بسيئاتهم: فأولئك يدخلون الجنة من أول وهلة، ولا تمسهم النار أبدا[1].

الثانية: قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم: وتكافأت، فقصُرت بهم سيئاتهم عن الجنة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار، وهؤلاء هم أصحاب الأعراف، الذي ذكرهم اللَّه بقوله: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦- ٤٩].

الثالثة: قوم لقوا اللَّه تعالى مُصِرِّين على كبائر الإثم والفواحش، ومعهم أصل التوحيد، فرجحت سيئاتُهم بحسناتهم، فهؤلاء هم الذين يدخلون النار بقدر ذنوبهم[2].

ولم يُخلَّد في النار أحد من الموحدين ولو عمل أي عمل، ولكن كل من كان منهم أعظم إيمانا، وأخف ذنبا كان أخف عذابا في النار، وأقل مكثا فيها وأسرع خروجا

---

(١) ومنهم السبعون ألف الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب كما جاء في حديث عمران بن الحصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) وقد تقدم شرح هذه المسألة في بحث الشفاعة فقرة ٤٨ .

منها، وكل من كان أضعف إيماناً، وأعظم ذنباً، كان بضد ذلك «والعياذ باللّه»[١].

فعن عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إني لأَعْلَمُ آخرَ أهلِ النار خروجا منها، وآخرَ أهل الجنة دخولا، رجل يخرج من النار حبواً فيقول اللّه: «اذهب فادخل الجنة»، فيأتيها، فيُخيل إليه أنها ملأى، فيقول: «يا ربِّ ! وجدتها ملأى»، فيقول اللّه: «اذهب فادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها».

فيقول: «أتسخر مني - أوَ تَضحك مني[٢]- وأنت الملك؟» ولقد رأيت رسول اللّه ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه، وكان يقال ذلك أدنى أهل الجنة منزلة[٣].

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «يخرج من النار أربعة، فيُعرضون على اللّه، ثم يؤمر بهم إلى النار، فيلتفت أحدهم فيقول: «أي ربِّ! لقد كنت أرجو إذا أخرجتني منها أن لا تُعيدني فيها» قال: «فينجيه اللّه منها»[٤].

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ليُصيبن أقواما سَفعٌ من[٥] النار بذنوب أصابوها عقوبة»، ثم يُدخلهم اللّهُ الجنةَ بفضله ورحمته، فيُقال لهم: «الجهنميون»[٦].

وحاصل هذا الأمر أنه راجع لمشيئة اللّه تعالى كما في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال وحَوْلَه عصابة من أصحابه: «بايعوني على أن لا تشركوا باللّه شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وَفيَّ منكم، فأجرهُ على اللّه، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره اللّه عليه فهو إلى اللّه إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه»، «فبايعناه على ذلك»[٧].

---

(١) معارج القبول ٢/٣٤٦ .
(٢) شك من الراوي.
(٣) متفق عليه.
(٤) رواه مسلم.
(٥) أي سواد من لفيح النار أو علامة منها.
(٦) رواه البخاري.
(٧) متفق عليه.



ولا نـقـول إنـه فـي الـنـارِ مـخـلـد بـل أمـره لـلـبـاري

تـحـت مـشـيـئـة الإلـه الـنـافـذة إن شاء عفا عنه وإن شاء آخذه

بـقـدر ذنـبـه إلـى الـجِـنـانِ يخرج إن مات على الإيمانِ(١)

* * *

(١) معارج القبول ٢/ ٣٤٤ .

القضية السادسة والخمسون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«نؤمن بأن نعيم الجنة[١] حق، نعيم حسي ومعنوي، وعذاب النار حق حسيّ ومعنوي، وأنهما كما وصف اللَّه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ».

قوله: «نؤمن بأن نعيم الجنة حق نعيم حسي ومعنوي».

الشرح: الجنة، وهو الاسم العام المتناول لتلك الدار، وما اشتملت عليه من أنواع النعيم، واللذة، والبهجة، والسرور، وقرة الأعين، وأصل اشتقاق هذه اللفظة من الستر والتغطية، ومنه الجنين: لاستتاره في البطن، والجان: لاستتاره عن العيون. ومنه سُمي البستان جنة: لأنه يستر داخله بالأشجار، ويغطيه، ولا يستحق هذا الاسم إلا موضع كثير الأشجار مختلف الأنواع.

فالحمد للَّه الذي جعل جنة الفردوس لعبادة المؤمنين نُزلا، ويَسَّرهم للأعمال الصالحة الموصّلة إليها فلم يتخذوا سواها شغلا، وسهّل لهم طرقها فسلكوا السبيل الموصّلة إليها ذللا[٢].

النعيم الحسي:

قال تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٩]. وقال تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

قال تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٢- ٢٤].

وقال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ١٧- ٢١]. وقال

---

(١) ولها أسماء كثيرة ذكرها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح.
(٢) حادي الأرواح لابن القيم ٢/ ٦٥ .



تعالى: ﴿وَمَآءٍ مَّسۡكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقۡطُوعَةٍ وَلَا مَمۡنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣١- ٣٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيۡنًا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرًا﴾ [الإنسان: ٥- ٦].

وقال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسًا وَلَا زَمۡهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكۡوَابٍ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيۡنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمًا وَمُلۡكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٌ وَإِسۡتَبۡرَقٌۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءً وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾ [الإنسان: ١١- ٢٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأۡسًا دِهَاقًا﴾ [النبأ: ٣١- ٣٣].

وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسۡتَبۡرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٌۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنًا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٢- ٢٨].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «غدْوَة في سبيل اللّه أو روحة خير من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأت ما بينهما ريحا، ولنصيفها(١) على رأسها خير من الدنيا وما فيها»(٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه

---

(١) النصيف: الخمار.
(٢) رواه البخاري.



قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، ولَقَابُ(١) قوس أحدكم في الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو تغرب»(٢).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن في الجنة لَسُوقاً يأتونها كل جمعة، فتهب ريح الشمال، فتحثو(٣) في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حسنا وجمالا، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا، فيقول لهم أهلوهم: «واللَّه لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا» فيقولون: «وأنتم واللَّه لقد ازددتم بَعْدَنا حسنا وجمالًا»(٤).

النعيم المعنوي:

ضحك أهل الجنة من أهل النار، وتزاور أهل الجنة بعضهم على بعض، فبعد أن يُدخِل اللَّه أهلَ الجنةَ، الجنة ينادون خصومَهم من الكفار من أهل النار مُبكّتين ومؤنّبين: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

ويتذكر المؤمنُ في جنات النعيم ذلك القرينَ أو الصديقَ الذي كان يُزين له الكفر في الدنيا، وكان يدعوه إلى تلك المبادئ الضالة التي تجعله في صف الكافرين أعداءِ اللَّه، فيُحدّث إخوانَه عن ذلك القرين، ويدعوهم للنظر إليه في مَقَرّه الذي يُعذب فيه، فعندما يرى ما يُعانيه من العذاب يعلم مدى نعمة اللَّه عليه، وكيف خلّصه من حاله، ثم يتوجه إليه باللوم التأنيب: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٥٧ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الصافات: ٥-٦].

---

(١) أي موضع قوس أحدكم في الجنة.
(٢) متفق عليه.
(٣) أي تنثر، والمفعول محذوف أي المسك وأنواع الطيب.
(٤) رواه مسلم.



قوله: «وعذاب النار حق حِسيٌ ومعنوي»

ش: **العذاب الحسي:**

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ۝٥٥ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥١- ٥٦].

وقال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣٤ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة: ٣٠- ٣٧].

وقال تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤ كَلَّا ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ [المعارج: ١١- ١٨].

وقال تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: ٢٤- ٢٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝٤٤ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣- ٤٨].

العذاب المعنوي:

قال تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ ۝٥٩ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ۝٦٠ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ۝٦١ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ۝٦٢ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ۝٦٣ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٥٩- ٦٤]. هذا إخبار من اللَّه تعالى عن قِيلِ أهلِ النار بعضِهم لبعض كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ الأعراف: ٣٨] يعني بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون، ويَكْفُرُ بعضهم ببعض، فتقول الطائفة التي تدخل قبل



الأخرى إذا أقبلت التي بعدها مع الخزنة من الزبانية: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ أي لأنهم من أهل جهنم: ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ أي فيقول لهم الداخلون: ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ [الصافات: ٢٧- ٣٢].

يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون في عرَصَات القيامة كما يتخاصمون في دركات النار: ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ۝ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧- ٤٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٠- ٣٣].

وقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٤- ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

أي قولوا له ذلك على وجه التهكّم والتوبيخ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥](٢).

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥ .



القضية السابعة والخمسون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«نشهد أن أهل الجنة واجدون فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ونسأل اللَّه أن يجعلنا منهم، وأهلَ النار واجدون فيها من العذاب والآلام ما لم يخطر ببالهم، وأكبر مما تتوهمه عقولُهم ﴿فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد﴾ ونسأل اللَّه ألا يجعلنا معهم».

قوله: «نشهد أن أهل الجنة واجدون فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ونسأل اللَّه أن يجعلنا منهم».

الشرح: قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]. أي فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى اللَّه لهم في الجنات من النعيم المقيم، واللذات التي لم يطّلع على مثلها أحد؛ لما أخفوا أعمالهم، كذلك أخفى اللَّه لهم من الثواب جزاء وفاقا، فإن الجزاء من جنس العمل.

قال الحسن البصري: «أخفى قومٌ عملَهم، فأخفى اللَّه لهم ما لم ترى عين ولم يخطر على قلب بشر»(١).

فعن أبي هريرة ﷺ عن رسول اللَّه ﷺ قال: «قال اللَّه تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». قال أبو هريرة ﷺ: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ »(٢).

وعن المغيرة بن شعبة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «سأل موسى عليه السلام ربَّه عز وَجلّ: «ما أدنى أهل الجنة منزلة؟». قال: «هو رجل يجيء بعدما أُدخل أهل الجنةِ الجنةَ، فيقال له: «ادخل الجنة»، فيقول: «أي ربِّ! كيف وقد نزل الناسُ منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟» فيُقال له: «أترضى أن يكون لك مثل مَلِك من ملوك الدنيا؟» فيقول:

---

(١) رواه ابن أبي حاتم.
(٢) متفق عليه.



«رضيت رب» فيقول: «هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهيت ولذّت عينك، فيقول: «رضيتُ ربِّ». قال[١]: «ربِّ ! فأعلاهم منزلة»؟ قال: «أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر». قال: «ومصداقه من كتاب اللَّه عزَّ وجلّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧][٢]»[٣].

إحلال رضوانه على أهل الجنة:

عن أبي سعيد ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه تعالى يقول لأهل الجنة: «يا أهل الجنة!» فيقولون: «لبيك ربنا وسعديك، والخير كله في يديك» فيقول: «هل رضيتم»؟ فيقولون: «وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك»؟ فيقول: «ألا أعطيكم أفضل من ذلك»؟ فيقولون: «يا ربِّ ! وأي شيء أفضل من ذلك»؟ فيقول: «أُحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا»[٤].

رؤيتهم اللَّه تعالى هي أعلى ما يجد أهل الجنة

والإيمان برؤية اللَّه في الآخرة هو الاعتقاد الجازم بأن المؤمنين يرون ربهم عيانا بأبصارهم في عَرَصة[٥] القيامة وفي الجنة.

ومسألة الرؤيا من المسائل التي وقع فيها النزاع بين أهل السنة وغيرهم[٦].

---

(١) أي موسى عليه السلام.
(٢) رواه مسلم والترمذي.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٣ .
(٤) متفق عليه.
(٥) عرَصة: الأرض الواسعة.
(٦) كالجهمية المعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإمامية، وقولهم باطل مردود بالكتاب والسنة (الكواشف الجلية ٣٣٧).



وقد اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، وجميع الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام على تَتابع القرون(١).

الأدلة من القرآن:

١- قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢- ٢٣]. قال ابن كثير: «أي تراه عيانا»(٢) وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإضافة النظر إلى الوجه الذي هو مَحَلُّه في هذه الآية وتعديه بأداة (إلى) الصريحة في نظر العين، وإخلاء الكلام من قرينه تدل على خلاف ذلك في دلالة صريحة، في أن اللَّه أراد بذلك نَظَرَ العين التي في الوجه إلى الرب جل جلاله»(٣).

٢- قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: (وزيادة) هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أن قال: وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أُعْطَوه، لا يستحقونها بعملهم بل بفضله ورحمته، وقد روى تفسيرَ الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم: أبو بكر الصديق، وحذيفة بن اليمان، وعبد اللَّه بن عباس، وسعيد بن المسيب، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وغيرُهم من السلف والخلف(٤).

٣- وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

* قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: أي لهم يوم القيامة مَنْزِل ونُزل سجّين، ثم هم يوم القيامة مع ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم(٥).

---

(١) المصدر السابق.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٧٨ .
(٣) شرح الطحاوية ٢٠٥ .
(٤) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤١٤ .
(٥) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٨٥ .

وسُئل الإمامُ مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ فقال: لما حُجب أعداؤه فلم يروه، تجلّى لأوليائه حتى رأوه(١).

وقال الحاكم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدثنا الربيع بن سليمان قال: حضرت محمد بن إدريس الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: «ما تقول في قول اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾»؟ فقال الشافعي: «لما أن حُجب هؤلاءِ في السّخط، كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضى».

الأدلة من السنة:

أولا: عن جرير بن عبد اللَّه البجلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «كنا جلوس مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة، فقال: «إنكم سترون ربكم عيانا، كما ترون هذا، لا تضامون في رؤيته»(٢)، وقوله ﷺ: «إنكم سترون ربكم» الخطاب للمؤمنين والرؤية بصرية وقوله: «كما ترون القمر ليلة البدر» تحقيقا للرؤية، وأنها لا شك فيها وهو تشبيه للرؤية بالرؤية لا للمرئي بالمرئي، فإنه سبحانه لا شبيه له، ولا نظير والنظر له عدة استعمالات، بحسب صلاته وتعديه بنفسه:

١- فإن عُدّيَ «بنفسه» فمعناه: التوقف والانتظار، كقوله: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣].

٢- وإن عُدّي بـ (في) فمعناه: التفكير، والاعتبار، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٤].

٣- وإن عُدّي بـ (إلى) فمعناه: المعاينة بالأبصار، كقوله تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

فكيف إذا أُضيف إلى الوجه الذي هو مَحَلُّ البصر؟(٣).

---

(١) الكواشف الجلية ٤٠٣ .

(٢) متفق عليه.

(٣) شرح الطحاوية ٢٠٥ .



ثانيا: وعن مصعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ يقول الله تبارك وتعالى: (تريدون شيئا أزيدكم؟») فيقولون: «ألم تُبيِّض وجوهنا؟ ألم تُدْخلنا الجنة، وتنجينا من النار»؟ فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئا أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم»(١).

وهو أشرفها وأجلّها قدرا وأقرُّها لعيون أهل السنة والجماعة وأشدُّها على أهل البدعة والضلالة، وهي الغاية التي شمّر إليها المشمّرون وتنافس فيها المتنافسون، وتسابق إليها المتسابقون، ولمثلها فليعمل العاملون، إذا ناله أهل الجنة نسوا ما هم فيه من النعيم، وحرمانُه والحجاب عنه لأهل الجحيم أشدُّ.

قوله: «وأهل النار واجدون فيها من العذاب والآلام ما لم يخطر ببالهم وأكبر مما تتوهمه عقولهم».

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ ونسأل الله ألا يجعلنا معهم.

ش: قال تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٣- ٢٥].

قال ابن كثير رحمه الله: روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها».

وقال في قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي ليس أحد أشد عذابا من تعذيب الله من عصاه، وليس أحد أشد قبضا ووثقا من الزبانية لمن كفر بربهم عزَّ وجل، وهذا في حق المجرمين من الخلائق والظالمين(٢).

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣- ٤٦]. وقد وصف الزقوم في آية أخرى فقال تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ

---

(١) رواه مسلم.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٦٥٨ .



﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٢- ٦٥]. وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدتْ على أهل الأرض معايشَهم، فكيف بِمنْ يكون طعامه؟»(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يُؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبغ في النار صبغة»، ثم يقال: «يا ابن آدم ! هل رأيت خيرا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟» فيقول: «لا واللَّه يا رب»(٢).

وقال تعالى: ﴿كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي فصِّلت لهم مقطّعات من النار، قال سعيد بن جبير رحمه الله: من نحاس وهو أشد الأشياء حرارة إذا حُمي: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ لَا يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج: ٢٠]. أي إذا صُبّ على رؤوسهم الحميمُ، وهو الماء الحار في غاية الحرارة.

وقوله: «ولهم مقامع من حديد» قال: «يُضربون بها، فيقع كل عضو على حياله فَيَدْعُون بالثبور».

وقال: الفضيل بن عياض رحمه الله: واللَّهِ ما طمعوا في الخروج، إن الأرجل لمقيدة، وإن الأيدي لموثّقة، ولكن يرفعهم لهبها وتردهم مقامعها(٣).

* * *

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي وصححه الألباني الجامع ٥٢٥٠ .
(٢) رواه مسلم.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٨٦ .

القضية الثامنة والخمسون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«نؤمن بأن من مات من أهل الجنة فإنه يُنعَّم في قبره، ومن مات من أهل النار فإنه يُعذَّب، فنعيم القبر وعذابه حق، وسؤال الملكين حق».

قوله: «نؤمن بأن من مات من أهل الجنة فإنه ينعم في قبره . . . .»

الشرح: وأهل السنة والجماعة يؤمنون بفتنة القبر وذلك لدلالة الكتاب والسنة عليها.

أما الكتابُ:

ففي قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. فإن هذا في فتنة القبر(١).

عن البراء عن عازب رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «المسلم إذا سُئل في القبر: شهد أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدا رسول اللَّه»، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧](٢).

وأما السنة:

فروى هانئ مولى عثمان بن عفان، قال: كان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى، حتى يبل لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتذكر القبر فتبكي؟ فقال: إني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه»، قال: وسمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «ما رأيت منظرا قط، إلا والقبر أفظع منه»(٣) وفتنة القبر (سؤال الملكين) يكون للروح والجسد(٤).

---

(١) المحاضرات السنية شرح الواسطية للشيخ ابن عثيمين ٢/٥٢٩ والمقصود بعذاب القبر سؤال الملكين.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه الترمذي وحسنه الألباني.

(٤) شرح الطحاوية ٤٥١ .

كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قُبر[١] الميتُ أتاه ملكان، أسودان أزرقان[٢] يقال لأحدهما (المنكر) وللآخر (النكير)، فيقولان: «ما كنتَ تقولُ في هذا الرجل؟» فيقول: «ما كان يقول هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده رسوله»[٣].

وفي حديث آخر (.. أتاه ملكان، فيقعدانه فيقولان له: «ما كنت تقول في هذا الرجل؟» - محمد - فأما المؤمنُ فيقول: «أشهد أنه عَبْدُ الله ورسوله»... وأما الكافر فيقول: «لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس»[٤].

وفي حديث آخر «.. فيأتيه[٥] ملكان فيجلسانه، فيقولان له: «ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟» فيقول: «هو رسول الله...» فَتُعاد روحُه في جسده، ويأتيه[٦] ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري ...»[٧].

ومن حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «... وأمافتنة القبر فبي تُفتنون[٨] وعني تسألون فإذا كان الرجلُ الصالح أُجلِس في قبره، غير فزع[٩] ثم يقال له: «ما هذا الرجل الذي كان فيكم»؟ فيقول: محمد رسول الله جاءنا بالبينات من عند الله، فصدقناه.. وإذا كان الرجل السوء: أُجلس في قبره فزعا، فيقال له: ما كنت تقول؟ فيقول: «لا أدري»، فيُقال: «ما هذا الرجل الذي كان فيكم»؟ فيقول: سمعتُ الناس

(١) دُفِن.
(٢) الأعيُن.
(٣) رواه الترمذي وحسّنه الألباني (الجامع ٧٢٤ الصحيحة ١٣٩١).
(٤) متفق عليه عن أنس.
(٥) أي للمؤمن.
(٦) أي العبد الكافر.
(٧) رواه أحمد وأبو داود وابن خزيمة والحاكم وغيرهم عن البراء وصححه الألباني - الجامع ١٦٧٦).
(٨) تمتحنون.
(٩) خائف.



يقولون قولا فقلت كما قالوا . .»[١] وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «اللَّهم إني أعوذ بك من الكسل . . ومن فتنة عذاب القبر»[٢]، ولهذا كان رسول اللَّه ﷺ إذا فرغ من دفن الميت قال: «استغفروا لأخيكم، وسلوا له التثبيت، فإنه الآن يسأل»[٣].

ولم يكن الرسول ﷺ يعلم في أول الأمر أن هذه الأمة تفتن في قبورها، ثم أوحى اللَّه له بهذا العلم، فقد حدّث عروة بن الزبير عن خالته عائشة رضي الله عنها قالت: «دخل عليّ رسول اللَّه ﷺ وعندي امرأة من اليهود»، وهي تقول: «هل شعرتِ أنكم تفتنون في القبور؟»[٤] قالت عائشة: فلبثنا ليالي، ثم قال رسول اللَّه: «هل شعرتِ أنه أوحي إليّ أنكم تفتنون في القبور»[٥].

من هم الناجون من فتنة القبر؟

١ - **الأنبياء**: لأن الأنبياء أفضل من الشهداء، ولأن الأنبياء يُسأل الناسُ عنهم فيقال: من نبيك؟ فهم مسئول عنهم، وليسوا مسئولين عن غيرهم[٦] وللحديث السابق: (. . . فبي تفتنون) قال ابن تيمية: وهي (فتنة القبر) عامة للمكلفين إلا النبيين فقد اخْتُلف فيهم[٧].

٢- **الشهداء**: الذين قتلوا في سبيل اللَّه، فإنهم لا يُفتنون، لظهور صدق إيمانهم بجهادهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وعن المقدام بن معدي يكرب عن النبي ﷺ أنه قال: «للشهيد عند اللَّه سبعُ خصال: يُغفر له في أول دَفْعة من دمه. . . ويجار من عذاب القبر. .»[٨] وعنه ﷺ قال عن الشهيد: «كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة»[٩].

(١) رواه أحمد وحسنه الألباني (الجامع ١٣٦١).
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه الحاكم من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه وصححه الألباني (الجامع ٩٤٥).
(٤) الظاهر أن هذا من ضمن العقائد اليهودية التي لم تُحرف.
(٥) رواه مسلم.
(٦) شرح الواسطية لابن عثيمين.
(٧) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٤/ ٢٥٧
(٨) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وصححه الألباني (الجامع ٥١٨٢).
(٩) رواه النسائي وصححه الألباني (الجامع ٤٤٨٣) قال ابن القيم وقوله ﷺ «كفى ببارقة». السيوف =

٣- **المرابطون**: لحديث فضالة بن عبيد وعقبة بن عامر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كل ميّت يُختم على عمله، إلا الذي مات مرابطا في سبيل اللّه، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة، ويُؤَمَّن من فتّان القبر»(١).

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جُري عليه عمله الذي يعمله، وأجرى عليه رزقه وأمن الفتّان»(٢).

٤- **الصدِّيقون**: اختلف أهل العلم فيهم، فالبعض يقول: يُسألون لعموم الأدلة، والبعض الآخر قال لا يُسألون، لأنهم أعلى مرتبة من الشهداء، لأن الصديق على وصفه مُصدّق، وصادق فهو قد عُلم صدقه فلا حاجة لاختباره واللّه أعلم(٣)

٥- **الصبيان والمجانين**: فقيل: «لا يُفتنون لأن المحنة إنما تكون للمكلّفين» وهذا قول القاضي، أبو يعلى وابن عقيل.

وقيل: «بل يُفتنون» وهذا قول أبي حكم، وأبي الحسن بن عبدوس وهو قولُ أكثرِ أهلِ السنة من أهل الحديث والكلام وهو الذي ذكره أبو الحسن الأشعري رحمه الله عن أهل السنة واختاره، وهو مقتضى نصوص الإمام أحمد، وقد روى مالك وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ صلى على طفل فقال: «اللّهم قه عذاب القبر، وفتنة القبر»(٤).

صور من عذاب القبر ونعيمه:

والحق عند أهل السنة بأن عذاب القبر على النفس والبدن، قال شيخ الإسلام ابن

= على رأسه فتنة: «معناه واللّه أعلم: قد امتحن نفاقة من إيمانه ببارقة السيف على رأسه، فلم يفر، فَلَو كان منافقا لما صبر لبارقة السيف على رأسه، فدل على أن إيمانه هو الذي حمله على بذل نفسه للّه وتسليمها له».

فهذا قد أظهر صدق ما في ضميره حيث برز للقتل فاستغنى بذلك عن الامتحان في قبره».

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم «صححه الألباني الجامع ٤٥٦٢».

(٢) رواه مسلم.

(٣) شرح العقيدة الواسطية للشيخ ابن عثيمين رحمه الله ٢/ ٥٣٤ .

(٤) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٤/ ٢٥٧، ٢٧٧ بتصرف بسيط.



تيمية قدّس اللّه روحَه: «العذابُ والنعيم على النفس والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة والجماعة، تُنعّم النَفْسُ وتعذّبُ منفردة عن البدن، وتُنعّم وتُعذّب متصلة بالبدن، متصل بها فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحالة مجتمعين»(١).

فعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كُنّا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا النبي ﷺ فقعد وقعدنا حوله، كأن على رؤوسنا الطير، وهو يُلحَد له، فقال: «أعوذ باللّه من عذاب القبر» ثلاث مرات.

ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا، نزلت إليه الملائكة، كأن على وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط(٢) من حنوط الجنة، فجلسوا منه مدّ البصر.

ثم يجيء مَلَك الموت حتى يجلس عند رأسه»، فيقول: «يا أيتها النفس الطيبة ! اخرجي إلى مغفرة من اللّه ورضوان» قال: «فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيّ السقاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض»، قال: فيصعدون بها، فلا يمرون بها، «يعني على ملأ من الملائكة» إلا قالوا: «ما هذه الروح الطيبة؟». فيقولون: «فلان ابن فلان»، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء، فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها، إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها اللّه.

فيقول اللّه عزَّ وجلَّ: «اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتُعاد روحه إلى جسده، فيأتيه مَلَكَان، فيُجلسانه فيقولان له: «من ربك؟» فيقول: «ربي اللّه»،

---

(١) لوامع الأنوار البهية ٢/ ٢٤ .

(٢) الحنوط: هو ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى «لسان العرب ٧/ ٢٧٨».



فيقولان له: «ما دينك؟» فيقول: «ديني الإسلام»، فيقولان له: «ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟» فيقول: «هو رسول اللَّه»، فيقولان له: «ما علمك؟» فيقول: «قرأتُ كتابَ اللَّه فآمنت به وصدقتُ»، فيُنادي مُنادٍ من السماء: أَنْ صَدَق عبدي فافرشوه من الجنة، افتحوا له بابا إلى الجنة، قال فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يَسرُّك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: «من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير»، فيقول: «أنا عملك الصالح» فيقول: «يا رب أقِم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي».

قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مدّ البصر.

ثم يجيء مَلَك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: «أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من اللَّه وغضب» قال: «فتتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السَّفُود[1] من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يجعلونها في تلك المسوح، ويخرج منها كَأَنْتِنَ ريح خبيثة وُجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها»، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: «ما هذه الروح الخبيثة؟» فيقولون: فلان ابن فلان، بأقبح أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيُستفتح له، فلا يُفتح له، ثم قرأ رسول اللَّه ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

فيقول اللَّه عزَّ وجلَّ: اكتبوا كتابه في سجين، في الأرض السفلى، فَتُطرح روحُه طرحا، ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]. فتُعاد روحه في جسده، ويأتيه مَلَكان فيُجلسانه، فيقولان له: «مَنْ ربك؟» فيقول: «هاه، هاه لا أدري»، فيقولان له: «ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟» فيقول: «هاه، هاه لا أدري».

---

(١) السَّفُود: حديدة يشوي بها اللحم وجمعها سفافيد.



فيُنادي مناد من السماء، أنْ كَذب، فافرشوه من النار، وافتحوا له بابا من النار، فيأتيه من حرِّها وسمومها، ويضيق عليه قبره، حتى تختلف أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: «أبشر بالذي يسؤك، هذا يومك الذي كنت تُوعَد» فيقول: «مَنْ أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر» فيقول: «أنا عملك الخبيث»، فيقول: «رب لا تُقم الساعة»(١) .

وإن الموتى ليُعذَّبون في قبورهم، حتى إن البهائم لتسمع أصواتهم.

فعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «. . . . فيضربه بمطرقة من حديد بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها الخلق غير الثقلين»(٢) .

أسباب عذاب القبر؟

إن الأسباب التي يُعذَبُ بها أصحابُ القبور على قسمين:

أولا: مُجْمَلة:

فإنهم يُعذَّبون على جهلهم باللَّه وإضاعتهم لأمره، وارتكابهم معاصيه.

ثانيا: مُفَصَّلة:

١- عدم الاستنجاء من البول، والمشي بالنميمة، والغيبة:

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: مرّ النبي ﷺ على قبرين، فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير»، ثم قال: «بلى، أما أحدهما فكان يسعى بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله»(٣) وفي رواية «وأما الآخر فيعذب في الغيبة»(٤).

---

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود وأبو عوانه والاسفرابتي وصححه الألباني.
(٢) رواه أبو داود وأحمد وصححه الألباني الجامع ١٩٣٠ . والثقلين: الإنس والجن.
(٣) متفق عليه.
(٤) رواية أحمد وابن ماجة من حديث أبي بكرة رضي الله عنه وأبو داود والطيالسي وصححه الألباني (الجامع ٢٤٤١).

٢- **الغُلُول**[(١)]: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أهدى رجل لرسول اللّه ﷺ غلاما يقال له: (مِدعم)، فبينما (مدعم) يحط رحلا لرسول اللّه ﷺ إذ أصابه سهم غائر[(٢)] فقتله، فقال الناس: هنيئا له الجنة، فقال الرسول ﷺ: «كلا ! والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم، لتشتعل عليه نارا. .»[(٣)].

٣-٦ - الكذب - هجر القرآن - الزِّنا - الرِّبا:

فعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال: «من رأى منكم الليلة رؤيا؟» قال: «فإن رأى أحد، قصّها، فيقول ما شاء اللّه».

فسَأَلَنَا يوما فقال: «هل رأى أحد منكم رؤيا؟» فقلنا: «لا»، قال: «لكني رأيت الليلة رجلين أتياني فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده كلوب من حديد، يدخله في شدقه حتى يبلغ قفاه، ثم يُفْعلُ بشدقه الآخر مثلَ ذلك ويلتئم شدقه هذا، فيعود فيضع مثله».

قلت: «ما هذا؟» قالا: انطلق، فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه، ورجل قائم على رأسه بفهر أو صخرة، فيشدخ به رأسه، فإذا ضربه تدهده الحجر، فانطلق إليه ليأخذه فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه وعاد رَأْسُه كما هو، فعاد إليه فضربه.

قلت: من هذا؟ قالا: انطلق: فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يتوقّد تحته نار، فإذا اقترب ارتفعوا حتى كادوا أن يخرجوا، فإذا خمدت، رجعوا فيها، وفيها رجال ونساء عراة.

فقلت: « «من هذا؟» قالا: «انطلق»، فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم، فيه رجل قائم، وعلى وسط النهر رجل بين يديه حجارة، فأقبل الرجل الذي في النهر، فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر في فِيه فَرَدّه، حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج رمى في

---

(١) الغلول: الخيانة.
(٢) غائر: لا يدري من رماه.
(٣) متفق عليه.

فيه بحجر فرجع كما كان...» الحديث.

وفي آخره قال رسول اللَّه ﷺ «طوفتماني الليلة فأخبراني عما رأيت، قالا: نعم أما الذي رأيته يُشق شدقه فَكَذَّاب يحدِّث بالكذبة فتُحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيُصنع به ما رأيت إلى يوم القيامة، والذي رأيته يُشدخ رأسه فَرَجُل عَلّمه اللَّهُ القرآن، فقام عنه بالليل ولم يعمل فيه بالنهار، يُفعل به إلى يوم القيامة، والذي رأيته في الثقب فهم الزناة والذي رأيته في النهر أكلوا الربا...»(١).

وأخيراً اعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب أو النعيم ناله نصيبُه منه، قُبر أو لم يُقبَر، أكلته السباع، أو احترق حتى صار رمادا ونسف في الهواء، أو صُلِب أو غرق في البحر، وَصَلَ إلى روحه وبدنه من العذاب أو النعيم ما يصل إلى المقبور وما ورد في إجلاسه واختلاف أضلاعه - ونحو ذلك - فيجب أن يُفهم عن الرسول ﷺ مرادهُ من غير غلو، ولا تقصير، فلا يَحمَّل كلامه ما لا يحتمله، ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان(٢).

* * *

---

(١) رواه البخاري وهناك عذاب المنتحر والذي يكنز المال أعرضت عن كتابته خشية الإطالة.
(٢) شرح الطحاوية ٤٥١ - ٤٥٢ .

القضية التاسعة والخمسون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«نؤمن ونشهد أن بيننا وبين الساعة علاماتٍ كبرى وصغرى، ذَكَر اللَّه بعضَها في كتابه وفصَّلها الرسول ﷺ في خطابه، وأن من العلامات الكبرى الدابةَ، والدجالَ ويأجوج ومأجوج، ونار تخرج من قعر عدن تحشر الناس إلى أرض المحشر، ونزولَ المسيح عيسى بن مريم من السماء في دمشق حيث يحكم بالقرآن ويكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية».

قوله: «نؤمن ونشهد أن بيننا وبين الساعة علاماتٍ كبرى وصغرى ذكر اللَّه بعضها في كتابه، وفصّلها الرسول ﷺ في خطابه..».

الشرح: الساعة في اللغة: هي جزء من أجزاء الليل والنهار، وجمعها ساعات وساع.

الساعة في الاصطلاح الشرعي: الوقت الذي تقوم فيه القيامة، وسميت بذلك لسرعة الحساب فيها، لأنها تفاجئ الناس في ساعة، فيموت الخلق كلهم بصيحة واحدة(١).

فأشراط الساعة: هي علامات القيامة التي تسبقها وتدل على قربها.

وقيل: هي ما تنكره الناس من صغار أمورها قبل أن تقوم الساعة.

وقيل: هي أسبابها التي هي دون مُعظمها، وقيامها(٢).

عِلم الساعة: وعلم الساعة غيب لا يعلمه إلا اللَّه عزَّ وجلَّ قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. وعندما سأل المكذِّبون بالساعة النبي ﷺ أخبره تعالى: إنه تعالى المختص بعلمها، لا يظهرها لوقتها الذي قدّر أن تقوم فيه، إلا هو، وأنها تأتيهم فجأة

---

(١) النهاية لابن الأثير ٢/ ٤٢٢ ولسان العرب ٨/ ١٦٩ .

(٢) النهاية لابن كثير ٢/ ٤٦٠ .



من حيث لا يشعرون، ولم يستعدوا لها، ولم يتهيأوا لها[(١)].

وقال تعالى: ﴿يَسْئَلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]. ولهذا لما سأل جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ عن وقت الساعة، قال النبي ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل..»[(٢)] فجبريل لا يعلم متى تقوم الساعة، وكذلك محمد ﷺ.

قرب قيام الساعة:

إن الآيات والأحاديث الصحيحة تدل على قرب الساعة ودنوها:

قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]. وقال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقوله ﷺ: «بُعثتُ أنا والساعة كهاتين، ويشير بأصبعيه[(٣)] فيمدهما»[(٤)].

أشراط الساعة:

أشراط: مفردة شرط، والشَّرَط بالتحريك هو العلامة وجمعه أشراط، وأشراط الشيء أوائله، ومنه شُرَط السلطان: وهم نخبة أصحابه الذين يقدمهم على غيرهم من جنده، ومنه الاشتراط الذي يشترطه الناس بعضهم على بعض، فالشَّرَط علامة على المشروط[(٥)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٣/ ١٢٥ .

(٢) رواه البخاري.

(٣) أي السبابة والوسطى.

(٤) رواه البخاري ومسلم وأحمد من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه .

(٥) النهاية في غريب الحديث ٢/ ٤٦٠ ولسان العرب ٧/ ٣٢٩ - ٣٠ .

أقسام أشراط الساعة:

تنقسم أشراط الساعة إلى قسمين:

أولا: أشراط صغرى:

ا - وهي الأشراط والعلامات منها التى ظهرت وانقضت:

أ- بعثة النبي ﷺ لقوله: «بُعثتُ أنا والساعة كهاتين»[١] .

ب- موت النبي ﷺ لقوله: «... أعدد ستا بين يدي الساعة: موتي»[٢].

ج- فتح بيت المقدس لقوله ﷺ: «... أعدد ستا بين يدي الساعة فتح بيت المقدس»[٣] .

د- طاعون عمواس[٤]: «أعدد ستا بين يدي الساعة.. ثم موتا[٥] يأخذ فيكم كقعاص[٦] الغنم»[٧] .

ووقع هذا في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد فتح بيت المقدس سنة ١٨ هـ، ووقع أولا في كورة «عمواس» ثم انتشر في أرض الشام، فمات منه خلق كثير من الصحابة رضي الله عنهم ، ومن غيرهم.

وقيل بلغ عدد من مات فيه خمسة وعشرون ألفا من المسلمين، ومات فيه أبو عبيدة ابن الجراح «أمين هذه الأمة رضي الله عنه »[٨] .

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه البخاري من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه .
(٣) رواه البخاري من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه .
(٤) عمواس: بلدة في فلسطين على ستة أميال من الرملة على طريق بيت المقدس (معجم البلدان) ٤/ ١٥٧ .
(٥) موتان: بضم الميم وسكون الواو: هو الموت الكثير الوقوع.
(٦) قعاص: داء يأخذ الدواب فيسيل من أنوفها شيء فتموت فجاءة.
(٧) رواه البخاري.
(٨) فتح الباري ٦/ ٢٧٨ والبداية والنهاية ٧/ ٩٤ .



هـ- موقعة صفِّين: والتي وقعت بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة»(١).

و- ظهور نار الحجاز: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل بِبصرى »(٢)(٣) وقد ظهرت هذه النار في منتصف القرن السابع الهجري،حتى أنهم شاهدوا أعناق الإبل في ضوء هذه النار(٤).

ي- قتال الترك: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون الترك، قوما وجوههم كالمجان(٥) المطرقة(٦)، يلبسون الشعر ويمشون في الشعر»(٧) واسم بلادهم تركستان، وهي ما بين مشارق خراسان إلى مغارب الصين وشمال الهند إلى أقصى المعمورة، وبدأ قتالهم من عصر الصحابة في أول خلافة بني أمية، ومنهم الملوك السامانية، ثم آل سبكتكين، ثم آل سلجوق، ثم التتار في القرن الخامس الهجري، وهم نفس (المغول) الذين ظهروا في زمن الإمام النووي رحمه الله فقال فيهم: «قد وجد قتال هؤلاء الترك بجميع صفاتهم التي ذكرها ﷺ، صغار الأعين، حُمر الوجوه، ذلف الأنف، عراض الوجوه كأن وجوههم المجان المطرقة ينتعلون الشعر، فوُجدوا بهذه الصفات كلها في زماننا وقاتلهم المسلمون مرات، وقتالهم الآن»(٨) .

---

(١) متفق عليه.

(٢) بصرى: بفتح الباء آخرها مقصورة مدينة معروفة بالشام ويقال لها: حوران وبينها وبين دمشق ثلاث مراحل (معجم البلدان ١/ ٤٤١) .

(٣) متفق عليه.

(٤) النووي بشرح مسلم ١٨/ ٢٨ .

(٥) المجان: جمع مجن وهو الترس، والميم زائدة لأنه من الجنة وهي السترة (النهاية لابن كثير ٤/ ٣٠١) .

(٦) المجان المطرقة هي التي عليت بطارق فشبه وجوههم في عرضها ونتوء وجناتها بالترس.

(٧) رواه مسلم، والنهاية في الفتن والملاحم، والبداية والنهاية ١٣/ ١٨٧ والإذاعة ٨٥ والتذكرة ٦٣٦ .

(٨) شرح مسلم للنووي ١٨/ ٣٧- ٣٨ .

٢ - الأشراط والعلامات التي وقعت ولا تزال تتابع وتكثر

أ- التطاول في البنيان: قال رسول اللّه ﷺ: «وأن ترى الحفاة العراة، العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان»[١].

ب- كثرة القتل: قال رسول اللّه ﷺ «لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرج، قالوا وما الهرج يا رسول اللّه؟ قال: «القتل القتل»»[٢].

ج- ظهور الكاسيات العاريات: قال رسول اللّه ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البُخت المائلة[٣] لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»[٤].

د- كثرة الزلازل: قال رسول اللّه ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تكثر الزلازل»[٥].

هـ- كثرة التجارة: حتى تُشارك فيها النساء قال رسول اللّه ﷺ: «بين يدي الساعة تسليم الخاصة[٦]، وفُشُو التجارة، حتى تشارك المرأة زوجها في التجارة»[٧].

و- تداعي الأمم على الأمة الإسلامية: قال رسول اللّه ﷺ: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: «ومن قلة نحن يومئذ؟» قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنّ اللّه من صدور عدوكم المهابة

---

(١) متفق عليه من حديث جبريل الطويل.

(٢) رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٣) أي يُغَطِّينَ رؤوسهن وذلك بجمع شعورهن ولفه فوق رؤوسهن حتى يميل إلى ناحية من جوانب الرأس كما تميل أسنمة الإبل.

(٤) رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٥) رواه البخاري من حديث أبي هريرة.

(٦) أي لا يلقى السلام إلا على من يعرفه وهذا خلاف السنة.

(٧) رواه أحمد في مسنده ٥/٣٣٣ بتحقيق أحمد شاكر، وقال إسناده صحيح، ورواه الحاكم في المستدرك ٤/٤٤٥ .



منكم، وليقذفن اللّه في قلوبكم الوهن»، فقال قائل: «يا رسول اللّه وما الوهن؟» قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»»[١].

٣ - الأشراط والعلامات: لم تقع بعد:

أ- عودة جزيرة العرب جنات وأنهارا: قال رسول اللّه ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يكثُر المال ويفيض، حتى يُخرج الرجل زكاة ماله، فلا يجد أحدا يقبلها، وحتى تعود أرض العرب جنات وأنهارا»[٢].

ب- **انحسار الفرات عن جبل من ذهب:** قال رسول اللّه ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب يقتتل الناس عليه، فيُقتل من كل مائة تسعة وتسعون، ويقول كل رجل منهم لعلي أكون أنا الذي أنجو»[٣].

العلامات الكبرى:

أولا: الدابّة:

١ - **الأدلة من القرآن الكريم** قال تعالى: ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢].

هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس، وتَرْكهم أوامر اللّه، وتبديلهم الدين الحق، يُخرج اللّه لهم دابة من الأرض[٤].

وقال عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه : «وقع القول يكون بموت العلماء، وذهاب العلم،

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وابن عساكر وأبو نعيم عن ثوبان، وصححه الألباني (الجامع ٨١٨٣ والصحيحة ٩٥٦).

(٢) رواه مسلم من حديث أبي هريرة، وعودتها جنات وأنهار إما بسبب الإنسان في حفر الآبار وزراعتها ونحو ذلك أو بسبب تغير المناخ، فيتحول من حار إلى لطيف جميل وإما بتفجير اللّه فيها من الأنهار والعيون (اليوم الآخر ١٩٥).

(٣) متفق عليه.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٣/٤٩٨ .

ورفع القرآن»، ثم قال: «أكثروا تلاوة القرآن قبل أن يرفع»، قالوا: «هذه المصاحف تُرفع، فكيف بما في صدور الرجال؟» قال: «يسري عليه ليلا فيصبحون منه قفراً، وينسون لا إله إلا اللّه، ويقعون في قول الجاهلية وأشعارهم وذلك حين يقع القول عليهم»(١).

٢- الأدلة من السنة:

١- عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: حفظت من رسول اللّه ﷺ حديثا لم أنسه بعد، سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجا: الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحىً، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على أثرها قريبا»(٢).

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستا» وذكر منها «دابة الأرض»(٣).

٣- وقال رسول اللّه ﷺ «تخرج الدابة فتَسِمُ(٤) الناس على خراطيمهم(٥) ثم يُعمِّرُون فيكم، حتى يشتري الرجل الدابة، فيُقال: ممن اشتريت؟ فيقول: من الرجل المخطّم(٦)»(٧).

٤- وقال رسول اللّه ﷺ: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أوكسبت في إيمانها خيرا: طلوع الشمس من مغربها، والدّجال، ودابة الأرض»(٨).

---

(١) تفسير القرطبي ١٣/ ٢٣٤ .
(٢) رواه مسلم ١٨/ ٧٧- ٧٨ .
(٣) رواه مسلم.
(٤) أي تعلمهم.
(٥) أي أنوفهم.
(٦) أي: المعلم أنفه.
(٧) رواه أحمد والبخاري في تاريخه وأبو نعيم وصححه الألباني (صحيح الجامع ٢٩٢٧).
(٨) رواه مسلم .



مكان خروجها:

قيل من مدينة قوم لوط، وقيل: من بعض أودية (تهامة) خارج مكة.

وقيل: من مكة، وهو المشهور، ثم اختلف فقيل: من صدع بالصفا، وقيل: بالمروة، وقيل: من شعب أجياد[١].

والأرجح أنها تخرج ثلاث خرجات:

أ - فمرة تخرج في بعض البوادي ولا يدخل ذكرها مكة، ثم تختفي، ثم يمكث زمانا طويلا.

ب - ثم تخرج في بعض القرى ويعلو ذكرها، ويدخل ذكرها (أي خبرها) مكة.

ج - ثم خروجها العام من مكة وفي المسجد الحرام[٢] ويؤيد هذا القولَ ما رواه الطبراني في الأوسط عن حذيفة بن أسيد أراه رفعه قال: (تخرج الدابة في أعظم المساجد، فبينا هم إذ دبّت الأرض، فبينا هم كذلك، إذ تصدّعت[٣].

عمل الدابة:

واختلف أهل التفسير في معنى هذا (التكليم) إلى أقوال منها:

١- أن المراد تُكلمُهم كلاما أي: تخاطبهم مخاطبة، ويدل على هذا قراءة أُبيّ ابن كعب رضي الله عنه (تنبأهم).

٢- تجرحهم ويؤيد ذلك قراءة «تَكْلمهم» بفتح التاء وسكون الكاف - من الكلم وهو الجرح وهي قراءة ابن عباس.

٣- أنها تفعل الأمرين الكلام أي المخاطبة والوسم، وهو مروي عن ابن عباس

(١) الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة لمحمد صديق حسن (رحمه الله) ١٧٥ .
(٢) الإذاعة ١٧٥ ولوامع الأنوار ٢/ ١٤٥ - ١٤٦ .
(٣) مجمع الزوائد ٨/ ٧- ٨ .

وحسّن هذا القول ابن كثير[١].

قوله: «. . . والدَّجَّال»

ش: وهو أكبر فتنة تقع في آخر الزمان، وهو من أشراط الساعة الكبرى.

معنى المسيح: هذه اللفظة تطلق على الصدِّيق، وعلى الضّليل الكذاب، فالمسيح: عيسى بن مريم عليه السلام، الصدِّيق، مسيح الهدى، يُبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن اللّه! والمسيح الدجّال: الضليل الكذاب. يفتن الناس، وسمّي الدجال مسيحا لأن احدى عينيه ممسوحة[٢]، أو لأنه يمسح الأرض في أربعين يوما فخلق اللّه المسيحين أحدهما ضد الآخر[٣].

معنى الدَّجَّال: ولفظ الدجال مأخوذة من قولهم: دَجَل البعير إذا طلاه بالقطران وغطاه به[٤].

وأصل الدجل: معناه الخلط، يقال: دجل إذا لبس وموّه، والدجّال: المموه الكذاب، الممخرق وهو من أبنية المبالغة على وزن فعّال، أي يكثر منه الكذب والتلبيس[٥].

أتباع الدَّجَّال:

أكثر أتباع الدجال من اليهود، والعجم، والترك، وأخلاط من الناس غالبهم الأعراب والنساء.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: يُتبع الدجال من يهود أصبهان

---

(١) انظر تفسير القرطبي ١/ ٢٣٧ وتفسير ابن كثير ٣/ ٤٩٨، وتفسير الشوكاني ٤/ ١٥٢ .
(٢) وهو الراجح إن شاء اللّه (صحيح مسلم ١٨/ ٦١).
(٣) النهاية في غريب الحديث ٤/ ٣٢٦- ٣٢٧ ولسان العرب ٢/ ٥٩(١) ٥٩٥ .
(٤) لسان العرب ١١/ ٢٣٦ .
(٥) النهاية في غريب الحديث ٢/ ١٠٢ .

سبعون ألفا عليهم الطيالسة[١] وفي رواية «سبعون ألفا عليهم التيجان»[٢]، وقوله ﷺ: «وأن من فتنة الدَّجّال - أن يقول للأعرابي: «أرأيت إن بَعثتُ لك أباك وأمك، أتشهد أني ربك؟» فيقول: «نعم»، فيتمثّل له شيطانان في صورة أبيه وأمه، فيقولان: «يا بُني اتبعه فإنه ربك؟»»[٣].

وأما النساء فحالهن أشدّ من حال الأعراب، لسرعة تأثرهن، وغلبة الجهل عليهن، فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ينزل الدجال في هذه السبخة (بمرقناة)[٤] فيكون أكثر من يخرج إليه من النساء، حتى أن الرجل يرجع إلى حميمة، وإلى أمه، وابنته، واخته، وعمته فيوثقها رباطا مخافة أن تخرج إليه»[٥].

أدلة خروجه وصفاته في السنة هي:

١- قال رسول اللّه ﷺ من حديث تميم الداري رضي الله عنه «... فانطلقنا سراعا حتى دخلنا باب الدير، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقا، وأشده وثاقا، مجموعة يداه إلى عنقه[٦] ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد، قلنا: «ويلك ما أنت؟» قال: «قد قدرتم على خبري، فأخبروني ما أنتم؟» قالوا: «نحن أُناس من العرب، ركبنا في سفينة بحرية، فصادفنا البحر حين اغتلم[٧] فلعب بنا الموج شهرا، ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه، فجلسنا في أقربها، فدخلنا الجزيرة فلقيتنا دابة أهلب، كثير الشعر، ما يدري ما قبله من دبره من كثرة الشعر، فقلنا: «ويلك ما أنتِ؟» قالت: «أنا الجسّاسة»، قلنا: «وما الجسّاسة؟» قالت: «اعمدوا إلى هذا الرجل في الدّير، فإنه إلى خبركم

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه أحمد.
(٣) رواه ابن ماجة وصححه الألباني.
(٤) مرقناه: واد بالمدينة يأتي من الطائف، ويمر بطرق القدوم في أصل قبور الشهداء بأحد (معجم البلدان ٤/ ٤٠١).
(٥) رواه أحمد في مسنده ٧/ ١٩٠ - ٥٣٥٣ وصححه اسناده أحمد شاكر .
(٦) قيدت يداه إلى عنقه.
(٧) أي حين هاج واضطربت أمواجه.

بالأشواق، فأَقَلْنا إليك سراعا، وفرَقْنا منها، ولم نأمن أن تكون شيطانة»، قال: «أخبروني عن نخل بيسان»[١]، قلنا: «عن أي شأنها تستخبر؟» قال: «أسألكم عن نخلها هل يُثمر» قلنا له: «نعم»، قال: «أما إنها يوشك أن لا تثمر»، قال: «أخبروني عن بحيرة طبرية؟» قلنا: «عن أي شأنها تستخبر[٢]؟» قال: «هل فيها ماء؟» قلنا: «هي كثيرة الماء»، قال: «إن ماءها يوشك أن يذهب». قال: «أخبروني عن عين ذعر»[٣]، قلنا: «عن أي شأنها تستخبر؟» قال: «هل في العين ماء؟ وهل يزرع أهلها بماء العين؟» قلنا له: «نعم هي كثيرة الماء، وأهلها يزرعون من مائها»، قال: «أخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟» قالوا: «قد خرج من مكة، ونزل يثرب»، قال: «أقاتله العرب؟» قلنا: «نعم»، قال: «كيف صنع بهم؟» فأخبرناه: «أنه قد ظهر على من يليه من العرب، وأطاعوه»، قال: «قد كان ذلك؟» قلنا: «نعم»، قال: أما إن ذلك خير لهم، أن يطيعوه، وإني أخبركم إني أنا المسيح، وإني أوشك أن يؤذن لي بالخروج فَأَخرج، فأسير في الأرض، فلا أدع[٤] قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة، غير مكة وطيبة «المدينة» هما محرمتان عليّ كلتاهما: كلما أردت أن أدخل واحدة منها استقبلني مَلَك بيده السيف صلتا، يصدني عنها، وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها..»[٥].

٢- وعن رسول اللّه ﷺ قال: «يخرج الدجال، فيتوجه قِبَله رجل من المؤمنين، فيلقاه المسالح[٦]، مسالح الدجال»، فيقولون له: «أين تعمد؟» فيقول:

«أعمد إلى هذا الذي خرج»، فيقولون له: «أَوَمَا تؤمن بربنا؟» فيقول: «ما بربنا خفاء»، فيقولون: «اقتلوه»، فيقول بعضهم لبعض: «أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا

(١) قرية بالشام بين حوران وفلسطين.
(٢) تطلب منا أن نخبرك.
(٣) بلدة بالجانب القبلي من الشام.
(٤) أترك.
(٥) رواه مسلم من حديث فاطمة بنت قيس.
(٦) أي: يعد على بطنه للضرب.

أحدا دونه؟» فينطلقون به إلى الدجال، فإذا رآه المؤمن قال: «يا أيها الناس هذا الدجال الذي ذكر رسول اللّه ﷺ»، فيأمر الدجال به فيُشبَح[١]، فيقول خذوه وشجوه، فيوسع بطنه وظهره ضربا، فيقول: «أما تؤمن بي؟» فيقول: «أنت المسيح الكذاب»، فيؤمر به فينشر بالمنشار، من مفرقه[٢] حتى يفرق بين رجليه، ثم يمشي الدجال بين القطعتين، ثم يقول له: «قم»، فيستوي قائما، ثم يقول له: «أتؤمن بي؟» فيقول: «ما ازددتُ فيك إلا بصيرة»، ثم يقول: «يا أيها الناس إنه لا يفعل بعد بأحد من الناس»، فيأخذه الدجال فيذبحه، فيُجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاسا، فلا يستطيع إليه سبيلا، فيأخذ بيديه ورجليه فيُقذف به، فيحسب الناس إنما قذفه في النار، وإنما ألقي في الجنة ؛ هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين[٣].

٣- وقال رسول اللّه ﷺ: «يأتي المسيح من قِبل المشرق، وهمتُه المدينة حتى ينزل دبر أحد[٤]، ثم تصرِف الملائكةُ وجهَه قِبلَ الشام، وهنالك يهلك»[٥].

٤- وقال رسول اللّه ﷺ: «يتّبع الدّجّال من يهود أصفهان سبعون ألفا عليهم الطيالسة»[٦][٧].

٥- وعنه ﷺ قال: «ما بعث اللّه من نبي إلا أنذر أمتَه الدجالَ، أنذره نوح والنبيون من بعده، وإنه يخرج فيكم، فما خفي عليكم من شأنه فليس يخفى عليكم إن ربكم ليس بأعور، وإنه أعور العين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية ألا إن اللّه حرم عليكم دماءكم وأموالكم..»[٨] الحديث.

---

(١) أي: شقوه، والمراد: اضربوه ضربا موجعا.
(٢) أعلى الرأس ووسطه، وهو موضع فرق الشعر.
(٣) رواه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري.
(٤) خلف جبل أحد.
(٥) رواه أحمد ومسلم من حديث أبي هريرة.
(٦) مفردها طيلسان، وهو شال يُتوشح به على الكتف.
(٧) رواه أحمد ومسلم من حديث أنس.
(٨) رواه البخاري من حديث ابن عمر.

٦- وقال ﷺ: «لَيَفِرَنَّ الناس من الدجال في الجبال»[١].

٧- وقال ﷺ: «من سمع بالدجال فلينأ[٢] عنه، فواللّه إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن، فيتبعه، مما يبعث به الشبهات »[٣].

٨- وعنه ﷺ «لأنا أعلم بما مع الدجال من الدجال، معه نهران يجريان، أحدهما رأي العين[٤] ماء أبيض، والآخر رأي العين نار تأجج، فإن أدركه واحد منكم، فليأت النهر الذي يراه نارا، ثم ليغمس، ثم ليطأطئ رأسه فيشرب - فإنه ماء بارد، وإن الدجال ممسوخ العين اليسرى، عليها ظفرة غليظة، مكتوب بين عينيه: كافر، يقرؤه كل مؤمن، كاتب، وغير كاتب»[٥].

٩- وقال رسول اللّه ﷺ: «الدجال عينه خضراء»[٦].

١٠- وقال رسول اللّه ﷺ: «إن الدجال يخرج من قِبل المشرق، من مدينة يقال لها «خرسان»، يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرقة»[٧].

١١- وقال رسول اللّه ﷺ: «إنما يخرج الدجال من غضبة يغضبها»[٨].

١٢- وقال رسول اللّه ﷺ: «إني حدثتكم عن الدجال حتى خشيت أن لا تعقلوا، إن المسيح الدجال رجل قصير، أفحج[٩] جعد، أعور، مطموس العين، ليست بناتئة، ولا

---

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذي من حديث أم شُريك.
(٢) فليبعد عنه.
(٣) رواه أحمد وأبو داود والحاكم من حديث عمران بن الحصين وصححه الألباني (الجامع ٦٣٠١).
(٤) أي: تراه العين.
(٥) متفق عليه - وقوله كاتب وغير كاتب أي: غير الأُمي والأُمي.
(٦) رواه أحمد وأبو نعيم والبخاري في تاريخه عن أبيّ وصححه الألباني (الجامع ٣٤٠١).
(٧) رواه أحمد وابن ماجة والترمذي والحاكم من حديث أبي بكر وصححه الألباني/ الجامع ١٦٠٨ والصحيحة ١٥٩١ .
(٨) رواه أحمد ومسلم من حديث حفصة، أي إنه يغضب غضبة فيخرج بسبب غضبه، فيدّعي النبوة ثم الربوبية.
(٩) أفحج: الذي يتدانى صدور قدميه ويتباعد عقباه.

حجراء[١]، فإن أُلبس عليكم، فاعلموا أن ربكم ليس بأعور، وإنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا»[٢].

١٣- وقال رسول اللّه ﷺ: (الدجال لا يولد له، ولا يدخل المدينة، ولا مكة)[٣].

١٤- وقال رسول اللّه ﷺ: «ليَقتلنّ ابنُ مريم الدجالَ، بباب لُد»[٤][٥].

الخلاصة:

١- ما من نبي إلا وأنذر أمته من الدجال، ولا يُشْكل هذا بما ثبت أنه يقتله عيسى بن مريم بعد أن ينزل ويحكم بالشريعة المحمدية، لأن تعيين وقت خروجه غير معلوم لهم حين أنذروا قومهم، وأيضا يُحمل على هذا ما في بعض طرقه (إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه) على ما سيأتي، فإن ذلك كان قبل أن يتبين له وقت خروجه وعلاماته، ثم تبين له وقت خروجه، فأخبر به، على أنه يحتمل أن الإبهام إنما وقع بسبب أن العلامات قد يكون وجودها معلقا بشرط، فإذا فقد يتصور خروجه بعدم ظهورها، ونظيره خوف الأنبياء والمرسلين - صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين - مع تحقيق عصمتهم، وثبوت أمنهم من العذاب المهين.. أو لأنه لا يجب على اللّه تعالى شيء وأفعاله لا تُعلل، والأسباب لا يتعين وجودها، ولا تأثير لها أيضا بعد حصولها، ولعل هذا هو الوجه في السّر إليهم حتى ظهر على لسان صاحب الدين الأقوم (واللّه تعالى أعلم).

٢- أن الدجال مخلوق الآن وموجود.

٣- أن الدجال أعور العين اليُمنى.

---

(١) حجراء يعني غائرة.
(٢) رواه أحمد وأبو داود من حديث عبادة بن الصامت وصححه الألباني (صحيح الجامع ٢٤٥٩).
(٣) رواه أحمد عن أبي سعيد ومسلم.
(٤) اللّد: بلدة معروفة في فلسطين الآن قريبة من بيت المقدس «أنقذها اللّه من أيدي اليهود».
(٥) رواه أحمد عن مجمع بن جارية ومسلم عن النواس بن سمعان.

٤- أن الدجال يخرج بعد ظهور المهدي.

٥- يخرج الدجال ويكون بداية طريقه بين الشام والعراق.

٦- يمكث الدجال أربعين يوما.

٧- مكتوب بين عينيه كلمة (كافر) يقرؤها كل مؤمن سواء كان يعرف القراءة أو لا يعرفها.

٨- يجب الابتعاد عن الدّجال ومَن صادفه فليقرأ عليه فواتح[(١)] سورة الكهف.

٩- الدّجال معه معجزات كثيرة وأكثر أتباعه هم اليهود والنساء.

١٠- الذي يقتل الدجال هو المسيح عيسى بن مريم في فلسطين.

١١- الدّجال لا يدخل مكة ولا المدينة.

الوقاية من فتنة الدجال:

١- **التّمسك بالإسلام الصحيح والتّسلح بسلاح الإيمان**، والعلم، ومعرفة صفات اللَّه سبحانه وتعالى على الحقيقة كما يليق بجلاله سبحانه وتعالى، ونشر صفات الدجال وأحاديثه قال الإمام السفاريني رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومما ينبغي لكل عالم أن يبث أحاديث الدجال بين الأولاد والنساء والرجال.. وقد ورد أن علامات خروجه نسيان ذكره على المنابر، وقد أخرج الإمام أحمد وابن خزيمة وأبو يعلى والحاكم عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا: «يخرج الدجال في خفة من الدين وإدبار من العلم»[(٢)].

---

(١) أول عشرة آيات من سورة الكهف.

(٢) لوامع الأنوار البهية ٢/١٠٦، رواه أحمد في مسنده والطبراني في مسند الشاميين، ورواه الحاكم في المستدرك وصححه.



٢- التعوذ باللَّه من فتنة الدجال وخاصة في الصلاة.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: أن رسول اللَّه ﷺ كان يدعو في الصلاة: «اللّهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال... الحديث»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا تشّهد أحدكم فليستعذ باللَّه من أربع، يقول: اللّهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال»(٢).

٣- حِفظُ آيات من سورة الكهف وقراءتُها عليه. فعن النواس بن سمعان في الحديث الطويل وفيه قوله ﷺ: «من أدركه "الدجالُ" منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف»(٣). وفي حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف، عُصِم من الدجال»(٤).

٤- الابتعاد والفرار من الدجالُ والأفضل سكنى مكة والمدينة. فعن عمران بن الحصين رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من سمع بالدجال فلينأ عنه ؛ فواللَّه إن الرجل ليأتيه، وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يُبعث به من الشبهات أو لما يبعث به من الشبهات»(٥).

قوله: «ويأجوج ومأجوج»

ش: أصلهم:

أن يأجوج ومأجوج طائفتان من الترك من ذرية آدم عليه السلام(٦) وهم يشبهون الناس

(١) متفق عليه.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه مسلم.
(٥) سبق تخريجه
(٦) النهاية في الفتن والملاحم للإمام ابن كثير ١/ ٢٠٠ نشر دار التراث الإسلامي بالأزهر تحقيق محمد أحمد عبدالعزيز.



كأبناء جنسهم من الأتراك، المخرمة عيونهم، الزلف أنوفهم، الصهب شعورهم على أشكالهم[(١)] وألوانهم، ومن زعم أن منهم الطويلَ الذي كالنخلة السحوق أو أطول، ومنهم القصيرَ الذي هو كالشيء الحقير، ومنهم من له أذنان يتغطى بإحداهما ويتوطى بالأخرى، فقد تكلف ما لا عِلم له به، وقال ما لا دليل عليه.

صفتهم:

أ - الخَلْقية: قال رسول اللّه ﷺ: «... حتى يأتي يأجوج ومأجوج عراض الوجوه، صغار العيون شهب الشعاف[(٢)]، من كل حدب ينسلون كأن وجوههم المجان المطرقة»[(٣)].

ب - الخُلُقية: وهم كَفَرة، مُفسدون من جنّي جهنم - والعياذ باللّه - كما قال ﷺ من حديث زينب بنت جحش عندما دخل عليها يوما فزعا يقول: «لا إله إلا اللّه، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه» وحَلّق بأصبعيه الإبهام والتي تليها، قالت: «زينب بنت جحش» فقلت: «يا رسول اللّه! أفنهلك وفينا الصالحون؟» قال: «نعم إذا كثر الخبث»[(٤)]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٩٤].

جـ - كثرة عددهم، قال تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦]. وكما قال ﷺ: «يقول اللّه تعالى: «يا آدم!» فيقول: لبيك، وسعديك والخير في يديك»، فيقول: «أخرج بعث النار»، قال: «وما بعث النار؟» قال: «من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين»، فعنده يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب اللّه شديد، قالوا: «وأيّنا ذلك

(١) قريبة أشكالهم من مواطني شرق آسيا كالصين والمغول ومن شاكلهم «واللّه أعلم».
(٢) الشعاف جمع شعفة، وهي أعلى شعر الرأس، والمراد شهب الشعور. بالنهاية في غريب الحديث ٢/ ٤٨١ .
(٣) رواه أحمد ٥/ ٢٧١ قال الهيثمي في الزوائد «رواه أحمد والطبراني ورجالها رجال الصحيح ٨/ ٦» .
(٤) متفق عليه.



الواحد؟» قال: «أبشروا، فإن منكم رجلا، ومن يأجوج ومأجوج ألف»[١].

وقال ﷺ: «سيوقد المسلمون من قسي[٢] يأجوج ومأجوج ونشّابهم[٣] وأترستهم سبع سنين»[٤] حتى أن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يبسا، حتى إن مَن يمر مِن بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول: «قد كان ههنا ماء مرة»[٥].

د - **قوّتهم**: قال رسول اللَّه ﷺ: «.. إذ أوحى اللَّه إلى عيسى إني قد أخرجت عبادا لي لا يدان لأحد بقتالهم..»[٦].

أدلة خروجهم:

أولا: من القرآن الكريم:

١- قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٦- ٩٧]. أي يسارعون في المشي إلى الفساد، والحدب: هو المرتفع من الأرض[٧].

٢- وقال تعالى: عن ذي القرنين: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ

---

(١) رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) أي بثيابهم الملطخة بالحرير، وقيل: جمع قوس وهو الأنسب في السياق.

(٣) سهامهم.

(٤) رواه مسلم والترمذي وابن ماجة من حديث النواس بن سمعان.

(٥) رواه أحمد وابن ماجة والحاكم وابن حبان من حديث أبي سعيد وحسنه الألباني «الجامع ٣٩٧٣».

(٦) رواه مسلم.

(٧) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٦٢ .

قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾ [الكهف: ٩٢- ٩٩].

أي ثم سلك طريقا من مشارق الأرض، حتى إذا بلغ بين السدّين، هما جبلان متناوحان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك فيعيثون فيها فسادا ويهلكون الحرث والنّسل(١).

ثانيا: الأدلة من السنة:

١- حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي ﷺ وفيه: «. . . إذ أوحى اللَّه إلى عيسى: «أني قد أخرجت عبادا لي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرِّز عبادي إلى الطور» ويبعث اللَّهُ يأجوجَ ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء.

ويحصر نبي اللَّه عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب إلى اللَّه عيسى وأصحابه فيرسل اللَّه عليهم النغف(٢) في رقابهم فيصبحون فرسى(٣) كموت نفس واحدة، ثم يُهبط بنبي اللَّه عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب(٤) نبي اللَّه عيسى وأصحابه إلى اللَّه، فيرسل اللَّه طيرا كأعناق البخت(٥) فتحملهم فتطرحهم حيث شاء اللَّه(٦).

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٤١ .
(٢) النغَفَ بالتحريك، دود يكون في أنوف الإبل والغنم، واحدتها: نغفة (النهاية ٥/ ٨٧).
(٣) فرسى: أي قتلى.
(٤) فيرغب: أي يدعو.
(٥) البخت: هي جمال طوال الأعناق
(٦) رواه مسلم

٢- وفي رواية أخرى «يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر[(١)] وهو جبل بيت المقدس فيقولون: «لقد قتلنا من في الأرض، هَلُمَّ فلنقتل من في السماء»، فيرمون نشابهم[(٢)] إلى السماء فيرد اللَّه عليهم نشابهم مخضوبة دما»[(٣)].

٣- قال رسول اللَّه ﷺ: «إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السدّ كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: «ارجعوا فستحفرونه غدا» فيعيده اللَّه أشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم[(٤)] وأراد اللَّه أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: «ارجعوا فستحفرونه غدا إن شاء اللَّه» واستثنوا، فيعودون إليه، وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس، فيُنَشِّفون الماء[(٥)]، ويتحصن الناس منهم في حصونهم فيرمون سهامهم إلى السماء، فترجع وعليها كهيئة الدم الذي اجفظّ[(٦)] فيقولون: قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء»، فيبعث اللَّه عليهم نغفا في أقفائهم فيُقتلهم بها، والذي نفسي بيده إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكراً[(٧)] من لحومهم ودمائهم»[(٨)].

---

(١) والخمر: الشجر الملتف الذي يستر من فيه. شرح مسلم للنووي ١٨/ ٧١
(٢) النشاب: يطلق على النبل والسهام واحدته نشابة (لسان العرب ١/ ٧٥٧)
(٣) رواه مسلم
(٤) أي: حان وقت خروجهم.
(٥) أي: يشربونه عن آخره.
(٦) أي انتفخ.
(٧) أي تسمن وتمتلئ شحما.
(٨) رواه أحمد في مسنده وأبو داود والحاكم عن أبي هريرة ٤/ ٤٨٨ وقال فيه: (حديث صحيح على شرط الصحيحين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي) وأبو نعيم في الحلية وقال الحافظ في الفتح ١٣/ ١٠٩ «رجاله رجال الصحيح إلا أن قتادة مدلس» ولكن جاء في رواية ابن ماجة، أن قتادة صرح بالسماع من شيخه أبي رافع ٤٠٨٠ وصححه الألباني (الجامع ٢٢٧٦ والصحيحة ١٧٣٥) وقال ابن كثير: وإسناده قوي ٣/ ١٤٢ وظاهره لا يخالف الآية «فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا» فالآية لا تدل من قريب أو بعيد أنهم لا يستطيعوا ذلك أبدا، فالآية تتحدث عن الماضي، والحديث عن المستقبل الآتي، فلا تنافي ولا نكارة، بل الحديث يتمشى تماما مع القرآن في قوله: «حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون» السلسلة الصحيحة ٣١٤ الألباني.



سَدُّ يأجوج ومأجوج:

وهو الذي بناه ذو القرنين كما جاء في سورة الكهف فجمع زبر الحديد أي: اللبنة من الحديد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ [الكهف: ٩٦] أي وضع بعضه على بعض في الأساس، حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولا، وعرضا (واختلفوا في مساحة عرضه وطوله على أقوال) ﴿قَالَ ٱنفُخُواْ﴾ أي: أجج عليه النار، حتى صار كلُّه ناراً ﴿قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦]. قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، الضحاك، وقتادة والسدي: «هو النحاس، زاد بعضهم المذاب»(١).

ولا يُعرف مكان السدّ على الحقيقة، وإن كان ابن كثير في تفسيره ذكر أن الخليفة (الواثق) قد جهّز جيشا لينظروا إلى السدّ، ويعاينوه، وينعتوه إذا رجعوا، وأنهم عندما رأوا بناءه من الحديد والنحاس وذكروا أنهم رأوا فيه بابا عظيما وعليه أقفال عظيمة ورأوا بقية اللبن والعمل في برج هناك وأن عنده حرسا من الملوك المتاخمة له وأنه عال منيف شاهق لا يستطاع ولا ما حوله من الجبال ثم رجعوا إلى بلادهم وكانت غيبتهم أكثر من سنتين وشاهدوا أهوالا وعجائب(٢) لكنه رواه بدون سند «فاللَّه أعلم بصحتها»، ثم اللَّهُ لم يتعبدنا بمعرفة مكان السدّ.

هل خرجوا يأجوج ومأجوج؟

ذهب البعض إلى أنهم قد خرجوا، وأنهم شعوب شرق آسيا «الصين والمغول»، والظاهر أن شعوب شرق آسيا، وكذلك الترك هم من نفس القبائل، ولكن ليس هم يأجوج ومأجوج.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنما سُمّي هؤلاء (تُركاً) لأنهم تُركوا من وراء السدّ من هذه الجهة، وإلا فهم أقرباء أولئك «يأجوج ومأجوج» ولكن كان في أولئك بغي وفساد وجراءة(٣) خاصة؛ وأن البعض منهم «المغول، والترك» قد أسلموا، وحسُن

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٤١-١٤٢ .
(٢) المصدر السابق.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٤١ .

إسلامهم. وإن كانت طبيعة الإفساد هي الظاهرة منهم، ولهذا قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد خرج منهم أي «التُرك» في هذا الوقت أمم لا يحصيهم إلا اللّٰه تعالى، ولا يردهم عن المسلمين إلا اللّٰه تعالى، حتى كأنهم يأجوج ومأجوج أو مقدمتهم»(١)، ولكن خذلهم اللّٰه على يد الملك المظفر (قطز) في معركة «عين جالوت» في العشر الأواخر من رمضان سنة ٦٥٨ هـ(٢). لكن خروج يأجوج ومأجوج والذين هم من أشراط الساعة الكبرى لم يقع بعدُ لأن الأحاديث الصحيحة تدلّ على أن خروجهم يكون بعد نزول عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وبعد مقتل المسيح الدجال، وأن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو الذي يدعو عليهم، فيهلكهم اللّٰه، ثم يرميهم في البحر، ويريح البلاد والعباد من شرهم.

قوله: «ونار تخرج من قعر عدن تحشر الناس إلى أرض المحشر»

ش: ومن علامات الساعة الكبرى خروجُ النار العظيمة، وهي آخر أشراط الساعة الكبرى، وأول الآيات المؤذنة بقيام الساعة.

مكان خروجها:

تخرج من قعر عدن(٣) وبحر حضرموت:

١- قال رسول اللّٰه ﷺ في ذكر أشراط الساعة «... وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»(٤).

٢- وقال ﷺ: «أما أول أشراط الساعة فنار تخرج من المشرق، فتحشر الناس إلى المغرب..»(٥).

---

(١) تفسير القرطبي ١١/٥٨ وقد بلغ مَن قُتل في بغداد ألف ألف وثمانمائة ألف (مليون وثمانمائة ألف) على يد المغول (التتر) انظر البداية والنهاية لابن كثير ١٣/٢١١- ٢١٦ .

(٢) البداية والنهاية.

(٣) عدن: مدينة في اليمن جنوب الجزيرة العربية، وهي ميناء، وتقع على بحر حضرموت، ويسمى اليوم «البحر العربي» النهاية لابن الأثير ٣/١٩٢ .

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه أحمد والبخاري عن أنس.

٣- وقال ﷺ: «... ونار تخرج من قعر عَدن تُرحّل الناسَ»(١) .

٤- وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ستخرج نار من حضرموت أو من بحر حضرموت قبل يوم القيامة، تحشر الناس»(٢) وذهب أكثر أهل العلم إلى أن هذا الحشر قبل يوم القيامة كالقرطبي، والخطابي، والقاضي عياض وابن حجر والطيبي(٣) والجمع بين الأحاديث التي تُخبر بأنها أول أشراط الساعة والأخرى التي تقول أنها آخر الآيات: بأن أخرية خروج النار باعتبار ما ذُكر معها من الآيات، وأوليتها بأنها من أول الآيات التي لا شيء بعدها من أمور الدنيا أصلا، بل يقع بعدها النفخ في الصور(٤) . وكذلك الجمع بأن خروجها يكون باليمن وفي بعضها الآخر أنها تحشر الناس من المشرق، بأن بداية خروجها من قعر عدن فإذا أخرجت انتشرت في الأرض كلها والمراد بقوله: «تحشر الناس من المشرق إلى المغرب» إرادة تعميم الحشر لا خصوص المشرق والمغرب.

كيفية حشرها الناس:

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يُحشر الناس ثلاث طرائق: راغبين، وراهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، ويحشر بقيتهم النار، تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتُمسي معهم حيث أمسوا»(٥) .

٢- وعن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «تبعث نار على أهل المشرق فتحشرهم إلى المغرب، تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا، يكون لها ما سقط منهم، وتَخَلَّف، وتسوقهم سوق الجمل الكسير»(٦) .

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه أحمد ٧/ ١٣٣ رقم ٥١٤٦ وصحح إسناده أحمد شاكر، ورواه الترمذي، وصححه الألباني (الجامع ٣٦٠٩).
(٣) لوامع الأنوار البهية ٢/ ١٥٥ - ١٥٧ .
(٤) لوامع الأنوار البهية ٢/ ١٥٠ .
(٥) متفق عليه.
(٦) رواه الطبراني في الأوسط والكبير ورجاله ثقات، مجمع الزوائد ٨/ ١٢ ورواه الحاكم في المستدرك ٤/ ٥٤٨ وقال هذا حديث صحيح ولم يخرجاه ووافقه الذهبي على تصحيحه.



أرض المحشر:

١- عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ستخرج نار من حضرموت أو بحضرموت، قبل يوم القيامة، تحشر الناس، قالوا: «يا رسول الله ! فما تأمرنا؟» قال: «عليكم بالشام»»[١].

٢- وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الشام أرض المَحْشَرِ والمَنْشَرِ»[٢].

٣- وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: وستكون هجرة بعد هجرة، ينحاز الناس إلى مهاجر إبراهيم، لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها، تلفظهم أرضوهم، تنذرهم نفس الله، تحشرهم النار مع القردة والخنازير، تبيت معهم إذا باتوا، تقيل معهم إذا قالوا، وتأكل من تَخلّف»[٣].

وآخـر الآيــات حــشــر الــنــارِ كـمـا أتـى فـي مـحـكـم الأخـبـارِ

آخر من يُحشر:

قال رسول الله ﷺ: «آخر من يُحشر راعيان من مُزينة[٤]، يريدان المدينة، ينعقان[٥] بغنمهما، فيجدانها «المدينة» وحوشا[٦]، حتى إذا بلغا ثنية الوداع[٧] خرا على وجوههما»[٨].

---

(١) رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني «٣٦٠٩ الجامع» فضائل الشام ١١، ١٣ والطبراني من حديث معاوية بن حيدة «٤٠٦٩ الجامع».

(٢) رواه أحمد وابن ماجه وأبو الحسن ابن شجاع الرَّبعي في «فضائل الشام» وصححه الألباني في أحاديث فضائل الشام والجامع برقم ٣٧٢٦، وهذا الحشر في الدنيا، انظر أشراط الساعة للشيخ يوسف الوابل ٤٢٢ - ٤٣٠ .

(٣) الإمام أحمد في مسنده ١١/ ٩٩ حديث رقم ٦٨٧١ وصحح اسناده أحمد شاكر ورواه أبو داود وقال الحافظ ابن حجر بالفتح (أخرجه أحمد وسنده لا بأس به) ١١/ ٣٨٠ .

(٤) مزينة: قبيلة من مضر معروفة .

(٥) أي يرفعان صوتهما.

(٦) أي خالية ليس فيها أحد.

(٧) باب المدينة الموجود خلف سوقها القديم، قرب سلع.

(٨) رواه البخاري ومسلم وأحمد.

قوله: «ونزول المسيح عيسى بن مريم من السماء إلى دمشق حيث يحكم بالقرآن ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية».

ش: ومن علامات الساعة العظمى أن ينزل من السماء السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ونزوله ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة(١).

أولا: الأدلة من القرآن الكريم:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩].

أي قبل موت عيسى عليه السلام وذلك يكون عند اقتراب الساعة وظهور علاماتها الكبرى. يوجه ذلك إلى أن جميعهم يُصدقون به إذا نزل لقتل الدجال، فتصير الملة واحدة وهي ملة الإسلام قال ذلك ابن عباس رضي الله عنه وأبو مالك، وذهب البعض إلى أن الضمير في قوله: (قبل موته) ترجع إلى اليهودي ورجّح الطبري وابن كثير القول الأول فقال: وهو أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام إلا آمن به قبل موته (عيسى عليه السلام) ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير وابن كثير هو الصحيح، لأنه هو المقصود في سياق الآية في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى، وصلبه، وتسليم من سلَّم لهم من النصارى الجهلة ذلك، بل رفعه اللَّه إليه، وأنه باق حي، وإنه سينزل قبل يوم القيامة، فيقتل مسيح الضلالة ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير ويضع الجزية: يعني لا يقبلها من أحد من أهل الأديان، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف.

فأما من فسّر (موته) بأن المعنى أن كل كتابي لا يموت حتى يؤمن بعيسى، أو بمحمد عليهما الصلاة والسلام، فهذا الواقع، وذلك أن كل أحد عند احتضاره ينجلي له ما كان جاهلا به، فيؤمن به، ولكن لا يكون ذاك إيمانا نافعا له، لأنه إيمان اضطرار إذا كان قد شاهد المَلَك، كما قال تعالى في أول هذه السورة: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨] فيكون مضمون

---

(١) لوامع الأنوار ٢/ ٩٤.



هذا: التهديد لهم والوعيد أن لا يستمروا على هذه الحال، التي سيندمون عليها قبل مماتهم، فكيف يكون حالهم يوم حشرهم وقيامهم؟!![1].

٢- قال تعالى: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٥٧- ٦١]. قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أي قبل موت عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾[2] أي أمارة ودليل على وقوع الساعة. وقال مجاهد: «أي للساعة خروج عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل موته»[3].

ثانيا: الأدلة من السنة:

١- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حَكَما، عَدلا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها»، ثم يقول أبو هريرة واقرأوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[4].

قوله: «فيكسر الصليب» أي يبطل النصرانية، ويحكم بالملة الحنيفية، وقال ابن الملك: الصليب في اصطلاح النصارى خشبة مثلّثة يدَّعون أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ صُلِب على خشبة مثلّثة على تلك الصورة وقد يكون فيه صورة المسيح.

---

(١) انظر تفسير الطبري وابن كثير وتيسير الكريم الرحمن.
(٢) «بفتح العين واللام بالتحريك» وهي مروية عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما من أئمة التفسير «تفسير القرطبي ١٦/ ١٠٥» والطبري ٢٥/ ٩٠-٩١ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٦٨ .
(٤) متفق عليه.

(ويقتل الخنزير) أي: يُحرِّم اقتناءه، ويبيح قتله، (ويضع الجزية): أي عن أهل الكتاب، ويحملهم على الإسلام، ولا يقبل منهم غير دين الحق.

وقيل: يضع الجزية عنهم لأنه لا يوجد محتاج يقبل الجزية منهم لكثرة المال، وقلة أهل الحرص والآمال، قال التوربشتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لم تزل السجدة الواحدة في الحقيقة كذلك، وإنما أراد بذلك أن الناس يرغبون في أمر اللَّه، ويزهدون عن الدنيا، حتى تكون السجدة الواحدة أحب إليهم من الدنيا وما فيها[١].

٢- ومن حديث النواس بن سمعان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في ذكر الرسول ﷺ للدجال وفيه:

(.. فبينما هو (الدجال) كذلك إذ بعث اللَّه المسيح عيسى بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء، شرقي دمشق بين مهروذتين[٢]، واضعا كفيه على أجنحة مَلَكين إذا طأطأ[٣] رأسه قَطَرَ[٤]. وإذا رفعه تحدّر منه مثل جمان[٥] كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد من ريح نفسه[٦] إلا مات[٧]، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه[٨] حتى يدركه بباب لُد[٩] فيقتله، ثم يأتي عيسى إلى قوم قد عصمهم اللَّه منه، فيمسح عن وجوههم، ويحدِّثهم بدرجاتهم في الجنة.

فبينما هو كذلك إذ أوحى اللَّه إلى عيسى: «إني قد أخرجت عبادا لي، لا يدان لأحد بقتالهم، فحرِّز عبادي إلى الطور.

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٩/٤٣٨ .
(٢) بين مهروذتين: أي لابس ثوبين مصبوغين بالورس والزعفران .
(٣) طأطأ: أي خفض.
(٤) قطر: عرق.
(٥) الجمان: حب يتخذ من الفضة.
(٦) أي نفس عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.
(٧) أي إلا مات الكافر واستثنى اللَّه الدجال لحكمة يريدها اللَّه ومنها حتى يريهم عيسى بن مريم دم الدجال في حربته (واللَّه أعلم).
(٨) فيطلبه: أي يطلب عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الدجال.
(٩) لد: قرية من قرى بيت المقدس .



ويبعث اللَّه يأجوج ومأجوج ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ فيمرّ أولهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم ويقول: لقد كان بهذه مرة ماء»، ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر، وهو جبل بيت القدس، فيقولون: «لقد قتلنا من في الأرض هَلمَّ فلنقتل مَنْ في السماء»، فيرمون بنشابهم إلى السماء، فَيَردّ اللَّهُ عليهم نشابَهم مخضوبة دما، ويُحصر نبي اللَّه وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي اللَّه عيسى وأصحابه، فيرسل اللَّه عليهم النغف في رقابهم، فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة.

ثم يهبط نبي اللَّه عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب نبي اللَّه عيسى وأصحابه إلى اللَّه، فيرسل اللَّه طيرا كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء اللَّه، ويستوقد المسلمون من قسيهم ونشابهم وجعابهم سبع سنين، ثم يرسل اللَّه مطراً لا يكن منه بيت مدر[١] ولا وبر[٢] فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة[٣].

ثم يُقال للأرض انبتي ثمرك وردي بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها[٤]، ويبارك في الرسل[٥] حتى أن اللقحة[٦]. من الإبل لتكفي الفئام من الناس[٧]، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس، فبينما هم كذلك، إذ بعث اللَّه ريحا طيبة فتأخذهم تحت أباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة[٨].

---

(١) مدر: تراب وحجر.
(٢) ولا وبر: أي صوف وشعر.
(٣) كالزلقة: أي كالمرأة.
(٤) بقحفها: أي قشرها.
(٥) الرسل: أي اللبن.
(٦) القحة: أي الناقة الحلوب.
(٧) الفئام: أي الجماعة.
(٨) رواه مسلم.

القضية الستون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«من العلامات الصغرى: تَقَاربُ الزمان، وظهور الفتن والقتل، وكثرة النساء، وقلة الرجال، وقتال المسلمين لليهود حتى يقول الحجر والشجر: «يا مسلم ! هذا يهودي ورائي فاقتله» واتفاق المسلمين والنصارى على قتال قوم كفار من دونهم، ثم قتال المسلمين للنصارى، وانتصار المسلمين عليهم».

قوله: «تقارب الزمان»

الشرح: قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، فأخبر النبي ﷺ عن سرعة خروج الآيات وتتابعها بقوله: «الآيات خرزات منظومات في سلك، فانقطع السلك، فيتبع بعضها بعض»(١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خروج الآيات بعضها على أثر بعض، يتتابعن كما تتابع الخرزُ في النظام»(٢).

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمانَ، فتكون السنة كالشهر والشهر كالجمعة، وتكون الجمعة كاليوم، ويكون اليوم كالساعة، وتكون الساعة كالضرمة في النار»(٣)، أي زمان الدنيا والآخرة أو يتقارب أهل الشر بعضهم من بعض في الشر، أو يتقارب الزمان نفسه في الشر، حتى يشبه أوله وآخره، أو تقصر الأيام والليالي، وهو المناسب هنا لقوله: «فتكون». . . . والمعنى فتصير. (السنة كالشهر) قال النور بشتي رحمه الله: «يُحمل ذلك على قلة بركة الزمان وذهاب فائدته في كل مكان، أو على أن الناس لكثرة اهتمامهم بما دَهمهم مِن النوازل والشدائد وشُغل قلبهم بالفتن العظام، لا يدرون كيف تنقضي أيامهم ولياليهم، فإن قيل: العربُ تستعمل قصر الأيام والليالي في المسَّرات،

---

(١) رواه أحمد والحاكم عن ابن عمرو وصححه الألباني (صحيح الجامع ٢٧٥٥).
(٢) رواه الطبراني في الأوسط وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٢٢٧ .
(٣) رواه أحمد والترمذي من حديث انس ورواية عن أحمد وابن حبان عن أبي هريرة، قال الألباني صحيح (الجامع ٧٤٢٢).



وطولها في المكاره، قلنا المعنى الذي يذهبون إليه في القصر والطول مفارق للمعنى الذي يُذهب إليه، فإن ذلك راجع إلى تمنى الإطالة للرخاء أو إلى تمني القصر للشدة، والذي يذهب إليه راجع إلى زوال الإحساس بما يمر عليهم من الزمان لشدة ما هم فيه وذلك أيضاً صحيح»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يتقارب الزمان، ويُقبض العلم، ويُلقى الشحُّ، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج»، قيل: «وما الهرج؟» قال: «القتل»(٢).

وقال ابن حجر في الفتح عن تقارب الزمان: «والحق أن المراد نزع البركة من كل شيء حتى من الزمان وذلك من علامات قرب الساعة»(٣).

وأصل الهرج في اللغة العربية الاختلاط: يقال هَرَجَ الناس اختلطوا واختلفوا، وهرج القوم في الحديث إذا كثروا وخلطوا. . . .

وذكر صاحب المُحكم للّهرج معاني أخرى مجموعها تسعة:

شدّة القتل، وكثرة القتل، والاختلاط والفتنة في آخر الزمان، وكثرة النكاح، وكثرة الكذب، وكثرة النوم، وما يُرى في النوم غير منضبط، وعدم الإتقان للشيء.

قال الجوهري: أصل الهرج: الكثرة في الشيء يعني لا يتميز(٤).

قوله: «وظهور الفتن»

ش: والفتن: جمع فتنة، قال الراغب: أصل الفَتْن: إدخال الذهب في النار لتظهر جودته من رداءته، ويُستعمل في إدخال الإنسان النار، ويُطلق على العذاب كقوله تعالى: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: ١٤]، وعلى ما يحصل عند العذاب، كقوله تعالى:

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للعلامة علي بن سلطان القارئ رحمه الله ١٠/١٦٨ .
(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود.
(٣) فتح الباري ١٣/١٦ .
(٤) فتح الباري ١٣/١٩ .

﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩]، وعلى الاختبار، كقوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]، وفيما يُدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء، وفي الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالا، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ [الإسراء: ٧٣]. أي يدفعونك في بلية وشدة في صرفك عن العمل بما أوحي إليك. وقال أيضاً الفتنة تكون من الأفعال الصادرة من اللّه ومن العبد: كالبلية والمصيبة والقتل والعذاب والمعصية وغيرها من المكروهات:

فإن كانت من اللّه، فهي على وجه الحكمة، وإن كانت من الإنسان بغير أمر اللّه فهي مذمومة، فقد ذم اللّه الإنسان بإيقاع الفتنة كقوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [البروج: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾ [الصافات: ١٦٢] وقوله تعالى: ﴿بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٦]، وكقوله: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ﴾ [المائدة: ٤٩]. وقال غيره: أصل الفتنة الاختبار، ثم استعملت فيما أخرجته المحنة والاختبار إلى المكروه، ثم أُطلقت على كل مكروه أو آيل إليه، كالكفر والإثم والتحريق والفضيحة والفجور وغير ذلك(١).

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: «أشرف النبي ﷺ على أُطُم(٢) من آطام المدينة، فقال: «هل ترون ما أرى؟» قالوا: «لا»، قال: «فإني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر»(٣).

وعن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: «أستيقظ رسول اللّه ﷺ ليلة فزعاً يقول: «سبحان اللّه، ماذا أنزل اللّه من الخزائن، وماذا أنزل من الفتن؟ من يوقظ صواحب الحجرات - يريد أزواجه - لكي يُصلين؟ رُبَّ كاسية في الدنيا عارية في الآخرة»(٤).

(١) فتح الباري ١٣/٣ ابن حجر.
(٢) أي: الحصن.
(٣) رواه البخاري ٧٠٦٠ .
(٤) رواه البخاري ٧٠٦٩ .

أقوال العلماء في قوله ﷺ (كاسية عارية):

١- كاسية في الدنيا لوجود الغنى، عارية في الآخرة من الثوب لعدم العمل في الدنيا.

٢- كاسية بالثياب، لكنها شفافة لا تستر عورتها، فتُعاقب في الآخرة بالعري جزاء على ذلك.

٣- كاسية من نعم اللّٰه، عارية من الشكر الذي تظهر ثمرته في الآخرة بالثواب.

٤- كاسية جسدها، لكنها تشد خمارها من ورائها فيبدو صدرها عارية فتُعاقب في الآخرة.

٥- كاسية من خلعة التزوج من الرجل الصالح، عارية في الآخرة من العمل فلا ينفعها صلاح زوجها كما قال تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وفي الحديث الندب إلى الدعاء، والتضرع عند نزول الفتنة، ولا سيّما في الليل لرجاء وقت الإجابة لتُكشف أو يسلَم الداعي، ومن دعا له وباللّٰه التوفيق[١].

بل إن شدة الفتن أن الحي يتمنى لو كان ميتاً.

كما جاء عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يَمُرَّ الرجلُ على القبر فيتمرغ عليه ويقول يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر «وليس به الدِّين إلا البلاء»[٢] أي الحاملُ له علي تَمنى الموت ليس الدِّين بل البلاء، وكثرة المحن والفتن وسائر الضراء»[٣] .

---

(١) فتح الباري ١٣/ ٢٣ .
(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم اللفظ له .
(٣) مرقاة المفاتيح ١٠/ ١٦٧ .

وقال عمر بن معد يكرب الزبيدي:

الحرب أول ما تكون فتية   تسعى بزينتها لكل جهول
حتى إذا اشتعلت وشب ضرامها   ولّت عجوزا غير ذات حليل
شمطاء ينكر لونها وتغيرت   مكروهة للشم والتقبيل[١]

ولهذا كانت العبادة في وقت الفتن والهرج لها أجر عظيم.

فعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «العبادة في الهرج كهجرة إليّ»[٢].

بعض أحاديث الفتن:

١- قال رسول اللّه ﷺ: «بادروا[٣] بالأعمال ستاً: إمارة السُّفهاء[٤] وكثرة الشُّرَطِ[٥]، وبيع الحكم[٦]، واستخفافا بالدم[٧]، وقطيعة الرحم، ونشوا[٨] يتخذون القرآن مزامير، يقدمون أحدهم ليُغَنِّيهُمْ، وإن كان أقلهم فقها[٩].

٢- قال رسول اللّه ﷺ: «أول شيء يُرفع من هذه الأمة الخشوع حتى لا ترى فيها خاشعا»[١٠].

---

(١) فتح الباري ١٣/٤٧ .
(٢) رواه مسلم.
(٣) سارعوا.
(٤) الجهلاء: ضعاف العقول.
(٥) نخبة من جند الحاكم يقدمهم على غيرهم.
(٦) القضاء وقد يكون معناه (الرشوة) .
(٧) أي بحقه: فلا يقتص من القاتل.
(٨) صبية أحداثا صغار السن، والمزامير: جمع مزمار وهو بكسر الميم آلة الزمر يتغنون به.
(٩) رواه الطبراني عن عابس الغفاري ورواه كذلك أحمد في مسنده والبخاري في تاريخه وصححه الألباني (الجامع٢٨١٢) (ليغنيهم) بالقرآن بحيث يخرجون الحروف عن أوضاعها، ويزيدون وينقصون لأجل موافاة الألحان وتوفر النغمات) (أقلهم فقها) إذ ليس غرضهم إلا الالتذاذ والاسماع بتلك الألحان. (فيض القدير حديث رقم ٣١٢٠) .
(١٠) رواه الطبراني من حديث أبي الدرداء وصححه الألباني (الجامع ٢٥٦٩).



٣- وقال رسول اللّه ﷺ: «سيأتي على الناس سنوات، خدَّاعات، يُصدَّق فيها الكاذب، ويُكذَّب فيها الصادق، ويُؤتمن فيها الخائن، ويُخوَّن فيها الأمين وينطق فيها الرويبضة»، قيل: «وما الرويبضة؟» قال: «الرجل التافه يتكلم في أمر العامة»(١).

قوله: «والقتل»

ش: فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن بين يدي الساعة الهرج: القتل، ما هو قتل الكفار، لكن قتل الأمة بعضها بعضا، حتى أن الرجل يلقاه أخوه فيقتله، ينتزع عقول أهل ذلك الزمان ويخلف لها هباء من الناس، يحسب أكثرهم أنهم على شيء، وليسوا على شيء»(٢).

وعن ابن مسعود وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما قالا: قال رسول اللّه ﷺ: «إن بين يدي الساعة لأياما ينزل فيها الجهل، ويُرفع العلم، ويكثر فيها الهرْج، والهرْج القُتلُ»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس يوم لا يدري القاتل فيم قَتَل ولا المقتول فيم قُتل، فقيل: «كيف يكون ذلك؟» قال: «الهرْج ! القاتل والمقتول في النار»(٤). وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «سيكون فتنٌ، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، مَن تشرف لها تتشرفه، فَمَن وَجد ملجأ أو معاذا فليعذ به»(٥).

---

(١) رواه أحمد وابن ماجة والحاكم من حديث أبي هريرة وصححه الألباني صحيح الجامع ٣٦٥٠ .
(٢) رواه أحمد وابن ماجة وصححه الألباني ٢٠٤٧ الجامع.
(٣) رواه أحمد البخاري ومسلم.
(٤) رواه مسلم.
(٥) رواه البخاري ٧٠٨٢ وفي رواية مسلم فقال رجل يا رسول اللّه أرأيت مَن لم يكن له إبل، ولا غنم ولا أرض؟ قال: يعمد إلى سيفه فيدُق على حدِّه بحجر، ثم لينج إن استطاع النجاة، اللّهم هل بلغت؟ ثلاثا فقال رجل: يا رسول اللّه ! أرأيت إن أُكرِهت حتى يُنطلق بي إلى أحد الصفّين، فضربني رَجل بسيفه أو يجئ سهم فيقتلني؟ قال: «يبوء بإثمه وإثمك، ويكون من أصحاب النار».

«والظاهر أن المراد من يكون مباشرا لها من الأحوال كلها، يعني أن بعضهم في ذلك أشد من بعض، فأعلاهم من ذلك الساعي فيها بحيث يكون سببا لإثارتها، ثم من يكون قائما بأسبابها وهو المشي، ثم من يكون مباشرا لها، وهو القائم، ثم من يكون مع النظارة ولا يقاتل وهو القاعد، ثم من يكون مجتنبا لها ولا يباشر ولا ينظر وهو المضطجع اليقظان، ثم من لا يقع منه شيء من ذلك ولكنه رَاضٍ وهو القائم، والمراد بالأفضلية في هذه الخيرية من يكون أقل شرا ممن فوقه على التفصيل المذكور»(١) .

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب، يقتتل الناس عليه فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون»، ويقول كل رجل منهم: «لعلّي أكون أنا الذي أنجو»(٢) . وفي رواية «. . . فمن حضره فلا يأخذ منه شيئا»(٣) .

أي يرجو كل واحد منهم (الناس المتقاتلون) أن يكون هو الناجي فيقتل الباقي في الحال، رجاء أن ينجو في المال، فيأخذ المال وهذا من سوء الآمال، وتضييع الأعمال(٤) .

قوله: «كثرة النساء وقلة الرجال»

ش: فعن أنس بن مالك ﷺ قال سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إن من أشراط الساعة أن يُرفع العِلم ويكثر الجهل، ويكثر الزنا، ويكثر شرب الخمر ويقل الرجال، ويكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيّم الواحد»(٥) .

---

(١) فتح الباري ١٣/ ٣٠ .
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داود.
(٤) مرقاة المفاتيح ١٠/ ١٦٦ .
(٥) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة.

فقوله: «وكثرة النساء» قيل سببه أن الفتن تكثر، فيكثر القتل في الرجال لأنه أهل الحرب دون النساء. وقال أبو عبد الملك: هو إشارة إلى كثرة الفتوح فتكثر السبايا. فيتخذ الرجل الواحد عدة موطوءات. قال ابن حجر: وفيه نظر، لأنه صرح بالقلة في حديث أبي موسى في الزكاة عند المصنف فقال: «من قلة الرجال وكثرة النساء» والظاهر أنها علامة محضة لا لسبب آخر، بل يقدِّر اللَّه في آخر الزمان أن يقل من يولد من الذكور ويكثر من يولد من الإناث، وكون كثرة النساء من العلامات مناسبة لظهور الجهل ورفع العلم. وقوله: «لخمسين» يحتمل أن يراد به حقيقة هذا العدد، أو يكون مجازاً عن الكثرة. ويؤيده أن في حديث أبي موسى: «وترى الرجل الواحد يتبعه أربعون امرأة». قوله: (القَّيم) أي من يقوم بأمرهن، واللام للعهد إشعار بما هو معهود من كون الرجال قوامين على النساء.

وقال القرطبي في التذكرة: يحتمل أن يراد بالقيم من يقوم عليهن، سواء كن موطوءات أم لا. ويحتمل أن يكون ذلك يقع في الزمان الذي لا يبقى فيه من يقول اللَّه اللَّه فيتزوج الواحد بغير عدد جهلًا بالحكم الشرعي. قلت (ابن حجر): وقد وجد ذلك من بعض أمراء التركمان وغيرهم من أهل هذا الزمان مع دعوا الإسلام وُاللَّه المستعان.

ولعل العدد بعينه غيرُ المراد، بل أريد المبالغة في كثرة النساء بالنسبة للرجال ويحتمل أن يُجمع بينهما بأن الأربعين عدد مَن يلذن به والخمسين عدد من يتبعه وهو أعم من أنهن يلذن به فلا منافاة. قوله (القيم الواحد) أي الذي يقوم بأمورهن، ويحتمل أن يكني به عن اتباعهن له لطلب النكاح حلالا أو حراما ؛ وقوله: «يلذن به» قيل لكونهن نساءه وسراريه أو لكونهن قراباته أو من الجميع. وروى علي بن معبد في كتاب (الطاعة والمعصية) من حديث حذيفة قال: إذا عمت الفتنة ميز اللَّه أولياءه، حتى يتبع الرجل خمسون امرأة تقول: يا عبد اللَّه استرني يا عبد اللَّه، آوني».

قال الشيخ المحدِّث علي محمد القارئ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعليقه على هذا الحديث:

القائم (الواحد) أي المنفرد لمصالحهن، وليس المراد أنهن زوجات له بل أعمّ منها



ومن الأمهات، والجدات، والأخوات، والعمّات، والخالات[١].

قوله: «وقتال المسلمين اليهودَ حتى يقول الحجر والشجر: «يا مسلم هذا يهودي...».

ش: وهذا مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٤-٨].

يخبر تعالى أنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب، أي تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم أن سيفسدون في الأرض مرتين، ويعلون علوا كبيرا، أي يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس - فإذا أفسدتم - سَلّطْنا عليكم جندا من خلقنا أولي بأس شديد، أي قوة، وعدة وسلطان.

فسلّط عليهم أولًا (جالوت الجزري) وجنوده[٢] وروايةٌ أنه: (بُختَنَصر)

ملِك بابل[٣] فخرّب بيت المقدس، وقتلهم (وقتل سبعين ألفا من المسلمين) - المقصود من اليهود - وأنه قتل أشرافهم وعلماءهم، حتى أنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ منهم خلقا كثيرا أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ أي متى عدتم إلى الإفساد «عدنا» إلى الإدالة عليكم في الدنيا مع ما ندّخره لكم في الآخرة من العذاب والنكال[٤].

---

(١) مرقاة المفاتيح ١٠/ ١٦٣وقد يكون فيه لكثرة الحروب فإن عامة الحروب يكون القتلى فيها من الرجال (والله أعلم).

(٢) قاله ابن عباس وقتادة.

(٣) قاله سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٨).

(٤) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٨ (باختصار) .

ولم يُبيِّن هنا: هل عادوا للإفساد المرة الثالثة أم لا؟ ولكنه أشار في آيات أخرى إلى أنهم عادوا فسلّط اللّه رسوله عليهم، فمن الآيات الدالة على الإفساد قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

وقوله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣]، ومن الآيات الدالة على الانتقام منهم قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ [الأحزاب: ٢٦- ٢٧](١).

ثم يأتي الإفساد الأخير لهم والذي بسببه يُسلّط المسلمون عليهم ليقتلوهم، ألا وهو خروجهم وإفسادهم مع المسيح الدجال.

فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يتّبع الدّجالَ من يهود أصبهان(٢) سبعون ألفا عليهم الطيالسة»(٣)(٤).

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٤٠٦ .
(٢) أصبهان: مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها، قال ابن دُريد: أصبهان. . . اسم مُركّب لأن **الأصب** البلد بلسان الفرس، **وهان** اسم الفارس، فكأنه يقال: بلاد الفرسان. وتربتها أصح تراب الأرض. فلما سار (بُخت نصَّر) وأخذ بيت المقدس وسبى أهلها حمل معه يهودها وأنزلهم أصبهان فبنوا لهم في طرف مدينة (جيّ محلّة) ونزلوها وسُمِّيت اليهودية «معجم البلدان ١/ ٢٠٦ - ٢٠٨ ياقوت الحموي».
(٣) رواه مسلم والإمام أحمد في مسنده.
(٤) مفردها: طيلسان وهو شال يتوشح به على الكتف.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس! أنها لم تكن فتنة على وجه الأرض، منذ ذرأ[١] اللَّه، ذرية آدم، أعظم من فتنة الدجال... وإمامهم رجل صالح، فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح، إذ نزل عليهم عيسى بن مريم الصبح، فرجع ذلك الإمام ينكص يمشي القهقرى[٢] ليتقدم عيسى فيضع يده بين كتفيه، ثم يقول له: «تقدم فصلّ، فإنها لك أُقيمت»، فيصلي بهم إمامهم.

فإذا انصرف قال عيسى: افتحوا الباب، فيفتحون، ووراءه الدجال، معه سبعون ألف يهودي، كلهم ذو سيف محلى وساج[٣]، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء، وينطلق هاربا.... فيدركه عند باب لُدّ[٤] الشرقي، فيقتله فيهزم اللَّه اليهود، فلا يبقى شيء مما خلق اللَّه عزَّ وجلَّ يتواقى[٥] به يهودي إلا أنطق اللَّه ذلك الشيء، لا حجر، ولا شجر، ولا حائط، ولا دابة، إلا الغرقدة «فإنها من شجرهم لا تنطق»، إلا قال: يا عبد اللَّه المسلم! هذا يهودي فتعالَ اقتله...»[٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهودَ فيقتلهم، المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر، والشجر، فيقول الحجر»، والشجر: «يا مسلم! يا عبد اللَّه! هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود»[٧].

و «الغرقد» وهو نوع شجر، ذو شوك، يقال له: «العوسج» وهو ضرب من شجر العضاة، وشجر الشوك، ومنه قيل لبقيع أهل المدينة: الغرقد، لأنه كان فيه غرقد

---

(١) خلق.
(٢) يرجع إلى الوراء بظهره.
(٣) أي: نسيج.
(٤) بلدة قريبة من بيت المقدس.
(٥) يستتر.
(٦) رواه ابن ماجة وابن خزيمة والحاكم والضياء صححه الألباني صحيح الجامع ٧٨٧٥.
(٧) رواه مسلم.



وقُطع. «فإنه من شجر اليهود» أُضيف إليهم بأدنى ملابسة، قيل: هذا يكون بعد خروج الدجال، حين يُقاتل المسلمون من تبعه من اليهود[١].

قوله: «واتفاق المسلمين والنصارى على قتال قوم كفار من دونهم».

ش: تقوم الساعة والروم[٢] أكثر الناس:

قال المستورد القرشي عند عمرو بن العاص: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول:

«تقوم الساعة والروم أكثر الناس». فقال له عمرو رضي الله عنه: «أبصر ما تقول!»؛ قال: «أقول ما سمعتُ من رسول اللّه ﷺ». قال: «لئن قلت ذاك فإن فيهم لخصالًا أربعاً:

١- إنهم لَأَحْكَمُ الناس عند فتنة.

٢- وأسرعُهم إفاقة بعد مصيبة.

٣- وأوشكهُم كَرَة بعد فرة.

٤- وخيرُهم لمسكين، ويتيم، وضعيف.

٥- وخامسة حسنةٍ، جميلةٍ، وأمنعُهم من ظلم الملوك»[٣].

اتفاق المسلمين والنصارى:

فعن ذي مخبر قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «ستُصالحون الروم صلحا آمنا، فتغزون أنتم وهم عدوا من ورائكم، فتُنصرون، وتَغنمون، وتَسلمون ثم ترجعون، حتى تنزلوا بمرج ذي تلول..»[٤].

---

(١) مرقاة المفاتيح ١٠/ ١٤٣ .

(٢) والروم هم النصارى.

(٣) رواه أحمد في مسنده ٤/ ٢٣٠ ومسلم.

(٤) أبو داود وابن ماجة والحاكم قال الألباني واسناده صحيح مشكاة المصابيح ٣/ ٢٧ رقم الحديث ٥٤٢٨ .

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تكون بينكم وبين بني الأصفر[١] هدنة[٢]. . .»[٣].

قوله: «قتال المسلمين للنصارى وانتصار المسلمين عليهم»

ش: ويكون هذا القتال بعد الهدنة كما في تكملة حديث عوف بن مالك السابق «. . . فيغدرون، فيأتونكم تحت ثمانين غاية[٤]، تحت كل غاية اثنا عشر ألفا»[٥].

وجاء كذلك في تكملة حديث ذي مخبرٍ السابق «. . . فيقوم رجل من الروم فيرفع الصليب، يقول: غَلب الصليبُ! فيقوم إليه رجل من المسلمين فيقتله، فيغدر القوم، وتكون الملاحم. . .»[٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق[٧] أو بدابق[٨] فيخرج إليهم جيش[٩] من المدينة، من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا، قالت الروم: «خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا

نقاتلْهم»، فيقول المسلمون: «لا واللّه، لا نُخلّي بينكم وبين إخواننا»، فيقاتلونهم، فينهزم ثلث[١٠] لا يتوب اللّه عليهم أبدا[١١] ويُقتل ثلثهم، أفضل الشهداء عند اللّه،

---

(١) هم الروم (النصارى).
(٢) هُدْنة: بضم الهاء وسكون المهملة بعدها نون هي الصلح على ترك القتال بعد التحرك فيه.
(٣) رواه أحمد والبخاري وابن ماجة من حديث عوف بن مالك.
(٤) الغاية: الراية.
(٥) رواه البخاري.
(٦) رواه أبو داود (سبق تخريجه).
(٧) الأعماق: اسم موضع بالمدينة.
(٨) اسم موضع بالمدينة وقيل موضع معروف من عمل حلب (بالشام) ومرج دابق مشهور وهو الراجح.
(٩) المراد بالجيش الخارج إلى الروم جيش المهدي بدليل آخر الحديث (المرقاة ١٠/ ١٤٦).
(١٠) أي من المسلمين. والمقصود بالانهزام: الفرار من ساحة المعركة (واللّه أعلم).
(١١) كناية عن موتهم على الكفر وتعذيبهم على التأبيد.



ويفتتح الثلث[١] لا يُفتنون أبدا[٢]. . .»[٣].

وقول الروم: «خلّو بيننا وبين الذين سَبوا منا نقاتلهم» يريدون بذلك مخاتلة المؤمنين، ومخادعة بعضهم عن بعض، ويبغون به تفريق كلمتهم، والمراد بذلك هم الذين غزوا بلادهم فسَبوا ذريتهم. . . والأظهر، هذا القول منهم يكون بعد الملحمة الكبرى التي تدور رحاها بين الفئتين بعد المصالحة، والمناجزة، لقتال عدو يتوجه إلى المسلمين، وبعد غزو الروم لهم، وذلك قبل فتح القسطنطينية، فيطأ الروم أرض العرب حتى ينزل بالأعماق أو بدابق، فيسأل المسلمين أن يخلو بينهم وبين من سبى ذريتهم، فيردون الجواب على ما ذكر في الحديث[٤].

وعن عبد اللّه بن مسعود ﵁ قال: إن الساعة لا تقوم حتى لا يُقسم ميراث[٥]، ولا يفرح[٦] بغنيمة ثم قال: عدو يجمعون لأهل الشام ويجمع لهم أهل الإسلام، يعني

---

(١) أي الباقي من المسلمين.
(٢) أي لا يبتلون ببلية أو لا يمتحنون بمقاتلة أو لا يُعذبون، وفيه إشارة إلى حسن خاتمتهم (المرقاة ١٠/ ١٣٤).
(٣) رواه مسلم.
(٤) مرقاة المفاتيح ٣٠٦ - ٣٠٧.
(٥) أي من كثرة المقتولين، وقيل من كثرة المال والأول أصح، وقيل حتى يوجد وقت لا يُقسم فيه ميراث لعدم من يعلم الفرائض (وأقول) لعل المعنى أنه يرفع الشرع، فلا يقسم ميراث أصلا، أو لا يُقسم على وفق الشريعة كما هو مشاهد في زماننا.
(٦) **(لا يُفرح بغنيمة)** إما لعدم العطاء، أو لظلم الظلمة وإما للغش والخيانة **(فيشترط المسلمون)** أي يهيئون ويعدون **(شرط)** طائفة من الجيش تتقدم للقتال وتشهد الواقعة سموا بذلك لأنهم كالعلامة للجيش، والمعنى أن المسلمين يبعثون مقدمتهم على أن لا ينهزموا بل يتواقفوا ويتثبتوا إلى أن يقتلوا أو يغلبوا **(نهد إليهم)** أي نهض وقام وقصد إلى قتالهم **(فيجعل اللّه الدبرة)** بفتح المهملة والموحدة اسم في الأدبار، وروى الدابر وهو بمعنى الأول أي الهزيمة فيقتتلون مقتلة عظيمة لم يبصر أو لم يُعرف مثلها حتى أن الطائر لا يجاوزهم حتى يخر **(أي يسقط)** ميتا من نتنهم أو من طول مسافة فيعد **(بنو الأب)** أي جماعة حضروا تلك الحرب كلهم أقارب (كانوا مائة فلا يجدون) عددهم أي من بقي منهم إلا واحد، وزبدتهُ أنه لم يبق من مائة إلا واحد فحينئذ بأي غنيمة يفرح أو أي ميراث يقسم «مرقاة المفاتيح ١٠/ ١٥٠ مختصرا».



الروم، فيشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنى الشرطة ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون، حتى يحجز بينهم الليل فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يمسوا، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كل غير غالب، وتفنى الشرطة، فإذا كان يوم الرابع نهد إليهم بقية أهل الإسلام، فيجعل اللّٰه الدبرة عليهم، فيقتلون مقتلة لم ير مثلها، حتى إن الطائر ليمر بجنباتهم، فلا يخلفهم حتى يخر ميتا، فيتعاد بنو الأب كانوا مائة فلا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد، فبأي غنيمة يُفرح أو ميراث يقسم؟

فبيناهم كذلك إذ سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك فجاءهم الصريح: «أن الدجال قد خلفهم في ذراريهم، فيرفضون ما في أيديهم ويقبلون فيبعثون عشر فوارس طليعة».

قال رسول اللّٰه ﷺ: «إني لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم، وألوان خيولهم، هم خير فوارس، أو من خير فوارس، على ظهر الأرض يومئذ»[١] وهذا القتال يقع في الشام، في آخر الزمان، قبل ظهور الدجال كما دلّت على ذلك الأحاديث، ويكون انتصار المسلمين على الروم تهيئة لفتح القسطنطينية، لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللّٰه ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق.. الحديث» وفيه «... ويقتل ثلثهم أفضل الشهداء عند اللّٰه ويفتح الثلث لا يفتنون أبدا، فيفتتحون قسطنطينية.

فبينما هم يقتسمون الغنائم قد علّقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان أن المسيح[٢] قد خَلّفكم في أهليكم فيخرجون وذلك باطل، فإذا جاؤوا الشام خرج، فبينما هم يعدون للقتال، يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى بن مريم»[٣].

* * *

(١) رواه مسلم وأحمد في مسنده ١/ ٤٣٥ وشرح السنة للإمام البغوي ١٥/ ٤٢.
(٢) أي المسيح الدجال.
(٣) رواه مسلم.



القضية الحادية والستون: قول المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«نؤمن أنه لن تقوم الساعةُ حتى تُفتح روما كما فُتحت القسطنطينية، وحتى يخرج المهدي من أمة محمد في آخر الزمان، يواطئ اسمُه اسمَ الرسول، واسمُ أبيه عبد اللَّه، وأنه ليس المهدي الذي زعمته الشيعة في محمد بن الحسن العسكري».

قوله: «نؤمن أنه لن تقوم الساعة حتى تُفتح روما(١) كما فُتحت القسطنطينية»(٢).

الشرح:

غزو القسطنطينية الأول:

عن أم حرام رضي الله عنها قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا»(٣)، قالت أم حرام: «قلت يا رسول اللَّه: أنا فيهم»؟ قال: أنتِ فيهم. ثم قال النبي ﷺ: «أول جيش من أمتي يغزون قيصر مغفور لهم» فقلت: «أنا فيهم يا رسول اللَّه؟ قال: لا»(٤) قال ابن حجر «مدينة قيصر» يعني القسطنطينية، وكانت هذه الغزوة في سنة اثنين وخمسين وكان أميرَ الجيش يزيدُ ابن معاوية في خلافة أبيه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما وفي تلك الغزوة مات أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه فأوصى أن يُدفن عند باب القسطنطينية،(٥) ولكن لم يتم لهم فتحها(٦).

(١) سبق الكلام عن القتال بين المسلمين والروم في الفقرة (٦٠).
(٢) القسطنطينية وهي معروفة الآن - باسطنبول أواستنبول - من مدن تركيا، وكانت تعرف قديما باسم (بيزنطة) ثم لما ملكها قسطنطين الأكبر - ملك الروم - بنى عليها سورا وسماها قسطنطينية، وجعلها عاصمة ملكه، ولها خليج من جهة البحر يطيف بها في وجهين مما يلي الشرق والشمال، وجانباها الغربي والجنوبي في البحر (انظر معجم البلدان ٤/ ٣٤٧-٣٤٨) لياقوت الحموي.
(٣) أوجبوا: أي فعلوا فعلا وجبت لهم به الجنة.
(٤) رواه البخاري.
(٥) فتح الباري ٦/ ١٠٢ .
(٦) المصدر السابق.



غزوة القسطنطينية الثاني:

وقد تم غزوها ومحاصرتها بقيادة «مَسْلمة بن عبدالملك» ولم تُفتح أيضا، ولكنه صالح أهلها على بناء مسجد بها[١].

غزوة القسطنطينية الثالثة:

وغزا الترك القسطنطينية وفُتحت لهم، وكان بقتال، وكان هذا الفتح على يد السلطان الغازي محمد الثاني الفاتح[٢] فقد حاصر المدينة في أوائل سنة ١٤٥٣م من جهة البر، بجيش يبلغ المائتين وخمسين ألف جندي، ومن جهة البحر بعمارة مؤلفة من مائة وثمانية سفينة، وأقام حول المدينة أربع عشرة بطارية طوبجية «مدفعية» وفي أثناء الحصار اكُتشف قبرُ أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه الذي استشهد في حصار القسطنطينية سنة ٥٢ هـ في خلافة معاوية بن أبي سفيان الأموي.

ولما رفض «قسطنطين» - آخر ملوك الروم - تسليم البلدة إليه، عند ذلك نبّه السلطانُ على جيوشه بالاستعداد للّهجوم في يوم ٢٠ جمادى أول سنة ٨٥٧ هـ (٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م) ووعد الجيوش بمكافأتهم عند تمام النصر، وبإقطاعهم أراضي كثيرة، وفي الليلة السابقة لليوم المحدد، أشعلت الجنود العثمانية الأنوار أمام خيامها، للاحتفال بالنصر المحقق لديهم، وظلوا طول ليلهم يُهلّلون ويُكبّرون[٣] حتى إذا لاح الفجر صدرت إليهم الأوامر بالهجوم، فهجم مائة وخمسون ألف جندي وتسلقوا الأسوار حتى دخلوا المدينة من كل فج وأعملوا السيف فيمن عارضهم، ودخلوا كنيسة القديسة صوفيا، وقد أرخ بعضهم هذا الفتح المبين «بلدة طيبة» سنة ٨٥٧ هـ وسُميت المدينة «إسلامبول» أي تحت الإسلام أو مدينة الإسلام.

---

(١) النهاية في الفتن والملاحم ١/٦٢ تحقيق د. طه زيني.

(٢) ولد هذا السلطان في ٢٦ رجب ٨٣٣ هـ (الموافق ٢٠ ابريل سنة ١٤٢٩م) وهو سابع سلاطين هذه السلالة الملوكية.

(٣) ذكّرني هذا بموقف بعض الجنود في إحدى الحروب العربية وكيف قضوا تلك الليلة التي سبقت الحرب «النكسة» واللّه المستعان.



أما قسطنطين، فقاتل حتى مات، وبعد فتحها جُعلتْ عاصمةً للدولة ولا تزال كذلك إن شاء اللّه.

ثم دخل السلطان المدينة عند الظُّهر، وزار كنيسة «أيا صوفيا» وأمر بأن يُؤذن بها للصلاة إعلانا بجعلها مسجدا[١] جامعا للمسلمين[٢].

غزوة القسطنطينية الرابع والفتح الأعظم:

وهذا يكون في آخر الزمان وبدون قتال: كما جاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «سمعتم بمدينة جانب منها في البر، وجانب منها في البحر؟ لا تقوم الساعة حتى يغزوَها ألفا من بني إسحاق[٣]، فإذا جاؤوها نزلوا فلم يُقاتلوا بسلاح، ولم يرموا بسهم»، قالوا: «لا إله إلا اللّه، واللّه أكبر، فيسقط أحد جانبيها الذي في البحر، ثم يقولوا الثانية: لا إله إلا اللّه، واللّه أكبر، فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولوا الثالثة لا إله إلا اللّه واللّه أكبر، فيفرّج لهم، فيدخلونها، فيغنمون، فبينما هم يقتسمون المغانم إذ جاءهم الصريخ، فقال: «إن الدجال قد خرج»، فيتركون كلَّ شيء ويرجعون»[٤].

قال ابن كثير رحمه الله «والحديث يدل على أن الروم يُسْلِمون في آخر الزمان، ولعل فتح القسطنطينية يكون على أيدي طائفة منهم كما نطق الحديث المتقدم أنه يغزوها سبعون ألفاً من بني اسحاق»[٥].

وقال النووي: «وهذا موجود في زماننا، بل معظم عساكر الإسلام في بلاد الشام، ومصر سُبوا، ثم هُم اليوم بحمد اللّه يَسْبُون الكفار، وقد سَبَوهم في زماننا مراراً

---

(١) لما استولى «كمال أتاتورك» على الحكم جعل هذا المسجد متحفا وهو مازال كذلك.

(٢) تاريخ الدولة العلية العثمانية تأليف الأستاذ محمد فريد بك المحامي تحقيق الدكتور إحسان حقي ١٦٠- ١٦٥ «باختصار» دار النفائس.

(٣) من بني اسحاق: والروم من بني اسحاق لأنهم من سلالة العيص بن اسحاق بن إبراهيم الخليل «عليهما السلام» النهاية في الفتن ١/ وفتح الباري ٦/١٠٢ .

(٤) رواه مسلم.

(٥) النهاية في الفتن.

كثيرة»[١]. وقال الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ: «فتح القسطنطينية المُبشَّر به في الحديث، سيكون في مستقبل قريب، أو بعيد يعلمه اللَّه عزَّ وجلَّ، وهو الفتح الصحيح لها، حين يعود المسلمون إلى دينهم الذي أعرضوا عنه، وأما فَتْحُ الترك الذي كان قبل عصرنا هذا، فإنه كان تمهيدا للفتح الأعظم، ثم هي قد خرجت بعد ذلك من أيدي المسلمين منذ أعلنت حكومتهم[٢] هناك: أنها حكومة غير إسلامية، وغير دينية، وعاهدتِ الكفارَ أعداءَ الإسلام، وحَكمت أمتها بأحكام القوانين الوثنية الكافرة، وسيعود الفتح الإسلامي لها «إن شاء اللَّه» كما بَشّر به رسول اللَّه ﷺ»[٣].

قوله: «حتى يخرجَ المهديُّ من أمة محمد ﷺ في آخر الزمان».

ش: وهذه الفقرة تشمل جملة قضايا وهي:

أولا: ما ورد في الصحيحين من ذكر المهدي إشارة:

١- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «وكيف إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم»[٤].

٢- عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال فينزل عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقول أميرهم: «تعال صل لنا» فيقول: «لا، إن بعضكم على بعض أمراء". تكرمة اللَّه هذه الأمة»[٥].

وهذا يدل على أمرين:

أحدهما: أنه عند نزول عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ من السماء يكون المتولي لإمرة المسلمين رجلا منهم.

---

(١) شرح مسلم للإمام النووي ١٨/ ٢١ .

(٢) في عهد أتاتورك.

(٣) حاشية عمدة التفسير على ابن كثير ٢/ ٢٥٦ اختصار وتحقيق الشيخ أحمد شاكر (نقلًا عن أشراط الساعة ١٦٧لمؤلفه يوسف بن عبد اللَّه الوابل دار طيبة ومكتبة ابن الجوزي.

(٤) رواه البخاري.

(٥) رواه مسلم.



الثاني: أن حضور أميرهم للصلاة وصلاتَه بالمسلمين وطلبَه من عيسى عليه الصلاة والسلام عند نزوله أن يتقدم ليصلي لهم يدل على صلاح في هذا الأمير وهدى.

وهي وإن لم يكن فيها التصريحُ بلفظ المهدي إلا أنها تدل على صفات رجل صالح يؤم المسلمين في ذلك الوقت وقد جاءت الأحاديث في السنن والمسانيد وغيرها مفسرةَ لهذه الأحاديث الصحيحة[١]، كحديث جابر ﷺ قال: «قال رسول اللّه ﷺ ينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم المهدي: «تعال صل بنا» فيقول: «لا، إن بعضهم أمير بعض تكرمة اللّه لهذه الأمة»[٢].

٣- وعن عبد اللّه بن الزبير أن عائشة قالت: «عبث الرسول ﷺ في منامه، فقلنا: «يا رسول اللّه! صنعت شيئاً في منامك لم تكن تفعله». فقال: «العجب إن ناساً من أمتي يؤمون بالبيت برجُلٍ من قريش قد لجأ بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء خُسِفُ بهم. قلنا: «يا رسول اللّه! إن الطريق قد يجمع الناس» قال: «نعم فيهم المستبصر والمجبور، وابن السبيل يُهلكون مهلكاً واحداً ويصدرون مصادَر شتى يبعثُهُم اللّه على نياتهم»[٣].

ثانياً: ما ورد في الأحاديث الصريحة في المهدي:

١- قال رسول اللّه ﷺ: «لتُملأنَّ الأرضُ جَوْراً وظُلماً، فإذا مُلئت جوراً وظلماً، يبعث اللّه رجلًا مني اسمهُ اسمي، واسم أبيه اسم أبي، فيملؤها عدلًا وقسطاً كما مُلئت جَوراً وظلماً فلا تمنعُ السماءُ شيئاً من قطرها، ولا الأرض شيئاً من نباتها يمكثُ فيكم سبعاً، أو ثمانياً، فإن أكثر فتسعاً»[٤].

---

(١) عقيد أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر لفضيلة الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد حفظه اللّه ونفع المسلمين بعلمه/ ١٧٦ .

(٢) مسند الحارث بن أبي أسامة قال ابن القيم في المنار المنيف: إسناده جيد.

(٣) رواه مسلم قال الشيخ محمد صديق حسن القنوجي البخاري بعد أن ساق هذا الحديث وحديث جابر السابق وليس فيه ذكر المهدي، ولكن لا محمل له ولأمثاله من الأحاديث إلا المهدي المنتظر، لما دلت على ذلك الأخبار المتقدمة والآثار الكثيرة. (الإذاعة لما كان ويكون بين يدي الساعة ١٥١).

(٤) رواه البزار والطبراني في الكبير من حديث أبي سعيد الخدري والكامل لابن عدي وأبو نعيم وصححه الألباني الجامع ٥٠٧٣ .

٢- قال رسول اللَّه ﷺ: «لو لم يبق من الدنيا إلا يومُ لطوَّل اللَّه ذلك اليوم حتى يُبعث فيه رجل من أهل بيتي يُواطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي يملأ الأرض قسطاً وعدلًا كما ملئت ظلماً، وجوراً»[١].

٣- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «يخرج في آخر أمتي المهدي يسقيه اللَّهُ الغيثَ وتُخرج الأرضُ نباتَها ويُعطي المالَ صحاحاً وتكثر الماشية، وتعظم الأمة، يعيش سبعاً أو ثمانياً يعني حججا»[٢].

٤- قال رسول اللَّه ﷺ: «المهدي من عترتي[٣] من ولد فاطمة»[٤].

٥- قال رسول اللَّه ﷺ: «المهدي منّا أهل البيت، يُصلحه اللَّه في ليلة»[٥].

٦- قال رسول اللَّه ﷺ: «المهدي مني، أجلى[٦] الجبهة، أقنى[٧] الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلًا، كما مُلِئت جوراً وظُلماً، يملك سبع سنين»[٨].

٧- قال رسول اللَّه ﷺ: «يكون في آخر أمتي خليفة، يحثي المال حثياً، ولا يعدُّهُ عدّاً»[٩].

---

(١) رواه أبو داود عن عبد اللَّه بن مسعود وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٣٠٤ .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك وصحح إسناده ووافقه الذهبي وصحح سنده الألباني (الأحاديث الصحيحة ٢/ ٣٣٦ رقم ٧١١ .

(٣) أي: من نسلي وعشيرتي.

(٤) رواه ابو داود وابن ماجة والحاكم عن أم سلمة قال الألباني حديث صحيح (صحيح الجامع ٦٧٣٤).

(٥) رواه أحمد وابن ماجة عن علي بن أبي طالب ورواه أبو نعيم في الحلية وابن عدي في الكامل والعقيلي في الضعفاء، وقال ابن كثير: أي يتوب عليه ويوفقه، ويلهمه رشده بعد أن لك يكن كذلك «النهاية في الفتن» وصحح الحديث الألباني في صحيح الجامع ٦٧٥٣ .

(٦) أي: منحسر شعره عن مقدم رأسه.

(٧) أي: طويل مع دقة فيه مع حدب في وسطه.

(٨) رواه أبو داود والحاكم عن أبي سعيد الخدري وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٦٧٣٦ .

(٩) رواه أحمد ومسلم.



ثالثاً: يمكننا أن نلخص أوصاف المهدي وأحوالَه من الأحاديث التي ذكرت وغيرها، وهي كالتالي:

اسمه وكنيته ونسبه:

هو محمد بن عبد اللّه الحسني(١) العلوي(٢) الفاطمي(٣)رضي اللّه عنهم جميعاً.

أوصافه الخَلقية:

وهو رجل طويل القامة، أدم - أي أسمر- حسن الوجه وضيئه «أقنى الأنف» طويل الأنف مع دقة أرنبته وحدب في وسطه.

«أجلى الجبهة» أي واسعها، خفيف الشعر ما بين النزغين من الصدغين وهو الذي انحسر الشعر عن جبهته أكحل العينين واسعها.

«أزج» أي دقيق الحاجبين طويلهما، «أبلج» أي مفروق الحاجبين غير مقرونهما، كث اللحية، بَرّاق الثنايا(٤).

مولده ومبايعته:

جاءت بعض الروايات إنه يولد بالمدينة المنورة وينشأ بها. ثم تحصل فُرقة وخلاف بين المسلمين. وأن اللّه يصلحه ويهيئه للخلافة من غير استعداد كَسْبِيٍّ منه ثم يخرج عائذاً بالبيت «مكة المكرمة» فيستخرجونه من بيته ويبايعونه بين الركن والمقام وهو كاره. وتكون بيعتُه سلمية، وفاتحةَ خير على الإسلام والمسلمين ولا تُراق فيها دماء لا كما فُعل في «فتنة الحرم»(٥) وتكون الأرض قد مُلئت بالظلم والجوْر.

---

(١) نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

(٢) نسبه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) نسبه إلى السيدة فاطمة رضي الله عنها بنت رسولنا ﷺ.

(٤) المهد المنتظر لأبي الفضل عبد اللّه محمد بن الصديق ٤٣ .

(٥) وهي جماعة ظهرت في المملكة العربية السعودية. دخلت المسجد الحرام عنوة واعتصمت به في أول المُحرم سنة أربعمائة وألف من الهجرة الموافق العشرين من نوفمبر سنة ألف وتسعمائة وتسع وسبعين من الميلاد، وبداية خطئهم أنهم طلبوا العلم عن طريق الكتب والمتون. على كثرة =

مدة الخلافة:

يمكث في الخلافة سبع أو ثماني أو تسع سنين، يَعم فيها الرخاء والعدل والقسط وكثرة المال. وأنه يُصلي بعيسى بن مريم عليه السلام ويكون ظهوره قبل المسيح الدجال.

رابعاً: أسماء الصحابة الذين رووا عن رسول الله ﷺ أحاديث المهدي:

وهم ما يقارب ستة وعشرين صحابياً منهم:

١- عثمان بن عفان، ٢- علي بن أبي طالب، ٣- طلحة بن عبيد الله، ٤- عبدالرحمن بن عوف، ٥- الحسين بن علي، ٦- أم سلمة، ٧- أم حبيبة، ٨- عبد الله بن عباس، ٩- عبد الله بن مسعود، ١٠- عبد الله بن عمر، ١١- عبدالله ابن عمرو، ١٢- أبو سعيد الخدري، ١٣- جابر بن عبد الله ١٤- أبو هريرة، ١٥- أنس بن مالك، ١٦- عمار بن ياسر[1].

خامساً: أسماء الأئمة الذين خَرَّجوا الأحاديث والآثار الواردة في المهدي في كتبهم:

١- أبو داود في سننه، ٢- الترمذي في جامعه، ٣- ابن ماجة في سننه، ٤- أحمد في

= وتوفر العلماء بالمملكة وعلى رأسهم سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله، ولم يسألوا أهل العلم والمشايخ من العلماء ولهذا جعلوا من الرؤى والأحلام دليلًا تثبت به الأحكام الدنيوية والدينية وهذا لم يقله أحد من أهل العلم خاصة بعد الأنبياء والمرسلين.

لهذا ادعوا المهدية في محمد بن عبد الله القحطاني الذي كان طالباً بكلية الشريعة وخرج من الكلية في سنة ١٣٩٨ هـ وهو في السنة الرابعة وقُتل في المسجد الحرام بعد سنة من خروجه من الكلية وكانت حصيلة القتال في الحرم الذي استمر عشرين يوماً تقريباً استشهاد (١٢) ضابطا و(١١٥) صف ضابط وجندي، والذين أُدخلوا المستشفى للعلاج (٤٩) ضابط و(٤٠٢) صف ضابط وجندي، وأن من نُفِّذ فيهم حكم القتل (٦٣)، شخصاً وعدد الذين قُتِلوا خلال محاصرة الحرم (٧٥) شخصاً وعُثر على (١٥) جثة وأن (٢٧) شخصاً منهم قد توفوا متأثرين بإصاباتهم. هذا عدا القتلى من المدنين - والله المستعان.

(١) وغيرهم، عقيد المهدي للشيخ عبد المحسن العباد حفظه الله ١٦٦ .



مسنده ٥- ابن حبان في صحيحه، ٦- الحاكم في المستدرك، ٧-أبو بكر بن أبي شيبة في المصنف ٨- الدارقطني في الإفراد، ٩- ابن عساكر في تاريخه، ١٠- البزار في مسنده[١].

سادساً: ذِكْرُ بعضِ الذين حَكَوا تواتَر أحاديث المهدي الحافظ:

١- أبو الحسين محمد بن الحسين الابرى السجزى صاحب كتاب مناقب الشافعي المتوفى سنة ثلاث وستين وثلاثمائة من الهجرة والذي قال: «وقد تواترت الأخبار واستفاضت عن رسول اللّه ﷺ بذكر المهدي وأنه من أهل بيته..»[٢].

٢- الشيخ محمد السفاريني المتوفى سنة ثمان وثمانين بعد المائة والألف في كتابه «لوامع الأنوار البهية»، وقد قال: «وقد كثرت بخروجه - يعني المهدي - الروايات حتى بلغت حد التواتر المعنوي وشاع ذلك بين علماء السنة حتى عدّ من معتقداتهم.... وقد روى عمن ذكر من الصحابة وغير من ذكر منهم، بروايات متعددة وعن التابعين من بعدهم ما يفيد مجموعهُ العلمَ القطعي، فالإيمان بخروج المهدي واجب كما هو مقرر ومدُّون في عقائد أهل السنة والجماعة»[٣].

٣- القاضي محمد بن علي الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، المتوفى سنة خمسين بعد المائتين والألف وهو صاحب التفسير المشهور (فتح القدير) ومؤلف نيل الأوطار قال: «والأحاديث الواردة في المهدي التي أمكن الوقوفُ عليها منها خمسون حديثا فيها الصحيح والحسن والضعيف والمنجبر وهي متواترة بلا شك ولا شبهة، بل يصدق وصف المتواتر على ما هو دونها في الاصطلاحات المحررة في الأصول، وأما الآثار عن الصحابة المصرحة بالمهدي، فهي كثيرة جداً لها حُكْمُ الرفع إذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك»[٤].

---

(١) وغيرهم، عقيد المهدي للشيخ عبد المحسن العباد ١٦٦ .
(٢) عقيدة أهل السنة ١٧١ .
(٣) لوامع الأنوار البهية.
(٤) التوضيح من تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال المسيح للشوكاني.

٤- **الشيخ محمد بن جعفر الكتّاني** المتوفى سنة خمس وأربعين بعد الثلاثمائة والألف قال: «والحاصل أن الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة وكذا الواردة في الدجال وفي نزول سيدنا المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام»(١).

٥- **قال ابن تيمية**: «إن الأحاديث التي يُحتج بها على خروج المهدي أحاديث صحيحة....»(٢).

٦- **سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد اللّه بن باز** رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «فَأَمْرُ المهدي أمر معلوم والأحاديث فيه مستفيضة بل متواترة متعاضدة...»(٣).

سابعاً: مَنْ يَحتج لإنكار ما تواتر من ظهور المهدي:

بالحديث الذي فيه أن النبي ﷺ قال: «لا مهدي إلا عيسى بن مريم»(٤)، وهذا حديث ضعيف عند جمهور أهل الحديث.

قال ابن القيم في المنار المنيف: ولو صح لم يكن فيه حجة لأن عيسى أعظم مهدي بين يدي رسول اللّه ﷺ وبين الساعة، وكما يصح أن يقال: «إنما المهدي عيسى بن مريم، يعني المهدي الكامل المعصوم».

---

(١) نظم المتناثر من الحديث المتواتر للكتاني.

(٢) منهاج السنة النبوية لا بن تيمية.

(٣) قالها على المحاضرة التي ألقاها الشيخ عبد المحسن العباد حول قضية المهدي. انظر العدد الثالث من مجلة الجامعة الإسلامية الصادرة في شهر ذي القعدة عام ١٣٨٨ هـ. وكذلك في مقدمة كتاب «عقيدة أهل السنة والأثر» ١٥٧ .

(٤) تفرد به محمد بن خالد الجندي. قال أبو حاتم وأبو الحسين الأبرى والحاكم وابن الصلاح: أنه مجهول وقال الأزدي: منكر الحديث. وقال ابن عبد البر: متروك وقال البيهقي مجهول وفيه علل أخرى.



قوله: «وأنه ليس المهدي الذي زعمته الشيعة(١) في محمد بن الحسن العسكري».

ش: ونورد أولًا من كتب الشيعة حول صحة وجود محمد بن الحسن العسكري:

فعن «أحمد بن عبيد اللَّه بن خاقان» أنه قال في قصة طويلة أن الحسن: «لما اعتلّ بعث السلطان إلى أبيه أن ابن الرضا قد اعتلّ، فركب من ساعته فبادر إلى دار الخلافة ثم رجع مستعجلًا ومعه خمسة من خدم أمير المؤمنين كلهم من ثقاته وخاصته، فيهم نِحرير فأمرهم بلزوم دار الحسن وتَعَرف خبَّره وحاله، وبعث إلى نفر من المطببين فأمرهم بالاختلاف «الذهاب والاجتماع» إليه وتعاهده صباحاً ومساء، فلما كان بعد ذلك بيومين أو ثلاثة أُخبر أنه ضعف.

فأمر المتطببين بلزوم داره وبعث إلى قاضي القضاة فأحضره مجلسه وأمره أن يختار من أصحابه عشرة ممن يوثق به في دينه وأمانته وورعه، فأحضرهم فبعث بهم إلى دار الحسن وأمرهم بلزومه ليلًا ونهاراً، فلم يزالوا هناك حتى توفى عليه السلام فصارت في «سِر من رأى»(٢) ضجة واحدة، وبعث السلطان إلى داره مَن فتشها وفتش حُجرها وختم على جميع ما فيها وطلبوا أثر ولده وجاؤا بنساء يعرفن الحمل، فدخلن إلى جواريه فنظرت إليهن فذَكر بعضهن أن هناك جارية بها حمل، فجُعِلت في حجرة وَوَكّل بها نحرير الخادم وأصحابه ونُسوة معهم، ثم أخذوا بعد ذلك في تهيئة «الحسن العسكري» وعُطلِت الأسواق وركبت بنو هاشم والقواد(٣) وأبي، وسائر الناس إلى جنازته، فكانت «سِر من رأى» يومئذ شبيها بالقيامة.

فلمّا فرغوا من تهيئته بعث السلطان إلى ابن عيسى بن المتوكل فأمره بالصلاة عليه،

---

(١) الإمامية الأثنى عشرية وهم يرون أن الأئمة هم: ١- علي بن أبي طالب، ٢- الحسن بن علي بن أبي طالب ٣- الحسين بن علي ٤- (زين العابدين) علي بن الحسين ٥- محمد الباقر بن علي بن الحسين، ٦- جعفر بن محمد الباقر، ٧- موسى بن جعفر، ٨- علي بن موسى بن جعفر، ٩- محمد بن الرضا أبو جعفر الثاني ١٠- علي بن محمد الرضا، ١١- الحسن بن علي بن محمد (العسكري)، ١٢- محمد بن الحسن العسكري(المزعوم).

(٢) «سر من رأى»: هي مدينة (سامراء) حالياً.

(٣) جمع قائد.



فلما وضعت الجنازة للصلاة عليه دنا أبو عيسى منه فكشف عن وجهه فعرضه على بني هاشم من العلوية والعباسية والقواد والكتاب والقضاة والمعدلين.

وقال: «هذا الحسن بن علي بن محمد بن الرضا مات حتف أنفه على فراشه وحضره من حضره من خدم أمير المؤمنين وثقاته فلان وفلان ومن القضاة فلان وفلان ومن المتطببين فلان وفلان، ثم غطى وجهه وأمر بحمله فحُمِل من وسط داره ودُفن في البيت الذي دُفِن فيه أبوه».

لما دُفِن أخذ السلطان والناس في طلب ولده، وكثر التفتيش في المنازل والدور وتوقفوا عن قسمة ميراثه، ولم يزل الذين وكُلِوا بحفظ الجارية التي تُوهِمّ عليها الحَمل لازمين حتى تبين بطلانُ الحَمل، فلما بطل الحمل عنهن، قُسِّم ميراثه بين أُمه وأخيه جعفر وادّعت أُمه وصيته وثبّت ذلك القاضي[1].

وكتب «المفيد» وغيره: «فلم يظهر ولده في حياته، ولا عرفه الجمهور بعد وفاته وتولى جعفر بن علي أخو أبي محمد «ع» وأخذ تَركته وسعى في حبس جواري أبي محمد واعتقال حلائله... وحاز جعفر ظاهراً تركة أبي محمد عليه السلام واجتهد في القيام عند الشيعة مقامه»[2].

وهذه الرواية التي ذكرها جميع مؤرخي الشيعة ومؤلفيها ومُحَدِّثيها تهدم ما أرادوا بناءه على الأساطير والقصص من ولادة الإمام الثاني عشر ونشأته وإمامته[3]. «هدانا اللّه وإياهم إلى سواء السبيل».

«فَصْل» وقد ادعى طوائفُ أن المهدي منهم مثل:

١- مهدي القرامطة الباطنية الذي أقام دعوتهم بالمغرب وهم من ولد ميمون القدّاح،

---

(١) كتاب الحجة من الكافي ص ٥٠٥، «الإرشاد» للمفيد ص ٣٣٩، ٣٤٠، «كشف الغُمّة» ص ٤٠٨-٤٠٩، «جلاء العيون» ٢/ ٧٦٢، «إعلام الورى» للطبرسي ص ٣٧٧، ٣٧٨ .

(٢) «الإرشاد» ص ٣٤٥ إعلام الورى ص ٣٨٠ .

(٣) الشيعة وأهل البيت للأستاذ إحسان الهي ظهير ٢٩٦ .



وادعوا أن ميموناً هذا من ولد محمد بن إسماعيل وإلى ذلك انتسب الإسماعلية، وهم ملاحدة في الباطن خارجون عن جميع الملل، أَكْفَرُ من الغالية، كالنصيرية ومذهبهم مركَّب من مذهب المجوس والصابئة مع إظهار التشيع. وجَدّهم رجل يهودي كان ربيباً لرجل مجوسي، وقد كانت لهم دولة وأتباع.

٢- ومِمَن ادّعى أنه المهدي «ابن تومرت» الذي خرج أيضاً بالمغرب وسمّى أصحابه بـ(الموحدين) وكان يقال له في خطبهم الإمام المعصوم والمهدي المعلوم... وهذا ادعى أنه من ولد الحسن دون الحسين...»[(١)].

❋ ❋ ❋

---

(١) منهاج السنة النبوية لابن تيمية.

القضية الثانية والستون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«نؤمن بأن يوم القيامة طوله كخمسين ألف سنة من سني الأرض، وأن الناس يقومون فيه لربهم لفصل القضاء بينهم، وأنهم يتفاوتون في المحشر حسب إيمانهم، ودرجاتهم، وأن الميزان حق، والصراط حق، والحوض(١) حق، وشفاعة(٢) سيد المرسلين حق، وشفاعة الشافعين حق».

قوله: «نؤمن بأن يوم القيامة طوله كخمسين ألف سنة من سني الأرض»

الشرح: كما جاء من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة، لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة، صفحت له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم، فيُكوى بها جنبه، وظهره كلما بردت أعيدت له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله، إما إلى الجنة، وإما إلى النار»، ولا صاحب إبل، لا يؤدي منها حقها - ومن حقّها حلبُها يوم ورودها - إلا إذا كان يوم القيامة، بُطح لها بقاع قَرقر(٣)، أوفر ما كانت، لا يفقد منها فصيلا واحدا، تطؤه بأخفافها وتعضُّه بأفواهها، كلَّما مرَّ عليه أولاها، رُدَّ عليه آخرها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنةٍ، حتى يُقضى بين العباد فيرى سبيلَه إما إلى الجنة، وإما إلى النار.

ولا صاحب بقر، ولا غنم لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة بُطِح لها بقاعٍ قَرقرٍ لا يفقد منها شيئا، ليس فيها عقصاء(٤) ولا جلحاء(٥)، ولا عضباء(٦)، تنطحه

---

(١) الحوض: راجع فقرة ٥٢ .
(٢) الشفاعة: راجع فقرة ٤٨ .
(٣) قرقر: الأرض المطمئنة الليّنة.
(٤) عقصاء: الملتوية القرون.
(٥) جلحاء: التي لا قرون لها.
(٦) عضباء: التي انكسر قرنها الداخل.

بقرونها، وتطؤه بأظلافها، كلما مر عليه أولاها، ردّ عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار[١].

قوله: «وأن الناس يقومون لربهم لفصل القضاء بينهم وأنهم يتفاوتون في المحشر حسب إيمانهم ودرجاتهم».

ش: فإذا قام الناس من قبورهم، وجدوا الأرض على غير صفة الأرض التي فارقوها، قد دُكّت جبالها، وزالت قلالها[٢] وتغيرت أحوالها، وانقطعت أنهارها، وبارت أشجارها، وسُجّرت[٣] بحارها، وتساوت مهادها[٤] ورباها[٥] وخربت مدائنها وقراها، وقد زلزلت زلزالها، وأخرجت أثقالها، وقال الإنسان ما لها، وكذلك السموات، ونواحيها، قد تشققت، وأرجاؤها قد تفطرت[٦] وهذا يكون بعد النفخ في الصور[٧].

قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤- ٦]. أي يقومون حفاة، عراة، غرلا في موقف صعب، حرج ضيق، ضنك على المجرم، ويغشاه من أمر اللّه تعالى ما تعجز القوى والحواس عنه[٨]، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدُهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه»[٩].

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود النسائي.
(٢) قلالها: جمع قلة وهي أعلى الجبال.
(٣) سجرت البحار: أي صارت نيرانا.
(٤) مهاد الأرض: المستوى منها.
(٥) الربا: جمع ربوة، وهي المكان المرتفع عمّا حوله.
(٦) ابن كثير النهاية في الفتن والملاحم ١/ ٣٤٩ .
(٧) النفخة الثالثة وهي النفخة البعث والنشور.
(٨) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٦٢٣ .
(٩) رواه أحمد والبخاري ومسلم.

مكان الحشر:

عن سهل بن سعد قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يُحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء(١)، كقرصة(٢)، النقي ليس فيها علم لأحد»(٣).

كيفية الحشر:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «يُحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا(٤) قلت: «يا رسول اللّه ! الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: «يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض»(٥). والناس يتفاوتون في هذا المحشر(٦) حسب إيمانهم ودرجاتهم:

أولا: المؤمنون:

أ - هم في ظل اللّه ورحمته:

قال رسول اللّه ﷺ: «سبعة يظلهم اللّه في ظله يوم لا ظل إلا ظله، إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة اللّه، ورجل قلبه مُعَلّق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في اللّه فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه، ورجل ذكر اللّه خاليا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف اللّه رب العالمين، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شمالهُ ما تنفق يمينه»(٧).

---

(١) أي غير شديدة البياض.
(٢) القرصة: الرغيف، والنقي: الدقيق المنخول المنظف.
(٣) متفق عليه.
(٤) الغرل: جمع الأغرل وهو الأقلف: أي غير مختون.
(٥) متفق عليه.
(٦) فالحشر يكون في ثلاث أماكن: (أ) في آخر أيام الدنيا، وتحشرهم نار تخرج من قعر عدن، وتحشرهم إلى الشام كما قد بُيِّن بحمد اللّه في الفقرة ٥٩ . (ب) وهذا يكون بعد نفخة البعث «وهي المقصودة هنا». ج -ويكون هذا حين يؤمر بهم إلى النار كما قال تعالى: «ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا» الإسراء ٩٧ .
(٧) رواه أحمد ومالك والبخاري ومسلم والترمذي.



ب - قِصَر يوم القيامة عليهم:

فهذا اليوم الذي أخبر اللَّه عنه أنه خمسون ألف سنة يكون عليهم قصيرا جدا فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يوم القيامة على المؤمنين كقدر ما بين الظهر، والعصر»[١].

ج - أول من يُكسى:

أول من يُكسى من الخلائق إبراهيم عليه السلام، لقوله ﷺ: «. . . وأوّل من يُكسى يوم القيامة إبراهيم. . . »[٢].

ثانيا: الكفرة والعصاة المجرمون:

أ - يُحشر تحت الشمس المحرقة: قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا كان يوم القيامة أُدنيت الشمس من العباد حتى تكون قيد ميل[٣] أو اثنين، فتصهرهم الشمس فتصهرهم الشمس، فيكونون في العرق كقدر أعمالهم، منهم من يأخذه[٤] إلى عقبيه، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من يأخذه إلى حقويه[٥] ومنهم من يلجمه إلجاما»[٦][٧].

ب - يُحشر حقيراً: فعن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر[٨] في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان. . »[٩].

ج - يُحشر على وجهه: قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]. وكما جاء من حديث أنس رضي الله عنه قال: أن رجلا قال: يا نبي

---

(١) رواه الحاكم والديلمي عن أبي هريرة وصححه الألباني (الجامع ٨١٩٣ والصحيحة ٢٤٥٦).
(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم.
(٣) أي بمقدار مد البصر، وقيل: ثلث الفرسخ وقيل عود المكحلة.
(٤) أي يصل العرق إلى عقبيه.
(٥) موضع شد الإزار
(٦) يبلغ الماء فيه.
(٧) أحمد والترمذي من حديث المقداد وصححه الألباني (الجامع ٧٧٧).
(٨) أي النمل.
(٩) رواه أحمد والترمذي وحسنه الألباني (الجامع ٨٠٤٠).

اللَّه ! كيف يُحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: «أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة»[١].

د - يُحشر أعمى: قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤- ١٢٦]. أي أعمى البصر لا يرى شيئا والذي يدل على ذلك قوله: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ فصرّح بأن عماه هو العمى المقابل للبصر لا يرى شيئا، لأن الكافر كان في الدنيا أعمى القلب، كما دلت آيات كثيرة من كتاب اللَّه[٢].

قوله: (وأن الميزان حق)[٣]

ش: أي ونؤمن بالميزان لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. وقال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢- ١٠٣].

أي نضع الموازين العدل يوم القيامة، والأكثر: على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدد الموزونة فيه[٤].

وعقيدة أهل السنة في الميزان:

١- أن الميزان حقيقي أي حسّي.

٢- أن الميزان له كفتان حسيّتان مشاهدتان.

٣- أن الأعمال توزن.

٤- أن العامل يوزن.

---

(١) متفق عليه.

(٢) أضواء البيان ٤/ ٥٤٨ .

(٣) وقد أنكرت فرقة المعتزلة الميزان.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٤٣ شرح الطحاوية ٤٧٢ .

الأدلة:

١- عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه سيُخلِّص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فيُنشر عليه تسعة وتسعون سجلا، كل سجل مدّ البصر، ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب، فيقول له: ألك عذر أو حسنة؟ فيُبهت الرجل، فيقول: «يا رب»، فيقول: «بلى، لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك»، فتُخرج له بطاقة فيها: «أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمداً عبده ورسوله»، فيقول: «أحضروه»، فيقول: «يا رب ! وما هذه البطاقة مع هذه السّجلات»؟ فيقال: «أنك لا تُظلم» قال: «فتُوضع السجلات في كفه، والبطاقة في كفه»، قال: «فطاشت السجِّلات، وثقُلت البطاقة، ولا يثقل شيء مع بسم اللَّه الرحمن الرحيم»(١) وفي رواية «ولا يثقل مع اسم اللَّه شيء»(٢).

٢- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم، السمين يوم القيامة، لا يزن عند اللَّه جناح بعوضة، وقال اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥](٣).

٣- وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أنه كان يجني(٤) سواكا من الأراك، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه(٥)، فضحك القوم منه»، فقال رسول اللَّه ﷺ: «ممّ تضحكون؟» قالوا: «يا نبي اللَّه، من دقة ساقيه»، فقال: «والذي نفسي بيده، لهما

---

(١) رواه أحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي ورواه الترمذي وحسنه وصححه الألباني «انظر شرح الطحاوية ٤٧٣ وسلسلة الأحاديث الصحيحة ١٣٥».
(٢) رواه الترمذي والحاكم وهي أصح من رواية أحمد. أقصد قوله «ولا يثقل مع اسم اللَّه شيء، الطحاوية ٤٧٣».
(٣) رواه البخاري.
(٤) يقطع.
(٥) تحركه.

أثقل في الميزان من أحد»(١).

٤- وعن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول اللّه ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد للّه تملأ الميزان»(٢).

٥- وقوله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان: سبحان اللّه وبحمده، سبحان اللّه العظيم»(٣).

قال القرطبي رحمه الله: «والميزان يكون بعد الحوض، وقبل الصراط».

فثبت وزن الأعمال، والعامل، وصحائف الأعمال، وثبت أن الميزان له كفتان، واللّه تعالى أعلم بما وراء ذلك في الكيفيات، فعلينا الإيمان بالغيب كما أخبرنا الصادق المصدوق، فلا يلتفت إلى مُلحد، معاند، يقول: الأعمال أعراض لا تقبل الوزن، وإنما يقبل الوزن الأجسام، فإن اللّه يَقلب الأعراض أجساما(٤)، واللّه على كل شيء قدير.

قال ابن القيم رحمه الله:

أفما تصدق أن أعمال العبا ... د تحط يوم العرض بالميزانِ
وكذا تثقل تارة وتخف أخـ ... رى ذاك في القرآن ذو تبيانِ
وله لسان وكفتان تقيمه ... والكفتان إليه ناظرتانِ
ما ذاك أمرا معنويا بل هو المـ ... حسوس حقا عند ذي الإيمانِ
أما سمعت بأن تسبيح العبا ... د وذكرهم وقراءة القرآنِ

---

(١) رواه أحمد وحسنه الألباني الطحاوية ٤٧٤ .
(٢) رواه مسلم.
(٣) متفق عليه.
(٤) الطحاوية ٤٧١- ٤٧٥ .

ينشيه رب العرش في صور يجا دل عنه يوم قيامة الأبدانِ
أو ما سمعت بأن ذلك حول عر ش الرب ذو صوت وذو دورانِ
يشفعن عند الرب جل جلاله ويذكرون بصاحب الإحسانِ
أو ما سمعت بأن ذلك مؤنس في القبر للملفوف في الأكفانِ
في صورة الرجل الجميل الوجه في سن الشباب كأجمل الشبانِ
أو ما سمعت بأن ما تتلوه في أيام هذا العمر من قرآنِ
يأتي يجادل عنك يوم الحشر للر حمن كي ينجيك من نيرانِ
في صورة الرجل الذي هو شاحب يا حبذا ذاك الشفيع الدانِ
أو ما سمعت حديث صدق قد أتى في سورتين من أول القرآنِ
فرقان من طير صواف بينها شرق ومنه الضوء ذو تبيانِ
شبههما بغمامتين وأن تشا بغيابتين هما لذا مثلانِ
هذا مثال الأجر وهو فعالنا كتلاوة القرآن بالإحسانِ
أو ما سمعت بقلبه سبحانه الـ أعيان من لون إلى ألوانِ
وكذلك الأعراض يقلب ربها أعيانها والكل ذو إمكانِ
لم يفهم الجهال هذا كله فأتوا بتأويلات ذي بطلانِ
فمكذّب ومؤولٌ ومحيرٌ ما ذاق طعم حلاوة الإيمانِ

قوله: «. . . والصراط حق».

ش: ونؤمن بالصراط

الصراط في اللغة: هو الطريق الواضح، والبعض ينطقه بالسين وبالزاي.

الصراط في الشرع: جسر ممدود على متن جهنم، يَرِده الأولون، والآخرون، فهو

قنطرة جهنم(١).

صفة الصراط:

١- أدق من الشعرة.

٢- أحد من السيف.

٣- مدحضة مزلقة، فلا تثبت عليه قدم «إلا من يثبته اللّه تعالى».

٤- على الصراط كلاليب، وخطاطيف.

أولا: الأدلة من القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]. الأظهر والأقوى أنه المرور على الصراط، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢] فعن أم بشر رضي الله عنها أنه ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة» قالت حفصة: فقلت: يا رسول اللّه، أليس اللّه يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] فقال: «ألم تسمعيه قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢](٢).

فأشار ﷺ: أن ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله: ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾ [هود: ٥٨]، ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ [هود: ٩٤](٣).

ثانيا: الدليل من السنة المطّهرة:

عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أن رسول اللّه ﷺ قال: «هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة، صحوا ليس معها سحاب؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة

---

(١) لوامع الأنوار البهية ٢/١٨٦ .

(٢) متفق عليه.

(٣) شرح الطحاوية ٤٧١ .



البدر، صحوا ليس فيها سحاب؟ ما تضارون في رؤية اللّه يوم القيامة، إلا كما تضارون في رؤية أحدهما، إذا كان يوم القيامة أذّن مؤذن: ليتبع كل أمة ما كانت تعبد، فلا يبقى أحد كان يعبد غير اللّه من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار، حتى إذا لم يبق إلا من يعبد اللّه من بر وفاجر، وغير أهل الكتاب، فيُدعى اليهود، فيُقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزيزا ابن اللّه؟ فيقال: كذبتم، ما اتخذ اللّه من صاحبة ولا ولد، فماذا تبغون؟ قالوا: عطشنا يا ربنا فاسقنا، فيشار إليهم: ألا تردون؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا، فيتساقطون في النار، ثم يُدعى النصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: «كنا نعبد المسيح ابن اللّه»! فيقال لهم: «كذبتم، ما اتخذ اللّه من صاحبة ولا ولد»، فيقال لهم: «ما تبغون»؟ فيقولون: «عطشنا يا ربنا، فاسقنا»، فيشار إليهم: «ألا تردون»؟ فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضا، فيتساقطون في النار، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد اللّه من بر وفاجر أتاهم رب العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها، قال: فما تنتظرون؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد، قالوا: يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم، ولم نصاحبهم، فيقول: أنا ربكم فيقولون: «نعوذ باللّه منك لا نشرك باللّه شيئا»، «مرتين أو ثلاثا»، حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب، فيقول: «هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها»؟

فيقولون: «نعم، الساق»، فيُكشف عن ساق، فلا يبقى من كان يسجد للّه من تلقاء نفسه إلا أذن اللّه له بالسجود، ولا يبقى من كان اتقاء ورياء إلا جعل اللّه ظهره طبقة واحدة، كلما أراد أن يسجد خرّ على قفاه، ثم يرفعون رؤوسهم، وقد تحول في الصورة التي رأوه فيها أول مرة، فيقول: «أنا ربكم»، فيقولون: «أنت ربنا».

ثم يضرب الجسر على جهنم، وتحل الشفاعة، ويقولون: «اللّهم سلّم سلّم» قيل: «يا رسول اللّه! وما الجسر»؟ قال: دحض مزلّة، عليه خطاطيف وكلاليب، وحسكة تكون بنجد، فيها شويكة، يقال لها: السّعدان.

فيمر المؤمنون كطرف العين، وكالبّرق، وكالرّيح، وكالطّير، وكأجاويد الخيل



والركاب، فَناجٍ مُسلَّم، ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم، حتى إذا خلُص المؤمنون من النار، فوالذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشد مناشدة للَّه في استيفاء الحق من المؤمنين للَّه يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار، يقولون: ربنا كانوا يصومون معنا، ويصلون، ويحجون، فيقال لهم: «أخرجوا من عرفتم» فتحرّم صورهم على النار، فيخرجون خلقا كثيرا، قد أخذت النار إلى نصف ساقه وإلى ركبتيه، فيقولون: «ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به»، فيقول اللَّه عزَّ وجلَّ: «ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه» فيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون: «ربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به». ثم يقول: «ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه»، فيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون: «ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدا»، ثم يقول: «ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه»، فيخرجون خلقا كثيرا.

ثم يقولون: «ربنا ! لم نذر فيها خيرا»، فيقول اللَّه: «شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين»، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط، قد عادوا حِمَما، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له: نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو الشجر، ما يكون إلى الشمس أصيفر وأخيضر، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض، فيخرجون كاللؤلؤ، في رقابهم الخواتيم يعرفون أهل الجنة: هؤلاء عتقاء اللَّه من النار، الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه.

ثم يقول: «ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم» فيقولون: «ربنا أعطيتنا مالم تعط أحدا من العالمين»، فيقول: «لكم عندي أفضل من هذا»؟ فيقولون: «يا ربنا أي شيء أفضل من هذا»؟ فيقول: «رضاي فلا أسخط عليكم بعده أبدا»[1].

* * *

---

(١) رواه أحمد في مسنده و البخاري ومسلم .



سادسا: «الإيمان بالقضاء والقدر»

القضية الثالثة والستون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«نؤمن، ونشهد أن اللَّه سبحانه وتعالى خلق كل شيء بقدر، وأنه كتب مقادير كل شيء قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وأنه ما من شيء يقع في السموات والأرض إلا وعلِمه اللَّه، وقدّره قبل أن يقع، ولا يعزب عن علم اللَّه شيء».

قوله: «الإيمان بالقضاء والقدر»

الشرح: وأصل القدر سِرُّ اللَّه تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك مَلك مقرّب، ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسُلَّم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظرا، وفكرا، ووسوسة، فإن اللَّه تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى في كتابه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ الأنبياء: ٢٣].

فمَنْ سَأَلَ: لِم فَعَل؟ فقد ردّ حكم الكتاب، ومن ردّ حكم الكتاب كان من الكافرين[(١)] كما قال ﷺ «... وإذا ذُكر القدر فأمسكوا»[(٢)].

معنى القضاء والقدر:

القضاء: أصله القَطْع والفصل، يقال قضى قضاء فهو قاض، إذا حكم وفصل. قال الزهري: القضاء في اللغة على وجوه، مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه، وكل ما أُحكم عمله، أو أُتم، أو خُتم، أو أُدي، أو أُوجب، أو أُعلم، أو أُنفذ، أو أُمضى، فقد قُضى، وقد جاءت هذه الوجوه كلها في الحديث ومنه «القضاء المقرون بالقدر».

---

(١) شرح الطحاوية ٢٧٦ .

(٢) رواه الطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود وابن عدي في الكامل عن ابن مسعود وثوبان وابن عمر وصححه الألباني (الجامع ٥٤٥ والصحيحة ٣٤).



والمراد بالقدر: التقدير، وبالقضاء: الخلق، كقوله تعالى: «فقضاهن سبع سموات في يومين» أي خلقهن.

فالقضاء والقدر: أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو: القدر، والآخر بمنزلة البناء، وهو: القضاء، فمن رام الفصل بينهما، فقد رام هَدْم البناء ونقضه[١].

وقيل القدر: هو عبارة عما قضاه اللَّه وحكم به من الأمور.

وهو مصدر: قدر يقدر قدرا وقد تُسكَّن دَالُه.

حكم الإيمان بالقضاء والقدر:

والإيمان بالقضاء والقدر يعتبر الركنَ السادس من الأركان كما جاء في حديث جبريل عندما سأل النبي ﷺ عن الإيمان: قال: «أن تؤمن باللَّه، وملائكته وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»[٢].

مراتب الإيمان القضاء والقدر:

والتي من لم يؤمن بها لم يؤمن بالقضاء والقدر:

المرتبة الأولى: إثبات صفة العلم للَّه تعالى[٣]: أي العلم السابق، فقد اتفق عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم، واتفق عليه جميعُ الصحابة ومَن تبعهم من الأمة[٤] وهو الإيمان بأن اللَّه تعالى عليم بما الخلق عاملون، بعلمه القديم، الذي هو موصوف به أزلا وأبدا، وعَلِم جميعَ أحوالهم من الطاعات والمعاصي الأرزاق والآجال[٥]. قال تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى

---

(١) النهاية في غريب الحديث ٤/٧٨ .
(٢) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والبغوي وابن مَنده في الإيمان.
(٣) تم شرح هذه الصفة للَّه تعالى في الفقرة السابقة.
(٤) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل للإمام ابن القيم الجوزية ٢٩ .
(٥) العقيدة الواسطية ٢١٥/٢١٦ .



ﱡﭐٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُﱠ [سبأ: ٣].

وقال سبحانه وتعالى مقررا عِلْمَه بما لم يكن لو كان كيف سيكون: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

المرتبة الثانية: مرتبة الكتابة: وهي أن اللّه كتب مقادير الخلائق في اللوح المحفوظ.

قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحديد: ٢٢].

قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «سبحان اللّه ! ومن يشك في هذا؟ كلُ مصيبة بين السماء والأرض في كتاب اللّه من قبل أن يبرأ النسمةَ. وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ وهذه الآية الكريمة العظيمة من أدل دليل على القدرية نفاةِ العلم السابق - قبّحهم الله - وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ أي إن علمه تعالى بالأشياء قبل كونها، وكتابته لها طِبق ما يوجد في حينها سهل على اللّه عزَّ وجلَّ، لأنه يعلم ما كان وما يكون وما لو كان كيف يكون[(١)]. وقال رسول اللّه ﷺ: «فأول ما خلق اللّه القلم، قال له: «اكتب»، قال: «ما أكتب؟» قال: «أكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»[(٢)].

وعن عبادة بن الصّامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لابنه: يا بني ! إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك سمعت رسولَ اللّه ﷺ يقول: «إن أول ما خلق اللّه القلم»، فقال: «اكتب»، قال: «رب وما أكتب»؟

قال: «اكتب مقاديرَ كلِ شيء حتى تقوم الساعة»، يا بني ! سمعتُ رسول اللّه ﷺ يقول: «من مات على غير هذا فليس مِنّي»[(٣)].

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٠ .
(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وقال: حديث حسن غريب، وصححه الألباني تخريج السنة لابن أبي عاصم (١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥).
(٣) رواه أبو داود وصححه الألباني (الجامع/ ٢٠١٨).

المرتبة الثالثة: المشيئة: أي مشيئة اللَّه النافذة، وقدرته الشاملة، وهو الإيمان بأن ما شاء اللَّه كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما في السموات، وما في الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة اللَّه سبحانه[١] ويجب أن نؤمن بأن مشيئة اللَّه شاملة لكل شيء، أما كونها شاملة لأفعاله فالأمر فيها ظاهر.

وأما كونها شاملة لأفعال العبد فلأن العبد ملكٌ للَّه تعالى ولا يكون في ملكه إلا ما شاء اللَّه. والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، فالهداية من فعله.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود: ١١٨]. والجعْل من فعله، ومن أفعال العباد، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وهذا يدل على أن أفعال العباد متعلقة بمشيئة اللَّه، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ الإنسان: ٣٠]. فهذه الأدلة كلها تدل على أن ما وقع من فعل اللَّه، أو فعل العباد فهو داخل تحت مشيئة اللَّه عزَّ وجلَّ[٢].

وهو سبحانه تارة يخبر أن كل ما في الكون بمشيئته، وتارة أن ما لم يشأ لم يكن، وتارة أنه لو شاء لكان خلاف الواقع، وأنه لو شاء لكان خلاف القدر الذي قَدّره وكتبه، وأنه لو شاء ما عُصي، وأنه لو شاء لجمع خلقه على الهدى، وجعلهم أمة واحدة.

فتضمن ذلك أن الواقعَ بمشيئته، وأن ما لم يقع فهو لعدم مشيئته، وهذا حقيقة الربوبية، وهو معنى كونه رب العالمين[٣].

---

(١) العقيدة الواسطية رقم ٢٢٧ - ٢٢٨ .
(٢) شرح العقيدة الواسطية للشيخ ابن عثيمين ٢/٦١٣ .
(٣) شفاء العليل لابن القيم ٤٤ .

المرتبة الرابعة: خلق اللّه سبحانه لأعمال العباد وتكوينه وإيجاده لها[١] **فلا خالق غيره، ولا رَبَّ سواه، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾** [الزمر: ٦٢]. **وفعل الإنسان من الشيء.**

وقال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]. قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يحتمل أن تكون (ما) مصدرية فيكون تقدير الكلام خلقكم وعملكم، ويحتمل أن تكون بمعنى الذي تقديره: واللّه خلقكم والذي تعملونه، وكلا القولين متلازم، والأول أظهر لما رواه البخاري في كتاب أفعال العباد عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا»، قال: «إن اللّه تعالى يصنع كل صانع وصنعته»[٢] وفي رواية «أن اللّه صانع» وفي رواية الحاكم وابن منذر «أن الله خالق»[٣].

وإن سأل سائل: «كيف تكون خلقا للّه وهي فعل الإنسان؟!»

نقول: «لأن أفعالك صدرت بإرادة وقدرة، والذي خلق فيك الإرادة هو اللّه عزَّ وجلَّ، والذي خلق فيك القدرة هو اللّه». ولو شاء اللّه تعالى لسَلَبك القدرة فلم تستطع، لو أراد الإنسانُ الزَّمِنُ أن يمشي بدون عصا وغيره فلا يقدر، لأنه ما خُلِقت فيه القدرة. ولو أن أحداً قادراً فَعَل فعلا بدون إرادة لم يمكن، كل إنسان قادر يفعل الفعل فإنه بإرادته اللّهمَّ إلا من أُكرِه[٤].

وهذا هو مذهب أهل السنة من الصحابة والتابعين وتابعيهم من الأئمة والعلماء:

فمن الصحابة: أبو بكر الصديق وعمر وعلي وابن مسعود، وابن عباس وابن عمر ابن عمرو بن العاص، وعائشة وسلمان الفارسي وغيرهم كثير، ويقول طاووس رَحِمَهُ اللَّهُ: «أدركتُ ثلاثمائة من أصحاب رسول اللّه ﷺ يقولون: كل شيء بقدر».

---

(١) المصدر السابق ٤٩ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٩ .
(٣) رواه البخاري في خلق أفعال العباد والحاكم والبيهقي وابن منده وابن عدي في الكامل صحيح الجامع ١٧٧٧ .
(٤) شرح العقيدة الواسطية ٢/ ٤٨٨ لابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ مكتبة طبرية الطبعة الأولى.

ومن التابعين: سعيد بن المسيب، والقاسم بن محمد، وعمر بن عبدالعزيز، وعلي بن الحسين وابنه محمد بن علي والحسن بن محمد بن الحنفية، وزيد ابن علي بن الحسين، وجعفر بن محمد، وعطاء وطاووس، ومحمد بن سيرين وسعيد بن جبير، وأبو العالية.

ومن الفقهاء: مالك بن أنس، وابن أبي ذئب، وعبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون، ومن أهل مكة: ابن جريج، وسفيان بن عيينه، والشافعي، وعبدالله ابن الزبير الحميدي.

ومن أهل مصر: الليث بن سعد، وعمرو بن الحارث المصري، وحيوة ابن شريح، وعبد الله بن وهب المصري.

ومن أهل الشام: رجاء بن حيوة، والزهري، والأوزاعي، ويحيى بن أبي كثير اليمامي.

ومن أهل العراق: أهل الكوفة: عبد الله بن شبرمة، وسفيان الثوري، وأبو حنيفة، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى.

ومن فقهاء البصرة: سوار بن عبد الله العنبري، وعبيد الله بن الحسن العنبري وغيرهم.

ومن أهل بغداد: أحمد بن حنبل، وأبو ثور، وأبو عبيد الله بن القاسم ابن سلّام.

ومن أهل خرسان: ابن المبارك، واسحاق بن راهوية، وإبراهيم بن طهمان.

ومن القراء: أبو عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد، والأصمعي، وأبو عمرو الشيباني(١).

---

(١) انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للإمام العالم أبي القاسم اللالكائي ٢/ ٥٩١- ٥٩٦ .



فوائد الإيمان بالقضاء والقدر:

١- أنه من تمام الإيمان، ولا يتم الإيمان إلا بذلك.

٢- أنه من تمام الإيمان بالربوبية، لأن قدر اللَّه من أفعاله.

٣- رجوع الإنسان إلى ربه، لأنه إذا علم أن كل شيء بقضائه وقدره، فإنه سيرجع إلى اللَّه في دَفْع الضراء، ورفعها، ويضيف السراء إلى اللَّه، ويعرف أنها من فضل اللَّه عليه.

٤- أن الإنسان يعرف قدر نفسه فلا يفخر إذا فعل الخير.

٥- هون المصائب على العبد، لأن الإنسان إذا عُلم أنها من عند اللَّه هانت المصيبة كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]. قال علقمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند اللَّه فيرضى ويُسَلِّم».

٦- إضافة النعم إلى مسديها[١] لأنك إذا لم تؤمن بالقدر، أضفت النعم إلى من باشر الإنعام، وهذا يوجد كثيرا في الذين يتزلفون إلى الملوك، والأمراء، والوزراء.

٧- أن الإنسان يعرف به حكمة اللَّه عزَّ وجلَّ، لأنه إذا نظر في هذا الكون وما يحدث فيه من تغيرات باهرة، عرف بهذا حكمة اللَّه عزَّ وجلَّ، بخلاف من نفى القضاء والقدر[٢].

قوله: «ونؤمن ونشهد أن اللَّه سبحانه وتعالى خلق كل شيء بقدر».

ش: كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٨- ٤٩]. قال ابن كثير: «أي كما كانوا في سُعُر وشك، وتردد أورثهم ذلك في النار، وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ كقوله: ﴿وخلق كل شيء فقدهر تقديرا﴾ وكقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ

---

(١) وهو اللَّه تعالى كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل ٥٣].
(٢) شرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد بن صالح العثيمين (رَحِمَهُ ٱللَّهُ) ٢/٥٩٨ - ٥٩٩ .

﴿فَهَدَىٰ﴾ أي: قدر، قدرا، وهدى الخلائق إليه، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر اللَّه السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها، وكتابته لها قبل برئها، وردوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات، وما ورد من معناها في الأحاديث الثابتات على الفرقة القدرية فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونه في القدر فنزلت﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾(١)(٢).

قوله: «وأنه كتب مقادير كل شيء قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة».

ش: كما جاء من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «كتب اللَّه مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء»(٣).

وفي رواية: «قدّر اللَّه المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»(٤).

قوله: «وأنه ما من شيء يقع في السموات والأرض إلا وعَلِمَه(٥) اللَّه وقدّره قبل أن يقع ولا يعزب عن علم اللَّه شيء».

ش: قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [فاطر: ٣٨].

---

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجة.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣٤٢ .
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه أحمد والترمذي عن أبي هريرة وصححه الألباني (الجامع ٤٣٨٠).
(٥) تم بسط هذه القضية في الفقرة السابعة في بيان علم اللَّه تعالى.

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحجرات]. وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ[١] عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

ويخبر تعالى نبيه محمد ﷺ أنه يعلم جميع أحواله، وأحوال أمته، وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان، ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه، وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر منها، ولا أكبر، إلا في كتاب مبين كقوله: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ فأخبر أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء فكيف عِلْمُه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة؟[٢].

* * *

---

(١) أي: يغيب عن ربك (تفسير البغوي ٢/ ٣٥٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٥٥ .

القضية الرابعة والستون: قال المُصنِّف حفظه اللّه:

«نشهد أن أهل السعادة قد سُجّلت لهم السعادة، وأهل الشقاوة قد سُجّلت لهم الشقاوة، وأن كل ذلك لا يتغير ولا يتبدل، وأنه قد جفت الأقلام، وطويت الصحف لا تبديل لكلمات الله».

الشرح: وقد علِم اللّه تعالى فيما لم يزل عدد مَن يدخل الجنة، وعدد من يدخل النار، جملة واحدة، فلا يزداد في ذلك العدد ولا ينقص منه، وكذلك أفعالهم فيما علم منهم، أن يفعلوه[1] فاللّه تعالى موصوف بأنه بكل شيء عليم أزلا وأبدا. ولم يتقدم علمه بالأشياء جهالة، وما كان ربك نسيّاً.

فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «كنّا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا رسول اللّه ﷺ فقعد، وقعدنا حوله، ومعه مخصرة فنكّس رأسه فجعل ينكت بمخصرته»، ثم قال: «ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب اللّه مكانها من الجنة أو النار، وإلا قد كتب شقية أو سعيدة، قال: فقال رجل: يا رسول اللّه ! أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟» فقال: «من كان من أهل السعادة فسيُصِّير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيُصِّير إلى عمل أهل الشقاوة. ثم قال: «اعملوا فكلّ مُيسَّر لما خُلق له».

أما أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾[2] وعن أبي الزبير عن جابر بن عبد اللّه رضي الله عنهما، قال جاء سراقة بن مالك بن جعشم، فقال: يا رسول اللّه!، بيِّنْ لنا ديننا كأنا خُلقنا الآن، فيم العمل اليوم؟ أفيم جفت به الأقلام، وجرت به المقادير، قال زهير «وهو أحد رواة الحديث»: ثم تكلم أبو الزبير بشيء لم أفهمه، فسألتُ:

---

(١) متن الطحاوية.

(٢) شرح الطحاوية ٢٧٤ .



«ما قال؟» فقال: «اعملوا فكل ميسَّر»[١] وعن عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول اللّه ﷺ وهو الصادق المصدوق، قال: «إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه، أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث اللّه إليه ملكا، ويؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخل النار، وإن الرجل يعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخل الجنة»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ «جفَّ القلم بما أنت لاقٍ»[٣] وعن عمران بن حصين قال: قال رجل: «يا رسول اللّه أيُعرف أهل الجنة من أهل النار؟» قال: «نعم» قال: «فلم يعمل العاملون؟» قال: «كل يعمل لما خُلق له، أو لما يُيَسر له»[٤].

وقوله «جفّ القلم» قال الحافظ ابن حجر: أي فُرغت الكتابة، إشارة إلى أن الذي كُتب في اللوح المحفوظ لا يتغير حكمه، فهو كناية عن الفراغ من الكتابة لأن الصحيفة حالة كتابتها تكون رطبة أو بعضها، وكذلك القلم، فإذا انتهت الكتابة جفت الكتابة والقلم.

وقال الطيبي: هو إطلاق اللازم على الملزوم، لأن الفراغ من الكتابة يستلزم جفاف القلم عن مداده، قلت «ابن حجر»: وفيه إشارة إلى أن كتابة ذلك انقضت من أمد بعيد.

---

(١) رواه أحمد ومسلم.
(٢) متفق عليه.
(٣) أخرجه البخاري تعليقاً بصيغة الجزم في القدر باب جف القلم على علم اللّه، والنكاح، وقال ابن حجر ووصله في موضع آخر وأخرجه النسائي وأحمد وصححه ابن حبان.
(٤) أخرجه أحمد والبخاري ومسلم.

وقال «عياض»: معنى جفّ القلم: أي لم يكتب بعد ذلك شيئا، وكتاب اللّه ولوحه، وقلمه من غيبه، ومن علمه الذي يلزمنا الإيمان به، ولا يلزمنا معرفة صفته، وإنما خُوطبنا بما عهدنا فيما فرغنا من كتابته، أن القلم يصير جافا للاستغناء عنه(١).

وقوله: «كل يعمل لما خلق له أو لما يُيسر له» قال ابن حجر: فيه إشارة إلى أن المآل محجوب عن المكلف، فعليه أن يجتهد في عمل ما أمر به، فإن عمله أمارة إلى ما يؤول إليه أمره غالبا، وإن كان بعضهم قد يختم له بغير ذلك كما ثبت

في حديث ابن مسعود وغيره، لكن لا اطلاع له على ذلك، فعليه أن يبذل جهده، ويجاهد نفسه في عمل الطاعة، ولا يترك وَكُوّلًا إلى ما يؤول إليه أمره، فيلام على ترك المأمور ويستحق العقوبة(٢).

كما قال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٦٤]. أي لا تَغير(٣).

والخلاصة: أن هذه الأحاديث ونظائرها اتفقت على أن القدر السابق لا يمنع العمل، ولا يوجب الاتكال عليه، بل يوجب الجد والاجتهاد، ولهذا لما سمع بعض الصحابة ذلك قال: «ما كنت أشد اجتهادا من الآن».

وهذا مما يدل على جلالة فقه الصحابة ودقة أفهامهم وصحة علومهم، فإن النبي ﷺ أخبرهم بالقدر السابق وجريانه على الخليقة بالأسباب، فإن العبد ينال ما قَدِّر له بالسبب الذي أُقدر عليه ومُكّن منه، وهُيئ له، فإذا أتى بالسبب أوصله إلى القدر الذي سبق له في أم الكتاب، وكلما زاد اجتهادا في تحصيل السبب كان حصول المقدور أدنى إليه.

وهذا كما إذا قُدِّر له أن يكون من أعلم أهل زمانه، فإنه لا ينال ذلك إلا بالاجتهاد والحرص على التعلم وأسبابه، وإذا قُدِّر له أن يُرزق الولد لم ينل ذلك إلا بالنكاح أو

---

(١) فتح الباري ١١/ ٤٩١ .
(٢) فتح الباري ١١/ ٤٩٣ .
(٣) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٠ .



التّسرّي[١] والوطء، وإذا قُدِّر له أن يستغل من أرضه المغل كذا وكذا لم ينله إلا بالبذر، وفعل أسباب الزرع، وإذا قُدِّر له الشبع والرِي فذلك موقوف على الأسباب المحصلة لذلك من الأكل والشرب واللبس، وهذا شأن أمور المعاش والمعاد فمن عطّل العمل اتكالا على القدر السابق فهو بمنزلة من عطّل الأكل والشرب والحركة في المعاش وسائر أسبابه اتكالا على ما قُدِّر له.

وقد فطر اللّه سبحانه عباده على الحرص على الأسباب التي بها مرام معاشهم، ومصالحهم الدنيوية، بل فطر اللّه على ذلك سائر الحيوانات. فهكذا الأسباب التي بها مصالحهم الأخروية في معادهم[٢].

* * *

---

(١) أن يكون له مُلك اليمين (الجواري).

(٢) شفاء العليل لابن القيم ٢٥ .

القضية الخامسة والستون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«نشهد أن الخير والشر بتقدير اللَّه ومشيئته، وأن كل إنسان يكسب الخير والشر باختياره، ومشيئته، ولكن لا يُوقع الخير إلا بتوفيق من اللَّه وإعانة، ولا يوقع الشر جبرا على اللَّه ولكنه في إطار إذن اللَّه ومشيئته».

قوله: «نشهد أن الخير والشر بتقدير اللَّه ومشيئته»

الشرح: قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

قال السدِّي: إن تُصبهم حسنة، والحسنة الخصب، تنتج مواشيهم وخيولهم ويحسن حالهم، وتلد نساؤهم الغلمان، قالوا: ﴿هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ والسيئة الجدب، والضرر في أموالهم، تشاءموا بمحمد ﷺ وقالوا: ﴿هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ أي: بتركنا ديننا، واتباعنا محمدا أصابنا هذا البلاءُ.

فأنزل اللَّه عزَّ وجلَّ ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي الجميع بقضاء اللَّه وقدره، وهو نافذ في البرَ والفاجر، والمؤمن والكافر، وقال ابن عباس ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي: الحسنة والسيئة(١).

قوله: «وأن كل إنسان يكسب الخير والشر باختياره ومشيئته».

ش: الكسب في اللغة: الجمع(٢) أو الطلب، والسعي في طلب الرزق والمعيشة(٣).

الكسب وَرَد في القرآن على ثلاثة أوجه:

الأول: عقد القلب وعزمه: كقوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٧٠١ - ٧٠٢ .
(٢) شفاء العليل ١٢٠ .
(٣) النهاية في غريب الحديث ٤/ ١٧١ .

الثاني: كسب المال من التجارة: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧]. فالأول: للتجار، والثاني: للزرّاع.

الثالث: السعي والعمل: كقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٥٢]. وقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الأنعام: ٧٠]، فهذا كله للعمل(١).

فهذا وغيره من الآيات والأحاديث تبين أن للعبد كسباً سواء كان هذا الكسب خيرا أو شرا، كما قال تعالى عن علامات الساعة الكبرى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾(٢)،

أي: ولا يقبل كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك(٣) وقال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ١٣٤].

وفي القِصاص، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾ [المائدة: ٣٨].

والعذاب يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]. وقال تعالى: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٥٢].

قوله: «ولكن لا يُوقع الخيرَ إلا بتوفيق من اللّه وإعانة، ولا يوقع الشر جبرا على اللّه ولكنه في إطار إذن اللّه ومشيئته».

ش: ولهذا نجد عامة الدعاء من هذا الباب، فالدعاء إما خيراً، فيسأل اللّه الإعانة، وإما الاستعاذة من شر، فيسأل اللّه الإعانة على تركه كما قال ﷺ: «اللّهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء والأدواء»(٤).

(١) شفاء العليل ١٢٠ .
(٢) سورة الأنعام ١٥٨ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٦٢ .
(٤) الترمذي والطبراني الحاكم عن زياد بن علاقة (وصححه الألباني ١٢٩٨).

وقال ﷺ: «لا يقولن أحدكم: اللّهم اغفر لي إن شئت، اللّهم ارحمني إن شئت، اللّهم ارزقني إن شئت، وليعزم المسألة، فإنه يفعل ما يشاء، لا مكره له»[١]. وقال ﷺ: «من أكل طعاما ثم قال: «الحمد للّه الذي أطعمني هذا الطعام، ورزقنيه من غير حول[٢] مني ولا قوة»، غُفر له ما تقدم من ذنبه، ومن لبس ثوبا فقال: «الحمد للّه الذي كساني هذا، ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة» غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[٣]. وقال ﷺ: إذا استيقظ أحدكم فَلْيقل: «الحمد للّه الذي ردَّ عليَّ روحي وعافاني في جسدي، وأذن[٤] لي بذكره»[٥].

ويقول الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«نقول: لا حيلة لأحد، ولا تحوّل لأحد، ولا حركة لأحد عن معصية اللّهِ، إلا بمعونة اللّه، ولا قوة لأحد على إقامة طاعة اللّه والثبات عليها إلا بتوفيق الله، وكل شيء يجري بمشيئة اللّه وعلمه وقضائه وقدره»[٦].

وكان الرسول ﷺ والصحابة في غزوة الخندق «الأحزاب» يرددون الأهازيج والأراجيز يقولون:

والله لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأُلى قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا[٧]

---

(١) متفق عليه في حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أي: حركة.
(٣) رواه أحمد والحاكم والترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن معاذ بن جبل وحسنه الألباني (الجامع ٦٠٨٦)
(٤) أذن: أي أعانني عليه، ووفقني في إجرائه على لساني.
(٥) رواه ابن السّني والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وحسنه الألباني (الجامع ٣٢٩).
(٦) شرح الطحاوي ٥٠٢ .
(٧) صحيح البخاري ٥/ ٤٧، والفتح ٧/ ٣٩٩ .

القضية السادسة والستون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«لا نقول كما قالت الجبرية: «ليس للإنسان فعل، وإن الإنسان مجبور على عمله، ولا خيار له». ولا نقول كما قالت القدرية: «أن كل إنسان يخلق فعله ويختار عمله، وإن اختيار اللَّه له تابع لاختيار الإنسان».

قوله: «لا نقول كما قالت الجبرية، ليس للإنسان فعل وأن الإنسان مجبور على عمله ولا خيار له».

الشرح: الجبر في اللغة يرجع إلى ثلاثة أصول:

الأول: أن يُغنى الرجل من فقر، أو يجبر عظمه من كسر، وهذا في الاصطلاح[(١)] وقال ابن الأثير في النهاية: «وفي الحديث الدعاء: «واجبُرني واهدني»[(٢)] أي اغنني، من جَبَر اللَّه مصيبته: «أي ردّ عليه ما ذهب منه وعوّضه. وأصله من جبر الكسر»[(٣)].

الثاني: الإكراه والقهر، وأكثر ما يُستعمل هذا على وزن (أفعل)، يقال: أجبرته على كذا، إذا أكرهته عليه، ولا يكاد يجيء جبرته عليه إلا قليلا [(٤)]وقال القيتبي: «يقال: جبرت، وأجبرت: بمعنى قهرت» ومنه حديث خسف جيش البيداء «فيهم المستبصر، والمجبور، وابن السبيل» وهذا من جبرت لا مِن أجبرت[(٥)].

الثالث: من العز والامتناع: ومنه نخلة جبارة، قال الجوهري: والجبار من النخل ما

---

(١) شفاء العليل ١٢٠ .

(٢) بداية الحديث عن أبي أيوب ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «اللّهم اغفر لي ذنوبي وخطاياي كلها، اللّهم أنعشني واجبرني، واهدني لصالح الأعمال والأخلاق، فإنه لا يهدي لصالحها ولا يصرف سيئها إلا أنت» رواه ابن السِّني والطبراني في الصغير والأوسط والحاكم وحسنه الألباني «الجامع ١٢٦٦».

(٣) النهاية لابن الأثير ١/٢٣٦ .

(٤) شفاء العليل ١٢٠ .

(٥) النهاية لابن الأثير ١/٢٣٦ .

طال، وفات اليد. وقال الأخفش في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢]، قال أراد الطول والقوة والعِظم(١).

فزعمت الجبرية ورئيسهم «الجهم بن صفوان السمرقندي»(٢): أن التدبير أفعال الخلق كلها للّه تعالى، وهي كلها اضطرارية كحركات المرتعش، والعروق النابضة، وحركات الأشجار(٣) وقال الإمام أحمد عنه: «وكذلك «الجهم» وشِيعتُه دعوا الناس إلى المتشابه من القرآن والحديث، فضلّوا، وأضلّوا بكلامهم بشراً كثيرا».

أهم مقالات الجبرية «الجهمية»

١- مذهبهم في التوحيد: هو إنكار جميع الأسماء، والصفات للّه عزَّ وجلَّ، ويجعلون أسماء اللّه من باب المجاز.

٢- القول بالجبر، والإرجاء.

٣- إنكار كثير من أمور اليوم الآخر مثل:

«الصراط - الميزان - رؤية اللّه تعالى - عذاب القبر».

٤- القول بفناء الجنة والنار.

٥ - أن الإيمان هو المعرفة.

---

(١) شفاء العليل ١٢٠ والنهاية لابن الأثير ١/ ٢٣٥ .

(٢) الجهم بن صفوان السمرقندي، قال الإمام الذهبي جهم بن صفوان أبو محرز السمرقندي، الضال المبتدع، رأس الجهمية (الميزان ١/ ٤٢٦)، قال أبو حنيفة: أفرط (جهم) في نفي التشبه، حتى قال: إنه تعالى ليس بشيء «الميزان ٤/ ١٧٣» والتقي بطائفة السمنية، وهم قوم ينفون العقل، ويقولون بقدم المادة ولا يعتقدون إلا بما هو حسي ثم انضم (جهم) إلى جيش (الحارث بن سريج) فقام هذا بثورة انتهت بالفشل فألقى (سلم بن أحوز) القبض على (جهم) وقتله سنة (١٢٨ هـ) (نشأة الفكر ٤٩٣ وتاريخ الفرق ٢٢).
وكان الجهم بن صفوان قد التقى بالجعد بن درهم وأخذ عنه آراءه.

(٣) شرح الطحاوية ٤٩٣ .



٦ - نفي استواء اللَّه على عرشه.

٧ - إثبات أن اللَّه قريب بذاته، وأن اللَّه مع كل واحد بذاته عزَّ وجلَّ، وهذا هو المذهب الذي بنى عليه أهل الاتحاد والحلول أفكارهم(١).

ومنشأ ضلال الجبرية أنهم أثبتوا فعل الرب ونفوا فعل العبد، وذلك من خلال أخذهم لبعض الآيات وتركهم البعض الآخر.

وأهل السّنة يقولون: أن للعبد فعلًا وعملًا كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧]. وقال تعالى عن المجازاة يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال رسول اللَّه ﷺ: فيما يرويه عن ربه عزَّ وجلَّ أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي» الحديث.. إلى أن قال: «... يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها..»(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعموم قدرته تدلّ بأنه — هو خالق الأفعال للحيوانِ
هي خلقه حقا وأفعال لهم — حقا ولا يتناقض الأمرانِ
لكن أهل الجبر والتكذيب — بالأقدار ما انفتحت لهم عينانِ
نظروا بعيني أعور إذ فاتهم — نظر البصير وغارت العينانِ(٣)

---

(١) فرق معاصرة لغالب بن علي عواجي ٢/ ٨٠٠ انظر مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ١/ ٢٣٨.

(٢) رواه احمد و مسلم والترمذي وابن ماجة من حديث أبي ذر.

(٣) الكواشف الجلية ٦٤٠.

وقال ابن عدوان:

ولـلـعـبـد يـاذا قـدرة وإرادة على العمل إفهم فهم غير مُبلّدِ
فـيـفـعـل يـاذا بـاخـتـيـار وقـدرة وليس بمجبور ولا بمضهدِ[١]

قوله: «ولا نقول كما قالت القدرية: أن كل إنسان يخلق فعله، ويختار عمله، وأن اختيار اللّه له تابع لاختيار الإنسان».

ش: إن القدرية كفكرة، كان لها جذور في عصر النبوة فعن أبي الأسود الدؤلي رضي الله عنه قال: قال لي عمران بن حصين رضي الله عنه: «أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قُضي عليهم، ومضى عليهم من قدر قد سبق؟

أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم»؟

فقلت: «بل شيء قُضي عليهم ومضى عليهم». قال: «أفلا يكونُ ظلما»؟

فقال: «ففزعتُ من ذلك فزعا شديدا!» وقلت: «كل شيء خَلْقُ اللّه، ومُلك يده، فلا يُسأل عما يفعل، وهم يُسألون».

فقال لي: «يرحمك اللّه، إني لم أرد بما سألتك إلا لأحرز[٢] عقلك».

وإن رجلين من «مُزينة»[٣] أتيا رسول اللّه ﷺ فقالا: «يا رسول اللّه! أرأيت ما يعمل الناس اليوم، ويكدحون فيه، أشيء قُضيَّ عليهم، ومضى عليهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟»

فقال: «لا، بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم» وتصديق ذلك في كتاب اللّه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨][٤].

---

(١) المصدر السابق.
(٢) أي لاختبر.
(٣) اسم قبيلة.
(٤) رواه البخاري ومسلم وأبو داود واللفظ لمسلم.

القدرية كفرقة

إن أول من تكلم بالقدر «معبد الجُهني»[١] .

وقيل بل هو الزاهد القدري كبير المعتزلة وأولهم: أبو عثمان «عمرو بن عبيد»[٢].

وقال أبن عُليَّة: أول من تكلم في الاعتزال «واصل بن عطاء الغزّال» فدخل معه عمرو بن عبيد. فأُعجب به وزوَّجه أخته، وتأثر به، فجمعت المعتزلة بين التعطيل والقدر.

ومن الأوائل الذين قالوا بالقدر: «غيلان الدمشقي» الذي استمر داعيا في الشام وناقشه «عمر بن عبد العزيز» وأظهر توبته، ثم عاد فقتله هشام، وصلبه بعد أن قطع يديه ورجليه. وكان يقول: «إن القدر خيره وشره من العبد»[٣].

بين الجبرية والقدرية:

إن كل دليل صحيح يقيمه الجبري، فإنما يدل على أن اللّه خالق كل شيء، وأنه على كل شيء قدير، وأن أفعال العباد من جملة مخلوقاته، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يدل على أن العبد ليس بفاعل في الحقيقة ولا مريد، ولا مختار، وأن حركاته الاختيارية بمنزلة حركة المرتعش وهبوب الرياح، وحركات الأشجار.

كل دليل صحيح يقيمه القدري فإنما يدل على أن العبد فاعل لفعله حقيقة، وأنه مريد له، مختار له حقيقة، وأن إضافته ونسبته إليه إضافة حق، ولا يدل على أنه غير مقدور للّه، وأنه واقع بغير مشيئته وقدرته.

---

(١) قاله الذهبي، انظر ميزان الاعتدال ٤/ ١٤١ . وقد قتله الحجاج صبراً لخروجه مع ابن الأشعث.
(٢) توفي ١٤٤هـ.
(٣) انظر سير أعلام النبلاء ٦/ ١٠٤ للذهبي، وكذلك ميزان الاعتدال ٤/ ١٤١، الملل والنحل ١/ ١٩١ .



فإذا ضممتَ ما مع كل طائفة منهما من الحق إلى حق الأخرى، فإنما يدل ذلك على ما دلّ عليه القرآن وسائر كتب اللّه المنزلة من عموم قدرة اللّه ومشيئته لجميع ما في الكون من الأعيان والأفعال، وأن العباد فاعلون لأفعالهم حقيقة، وأنهم يستوجبون عليها المدح والذم[(١)].

قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

مواقف قدرية:

١- روى عمرو بن الهيثم قال: خرجنا في سفينة، وصحبنا فيها قدري ومجوسي، فقال القدري للمجوسي: «أسلم»! قال المجوسي: «حتى يريد اللّه»، فقال القدري: «إن اللّه يريد ولكن الشيطان لا يريد» ! قال المجوسي: «أراد اللّه، وأراد الشيطان فكان ما أراد الشيطان، هذا شيطان قوي» !! وفي رواية أنه قال: «فأنا مع أقواهما»!!.

٢- ووقف أعرابي على حلقة عمرو بن عُبيد[(٢)] فقال: «يا هؤلاء ! إن ناقتي سُرِقت فادعوا اللّه أن يردها عليّ»، فقال عمرو بن عُبيد: «اللّهم إنك لم تُرد أن تُسرق ناقته فسُرِقت، فارددها عليه» !

فقال الأعرابي: «لا حاجة لي في دعائك!» قال: «ولـمَ»، قال: «أخاف كما أراد أن لا تُسرق فسُرِقت - أن يريد ردها، فلا تُرَد !!»[(٣)].

---

(١) شرح الطحاوية ٤٣٦ .

(٢) أحد رؤوس القدرية.

(٣) انظر شرح الطحاوية ٢٧٨ .



منشأ ضلال هاتين الفرقتين نابع من أصلين:

الأول: عدم التفريق بين القضاء، والإرادة، والحكم، والكتابة، والأمر والإذن، والتحريم.

فالكوني: وهو المتعلق بربوبيته وخلقه.

وأما الديني: وهو المتعلق بأُلوهيته وشرعه وأمره، وهو كما أخبر عن نفسه سبحانه بأن له الخلق والأمر، فالخلق: قضاؤه، وقدره وفعله.

والأمر: شرعه ودينه، فهو الذي خلق، وشرّع، وأمر، وأحكامه جارية على خلقه قدرا، وشرعا ولا خروج لأحد عن حكمه الكوني القدري.

وأما حكمه الديني الشرعي فيعصيه الفجار والفساق، والأمران غير متلازمين فقد يقضي ويقدِّر ما لا يأمر به، ولا شرعه، وقد يشرع ويأمر بما لا يقضيه ولا يقدره، ويجتمع الأمران «القضاء والشرع» فيما وقع من طاعات عباده وإيمانهم وينتفي الأمران «القضاء والشرع» عما لم يقع من المعاصي، والفسق، والكفر وينفرد القضاء الديني، والحكم الشرعي في ما أمر به وشرعه ولم يفعله المأمور وينفرد الحكم الكوني فيما وقع من المعاصي، فإذا عُرِف هذا:

١- فالقضاء في كتاب اللّه نوعان:

كوني: كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ [سبأ: ١٤]. بالنسبة لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقوله: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: ٦٩].

شرعي: كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

أي أَمَر وشرع، ولو كان قضاء كونيا لما عُبد غيرُ اللّهِ.

٢- الحُكم:

الكوني: كقوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢]. أي افعل ما تنصر به عبادك، وتخذل أعداءك.



وشرعي: كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

٣- الإرادة:

فالكونية: كقوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦] وقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ [الإسراء: ١٦]، وقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥].

والشرعية: كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ النساء: ٢٧]، فلو كانت هذه الإرادة كونية لم حصل العسر لأحد منا، ولوقعت التوبة من جميع المكلفين.

٤- الكتابة:

فالكونية: كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

والشرعية: كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥].

فالأولى: كتابة بمعنى القدر، والثانية: كتابة بمعنى أمر.

٥- الأمر:

فالكوني: كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] وقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦].

فهذا أمر تقدير كوني، لا أمر ديني شرعي، فإن اللّه لا يأمر بالفحشاء، والمعنى قضينا ذلك وقدّرناه.

والشرعي كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

٦- **الإذن:**

الكوني: كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي بمشيئته وقدره.

والشرعي الديني: كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

٧- **التحريم:**

الكوني: كقوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢] وقوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [المائدة: ٢٦].

والشرعي الديني: كقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]. ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣] ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة: ٩٦].

الثاني: التسوية بين المشيئة والإرادة، وبين المحبة والرضى، فسوى بينهما الجبْرية والقدرية ثم اختلفوا:

فقالت الجَبْرية: الكون كله بقضائه وقدره، فيكون محبوبا مرضيا.

وقالت القدرية (النفاة): ليست المعاصي محبوبة للّه ولا مرضية له، فليست مقدرة ولا مقضية فهي خارجة عن مشيئته وخلقه.

وكلا الفريقين في ضلال، فالجبرية وصفت اللّه بالظلم، والقدرية وصفت اللّه بالعجز (والعياذ باللّه).

والصحيح أن كل ما يقع في الكون، يقع وفْقَ مشيئته وإرادته الكونية القدرية، ولا يلزم أن يكون محبوبا للّه مرضيا عنه، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالى عقيب ما نهى عنه من الشرك والظلم والفواحش والكبر: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾.



وقال ﷺ: «إن اللّه كرِه لكم ثلاثا: قيل، وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»[١] وقال ﷺ «إن اللّه يحب أن يؤخذ برخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته»[٢] وكان من دعائه ﷺ: «اللّهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك».

فتأمل: ذَكَر استعاذته بصفة الرِضى من صفة السّخط، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة، فالأول صفة، والثاني أثرها المترتب عليها ثم ربط ذلك كله بذاته سبحانه، وأن ذلك كله راجع إليه وحده لا إلى غيره، فما أعوّذ منه دافع بمشيئتك وإرادتك[٣].

وإذا سأل سائل إذا كان اللّه لا يرضاها ولا يحبها ما الحكمة في وقوعها؟ والجواب:

١- أنها تُظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات، فقد خلق ذات جبريل التي هي من أشرف الذوات، وخلق الشيطان، وكذلك خلق الموت، وخلق الحياة، وخلق الحسن والقبيح.

٢- ظهور آثار أسمائه وصفاته القهرية مثل: القهار، والمنتقم، والخافض، والعدل، والشديد العقاب، ولو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء.

٣- ظهور آثار الأسماء المتضمنة لرحمته وعفوه ومغفرته وسِتره، فلولا خلق ما يكرهه من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطّلت هذه الحِكَم والفوائد.

٤- ومنها حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت، كعبودية الجهاد، والموالاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر، ومخالفة الهوى، وعبودية التوبة والاستغفار.

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه أحمد والبيهقي ي شعب الإيمان وابن حبان في صحيحه من حديث ابن عمر وصححه الألباني (الجامع ١٨٨٦).
(٣) شرح الطحاوية ٢٨٠ .



فإن قيل: فهل كان يمكن وجود تلك الحِكَم بدون هذه الأسباب؟

فهذا سؤال فاسد ! وهو فَرْضُ وجود الملزوم بدون لازمه، كفرض وجود الابن بدون الأب، والحركة بدون المتحرك والتوبة بدون تائب[١].

الأحاديث الذّامة للقدرية:

١- عن أبي محجن رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أخاف على أمتي من بعدي ثلاثا: حيف[٢] الأئمة، وإيمانا بالنجوم، وتكذيبا بالقدر»[٣].

٢- وعن أبي أُمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يقبل اللَّه منهم يوم القيامة صَرْفا ولا عدلا[٤]: عَاقٌ[٥] ومنان[٦] ومكذب بالقدر»[٧].

٣- عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالقدر»[٨].

٤- عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «القدرية[٩] مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم[١٠]، وإن ماتوا فلا تشهدوهم »[١١][١٢].

٥- وعن ابن عمر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون في أمتي مسخ

(١) الشريعة للإمام ابن بكر محمد بن الحسين الآجري ١٤١
(٢) ظلمها وجورها.
(٣) رواه ابن عساكر وابن عبد البر في الجامع صححه الألباني (الجامع ٢١٤ والصحيحة ١١٢٧).
(٤) لا فرضا ولا نفلا.
(٥) مؤذ لوالديه بفعله أو قوله.
(٦) الذي يفتخر بما يُعطي.
(٧) رواه الطبراني في الكبير وابن أبي عاصم وابن عساكر وحسّنه الألباني (الجامع ٣٠٦٥).
(٨) رواه أحمد والحاكم وصححه الألباني (الجامع ٣٦٦٩).
(٩) المكذبون بالقدر.
(١٠) تزوروهم.
(١١) أي عدم شهود جنازتهم.
(١٢) رواه أبو داود والحاكم وحسنه الألباني (الجامع ٤٤٤٢)

وخسف وهو في الزنديقية والقدرية»[١].

نصيحة:

اعلموا - بارك اللّٰه فيكم - أنه لا يحسن بالمسلمين التنقير والبحث عن القَدْر لأن القدر سِر من أسرار اللّٰه عزَّ وجلَّ.

بل يجب الإيمان بما جرت به المقادير من خير وشر لأنه من أركان الإيمان.

فالعبد لا يأمن أن يبحث عن القدر فَيُكَذِّب بمقادير اللّٰه الجارية على العباد، فيضل عن طريق الحق.

(١) رواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجة وابن بطة في الإنابة والحاكم في المستدرك وحَسّنه الألباني. المشكاة ١/ ٣٨ .



سابعا: الأمة الإسلامية

القضية السابعة والستون: قال المُصَنِّف حفظه اللّه:

«يؤمن أهل السنة والجماعة أن الرسل والأنبياء جميعا وأتباعَهم أمة واحدة هي «أمة الإيمان» امتثالا لقوله تعالى ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

قوله: «الأمة»

الشرح: استعمل القرآن لفظ الأمة أربع استعمالات:

الأول: المدة من الزمن: قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: ٨](١). وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]، أي تذكر بعد مدة(٢).

الثاني: الرجل المقتدى به، والجامع لخصال الخير. قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠](٣).

الثالث: الشريعة والطريقة، والمذهب، والملة: قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢]. والمعنى: وأن هذه شريعتكم شريعة واحدة، وهي توحيد اللّه على الوجه الأكمل من جميع الجهات، وامتثال أمره واجتناب نهيه بالإخلاص في ذلك؛ على حسب ما شرعه لخلقه(٤).

---

(١) المعجم الوجيز ٢٥، أضواء البيان ٣/ ١٣ .
(٢) أضواء البيان ٣/ ١٣ .
(٣) المعجم الوجيز ٢٥ وأضواء البيان ٣/ ١٤ .
(٤) المصدر السابق وأضواء البيان ٤/ ٦٨٩ .

وهذا المعنى هو المقصود في هذا الباب عندما نذكر كلمة الأمة.

الرابع: الجماعة من الناس الذين يكوّنون وحدة سياسية، وتجمع بينهم وحدة الوطن، واللغة، والتراث، والمشاعر، وهو الاستعمال الغالب، كقوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص:٢٣]، وقوله تعاليك ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ [يونس: ٤٧][(١)].

وقوله: «الإسلامية»:

ش: «أسلم» الإسلام في اللغة: أي انقاد، وكذلك «استسلم»، والإسلام (العام) إظهار الخضوع، والقَبول[(٢)]، وبهذا المعنى يكون جميع الرسل والأنبياء وأتباعهم داخلون في هذا الاسم وهو الطاعة والانقياد للَّه[(٣)]. قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٨٣]. الإسلام الخاص هو الاسم الذي يُطلق[(٤)] الآن على من يتبع الدين الذي نزّله اللَّه على محمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، قال ابن كثير: إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو أتباع الرسل فيما بعثهم اللَّه به في كل حين حتى ختموا بمحمد ﷺ الذي سدّ جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ[(٥)]. قال تعالى عن إبراهيم: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧] أي متحنفاً[(٦)] عن الشرك قاصراً إلى الإيمان[(٧)]. وقال تعالى في إبراهيم أيضاً: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة:

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المعجم الوجيز ٣١٩، النهاية لابن الأثير ٢/ ٣٩٥ - ٣٩٦.
(٣) المصدر السابق.
(٤) ويقصد به الإسلام الخاص.
(٥) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٧٢.
(٦) وهو المائل إلى الإسلام الثابت عليه (النهاية ١/ ٤٤٩).
(٧) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٩٥.

١٢٨]، وقال تعالى في وصية إبراهيم لبنيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وقول الحواريين لعيسى عليه السلام: ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وقول سحرة فرعون: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾. وقول نوح عليه السلام لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]، وقول موسى عليه السلام لقومه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وقول ملكة سبأ ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

فالإسلام هو الاستسلام لله وحده، ولفظ الإسلام، يتضمن الإسلام ويتضمن إخلاصه لله، وقد ذكر ذلك غير واحد، حتى أهل العربية كابن بكر ابن الأنباري وغيره، ومن المفسرين من يجعلهما قولين، كما يذكر طائفة منهم البغوي: «أن المسلم هو المستسلم لله، وقيل هو المخلص».

والتحقيق أن المسلم يجمع هذا وذاك، فمن لم يستسلم له، لم يكن مسلما، ومن استسلم لغيره كما يستسلم له لم يكن مسلما، ومن استسلم له وحده فهو المسلم، كما في القرآن: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٥].

والاستسلام له يتضمن الاستسلام لقضائه وأمره ونهيه، فيتناول فِعْلَ المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور(١).

(١) كتاب النبوات ٦٩ - ٧٠ للإمام شيخ الإسلام ابن تيمية - مكتبة الرياض الحديثة.

وبهذا يكون معنى الأمة الإسلامية «في الشريعة الإسلامية» هي المجموعة من الناس التي تجتمع بعقيدة واحدة واستسلمت للَّه قلبا وقَالَبا مهما ابتعدت بهم الأوطان واختلفت بينهم الألسنة والتراث، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ الحجرات: ١٠].

قوله: «ويؤمن أهل السنة. . .»

ش: قال السفاريني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **وأهل السنة:** هم الصحابة الكرام رضوان اللَّه عليهم، وأعيان التابعين لهم بإحسان، وأتباعهم، وأئمة الدين ممن شُهد له بالإمامة، وعُرِف عظيم شأنه في الدين، وتلقي الناس كلامَهم، خلف عن سلف، دون من رُمي ببدعة، أو اشتهر بلقب غير مرضي مثل الخوارج والروافض، والقدرية، والمرجئة، والجبرية، والجهمية، والمعتزلة، والكرامية، ونحو هؤلاء[(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن لفظ أهل السنة بأنه: «يراد به من أثبت خلافة الخلفاء الثلاثة فيدخل في ذلك جميع الطوائف إلا الرافضة، وقد يراد به أهل الحديث والسنة المحققة فلا يدخل فيه إلا من يثبت الصفات للَّه تعالى، ويقول: إن القرآن غير مخلوق، وأن اللَّه يُرى في الآخرة ويثبت القدر، وغير ذلك من الأمور المعروفة عند أهل الحديث»[(٢)].

وقال محمد بن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأهل السنة الذين نذكرهم، أهلُ الحق، ومن عداهم فأهل البدعة، فإنهم - أي أهل السنة - الصحابة رضي الله عنهم، وكل من سلك نهجهم من خيار التابعين رحمة اللَّه عليهم، ثم أصحاب الحديث ومن اتبعهم من الفقهاء جيلا فجيلا إلى يومنا هذا، ومن اقتدى بهم من العوام في شرق الأرض وغربها رحمة اللَّه عليهم»[(٣)].

وقال محمد صديق حسن خان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أهل السنة والجماعة هم المحدِّثون

---

(١) لوامع الأنوار البهية للسفاريني ١/ ٢٠ .
(٢) منهاج السنة ١/ ٢٠٤ .
(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢/ ١١٣ .

المتّبعون الموحّدون المقتدون بكتاب اللَّه العزيز، وسنة رسوله المطهرة»[١].

قوله: «والجماعة»

ش: اختلف الناس في معنى الجماعة المرادة على خمسة أقوال:

إحداها: أنها السواد الأعظم من أهل الإسلام، وهذا قول: أبو مسعود الأنصاري وابن مسعود، فعلى هذا القول يدخل في الجماعة مجتهدو الأُمة وعلماؤها وأهل الشريعة العاملون بها. فكل مَن خرج عن جماعتهم فهم الذين شذّوا، وهم نهبة الشيطان، ويدخل في هؤلاء جميع أهل البدع لأنهم مخالفون لمن تقدم من الأمة، لم يدخلوا في سوادهم بحال.

الثاني: أنها جماعة العلماء المجتهدين، فمن خرج مما عليه علماء الأمة مات ميتة جاهلية، لأن جماعةَ اللَّه العلماءُ، جعلهم اللَّه حجة على العالمين، وهم المعنيون بقوله عليه الصلاة والسلام: «إن اللَّه تعالى لا يجمع أمتي على ضلالة»[٢]، وذلك أن العامةَ عنها تأخذُ دينَها، وإليها تفزع في النوازل، وهي تبع لها. فمعنى قوله «لن تجتمع أمتي» لن يجتمع علماءُ أمتي على ضلالة، وممن قال بهذا: عبد اللَّه بن المبارك، واسحاق بن راهوية، وجماعة من السلف، وهو رأي الأصوليين، فعلى هذا القول لا مدخل في السؤال لمن ليس بعالم مجتهد، ولا يدخل أيضا أحد من المبتدعين.

الثالث: أن الجماعة هي الصحابة على الخصوص، فإنهم الذين أقاموا عماد الدين وأرسوا أوتاده، وممن قال بهذا القول: عمر بن عبد العزيز، فإنه كان يقول: سنّ رسول اللَّه ﷺ وولاةُ الأمر من بعده سُنناً، الآخذ بها تصديق لكتاب اللَّه، واستكمال الطاعة للَّه، وقوة على دين اللَّه، ليس لأحد تبديلها، ولا تغييرها ولا النظر فيما خالفها ! من اهتدى بها مهتد، ومن استنصر بها منصور، ومن خالفها

---

(١) المحصول في أصول الفقه - محمد صديق حسن خان.
(٢) وتكملة الحديث: (ويد اللَّه على الجماعة) رواه الترمذي عن ابن عمر، والطبراني والحاكم وصححه الألباني (الجامع ١٨٤٨).

اتبع غير سبيل المؤمنين، وولّاه «اللّه» ما تولى، وأصلاه جهنم، وساءت مصيرا. فقال مالك: «فأعجبني عَزْمُ عمر على ذلك».

الرابع: أن الجماعة هي جماعة أهل الإسلام، إذا أجمعوا على أمر فواجب على غيرهم من أهل المِلل اتّباعهم، وهم الذين ضمن اللّه لنبيه عليه الصلاة والسلام أن لا يجمعهم على ضلالة. قال الشافعي: الجماعة لا تكون فيها غفلة عن معنى كتاب اللّه، ولا سنة ولا قياس، وإنما تكون الغفلة في الفرقة. وكان هذا القول يرجع إلى الثاني وهو نقيض أيضا ما يقتضيه، أو يرجع إلى القول الأول، وهو الأظهر.

الخامس: أن الجماعة هي جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير، فأمر -عليه الصلاة والسلام- بلزومه، ونهى عن فراق الأمة فيما اجتمعوا عليه، من تقديمه عليهم، وهذا اختيار: الإمام الطبري وابن العربي ومن المتأخرين «المباركفوري» رحمهم الله.

وحاصلُه أن الجماعة راجعة إلى الاجتماع على الإمام الموافق للكتاب والسنة وذلك ظاهر في أن الاجتماع على غير السنة، خارج عن معنى الجماعة المذكورة في الأحاديث المذكورة، كالخوارج ومن جرى مجراهم(١).

فهذه خمسة أقوال دائرة على اعتبار أهل السنة والاتباع، وأنهم المرادون بالأحاديث(٢).

---

(١) كما حصل ذلك في عهد المأمون، والمعتصم، والواثق، حيث كانوا أئمة للمسلمين ولكن تبنوا قول المعتزلة وأرادوا حَمْل الناس عليه بالقوة فخالفهم الإمام أحمد «رَحِمَهُ اللَّهُ وأثابه» وفئة قليلة معه، وثبتوا على الحق والسنة مع عدم خروجهم على الأئمة. ثم نصر اللّه الإمام أحمد ومن معه، وأظهرهم على أعدائهم، وأظهر اللّه على يد الإمام أحمد سنّة نبيه ﷺ، ولُقّب منذ ذلك اليوم بإمام أهل السنة والجماعة «وجوب لزوم الجماعة لجمال شيرباوي ٩٥».

(٢) الاعتصام للإمام أبو اسحاق الشاطبي ٢/ ٢٥١ - ٢٦٥ باختصار.

(٣) راجع فقرة (٤١) رابعا: الإيمان برسل اللّه.

(٤) المقصود بالأمة هنا هي أمة الاستجابة لا أمة الدعوة فقط.



قوله: « . . . أن الرسل والأنبياء[(١)] جميعا وأتباعهم أمة[(٢)] واحدة هي «أمة الإيمان» امتثالا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

ش: قال البغوي في قوله «أمة واحدة»، أي ملة واحدة وهي الإسلام[(٣)] وقد أرسى الإسلام هذا الأصل في كثير من الآيات والأحاديث.

قال تعالى بعد أن قصّ علينا قصة رسله: محمد، وإبراهيم، ولوط، ونوح وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذا الكفل ويونس وزكريا، صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين، وختمها بقصة مريم: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]. ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ﴾، أي ملتكم ودينكم «أمة واحدة» أي دينا واحدا وهو الإسلام، فأبطل ما سوى الإسلام من الأديان. وأصل الأمة: الجماعة التي هي على مقصد واحد، فجعلت الشريعة أمة واحدة لاجتماع أهلها على مقصد واحد ونَصَب أمة على القطع[(٤)].

فهؤلاء الرسل والأنبياء واجب علينا محبتُهم جميعا وعدم التفريق بينهم، كما قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

فهذه هي العقيدة التي أمر اللّهُ الناسَ أن يؤمنوا بها تجاه الرسل، ولهذا عقّب بعد هذه الآية بقوله: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ١٣٧] يعني الكفار من أهل الكتاب وغيره﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧][(٥)].

* * *

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣١٠ .
(٢) المصدر السابق ٢٦٦ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٥٧ .

القضية الثامنة والستون: قال المُصَنِّف حفظه اللّه:

«نوالي كُلَ مؤمن من السابقين إلى آدم عليه السلام ومِن اللاحقين إلى مَن يقاتلون الدجال آخر الزمان، ونحبهم جميعا من عرفنا منهم ومَن لم نعرف، وندفع عن أعراضهم».

قوله: «نوالي كل مؤمن من السابقين إلى آدم عليه السلام»

الشرح: والولاء والبراء أصل من أصول الإسلام كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

الولاية في اللغة: «الوَلاية» بالفتح، من النسب والقرابة والنصرة والعتق[١] «الولي» النصير، والمحب، والصديق والمطيع، يقال: المؤمن ولي اللّه.

والجمع أولياء[٢]. و(الوِلاية) بالكسر، في الإمارة والولاء المُعتَق والموالاة من والى القوم[٣].

الولاية في الاصطلاح: الولاية هي النصرة، والمحبة، والإكرام والاحترام والكون مع المحبوبين ظاهرا وباطنا، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧][٤].

وقال ابن تيمية: الولاية: ضد العداوة، وأصل الولاية: المحبة والقرب، والولي: القريب. يقال: هذا يلي هذا، أي يقرب منه، ومنه قوله ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فهو لأول رجل ذكر»[٥][٦]، أي لأقرب رجل ذكر.

---

(١) النهاية لابن الأثير ٥/٢٢٨ .
(٢) المعجم الوجيز ٦٨٢ .
(٣) النهاية لابن الأثير ٥/٢٢٨ .
(٤) شرح الطحاوية ٤٣ وتيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ٤٢٢ .
(٥) متفق عليه .
(٦) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية.



وكما قال ﷺ: «ثلاث من كُنّ فيه، وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون اللّه ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا للّه، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه اللّه منه كما يكره أن يُقذف في النار»(١).

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن لوازم محبة اللّه: محبة أهل طاعته، كمحبة أنبيائه، ورسله، والصالحين من عباده. وتفريعها، أن يحب المرء لا يحبه إلا للّه»(٢).

ويدخل ضمن هذه الولاية كل مؤمن من السابقين أي قبلنا من السلف والخلف إلى آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أبو الأنبياء.

ورابطة الإيمان مقدمة على رابطة الدم، والنسب، والوطن واللغة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

فقد أمر اللّه تعالى في هذه الآية بمباينة الكفار به، وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم إن استحبوا أي: اختاروا الكفر على الإيمان، وتوعّد على ذلك، كقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجمعة: ٢-٣]. فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كنا جلوسا عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة: «وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم»، قالوا: «من هم يا رسول اللّه؟» فلم يُراجعهم حتى سئل ثلاثا، وفينا سلمان الفارسي، فوضع رسول اللّه ﷺ

---

(١) متفق عليه من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ٢٩٦.

يده على سلمان الفارسي، ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال - أو رجل - من هؤلاء»[١].

وبهذه الأخوة الإسلامية يرتبط أول العقد بآخره حتى أن رسول اللّه ﷺ ودّ لو أنه رأى إخوانه الذين يأتون بعده، كما روى أنس وأبو هريرة رضي الله عنهما عن رسول اللّه ﷺ قال: «وددت أني لقيت إخواني ؛ الذين آمنوا، لم يروني»[٢].

قوله: «ومن اللاحقين إلى من يقاتلون الدجال آخر الزمان»

ش: أي ونوالي كذلك كل مؤمن مَن عصرنا هذا، وخاصة من كان منهم من أهل العلم والدين والفضل والصلاح، ولساننا يلهج بدعاء النبي الصالح يوسف عليه السلام لربه: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] وأن يجعلنا اللّه من الطائفة المنصورة إلى أن يقاتل آخرهم الدجال، كما جاء من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق، ظاهرين على من ناوأهم، حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال»[٣].

وأن من معاني الحب والموالاة الدعاءَ لهم في حياتهم، وبعد موتهم، كما تدعو لنفسك، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: أن النبي ﷺ قال: «دعوة المرء المسلم لأخيه، بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه مَلَك موكّل كلما دعا لأخيه بخير قال المَلَك الموكل به: آمين، ولك بمثل»[٤]، وكان أبو داود رحمه الله يدعو لخلق كثير من إخوانه يُسمّيهم بأسمائهم.. وكان أحمد بن حنبل رحمه الله يدعو في السّحر لستة نفَر[٥].

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم.
(٢) رواه أحمد ومسلم ومالك والنسائي وابن ماجة.
(٣) رواه أحمد في مسنده وأبو داود والحاكم في المستدرك وصححه الألباني (صحيح الجامع ٧٢٩٤ والصحيحة ١٩٥٩).
(٤) رواه مسلم وأبو داود.
(٥) مختصر منهاج القاصدين للإمام أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي.

وقوله: «ونحبهم جميعاً من عرفنا منهم ومن لم نعرف وندفع عن أعراضهم».

ش: ونحبهم جميعا أي سواء كانوا من السابقين أو اللاحقين، لأن هذا أصل من أصول الإسلام والإيمان، قال رسول اللّه ﷺ: «أوثق عرى الإيمان الموالاة في اللّه، والمعاداة في اللّه، والحب في اللّه، والبغض في اللّه عزَّ وجلَّ»(١).

وكانت هذه هي وصية لأبي هريرة رضي الله عنه كما قال ﷺ: «يا أبا هريرة! كن ورعا تكن من أعبد الناس، وارض بما قسم اللّه لك تكن من أغنى الناس، وأَحبَّ للمسلمين المؤمنين ما تحبّ لنفسك وأهل بيتك»(٢).

ومن حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول اللّه ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسْلمه»، ومتى أهمل الذبّ عن عرضه يكون قد أسلمه، ولك في ذلك معياران:

أحدهما: أن تُقدِر أن الذي قيل فيه، قد قيل فيك وهو حاضر، فتقول ما تحب أن يقوله.

الثاني: أن تقدر أنه حاضر وراء جدار يتسمّع عليك، فما تحرّك في قلبك من نصرته في حضوره ينبغي أن يتحرك في غيبته، ومن لم يكن مخلصا في إخائه فهو منافق(٣).

وكذلك أن يصون عِرضَ أخيه المسلم، ونفسه، وماله، عن ظلم الغير، ويُناضل دونه وينصره(٤).

الترغيب في الردّ عن عِرض المُسلِم:

١- عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: قال رسول اللّه ﷺ:

«من ذبّ عن عِرض أخيه بالغيبة، كان حقا على اللّه أن يُعتقه من النار»(٥).

---

(١) رواه الطبراني في الكبير وأبو داود الطيالسي وأحمد والحاكم وصححه الألباني (الجامع ٢٥٣٩).
(٢) رواه ابن ماجة وحسّنه الألباني (الجامع ٧٨٣٣).
(٣) مختصر منهاج القاصدين ١٣٠ - ١٣١ للإمام أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي.
(٤) مختصر منهاج القاصدين ١٣٧ للإمام أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي.
(٥) رواه أحمد والطبراني في الكبير وصححه الألباني (الجامع ٦٢٤٠).

٢- عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من ردّ عن عِرض أخيه، ردّ اللّه عن وجهه النارَ يوم القيامة»[١].

٣- وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من ردّ عن عِرض أخيه، كان له حجابا من النار»[٢].

٤- عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من نَصر أخاه بظهر الغيب، نصره اللّه في الدنيا والآخرة»[٣].

الترهيب من ترك الذبّ عن عرض المسلم:

فعن جابر وأبي طلحة بن سهل رضي الله عنهما قالا: قال رسول اللّه ﷺ:

«ما من امرئ يخذل[٤]، امرءاً مسلما في موطن يُنتقص فيه من عرضه ويُنتهك فيه من حرمته، إلا خذله اللّه تعالى في موطن يُحبّ فيه نصرته، وما من أحد ينصُرُ مسلما في موطن يُنتقص فيه من عرضه، ويُنتهك فيه من حُرمته، إلا نصره اللّه في موطن يحبّ فيه نصرته»[٥].

* * *

---

(١) رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني (الجامع ٦٢٦٢).
(٢) رواه البيهقي في سننه، وصححه الألباني (الجامع ٦٢٦٣).
(٣) رواه البيهقي في سننه والضياء وحسّنه الألباني (الجامع ٦٥٧٤).
(٤) يتخلى عنه وعن نصره في موطن هو في حاجة إليه.
(٥) رواه أحمد وأبو داود والضياء والطبراني في الأوسط وحسّنه الألباني (الجامع ٥٦٩٠).

القضية التاسعة والستون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«نؤمن أن أتباع محمد ﷺ من أول مسلم إلى آخر مسلم في الأرض أمة واحدة «هي أمة الإسلام والإيمان» تجمعهم عقيدة واحدة، وتشريع واحد مهما اختلفت أجناسهم، وتعددت ديارهم وأوطانهم، نواليهم جميعا ونعتقد أن المؤمنين إخوة».

الشرح: ونعتقد أن كل من شهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدا رسول اللَّه ﷺ ورضي وانقاد واتبع محمداً ﷺ منذ القرن الأول وهم الصحابة ﵃ والذين قال اللَّه تعالى فيهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فقد أخبر اللَّه العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان(١).

وفي مقدمة هؤلاء الصحابة أبو بكر الصديق ﵁ إلى آخر مُسلم على هذه الأرض، فجميع هؤلاء ينتمون إلى أمة واحدة هي: الأمة الإسلامية.

تربطهم عقيدة واحدة وهي عقيدة التوحيد «لا إله إلا اللَّه»، ومعناها: لا معبود بحق إلا اللَّه، وأن محمدا رسول اللَّه ﷺ. ومعناها التصديق الجازم من صميم القلب المواطئ لقول اللسان بأن محمداً عبده ورسوله إلى كافة الناس إنسهم وجنهم.

وأن العبد لا يدخل في الدين إلا بهاتين الشهادتين، وإنهما متلازمتان(٢).

وكذلك يجمعهم تشريع واحد، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٠٥ .

(٢) أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة ٤١- ٤٣ .



وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨].

قوله: «مهما اختلفت أجناسهم وتعددت ديارهم..»

ش: كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].
وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

لهذا وجدنا في هذه الأمة الإسلامية أبا بكر الصديق، وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، رضوان اللّه عليهم أجمعين، وهم من أشراف قريش، وكذلك وجدنا صهيب الرومي، ووجدنا بلال الحبشي، وكذلك النجاشي ملك الحبشة الذي عندما تُوفي نعاه الرسول اللّه ﷺ وقال: «استغفروا لأخيكم، وصفَّ بهم بالمصلّى فكبّر عليه أربعاً» [١].

وكذلك سلمان الفارسي رضي الله عنه، الذي قال فيه رسول اللّه ﷺ لما أُنزلت عليه سورة الجمعة ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ قالوا: «من هم يا رسول اللّه؟» فوضع يده على سلمان ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لنا له رجال أو رجل من هؤلاء»[٢].

ثم وجدنا بعد ذلك الإمام البخاري «محمد بن اسماعيل بن إبراهيم البخاري»[٣].

والإمام: أبو داود «سليمان بن الأشعث السجستاني»[٤].

والإمام الترمذي «محمد بن عيسى بن سودة الترمذي»[٥].

وغيرهم كثير جمعهم هذا الدين الإسلامي.

---

(١) رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) البخاري.
(٣) البخاري: نسبة إلى بخارة وهي جمهورية أوزبكستان والتي كانت إحدى جمهوريات الاتحاد السوفييتي المنحل في آسيا الوسطى.
(٤) السجستاني: نسبة إلى سجستان.
(٥) الترمذي: نسبة إلى ترمذ مدينة في إيران.

القضية السبعون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«نوالي[١] أهل أمتنا الإسلامية بالحب والنصرة، ولا نعين عليهم كافرا، ولا عدوا».

الشرح: وموالاة أهل السنة من أمتنا بالحب والنصرة يعتبر أحدَ أصول الإسلام والإيمان، وكيف لا يكون بينهم الحب والنصرة وهم إخوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، أي الجميع إخوة في الدين، وعندما نقول الإخوة فلا نعني الإخوة شعارا فقط، فنرفعه دون واقع يُطبّق، بل هو واقع ملموس.

قال رسول اللَّه ﷺ: «يا معشر المهاجرين والأنصار! إن من إخوانكم قوما ليس لهم مال ولا عشيرة، فليضمَّ أحدُكم إليه الرجلين أو الثلاثة»[٢].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يخونه، ولا يكذبه، ولا يخذله، كل المسلم على المسلم حرام، عِرضه، وماله، ودمه، التقوى ها هنا - وأشار إلى القلب - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»[٣].

وهذا عام في جميع هذه الأمة أيّاً كان لونه، وجنسه، وقوميته، وموطنه، فما دام داخل تحت مسمى الإسلام، أصبح من حقه الحب والنصرة.

فالحُب: كما قال ﷺ: «أوثق عُرى الإيمان: الموالاة في اللَّه، والمعاداة في اللَّه، والحب في اللَّه، والبغض في اللَّه عزَّ وجلَّ»[٤].

بل إن الرسول ﷺ نفى الإيمان عمَّن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه، كما قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبُّ لنفسه»[٥]، وجعله كذلك أحد شروط

---

(١) سبق شرح معنى الولاية في الفقرة ٦٨ .
(٢) رواه أبو داودوالحاكم من حديث جابر رضي الله عنه صححه الألباني (صحيح الجامع ٧٩٧٩).
(٣) رواه مسلم والترمذي من حديث أبي هريرة.
(٤) رواه الطبراني في الكبير من حديث ابن عباس وأبو داود الطيالسي في مسنده من حديث ابن مسعود وأحمد عن البراء وصححه الألباني صحيح الجامع ٢٥٣٩.
(٥) متفق عليه من حديث أنس.

الإيمان الموجبة لدخول الجنان. قال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا(١) السلام بينكم»(٢).

واللَّه تعالى جعله من موجبات محبة الربّ، كما قال ﷺ: «قال اللَّه تعالى: «وجبت محبتي للمتحابّين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتباذلين فيّ، والمتزاورين فيّ»(٣). فنسأله سبحانه أن يحشرنا مع الذين قال اللَّه فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٩].

والنُّصرة: وقد امتدح اللَّه الأنصار رضوان اللَّه عليهم في نصرتهم لإخوانهم المهاجرين قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٧٤].

وثبت عنه ﷺ أنه قال: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما»(٤).

وقد بين ﷺ كيف نصرةُ الأخ إن كان ظالما بقوله: «ولْينصرِ الرَّجلُ أخاه ظالما، ومظلوما، إن كان ظالما فلْينهه، فإنه له نصرٌ، وإن كان مظلوما فلينصرْه»(٥).

ولقد كان التحام المسلمين ونصرة كل منهم لأخيه مثالا فريدا في تاريخ التلاحم والتواصل والتناصر، سواء على مستوى الأمة أو الأفراد. حيث حققوا الموالاة والمعاداة على أوضح صورهما.

ولن ينتصر المسلمون إلا إذا تحقق فيهم - بعد صفاء العقيدة ووضوحها - حب المسلم لأخيه كحبه لنفسه، وشعوره بآلام أخيه كشعوره بما يصيبه هو، وحب نصرته كما يحب أن ينصره هو، واللَّه ينصر من ينصره إن اللَّه لقوي عزيز.

(١) انشروه.
(٢) رواه أحمد ومسلم وأبو داود من حديث أبي هريرة.
(٣) رواه أحمد والطبراني والحاكم من حديث معاذ بن جبل وصححه الألباني (صحيح الجامع ٤٣٣١).
(٤) رواه البخاري وأحمد وفيه «قيل: كيف انصره ظالما؟ قال: تحجزه عن الظلم، فإن ذلك نصره».
(٥) رواه مسلم.



وتتحقق النصرة بعدة أمور منها: الدفاع بالنفس عن الأخ المسلم، وكسر شوكة الظالمين، وبذل المال له لإعزاز وتقوية جانبه، والذَّب عن عرضه وسمعته والردّ على أهل الباطل الذين يريدون خدش كرامة المسلمين(١)، وكذلك بالدعاء له.

وقوله: «ولا نُعين عليهم كافراً ولا عدواً»

ش: أما لا نُعين عليهم كافرا فواضح ظاهر، وكذلك عَدواً إن كان العدو كافرا أما إذا كان مسلما فيُبدأ أولا بالإصلاح بينهما، فإن أراد هذا العدو (المسلم) البغي على المسلم الآخر فهنا يجب نصرة الأخ المسلم على هذا الباغي وإن كان مسلما. لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] أي فعلى غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير بالإصلاح بينهم والتوسط على أكمل وجه يقع به الصلح(٢).

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أي تَعدّت بعد المصالحة بأن رفضت ذلك ولم ترَ بحكم اللَّه(٣) ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾أي قاتلوا أيها المؤمنون مجتمعين الطائفة التي بغت حتى ترجع إلى الحق.

وهو ما حدَّده اللَّه ورسوله من فعل الخير، وترك الشر الذي أعظمه الاقتتال(٤): ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ [الحجرات ٩]. هذا أمر بالصلح وبالعدل في الصلح، فإن الصلح قد يوجد، ولكن لا يكون بالعدل بل بالظلم، والحيف على أحد الخصمين، فهذا ليس هو الصلح المأمور به، فيجب أن لا يراعى أحدهما لقرابة أو وطن أو غير ذلك من المقاصد والأغراض التي توجب العدول عن العدل(٥).

* * *

---

(١) الولاء والبراء في الإسلام لمحمد بن سعيد القحطاني ٢٦٩ .
(٢) تيسير الكريم الرحمن ٨/ ٨ .
(٣) أيسر التفاسير للشيخ أبو بكر الجزائري ٥/ ١٢٧ .
(٤) تيسير الكريم الرحمن ٨/ ٩، أيسر التفاسير ٥/ ١٢٧ .
(٥) تيسير الكريم الرحمن ٨/ ٩ .

القضية الحادية والسبعون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه

«وكل ما يُفرِّق وحدة الأمة الإسلامية. من عصبيات لجنس أو وطن، أو شيعة خاصة، أو مذهب خاص، أو جماعة خاصة نحاربه ونبغضه».

قوله: «وكل ما يُفرِّق وحدة الأمة الإسلامية»

الشرح: لا شك أن من مقاصد الدين الإسلامي الوحدة والائتلاف والنهي عن التفرق والاختلاف(١).

فقد أمرنا اللَّه بالاعتصام، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]. قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة، وقد ضمن اللَّه لهم العصمة عن اتفاقهم من الخطأ»(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن اللَّه يرضى لكم ثلاثا، ويسخط لكم ثلاثا، يرضى لكم أن تعبدوه لا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل اللَّه جميعا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولّاه اللَّهُ أمرَكم، ويسخط لكم ثلاثا: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»(٣).

النهي عن التّفرّق:

وكما أمرهم اللَّه بالاعتصام فقد نهاهم عن التفرقة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]. فاللَّه تبارك وتعالى ينهى هذه الأمة أن يكونوا كالأمم الماضين في افتراقهم واختلافهم(٤)، وأمرنا اللَّه تعالى باتباع صراطه المستقيم، ونهانا عن اتباع السبل،

---

(١) وسيأتي بحث الاختلاف في الفقرة ١٥٧ - ١٥٨ إن شاء اللَّه تعالى.
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٥١٦ - ٥١٧ .
(٣) رواه مسلم.
(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ٥١١ .

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قال ابن عباس رضي الله عنه: «أمر اللّه المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين اللّه».
وعن عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه قال: «خطَّ رسول اللّه ﷺ خطاً بيده، ثم قال: «هذا سبيل اللّه مستقيما» وخطَّ عن يمينه وشماله، ثم قال: «هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣][(١)]، وإنما وحّده سبيله لأن الحق واحد، وجمع السُّبل لتفرقها وتشعبها.

الائتلاف ونبذ الاختلاف وصية اللّه لجميع الرسل:

قال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

فَوَصّى اللّهُ تعالى جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالائتلاف والجماعة ونهاهم عن الافتراق والاختلاف[(٢)].

قوله: «.. من عصبيات لجنس أو وطن»

ش: كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. يقول تعالى مخبرا الناسَ أنه خلقهم من نفس واحدة. فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء عليهما السلام سواء.

(١) رواه أحمد والحاكم وصحح إسناده والنسائي وصححه الألباني في ظلال الجنة ١/ ٨ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٣٩ .

وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية وهي طاعة اللّه تعالى، ومتابعة رسوله ﷺ.

ولهذا عندما سُئل رسول اللّه ﷺ أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند اللّه أتقاهم» قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرمُ الناسِ يوسفُ نبي اللّه، ابن نبي اللّه، ابن نبي اللّه ابن خليل اللّه» قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألوني»؟ قالوا: نعم، قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»[1].

وحتى لو كان هذا التعصّب لأفضل الأسماء، فإذا كان هذا الانتماء لهذه الأسماء يدعو إلى الفرقة، كما جاء من حديث جابر بن عبد اللّه رضي الله عنهما قال: «كنّا في غزاة، فكَسَعَ[2] رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال: دعوها فإنها منتنة..»[3] الحديث. والذي ذمَّه الرسول ﷺ ليس الاسمين المذكورين «المهاجرين والأنصار»، بل الذي ذمه هو أن يكون النداء لهذين الاسمين على ما كانوا ينادونه في الجاهلية من نصرَه من يكون من القبيلة مطلقا.

ولهذا قال رسول اللّه ﷺ دعوها فإنها منتنة، أي دعوة الجاهلية.

ومن الأمور التي تُفرِّق وحدة الأمة الإسلامية هو التعصب المذهبي المقيت والذي تتولد منه نتائج ضارة وخبيثة كثيرة كتفريق جماعة المسلمين إلى مذاهب وشيع وفِرق وطوائف، حتى أنهم نصّوا في كثير من كتبهم على بطلان الصلاة وراء المخالف في المذهب، أو كراهتها على الأقل، وسنورد بعض الأمثلة:

١- قال ابن الهمّام: «قال أبو اليسر: اقتداء الحنفي بشافعي غير جائز، لما روى مكحول النسفي في كتاب له، سماه الشعاع، أن رفع اليدين في الصلاة عند الركوع

---

(١) رواه البخاري .

(٢) كسع: هو ضرب الدبر باليد أو الرِجل. وهو الذي جاء به من وجه آخر عند الطبري من وجه آخر عن عمرو ابن دينار عن جابر: «أن رجلا من المهاجرين كسع رجلا من الأنصار برجله (فتح الباري ٨/ ٦٤٩) ».

(٣) رواه البخاري برقم ٤٩٠٥ وقوله (يا للأنصار) بفتح اللام وهي للاستغاثة أي أغيثوني، وكذا قول الآخر ياللمهاجرين.



والرفع منه مُفسِد، بناء على أنه عمل كثير. . .»[١] .

٢- وقالوا عن ماء البئر النجس الذي وقع فيه حيوان مات وانتفخ، قال: «فإن عُجِن بمائها يُلقى للكلاب، أو يُعلف به المواشي، وقال بعضهم: يُباع لشافعي!!»[٢]، فقد سوى هذا الفقيه بين الكلاب والشافعية، والعياذ باللّه فتأمل!

٣- وبمثله قال الشوافع، قال النووي: «. . فإذا توضأ حنفي واقتدى به شافعي، والحنفي لا يعتقد وجوب نية الوضوء، الشافعي يعتقدها، فثلاثة أوجه: أحدها: وهو قول الأستاذ أبي إسحاق الاسفرائيني: لا يصح اقتداؤه، نوى أو لم ينو، لأنه وإن نوى فلا يراها واجبة فهي كالمعدومة، فلا تصح طهارته»[٣] .

وقد وصل الخلاف والخصام بين مقلدة المذاهب المتعصبين إلى درجة خطيرة، عادى بعضهم بعضا، كما قال ياقوت الحموي عند الكلام عن مدينة أصفهان، بعد ذكر مجدها القديم: «وقد فشا فيها الخراب في نواحيها، لكثرة الفتن والتعصب بين الشافعية والحنفية، والحروب المتصلة بين الحزبين، فكلما ظهرت طائفة نهبت محلة الأخرى، وأحرقتها وخربتها لا يأخذهم في ذلك إلّا ولا ذمة. .»[٤] .

وكذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله: «أن عزيز مصر وهو الملك الأفضل ابن صلاح الدين، كان قد عزم في السنة التي توفى فيها، وهي سنة ٥٩٥ هـ، على إخراج الحنابلة من بلده، وأن يكتب إلى بقية إخوته بإخراجهم من البلاد[٥]، فهل يرتكب دعاةُ السنة وأتباع السلف الصالح جريمة ويقترفون إثما، إذا استنكروا التعصّب المذهبي من أساسه، ودعوا الناس إلى العودة إلى الكتاب والسنة، وتحكيمهما في كل خلاف، وتوحيد المذاهب على أساسها، ليعود المسلمون كتلة واحدة، ومذهبا واحدا،

---

(١) فتح القدير ١/ ٣١١ .
(٢) مراقي الفلاح للحنفي ٢١، ٢٢ .
(٣) المجموع ١/ ٢٥٨ - ٢٥٩ .
(٤) معجم البلدان لياقوت الحموي ١/ ٢٧٣ .
(٥) البداية والنهاية ١٣/ ١٨ .

وصفا واحدا، وقلبا واحدا؟»[١].

وحتى لو كان هذا التعصب للمشايخ والعلماء أو طلبة العلم، والذين يُسميهم ابن تيمية بالمتعلمين والأستاذين فيقول:

«وليس لأحد من المتعلمين والأستاذين أن يعاقبه «معلما وأستاذا» بما يشاء، وليس لأحد أن يعاونه ويوافقه على ذلك، مثل أن يأمر بهجر شخص، فيهجره بغير ذنب شرعي، أو يقول: أقعدته، أو أهدرته، أو نحو ذلك ؛ فإن هذا من جنس ما يفعله القساوسة والرهبان مع النصارى والحزّابون مع اليهود، ومن جنس ما يفعله أئمة الضلالة والغواية مع أتباعهم. وقد قال الصديق الذي هو خليفة رسول اللَّه ﷺ في أمته: «أطيعوني ما أطعتُ اللَّه ! فإن عصيتُ اللَّه فلا طاعة لي عليكم».

وقال النبي ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[٢]، وقال: «من أمركم بمعصية اللَّه فلا تطيعوه»[٣].

فإذا كان المُعلم أو الأستاذ إذا أمر بهجر شخص ؛ أو بإهداره وإسقاطه وإبعاده ونحو ذلك: نُظِر فيه، فإن كان قد فعل ذنبا شرعيا عوقب بقدر ذنبه بلا زيادة، وإن لم يكن أذنب ذنبا شرعيا لم يجز أن يُعاقب بشيء لأجل غرض المعلم أو غيره.

وليس للمعلمين أن يُحزِّبوا الناس ويفعلوا ما يُلقي بينهم العداوة والبغضاء.. وليس لأحد منهم أن يأخذ على أحدٍ عهداً بموافقته على كل ما يريده ؛ وموالاة من يواليه ؛ ومعاداة من يعاديه، بل من فعل هذا كان من جنس «جنكز خان» وأمثاله الذين يجعلون من وافقهم صديقا واليا، ومن خالفهم عدوا باغيا، بل عليهم وعلى أتباعهم عهد اللَّه

---

(١) بدعة التعصب المذهبي للشيخ الفاضل محمد عيد عباسي حفظه اللَّه ٢١٥ - ٢١٦ .

(٢) رواه أحمد والحاكم من حديث عمران بن الحكم بن عمرو الغفاري وصححه الألباني الجامع ٧٥٢٠ .

(٣) رواه أحمد وابن ماجة والحاكم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وحسنه الألباني الجامع ٦٠٩٩ .



ورسوله بأن يطيعوا اللّه ورسوله. . . وإذا وقع بين معلم ومعلم أو تلميذ وتلميذ أو معلم وتلميذ خصومة ومشاجرة، لم يجز لأحد أن يعين أحدهما حتى يعلم الحق ؛ فلا يعاونه بجهل وبهوى، بل ينظر في الأمر فإذا تبيّن له الحق أعان المحق منهما على المبطل، سواء كان المحق من أصحابه أو أصحاب غيره.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]. ومن مال مع صاحبه سواء كان الحق له أو عليه، فقد حكم بحكم الجاهلية وخرج عن حكم اللّه ورسوله.

فليس لمعلم أن يحالف تلامذته على هذا، ولا لغير المعلم أن يأخذ أحدا من تلامذته ليُنسبوا إليه على الوجه البدعي:

لا ابتداء ولا إفادة، وليس له أن يجحد حق الأول عليه، وليس للأول أن يمنع أحدا من إفادة التعلم من غيره، وليس للثاني أن يقول: شُدّ لي، وانتسب لي دون معلمك الأول، بل إن تعلّم من اثنين فإنه يراعي حق كل منهما، لا يتعصّب لا للأول ولا للثاني، وإذا كان تعليم الأول له أكثر كانت رعايته لحقه أكثر[1].

* * *

(١) راجع هذه النفائس من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ٢٨/ ١٣ - ٢٢، ويقاس عليه، بل ومن باب أولى جماعة الدعوة إلى اللّه تعالى. واللّه أعلم.

القضية الثانية والسبعون: قال المُصَنِّف حفظه الله:

«نشهد ونؤمن أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها ﷺ هو أبو بكر الصديق، فَعُمرُ ابن الخطاب، فعثمان فعليّ، ﭫ. وخير قرون الأُمة القرن الذي بُعث فيه الرسول ﷺ ثم الذي يليه كما جاء بذلك الحديث».

قوله: «نشهد ونؤمن أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها ﷺ هو أبو بكر الصديق»

الشرح: أبو بكر الصديق ﭬ هو أفضل الأمة وخليفة رسول اللّه ﷺ ومؤنسه في الغار وصديقه الأكبر، وصديقه الأشفق، ووزيره الأحزم[(١)].

اسمه ونسبه:

هو أبو بكر عبد اللّه بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة ابن كعب بن لؤي بن غالب القرشي التميمي، يُجمع نسبه مع نسب النبي ﷺ في مرة بن كعب، وأم الصديق أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة، بنت عمّ أبيه[(٢)].

لُقِب بالصِدِّيق لِسبقه إلى تصديق النبي ﷺ، وقيل كان ابتداء تسميته بذلك صبيحة الإسراء. وعن علي بن أبي طالب ﭬ: أنه كان يحلف أن اللّه أنزل اسم أبي بكر من السماء الصديق[(٣)].

صحِب النبي ﷺ قبل البعثة وسبق إلى الإيمان، استمر معه طوال إقامته بمكة ورافقه في الهجرة وفي الغار وفي المشاهد كلها إلى أن مات، وكانت الراية معه يوم تبوك، وحَجَّ بالناس.

---

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ٢ للإمام الذهبي رحمه الله.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ٢/ ٣٣٣ ابن حجر وفتح الباري ٧/ ٩ ولوامع الأنوار البهية ٢/ ٣١١ ويقال كان اسمه. قبل الإسلام عبد الكعبة، وكان يسمى أيضا (عتيق) فتح الباري ٧/ ٩ .

(٣) رواه الطبراني وقال ابن حجر ورجاله ثقات ٧/ ٩ .

فضائله ومناقبه(١)

الكتاب:

١- قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٤٠]. أجمع المسلمون على أن المراد بالصاحب المذكور في الآية هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه(٢).

قال الإمام النووي: وهي من أجلّ مناقبه، وفضائله من أوجه منها هذا اللفظ، ومنها بذلُه نفسَه ومفارقتُه أهَله ومالَه ورياستُه في طاعة اللَّه ورسوله ﷺ وملازمة نبيه ﷺ ومعاداة الناس فيه، ومنها جَعْلُه نفسه وقايةً عنه وغير ذلك(٣).

٢- قال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٧- ٢١]. أي وسيُزحزح عن النار التقي النقي الذي يصرف ماله في طاعة ربه ليزكي نفسه وماله وما وهبه اللَّه من دين ودنيا..

وقال ابن كثير رحمه الله: «وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى أن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك. ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها»(٤).

السنة:

١- وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ بعثه على جيش ذات السّلاسل فأتيته

(١) راجع المزيد من الفائدة: عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام للدكتور ناصر بن علي بن عائض بن حسن الشيخ.
(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٧٢.
(٣) شرح مسلم للنووي ١٥/ ١٥٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٦٧١- ٦٧٣.

فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة» فقلت: من الرجال؟ قال: «أبوها»[١].

٢- وقال رسول اللَّه ﷺ لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: «أنت عتيق اللَّه من النار»[٢].

٣- وقال رسول اللَّه ﷺ: «إن مَن أَمَنَّ[٣] الناسَ عليّ في ماله وصحبته أبو بكر، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا[٤]، ولكن أخوّةُ الإسلام لا يبقينّ في المسجد خوخة[٥] إلا خوخة أبي بكر»[٦].

٤- وقال رسول اللَّه ﷺ: «من أصبح منكم اليوم صائما؟ قال أبو بكر: «أنا»، قال: «فمن تبع منكم اليوم جنازة؟» قال أبو بكر: «أنا»، قال: «فمن أطعم منكم اليوم مسكينا؟» قال أبو بكر: «أنا»، قال: «فمن عاد منكم اليوم مريضا؟» قال أبو بكر: «أنا»، فقال رسول اللَّه ﷺ: «ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة»[٧][٨] رواه مسلم.

الصحابة:

عن محمد بن الحنفية رضي الله عنه قال: قلت لأبي[٩]: «أي الناس خير بعد رسول اللَّه ﷺ؟ قال: «أبو بكر»...»[١٠].

ومن مناقبه: قيامه بالدعوة إلى اللَّه تعالى في بداية الإسلام في وقت لم يجرؤ فيه أحد

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) أمنَّ: قال القرطبي: هو من الامتنان، والمراد أن أبا بكر له من الحقوق ما لو كان لغيره نظيرها لأمتن.
(٤) الخُلة: بالضم: الصداقة والمحبة التي تخللت القلب فصارت خلاله، أي في باطنه والخليل: الصديق. «النهاية لابن الأثير».
(٥) خوخه: أشبه بالنافذة.
(٦) متفق عليه.
(٧) قال القاضي معناه: «دخل الجنة بلا محاسبة ولا مجازاة على قبيح الأعمال، وإلا فمجرد الإيمان يقتضي دخول الجنة بفضل اللَّه تعالى».
(٨) شرح مسلم للنووي ١٥/١٥٦.
(٩) رواه مسلم.
(١٠) رواه البخاري ٢/٢٩١.



سواه على الدعوة، وقد أسلم على يديه كثير من الصحابة ﷺ، ومنهم عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن مظعون وغيرهم كثير رضي الله عنه أجمعين(١).

رجل المواقف الصعبة:

١- منها حادثة إسراء النبي ﷺ وكيف صدَّقه حين كذَّبه بعض الناس.

٢- ومنها صلح الحديبية وإذعانه لأمر الرسول ﷺ.

٣- ومنها بعد وفاة الرسول ﷺ واضطرابِ الحال فكانت قاصمة الظهر ووصية العمر، فتدارك الله الإسلام والأنام بأبي بكر الصديق رضي الله عنه، والذي صعد المنبر بعد تقبيل النبي ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، أيها الناس! من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»، ثم قرأ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فخرج الناس يتلونها في سكك المدينة كأنها لم تنزل إلا ذلك اليوم(٢).

٤- موقفه من حروب الردة: قال أبو بكر لأسامة رضي الله عنهما: انفذ لأمر رسول الله ﷺ، فقال عمر رضي الله عنه: «كيف ترسل هذا الجيشَ والعربُ قد اضطربت عليك؟» فقال: «لو لَعِبت الكلاب بخلاخيل نساء المدينة، ما رددت جيشا أنفذه رسول الله ﷺ»(٣).

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٥٠ .

(٢) رواه البخاري من كتاب فضائل الصحابة وصححه ابن كثير في البداية والنهاية ٥/ ٢٤٢ أنظر العواصم من القواصم ٦٠/ ٦١ .

(٣) العواصم من القواصم للإمام القاضي أبي بكر بن العربي المالكي ٦٣ (راجع البداية والنهاية ٦/ ٣٠٥ فجعل (جيش أسامة) لا يمر بقبيل (قبائل) يريدون الارتداد إلا قالوا: لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم. فلقوا الروم فهزموهم وقتلوهم ورجعوا سالمين، فثبتوا على الإسلام.

وقال له عمر وغيره: «إذا منعك العربُ الزكاةَ فاصبر عليهم»، فقال: «واللّه لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول اللّه ﷺ لقاتلتهم عليه، واللّه لأقاتلن من فرّق بين الزكاة والصلاة»(١). قيل: ومع من تقاتلهم؟ قال: «وحدي، حتى تنفرد الفتن»(٢).

قوله: «. . . فعمر بن الخطاب».

ش: عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

اسمه ونسبه: هو أمير المؤمنين الفاروق(٣) عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبدالعزى بن رباح ابن عبد اللّه بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب يجتمع مع النبي ﷺ في كعب. وأمه هي ختمة بنت هاشم بن المغيرة ابنة عم أبي جهل والحارث ابن هشام ابن المغيرة(٤).

فضائله ومناقبه:

١- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «بينا أنا نائم رأيت الناس عرضوا علي، وعليهم قمص فمنها ما يبلغ الثدي، ومنها ما يبلغ دون ذلك، وعُرِض عليّ عمر وعليه قميص يجره. «قالوا: فما أولته يا رسول اللّه؟ قال: الدِّين»(٥).

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينا نحن عند رسول اللّه ﷺ إذ قال: «بينا أنا نائم رأيتني في الجنة، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، فقلت: «لمن هذا القصر؟» قالوا: «لعمر». فذكرت غَيرته فوليت مدبرا. فبكى عمر وقال: «أعليك أَغَار يا رسول اللّه»(٦).

---

(١) العواصم من القواصم ٦٤ راجع ابن كثير البداية والنهاية ٦/ ٣١١ ومسند الإمام أحمد ١/ ١١، ١٩، ٣١-٣٦ الطبعة الأولى.
(٢) السالفة، صفلحة العنق، وهما سالفتان من جانبيه، ولا تنفرد إحداهما عما يليها إلا بالموت.
(٣) عن ابن عمر ذكوان قال: قلت لعائشة: من سمى عمر الفاروق؟ قالت: «النبي عليه السلام»، «الطبقات الكبرى لابن اسعد ٣/ ٢٧١» ويكنى كذلك بأبي حفص وكانت حفص أكبر أولاده.
(٤) لوامع الأنوار البهية ٢/ ٥١١ وفتح الباري ٧/ ٤٤ وتذكرة الحفاظ ١/ ٥ .
(٥) متفق عليه.
(٦) متفق عليه.



٣- وقال عنه رسول اللَّه ﷺ: «يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا[١] قط إلا سلك فجا آخر»[٢].

٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدّثون[٣] فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر»[٤].

٥- وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب»[٥].

٦- موافقة عمر للقرآن[٦]: فقد كان يرى الرأي فينزل القرآن موافقا لما رآه رضي الله عنه وأرضاه.

فقد روى البخاري رحمه الله تعالى بإسناده إلى أنس رضي الله عنه قال: قال عمر وافقت ربي في ثلاث: فقلت: «يا رسول اللَّه ! لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى» فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ البقرة: ١٢٥].

وآية الحجاب: قلت: «يا رسول اللَّه ! لو أمرت نساءك أن يحتجبن فإنه يكلمهن البرُّ والفاجر» فنزلت آية الحجاب[٧].

واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه فقلت لهن: «عسى ربه إن طلقكن أن يبدله

(١) الفج: الطريق الواسع، ويطلق أيضا على المكان المنخرق بين الجبلين (النهاية لابن الأثير).
(٢) متفق عليه .
(٣) محدثون: قيل (١) الملهم (٢) من يجري الصواب على لسانه من غير قصد (٣) تكلمه الملائكة بغير نبوة، أي في نفسه وإن لم ير مكلما في الحقيقة فيرجع إلى الإلهام (٤) التفرس: أي (الفراسة) «فتح الباري ٧/ ٥٠ وشرح مسلم للنووي ١٥/ ١٦٦».
(٤) متفق عليه.
(٥) رواه أحمد والترمذي والحاكم في المسند، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وحسّنه الألباني في صحيح سنن الترمذي وسلسلة الأحاديث الصحيحة ٣٢٧ .
(٦) عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام ١/ ١٥١ .
(٧) وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥١].

أزواجا خيراً منكن» فنزلت هذه الآية[١].

وعند مسلم بلفظ: «وافقت ربي في ثلاث في مقام إبراهيم وفي الحجاب وفي أسارى بدر، وكذلك في الخمر عندما قال: «اللّهم بيّن لنا في الخمر بيانا شافيا»».

٧- قال عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه: «كان إسلام عمر عِزاً، وهجرته نَصراً، وإمارته رحمة، واللَّه ما استطعنا أن نُصلي حول البيت ظاهرين حتى أسلم عمر»[٢].

أقوال الأئمة:

الإمام أبو حنيفة رحمه الله: ونُقر بأن أفضل هذه الأمة بعد نبيها محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، رضي الله عنهم أجمعين[٣].

الإمام مالك رحمه الله: لما سأله الرشيد عن منزلة الشيخين من النبي ﷺ فقال: «منزلتهما منه في حياته كمنزلتهما منه بعد مماته»[٤].

الإمام أحمد رحمه الله قال: «وخير الأمة بعد النبي ﷺ أبو بكر، وعمر بعد أبي بكر، وعثمان بعد عمر، وعلي بعد عثمان ووقف قوم على عثمان، وهم خلفاء راشدون مصلحون»[٥].

الإمام الشافعي رحمه الله قال: «ما اختلف أحد من الصحابة والتابعين في تفضيل أبي بكر وعمر وتقديمهما على جميع الصحابة»[٦]. وقال أيضا: «اضُطر الناس بعد رسول اللَّه ﷺ إلى أبي بكر، فلم يجدوا تحت أديم السماء خيرا من أبي بكر، من أجل ذلك استعملوه على رقاب الناس»[٧].

---

(١) البخاري الفتح ١/ ٥٠٤ .
(٢) فتح الباري ٧/ ٤٨ .
(٣) شرح الفقه الأكبر ١٠٨ .
(٤) مجموع الفتاوى ٤/ ٤٠٣ .
(٥) طبقات الحنابلة ١/ ٣٠ .
(٦) كتاب الاعتماد للبيهقي ١٩٢ .
(٧) مناقب الشافعي للبيهقي ١/ ٤٣٣ - ٤٣٤ .



الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «اتفق أهل السنة على أن أفضلهم أبو بكر ثم عمر»[١].

ابن حجر الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «اعلم أن الذي أطبق عليه عظماء الملة وعلماء الأمة أن أفضل هذه الأمة أبو بكر الصديق ثم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا»[٢].

أبو الحسن الأشعري رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «ويعرفون حق السلف الذين اختارهم اللَّه سبحانه وتعالى، لصحبة نبيه ﷺ ويأخذون بفضائلهم، ويقدمون أبا بكر ثم عمر، ثم عثمان، ثم علياً، رضوان اللَّه عليهم»[٣].

الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ قال: وقد اتفق أهل السنة والجماعة على ما تواتر عن عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر»[٤].

قوله: (فعثمان) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

ش: عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

اسمه ونسبه: أبو عمرو[٥] (ذو النورين)[٦] عثمان بن عفان بن أبي العاص بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر[٧]. وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، وأمها أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب، وهي شقيقة عبد اللَّه والد النبي، ويقال أنهما ولدا توأما[٨].

فضائله ومناقبه:

١- عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ دخل حائطا وأمرني بحفظ باب الحائط، فجاء رجل يستأذن، فقال: «ائذن له وبشره بالجنة» فإذا هو أبو بكر، ثم جاء

---

(١) شرح مسلم للنووي ١٥/١٤٨.
(٢) الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة ٥٧.
(٣) مقالات الإسلاميين ١-٣٤٨ لأبي الحسن الأشعري.
(٤) الوصية الكبرى ٣٢.
(٥) يكنى أبا عبد اللَّه بابنه عبد اللَّه الذي رزقه من رقية بنت رسول اللَّه ﷺ.
(٦) سمي ذو النورين لتزويج الرسول له بابنتيه: رقية وأم كلثوم رضي اللَّه عنهم أجمعين.
(٧) البداية والنهاية لابن كثير ٧/٢١٧، فتح الباري ٧/ ٥٤، والإصابة لابن حجر ٢/ ٤٥٥.
(٨) فتح الباري ٧/٥٥، الإصابة ٤/٢٢٢.

آخر يستأذن فقال: «ائذن له وبشره بالجنة» فإذا هو عمر، ثم جاء آخر يستأذن فسكت هنيهة ثم قال: «ائذن له وبشره بالجنة على بلوى ستصيبه» فإذا هو عثمان بن عفان»[١].

٢- وعن ثمامة بن حزن القشيري قال: شهدت الدار، حين أشرف عليه عثمان، فقال: ائتوني بصاحبيكم اللذين ألّباكم عليّ؟ قال فجيء بهما كأنهما جملان، أو كأنهما حماران، قال: فأشرف عليهم عثمان، فقال: «أنشدكم باللَّه والإسلام، هل تعلمون أن رسول اللَّه ﷺ قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة، فقال رسول اللَّه ﷺ: «من يشتري بئر رومة فيجعل دلوه مع دلاء المسلمين، بخير له منها في الجنة؟»، فاشتريتها من صُلب مالي، فأنتم اليوم تمنعوني أن أشرب منها، حتى أشرب من ماء البحر[٢]، قالوا: «اللّهم نعم»». فقال: أنشدكم باللَّه والإسلام، هل تعلمون أن المسجد ضاق بأهله؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: من يشتري بُقعة آل فلان فيزيدها في المسجد بخير له منها في الجنة؟ «فاشتريتها من صُلب مالي، وأنتم اليوم تمنعوني أن أصلي فيها ركعتين»، قالوا: «اللّهم نعم».

قال: «أنشدكم اللَّه وبالإسلام، هل تعلمون أني جهزت جيش العسرة من مالي؟» قالوا: «اللّهم نعم».

قال: «أنشدكم باللَّه وبالإسلام، هل تعلمون أن رسول اللَّه ﷺ كان على ثبير[٣] مكة ومعه أبو بكر، وعمر، وأنا، فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض، قال: فركضه برجله، فقال: «اسكن ثبير فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان؟»».

قالوا: «اللّهم نعم»، قال: «اللَّه أكبر، شهدوا لي ورب الكعبة: أني شهيد ثلاثاً»[٤].

٣- وقال عنه رسول اللَّه ﷺ: «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة»[٥].

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) ثبير: اسم جبل في المدينة.
(٤) رواه الترمذي وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٣/ ٢٠٩ رقم ٢٩٢١).
(٥) رواه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها.

٤- ومن مناقبه أنه جمع الناس على مصحف واحد، وأن يكتبوه بلغة قريش[١].

٥- ومن مناقبه الرفيعة رضي الله عنه وفاؤه، بما عهد إليه النبي ﷺ وإصباره نفسَه على طاعة رسول اللّه ﷺ، وذلك أنه رضي الله عنه لما جاءه الخوارج الذين خرجوا عليه من الأمصار، وجاءوا إلى المدينة وحصروه في داره رضي الله عنه فوق أربعين يوما، وكان عددهم كما قال ابن العربي: «أربعة آلاف وكلهم يريد قتله، وكان عدد الذين لا يريدون قتله أربعين ألفا»[٢].

وكان باستطاعته رضي الله عنه أن يأمر بالدفاع عنه، وقد عرض عليه كثير من فضلاء الصحابة أن يأذن لهم في قتال هؤلاء المارقين وطردهم عنه، ولكنه أَبَى رضي الله عنه خشية من أن يُسفك دمٌ بسببه، وناشد من كان معه في داره من الصحابة أن يخرجوا عنه، ولما خرجوا تسلق عليه أولئك الأخلاط الظلمة داره وأحرقوا الباب ودخلوا عليه وقتلوه، ورضي أن يكون عبدَ اللّه المقتول لا عبدَ اللّه القاتل وفاء بعهد النبي ﷺ إليه عندما قال له رسول اللّه ﷺ يا عثمان ! إن اللّه مقمّصك[٣] قميصا فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني[٤].

قوله: (فَعَلِيّ) رضي الله عنه.

ش: عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه:

اسمه ونسبه: هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، ويقال إنها أول هاشمية وَلَدت هاشميا.

كنيته: أبو الحسن ويكنّى بأبي تراب[٥].

---

(١) البداية والنهاية ٧/ ٢٣١- ٢٣٦ (بتصرف).

(٢) عارضة الأحوذي بشرح الترمذي ١٤/١٥٦ - ١٥٧ .

(٣) أي: مفض إليك أمرا. وأراد به الخلافة.

(٤) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم من حديث عائشة رضي الله عنها، وصححه الألباني (الجامع ٧٩٤٧).

(٥) رواه البخاري من حديث سهل بن سعد.

فضائله ومناقبه: هو أول من أسلم من الصبيان ومن العشرة المبشرين بالجنة ورابع الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين، نام في فراش الرسول ﷺ ليلة الهجرة وزوج ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها، هاجر إلى المدينة وشهد بدرا وأُحُداً والخندق وخيبر، وكان من جملة من قام بغسل النبي ﷺ وتكفينه وولي دفنه[١].

١- قال رسول اللّه ﷺ: «إن الجنة تشتاق إلى ثلاثة، عليّ وعمّار وسلمان»[٢].

٢- وعن سلمة قال: كان عليّ قد تخلّف عن النبي ﷺ في خيبر، وكان به رمد، فقال: أنا أتخلّف عن رسول اللّه ﷺ؟ فخرج علي فَلَحِق بالنبي ﷺ، فلما كان مساء الليلة التي فتحها اللّه في صباحها، قال رسول اللّه ﷺ: لأعطينّ الراية - أو ليأخذنّ الراية - غدا رجلا يحبه اللّه ورسوله، أو قال - يحبّ اللّه ورسوله - يفتح اللّه عليه، فإذا نحن بَعَلِي، ما نرجوه، فقالوا هذا عليّ، فأعطاه رسول اللّه ﷺ الراية ففتح اللّه عليه[٣]..

٣- وفي غزوة تبوك عندما خَلّفه النبيُ ﷺ في المدينة فقال عليّ رضي الله عنه أتخلفني مع النساء الصبيان؟ فقال له رسول اللّه ﷺ: أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى؟ وفي رواية مسلم: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»[٤].

---

(١) البداية والنهاية ٧/ ٢٤٢، الإصالة في تميز الصحابة ٢/ ٥٠١-٥٠٣.
(٢) رواه الترمذي والحاكم من حديث أنس بن مالك وحسنه الألباني.
(٣) رواه البخاري.
(٤) متفق عليه، وقال القاضي عياض: «هذا الحديث مما تعلقت به الروافض والإمامية وسائر فِرق الشيعة في أن الخلافة كانت حقا لعلي، وأنه وصى له بها. وهذا الحديث لا حجة فيه لأحد منهم، بل فيه إثبات فضيلةِ لعلي، لا تعرض فيه لكونه أفضل من غيره أو مثله، وليس فيه دلالة لاستخلافه بعده، لأن النبي ﷺ إنما قال هذا لعلي حين استخلفه في المدينة في غزوة تبوك، ويؤيد هذا أن هارون المشبه به لم يكن خليفة بعد موسى بل توفي في حياة موسى، وقبل وفاة موسى بنحو أربعين سنة على ما هو مشهور عند أهل الأخبار والقصص، قالوا: وإنما استخلفه حين ذهب لميقات ربه للمناجاة واللّه أعلم. «شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ١٧٤، ثم إن النبي قد استخلف غير علي كعبيد اللّه ابن أم مكتوم».



٤- وعن قيس بن عبادة قال: قال عليّ رضي الله عنه: فينا نزلت هذه الآية ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩][1].

٥- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «عليّ بن أبي طالب مولى من كنت مولاه»[2]. أي من أحبني فَلْيُحبَّ عَلِيّا.

٦- وعن عمران بن حصين قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما تريدون من عليّ؟ ما تريدون من عليّ؟ ما تريدون من عليّ؟ إن عليا مني وأنا منه، وهو وليّ كل مؤمن بعدي»[3].

٧- وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من أحبَّ عليا فقد أحبني، ومن أبغض عليا فقد أبغضني»[4].

٨- وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «عشرة في الجنة، النبي في الجنة، وأبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعليّ في الجنة. . .»[5].

قال ابن تيمية رحمه الله[6]: «. . . مسألة عثمان وعَلِيّ ليست من الأصول التي يُضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة»، قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله[7]: المفاضلة بين عثمان وعلي رضي الله عنهما ليست من أصول أهل السنة التي يُضلل فيها المخالف، فمن قال إن عليا أفضل من عثمان فلا نقول: إنه ضال، بل نقول: هذا رأي من آراء أهل السنة ولا نقول فيه شيئا.

---

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه الحاملي في أماليه وصححه الألباني ٤٠٨٩ .
(٣) رواه الترمذي والحاكم وصححه الألباني ٥٥٩٨ .
(٤) رواه الحاكم وصححه الألباني (٥٩٦٣).
(٥) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة والضياء وصححه الألباني (٤٠١٠).
(٦) العقيدة الواسطية.
(٧) شرح العقيدة الواسطية ٢/ ٦٧٣ .

ثم قال بعد قول ابن تيمية: «لكن التي يُضلل فيها مسألة الخلافة»(١). فيجب أن نقول: الخليفة بعد نبينا في أمته أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي. ومن قال: إن الخلافة لعلي دون هؤلاء الثلاثة فهو ضال، ومن قال: إنها لعلي بعد أبي بكر وعمر فهو ضال، لأنه مخالف لإجماع الصحابة رضي الله عنهم(٢).

ثم قال ابن تيمية: «وذلك أنهم «أهل السنة والجماعة» يؤمنون أن الخليفة بعد رسول اللّه ﷺ أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله»(٣).

أقوال الصحابة والسلف في علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

١- قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «أقرؤنا أُبي وأقضانا علي»(٤).

٢- وعن المغيرة قال: لما جاء نعي علي بن أبي طالب إلى معاوية وهو نائم مع امرأته «فاختة بنت قرطة» في يوم صائف جلس وهو يقول: «إنا للّه وإنا إليه راجعون» وجعل يبكي فقالت له فاختة: «أنت بالأمس تطعن عليه، واليوم تبكي عليه». فقال: «ويحكِ! إنما أبكي لِما فقد الناسُ من حلمه وعلمه وفضله وسوابقه وخيره»(٥).

٣- وعن سعيد بن المسيب قال: «كان عمر بن الخطاب يتعوذ باللّه من معضلة ليس لها أبو الحسن»(٦).

٤- وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «توفي رسول اللّه ﷺ وهو عنه راض»(٧) أي علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

---

(١) العقيدة الواسطية.
(٢) شرح العقيدة الواسطية ٢/ ٦٧٣ .
(٣) العقيدة الواسطية.
(٤) رواه أحمد والبخاري وابن ماجة.
(٥) البداية والنهاية ٧/ ١٦ .
(٦) الاستيعاب في أسماء الأصحاب على حاشية الإصابة ٣/ ٣٩ .
(٧) رواه البخاري.



قوله: «وخير قرون الأمة القرن الذي بُعث فيه الرسول ﷺ ثم الذي يليه، كما جاء بذلك الحديث».

ش: والقرن: أهل زمان واحد متقارب، اشتركوا في أمر من الأمور المتصورة.

قال ابن حجر: ويطلق القرن على مدة من الزمان، واختلفوا في تحديدها من عشرة أعوام إلى مائة وعشرين، ثم قال: إن مدة القرن تختلف باختلاف أعمار أهل كل زمان[(١)] ولا شك أن الأمة الإسلامية هي خير الأمم، كما قال اللّه تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال أبو هريرة رضي الله عنه في هذه الآية: خير الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام. وقال ابن عباس رضي الله عنه: هم الذين هاجروا مع رسول اللّه ﷺ من مكة إلى المدينة. وقال ابن كثير: والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول اللّه ﷺ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كما قال في الآية الأخرى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] أي خيارا[(٢)].

١- وقال ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»[(٣)].

قال ابن حجر والمراد بقرن النبي ﷺ في هذا الحديث هم الصحابة (الفتح ٧/ ٥).

٢- وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول اللّه ﷺ: «خير الناس القرن الذي أنا فيه ثم الثاني، ثم الثالث»[(٤)].

٣- وعن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم،

---

(١) فتح الباري ١/ ١- ٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٥١٩.
(٣) رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي من حديث ابن مسعود.
(٤) رواه مسلم.



ثم الذين يلونهم، ثم يأتي من بعدهم قوم يسمّنون، ويحبون السمن يعطُون الشهادة قبل أن يسألوها[١].

٤- وعن عبد اللَّه بن بسر ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى لمن رأى من رآني، ولمن رآى من رأى من رآني وآمن بي، طوبى لهم وحسن مآب»[٢].

وطوبى شجرةٌ في الجنة، كما في حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «طوبى شجرة في الجنة، مسيرة مائة عام، يثاب أهل الجنة تخرج من أكمامها»[٣].

واقتضت هذه الأحاديث أن تكون الصحابة أفضل من التابعين، والتابعون أفضل من أتباع التابعين، لكن هل هذه الأفضلية بالنسبة إلى المجموع أو الأفراد؟ محل بحث، وإلى الثاني قول الجمهور، والأول قول ابن عبد البر[٤].

* * *

(١) رواه الترمذي والحاكم صححه الألباني (٣٢٩٤).
(٢) رواه الحاكم والطبراني وصححه الألباني ٣٩٢٦ .
(٣) رواه أحمد وابن حبان وحسّنه الألباني (٣٩١٨).
(٤) ابن حجر في الفتح ٦/١ .

القضية الثالثة والسبعون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«نحب أصحابَ رسلِ اللَّه ﷺ أجمعين، ونواليهم، ونعتقد أنهم خير أصحاب الأنبياء، لأنهم نصروا الدين، وجاهدوا مع سيد المرسلين، ونُكفِّر من كفَّرهم لأنه يرد بذلك شهادة رب العالمين».

قوله: «نحب أصحاب رسول اللَّه ﷺ أجمعين ونواليهم»

الشرح: الصحابي:

تعريفه من الناحية اللغوية أو الاصطلاحية:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والأصحاب جمع صاحب، والصاحب اسم فاعل من صحبه، يصحبه، وذلك يقع على قليل الصحبة وكثيرها»[(١)] .

وقال الفيروز أبادي: «استصحبه، أي دعاه إلى الصحبة ولازمه»[(٢)] .

تعريف الصحابي من الناحية الحديثية:

أما علماء الحديث فقد اختلفوا في تعريف الصحابي:

قال الإمام أحمد بن حنبل: وذكر من أصحاب رسول اللَّه ﷺ أهل بدر فقال: ثم أفضل الناس بعد هؤلاء أصحاب رسول اللَّه ﷺ القرن الذي بُعث فيهم كل من صحبه سنة أو شهرا أو يوما أو ساعة أو رآه، فهو من أصحابه، له الصحبة على قدر ما صحبه، وكانت سابقته معه وسمع منه ونظر إليه[(٣)] .

وقال الإمام البخاري: «باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، ومن صحب النبي أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه»[(٤)] وقد رجح ابن حجر هذا القول.

---

(١) الصارم المسلول ٥٧٥ .
(٢) القاموس ١/ ٩٥ .
(٣) المقدمة لابن الصلاح ١٤٦ والكفاية ٦٩ .
(٤) فتح الباري ٧/ ٣ .

الإمام علي بن المديني شيخ الإمام البخاري، قال: من صَحب النبي ﷺ أو رآه ولو ساعة من نهار فهو من أصحاب النبي ﷺ.

الحافظ أبو نعيم الأصبهاني: «من عُرف بصحبة النبي ﷺ أو روى عنه أو رآه من الذكور والإناث»[(١)] .

وقد يكون أصحها وأجمعها ما ذكره الحافظ ابن حجر حيث قال: «وأصح ما وقفت عليه من ذلك: «أن الصحابي من لقي النبي ﷺ مؤمنا به، ومات على الإسلام»[(٢)]. وقد شرح هذا التعريف بقوله: «فيدخل فيمن لقيه من طالت مجالسته له، أو قصرت، ومن روى عنه أو لم يرو، ومن غزا معه، أو لم يغز، ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه، ومن لم يره لعارض كالعمى، ويخرج بقيد الإيمان من لقيه كافرا، ولو أسلم بعد ذلك، إذا لم يجتمع به مرة أخرى، وقولنا (به) يُخرج من لقيه مؤمنا بغيره، وكمن لقيه من مؤمني أهل الكتاب قبل البعثة. ويدخل في قولنا «مؤمنا به» كل مكلف من الجن والإنس. . . . وخرج بقولنا «ومات على الإسلام» من لقيه مؤمنا به ثم ارتد، ومات على ردته والعياذ باللَّه. . ويدخل فيه

من ارتد وعاد إلى الإسلام قبل أن يموت سواء اجتمع به ﷺ مرة أخرى، أم لا، وهذا هو الصحيح المعتمد»[(٣)].

فمحبة أصحاب النبي ﷺ هي عقيدة أهل السنة أتباع السلف الصالح كما قال الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ونحب أصحابَ رسول اللَّه ﷺ، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم. ولا نذكرهم إلا بخير. وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان»[(٤)]. وقد

---

(١) المصدر السابق ٧/ ٥ .

(٢) معرفة الصحابة لأبي نعيم ٢/ ٣٩٤ نقلا من «عقيدة أهل السنة والجماعة» للدكتور ناصر بن علي عائض حسن الشيخ ١/ ٣٤ .

(٣) الإصابة (١/ ١٠ - ١٢) ونزهة النظر شرح نخبة الفكر (٥١- ٥٦) نقلا من عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام للدكتور ناصر بن علي عائض حسن الشيخ ١/ ٣٥ .



دلّت النصوص الكثيرة على وجوب حب الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، ومن تلك النصوص:

١- قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]. قال القرطبي: وهذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة لأنه جعل لمن بعدهم حظا في الفيء ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم، وأن من سبّهم أو أحدا منهم أو اعتقد فيه شرا، أنه لا حق له في الفيء، وروى ذلك عن مالك وغيره، قال مالك: «من كان يبغض أحدا من أصحاب محمد ﷺ أو كان في قلبه عليهم غِل فليس له حق في فيء المسلمين»، ثم قرأ «والذين جاءوا من بعدهم» الآية[1].

٢- وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار»[2].

قوله: «ونعتقد أنهم خير أصحاب الأنبياء لأنهم نصروا الدين، وجاهدوا مع سيد المرسلين».

ش: كما قال عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه في وصفهم، حيث قال: «إن اللّه نظر في قلوب العباد، فوجد قلبَ محمدٍ خيرَ قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه..»[3].

فقد نصروا الدين وجاهدوا مع سيد المرسلين كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ

(١) الطحاوية ٥٢٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٣٢.
(٣) رواه البخاري.
(٤) أخرجه أبو داود الطيالسي وأحمد بسند حسن وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وحسّنه الألباني موقوفا (شرح الطحاوية ٥٣٢).

تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ [التوبة: ١٠٠]. وقال تعالى: ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾ [آل عمران: ١٧٢]. وقال تعالى: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً﴾ [الفتح: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ [الأنفال: ٧٢]. وقال تعالى: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾ [الفتح: ١٨]. وقال تعالى: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى﴾ [الحديد: ١٠].

وقال تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون (١٦٩) فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١٧٠) يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ [آل عمران: ١٦٩- ١٧١]. وقال تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾ [الأحزاب: ٢٣] وهذه الآيات نزلت في شهداء أحد.

قوله: «ونكفِّر من كفّرهم لأنه يرد بذلك شهادة رب العالمين».

ش: فاللَّه تعالى قد عدّل(١) الصحابة رضوان اللَّه عليهم أجمعين:

القرآن:

١- قال تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ [البقرة: ١٤٣].

---

(١) العدالة في الاصطلاح: «هي محافظة دينية تحمل على ملازمة التقوى والمروءة ليس معها بدعة، وتتحقق باجتناب الكبائر، وترك الإصرار على الصغائر وبعض المباح كاللعب بالحمام والاجتماع مع الأراذل. .» ابن الحاجب (مختصر منتهى الأصول مع شرح عضد الملة والدين ٢/ ٦٣).



٢- وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

السنة:

١- من حديث أبي بكرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «... ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب»(١)، وقد قال النبي ﷺ هذا القول في أعظم جمع من الصحابة في حجة الوداع أمام مائة ألف حضروا هذا الجمع، كما قال ابن حبان رحمه الله تعالى. وفي هذا القول أَعْظَمُ دليل على أن الصحابة كلهم عدول ليس فيهم مجروح، ولا ضعيف، إذ لو كان فيهم أحد غير عدل لاستثنى في قوله وقال: إلا ليبلغ فلان منكم الغائب، فلما أجملهم في الذِكر بالأمر بالتبليغ من بعدهم دلّ ذلك على أنهم كلهم عدول وكفى بمن عدّله رسول اللّه ﷺ شرفا(٢).

٢- ومن حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «النجوم أمنة للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون»(٣).

فلا شك بعد كل هذا التعديل من اللّه ورسوله ﷺ ثم يأتي من يأتي ويكفِّر الصحابة رضوان اللّه عليهم. أقول لا شك في كفره بل قد ذهب كثير من أهل العلم إلى تكفير مَن يُسبّهم فكيف بمن يكفِّرهم(٤)؟

---

(١) متفق عليه.

(٢) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١/ ٩١.

(٣) رواه مسلم.

(٤) كالرافضة: فهذا إمامهم الخميني يقول: «... الرسول الذي كدّ وجدّ وتحمّل المصائب من أجل إرشادهم وهدايتهم، وأغمض عينيه، وفي أذنيه كلمات ابن الخطاب القائمة على الفرية، والنابعة من أعمال الكفر والزندقة، «كشف الأسرار للخميني». ودعائهم الذي يسمونه «دعاء صنمي =

الأحاديث الناهية عن سبّ الصحابة:

بالإضافة إلى الآيات والأحاديث السابقة، نورد بعض الأحاديث الناهية عن سبهم أو الانتقاص منهم:

١- عن ابن مسعود وابن عمر ﷺ أن رسول اللّه ﷺ قال: «إذا ذُكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذُكِرت النجوم فأمسكوا، وإذا ذُكِر القدر فأمسكوا»[١].

٢- وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ﷺ قالوا: قال رسول اللّه ﷺ: «لا تسبّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا، ما بلغ مُد[٢] أحدهم، ولا نصيفه»[٣][٤].

٣- وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لعن اللّه من سبّ أصحابي»[٥].

٤- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من سبّ أصحابي فعليه لعنة اللّه والملائكة والناس أجمعين»[٦].

فمعنى قوله ﷺ: «فعليه لعنة اللّه والملائكة والناس أجمعين» الطرد والإبعاد عن مواطن الأبرار، ومنازل الأخيار، والسب والدعاء من الخلق، وتحريم سبهم يشمل من لَابَسَ الفتن، ومن لم يلابسها، لأنهم مجتهدون في تلك الحروب متأولون،

= قريش» ويعنون بهما وبالجبت والطاغوت أبا بكر وعمر، وهذا الدعاء في كتابهم «مفتاح الجنان» ص ١١٤ ونصه: «اللّهم صل على محمد وعلى آل محمد، والّعن صنمي قريش وجبتيهما وطاغوتيهما وابنتيهما. . . الخ». ويريدون بابنتيهما: أم المؤمنين عائشة وأم المؤمنين حفصة «رضي اللّه عنهم أجمعين» وقال الكليني بسنده إلى أبي جعفر أنه قال: ارتد الناس بعد النبي ﷺ، إلا ثلاثة هم: المقداد وسلمان وأبو ذر «الأصول من الكافي رواية رقم ٣٤١»

(١) رواه الطبراني في الكبير وابن العربي في الكامل وصححه الألباني «الجامع ٥٤٥».

(٢) المُد: هو مكيال وهو رطل وثلث عند أهل الحجاز، ورجلان عند أهل العراق.

(٣) نصيفه: أي نصفه

(٤) رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم.

(٥) رواه الطبراني والخطيب البغدادي والبغوي وحسنه الألباني (الجامع ٥١١١).

(٦) رواه الطبراني والخطيب البغدادي وحسنه الألباني (الجامع ٦٢٨٥).

فسبّهم كبيرة ونسبتهم إلى الضلال أو الكُفر، كَفَر»[١].

أقوال السلف فيمن سبّ الصحابة وعقوبته:

فقد اختلفوا بين تكفيره ومن ثم قتله، أو تفسيقه وتغريمه:

فمن قال بالأول: الصحابي الجليل عبد الرحمن بن أبزى، والأوزاعي وأبو بكر بن عياش، وسفيان بن عيينه، والفريابي وغيرهم كثير، وذهب بعض العلماء من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة والظاهرية إلى القول الثاني.

أقوالهم:

١- محمد بن علي بن الحسين بن علي رضوان اللّه عليهم أجمعين، قال لجابر الجعفي: يا جابر بَلَغني أن قوما بالعراق يزعمون أنهم يحبونا، ويتناولون أبا بكر وعمر، ويزعمون أني آمرهم بذلك، فأبلغهم عني أني إلى اللّه منهم بريء، والذي نفس محمد بيده لو وليّت لتقربت إلى اللّه بدمائهم، ولا نالتني شفاعة محمد ﷺ إن لم أكن أستغفر لهما واترحم[٢] عليهما، إن أعداء اللّه لغافلون عن فضلهما [٣].

٢- وعن عبد اللّه بن الحسن بن علي رضي اللّه عنهم أجمعين أنه قال: «ما أرى رجلا يسب أبا بكر وعمر تُيَسَّر له توبة أبدا»[٤].

٣- وقال الإمام الأوزاعي رحمه الله: «من شتم أبا بكر الصديق رضي الله عنه فقد ارتدّ عن دينه وأباح دمه»[٥].

٤- قال السرخسي [٦] رحمه الله: «... وصفهم الرسول ﷺ بأنهم خير الناس فقال:

---

(١) فيض القدير للمناوي: ١٤٦/٦ - ١٤٧.

(٢) أي أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

(٣) البداية والنهاية ٣٤٩/٩.

(٤) كتاب النهي عن سبّ الأصحاب وما فيه من الإثم والعقاب ١٧.

(٥) الإبانة لابن بطه ١٦٢.

(٦) أحد كبار علماء الحنفية، واسمه محمد بن أحمد بن سهل أبو بكر القاضي مجتهد في أهل سرخس (في خراسان).

«خير الناس قرني الذي أنا فيهم». والشريعة بلغتنا بنقلهم، فمن طعن فيهم فهو ملحد منابذ للإسلام، دواؤه السيف إن لم يتب»[١].

٥- ذكر القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن بعض المالكية بأنه ذهب إلى أن عقوبة سَابِّ الصحابة أنه يقتل حيث قال: «وقال بعض المالكية يقتل»[٢].

٦- وذكر الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن القاضي حسين المروزي من علماء الشافعية ذهب إلى أن سب الشيخين كُفر، وإن لم يكن بما فيه إكفارهما، ثم قال: «وإلى ذلك ذهب معظم الحنفية»[٣].

٧- قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن طعن فيهم، أو سبّهم فقد خرج من الدين، ومرق من ملة المسلمين، لأن الطعن لا يكون إلا عن اعتقاد مساويهم، وإضمار الحقد فيهم، وإنكار ما ذكره اللَّه تعالى في كتابه من ثنائه عليهم، وما لرسول اللَّه ﷺ في ثنائه عليهم من فضائلهم ومناقبهم وحبهم، ولأنهم أرضى الوسائل في المأثور، والوسائط من المنقول، والطعن في الوسائط طعن في الأصل، والازدراء بالناقل ازدراء بالمنقول، وهذا ظاهر لمن تدبره، وسلِم من النفاق ومن الزندقة والإلحاد في عقيدته»[٤].

٨- قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وصرّح جماعات من أصحابنا بكُفر الخوارج المعتقدين البراءةَ من عليّ وعثمان، وبكُفر الرافضة المعتقدين لسبّ جميع الصحابة، والذين كفّروا الصحابة وفسقوهم وسبوهم، ثم قال: وقال أبو بكر عبد العزيز في المقنع: فأما الرافضي فإن كان يسب فقد كفر فلا يُزوج»[٥].

---

(١) أصول السرخسي ٢/ ١٣٤ .
(٢) شرح مسلم للنووي ١٦/ ٩٣ .
(٣) الأجوبة العراقية ٥٠ .
(٤) الكبائر ٢٣٥ .
(٥) الصارم المسلول ٥٧٠ .

٩- وروى ابن بطه بإسناده إلى هارون بن زياد قال: سمعت الفريابي ورجل يسأله عمّن شتم أبا بكر، فقال: «كافر»، قال: «فنصلي عليه»؟، قال: «لا»، فسألته: «كيف نصنع به وهو يقول: لا إله إلا اللَّه»؟، قال: «لا تمسوه بأيديكم، ادفعوه بالخشب حتى تواروه في حفرته»(١).

١٠- وقال بشر بن الحارث أبو نصر الحافي: «من شتم أصحاب رسول اللَّه ﷺ: فهو كافر وإن صام وصلى وزعم أنه من المسلمين»(٢).

١١- وقال محمد بن بشار لعبد الرحمن بن مهدي: «أحضر جنازة من سبّ أصحاب رسول اللَّه ﷺ»؟ قال: «لو كان من عصبتي ما وَرّثته»(٣).

١٢- وعن اسماعيل بن القاسم قال: قال لي عبد اللَّه بن سليمان: «يا إسماعيل! ما تقول فيمن يسب أبا بكر وعمر»؟ قلت: «يُستتاب، فإن تاب وإلا قُتِل»، قال لي: «القتل؟» قلت: «نعم»، قال: «وأنى لك هذا؟» قلت: «بآية من كتاب اللَّه تعالى»، فقال: «وآية من كتاب اللَّه؟» قلت: «نعم» قال: «أي هي من كتاب اللَّه تعالى؟» قلت له: قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ [المائدة: ٣٣].

ولا فساد في الأرض أعظم من سبّ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، قال لي: «أحسنت يا إسماعيل»(٤).

وقد استدل أصحاب هذا القول بأمور منها:

١- إن سبّ الصحابة وانتقاصهم والطعن فيهم إيذاء لرسول اللَّه ﷺ وانتقاص له، وحطّ من مكانته ﷺ، لأنهم أصحابه الذين رباهم وزكاهم وهذا فيه إيذاء للنبي، وإيذاء

(١) الشرح والإبانة ١٦٠ .
(٢) المصدر السابق ١٦٢ .
(٣) المصدر السابق ١٦٠ .
(٤) كتاب النهي عن سبّ الأصحاب وما فيه من الإثم والعقاب ٢٥ .

النبي ﷺ كفر، فيكون سب أصحابه كفرا. وقال مالك رضي الله عنه: «إنما هؤلاء أقوام أرادوا القدح في النبي عليه الصلاة والسلام، فلم يمكنهم ذلك فقدحوا في أصحابه»، حتى يُقال: «رجل سوء! ولو كان رجلا صالحا لكان أصحابه صالحين».

٢- إن الطعن في الصحابة والتجريح لهم مفاده إبطال جميع أحكام الشريعة الإسلامية إذ هم نقلتها والمبلِغون لها.

قال القرطبي: «من نقَّص واحدا منهم، أو طعن عليه في روايته فقد ردّ على اللّه رب العالمين وأبطل شرائع المسلمين»(١).

٣- إن الطعن في الصحابة يؤدي إلى إنكار ما قام عليه الإجماع قبل ظهور المخالف من فضلهم، وشرفهم ومصادقة المتواتر من الكتاب والسنة الدالين على أن لهم الزلفى من ربهم(٢).

قال محمد صديق حسن خان: «من خالف اللّه ورسوله في أخبارهما عصاهما بسوء العقيدة في خُلّص عباده، وسنة عباده، فكفره بواح لا سترة عليه»(٣).

٤- ومن حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار»(٤).

قال المناوي: «ولم يقابل الإيمان بالكفر الذي هو ضده، لأن الكلام فيمن ظاهره الإيمان، وباطنه الكفر، فميزه عن ذوي الإيمان الحقيقي، فلم يقل آية الكفر، لكونه غير كافر ظاهراً، وخصّ الأنصار بهذه المنقبة العظمى، لما امتازوا به من الفضائل، فكان اختصاصهم بها مظنة الحسد الموجب للبغض، فوجب التحذير من بغضهم،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٢٩٧ .
(٢) الأجوبة العراقية ٤٩ .
(٣) الدين الخالص ٣/ ٣٨٢ .
(٤) متفق عليه.

والترغيب في حبهم»[(١)]، فبغض مَنْ نَصَرَ اللَّهَ ورسوله من أصحابه، نفاق[(٢)].

ومسبّة أزواجه عليه الصلاة والسلام له نفس الحكم السابق، فقد روى مالك رَحِمَهُ اللَّهُ أن من سبّ عائشة قُتِل. وذهب إلى هذا القول ابنُ حزم رَحِمَهُ اللَّهُ وأبو بكر بن العربي[(٣)].

وقال أبو السائب القاضي: «كنت يوما بحضرة الحسن بن زيد الراعي بطبرستان، وكان بحضرته رجل فذكر عائشة بذكر قبيح من الفاحشة، فقال: «يا غلام اضرب عنقه!»؛ فقال له العلويون: «هذا رجل من شيعتنا»، فقال: «معاذ اللَّه ! هذا رجل طَعَن على النبي عليه الصلاة والسلام، قال اللَّه تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦].

فإن كانت عائشة خبيثة فالنبي ﷺ خبيث، فهو كافر فاضربوا عنقه، وضربوا عنقه وأنا حاضر»[(٤)].

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: على اتفاق الأمة على كفر قاذفها حيث قال: «واتفقت الأمة على كفر قاذفها»[(٥)].

أقول: هذه أقوال الصحابة وبعضل من علماء السّلف فيمن سبّهم، فكيف بمن كفّرهم؟ فلا شك أنه أسوأ منهم وأضل، واللَّه المستعان.

* * *

(١) فيض القدير للمناوي ١/ ٦٢ .
(٢) الصارم المسلول ٥٨١/ ٥٨٢ .
(٣) المحلى ١٣/ ٥٠٤ وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٥٦ - ٢/ ٢٦٧- ٢٦٨ .
(٤) رواه اللالكائي، لمزيد من البحث، راجع عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام، للدكتور ناصر بن علي عائض حسن الشيخ حفظه اللَّه.
(٥) زاد المعاد في هدى خير العباد ١/ ١٠٦، لا كما تدعي الرافضة: أنه إذا قام قائمنا «أي المهدي المنتظر بزعمهم» رد بالحميراء «أي بعث وأحيا أم المؤمنين الصديقة عائشة بنت الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حتى يجلدها الحد. .» تفسير الصافي ص ٣٥٩ نقلا من كتاب «الشيعة والتشيع فرق وتاريخ» للأستاذ إحسان إلهي ظهير رَحِمَهُ اللَّهُ ٣٧٨ .

القضية الرابعة والسبعون: قال المُصَنِّف حفظه اللّٰه:

«نَسْكُتُ عمّا وقع بين الصحابة من خلاف، ونعتقد أنهم كانوا مجتهدين مأجورين، ليسوا رسلًا معصومين».

الشرح: وهذه فيها بحثان:

الأول: ما هي الأمور التي وقعت بين الصحابة رضوان اللّٰه عليهم أجمعين؟

الثاني: الموقف الصحيح نحو ما وقع منهم.

الأول: ما وقع بين الصحابة:

أ - متى بدأ الاختلاف: لا شك أن مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه على يدي بعض البغاة الخارجين عليه من أهل مصر، والكوفة والبصرة سنة خمس وثلاثين للّهجرة، كانت هي الشرارة الأولى التي أضرمت النار بالهشيم[(١)].

ب - سبب الخلاف: انقسم الصحابة رضوان اللّٰه عليهم تجاه هذه الفاجعة المؤلمة إلى طائفتين:

فالطائفة الأولى: وهم الذين يطالبون بوجوب الإسراع بأخذ القَوَد «القصاص» من قتلة عثمان رضي الله عنه وعلى رأسهم أم المؤمنين عائشة، وطلحة، والزبير ومعاوية رضي اللّٰه عنهم أجمعين.

والطائفة الثانية: وكان على رأسهم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه كان يرى إرجاء الأمر حتى يبايعه أهل الشام، ويستتب له الأمر، ليتسنى له بعد ذلك التمكن من القبض عليهم، لأنهم كانوا كثيرين في جيش علي، ومن قبائل مختلفة، وكان لم يتمكن منهم.

---

(١) البداية والنهاية ٧/١٨٦ .

(٢) وسُمّيت بموقعة الجمل لركوب عائشة رضي الله عنها الجمل خلال المعركة وكانت بمكان يسمى المربد، العواصم من القواصم.



جـ- موقعة الجمل[١]: «٣٦ هـ» وكانت بين عليّ رضي الله عنه وعائشة وطلحة والزبير رضي الله عنهم. وقد أرسل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه القعقاع بن عمرو إلى عائشة فلما قدِم قال: «أي أُمة، ما أشخصك؟ وما أقدمك هذه البلدة؟» قالت: «أي بُني إصلاحاً بين الناس»[٢].

ولهذا بعد اتفاقهم على الصّلح خطب عليّ بن أبي طالب، «بعد أن جمع الناس» وحمد اللّه وأثنى عليه إلى أن قال: «. . . ألا وإني راحل غدا فارتحلوا، ألا ولا يرتحلن معي أحد أعان على قتل عثمان في شيء من أمور الناس»[٣].

فلما قال علي بن أبي طالب هذا، اجتمع من رؤوسهم جماعة كالأشتر النخعي، وشريح بن أبي أوفى، وعبد اللّه بن سبأ، المعروف بابن السوداء، وسالم بن ثعلبة، وعلباء بن الهيثم وغيرهم في ألفين وخمسمائة وليس فيهم صحابي (وللّه الحمد) فقالوا: «ما هذا الرأي؟ وعَلِيّ واللّه أعلم بكتاب اللّه ممن يطلب قتلة عثمان وأقرب إلى العمل بذلك، وقد قال ما سمعتم، غدا يجمع عليكم الناس، وإنما يريد القوم كلهم أنتم. فكيف بكم وعددكم قليل في كثرتهم؟».

فاتفقوا على إعمال السلاح في الجيشين والناس نيام. فوضعوا فيهم السلاح بغتة، فثار أصحاب أهل البصرة «أصحاب عائشة وطلحة والزبير»، وذهبت طائفة منهم إلى أهل الكوفة «أصحاب علي رضي الله عنه» وعملوا فيهم السلاح فثار كل فريق إلى سلاحه وحدثت الفتنة[٤].

د - موقعة صِفِّين[٥]: وكانت بين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ومعاوية بن أبي سفيان

---

(١) البداية والنهاية ٧/ ٢٥٩ - تاريخ الطبري ٤/٤٤٨ والكامل لابن الأثير ٣/ ٢٣٣، راجع منهاج السنة ٢/ ١٨٥ .

(٢) البداية والنهاية ٧/ ٢٦٠ وتاريخ الطبري ٤/ ٤٩٣ .

(٣) البداية والنهاية ٧/ ٢٦٠ - ٢٦٤ وتاريخ الطبري ٤/ ٥٠٦ - ٥٣٥ وفتح الباري ١٣/ ٥٦ وقُتل في هذه المعركة عشرة آلاف، واستشهد فيها عمار بن ياسر، وطلحة، والزبير رضوان اللّه عليهم أجمعين.

(٤) البداية والنهاية ٧/ ٢٧٦ - ٣١٠ تاريخ الطبري ٤/ ٥٦١- ٥/ ٧١، الكامل لابن الأثير ٣/ ٢٧٦ - ٣٣٣ .



رضي الله عنهما، وكانت بعد موقعة الجمل. وكانت بينهما موقعة عظيمة، حتى كاد جيش معاوية أن ينهزم فرفعوا المصاحف فوق الرماح، وكانت هذه بداية الصلح، واتفق الفريقان على التحكيم بعد انتهاء موقعة صفين، وانتدب علي بن أبي طالب أبا موسى الأشعري، وانتدب معاوية عمرو بن العاص، وتمت كتابة الصلح يوم الأربعاء ١٣ من صفر سنة ٣٧ هـ وكانت بنوده:

١- تأجيل القضاء «أي: التحاكم» إلى رمضان.

٢- إذا رأى الطرفان تأجيل هذا الموعد إلى رمضان الذي يليه فلا بأس.

وفي الموعد المقرر جاء وفد عليّ ووفدُ معاوية إلى المكان المحدد وهو «بدومة الجندل»، ثم اتفقا على أن يكون الفصل في موضوع النزاع بين علي ومعاوية لأعيان الصحابة الذين تُوفي رسول اللّه ﷺ وهو راضي عنهم، هذا ما اتفق عليه الحكمان فيما بينهما لا شيء سواه[1].

أما ما في يروى في التاريخ أن أبا موسى قال: «إني أخلع عَلِيّاً»، وقال عمرو: «إني أثبت معاوية»، فهذا كله كذب وافتراء[2]، فمعاوية لم يكن خليفة ولا هو ادّعى الخِلافة يومئذ حتى يحتاج عمرو إلى خلعها عنه أو تثبيتها له.

ولم ينكر معاوية قط فَضْلَ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه واستحقاقه الخلافة، لكن اجتهاده أداه إلى أن رأى تقديم القوَد «القصاص» من قتلة عثمان رضي الله عنه على البيعة ورأى نفسه أحق بطلب عثمان[3].

موقف أهل السُنّة من تلك الفتنة:

١- عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى قال عنها: «تلك دماء طهّر اللّه يدي منها أفلا أُطهّر

---

(١) المصادر السابقة.

(٢) المصادر السابقة وفتح الباري ١٣/ ٥٦ .

(٣) البداية والنهاية ٧/ ٢٧٦- ٣١٠ تاريخ الطبري ٤/ ٥٦١- ٥/ ٧١ وفتح الباري ١٣/ ٥٦ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦/ ١٢٢، الطبقات الكبرى لابن سعد ٥/ ٣٩٤ .

منها لساني؟! مثل أصحاب رسول اللَّه ﷺ مثل العيون، ودواء العيون ترك مسّها»[١].

٢- الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «قتالٌ شَهِدَه أصحاب محمد ﷺ وغِبنا، وعلِموا وجهِلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا»[٢].

٣- جعفر بن محمد الصادق رَحِمَهُ اللَّهُ قال: أقول ما قال اللَّه: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢][٣].

٤- الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما أقول فيهم إلا الحسنى»[٤]،[٥].

٥- عامر بن شَرَحيل الشعبي: «هم أهل الجنة لقي بعضهم بعضا فلم يغر أحد من أحد»[٦].

٦- أبو الحسن الأشعري رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: «فأما ما جرى بين علي والزبير وعائشة رضي الله عنهم فإنما كان على تأويل واجتهاد، وعليّ الإمام، وكلهم من أهل الاجتهاد، وقد شهد لهم النبي ﷺ بالجنة والشهادة، فدلّ على أنهم كلهم على حق في اجتهادهم، وكذلك ما جرى بين عليّ ومعاوية رضي الله عنهما، كان على تأويل واجتهاد، وكل الصحابة أئمة مأمونون غير متهمين في الدين وقد أثنى اللَّه ورسوله على جميعهم، وتعبدنا بتوقيرهم، وتعظيمهم، وموالاتهم، والتبري ممن يُنقص أحدا منهم رضي اللَّه عن جميعهم»[٧].

٧- قال أبو عبد اللَّه بن بطّة: «ومن بعد ذلك نكف عمّا شجر بين أصحاب رسول اللَّه ﷺ فقد شهدوا المشاهد معه وسبقوا الناس بالفضل، فقد غفر اللَّه لهم، وأمرك

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦/ ٣٣٢ .

(٢) الباقلاني في كتاب الإنصاف ٦٩ .

(٣) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ١٦٤ .

(٤) وفي رواية أخرى: أنه عندما سأله رجل عمّا جرى بين علي ومعاوية؟ فأعرض عنه، فقيل له: يا أبا عبد اللَّه هو رجل من بني هاشم، فأقبل عليه، فقال: اقرأ (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون) البقرة ١٤١ «مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ١٢٦».

(٥) البداية والنهاية ٧/ ٣٠٣ .

(٦) الإبانة عن أصول الديانة ٧٨ .



بالاستغفار لهم، والتقرب إليه بمحبتهم، وفَرَض ذلك على لسان نبيه وهو يعلم ما سيكون منهم وأنهم سيُفتنون، وإنما فُضِّلوا على سائر الخلق لأن الخطأ والعمد قد وضع عنهم، وكُلُّ ما شجر بينهم مغفور لهم»(١).

٨- أبو عثمان الصابوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: ويرون «السلف وأصحاب الحديث» الكفَّ عمّا شجر بين أصحاب رسول اللّه ﷺ وتطهير الألسنة عن ذكر ما يتضمن عيبا لهم، ونقصا فيهم، ويرون الترحم على جميعهم والموالاة لكافتهم»(٢).

٩- شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى يقول في عَرضه لعقيدة أهل السنة فيما شجر بين الصحابة: «ويمسكون عمّا شجر بين الصحابة ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذِب، ومنها ما قد زيد فيه ونُقص، وغُيّر عن وجهه والصحيح منه هم فيه معذورون: إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون»(٣).

١٠- قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند قوله ﷺ: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل المقتول في النار»(٤).

«واعلم أن الدماء التي جرت بين الصحابة رضي الله عنهم، ليست بداخلة في هذا الوعيد، ومذهب أهل السنة والحق إحسان الظن بهم، والإمساك عما شجر بينهم، وتأويل قتالهم، وأنهم مجتهدون، متأولون لم يقصدوا معصية، ولا محض الدنيا، بل اعتقد كلُ فريق أنه المحق، ومخالفَه باغ، فوجب عليه قتاله ليرجع إلى أمر اللّه، وكان بعضهم مصيباً وبعضُهم مخطئاً معذوراً في الخطأ، لأنه مجتهد، والمجتهد إذا أخطأ لا إثم عليه، وكان علي رضي الله عنه هو المحق المصيب في تلك الحروب، هذا مذهب أهل السنة، وكانت القضايا مشتبهة، حتى إن جماعة من الصحابة تحيروا فيها،

(١) الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة ٢٦٨ .
(٢) عقيدة السلف أصحاب الحديث ١/ ٢٩ .
(٣) العقيدة الواسطية مع شرحها لمحمد خليل همراس ١٧٣ .
(٤) رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

فاعتزلوا الطائفتين، ولم يقاتلوا، ولم يتيقنوا الصواب، ثم تأخروا عن مساعدته»(١).

١١- الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «. . .نقرر الكف عن كثير مما شجر بين الصحابة وقتالهم رضي اللّه عنهم أجمعين. . .»(٢).

١٢- ابن حجر العسقلاني رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «واتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك، ولو عُرِف المحق منهم، لأنهم لم يُقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد، بل ثبت أنه يؤجر أجرا واحدا، وأن المصيب يؤجر أجرين»(٣).

النصوص التي تشير إلى ما وقع بين الصحابة رضوان اللّه عليهم أجمعين:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]. وقد بين اللّه أن الاقتتال لم يخرجهم عن وصف الإيمان.

٢- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان وتكون بينهما مقتلة عظيمة ودعواهما واحدة»(٤).

٣- وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللّه ﷺ «تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين بالحق»(٥).

٤- وعن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بينا النبي ﷺ يخطب جاء الحسن فقال النبي ﷺ: (ابني هذا سيد ولعلَّ اللّه أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»(٦).

---

(١) شرح النووي ١٨/ ١١ .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٩٢ .
(٣) فتح الباري ١٣/ ٣٤ .
(٤) أحمد والبخاري ومسلم.
(٥) رواه أحمد ومسلم.
(٦) رواه البخاري.



٥- وعن يزيد بن الأصم قال: سُئل عليّ عن قتلى يوم صِفّين فقال: «قتلانا وقتلاهم في الجنة»[١]. وكان يقول أيضا: «هم إخواننا بغوا علينا»[٢].

وقال أيضا: «إني لأرجو أن أكون وطلحة والزبير من الذين قال اللّه عزّ وجلّ فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجرات: ٤٧]»[٣].

* * *

(١) المصنف لابن أبي شيبة ١٥/ ٣٠٣، وسير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي ٣/ ١٤٤ .
(٢) المصنف لابن أبي شيبة ١٥/ ٣٣٢ .
(٣) الطبقات الكبرى ٣/ ١١٣ والبيهقي في الاعتقاد ١٩٥ .

القضية الخامسة والسبعون: قال المُصَنِّف حفظه اللّه:

«نعتقد أن المؤمنين يتفاوتون في درجات الإيمان، فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن اللّه، وكلًا وعد اللّه الحسنى على تفاوت درجاتهم وأعمالهم».

قوله: «نعتقد أن المؤمنين يتفاوتون في درجات الإيمان. .»

الشرح: وهذا التفاوت راجع أساسا إلى أن الإيمان هو:

اعتقاد في الجنان، ونطق في اللسان، وعمل في الأركان. وأنه يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان، كما هي عقيدة أهل السنة والجماعة(١).

فأعمال الجوارح والأركان تتفاوت بين مؤمن وآخر، بل نفس المؤمن تتفاوت درجة إيمانه بين وقت وآخر، وتبعا لهذا التفاوت في الدنيا، تتفاوت درجاتهم في الآخرة.

الأدلة على أن المؤمنين يتفاوتون في درجات الإيمان في الدنيا:

الأدلة من القرآن:

١- قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ﴾ [النسا: ٥٩].

٢- وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠].

٣- وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠]. أي لا يستوي هذا ومن لم يفعل كفعله، وذلك أنّ قَبْلَ فَتْحِ مكةَ كان الحال شديدا فلم يكن يومئذ إلا الصديقون، وأما بعد الفتح

---

(١) راجع هذه القضية في الفقرة: «أولا: مسائل الإيمان باللّه تعالى رقم ١».

فإنه ظهر الإسلام ظهورا عظيما، ودخل النا س في دين اللّه أفواجا»[١].

٤- قال تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٢- ١٦٣]. قال الحسن البصري ومحمد بن إسحاق: يعني أهلَ الخير، وأهل الشّر درجات.

٥- وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١- ١٣٢].

أي ولكل عامل من طاعة اللّه أو معصيته مراتب ومنازل من عمله، يبلغه اللّه إياها ويثيبه بها، إن خيرا فخير وإن شرا فشر[٢].

ثانيا: السنة:

١- قال رسول اللّه ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى اللّه من المؤمن الضعيف وفي كُلٍّ خير»[٣].

٢- وقال رسول اللّه ﷺ: «من رآى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[٤] . فهذا الحديث يوضح أن الذي ينكر بيده أفضل إيمانا من الذي ينكر بلسانه، والمنكر بلسانه أفضل من الناكر بقلبه.

٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: صلى بنا رسول اللّه ﷺ الصبح، ثم أقبل على الناس بوجهه، فقال: «بينما رجل يسوق بقرة، إذ أعيا، فركبها، فضربها» فقالت: «إنّا لم نُخلق لهذا، إنما خلقنا لحراثة الأرض!» فقال الناس: «سبحان اللّه! بقرة تكلّم؟»

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣٩٢ .
(٢) المصدر السابق ٢/ ١٩٨ .
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه مسلم وابن منده في كتاب الإيمان ١/ ٣٤١ .

فقال رسول اللَّه ﷺ: «فإني أُومن به، أنا وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وما هما ثمّ»، ثم قال: «بينما رجل في غنم له، إذ عدا الذئب على شاة منها، فأدركها صاحبها فاستنقذها». فقال الذئب: «من لها يوم السَّبُع، يوم لا راعي لها غيري؟» فقال الناس: «سبحان اللَّه ! ذئب يتكلَّم؟». فقال النبي ﷺ: «فإني أومن به أنا، وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وما هما ثمّ»(١).

٤- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «بينا أنا نائم، رأيت الناس يُعرضون وعليهم قُمص، منها ما يبلغ الثدي، ومنها ما يبلغ دون ذلك، ورأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعليه قميص يجره»، فقالوا: «ما أوّلت ذلك يا رسول اللَّه"، فقال: «الدِّين»(٢).

قوله: «فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن اللَّه» [سورة فاطر ٣٢].

ش: كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]. قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى: ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم المصدق لما بين يديه من الكتب الذين اصطفينا من عبادنا، وهم هذه الأمة، ثم قسّمهم إلى ثلاثة أنواع، فقال تعالى: ﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾ وهو المفرّط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرّمات، ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ وهو المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات. وقال ابن عباس رضي الله عنه: هم أمة محمد ﷺ، ورّثهم

(١) رواه البخاري فتح الباري ٦/ ٥١٢ وأحمد ٢/ ٢٤٥ وابن منده في كتاب الإيمان ١/ ٤٠٩ - ٤١١ .
(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال، فتح الباري ١/ ٧٣ ورواه مسلم وابن منده ١/ ٤١٢ .

اللَّهُ تعالى كلَّ كتاب أنزله، فظالمهم يُغفر له، ومقتصدهم يُحاسب حسابا يسيرا، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب[1].

* * *

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٦٠٩ .

القضية السادسة والسبعون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«نشهد لأي إنسان بالإسلام إذا أعلن الشهادتين أو عمل عملا من أعمال المسلمين سواء عرفناه أو لم نعرفه».

قوله: «نشهد»

الشرح: نشهد، سواء هذه الشهادة كانت قلبية كالاعتقاد أن هذا مسلم، أو شهادة باللسان بأن هذا مسلم، وقد تكون الشهادة بالجوارح (شهادة الحال) كبدئه بالسّلام، وتزويجه، وغسله عند موته، وتكفينه والصلاة عليه ووراثته وغيرها.

قوله: «لأي إنسان»

ش: أي سواء كان ذلك الإنسان مشركا، أو يهوديا، نصرانيا، ملحداً، علمانيا (لا ديني)، قبل أن ينطق أو يعمل عملا يدل على أنه مُسلم.

وسواء كان هذا الإنسان رجلًا أمْ امرأةً، وسواء كان هذا حراً أم عبداً، كما جاء في الحديث قول النبي ﷺ لعبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنه: «أما علمت أن الإسلام يعدم ما كان قبله»[1] أي يمحو ما قبله.

قوله: «بالإسلام»

ش: هذا الدين العظيم وهو خاتم الأديان والذي جاء به خاتم الرسل.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وقوله تعالى: ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]. وقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

---

(١) رواه مسلم حديث رقم ١٢١ .

قوله: «إذا أعلن»

ش: والإعلان في الأصل: إظهار الشيء[(١)]

قوله: «الشهادتين»

ش: أي الاعتراف أن لا إله إلا اللَّه وأَنْ محمداً رسول اللَّه، وهذه الشهادة هي التي تعصم الدم، والمال والعِرض إلا بحقها. وهذه الشهادة لا تنفع صاحبَها في الآخرة إلا إذا كان الاعتراف باللسان، والاعتقاد بالقلب والعمل بالجوارح «ما لم يكن هناك مانع»، وإلا فهي كذب، ولهذا لما قال المنافقون للرسول ﷺ ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١]. وهذه جملة مؤكدة بثلاث مؤكدات: الشهادة، وإن، واللام؛ كذَّبهم اللَّه بقوله: ﴿قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]. فلم ينفعهم هذا الإقرار باللسان، لأنه خَالٍ من الاعتقاد بالقلب، وخال من التصديق بالعمل، فلم ينفع، فلا تتحقق الشهادة إلا بعقيدة في القلب، واعتراف باللسان وتصديقٍ بالعمل[(٢)].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأما «الشهادتان» إذا لم يتكلم بهما مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين، وهو كافر باطنا وظاهرا عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير العلماء»[(٣)].

أما الأدلة على أن إعلان الشهادتين يكفي لأن يُحكم بإسلام الإنسان أو بقرينة تقوم مقامها:

١- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ [النساء: ٩٤].

---

(١) النهاية لابن الأثير ٣/ ٢٩٢ .

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد للشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ١/ ٦٢ .

(٣) الإيمان الأوسط ١٥١ .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال في هذه الآية: «كان رجل في غُنيمة له فلحقه المسلمون»، فقال: «السلام عليكم، فقتلوه وأخذوا غنيمته»(١).

قال الإمام الشوكاني: «أي لا تقولوا لمن ألقى إليكم التسليم، فقال: «السلام عليكم»: لست مؤمنا، المراد نهي المسلمين عن أن يهملوا ما جاء به الكافر مما يستدل به على إسلامه، ويقولوا: إنه إنما جاء بذلك تعوذا وتقيّة»(٢).

وهذه الشهادة «لإنسان ما بالإسلام» مقيّدة بعدم إتيانه بما يناقضها من كفر أو شرك وردة(٣).

فهذا هو الأصل الذي يجب أن يتعامل الناس من خلاله، فمن شهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه، حكمنا بإسلامه ولا يحتاج الإنسان بعد ذلك إلى امتحان بل قد يكون هذا «واللّه أعلم» من البدع المحدثة، فقد أسلم على عهد رسول اللّه ﷺ أمم كثيرة، ولم ينقل عنه، أو عن خلفائه إجراء اختبار أو امتحان لفهمهم، فمن اشترط ذلك فقد اشترط شرطا ليس في كتاب اللّه ولا في سنة رسول اللّه ﷺ، ولقد كانت دعوة الرسول ﷺ عامة للبشر، فكل من نطق بالشهادة سواء من العرب أو العجم صار مسلماً.

ومن أبرز الأدلة حديث أسامة بن زيد السابق ونظيره حديث المقداد بن الأسود، وقوله ﷺ في حديث معاوية بن الحكم السّلمي عندما سأل الجارية: «أين اللّه؟» فقالت: «في السماء»، وقال لها: «من أنا؟» قالت: «رسول اللّه». فقال رسول اللّه ﷺ: «اعتقها فإنها مؤمنة».

(١) تفسير القرآن العظيم ١/٧١٦.
(٢) فتح القدير ١/٥٠١.
(٣) ويأتي تفصيل ذلك في الفقرة القادمة إن شاء اللّه.

قوله: «أو عمِل عملا من أعمال المسلمين»

ش: أيْ عَمِل عملا من أعمال المسلمين كالصلاة أو الزكاة أو الحج أو الجهاد، كما جاء من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بعث علي بن أبي طالب إلى النبي ﷺ من اليمن بذهبية في أدْم مقروض، لم تحصل من ترابها. فقال: فقسّمها بين أربعة نفر، فقال رجل من أصحابه: «كنا أحق بهذا من هؤلاء».

قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحا مساء».

قال: فقام رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة، كث اللحية، محلوق الرأس، مشمّر الإزار. فقال: «يا رسول اللّه ! اتق اللّه»، فقال: «ويلك ! أولستُ أَحقَّ أهل الأرض أن يتقي اللّه؟!» قال: ثم ولّى الرجل، فقال خالد بن الوليد: «يا رسول اللّه! ألا أضرب عنقه؟» فقال: «لا: لعلّه أن يكون يصلي».

قال خالد: «وكم من مصلٍ يقول بلسانه ما ليس في قلبه»، فقال رسول اللّه ﷺ: «إني لم أُومر أن أنقّب عن قلوب الناس ؛ ولا أشق بطونهم»[١].

وهذا كحال المنافقين، فالمنافقون هم في الظاهر مسلمون، وقد كان المنافقون على عهد النبي ﷺ يلتزمون أحكام الإسلام الظاهرة، لا سيّما في آخر الأمر ما لم يلتزمه كثير من المنافقين الذين من بعدهم ؛ لِعز الإسلام وظهوره إذ ذاك حتى من كان يموت منهم يرثه وَرَثُته المؤمنون.

وقد كانوا يشهدون مع النبي ﷺ مغازيَه. كما شهد عبد اللّه بن أُبيّ بن سلول وغيره من المنافقين الغزوة التي قال فيها عبد اللّه بن أبيّ: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨][٢].

---

(١) رواه البخاري ومسلم واللفظ له.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية رحمه الله ٧/٤٦٩ - ٤٧٠، وكذلك الإيمان لابن تيمية ١٩٨، ٢٠١ بتصرف.



وكذلك كانوا في الحقوق والحدود كسائر المسلمين مع أن النبي ﷺ يعلم نفاق كثير منهم.

قوله: «سواء عرفناه أو لم نعرفه»

ش: قوله عرفناه أي عرفناه عن قرب فعرفنا مدخله ومخرجه، وكذلك من لم نعرفه.

فعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه أنه قال: «يا رسول اللَّه! أرأيتَ إن لقيتُ رجلا من الكفار، فقاتلني، فضرب إحدى يديّ بالسيف فقطعها ثم لاذ في شجرة» فقال: «أسلمتُ للَّه»، أفأقتله يا رسول اللَّه بعد أن قالها؟ قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تقتله»، قال: فقلت: «يا رسول اللَّه! إنه قد قطع يدي ثم قال ذلك بعد أن قطعها أفأقتله؟».

قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تقتله! فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال»(١).

٢- وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال: «بعثنا رسول اللَّه ﷺ في سرية فصحبنا الحُرقات من جُهينة، فأدركت رجلًا فقال: «لا إله إلا اللَّه»، فطعنته، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي ﷺ، فقال رسول اللَّه ﷺ: «قال: لا إله إلا اللَّه وقتلته»؟!

قال: «قلتُ يا رسول اللَّه إنما قالها خوفا من السلاح!» قال: «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا»؟! فما زال يكررها عليّ حتى تمنيت أني أسلمتُ يومئذ»(٢).

قال الإمام النووي: وقوله ﷺ: «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا»؟. الفاعل في قوله: «أقالها»: هو القلب.

ومعناه: أنك إنما كُلِّفت بالعمل بالظاهر، وما ينطق به اللسان، وأما القلب فليس لك طريق إلى معرفة ما فيه، فأنكر عليه امتناعه من العمل بما ظهر باللسان، وقال: «أفلا شققت عن قلبه لتنظر هل قالها القلب واعتقدها وكانت فيه أم لم تكن فيه، بل جرت

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم.



على اللّسان فحسب».

يعني وأنت لست بقادر على هذا فاقتصر على اللّسان فحسب، يعني ولا تطلب غيره. وكذلك فيه دليل للقاعدة المعروفة في الفقه والأصول أن الأحكام يُعمل فيها بالظواهر واللَّه يتولى السرائر[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وقد عُلِم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ واتفقت عليه الأمة، أن أصل الإسلام، وأول ما يؤمر به الخلق: شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدا رسول اللَّه، فبذلك يصير الكافر مسلما والعدو وليا، والمباح دَمهُ ومالهُ: معصوم الدم والمال»[2].

قال الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إن الأصلَ الحكمُ بالظاهر مقطوع به في الأحكام خصوصا..» إلى أن قال: «.. فالاعتبارات الغيبية مهملة بحسب الأوامر والنواهي الشرعية»[3].

وقال الإمام البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«.. أن أمور الناس في معاملة بعضهم بعضا إنما تجري على الظاهر من أحوالهم دون باطنها، وأن من أظهر شعار الدين أُجري عليه حكمه، ولم يُكشف عن باطن أمره، ولو وجد مختون فيما بين قتلى غلف «غير مختونين» عُزِل عنهم في المدفن»[4].

* * *

(١) صحيح مسلم بشرح الإمام النووي ٢/ ١٠٤، ١٠٧ .
(٢) نقلا عن فتح المجيد ٨٩ .
(٣) الموافقات للشاطبي ٢/ ٢٧١ - ٢٧٢ .
(٤) شرح السنة للإمام البغوي ١/ ٧٠ .

القضية السابعة والسبعون: قال المُصَنِّف حفظه اللّه:

«ولا نُخرِج من الإسلام أحداً فعل مُكَفِّرا إذا كان جاهلا أو متأولّا أو مضطرا أو ظاناً أن هذا من المصالح الشرعية ما لم تقم الحجة عليه في كل ذلك».

قوله: «ولا نُخرج من الإسلام أحد فعل مكفراً...»

الشرح: قوله (ولا نُخرج) أي لا نُكفِّر[١] مسلما دخل الإسلام ثم فعل يوجب الكفر إذا كان متلبسا عند فِعْلِه بجهل، أو تأويل، أو اضطرار، وهي ما تسمى بموانع التكفير.

قوله: «جاهلا»

ش: والجهل يأتي لمعانٍ عدة منها:

١- خُلو النفس من العلم[٢].

٢- اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه[٣].

٣- فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يُفعل، سواء عقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسدا[٤] كما قال تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، قال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي لئلا تصيبوا قوما، أو كراهة أن تصيبوا قوماً بجهالة، أي لظنكم أن النبأ الذي جاء به الفاسق حقا فتصبحوا على ما فعلتم من إصابتكم القوم المذكورين نادمين، لظهور كَذِبِ الفاسقِ فيما أنبأ به عنهم»[٥].

من أدلة العذر بالجهل:

١- ما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «كان رجل يُسرف على نفسه، فلما

---

(١) سيأتي بحث مسألة التكفير في الفقرة (٧٨) إن شاء اللّه، انظر كتاب البراءة والتحذير للمؤلف.
(٢) لسان العرب ١١/١٢٩ والمفردات ١٠٢ .
(٣) المفردات ١٠٢ .
(٤) المصدر السابق.
(٥) أضواء البيان ٧/٦٢٧ .



حضره الموت قال لبنيه: «إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذروني في الريح، فوالله لئن قَدِرَ اللَّهُ عليّ ليعذّبني عذاباً ما عذبه أحداً»، فلما مات فُعل به ذلك، فأمر اللَّه الأرض، فقال: «اجمعي ما فيك منه»، ففعلت فإذا هو قائم فقال: «ما حملك على ما صنعت؟» قال: «يا رب خشيتك»، فغفر له[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليقه على هذا الحديث:

«فهذا الرجل ظنّ، أن اللَّه لا يقدر عليه إذا تفرق هذا التفرق، فظن أنه لا يعيده إذا صار كذلك، وكل واحد من إنكار قدرة اللَّه تعالى وإنكار معاد الأبدان وإن تفرقت كُفر لكنه كان مع إيمانه باللَّه وإيمانه بأمره وخشيته منه جاهلًا بذلك، ضالًا في هذا الظن مخطئا فغفر اللَّه له ذلك...»[٢].

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «... وأما من جحد ذلك جاهلًا، أو تأويلًا يُعذر فيه صاحبُه: فلا يُكفر صاحبُه به، كحديث الذي جحد قدرة اللَّه عليه، وأمر أهله أن يحرقوه ويذروه في الريح، ومع هذا فقد غفر اللَّه له ورحمه لجهله، إذ كان ذلك الذي فعله مبلغَ عِلْمه، ولم يجحد قدرة اللَّه على إعادته عناداً أو تكذيباً»[٣].

وقال الحافظ ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: «.... وأما جهل هذا الرجل المذكور في هذا الحديث بصفة من صفات اللَّه في علمه وقدرته، فليس ذلك بمُخْرِج من الإيمان»[٤].

وقال الإمام ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهذا إنسان جهل إلى أن مات أَنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ يقدر على جَمْع رماده وإحيائه وقد غُفر له لإقراره وخوفه وجهله»[٥].

وقال الإمام الخطّابي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد يُستشكَل هذا فيقال: كيف يُغفر له وهو مُنكر

---

(١) متفق عليه.
(٢) مجموع الفتاوى ١١/ ٤٠٩ .
(٣) مدارج السالكين ١/ ٣٦٧ .
(٤) التمهيد ١٨/ ٤٦ .
(٥) الفصل ٣/ ٢٥٢ .

للبعث والقدرة على إحياء الموتى؟ والجواب: «أنه لم يُنكر البعث، وإنما جَهِل، فظن أنه إذا فُعل به ذلك لا يُعاد فلا يُعذَّب، وقد ظهر إيمانه باعترافه بأنه إنما فعل ذلك من خشية اللَّه»(١).

٢- ما رواه أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال: «خرجنا مع رسول اللَّه ﷺ إلى حُنين ونحن حديثو عهد بكفر - وكانوا أسلموا يوم الفتح- قال: فمررنا بشجرة، قلنا: «يا رسول اللَّه! اجعل لنا ذات أنواط(٢) كما لهم ذات أنواط وكان للكفار سدرة يعكفون حولها ويُعلِّقون بها أسلحتهم يَدعونها: ذات أنواط، فلما قلنا ذلك للنبي ﷺ قال: «اللَّه أكبر! قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

«لتركبن سَنن من كان قبلكم»(٣)، وقوله «ونحن حديثو عهد بكفر» معناه: أنه يُعتذر عما طلبوا، حيث طلبوا أن يُجعل لهم ذاتُ أنواط فهم يُعذرون لجهلهم بكونهم حدثاء عهد بكفر(٤). وكون النبي ﷺ لم يُكفِّرهم، ليس معناه أنه يصحح قولهم بل أنكر عليهم بقوله: «اللَّه أكبر إنها السنن لتتبعن سنن من كان قبلكم».

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «... وكذلك من الذين نهاهم النبي ﷺ لو لم يطيعوه واتخذوا ذات أنواط بعد نهيه لكفروا، وهذا هو المطلوب، لكن القصة تفيد أن المسلم بل العالِم قد يقع في أنواع من الشرك، وهو لا يدري عنها، فتفيد لزوم التعلّم والتحرّز....، وتفيد أن المسلم المجتهد إذا تكلّم بكلام كُفر وهو لا يدري فنُبه على ذلك فتاب من ساعته، أنه لا يُكفر كما فعل بنو إسرائيل والذين سألوا النبي ﷺ»(٥).

---

(١) فتح الباري ٦/٥٢٣ .
(٢) ذات أنواط اسم شجرة.
(٣) رواه أحمد والترمذي وقال حسن صحيح، وابن جرير الطبري وعبد الرزاق في مصنفه وابن عاصم في السنن، وحسّنه الألباني.
(٤) القول المفيد على كتاب التوحيد ١/ ٢٠٩ للشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله .
(٥) كشف الشبهات ٤٥، ٤٦ .

٣- حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يدرس[١] الإسلام كما يدرس وشي الثوب[٢] حتى لا يُدرى ما صيام، ولا صلاة، ولا نُسك ولا صدقة، وليسرى على كتاب اللّه عزَّ وجلَّ في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس: الشيخ الكبير والعجوز، يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة: «لا إله إلا اللّه»، فنحن نقولها، فقال له صلة[٣]: «ما تُغني عنهم لا إله إلا اللّه وهم لا يدرون ما صلاة، ولا صيام، ولا نسك، ولا صدقة؟» فأعرض عنه حذيفة، ثم ردها عليه ثلاثا كل ذلك، يُعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة، فقال: «يا صلة! تنجيهم من النار»، ثلاثاً»[٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وكثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنة التي يندرس فيها من علوم النبوات، حتى لا يبقى من يُبلِّغ ما بعث اللّه به رسوله من الكتاب والحكمة، ولا يُعلم كثيراً مما بعث اللّه به رسوله ﷺ، ولا يكون هناك من يبلغه ذلك، ومثل هذا لا يكفر، ولهذا اتفق الأئمة على أنَّ مَن نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم والإيمان، وكان حديث العهد بالإسلام فأنكر هذه الأحكام الظاهرة المتواترة فإنه لا يُحكم بكفره حتى يُعرَّف ما جاء به الرسول ﷺ»[٥]

أما من كان جهله ناشئاً عن تفريط وإهمال مع قيام المقتضي للتعلم، فإنه لا يعذر سواء في الكفر أو في المعاصي. كالساكن في المدن يستطيع أن يسأل، لكن عنده تهاون وغفلة فهذا لا يعذر لأن الغالب في المدن أن هذه الأحكام لا تخفى عليه ويوجد فيهم علماء يستطيع أن يسألهم بكل سهولة[٦]، ولهذا نجد أن النبي ﷺ يعذر الأعراب، وذلك لجهلهم بسبب البيئة التي ينشأون بها. في حين يغلظ على

(١) يدرس: الدرسان: الخلقان من الثياب (النهاية ٢/ ١١٣) أي يُبلى.
(٢) لونه ونقشه ونسجه (لسان العرب ١٥/ ٣٩٢).
(٣) صلة: هو أبو العلاء بن زُفر العبسي تابعي كبير ثقة جليل.
(٤) رواه ابن ماجة والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان وصححه الألباني (الجامع ٨٠٧٧ والصحيحة ٨٧ .
(٥) مجموع الفتاوى ١١/ ٤٠٧ .
(٦) الشيخ محمد بن صالح بن العثيمين في القول المفيد ١/ ١٧١ .

الصحابة لأن مقتضى العلم قائم، كما أغلظ على من أمروا المجروح أن يغتسل بَدَلَ التيمم كما جاء من حديث جابر رضي الله عنه قال: «خرجنا في سفر فأصاب رجلًا منا حجرٌ، فشجه في رأسه، ثم احتلم فسأل أصحابه، فقال: «هل تجدون لي رخصة في التيمم؟» قالوا: «ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء»، فاغتسل، فمات، فلما قدمنا على النبي ﷺ أُخبر بذلك فقال: «قتلوه قاتلهم اللَّه ! ألا سألوا إذ لم يعلموا؟ فإنما شفاء العِّي السؤال، إنما كان يكفيه...»[١].

٤- ما رواه عبد اللَّه بن أبى أوفى قال: «لما قدِم معاذ بن جبل رضي الله عنه من الشام سَجَدَ للنبيﷺ . قال النبي ﷺ: «ما هذا يا معاذ؟» قال: «أتيتُ الشام فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم، فوددت في نفسي أَن نفعل ذلك بك». فقال رسول اللَّه ﷺ: «فلا تفعل ! فإني لو كنت آمراً أحدً أن يسجد لغير اللَّه، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»[٢].

قال الشوكاني رحمه الله : «وفي هذا الحديث دليل على أنّ مَن سَجَدَ جاهلا لغير اللَّه لم يكفر»[٣] والظاهر أن هذا السجود، كان سجود تحية، كما قال ابن كثير رحمه الله في تفسير سورة يوسف عند قوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ﴾ وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم إذا سلّموا على الكبير يسجدون له[٤] ثم ساق حديث معاذ وسجوده لرسول اللَّه ﷺ، وكذلك حديث سلمان رضي الله عنه عندما لقي النبي ﷺ في بعض طرق المدينة، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام، فسجد للنبي ﷺ فقال: «لا تسجد لي يا سلمان ! واسجد للحي الذي لا يموت»[٥].

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والدار قطني والحاكم وزاد الدار قطني: لو غسل جَسَده، وترك رأسَه حيث أصابته الجراح أجزاه، والحديث صححه الألباني الجامع ٤٣٦٢ والإرواء ١٠٥ .
(٢) رواه ابن ماجة وابن حبان والبيهقي وحسنه الألباني (إرواء الغليل ٧/ ٥٦).
(٣) نيل الأوطار ٦/ ٢٣٤ .
(٤) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٦٤٥ .
(٥) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال برقم ١٩٨٦٠ وعزاه للديلمي (ولم أجده في مسند الفردوس المطبوع).

قوله: «. . . أو متأولًا . .»

ش: **التأويل في اللغة:** التأويل المرجع والمصير، مأخوذ من آل يؤول إلى كذا أي صار إليه، وأولته: صيرته إليه[١].

التأويل في الاصطلاح:

١- حقيقة ما يؤول إليه الكلام، إن وافق ظاهره. وهذا هو المعنى الذي يراد بلفظ التأويل في الكتاب والسنة لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]. ومنه قول عائشة رضي الله عنها: «كان رسول اللّه ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللّه ربنا ولك الحمد، اللّهم اغفر لي»، يتأول القرآن»[٢].

٢- أن يراد بلفظ التأويل «التفسير» وهو اصطلاح كثير من المفسرين، ولهذا قال مجاهد «إمام أهل التفسير»: «إن الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه».

٣- أن يراد بلفظ التأويل: صَرْفُ اللفظ الذي يدل عليه ظاهره إلى ما يخالف ذلك لدليل منفصل يوجب ذلك، وهذا التأويل لا يكون إلا مخالفاً لما يدل عليه اللفظ ويبينه. وتسمية هذا تأويلًا لم يكن من عُرف السلف[٣].

أدلة العذر بالتأويل[٤]:

١- في الرجل الذي قال: «إذا أنا متُ فأحرقوني ثم اسحقوني، ثم ذروني في اليمّ، فو اللّه لأن قدر اللّه عليّ ليعذّبني عذاباً ما عذبه أحداً من العالمين، ففعلوا به ذلك،

---

(١) لسان العرب ١١/٣٢، ٣٤ .

(٢) رواه البخاري.

(٣) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٤/٦٨-٦٩ والطحاوية ٢٣١- ٢٣٦.

(٤) ليس المقصود هنا الفِرَق التي تجعل التأويل أصلًا من أصولها، ولكن البحث يقتصر على حكم من فعل مكفراً متأولًا بشُبهةَ، هل يعذر؟ وعندما نقول يعذر لا نقصد أنه لا يُنكر عليه ولا يؤنّب ولا يوّبخ. ولكن نقصد هل يُكَفَّر أم لا؟.

فقال اللَّه له: «ما حملك على ما فعلت» قال: «خشيتك فغفر له»(١)، قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهذا الرجل شكّ في قدرة اللَّه، وفي إعادته إذا ذُري بل اعتقد أنه لا يُعاد وهذا كفر باتفاق المسلمين، لكن كان جاهلًا، لا يعلم ذلك، وكان مؤمنا يخاف اللَّه أن يعاقبه،فغفر له بذلك، والمتأول من أهل الاجتهاد الحريص على متابعة الرسول ﷺ أولى بالمغفرة في مثل هذا»(٢).

وقال ابن الوزير(٣) رَحِمَهُ اللَّهُ: «... وهذا أرجى حديث لأهل الخطأ في التأويل»(٤) وقال في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦]. إن المتأولين غيرُ كفار لأن صدورهم لم تنشرح بالكفر قطعا أو ظناً أو تجويزاً أو احتمالًا».

٢- وقال القرطبي تأولَ الصحابي الجليل قدامة بن مظعون الجمحي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣].

فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أن الشُّراب كانوا يُضربون في عهد رسول اللَّه ﷺ ثم كان عمر من بعده يجلدهم كذلك أربعين حتى أُتي برجل من المهاجرين الأولين «قدامة بن مظعون الجمحي» وقد شرب، فأُمِر به أن يُجلد، فقال: «لِم تجلدني؟ بيني وبينك كتاب اللَّه !» فقال عمر: «وفي أي كتاب اللَّه تجد ألا أجلدك؟» فقال له: «إن اللَّه تعالى يقول في كتابه: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ [المائدة: ٩٣]، فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وآمنوا، ثم اتقوا وأحسنوا، شهدتُ مع رسول اللَّه ﷺ بدراً وأُحُداً والخندق، والمشاهد كلها»، فقال عمر: «ألا تردون عليه ما يقول!؟» فقال ابن عباس: «إن هؤلاء الآيات أُنزلن عذراً لمن غَبَر وحُجّة على الناس،

(١) متفق عليه.
(٢) مجموع الفتاوى ٣/ ٢٣١ .
(٣) أبو عبد اللَّه محمد بن المرتضي اليماني من مجتهدي القرن الثامن الهجري.
(٤) إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذاهب الحق في أصول التوحيد ٤٣٦ .

لأن اللَّه تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ [المائدة: ٩٠]، ثم قرأ حتى أنفذ الآية الأخرى، «فإن كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات» الآية، فإن اللَّه قد نهاه أن يشرب الخمر، فقال عمر: «صدقت ماذا ترون؟[١]»، وفي رواية فقال عمر: «أخطأت التأويل يا قُدامة» إذا اتقيت اللَّه، اجتنبت ما حرم اللَّه[٢]، وروي عن علي رضي الله عنه أن قوماً شربوا بالشام وقالوا: «هي لنا حلال» وتأولوا هذه الآية[٣] فأجمع عليّ وعمر رضي الله عنهما على أن يُستتابوا[٤]، فإن تابوا وإلا قتلوا[٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وكذلك قوله ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار»[٦]، وقال أيضا: «يجب العمل به في تحريم قتال المؤمنين بغير حق، ثم إنّا نعلم أن أهل الجمل وصفيّن[٧] ليسوا في النار، لأن لهما عذراً وتأويلًا في القتال، وحسنات منعت المقتضى أن يعمل عمله»[٨].

قال الإمام الشافعي رحمه الله: «. . . فلم نعلم أحداً مِن سَلَفِ الأمة يُقتدي به، ولا في التابعين بعدهم ردّ شهادة أحد بتأويل وإن خطّأه وضلّله، ورآه استحل فيه ما حُرّم عليه، ولا ردّ شهادة أحد بشيء من التأويل إن كان له وجه يحتمله، وإن بلغ فيه استحلال الدم، والمال، أو المفرِط من القول، وذلك أنّا وجدنا الدماء أعظم ما يُعرِض اللَّه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦/ ٢٩٧ .

(٢) رواه الحميدي نقلًا من الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٢٩٧

(٣) وروي عن سبب نزول الآية السابقة هو كما قال ابن عباس رضي الله عنه: «لما حُرمت الخمر قال ناس: يا رسول اللَّه أصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها فأنزل اللَّه: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ [المائدة: ٩٣]. وفي رواية «فقال بعض القوم: قُتِل قوم وهي في بطونهم». رواه البخاري عن أنس تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٣٣ والقرطبي ٦/ ٢٩٣) ».

(٤) أي يستتابوا بقولهم إنها حلال.

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦/ ٢٩٩ .

(٦) رواه بخاري ومسلم.

(٧) معركة الجمل التي دارت بين جيش علي وعائشة رضي الله عنهما، ومعركة صفين هي التي دارت بين جيش علي ومعاوية.

(٨) مجموع الفتاوى ٢٠/ ٢٦٥ .



بها بعد الشرك، ووجدنا متأولين يستحلّونها بوجوه، وقد رغّب لهم نظراؤهم عنها وخالفوهم فيها ولم يردّوا شهادتهم بما رأوا من خلافهم فَكُلُّ مُستحلٍ بتأويل من قول أو غيره فشهادته ماضية ولا تُرد من خطأ في تأويله»[١].

وقد نقل ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أمثلة كثيرة من تأويلات الصحابة والسلف رضي الله عنهم ثم قال: «وهذا باب واسع،فإنه يدخل فيه جميع الأمور المحرَّمة بكتاب أو سنة، إذا كان بعض الأُمة لم يبلغهم أدلةُ التحريم فاستحلوها، أو عارض تلك الأدلة عندهم أدلة أخرى رأوا رجحانها عليها، مجتهدين في ذلك الترجيح بحسب عقلهم وعلمهم».

وقال كذلك: **أن الناس في هذه المسألة على قولين:**

أحدهما: وهو قول عامة السلف والفقهاء: أنّ حُكْمَ اللّه واحد، وأن من خالفه باجتهاد سائغ: مخطئ معذور مأجور، فعلى هذا يكون ذلك الفعل الذي فعله المتأولُ بعينه حراماً، لكن لا يترتب أثر التحريم عليه لعفو اللّه عنه، فإنه لا يكلف نفساً إلا وسعها.

والثاني: في حقه ليس بحرام لعدم بلوغ دليل التحريم له، وإن كان حراماً في حق غيره، فتكون نفس حركة ذلك الشخص ليست حراماً والخلاف متقارب، وهو شبيه بالاختلاف في العبارة[٢].

وقال ابن الوزير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فكذلك جميع أهل التأويل من أهل الملة، وإن وقعوا في أفحش البدع والجهل، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما سُئل عن الخوارج: «أكفار هم؟» قال: «مِن الكفر فروا»[٣].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا كان المسلم متأولًا في القتال أو التكفير لم يكفر بذلك»[٤].

---

(١) الأم ٦/ ٢٠٥، ٢٠٦ .
(٢) مجموع الفتاوى ٢٠/ ٢٦٨-٢٦٩ .
(٣) إيثار الحق ٤٣٧ .
(٤) مجموع الفتاوى ٣/ ٢٨١- ٢٨٣ .

ولكن يبقى سؤال، وهو:

هل كل تأويل صاحبه معذور؟

قال الملّا القاري الحنفي: «.... وأما من يتأول النصوص الواردة في حشر الأجساد، وحدوث العالَم، وعلم الباري بالجزئيات، فإنه يكفر لما عُلِم قطعاً من الدين أنها على ظواهرها بخلاف ما ورد في عدم خلود أهل الكبائر في النار لتعارض الأدلة في حقهم»[١].

وقال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد تسمّى باسم الإسلام من أجمع جميع فِرق الإسلام على أنه ليس مسلماً مثل طوائف من الخوارج غلوا» فقالوا: «إن الصلاة ركعة بالغداة، وركعة بالعشي فقط..،» وقالوا: «إن سورة يوسف ليست من القرآن،» وطوائف كانوا من المعتزلة ثم غلوا فقالوا: «بتناسخ الأرواح»[٢].

قال ابن الوزير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... وكذلك لا خلاف في كفر من جحد ذلك المعلوم ضرورة للجميع، وتستر باسم التأويل فيما لا يمكن تأويله: كالملاحدة في تأويل جميع الأسماء الحسنى، بل جميع القرآن، والشرائع، والمعاد الأخروي من البعث والقيامة، والجنة والنار، وإنما يقع الأشكال في تكفير من قام بأركان الإسلام الخمسة المنصوص على إسلام من قام بها إذا خالف المعلوم ضرورة للبعض أو للأكثر لا للمعلوم له، وتأول، وعلمنا من قرائن أحواله أنه ما قصد التكذيب، أو التبس ذلك علينا في حقه، وأظهر التدين والتصديق بجميع الأنبياء والكتب الربانية، مع الخطأ الفاحش في الاعتقاد، ومضاده الأدلة الجلّية، ولكن لم يبلغ مرتبة الزنادقة...»[٣]، وقال أيضاً «... أمّا من كذّب اللفظ المنزل، أو جحده، كفر، متى كان مّمن يُعلم بالضرورة أنه يعلمه بالضرورة، وإنما الكلام في طوائف الإسلام

(١) شرح الفقه الأكبر ٦٩ .
(٢) الفصل في الملل والنحل ٢/ ١١٤ .
(٣) إيثار الحق ٤١٥ .

الذين وافقوا على الإيمان بالتنزيل، وخالفوا في التأويل فهؤلاء لا يُكفَّر منهم إلا من تأويله تكذيب، ولكن سمّاه تأويلًا مخادعة للمسلمين ومكيدة للدين: كالقرامطة الذين أنكروا وصف اللَّه تعالى بكونه موجوداً وعالماً وقادراً ونحو ذلك من الصفات التي علم الكافة بالضرورة أن النبي ﷺ جاء بها على ظاهرها...»[(١)]

وقال العلامة ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «.... أما أهل السنة والجماعة فيسلكون معهم ومع جميع أهل البدع المسلك المستقيم المبني على الأصول الشرعية، والقواعد المرضية، يُنصفونهم، ولا يُكفِرون منهم إلّا من كفره اللَّه ورسوله، ويعتقدون أن الحكم بالكفر والإيمان من أكبر حقوق اللَّه وحقوق رسوله ﷺ، فمن جَحَدَ ماجاء به الرسول، أو جحد بعضه غير متأول من أهل البدع فهو كافر، لأنه كذّب اللَّه ورسوله، واستكبر على الحق وعانده، فكل مبتدع: من جهمي وقدري وخارجي، ورافضي ونحوهم عُرف أن بدعته مناقضة لما جاء به الكتاب والسنة ثم أصرّ عليها، ونصرها، فهو كافر باللَّه العظيم، مشاقٍ للَّه ورسوله من بعد ما تبين له الهدى، ومن كان من أهل البدع مؤمناً باللَّه ورسوله ظاهراً وباطناً مُعظِّماً للَّه ورسوله ملتزماً ما جاء به الرسول ﷺ، ولكنه خالف الحق، وأخطأ في بعض المقالات، وأخطأ في تأويله، من غير كفر وجحد للَّهدى الذي تبين له، لم يكن كافراً، ولكنَّه يكون فاسقاً مبتدعاً، أو مبتدعاً ضالّا»[(٢)].

ضوابط الإعذار بالتأويل:

الضابط الأول: يتعلق بالمتأول

أن يكون المتأول مسلماً مؤمناً من أهل القبلة الذين ضلّوا وأخطئوا في فهم ما جاء به الكتاب والسنة، مع إيمانهم بالرسول ﷺ واعتقادهم صدقه في كل ما قال.

فيخرج من هذا القيد سائر الكفرة والزنادقة المتستري تحت ستار التأويل وقصدهم

---

(١) العواصم والقواصم ١٧٦/٤ .
(٢) الإرشاد إلى معرفة الأحكام للسعدي ٢٠٩ .

هو هدم الإسلام.

كالباطنية، والرافضة وأشباههم، والذي عدّ (ابن الوزير) تأويلهم تكذيباً ومخادعتا للمسلمين ومكيدة للدّين.

الضابط الثاني: يتعلق بالمقصد الباعث على التأويل:

بأن يكون القصد الباعث والحامل على التأويل الاجتهاد في تقرير الحقّ، وطلب الذي جاء به النبي ﷺ.

كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما قيل له بشأن الخوارج: «أمشركون هم؟». قال: «مِن الشِّرك فرّوا»[1].

وكما قال ابن تيمية رحمه الله: «إن المتأول الذي قصده متابعة الرسول ﷺ لا يُكَفَّر ولا يُفسَّق إذا اجتهد».

فأخرج هذا القيد أصحاب المقاصد الباطلة: كأهل الأهواء الذين قد لا يخفى عليهم الحقّ والدلالة النّصيّة الصحيحة، إلا أنهم يتأولونه على غير ذلك لشهوات نفسية ومقاصد رديئة خبيثة.

الضابط الثالث: يتعلق بنوع التأويل.

بأن يكون التأويل سائغاً في الّلغة، وله وجه عند أهل العلم والنّظر.

وبهذا الاعتبار صرّح (ابن حجر) رحمه الله ناقلًا ذلك عن أهل العلم قولهم: «كل متأوّل معذور بتأويله، ليس بآثم إذا كان تأويله سائغاً في لسان العرب، وكان له وجه في العلم».

ولهذا قال الإمام أبو عبيد في سياق حديثه عمّن أخرج العمل من الإيمان (من مرجئة الفقهاء): «فذكرنا ما كان من مفارقة القوم إيّانا، أن العمل من الإيمان على أنهم وإن

---

(١)منهاج السنة النبوية ٤/ ٤٥٤ ابن تيمية والبيهقي في السنن الكبرى ٨/ ٣٠٣ .



كانوا بِنا مفارقين، فإنهم ذهبوا إلى مذهب قد يقع الغلط في مثله[١].

ولهذا السبب لم يحكم العلماء في هؤلاء المخالفين بالخروج من السنّة، مع موافقتهم للمرجئة في أصل قولهم، وإنما كانوا يُخطئونهم من غير تأثيم ولا تجريح.

قوله: «..... أو مضطراً»

ش: والاضطرار: هو دفع الإنسان إلى ما يضره، وحمله عليه، أو إلجاؤه إليه. والملجيء إلى ذلك إما أن يكون من نفس الإنسان، وحينئذ لا بد أن يكون الضرر حاصلًا أو متوقعاً يُلجئ إلى التخلص منه عملًا بقاعدة «ارتكاب أخف الضررين»، الثابتة عقلًا وطبعاً وشرعاً، وإما أن يكون الملجئ من غير نفس الإنسان كإكراه القوي ضعيفاً على ما يضره[٢]، والأصل فيها قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩].

والذي يهمنا في مبحث الاضطرار هو: «الاضطرار المُلجئ من غير نفس الإنسان كإكراه القوي ضعيفاً على ما يضره» وخاصة قضية الإكراه على الكفر.

تعريف الإكراه:

الإكراه في اللغة: «كره الشيء كرها وكراهة: خلاف أحبه، فهو كريه ومكروه، وأكرهه على الأمر: قهره عليه، وكرّه إليه الأمر، صيّره كريهاً إليه والمكره: ما يكرهه الإنسان ويشق عليه، وجمعه مكاره»[٣].

الإكراه في الاصطلاح: حمل الغير على أمر يمتنع عنه، بتخويف يقدر الحامل على

---

(١)كتاب الإيمان ٣١ . انظر التكفير وضوابطه للأستاذ إبراهيم بن عامر الرحيلي حفظه اللّه.
(٢) مُغني المحتاج ٣٠٦/٤ .
(٣) المعجم الوسيط ٧٩١/٢ .

إيقاعه، ويصير الغير خائفا به(١).

وقال ابن حزم: «والإكراه هو كل ما سمّي في اللغة إكراهاً، وعُرف بالحس أنه إكراه، كالوعيد بالقتل، مّمن لا يؤمَن منه إنفاذ ما توعد به»(٢).

وقال ابن حجر: «هو إلزام الغير بما لا يريده»(٣).

شروطه:

١- أن يكون المكرِه (الحامل) متمكناً من إيقاع ما هدد به، فإن لم يكن متمكناً من إيقاع ما هدد به، وكان المكرَه عالماً بذلك كان تهديده لغواً لا عبرة به.

٢- أن يكون المكرَه (الفاعل) خائفاً من هذا التهديد، وتيقّن، وغلب على ظنه أنه سيوقع الأذى به، وأن يفعل ما أكره عليه تحت تأثير هذا الخوف.

٣- أن يكون المكره به، أي ما هُدد به ضرراً يلحق النفس بإتلافها، أو بإتلاف عضو منها، أو بما دون ذلك: كالحبس والقيد والضرب(٤).

أدلته:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣].

٢- قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أخبر تعالى عمّن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره

---

(١) كشف الأسرار عن أصول الإسلام. البردوي ٤/ ٤٨٢ .
(٢) المحلي لابن حزم ٨/ ٣٣ .
(٣) فتح الباري ١٢/ ٣١١ .
(٤) المغنى ٧/ ١٢٠، المهذّب ٢/ ٨٣ .

بالكفر واطمأن به، أنه قد غضب عليهم لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، ولكن اللَّه استثنى ممن كفر بلسانه، ووافق المشركين بلفظه مكرَها لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان باللَّه ورسوله».

وقال أهل التفسير أن هذه الآية نزلت في عمار ﷺ فقد «أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «كيف تجد قلبك؟» قال: «مطمئناً بالإيمان». قال النبي ﷺ: «إن عادوا فَعُد»، وفي رواية البيهقي: «أنه سبّ النبي ﷺ وذَكَر آلهتَهم بخير»[(١)].

قال أبو بكر الجصاص رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا أصل في جواز إظهار كلمة الكفر في حالة الإكراه»[(٢)].

قال ابن العربي المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لما سمح اللَّه تعالى بالكفر به، وهو أصل الشريعة عند الإكراه، ولم يؤخذ به، حمل العلماء عليه فروعَ الشريعة، فإذا وقع الإكراه عليها لم يؤاخذ به»[(٣)].

قال الإمام الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ أي اعتقده وطابت نفسه واطمأن إليه»[(٤)].

وقال ابن بطال: «أجمَعوا على أن من أُكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتلَ فكفر، وقلبه مطمئن بالإيمان، أنه لا يُحكم عليه بالكفر ولا تَبين منه زوجتُه»[(٥)].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «إنَّ اللَّه تعالى وضع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استُكرهُوا

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٧٧١- ٧٧٦ والطبري ١٤/ ١٨٢ والحاكم ٣/ ٣٨٨ وابن حجر فتح الباري ٧/ ٩٢ .
(٢) أحكام القرآن ٣/ ١٩٢ .
(٣) أحكام القرآن ٣/ ١١٨٠ .
(٤) فتح القدير ٣/ ١٩٦ .
(٥) فتح الباري ١٢/ ٣١٤ والقرطبي ١٠/ ١٨٢ .

عليه»[١]، ويجب أن نعلم أن الإسلام وإن رخّص قولَ كلمة الكفر، إلا أن الصبر أفضل.

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أجمعوا على أن من أُكره على الكفر، واختار القتلَ أنه أعظم أجرا عند اللّه ممن اختار الرخصة»[٢].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والأفضل والأَوْلى أن يثبت المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتله»[٣].

كما صبر ياسر وسُميّة وبلال رضوان اللّه عليهم، وكما صبر قبلهم أصحاب الأخدود وسحرةُ فرعون، وما رواه خباب بن الأرت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وما كانوا يلاقون من كفار قريش، قال رسول اللّه ﷺ: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيُجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويُمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه»[٤]. وخاصة إذا كان هذا قدوة، ولهذا لما سئل الإمام احمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن العالِم، وهل يأخذ بالتقيّة. قال: «إذا أجاب العالم تقيّة والجاهل يجهل، فمتى يتبيّن الحق؟»[٥].

قوله: «أو ظاناً أن هذا من المصالح الشرعية».

ش: وهذا يمكن إدخاله في باب التأويل كما سبق بيانه.

الخطأ[٦]:

الخطأ لغة: والخطأ يطلق ويراد به ما قابل الصواب، ويطلق ما قابل العمد[٧].

---

(١) رواه ابن ماجة وصححه الألباني صحيح الجامع ١٨٣٢ والإرداء ٨٢ .
(٢) فتح الباري ١٢/ ٣١٧ والقرطبي ١٠/ ١٨٢ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٨٨ والمغنى ٨/ ١٤٦ وأحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٩٢ .
(٤) رواه البخاري في كتاب الإكراه برقم ٦٩٤٣ .
(٥) البحر المحيط لابن حيان ٢/ ٤٢٤ .
(٦) وأضفته هنا لأنه أحد الموانع الشرعية لترتيب الإثم.
(٧) الوجيز من أصول الفقه لعبد الكريم زيدان ١١٥ .



وأما الخطأ اصطلاحا: فهو أن يقصد بفعله شيئاً فيصادف فعله غير ما قصده، مثل: «أن يقصد قتل كافر فصادف قتل مسلما»(١).

ويمكن تعريفه: بأنه وقوع القول أو الفعل من الإنسان على خلاف ما يريده(٢).

من أدلة العذر(٣) بالخطأ:

١- قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥]، أي إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ بعد الاجتهاد، واستفراغ الوسع، فإن اللّه تعالى قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمه(٤)، قال البخاري: «... وقد أجمعوا على العمل بعمومها في سقوط الإثم»(٥).

٢- قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

٣- وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وثبت في الحديث أن اللّه سبحانه استجاب لهذا الدعاء فقال: «فقد فعلتُ»(٦).

٤- وقوله ﷺ: «إن اللّه وضع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه»(٧).

٥- قال رسول اللّه ﷺ: «للّه أشدُّ فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان

---

(١) جامع العلوم والحكم ٣٥٢ لابن رجب الحنبلي.
(٢) الوجيز في أصول الفقه ١١٥ .
(٣) ونقصد بالعذر: أي الإثم بالآخرة، وإلا فإنه قد يضمن إن كان هناك إتلاف مال أودية قتيل، وما شابه ذلك، واللّه أعلم.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٥١٤ .
(٥) فتح الباري ١١/ ٥٥١ .
(٦) رواه مسلم.
(٧) رواه ابن ماجة والحاكم وصححه ابن حبان وحسنه النووي وصححه الألباني في الإرواء ١/ ١٢٣ .

على راحلته بأرض فلاة(١)، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه فأيس(٢) منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلِّها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها»(٣)، ثم قال من شدة الفرح: «اللّهُم أنت عبدي، وأنا ربك! أخطأ من شدة الفرح»(٤).

قال الإمام بن العربي المالكي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الطاعات كما تسمّى إيماناً، كذلك المعاصي تسمى كفراً، لكنْ حيث يُطلق عليها الكفرُ لا يراد عليه الكفر المخرج من الملة، فالجاهل والمخطئ في هذه الأمة ولو عمل من الكفر والشرك ما يكون صاحبه مشركاً أو كافراً فإنه يُعذر بالجهل والخطأ، حتى يتبين له الحجة التي يكفر تاركها بياناً واضحاً ما يلتبس على مثله، وينكر ما هو معلوم بالضرورة من دين الإسلام، مما أجمعوا عليه إجماعاً قطعياً يعرفه كل من المسلمين من غير نظر وتأول كما يأتي بيانه إن شاء اللَّه تعالى ولم يخالف في ذلك إلا أهل البدع»(٥).

والخلاصة: أننا لا نُخْرِجُ مسلماً فعل مُكَفِّراً إن كان فعله لجهله أو تأويله أو اضطراره، أو غلب على ظنه أن هذا من المصالح الشرعية، إلا بعد قيام الحجة.

ولكن تبقى هناك مسألة: هل الأعذار بالأمور السابقة يختص بالفروع؟ أم تستوي فيها الأصول مع الفروع؟ وقبل الإجابة على هذا السؤال نقول:

أولًا: يجب التفريق بين الإخراج والتكفير المطلق، والإخراج والتكفير المعيّن فبحثنا حول إخراج المعيّن وليس المطلق.

فعلماء السَّلف كالإمام أحمد وغيره لم يكفروا كلَّ من دعا إلى القول بخلق القرآن

---

(١) فلاة: هي الأرض الواسعة الخالية من الناس والماء والنبات.

(٢) فأيس: أنقطع أمله.

(٣) بخطامها هو الرباط يوضع على أنف الجمل ليُعاد به .

(٤) رواه أحمد ومسلم.

(٥) نقلًا عن محاسن التأويل للقاسمي ٥/ ١٣٠٧ .

بعينه مع قولهم إن القول بخلق القرآن كفر[(١)].

ثانياً: كلامنا هذا فيما يتعلق بأحكام الدنيا وليس الآخرة. فقد نحكم على شخص بأنه معذور لتأوله أو جهله أو خطأه ويكون عند اللّه كافراً غير معذور.

قول البعض في تقسيم الدين إلى أصول لا يعذر الجهل[(٢)] بها وفروع يعذر الجهل بها:

قول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الفرق بين مسائل الأصول والفروع إنما هو من أقوال أهل البدع من أهل الكلام ومن المعتزلة والجهمية ومن سلك سبيلهم، وانتقل هذا القول إلى أقوام تكلموا بذلك في أصول الفقه، ولم يعرفوا حقيقة هذا القول ولا غَوْرَه».

قالوا: «والفرق في ذلك بين مسائل الأصول والفروع كما أنها محدثة في الإسلام، ولم يدل عليها كتاب ولا سنة ولا إجماع، بل ولا قالها أحد من السلف والأئمة، فهي باطلة عقلًا فإن المفرِقين بين ما جعلوه مسائل أصول ومسائل فروع لم يُفرِقوا بينهما بفرق صحيح يميز بين النوعين[(٣)] فإن قال: «مسائل الأصول هي مسائل الاعتقاد، ومسائل الفروع هي مسائل العمل». قيل له«فتنازع الناس في محمد ﷺ هل رأى ربه أم لا؟ وفي أن عثمان أفضل من عَلِيّ أم عَلِيّ أفضل؟ وفي كثير من معاني القرآن. وتصحيح بعض الأحاديث هي من المسائل الاعتقادية العلمية، ولا كُفر فيها بالاتفاق، ووجوب الصلاة، والزكاة والصيام، والحج، وتحريم الفواحش، والخمر هي مسائل عملية، والمنُكر لها يكفر بالاتفاق».

وإن قال: «الأصول هي المسائل القطعية»، قيل له: «كثير من مسائل العمل قطعية، وكثير من مسائل العلم ليست قطعية، وكون المسألة قطعية، أو ظنية هي من الأمور

---

(١) سيأتي بحث هذه المسألة في الفقرة التالية إن شاء اللّه.
(٢) سواءاً كان جاهلًا أو متأولًا.
(٣) منهاج السنة النبوية ٣/ ٢٠-٢١ .



الإضافية، وقد تكون المسألة عند رجل لا تكون ظنية، فضلًا عن أن تكون قطعية لعدم بلوغ النص إياه، أو لعدم ثبوته عنده، أو لعدم تمكنه من العلم بدلالته»[١].

قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «للّه أسماء وصفات لا يسع أحد ردها، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه فقد كفر، وأما قبل قيام الحجة فإنه يُعذر بالجهل لأن علم ذلك لا يُدرك بالعقل ولا الرؤية والفكر»[٢].

قال الإمام ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وصدق أبو يوسف القاضي إذ سُئل عن شهادة من يسب السّلف الصالح، فقال: «لو ثبت عندي على رجل أنّه يسب جيرانه، ما قبلت شهادته، فكيف من يسب أفاضل الأمة؟ إلّا أن يكون من الجهل بحيث لم تقم عليه حجة النص بفضلهم، والنهي عن سبهم، فهذا لا يقدح سبهم في دينه أصلًا ولا ما هو أعظم من سبهم، لكن حُكمه أن يُعلّم ويُعرَّف، فإن تمادى فهو فاسق، وإن عاند في ذلك اللّهَ تعالى أو رسولَه ﷺ فهو كافر مشرك، ولو أن امرءاً بّدل القرآن مخطئاً جاهلًا، أو صلى لغير القبلة، كذلك ما قدح ذلك في دينه عند أحد من أهل الإسلام حتى تقوم عليه الحجة بذلك»[٣].

قوله: «مالم تقم الحجة عليه في كل ذلك»

ش: والحجة: الدليل والبرهان، يُقال حاججته حجاجاً ومُحاجَّة، فأنا محاجُ وحجيج، فعيل بمعنى فاعل، ومنه حديث «فحج آدم موسى»[٤] أي غلبه بالمحجة ومنه حديث معاوية: «فجعلتُ أَحج خصمي» أي أغلبه بالمحجة[٥].

١- قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ٧٣].

---

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية مجموع الفتاوى ٢٣/٣٤٦ وانظر كذلك مجموع الفتاوى ٢٣/٣٤٥.
(٢) فتح الباري ١٣/٤١٨.
(٣) الأحكام في أصول الأحكام ١/١٣٣ لا بن حزم.
(٤) رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم من حديث أبي هريرة وأوله «احتج آدم وموسى».
(٥) النهاية لا بن الأثير ١/٣٤١.



يقولون (اليهود): «لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين، فيتعلمون منكم، ويساووكم فيه، ويمتازوا به عليكم لشدة الإيمان به، أو يحاجوكم به عند ربكم، أي يتخذوه حجة عليكم بما في أيديكم، فتقوم به عليكم الدلالة، وتتركب الحجة في الدنيا والآخره»[(١)].

٢- وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

أي أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والنذارة، وبيّن ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه، لئلا يبقى لمعتذر عذر، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤][(٢)].

٣- قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وهذا إخبارٌ عن عدله تعالى، وأنه لا يُعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه.

٤- وعن عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لا أحدَ أَغْيرُ من اللّه، من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه من المدح من اللّه عزَّ وجلَّ، من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من اللّه، ومن أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين»[(٣)].

متى تقوم الحجة؟

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: «فكل من تمكن من معرفةِ مَا أَمرَ اللّهُ به ونهى عنه فقصر عنه ولم يعرفه فقد قامت عليه الحجة»[(٤)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٩٧ .
(٢) المصدر السابق ١/ ٧٨٣ .
(٣) متفق عليه .
(٤) مدارج السالكين ٢/ ٢٣٩ .

وقال: إن العذاب يستحق بسببين:

١- الإعراض عن الحجة وعدم إرادتها والعمل بها وبموجبها.

٢- العناد لها بعد قيامها وترك إرادة موجبها.

قال ابن الحزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «.. وصفة قيام الحجة عليه أن تبلغه، فلا يكون عنده شيء يقاومها، وبالله التوفيق»[١].

قال الشيخ سليمان بن سحمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «لا تقوم الحجة إلا ممن يحسن إقامتها، وأما من لا يحسن إقامتها كالجاهل الذي لا يعرف أحكام دينه، ولا ما ذكره العلماء في ذلك فإنه لا تقوم به الحجة»[٣].

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ قال العيني: أشار «البخاري» بهذه الآية الكريمة إلى أن قتال الخوارج والملحدين لا يجب إلا بعد إقامة الحجة عليهم، وإظهار بطلان دلائلهم، والدليل عليه هذه الآية؛ لأنها تدل على أن الله لا يؤاخذ عبادَه حتى يبين لهم ما يأتون وما يَذَرون[٤].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فليس لأحد أن يكفِّر أحدا من المسلمين، وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة، ويُبيّن له المحجة، ومن ثبت إسلامه بيقين، لم يزل عنه ذلك بالشك، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة، وإزالة الشبهة»[٥].

ومما يؤيد هذا حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ أربعة كلهم يُدلي

---

(١) أحكام الأحكام لابن حزم ١/٦٧ .
(٢) من علماء نجد توفي سنة ١٣٤٩ هـ (علماء نجد ١/٢٧٩) .
(٣) منهاج الحق والإتباع ٦٨ .
(٤) عمدة القارئ ١٩/٣٦٩ .
(٥) مجموع الفتاوى ١٢/٤٦٥ - ٤٦٦ .

على اللّه يوم القيامة بحجة، وعذر: رجل مات في الفترة[١]، ورجل أدركه الإسلام هرَماً، ورجل أصمّ أبكم، ورجل معتوه، فيبعث اللّه إليهم مَلَكا رسولا، فيقول: «اتبعوه»، فيأتيهم الرسول فيؤجج لهم نارا، ثم يقول: «اقتحموها» فمن اقتحمها كانت عليه بردا وسلاما، ومن لا، حقت عليه كلمة العذاب[٢].

وهذا من كمال عدله سبحانه وتعالى، وفيه دلالة على أن اللّه لا يؤاخذ عباده ولا يعاقبهم إلا بعد قيام الحجة عليهم[٣].

والخلاصة: المقصود بالحجّة التي تنقطع بعدها المحجّة على المُعيّين هي أن تبلغ الحجّة المعيّين ويفهمها فهماً يدرك بها المقصود منها. وهذا قول أكثر العلماء ومنهم:

١- قال ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالجاهل والمخطئ من هذه الأمّة ولو عمل من الكفر والشّرك ما يكون صاحبه مشركاً أو كافراً، فإنّه يعذر بالجهل والخطأ حتى يتبيّن له الحجّة التي يكفر تاركها بياناً واضحاً ما يلتبس على مثله، وينكر ما هو معلوم بالضّرورة من دين الإسلام، مِمَّا أجمعوا عليه إجماعاً قطعياً، يعرفه كلّ من المسلمين من غير نظرٍ وتأمّلٍ»[٤].

٢- ويقول ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ذكره لجماعة من السّلف استحلّوا بعض المحرّمات متأوّلين فلم يكفروا: «فيخرج في مَن كان مثلهم حكمهم، وكذلك كلّ جاهل بشيء يمكن أن يجهله، لا يحكم بكفره حتّى يعرف ذلك وتزول عنه الشّبهة ويستحله بعد ذلك»[٥].

٣- ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهكذا الأقوال التي يكفر قائلها قد يكون

---

(١) أهل الفترة: والفترة: هي ما بين الرسولين من رسل اللّه تعالى من الزمان الذي انقطعت فيه الرسالة (النهاية ٣/٤٠٨) وأهل الفترة هم الناس الذين كانوا يعيشون في هذا الزمان.
(٢) رواه أحمد ٤/ ٢٤ والبيهقي ابن ابي عاصم في السنة ١/ ١٧٦ برقم ٤٠٤ وصححه الألباني.
(٣) وسيأتي مزيد تفصيل لهذه المسألة في الفقرة القادمة إن شاء اللّه في ضوابط التكفير.
(٤) تفسير القاسمي ٥/ ١٣٠٧، ١٣٠٨ .
(٥) المغني ١٢/ ٢٧٧ .



الرّجل لم تبلغه النّصوص الموجبة لمعرفة الحقّ، وقد تكون بلغته ولم تثبت عنده، أو لم يتمكن من فهمها، وقد يكون عرضت له شبهات يعذره اللّه تعالى بها، فَمَن كان من المؤمنين مجتهداً في طلب الحقّ وأخطأ فإنّ اللّه سبحانه وتعالى يغفر له خطأه كائناً ما كان، سواء في المسائل النّظرية أو العمليّة، هذا الذي عليه أصحاب النّبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وجماهير أئمة الإسلام»[(١)].

٤- ويقول الإمام ابن القيم: «إنّ قيام الحجّة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص، فقد تقوم حجّة اللّه على الكفار في زمانٍ دون زمانٍ، وفي بقعة وناحية دون أخرى، كما أنّها تقوم على شخصٍ دون آخر، إما لعدم فهمه كالذي لا يفهم الخطاب، ولم يحضر ترجمان يترجم له فهذا بمنْزلة الأصمّ الذي لا يسمع شيئاً، ولا يتمكن من الفهم، وهو أحد الأربعة الذين يُدْلُون على اللّه بحجّة يوم القيامة»[(٢)].

***

(١) المسائل الماردينية، ص: ٦٦، ومجموع الفتاوى ٢٣/٣٤٦ .

(٢) طريق الهجرتين، ص: ٤١٤ . انظرالتكفير وضوابطه للأستاذ إبراهيم عامر الرحيلي حفظه اللّه.

القضية الثامنة والسبعون: قال المُصنِّف حفظه اللَّه:

«لا نكفِّر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله».

قوله: «لا نُكفِّر»

الشرح:

الكفر في اللغة: هو ستر الشيء، ووصف الليل بالكافر لستره الأشخاص والزُرّاع لسترهم البذور في الأرض، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠] وكفر النعمة وكفرانُها سترها بترك أداء شكرها.

الكفر في الشرع: وأعظم الكفر: هو جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة. ويقال: كَفَرَ فلان إذا اعتقد الكفر، ويقال ذلك إذا أظهر الكفر وإن لم يعتقد، ولذلك قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦](١).

والناس في هذه القضية طرفان ووسط:

فالأول: أطلق الكفر فهو يُكفِّر بالكبيرة ويُخرجه من الإسلام، ولا يحكم بإسلام من نطق بالشهادتين وإن صلى وصام، وحج واعتمر وأدى شعائر الإسلام ما لم يلتزم بشروط وضوابط حددها هو، وإن لم ترد في كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ ولا قال بها سلف الأمة. وهؤلاء كالخوارج قديماً وأذنابهم من أهل التكفير حديثاً.

والثاني: اعتقد أن من تلفظ بالشهادتين ودخل بالإسلام، فلا يخرج منه ولا يمكن تكفيره بأي حال من الأحوال؛ ولو كان مرتداً أو ادعى النبوة، أو جحد وجوب الصلاة. وبالتالي لا يجوز تكفير هذا الشخص المُعين، وإنما إطلاق الكفر على الأعمال فقط. وهؤلاء كالمرجئة قديماً وأفراخهم حديثاً.

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ٤٣٣ - ٤٣٥ (النهاية لابن الأثير ٤/ ١٨٧).



وأهل السنة وسط بين إفراط الخوارج وتفريط المرجئة:

فهم لا يُكفِّرون بإطلاق، وبكل ذنب، ولا يمنعون التكفير فيمن حقق شروطه، وانتفت عنه موانعه[1].

عقيدة أهل السنة والجماعة في مرتكب الكبيرة:

وأهل السنة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يُكفّر كُفراً يُنقل عن الملة بالكلية، كما قالت الخوارج، إذا لو كان كفراً ينقل عن الملة لكان مرتداً يُقتل على كل حال، ولا يُقبل عفو ولي القصاص، ولا تجري الحدود في الزنا، والسرقة وشرب الخمر، وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام. ومتفقون على أنه لا يخرج من الإيمان والإسلام، ولا يدخل في الكفر ولا يستحق الخلود مع الكافرين، كما قالت المعتزلة.

فإن قولهم باطل أيضا، إذ قد جعل اللّه مرتكب الكبيرة من المؤمنين قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨]. فلم يخرج القاتل من الذين آمنوا، وجعله أخا لوليّ القصاص، والمراد أخوة الدين بلا ريب.

وقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ﴾ [الحجرات: ٩]، فلم يخرجها اللّه عن مسمى الإيمان مع وقوع الاقتتال بينهما، ونصوص الكتاب والسنة والإجماع تدل على أن الزاني «الغير مُحصن» والسارق والقاذف لا يُقتل.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما تعدون المُفلِس فيكم؟» قالوا: «المفلس فينا من لا درهم له ولا دينار». قال: «المفلس من يأتي يوم القيامة وله حسنات أمثال الجبال فيأتي وقد شتم هذا وأخذ مال هذا، وسفك دم هذا، وقذف

(١) انظر البراءة والتحذير من خطر التكفير للمؤلف (الشارح).



هذا، وضرب هذا، فيقتَّص هذا من حسناته وهذا من حسناته فإذا فُنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أُخذ من خطاياهم فطُرحت عليه، ثم طُرح في النار»[١] ولو كان كافراً مرتداً لما وجُدت له حسنات أصلًا، كما قال تعالى عن الكافرين: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

والقصد أن المعاصي كلها من نوع الكفر الأصغر[٢]، فإنها ضد الشكر الذي هو العمل بالطاعة[٣] وسُئل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن العبد المؤمن هل يكفر بالمعصية أم لا؟ فأجاب: لا يكفر بمجرد الذنب فإنه ثبت بالكتاب والسنة وإجماع السلف أن الزاني غير المحصن يُجلد ولا يُقتل، والشارب يُجلد، والقاذف يُجلد، والسارق يُقطع.

ولو كانوا كفاراً لكانوا مرتدين، ووجب قتلهم، وهذا خلاف الكتاب والسنة وإجماع السلف[٤] وقال الشيخ عبد اللّه بن جبرين يحفظه اللّه: «ولا يجوز تكفير أهل الكبائر وأهل الذنوب فليس أحد بمعصوم»[٥].

أقسام الكفر:

وقسَّم العلماء الكفر إلى قسمين:

أولًا: كفر أصغر: وهو يُنقِص الإيمانَ، ويُنافي كماله ولا يُخرج صاحبه منه، ويُسمى الكفرَ العملي، وهو كل معصية أطلق الشارع اسم الكفر مع بقاء اسم الإيمان على عامله[٦]. مثل قوله ﷺ: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»[٧]،

(١) رواه مسلم وغيره، شرح الطحاوية ٣٦٠ - ٣٦٢ انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣/ ٢٨٢ .
(٢) سيأتي شرحه.
(٣) مدارج السالكين ١/ ٣٦٥ .
(٤) مجموع الفتاوى ٤/ ٣٠٧ .
(٥) مجموع فتاوى ورسائل ابن جبرين «العقيدة» «الجزء السادس».
(٦) إعلام السنة المنشورة للحكمي.
(٧) متفق عليه من حديث عبد اللّه بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ .

وقوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[(١)] وقوله ﷺ: «من أتى كاهناً فصدَّقه، أو أتى امرأة في دبرها فقد كفر بما أُنزل على محمد»[(٢)] وقوله ﷺ: «اثنتان في الناس بهم كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت»[(٣)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا الكفر «الأصغر» موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود. وهذا تأويل ابن عباس وعامة الصحابة في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤][(٤)].

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ليس بكفر ينقل عن الملة إلى أن قال: «والصحيح» أن الحكم بغير ما أنزل اللّه يتناول الكفرين، الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم. فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل اللّه في هذه الواقعة، وعدل عنه عصيانا، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة، فهذا كفر أصغر»[(٥)].

ثانياً: الكفر الأكبر: وهو مخرج من الملة، والموجب للخلود في النار وهو أنواع منها:

١-كفر التكذيب: فهو اعتقاد كذب الرسل وهذا القسم قليل في الكفار فإن اللّه تعالى أيد رسله وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة وأزال به المعذرة قال اللّه تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤] وقال لرسوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. وإن سمي هذا كفر تكذيب أيضا فصحيح إذ هو تكذيب باللسان[(٦)].

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم.
(٤) راجع هذه المسألة في الفقرة ٣٣ .
(٥) مدارج السالكين لابن القيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ١/ ٣٦٤ - ٣٦٥ .
(٦) مدارج السالكين ١/ ٣٣٧ ومعارج القبول للحكمي ١٧٧ .

أما التكذيب بالظاهر فهذا كغالب الكفار من قريش ومن قبلهم من الأمم التي تُبعث فيهم الرسل، فهم قد كذبوا الرسل بلسانهم مع معرفتهم وتيقنهم أنهم صادقون كما قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله كذلك عن فرعون:

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وقوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. أقول مع هذا فقد سمّى اللّه هذا النوع تكذيبا كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٧٠]. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٣- ٨٤][1].

٢- **كفر العناد والإباء والاستكبار**: وهو ما كان بعدم الانقياد للحق مع الإقرار به. ككفر إبليس إذ يقول اللّه تعالى فيه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]. وقال تعالى: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣]، فهذا إبليس لم يجحد أمر اللّه ولا قابله بالإنكار. وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار ومن هذا كُفْرُ مَن عرف صِدْقَ الرسول، وأنه جاء بالحق من عند اللّه، ولم ينقد له إباء واستكبارا وهو الغالب على أعداء الرسل، كما حكى عن فرعون وقومه: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]. وقوله تعالى عن الأمم لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠].

٣- **كفر الإعراض**: وهو أن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول ﷺ، لا يصدقه ولا يكذبه. ولا يواليه ولا يعاديه. ولا يصغي إلى ما جاء به أبداً، كما قال أحد بني عبد ياليل للنبي ﷺ «واللّه أقول لك كلمة: إن كنتَ صادقاً، فأنت أجلّ في عيني من أن

(١) مدارج السالكين لابن القيم ومعارج القبول للحكمي رحمهم اللّه.

أردُّ عليك، وإن كنتَ كاذباً، فأنتَ أحقر من أن أُكلمك[١]«وهذا يؤدي به إلى كفر الشك والتردد»».

٤- **كفر النفاق:**[٢] وهو أن يُظهر للمسلمين إيمانه باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وهو في الباطن منسلخ من ذلك مكذب. أي تكذيب الباطن مع الانقياد في الظاهر، ككفر عبد اللّه بن أُبيّ بن سلول رأس المنافقين في عهد الرسول ﷺ. وهم الذين قال اللّه تعالى فيهم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٨- ٢٠]، هذا كفر أكبر يوجب الخلودَ في النار وفي دَرَكِها الأسفل.

٥- **كفر الجحود:** وهو نوعان:

أ - كفر مطلق عام. ب - وكفر مقيد خاص.

أ - **الكفر المطلق العام:** أن يجحد جملة ما أنزل اللّه، وما أتى به الرسول ﷺ.

ب- **الكفر المقيد الخاص:** أن يجحد فرضاً من فروض الإسلام أو يجحد تحريم محرّم من محرماته أو صفة وصف اللّه بها نفسه، أو خبراً أخبر اللّه به نفسه، عمداً[٣].

٦- **وماله حكم الكفر الأكبر وهو الشرك الأكبر**[٤]: وهو أن يتخذ من دون اللّه نداً، كالذبح لغير اللّه والسجود لغير اللّه وغيرها[٥]. فهذا الشرك الذي لا يغفره اللّه إلا بالتوبة

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤١٩ رواية مرسلة عن محمد بن كعب القرظي.
(٢) النفاق نوعان أكبر، و أصغر والبحث عن النفاق الأكبر.
(٣) غير جاهلٍ أو متأولٍ.
(٤) احترازاً من الشرك الأصغر كشرك الألفاظ أو يسيرِ الرياء.
(٥) انظر كتاب التوحيد للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨][١].

قوله: «من أهل القبلة»

ش: وأصل القبلة: الجهة، قال الشيخ ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أهل قبلتنا، من يدّعي الإسلام، ويستقبل الكعبة، كما قال الرسول ﷺ: «من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فهو المسلم، له مالنا وعليه ما علينا»[٢].

وعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أُمِرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا اللَّه، فإذا قالوها، وصلّوا صلاتنا، واستقبلوا قبلتنا، وذبحوا ذبيحتنا فقد حَرُمَت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها وحسابُهم على اللَّه» رواه البخاري.

وإن كان من أهل الأهواء، أو من أهل المعاصي، ما لم يُكذب بشيء مما جاء به الرسول ﷺ[٣]. وقال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفيه أن أمور الناس محمولة على الظاهر، فمن أظهر شعار الدين أُجريت عليه أحكام أهله ما لم يَظهر منه خلافُ ذلك»[٤].

قوله: «بذنب»

ش: أي لا نُكفِّر أهل القبلة بذنب[٥]، ولهذا قال ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولهذا امتنع كثير من الأئمة عن إطلاق القول بأنّا لا نُكفر أحداً بذنب».

بل يُقال: «لا نُكفرهم بكل ذنب كما تفعله الخوارج» وفرق بين النفي العام ونفي العموم. والواجب إنما هو نفي العموم، مناقضةً لقول الخوارج الذين

(١) مدارج السالكين ١/ ٣٦٤ - ٣٧٦، وأعلام السنة المنشورة للحافظ الحكمي ١٧٧ - ١٧٨.
(٢) رواه البخاري وأبو داود من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٣) شرح الطحاوية ٣٥١.
(٤) فتح الباري ١/ ٤٩٧.
(٥) والعبارة الأدق: أن لا نُكفِّر أهل القبلة بكل ذنب لأن بعض الذنوب تقتضي إطلاق الكفر على مرتكبيها.

يُكفِّرون بكل ذنب[١].

قوله: «ما لم يستحله»

ش: الاستحلال شأنه شأن كثير من المصطلحات الشرعية كالكفر، والفسق والنفاق... منها العملي ومنها الاعتقادي.

فالاستحلال قد يكون: استحلالًا عملياً وهذا غير مُخرج من الملة كما جاء من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ «نهى عن بيع ثمر التمر حتى يزهو» فقلنا لأنس: «ما زهوها»؟ قال: تحمرُ وتصفر، أرأيت إن منع اللَّه التمر بِمَ تستحل مال أخيك؟[٢].

قال ابن حجر رحمه الله: أي لو تُلفِ الثمرُ لانتفى في مقابلته العِوض، فكيف يأكل بغير عِوض؟[٣].

ومعلوم أنه لو أكله لم يعد كافراً، وكذلك قوله ﷺ: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحِرَ والحرير والخمر والمعازف، ولينزلن أقوام إلى جنب عَلَم، يروح عليهم بسارحة لهم»، يأتيهم لحاجة فيقولون: «ارجع إلينا غداً، فيبيِّتهم اللَّه ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة»[٤].

وقد يكون استحلالًا عقائدياً علمياً، وهذا هو مقصود المصنف لأن من المعلوم أن ما مِن عاصٍ إلا وهو مستحل للمعصية عملًا حال معصيته.

وقال الشيخ ابن جبرين حفظه اللَّه: «يعني لا نُكِفره بالذنوب إلا إذا استحلها وهذا صحيح، فإن من استحل الذنب ولو لم يفعله يكفر، فإذا رأينا من يقول: «إن الخمر حلال» ولو ما شربها قلنا: «هذا كافر»، وما ذاك إلا أنه صَادَمَ النصوص، وإذا رأينا

---

(١) شرح الطحاوية ٣٥٦ .
(٢) رواه البخاري ٤/ ٤٠٤ رقم ٢٢٠٨ .
(٣) فتح الباري ٤/ ٣٩٩ .
(٤) رواه البخاري في صحيحه تعليقاً بصيغة الجزم ٤/ ٣٠ ووصله الطبراني والبيهقي وابن عساكر وصححه الألباني رحمه اللَّه انظر السلسلة الصحيحة ١/ ١٣٩ برقم ٩١ .

من يقول: «إن الصلاة ساقطة، أو ليست واجبة، أو ليست من الشريعة» ولو كان يصلي، قلنا: «هذا كافر، لأنه أنكر شيئاً معلوماً من الدين بالضرورة»، وهكذا الأشياء الضرورية من شعائر الدين.(١) كما قال تعالى بشأن الحج: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، فقوله تعالى: «ومن كفر» قال ابن جرير الطبري نقلًا عن ابن عباس رضي الله عنه والضحاك وعطاء ومجاهد والحسن: «ومن جحد فرض ذلك، وأنكر وجوبه فإن اللَّه غني عنه وعن حجه وعن العالمين جميعاً»(٢).

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: «وكذلك حديث أبي بردة بن نيار لما بعثه النبي ﷺ إلى من تزوج امرأة أبيه، فأمره أن يضرب عنقه ويُخمِّس ماله، فإن تخميس المال دلّ على أنه كان كافراً لا فاسقاً، وكفرُه بأنه لم يحرّم ما حرم اللَّه ورسوله.

وكذلك الصحابة مثلُ عمرَ وعليّ رضي الله عنهما وغيرهما لما شرب الخمر «قدامة بن عبد اللَّه رضي الله عنه» وكان بدرياً؛ وتأول أنها تباح للمؤمنين المصلِّين، وأنه منهم بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣] فاتفق الصحابة رضي الله عنهم على أنه إن أصرّ قُتل وإن تاب جُلد فتاب فجلد(٣).

* * *

(١) مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن جبرين، العقيدة (الجزء السادس).
(٢) جامع البيان للطبري ٤/ ٢١.
(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٠/ ٩٠.

القضية التاسعة والسبعون: قال المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«لا نشهد بالجنة لأحد إلا لمن شهِد اللَّهُ لهم في كتابه، أو شهِد لهم رسول اللَّه ﷺ.

والرؤى والأحلام ليست دليلا قاطعا للشهادة. ونرجو للمحسنين الجنة، ولا نجزم لهم بها».

قوله: «لا نشهد بالجنة لأحد إلا لمن شهد اللَّه لهم في كتابه».

الشرح: والشهادة بالجنة نوعان:

أ - شهادة معلّقة بوصف: كأن نشهد لكل متوفٍ دون الحُلُم بأنه في الجنة وكل المتقين بالجنة وغيرها.

ب - شهادة معلقة بعين: «وهو مقصود البحث» أن فلان بعينه من أهل الجنة، فهذه لا نشهد إلا لمن شَهِد له اللَّهُ ورسوله ﷺ.

أي ولا نحكم لأحد بعينه بأنه من أهل الجنة إلا لمن حَكَم اللَّهُ له أنه من أهلها سواء بصيغة العموم أو الخصوص ومن أمثلة ذلك:

١- السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار قال تعالى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

٢- الصحابة الذين خرجوا مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

٣- الصحابة الذين بايعوا الرسول ﷺ تحت الشجرة «بيعة الرضوان»: قال تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].



الخصوص في قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] فعن قيس بن عباد قال: سمعت أبا ذر يُقسم قسما، (وذكر الآية) أنها نزلت في الذين برزوا يوم بدر: «حمزة وعليّ وعبيدة بن الحارث وعتبة وشيبة، وربيعة والوليد بن عتبة»(١).

٤- قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [البينة: ١] عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لأبيّ بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك «لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب...» قال: «وسماني لك؟» قال «نعم» فبكى(٢).

قوله: «أو شهد لهم رسول الله ﷺ ..»

ش: وهذا كذلك ينقسم إلى قسمين:

الأول: من شهد لهم الرسول ﷺ بصيغة العموم:

١- كفقراء المهاجرين: كما جاء في حديث ثوبان عن اليهودي الذي جاء يسأل النبي ﷺ: «.. فقال (اليهودي): «أين يكون الناس يوم تُبدّل الأرض غير الأرض والسموات؟ «فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر». قال: فمن أول الناس إجازة؟(٣)، قال: «فقراء المهاجرين»(٤). وفي رواية: «أن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفا»(٥).

٢- وأهل بدر كما ثبت في حديث علي بن أبي طالب ﷺ في حادثة حاطب بن أبي بلتعة، وقول عمر بن الخطاب ﷺ لحاطب: إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فَدَعْني فلأضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: «اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة»، أو فقد غفرتُ لكم. فدمعت عينا عمر

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأحمد واللفظ له.
(٣) الإجازة هنا بمعنى العبور والمرور والجواز.
(٤) رواه مسلم ١/ ٢٥٢ .
(٥) رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ ٤/ ٢٢٨٥

وقال: «اللَّه ورسوله أعلم»(١).

والثاني: بصيغة الخصوص:

١- **العشرة المبشرون بالجنة،** كما جاء في حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد في الجنة وسعيد(٢) في الجنة وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة»(٣).

٢- بعضاً من الصحابة:

أ- قال رسول ﷺ: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»(٤).

ب - وقال رسول اللَّه ﷺ «دخلت الجنة، فرأيت لزيد بن عمرو بن نفيل درجتين»(٥).

جـ - وقال رسول اللَّه ﷺ: «هذا(٦) الذي تحرك له العرش، وفُتحت له أبوابُ السماء، وشهده سبعون ألفا من الملائكة، لقد ضُمّ ضمّة(٧) ثم فرِّج عنه»(٨).

د - قال رسول اللَّه ﷺ: «يا جابر ! ألا أبشرك بما لقي اللَّه به أباك ما كلّم اللَّه أحدا قط، إلا من وراء حجاب، وكلّم أباك كفاحاً(٩)، فقال: «يا عبدي! تمنّ عليّ أعطك»، قال: «يا رب تحييني فأُقتل فيك ثانية»، فقال الرب تبارك وتعالى ! إنه سبق مني أنهم

---

(١) متفق عليه.
(٢) أي سعيد بن زيد رضي الله عنه.
(٣) رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجة.
(٤) رواه أحمد والترمذي من حديث أبي سعيد الخدري والحاكم، صححه الألباني ٣١٨٠- ٣١٨١- ٣١٨٢ (صحيح الجامع).
(٥) رواه ابن عساكر عن عائشة وحسنه الألباني (صحيح الجامع ٣٣٦٧).
(٦) سعد بن معاذ رضي الله عنه.
(٧) في القبر.
(٨) رواه النسائي من حديث ابن عمر وصححه الألباني الجامع ٦٨٦٤ والصحيحة ١٦٩٥.
(٩) دون حجاب.



إليها لا يرجعون». قال: «يا ربّ فأبلغ من ورائي»[١].

والخلاصة: أن للسلف في الشهادة بالجنة للمُعيّن ثلاثة أقوال:

الأول: أن لا يُشهَد لأحد إلا للأنبياء وهذا يُنقل عن محمد بن الحنفية، والأوزاعي.

الثاني: أنه يُشهد بالجنة لكل مؤمن جاء فيه النّص، وهذا قول كثير من العلماء وأهل الحديث.

الثالث: أنه يُشهد بالجنة لهؤلاء ولمن شهد له المؤمنون، كما جاء في الحديث: «أنه مُرَّ بجنازة، فأثنوا عليها بخير، فقال النبي ﷺ: «وجبت»، ومُرَّ بأُخرى، فأُثني عليها بشر، فقال: «وجبت» ثلاث مرات، فقال عمر: «يا رسول اللّه ! ما وجبت؟» فقال رسول اللّه ﷺ: «هذا أثنيتم عليه خيرا، وجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرا وجبت له النار، أنتم شهداء اللّه في الأرض»[٢].

وقال ﷺ: «توشكون أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار»، قالوا: «بم يا رسول اللّه؟» قال: «بالثناء الحسن والثناء السيئ»[٣].

فأخبر أن ذلك مما يُعلم به أهل الجنة وأهل النار[٤][٥].

---

(١) رواه الترمذي ابن ماجة وصححه الألباني (لجامع ٧٧٨٢).
(٢) متفق عليه.
(٣) أخرجه أحمد وابن ماجة، وقال شيخنا العلامة الألباني: وإسناده محتمل للتحسين، شرح الطحاوية ٤٢٧ الهامش.
(٤) شرح الطحاوي ٤٢٧ .
(٥) ويبدو واللّه أعلم أن الرأي الثاني هو الأرجح وهو الذي يفيد الجزم. أما الثالث فليس عام لكل من أُثني عليه خيرا وليس بعام في كل من أُثني عليه شرا. فإذا كان من أثني عليه من أهل التقوى والدين، وكذلك من أثنى من أهل العدل فهذا نرجو أن يكون كذلك، كما قال الإمام أحمد موعدنا يوم الجنائز. أما إذا كانوا من أهل الأهواء والبدع والفجور فلقد سمعنا بعضا ممن انقلبت فطرتهم يثنون على الفسقة والمنحرفين بل وعلى بعض الطغاة وعلى كثير من الناس ممن لم يعرف أنه سجد للّه سجدة، بل وحتى أثنى بعض الناس على بعض الكفرة لا أقول المرتدين بل الكفار الأصليين، واللّه المستعان.

قوله: «والرؤى والأحلام[١] ليست دليلا قاطعاً للشهادة. .»

ش: قوله «والرؤى والأحلام» ويسمّى كذلك التعبير: وهو خاص بتفسير الرؤيا، وهو العبور من ظاهرها إلى باطنها وبه جزم «الراغب».

وقال «الأزهري»: هو النظر في الشيء فيعتبر بعضه ببعض حتى يحصل فهمه[٢]. والرؤيا: هي ما يراه الشخص في منامه.

حقيقة الرؤيا: واختلف الناس في حقيقة الرؤيا الصحيح ما عليه أهل السنة وهو: «أن اللَّه يخلق في قلب النائم اعتقادات كما يخلقها في قلب اليقظان، فإذا خلقها فكأنه جعلها عَلَما على أمور أخرى يخلقها في ثاني الحال، ومهما وقع منها على خلاف المعتقد فهو كما يقع لليقظان، ونظيره أن اللَّه خلق الغيم (السحاب) علامة على المطر، وقد يتخلف، وتلك الاعتقادات تقع تارة بحضرة المَلَك فيقع بعدها ما يسر، أو بحضرة الشيطان فيقع بعدها ما يضر، «والعلم عند اللَّه»».

رؤيا الأنبياء: ورؤيا الأنبياء وحي بخلاف غيرهم، فالوحي لا يدخله خلل لأنه محروس بخلاف رؤيا غير الأنبياء فإنها قد يحضرها الشيطان.

أقسام الرؤيا: والرؤيا قسمان:

أولًا: الرؤيا الصادقة: وهي رؤيا الأنبياء ومن تبعهم من الصالحين، وقد تقع لغيرهم بندور وهي التي تقع في اليقظة على وفق ما وقعت في النوم.

ثانياً: الأضغاث وهي لا تنذر بشيء، وهي على نوعين:

أ - تلاعب الشيطان ليحزن الرائي كأن يرى أنه قطع رأسه، وهو يتبعه أو رأى أنه واقع في هول ولا يجد من ينجده ونحو ذلك.

ب - أن يرى ما تتحدث به نفسه في اليقظة، أو يتمنى فيراه كما هو في المنام، وكذا

---

(١) وقد خَصّ النبي ﷺ الرؤيا بالخير كما ثبت عنه أنه قال: «الرؤيا من اللَّه والحلم من الشيطان».
(٢) فتح الباري ١٢/٣٥٣ (بتصرف يسير).



رؤية ما جرت به عادته في اليقظة، أو ما يغلب على مزاجه ويقع عن المستقبل غالبا وعن الحال كثيرا، وعن الماضي قليلًا.

كما قال رسول اللَّه ﷺ: «الرؤيا ثلاثة ؛ فبشرى من اللَّه، وحديث النفس وتخويف من الشيطان، فإذا رأى أحدُكم رؤيا تُعجُبُه فليقصها إن شاء على أحدٍ[1] وإن رأى شيئا يكرهه فلا يقصه على أحد، وليقم يصلي، وأكره الغُلَّ[2] وأحب القيد[3]، والقيد ثبات في الدين»[4].

أقسام الناس في الرؤيا.

والناس في الرؤيا ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: الأنبياء: ورؤياهم كلها صِدْق وقد يقع فيها ما يحتاج إلى تعبير. قال تعالى عن إبراهيم وابنه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]. ولو لم تكن رؤيا الأنبياء حقاً لما نَفَّذَ إبراهيمُ الرؤيا ولما استسلم إسماعيلُ لأبيه.

الدرجة الثانية: الصالحون: والأغلب على رؤياهم الصدق، وقد يقع فيها مالا يحتاج إلى تعبير، كما قال ﷺ: «وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثا»[5].

الدرجة الثالثة من عداهم: فهؤلاء يقع في رؤياهم الصدق والأضغاث:

فالمستورون: الغالب استواء الحال في حقهم.

والفسقة: والغالب على رؤياهم الأضغاث ويقل فيها الصدق.

---

(١) وقد فسر في أحاديث أخرى صفة هذا بقوله: «لا تقص الرؤيا إلا على عالم، أو ناصح» وفي حديث آخر: «. . . فإن رأى رؤيا حسنة فليبشر ولا يخبر بها إلا من يحبّ».
(٢) أي الطوق الذي يُجعل في عنق الأسير. أي كرهته في الرؤيا لأن معناه تقصير في الدين أو شده.
(٣) الحبل الذي يجعل في رِجل الدابة، ورؤيته مناما دلالة على الثبات في الأمر.
(٤) رواه البخاري.
(٥) رواه مسلم.

والكفار: ويندر في رؤياهم الصدق جداً [١].

إمكانية الخطأ في التعبير وإن كان المعبِّر صالحاً:

فعن ابن عباس رضي الله عنه أن رجلا أتى رسول اللّه ﷺ فقال: «إني رأيت الليلة في المنام ظُلة تنطِف السَمن والعسل، فأرى الناس يتكففون منها: فالمستكثر والمستقل، وإذا سبب واصل من الأرض إلى السماء، فأراك أخذت به فعلوت، ثم أخذ به رجل آخر فعلا به، ثم أخذ به رجلا آخر فانقطع ثم وصل.

فقال أبو بكر: «يا رسول اللّه بأبي أنت واللّه لتدعني فأُعبرها»، فقال النبي ﷺ له: «أعبرها». قال: أما الظُلة فالإسلام، وأما الذي ينطف من العسل والسمن فالقرآن حلاوته تنطِف، فالمستكثر من القرآن والمستقل.

وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض فالحق الذي أنت عليه تأخذ به فيعليك اللّه، ثم أخذ به رجل فيعلو به، ثم يأخذ به رجل آخر فيعلو به، ثم يأخذ به رجل فينقطع به، ثم يوصل له فيعلو به، فأخبرني يا رسول اللّه - بأبي أنت - أصبتُ أم أخطأتَ؟» قال النبي ﷺ: أصبتَ بعضا وأخطأت بعضا، قال: «فواللّه يا رسول اللّه لتُحدّثني بالذي أخطأتُ». قال: «لا تُقسم»[٢].

قال ابن حجر رحمه الله: «وفيه أن العابر قد يخطئ وقد يصيب»[٣].

قوله: «ونرجو للمحسنين الجنة ولا نجزم لهم بها»

ش: وهذا هو الأصل في المسلم أن يحب إخوانه خاصة المحسنين منهم وأهل العلم والتقوى. فهؤلاء نرجو من اللّه أن يدخلهم بفضله ورحمته الجنة.

ولا نجزم لهم بذلك لأن هذا من العلم الذي استأثر اللّه بعلمه كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ

---

(١) فتح الباري ١٢/ ٣٦٢ بتصرف بسيط.
(٢) رواه البخاري.
(٣) فتح الباري ١٢/ ٤٣٨ .



تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩].

قال ابن كثير: قيل: نزلت في التمادح والتزكية[١]

وقال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: مدح رجلٌ رجلا عند النبي ﷺ، فقال رسول اللَّه ﷺ: «ويلك قطعت عُنُقَ صاحبك - مراراً - إذا كان أحدكم مادحا صاحبه لا محالة فليقل أحسب فلان، واللَّه حسيبه، ولا أزكي على اللَّه أحدا، أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك»[٢]. وعن خارجة بن زيد بن ثابت أن أم العلاء - امرأة من الأنصار بايعت النبي ﷺ - أخبرته أنه اقتسم المهاجرون قرعة، فطار لنا عثمان بن مظعون فأنزلناه في أبياتنا، فوجع وجعه الذي توفي فيه، فلما توفي وغُسِّل وكُفِّن في أثوابه، دخل رسول اللَّه ﷺ، فقلت: «رحمَة اللَّه عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك اللَّه. فقال النبي ﷺ: «وما يدريكِ أن اللَّه قد أكرمه»؟ فقلت: «بأبي أنت يا رسول اللَّه ! فمن يُكرمه اللَّه»؟ فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين».

واللَّه إني لأرجو له الخير، واللَّه ما أدري - وأنا رسول اللَّه - ما يُفعل بي»[٣].

قالت: «فواللَّه لا أُزكي أحداً بعده أبداً»[٤].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٨١ .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد واللفظ له.

(٣) وإنما قال الرسول ﷺ ذلك موافقة لقوله تعالى في سورة الأحقاف: «﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾ [الأحقاف: ٩]» وكان ذلك قبل نزول قوله تعالى: «﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]». لأن الأحقاف مكية، وسورة الفتح مدنية بلا خلاف فيهما.

(٤) رواه البخاري.



القضية الثمانون: قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«والمؤمنون والمؤمنات جميعا أولياء للرحمن(١) وكلما ترقى العبد في مدارج الإيمان كلما زادت ولايته للّه وولاية اللّه له، ونشهد أن اللّه لا يوالي أحدا دون إيمان أو عمل كما يدعي زنادقة الصوفية».

قوله: «والمؤمنون والمؤمنات جميعا أولياء للرحمن».

الشرح:

وهذه فيها مسائل:

أولا: اللّه لا يوالي إلا المؤمن: قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩].

ثانيا: المؤمن لا يوالي إلا مؤمنا: قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨]. قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢].

ثالثا: المؤمن ولي للّه:

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]. وقال تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وقال أبو جعفر الطحاوي: «والمؤمنون كلهم أولياء الرحمن».

فمن هذه النصوص وغيرها فيها إثبات موالاة المؤمنين بعضهم لبعض، وأنهم أولياء اللّه، وأن اللّه وليهم، ومولاهم.

---

(١) راجع فقرة (٣٠).



والله يتولى عباده المؤمنين، فيحبهم ويحبونه، ويرضى عنهم ويرضون عنه، ومن عادى له وليا فقد بارزه بالمحاربة(١).

وهذه الولاية من رحمته وإحسانه، ليست كولاية المخلوق للمخلوق لحاجة إليه، قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١].

من هم الأولياء؟(٢)

روى الخطيب البغدادي عن الشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهما أنهما قالا: «إن لم يكن الفقهاء أولياء لله، فليس لله ولي».

قوله: «وكلما ترقى العبد في مدارج الإيمان كلما زادت ولايته لله وولاية الله له»

ش: أي أن ولاية الله تعالى يدركها العبد بالأعمال الصالحة: وهي التي تكون على السنة. وأن تكون خالصة، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وهذه المنزلة لا ينالها إلا السابقون بالخيرات، لأن أهل الجنة ثلاثة أقسام كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

فالسابق بالخيرات هو الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات.

ويؤيد حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: «من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرّب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل، حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به،

(١) كما سيأتي بيانه.
(٢) انظر مصرع التصوف ٢٠١ .

وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله، ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت، وأكره مساءته»[١].

وقال الشيخ محي الدين النووي في مقدمة شرح المهذب:

«فصل في النهى الأكيد، والوعيد الشديد لمن يؤذي، أو يبغض الفقهاء المتفقهين»[٢].

قوله: «ونشهد أن اللَّه لا يوالي أحدا دون إيمان أو عمل كما يدعي زنادقة الصوفية».

ش: وبعد أن عرفنا كيفية الوصول إلى ولاية اللَّه عند أهل السنة والجماعة.

وكما بينها اللَّه في كتابه وذكرها نبيه ﷺ، والتي تقوم على الإيمان ثم العمل الصالح من صلاة وصيام وحج وجهاد، والترقي في هذه الفرائض إلى إتيان النوافل. أما هؤلاء الزنادقة فانظر إلى طرقهم:

أبو يزيد البسطامي[٣]: قيل لأبي يزيد البسطامي: حدثنا عن رياضة نفسك في بدايتك؟ فقال: نعم، دعوت نفسي إلى اللَّه فَجَهَمتْ[٤] عليّ فعزمت عليها أن لا أشرب الماء سنة ولا أذوق النوم! فوفّت لي[٥][٦].

وحكى أن شاهدا عظيم القدر من أعيان أهل بسطّام كان لا يفارق مجلس أبي يزيد، فقال له يوما: أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر ولا أفطر، وأقوم الليل لا أنام، ولا أجد

(١) رواه البخاري لكن لفظ بارزني ليس عند البخاري، انظر شرح الطحاوي ٦٠٠ والأحاديث الصحيحة للألباني ١٦٤٠ .

(٢) نقلا من مصرع التصوف ٢٠١ .

(٣) أبو يزيد البسطامي: طيغور بن عيسى بن سروشان وكان جده مجوسيا فأسلم توفي سنة ٢٦١ .

(٤) اعترضت عليّ واستعصت.

(٥) رضخت واستطاعت.

(٦) قوت القلوب ٢/ ٧٠، وإحياء علوم الدين ٤/ ٣٠٤ .



في قلبي من هذا العلم الذي تذكر شيئا ! وأنا أصدق به وأحبه.

فقال أبو يزيد: ولو صمتَ ثلاثمائة سنة، وقمت ليلها، ما وجدت من هذا ذرة!

قال: «ولِمَ؟» قال: «لأنك محجب بنفسك»، قال: «فلهذا دواء؟» قال: «نعم»، قال: «قل لي حتى أعمله». قال: «لا تقبله». قال: «فاذكره لي حتى أعمل»، قال: «اذهب الساعة إلى المزيّن[1]، فاحلق رأسك ولحيتك وانزع هذا اللباس، واتّزر بعباءة، وعلق في عنقك مخلاة مملوءة جوزا، واجمع الصبيان حولك»، وقال: «كل من صفعني صفعة أعطيته جوزة ! وادخل السوق، وطف الأسواق كلها عند الشهود، وعند من يعرفك وأنت على ذلك !» فقال الرجل: «سبحان اللّه، تقول لي مثل هذا!»

فقال أبو يزيد: «قولك: سبحان اللّه شرك !» قال: «كيف؟» قال: «لأخنك عظمت نفسك فسبّحتها وما سبحت ربك».

فقال: «هذا لا أفعله»، ولكن دلني على غيره؟» فقال: «ابدأ بهذا قبل كل شيء»، فقال: «لا أطيقه». قال: «قد قلت لك إنك لا تقبل!»[2].

❋ ❋ ❋

(١) المزيّن: الحلاق.
(٢) القوت: ٢/ ٧٤، ٧٥، والإحياء ٤/ ٣٠٦ .

القضية الحادية والثمانون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«ونحكم على المسلمين بالظاهر[١] ونكل سرائرهم إلى اللَّه سبحانه وتعالى».

الشرح:

«وهذا هو الأصل، لأنه هو المقدور عليه، واللَّهُ لم يكلف عباده إلا بما هو مستطاع» كما قال شارح الطحاوي:

«ولا نشهد عليهم (أهل القبلة) بكفر ولا بشرك ولا بنفاق، ما لم يظهر منهم شئ في ذلك ونذر سرائرهم إلى اللَّه تعالى»[٢].

وكما في حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: «بعثنا رسول اللَّه ﷺ في سرية فصبّحنا الحُرقات من جُهينة فأدركتُ رجلا، فقال: «لا إله إلا اللَّه» فطعنته، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبى ﷺ، فقال رسول اللَّه ﷺ: أقال لا إله إلا اللَّه وقتلته؟ قلت: «يا رسول اللَّه إنما قالها خوفاً من السلاح»، قال: «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟» فما زال يكررها عليّ حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ...» الحديث[٣].

قال الإمام النووي رحمه الله وقوله ﷺ «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا». الفاعل في قوله أقالها: «هو القلب» ومعناه إنما كُلِّفت بالعمل بالظاهر وما ينطق به اللسان، وأما القلب فليس لك طريق إلى معرفة ما فيه، فأنكر عليه امتناعه من العمل بما ظهر باللسان، وقال: «أفلا شققت عن قلبه لتنظر هل قالها القلب واعتقدها وكانت فيه، أم لم تكن فيه بل جرت على اللسان فحسب؟

يعنى وأنت لست بقادر على هذا فاقتصِر على اللسان فحسب، ولا تطلب غيره»[٤].

---

(١) راجع شرح هذه المسأله في الفقره ٧٦ .
(٢) شرح الطحاوية.
(٣) رواه مسلم كتاب الإيمان/ رقم ١٥٨ .
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ٢/ ١٠٤ .

وكذلك ما ثبت من حديث أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قوله: «بعث عَلِيٌّ بن أبى طالب إلى رسول اللَّه ﷺ من اليمن بذهبية في أديم مقروظ لم تحصَّل من ترابها، قال: «فقسّمها بين أربعة نفر: بين عُيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وزيد الخيل، والرابع إما علقمة بن عُلاثة، وإما عامر بن الطّفيل، فقال رجل من أصحابه» كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء، قال: «فبلغ ذلك النبى ﷺ، فقال» ألا تأمنوني وأنا أمين مَن في السماء ويأتيني خبر السماء صباحا ومساء، قال: «فقام رجل غائر العينين[(١)] مُشرف[(٢)] الوجنتين[(٣)]، ناشز الجبهة[(٤)]، كث اللحية، محلوق الرأس، مُشمّر الإزار،» فقال: «يا رسول اللَّه ! اتق اللَّه» ؛ فقال: «ويلك ؛ أو لستُ أحق أهل الأرض أن يتقي اللَّه؟»

قال: «ثم ولّى الرجل»، فقال خالد بن الوليد: «يا رسول اللَّه ﷺ ألا أضرب عنقه» فقال: «لا، لعله أن يكون يصلى»، قال خالد: «وكم من مصلّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه»، فقال رسول ﷺ: «إنى لم أومر أن أنقّب عن قلوب الناس، ولا أشق بطونهم»[(٥)] قال ابن حجر: «أن أنقب» أي إنما أمرت أن آخذ بظواهر أمورهم»[(٦)].

قال النووي رحمه الله «معناه إنى أمرت بالحكم بالظاهر واللَّه يتولى السرائر، كما قال ﷺ» فإذ قالوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على اللَّه»[(٧)].

❋ ❋ ❋

---

(١) غائر العينين: أي عيناه داخلتان في محاجرهما لاصقتين بقعر الحدقة، وهو ضد الجحوظ.
(٢) مشرف: أي بارزهما.
(٣) الوجنتان: العظمان المشرفان على الخدين.
(٤) ناشز: مرتفعها.
(٥) رواه البخاري في المغازي ٦١ رقم ٤٣٥١/ مسلم زكاة ١٤٤ واللفظ لمسلم.
(٦) فتح الباري ٨/ ٦٩ .
(٧) صحيح مسلم بشرح النووي ٧/ ١٦٣ .
- وقال ابن حجر (تنبيه) هذه القصة غير القصة المتقدمة في غزوة حنين، وَوَهِم مَن خلطها بها.

القضية الثانية والثمانون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«نشهد أن الصلاة حَقٌ واجب خلف البَر والفاجر من أئمة المسلمين، ونجاهد أعداء المسلمين مع أئمة العدل والجَور، ولا نشترط التقوى للجهاد والصلاة».

قوله: «ونشهد أن الصلاة حق واجب خلف البر والفاجر من أئمة المسلمين»

الشرح: قوله «حق» إما أن يكون المقصود حق للَّه سبحانه وتعالى «تأدية وإخلاصا» أو يكون حقا من حقوق الأئمة وولاة الأمر أن يُصَلّى خلفهم، ومن الأمور التى يجب طاعتهم فيها.

قوله «واجب» أي واجب على العبد، أو الرعية تأديته للَّه تعالى، على المقصود الأول، أو تأديته إلى ولاة الأمور، على المقصود الثاني.

وهذا هو مُعتقَد أهل السنة والجماعة كما قال الطحاوي: «ونرى الصلاة خلف كل بَر وفاجر من أهل القبلة وعلى من مات منهم»[1].

وكان عبد اللَّه عن عمر رضي الله عنه يصلى خلف الحجاج بن يوسف الثقفي وكذا أنس بن مالك، وكان الحجاج فاسقا ظالما[2].

وقال ﷺ عن أئمة الظلم والجور «يُصلون لكم، فإن أصابوا فلكم ولهم، وإن أخطأوا فلكم وعليهم»[3].

وقال شارح الطحاوية رحمه الله: واعلم رحمك اللَّه وإيانا: «أنه يجوز للرجل أن يُصلى خلف من لا يعلم منه بدعة ولا فسقا، باتفاق الأئمة، وليس من شرط الإتمام أن يعلم المأموم اعتقاد إمامه، ولا أن يمتحنه، فيقول ماذا تعتقد؟[4].

(١) شرح الطحاوية صـ٤٢١ .
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه أحمد والبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

بل يصلى خلف المستور الحال، ولو صلى خلف مبتدع يدعو إلى بدعته، أو فاسق ظاهر الفسق، وهو الإمام الراتب الذي لا يمكنه الصلاة إلا خلفه، كإمام الجمعة والعيدين والإمام في صلاة الحج بعرفة، ونحو ذلك: فإن المأموم يصلي خلفه، عند عامة السلف والخلف».

ومن ترك الجمعة والجماعة خلف الإمام الفاجر، فهو مبتدع عند أكثر العلماء والصحيح أنه يصليها ولا يُعيدها، فإن الصحابة ﷺ كانوا يصلون الجمعة والجماعة خلف الأئمة الفجار ولا يعيدون، كما كان عبد اللّه بن عمر يصلى خلف الحجاج بن يوسف الثقفي.

وكذلك أنس رضي الله عنه وكذلك عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه وغيره يصلون خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وكان يشرب الخمر، حتى إنه صلى بهم الصبح مرة أربعا، ثم قال: أزيدكم؟! فقال له ابن مسعود: مازلنا معك منذ اليوم في زيادة !! وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه لما حُصِر صلى بالناس شخص، فسأل سائل عثمان: «إنك إمام عامة، وهذا الذي صلى بالناس إمام فتنة؟» فقال: «يا ابن أخي إن الصلاة من أحسن ما يعمل الناس، فإذا أحسنوا فأَحْسِن معهم، وإذا أساؤوا فاجتنب إساءتهم»[1].

وقال: «وكذلك إذا كان الإمام قد رتبه ولاة الأمور، ليس في ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية، فهنا لا يترك الصلاة خلفه، بل الصلاة خلفه أفضل، فإذا أمكن الإنسان أن لا يُقدَم مُظهراً للمنكر في الإمامة، وجب عليه ذلك، لكن إذا ولاه غيره ولم يمكنه صرفه عن الإمامة، أو كان لا يتمكن من صرفه عن الإمامة إلا بشر أعظم ضررا من ضرر ما أظهر من منكر: «فلا يجوز - والحالة هذه - دُفْعُ الفساد القليل بالفساد الكثير، ولا دفع أخف الضررين بحصول أعظمهما.

فإن الشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، بحسب

---

(١) كما يفعل البعض، «هداهم اللّه».
(٢) رواه البخاري، قاعدة في جمع كلمة المسلمين لشيخ الإسلام بن تيمية صـ١٣ - ١٥ .



الإمكان. فتفويت الجمع والجماعات أعظم فسادا من الاقتداء فيهما بالإمام الفاجر لاسيما إذا كان التخلف عنها لا يدفع فجورا، فيبقى تعطيل المصلحة الشرعية بدون دفع تلك المفسدة» وقال أيضاً «. . . يروى عن أبى يوسف «أنه لما حج مع هارون الرشيد، فاحتجم الخليفة وأفتاه «مالك» رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بأنه لا يتوضأ، وصلى بالناس، فقيل لأبى يوسف: «أصليت خلفه؟» قال: «سبحان اللّه ! أمير المؤمنين».

يريد بذلك أن ترك الصلاة خلف ولاة الأمور من فعل أهل البدع(١)

قوله: «ونجاهد أعداء المسلمين مع أئمة العدل والجور، ولا نشترط التقوى للجهاد والصلاة»

ش: أي لا يشترط في إمام المسلمين أن يكون عدلا تقيا ورعا حتى يجاهد معه.

قال العلامة موفق الدين أبى محمد بن عبد اللّه بن قدامه المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال أبو عبد اللّه «الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ» وقد سُئل عن الرجل يقول: «أنا لا أغزو، ويأخذه ولد العباس إنما يوفر الفيء عليهم»، فقال: «سبحان اللّه ! هؤلاء قوم سوء، هؤلاء القعدة مثبِّطون جهال»، فيقال: «أرأيتم لو أن الناس كلهم قعدوا كما قعدتم من كان يغزو؟ أليس قد ذهب الإسلام؟ ما كانت تصنع الروم» «إلى أن قال». . . ولأنّ تَرك الجهاد مع الفاجر يُفضى إلى قطع الجهاد وظهور الكفار على المسلمين واستئصالهم، وظهور كلمة الكفر، وفيه فساد عظيم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١](٢).

* * *

---

(١) شرح الطحاوية صـ٤٢١ - ٤٢٤ .

(٢) المغنى لا بن قدامه المقدسي.



القضية الثالثة والثمانون: قال المُصَنِّف حفظه اللّه:

«لا نرفع السيف على أحد من أمة محمد ﷺ إلا أن يكون معتديا فندافع عن أنفسنا، مع اعتقادنا أن ترك الدفاع أولى، ولا نستحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني وقاتل النفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

الشرح:

كما قال الإمام الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا نرى السيف على أحد من أمة محمد ﷺ إلا من وجب عليه السيف»[1] وكما جاء من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا اللّه وأني رسول اللّه، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»[2] فالزاني المحصن والذي يقتل النفس فهذا مستحق للقتل، وكذلك المرتد الذي ترك دينه وفارق جماعة المسلمين، كما قال النبى ﷺ «من بدل دينه فاقتلوه»[3] فالأصل أن دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم مصونة إلا بهذه الأمور الثلاثة وما يدخل تحتها:

١- كقتال المحاربين وقُطّاع الطُرق:

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأما إذا طلبهم «قطاع الطرق والمحاربين» السلطانُ أو نوابه، لإقامة الحد بلا عدوان فامتنعوا عليه، فإنه يجب على المسلمين قتالهم باتفاق العلماء، حتى يقدروا عليهم كلهم، ومتى لم ينقادوا إلا بقتال يُفضي إلى قتلهم كلهم قوتلوا، وإن أفضى إلى ذلك ؛ سواء كان قد قتلوا أو لم يقتلوا.

ويُقتلون في القتال كيفما أمكن، في العنق وغيره، ويُقاتَل مَن قَاتَل معهم ممن يحميهم ويعنيهم، فهذا قتال، وذاك إقامة حد، وقتال هؤلاء أوكد من قتل الطوائف الممتنعة عن شرائع الإسلام .

(١) شرح الطحاوية صـ٤٢٧ .
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم

فإن هؤلاء قد تحزبوا لفساد النفوس والأموال، وهلاك الحرث والنسل ؛ ليس مقصودهم إقامة دين ولا مُلك.(١)

كما قال النبي ﷺ عن الخوارج « . . . فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً عظيماً يوم القيامة» متفق عليه.

ودليلهم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذه آية المحاربة وهي المضادة والمخالفة، وهي صادقة على الكفر، وعلى قطع الطريق، وإخافة السبيل، وكذا الإفساد في الأرض يُطلق على أنواع من الشر»(٢) ولهذا رهَّب الإسلام من ذلك فعن ابن عمر وأبى هريرة رضي الله عنهم عن النبى ﷺ قال «من حمل علينا السلاح فليس منا»(٣)، وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال رسول اللّه ﷺ «من سَلّ علينا السيف فليس منا»(٤).

٢- من قاتل دفاعا عن نفسه أو عرضه أو ماله أو دينه:

كما جاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال «جاء رجل فقال: يا رسول اللّه ! أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: «فلا تُعْطِه مالك»، قال: «أرأيت إن قاتلني؟» قال: «قَاتْلِه»، قال: «أرأيت إن قتلني؟» قال: «فأنت شهيد» قال: «أرأيت إن قتلته؟» قال: «هو في النار».

---

(١) السياسة الشرعية لا بن تيمية ٨٥ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/٥٤ .
(٣) متفق عليه
(٤) رواه مسلم. ويؤيد قتال أهل البغي قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩﴾.



وعن ابن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من قُتِل دون ماله مظلوما فله الجنة»[١] .

وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من قُتِل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتِل دون دمه فهو شهيد، ومن قُتِل دون دينه فهو شهيد، ومن قُتِل دون أهله فهو شهيد»[٢] . وعن سويد بن مقرن رضي الله عنه قال، قال رسول اللَّه ﷺ: «من قُتِل دون مظلمته فهو شهيد».[٣]

قال ابن تيمية رحمه الله : «ويجوز للمطلوبين الذين تُراد أموالهم قتال المحاربين بإجماع المسلمين، ولا يجب أن يُبذل لهم من المال لا قليل ولا كثير، إذا أمكن قتالهم. . . . . وهذا الذي تسمّيه الفقهاء الصائل، وهو الظالم بلا تأويل ولا ولاية، فإن كان مطلوبه المال، جاز مَنْعُه بما يمكن، فإذا لم يندفع إلا بالقتال قوتِل، وإن ترك القتال وأعطاهم شيئاً من المال جاز، وأما إن كان مطلوبه الحُرمة - مثل أن يطلب الزنا بمحارم الإنسان، أو يطلب من المرأة، أو الصبي المملوك أو غيره الفجور به - فإنه يجب عليه أن يدافع عن نفسه بما يمكن، ولو بالقتال ولا يجوز التمكين منه بحال، بخلاف المال فإنه يجوز التمكين منه، لأن بذل المال جائز، وبذل الفجور بالنفس أو بالحُرمة غير جائز».

وأما إذا كان مقصوده، قَتْلَ الإنسان، جاز الدفعُ عن نفسه، وهل يجب عليه؟ على قولين من العلماء في مذهب أحمد وغيره»[٤] .

٣ - القتال في الفتنة:

خاصة لمن لم يظهر له المُحق أو على طائفتين ظالمتين لا تأويل لواحدة منهما:

كما جاء من حديث أبي بكره رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إنها ستكون فتن، ألا

---

(١) رواه النسائي وصححه الألباني (الجامع ٦٤٤٦).
(٢) رواه أحمد في مسنده وأبو داود والنسائي وابن حبان وصححه الألباني (الجامع ٦٤٤٥).
(٣) رواه أحمد والنسائي والضياء عن ابن عباس وصححه الألباني (الجامع ٦٤٤٧).
(٤) السياسة الشرعية لابن تيمية ص٨٧ - ٨٨ .

ثمَّ تكون فتن، ألا ثم تكون فتنة، القاعد خير من الماشي فيها، والماشي فيها خير من الساعي[١] إليها، ألا فإذا وقعت فمن كان له إبل فليلحق بإبله، ومن كان له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه» فقال رجل: يا رسول اللّه ﷺ ! أرأيت مَن لم يكن له إبل ولا غنم ولا أرض؟ قال يعمد إلى سيفه فيدق على حدِّه بحجر، ثم لينج إن استطاع النجاء، اللّهم هل بلّغت؟ «ثلاثا»، فقال الرجل: «يا رسول اللّه ﷺ! أرأيت إن أُكرِهت حتى يُنطلق بي إلى أحد الصَّفين، فضربني رجل بسيفه أو يجئ سهم فيقتُلني؟ قال: «يبوء بإثمه وإثمك، ويكون من أصحاب النار»[٢].

وقوله: «يعمد إلى سيفه فيدق على حدِّه».

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قيل المراد كسر السيف حقيقة على ظاهر الحديث ليسد على نفسه بابَ هذا القتال، وقيل هو مَجاز والمراد ترك القتال، والأول أصح. فيكسر سلاحه كيلا يذهب به إلى الحرب، لأن تلك الحروب بين المسلمين فلا يجوز حضورها. وقوله: «إن أُكرِهتُ» أي أخذت بالكره وأُجبِرت».

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إنّ بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم، يُصبح الرجل فيها مؤمنا، ويُمسى كافرا، ويُمسى مؤمناً ويُصبح كافراً، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من السّاعي، فكسّروا قُسيَّكم، وقطِّعوا أوتاركم، واضربوا سيوفكم بالحجارة، فإن دُخل على أحدٍ منكم بيتُه فليكن كخير ابني آدم»[٣][٤].

---

(١) قال ملا علي القارئ في شرحه على مشكاة المصابيح «أي يجعلها غاية سعيه ومنتهى غرضه لا يرى مطلبا غيرها» مرقاة المفاتيح ٩/ ٢٦٣ . وقال النووي «ومعناه: «بيان عظيم خطرها والحث على تجنبها والهرب منها، ومن التثبيت في الشئ، وأن شرها وفتنتها يكون على حسب التعلق بها» » شرح مسلم ١٨/ ٩ .

(٢) رواه مسلم، شرح مسلم للنووي ١٨/ ٩-١٠ . ومرقاة المفاتيح ٩/ ٢٦٤ .

(٣) يشير لقوله تعالى عن هابيل ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨].

(٤) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والحاكم وصححه الألباني الجامع ٢٠٤٩ .

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأما إذا كان - والعياذ باللَّه - فتنة، مثل أن يختلف سلطانان للمسلمين، ويقتتلان على المُلك، فهل يجوز للإنسان إذا دخل أحدهما بلد الآخر، وجرى سيف، أن يدافع عن نفسه في الفتنة، أو يستسلم فلا يقاتل فيها؟ عل قولين لأهل العلم، في مذهب أحمد وغيره»(١).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا مما يحتج به من لا يري القتالَ في الفتنة بكل حال، وقد اختلف العلماء في قتال الفتنة، فقالت طائفة: لا يُقاتل في فتن المسلمين وإن دخلوا عليه بيتَه وطلبوا قتلَه، فلا يجوز المدافعة عن نفسه، لأن الطالب متأول، وهذا مذهب أبي بكرة الصحابي الجليل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره».

وقال ابن عمر وعمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وغيرهما، لا يدخل فيها، لكن إن قُصِد دفع عن نفسه.

فهذان المذهبان متفقان على ترك الدخول في جميع فتن الإسلام.

وقال معظم الصحابة والتابعين وعامة علماء الإسلام يجب نصر المحق في الفتن والقيام معه بمقاتلة الباغين كما قال اللَّه تعالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ [الحجرات: ٩].

وهذا هو الصحيح وتتأول الأحاديث (٢) على من لم يظهر له المحق، أو على طائفتين ظالمتين، لا تأويل لواحدة منها ولو كان كما قال الأولون لظهر الفساد واستطال أهل البغي والمبطلون، واللَّه أعلم(٣).

* * *

(١) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لابن تيمية ص٨٨ .
(٢) أحاديث المنع.
(٣) الإمام النووي بشرح مسلم ١٨/ ١٠ .

القضية الرابعة والثمانون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

« «وكل دعوة تستهدف دمج المسلمين في غيرهم من أمم الكفر، وترك المسلمين لشئ من دينهم، أو رضاهم عن دين الكفار أو بعضة دعوة باطلة سواء سُمّيت بالإنسانية أو الوطنية أو الحزبية».

ونبرأ إلى اللَّه سبحانه وتعالى مِن كل تَجَمُّعٍ يناقض الإسلامَ ويحاربه».

الشرح:

عندما أرسل اللَّه سبحانه وتعالى عبده ورسوله محمد ﷺ إلى العرب(١) كانوا أمة ضعيفة متفرقة ممزقة، أمة ولاء بعضها للفرس والآخر للروم، أمة لا تراث لها ولا حضارة، القوي يأكل الضعيف، فلا دين يجمعهم، ولا هدف مشترك يوحدهم فَمَنَّ اللَّه عليهم بهذه الرسالة، وهذا النبي ﷺ، كما قال اللَّه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وجعلها أمة متميزة في كل شئ، وجعل أحد أصولها مخالفةَ الكفار والمشركين، ولم ينتقل الرسول ﷺ إلى ربه إلا بعد أن أكمل اللَّه لها دينها الذي رضيه لها، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، واستمرت الأمة في عزتها ومجدها فترة طويلة، حتى أصابها داءُ الأمم من الضعف والتمزق، وصَدَق فيها حديث النبي ﷺ الذي قال فيه: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»، قيل: «يا رسول اللَّه ﷺ فمن قلة يومئذ؟» قال: «لا، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، يجعل الوهن في

---

(١) لا يعنى هذا أنه مرسل للعرب فقط ولكن نزل القرآن بلغتهم فهم مادة الإسلام، وإلا فإنه أرسل إلى الناس كافة كما قال اللَّه تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].



قلوبكم، وينزع الرعبَ من قلوب عدوكم، لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت»[(١)].

الولاء للإسلام: ولا شك أن الإسلام عندما جاء كان أحد أهدافه تكوين أمة، ولكن ليست أمة بهذه المفاهيم الضيقة، ليست أمة جنس، ولا قومية محددة، ولا أرض «وطنية» ولكنها أُمة عقيدة، أُمة انصهرت وامتزجت بها جميع الألوان والأجناس والقوميات، أُمة شعارها «إن أكرمكم عند اللّه أتقاكم»، أمة جمعت أبا بكر القرشي وبلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي. جاء الإسلام لا لينفى الانتساب إلى القوم والأرض فلا يزال منذ زمن الرسول ﷺ فلان القرشي والخزرجي والدوسي والأوسي والعبسي والتميمي وذاك الكوفي والمدني والشامي والمكي.

ولكنه جاء ليجعل الولاء للّه ولدينه ولرسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أمر اللّه تعالى بمباينة الكفار به، وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن مولاتهم إن استحبوا أي اختاروا الكفر على الإيمان، وتوعّد على ذلك، كقوله تعالى: ﴿لا تجد قوما يؤمنون باللّه واليوم الآخر يوادون من حاد اللّه ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي اللّه عنهم ورضوا عنه أولئك حزب اللّه ألا إن حزب اللّه هم المفلحون﴾ [المجادلة: ٢٢].

ثم أمر اللّهُ تعالى رسولَه ﷺ أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على اللّه ورسوله ﷺ وجهاد في سبيله فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي اكتسبتموها وحصلتموها ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ أي: تحبونها لطيبها وحسنها، أي إن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أي فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله

(١) رواه أحمد وأبو داود في حديث ثوبان وصححه الألباني الجامع صـ٨١٨٣ .

ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٣- ٢٤][(١)].

وكان من أكبر نتاج هذا الضعف والتشرذم هو كثرة هذه الانقسامات والدعوات التى هدفت تمييع الإسلام ودَمْجَه مع غيره من مِلل الكفر، وهذه بعضا منها:

أولًا: القومية العربية[(٢)]:

والقومُ: الجماعة من الناس تجمعهم جامعة يقومون لها.

والقومية: صلة اجتماعية وجدانية، تنشأ من الاشتراك في الوطن والجنس واللغة والمنافع، وقد تنتهى بالتضامن والتعاون إلى الوحدة كالقومية العربية[(٣)] أي أن أبناء الأصل الواحد و اللغة الواحدة ينبغى أن يكون ولاؤهم واحدا، وإن تعددت أرضهم وتفرقت أوطانهم[(٤)] . وإن كان معناها أيضا السعي في النهاية إلى توحيد الوطن بحيث تجتمع القومية الواحدة في وطن شامل، فيكون الولاء للقومية مصحوبة بالولاء للأرض.... ولكن الولاء للقومية يظل هو الأصل ولو لم تتحقق وحدة الأرض[(٥)] وقد اختلف دعاة القومية في عناصرها:

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٥١ - ٤٥٢ .

(٢) يقول جورج كيرك: «مؤلف كتاب موجز تاريخ الشرق الأوسط»: إن القومية العربية ولدت في دار المندوب السامي البريطاني، ولقد كانت بريطانيا قد فكّرت من قبل في إيجاد «الجامعة العربية» على مستوى الحكومات، فطار «أنتوني إيدن» وزير الخارجية البريطاني إلى القاهرة عام ١٩٤٦م ودعا الرؤساء والملوك العرب إلى الاجتماع به هناك وعرض عليهم فكرة إنشاء «الجامعة العربية» في القاهرة لتتبنى قضايا العرب وتدافع عن مصالحهم، ولكن ذلك لم يكن كافيا بل لا بد من رفع راية «القومية العربية» على مستوى الجماهير، «نقلًا مذاهب فكرية معاصرة محمد قطب صـ٥٨٥ - ٥٨٦».

(٣) المعجم الوجيز صـ٥٢١ .

(٤) وأقرب مثال على ذلك الأكراد، وما فعله الاستعمار عندما زرع إسرائيل في قلب الوطن العربي المسلم لتندفع القومية اليهودية.

(٥) مذاهب فكرية معاصرة صـ٥٥٤ .



فَمِن قائل: إنها الوطن، والنسب، واللغة العربية ؛ ومِن قائل: إنها اللغة فقط ومن قائل: إنها اللغة مع المشاركة في الآلام والآمال ؛ ومن قائل: غير ذلك.

أما الدّين فليس من عناصرها عند أساطينهم والصرحاء منهم، وقد صُرِّح كثيرا بأن الدِّين لا دخل له في القومية، وصرّح بعضهم أنها تحترم الأديان كلها مع الإسلام وغيره.

وقال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: وهي دعوة باطلة وخطأ عظيم، وذلك لوجوه منها:

أولًا: أن الدعوة إلى القومية العربية تفرق بين المسلمين، وتفصل المسلم العجمي عن أصله العربي، وتُفرِّق بين العرب أنفسهم، لأنهم كلهم ليسوا يرتضونها.

ثانياً: أن هذه الدعوة جاهلية قد نهى الإسلام عنها، كما ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «إن اللّه قد أذهب عنكم عصبية الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي، الناس بنو آدم، وآدم خُلِق من تراب، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»[(١)] .

ولو كانت أنسابهم وحدَها تنفعهم شيئا لم يكن أبو لهب وأضرابه من أصحاب النار، بل كيف يجوز في عقل عاقل أن يكون أبو جهل وأبو لهب وعقبة ابن أبي معيط وأحزابهم من صناديد قريش، إخوانا وأولياء لأبى بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، فهذا من أبطل الباطل.

ثالثا: ثم إن هذه الدعوة ما هي إلا سلَّم لموالاة كفار العرب وملاحدتهم من أبناء غير المسلمين، واتخاذهم بطانة، والاستنصار بهم على أعداء القوميين من المسلمين وغيرهم ويصدق فيهم قول اللّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥١- ٥٢]. وهذا

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم وحسنه الألباني (الجامع ١٧٨٣).



كقول القوميين: نخشى أن تصيبنا دائرة، نخشى أن يعود الاستعمار إلى بلادنا نخشى أن تُسلب ثرواتنا بأيدي أعدائنا، فيوالون لأجل ذلك كُلَّ عربي مِن يهود ونصارى ومجوس وملحدين [(١)]

ثانياً: الوطنية:

الموطِن: كل مكان أقام به الإنسان، وجمعها: مواطن.

والوطن: مكان إقامة الإنسان ومقره، وُلِد به أم لم يولد، وجمعها أوطان[(٢)]. وتؤكد هذه المعاني اللغوية أن ألفاظ «وطن - مواطن - وطنية» تتكون من عناصر مادية وعناصر معنوية، وتتمثل العناصر المادية في «الأرض - السكن - محل الإقامة»

وتتمثل العناصر المعنوية «الاستقرار - تهيئة المشاعر - إظهار النوايا المشتركة»[(٣)].

والمقصود بالمشاعر «أن يشعر جميع أبناء الوطن الواحد بالولاء لذلك الوطن والتعصّب له، أيا كان أصولهم التي ينتمون إليها، وأجناسهم التى انحدروا منها أيْ

أن الولاء فيها للأرض بصرف النظر عن القوم أو اللغة أو الجنس»[(٤)].

ثالثا: الإنسانية:

خلاف البهيمية وهي جملة الصفات التى تميز الإنسان، أو جملة أفراد النوع البشري التى تصدق عليها هذه الصفات[(٥)] - أو العالمية كما يدعونها أحيانا - دعوة براقة، تظهر بين الحين والحين ثم تختفى لتعود من جديد: «يا أخي ! كُن إنساني النزعة... وَجّه قلبك ومشاعرك للإنسانية جمعاء.. دع الدِّين جانبا ؛ فهو أمر شخصي... علاقة خاصة

---

(١) نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع لسماحة شخنا العلامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ (باختصار).

(٢) المعجم الوجيز ص ٦٧٤ .

(٣) موسوعة العلوم السياسية ١/ ١٧٠ إصدار جامعة الكويت ٩٣/ ٩٤ .

(٤) مذاهب فكرية معاصرة صـ٥٥٤ للأستاذ محمد قطب.

(٥) المعجم الوجيز ص ٢٧ .



بين العبد والرب محلها القلب. . لكن لا تجعلها تُشكِّل مشاعرك وسلوكك نحو الآخرين الذين يخالفونك في الدِّين. . . فإنه لا ينبغى للدِّين أن يُفرِّق بين البشر. . بين الأخوة في الإنسانية ! تعال نصنع الخير لكل البشرية غير ناظرين إلى جنس أو نوع أو وطن أو دين»(١).

قارن بين هذه الدعوة وبين العبارة الماسونية: «اخلع عقيدتك على الباب(٢) قبل أن تخلع نعليك» ألا تجد أن بينهما تشابهاً؟

دعوة براقة، انطلت على بعض المسلمين السذج كما انطلت الدعوات السابقة «الوطنية، القومية، الاشتراكية. .» على كثير من المسلمين، فَبِاسم الإنسانية يُراد تمييع الدِّين وعزِّة المسلمين وإدخال عقائد وأخلاق اليهود والملاحدة بدين المسلمين، و أين الواقع والرصيد العقلي لهذه الكلمة «الإنسانية» إلا في ديار المسلمين، فالمسلمون دخلوا بلاد الأندلس وفتحوا مصر والهند وغيرهم من البلدان فهل أكرهوا أحدا على الدخول في الإسلام، ألم يكن شعارهم﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾؟ [البقرة: ٢٥٦]، ألم يكن مبدئهم﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾؟ [الممتحنة: ٨]، وأين واقع هذه الأمة في فلسطين وما يعانيه أهلها؟ أين واقع هذه الكلمة في الفلبين، وكمبوديا وكشمير، والبوسنة، والشيشان، والهند؟ بل أين واقعها في فرنسا(٣) وتركيا العلمانية، وروسيا الشيوعية التى قتلت ما يقارب أربعة ملايين مسلم.

إن الإسلام - دين اللَّه - صريح غاية الصراحة، حَاسِمٌ كل الحسم، لا يداور ولا يناور، ولا يتاجر بالشعارات، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ

---

(١) هذه بعض أقوالهم.
(٢) أي عند دخولك الماسونية.
(٣) حيث تمنع الطالبات المسلمات من لبس الحجاب.

ﵟالْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍﵞ [آل عمران: ٢٨]، وقال تعالى: ﵟيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُﵞ [المائدة: ٥٦].

والشاهد أن شعار الإنسانية لا يقل خطورة عن سابقيه إن لم يكن هو أشدهما فتكاً في كيان الأمة وتضعيفاً لعقيدتها[١].

رابعاً: الحزبية:

الحزب: كل طائفة جمعها الاتجاه إلى غرض واحد، وفي القرآن الكريم ﵟكُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَﵞ [الروم: ٣٢][٢]. وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ «والحزب الصنف من الناس وأصله من النائبة من قولهم: حزبه كذا: أي نابه، فكأن المتحزبون مجتمعون كاجتماع أهل النائبة عليها[٣]، وقيل: هي الطائفة والجماعة مطلقا، أو الجماعة التى فيها شدة»[٤].

أما الحزب بالتعريف السياسي الحادث فقد اختلفوا فيه فمنهم من قال[٥]: «**إن الحزب له صفة التنظيم الرسمي، هدفه الصريح والمعلن هو الوصول إلى الحكم منفرداً أو مؤتلفا مع أحزاب أخرى**».

ويُعرِّفه آخر[٦]: «**بأنه تنظيم رسمي هدفه الرئيسي أن يسِّيطر وحده، أو بائتلاف مع غيره على إدارة الحكم التى تتولى وضع وتنفيذ السياسات العامة**».

ومهما اختلفت التعريفات السياسية للحزب، إلا أنها تتفق على ضرورة وجود شكل تنظيمي للحزب، وعلى اعتبار الظفر بالسلطة هدف الحزب، وقد تلتقي جماعة

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة لمحمد قطب ص٥٨٩- ٦٠٤ (بتصرف بسيط).
(٢) المعجم الوجيز ص١٤٨ . أو «كل قوم تشاكلت أهواؤهم وأعمالهم» «العجز الوسيط ١٧٠».
(٣) الجامع لأحكام القرآن ص٦/ ٢٢٣ .
(٤) روح المعاني للألوسي ٤/ ٢٥٠ .
(٥) جيمس كولمان.
(٦) جوزيف لابالومبارا.

المصلحة مع الحزب في العنصر الأول «التنظيم»، فيما تفترق عنه بالضرورة في العنصر الثاني «الوصول إلى السلطة» وتختلف الأحزاب فيما بينها بالتالي، في أمور كثيرة منها «وهو الذي يهمنا»: في درجة التزامها الأيديولوجي «الديني» حيث توجد أحزاب تتبنى أُطُراً فكرية متكاملة بشأن الكون والمجتمع والسياسة. وأحزاب أخرى، تعتمد النهج العملي القائم على التجربة والخطأ. وأخرى تعتمد على كسب الأنصار، ونيل الأصوات على ما تطرحه من برامج على المواطنين، وتوجد كذلك أحزاب أشخاص يرتبط قيامها واستمرارها بشخصيات معينة ذات وزن اجتماعي يعتد به(١).

وهذه «الأحزاب» كذلك إحدى الدعوات البراقة التى قد تجذب بعض المسلمين للانضمام إليها والتعاون معها مع ما فيها من دمج بين عقائد ومِلل الكفر والإلحاد وبين المسلمين، كما تُلزم المسلمين بعدم إظهار الشعائر والعقائد الإسلامية حتى لا يؤدى ذلك لانشقاق الحزب فيما يزعمون، وكذلك السكوت عمّا يرونه من مخالفات شرعية حفاظاً على المسيرة الحزبية، يُسمى أو ما يُسمى بالائتلافات(٢) وقد حذَّرَنا اللَّه من ذلك بقوله ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٨- ٩] قال ابن عباس رضي الله عنه: «لو ترخص لهم فيرخصون» وقال مجاهد: «تركن إلى آلهتهم وتترك ما أنت عليه من الحق»(٣).

وقال الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق حفظه اللَّه: «لا يجوز بتاتا أن تتحول الدعوة إلى اللَّه إلى حزب سياسي من أحزاب الدنيا، فتتنازل عن عقيدتها أو بعضها من أجل تجميع الناس وإرضاء المنحرفين والوصول إلى السلطة والحكم، وبهذا تُفرِّغ الإسلام من مضمونه والدعوة من حقيقتها، وتصبح حزباً سياسياً يرفع شعار الإسلام، من أجل

---

(١) موسوعة العلوم السياسية الصادرة من جامعة الكويت ١/ ٥٢٣ (باختصار).
(٢) وهذا مع ما فيه من المخالفات والمحاذير الشرعية والتنازل عن بعض من ديننا إلا أن الواقع يثبت أنهم يصلون على أكتاف
بعض الإسلاميين السّذّج ثم يتبرؤن منهم ويتنصلون من عهودهم (واللَّه المستعان).
(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٢٦ .

استهواء الناس وإستدرار عاطفتهم والركوب على ظهورهم إلى السلطان ؛ والحال أن الإسلام المزعوم إسلام مُفرَّغ من العقيدة، خاوٍ وخالٍ من الإيمان والتوحيد، إسلام في شكل الإسلام ولكنه لا يحمل روحه وقلبه».

إنه أشبه بالسّيف الخشبي يحمل مسمي السّيف ولا يملك حدّه ونصله وحقيقته(١).

والخلاصة: أن هذه الدعوات وما شابهها سواء كان هدفها النهائي دمج المسلمين في غيرهم من أمم الكفر وترك المسلمين لشئ من دينهم أو رضاهم عن دين الكفر أقول سواء كان هذا هدفها النهائي أو هدفها المرحلي، فكل هذا نتبرأ منه أما لكونه هدفها فهذا واضح، وأما لكونه هدفاً مرحلياً فلأنه خيانة للدعوة الإسلامية. والإسلام لا يرفع شعاراً ويُخفي أخر، كيف هذا؟ واللّه ورسولهﷺ يأمرنا بالدعوة، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] والأمة الإسلامية مأمورة بهذا أيضا قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

* * *

(١) مقدمة الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق على كتاب منهج الأنبياء في الدعوة إلى اللّه فيه الحكمة والعقل] ص ١٣ لفضيلة الشيخ الدكتور/ ربيع بن هادي المدخلي حفظه اللّه.



القضية الخامسة والثمانون: قال المُصَنِّف حفظه اللّه:

«وكل جماعة من المسلمين اجتمعت على خير وبر وجهاد ودعوة هم إخوان لنا مالم يجعلوا تَجمعَهم هذا هو جماعة المسلمين، مكفرين سواهم، أو متعاونين فيما بينهم على الاثم والعدوان».

قوله: «وكل جماعة من المسلمين اجتمعت على خير وبر وجهاد ودعوة، هم إخوان لنا».

الشرح: وذلك أن هذا هو الأصل لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. فهذا عقد عَقَدَه بين المؤمنين، أنه إذا وجُدِ من أي شخص كان، في مشرق الأرض أو مغربها: الإيمانُ باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الأخر، فإنه أخ للمؤمنين، أُخُوة توجب أن يُحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون له ما يكرهون لأنفسهم.... وقال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً" وشبَّك ﷺ بين أصابعه»(١) ولقد أمر اللّهُ ورسوله بالقيام بحقوق المؤمنين بعضِهم لبعض، وبما به يحصل التآلف والتوادد والتواصل بينهم، كل هذا تأييد لحقوق بعضهم على بعض(٢).

لكن يجب أن يكون اجتماعهم قائماً على كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ وما كان عليه السلف الصالح من عقيدة وسلوك وفهم صحيح.

قوله: «ما لم يجعلوا تَجمعَهم هذا هو جماعة المسلمين».

الشرح: هذا استثناء لازم، لأنهم إن جعلوا هذا التجمع هو جماعةَ المسلمين فهذا هو التعصبُ والتحزب! كالذين يرون أنهم هم وحدهم جماعة المسلمين، وأن غيرهم خارجون عنها، كما يقول سعيد حوى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن جماعة الإخوان لا غيرها هي التي

---

(١) متفق عليه.
(٢) تيسير الكريم الرحمن للعلامة عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ينبغي أن يضع المسلم يده في يدها»(١)، وقال أيضا: «وبهذا لا يسع مسلماً أن يتخلف عن هذه الدعوة»(٢).

ويقول أيضا: «وإذا كانت هذه الجماعة هذا شأنها، فلا يجوز لمسلم الخروج منها، قال عليه السلام: «من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»... وعلى كل مسلم ألا ينتسب لتنظيم أو جهة ليست من الجماعة، لأن الطاعة لا تجوز إلا لأولي الأمر من المسلمين وتحرم على غيرهم اختياراً، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]»(٣).

ويقول: «والبيت المسلم الكامل، هو الملتزم بمبادئ الإخوان المسلمين لأن ذلك هو الكمال الإسلامي المعاصر، ولذلك جعل الأستاذ البنّا واجبات الأخ العامل إلزام المنزل بمبادئ الإخوان المسلمين»(٤).

قوله: «مكفرين سواهم»

ش: كما يقول أحد قياديي(٥) جماعة شكري: «نحن جماعة الحق، ومَن عَدَانا فليس بمسلم».

وإليك بعضَ أقوالِ أهل العلم:

قال ابن تيمية رحمه الله: «وليس لأحد أن يُنصب للأمَّة شخصاً يدعو إلى طريقته، ويُوالي ويُعادي عليها غيرُ النبي ﷺ، ولا يُنصب لهم كلاماً يوالى عليه ويُعادى غيرُ كلام اللَّه ورسوله، وما اجتمعت عليه الأمَّة، بل هذا من فعل أهل البدع الذين يُنَصِّبون لهم شخصاً أو كلاماً يُفرِّقون به بين الأمة، يوالون به على ذلك الكلام أو

---

(١) المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين ص ٢٩-٣٠.
(٢) في آفاق التعليم ١٦.
(٣) من أجل خطوة إلى الأمام ص ٤٠ - بدون تعليق !؟.
(٤) في آفاق التعليم ص ٢٩.
(٥) هو المكنى بأبي مصعب، ينظر، ذكرياتي مع جماعة المسلمين ص٧٤ عبد الرحمن أبو الخير.

تلك السنة».

وقال أيضاً: «فإذا كان المعلم أو الأستاذ قد أمر بهجره «شخصاً ما» أو بإهداره وإسقاطه وإبعاده ونحو ذلك نظر فيه: فإن كان قد فعل ذنباً شرعيًا عوقب بقدر ذنبه بلا زيادة وإن لم يكن أذنب ذنباً شرعيًا لم يَجز أن يُعاقب بشيء لأجله، وليس للمعلمين أن يحزِّبوا الناس، ويفعلوا ما يُلقي بينهم العداوة والبغضاء، بل يكونوا مثل الأخوة المتعاونين على البر والتقوى كما قال تعالى» ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

قال الحافظ ابن عساكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١):

«واعلم يا أخي وَفَّقَنَا اللَّه وإياك لمرضاته، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته أن لحوم العلماء - رحمة اللَّه عليهم - مسمومةٌ، وعادة اللَّه في هَتْكِ أستار منتقصيهم معلومة، لأن الوقيعة فيهم بما هم منه براء، أمره عظيم، والتناول لأعراضهم بالزُّور والافتراء مَرْتَعٌ وخِيم، والاختلاف على من اختاره اللَّه منهم لِنَعش العلم خُلق ذميم...» وهذا بلاء عريض، وفتنة مضلة في تقليص ظِلِّ الدين، وتشتيت جماعته، وزرع البغضاء بينهم، وإسقاط حملته من أعين الرعية، وما هنالك من العناد، وجحد الحق تارة، ورده أخرى.

قال شيخنا الألباني - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - في شريط مُسجّل ينصح فيه بعض الشباب(٢):

«شوف يا أخي: أنا أنصحك أنت والشبابَ الآخرين الذين يقفون في خطٍّ مُنحرف فيما يبدو لنا واللَّه أعلم، ألا تُضيِّعوا أوقاتكم في نقض بعضكم بعضاً» وتقولوا: «فلان قال: كذا، وفلان قال: كذا»، لأنه أولًا: ليس من العلم في شيء، وثانياً: هذا الأسلوب يوغل الصدور، ويُحقق الأحقاد والبضاء في القلوب.

إنَّما عليكم بالعلم، فالعلم هو الذي يكشف هل هذا الكلام في ذمِّ زيد من الناس لأنَّ

(١) تبيين كذب المفتري ص ٢٩ .
(٢) سلسلة الهدى والنور الصوتية رقم ٧٨٤ الوجه الأول.

له أخطاء كثيرة، وهل يحق لنا أن نُسمّيه صاحب بدعة أو مبتدع؟! مالنا ولهذه التعمقات، أنا لا أنصح بأن تتعمقوا كل هذه التعمقات، لأن الحقيقة نحن نشكو الآن هذه الفُرقة التي طرأت على المنتسبين لدعوة الكتاب والسُنَّة، أو كما نحن نقول نحن (الدعوة السلفيَّة) هذه الفُرقة، واللَّه أعلم السبب الأكبر فيها هو حظ النفس الأمارة بالسوء، وليس هو الخلاف في بعض الآراء الفكرية.

هذه نصيحتي، لأنَّ كثيراً ما أُسأل ما رأيك في فلان؟ فأفهم أنَّه مُتحيزٌ له أو عليه، وقد يكون من يُسأل عنه من إخواننا القدامى، الذي يقال: أنَّه انحرف فنردّ عليه -السائل-، ماذا تريد بفلان وفلان؟! استقم كما أُمِرتَ ! تعلَّم العلم، هذا العلم سيُميِّز لك الصالح من الطالح، والمخطئ من المصيب، ثم لَا تحقد على أخيك المسلم لمجرد أنَّه - ما نقول: أخطأ - بل نقول: انحرف في مسألة أو اثنتين أو ثلاثة والمسائل الأخرى ما انحرف فيها.

فنحن نجد في أئمة الحديث من يتقبلون حديثه، ويقال في روايته أنَّه خارجي أو مرجئ. .الخ، وهذه كلها عيوب وكلها ضلالات، لكن يوجد عند هؤلاء ميزان يتمسكون به، ولا يُرجحون لِخفَّة سيئة على الحسنات أو سيئتين أو ثلاثة على جملة حسنات ومن أعظمها شهادة أن لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه.

وقال الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعريف «من هو المبتدع»[(١)]:

أثر أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يَصلُح بأن يكون مثالاً عن وقوع العالم في بدعة، لا يعني أنَّه مُبتدع، وأن وقوع العالِم في بدعة لا يعني أنَّه مُبتدع، وأن وقوع العالِم في ارتكاب مُحرَّم - أي القول في إباحة ما هو محرّم اجتهاداً منه - لا يعني أنَّه ارتكب مُحرماً؟

فأقول: أثر أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ هذا الذي يَنُصُّ على أنه يقوم يوم الجمعة قبل الصلاة يعظ الناس، يصلح بأن يكون مثالاً صالحاً، كوْن البدعة قد تقع من عالم وليس مع ذلك أنَّه مبتدع.

---

(١) سلسلة الهدى والنور الصوتية رقم ٧٨٥ الوجه الثاني.



وقبل الخوض في تمام الجواب أقول: المبتدع هو أولًا الذي من عادته الابتداع في الدين، وليس الذي يبتدع بدعة، ولو هو فعلًا ليس عن اجتهاد، وإنَّما عن هوى ومع هذا لا يسمى مبتدعاً.

وأوضح مثال لتقريب هذا المثال، أن الحاكم الظالم قد يعدل في بعض أحكامه، فلا يُقال فيه عادل، كما أنَّ العادل قد يظلم في بعض أحكامه، فلا يُقال فيه ظالم، وهذا يؤكد القاعدة الإسلامية الفقهيَّة: أنَّ الإنسان بما يغلب عليه من خيرٍ أو شر، إذا عرفنا هذه الحقيقة عرفنا من هو المبتدع.

فيشترط إذن في المبتدع شرطان:

أولًا: أن لا يكون مجتهداً وإنَّما يكون مُتَّبعاً للَّهوى

ثانياً: أن يكون ذلك من عادته ومن ديدنه.

وقال الشيخ محمد الصالح بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١):

«السلفيَّة هي اتباع منهج النبي ﷺ وأصحابه، لأنَّه مَنْ سَلَفنا تقدموا علينا، فاتِّباعهم هو السلفيَّة وأما اتِّخاذ السلفيَّة كمنهج خاص ينفرد به الإنسان ويُضلِّل مَنْ خالفه من المسلمين ولو كانوا على حقٍّ: فلا شكَّ أن هذا خلافُ السلفيَّة. لكن بعض ممّن انتهج السلفيَّة في عصرنا هذا صار يُضلِّل كلَّ مَنْ خالفه، ولو كان الحق معه واتَّخذها بعضهم منهجاً حزبياً، كمنهج الأحزاب الأخرى التي تنتسب إلى الإسلام. إن الذي يُوزَن يوم القيامة هي الأعمال، وبعضهم يرى أنَّ صحائف الأعمال هي التي تُوزن، وتراهم - أيضاً- في مسائل الفقه يختلفون: في النكاح، في الفرائض في العِدَد، في البيوع، وفي غيرها، ومع ذلك لا يُضلِّل بعضهم بعضاً. فالسلفيَّة بمعنى أن تكون حزباً خاصاً له مميزاته ويُضلِّل أفرادُه سواهم: فهؤلاء ليسوا من السلفيَّة في شيء.

---

(١) لقاء الباب المفتوح السؤال رقم ١٣٢٢ .



قال الشيخ عبد المحسن العباد حفظه اللَّه:

«إن من أهل السنَّة في هذا العصر من يكون دَيْدَنُه وشغلُه الشاغل تتبُّع الأخطاء والبحث عنها، سواء كانت في المؤلفات أو الأشرطة، ثم التحذير مِمَّن حصل منه شيءٌ من هذه الأخطاء، ومن هذه الأخطاء التي يُجرَّح بها الشخص ويُحذَّر منه بسببها تعاونه مثلًا مع إحدى الجمعيات بإلقاء المحاضرات أو المشاركة في الندوات، وهذه الجمعية قد كان الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ محمد بن عثيمين - رحمهما اللَّه - يُلقيان عليها المحاضرات عن طريق الهاتف، ويُعاب عليها دخولها في أمر قد أفتاها به هذان العالمان الجليلان، واتِّهام المرء رَأْيَه أولى من اتِّهامه رَأْيَ غيره، ولا سيّما إذا كان رأياً أفتى به كبار العلماء، وكان بعضُ أصحاب النبي ﷺ بعدما جرى في صلح الحديبية يقول: «يا أيُّها الناس ! اتِّهموا الرأي في الدِّين».

السؤال: «إذا وُجد للعالِم كلام مُجمل في موضع في قضية ما، وقد يكون هذا الكلام المجمل ظاهره يدل على أمر خطأ، ووجد له كلام آخر في موضع آخر مُفَصَّل في نفس القضيَّة موافق لمنهج السلف، فهل يُحمل المُجْمل من كلام العالِم على الموضع المفصَّل؟».

فأجاب الشيخ العباد: نعم يُحمل على المُفصَّل، ما دام هو شيء مُوهِم، فالشيء الواضح الجلي هو المعتبر.

قال الشيخ بكر أبو زيد حفظه اللَّه:

«التناوش من مكان بعيد لحمل الكلام على محامل السوء بعد بذل الهَمّ القاطع للترّصد، والترّبص، والفرح العظيم بأنه وجد على فلان كذا، وعلى فلان كذا. ومتى صار من دين اللَّه: فَرَحُ المسلم بمفارقة أخيه المسلم للآثام. وقال: «لا يجوز أن يُمتحن أيُ طالب على غيره، بأن يكون له موقف من فلان المردود عليه أو الرَّاد، فإن وافق سلِم، وأن لم يُوافق بُدِّع وهُجر، وليس لأحد أن ينسب إلى أهل السنَّة مثل هذه الفوضى في التبديع والهجر، وليس لأحد أيضاً أن يصف من لا يسلك هذا المسلك الفوضوي بأنه مُميِّع لمنهج السلف، والهجرُ المفيد بين أهل



السنَّة ما كان نافعاً للمهجور».

ومن آحادها السخيفة التي يأتمرون وَيَلْتَقُونَ عليها للتصنيف: «فلان يترحّم على فلان، وهو من الفرقة الفلانية؟ ومن مستندات «المنشقين» الجراحين: تتبّع العثرات، وتلمس الزَّلَّات والهفوات.

وانظر: ما ثبت في: «الصحيحين» عن جابر رضي الله عنه «أن رسول اللَّه ﷺ نَهى أن يطرق الرجلُ أهله ليلًا يتخونهم أو يلتمس عثراتهم».

فهؤلاء يجب أن يبُغضوا من هذا الوجه، مع إسداء النصيحة لهم، فإن الدين النصيحة، كما قال ﷺ: «الدين النصيحة، قلنا: «لمن»؟ قال: «للَّه ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم»[(١)].

فيجب أن يُعلَّموا حتى يُرفع عنهم الجهلُ، وتتضح المحجة، وتقام الحجة. وإلا أُخذ على أيديهم، كما ثبت عن النبي ﷺ قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قيل: «يا رسول اللَّه! هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً؟، قال: تأخذ فوق يده»[(٢)] وقوله: «فوق يده» كُني به عن كَفِّه عن الظلم بالفعل إن لم يَكف بالقول وعُبرِّ بالفوقية إشارة إلى الأخذ بالاستعلاء والقوة[(٣)].

أما التعاون على الإثم والعدوان فهذا مما نهى اللَّه عنه قال تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]. ، وهو التجرؤ على المعاصي التي يأثم صاحبها ويحرجه. والتعدي على الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، فكل معصية وظلم تجب على العبد، كفّ نفسه عنها ثم إعانة غيره على تركه[(٤)].

* * *

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه البخاري وفي رواية ابن حبان «تمسكه من الظلم فذاك نصرة إياه».
(٣) فتح الباري ٥/٩٨ ابن حجر.
(٤) تيسير الكريم المنان ٢١٩ العلامة عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله.

القضية السادسة والثمانون: قال المُصَنِّف حفظه اللّه:

«الأمة الإسلامية هي خير أمة أخرجت للناس على مدى العصور، وهي وارثة دين اللّه، والداعية إليه إلى آخر الدنيا، وهم الآخرون الأولون يوم القيامة».

قوله: «الأمة الإسلامية هي خير أمة أخرجت للناس على مدى العصور»

الشرح: «المقصود بالأمة» في اللغة:

المقصود بالأمة هنا هي أمة الاستجابة. أي الناس الذين استجابوا للنبى ﷺ فأسلموا، وأذعنوا له، وانقادوا ظاهرا وباطنا.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، قال ابن كثير رحمه الله: «يخبر اللّه تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم(١). فعن أبى هريرة رضي الله عنه: قال: «خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام»(٢) وهذه هي الخيرية العامة في جميع الأمة كُلُّ قَرْنٍ بحسبه، وخير قرونهم الذي بُعث فيهم رسول اللّه ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم(٣) كما في رواية معاوية بن حيدة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «أنتم توفون سبعين أُمة، أنتم خيرها أكرمها على اللّه عزَّ وجلَّ»(٤).

أسباب حيازة الأمة لهذه الخيرية:

أولًا: بنبيها محمد ﷺ، فإنه أشرف خلق اللّه، وأكرم الرسل على اللّه.

ثانياً: برسالتها، وهي الإسلام، فقد بُعث رسولها ﷺ بشرع كامل عظيم لم يعطه نبى

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٥١٩ .
(٢) رواه البخاري.
(٣) تفسير القرآن العظيم ١/ ٥١٩ .
(٤) رواه أحمد وحسّنه الأستاذ شعيب الأرنؤوط والترمذي وحسّنه وابن ماجه.

قبله ولا رسول من الرسل.

فالعمل على منهاجه واتباع سنته وسبيله يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه.

ولقد ثبت عن ابن مسعود ﵁ أنه قال: قال لنا رسول اللَّه ﷺ «أما ترضون أن تكونوا رُبع أهل الجنة؟» فكبّرنا، ثم قال: «أما ترضون أن تكونوا ثُلث أهل الجنة؟» فكبّرنا، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة»[1].

ثالثا: عدالتها:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤]. (وسطاً) خياراً أو عدولا[2] لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم، لأن الجميع معترفون لكم بالفضل، (والوسط) هاهنا الخيار والأجود.

كما يقال «قريش أوسط العرب نسبا ودارا» أي خيرها، وهذه الوسطية اقتضت الشهادة على الأمم يوم القيامة .

كما ثبت من حديث أبي سعيد الخدري ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يُدعى نوح يوم القيامة، فيُقال له: «هل بلغت؟» فيقول: «نعم»، فيُدعى قومُه، فيقال لهم: «هل بلغكم؟» فيقولون: «ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد»، فيقال لنوح: «من يشهد لك؟» فيقول: «محمد ﷺ وأمته»، قال فذلك قوله «وكذلك جعلناكم أمة وسطا» قال الوسط: العدل، فتُدعون فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم»[3] .

وعن سلمة بن الأكوع ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ «أنتم شهداء اللَّه في الأرض، والملائكة شهداء اللَّه في السماء»[4] .

---

(١) متفق عليه.
(٢) روح المعاني ٢/٦ للألوسي.
(٣) رواه أحمد والبخاري والترمذي وغيرهم.
(٤) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي.

قوله: «وهي وارثة دين اللَّه والداعية إليه إلى آخر الدنيا»

ش: وهذا هو السبب الرابع التى حازت الأمة السبق والخيرية، بسببه وهي أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر، وقيامها بواجب التبليغ لدينه والدعوة إليه وهو قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾. قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا الثناء عليهم والمدح، ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم اللَّه بقوله تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾[1] [المائدة: ٧٩] ولقد قامت هذه الأمة بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر خير قيام، فلقد جاهدوا في سبيل اللَّه بالقلم اللسان والسِنان.

ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ وهم كذلك ويحكم بملة الإسلام وشَرْعِ محمد ﷺ فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام[2].

قوله: «وهم الآخرون الأولون يوم القيامة»

ش: كما ثبت عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: قال رسول ﷺ: «نحن آخر الأمم، وأول من يحاسب، يقال: أين الأمة الأميّة ونبيها؟ فنحن الآخرون الأوّلون»[3].

وما ثبت كذلك عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيدا أنهم أُوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، ثم هذا يومهم[4] الذي فرض اللَّه عليهم، فاختلفوا فيه، فهدنا اللَّه له، فالناس لنا فيه تبع ؛

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٥١٩ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٢٦ .
(٣) رواه بن ماجه وصححه الألباني، صحيح الجامع ٦٦٢٥ والصحيحة ٢٣٧٤.
(٤) أي يوم الجمعة.



اليهود غداً[١]، والنصارى بعد غدٍ»[٢][٣] .

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

«قال العلماء معناه الآخرون في الزمان والوجود، السابقون بالفضل ودخول الجنة، فتدخل هذه الأمة الجنة قبل سائر الأمم»[٤] .

فقوله ﷺ «نحن»: أي أنا وأمتي، «الآخرون»: في الدنيا وجوداً، وخلقهاً «السابقون»، «الأولون»: أي حياة ورتبة شهودا «يوم القيامة» أو أخر أمم الأنبياء في الدنيا، السابقون عليهم بدخول الجنة في العقبى، فالعبرة بذلك اليوم ومواقفه.

فإن هذه الأمة تُحشر قبل سائر الأمم، وتمر على الصراط أولًا، ويُقضى لهم قبل الخلائق، ونبيها يدخل الجنة قبل سائر الأنبياء، وأمته قبل سائر الأمم، اعتباراً للسبق المعنوي، لا الوجود الحسي[٥] .

❊ ❊ ❊

---

(١) يوم السبت.
(٢) يوم الأحد.
(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي.
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ١٤٢/٦ .
(٥) ملا علي القاري مرقاة المفاتيح ٤٣٩/٣ - ٤٤٣ باختصار.

ثامناً: أصول الدعوة إلى اللَّه سبحانه وتعالى

القضية السابعة والثمانون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«والدعوة إلى[1] اللَّه مهمة هذه الأمة الإسلامية، وكل مسلم مكلف بذلك حسب استطاعته».

الشرح:

الدعوة في اللغة:

الدعوة اسم مرة بمعنى الطلب، يقال دعا بالشيء دعوا ودعوةً، ودُعاءً، ودعوى: طلب إحضاره، ودعاه إلى شيء: حَثَّه على قصده ورجل داعية إذا كان يدعو الناس إلى بدعة أو دين، والهاء فيه للمبالغة[2].

الدعوة في الإصطلاح:

اختلف العلماء في تعريف الدعوة إلى اللَّه، فكانت التعاريف أقرب إلى التعريف بالوصف منها إلى التعريف بالحدّ الذي يخرج به محترزات التعريف. ولكن قد يكون أقربها هو أن الدعوة إلى اللَّه هي:

«قيام مَن له الأهلية بحث الناس جميعاً، في كل زمان ومكان لاقتفاء أثر الرسول محمد ﷺ، والتأسي به، قولًا وعملًا وسلوكاً، وفق المناهج والأساليب والوسائل المشروعة».

---

(١) الدعوة إلى اللَّه: لهذا يجب على الدعاة الاستشعار أنه إنما يدعو الناس إلى اللَّه لأن البعض (هداه اللَّه) إنما يدعو إلى نفسه أو إلى قبيلته وعشيرته أو إلى وطنه أو مذهبه أو إلى حزبه وجماعته (واللَّه المستعان).

(٢) لسان العرب لابن منظور ١٤/٢٥٨-٢٥٩ والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢/ ١٢٠-١٢٢.



التعريف بالداعية:

الداعي هو القائم بالدعوة، وهو اسم فاعل من دعا يدعو، والداعية الذي يدعو إلى دين أو فكرة، والها للمبالغة، فيقال عمّن عُرِف بالدعوة: داعية، والداعية هو المُبلّغ للإسلام والمعلِّم له، والساعي إلى تطبيقه، فيشمل مصطلحُ الداعي: مَن قام بأعمال الدعوة كلها، أو بعمل من أعمالها، إلا أن الذي يقوم بهذه الأعمال جميعها هو الداعية الكامل(١). ويمكن تقسيم الدعاة إلى ثلاثة مراتب:

مراتب الدعاة:

١- داعي منكسِر للدعوة:

وهو من كرّس حياته وجهده وجُلَّ وقته لخدمة الدعوة ومصالحها، بحيث أصبحت الدعوة شغله الشاغل.

٢- داعي ملتزِم بالدعوة:

وهو من يلتزم - غالباً - بما يجب عليه تجاه الدعوة دون الوقوع في محظور إهمالها.

٣- داعي غير ملتزم بالدعوة:

وهو من لا يلتزم بما يجب عليه تجاه الدعوة، إلا أنه يدعو إلى اللّٰه حسبما تيسر له ذلك، دون تقديم مصالحها في أولوياته.

ونحن عندما نُعَرِّف الداعية، فإنما نعَرِّف بالداعية المنكِسر للدعوة، الذي تحمل مسؤوليات جساماً من مسؤوليات هذا الدين، لأن الداعية - الذي نتحدث عنه - هو من سخَّر حياته ووقته وجهده ونفسه وما يملك في سبيل تبليغ هذا الدين ولم يألُ جهداً في خدمة الدعوة ومقاصدها وأهدافها ومصالحها، ولا نتكلم عمَّن كانت الدعوة شيئاً هامشياً في حياته، لا يبذل لها إلا ما فُضِل من وقته وجهده، حسبما

---

(١) المدخل إلى علم الدعوة ص٤٠ .

اتفقت الظروف دون خطة مدروسة[١].

وقد أمر اللَّه تعالى نبيه محمداً ﷺ بالدعوة إلى اللَّه عزَّ وجلَّ في آيات متعددة من كتابه والأمر له ﷺ أمر له ولأمته إذ الأصل العموم والأسوة ما لم يرد دليل على التخصيص[٢].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولهذا كان جمهور علماء الأمة على أن اللَّه إذا أمره (رسولَنا محمداً ﷺ) بأمر، أو نهاه عن شيء، كانت أمته أسوة له في ذلك، ما لم يقم دليل على اختصاصه بذلك»[٣].

وقال صاحب مراقي السعود في أصول الفقه:

وما به قد خوطب النبيُ تعميمه في المذهب السنيِّ

قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال تعالى مخاطباً أمة محمد ﷺ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، أي ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر اللَّه في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٤]، وهو السبب الأقوى الذي يتمكنون به من إقامة دينهم، بأن يتصدى طائفة منهم يحصل فيها الكفاية، ويدخل في هذه الطائفة أهل العلم والتعليم والمتصدون للخطابة

(١) العلاقة بين الفقه والدعوة ٥٨-٥٩ للأستاذ/ مفيد خالد أحمد عيد حفظه اللَّه.
(٢) انظر مجموع الفتاوى ١٥/ ٤٤٦، ١٤/ ٢٧١- ٢٧٥ وزاد المعاد لابن القيم ٣/ ٣٠٧ .
(٣) مجموع الفتاوى٢٢/ ٣٢٢ .
(٤) تفسير القرآن العظيم (ابن كثير) ١/ ٥١٧ .

ووعظ الناس، عموماً وخصوصاً، والمحتسبون الذين يقومون بإلزام الناس بإقامة الصلوات وإيتاء الزكاة، والقيام بشرائع الدين، وينهونهم عن المنكرات[١].

وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال أبو هريرة رضي الله عنه: «خير الناس للناس، يأتون بهم في السلاسل في أعناقهم، حتى يدخلوا في الإسلام»[٢].

فهذا تفضيل من اللَّه لهذه الأمة بهذه الأسباب التي تميزوا بها، وفاقوا بها سائر الأمم وأنهم خير الناس للناس، نصحاً ومحبةً للخير ودعوة، وتعليماً، وإرشاداً، وأمراً بالمعروف، ونهياً عن المنكر، وجمعاً بين تكميل الخلق، والسعي في منافعهم بحسب الإمكان، وبين تكميل النفس بالإيمان باللَّه، والقيام بحقوق الإيمان[٣].

ففي العهد المكي رأينا أبا بكر الصديق رضي الله عنه ما إن يُسلم حتى ينطلق فيدعو مَن يثق بهم من أصحابه، فآمن معه عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد اللَّه والزبير بن العوام وغيرهم.

وهذا مصعب بن عمير رضي الله عنه أول سفير في الإسلام يرسله النبي ﷺ إلى المدينة ليدعو أهلها إلى الإسلام، فيفتح اللَّه على يديه معظمَ بيوت أهل المدينة، واستمرت قوافل الدعوة في العهد المدني فهذا عليّ بن أبي طالب، وأبو موسى الأشعري ومعاذ بن جبل وغيرهم من الصحابة ينطلقون شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً ليبلّغوا دعوة اللَّه وكذلك استمرت الدعوة، فهذا ربعي بن عامر رضي الله عنه يدخل على «رستم» قائد الفرس، وقد زيّنوا مجلسه بالنمارق المذهبة والزرابي الحرير، ودخل (ربعي) بثياب صفيقة، وسيف وترس وفرس قصير حتى داس بها على طرف البساط، فقالوا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن للعلامة عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله.
(٢) رواه البخاري.
(٣) تيسير الكريم الرحمن/ ١٦٠ .

له: «ما جاء بكم؟» فقال: «اللّه ابتعثنا لنخرج مَن شاء مِن عبادة العباد إلى عبادة اللّه، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه»(١).

وحتى كان يقول خليفتهم (هارون الرشيد) للسحاب: «أمطري حيث شئتِ فإن خراجك سيعود إليَّ».

وهذا مصداقاً لقول الرسول ﷺ: «إن اللّه زوى(٢) لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن مُلك أمتي سيبلغ ما زُوي لي منها»(٣).

وقوله: «وكل مسلم مكلَّف بذلك حسب استطاعته»

ش: **فقد نبّه شيخ الإسلام إلى ذلك بقوله:** وإذا كان جماع الدين، وجميع الولايات هو أمر ونهي، فالأمر الذي بعث اللّهُ به رسولَه هو الأمر بالمعروف، والنهي الذي بعثه به هو النهي عن المنكر، وهذا نعت النبي والمؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

فهذا واجب على كل مسلم قادر، وهو فرض على الكفاية، ويصبح فرض عين على الذي لم يقم بغيره(٤).

* * *

(١) البداية والنهاية ٧/ ٤٣ .
(٢) أي جمعها وضمها.
(٣) رواه أحمد ومسلم وأبو داود وغيرهم من حديث ثوبان.
(٤) الحسبة في الإسلام، أو وظيفة الحكومة الإسلامية. ابن تيمية ص٨ .

القضية الثامنة والثمانون: قال المُصنِّف حفظه اللَّه:

«وغاية الدعوة أربع: هي هداية الناس إلى دين اللَّه، وإقامة الحجة على المعاندين والمخالفين، وأداء الأمانة التي كلفنا اللَّهُ بها، وإعلاء كلمة اللَّه في الأرض».

الشرح: وأهداف الدعوة الإسلامية وغايتها كثيرة يمكن إيجازها في أربعة أهداف:

أهداف الدعوة الإسلامية:

أولا: هداية الناس إلى دين اللَّه:

والإيمان باللَّه جلّ وعلا وتوحيده وتجريد العبادة له، فما من نبي من الأنبياء أرسله اللَّه داعيا إليه إلا أمر قومه أولًا بالإيمان باللَّه وتوحيده.

قال جلّ وعلا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥][1].

وعندما نقول الإيمان: نقصد الإيمان المقرون بالعمل الصالح، لأن الإيمان دون عمل لا ينفع، إذ الإيمان: قول، واعتقاد، وعمل.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [سورة: العصر].

والمراد بالعمل الصالح: كل ما ينفع الإنسان في دينه، وفي نفسه، وأهله، وفي مجتمعه وأمته، ولا يكون العمل صالحاً متقبلا إلا إذا كان خالصاً للَّه، ومتبعاً فيه هدي رسول اللَّه ﷺ، وكذلك ما في الدعوة من الأجر، كما قال ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور مَن تبعه، لا ينقص ذلك من أُجورهم شيئاً»[2].

(١) الدعوة إلى اللَّه في سورة إبراهيم الخليل/ ٦٣ محمد بن سيدي بن الحبيب.
(٢) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقوله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «انفذ على رِسلك، حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق اللّه فيه، فو اللّه لأن يهدي اللّه بك رجلًا واحداً، خيراً لك من حُمر النَّعم»(١).

ثانياً: إقامة الحُجة على الناس:

بشكل عام، وعلى المعاندين والمخالفين بشكل خاص لينقطع العذر.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢- ١٦٥].

أي أنه تعالى أنزل كتبه، وأرسل رسله بالبشارة والنذارة، وبيَّن ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه، لئلا يبقى لمعتذر عذر كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤]، وكذلك قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [القصص: ٤٧].

وما ثبت من حديث عبداللّه ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لا أحد أَغْير من اللّه، من أجل ذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحبّ إليه المدح من اللّه عزَّ وجلَّ، من أجل ذلك مدح نَفْسَه، ولا أحد أحبّ إليه العذر من اللّه، من أجل ذلك بعث النبييّن مبشرين ومنذرين، وفي رواية «من أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه»»(٢)(٣).

---

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث سهل بن سعد.
(٢) متفق عليه.
(٣) تفسير القرآن العظيم ١/ ٧٨٣ .



والخلاصة: أن إقامة الحجة تكون بالبيان الدائم لأصول الإسلام وفروعه، هذا البيان الذي لا يترك في الحق لبساً حتى ينقطع العذر، ولا يكون لأحد العدول عن فعل الواجب وترك الحرام(١).

ثالثاً: الإعذار إلى اللّه بأداء الأمانة التي كلفها اللّه بها:

كما قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝١٦٣ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣- ١٦٤].

فاللّه يقص علينا قصة قرية من بني إسرائيل، وقد نهاهم اللّه عن صيد السمك يوم السبت فانقسموا إلى ثلاث فرق:

فرقة وهم الأكثر، اعتدوا وتجرأوا، وأعلنوا بذلك، وفرقة أعلنت بنهيهم، والإنكار عليهم، وفرقة اكتفت بإنكار أولئك عليهم ونهيهم لهم، وقالوا: ﴿تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤].

كأنهم يقولون: لا فائدة في وعظ مَن اقتحم محارم اللّه، ولم يُصغ للنصيحة، بل استمر على اعتدائه وطغيانه، فإنه لا بد من أن يعاقبهم اللّه، إما بهلاك، أو عذاب شديد.

فقال الواعظون: «نعظُهم وننهاهم «معذرةً إلى ربكم» أي لنُعذَر فيهم «ولعلهم يتقون» أي: يتركون ما هم فيه من المعصية، فلا يأس من هدايتهم، فربما نجح فيهم الوعظُ وأثّر فيهم اللومُ».

وهذا هو المقصود الأعظم، من الدعوة وإنكار المنكر، ليكون معذرة وإقامة حجة على المأمور والمنهي، ولعلّ اللّه أن يهديه، فيعمل بمقتضى ذلك الأمر والنهي(٢).

(١) الأصول العلمية للدعوة السلفية ٥٧ الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق حفظه اللّه.
(٢) تيسير الكريم الرحمن للعلامة عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله ٣٩٦ (بتصريف يسير).



رابعاً: إعلاء كلمة اللَّه في الأرض.

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠]. قال ابن عباس رضي الله عنه وكلمة اللَّه: هي لا إله إلا اللَّه(١).

وقال العلامة عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله: أي كلمته القدرية، وكلمته الدينية، وهي العالية على كل كلمة غيرها، والتي من جملتها قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١] ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ فدين اللَّه هو الظاهر العالي، على سائر الأديان، بالحجج الواضحة، والآيات الباهرة والسلطان الناصر(٢)، وهذا كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]. أي ليعليه على سائر الأديان، بالحجة والبرهان، والسيف والسنان(٣) وقد بشّر رسولنا الكريم ﷺ بهذا، بقوله: «ليبلغن هذا الأمرُ ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك بيت مدرٍ ولا وبرٍ إلا دخله هذا الدين، بعزّ عزيز أو بذل ذليلٍ عَزاً يعز اللَّه به الإسلام، وذلّا يذل اللَّه به الكفر»(٤)، وعن عَدي بن حاتم رضي الله عنه قال: «دخلت على رسول اللَّه ﷺ فقال: «يا عدي ! أسلم تسلم» فقلت: «إني من أهل دين» قال: «أنا أعلم بدينك منك !» فقلت: «أنت أعلم بديني مني؟» قال: «نعم! ألست من الرَّكوسية؟(٥) وأنت تأكل مرباع(٦) قومك؟» قلت: «بلى!» قال: «فإن هذا لا يحل لك في دينك» قال: «فلم يعد أن قالها فتواضعتُ لها»، قال: «أما إني أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام».

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٧٣ .
(٢) تيسير الكريم المنان ٤٣٧ .
(٣) تيسير الكريم المنان ٤٤١ .
(٤) رواه أحمد وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٣٢ .
(٥) الركوسية: قوم لهم دين بين النصارى والصابئه.
(٦) المِرباع: ربع الغنيمة وهو تكون لرئيس القوم في الجاهلية دون أصحابه.

تقول: «إنما اتّبعه ضعفة الناس، ومن لا قوة له وقدر منهم العرب، أتعرف الحيرة؟» قلت: «م أرها وقد سمعت بها»، قال: «والذي نفسي بيده ليتمنّ اللّه هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من (الحيرة) حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز قلت: «كِسرى بن هرمز؟».

قال: «كِسرى بن هُرمز» وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد».

قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولقد كنتُ فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة؛ لأن رسول اللّه ﷺ قد قالها[1].

* * *

---

(١) رواه أحمد ٤/ ٢٥٧ وابن حبان ١٥/ ٧١، قال شعيب الأرناؤط: إسناده قوي.

القضية التاسعة والثمانون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«وثمرة الدعوة في الدنيا: إيجاد المسلم الصالح والمجتمع الصالح»(١).

الشرح:

وثمرة الدعوة في الدنيا، والتى يسعى الداعي إلى اللَّه لقطفها هي: أن يجعله اللَّه سببا لإيجاد المسلم الصالح، ولا شك أن هذه أعظم وأخطر مهمة وجدت على الأرض.

لهذا كلّف اللَّه بها الأنبياء والرسل، ثم الذين يلونهم، وذلك لأنها عملية شاقة، فهي تدخل في قلب الإنسان وعقله، في عقيدته ومعاملاته، في أكله وشربه فيمن يُحب ويوالي، ومن يُبغض ويعادي، فهي عملية تغيير شاملة في جوهر الإنسان وظاهره.

ومن ثم إيجاد المجتمع الصالح. فلقد فطر اللَّه سبحانه وتعالى الناس على الاجتماع والتقارب فيما بينهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكل بني آدم لا تتم مصلحتهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا بالاجتماع والتعاون والتناصر، فالتعاون على جلب منافعهم، والتناصر لدفع مضارهم...»(٢) كما إننا لا نقصد بالمسلم الصالح هو المعصوم المبرء من الأخطاء والقصور. وكذلك لا نقصد بالمجتمع الصالح ذلك المجتمع المثالي أو ما يُسمّى «بالمدينة الفاضلة» الذي تختفي فيها الرذيلة والمعصية. فإن هذه ثمرة لن تكون إلا في الجنة.

* * *

(١) مواصفات المسلم والمجتمع الصالح في الفقرة التالية (٩٠).
(٢) الحسبة في الإسلام لابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.



القضية التسعون: قال المُصنِّف حفظه اللَّه:

«والمسلم الصالح هو الموّحد المطيع للَّه بقدر استطاعته، القائم على[1] حدود اللَّه. والمجتمع الصالح هو الذي يُقيم حدود اللَّه، ويتعاون أفراده ويتكافلون

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

الشرح:

وهذه الفقرة مفصِّلة للتي قبلها، وهي تتكلم عن المسلم الصالح، ومواصفات الصلاح، فكثيرا ما يقرن اللَّه الإيمان بالعمل الصالح، لأن الإيمان دون العمل الصالح لا ينفع، فالإيمان: قول واعتقاد وعمل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ﴾.

أي: إن الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، وشمل هذا الوصفُ جميعَ الدِّين، عقائدَه، وأعماله، وأصوله، وفروعه الظاهرة، والباطنة، فهؤلاء - على اختلاف طبقاتهم من الإيمان، والعمل الصالح لهم جنات الفردوس[2] بل لا يتقبل اللَّه العمل إلا إذا توفر فيه الشرطان:

أولًا: التوحيد وهو الإخلاص وعدم الإشراك.

وثانياً: الموافقة للشرع.

كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وهو الموافق لشرع اللَّه، من واجب ومستحب[3].

---

(١) في الأصل (في).
(٢) تيسير الكريم الرحمن ٦٥٧، ٦٥٨ للعلامة بن سعدي.
(٣) تفسير القرآن العظيم ١/٤٥٧ .



﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] أي: لا يرائي بعمله، بل يعمله خالصاً لوجه اللَّه تعالى، فهذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة، هو الذي ينال ما يرجو ويطلب، أما مَن عدا ذلك، فإنه خاسر في دنياه وأخراه،وقد فاته القرب من مولاه، ونيل رضاه(١).

وبيّن اللَّه أن طاعته بقدر الاستطاعة، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

أي لا يُكلِّف أحداً فوق طاقته، وهذا من لطفه تعالى بخلقه، ورأفته بهم وإحسانه إليهم، وهذه هي الناسخة الرافعة لما كان أَشْفَقَ منه الصحابة في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

أي: هو وإن حاسب وسأل، ولكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دَفْعَهَ، فأما ما لا يملك الإنسان دفعه: من وسوسة النفس وحديثها، فهذا لا يُكلَّف به الإنسان(٢).

لهذا عندما تَضرعَ الصحابة ﷺ إلى اللَّه في هذه الأدعية النافعة، أجاب دعاءهم على لسان نبيه ﷺ فقال: «قد فعلتُ» فاللَّه لم يُحمّلهم فوق طاقتهم.

فالمجتمع الصالح هو المجتمع الذي يتعاون أهله ويتعاضدون، فإنهم في سفينة واحدة، أما قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

فكأنها صفة كاشفة عن علامة من ينصره اللَّه في الآية التي قبلها وهي قوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

فإن بها يُعرف أن من ادعى أنه ينصر اللَّه، وينصر دينه، ولم يتصف بهذا الوصف،

---

(١) المصدر السابق.
(٢) تفسير الكريم الرحمن ٤٦٤ .



فهو كاذب. ثم بيّن تلك الصفات وهي إقامة الصلاة في أوقاتها وحدودها، وأركانها، وشروطها في الجمعة والجماعات، وآتوا الزكاة التي عليهم خصوصاً، وعلى رعيتهم عموماً، وأمروا بالمعروف، وهذا يشمل كلّ معروف حُسنهُ شرعاً وعقلًا، من حقوق اللَّه وحقوق الآدميين.

إذاً المجتمع الصالح هو الذي يقيم حدود اللَّه كما قال تعالى: ﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «القائمون بطاعة اللَّه» وقيل: «بتعلمهم حدود ما أنزل اللَّه على رسوله»، وما يدخل في الأوامر، والنواهي، والأحكام، وما لا يدخل، الملازمون لها فعلًا وتركاً(١).

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن ٤٦٤ لابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ.

القضية الحادية والتسعون: قال المُصَنِّف رحمه الله:

«وثمرتها في الآخرة الفوز برضوان اللَّه وجنته».

الشرح:

والمقصود ثمرة الدعوة إلى اللَّه تعالى في الآخرة هي دخول الجنة والفوز برضوان اللَّه تعالى.

كصاحب ياسين الذي جاء من أقصا المدينة يسعى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠- ٢١] قابله قومه بالحجارة يرجمونه بها، وهو يقول: اللَّهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون فلم يزالوا به حتى أقعصوه، وهو يقول كذلك، فقتلوه رحمه الله قال تعالى عنه﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦- ٢٧] فدخلها فهو يُرزق فيها، قد ذهب اللَّه عنه سُقْمَ الدنيا وحزنَها ونَصبَها فلما رأى الثواب ﴿قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾.

قال قتادة: لا تلقى المؤمن إلا ناصحاً لا تلقاه غاشاً وقال ابن عباس رضي الله عنه: «نصح قومه في حياته وبعد مماته»[(١)].

كذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢] وهي آثار الخير وأثار الشر، التي كانوا هم السببَ في إيجادها في حال حياتهم وبعد وفاتهم، وتلك الأعمال التي نشأت في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم.

فكل خير عمل به أحد من الناس، بسبب علم العبد وتعليمه، أو نصحه أو أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر، أوعلم أوزعه عند المتعلمين، أو في كتب يُنتفع بها في حياته وبعد موته، أو عمل خيراً من صلاة، أو زكاة، أو صدقة، أو إحسان، فاقتدى به غيره، أو عمل مسجداً. . . فإنها من آثاره التي تُكتب له[(٢)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٧٥٠ (بتصريف).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٥٦ .

هذا في البرزخ، وله في الآخرة الجنة ورضوان من اللّه أكبر.

فعن أبى سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن اللّه تعالى يقول لأهل الجنة: «يا أهل الجنة ! فيقولون: «لبيك ربنا وسعديك، والخير كله في يديك»، فيقول: «هل رضيتم»؟ فيقولون: «ومالنا لا نرضى يارب، وقد أعطيتنا مالم تعط أحداً من خلقك؟» فيقول: «ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟» فيقولون: «يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟» فيقول: «أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً»[(١)].

وعن صهيب الرومي رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة»، يقول تبارك وتعالى: «تريدون شيئاً أزيدكم؟» فيقولون: «ألم تبيِّض وجوهنا»؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار»؟

قال: «فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى»، زاد في رواية: «ثم تلا هذه الآية للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ [يونس: ٢٦]»[(٢)].

***

(١) متفق عليه.
(٢) مسلم والترمذي.



القضية الثانية والتسعون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«وكل مسلم رأى منكراً وجب عليه تغييره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه، وليس وراء ذلك إيمان».

الشرح:

والأصل في هذه المسألة قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقوله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»(١).

وقوله ﷺ: «ما من نبي بعثه اللَّه في أُمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون. فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»(٢).

تعريف المنكر: وهو ضد المعروف، وكلُّ ما قبَّحه الشرع وحرَّمه وكرهه فهو منكر(٣).

شروط المنكر(٤):

الشرط الأول: كونه منكراً: وهو كل ما نهى عنه الشارع الحكيم، سواء أكان هذا الأمر محرماً أم مكروهاً، وكل ما كان محذوراً في الشرع.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم من حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه.
(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ٥/ ١١٥ لابن الأثير.
(٤) أي شروط المنكر المُطالَب بتغييره.



الشرط الثاني: كونه موجوداً في الحال وهذا له ثلاثة أحوال:

الحالة الأولى: أن يكون قد همّ بفعل المنكَر: وذلك بأن توجد مقدماته وعلاماته ومؤثراته، مثل: أن يرى رجلًا يتردد مراراً على أسواق النساء، أو مدارس البنات، ويصوب النظر على واحدة بعينها، وليس له من حاجة غير ذلك، فعلى الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر في هذه الحالات الوعظ، والنصح والإرشاد والتخويف باللّه سبحانه.

الحالة الثانية: أن يكون متلّبساً بالمُنكَر: بأن تكون المعصية وصاحبها مباشراً لها وقت النهي والتغيير: كمن هو جالس وأمامه كأس الخمر يشرب منه، أو كمن أدخل امرأة أجنبية إلى داره وأغلق الباب عليها.. ونحو ذلك. ففي هذه الحالة يجب على الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر الإنكارُ عليه ومنعه من ذلك طالما أنه قادر(١) على إزالة المنكر، ولم يخف على نفسه ضرراً أو أذى.

الحالة الثالثة: أن يكون فاعل المُنكَر قد فعله وانتهى منه، كمن شرب الخمر، أو سرق، أو من عُرِف أنه ساكن أعزب وخرجت من عنده امرأة أجنبية ونحو ذلك.

ففي مثل هذه الأحول ليس هناك وقت للنهي أو التغييرُ وإنما هناك محل للعقاب والجزاء على فعل هذه المعصية، وهذا الأمر- في الغالب- ليس من شأن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر - المتطوع - وإنما هو من شأن ولي الأمر أو نائبه فيرفع أمره للحاكم ليصدر فيه الحكم الموافق للشرع- كما قال العلامة ابن نجيم(٢).. وأما بعد الفراغ منها-المعصية-فليس ذلك لغير الحاكم(٣).

---

(١) راجع الفقرة ٩٣ .
(٢) هو زين بن إبراهيم بن محمد الحصري الحنفي الشهير بابن نجيم، كان بحراً في العلوم ومن أشهر مؤلفاته النظائر انظر شذرات الذهب ٨/ ٣٥٨ .
(٣) البحر الرائق شرح كنز الدقائق ٥/ ٤٢ .

الشرط الثالث: أن يكون المنكر ظاهراً من غير تجسس.

لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧]. وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقوله ﷺ: «إياكم والظنّ، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد اللّه إخوانا»(١).

وعن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللّه ﷺ قال: «إنك إذا اتبعت عورات المسلمين أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم»(٢).

قال مجاهد رحمه الله: «خذوا ما ظهر لكم ودعوا ما ستر اللّه»(٣).

بل لو أن أحدا نظر إلى داخل البيت من أحد ثقوبه أو فتحاته بغير إذن صاحبه، فأخذ عوداً ففقأ به عينه، فقد أسقط الشارعُ حدّ القِصاص والدية عنه، كما ثبت من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال أبو القاسم ﷺ: «لو أن أحداً اطّلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه لم يكن عليك جناح»(٤).

حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

اختلف العلماء في ذلك إلى أقوال منها:

١ - **فرض عين:** قول الزَّجّاج(٥) والتلمساني(٦).

---

(١) تفسير مجاهد ٢/٦٠٨ .

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه أبو داود، وصححه النووي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢٣٤٢، ٢/ ٢٩٣ .

(٤) رواه البخاري.

(٥) معاني القرآن وإعرابه. أبو اسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج ١/ ٤٦١- ٤٦٣ .

(٦) محمد بن أحمد بن قاسم العقباني فقيه أهل تلمسان. توفي سنة ٨٧١ . تحفة النظائر وغنية الذاكر ص٤ .

٢ - **فرض كفاية**: قول القرطبي[١]، وابن كثير[٢]، وابن قدامة[٣]، وابن تيمية[٤] والنووي[٥].

٣ - **حسب الاستطاعة**: قول الإمام أحمد بن حنبل[٦]، وابن حزم الظاهري[٧] وابن القيم[٨].

ويبدو واللّه أعلم، أنه لا خلاف جوهري بين الأقوال:

فالذين يقولون إنه فرض عين لا يوجبونه على الجاهل الضعيف، ولا على غير المستطيع القادر، فيجب على المحتسب مالا يجب على المتطوع.

التغيير باليد

شروطه:

١ - أن يكون تغيير المنكر خالصاً لوجه اللّه، وليس انتقاماً أو تشفياً من صاحبه أو نحو ذلك.

٢ - أن يتبع قواعد الشرع[٩] في ذلك.

٣ - أن لا يتجاوز الحدّ المشروع في ذلك.

٤ - أن يباشر ذلك بنفسه إن تيسر أو يستعين بمن هو أهلًا لذلك[١٠].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن القرطبي م٢ج٤ص١٦٥ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٩٠ .
(٣) مختصر منهاج القاصدين ١٥٦ تخريج علي حسن علي عبد الحميد.
(٤) مجموع الفتاوى ٢٨/ ١٢٥، ٦٥، ٦٦ .
(٥) شرح النووي على الجامع الصحيح للإمام مسلم م١ج٢ص٢٣ .
(٦) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأبن بكر أحمد الخلال دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا ٣٦-٤١ .
(٧) المحلى ابن حزم ج١ص٢٦ .
(٨) الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية ابن القيم٢٤٦ .
(٩) انظر الشروط العامة لتغير المنكر في الفقرة التالية ٩٣ .
(١٠) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثرهما في حفظ الأمة ٥١٨ للدكتور عبد العزيز بن أحمد المسعود.



وهذا يوافق ما رواه عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصب فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١][(١)].

وقول أبي طلحة لأنس بن مالك، عندما حُرِّمت الخمر: «يا أنس! قم إلى هذه الجرة فاكسرها، قال أنس: «فقمتُ إلى مهراس[(٢)] لنا فضربتها بأسفله حتى تكسَّرت»[(٣)] وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «دخل عليَّ رسول ﷺ وقد سترت سهو[(٤)] لي بقرام[(٥)] فيه تماثيل فلما رآه هتكه، وتلون وجهه، وقال:

«يا عائشة ! أشدّ الناس عذابا عند اللّه يوم القيامة الذين يضاهون بخلق اللّه تعالى. . .»[(٦)] الحديث.

ومن حديث ابن عباس رضي اللّه عنهما: أن رسول اللّه ﷺ رأى خاتما من ذهب في يد رجل فنزعه فطرحه، وقال: «يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده».

فقيل للرجل بعد ما ذهب رسول اللّه ﷺ: «خذ خاتمك انتفع به»، قال: «لا واللّه لا آخذه أبداً وقد طرحه رسول اللّه ﷺ»[(٧)].

ومن حديث أبي الهياج الأسدي رضي الله عنه قال: قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول اللّه ﷺ؟ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته»[(٨)].

فنخلص من الأحاديث السابقة أن إنكاره ﷺ وصحابته باليد لم يترتب عليه منكر أكبر، لأنه فعلها إما بوصفه رسولاً قائداً للأمة، أو ولياً لأمر في بيته.

---

(١) متفق عليه.
(٢) مهراس: حجر مستطيل مقور.
(٣) متفق عليه.
(٤) هو بيت صغير منحدر في الأرض قليلًا شبيه بالمخدع والخزانة.
(٥) هو ثوب من صوف فيه ألوان من العهون.
(٦) رواه مسلم ٦/ ١٥٩ .
(٧) رواه مسلم ٦/ ١٤٩ .
(٨) رواه مسلم.



التغير باللسان:

ويكون بالتعريف بالحكم الشرعي عن طريق الوعظ والإرشاد، ثم التخويف وتغليظ القول، علماً بأن الهدف الأول هو إصلاح الناس وليس إيذاءهم.

مراتب التغتير باللسان:

١- التعريف: كما فعل النبي ﷺ مع المسيء صلاته عندما قال له النبي ﷺ: «ارجع فَصَلِّ فإنك لم تصل»(١).

٢- الوعظ والنصح والتخويف في اللّه تعالى، قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

٣- الغلظة بالقول: وهذا بعد أسلوب الرفق واللّين، أو يأتي بعمل لا ينبغي لمثله أن يأتي به، أو لا يخشى عليه في دينه كما قال النبي ﷺ لمعاذ ﷺ: «أفتان أنت يا معاذ...»(٢) وقوله لأسامة بن زيد ﷺ عندما قتل الرجل بعد أن قال لا إله إلا اللّه: «أقتلته بعد أن قال لا إله إلا اللّه؟ !...»(٣).

٤- التهديد والتخويف: وهي آخر المحاولات لنهيه باللسان كما قال علي ابن أبي طالب ﷺ للمرأة التي أرسلها حاطب بن أبي بلتعة برسالة إلى قريش: «لتخرجن الكتاب، أو لننزعن الثياب». فأخرجته(٤).

التغيّير بالقلب:

وهذا أقل الأحوال ؛ فمن ذا الذي لا يقدر على الإنكار بالقلب؟ إلا رجل قد مرض قلبه، وانتكس، قيل لابن مسعود رضي الله عنه: «مَن ميت الأحياء»؟ فقال: «الذي لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً»(٥).

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه مسلم ١/ ٦٧-٦٨
(٤) البخاري ومسلم.
(٥) الأمر بالمعروف لابن تيمية ١٨ .

وينبغي أن يعلم أن من مظاهر إنكار المنكر بالقلب الابتعاد عن الأماكن التي فيها المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠].

والحاصل أن من حضر مجلساً يُعصى اللّه به، يتعين عليه الإنكار عليهم مع القدرة أو القيام مع عدمها(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

المراد بالخوض في آيات اللّه: التكلم بما يخالف الحق، من تحسين المقالات الباطلة، والدعوة إليها، ومدح أهلها و الإعراض عن الحق، والقدح فيه وفي أهله.

فأمر اللّه رسوله ﷺ أصلًا وأمته تبعاً، إذا رأوا من يخوض في آيات اللّه بشيء مما ذكر: بالإعراض عنهم، وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل والاستمرار على ذلك، حتى يكون البحث والخوض في كلام غيره(٢).

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن ٢٥١ للعلامة عبد الرحمن بن سعدي.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ٣٢٤ للعلامة عبد الرحمن بن سعدي.

القضية الثالثة والتسعون: قال المُصنِّف حفظه اللّه:

«ويشترط في تغير المنكر شروط أربعة:

أن يكون الناهي عن المنكر عالماً بما ينهي عنه، وأن لا يغير المنكر بمنكر، وأن لا يكون تغيير المنكر سيؤدي إلى منكر أكبر منه، وأن يكون الناهي عن المنكر من أهل البراءة من هذا المنكر، حتى لا يقع في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ١].

الشرح: وهذه الفقرة مكمّلة وضابطة للفقرة التي قبلها وهي شروط تغيّير المنكر والمقصود تغييره باليد أو اللسان، أما تغير المنكر بالقلب فليس له قيد، لأنه ليس لأحد سلطان على القلب.

قوله: الشروط الأربعة في تغيير المنكر أولا: أن يكون الناهي عن المنكر عالماً بما ينهى عنه:

ش: وهذا من فضل العلم الذي قال تعالى فيه: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَٰٓؤُا﴾ [فاطر: ٢٨] وقال ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل اللّه له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم، وإن طالب العلم يستغفر له مَن في السماء والأرض حتى الحيتان في الماء، وإن فضل العالِم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء وثة الأنبياء، والأنبياء لم يوّرثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»(١).

حاجة الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر إلى العلم الشرعي:

قال تعالى لنبيه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ اللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

---

(١) رواه أحمد وأصحاب السنن، وصححه الألباني صحيح الجامع ٦١٧٣ وتخريج الترغيب ١/ ٥٣.



قال الشوكاني في قوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي: على حجة واضحة، والبصيرة: هي المعرفة التي يتميز بها الحق من الباطل[١].

يقول ابن مفلح رَحِمَهُ اللَّهُ: «وينبغي أن يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر... فقيهاً عالماً بالمأمورات والمنهيات شرعاً...»[٢].

وقال عبد الرحمن الشيرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لما كانت الحسبة أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وإصلاحاً بين الناس، وجب أن يكون المحتسب فقيهاً، عارفاً بأحكام الشريعة، لِيَعلم ما يأمر به، وينهى عنه، فإن الحسن ما حسَّنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع، ولا مدخل للعقول في معرفة المعروف والمنكر إلا بكتاب اللّه عز وجل، وسنة نبيه ﷺ، وربّ جاهل يستحسن بعقله ما قبّحه الشرع، فيرتكب المحظور وهو غير عالِم به، ولهذا المعنى كان «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[٣] كما قال النبي ﷺ[٤].

ويقول شيخ الإسلام بن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا يكون بعمله - أي المحتسب- صالحاً إن لم يكن بعلم وفقه، وكما قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «من عَبَدَ اللَّهَ بغير علم كان ما يُفسد أكثر مما يُصلح»...، فلا بد من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما، ولا بد من العلم بحال المأمور والمَنْهي».

ويقول كذلك: «فلا بد من هذه الثلاثة: العلم، الرفق، الصبر ؛ العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده»[٥].

ويقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذا كانت الدعوة إلى اللّه أشرف مقامات العبد وأجلّها وأفضلها، فهي لا تُحصَّل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه، بل لا بد في كمال

---

(١) فتح القدير ٣/ ٥٩ الشوكاني.
(٢) الآداب الشرعية ١/ ٢١٢ .
(٣) ابن عدي في الكامل، رواه بن ماجة والطبراني، وصححه الألباني برقم/ ٣٩١٤ .
(٤) نهاية الرتبة في طلب الحسبة لعبد الرحمن بن نصر الشيرازي.
(٥) الفتاوى ٢٨/ ١٣٥، ١٣٧ .

الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد أقصى ما يصل إليه السعي»(١).

قوله: (ثانياً: لا يُغير المنكر بمنكر):

ش: يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولهذا قيل: ليكن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر»(٢). ومن تلك الأمثلة:

١ - ما رواه أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «جاء أعرابي، فبال في طائفة المسجد! فزجره الناس، فنهاهم النبي ﷺ، فلما قضى «الأعرابي» بَوْلَه، أمر النبي بذنوب من ماء فأهريق عليه. فلا شك أن بول الأعرابي في المسجد منكر عظيم. ولكن النبي ﷺ بما أتاه اللَّه من حكمة ومعرفة بطبائع الناس، نهى الصحابةَ عن زجرهم للأعرابي بل تَرَكَه حتى يُكمل بوَلَه، وهذه قاعدة عند تزاحم المفاسد يُرتكب أخفها.

٢ - حديث معاوية بن الحكم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بينما أنا أُصلي مع النبي ﷺ، إذ عطس رجل من القوم، فقلت: «يرحمك اللَّه» فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: «واثكلاه ! ما شأنكم تنظرون»؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يُصمتوني، لكني سكتُ، فلما صلى رسول اللَّه ﷺ قال: «إن هذه الصلاة لا يصلُحُ فيها شيء من كلام الناس! إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»(٣).

قوله: (ثالثاً: ألا يكون تغيير المنكر سيؤدي إلى منكر أكبر منه):

ش: فالنبي ﷺ شرع لأمته إيجاب إنكار المنكر، ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه اللَّه ورسوله، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأَبغضَ إلى اللَّه ورسوله، فإنه لا يسوغ إنكارهُ وإن كان اللَّه يبغضه ويمقت أهله، وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم ؛ فإنه أساس كل شر وفتنة إلى آخر الدهر، وقد استأذن الصحابة رسول اللَّه ﷺ في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٢٤١ للإمام ابن القيم.
(٢) الحسبة في الإسلام ٧٣ ابن تيمية.
(٣) رواه مسلم.



وقتها، وقالوا: «أفلا نقاتلهم»؟ فقال: «لا، ما أقاموا الصلاة».

وقال ﷺ: «من رأى من أميره ما يكرهه فليصبر، ولا ينزعن يداً من طاعته»: ومن تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار رأها من إضاعة هذا الأصل وعدم الصبر على منكر فطلب إزالته، فتولّد منه ما هو أكبر منه ؛ فقد كان ﷺ يرى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها، بل لمّا فتح اللّه مكة، وصارت دارَ إسلام، عَزَمَ النبي ﷺ على تغيير البيت ورده على قواعد إبراهيم، ومنع من ذلك - مع قدرته عليه - خشية وقوع ما هو أعظم منه من عدم احتمال قريش لذلك لقرب عهدهم بالإسلام وكونهم حديثي عهد بكفر، ولهذا لم يأذن بالإنكار على الأمراء باليد، لما يترتب عليه من وقوع ما هو أعظم منه...»[(١)].

أربع درجات للإنكار:

الدرجة الأولى: أن يزول ويخلفه ضده، فهنا يشرع الإنكار.

الدرجة الثانية: أن يقل وإن لم يزل بجملته: وهنا كذلك يشرع الإنكار.

الدرجة الثالثة: أن يخلفه ما هو مثله: فهذا موضع اجتهاد.

الدرجة الرابعة: أن يخلفه ما هو شر منه: فهذا محرم عليه الإنكار[(٢)].

لهذا يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: سمعت شيخ الإسلام ابنَ تيمية - قدس اللّه روحه ونور ضريحه - يقول: «مررت أنا وبعض أصحابي - في زمن التتار - بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم من كان معي، فأنكرتُ عليه وقلت له: «إنما حرَّم اللّه الخمر لأنها تصد عن ذكر اللّه وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال، فدعهم»[(٣)].

---

(١) إعلام الموقعين ٣/ ٤ للإمام ابن القيم.
(٢) إعلام الموقعين ٣/ ٤ للإمام ابن القيم (بتصرّف يسير).
(٣) نفس المصدر السابق ص٥ .

قوله: (رابعاً: وأن يكون الناهي عن المنكر من أهل البراءة من هذا المنكر).

ش: وهذا يندرج ضمن الآداب وليس من الشروط:

قال الإمام ابن قدامة المقدسي رحمه الله: وأما عدالة المنكر، فاعتبرها قوم وقالوا: «ليس للفاسق أن يحتسب»، وإنما استدلوا بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤].

وليس لهم في ذلك حجة[١].

وقال العلامة عبدالرحمن بن سعدي رحمه الله: «وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أُمر به، أنه يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنها دلَّت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين، وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين: أَمْرَ غيره ونهيه وأمر نفسه ونهيها، فترك أحدهما لا يكون رخصة في ترك الآخر.

فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنقص الكامل أن يتركهما، وأما قيامه بأحدهما دون الآخر، فليس في رتبة الأول، وهو دون الأخير، وأيضا فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قولُه فِعْلَه، فإقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة[٢].

كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

فالصحيح أن العالم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه، قال مالك عن ربيعة: سمعت سعيد بن جبير رحمه الله يقول: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر، قال مالك رحمه الله: «وصدق من ذا الذي ليس فيه شيء»؟[٣].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ١٥٨ تحقيق الشيخ علي حسن عبد الحميد الحلبي حفظه الله.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ٤٤ للعلامة عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله.
(٣) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير رحمه الله.

القضية الرابعة والتسعون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«ويجب البدء في الدعوة بالأهم فالأهم، وتوحيد اللَّه هو البداية والنهاية، وكل عمل يجب ربطُه بالتوحيد».

الشرح:

وأهم شيء في الدعوة والذي يجب أن يبدء منه هو توحيد اللَّه، وإفراد العبادة له سبحانه وتعالى، لحديث ابن عباس ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما أن رسوله اللَّه ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة اللَّه عزَّ وجلَّ[(١)] فإذا عرفوا اللَّه، فأخبرهم أن اللَّه فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم. . .» الحديث[(٢)].

قال الإمام النووي رحمه الله: «ولأنه ﷺ رتَّب ذلك في الدعاء إلى الإسلام وبدأ بالأهم فالأهم»[(٣)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وقد عُلم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ واتفقت عليه الأمة أن أصل الإسلام وأولَ ما يؤمر به الخلق: شهادةُ أن لا إله إلا اللَّه[(٤)] وأن محمد رسول اللَّه، فبذلك يصير الكافر مسلماً والعدو ولياً والمباح دمه وماله: معصوم الدم والمال. . .»[(٥)] وفيه دليل على أن التوحيد الذي هو إخلاص العبادة له وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه هو أول واجب ولهذا كان أول

---

(١) رواه البخاري ومسلم، وفي رواية «إلى أن يوحدوا اللَّه».

(٢) متفق عليه .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١/ ١٩٨ .

(٤) ولها سبع شروط هي (أ) العلم المنافي للجهل (ب) اليقين: المنافي للشك (ج) القبول المنافي للرد (د) الانقياد المنافي
للترك (هـ) الإخلاص المنافي للشرك (و) الصدق المنافي للكذب (ي) المحبة المنافية للبغض.

(٥) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ٩٥ .

ما دعت إليه الرسل عليهم السلام: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون: ٣٢]، قال نوح: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحقاف: ٢١].

وقد تجلَّت هذه الأهمية بالأتي:

١ - أن التوحيد هو الغاية من خلق الجن والإنس، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

٢ - أن من حقق التوحيد الكامل دخل الجنة دون حساب ولا عذاب، لقول الرسول ﷺ: «عُرضتُ على الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، وإذ رُفع لي سواد عظيم»، فظننت أنهم أمتي فقيل لي: «هذا موسى وقومه»، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: «هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب... فقال: هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»(١).

٣ - أن من حقق التوحيد لم يدخل النار لقوله ﷺ: «فإن اللّه حرم على النار مَن قال: لا إله إلا اللّه يبتغي بذلك وجه اللّه»(٢).

٤ - أن التوحيد هو أول دعوة الرسل صلوات اللّه وسلامه عليهم:

لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

٥ - أن التوحيد يُكفِر غيرَه من الذنوب، قال تعالى في الحديث القدسي: «يا ابن آدم! مهما عبدتني ورجوتني ولم تشرك بي شيئا، غفرت لك على ما كان منك، وإن استقبلتني بملئ السماء والأرض خطايا وذنوب استقبلتك بملئهن من المغفرة وأغفر لك ولا أبالي»(٣).

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) حديث صحيح رواه الطبراني، وصححه الألباني صحيح الجامع ٤٣٤١ .

٦ - أن التوحيد يعصم الدم، وتقوم عليه عقيدة الولاء والبراء لقوله ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللَّه»(١).

٧ - أن التوحيد هو أول حق على العباد كما قال رسول اللَّه ﷺ لمعاذ «يا معاذ بن جبل! هل تدري ما حق اللَّه على عباده، وما حق العباد على اللَّه؟ فإن حق اللَّه على العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على اللَّه أن لا يعذب مَن لا يشرك به شيئا»(٢).

٨ - أن التوحيد هو أول أَمْرٍ في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

٩ - أن التوحيد هو أول بند من القاعدة المشتركة بيننا وبين المشركين والكفار إن أرادوا الإسلام، قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

١٠ - أن التوحيد كان الرسول ﷺ يعلِّمه الصبيان والغلمان الصغار، كقوله لابن عباس وهو غلام: «يا غلام! إني أعلمك كلمات، احفظ اللَّه يحفظك، احفظ اللَّه تجده تجاهك، إذا سألت فأسأل اللَّه، وإذا استعنت فاستعن باللَّه، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللَّه لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللَّه عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف»(٣).

١١ - أن كلمات التوحيد خفيفة على اللسان ثقيلة في الميزان قال رسول اللَّه ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان اللَّه

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه من حديث معاذ بن جبل.
(٣) رواه أحمد والترمذي والحاكم، وصححه الألباني صحيح الجامع ٧٩٥٧.

وبحمده، سبحان اللّه العظيم»(١)، ولقوله ﷺ إن اللّه سيخلّص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فَيَنْشر عليه تسعة وتسعين سجّلا، كل سجل مدّ البصر، ثم يقول: أتُنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: «لا يارب»، فيقول: «أَفَلَكَ عذر؟»: فيقول «لا يا رب» فيقول: «بلى إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم» فتُخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا اللّه وأشهد أن محمد رسول اللّه، فيقول: «أحضر وزنك» فيقول: «يا رب !ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟» فيقال: «فإنك لا تُظلم» فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم اللّه شيء»(٢).

١٢ - لا تقوم الساعة على أهل التوحيد لقول الرسول ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: اللّه، اللّه»(٣).

١٣ - أن التوحيد هو دين الفطرة، قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، وقال رسول اللّه ﷺ ذات يوم وهو في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبدا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»(٤).

١٤ - مكث النبي ﷺ في مكة ثلاث عشر سنة يدعو قومه إلى العقيدة وخاصة التوحيد.

١٥ - أن بعقيدة التوحيد والعمل الصالح يكون الاستخلاف في الأرض، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني شكاة المصابيح ٥٥٥٩ وشرح الطحاوية.
(٣) رواه أحمد ومسلم عن أنس.
(٤) رواه مسلم.

فالتمكين في الأرض يستلزم وصفا سابقا عليه، هو عبادة اللّه وحده لا شريك له، وبعد حصول التوحيد وتحقيقه يكون الاستخلاف والتمكين.

شروط الانتفاع بكلمة التوحيد

واعلم أن كلمة التوحيد «لا إله إلا اللّه» لا تنفع صاحبها إلا حيث يستكملها العبد ويلتزمها بدون مناقضة الشيء منها. وليس المراد من ذلك عّد ألفاظها وحفظها فكم من عامي اجتمعت فيه والتزمها ولو قيل له أعددها لم يحسن ذلك وكم حافظ لألفاظها يجري فيها كالسهم وتراه يقع كثيرا فيما يناقضها والتوفيق بيد اللّه. ولها سبعة شروط.

شروط الانتفاع بكلمة التوحيد:

الأول: العلم بمعناها:

المراد منها نفيا وإثباتا المنافي للجهل بذلك قال اللّه عزَّ وجلَّ فاعلم إنه لا إله إلا اللّه محمد ٩١ وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الزخرف: ٦٨] أي بلا إله ألا اللّه وهم يعلمون بقلوبهم معنى ما نطقوا به بألسنتهم وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨] وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٨٢] وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] وفي الصحيح عن عثمان رضي الله عنه قال قال: رسول اللّه ﷺ من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا اللّه دخل الجنة.

الثاني: اليقين:

أي اليقين المنافي للشك بأن يكون قائلها مستيقناً بمدلول هذه الكلمة يقينا جازما فإن الإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين لا علم الظن فكيف إذا دخله الشك قال اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] فاشترط في صدق إيمانهم



باللَّه ورسوله كونهم لم يرتابوا أي لم يشكوا فأما المرتاب فهو من المنافقين والعياذ باللَّه الذين قال اللَّه تعالى فيهم: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥].

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ لَا يَلْقَى اللَّهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ».

وفي رواية: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ لَا يَلْقَى اللَّهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فَيُحْجَبَ عَنْ الْجَنَّةِ»[(١)]. فاشترط في دخول قائلها الجنة أن يكون مستيقنا بها قلبه غير شاك فيها وإذا انتفى الشرط انتفى المشروط.

الثالث: القبول:

لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه وقد قصّ اللَّه عزَّ وجلَّ علينا من أنباء ما قد سبق من إنجاء من قبلها وانتقامه ممن ردها وأباها كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف: ٢٣ - ٢٥] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣] وكذلك اخبرنا بما وعد به القابلين لها من الثواب وما أعده لمن ردها من العذاب كما قال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٢ - ٢٤] إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥ - ٣٦] فجعل اللَّه تعالى عِلّة تعذيبهم وسببه هو استكبارهم عن قول لا إله إلا اللَّه تكذيبها، وتكذيبهم من جاء بها فلم ينفوا ما نفته ولم يثبتوا ما أثبتته.

---

(١) رواه مسلم.

الرابع: الانقياد:

لما دلّت عليه المنافي لترك، قال اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤] وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ [النساء: ١٢٥] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾ [لقمان: ٢٢] أي بلا إله إلا اللّه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ ومنى يسلم وجهه أي ينقاد وهو محسن موحد ومن لم يسلم وجهه إلى اللّه ولم يك محسنا فإنه لم يستمسك بالعروة الوثقى وهو المعني بقوله عزَّ وجلَّ بعد ذلك: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٣ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ [لقمان: ٢٣ - ٢٤].

الخامس: الصدق:

فيها المنافي للكذب وهو أن يقولها صدقا من قلبه يواطيء قلبه لسانه قال اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣] إلى آخر الآية وقال تعالى في شأن المنافقين الذين قالوها كذبا: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ [البقرة: ٨ - ١٠].

وفي الصحيحين عن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا عبده ورسوله، صدقا من قلبه: إلا حرَّمه اللّه على النار فاشترط في إنجاء من قال هذه الكلمة من النار أن يقولها صدقا من قلبه، فلا ينفعه مجرد اللفظ بدون مواطأة القلب. وفي قصة الإعرابي وهو ضمام بن ثعلبة وافد بني سعد بن بكر لما سأل رسول اللّه ﷺ عن شرائع الإسلام فأخبره، قال: «هل عليَّ غيرها»، قال: «لا إلا أن تطوع»، قال: «واللّه لا أزيد عليها ولا أنقص منها». فقال رسول اللّه ﷺ: «أفلح إن صدق».



السادس: الإخلاص:

وهو تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك قال اللّٰه تبارك وتعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥] وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١] ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ [الزمر: ١٤].

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا اللّٰه خالصا من قلبه أو نفسه»(١). وفي الصحيح عن عتبان بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن اللّٰه حرم على النار من قال لا إله إلا اللّٰه يبتغي بذلك وجه اللّٰه عزَّ وجلَّ»(٢).

السابع: المحبة:

لهذه الكلمة ولما اقتضته ودلّت عليه ولأهلها العاملين بها الملتزمين لشروطها وبغض ما ناقض ذلك قال اللّٰه عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وعلامة حب العبد ربه تقديم محابه وإن خالفت هواه، وبغض ما يبغض ربه وإن مال إليه هواه وموالاة من والى اللّٰه ورسوله ومعاداة من عاداه واتباع رسوله ﷺ واقتفاء أثره وقبولُ هداه وكل هذه العلامات شروط في المحبة لا يُتصور وجود المحبة مع عدم شرط منها.

فإذا علم أنه لا تتم محبة اللّٰه عزَّ وجلَّ إلا بمحبة ما يحبة وكراهة ما يكرهه فلا طريق

---

(١) رواه البخاري برقم ٦٢٠١ .
(٢) رواه البخاري ٥٠٨٦ .

إلى معرفة ما يحبه تعالى ويرضاه وما يكرهه ويأباه إلا باتباع ما أمر به رسول اللَّه ﷺ واجتناب ما نهى عنه فصارت محبته مستلزمة لمحبة رسول اللَّه وتصديقه ومتابعته ولهذا قرن محبته بمحبة رسول اللَّه ﷺ في مواضع كثيرة من القرآن كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] وغير ذلك من الآيات[1].

وبشروط سبعة قد قُيِّدت ... وفي نصوص الوحي حقا وردت
فإنه لم ينتفع قائلها ... بالنطق إلا حيث يستكملها
العلم واليقين والقبول ... والانقياد فادر ما أقول
والصدق والإخلاص والمحبه ... وفقك الله لما أحبه

* * *

(١) معارج القبول للحافظ للحكمي ١/ ٣٠٧ - ٣١٥ .

القضية الخامسة والتسعون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«والدعوة إلى اللَّه وساءلها كثيرة، أهمها الدعوة بالسلوك والمثال: وهي أن يجعل الداعي من نفسه قدوة لغيره فيمتثلون، وإن لم يحثَّهم على ذلك، وهذا أبلغ الوسائل، والدعوة بالكلمة، والدعوة بالمال والإحسان».

الشرح: منهج الرسل في الدعوة إلى اللَّه:

المراد بالمنهج: المبادئ العامة التي تدعو إليها وبها الرسل لتكون منارات للدعاة في دعوتهم.

وكان المنهج العام للرسل في دعوتهم هو: الدعوة إلى توحيد اللَّه تعالى وإفراده بالعبودية، ونبذ عامة الشركاء، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

أساليب الدعوة إلى اللَّه:

أساليب: جمع أسلوب، وهو الصور اللغوية والبيانية التي تَرِد على ألسنة الرسل في دعوتهم من كونها خبراً أو إنشاء أمراً أو نهياً، أو استفهاماً، أوحواراً أو قصصاً وما إلى ذلك مما هو كثير[(١)].

وقد حدد اللَّه تعالى أساليب الدعوة والتي تكون حسب المدعو، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الناسُ ثلاثة أقسام:

١- إما أن يعترف بالحق ويتبعه فهذا صاحب الحكمة.

٢- وإما أن يعترف به لكن لا يعمل به فهذا يوعظ حتى يعمل.

---

(١) الدعوة إلى اللَّه في سورة إبراهيم الخليل ٢٨٢ محمد بن سيرين بن الحبيب.

٣- «وإما أن لا يعترف به، فهذا يجادل بالتي هي أحسن، لأن الجدال فيه مظنة الإغضاب، فإذا كان بالتي هي أحسن حصلت منفعته بغاية الإمكان كدفع الصائل»[١].

وقال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن الحكمة، الدعوة بالعلم لا بالجهل، والبدأة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين. فإن انقاد بالحكمة، وإلا فيُنتقل معه إلى الدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب، إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها والنواهي من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من قام بدين اللَّه، وإهانة مَن لم يقم به، وإما بذكر ما أعدَّ اللَّه للطائعين من الثواب العاجل والآجل، وما أعدَّ للعاصين من العقاب العاجل والآجل، فإن كان المدعو يرى أن ما هو عليه حق، أو كان داعية إلى الباطل فيجادل بالتي هي أحسن وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلًا ونقلًا. فمن ذلك: الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وألا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة، تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها[٢].

وقد سُئل الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ عن رأيه في أسلوب المناظرات

بين المختلفين وهي طريقة طبقها السلف، ولكنها تكاد أن تكون مفقودة الآن، فهل ترى أن تعود هذه الطريقة؟ أو هل من مصلحة في عودتها؟

فأجاب: أرى أن المناقشة بين المختلفين عمل طيب، لكن بشرط أن تكون مصحوبة بحسن نية، بأن يكون المقصود بها أن تكون كلمة اللَّه هي العليا، أما إذا قصد بها نَصْرَ الرأي فَتَرْكُها خير من فعلها، وهذه النية إلى إرادة قصد الحق متوفرة في السلف أكثر منها في عصرنا الحاضر، لهذا نجد بعض الناس إذا خالفك في أمر حاول أن يدعم رأيه بأمور

---

(١) مجموع الفتاوى ٢/ ٤٥ .
(٢) تيسير الكريم الرحمن ٦٠٨ .

ضعيفة ليس لها حساب في موازين المناظرة، وهذا هو الذي يجعل بعض الناس يتحرز عن المناظرة، ولا سيما أمام الناس، وأمام الجماهير، لأنه يخشى أن يلبس هذا على الناس، وأن يلبس الحق بالباطل بسبب ما عنده من الجرأة والفصاحة والبيان، وحينئذ يكون الضرر عظيما ؛ ليس على المناظر فحسب، بل عليه وعلى مَن مَاثَلَه من أهل الحق، وعلى الحق نفسه أيضا، فلهذا كان الناس يحبون أن يبتعدوا عن هذه المناظرات.

لكن أرى أنه يمكن تلافي خطر المناظرة بأن يؤلف العالِمُ كتابا يذكر فيه ما يختاره من القول، ويؤيده بالأدلة التي بني عليها اختياره، ثم يذكر حجج الخصم ويبين أنها لا تقاوم الحجج التي بنى عليها اختياره، فهذه الطريقة لا شك أنها طريقة سليمة جيدة، ويحصل بها المقصود من المناظرة. ولم يمر بي مؤلف يسلك هذه الطريقة مثل مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، فتجده يأتي في مناقشة القول بأدلة لا يأتي بها حتى الذين يختارون القول المخالف لرأيه ثم يردّ عليها، ويذكر حجج القول الثاني وهذا من كمال العدل، والإنسان يجب عليه أن يعرف أنه مسؤول أمام اللَّه عزَّ وجلَّ، وأن يعلم أنه لا يمكن أن يختار قولا لمجرد هواه إلا على حساب حسناته يوم القيامة[(١)].

وسائلُ الدعوة إلى الله:

هي الطرق التي يتوصل بها الداعي إلى تبليغ دعوته[(٢)] وهي كثيرة، أهمها:

أولا: القدوة والأسوة الحسنة، وهي أبلغ الوسائل:

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأما (الأمة) فهو الإمام الذي يُقتدى به»[(٣)]، وقال تعالى

(١) الصحوة الإسلامية للشيخ محمد صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ص ١٨١-١٨٢ .
(٢) الصحوة الإسلامية ضوابط وتوجيهات ١٦٣ للشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٧٧٩ .

عن نبيه ﷺ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. حيث حضر الهيجاء بنفسه الكريمة، وباشر موقف الحرب وهو الشريف الكامل والبطل الباسل[(١)]، وما حدث في الحديبية يبين أثر القدوة»، فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول اللَّه ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا» ! قال: «فواللَّه ما قام منهم رجل! حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد، دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس». فقالت له أم سلمة: «يا نبي اللَّه ! أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تُكلِّم أحداً منهم، حتى فعل ذلك: نحر بُدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً»[(٢)].

وما حدث كذلك في غزوة حنين عندما انكشف المسلمون، فقد سأل رجل من قيس، البراء بن عازب: «أفررتم عن رسول اللَّه ﷺ يوم حنين؟» فقال: «لكن رسول اللَّه ﷺ لم يفر»، كانت هوازن رماة، وأنَّا لما حملنا عليهم انكشفوا فأكببنا على الغنائم فاستقبلتنا بالسهام. ولقد رأيتُ رسول اللَّه ﷺ على بغلته البيضاء وإن أبا سفيان[(٣)] آخذ بزمامها، وهو يقول: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»[(٤)].

ثانياً: الدعوة بالكلمة:

النوع الأول الكلمة بالمشافهة المباشرة:

بأن يقابل الداعي المدعوين ويخاطبهم وجهاً لوجه، فيبين لهم حقيقة ما يدعوهم إليه «من أمور الدين» وفضائله وثمراته الطيبة المشهودة والموعودة،وميزة هذا النوع أن الداعي يعرف مدى قبول المدعوين، وانشراح صدورهم للدعوة من ملامح وجوههم

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩١١ للعلامة عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
(٢) رواه البخاري.
(٣) هو أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.
(٤) متفق عليه.



ليعاملهم بما تقتضيه حالهم، ويتمكن من المحاورة بينهم وبينه حتى يصل بهم إلى حال القبول والاقتناع، وهو أبلغ في الغالب تأثيراً مما بعده[١].

وهو الأغلب على فعل الرسول ﷺ في دعوته ويكون هذا في الخطب والدروس.

النوع الثاني: المشافهة غير المباشرة:

كالتي تحصل بواسطة المذياع[٢] والمرئي «التلفاز» وميزة هذا النوع أنها أعم مما قبلها، وأشمل من حيث إنها تصل إلى ما لا يُوصَل إليه بالمشافهة المباشرة.

وقد سُئل الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ عن وسائل الإعلام وهي تؤدي دوراً مؤثراً في عصرنا، فهل ترون أنه يجب استعمالها - مثل التلفاز - في نشر كثير من الدعوة التي قد لا تنتشر عن طريق غيره مثل ما تنتشر عن طرق التلفاز؟ وما رأيكم فيمن يقول: أنَّه لا يجوز المشاركة في وسائل الإعلام بوضعها الراهن ؛ لأنها تنشر المنكرات والمشاركات فيها هو إقرار لهذه المنكرات؟

أجاب رَحِمَهُ اللَّهُ: أرى أنه يجب استخدام وسائل الإعلام في الدعوة إلى اللَّه عزَّ وجلَّ؛ لأن ذلك مما تقوم به الحجة، وأرى أن وسائل الإعلام تستخدم في الدعوة إلى اللَّه عزَّ وجلَّ على وجوه شتى.. ولكن أرى إذا كان هجر هذه الوسائل

وعدم المشاركة فيها سببا في ترك المنكر فإنه يجب مقاطعتها ومهاجرتها حتى تترك

هذا المنكر، ثم تنفتح لما هو خير. أما إذا كان هذا الأمر لا يفيد وربما يزيد الطين بِلة بحيث تفرغ الأوقات لنشر شر أكبر وأكثر، فأرى أنه يجب استغلال هذه الفرصة ونشر الدعوة إلى اللَّه تعالى من خلال هذه الوسائل.

ثم هذا المنكر الذي يعرض - كما يقول السائل - لا يعرض في نفس الوقت الذي أنت تلقى فيه الخير، بل هو منفصل عنه، فيكون مَن أراد الخير استمع إليه وشاهده،

---

(١) الصحوة الإسلامية ضوابط وتوجيهات ١٦٣ الشيخ محمد صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٢) كالفضائيات والإنترنت وغيرها من الوسائل الحديثة.

وإذا جاء الوقت الذي فيه المنكر يغلق المذياع أو التلفاز وينتهي منه.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ: عن الشريط الإسلامي أصبح وسيلة مهمة في الدعوة إلى اللّه تعالى، كيف يرى فضيلة الشيخ وضع الشريط؟ وهل لكم نصائح يمكن أن تقدم لأصحاب التسجيلات؟

أجاب: أرى أن الشريط الإسلامي مهم جدا في رعايته، والعناية به، وفيه فائدة كبيرة، لكنني أشير على إخواني الذين يعملون في هذا الحقل ألا يكون همهم في الكمية، وإنما يكون همهم في الكيفية؛ لأن بعض هذه الأشرطة فيه ما هبّ ودبّ، فتجد من الواعظ موعظة تلين القلوب ولا بأس، لكنها تشتمل على أشياء ضعيفة، وعلى أحاديث موضوعة على رسول اللّه ﷺ فيحصل من الشر فيها أكثر مما يحصل من تليين القلب لمدة دقائق مادام يستمع، لكن يرسخ هذا الشيء الباطل المكذوب الموضوع على رسول اللّه ﷺ في ذهنه ثم يصعب بعد ذلك انتشاله منه. فأرى أنه يجب على أصحاب الشريط الإسلامي أن يعتنوا به من هذه الناحية، وأن يعلموا أن: أي خلل يصيب المسلمين بناءً على ما نشروه في عقيدتهم أو أخلاقهم، فإنهم مسؤولون عنه أمام اللّه عزَّ وجلَّ، فالعناية بهذا الأمر واجبة حتى لا ينزلق الناس؛ لأن العامة إذا سمعوا الشريط المؤثر الذي يوجب البكاء ولين القلب انكبوا عليه، وترسخ هذه المعلومات الباطلة في أذهانهم، وهذا شيء خطير جدا.

ثالثا: الدعوة بالمال:

وذلك لغريزة حبّ المال لدى الناس. حتى أن النبي ﷺ ردّ على هوازن سبيهم قبل القسمة حتى اضطره الأعراب إلى سمُرة فخطفت رداءه فقال: «ردوا عليّ ردائي أيها الناس، فوالذي نفسي بيده لو كان لكم عدد هذه العضاة نعما لقسمته فيكم، ثم لا تجدوني بخيلا، ولا جبانا ولا كذابا»[1] حتى كان النبي ﷺ في غزوة الطائف يعطي الرجل المائة، ويعطي الرجل المائتين - يعني من الإبل - فقد أعطى المؤلفةَ قلوبُهم

(١) رواه البخاري.



من سبي حنين مائة من الإبل، وأعطى أبا سفيان بن حرب مائة وأعطى صفوان بن أمية مائة، وأعطى عيينة بن حصن مائة، وأعطى الأقرع بن حابس مائة، وأعطى علقمة بن علاثة مائة، وأعطى مالك بن عوف مائة، وأعطى العباس بن مرداس دون المائة، ثم أتم له رسول اللَّه ﷺ مائة(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كنت أمشي مع رسول اللَّه ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة! حتى نظرتُ إلى صفحة عاتق رسول اللَّه ﷺ قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته!» قال: «مُر لي من مال اللَّه الذي عندك»، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء»(٢).

وعن صفوان بن أمية انه قال: «ما زال رسول اللَّه ﷺ يعطيني من غنائم حُنيّن وهو أبغض الخلق إليَّ حتى ما خَلق اللَّه شيئاً أحبّ إليَّ منه»(٣).

وقال ابن اسحاق: «وقال رسول اللَّه ﷺ لوفد هوازن، وسألهم عن مالك بن عوف: «ما فعل؟» فقالوا: «هو بالطائف مع ثقيف»، فقال: «أخبروه إنه إن أتاني مسلماً رددت إليه أهله، وماله وأعطيته مائة من الإبل»! فلما بلغ ذلك «مالكاً» انسلَّ من ثقيف حتى أتى رسول اللَّه ﷺ وهو بالجعرانة - أو بمكة - فأسلم وحسن إسلامه، فردَّ عليه أهله، وماله ولما أعطاه مائة من الإبل

فقال مالك بن عوف رضي الله عنه:

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله ... في الناس كلهم بمثل محمدِ
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى ... ومتى تشأ يخبرك عمّا في غدِ
وإذا الكتيبة عرَّدت(٤) أنيابها ... بالسمهري وضرب كل مهندِ

---

(١) رواه أحمد ومسلم، انظر البداية والنهاية ابن كثير ٤/ ٣٥٨.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه البخاري انظر البداية والنهاية ٤/ ٣٦٠.
(٤) عردت: خرجت واشتدت.

فكأنه ليث على أشباله وسط الهباءة[١] خادر[٢] في مرصد

واستعمله رسول اللّه ﷺ على «أسلم» من قومه، وتلك القبائل «ثمالة، وسلمة، وفهم»، فكان يقاتل بهم ثقيفاً لا يخرج لهم سرج إلا أغار عليه حتى ضيق عليهم[٣].

رابعاً: الدعوة بالإحسان

قال تعالى: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] وهذا يشمل جميعَ أنواع الإحسان بالمال. . . ويدخل فيه الإحسان بالجاه بالشفاعات، ونحو ذلك ويدخل في ذلك الإحسان: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع ويدخل في ذلك: قضاء حوائج الناس من تفريج كرباتهم، وإزالة شدائدهم وعيادة مرضاهم، وتشييع جنائزهم، وإرشاد ضالهم، وإعانة من يعمل عملًا، والعمل لمن لا يحسن العمل، ونحو ذلك مما هو من الإحسان الذي أمر اللّه به[٤]. وقال اللّه تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [الإسراء: ٥٣]. فهذا كذلك أمر من اللّه تعالى بكل كلام يقرب إلى اللّه بالكلام الحسن اللطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم. كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «كلُّ سُلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس: تعدل بين الإثنين صدقة، وتعين الرجل على دابته، فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة»[٥].

وكان من صفته ﷺ في التوراة: محمد رسول اللّه، عبدي المختار، ليس بفظٍّ ولا صخّاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح.

* * *

---

(١) الهباءة: الغبار.

(٢) خادر: متحير.

(٣) البداية والنهاية ٤/ ٣٦٠ ابن كثير.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ص ١٠٠ .

(٥) متفق عليه.



القضية السادسة والتسعون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«وكل من حمل عِلما ولو كان قليلا شُرِع له إبلاغه»

الشرح:

اعلم أن حدّ العِلم عند العُلماء المتكلِّمين في هذا المعنى:

هو ما استيقنته وتبينته، وكل ما استيقن شئ وتبينه فقد علمه[(١)].

والعلوم عند جميع أهل الديانات الثلاثة: عِلم أعلى، وعِلم أسفل، وعِلم أوسط:

١ - **فالعِلم الأعلى**: عندهم هو عِلم الدِّين الذي لا يجوز لأحد الكلام فيه بغير ما أوّله[(٢)] اللَّه في كُتبه وعلى ألسنة أنبيائه صلوات اللَّه عليهم نصاً[(٣)].

٢ - **والعِلم الأوسط**: هو معرفة علوم الدنيا، التي تكون بمعرفة الشيء منها ونظيره، ويُستدل عليه بِجنسه ونوعه: كعلم الطِّب والهندسة.

٣ - **والعِلم الأسفل**: وهو أحكام الصناعات وضروب الأعمال: كالسباحة والفروسية والتزويق والخط، وما أشبه ذلك من الأعمال التي هي أكثر من أن يجمعها كتاب عليها صفته، وإنما تحصل بتدريب الجوارح فيها[(٤)].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمراد بالعلم الشرعي الذي يفيد معرفة ما يجب عليه المكلّف من أمر دينه وعباداته ومعاملاته، والعلم باللَّه تعالى وصفاته، وما يجب عليه من القيام بأمره، وتنزيهه عن النقائص، ومدار ذلك على التفسير والفقه والحديث»[(٥)].

(١) جامع بيان العلم وفضله ابن عبد البر ٢/ ٤٥.
(٢) أي فسّره اللَّه ووضحه.
(٣) وعلى هذا سيكون بحثنا إن شاء اللَّه.
(٤) جامع بيان العلم ٢/ ٤٦.
(٥) فتح الباري ١/ ١٤١.

فضل العلم:

قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

وقال رسول اللّه ﷺ: «.... ومن سلك طريقا يلتمس[١] فيه علما سهّل اللّه له به طريقاً إلى الجنة ....»[٢].

وفي رواية «.... وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العِلم رضاً بما يصنع، وأن العالِم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالِم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياَء لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورَّثوا العِلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافرٍ».

وقوله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عَمله إلّا من ثلاثٍ: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ ينتفعُ به، أو ولدٍ صالح يدعو لهُ»[٣].

وقال رسول اللّه ﷺ «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[٤].

الترغيب في تبليغ العلم:

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

قال رسول اللّه ﷺ «نَضّر اللّه امرءاً سمِع مِنّا شيئا فبلّغه كما علِمه، فَرُبَّ مُبلّغٍ أوعى

---

(١) أي بطلب.

(٢) رواه أحمد وأصحاب السنن وغيره من حديث أبى الدرداء وصححه الألباني (الجامع ٦١٧٣ الترغيب والترهيب ١/ ٣٣).

(٣) رواه مسلم وغيره من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه ابن ماجه وغيره وصححه الألباني (صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٣٤).

من سامع»[١]، وقوله ﷺ لوفد عبد القيس «بعد أن بيَّن لهم الإيمان»» احفظوه وأخبروه من ورائكم)[٢]، وقال ﷺ «ثلاثة لهم أجران......، ورجل كانت عنده أمة فأدَّبها فأحسن تأديبها، وعلَّمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها، فله أجران»[٣].

وقوله ﷺ في حجة الوداع في عرفة «...... ألا ليبلغ الشاهدُ فيكم الغائب»[٤].

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ قال: «علِّموا أهليكم الخير»[٥].

الترهيب من كتمان العلم وعدم تبليغه:

الأدلة مِن القرآن:

١- قال تعالى ذاما بني إسرائيل: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢]. يقول تعالى ناهياً لليهود عمّا كانوا يتعمدونه من تلبيس الحق بالباطل وكتمانهم الحق[٦].

٢- وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وهذا توبيخ من اللَّه وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ اللَّهُ عليهم العهَد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، ومن هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، ويسلك بهم مسالكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع، الدال على العمل الصالح، ولا يكتمون منه شيئا[٧].

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وصححه الألباني (صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٤٠).
(٢) البخاري ١/ ١٨٤ .
(٣) البخاري ١/ ١٩٠ .
(٤) البخاري ١/١٩٩ .
(٥) رواه الحاكم موقوفا، وقال صحيح على شرطهما وصححه الألباني (الترغيب ١/ ٥١).
(٦) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٢٣ .
(٧) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٢٣ .

٣- وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩- ١٦٠]. وهذا وعيد شديد لمن كتم ما جاء به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة، والهدي النافع للقلوب من بعد ما بينه اللَّه تعالى لعباده في كتبه التى أنزلها على رسله [(١)].

الأدلة من السنة:

١- عن أبى هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول اللَّه ﷺ: «من سُئل عن علم فكتمه، أُلجِمَ يوم القيامة بلجام من نارٍ»[(٢)].

٢- وعن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول اللَّه ﷺ قال: «مَن كتم علماً ألجمه اللَّه يوم القيامة بلجام من نارٍ»[(٣)].

٣- وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «مثل الذي يتعلم العلم ثم لا يُحدِّث به، كمثل الذي يكنز الكنز ثم لا يُنفق منه»[(٤)].

٤- وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول «إنما أخشى من ربي يوم القيامة أي يدعوني على رؤوس الخلائق فيقول لي: يا عويمر! فأقول لبيك رَبِّ، فيقول: ما عملت فيما علمت»[(٥)].

٥- وعن أبى موسى رضي الله عنه قال، قال رسول اللَّه ﷺ: «مَثلُ ما بعثَني اللَّهُ به من الهدى والعلم كمثل الغيثِ الكثير، أصابَ أرضاً، فكان منها نقيَّة قبلتِ الماءَ فأنبتَتِ الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادبُ أمسكتِ الماء فنفع اللَّهُ بها الناسَ فشربوا

(١) المصدر السابق ٢٧٣ .

(٢) رواه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين وصححه الألباني صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٥٢ .

(٣) رواه ابن حبان والحاكم، وصححه الألباني (صحيح الترغيب ١/ ٥٢).

(٤) رواه الطبراني في الأوسط، وأحمد في مسنده والدرامي، وحسنه الألباني (صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٥٢).

(٥) رواه البيهقي والدرامي وابن عبد البر، وصححه الألباني (صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٥٥).

وسقَوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تُمسِك ماءً، ولا تنبِت كلأً، فذلك مثل مَن فُقه في دينِ اللَّهِ، ونفعه ما بعثنى اللَّه به، فَعلِمَ، وعَلَّم، ومثلُ مَن لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هُدى اللَّه الذي أُرسلتُ به»(١).

قال القرطبي وغيره «ضرب النبى ﷺ لما جاء به من الدِّين مثلا بالغيث العام الذي يأتي الناس في حال حاجتهم إليه، وكذا كان حال الناس قبل مبعثه، فكما أن الغيث يحي البلد الميت فكذا علوم الدين تحي القلب الميت، ثم شبّه السّامعين له بالأرض المختلفة التى ينزل بها الغيث، فمنهم العالِم العامِل المُعَلِم فهو بمنزلة الأرض الطيبة شربت فانتفعت في نفسها، وأنبتت فنفعت غيرها.

ومنهم الجامع للعِلم المستغرق لزمانه فيه، غير أنه لم يعمل بنوافله، أولم ينفعه فيما جمع، لكنه أداه لغيره، فهو بمنزلة الأرض التى يستقر فيها الماء فينتفع الناس به، وهو المشار إليه بقوله «نَضّر اللَّه امرأ سمع مقالتي فأداها كما سمعها»(٢).

❋ ❋ ❋

---

(١) متفق عليه.
(٢) فتح الباري ١/ ١٧٧ .



القضية السابعة والتسعون: قال المُصَنِّف حفظه الله:

«يجوز أن توجد للدعوة جماعات ومنظمات في بلاد المسلمين، وفي غير بلادهم، وبإذن الإمام وبغير إذنه، لأن الدعوة فريضة دائمة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

قوله: «يجوز أن توجد للدعوة جماعات ومنظمات في بلاد المسلمين وفي غير بلادهم».

الشرح:

لأن الأمة الإسلامية داخلة في شرف حَمْل هذا الدين مع نبيها ﷺ حيث قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فَمَدَح الله تعالى هذه الأمةَ، ويخبر أنها خير الأمم التي أخرجها الله للناس وذلك بتكميلهم لأنفسهم بالإيمان المستلزم للقيام بكل ما أمر الله به، وبتكميلهم لغيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المتضمن دعوة الخلق إلى الله وجهادهم على ذلك، وبذل المستطاع في ردهم عن ضلالهم وغيهم وعصيانهم، فبهذا كانوا خير أمة أُخرجت للناس. كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فقد أمر الله تعالى هذه الأمة، والأمر قد يمتثله المأمور ويقوم به، وقد لا يقوم به فأخبر في هذه الآية أن الأُمة قد قامت بما أمرها الله بالقيام به، وامتثلت أمر ربها، واستحقّت الفضل على سائر الأمم(١).

وقال تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ١٤٣ لابن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ.



طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، ففي هذا فضيلة للعلم، وخصوصاً الفقه في الدين، وأنه أهم الأمور، وأن من تعلم علماً فعليه نشره وبثه بين العباد، ونصيحتهم فيه، فإن انتشار العلم عن العالِم من بركته، كما أن في الآية إرشاداً لطيفاً وفائدة مهمة وهي: «أن المسلمين ينبغي لهم أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة مَن يقوم لها ويوفر وقته عليها ويجتهد فيها»(١).

أهمية وأثر الدعوة على المجتمعات:

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكل بني آدم لا تتم مصلحتهم لا في الدنيا، ولا في الآخرة إلا بالاجتماع والتعاون والتناصر، فالتعاون على جلب منافعهم والتناصر لدفع مضارهم، ولا توجد منفعة أعظم من التوحيد، والاستقامة على طاعة اللّه، لا مضرة أخطر من الشرك والبعد عن طريق اللّه»(٢). والإجتماع والتعاون على الدعوة له منافع كثيرة وإليك بعضَ هذه الآثار على الفرد والمجتمع:

١- نيل الأجر العظيم من اللّه تعالى، قال تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

٢- استجابة اللّه عزَّ وجلَّ للدعاء: قال رسول اللّه ﷺ: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن اللّه أن يبعث عليكم عقابا منه. فتدعونه فلا يستجيب لكم»(٣).

٣- سبب للنجاة من العذاب، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٥٥ للعلامة عبد الرحمن ابن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٢) انظر الحسبة في الإسلام ص٩ .
(٣) أخرجه الترمذي، وصححه الألباني صحيح سنن الترمذي ٢/ ٢٣٣ .

يَفۡسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤- ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

قال العلامة ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهكذا سنة اللّه في عباده، وأن العقوبة إذا نزلت نجا منها الآمرون بالمعروف، والنّاهون عن المنكر»(١).

الأثر السّلبي على المجتمعات في ترك الدعوة:

فالتقصير في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو سبب لعن بن إسرائيل كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨- ٧٩]، أي: كانوا يفعلون المنكر، ولا ينهي بعضهم بعضا، فيشترك بذلك المباشر وغيره، الذي سكت عن النهي عن المنكر مع قدرته على ذلك. وذلك يدل على تهاونهم بأمر اللّه وأن معصيته خفيفة عليهم، فلو كان لديهم تعظيم لربهم لغاروا لمحارمه، وَلَغَضِبوا لغضبه وإنما كان السكوت عن المنكر - مع القدرة - موجبا للعقوبة لما فيه من المفاسد العظيمة:

منها: أن مجرد السكوت، فِعْلُ معصية، وإن لم يباشرها الساكت. فإنه - كما يجب اجتناب المعصية - فإنه يجب الإنكار على منْ فعل المعصية.

ومنها: ما تقدم أنه يدل على التهاون بالمعاصي، وقلة الاكتراث بها.

ومنها: أن ذلك يجرئ العصاة والفسقة على الإكثار من المعاصي إذا لم يُردعوا عنها، فيزداد الشر، وتعظم المصيبة الدنيوية، ويكون لهم الشوكة والظهور، ثم بعد ذلك يَضْعف أهلُ الخير عن مقاومة أهل الشر، حتى لا يقدرون على ما كانوا يقدرون عليه أولًا.

ومنها: أن - في ترك الإنكار للمنكر - يندرس العلمُ، ويكثر الجهل، فإن المعصية

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٢٧٠، انظر (الاحتساب وصفات المحتسبين لعبد اللّه بن محمد المطوع).



- مع تكررها وصدورها من كثير من الأشخاص، وعدم إنكار أهل الدّين والعِلم لها - يُظن أنها ليست بمعصية، وربما ظنّ الجاهل أنها عبادة مستحسنة، وأي مفسدة أعظم من اعتقاد ما حرّم اللّه، حلالًا؟ وانقلاب الحقائق على النفوس ورؤية الباطل حقاً؟!!

ومنها: أن السكوت على معصية العاصين، ربما تزينت المعصية في صدور الناس، واقتدى بعضهم ببعض، فالإنسان مولع بالاقتداء بأضرابه وبني جنسه ومنها ومنها... فلما كان السكوت عن الإنكار بهذه المثابة، نصّ اللّه تعالى أن بني إسرائيلَ - الكفار منهم - لعنهم بمعاصيهم واعتدائهم، وخص من ذلك هذا المنكرَ العظيم(١).

وقال ﷺ: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»(٢).

وقوله ﷺ: «ما من نبي بعثه اللّه في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب، يأخذون بسننه ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون فلا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»(٣).

وقد اجتمعت الأمة الإسلامية ممثلةً بعلماء السّلف على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة»(٤).

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٤١ .
(٢) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن.
(٣) رواه مسلم.
(٤) شرح صحيح مسلم ٢/ ٢١٢ للإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اتفقت الأمة كلها على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا خلاف من أحد منها»[١].

* * *

(١) الفصل في الملل والنحل ٥/ ١٩ للإمام ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

القضية الثامنة والتسعون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«وتعدد جماعات الدعوة جائز، شريطة الالتزام بوحدة المسلمين، ومراعاة الأخوة الإسلامية، والتعاون على البر والتقوى، وأي جماعة دعوة تدّعى اليوم أنها هي جماعة المسلمين فقط، وتكفِّر غيرها، فإنما هي جماعة خوارج وشقاق يجب حرُبها والقضاء عليها».

الشرح: وتعدد جماعات الدعوة جائزة، وهذا لا شيء فيه، فإن الدِّين الإسلامي وما يحتاجه من تخصصات، وما يحمله من أعباء، أكبر من أن تحيط به جماعة واحدة، خاصة مع اتساع رقعة العالَم الإسلامي، وإقبال هذه الأعداد الهائلة والشعوب الكثيرة على الإسلام، لكن هذا التعدد محكوم بضوابط ومحدد بشروط.

ومن أبرز وأهم هذه الشروط:

١- أن يكون منهج هذه الجماعات المتعددة: هو كتاب اللَّه، وسنة نبيه ﷺ وَفق منهج السّلف الصالح.

٢- أن يكون على أول سلم أولوياتها الدعوة إلى توحيد اللَّه تعالى، ونبذ الشرك.

٣- أن يكون من أولوياتها تجميع المسلمين ووحدتهم، لا تفريقهم وتشتيتهم، وأن تتعاون فيما بينها على البِر والتقوى.

وينبنى على ما سبق أن هذه الجماعات ترى نفسها أنها جماعة من جماعة المسلمين وليست هي جماعة المسلمين فقط، وغيرها جماعات ضرار يجب محاربتها فإن هذا الفهم والاعتقاد يُفضي إلى أمور وانحرافات كثيرة:

أثر الانحراف في بعض هذه الشروط:

١- أن كُل من لم ينضو تحتها فهو منشق خارجي كافر.

٢- أن كُل من كان معها، ثم خرج تُطبَّق عليه أحكام الخروج العامة.

٣- أن يُعطى زعيم هذه الجماعة ورئيسها ما يُعطى للخليفة العام من وجوب البيعة



له، وأن له حق إقامة الحدود والتعزيرات، وعقد لواء الجهاد، وإعطاء عهد الذِّمة والاتفاقيات، كما كانت تفعله جماعة شكري مصطفى وغيرها من الجماعات المنحرفة .

فإذا وصلت الجماعة إلى هذا الحدّ من الغُلو والتطّرف أصبحت جماعة خوارج وشقاق وتفرق ونزاع، وكان لزاماً على الجميع محاربتها والقضاء عليها.

وسنلقي الضوء على بعض هذه الجماعات المنحرفة التي تتبنى هذا الفكر:

أولًا: حِزب التحرير(١):

البلاد الإسلامية كلها عند الحِزب دار كُفر !

ويرى الحزب أن البلاد الإسلامية التي لا تحكمها أنظمة إسلامية بأنها دار حرب لا دار إسلام، فقالوا: «بلاد المسلمين تعتبر كلها دارَ كُفر، ولو كان أهلها مسلمين ! والمسلمون اليوم يعيشون في دار كُفر!»(٢).

ومكة والمدينة غير مستثناة من حكم الكُفر.

فالبلاد لا تعتبر إسلامية عندهم إلا إذا حكمتها دول وأنظمة إسلامية(٣).

وقالوا: «القوانين والأنظمة التي تطبّق على المسلمين في جميع بلاد الإسلام إنما هي أنظمة كُفر، وقوانين كفر: وهذا ما يجعل المجتمعات في البلاد الإسلامية جميعها: «مجتمعات غير إسلامية... وبلاد الإسلام التي يعيشون فيها ليست دار إسلام»(٤).

---

(١) حِزب التحرير: هو حِزب سياسي مركزي، تتميز نظرته: بالتغيير الجذري والشمولي والانقلابي في العالم الإسلامي، أسسه القاضي تقي الدِّين النبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في القدس عام ١٩٥٣م.
وإثر وفاة المؤسس في الأول من المحرم ١٣٩٨هـ الموافق ١١/١٢/١٩٧٧م قاد الحزب الشيخ عبد القديم زلوم حتى سنة ٢٠٠٣م حيث قدم استقالته، فترأس الحِزب منذ ذلك الوقت عطا أبو الرشتة الملقب بأمير حزب التحرير، [موقع/ويكيبيديا: الموسوعة الحرة].
(٢) حزب التحرير ٣٢ و ١٠٣ .
(٣) الدولة الإسلامية ص ٥٥ ميثاق الأمة ١٤ .
(٤) منهج حزب التحرير في التغيير ١٠و١١و٣٤ ميثاق الأمم ٤٤ .



حتى مكة والمدينة دار كُفر عندهم !

وعندما سُئل أحد أعضائهم: «ماذا تعتبر مكة والمدينة؟

هل هما دار إيمان أم دار كُفر وحرب»؟ فقال: «هما دار حرب وكُفر»!.

وأين دار الإيمان إن كانت مكة والمدينة دار كُفر؟!

وهذا المنهج خطير جداً إذ لو أمكن الحزب أن يقيم حرباً على الحكّام، فكيف سيكون موقفه من عامة المسلمين ممن يعتبرهم الحِزب سكّان ديار الكُفر، أو بالتعبير الحالي: «مجتمع الكُفر»؟!. فيُخشى أن ينهج فيهم نهج الخوارج حين اعتبروا كلَ دورِ المسلمين دار كفر، فعاملوهم معاملة المرتدِّين.

وهكذا يُخشى من بعض الجماعات لا سيّما التحريريين أن يعيدوا هذا الانحراف القديم بسبب غلبة الحماس وقلة العِلم.

وسألهم سائل: «هل يوجد دار إسلام في العالَم كله اليوم؟

قالوا: «لا»! قال: «أنا أُريد الهجرة، فإلى أين أهاجر؟» فعجز عن إجابته[(١)].

ثانياً: جماعة المسلمين[(٢)] «جماعة التكفير والهجرة»

الذين جعلوا جماعتهم هي جماعة المسلمين، انظر إلى هذه الصورة من صور ذلك الغلو

---

(١) انظر حزب التحرير مناقشة علمية لأهم مبادئ الحزب لعبد الرحمن بن محمد سعيد دمشقية حفظه اللَّه مكتبة الغرباء - استانبول - تركيا.

(٢) والتي أسسها شكري مصطفى في أوائل السبعينيات في مصر وأسماها [جماعة المسلمين] وذلك بعد أن تم الإفراج عنه في أواخر سنة ١٩٧١، واتسع نشاط هذه الجماعة،وكثر أتباعها واشتد صراعها مع الجماعات والهيئات الإسلامية وفي أواسط السبعينيات بدأ (شكري) يصدر أوامره بقتل الذين يتخلّون عن عضويتهم في هذه الجماعة، لأنه يرى بأنهم مرتدون عن الإسلام، كما أصدر أوامره بقتل الأفراد الذين يتّصلون بأعضاء جماعته، ويحاولون إقناعهم بفساد ماهم عليه من أفكار وتصورات. وتُوِّج هذا المسلسل الرهيب من الاعتداءات باختطاف الدكتور الشيخ محمد حسين الذهبي رحمه اللَّه رحمة واسعة وغفر له، ومن ثم الإقدام على قتله.
[انظر الحكم بغير ما أنزل اللَّه وأهل الغلو (لمحمد سرور بن نايف زين العابدين)].



وهو الحوار الذي دار بين عبد الرحمن أبو الخير[١] ورجل آخر من جماعة شكري[٢].

أبو الخير: لماذا لا نُصلّي على الشيخ صالح سرِيَّة وكارم الأناضولي؟[٣]

الآخر: لأنَّا بلَّغناهم الحق فرفضوه!

أبو الخير: عَلام اتفقتم، وعَلامة اختلفتم؟

الآخر: اختلفنا في مسألة أقوال الصحابة، وأقوال الفقهاء، فهم يأخذون بهذه الأقوال ونحن لا نقول بها.

أبو الخير: ولكني قرأت محاكمة «صالح» وسمعت مرافعة «كارم» عن نفسه فتبينتُ وضوح المصطلحات «الطاغوت والكفر والإيمان والجاهلية والإسلام» فضلًا عن إدراك «كارم» لعضوية المعركة ضد الحركة الإسلامية عبر السنين.

الآخر: ولكنهما رفضا أن يبايعا الجماعة، ونحن جماعة الحق، ومَن عدانا فليس بمسلم !.

---

(١) عبد الرحمن أبو الخير كان صحفياً، ولم يكن من الملتزمين بالإسلام، وليس له أدنى صلة بالدعاة والجماعات الإسلامية. وشاء اللَّه أن يُبتلى فدخل السجن (بسبب تقرير كاذب)، وفي السجن شرح اللَّه صدره للحق لأن الإنسان يكون في الشدائد والمِحن قريباً من ربه. ولما كان الدعاة داخل السجن أصنافاً وجماعات شتى فقد كان أبو الخير قريباً من (شكري)، يكثر من الجلوس معه، ويتأثر بما يسمع منه، وبعد السجن - أي في منتصف سنة ١٩٧٦ - بايع عبد الرحمن أبو الخير، شكري إماماً وقائداً، وأصبح عضواً في الجماعة ومستشاراً لزعيمها، واطّلع على أمور كثيرة، وسُجن معهم في قضية الذهبي، وبعد الإفراج عنه ألف هذا الكتاب الذي يؤكد فيه التزامه بأصول الجماعة، واختلافه معهم في أمور لا تضر ولا تسقط عضويته فيها.

(٢) شكري أحمد مصطفى [مواليد سنة ١٩٤٢] عمره لا يتجاوز خمساً وعشرين سنة، انكب على المؤلفات القديمة، يستقى منها تصورات الخوارج وأصولهم وكيف نشأوا، وكيف كانوا يُحاورون خصومهم من أهل السنة والجماعة، أُعدم في ٣٠/٣/١٩٧٨ م لقتله وزير الأوقاف المصري الشيخ/ محمد حسن الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٣) صالح سرِيَّة وكارم الأناضولي شخصان كانا من قيادة جماعة مخالفة لجماعة شكري وهي الجماعة المشهورة «بجماعة الفنية العسكرية» تم إعدامهما.



أبو الخير: ألا يجوز أن نعترف بالأمر الواقع؟ تعدد الجماعات القائمة على التصور الصحيح؟

الآخر: لا يجوز أن تتعدد الجماعةُ المسلمة ا.هـ.

ولذلك تُسمى الجماعة الخارجين عنها مرتدين.

جاهلية المجتمعات الإسلامية:

وتشير كتاباتهم إلى أن الجاهلية وَصْفٌ للمجتمعات الإسلامية كلها ما عدا جماعتهم فقط. يقول ماهر بكري[1]: «إن جميع المجتمعات التي تزعم الانتساب للإسلام اليوم هي مجتمعات جاهلية لا يستثنى منها واحد».

ويقول عبد الرحمن أبو الخير: «لقد كانت الجماعة تمثل الظاهرة الصحيحة وسط الجسد المريض العفن، ذلك المجتمع الجاهلي المصري»[2].

قوله: «هي جماعة خوارج وشقاق يجب حربها والقضاء عليها»

ش: الخوارج: «هم الذين يكفِّرون بالمعاصي، ويخرجون على أئمة المسلمين وجماعتهم. كما يشمل الخوارج من أخذ بأصولهم وسلك سبيلهم كجماعات التكفير والهجرة».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهم أول من كفّر أهل القبلة بالذنوب، بل بما يرونه هم من الذنوب، واستحلّوا دماء أهل القبلة[3].

وقد بويع أول أمير عليهم «عبد اللَّه بن وهب الراسبي» بعد أن نقضوا بيعة عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان ذلك في ١٠/ ١٠/ ٣٧ هـ. فهذا هو تاريخ أولِ افتراق فِعْلي مُعَلنٍ في الأمة[4].

---

(١) ماهر بكري: أحد قيادات الجماعة.

(٢) ذكرياتي مع جماعة المسلمين ٧٨ .

(٣) مجموع الفتاوى ٧/ ٤٨١ .

(٤) مجموع الفتاوى ١٩/ ٨٩/ ٩٢ تاريخ الطبري ٣/ ٧٩-١١٣ والنهاية لابن كثير ٧/ ٢٧٨، ٢٧٩ .

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولهذا كان أول من فارق جماعة المسلمين من أهل البدع الخوارج المارقون»(١).

وإن كانت هناك حوادث ونزاعات واختلافات قد حصلت في عهد أبي بكر وعمر وعثمان وحتى في بداية عهد عليّ بن أبي طالب عنهم، ولكن لم تكن هذه الحوادث لينتج عنها افتراق ولا فِرق، بل كانت تنتهي إما إلى إجماع، أو إلى الأخذ بقول الأغلب أو العمل بما عليه الإمام أو الأكابر، أو كل يذهب إلى ما أدّى إليه اجتهاده، ويعذر كل فريق من المختلفين الآخر.

الخوارج في السنّة النبوية:

عن أبي زيد الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «يدعون إلى كتاب اللَّه وليسوا من اللَّه في شيء فمن قاتلهم كان أولى باللَّه منهم»(٢).

وقد جاء في الحديث عنهم قول علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: «سيخرج قوم في آخر الزمان أحداث الأسنان سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة»(٣).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال: «رسول اللَّه ﷺ: «يخرج قوم في آخر الزمان أو في هذه الأمة يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم أو حلوقهم، سيماهم التحليق إذا رأيتموهم، أو إذا لقيتموهم فاقتلوهم»(٤).

وفي رواية عنه أنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يكون في أمتي فرقتان، فيخرج من بينهما مارقة يلي قَتْلَهم أولاهم بالحق»(٥).

---

(١) مجموع الفتاوى ٣/٣٤٩ لابن تيمية.
(٢) رواه ابن أبي العاصم في سننه ٩٤١، وصححه الشيخ ناصر الألباني.
(٣) رواه البخاري ٦٩٣٠ الفتح ١٢/ ٢٨٣ .
(٤) رواه الأمام أحمد وأبو داود وابن ماجة، وصححه الألباني في الجامع ٧٩١٠ .
(٥) رواه مسلم.



عن عقبة بن وساج قال: «كان صاحب لي يحدثني عن شأن الخوارج وطعنهم على أمرائهم، فحججتُ، فلقيتُ عبدَ اللّه بن عمرو رضي الله عنه فقلت له: «أنت من بقية أصحاب رسول اللّه ﷺ، وقد جعل اللّه عندك علماً، وأناس بهذا العراق يطعنون على أمرائهم، ويشهدون عليهم بالضلالة»، فقال لي: «أولئك عليهم لعنة اللّه والملائكة والناس أجمعين».

أُتِيَ رسول اللّه ﷺ بقليد[(١)] من ذهب أوفضة فجعل يقسمها بين أصحابه فقام رجل من أهل البادية فقال: «يا محمد ! واللّه لئن أمركَ اللّه أن تعدل فما أراك أن تعدل». فقال: «ويحك! من يعدل عليه بعدي؟" فلما ولىّ، قال: ردُوه رويداً، فقال النبي ﷺ: «إن في أمتي أخاً لهذا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، كلما خرجوا فاقتلوهم، ثلاثاً»[(٢)].

موقف السلف من الخوارج:

وبناء على ما سبق من أحاديث فقد كان موقف السّلف واضحاً وحازماً فقد أخرج عبداللّه بن أحمد بسنده عن الأزرق بن قيس، قال: «كنا بالأهواز نقاتل الخوارج، وفينا أبو برزة الأسلمي رحمه الله، فجاء إلى نهر فتوضأ ثم قام يصلي»[(٣)].

وكان ابن عمر رضي الله عنه «يراهم شرار الخلق، وقال انطلقوا إلى آيات في الكفار فجعلوها على المؤمنين»[(٤)] وكان يرى قتال الحرورية حقاً واجبا على المسلمين[(٥)].

لا يلزم من قتالهم أنهم كفار:

ورغم شدة موقف الصحابة والأئمة من بعدهم من الخوارج وقتالهم إلا أنهم توقفوا في تكفيرهم،وهذا من إنصافهم قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ومما يدل على أن الصحابة لم يُكفِّروا الخوارج، أنهم كانوا يُصلون خلفهم، وكان عبداللّه بن عمر رضي الله عنه وغيره من

---

(١) القليد - الشريط، والقلادة - ما جُعل في العنق .

(٢) رواه البزار في مسنده ص٢٠٧ وحسن إسناده صحيح في سنن أبو عاصم ٩٣٤ .

(٣) السنة ٢/ ٦٤٠ (١٥٣٢) وفي هذا الآثر يبين أن الصحابي أبو برزة قاتل الخوارج.

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح، استتابه المرتدين، باب ٦، الفتح ١٢/ ٢٨٢ .

(٥) السنة ٢/ ٦٣٩وحسن اسناده وحققه د. محمد بن سعيد القحطاني.

الصحابة يصلون خلف نجدة الحروري[١].

وكانوا أيضاً يحدثونهم ويفتونهم ويخاطبونهم، كما يخاطب المسلمُ المسلمَ، كما كان عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنه يجيب الحروري، لما أرسل إليه يسأله عن مسائل، وحديثه في البخاري، وكما أجاب نافع بن الأزرق[٢] عن مسائل مشهورة، وكان نافع يناظره في أشياء بالقرآن كما يتناظر المسلمان، وما زالت سيرة المسلمين على هذا، ماجعلوهم مرتدين كالذين قاتلهم الصديق.

هذا مع أمر الرسول ﷺ بقتالهم في الأحاديث الصحيحة، وما روى من «أنهم شر قتلى تحت أديم السماء، خير قتيل من قتلوه»، في الحديث الذي رواه أبو أمامة، ورواه الترمذي وغيره، أي أنهم شر على المسلمين من غيرهم فإنهم لم يكن أحداً شراً على المسلمين منهم، لا اليهود ولا النصارى، فإنهم كانوا مجتهدين في قتل كل مسلم لم يوافقهم، مستحلين لدماء المسلمين وأموالهم، وقتل أولادهم، مكفِّرين لهم، وكانوا متدينين بذلك لعظم جهلهم وبدعتهم المضلة، ومع هذا فالصحابة والتابعون لهم

---

(١) نجدة الحروري: - نجدة بن عامر الحنفي الحروري من اليمامة (٣٦ ٦٩هـ/ ٦٥٦-٦٨٨م) وكان على رأي نافع بن الأزرق حتى تبرأ من (القعدة)، فعند ذلك ذهب بعض الخوارج إلى (نجدة) في اليمامة وبايعوه، وأطلقوا عليه لقب أمير المؤمنين وكفَّروا من قال بإمامة (نافع) وذلك أيام عبد اللَّه بن الزبير، وكانت خوارج اليمامة قد بايعوا • من قبل - لأبي طالوت على أن يخلعوه إن وجدوا مَن هو خير منه، فلما جاءهم (نجدة) خلعوا أبا طالوت، وبايعوا لنجدة وهنا أصبح للخوارج أميران - (نافع) في الأهواز وما حواليها، (نجدة) في اليمامة والبحرين وعُمان وهجر وما دونهما، وبعد خلاف بينه وبين أصحابه كفروه وعلى رأسهم أبو فديك (الأعلام للزركلي ٨/ ١٠).

(٢) **نافع بن الأزرق** (٠٠- ٦٥هـ=٠٠٠-٦٨٥م): - نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي البكري الوائلي الحروري، أبو راشد: رأس الأزارقة، وإليه نسبتهم، كان أمير قومهم وفقيههم. من أهل البصرة، صحب في أول أمره عبد اللَّه بن عباس، وكان هو وأصحاب له من أنصار الثورة على «عثمان» ووالوا علياً إلى أن كانت قضية «التحكيم» بين علي ومعاوية فاجتمعوا في حروراء وهي قرية من ضواحي الكوفة، ونادوا بالخروج على عليّ رضي الله عنه، وعرفوا لذلك، هم ومن تبع رأيهم بالخوارج، وكان «نافع» جباراً فتاكاً، قاتله المهلّب بن أبي صفرة ولقي الأهوال في حربه وقُتل يوم «دولاب» على مقربة من الأهواز (الأعلام للزركلي ٧/ ٣٥١-٣٥٢).



بإحسان لم يُكفِّروهم ولا جعلوهم مرتدين، ولا اعتدوا عليهم بقول ولا فعل، بل اتقوا اللَّه فيهم وساروا فيهم السيرة العادلة، وهكذا سائر فرق أهل البدع والأهواء من الشيعة والمعتزلة وغيرهم»(١).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والخوارج كانوا من أظهر الناس بدعة وقتالًا للأمة وتكفيراً لها، ولم يكن في الصحابة من يُكفِّرهم، لا عليّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ولا غيره، بل حكموا فيهم بحكمهم في المسلمين الظالمين المعتدين، كما ذكرت الآثار عليهم بذلك في غير هذا الموضع»(٢).

* * *

(١) منهاج السنة ٥/ ٢٤٧-٢٤٨ .
(٢) مجموع الفتاوى ٧/ ٢١٧-٢١٨ (الإيمان).

القضية التاسعة والتسعون: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«ليس لجماعة الدعوة قبل التمكنُ في الأرض وقيامُ خلافة الإسلام أن تقيم الحدود أو تقتل المخالفين أو المنشقين»

قوله: «ليس لجماعةِ الدعوة[1] قبل التمكّن في الأرض وقيام خلافة الإسلام أن تقيم الحدود. . .».

الشرح: التّمكّن في اللغة: أي القدرة والسلطان والملك[2].

قال تعالى عن ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤]، أي ملّكه اللَّه تعالى، ومكَّنه من النفوذ في أقطار الأرض، وانقيادهم له.

وقال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٢١].

أنواع التَّمكين:

وأنواع التمكين في الأرض كثيرة وله صور عديدة، ولكن مع الأسف فإنه لا يعلق في أذهان الكثير من الناس وخاصة بعض الدعاة إلا نوع واحد وصورة واحدة من صور التمكين، ألا وهو الاستيلاء على السلطة، أو النظام، مع أن هذا النوع يكون غالباً تابع لما قبله، ومع ذلك نادر الحدوث سواء على مستوى الأنبياء والرسل[3]، أو على مستوى الدعاة. وإليك هذه الأنواع:

---

(١) انظر الفقرة (٩٧) و (٩٨).

(٢) انظر لسان العرب باب النون فصل الجيم (١٣/ ٤١٤).

(٣) فلا يُعرف من الأنبياء الذين كونوا دولًا أو ممالك إلا قليل، منهم داود وسليمان ونبينا محمد عليهم الصلاة والسلام وذي القرنين وهو مختلف في نبوته.

النوع الأول: تبليغ الرسالة، وإقامة الحجة، وانقطاع المحجة

فهذا نوع من أنواع التمكن في الأرض. فإن مهمة الرسل الأولى هي البلاغ قال تعالى عنهم: ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [يس: ١٧].

فمن أدى ما عليه فقد انتصر وفاز ونجح، سواء استجاب له الناس أم لم يستجيبوا.

ومن صُوره: صاحب يس، ذلك الرجل الذي دخل التوحيد قلبه: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠] فما كان من قومه إلا أن قتلوه، فقال مخبراً بما وصل إليه من الكرامة على توحيده، وإخلاصه، وناصحاً لقومه بعد وفاته كما نصح لهم في حياته. ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦- ٢٧]. ثم عاقب اللّه قومه: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝٢٨ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ [يس: ٢٦- ٢٧].

وهذا كثير في القرآن الكريم، قال تعالى عن هود عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٩٤].

وقال تعالى عن لوط عليه السلام: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤].

وعن موسى عليه السلام وبني إسرائيل: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٤٩].

وكذلك الدعاة إلى اللّه تعالى، كما قال عن الذين كانوا يصيدون السمك في يوم السبت بالعذاب بعد أن نهاهم اللّه تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

النوع الثاني: نجاة المؤمنين وانتصارهم وهزيمة أعدائهم وإهلاكهم:

ومن صوره قصة نجاة نوح عليه السلام وهلاك قومه، فقد أرسل اللّه نبيه ورسوله نوحاً إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً. دعاهم خلالها إلى التوحيد قال تعالى:



﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]. ولكن كان رد قومه قاسياً، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢]، فدعا عليهم: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦- ٢٧]. فماذا كان الردّ من اللَّه تبارك وتعالى؟ وكيف انتصر لنبيه نوح؟

قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١- ١٢]. والنتيجة أن اللَّه أهلك قوم نوح الذين كذبوه بالغرق.

قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ ونجّا اللَّه نوح ومن معه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤].

إن في قصة انتصار نوح عليه السلام وإهلاك قومه آية، قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥]، إن هلاك الكافرين ونجاة المؤمنين وسلامة المنهج الرباني والقائمين عليه بما بذلوه من الصبر والثبات على ذلك، نوع من أنواع التمكين التي يُكرم اللَّه بها مَن يشاء من عباده(١).

النوع الثالث: مشاركة المؤمنين في الحُكم.

وقد اختلف الناس فيه إلى رأيين: مانعين ومجيزين:

أولًا: أدلة المانعين من المشاركة في الحُكم:

استدلّ أصحاب الرأي الذي يمنع من دخول الإسلاميين، أو المشاركة في الحكم بأدلة من أهمها:

١- النصوص الحاكمة على من لم يحكم بما أنزل اللَّه: بالكُفر والظُلم والفسق.

---

(١) تبصرة المؤمنين بفقه النصر والتمكين (٥٧) [الدكتور علي محمد الصلابي حفظه اللَّه].



قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

٢- إن الحاكمية يجب أن تكون للّه وحده قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

٣- نهى ربُ العالمين المؤمنين أن يحتكموا إلى شريعة غير شريعة اللّه، وجعل ذلك منافيا للإيمان قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

٤ - إن في المشاركة في الحكم الذي لا يحكم بالإسلام مفاسد عظيمة، فالذين لا يُحكمّون شرعَ اللّه يحادون اللّهَ في أمره، وينازعونه في حكمه قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].

فكيف يشارك المسلم في هذا النوع من الحكم؟

٥- مشاركة المسلم في هذا النوع من الحُكم توقعه في تناقض كبير، فالمسلم مطالب بأن يجاهد لإقامة حكم اللّه، ويُنكر أشد الإنكار على مَن يحكم بغير ما أنزل اللّه فكيف يكون مقيما للحكم بغير ما أنزل اللّه؟

٦ - إن طاعة الحكامّ المخالفين لأمر اللّه فيما يُشرّعونه تعني اتخاذ المطيع لهم أربابا من دون اللّه، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [التوبة: ٣١].

٧- ومن المفاسد التي تترتب على المشاركة: أن بعض الحُكّام قد يتّخذون من يستوزرونهم من المسلمين الصالحين زينة يحلون بها حكمهم، ويُدلِّسون بذلك على السُّذج والعوام، فيقولون: لو كنّا على الباطل لما قَبِل فلان مشاركتَنا في الحُكم ويزداد الطّين بله عندما يمررون من خلال الوزير المسلم القوانين الجائرة الظالمة



وبعد أن يحققوا من ورائه أهدافهم ينبذونه نبذة النواة.

٨- وفي المشاركة في الحكم ركونٌ إلى الذين ظلموا وقد حذرنا الحق من الركون إليهم قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣].

٩- وقد يكون في المشاركة في الحكم إطالة لعمر هذا النمط من الحكم الذي يحكم بغير ما أنزل اللّٰه في بعض الأحيان(١).

ثانيا: أدلة القائلين بالجواز:

قال الذين يرون بجواز دخول المجالس النيابية: إن الأصل عدم جواز المشاركة، ولكن هناك حالات استثنائية أباحت الشريعة فيها المشاركة، واستدلوا بأدلة من أهمها:

١- القواعد العامة الكُلية:

فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو في معرض بيان أصل ارتكاب أخف الضررين: «إذا كان المتولي للسلطان العام أو بعض فروعه كالإمارة والولاية والقضاء ونحو ذلك، إذا كان لا يمكنه أداء واجباته وترك محرماته، ولكن يتعمد ذلك مالا يفعله غيره قصداً وقدرة: جازت له الولاية وربما وجبت! وذلك لأن الولاية إذا كانت من الواجبات التي يجب تحصيل مصالحها، من جهاد العدو، وقسم الفيء، وإقامة الحدود وأمن السبيل: كان فعلها واجبا، فإذا كان ذلك مستلزما لتولية بعض من لا يستحق وأخذ بعض مالا يحل، وإعطاء بعض من لا ينبغي، ولا يمكنه ترك ذلك: صار هذا من باب ما لا يتم الواجب أو المستحب إلا به، فيكون واجبا أو مستحبا إذا كانت مفسدته دون مصلحة ذلك الواجب أو المستحب، بل لو كانت الولاية غير واجبة وهي مشتملة على ظلم ؛ ومن تولاها أقام الظلم حتى تولاها شخص قصده بذلك تخفيف الظلم فيها، ودفع أكثره باحتمال أيسره: كان ذلك حسنا مع هذه

---

(١) انظر: حكم المشاركة في الوزارة والمجالس النيابية (ص ٢٩ - ٣٢) للشيخ: أ. د. عمر سليمان الأشقر حفظه اللّٰه.



النية، وكان فعله لما يفعله من السيئة بنية دفع ما هو أشد منها جيدا»[١].

وكذلك ردّ شيخ الإسلام هذا الحكمَ إلى القاعدة الفقهية عند اجتماع المحرمات وقد نصّ شيخ الإسلام في موضع آخر على ذلك بقوله:

«وكذلك إذا اجتمع مُحرَّمان لا يمكن تَرْكُ أعظمهما إلا بفعل أدناهما، لم يكن فعل الأدنى في هذه الحال محرما في الحقيقة، وإن سُمّي ذلك ترك واجب وسمي هذا فعل محرم باعتبار الإطلاق لم يضر. ويقال في مثل هذا تُرك الواجب لعذر وفُعل المحرم للمصلحة الراجحة، أو للضرورة، أو لدفع ما هو أحرم»[٢].

وشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، عاش في زمان يماثل ما نحن فيه من وجوه كثيرة، فمن ذلك سقوط الخلافة العباسية بأيدي التتر، واستقلال حكّام الأقاليم والدويلات بدولهم. بل قيام حكّام لبعض المدن والقرى المحيطة بها فقط، وغلبة الجهل والظلم على حكام الولايات، وحُكمهم بالإسلام تارة وبالأعراف والتقاليد وتشريعاتهم تارة أخرى، واستئثارهم بكثير من الأموال لأنفسهم دون المسلمين، فلم يكن توزيع المال على الطريقة النبوية والخلافة الراشدة... وكان شيخ الإسلام يُفتي بأنه لا يجوز التّخلي عن تولي الولايات العامة في مثل هذه الدويلات على ما فيها، حتى وإن كان لا يستطيع المتولي أن يُقيم العدل كما أمر اللَّه به.

بل إن هناك سؤال صريح وُجّه إلى شيخ الإسلام في هذا الصدد، وجواب شيخ الإسلام عليه.

فقد سُئل شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «عن رجل متول ولايات، ومقطَّع إقطاعات[٣]،

---

(١) فتاوى شيخ الإسلام ٢٠/٥٥ .

(٢) فتاوى شيخ الإسلام ٢٠/٥٧ .

(٣) المتولي للولايات هو الذي يؤمر بجمع الأموال من مكوس وضرائب على التجارة والبيوت والمزارع ونحو ذلك، وأما المقطع فهو الذي يتولى صرف الأموال من بيت المال وخزينة الدولة وما يتجمع من الضرائب ونحوها.



وعليها من الكُلف السلطانية[١] ما جرت به العادة، وهو يختار أن يسقط الظلم كله، ويجتهد في ذلك بحسب ما قدر عليه، وهو يعلم أنه إن ترك ذلك، وأقطعها غيره، وولي غيره فإن الظالم لا يترك منه شيء، بل ربما يزداد، وهو يمكنه أن يخفف تلك المكوس التي في إقطاعه، فيُسقط النصف والنصف الآخر جهة مصارف لا يمكنه إسقاطه، فإنه يُطلب منه لتلك المصارف عوضها، وهو عاجز عن ذلك لا يمكنه ردها. فهل يجوز لمثل هذا بقاؤه على ولايته وإقطاعه؟ وقد عُرفت نيته واجتهاده، وما رفعه من الظلم بحسب إمكانه أم عليه أن يرفع يده عن هذه الولاية والإقطاع، وهو إذا رفع يده لا يزول الظلم بل يبقى».

فأجاب: الحمد للّه. نعم إذا كان مجتهدا في العدل ورفع الظُلم بحسب إمكانه، وولايته خير، وأصلح للمسلمين من ولاية غيره، واستيلاؤه على الإقطاع خير من استيلاء غيره، كما قد ذُكر، فإنه يجوز له البقاء على الولاية والإقطاع، ولا إثم عليه في ذلك، بل بقاؤه على ذلك أفضل من تركه إذا لم يشتغل إذا تركه بما هو أفضل منه.

وقد يكون ذلك عليه واجبا، إذا لم يقم به غيره قادرا عليه. فنشر العدل - بحسب الإمكان ورفع الظلم بحسب الإمكان - فَرْضٌ على الكفاية يقوم كل إنسان بما يقدر عليه من ذلك إذا لم يقم غيره في ذلك مقامه، ولا يُطالب والحالة هذه بما يعجز عنه من رفع الظلم.

وما يقرره الملوك من الوظائف التي لا يمكنه رفعها لا يطالب بها، وإذا كانوا هم ونوابهم يطلبون أموالا لا يمكن دفعها إلا بإقرار بعض تلك الوظائف، وإذا لم يدفع إليهم أعطوا تلك الإقطاعات، والولاية لمن يقرر الظلم أو يزيده[٢]، ولا يخففه كان أخذ تلك الوظائف ودفعها إليهم خيرا للمسلمين من إقرارها كلها، ومن صرف من هذه إلى العدل والإحسان فهو أقرب من غيره، ومن تناوله من هذا شيء أبعد عن العدل والإحسان من

(١) الكلف السلطانية هي المخصصات التي تختص للسلطان وحاشيته ونحو ذلك.
(٢) قد كان هذا حال الملوك والسلاطين في عهد شيخ الإسلام يجعلون لهم مخصصات من الأموال العامة بما لا يحل لهم.



غيره، والمُقطع الذي يفعل هذا الخير يرفع عن المسلمين ما أمكنه من الظلم، ويدفع شر الشَّرّين بأخذ بعض ما يطلب منهم فما لا يمكنه رفعه هو محسن إلى المسلمين غير ظالم لهم، يثاب ولا إثم عليه فيما يأخذه على ما ذكره، ولا ضمان عليه فيما أخذه، ولا إثم عليه في الدنيا والآخرة إذا كان مجتهدا في العدل والإحسان بحسب الإمكان.

وهذا كوصي اليتيم، وناظر الوقف، والعامل في المضاربة والشريك، وغير هؤلاء من يتصرف لغيره بحكم الولاية أو الوكالة إذا كان لا يمكنه فعل مصلحتهم إلا بأداء بعضٍ من أموالهم للقادر الظالم، فإنه محسن في ذلك غير مسيء، وذلك مثل ما يعطي هؤلاء المكاسين[١] وغيرهم في الطرقات، والأشوال، والأموال التي ائتمنوا، كما يعطونه من الوظائف المرتبة على العقار، والوظائف المرتبة على ما يباع ويشترى، فإن كل من تصرف لغيره أو لنفسه في هذه الأوقات من هذه البلاد ونحوها فلا بد أن يؤدي هذه الوظائف، فلو كان ذلك لا يجوز لأحد أن يتصرف لغيره لزم من ذلك فساد العباد وفوات مصالحهم[٢].

والذي ينهى عن ذلك لئلا يقع ظُلْمٌ قليل لو قبل الناس منه تضاعف الظلم والفساد عليهم، فهو بمنزلة من كانوا في طريق، وخرج عليهم قُطّاع الطريق، فإن لم يرضوهم ببعض المال أخذوا أموالهم وقتلوهم. فمن قال لتلك القافلة لا يحل لكم أن تعطوا هؤلاء شيئا مَن الأموال التي معكم للناس، فإنه يقصد بهذا حِفْظَ ذلك القليل الذي ينهى عن دفعه، ولكن لو عملوا بما قال لهم ذهب القليل والكثير وسُلبوا مع ذلك، فهذا مما لا يشير به عاقل[٣]، فضلا أن تأتي به الشرائع، فإن اللّه تعالى بعث الرسل

(١) المكاسين: جمع مكاس وهو المتولي لشئون الضرائب التي تفرض على التجارة ونحوها، ومعلوم أن المكوس حرام لأنها أخذ للمال بالباطل.

(٢) انظر هذا الدليل الذي استمد منه شيخ الإسلام وهو حصول المفسدة العظمى إذا ترك القيام بالولايات الضرورية.

(٣) انظر الدليل الثاني، والمثل الذي ضربه، وتأمل فيه وطبقه على واقعنا المعاصر تجد أن من يفتي بعدم جواز ارتكاب المفسدة الصغرى فإنما يعرض المسلمين لحصول المفسدة الكبرى. وانظر قول شيخ الإسلام أن مثل هذا لا يُفتي به عاقل .

لتحصيل المصالح، وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان.

فهذا المتولي المقطّع الذي يدفع بما يوجد من الوظائف، ويصرف إلى من نسبه مستقرا على ولايته وإقطاعه ظلما وشرا كثيرا على المسلمين أعظم من ذلك ولا يمكنه دفعه إلا بذلك إذا رفع يده تولى من يقره ولا ينقص منه شيئا، هو مثاب على ذلك، ولا إثم عليه في ذلك ولا ضمان في الدنيا والآخرة.

وهذا بمنزلة وصي اليتيم، وناظر الوقف الذي لا يمكنه إقامة مصلحتهم إلا بدفع ما يوصل من المظالم السلطانية[1]، إذا رفع يده تولى من يجور ويريد الظلم، فولايته جائزة، ولا إثم عليه فيما يدفعه، بل قد تجب عليه هذه الولاية.

وكذلك الجندي المقطع الذي يخفف الوظائف[2] عن بلاده، ولا يمكنه دفعها كلها لأنه يطلب منه خيل وسلاح ونفقة لا يمكنه إقامتها إلا بأن يأخذ بعض تلك الوظائف وهذا ينفع في الجهاد، فإذا قيل له لا يحل لك أن تأخذ شيئا من هذا، بل ارفع يدك عن هذا الإقطاع، فتركه وأخذه من يريد الظلم، ولا ينفع المسلمين: كان هذا القائل مخطئا جاهلا بحقائق الدين؛ بل بقاء الخيل والتُرك والعرب الذين هم خير من غيرهم، وأنفع للمسلمين، وأقرب للعدل على إقطاعهم مع تخفيف الظلم بحسب الإمكان، خير للمسلمين من أن يأخذ تلك الإقطاعات من هو أقل نفعا وأكثر ظلما.

والمجتهد من هؤلاء المقطعين كلهم في العدل والإحسان بحسب الإمكان يجزيه اللّٰه على ما فعل من الخير، ولا يعاقبه على ما عجز عنه، ولا يؤاخذه بما يأخذ ويصرف إذا لم يكن إلا ذلك، كان تَرْكُ ذلك يوجب شرا أعظم منه. (واللّٰه أعلم)[3].

---

(١) المظالم السلطانية: أي الضرائب والأتاوات التي يفرضها السلاطين.
(٢) يقصد بالوظائف الضراب المفروضة.
(٣) الفتاوى ٣٠/٣٥٦ - ٣٦٠ .



٢ - دخول يوسف عليه السلام الوزارة:

أ - قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ومن هذا الباب تولى يوسف الصديق على خزائن الأرض لملك مصر، بل ومسألته أن يجعله على خزائن الأرض»، وكان هو وقومه كفارا كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ﴾ [غافر: ٣٤]، وقال تعالى عنه: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ [يوسف: ٣٩- ٤٠].

ومعلوم أنه مع كفرهم لا بد أن يكون لهم عادة وسنة في قبض الأموال، وصرفها على حاشية الملك، وأهل بيته وجنده ورعيته، ولا تكون تلك جارية على سنة الأنبياء وعدلهم، ولم يكن يوسف يمكنه أن يفعل كل ما يريد، وهو ما يراه من دين اللَّه فإن القوم لم يستجيبوا له، لكن فعل الممكن من العدل والإحسان، ونال بالسلطان من إكرام المؤمنين من أهل بيته مما لم يمكن أن يناله بدون ذلك، وهذا كله داخل في قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا﴾ [التغابن: ١٦][(١)].

ب - قال العلامة عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله: «وليس ذلك حرصا من يوسف عليه السلام على الولاية، وإنما هو رغبة منه، في النفع العام، وقد عرف من نفسه من الكفاية والأمانة، والحفظ، ما لم يكونوا يعرفونه»[(٢)].

اعتراض:

لقد اعترض المانعون على المجيزين في استدلالهم بقبول يوسف عليه السلام للوزارة وقالوا: «إن شرعنا لا يجيز تولي الوزارة في ظل حاكم غير مسلم، وأما تولي

---

(١) مجموع الفتاوى ٣٠/٥٦ وانظر مشروعية دخول المجالس النيابية، للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق حفظه اللَّه.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٥٤٨، وطبعة جمعية إحياء التراث الإسلامي الطبعة الثانية ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

يوسف عليه السلام للوزارة فهو شَرْعٌ لمن قبلنا وشرع من قبلنا ليس بشرع لنا إذا جاء في شرعنا ما ينقضه».

وإن كان هذا الاعتراض ليس له وجه، خاصة بعد ما قدمنا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وحديثه عن القاعدة الفقهية الكلية إلا أننا نورد ردّ المجيزين، والذي جاء من وجوه:

الوجه الأول: أن شرعنا وشرع يوسف عليه السلام بل شرائع الأنبياء جميعا متفقة في تقرير حاكمية اللّه تبارك وتعالى، فيوسف عليه السلام يقرر في مخاطبته للفتيين اللذين دخلا معه السجن أن الحكم للّه وحده: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠].

ويوسف عليه السلام الذي يعلم هذا الحكمَ المقرر في جميع الشرائع هو الذي يتولى منصب عزيز مصر ويقول للملك: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [يوسف: ٥٥]. فيتولى هذا المنصب وهو يعلم أن للملك نظاماً وشريعة لا يستطيع أن يزيحها بين عشية وضحاها قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦].

فإذا كان فقه يوسف عليه السلام للحاكمية هو الفقه نفسه المقرر في شريعتنا، ومع ذلك تولى الوزارة فإنّا نجزم في هذا المقام بأمرين:

١- أن توليه للوزارة لم يناقض عقيدته في كون الحاكمية للّه وحده.

٢- وأنه لم يكن مخطئا عندما تسلم الوزارة ؛ لأنه نبيّ معصوم.

الوجه الثاني: ومما يدل على نفي هذه الشبهة وإبطالها إخبار الحق تبارك وتعالى أن استلام يوسف الوزارة كان رحمة ونعمة ولم يكن عذابا ونقمة: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٥- ٥٦].

فاللّه يقرر أن تسلم يوسف للوزارة هو من باب التمكين له في الأرض، وأنه رحمة أصابه بها، وإنه أجر دنيوي عاجل، وما ينتظره من الثواب الآجل أعظم وأكبر: ﴿وَلَأَجْرُ



﴿ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧].

بل إن يوسف عليه السلام يُصرِّح بأن تسلمه للحكم كان من نعم الله عليه ولم يكن نقمة: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

الوجه الثالث: أن النصوص التي ذُكِرت تدل على أن هذا الحكم ليس خاصا بنبي الله يوسف عليه السلام دون سواه، ذلك أن النَّص صيغ صياغة عامة: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

ثم من ادعى أن هذا الحكم خاص بيوسف دون سواه، عليه أن يأتي بالدليل لأن الأصل في سير الأنبياء والمرسلين يراد بها التأسي والإقتداء، فكيف إذا جاءت النصوص القرآنية نافية الخصوصية مشيرة إلى العموم؟(١).

أقوال أهل التفسير في موقف يوسف عليه السلام:

١ - القرطبي:

نقل القرطبي رحمه الله، عن بعض أهل العلم: إباحة طلب الرجل الفاضل بشرط أن يعلم أنه يفوّض إليه في فِعْلٍ لا يعارضه فيه، فيصلح منه ما شاء، وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره فلا يجوز ذلك، ونقل القرطبي عن قوم أن هذا كان ليوسف خاصة دون غيره، ولكنه رجح القول الأول(٢).

٢ - الألوسي:

واستدل الألوسي رحمه الله، بطلب يوسف الولاية على جواز ذلك لغيره إذا كان الطالب قادرا على إقامة العدل، وإجراء أحكام الشريعة وإن كان من يد الجائر أو الكافر، بل ذهب الألوسي إلى أنه قد يجب الطلب إذا توقف على ولايته إقامة

(١) انظر: حكم المشاركة في الوزارة والمجالس النيابية (ص ٢٩ - ٣٣).
(٢) تفسير القرطبي (٧/ ١٥١٢).

واجب مثلا، وكان متعينا لذلك[١].

٣ - الشوكاني:

وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد استُدل بهذه الآية على أنه يجوز تولي الأعمال من جهة السلطان الجائر بل الكافر، لمن وثق من نفسه بالقيام بالحق»[٢].

وهذا من أقوى الأدلة في جواز المشاركة في الانتخابات[٣].

أقوال بعض أهل العلم في دخول المجالس النيابية:

أ - قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عند قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١]، وبعد أن ذكر الفوائد المتحصلة من هذه الآية، ومنها:

«أن اللَّه يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة، قد يعلمون بعضها، وقد لا يعلمون شيئا منها وربما دفع عنهم، بسبب قبيلتهم، وأهل وطنهم الكفار، كما دَفَع اللَّه عُن شعيب، رَجْمَ قومه، بسبب رهطه. وأن هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام، لا بأس بالسعي فيها، بل ربما تعين ذلك، لأن الإصلاح مطلوب، حسب القدرة والإمكان. فعلى هذا، لو سعى المسلمون الذين تحت ولاية الكفار، وعملوا على جعل الولاية جمهورية، يتمكن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدينية والدنيوية، لكان أولى من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم الدينية والدنيوية، وتحرص على إبادتهم وجعلهم عمَلةً وخدَماً لهم.

نعم إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين، وهم الحكام، فهو المتعين، ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة، فالمرتبة التي فيها دَفْعٌ ووقاية للدين والدنيا مُقَدمَة. والله أعلم»[٤].

---

(١) انظر تفسير الألوسي (١٣/ ٥).

(٢) فتح القدير (٣/ ٣٥).

(٣) انظر فقه التمكين في القرآن الكريم للدكتور محمد الصلابي.

(٤) تفسير عبد الرحمن السعدي ٥١٧ طبعة جمعية إحياء التراث الإسلامي الكويت ط الخامسة تابع المكتبة رقم ٤.



ب - **وقال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز** رحمه الله : والذي جاء جوابا عمّن سأله شرعية الترشيح لمجلس الشعب، وحكم الإسلام في استخراج بطاقة انتخابات بنية انتخاب الدعاة والأخوة المتدينين لدخول المجلس فأجاب سماحة الشيخ قائلا: «إن النبي ﷺ قال: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»[١]، لذا فلا حرج في الالتحاق بمجلس الشعب إذا كان المقصود من ذلك تأييد الحق، وعدم الموافقة على الباطل، لما في ذلك من نصر الحق والانضمام إلى الدعاة إلى اللّٰه.

كما أنه لا حرج كذلك في استخراج البطاقة التي يُستعان بها على انتخاب الدعاة الصالحين وتأييد الحق وأهله، واللّٰه الموفق»[٢]، [٣].

ونُذكّر بما قلناه وأسلفناه من قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حيث يقول: «فالواجب اتخاذ الإمارة دينا وقربة يُتقرب بها إلى اللّٰه، فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله أفضل القربات»[٤].

ونختم هذه القضية فنقول:

ولا شك أن أعداء الدِّين همّهم اليوم هو الفصل بين المسلمين «الدعاة منهم خاصة» وبين العمل السياسي، فتارة يقولون: «ما لكم وللسياسة»؟ وتارة يقولون: «لا يجوز تسييس الدعوة والجهاد». وتارة يقولون: «بأنهم ما دعوا إلى اللّٰه إلا لمآرب سياسية وأغراض دنيوية»، يريدون بهذا صرفهم عن الاهتمام بشؤون المسلمين، وإعلاء كلمة اللّٰه في الأرض، ليخلوا الجو لأعداء اللّٰه، فيعيثوا في الأرض فسادا كما يريدون، ويحكموا المسلمين بأي قانون ونظام يريدون، ويجعلون كلمة الدين هي

---

(١) صحيح البخاري رقم ١ .
(٢) معوقات تطبيق الشريعة الإسلامية للشيخ مناع القطان ص ١٦٦ .
(٣) لواء الإسلام العدد الثالث ذو القعدة سنة ١٤٠٩ هـ، يونيو ١٩٨٩ . «وأنا شخصيا قد سمعت منه فتوى مشابهة لهذه الفتاوى عندما سئل عن حكم دخول مجلس الأمة وذلك في مسجده بالطائف».
(٤) الفتاوى ٢٩٠/٣٨ .

السفلى، وكلمة الكفر والباطل والشرك هي العليا، ويَحُولوا بين دعاة الإسلام وبين السعي لعز أمتهم، وكرامة دينهم وإبلاغ رسالة ربهم، وإخضاع الناس لحكم ربهم، وأمر خالقهم وبارئهم.

وقد يغتر بعض الدعاة بهذه الأقاويل وقد يظنون أن البُعد عن السياسة الشرعية أحفظ لقلوبهم، وأخلص لربهم ودينهم، وأن السياسة مَشْغلة عن الدعوة للّه ظانين أن الدعوة فقط هي تأليف رسالة، وإضافة كتاب إلى المكتبة الإسلامية، أو الانزواء في مسجد وزاوية، والإكثار من التّعبد والزلفى، وبهذا يُفسح المجال للأفاقين والكذابين واللصوص المتغلبة على أموال المسلمين ومقدَّراتهم، وتبقى الساحة السياسية في بلاد الإسلام نهبا لجهلة العساكر، ومحبي الزعامة، والفِرق الباطنية الخبيثة، وأعداء الأمة، فيمسكون زمام الأمور، ويعيثون في الأرض ظلما وفسادا فيتخذون أرض اللّه دولا، ينتهكون الأعراض ويسلبون الأموال، ويقُصون الإسلام عن واقع الناس، ويستبدلون بشريعة اللّه الطاهرة شرائع الكفر الباطلة، ودعاة الإسلام غفلى يعللون أنفسهم بالأماني، ويشتغلون بالنوافل مضيعين للفرائض ويفصلون بواقعهم بين الدين والحياة، والدين والعدل وإعلاء كلمة اللّه في الأرض والدين والجهاد في سبيل اللّه، وبذلك يقرون الكافرين، ويُنَفذون غافلين مخطط أعداء الدين، ويتركون قيادة الناس للمجرمين والمخربين والمفسدين(١).

النوع الرابع: إقامة الدولة الإسلامية:

وهو وصول أهل التوحيد والإيمان الصحيح إلى سدّة الحكم، وتوليهم لمقاليد الدولة. ولقد تحدث القرآن الكريم عن من قادوا دولا، وساسوا شعوبا بشرع اللّه من أمثال داود وسليمان عليهما السلام، والحاكم المؤمن والفاتح الصالح، والقائد العادل - ذو القرنين - وجعلهم قدوة ومثلا رائعا لأهل الإيمان على مر الدهور وكر العصور، وتوالي الأزمان، وسلط القرآنُ الكريم الأضواء على جوانب هامة من

---

(١) المسلمون والعمل السياسي «ص ٦٢ - ٦٣» للشيخ عبدالرحمن عبد الخالق حفظه اللّه.



أعمالهم وجهادهم العظيم الذي استهدفوا به التمكين لمثل عليا، ومبادئ رفيعة وقيم سامية، وأخلاق فاضلة انبثقت من الإيمان باللّه واليوم الآخر، بعيدة كل البعد عن الكبرياء والوطنية، والأمجاد القومية، والنزعات العرقية، وتقديس التراب والزعماء، ولم تكن فتوحاتهم وأعمالهم المجيدة تستهدف سيادة عسكرية، أو مغانم اقتصادية، أو تطلعات توسعية، أو نزوات عنصرية، والتي يبعث عليه حب التّسلط والرغبة في العلو.

إنما خاضوا حروبا وقادوا جيوشا استهدفت كرامة الإنسان، وتخليصه من الشرك والأوهام والانحرافات العقدية، وإزالة الظلم عن البشر، وإقامة العدل ودعوة الناس إلى العقيدة الصحيحة، والمنهج السليم، والتصور الرباني[١].

وكان للنبي ﷺ والخلفاء من بعده حظ وافر من هذا النوع من التمكين، وكذلك للدول الإسلامية إلى أن سقطت آخر خلافة للمسلمين «الدولة العثمانية» في منتصف القرن العشرين.

وسائل التمكين في الأرض:

وبحمد اللّه تعالى فإن وسائل التمكين في الأرض كثيرة ومتنوعة، وما على ولاة الأمر من الأمراء والعلماء، وكذلك الدعاة، وأهل الاختصاص إلا الإخلاص أولا للّه تعالى وبذل الأسباب الشرعية للتمكين والتي منها:

الشرعية:

١- العودة إلى كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ منهجا وسلوكا وعقيدةً وتشريعاً وتطبيقاً.

٢- وضع ضوابط للسلوك العام ومنع الانحلال الأخلاقي الذي بدأ يتفشى في العالم العربي والإسلامي تحت غطاء الحرية الشخصية.

التعليمية:

١- الارتقاء بالمناهج التعليمية بأسلوب يتناسب مع مواكبة العصر في تقدماته

---

(١) فقه التمكين في القرآن الكريم ص ١٣٩ .



العلمية.

٢- تشجيع العلماء والخبراء خاصة في تكنولوجيا الصناعات.

الإدارية:

١- القضاء على الروتين «البيروقراطية» والتغيرات الإدارية المتنوعة في بلاد الإسلام.

٢- القضاء على الرشاوي والمحسوبية.

الاستثمار البشري:

١- دعوة العلماء والخبراء من المسلمين المقيمين في الخارج للعودة إلى بلادهم ومجتمعهم، ويعد هذا أمرا واجباً بعد تيسير وسائل حياتهم.

٢- العمل على استغلال الطاقات الشبابية المعطّلة بإقامة مشروعات عملاقة تستوعب هذه الطاقات.

العسكرية:

١- الإعلان عن اتحاد أو تحالف عسكري إسلامي بين دول العالم الإسلامي.

الإعلامية:

١- تخصيص قناة فضائية إسلامية لعرض القضايا الإسلامية المعاصرة، وعرض الإسلام على الناس العرض المناسب وبلغات مختلفة.

٢- ترشيد الإعلام الإسلامي ورفع مستواه ومنع البرامج الهابطة والهدامة.

الاقتصادية:

١- الإعلان عن قيام سوق إسلامية مشتركة.

٢- فتح الحدود بين الدول الإسلامية، وإطلاق حرية التجارة مع وضع ضوابط لمنع الفسق والاستغلال.



٣- استثمار الأموال الإسلامية على أرض الإسلام.

٤- حظر تصدير الثروات المعدنية والبترولية والزراعية والحيوانية إلا بعد اكتفاء الأسواق والصناعات الإسلامية.

٥- مقاطعة المنتجات الصناعية من الدول المعتدية على الإسلام والمسلمين.

السياسية:

١- نبذ الخلافات على الساحة الإسلامية، وطي صفحة الماضي، وفتح صفحات جديدة.

٢- تقوية الجبهات الداخلية.

٣- العدل والإنصاف عند التعامل مع المقيمين من أهل الكتاب وغيرهم، والمحافظة على أرواحهم وممتلكاتهم.

قوله: «أن تقيم الحدود أو تقتل المخالفين أو المنشقين»

أقول: وليس للجماعة حتى بعد قيام الخلافة إقامة الحدود ؛ فإن إقامة الحدود موكول إلى ولي الأمر وليس للدعاة.

إلا إذا قصد «المُصَنِّف» أن تتمكن جماعة الدعوة من قيام الخلافة، فهذا ممكن. ونقصد بالخلافة الدولة، لا الخلافة بالمعنى العام «أي أن تجتمع الدول الإسلامية كلها تحت دولة واحدة وأمير واحد» وإن كان هذه أُمنية.

أو أن تكون الدولة مقسَّمة إلى أقاليم وولايات مستقلة، ففي هذه الحالة يمكن إقامة الأحكام الإسلامية فيها والتي منها إقامة الحدود الشرعية.

أما قَتْلَ المخالفين، فهذا لا ينبغي، سواء للدعاة أو لولاة الأمر، فإن مخالفة الرأي لا يستحق صاحبه القتل، إلا إذا كان هذا الرأي مخالفاً لما عُلِم من الدِّين بالضرورة، أو يكون هذا الرأي مُكفِّراً، ويكون المخالف قد أقيمت عليه الحجة.



القضية المائة: قال المصنف حفظه الله:

«ويجب في الدعوة اتباع السياسة الشرعية ورعاية مصالح الأمة، واتخاذ الحكمة سبيلا وطريقا، عملا بقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]».

قوله: «ويجب في الدعوة اتباع السياسة الشرعية ورعاية مصالح الأمة»

الشرح:

والسياسة الشرعية ورعاية مصالح الأمة:

هي مقاصد الإسلام - التي دلّ استقراء نصوص الشريعة عليها - وهي تحقيق مصالح العباد، ودرء المفاسد والأضرار عنهم في العاجل والآجل، وبهذا كله تتحقق لهم السعادة الحقة في الدنيا والآخرة، وبهذا صرّح المحققون من علماء الإسلام.

قال الإمام العز بن عبد السلام: «إن الشريعة الإسلامية جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها»[(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والرسل صلوات الله علهم بُعثوا بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فأتباع الرسل أكمل الناس في ذلك، والمكذبون للرسل انعكس الأمر في حقهم فصاروا يتبعون المفاسد ويعطلون المصالح فهم شر الناس»[(٢)].

وقال تلميذه الإمام ابن قيّم الجوزية: «الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة ومصالح كلها، وحكمة كلها»[(٣)].

وقال الشاطبي في موافقاته: «إنها - أي الشريعة - وُضعت لمصالح العباد»[(٤)].

(١) القواعد للعز بن عبد السلام ١/ ٩ .
(٢) منهاج السنة النبوية لابن تيمية ٣/ ٨٣ - ٨٤ .
(٣) إعلام الموقعين ٣/ ١ .
(٤) الموافقات للشاطبي ٢/ ٦ .

معيار المصلحة والمفسدة:

ومعيار المصحة والمفسدة، هو الإسلام، فما شهد له بالصلاح فهو المصلحة وما شهد له بالفساد فهو المفسدة والخروج عن هذا المعيار معناه اتباع الهوى، والهوى باطل لا يصلح لتمييز الصلاح من الفساد.

قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

فليس هناك إلا الحق والهوى، والحق هو ما أنزل اللّه، وفيه بيان المصلحة والمفسدة وما عداه الهوى وهو الباطل وفيه فساد الناس. فالمصلحة إذن في إتباع الحق المنزّل من عند اللّه وهجر ما سواه.

قوله: «واتخاذ الحكمة سبيلا وطريقا...»

ش: تعريف الحكمة: الحكمة مأخوذة من الحكَمَة - بفتح الكاف والميم وهو ما يوضع للدابة كي يذللّها راكبُها فيمنع جماحَها، ومنه اشتقت الحكمة قالوا: لأنها تمنع صاحبها من أخلاق الأراذل[1].

والحكمة في حقيقتها وضع الأشياء في مواضعها.

وهذا التعريف عام يشمل الأقوال والأفعال وسائر التصرفات وفي تعريفات الجرجاني: «كل كلام وافق الحق فهو حكمة» وقيل: «إنها اسم جامع لكل كلام أو عِلم يراعَى فيه إصلاحُ حال الناس واعتقادهم إصلاحا مستمرا لا يتغير»[2].

---

(١) المصباح المنير ٥٦ .
(٢) التنوير والتحرير ٣/ ٦٠ - ٦٣، ١٤/ ٣٥ .

مظاهر الحكمة(١):

أولا: مراعاة طبائع النفوس وطبقات المدعوين

فالناس متباينون في طبائعهم، مختلفون في مدركاتهم، في العلم والذكاء، في الأمزجة والمشاعر، مختلفون في الميول والاتجاهات. مما يدعو رَجُلَ العلم والدعوة إلى تخير المدخل.. بل المداخل المناسبة لتلك النفوس المختلفة والعقول المتباينة. لهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «القلوب وحشية فمن تألفها أقبلت عليه» وقال أيضا رضي الله عنه «حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يُكذَّب اللَّه ورسوله؟» ويقول ابن مسعود رضي الله عنه: «ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولُهم إلا كان لبعضهم فتنة».

ثانيا: تخير الأوقات وانتهاز المناسبات

ويبلور ذلك كلمة جامعة لعبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه: «إن للقلوب شهوة وإقبالا، وفترة وإدباراً، فخذوها عند شهوتها وإقبالها، وذروها عند فترتها وإدبارها» وقد كان رضي الله عنه يذكرهم كل خميس، فقال رجل: «لوددت أنك ذكرتنا كل يوم» فقال: «أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملّكُم، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان رسول اللَّه ﷺ يتخولنا مخافة السآمة علينا»(٢).

وانظر في حكمة يوسف عليه السلام حين استغل الفرصة مع الفتيين عند تعبير رؤياهما وظروف سجنهما إلى اللَّه الواحد الأحد.

ثالثا: مراعاة التدرج وترتيب الأولويات:

ما قيل في طبقات المدعوين، وطبائع النفوس، وملاحظة المناسبات.. يقابله نظر آخر في الدعوة إليه، فلا شك أن الحكمة تقتضي النظر في متدرجات أمور الدعوة لأخذ الناس بالأول فالأول. فقضايا العقيدة وأصول الملة والديانة تأتي في المقام الأول.

---

(١) انظر كتاب مفهوم الحكمة في الدعوة للشيخ صالح بن عبد اللَّه بن حميد حفظه اللَّه.
(٢) متفق عليه.



فهي إن لم تصح في العبد، فلن يجدي فيه الصنيع والعمل الطيب.

وانظر إلى قول الرسول ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين أرسله إلى اليمن: «إنك تأتي قوما من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه، فإن هم أطاعوا لك بذلك.. فأعلمهم أن اللّه افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك.. فأعلمهم أن اللّه افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم...»[(١)].

رابعا: معالم الحكمة في أساليب الدعوة:

يُقصد بالأساليب هنا ما يتعاطاه رجل الدعوة من طرق وصيغ يتوصل من خلالها إلى إبلاغ الحق إلى الناس، وتبصيرهم بما ينفعهم ودفع ما يضرهم. والتي من أبرز مقوماتها:

١ - القول الحسن:

يقول طلحة بن عمر: قلت لعطاء: «إنك رجل يجتمع عندك ناس ذوو أهواء مختلفة، وأنا رجل فيّ حدة فأقول لهم بعض القول الغليظ؟ فقال: «لا تفعل». يقول اللّه تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]. يقول عطاء: «فدخل في هذه الآية اليهود والنصارى فكيف بالحنيفي !!؟».

٢ - التصريح والتعريض:

فيجب الجنوح إلى التعريض والتلميح دون التصريح، فالتصريح يهتك حجاب الهيبة، ويورث الجرأة على الهجوم، والتبجح بالمخالفة، ويهيج على الإصرار والعناد.

وكل ذلك من أجل رفع الحرج عن النفوس، واستثارة داعي الخير فيها. كيف والتعريض سنّة محفوظة عن النبي ﷺ في مخاطبة أصحابه: «ما بال أقوام يفعلون كذا ويقولون كذا».

---

(١) متفق عليه.



٣ - النصيحة لا الفضيحة:

قال الحافظ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والنصيحة إحسان إلى من تنصحه بصورة الرحمة والشفقة عليه والغيرة له، وعليه فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقة، مراد الناصح بها، وجه اللَّه ورضاه والإحسان إلى خلقه...».

وقد قيل لبعض السّلف: «أتحب أن يخبرك أحد بعيوبك؟».

فقال: «إن كان يريد أن يوبخني فلا».

وقد نهى النبيُ السِّيدَ أن يُثْرب أمته - أي يلومها على ذنبها - فقال عليه الصلاة والسلام: «إذا زنت الأَمَةُ فتبين زناها فليجلدها ولا يُثْرب..» الحديث[1].

يقول الفضيل: «المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويُعيِّر»، وكانوا يقولون: «من أمر أخاه على رؤوس الملأ فقد عيَّره».

وكما قالت أم الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «من وعظ أخاه سرا فقد زانه، ومن وعظه علانية فقد شانه».

٤ - المداراة:

المداراة صورة من صور التعامل الدال على الحكمة، والموصل إلى لمقصود مع حفظ ما للداعي والمدعو من كرامة ومروءة.

وقد بّوب الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه فقال: «المداراة مع الناس» ثم أورد حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنه استأذن على النبي ﷺ رجل فقال: «ائذنوا له فبئس ابن العشيرة، أو بئس أخو العشيرة. فلما دخل ألان له الكلام»، تقول عائشة: «فقلت يا رسول اللَّه: قلتَ ما قلتَ ثم ألنت له القول»؟ فقال: «أي عائشة، إن شر الناس منزلة عند اللَّه من تركه أو ودعه الناس اتقاء فحشه».

قال ابن بطال: «وظن بعضهم أن المداراة هي المداهنة فغلط».

---

(١) متفق عليه.



فالمداهنة: من الدهان، وقد فسرها بعض العلماء بأنها معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه.

والمداراة: هي الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيّما إذا احتيج إلى تألفه، ونحو ذلك.

٥ - إقالة العثرات والغض عن الأخطاء:

وَلْنستذكر قصة حاطب ابن أبي بلتعة رضي الله عنه .. تلك الواقعة الصحيحة، فهي صورة حية من صور الضعف البشري في لحظة من لحظات الزمن مع أنه الصحابي البدري، وَلِكِبَر الزلة قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للنبي ﷺ: «دعني أضربْ عنق هذا المنافق»، ولكن النبي ﷺ حين سأل حاطبا وأجابه، فقال عليه الصلاة والسلام: «لقد صدق ولا تقولوا إلا خيرا». ثم قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أما علمت يا عمر أن اللّه قد اطّلع على أهل بدر فقال: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، إن إقالة العثرة ليست إقرارا للباطل ولكنها إنقاذ للواقع فيه.

قوله: عملا بقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

ش: و«سبيل ربك» هو الإسلام، وهو الصراط المستقيم المشتمل على العلم النافع، والعمل الصالح، فهو دين اللّه الذي بعث به نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام وهذا هو الذي تجب الدعوة إليه، لا إلى مذهب فلان ولا رأي فلان، ولكن إلى دين اللّه، وهو ما دلّ عليه القرآن العظيم والسنة المطهرة الثابتة عن رسول اللّه ﷺ وعلى رأس ذلك الدعوة إلى العقيدة الصحيحة؛ وإلى الإخلاص له وتوحيده بالعبادة والإيمان به وبرسله والإيمان باليوم الآخر وبكل ما أخبر اللّهُ ورسولهُ، هذا هو أساس الصراط المستقيم»[1].

(١) انظر الدعوة إلى اللّه وأخلاق الدعاة لسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد اللّه بن باز رحمه الله.



و «**بالحكمة**» قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعني: «بوحي اللّهِ الذي يوحيه إليك وكتابه الذي تنزل عليك»[١].

قال الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أما الحكمة في القرآن: فهي معرفة الحق وقوله والعمل به»[٢] «فالقلوب التي لها فهم وقصد تُدعى بالحكمة»[٣].

ويقول الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمراد بها الأدلة المعتبرة الواضحة الكاشفة الداحضة للباطل»، ويقول: «وهي المقال الواضح المصيب للحق من الآيات والأحاديث»[٤].

وقال الشيخ العلامة صالح الفوزان حفظه اللّه في شأن المدعو: «أن يكون جاهلا بالحق ولو بُيّن له لَأَخَذَ به، فهذا يُدعى بالحكمة»[٥].

ومن الخطأ فَهْمُ الحكمة على غير مفهومها الصحيح، وذلك بتوسيع دائرتها حتى اعتبرت شدة أهل السنة على أهل البدع منافية للحكمة، فلا بد أن تُفهم الحكمة فهما بعيدا عن الإفراط والتفريط، إذ التوازن في ذلك الأمر مطلوب ؛ فكما أن اللّين مطلوب، فكذلك الشدّة مطلوبة، فهذا النبي ﷺ حين جاءه الرجل فقال له: «إنني لأتأخر عن صلاة الفجر من أجل فلان مما يطيل بنا»؛ فغضب غضبا لم يُعهد عليه من قبل، ثم قال: «يا أيها الناس إن منكم منفّرين»[٦] ؛ فالذي وقف هذا الموقف هو بنفسه رسول اللّه ﷺ الذي قال عنه معاوية بن الحكم السّلمي عندما رماه الناسُ بأبصارهم، وأنكروا عليه تشميته للعاطس في الصلاة قال معاوية: «بأبي هو وأمي ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه ؛ فو اللّه ما قهرني ولا

(١) تفسير الطبري ٤/ ٥٦٩ .
(٢) مجموع الفتاوى ٢/ ٤٥ .
(٣) مجموع الفتاوى ١٩/ ١٦٤ .
(٤) فضل الدعوة ٢٢ - ٢٣ .
(٥) مجلة البحوث عدد ٣١/ ١٥٩ .
(٦) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة ٤/ ٢٤٤ ح ٤٦٦ .

ضربني ولا شتمني»⁽¹⁾.

وإليك كلاما لابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه شِدة شرعية في مكانها، وفيه لين في مكانه، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حق دعاة أهل البدع: «وأما قتل الداعية إلى البدع: فقد يُقتل لكفِّ ضرره عن الناس، كما يقتل المحارب وإن لم يكن في نفس الأمر كافرا»[٢].

فإذا قرأت هذا الكلام وما فيه من شدة شرعية لها أسبابها ومسوّغاتها فاسمع كلامه الآخر في جانب اللّين والاعتذار حيث يقول: «وكثير من مجتهدي السلف والخلف قد قالوا وفعلوا ما هو بدعة ولم يعلموا أنها بدعة، إما لأحاديث ضعيفة ظنوها صحيحة، وإما لآيات فهموا منها ما لم يُرَد منها، وإما لرأي رأوه، وفي المسألة نصوص لم تبلغهم»[٣].

وإليك كلاماً عظيماً أيضاً لشيخ الإسلام في هذا الشأن حيث يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فقد يذنب الرجل أو الطائفة ويسكت آخرون عن الأمر والنهي، فيكون ذلك من ذنوبهم وينكر عليهم آخرون إنكارا منهيا عنه فيكون ذلك من ذنوبهم فيحصل التفرق والاختلاف والشر... ومن تدبّر الفتن الواقعة رأى سببها ذلك»[٤].

و **«الموعظة»**: والموعظة تكون بذكر الآيات والأحاديث، وضرب الأمثال الواردة في القرآن وذكر الثواب والعقاب حتى يلين قلبه للعمل بالحق والاستمرار عليه، وذكر عواقب الأمور مما يدعو صاحب الموعظة ويرقّق قلبه، وأن لا يغفل عن ذكر ربه.

ويقول العلامة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإذا كان المدعو عنده بعض الجفاء والإعراض؛ دعوته بالموعظة الحسنة بالآيات التي فيها الوعظ والترغيب»[٥].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ٥/ ٢٨ ح ٥٣٧.
(٢) الفتاوى ٢٣/ ٣٤٩/ ٣٥٠.
(٣) الفتاوى ١٩/ ١٩١.
(٤) مجموع الفتاوى ٢٨/ ١٤٢.
(٥) فضل الدعوة ٢٣.

وها هو الصديق رضي الله عنه صاحب القلب الصدوق السليم أقسم ألا يُنفق على «مسطح ابن أثاثة» لسبب ما قاله مسطح من أمر الإفك، ولما نزلت الآية العظيمة وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] بكى رضي الله عنه وقال: «بلى إني لَأُحبّ أن يغفر اللّه عزَّ وجلّ لي»[١].

ومن الخطأ أن تأخذ الموعظة أسلوبا وطريقا لم يكن معهودا أيام السلف الصالح ؛ فترى الواحد من هؤلاء يعني بفضائل الأعمال دعوة وإرشاداً، ولكن لا على سنة وتحقيق، بل على بدعة وتلفيق، يقول ابن الجوزي رحمه الله: «كان الوعّاظ في قديم الزمان علماء فقهاء»[٢].

قال الطرطوشي رحمه الله: «قال علماؤنا: لم يُقَصَّ في زمان النبي ﷺ ولا زمن أبي بكر، ولا زمن عمر»[٣].

و«**جادلهم**»[٤] **الجدل في اللغة**: والجدل: مقابلة الحجة بالحجة والمجادلة: المناظرة والمخاصمة ؛ والمراد به في الحديث الجدل على الباطل، وطلب المغالبة به لإظهار الحق ؛ فإن ذلك ممدوح[٥].

الجدل اصطلاحا: هو مقابلة الحجة بالحجة، وكشف الشُبه لدى المدعو؛ وهذا واضحٌ في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٞ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وهذا الكشف للشبه وبيان الأدلة على اطّراحها والاحتجاج بالأدلة المقنعة للخصم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشهادات ح/ ٥/ ٦٠٤ ح ٢٦٦١ .
(٢) تلبيس إبليس ١٢٣ .
(٣) الحوادث والبدع ٢٢٨ .
(٤) انظر أسس منهج السلف في الدعوة إلى اللّه لفواز بن هليل بن رباح السحيمي.
(٥) لسان العرب ٢/ ٢١٢ .



والمقربة للحق له هي مادة الجدل.

يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن كان المدعو يرى أن ما هو عليه حق أو كان داعية إلى الباطل فيُجَادَل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى للاستجابة عقلا ونقلا؛ ومن ذلك: الاحتجاج عليه بالأدلة التي يعتقدها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود»[١].

يقول الشيخ العلامة ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن كان عنده شبهة جادلته بالتي أحسن ولا تغلّظ عليه، بل تصبر، ولا تعجل ولا تعنّف، بل تجتهد في كشف الشبهة وإيضاح الأدلة بالأسلوب الحسن»[٢].

❋ ❋ ❋

(١) تيسير الكريم الرحمن ٤/ ٢٥٥ .
(٢) فضل الدعوة ٢٣ .

القضية الأولى بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللّه:

«والعرب هم وعاء الإسلام، وحملة رسالته، ولم يقبل منهم غيره أو القتل[(١)]، ولذلك يجب تقديمهم، وحملهم على هذه الرسالة».

الشرح:

والعرب وَلَدُ إسماعيل[(٢)] هم وعاء الإسلام، أي حملته في البداية والأصل وهم حملة رسالته الذين نشروها للعالمين، واسم العرب في الأصل كان اسما لقوم جمعوا ثلاثة أوصاف: أحدها: أن لسانهم كان اللغة العربية. الثاني: أنهم كانوا من أولاد العرب. الثالث: أن مساكنهم كانت أرض العرب وهي: جزيرة العرب التي هي من بحر القلزم[(٣)] إلى بحر البصرة[(٤)]، من أقصى حجر باليمن، إلى أوائل الشام بحيث كانت تدخل اليمن في دارهم، ولا تدخل فيها الشام. وفي هذه الأرض كانت العرب، حين المبعث وقبله، فلما جاء الإسلام وفُتحت الأمصار سكنوا سائر البلاد ومن أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، وإلى سواحل الشام وأرمينية[(٥)].

وهذه كانت مساكن فارس والروم والبربر، وغيرهم[(٦)].

فضل العرب:

أولًا: أن اللّه تعالى ختم الرُسل برسول عربي وهو محمد ﷺ، بل هو من أوسط

---

(١) انظر فقرة ١٠٩ .

(٢) المفردات للراغب الأصفهاني ٣٢٨ .

(٣) بحر القلزم وهو المسمى الآن بالبحر الأحمر = انظر معجم البلدان لياقوت ج١ص (٣٤٤).

(٤) بحر البصرة هو المسمى بالخليج العربي، ويسمى قديماً بحر فارس = انظر المصدر السابق ج١ ص (٣٤٣، ٣٤٤).

(٥) أرمينية: هي البلاد الواقعة شمال العراق وشرق تركيا، وجنوب شرق البحر الأسود وغرب بحر قزوين، وهي داخلة في ملتقى حدود إيران مع تركيا والاتحاد السوفيتي وأكثرها في أراضي الاتحاد السوفيتي الآن.

(٦) اقتضاء الصراط المستقيم ١/٤٠٣ ابن تيمية.



العرب لما رواه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: «قلت»: «يا رسول اللَّه ! إن قريشاً جلسوا يتذاكرون أحسابهم بينهم، فجعلوا مثلك كمثل نخلة في كُبوة[1] من الأرض». فقال النبي ﷺ: «إن اللَّه خلق الخلق فجعلني في خير فرقهم، ثم خيرَّ القبائل فجعلني في خيْر قبيلة، ثم خيَّر البيوت فجعلني في خير بيوتهم، فأنا خَيرُهم نفساً وخيرهم بيتاً»[2]، وقال سلمان رضي الله عنه : «يا معشر العرب! لتفضيل رسول اللَّه ﷺ إياكم لا ننكح نسائكم ولا نؤمكم في الصلاة»[3] ولقوله ﷺ: «أنا محمد بن عبد اللَّه بن عبد المطلب، إن اللَّه تعالى خلق الخلق فجعلني في خيرهم فرقة، ثم جعلهم فرقتين فجعلني في خيرهم فرقة، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً»[4]، ولقوله ﷺ: «إن اللَّه اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى من كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم»[5]، ولقول ﷺ: «فضَّل اللَّه قريشاً بسبع خصالٍ، لم يعطها أحد قبلهم، ولا يُعطاها أحد بعدهم: فضَّل اللَّه قريشا أني منهم، وأن النبوة فيهم، وأن الحجابة فيهم وأن السِّقاية فيهم، ونصرهم على الفيل، وعبدوا اللَّه عشر سنين، لا يعبُده غيرهم، وأنزل اللَّه فيهم سورة من القرآن لم يُذكر فيها أحدٌ غيرهم ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾ [قريش: ١][6] .

ثانياً: القرآن وهو خاتم الكتب كان بلسان عربي مبين قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٥] أي أنزلناه بلسانك العربي الفصيح الكامل الشامل،

(١) الكبوة بضم الكاف وفتحها يقال على المزبلة أو الكناسة.
(٢) رواه الترمذي ١٣/ ٢٨١ كتاب المناقب فضل العرب وحسنه، ورواه أحمد في المسند ٣/ ٢٢٣ - ٢٢٤ رقم ١٧٨٨، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي ٣٦٠٧ .
(٣) رواه البزار وذكره ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٤٠٢ .
(٤) رواه أحمد في مسنده والترمذي في سننه، وصححه الألباني صحيح الجامع ٢/ ٢٢ .
(٥) رواه مسلم والنسائي.
(٦) رواه البخاري في تاريخه والطبراني والحاكم، وحسنه الألباني صحيح الجامع ٤٢٠٩ والصحيحة ١٩٤٤ .



ليكون بيّناً واضحاً ظاهراً قاطعا للعذر مقيما للحجة دليلًا على المحجة وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢][١].

وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣]. أي في حال كونه قرآناً عربياً بيّناً واضحاً، فمعانيه مفصّلة، وألفاظه واضحة غير مشكلة[٢].
وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأحقاف: ١٢].

وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات، وأَبينُها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرُسل[٣].

ولهذا ذكر أبو محمد حرب بن إسماعيل الكرماني، صاحب الإمام أحمد، في وصفه للسنة التي قال فيها: «هذا مذهب أئمة العلم وأصحاب الأثر، وأهل السنة المعروفين بها، المقتدى بهم فيها، وأدركت من أدركت مَن علماء أهل العراق، والحجاز والشام وغيرهم عليها، فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب، أو طعن فيها، أو عاب قائلها - فهو مبتدع خارج من الجماعة، زائل عن منهج السنة، وسبيل الحق، وهو مذهب أحمد وإسحاق بن إبراهيم بن مخلد[٤]، وعبد اللّه بن الزبير الحميدي[٥] وسعيد بن منصور وغيرهم ممن جالسنا، وأخذنا عنهم العلم، وكان من قولهم: إن الإيمان قول وعمل ونية» وساق كلاماً طويلًا... إلى أن قال: «ونعرف للعرب حقّها وفضلها وسابقتها، ولا نقول بقول الشعوبية[٦] وأرذال الموالي الذين لا

---

(١) ابن كثير (٢/ ٤٦٢).
(٢) ابن كثير (٤/ ١١٥).
(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٦١٣ .
(٤) هو إسحاق ابن رهوايه.
(٥) هو: الإمام عبد اللّه بن الزبير بن عيسى القرشي الحميدي المكي - أبو بكر -، ثقة حافظ فقيه، أجَلُّ أصحاب ابن عيينة، قال الحاكم «كان البخاري إذا وجد الحديث عند الحميدي لا يعدوه إلى غيره» من الطبقة العاشرة مات سنة ٢١٩هـ = انظر تقريب التهذيب ج١ص (٤١٥) ت (٣٠٥) ع.
(٦) الشعوبية: جمع شُعوبي بالضم وهو: من يحتقر أمر العرب، وينكر فضلهم. وسموا شعوبية لأنهم ينتصرون للشعوب الأخرى غير العرب. = انظر القاموس المحيط شعب الشين باب الباء فصل الشين ج ١ ص (٩٠).

يحبون العرب»[١].

سبب ما اختُص به العربُ من الفضل:

وسبب ما اختصوا به من الفضل - واللَّه أعلم - ما جعل اللَّه لهم من العقول والألسنة والأخلاق والأعمال، وذلك أن الفضل إما بالعلم النافع، أو العمل الصالح العلم له مبدأ: وهو قوة العقل الذي هو الفهم والحفظ.

والتمام: وهو قوة المنطق الذي هو البيان والعبارة. فالعرب هم أفهم وأحفظ وأقدر على البيان والعبارة، ولسانهم أتم الألسنة بياناً وتمييزاً للمعاني.

وأما العمل فإن مبناه على الأخلاق وهي الغرائز المخلوقة في النفس. فغرائزهم أطوع من غرائز غيرهم فهم أقرب إلى السخاء، والحلم والشجاعة والوفاء من غيرهم، ولكن حازوا قبل الإسلام طبيعة قابلة للخير معطَّلة عن فعِله، ليس عندهم منزل ولا شريعة مأثورة، ولا اشتغلوا ببعض العلوم، بخلاف غيرهم فإنهم كانت بين أظهرهم الكتب المنزَّلة وأقوال الأنبياء فَضَلُّوا لضعف عقولهم وخُبث غرائزهم. وإنما كان علم العرب ماسمحت به قرائحهم من الشعر والخطب، أو ماحفظوه من أنسابهم وأيامهم، أو ما احتاجوا إليه في دنياهم من الأنواء والنجوم والحروب. فلما بعث اللَّه محمد ﷺ بالهدى تلقّفوه عنه بعد مجاهدة شديدة، ونقلهم اللَّه عن تلك العادات الجاهلية التي كانت قد أحالت قلوبهم عن فطرتها، فلما تلقَّوا عنه ذلك الهدى زالت تلك الريون عن قلوبَهم، فقبلوا هذا الهدى العظيم، وأخذوه بتلك الفطرة الجيدة، فاجتمع لهم الكمال بالقوة المخلوقة فيهم، والكمال الذي أنزله اللَّه إليهم، بمنزلة أرض طيبة في نفسها لكن هي معطلة عن الحرث، أو قد نبت فيها شجر العضاء والعوسج، وصارت مأوى الخنازير والسباع، فإذا طهرت عن ذلك المؤذي من الشجر وغيره من الدواب،وازدرع فيها أفضل الحبوب أو الثمار جاء فيها من الحب والثمر مالا يوصف مثله.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٣٧١ لابن تيمية رحمه الله.

فصار السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضلَ خَلْقِ اللّه سوى الأنبياء، وصار أفضلَ الناس بعدهم من اتبعهم بإحسان إلى يوم القيامة من العرب والعجم[(١)].

ولذلك يجب تقديمهم ومعرفة منزلتهم، ففي الإسلام شرف لهم ورفعة، وليس معنى هذا أن الإسلام لا يعز إلا بهم. بل العكس هو الصحيح كما قال عمر رضي الله عنه: «قوما أعزنا اللّه بالإسلام فمهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا اللّه "، ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]. فيخبر تعالى أنه إن توليتم عن طاعته واتباع شَرْعه يستبدل قوماً غيركم فيكونوا سامعين مطيعين له ولأوامره.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «تلا رسول اللّه ﷺ هذه الآية»، فقالوا:

«يا رسول ! مَن هؤلاء الذين إن تولينا استُبدل بنا، ثم لا يكونوا أمثالنا؟» قال: فضرب بيده على كتف سلمان الفارسي رضي الله عنه ثم قال: «هذا وقومه، ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس»[(٢)]، وفي رواية: «لو كان الإيمان عند الثريا لتناوله رجال من فارس»[(٣)] ولقد سطَّر لنا التاريخ ولا يزال بأحرف من نور رجالًا حملوا الدين ونصروه، ومن أبرزهم الإمام البخاري[(٤)] ومسلم[(٥)]، والترمذي[(٦)]

(١) تكلم ابن تيمية عن فضل العرب بمزيد من التفصيل في «اقتضاء الصراط المستقيم» ص ١/ ٣٦٩ - ٤٠٥ .
(٢) تفرد به مسلم.
(٣) متفق عليه.
(٤) شيخ الإسلام وإمام الحفاظ أبو عبد اللّه محمد بن إسماعيل ابن المغيرة بن أم برزويه الجعفي مات سنة ٢٥٦ هـ.
(٥) الإمام الحافظ حجة الإسلام أبو الحسن القشيري النيسابوري، مات سنة ٢٦١ هـ.
(٦) الإمام الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة السلمي، مات سنة ٢٧٩ هـ.



وأبو داود[١]، وابن ماجة[٢]، والنسائي[٣]، وابن المبارك[٤] ومن الفاتحين طارق بن زياد وموسى بن نصير، وهما من البربر، وصلاح الدين الأيوبي، والظاهر بيبرس وهما من الأكراد.

* * *

(١) الإمام الثبت سيد الحفاظ سليمان بن الأشعث السجستاني صاحب السنن، مات سنة ٢٧٥ هـ.
(٢) الحافظ الكبير أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني مات سنة ٢٧٣ .
(٣) الحافظ الإمام شيخ الإسلام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب الخراساني صاحب السنن، مات سنة ٣٠٣ هـ.
(٤) الإمام الحافظ عبد الله بن المبارك فخر المجاهدين قدوة الزاهدين المروزي التركي الأب الخوارزمي الأم.

القضية الثانية بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللّه:

«والجهاد والغزو فريضة ماضية إلى يوم القيامة، ومن لم يغز أو يحدِّث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق»

الشرح: «الجهاد في اللغة»: أصله من جهد، والجهد الطاقة والمشقة.

والمجاهدة: هي استفراغ الوسع في مدافعة العدوّ.

وجاهد في الحرب مجاهدة وجهادا[١]

«والجهاد اصطلاحا»: محاربة الكفار والقتال في سبيل اللّه.

و «الغزو»: الغزو الخارج إلى محاربة العدو، وقد غزا يغزو غزوا، فهو غازٍ، (وجمعه): غُزاة وغُزّ[٢]، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: ١٥٦][٣].

مراتب الجهاد:

وقد بيَّن العلماء أن الجهاد في الإسلام على ثلاثة مراتب:

١- **جهاد النفس**: وهو الوقوف في وجهها إذا مالت إلى الشهوات، فلا يستطيع المسلمُ الانتصارَ على عدوه الخارجي، إذا كان منهزما من عدوه الداخلي (النفس والهوى) وقال رسول اللّه ﷺ «المجاهد من جاهد نفسه، والمهاجر من هاجر ما نهى اللّه عنه»[٤].

٢- **جهاد الشيطان**: ويكون هذا بدافع ما يأتي به من الوساوس، وما يزينه من

---

(١) الراغب ١٠١والنهاية ١/ ٣١٩ .

(٢) الراغب ٣٦٠ .

(٣) أي كانوا في الغزو

(٤) رواه أحمد والبخاري والترمذي.

الشبهات والشهوات قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

٣- الجهاد للعدو الظاهر

وهو قسمان:

الأول: المنافقين: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [التحريم: ٩]. أي جاهد الكفار بالسّيف المنافقين باللسّان.

وجهاد المنافقين يكون بالعلم، لا بالسلاح، لأن المنافقين لا يُقاتَلون، فإن النبى ﷺ قد استؤذن أن يقتل المنافقون الذين علم نفاقهم، فقال: «لا، حتى لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه»(١) ولهذا يجب علينا أن نتسلح بالعلم أمام المنافقين الذين يوردون الشبهات على دين اللّه، ليصدوا عن سبيله.

الثاني: المبارزين المعاندين المحاربين

وهم الكفار الذين أعلنوا وصدوا بالكفر، وهذا يكون بالسلاح(٢).

الترغيب بالجهاد:

القرآن الكريم: قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

قال رسول اللّه ﷺ: «إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف»(٣) وقال رسول اللّه ﷺ: «من مات مرابطا في سبيل اللّه أمّنه اللّه من فتنة القبر»(٤). وقال رسول اللّه ﷺ: «الشهيد

(١) رواه مسلم من حديث جابر رضي الله عنه.
(٢) وهذا المقصود من هذه الفقرة.
(٣) رواه أحمد ومسلم والترمذي من حديث أبي موسى رضي الله عنه.
(٤) رواه الطبراني في الكبير والأوسط من حديث أبي أمامة وصححه الألباني (٦٥٤٥).

يشفع في سبعين من أهل بيته»(١)، وقال رسول اللَّه ﷺ: «لا يجتمع غبار في سبيل اللَّه ودخانُ جهنَم في جوف عبد أبداً»(٢).

الأمر بالجهاد

قال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣، والتحريم: ٩].

الترهيب مِن تَرْك الجهاد:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «موقف ساعة في سبيل اللَّه، خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود»(٣) وقال رسول اللَّه ﷺ: «من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بغزو، مات على شعبة من نفاق»(٤). وقال رسول اللَّه ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك باللَّه، والسحر، والتولي يوم الزحف...» الحديث(٥).

وقال ﷺ: «إذا تبايعتم بالعينة(٦)، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع(٧)، وتركتم الهاد سلّط اللَّه عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»(٨).

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي الدرداء، وصححه الألباني (٣٧٤٧ الجامع).
(٢) رواه النسائي والحاكم من حديث أبي هريرة، وصححه الألباني (٧٦١٦).
(٣) ابن حبان والبيهقي، وصححه الألباني (الجامع ٦١٣٦).
(٤) رواه أحمد ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٥) الذنوب المهلكات أو الموبقات في الآثام، رواه البخاري ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٦) وهو من البيوع المحرمة ونوع من أنواع الربا وصورته: أن يكون الرجل محتاجا مالا فيشتري شيئا من آخر دينا، ثم يبيعه إياه نقدا بسعر أقل، ليأخذ المال المحتاج إليه.
(٧) وهو الرضا بالدنيا ومشاغلها كالحرث ونحوه.
(٨) رواه أحمد وأبو داود من حديث ابن عمر رضي الله عنهما والطبراني وغيرهم، وصححه الألباني (الجامع ٤٢٣).



حكم الجهاد:

والجهاد فرض كفاية إذا قام به من يكفي سقط عن الباقين، وإلا أثموا جميعا مع العلم والقدرة(١). فإن لم يكن لديهم قدرة فإن إقحام أنفسهم في القتالَ إلقاء بأنفسهم إلى التهلكة، ولهذا لم يوجب اللَّه سبحانه وتعالى على المسلمين القتال وهم في مكة، لأنهم عاجزون ضعفاء فلما هاجروا إلى المدينة وكونوا الدولة الإسلامية وصار لهم شوكة أُمروا بالقتال، وعلى هذا فلا بد من هذا الشرط وإلا سقط عنهم كسائر الواجبات.. لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ التغابن: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦](٢).

متى يكون الجهاد فرضَ عَينْ؟

ويكون الجهاد فرض عين في ثلاثة مواضع وهي:

الأول: إذا تقابل الفريقان: فإذا التقى المسلمون والكفار وجب الثبات وحرم الفرار بدليل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥](٣). قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: توعد اللَّه الذين يفرون من الزحف عند تقاربهم ودنوهم من الذين كفروا بالنار، وهذا تعليم من اللَّه تعالى لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء(٤). وعدّه النبي ﷺ من الكبائر كما في حديث: «اجتنبوا الكبائر السبع: الشرك باللَّه، وقتل النفس، والفرار من الزحف...»(٥).

---

(١) تيسير العلام شرح عمدة الأحكام ٢/ ٥٣٩ للشيخ عبد اللَّه بن بسام.

(٢) الشرح الممتع على زاد لمستقنع ٨/ ٩ .

(٣) المغني لابن قدامة ١٠/ ٥٥٠ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٨٩، ٤١٧ .

(٥) رواه الطبراني من حديث سهل بن أبي حثمة، وحسنه الألباني (الجامع ١٤٥).

ويجب الثبات في هذا الموضع بشرطين:

أحدهما: أن يكون الكفار لا يزيدون على ضعف المسلمين، فإن زادوا عليه جاز الفرار لقوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ﴾ [الأنفال: ٦٦](١).

فلا ينبغي لمائة أن يفروا من مائتين، فكانوا إذا كانوا على الشطر (النصف) من عدوهم، لم يسغ لهم أن يفروا من عدوهم، وإذا كانوا دون ذلك، لم يجب عليهم قتالهم(٢).

ثانيهما: أن لا يقصد بفراره التحيز إلى فئة ولا التحرف لقتال، فإن قصد أحد هذين فهو مباح له لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ [الأنفال: ١٦]، ومعنى التحرف للقتال أن ينحاز إلى موضع يكون القتال فيه أمكن مثل أن ينحاز من مواجهة الشمس أو الريح إلى استدبارهما، أو من نزلة إلى علو أو من معطشة إلى موضع ماء.

وقول عمر في خطبته: «يا سارية بن زنيم إلى الجبل»، فتحيزوا إلى الجبل فنجوا من عدوهم فانتصروا عليهم. وأما التحيز إلى فئة فهو أن يصير إلى فئة من المسلمين ليكون معهم فيقوى بهم على عدوهم(٣)، وسواء بعدت المسافة أو قربت قال القاضي: «لو كانت الفئة بخرسان والفئة بالحجاز جاز التحيز إليها» ونحوه ذكر الشافعي لأن ابن عمر روى أن النبي ﷺ قال: «إني فئة لكم» وكانوا بمكان بعيداً عنه وقال عمر رضي الله عنه: «أنا فئة كل مسلم» وكان بالمدينة وجيوشه بمصر والشام والعراق وخراسان،

(١) أنزل اللَّه أولا قوله تعالى: (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا) قال ابن كثير: كل واحد بعشرة، ثم نُسخ هذا الأمر وبقيت البشارة (تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٢٨) انظر المغني ١٠/ ٥٥١ لابن قدامة.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٢٩ .

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: وهذه الحالة يشترط فيها: أن لا يخاف على الفئة التي هو فيها، فإن خيف على الفئة التي هو فيها، فإنه لا يجوز أن يذهب إلى الفئة الأخرى «الشرح الممتع على زاد المستقنع ٨/ ١١».



رواهما سعيد، وقال عمر: «رحم اللّه أبا عبيدة لو كان تحيز إليّ لكنت له فئة»، وإذا خشي الأسر فالأولى له أن يُقاتل حتى يُقتل ولا يُسلِّم نفسه للأسر، لأنه يفوز بثواب الدرجة الرفيعة ويسلم من تحكم الكفار عليه بالتعذيب والاستخدام والفتنة. وإن استأسر جاز(١).

وإذا كان العدو أكثر من ضعف المسلمين فغلب على ظن المسلمين الظفر فالأولى لهم الثبات، لما في ذلك من المصلحة وإن انصرفوا جاز، لأنهم لا يأمنون العطب والحَكْمُ مُعلق على مظنته(٢).

الثاني: إذا استنفرهم الإمام لزم النفيرُ معه لقول اللّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٨- ٣٩]. وقول النبي ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيَّة، وإذا استنفرتم فانفروا»(٣).

والإمام هو ولي الأمر الأعلى في الدولة، ولا يشترط أن يكون إماما عاما للمسلمين، لأن الإمامة العامة انقرضت من أزمنة متطاولة.

فإذا تأمّر إنسان على جهة ما صار بمنزلة الإمام العام، وصار قوله نافذاً وأمره مطاع لقوله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا وإن استُعمل عليكم عبد حبشي»(٤).

وفي رواية: «وإن تأمر عليكم» «رواه أحمد وأبو داود والترمذي».

الثالث: إذا نزل الكفار ببلد تعيَّن على أهله قتالُهم ودفعهم عن البلد، لأن العدو إذا حضر البلد فلا بد من الدفاع.

---

(١) كما استأسر خبيب وزيد بن الدثنة للكفار ورفض الاستئسار عاصم وأصحابه الستة.
(٢) المغني ١٠/٥٥٢ - ٥٥٣.
(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم.
(٤) رواه أحمد والبخاري وابن ماجة.

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا دخل العدو بلاد الإسلام فلا ريب أنه يجب دَفْعُه على الأقرب فالأقرب؛ إذ بلاد الإسلام كلها بمنزلة البلدة الواحدة»[١] ولأنهم إذا جاء العدو صار الجهاد عليهم فرض عين فوجب على الجميع، فلم يجز لأحد التخلف عنه[٢].

الجهاد مع الإمام براً كان أو فاجراً ولا يشترط العصمة:

وقال أبو جعفر الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ، والحج والجهاد ماضيان مع أُولي الأمر من المسلمين، برّهم وفاجرهم، إلى قيام الساعة، لا يبطلهما شيء ولا ينقضهما.

وقال ابن أبي العز تعليقا: وهذا فيه رد على الرافضة، حيث قالوا: «لا جهاد في سبيل اللَّه حتى يخرج الرضي من آل محمد، وينادي منادٍ من السماء: اتبعوه!!». وبطلان هذا الولي أظهر من أن يُستدل عليه بدليل. وهم شرطوا في الإمام أن يكون معصوما، وهذا اشتراط من غير دليل بل قال رسول اللَّه ﷺ: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتُصلّون عليهم ويُصلّون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم»، قال: قلت: يا رسول اللَّه، أفلا ننابذهم عند ذلك؟ قال: «لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، ألا من وُلي عليه والٍ فرآه يأتي شيئا من معصية اللَّه، فليكره ما يأتي من معصية اللَّه ولا ينزعنّ يداً من طاعته»[٣]. وقوله: «مع أولي الأمر برّهم وفاجرهم» لأن الحج والجهاد فرضان يتعلقان بالسَّفر، فلا بد من سائس يسوس الناس فيهما ويقاوم العدو، وهذا المعنى كما يحصل بالإمام البرّ يحصل بالإمام الفاجر[٤]. وقال ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويغز مع كل بر وفاجر» وقال: «ولأن تَرْكَ الجهاد مع الفاجر يُفضي إلى قطع الجهاد وظهور الكفار على المسلمين واستئصالهم، وظهور كلمة الكفر، وفيه فساد عظيم». قال

---

(١) الاختيارات ٣١١ لابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٢) المغني ١٠/٣٨٩ - ٣٩٠، ٣٦٦.
(٣) رواه مسلم من حديث عوف بن مالك الأشجعي.
(٤) شرح الطحاوية ٤٣٧ - ٤٣٨.

اللَّه تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن كان القائد يُعرف بشرب الخمر والغلول يُغزى معه إنما ذلك في نفسه». ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «إن اللَّه يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[١]، [٢].

الرابع: إذا احتيج إليه صار في حقه فَرْضَ عين عليه، كمن عيّنه الإمام لخبرته العسكرية لأن هناك بعض الآلات الحربية لا يعرف تشغيلها أو قيادتها إلا هذا الرجل أو هذه المجموعة، فيصبح الجهاد في حقهم فرض عين[٣].

مَن الذين يجب عليهم الجهاد؟

الذين يجب عليهم الجهاد هم الذين تتوفر فيهم الشروط التالية:

أولا: الإسلام: فالكافر غير مأمور بالجهاد.

ثانيا: العقل: فالمجنون لا يتأتى منه الجهاد.

ثالثا: البلوغ: فالصبي ضعيف البنية، وقد روى ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «عُرضتُ على رسول اللَّه ﷺ يوم أُحد وأنا ابن أربع عشرة، فلم يجزني في المقاتلة»[٤].

رابعا: الحرية: فتُشترط لما روي عن النبي ﷺ أنه كان يبايع الحُر على الإسلام والجهاد، ويبايع العبد على الإسلام دون الجهاد، لأن الجهاد عبادة تتعلق بقطع مسافة فلم تجب على العبد كالحج.

خامسا: الذكورية: فتُشترط لما روت عائشة قالت: قلت: «يا رسول اللَّه! هل على النساء جهاد؟» فقال: «جهاد لا قتال فيه: الحج، والعمرة»[٥]. ولأنها ليست من أهل

---

(١) المغني ١٠/ ٣٧١.
(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم والطبراني عن عمرو بن النعمان بن مقرن، واللفظ له.
(٣) الشرح الممتع على الزاد ٨/ ١٤ لابن عيثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
(٤) متفق عليه، وهذه الشروط الثلاثة لوجوب سائر الفروع.
(٥) رواه ابن ماجة والدر قطني، وصححه الألباني (صحيح ابن ماجة ٢٣٤٥).

القتال لضعفها، وخورها إلا إذا كانت مقاتِلة.

سادسا: السلامة من الضرر: أي السلامة من العمى والعرج والمرض لقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح: ١٧].

سابعا: وجود النفقة: يشترط لقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩١][(١)].

* * *

---

(١) المغني ١٠/٣٦٦، فهذه الشروط التي ذكرها العلماء هي في جهاد الطلب وعندما لا يكون الجهاد فرض عين لا فرض كفاية.



القضية الثالثة بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«ولا يجوز أن نقاتل إلا بعد إعلان الحرب وتميّز الصفوف».

الشرح:

ولا يجوز أن نقاتل أي أن نبدأ الحرب أو ما يسمى بالحرب الهجومية «وإلا فإن الحرب الدفاعية ليست لها كل هذه الضوابط» إلا بعد إعلان الحرب، ويحسن لو قلنا أن تكون بعد الدعوة. فتكون ثلاث نقاط:

أولا: حكم الدعوة قبل القتال:

لا شك أن المقصود الأساسي للجهاد في سبيل اللَّه تعالى: هو رفع راية الإسلام، وهداية الناس إلى اللَّه تعالى، والأصل في ذلك أن يبلّغ الناس هذه الدعوة بالوسائل الممكنة والمتاحة، ويشرح لهم محاسن الإسلام ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

ومحصَّل أقوال المذاهب «الأحناف[(١)] والشوافع[(٢)] والحنابلة»[(٣)] أنهم يرون التفصيل: وجوب الدعوة في حق مَن لم تبلغه، وعدم وجوبها في حق مَن بلغتهم، وأما المالكية[(٤)] فيرون وجوب الدعوة مطلقاً، إلا أن الذي نصّ عليه «ابن عبد البر» في الكافي يوافق ما نصّ عليه أصحاب المذاهب الثلاثة حيث قال: «وكل من بلغته دعوة الإسلام». وكان مالك يستحب ألا يُقاتل العدو حتى يُدعوا إلى الإسلام، بلغتهم الدعوة أو لم تبلغهم، إلا أن يُعجلوا عن ذلك فيُقاتلوا[(٥)] ويدل عليه حديث بريدة ﷺ: (إذا لقيت عدوك، فادعهم إلى ثلاث خصال... ادعهم إلى الإسلام،

(١) انظر المبسوط (٣٠,٦/١٠) السرخسي، وشرح فتح القدير٥/ ٤٤٤ .
(٢) انظر حواشي تحفة المحتاج على المنهاج (٩/ ٢٤٢).
(٣) انظر المغني ٩/ ٢١٠ لأبن قدامة.
(٤) انظر الشرح الصغير على اقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك ٢/ ٢٧٥ .
(٥) الكافي ٢/ ٤٦٦ لابن عبد البر.

فإن أجابوك، فكفّ عنهم وأقبل منهم. . . »[١] وكذلك أَمَرَ رسول اللّه ﷺ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه عندما أرسله إلى يهود خيبر «وكانوا قد بلغتهم الدعوة» وقال له: «انفذ على رِسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق اللّه تعالى فيه. . . »[٢] وكذلك فعل أصحابه ﷺ: فهذا خالد بن الوليد رضي الله عنه يكتب إلى أهل فارس: «بسم اللّه الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد إلى رستم ومهران من ملأ فارس. سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، ، فإنّا ندعوكم إلى الإسلام،فإن أبيتم فأعطوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، فإن أبيتم فإن معي قوما يحبون القتل في سبيل اللّه، كما يحب فارس الخمر والسلام على من اتبع الهدى»[٣].

أما إذا كانوا قد بلغتهم الدعوة ودلَّت القرائن على أنهم يُبيِّتون للمسلمين شرا، أو يجمعون جموعهم لقتال المسلمين فحينئذ يجب على المسلمين أن يُغيروا عليهم دون إنذار سابق.

وعلى هذا يُحمل إغارة الرسولَ ﷺ على بني المصطلق وهم غارُون - أي غافلون لأنهم كانوا ضمن (الأحابيش) الذين غزوا الرسول ﷺ في غزوة أحد، كما أنهم كانوا يجمعون لقتاله قبل أن يغزوهم[٤].

ثانياً: إعلان الحرب:

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾[٥] [الأنفال: ٥٨].

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ أي غشاً ونقضاً للعهد[٦].

---

(١) رواه مسلم، رقم الحديث ١٧٣١ .
(٢) البخاري رقم ٤٢١٠ ومسلم ٤/ ١٨٧٢ .
(٣) مشكاة المصابيح ٢/ ٣٨٣ .
(٤) زاد المعاد ٢/ ١٢٥ ابن القيم الجوزية.
(٥) النبذ: قال القرطبي هو الرمي والرفض.
(٦) الجامع لأحكام القرآن٨/ ٣٢ للقرطبي.

قال ابن العربي: «فإن قيل: كيف يجوز نَقْضُ العهد مع خوف الخيانة والخوف ظنّ لا يقين معه؟ فكيف يسقط يقين العهد مع ظن الخيانة؟»

فالجواب من وجهين: أ - أن الخوف قد يأتي بمعنى اليقين، كما قد يأتي الرجاء بمعنى العلم قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

ب- وجوب نَبْذِ العهد لئلا يوقع التمادي عليه في الهلكة، وجاز إسقاط اليقين هنا ضرورة، وأما إذا عُلم اليقين فيستغني عن نبذ العهد إليهم، وقد سار النبي ﷺ إلى أهل مكة عام الفتح لما اشتهر منهم نَقْضُ العهد من غير أن ينبذ إليهم عهدهم[(١)]. ولهذا قال: «اللّهمّ اقطع خبرنا عنهم» وغزاهم، وهو أيضاً معنى الآية لأن في قطع العهد منهم ونكثه مع العلم به حصول نقض عهدهم والاستواء معهم فأما مع غير العلم بنقض العهد منهم فلا يحل ولا يجوز. فعن سليم بن عامر رضي الله عنه قال: «كان معاوية يسير في أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد «عهد» فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمر غزاهم».

فإذا شيخ على دابة يقول: «اللّه أكبر ! اللّه أكبر ! وفاء لا غدراً» إن رسول اللّه ﷺ قال: «. . . ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلّن عقدة، ولا يشدها، حتى ينقضي أمرها، أو ينبذ إليهم على سواء، قال فبلغ ذلك معاوية، فرجع، فإذا بالشيخ عمرو ابن عنبسة رضي الله عنه»[(٢)].

ثالثاً: تميّز الصفوف:

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥]، يخبر تعالى أن لولا أن هناك رجال ونساء من المؤمنين والمؤمنات

(١) المصدر السابق.
(٢) رواه أحمد في مسنده وأبو داود الطيالسي وأصحاب السنن وابن حبان، وقال الترمذي حسن صحيح.

بمكة وسط الكفار، كسلمة بن هشام، وعياش ابن أبي ربيعة، وأبي جندل بن سهيل وأشباههم لا يعرفونهم أو لا يعلمون أنهم مؤمنون فتقتلونهم بدون علم، فتصيبكم منهم معرّة وعيب، سواءً من الكفار الذين سيقولون: «قتلوا أهلَ دينهم». أو ما يلزمكم من كفّارة قتل الخطأ. «لولا ما سبق» لأذن اللّه لكم في دخول مكة، ولسلّطكم عليهم، ولكنّا صُنًا مَن كان فيها يكتم إيمانه[1].

وقوله تعالى: ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ﴾ أي تميزوا، وفي الآية دليل على مراعاة الكفار في حرمة المؤمن، هذا إذا كان العدو لم يجبر هؤلاء المسلمين على البقاء عنده كرهائن فكيف لو أجبرهم على البقاء عنده وتتَّرس بهم.

والتترس: هو التستر بالتُّرس، وتترس بالشيء جعله كالتُّرس[2].

والمراد: أن يتخذ العدو طائفةً من الناس بمثابة التُرس يحمي بهم نفسه. ويُسمُّون بالدروع البشرية - يعرف مسبقاً أن خصمه يتردد كثيراً في ضربهم لكي يصل إلى من وراءهم. ففي هذه الحالة هل يُترك قتال هؤلاء الكفار تحت هذه الذريعة؟

اتفق جمهور الفقهاء على وجوب قتال العدو إذا دعت الضرورة[3]

والضرورة يقدرها ولي الأمر، أو نائبه- الذي في ساحة المعركة -إلى ذلك، ولو تأدّى هذا القتال هلاك الدِّرع الذي يحتمى به العدو[4].

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦/ ٢٨٥ .

(٢) انظر مختصر الصحاح ٦٣، والمصباح المنير ٤٣ .

(٣) كأن يهجم العدو على المسلمين. او يكون في حالة التحام مع العدو في القتال. أو أن يترتب على عدم القتال ما يُخشى منه على المسلمين من الإحاطة بهم أو استئصالهم، أو هزيمة تصيبهم أو كثرة في قتلاهم. انظر (الاحكام السلطانية ٤٢للماوردي حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ٢/ ١٧٨ . المغني لابن قدامة ١٠/ ٥٠٥ . فتاوى ابن تيمية ٤/ ٢٥٤ . السيل الجرار للشوكاني ٤/ ٥٣٣).

(٤) فتح القدير ٥/ ٤٤٧ .حاشية الدسوقي ٢/ ١٧٨ . مغني المحتاج ٤/ ٢٢٤ . المغني لابن قدامة ١٠/ ٥٠٥ .

وعليهم أمران:

أولًا: أن يتحاشوا ضرب الدرِّع ما أمكنهم، إلّا إذا حدث هذا الضرب بحكم الخطأ، أو بحكم الاضطرار[١].

ثانياً: عدم وجود القصد القلبي إلى ضرب أفراد الدِّرع، أما إذا كان لا ضرورة تدعو إلى ذلك فإنه لا يجوز رَمْي الكفار. قال ابن قدامة: «وإن تترسوا بمسلم، ولم تدع حاجة إلى رميهم ؛ لكون الحرب غير قائمة، أو لإمكان القدرة عليهم بدونه، أو للأمن من شرهم - لم يجز رميُهم»[٢] وبه قال الشوافع: «وإن تترسوا بمسلمين، ولو واحداً أو ذميِّين، فإن لم تدع الضرورة إلى رميهم تركناهم وجوباً، صيانة للمسلمين وأهل الذمة[٣]، وكذلك القرطبي من المالكية[٤] والحسن بن زياد من الأحناف[٥].

قال أبو زيد قلت لابن القاسم: «أرأيت لو أن قوماً من المشركين في حصن من حصونهم، حصرهم أهلُ الإسلام، وفيهم قوم من المسلمين أسارى في أيديهم، أيُحرق هذا الحصن أم لا؟» قال: «سمعتُ مالكاً، وُسئل عن قوم من المشركين في مراكبهم: أتُرمى مراكبهم بالنار وفيهم الأسارى في مراكبهم؟» قال: فقال مالك: «لا أرى ذلك»، لقوله تعالى لأهل مكة: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

وكذلك لو تترّس كافرٌ بمسلم لم يجز رميه»[٦].

* * *

(١) المهذب للشيرازي (تكملة المجموع ١٩/٢٩٦، مغني المحتاج ٤/ ٢٢٤).
(٢) المغني لابن قدامة ١٠/٥٠٥ .
(٣) مغني المحتاج ٤/ ٢٢٤ والمهذَّب ٢/ ٢٣٤ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦/ ٢٨٨ ,٢٨٧ .
(٥) فتح القدير ٥/٤٤٨ .
(٦) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦/ ٢٨٧-٢٨٦ .

القضية الرابعة بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«وللقتال في الإسلام أهداف عظيمة: فقد شُرع للدفاع عن المؤمنين وتخليص المستضعفين، وتمكين المؤمنين في الأرض حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله للَّه».

الشرح:

والقتال في الإسلام تختلف أهدافه ودوافعه عمّا نراه ونسمعه يدور في العالم فليس قتالًا قومياً، أو اقتصادياً، أو توسعياً، أو طائفياً بل للقتال في الإسلام أسباب وأهداف منها:

أهداف وأسباب القتال في الإسلام:

١ - إخراج الناس من الظلمات إلى النور:

وهذا لا يتأتى إلا بتأمين حرية نشر الدعوة، وكفالة حرية العقيدة، وكسر الحواجز التي تقف حجر عثرة في طريقها فالنبي ﷺ لم يأتي لقريش أو للعرب فقط، بل جاء للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]. فالإسلام «بشهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمداً رسول اللَّه» ليس مجرد مجموعة عقائد، وجملة مناسك وشعائر بين العبد وربه(١)، بل هو نظام كامل وشامل يريد أن يسير بالإنسان في كل جزئية من حياته وفق شرع اللَّه تعالى ولقد فهم المشركون ذلك عندما قال لهم النبي ﷺ: «قولوا كلمة: لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه تدين لكم بها العرب وتخافكم بها العجم»، فقالوا: «لقد أتيتنا بقتال الملوك ولا طاقة لنا بها!» وفهمها ورقة بن نوفل عندما أخبره النبي ﷺ عما رآه في غار حراء، فقال: «ليتني أكون جذعاً إذ يخرجك قومك». فعندما قال له النبي ﷺ أومخرجي هم؟ قال: «نعم ! ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا

(١) كما يُفهم من معنى الدين هذه الأيام، وإلا لما قاتلت قريشٌ النبي ﷺ. . . فقبل النبيَ ﷺ كان بعض العرب من التزم الحنفية وبعضهم من تَنصَّر، كورقة بن نوفل رضي الله عنه فلم يحدث نزاع بينهم وبين أقوامهم.



عُودي»[١] فالنّظم الجائرة الباطلة التي تعتقد أنهم مُلِّكوا رقابَ العباد، فلا يريدون لكلمة التوحيد أن تقرع آذان الناس. وكانوا حاجزاً أن يُخرِج رسول اللّه ﷺ بكلمة التوحيد الناسَ من الظلمات إلى النور.

لقد جاء الإسلام ليقتلع هذه الحواجز، ولهذا أرسل النبي ﷺ الرُسل وبعث الكتب للملوك في عهده في مختلف البقاع، دعاهم فيها لدين الحق والإذعان لأمر اللّه. فالذين آمنوا بهذه الدعوة انضموا إلى هذه الدولة الإسلامية وأصبحوا من أهلها، والذين لم يُلبوا دعوتها ولم يتقبلوها بقبول حسن، شرع في قتالهم وجهادهم وعلى هذا المنهاج الذي انتهجه النبي ﷺ سار مَن جاء بعده من الخلفاء الراشدين والأئمة المهدين: كأبي بكر وعمر وعثمان وتوقفت في عهد عليّ رضي الله عنه لانشغاله بالفتن الداخلية، ثم عادت في عهد الدولة الأموية وما بعدها إلى دولة بني عثمان «الدولة العثمانية».

فهناك إذاً هدف واضح سامٍ سار عليه السّلف فهذا: ربعي بن عامر، وحذيفة بن محصن، والمغيرة بن شعبة « رضي الله عنهم أجمعين» قالوا لرستم قائد جيش الفرس في القادسية، وهو يسألهم واحداً بعد واحد في ثلاثة أيام متوالية قبل المعركة: «ما الذي جاء بكم؟»! فيكون الجواب: «اللّه ابتعثنا، لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحدَه ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

٢- تخليص المستضعفين من قبضة الكفرة وحمايتهم من أن يُفتنوا في دينهم:

قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٧]، لقد حَضَّ اللّهُ تعالى في بداية الآية على الجهاد، وهو يتضمن تخليص المستضعفين من أيدي الكفرة المشركين الذين يسومونهم سوء العذاب، ويفتنونهم في الدين كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]. أي لا يُفتن مسلمٌ عن دينه. فأوجب تعالى الجهاد

---

(١) رواه البخاري.

لإعلاء كلمته، وإظهار دينه، واستنقاذ المؤمنين الضعفاء من عباده، وإن كان في ذلك تَلَفُ النفوس.

وتخليص الأسارى واجب على جماعة المسلمين إما بالقتال وإما بالأموال. قال مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «واجب على الناس أن يفْدوا الأسارى بجميع أموالهم».

وهذا لاخلاف فيه؛ لقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ «فُكوا العاني»[(١)]، يعني الأسير[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ عطف على اسم اللَّه عزَّ وجلَّ، أي وفي سبيل تخليص المستضعفين، فإن خلاص المستضعفين من سبيل اللَّه. ويعني بالمستضعفين مَن كان بمكة من المؤمنين تحت إذلال كفرة قريش وهم المعنيون بقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اللَّهُمَّ أنج الوليد بن الوليد، ومسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين».

وقال ابن عباس: «كنتُ أنا وأمي من المستضعفين».

وقال أيضاً في قوله تعالى: ﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان﴾ فقال: «كنتُ أنا وأمي ممن عذر اللَّه، أنا من الولدان، وأمي من النساء»[(٣)(٤)].

وهذا المعتصم يُسَيِّر الجيوش، لا لإنقاذ شعب، ولا لإنقاذ مقدّسات من يدي إخوان القردة والخنازير، بل لإنقاذ امرأة استنجدت به. وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «يجب جهاد الكفار واستنقاذُ ما بأيديهم من بلاد المسلمين وأسراهم»[(٥)].

---

(١) صحيح البخاري رقم ٣٠٤٦ انظر فتح الباري ٦/ ١٦٧ .

(٢) حتى لو كان الأسير من أهل الذّمة. انظر المغني لابن قدامة ١٠/ ٤٩٧، وحاشية ابن عابدين ٣/ ٣٤٣ وسنن سعيد بن منصور رقم ٢٨٢٢ج٢/ ٢٩١- ٢٩٤ .

(٣) رواه البخاري.

(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي مجلد ٣ج٥/ ٢٨٠ .

(٥) مختصر الفتاوى المصرية ٥١ .



٣ - حماية العهود والمواثيق التي تضمن السلام وحرية الدعوة وكفالة العقيدة والإسلام. وقد أمر اللَّه بالوفاء بالعهود والمحافظة عليها، وحرَّم التلاعب بها أو نقضها أو اتخاذها وسيلة لغدر أو خيانة(١).

قال تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمًا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]. فإذا نقض الكفار عُهودَهم، ونقضوا المواثيق، وخرجوا عن مقتضياتها، وجب قتالهم كما يجب قتالُ كلِّ مَن يفعل ذلك، ويتخذها وسيلة للعبث في الأرض بالفساد(٢).

٤- رد العدوان، وحماية الأوطان من الاعتداء على أعراض المسلمين ومقدساتهم: إن السلام يحتاج إلى قوة تحميه. والإسلام عندما يدعو للسلام، لا يدعو إلى السلام الرخيص المتخاذل، بل يدعو أصحابه إلى رد العدوان والجهاد بكل وسيلةً ويعِدُ من قُتل دونها بالشهادة. قال تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

فقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ﴾ هذه الآية أول آية نزلت في الأمر بالقتال ؛ ولا خلاف في أن القتال كان محظورا قبل الهجرة بقوله: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾وقوله: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ﴾ وقوله: ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ وقوله: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ وما كان مثله مما نزل بمكة. فلما هاجر إلى المدينة أمر بالقتال فنزل: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾، قاله الربيع بن أنس وغيرة. وروي عن أبي بكر الصديق أن أولَّ آية نزلت في القتال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾.

---

(١) كما هو حاصل الآن فيما يسمى بعملية السلام بين العرب وإسرائيل.

(٢) مباديء الإسلام ومنهجه في قضايا السلم والحرب والعلاقات الدولية للدكتور أبو بكر إسماعيل محمد ٨٥ انظر تفسير القرآن العظيم لأبن كثير ٢/ ٤٤٧ .

والأول أكثر، وأن آية الإذن إنما نزلت في القتال عامة لمن قاتل، ولمن لم يقاتل من المشركين؛ وذلك أن النبي ﷺ خرج مع أصحابه إلى مكة للعمرة، فلما نزل الحديبيةَ بُقرب مكة - فصده المشركون عن البيت، وأقام بالحديبية شهراً فصالحوه على أن يرجع من عامه ذلك كما جاء ؛ على أن تُخلى له مكة في العام المستقبل ثلاثة أيام، وصالحوه على ألا يكون بينهم قتال عشر سنين، ورجع إلى المدينة.

فلما كان مِن قابل تجهَّز لعمرة القضاء، وخاف المسلمون غدر الكفار، وكرهوا القتال في الحرم وفي الشهر الحرام، فنزلت هذه الآية أي يحل لكم القتال إن قاتلكم الكفار.

فكان عليه السلام يقاتل مَن قاتله ويكُفّ عمن كُفّ عنه حتى نزل ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فَنَسَخت هذه الآية، فأُمر بالقتال لجميع الكفار ؛ قاله ابن زيد والربيع و جماعة مَن العلماء.

وقال ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومجاهد: هي مُحكَمة ؛ أي قاتلوا الذين هم بحالة من يقاتلونكم، ولا تعتدوا في قتل النساء والصبيان والرهبان وشبههم ؛ واختاره ابن جرير الطبري وابن كثير في تفسيريهما: وهذا اصح القولين في السنة والنظر.

فأما السنة: فحديث ابن عمر أن رسول اللّه ﷺ رأى في بعض مغازيه امرأة مقتولة فكره ذلك، ونهى عن قتل النساء والصبيان، رواه الأئمة.

وأما النظر: فإن «فَاعَل» لا يكون في الغالب إلا من اثنين ؛ كالمقاتلة والمشاتمة والمخاصمة ؛ والقتال لا يكون في النساء ولا الصبيان ومن أشبههم، كالرهبان والزَّمنىَ والشيوخ والأُجراء فلا يُقتلون، وبهذا أوصى أبو بكر الصديق رضي الله عنه يزيدَ بن أبي سفيان حين أرسله إلى الشام ؛ إلا أن يكون لهؤلاء إذاية ؛ أخرجه مالك وغيره.



فتكون مراحل القتال عندهم ثلاثة مراحل:

الأول: مرحلة الحظر عندما كان المسلمون في مكة.

الثاني: مرحلة الإباحة في أول الأمر بالمدينة.

الثالث: مرحلة الفرض المُطلق(١).

ومن أهداف القتال كذلك:

٥- اتخاذ الشهداء:

قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، أي: يكرمكم بالشهادة؛ أي ليُقتل قوم فيكونوا شهداء على الناس بأعمالهم.

وقيل: سُميَّ شهيدا لأنه مشهود له بالجنة. وقيل: سُميَّ شهيد لأن أرواحهم احتضرت دارَ السلام، فهم أحياء عند ربهم، فالشهيد بمعنى الشاهد أي الحاضر للجنة.

والشهادة فضلها عظيم، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠- ١١].

وعن أنس رضي الله عنه قال رسول اللّه ﷺ: «ما أحد يدخل الجنة يُحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء، إلا الشَّهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا، فَيُقْتَلَ عشر مرات؛ لما يرى من الكرامة»(٢).

* * *

(١) انظر (جامع البيان للطبري ٢/ ١٨٩-٢٠٠، أحكام القرآن للقرطبي، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٢٢٦ زاد المعاد لابن القيم ٢/ ٦٥ .

(٢) وفي رواية: (لما يرى من فضل الشهادة) متفق عليه.

تاسعا: الموقف من غير المسلمين

القضية الخامسة بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«نشهد أن: الناس جميعاً لآدم، وآدم مكَّرم عند اللَّه، وهم مخلوقون لعبادته. وعلى الدعاة إلى اللَّه بَذْلُ الوسع لتعريف الناس بمهمتهم التي خلقهم اللَّه من أجلها».

قوله: «الموقف من غير المسلمين»(١)

الشرح: وغير المسلمين فد يكونوا عربا، وقد يكونوا غير عرب، وغير المسلمين قد يكونوا من أهل الكتاب، وقد يكونوا وثنيين ديانةً. ولكل صنف من هذه الأصناف حكمة في الشرع(٢).

قوله: «أن الناس جميعاً لآدم»

ش: أي أن أصلهم جميعاً يعود لآدم أبي البشر عليه السلام، وذلك لنداءات اللَّه الكثيرة للإنسان بنسبته إلى آدم، كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦] وقوله تعالى: ﴿۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

---

(١) ومع الأسف فقد انقسم الناس «خاصة في الوقت الحاضر» حيال هذه المسألة بين إفراط وتفريط.
فالقسم الأول: جعل لغة التفاهم والدعوة بين المسلمين وغيرهم هي لغة الاغتيالات والذبح والتفجير، دون تمييز بين أهل الذمة والعهد والاستئمان وبين المحاربين، فالكل عنده سواء بل الافتئات على ولاة الأمر من الأمراء والعلماء مع مقامه معهم.
القسم الثاني: أهدر قاعدة البراءة من الكفار، بل والاهم ونصرهم وأحبهم، بل وفضلَّهم على كثير من المؤمنين، وتوقف في تكفير(الكفار الأصليين) بل البعض أدخلهم الجنة.
القسم الثالث: وهم الوسط الذين وقفوا حيث وقف رسول اللَّه ﷺ واصحابه.

(٢) كما سيأتي في الفقرة ١٠٨-١٠٩-١١٠» إن شاء اللَّه».



وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

يحذِّر تعالى بني آدم من إبليس وقبيله، مبَّيناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر «آدم عليه السلام»، في سعيه في إخراجه من الجنة التي هي دار النعيم إلى دار التعب والعناء[١] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن اللّه أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان[٢] يوم عرفة، وأخرج مِن صُلْبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذَّر[٣] ثم كلمهم قائلاً: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ﴾»[٤]، وأن الأنبياء جميعهم من ذريته، قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ [مريم: ٥٨] أي أن هؤلاء النبيون - وليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط بل جنس الأنبياء عليهم السلام استطر من ذكر الأشخاص على الجنس[٥]. وقال ﷺ: «الناس ولد آدم، وآدم من تراب»[٦].

قوله: «وآدم مكرَّم عند اللّه».

ش: ومن إكرام اللّه له أن أمر الملائكة بالسجود له قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [البقرة: ٣٤] وهذه كرامة عظيمة من اللّه تعالى لآدم امتن بها على ذريته حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم[٧] والجمهور أن هذا السجود كان

---

(١) تفسير القرآن العظيم.
(٢) نعمان: اسم جبل.
(٣) الذَّر: صغار النمل.
(٤) رواه أحمد والنسائي والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم ١٦٩٧ .
(٥) تفسير القرآن العظيم ابن كثير ٣/ ١٧٢ .
(٦) من حديث أبي هريرة رواه بن سعد، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٦٦٧٤ .
(٧) تفسير القرآن العظيم.



بوضع جباه الملائكة على الأرض، كالسجود المعتاد للصلاة؛ لأنه الظاهر من السجود في العُرف والشرع؛ وعلى هذا قيل: كان ذلك السجود تكريما لآدم وإظهاراً لفضله، وطاعة للّه تعالى، وكان آدم كالقبلة لنا. وذهب أكثر العلماء أن هذا كان جائزاً لقوله تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠] ثم مُنع في شريعتنا لنهيه معاذ بن جبل رضي الله عنه حين سجد له، ولهذا قال إبليس: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: ٦٢][١].

قوله: «وهم مخلوقون لعبادته».

ش: أي أن اللّه لم يوجدهم إلا لعبادته وحدَه لا شريك له، وهذا أول أمر في المصحف الكريم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

فهذا أمر عام لجميع الناس، بأمر عام وهو: العبادة الجامعة لامتثال أمر اللّه؛ واجتناب نواهيه، وتصديق خبره، فَأَمَرَهم تعالى بما خلقهم له، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦- ٥٧].

فهذه الغاية التي خلق اللّه الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه، والإقبال عليه، والإعراض عمّا سواه. وذلك متوقف على معرفة اللّه، بل كلما ازداد العبد معرفة بربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق اللّه المكلَّفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم[٢].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تيسير الكريم الرحمن لابن سعدي رحمه الله ١١٣١ .



قوله: «وعلى الدعاة إلى اللّه بذل الوسع لتعريف الناس بمهمتهم التي خلقهم اللّه من أجلها».

ش: وهذا أول واجب، يجب على الدعاة أن يأمروا الناس به وهو التوحيد وينذرونهم عن ضده وهو الشرك باللّه. ولقد كان هذا هو مبدأ كل الرسل صلوات اللّه عليهم أجمعين.

فهذا نوح عليه السلام يقول لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ لَا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٢-٣]. وقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وعن هود عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وعن صالح عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣]. وعن شعيب عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقال تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ﴾ بالعنكبوت: ١٦].

بل هذه دعوة جميع الأنبياء والرسل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾ [النحل: ٣٦].

ولا شك أن الرسل صلوات اللّه عليهم قد بذلوا ما في وسعهم فلم يدَّخروا جهداً أو وسيلة إلا بذلوها.

فهذا نوح الذي لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى اللّه تعالى فقد دعا قومه ليلًا ونهارا، سرًا وعلانية كل هذا حرص ونصح وإتيانهم بكل طريق يظهر به حصول المقصود.



القضية السادسة بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

« والناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

الشرح:

«والناس» اسم جنس فيشمل المؤمَن والكافر، الذكر والأُنثى.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول اللَّه ﷺ قال: «تجدون الناس معادن[1] خيارُهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فَقُهوا. . .»[2] بضم القاف، ولأبي ذر كسرها، أي في الدِّين ووجه التشبيه اشتمال المعادن على جواهر مختلفة: من نفيس وخسيس وكذلك الناس فمن كان شريفاً في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شرفاً.

وفي قوله: «إذا فقهوا» إشارة إلى أن الشرف الإسلامي لا يتم إلا بالتفقه في الدين وهو عِلمُ الكتاب والسنة وفهمهما، والعمل بموجبهما، وليس الرأي في شيء من العلم بل هو الجهل كله،أعاذنا اللَّه تعالى منه بمَّنه وكَرَمه.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ «في الفتح»: **وعلى هذا فينقسم الناس أربعة أقسام مع ما يقابلها:**

الأول: شريف في الجاهلية، أسلم وتفقّه، ومقابِلُه مشروف في الجاهلية لم يُسلِم ولم يتفقه.

الثاني: شريف في الجاهلية أسلم ولم يتفقّه. ومقابله مشروف في الجاهلية لم يُسلم وتفقّه.

الثالث: شريف في الجاهلية لم يُسلم ولم يتفقّه. ومقابله مشروف في الجاهلية أسلم وتفقّه.

---

(١) وفي رواية (كمعادن الذهب والفضة) زاد الطيالسي (في الخير والشر).
(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم، واللفظ للبخاري.



والرابع: شريف في الجاهلية لم يسلم وتفقّه، ومقابله مشروف في الجاهلية أسلم ولم يتفقّه.

فأَرْفَعُ الأقسام: مَن شُرف في الجاهلية ثم أسلم وتفقه.

ويليه: من كان مشروفاً ثم أسلم وتفقه.

ويليه: من كان شريفاً في الجاهلية ثم أسلم ولم يتفقه.

ويليه: من كان مشروفاً ثم أسلم ولم يتفقه.

وأما من لم يُسلم فلا أعتبار به سواء كان شريفاً أو مشروفاً، وسواء تفقه أو لم يتفقه والله أعلم.

والمراد بالخيار: الشرف وغير ذلك ممن كان متّصفاً بمحاسن الأخلاق كالكرم، والعفة، والحلم، وغيرها، متوقياً لمساويها، كالبخل والعجز والظلم وغيرها(١).

❋ ❋ ❋

(١) عون الباري للعلامة أبي الطيب حسن علي الحسيني القنوجي البخاري المعروف بصديق حسن خان ٤/ ١٨٦- ١٨٧ .

القضية السابعة بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللّه:

«وكل إنسان وُجِد على الأرض منذ بعثه الرسول ﷺ إلى آخر الدنيا هو من أمة محمد ﷺ «أمة الدعوة» ومَن آمن كان من أمة محمد ﷺ «أمة الإجابة»».

الشرح:

وذلك لأن نبينا محمد ﷺ بُعث إلى الناس كافة، وهي من خصوصياته صلوات اللّه وسلامه عليه.

فعن جابر بن عبداللّه رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «أُعطيتُ خمساً لم يُعطَهن أحد من الأنبياء قبلي، . . . .» وكان النبي ﷺ يبُعث إلى قومه خاصة وبُعثتُ إلى الناس عامة(١).

كما قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ويقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهذا خطاب للأحمر والأسود، والعربي والعجمي ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أي جميعكم وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين وأنه مبعوث إلى الناس كافة كما قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ [آل عمران: ٢٠](٢)، والمقصود بأمة الدعوة أي الأمة الداخلة في دعوة وخطاب النبي ﷺ وتأثم لإعراضها عنه، وعدم طاعتها له، كما جاء من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»(٣).

---

(١) متفق عليه.
(٢) تفسير القرآن العظيم لأبن كثير ٢/ ٣٣٩ .
(٣) رواه أحمد ومسلم.

فقوله من هذه الأمة المقصود أمة الدعوة. ولهذا نجد أن النبي ﷺ كَاتَبَ الملوك والأمراء في كل مكان في عهده يدعوهم بها إلى الإسلام، فقد كاتب النجاشي بقوله:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

من محمد رسول اللَّه ﷺ إلى النجاشي عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أحمد اللَّه إليك الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، و أشهد أن عيسى بن مريم روح اللَّه، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونَفْخِه، كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى اللَّه وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وإن تتبعني، وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول اللَّه ﷺ، وأني أدعوك وجنودَك إلى اللَّه عزَّ وجلَّ، وقد بلغت ونصحت فاقبل نصيحتي، السلام على من اتبع الهدى[(١)].

وكتب كذلك إلى «المقوقس»[(٢)] ملك مصر والإسكندرية، وحمله إليه حاطب بن أبي بلتعه رضي الله عنه.

وكتب إلى كِسرى ملك فارس [(٣)] عن طريق عبداللَّه بن حذافه السهمي وكتب إلى هرقل ملك الروم وحملها إليه الصحابي الجليل دحيه الكلبي وجاء فيه:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

من محمد عبداللَّه ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أسلم تسلم، أسلم يؤتك اللَّهُ أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الاريسيين، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ

---

(١) زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٦٠ .
(٢) زاد المعاد لاين القيم ٣/ ٦١ .
(٣) فتح الباري ٨/ ١٢٧ .

بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤][(١)].

وكذلك كتب إلى المنذر بن ساوى حاكم البحرين عن طريق العلاء الحضرمي، [(٢)] وإلى هوذة بن عليّ صاحب اليمامة، [(٣)] وإلى الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق [(٤)] وإلى ملك عُمان جيفر وأخيه عبداللّه ابن الجلندي[(٥)].

وبهذه الكتب كان النبي ﷺ قد أبلغ دعوته إلى أكثر ملوك الأرض في زمانه فمنهم من آمن به ومنهم من كفر، فأقام عليهم النبي ﷺ الحجة وقطع عنهم المحجة فمن آمن من هذه الأمم باللّه ورسوله ﷺ دخل في «أمة الاستجابة» أي الذين استجابوا للّه ولرسوله ودخلوا في هذا الدِّين.

والذين قال النبي ﷺ فيهم: «لا تزال هذه الأمة ظاهرين على من خالفهم»[(٦)] وقوله ﷺ: «.. فأقول: «يا رب أمتي أمتي»...» [(٧)]، وقوله ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة»[(٨)]، وقوله ﷺ «اللّهم اغفر لأمتي..»[(٩)]وقوله ﷺ: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب..»[(١٠)] فمثل هذه الأحاديث يُقصد بها أمة الاستجابة أي الذين آمنوا واستجابوا للرسول ﷺ، سواء منهم الظالم لنفسه المسرِف بالمعاصي، دون الشرك أو المقتصد أو السابق بالخيرات بإذن اللّه، فهؤلاء جميعهم من أمة الاستجابة الداخلين فيها على اختلاف مراتبهم في الدنيا ومنازلهم في الآخرة.

---

(١) صحيح البخاري ١/٤، ٥ .
(٢) زاد المعاد ٣/٦١، ٦٢ .
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق، راجع الرحيق المختوم ٣٥٠ - ٣٦١، للمباركفوري.
(٦) رواه البخاري.
(٧) متفق عليه.
(٨) متفق عليه.
(٩) رواه أحمد ومسلم.
(١٠) أحمد والبخاري ومسلم.

القضية الثامنة بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه الله:

«وكل من سمع برسالة الرسول محمد ﷺ، ولو كان يهوديا أو نصرانيا وقامت عليه الحجّة فلم يؤمن ومات على دينه فهو كافر وهو من أهل النار»

الشرح:

يُشير المُصنِّف إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة[١] يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به إلا كان من أصحاب النار»[٢]. قال الإمام النووي رحمه الله: «ففيه نسخ الملل كلها برسالة نبينا ﷺ»، وفي مفهومه دلالة على أن من لم تبلغه دعوة الإسلام فهو معذور، وهذا جَارٍ على ما تقدم في الأصول أنه لا حكم قبل ورود الشرع على الصحيح «والله أعلم».

وقوله ﷺ لا يسمع بي أحد من هذه الأُمة: أي ممن هو موجود في زمني وبعدى إلى يوم القيامة، فكلهم يجب عليه الدخول في طاعته، وإنما ذكر اليهودي والنصراني تنبيها على من سواهما، وذلك لأن اليهود والنصارى لهم كتاب، فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتاباً فغيرهم ممن لا كتاب له أَوْلى، والله أعلم[٣].

وهناك كثير من الآيات والأحاديث التى تثبت أن الدين الإسلامي هو خاتم الأديان كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وأن نبينا محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين[٤].

---

(١) هذه الأمة: المقصود أمة الدعوة لا أمة الاستجابة.
(٢) رواه أحمد ومسلم ١/ ٩٣ .
(٣) شرح مسلم للنووي ٢/ ١٨٨ .
(٤) راجع الفقرة ٥٢

بل إن عيسى بن مريم عليه السلام إذا نزل في آخر الزمان(١)، لا يحكم إلا بالشريعة الإسلامية، كما جاء من حديث الوليد بن مسلم بن أبي ذئب عن ابن شهاب عن نافع مولى أبي قتادة الأنصاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ «كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم فأمكم منكم»؟ فقلت لابن أبي ذئب: إن الأوزاعي حدثنا عن الزهري عن نافع عن أبي هريرة: «وإمامكم منكم» قال ابن أبي ذئب: «تدري ما أمكم منكم؟» قلت: «تُخبرُني» ! قال: «فأمكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى وسنة نبيكم ﷺ»(٢).

قوله: «وقامت عليه الحجة فلم يؤمن ومات على دينه فهو كافر وهو من أهل النار».

ش: يريد المصنف حفظه الله أي أحكامه في الآخرة بالنسبة لنا، هل نحكم لكافر أصلي معيَّن أنه من أهل النار؟ هذه هي المسألة التى يمكن أن يُتوقف بها.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «لا خلاف في جواز لعن الكفار، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومِن بعده الأئمة يلعنون الكفرة في القنوت وغيره، فأما الكافر المعيَّن، فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يُلعن لأنا لا ندرى بما يختم الله له، واستدل بعضهم بالآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١] وقالت طائفة أخرى بل يجوز لعن الكافر المعين(٣).

أما أحكامه في الدنيا فلا ينبغى التوقف فضلا عن التردد والتشكك كأحكام النكاح، والإرث، والجزية، والغُسل والتكفين، وقبره في مقابر المسلمين والاستغفار له،

(١) راجع الفقرة ٥٩

(٢) رواه مسلم، شرح مسلم ٢/ ١٩٣ للنووي.

(٣) واختاره الفقيه أبو بكر بن العربي المالكي، واستدلوا بالرجل الذي كان يؤتى به إلى النبى ﷺ وقد شرب الخمر فيحده، فقال رجل: لعنه الله: ما أكثر ما يؤتى به. فقال النبى ﷺ «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله ﷺ» فدل على أن من لا يحب الله ورسوله ﷺ يُلعن. والله أعلم «تفسير القرآن العظيم» ١/ ٢٧٤ .



واتخاذه ولياً، فهذا يجب إجراء أحكام الكفر عليه «ما لم يُسلِم» سواء في حياته أو بعد مماته، كيف لا، وقد قال تعالى عنهم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ﴾ [المائدة: ١٧- ٧٢]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] أي طائفة النصارى الذين يقولون بالأقانيم الثلاثة: هو أقنوم الأب، وأقنوم الأم، وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن(١).

أما على وجه العموم فنحن نشهد للكفار الأصليين بما شهد لهم به اللَّه بأنهم في جهنم وأنهم ملعونون كما قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة ١٦١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦].

* * *

(١) كما تقول به الملكية واليعقوبية، والنسطورية من النصارى. تفسير القرآن العظيم ٢/ ١١٢ (بتصرف).

القضية التاسعة بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللّه:

«والمسلمون مأمورون بقتال العرب خاصة حتى يؤمنوا، فإن آمنوا عصموا دماءَهم وأموالهم وحسابهم على اللّه».

الشرح:

والمسلمون مأمورون بقتال العرب خاصة، لأن القرآن نزل بلسانهم، وهم الأقرب من دار الإسلام. فإن أول ما بعث اللّه عزَّ وجلَّ به نبيَّه ﷺ الدعوة إلى اللّه بغير قتال ولا جزية، فأقام على ذلك بضْع عشرة سنة بمكة، ثم أذن له في القتال لما هاجر، من غير فرض له، ثم أمره بقتال مَن قاتله، والكفِّ عمَّن لم يقاتله، ثم لما نزلت (براءة) سنة ثمان، أمره بقتال جميع من لم يُسلِم من العرب: مَن قاتله، أو كفَّ عن قتاله إلا من عاهده، ولم ينْقُصْهُ من عهده شيئاً، فأمره أن يفي له بعهده، ولم يأمره بأخذ الجزية من المشركين، وحارب اليهود مراراً، ولم يُؤمر بأخذ الجزية منهم(١).

ولكن يَرِدُ سؤال: هل تؤخذ الجزية(٢) من العربي إن أبى الإسلام؟

إن الأصل في هذه المسألة قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

أقوال العلماء فيمن تؤخذ منه الجزية:

القول الأول: لا تُقبل الجزية إلا من أهل الكتاب خاصة.

أو شِبْه كتاب عرباً كانوا أو عجماً للآية السابقة، فإنهم هم الذين خُصّوا بالذكر فتوجه

---

(١) زاد المعاد ٥/ ٩٠ لابن القيّم.

(٢) الجزية: مشتقة من الجزاء، وهي مبلغ من المال يوضع على مَن دخل في ذمة المسلمين وعهدهم من أهل الكتاب وتسميتها بذلك للإجزاء بها في حقن دمهم. (انظر المفردات للراغب ٩٣ وفقه السنة للسيد سابق رَحِمَهُ اللَّهُ ٢/ ٦٦٦).



الحُكْمُ إليهم دون من سواهم لقوله عزوجل: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، ولم يقل عام في كل مشرك حتى يعطوا الجزية، كما قال في أهل الكتاب، وهذا قول الشافعي وأحمد[١] وأبو ثور، وهو مذهب الثوري وأبو حنيفة وأصحابه[٢] وقال أبو بكر: «فَأَخْذُ الجزية يجب من عرب أهل الكتاب وعجمهم لدخولهم في الآية»[٣]، وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن أَخْذَ الجزية من أهل الكتاب، وحلّ ذبائحهم ومناكحتهم مرتب على أديانهم لا أنسابهم»[٤].

وقال ابن المنذر[٥]: «لا أعلم خلافاً أن الجزية تؤخذ منهم «المجوس» لقوله ﷺ عنهم: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب»[٦] وفي هذا دليل على أنهم ليسوا أهل كتاب. وعلى هذا جمهور الفقهاء[٧]. خاصة وأن الرسول ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر[٨] ومن أهل نجران، وهم من بني الحارث بن كعب، قال الزهري: «أول من أعطى الجزية أهل نجران وكانوا نصارى»[٩]، ومن أهل أيلة.

فأما سائر المشركين سوى اليهود والنصارى، والمجوس، ومن عبدة النيران

---

(١) الإنصاف ٢/ ٢٩٢ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٨/ ١١٠ للقرطبي وانظر المجموع ١٨/ ٢١٤ للنووي.
(٣) (الإقناع ٢/ ٤٧٠-٤٧١) للإمام الحافظ أبي بكر محمد بن إبراهيم ابن المنذر.
(٤) أحكام أهل الذمة ١/ ٦٦ لابن القيم.
(٥) المصدر السابق.
(٦) ما روا الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ذكر أمر المجوس فقال: «ما أدري كيف أصنع في أمرهم؟ فقال عبد الرحمن بن عوف: «أشهدُ لسمعتُ رسول اللّه ﷺ يقول: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب «باب جزية أهل الكتاب ١/ ٢٨٧، والشافعي في مسنده في الجزية ٢٠٩ وأحمد ١/ ١٩٠ ،١٩١ ،١٩٤ والبخاري في أول كتاب الجزية والموادعة ٤/ ٦٢».
(٧) أبو حنيفة ومالك وأحمد (الإنصاف ٢/ ٢٩٢).
(٨) هجْر: إقليم بين البصرة وعُمان (المنطة الشرقية بالمملكة العربية السعودية) . والحديث رواه البخاري في ٥٨ كتاب الجزية: باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة ورواه أبو داود/ ١٩ كتاب الخراج، والترمذي ١١٩ السيرة والشافعي رقم ١١٨٤ .
(٩) أحكام أهل الذمة ١/ ٧٩ .

والأوثان، والهند، وسائر أهل الشرك فلا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل. وأما نصارى بني تغلب فقد جاءت الأخبار عن عمر بأنه أضعف عليهم الصدقة، وتركهم لما خُوّف من أمرهم، لما قطعوا الفرات، فصالحهم، واشترط عليهم فيما صالحهم عليه: «أن لا يُنصِّروا أبناءَهم». فقد قيل: إنهم نقضوا الصلح[1] فقال قائل: «يجب قتالهم كما يجب قتال سائر أهل الأوثان، واحتج بأن علياً كان يكره ذبائح نصارى بني تغلب، ويقول إنهم لا يتمسكون من النصرانية إلا بشرب الخمر»[2].

القول الثاني: الجزية تُؤخذ من كل عابد وثن أو نار أو جاحد أو مكذِّب إلا المرتد:

ومن جميع أجناس الشرك عربياً أو عجميا تغلبياً[3] أو قرشياً، كائناً من كان، إلا المرتد وهذا قول الأوزاعي ومذهب مالك [4].

ويرى ابن قدامه في المغنى «مذهب الحنابلة» أن نصارى بني تغلب وهم من العرب

---

(١) روى البيهقي في الجزية باب نصارى بني تغلب تضعف عليهم الصدقة ٩/ ٢١٦، فعن داود بن كردوس عن عبادة بن النعمان التغلبي أنه قال لعمر: «يا أمير المؤمنين إن بني تغلب مَن قد علمت شوكتهم، وإنهم بإزاء العدو، فإنظاهروا عليك العدو اشتدت مؤنتهم، فإن رأيت أن تعطيهم شيئاً فافعل، قال: فصالحهم على أن لا يغمسوا أحداً من أولادهم في النصرانية، وتضاعف عليهم الصدقة، قال: وكان عبادة يقول: قد فعلوا ولا عهد لهم.
وروى أبو عبيد في سنن الفيء والخمس والصدقة باب أخذ الجزية من عرب أهل الكتاب».

(٢) روى البيهقي في الجزية باب الضيافة في الصلح ٩/ ١٩٦ انظر كتاب الأخبار ٢/ ٦٧٠، وهذا القول الذي تطمئن إليه النفس.

(٣) تغلبياً نسباً إلى بني تغلب بن وائل من العرب من ولد ربيعة بن نزار انتقلوا في الجاهلية إلى النصرانية فدعاهم
عمر ﷺ إلى بذل الجزية فأبوا وأنفوا، وقالوا: نحن عرب خذ منا كما يأخذ بعضكم من بعض باسم
الصدقة، وقد روي عن عمر ﷺ أنه قال: هؤلاء حمقى رضوا بالمعنى وأَبَوا الاسم. (المغني والشرح الكبير (١٠/ ٥٩٢) وذهب الشافعي أن مصرفه مصرف الجزية وأيّد صاحب المعني (المغني ١٠/ ٥٩٢).

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٨/ ١١٠ للقرطبي وزاد المعاد ٥/ ٩١ .



لا تؤخذ منهم الجزية ولكن تؤخذ منهم الزكاة من أموالهم ومواشيهم وثمرهم مثلي ما يؤخذ من المسلمين [١]، من ذكر وأنثى، وصغير وكبير، وزَمِن «مريض» وصحيح وأعمى وبصير: هذا قول أهل الحجاز، وأهل العراق، وفقهاء الحديث: منهم الإمام أحمد وأبو عبيد [٢] فأخذ منهم عمر رضي الله عنه من الإبل من كل خمس شاتين ومن كل ثلاثين بقرة تبيعين، ومن كل عشرين دينار ديناراً، ومن كل مائتي درهم عشرة دراهم، وفيما سقت السماء الخُمس، وفيما سقي بنضح أو عزب أو دولاب العُشر، فاستقرّ ذلك من قول عمر، ولم يخالفه أحد من الصحابة فكان إجماعاً وقال به العلماء بعد الصحابة منهم ابن أبي ليلى والحسن بن صالح وأبو حنيفة وأبو يوسف والشافعي [٣].

ويروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه أبى على نصارى بني تغلب إلا الجزية، وقال لا واللّه، إلا الجزية وإلا فقد آذنتكم بالحرب، وحجته عموم الآية فيهم. وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «لئن تفرغت لبني تغلب ليكونن لي فيهم رأي، لأقتلنّ مقاتلتهم، ولأسبينّ ذراريهم، فقد نقضوا العهد، وبرئت منهم الذمة حين نصَّروا أولادهم».

وذلك أن عمر رضي الله عنه صالحهم على أن لا يُنصِّروا أولادَهم، وقال ابن قدامة [٤] والعمل على الأول «جواز أخذ الجزية منهم». ويُلحق بهم كما قال القاضي وأبو الخطاب: «من تنصَّر من تنوخ وبهرا، ومن تهَوَّد من كنانة، وحِمير ومن تمجَّس من تميم وحُكم بني تغلب سواء، ونهى عن ذلك الإمام الشافعي».

---

(١) المغني والشرح الكبير ١٠/ ٥٩٠ لابن قدامة المقدسي.
(٢) أحكام أهل الذمة ١/ ٧٥ لابن القيم.
(٣) وهذا مذهب الحنابلة: في أن الصدقة تؤخذ مضاعفة من مال من تؤخذ منه الزكاة لو كان مسلماً (المغني ١٠/ ٥٩١) لابن قدامة.
(٤) المغني والشرح الكبير ١٠/ ٥٩١ .

وأنكره ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ وقال: «هذا مخالف لنص أحمد ولعموم الأدلة فلا يلتفت إليه». وإنما ذلك قياساً على نصارى بن تغلب لظنهما «القاضي وأبو الخطاب» أن ذلك لكونهم عرباً[1].

طبعاً، هذا إذا أرادوا هم ذلك، وإلا إذا بذلوا هم الجزية فإنها تقبل منهم، نص عليه أحمد رواه عن الزهري[2]، وذلك لعموم قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] وأن النبي ﷺ بعث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى اليمن فقال له: «خذ من كل حالم ديناراً»[3] وهم عرب.

وقَبِل الجزية من أهل نجران وكانوا نصارى، وأخذ الجزية من «اكيدردومة» وهو عربي، ولأن حكم الجزية ثابت بالكتاب والسنة في كل كتابي، عربياً كان أو غير عربي، إلا ما خُص به بنو تغلب لمصالحة عمر لهم.

ولا يصلح قياس غير بني تغلب عليهم لوجوه:

١- أن قياس سائر العرب عليهم يخالف النصوص.

٢- أن العلة في بني تغلب الصلح، ولم يوجد الصلح مع غيرهم، ولا يصح مع تخلف العلة.

٣- أن بني تغلب كانوا ذوي قوة وشوكة، لحقوا بالروم، وخيف منهم الضررُ إن لم يُصالحوا، ولم يوجد هذا في غيرهم، فإن وُجد هذا في غيرهم، ورأى الإمام مصالحتهم على أداء الجزية باسم الصدقة جاز له ذلك[4].

---

(١) أحكام أهل الذمة ١/ ٧٩ .
(٢) المصدر السابق ١٠/ ٥٩٣ .
(٣) رواه الشافعي في مسنده (إرواء الغليل ج ٥ رقم الحديث ١٢٥٤) والحالم: البالغ.
(٤) المغني والشرح الكبير ١٠/ ٥٩٤ .

القول الثالث: الجزية تُؤخذ من مجوس العرب والأُمم كلها.

ولا تؤخذ من عبدة الأوثان من العرب لأن اللّه لم يستنّ فيهم جزية، ولا يبقي على الأرض منهم أحد، وإنما لهم القتال أو الإسلام، وذهب إلى هذا القول ابن القاسم[١]، وأشهب[٢] وسُحنون[٣][٤].

وقد ردّ الإمام ابن القيم هذا بقوله: «إنما أَخَذَها ﷺ من عبدة الأوثان من العرب، لأنهم أسلموا كلهم قبل نزول آية الجزية، فإنها نزلت بعد (تبوك)، وكان رسول اللّه ﷺ قد فرغ من قتال العرب، واستوثقت كُلُّها له بالإسلام، ولهذا لم يأخذها من اليهود الذين حاربوه، لأنها لم تكن نزلت بعد، فلما نزلت أخذها من نصارى العرب، ومن المجوس، ولو بقي حينئذ أحدٌ من عبدة الأوثان بَذَلَها لَقِبلَها منه، كما قَبِلها من عبدة الصلبان والنيران، ولا فرق ولا تأثير لتغليظِ كفر بعض الطوائف على بعض، ثم إن كُفر عبدة الأوثان ليس أغلظ، من كفر المجوس، وأيُّ فرق بين عبدة الأوثان والنيران، بل كفرُ المجوس أغلظ وعبّادُ الأوثان كانوا يُقرون بتوحيد الربوبية، وأنه لا خالق إلا اللّه، وأنهم إنما يعبدون آلهتهم لِتقربهم إلى اللّه سبحانه وتعالى، ولم يكونوا يُقِرُّون بصانِعَيْن للعالم، أحدهما: خالق للخير، والآخر للشر،

---

(١) هو عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العُتقي المصري، أبو عبد اللّه، ويعرف بابن القاسم: فقيه، جمع بين الزهد والعلم. تفقه على مذهب الإمام مالك ونظرائه. مولده ووفاته في مصر (١٣٢ - ١٩١هـ =٧٥٠- ٨٠٦ م). له «المدونة - ط» ستة عشر جزءاً، وهي من أجلّ كتب المالكية، رواها عن الإمام مالك (الإعلام لخير الدين الزركلي (٣/ ٣٢٢).

(٢) أشهب بن عبد العزيز بن داود القيسي الفقيه المصري قيل أن اسمه مسكين وأشهب لقب، قال ابن عبد البر: كان فقيهاً حسن الرأي والنظر. ولد سنة ١٤٥ هـ ومات يوم السبت ٢٢/ من شعبان ٢٠٤هـ.

(٣) هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي (١٦٠-٢٤٠هـ/ ٧٧٧-٨٥٤ م)، قاضٍ وفقيه، انتهت إليه رياسة العلم في المغرب، أصله شامي من حمص، وُلد في القيروان. كانَ زاهداً لا يهاب سلطاناً في حق بقوله روى «المدونة -ط» في فروع المالكية عن عبد الرحمن بن قاسم عن الإمام مالك (الأعلام ٤/ ٥ خير الدين الزركلي)

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٨/ ١١٠ للقرطبي .

كما تقوله المجوس، ولم يكونوا يستحلون نكاح الأمهات والبنات والأخوات، وكانوا على بقايا من دين إبراهيم صلوات اللَّه وسلامه عليه.

وأما المجوس، فلم يكونوا على كتاب أصلًا، ولا دانوا بدين أحد من الأنبياء لا في عقائدهم، ولا في شرائعهم، والأثر الذي فيه أنه كان لهم كتاب فَرُفِعَ، ورُفِعَت شريعُتهم لما وقع مَلِكُهم على ابنته، لا يَصِحُّ البتّة، ولو صحَّ لم يكونوا بذلك من أهل الكتاب، فإن كتابهم رُفِعَ، وشريعتهم بَطلت، فلم يبقوا على شيء منها[(١)].

القول الرابع: لا تُقبل الجزية من مجوس العرب:

وتُقبل من غيرهم لأنه ليس في العرب مجوسي، فجميعهم أسلم، فمن وُجِد منهم بخلاف الإسلام فهو مرتدّ، يُقتل بكل حال إن لم يُسلم، ولا تُقبل منهم جزية. وذهب إلى هذا القول ابن وهب[(٢)].

القول الخامس: الجزية تُقبل مِن كل مَن دان بغير الإسلام:

إلا ما أجمع عليه من كفار قريش، وذُكِر في تعليل ذلك أنه إكرام لهم عن الذلة والصغار، لمكانهم من رسول اللَّه ﷺ. وقيل: لأن جميعهم أسلم يوم فتح مكة. وذهب إلى هذا القول ابن الجهم[(٣)(٤)]، والإمام مالك[(٥)].

قال الإمام ابن القيم راداً هذا القول:

«وهذا لا معنى له، فإن قريشاً لم يبق فيهم كافر يُحتاج إلى قتاله وَأَخْذ الجزية منه البته، وقد كتب النبي ﷺ إلى أهل نجران، وإلى المنذر بن ساوى، وإلى ملوك الطوائف

---

(١) زاد المعاد ٥/ ٩١-٩٢ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٨/ ١١١ للقرطبي.
(٣) ابن الجهم.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٨/ ١١١ للقرطبي.
(٥) الإنصاف ٢/ ٢٩٢ .



يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية، ولم يفرق بين عربي وغيره»[(١)].

القول السادس: لا تقبل الجزية فيمن لا كتاب له ولا شبهة كتاب كعبدة الأوثان من العرب، أما العجم فتقبل منهم الجزية[(٢)].

* * *

(١) زاد المعاد ٥/ ٩٢.

(٢) الإنصاف ٢/ ٢٩٢.



القضية العاشرة بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«وغير العرب من النصارى واليهود والمجوس وغيرهم يقاتَلون حتى يؤُمنوا أو يدفعوا الجزية وهم صاغرون».

الشرح:

بعد أن ذكر المصنف حُكْمَ قتال العرب خاصة حتى يؤمنوا، وحكمَ الجزية في حقهم، بيَّن حَكْمَ قتال النصارى واليهود، والمجوس وغايته.؟

ومعلوم أن الأصل في هذا قوله تعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

فالجزية: هي الخراج المضروب على رؤوس الكفار إذلالا وصغاراً.

والمعنى: حتى يُعطوا الخراج على رقابهم.

واختُلف في اشتقاقها، فقال القاضي في «الأحكام السلطانية»: اسمها مشتق من الجزاء إما جزاء على كفرهم لأخذها منهم صغاراً، أو جزاءً على أماننا لهم، لأخذها منهم رفقاً.

قال صاحب «المغنى»(١): هي مشتقة من جزاه بمعنى قضاه»، لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨] فتكون الجزية مثل الفدية.

قال شيخنا ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والأول أصح»، وهذا يرجع إلى أنها عقوبة أو أجرة(٢)، فالآية الكريمة (نزلت) أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين، ودخل الناس في دين اللَّه أفواجاً، فلما استقامت جزيرة العرب، أمر اللَّهُ

---

(١) المغنى لابن قدامة، وعلى هامشه الشرح الكبير.
(٢) أحكام أهل الذمة ١/ ٣٤ ابن القيم.

رسولَه ﷺ بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى، وكان ذلك في سنة تسع، ولهذا تجهّز رسول اللَّه ﷺ لقتال الروم، ودعا الناسَ إلى ذلك، وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم فأوْعبوا معه، واجتمع مِن المقاتلة نحو ثلاثين ألفا، وتخلّف بعض الناس من أهل المدينة ومَن حولها من المنافقين وغيرهم، وكان ذلك في عام جدب،ووقت قيظ وحر، وخرج رسول اللَّه ﷺ يريد الشام لقتال الروم فبلغ تبوك، فنزل بها وأقام «على مائها» قريباً من عشرين يوماً، ثم استخار اللَّه في الرجوع، فرجع عامة ذلك لضيق الحال وضعف الناس.

وقد استدل بهذه الآية الكريمة مَن يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب أو من أشبههم كالمجوس (لِما) صح فيهم حديث رسول اللَّه ﷺ أخذها من مجوس هِجَر، وهذا مذهب الشافعي وأحمد في المشهور عنه[(١)]، وبه قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)].

وقال أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ بل تؤخذ من جميع الأعاجم سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب.

وقال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بل يجوز أن تُضرب الجزية على جميع الكفار من كتابي ومجوسي ووثني وغير ذلك[(٣)].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ﴾ أي إن لم يُسلموا وقوله: ﴿عَن يَدٍ﴾ أي: عن قهر لهم وغلبة ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي: ذليلون حقيرون مهانون، فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذِّمة، ولا رفعهم على المسلمين بل هم أذلاء صغرة أشقياء، كما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه»[(٤)].

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١٣٢ .
(٢) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٣٥٥ .
(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ١٣٢ .
(٤) رواه مسلم.

ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ تلك الشروطَ المعروفة لإذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ من رواية عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال: «كتبتُ لعمر بن الخطاب ﷺ حين صالح نصارى من أهل الشام:

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا كتاب لعبد الله عُمرَ أميرِ المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذَا إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا، وشرطنا لكم على أنفسنا:

أن لا نُحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خرب منها، ولا نحي منها ما كان خططاً للمسلمين، وألا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، وأن نُنزِّل مَن مرّ بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم، ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً، ولا نكتم غشاً للمسلمين، ولا نُعلِّم أولادنا القرآن، ولا نظهر شِركاً ولا ندعو إليه، ولا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه، وأن نوقر المسلمين، وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس.

ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم في قلنسوة ولا عِمامة ولا نعلين ولا فرق شعر، ولا نتكلّم بكلامهم ولا نكتني بِكناهم ولا نركب السروج، ولا نتقلّد السيوف، ولا نتخذ شيئاً من السلاح، ولا نحمله معنا، ولا ننقش خواتيمنا بالعربية، ولا نبيع الخمور، وأن نجز مقاديم رؤوسنا، وأن نلزم زِيَّنا حيثما كنا، وأن نشد الزنانير على أوساطنا.

وأن لا نُظهر الصّليب على كنائسنا، وأن لا نُظهر صلبنا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً، وأن لا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين، ولا نخرج «شعانين» ولا باعوثاً ولا نرفع أصواتنا في موتانا ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه



سهام المسلمين وأن نرشد ولا نطلع عليهم في منازلهم».

قال فلما أتيت عمر وقبلنا بالكتاب زاد فيه: ولا نضرب أحداً من المسلمين.

شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملّتنا، وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم ووظفنا على أنفسنا فلا ذمة لنا، وقد حلّ لكم مِنّا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق»[1].

من أحكام الجزية[2]:

الأولى:

لم يذكر اللّه سبحانه وتعالى في كتابه مقدار للجزية المأخوذة منهم.

وقد اختلف العلماء في مقدار الجزية المأخوذة منه ؛ فقال عطاء بن أبي رباح: «لا توقيت فيها، وإنما هو ما صُولحُوا عليه.

وكذلك قال يحي بن آدم وأبو عبيد والطبريّ، إلا أن الطبري قال: «أقّله ديناراً وأكثره لا حدّ له». واحتجوا به بحديث عمرو بن عوف: «أن رسول اللّه ﷺ صالح أهل البحرين على الجزية»[3].

وقال الشافعي: «دينار على الغني والفقير من الأحرار البالغين لا يُنقص منه شيء، واحتج به بحديث معاذ: «أن رسول اللّه ﷺ بعثه إلى اليمن، وأمره أن يأخذ من كل حالم دينارا في الجزية»[4].

وقال الشافعي: «وهو المبيِّن عن اللّه تعالى مراده». وهو قول أبي ثور. قال الشافعي: «وإن صُولحوا على أكثر من دينار جاز وإن زادوا وطابت بذلك أنفسهم قُبِل منهم».

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/١٢٨٦ طبعة دار السلام، مشروع مكتبة طالب العلم لجمعية إحياء التراث الإسلامي، وراجع أحكام أهل الذمة للإمام ابن القيم رحمه الله.

(٢) انظر تفسير القرطبي ٨/١١١ - ١١٥ .

(٣) رواه ابن ماجة في سننه ج ٢ ص ١٣٢٤، وصححه الألباني.

(٤) سنن النسائي ج٧ ص١٠٥، وصححه الألباني.

الثانية:

إذا أدّى أهل الجزية جِزْيَتَهم التي ضُربت عليهم، أو صُولحوا عليها، خُلِّي بينهم وبين أموالهم كلها، وبين كرومهم وعصرها، ما ستروا خمورهم، ولم يُعلنوا بَيْعَها من مسلم، ومُنعوا من إظهار الخمر والخنزير في أسواق المسلمين؛ فإن أظهروا شيئا من ذلك أريقت الخمر عليهم، وأُدّب من أظهر الخنزير. وإن أراقها مسلم من غير إظهارها فقد تعدّى، ويجب عليه الضمان.

وقيل لا يجب، ولو غصبها وجب عليه ردّها، ولا يُعترض لهم في أحكامهم ولا متاجرتهم فيما بينهم بالربا. فإن تحاكموا إلينا فالحاكم مخيّر، إن شاء حكم بينهم بما أنزل اللّه، وإن شاء أعرض. وقيل: يحكم بينهم في المظالم على كل حال، ويؤخذ من قويهم لضعيفهم؛ لأنه من باب الدفع عنهم. وعلى الإمام أن يقاتل عنهم عدّوهم ويستعين بهم في قتالهم ولا حَظَّ لهم في الفْيء، وما صُولحوا عليه من الكنائس لم يزيدوا عليها، ولم يمنعوا من إصلاح ماوَهَى منها ولا سبيل لهم إلى إحداث غيرها. ويأخذون من اللباس والهيئة بما يبينون به من المسلمين، ويُمنعون من التشبه بأهل الإسلام. ولا بأس باشتراء أولاد العدوّ منهم إذا لم تكن لهم ذِمّة. ومن لَدّ في أداء جزيته أُدِّب على لَدَده[1]، وأُخذت منه صاغرا.

الثالثة:

لو عاهد الإمامُ أهلَ بلد أو حصن ثم نقضوا عهدهم، وامتنعوا من أداء ما يلزمهم من الجزية وغيرها، وامتنعوا من حكم الإسلام من غير أن يظلموا، وكان الإمام غير جائر عليهم، وجب على المسلمين غَزْوُهم وقتالهم مع إمامهم، فإن قاتلوا وغُلبوا حُكم فيهم بالحكم في دار الحرب سواء.

وقد قيل: «هم ونساؤهم فَيء ولا خُمس فيهم» وهو مذهب مالك رَحِمَهُ اللَّهُ.

---

(١) اللدد: الخصومة الشديدة.



الرابعة:

فإن خرجوا متلصّصين قاطعين الطريق، فهم بمنزلة المحاربين المسلمين إذا لم يمنعوا الجزية. ولو خرجوا متظلّمين، نُظر في أمرهم ورُدُّوا إلى الذمة، وأُنْصفوا من ظالمهم، ولا يُسترق منهم أحد وهم أحرار.

فإن نقض بعضهم دون بعض فمن لم ينقض على عهد هولا يؤخذ بنقض غيره، وتُعرف إقامتهم على العهد بإنكارهم على الناقضين.

الخامسة:

قوله تعالى: ﴿عَن يَدٍ﴾ قال ابن عباس: «يدفعها بنفسه غير مستنيب فيه أحد. روى أبو البختري عن سلمان قال: «مذمومين». وروى معمر عن قتادة قال: «عن قهر». وقيل: ﴿عَن يَدٍ﴾ عن إنعام منكم عليهم؛ لأنهم إذا أخذت منهم الجزية فقد أُنعم عليهم بذلك.

وقال عكرمة: «يدفعها وهو قائم والآخذ جالس». وقاله سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وقال ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا ليس من قوله: ﴿عَن يَدٍ﴾ وإنما هو من قوله: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾.

* * *

القضية: الحادية عشر بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللّه:

«والمصالحة والمهادنة «الهدنة» والموادعة والمحالفة كل ذلك جائز بين المسلمين وبين الكفار إلى آخر الدنيا، وعلى المسلمين اختيار ما ينفعهم، ويقوّيهم، ويعصم دماءهم وأموالهم».

قوله: «والمصالحة والمهادنة «الهدنة» والموادعة، والمحالفة»

الشرح:

وقبل أن نتكلم في حكم الإسلام في كل منها، أحببت أن نعلم مدلولاتها اللغوية:

المصالحة: «وأصلها من صلح، والصَّلاح ضد الفساد، والصُّلح يختص بإزالة النفار بين الناس، يقال منه اصطلحوا وتصالحوا»(١)، والصلح أقسام: منها تصالح المسلم مع الكافر(٢).

المهادنة (الهدنة): الصلح، والموادعة بين المسلمين والكفار، وبين كل متحاربين، ويقال: هادنه، مهادنة: صالحه، والاسم منها: الهدنة(٣).

الموادعة: وأصله من وَدَعَ، يقال ودع الشئ يَدعُه، وَدْعاً، إذا تركه، ومن حديث طَهفة «لكم يا بنى نَهدٍ ودائع الشِّرك» أي العهود والمواثيق، يقال توادع الفريقان، إذا أعطى كلٌ واحد منهما الآخر عهدا ألا يغزوه، واسم ذلك العهد: «الوديع»، ومنه الحديث «أنه وادع بنى فلان» أي صالحهم وسالمهم على ترك الحرب والأذى، وحقيقة الموادعة: المتاركة، أي يدع كلُ واحد منها ما هو فيه(٤).

المُحالفة: وأصلها من الحلف: وهو المعاقدة والمعاهدة على التَّعاضدُ والتساعد

---

(١) المفردات ٢٨٤.
(٢) فتح الباري ٥/٢٩٨.
(٣) النهاية لابن الأثير ٥/٢٥٢.
(٤) النهاية ٥/١٦٦ - ١٦٧ باختصار.

والاتفاق[١]، وقيل هو العهد بين القوم والمحالفة والمعاهدة، وجُعلت للملازمة التى تكون بمعاهدة، وجمعها «أحلاف»[٢]، وهناك بعض الكلمات قريبة مما سبق، نورد معانيها اللغوية لاحتياجنا إليها في هذا البحث وهي:

أ - **العقد**: وهو الجمع بين أطراف الشئ، ويُستعمل ذلك في الأجسام الصلبة كعقد الحبل، وعقد البناء، ثم يُستعار ذلك للمعاني نحو عقد البيع والعهد وغيرهما، فيقال: عاقدته، وعقدته، وتعاقدنا[٣]، والمعاقدة: المعاهدة، والميثاق[٤].

ب - **العهد**: وهو حفظ الشئ ومراعاته حالًا بعد حالا.

والمعاهد في عُرف الشرع: يختص بمن يدخل من الكفار في عهد المسلمين[٥] وقيل: المعاهد من كان بينك وبينه عهد، وأكثر ما يُطلق في الحديث على أهل الذِّمة، وقد يُطلق على غيرهم من الكفَّار إذا صولحوا على ترك الحرب مُدّة ما.

وقد تكرر ذلك (العَهْد) في الحديث، ويكون بمعنى اليمين، والأمان والذِّمة، والحفاظ، ورعاية الحُرمَة، والوصية، ولا تخرج الأحاديث الواردة فيه من هذه المعاني[٦].

جـ - **الأمان**: من الأمن، وأصلها طمأنينة النفس وزوال الخوف، يقال أمّنته: أي: جعلت له الأمن[٧].

د - **السِّلم**: يروى بكسر السين وفتحها، وهي لُغتان في الصلح وفيه «أسلمُ[٨]

---

(١) النهاية ١/ ٤٢٤.
(٢) المفردات ١٢٩.
(٣) المفردات ٣٤١.
(٤) النهاية ٣/ ٢٧٠.
(٥) المفردات ٣٥٠.
(٦) النهاية ٣/ ٣٢٥.
(٧) المفردات ٢٦.
(٨) أسلم: اسم قبيلة.

سالمها اللَّه» هو من المسالمة وترك الحرب[١]، والسلم من السلامة وهو التَّعرِّي من الآفات الظاهرة والباطنة، والسلامُ والسلْمُ، والسلْمُ: الصلح، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٣]. وقد نزلت فيمن قُتِل، بعد إقراره بالإسلام ومطالبته بالصلح[٢]، وقال أبو عبيد: السِلم والسَلم واحد وهو الصلح، وقال أبو عمر «والسَلم بالفتح الصلح، والسِلم بالكسر الإسلام»[٣].

هـ - **الميثاق**: العهد، والجمع: المواثيق، والمواثقة: المعاهدة[٤] ونجد أن جميع هذه الأسماء متشابه، وتدل على مسمى واحد، وإن اختلف البعض منها «كالأمان» في بعض الأحكام.

الأمر والترغيب بالوفاء بالعهد:

القرآن:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الرعد: ٢٠- ٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البرة: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، مَن هم، وما هي صفاتهم لتنشد هذا الفلاح وتطلبه ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ وما هو جزاؤهم، وماذا أعد

---

(١) النهاية ٢/ ٣٩٤ .
(٢) المفردات ٢٣٩ - ٢٤٠ .
(٣) فتح الباري ٦/ ٢٧٥ - ٢٧٦ .
(٤) الصحاح مادة (وثق) ٤/ ١٥٦٣، لسان العرب مادة وثق ١٠/ ٣٧١، وتهذيب اللغة مادة (وثق) ٩/ ٢٦٦ .

اللّه لهم﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١- ٨- ١٠- ١١][(١)].

السنة:

١- قال رسول اللّه ﷺ «فُوا لَهُم، ونستعين اللّه عليهم»[(٢)]، أي أتموا عهدكم للمشركين الذين عاهدتموهم، وذلك أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «ما منعني أن أشهد بدراً إلا أن خرجت أنا وأبي «حُسيل». قال: فأخذنا كفار قريش قالوا: إنكم تريدون محمداً؟ فقلنا: ما نريده، ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منا عهد اللّه وميثاقَه لننصر مَن في المدينة، ولا نقاتل معه، فأتينا رسول اللّه ﷺ فأخبرناه الخبر، فقال: انصرِفا ! نَفِي لهم بعهدهم، ونستعين اللّه عليهم»[(٣)].

٢- عن أنس وعائشة رضي الله عنهما قال رسول اللّه ﷺ «المسلمون عند شروطهم، ما وافق الحقَ من ذلك»[(٤)] .

النهي والترهيب من نقض العهد:

القرآن:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [النحل: ٩٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٦- ٢٧].

---

(١) العهد والميثاق في القرآن الكريم ص٥٥، للدكتور ناصر سليمان العمر.
(٢) رواه أحمد.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه الحاكم، وصححه الألباني (الجامع ٦٥٩٢).

السنة:

١- عن عمرو بن الحمق رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اطمأن الرجل إلى الرجل ثم قتله بعدما اطمأن إليه، يُنصب له يوم القيامة لواء غدر»[١].

٢- وعن نعيم بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أما والله لولا أن الرُّسلَ لا تُقتل لضربتُ أعناقكما»[٢]. قاله لرسولي كِسرى.

٣- وعن أبي رافع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لا أخيس[٣] بالعهد، ولا أحبس البُرُد»[٤][٥].

٤- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل غادر لواء يوم القيامة يُعرف به عند أسته»[٦][٧].

٥- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من كنّ فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها. إذا اؤتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[٨].

حكم المصالحة والمعاهدة بين المسلمين والكفار

القرآن:

قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ إلى قوله:

---

(١) رواه الحاكم، وصححه الألباني الجامع ٣٥٤ .
(٢) رواه أبو داود والحاكم، وحسنه الألباني ١٣٣٩ .
(٣) أي أنقض.
(٤) جمع بريد، وهو الرسول الوارد عليه.
(٥) رواه أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم وصححه الألباني (الجامع ٢٥١٠).
(٦) أي مؤخرة الإنسان وعجزه.
(٧) رواه أحمد وأبو داود والطيالسي في مسنده، وصححه الألباني ٢١٥٣ .
(٨) متفق عليه.



﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: ٧- ١٢].

السّنة:

أولًا: القولية:

١- عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال، قال رسول اللَّه ﷺ: «ذِمَّة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلما، فعليه لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل اللَّه منه يوم القيامة صَرْفا وعدلا»(١).

٢- وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال، قال رسول اللَّه: ﷺ «المسلمون تتكافئ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، ويسعى بِذِمتِهم أدناهم، لا يُقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهد في عهده، من أحدث حدثا فعلى نفسه، ومن أحدث حدثا أو أوى محدثا، فعليه لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين»(٢).

٣- ومن حديث عمرو بن عَبَسة قال، قال رسول اللَّه ﷺ: «من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحُلَّن عُقدة(٣)، ولا يشدّها حتى يمضي أمدُهُ(٤)، أو ينبذ إليهم(٥) على سواء»(٦).

٤- وعن عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «من قتل معاهدا بغير حق لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليُوجد من مسيرة أربعين عاما»(٧) وقال ابن حجر «وفي

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه أبو داود والنسائي وحسنه أبو حافظ في الفتح ١٢/ ٢٣١ وابن ماجه من حديث عبد اللَّه بن عمر، وحسنه الألباني ٦٥٨٨ .
(٣) فيما يتعلق بعهده.
(٤) وقته.
(٥) يكاشفهم ويقاتلهم على طريق مستقيم، وقبل ذلك يخبرهم بهذه المقاتلة.
(٦) أحمد وأبو داود والترمذي، وصححه الألباني الجامع ٦٣٥٦ والصحيحة ٢٣٥٧ .
(٧) رواه البخاري وأبو داود والنسائي.

الحديث دليل على تحريم قتل المعاهد»[١].

ثانيا: الفعلية:

١- صالح النبي ﷺ يهود المدينة وكتب بينه وبينهم كتاب أمن، فهؤلاء صالحهم ووادعهم على ألا يحاربوه، ولا يظاهروا عليه، ولا يوالوا عليه عدوَّه. وهم على كفرهم آمنون على دمائهم، وأموالهم.

فنَقَضَ بنو قينقاع العهدَ، وحاربوه بعد غزوة بدر، ثم نقض بنو النضير وكان ذلك بعد بدر بستة أشهر، وذلك عندما جاءهم النبي ﷺ ليُعينوه في دية الكلابيين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضَّمري، فتأمروا على قتله، وكذلك بنو قريظة نقضوا العهد في غزوة الخندق «الأحزاب»[٢].

٢- وصَالَح قريشا على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين «صلح الحديبية»[٣].

٣- وكذلك صالح أهل خيبر لما ظهر عليهم[٤].

٤- وخرج الرسول ﷺ إلى غزوة «الأبواء»[٥] مع المهاجرين يعترض عير قريش، فلم يلق كيدا، وفي هذه الغزوة وادع «صالح» مخشيَّ بن عمرو الضَّمْرِي وكان سيد بني ضَمْرة في زمانه على ألا يغزو بني ضَمْرة، ولا يُغزوه، ولا أن يُكثِّروا عليه جمعا، ولا يُعينوا عليه عدوا، وكتب بينهم وبينه كتابا[٦].

٥- وفي غزوة العُشيراء خرج لاعترض عير قريش، ولكنها فاتته، ووادع بني مُدلج وحلفائهم من بني ضَمْرة[٧].

---

(١) سبل السلام ٤/ ١١٤ .
(٢) زاد المعاد ٣/ ١٢١-١٣٢ باختصار.
(٣) زاد المعاد ٣/ ١٤٠، البخاري وأبو داود ومسلم.
(٤) زاد المعاد ٣/ ١٤٣، البخاري وأبو داود.
(٥) الأبواء: قرية بينها بين الجحفة ثلاثة وعشرون ميلا.
(٦) زاد المعاد ٣/ ١٦٤، البداية لابن كثير ٢/ ٣٥٢، والبخاري ومسلم، والطبري، وابن هشام.
(٧) زاد المعاد ٣/ ١٦٦ .

٦- كذلك صَالَحَ رسولُ اللَّه ﷺ يهودَ تَيماء[١].

٧- وما ذكره الرسول ﷺ عمّا سيكون آخر الزمان من الفتن والملاحم ومنها الصلح الذي سيكون بين المسلمين الكفار كما في حديث ذي فجر[٢]، رجل من أصحاب النبى ﷺ، سأله جُبير[٣]، عن الهدنة[٤]، فقال سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «ستصالحون الروم صُلحا أمنا، فتغزون أنتم وهم عدوا من ورائكم فتُنصرون، وتغنمون، وتَسلمون، ثم ترجعون حتى تنزلوا بمرج ذي تلول، فيرفع رجل من أهل النصرانية الصليب فيقول غلب الصليب، فيغضب رجل من المسلمين فيدفعه، فعند ذلك تغدر الروم، وتجمع الملحمة[٥]، ومثله حديث ابن ماجهَ، والذي فيه قول النبى ﷺ: «تكون بينكم وبين بنى الأصفر هدنة فيغدرون بكم . . .»[٦] «فاللام» في الهدنة للعهد «ستصالحون» الخطاب للمسلمين، «صلحا» مفعول مطلق، «أمنا» أي ذي أمن «فتغزون وأنتم» أي فتقاتلون أيها المسلمون «وهم» أي الروم المصالحون معكم «عدوا من ورائكم» أي من خلفكم.

وقال السندي في حاشية ابن ماجه «أي عدوا آخرين بالمشاركة والاجتماع بسبب الصلح الذي بينكم وبينهم، أو أنتم تغزون عدوكم، وهم يغزون عدوهم بالانفراد».

قلت: (شارح عون المعبود): «الاحتمال الأول هو الظاهر»[٧].

فائدة:

وهذا الصُلح، الأصل ألا يُصار إليه إلا في حالة ضعف المسلمين،أما إن كان

(١) زاد المعاد ٣/ ٣٥٥ .
(٢) ابن أبي النجاشي خادم النبى ﷺ.
(٣) جبير بن نفير.
(٤) أي الهدنة التى تكون بين المسلمين والروم.
(٥) رواه أبو داود وابن ماجه، ورواه الحاكم وصححه.
(٦) رواه بن ماجه.
(٧) عون المعبود بشرح سنن أبي داود للعلامة أبي الطيب محمد العظيم آبادي ١١/ ٣٩٧ - ٣٩٨ .



المسلمين هم الأقوى، فلا ينبغي أن يصار إليه، قال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي لا تضعفوا عن الأعداء «وتدعوا إلى السَّلم» أي المهادنة والمسالمة ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حالة قوتكم وكثرة عددكم وعدّتكم،.. ولهذا قال اللَّه تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ وفي حال علوكم على عدوكم.. فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المهادنة والمعاهدة مصالحة فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول اللَّه ﷺ حين صدّه كفار قريش عن مكة ودعوه إلى الصلح[١] .

عهد الأمان[٢]:

وهو عبارة عن تأمين الكافر مدة محدودة، أي يؤمّن حتى يبيع تجارته ويرجع، أو حتى يشاهد بلاد المسلمين ويرجع، أو حتى يسمع كلام اللَّه ويرجع، وهذا التأمين ليس عقدا بل أمان فقط، ولهذا صح من كل إنسان حتى من امرأة، ومن قنٍ[٣] لكن لا بد أن يكون المؤمن مسلما بالغاً عاقلا.

فلو كان في البلد طوائف متعدده نصارى ومشركين، لكنهم باقون في عهد المسلمين فهؤلاء لا يصح منهم أن يؤمنوا كافرا يدخل من بلاد الكفر، وإذا أمّن مَن دون البالغين، والمعتوه أحدٌ من الكفار أو المشركين لم نجز أمانهم، فلو خرجوا هؤلاء المشركين بناء على هذا الأمان فعلينا ردُّهم إلى مأمنهم، ولا نعرض لهم في مال ولا نفس؛ لأنهم لا يفرقون بين من يجوز له أن يعطى الأمان وبين ما لا يجوز.

كذلك لا بد أن يكون المسلم الذي أعطى الأمان مختاراً لا مكرَها، فلو دخل كافر مسلح، ووجد رجل من المسلمين وقال له: أمنيِّ وإلا قتلتك فأمنه مكرَها، فهذا

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٣١- ٢٣٢ .
(٢) ولقد أفردناه لأن أحكامه تختلف بعض الشئ عن سائر العهود والمصالحات.
(٣) القن: هو العبد.



الأمان لا يصح.

وألا يكون هذا الأمان ضررا على المسلمين، وألا تزيد مدة الأمن عن عشرة سنين[١]، فإذا أُعطى الأمان لشخص حرم قتله ورقه وأسره، لأنه قد أُعطى الأمان والمسلمون هم أشد الناس وفاء بالعهود.

والأصل في هذه المسألة قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦].

وقول الرسول ﷺ: «المسلمون يد على من سواهم تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم»[٢].

لكن بشرط: أن لا نخاف من أنه فعل ذلك احتيالا ومكراً، فإن خفنا هذا فإننا لا نؤمنه لأنه يُخشى من شره[٣].

فالخلاصة: أن المستأمن هو الذي يقدم بلاد المسلمين من غير استيطان لها وهؤلاء أقسام: رُسل[٤]؛ وتجار، ومستجيرون حتى يُعرض عليهم الإسلام والقرآن فإن شاؤوا دخلوا فيه، وإن شاؤوا رجعوا إلى بلادهم، وطالبوا حاجة من الزيارة أو غيرها، وحكم هؤلاء ألا يهاجروا، ولا يُقتلوا، ولا تُؤخذ منهم الجزية، وأن يعرض على المستجير منهم الإسلام والقرآن، فإن دخل فيه فذاك، وإن أحب إلحاقا بمأمنه أُلحق به، ولم يُعرض له قبل وصوله إليه، فإذا وصل مأمنه عاد حربيا كما كان[٥].

---

(١) سيأتي الكلام عن مدة العهد.

(٢) رواه ابن ماجة وأبو داود من حديث علي بن أبي طالب وعبد الله بن عمر، وحسنه الشيخ الألباني ٦٥٨٨.

(٣) الإمام الشافعي ٤/ ٢٨٤، والشرح الممتع على زاد المستنقع محمد بن صالح بن عثيمين ٨/ ٤٨ - ٥٠.

(٤) كالسفراء.

(٥) أحكام أهل الذمة لابن القيم ١/ ٣٣٦.

أصناف الكفار والموقف منهم

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]:

و الكفار إما أهل حرب، وإما أهل عهد.

وأهل العهد ثلاثة أصناف: ١- أهل الذِّمة ٢- أهل الهُدْنة ٣- أهل الأمان.

وقد عقد الفقهاء لكل صنف، بابا فقالوا: باب الهدنة، باب الأمان، باب عقد الذمة. «ولفظ الذمة والعهد» يتناول هؤلاء كلهم في الأصل.

وكذلك لفظ «الصلح»، فإن الذِّمة من جنس لفظ العهد والعقد، وقولهم:

«هذا في ذمة فلان» أصله من هذا: أي في عهده وعقده أي فالزمه بالعقد والميثاق.

وهكذا لفظ «الصُلح» عام في كل صلح، وهو يتناول صُلْحَ المسلمين بعضهم مع بعض، وصلحهم مع الكفار، ولكن صار في اصطلاح كثير من الفقهاء «أهل الذمة» عبارة عمَّن يؤدي الجزية، وهؤلاء لهم ذمة مؤبدة، وهؤلاء قد عاهدوا المسلمين على أن يجري عليهم حكم اللَّه ورسوله: إذ هم مقيمون في الدار التى يجرى فيها حكم اللَّه ورسوله، بخلاف أهل الهدنة، فإنهم صالحوا المسلمين على أن يكونوا في دارهم، سواء كان الصلح على مال أو غير مال: لا تجرى عليهم أحكام الإسلام كما تجري على أهل الذمة، لكن عليهم الكف عن محاربة المسلمين

وهؤلاء يُسمون أهل العهد وأهل الصلح وأهل الهدنة».

حُكم عقد الهُدنة مع الكُفار بلا مّدة؟

والهدنة يعقدها الإمام أو نائبه. ومعروف أن الإمام هو الذي له الولاية العامة على كل المسلمين، وهذا فُقد من أزمنة طويلة، وأقر المسلمون الوضع على ما هو عليه، وقالوا: كل إنسان وَلِيِ أمرا على البلاد التى تحت سيطرته تجب طاعته[(٢)].

---

(١) أحكام أهل الذمة ١/ ٣٣٥ - ٣٣٦ .

(٢) الشرح على الزاد للشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ ٨/ ٥٠ .



قال ابن قدامة: «ولأن تجويزه من غير الإمام يتضمن تعطيل الجهاد بالكلية أو إلى تلك الناحية، وفيه افتيات على الإمام، فإن هادنهم غير الإمام أو نائبه لم يصح»[١].

وقد اختلف العلماء في حكم عقد الهدنة مع الكفار بمدة غير معلومة إلى ثلاثة أقوال:

القول الأول: يجوز أن يُعقد السّلام أو الهدنة بألا تتجاوز عشر سنوات.

وذهب إلى هذا الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في موضع، ووافقه طائفة من أصحاب أحمد كالقاضي في «المجرد» والشيخ في المغني[٢].

قال الإمام الشافعي[٣] رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَأَحَبُّ للإمام إذا نزلت بالمسلمين نازلة وأرجو أن لا ينزلها اللَّه عزَّ وجلَّ بهم - إن شاء اللَّه تعالى - مهادنة يكون النظر لهم فيها، ولا يهادن إلا إلى مدة، ولا يجاوز بالمدة مدة أهل الحديبية[٤]، كانت النازلة ما كانت، فإن كانت بالمسلمين قوة قاتلوا المشركين بعد انقضاء المدة، فإن لم يقو الإمام فلا بأس أن يجدد مدة مثلها، أو دونها ولا يجاوزها»، وهو اختيار أبي بكر ومذهب الشافعي[٥].

وقد ردّ الإمامُ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: القولَ الأول بقوله: «وأصحاب هذا القول كأنهم ظنوا إذا كانت المدة مطلقة تكون لازمة مؤبَّدة كالذِمّة، فلا يجوز بالاتفاق» وذلك أن الأصل في العقود أن تعقد على أي صفة كانت فيها المصلحة والمصلحة قد تكون في هذا وهذا، وللعاقد أن يعقد العقد لازما من الطرفين، وله أن يعقده جائزا، يمكن فسخه إذا لم يمنع من ذلك مانع شرعي، وليس هنا مانع بل هذا قد يكون هو المصلحة: فإنه إذا عقد عقدا إلى مدة طويلة فقد تكون مصلحة المسلمين في

---

(١) المغني لابن قدامه ١٠/ ٥٢٠.
(٢) أحكام أهل الذِّمة ١/ ٣٣٦ - ٣٣٧ أي لا يجوز لولي الأمر أن يعقد الهدنة مع الكفار عقداً مطلقاً لا يقدره بمدة ويقصد بالشيخ: ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٣) الأم ٤/ ١٨٩.
(٤) أي عشر سنين.
(٥) المغني ١٠/ ٥١٨.

محاربتهم قبل تلك المدة، فكيف إذا كان ذلك قد دل عليه الكتاب والسنة؟ وعامة عهود النبي ﷺ مع المشركين كانت كذلك مطلقة غير مؤقتة جائزة غير لازمة ومنها عهده مع أهل خيبر[(١)] .

القول الثاني: يجوز أكثر لكن يحدد:

لأن العقد على وجه الإطلاق، يعنى إبطال الجهاد[(٢)] وقال الصنعاني بعد أن ساق حديث صلح الحديبية: «الحديث دليل على جواز المهادنة بين المسلمين وأعدائهم من المشركين مدة معلومة لمصلحة يراها الإمام»[(٣)] .

وقال ابن قدامة رحمه الله، بعد أن ذكر صلح الحديبية: (إذا ثبت هذا فإنه لا تجوز المهادنة مطلقا من غير تقدير مدة، لأنه يُفضي إلى ترك الجهاد بالكلية)[(٤)] .

القول الثالث: يجوز مطلقا من غير تحديد مدة:

ولكن هذا القول يجعله عقدا جائزا، بمعنى أن المسلمين إذا رأوا من أنفسهم القوة نبذوا العهد، وذهب إلى هذا القول الإمام أبو حنيفة رحمه الله[(٥)] وكذلك ذهب الإمام الشافعي رحمه الله في أحد قوليه حيث قال: «فإذا أراد الإمام أن يهادنهم إلى غير مدة هادنهم، على أنه إذا بدا له نقض الهدنة فذلك إليه، وعليه أن يلحقهم بمأمنهم»[(٦)] .

وقال أبو الخطّاب: «ظاهر كلام أحمد أنه يجوز على أكثر مِن عشر على ما يراه الإمام من مصلحة، وبهذا قال أبو حنيفة رحمه الله»[(٧)] .

---

(١) أحكام أهل الذمة ٣٣٧ .
(٢) الشرح الممتع على زاد المستقنع لابن عثيمين رحمه الله ٨/ ٥٢ .
(٣) سبل السلام ٤/ ١١٣ من الحديث رقم (٦) في باب الجزية والهدنة.
(٤) المغني والشرح الكبير ١٠/ ٥١٧ .
(٥) أحكام أهل الذمة ١/ ٣٣٧ .
(٦) الأم ٤/ ١٨٩ - ١٩٠، ونقل عن ابن القيم رحمه الله أن الشافعي قد نصّ عليه في «المختصر».
(٧) المغني ١٠/ ٥١٨ - ٥١٩ .



وذهب إلى هذا القول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إذ قال: «ويجوز عقدها مطلقا ومؤقتا، والمؤقت لازم من الطرفين يجب الوفاء به ما لم ينقضه العدو، ولا يُنقض بمجرد خوف الخيانة في أظهر قول العلماء، وأما المطلق فهو عقد جائز يعمل الإمام فيه بالمصلحة»(١) .

وقال شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا الذي قاله شيخ الإسلام قياس المذهب في أن المرجع في ذلك إلى المصلحة، ولو زاد على عشر سنين، فما دمتم تقولون إننا نزيد على عشر سنوات، التي حددها الرسول ﷺ في الصلح بينه وبين قريش، من أجل المصلحة، وكذا أيضا قد نظن أن المصلحة في عشر سنوات مثلا أو عشرين سنة، ولكن نتبين أننا نحتاج إلى وقت أطول، فإذا أطلقناها، وصار لنا الحق في أن نقول لهؤلاء القوم نحن اطلقناها ولم نقيد مدة معينة، فإذا لم نقيد مدة معينة، فإنكم لا تلزموننا بشيء، ونقول لهم هذا إذا قوينا وصار عندنا قدرة نستطيع أن نجبرهم على الإسلام، أو دفع الجزية إن كانوا من أهل الجزية»(٢) .

أحوال العهود التى بين المسلمين والكفار

وهناك ثلاث حالات للعهود بين المسلمين والكفار:

الحالة الأولى: أن يستقيموا لنا ولا نخاف منهم خيانة:

ولم نر منهم خيانة، فحينئذ، يجب علينا أن نستقيم لهم كما قال اللَّه تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧](٣) .

الحالة الثانية: أن نخاف منهم نقض العهد:

فهنا لا يلزمنا أن نبقى على العهد ولا يجوز لنا أن نقاتلهم بل ننبذ إليهم على سواء،

---

(١) الاختيارات ٣١٥ .
(٢) الشرح على الزاد ٨/ ٥٣ .
(٣) الشرح على الزاد ٨/ ٥٤ .



وإليه الإشارة في قوله أي انبذ العهد على سواء، لتكون أنت وإياهم على سواء في أن لا عهد بينكم، وهذا هو الإنصاف، لأن الدين الإسلامي أقوم الأديان وأعدلها، فما استقاموا لنا نستقيم لهم، وإن نقضوا عهدنا فلا عهد لهم، وإن خفنا منهم ننبذ إليهم على سواء، فنقول لا عهد بيننا وبينكم، ولا نأتيهم على غرة ونباغتهم ؛ لأن الأصل قيام العهد[1].

الحالة الثالثة: أن ينقضوا العهد هم بأنفسهم:

فإذا نقضوا العهد انتقض العهد الذي بيننا وبينهم، ومثاله قصة قريش، لأن قريش نقضوا العهد، حين ساعدوا حلفاءهم[2] على حلفاء[3] النبي ﷺ، وحينئذ ينتقض العهد والدليل قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ [التوبة: ١٢- ١٣].

فيما يُنقض العهد؟

ونذكر الأمور التي تنقض عهد الذِّمة أو الصلح:

١- إذا خالفوا شيئا مما عوهدوا عليه.

فإذا قالوا: «ضمنّا لك ذلك على أنفسنا وذرارينا وأزواجنا ومساكيننا، وإن نحن غيّرنا، أو خالفنا عمّا شرطنا على أنفسنا، وقبلنا الأمان عليه، فلا ذمة لنا قد حل لك منا ما يحل لأهل المعاندة والشقاق».

هذا لفظ صريح في أنهم إذا خالفوا شيئا مما عُوهدوا عليه انتقض عهدهم كما ذهب إليه جماعة من الفقهاء[4]. قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ [التوبة:

(١) المصدر السابق، والمغني ١٠/ ٥٢٢، وزاد المعاد ٣/ ١٥٩ .
(٢) أي بني بكر.
(٣) أي خزاعة.
(٤) أحكام أهل الذمة ٢/ ٢٠٤ لابن القيم.

١٢]. فأمر اللَّه سبحانه وتعالى بقتال من نكث يمينه، أي عهده الذي عاهدنا عليه من الكف عن أذانا والطعن في ديننا، وجعل علة قتاله ذلك[(١)].

٢ - إذا منع الجزية:

وذهب إلى هذا مالك والشافعي وأحمد[(٢)] .

٣ - قتال المسلمين:

فإذا قاتل المسلمين نقض العهد، وذهب إلى هذا الشافعي[(٣)] ومالك[(٤)].

٤ - سب اللَّه تعالى، والنبي ﷺ «عياذا باللَّه» أو دينه:

فإنه ينتقض عهدُهم بذلك. وذهب إلى هذا مالك[(٥)]، وكذلك حكى بن المنذر عن الشافعي أن عهده ينتقض بسب النبي ﷺ ويقتل[(٦)]، ومن أدلتها قصة كعب بن الاشرف.

٥ - قطع الطريق:

بأن يعترض الناس في الطرقات، فيغصبهم المالَ مجاهرة ومعه السلاح فمن جاء إليه قال له: سلِّم المال وقاتله، فإن هذا قاطع طريق، ويعتبر هذا نقضا للعهد.

٦ - التجسس:

وهذا من أشرّ ما يكون فإذا تعدى على المسلمين بالتجسس فصار ينقل أخبار المسلمين إلى عدوهم، فإن عهده ينتقض، ولا إشكال فيه، والدليل على ذلك قول النبي ﷺ: «لما أطلع على الجاسوس الذي تجسس لقريش وهو حاطب بن أبي بلتعة، وعلم به استأذن عمر بن الخطاب أن يقتله»، فقال النبي ﷺ: «إنه من أهل بدر وما يدريك أن اللَّه اطّلع على أهل

---

(١) أحكام أهل الذمة ٢/ ٢١٧ .
(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح لابن هبيرة ٢/ ٢٩٨، الشرح على الزاد ٨/ ٩٦ - ٩٧ .
(٣) المصدر السابق.
(٤) أحكام أهل الذمة ٢/ ٢١٣ .
(٥) الإفصاح ٢/ ٢٩٩ .
(٦) أحكام أهل الذمة ٢/ ٢١٢ .

بدر فقالوا: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[١].

فجعل النبي ﷺ الجاسوسية مبيحة للدم، ولكن وجد مانع وهو «كونه من أهل بدر» وهذه العلة لا توجد في عهدنا الآن، فإذا وجد إنسان جاسوس يكتب بأخبارنا إلى عدونا، أو ينقلها مشافهه، أو ينقلها عبر الأشرطة أو غيرها، فإنه يجب أن يُقتل حتى لو تاب[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وإذا أبي الذمي بذل الجزية أو الصغار، أو التزام حكمنا يُنقض عهده، ومن قطع الطريق على المسلمين أو تجسس عليهم، أو أعان أهل الحرب على سبي المسلمين، أو أسرهم، وذهب بهم إلى دار الحرب، ونحو ذلك مما فيه من مضرة على المسلمين فهذا يُقتل ولو أسلم[٣]. وقال القاضي والشريف أبو جعفر ينتقض العهد بمخالفته وهو أحد عشر شيئا:

١- الامتناع عن دفع الجزية. ٢- الامتناع عن جري أحكامنا عليهم إذا حكم بها حاكم. ٣ - الاجتماع على قتال المسلمين. ٤ - الزنا بمسلمة[٤]. ٥ - أصابت (الجماع) المسلمة باسم النكاح. ٦ - فتن المسلم عن دينه. ٧ - قطع الطريق على المسلم. ٨- قتل المسلم. ٩- إيواء جاسوس للمشركين. ١٠ - المعاونة على المسلمين بدلالة المشركين على عوراتهم أو مكاتبتهم. ١١- ذكر اللّه تعالى أو كتابه أو دينه أو رسوله بسوء[٥].

* * *

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) الشرح على الزاد ٨/ ٩٨.

(٣) الاختيارات ٣١٩.

(٤) وسُئل الإمام أحمد عن: «نصراني استكره مسلمة على نفسها؟ فقال: ليس على هذا صولحوا، يُقتل! قيل: فإن طاوعته على الفجور؟ قال: يُقتل! ويقام عليها الحد. وروى الخلال والمروزي أنه أتي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بيهودي فحش (زنى) بمسلمة ثم غشيها فقتله، وفي رواية فصلبه (أحكام أهل الذمة ٢/ ٢٠٢).

(٥) المغني لابن قدامه ١٠/ ٦٠٨.



القضية الثانية عشر بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه الله:

«لا يجوز للمسلمين أن يتنازلوا للكفار عن شيء من دينهم وعقيدتهم، أو أن يترضوا عن شيء من دين الكفار الباطل».

قوله: «لا يجوز للمسلمين أن يتنازلوا للكفار عن شيء من دينهم وعقيدتهم»

الشرح: ولا يجوز للمسلمين سواء كانوا أفرادا أو جماعات، حكاماً أو محكومين أن يتنازلوا للكفار عن شيء من دينهم فالتنازل يجر إلى تنازل آخر، ولن يقف هذا التنازل حتى يتّبع المسلمون دين الكفار من أهل الكتاب وغيرهم من الملاحدة. ولهذا كان موقف الإسلام واضحا وحازما تجاه هذه القضايا، وذلك لأنها من ثوابت الدين فقد قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٨- ٩]. قال ابن عباس وعطية والضحاك والسدي: «ودّوا لو تقرهم على دينهم فيتمادون على كفرهم». وعن ابن عباس أيضا: «ودّوا لو ترخّص لهم فيرخّصون لك». وقال الفرّاء والكلبي: لو تلين فيلينون لك.

والإدّهان: التَّلين لمن لا ينبغي له التليين؛ قاله الفراء. وقال مجاهد: المعنى ودّوا لو ركَنتَ إليهم وتركت الحق فيمالئونك.

وقال الربيع بن أنس: «ودوا لو تكذب فيكذبون» وقال قتادة: «ودّوا لو تذهب عن هذا الأمر فيذهبون معك».

وقال الحسن: «ودّوا لو تصانعهم في دينك فيصانعونك في دينهم». وعنه أيضا: «ودّوا لو ترفض بعضَ أمرك فيرفضون بعض أمرهم». وقال زيد بن أسلم: «لو تنافق وترائي فينافقون ويراؤون». وقيل: «ودّوا لو تضعف فيضعفون»؛ قاله أبو جعفر.

وقيل: «ودّوا لو تداهن في دينك فيدهنون في أديانهم»؛ قاله القعنبي. وعنه: طلبوا منه أن يعبد آلهتهم مدة ويعبدوا إلهه مدة. وقال ابن العربي: «ذكر المفسرون فيها نحو عشرة أقوال كلها دعاوى على اللغة والمعنى. أَمْثَلُها قولهم: ودّوا لو تكذب فيكذبون، ودّوا لو



تكفر فيكفرون. قلت[١]: كلها إن شاء اللّه تعالى صحيحة على مقتضى اللغة والمعنى.

فإن الأدهان: اللّينُ والمصانعة. وقيل: مجاملة العدو وممايلته. وقيل: المقاربة في كلام والتليين في القول».

قال الشاعر:

لبعض الغشم أحزم في أمور   تنوبك من مداهنة العده[٢]

والآية تؤكد عدم مشروعية طاعتهم فيما يطالبون ويقترحونه عليك أنهم ودّوا أي تمنّوا وأحبوا لو تلين لهم فتمالئهم بسكوتك عن آلهتهم فيدهنون بالكفّ عن أذيتك بترك السبّ والشتم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠]. بعدما نهاه عن إطاعة الكافرين عامة، نهاه عن طاعة أفراد شريرين لا خير فيهم البتة كالوليد بن المغيرة. ويتابعهم في شيء مما هم عليه ليتابعوه في دينه، وهم حافظون ماء وجوههم أمام جماهير العرب! على عادة المساومين الباحثين عن أنصاف الحلول! ولكن الرسول ﷺ كان حاسما في موقفه من دينه، لا يدهن فيه ولا يلين.

وهو فيما عدا الدين ألين الخلق جانبا، وأحسنهم معاملة وأبرهم بعشيرة وأحرصهم على اليسر والتيسير. فأما الدِّين فهو الدِّين! وهو فيه عند توجيه ربه: «فلا تطع المكذبين».

ولم يُساوم ﷺ في دينه وهو في أحرج المواقف العصيبة في مكة. وهو محاصر بدعوته وأصحابه القلائل يتخطفون، ويعذبون، ويؤذون في اللّه أشد الإيذاء، وهم صابرون. ولم يسكت عن كلمة واحدة ينبغي أن تُقال في وجوه الأقوياء المتجبرين، تأليفا لقلوبهم، أو دفعا لأذاهم. ولم يسكت كذلك عن إيضاح حقيقة تمس العقيدة من قريب أو من بعيد[٣].

(١) الإمام القرطبي.
(٢) جامع الأحكام للقرطبي ١٨/ ٢٣٠ - ٢٣١.
(٣) في ظلال القرآن ٣٦٥٩ للسيد قطب رحمه الله.

وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣]. قال سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان النبي ﷺ يستلم الحجر الأسود في طوافه، فمنعته قريش وقالوا: لا ندعك تستلم حتى تُلمّ بآلهتنا. فحدّث نفسه وقال: «ما عليّ أن ألـمّ بها بعد أن يدعوني أستلم الحجر، واللّه يعلم أني لها كاره» فأبى اللّه تعالى وأنزل عليه هذه الآية؛ قاله مجاهد وقتادة، وقال ابن عباس في رواية عطاء: نزلت في وفد ثقيف، أتوا النبي ﷺ فسألوه شططا، وقالوا: متعنا بآلهتنا سنة حتى نأخذ ما يهدى لها، فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا، وحرِّم وادينا كما حرَّمت مكة، حتى تعرف العرب فضلنا عليهم؛ فهمّ رسول اللّه ﷺ أن يعطيهم ذلك، فنزلت هذه الآية. وقيل هو قول أكابر قريش للنبي ﷺ اطرد عنا هؤلاءِ السّقاط والموالي حتى نجلس معك ونسمع منك؛ فهمّ بذلك حتى نُهي عنه.

وقال قتادة: ذُكر لنا أن قريشا خلوا برسول اللّه ﷺ ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه يُفخّمونه ويسودونه، ويقاربونه؛ فقالوا: إنك تأتي بشيء لا يأتي به أحد من الناس، وأنت سيدنا يا سيدنا؛ وما زالوا به حتى كاد يقاربهم في بعض ما يريدون، ثم عصمه اللّه من ذلك، وأنزل اللّه تعالى هذه الآية.

ثم قال تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٥]. أي لو ركنت لأذقناك مثلي عذاب الحياة في الدنيا ومثلي عذاب الممات في الآخرة؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما. وهذا غاية الوعيد.

وكلما كانت الدرجة أعلى كان العذاب عند المخالفة أعظم، كما قال اللّه تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠].

وضِعْف الشيء مثله مرتين، وقد يكون الضِعف النصيب؛ كقوله عز وجل ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ [الأعراف: ٣٨] أي نصيب.

وجاء من حديث جابر بن عبد اللّه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «اجتمعت قريش للنبي ﷺ يوما»، فقالوا: انظروا أَعْلَمَكم بالسحر والكهانة والشعر، فيأت هذا الرجل الذي قد فرّق

جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، فيكلمه ولينظر ما يرد عليه.

قالوا: ما نعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة.

قالوا: «أنت يا أبا الوليد ! فأتاه عتبة، فقال: يا محمد ! أنت خير أم عبد اللّٰه؟».

فسكت النبي ﷺ، قال: «أنت خير أم عبد المطلب؟» فسكت رسول اللّٰه ﷺ»، قال: «فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التي عبت وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلّم حتى نسمع قولك، أما واللّٰه ما رأينا سخطه أشأم على قومك منك، فرقت جماعتنا، وشتّتَ أمرنا، وعِبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى طار فيهم أن في قريش ساحرا، وأن في قريش كاهنا، ما ينتظر إلا مثل صيحة الحبلى، بأن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى أيّه الرجل ! إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أغنى قريش رجلا، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش فنزوجك عشرا.

فقال رسول اللّٰه ﷺ: «أفرغت»؟ قال: «نعم»، قال: فقال رسول اللّٰه ﷺ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢]. حتى بلغ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].

فقال عتبة: «حسبُك! ما عندك غير هذا؟» قال: «لا».

فرجع إلى قريش، فقالوا: «ما وراءك؟»

فقال: «ما تركت شيئا أرى أنكم تكلمونه إلا كلمته»، قالوا: «هل أجابك؟».

قال: «نعم، والذي نصبها بنية» ما فهمت شيئا مما قال غير أنه قال: «أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود».

قالوا: «ويلك يكلمك بالعربية، فلا تدري ما قال؟» قال: «لا واللّٰه، ما فهمت مما قال غير ذِكر الصاعقة»[1].

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده: ١٨١٨، وابن هشام في السيرة: ١/ ٢٩٣ - ٣٩٤، والبيهقي في =



موقف يُكتب بماء الذّهب:

وانظر إلى ما قاله السلطان عبد الحميد العثماني[(١)] حينما عُرض عليه التنازل عن فلسطين:

«انصحوا الدكتور هرتزل بألا يتخذ خطوات جديدة في هذا الموضوع، أني لا أستطيع أن أتخلّى عن شبر واحد من الأرض، فهي ليست ملك يميني، بل ملك شعبي، لقد قاتل شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه، فليحفظ اليهود بملايينهم، إذا مُزقت امبراطورتي، فلعلهم يستطيعون آنذاك بأن يأخذوا فلسطين بلا ثمن، لكن يجب أن يبدأ ذلك التمزيق أولا في جثتنا، وأني لا أستطيع الموافقة على تشريد أجسادنا ونحن على قيد الحياة»[(٢)].

وقال أيضا: ««إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهبا - فضلًا عن (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة انكليزية ذهبا - فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي.

لقد خدمتُ المِلة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة فلم أُسوّد صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين.

لهذا لن أقبل تكليفهم بوجه قطعي أيضا».

وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي، وأبلغوني أنهم سيعيدونني إلى «سيلان» فقبلت بهذا التكليف الأخير».

وقد دون هرتزل نفسه في مذكراته حينما قال السلطان عبد الحميد الثاني: «لا أقدر

= الدلائل: ١/ ٢٣٠ - ٢٣١، وأبو نعيم في دلائل النبوة برقبم: ١٨٢، وابن أبي شيبة في المصنف: ١٤/ ٢٥٩ - ٢٩٦ وعبد بن حميد كما في المنتخب: ١١٢٣، والحاكم في المستدرك: ٢/ ٢٥٣ . وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي (انظر صحيح السيرة النبوية لإبراهيم العلي ٦٣).

(١) والذي ظُلم هو ودولته «العثمانية» وإن كان فيها من القصور ما فيها. وانظر إلى موقفه هذا والذي يسطّر بأحرف من نور، وقارن بينه وبين مواقف بعض الأنظمة الإسلامية اليوم «واللّه المستعان».

(٢) د. حسن جبري الخولي سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ١٠١ - ١٠٢ .

أن أبيع ولو قدما واحدا من البلاد، لأنها ليست لي بل لشعبي، لقد حصل شعبي على هذه الإمبراطورية بإراقة دمائهم، وقد غذوها فيما بعد بدمائهم وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا، ولقد حاربت كتيبتان من جيشنا في سوريا وفي فلسطين، وقتل رجالنا الواحد بعد الآخر في «بلفته» لأن أحدا منهم لن يرضى بالتسليم، وفضلوا أن يموتوا في ساحة القتال.

«الامبراطورية التركية ليست لي وإنما للشعب التركي، لا أستطيع أبداً أن أعطي أحدا أي جزء منها ليحتفظ اليهود ببلايينهم، فإذا قُسِّمت الامبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين دون مقابل، إنما لن تقسم إلا جثتنا ولن أقبل بتشريحنا لأي غرض كان»[(١)].

ومن أنواع التنازل للكفار والترضي عن دينهم الباطل هو التّشبه بهم والذي لا شك أن هذا النوع من التنازل هو أخطر من التنازل الناتج عن الاستعمار العسكري، والذي يقع تحت الاضطرار والقهر غالبا، لأن هذا التنازل ناتج غالبا من الانهزام الروحي والمحبة للكافر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن المشاركة في الهدي[(٢)] الظاهر تورِث تناسبا وتشاكلًا بين المتشابهين، يقود إلى موافقة ما في الأخلاق والأعمال.

وهذا أمر محسوس، فإن اللّابس ثياب أهل العلم - يجد من نفسه نوع انضمام إليهم، واللّابس لثياب الجند المقاتلة - مثلا يجد من نفسه نوع تَخَلُّق بأخلاقهم، ويصير طبعه مقتضياً لذلك، إلا أن يمنعه مانع[(٣)] ومنها: أن المخالفة في الهدي

(١) حسّان علي حلاق «موقف الدولة العثمانية من حركة الصهيونية ٨٩ - ١٨٩٧ - ٩ - ١٩ انظر السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين لرفيق شاكر النتشة».

(٢) الهدي الظاهر: هو ما يظهر من سلوك الإنسان وشكله من أنماط السلوك والتصرفات القولية والعمليات كالأكل والشرب، والكلام، واللباس، والتعامل مع الآخرين، وممارسة الحياة العملية، والتعبير عنها. أما الهدي الباطن فهو ما لا يدرك بالحواس: من النوايا والاعتقادات والأفكار ونحوها. ما لم يعبر عنها بقول أو فعل.

(٣) ما أشار إليه المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ هنا من أن المشاركة في الهدي الظاهر تورث تناسبا وتشاكلًا بين المتشاركين - ذلك أمر يصدقه علم النفس وعلم الاجتماع اليوم - فضلا عما ورد به الكتاب والسنة - ويشهد به واقع الأمم والشعوب والأفراد، إننا نجد المتفرنجين عندنا اليوم في =



الظاهر توجب مباينة ومفارقة توجب الانقطاع عن موجبات الغضب، وأسباب الضلال والانعطاف على أهل الهدى، والرضوان، وتحقق ما قطع اللّه من الموالاة بين جنده المفلحين وأعدائه الخاسرين.

ومنها: - أن مشاركتهم في الهدي الظاهر توجب ظاهرا، بين المهديين المرضيين وبين المغضوب عليهم ولا الضالين إلى غير ذلك من الأسباب الحكيمة.

هذا، إذا لم يكن ذلك الهدي الظاهر إلا مباحا محضا، لو تجرد عن مشابهتهم فأما إن كان من موجبات كفرهم، كان شعبة من شعب الكفر، فموافقتهم فيه موافقة في نوع من أنواع معاصيهم فهذا أصل ينبغي أن يُتفطّن له.

إن المشابهة في الظاهر، تورث نوع مودة ومحبة وموالاة في الباطن، كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة، حتى إن الرجلين إذا كانا من بلد واحد، ثم اجتمعا في دار غربة، كان بينهما من المودة والائتلاف أمر عظيم.

فإن كانت المشابهة في أمور دنيوية، تورث المحبة والموالاة له، فكيف بالمشابهة الدينية؟ فإن إفضائها إلى نوع من الموالاة أكثر وأشد، والمحبة والموالاة لهم تنافي الإيمان.

وقد رأينا اليهود والنصارى الذين عاشروا المسلمين، هم أقل كفرا من غيرهم، كما رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشرة اليهود والنصارى، هم أقل إيمانا من غيرهم ممن جرد الإسلام.

والمشاركة في الهدى الظاهر توجب أيضا مناسبة وائتلافا. وإنْ بَعُد المكان والزمان،

= لباسهم وكلامهم وتصرفاتهم لديهم ميول لسائر طباع الخواجات وسلوكهم، بل وأفكارهم وعقائدهم وتصوراتهم - في الغالب - ونجد البعض يكنّ لهم ويظهر الإكبار، والتعظيم والإجلال، وربما احتقر نفسه وأمته ودينه وشعر بالصّغار أمام الكافرين «د. ناصر عبدالكريم العقل».

فهذا أيضا أمر محسوس، فمشابهتهم في أعيادهم - ولو بالقليل - هو سبب لنوع ما من اكتساب أخلاقهم التي هي ملعونة مظنة لفساد خفي غير منضبط علق الحكم به، وأدير التحريم عليه، فنقول: مشابهتهم في الظاهر سبب، وما كان مظنة لمشابهتهم في عين الأخلاق والأفعال المذمومة، بل في نفس الاعتقادات وتأثير ذلك لا يظهر ولا ينضبط، ونفس الفساد الحاصل من المشابهة قد لا يظهر ولا ينضبط وقد يتعسر أو يتعذر زوالُه بعد حصوله، لو تفطن له، وكل ما كان سببا إلى مثل هذا الفساد فإن الشارع يحرمه كما دلّت عليه الأصول المقررة[(١)].

ولذا تجد من أكثر من سماع القصائد لطلب صلاح قلبه تنقص رغبته في سماع القرآن، حتى ربما كرهه، ومن أَكْثَرَ من السفر إلى زيارات المشاهد[(٢)] ونحوها لا يبقى لحج البيت الحرام في قلبه من المحبة والتّعظيم ما يكون في قلب من وسعته السنّة، ومن أدمن على أخذ الحكمة والآداب مَن كلام حكماء فارس والروم، لا يبقى لحكمة الإسلام وآدابه في ذاك الموقع، ومن أدمن قصص الملوك وسيرهم لا يبقى لقصص الأنبياء وسيرهم في قلبه ذلك الاهتمام، ونظير هذا كثير[(٣)].

إن مشابهة الكفار في بعض أعيادهم يوجب سُرور قلوبهم، بما هم عليه من الباطل، خصوصا إذا كانوا مقهورين تحت ذل الجزية والصغار، فرأوا المسلمين قد صاروا فرعا لهم في خصائص دينهم، فإن ذلك يوجب قسوة قلوبهم وانشراح صدورهم، وربما أطمعهم ذلك في انتهاز الفرص، واستذلال الضعفاء، وهذا أيضا أمر محسوس، لا يستريب فيه عاقل فكيف يجتمع ما يقتضي إكرامهم بلا موجب مع شرع الصغار في حقهم؟[(٤)].

ولأجل هذا الأصل وقع التأثر والتأثير في بني آدم، واكتساب بعضهم أخلاق بعض

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٤٨٩ .
(٢) كما يفعله أهل البدع وعبّاد القبور والمشاهد.
(٣) المصدر السابق ١/ ٤٨٤ . وقريب منه قصص الفنانين واللاعبين وغيرهم.
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٤٨٦ .

بالمعاشرة والمشاكلة. وكذلك الآدمي إذا عاشر نوعا من الحيوان اكتسب بعض أخلاقه ولهذا صار الخُيلاء والفخر في أهل الإبل، وصارت السكينة في أهل الغنم(١).

إن نفس المخالفة لهم في الهدي الظاهر مصلحة ومنفعة لعباد اللَّه المؤمنين. لما في مخالفتهم من المجانبة والمباينة، التي توجب المباعدة عن أعمال أهل الجحيم. وإنما يظهر بعض المصلحة في ذلك لمن تنور قلبه، حتى رأى ما اتصف به المغضوب عليهم والضالون، من المرض الذي ضرره أشد من ضرر أمراض الأبدان(٢).

وهذا التّشبه نُهينا عنه بالكتاب والسنة والإجماع، وأقوال الصحابة وأئمة المذاهب والسّلف الصالح وإليك بعضَ هذه الأدلة بشيء من الإيجاز:

قال اللَّه سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٦- ١٨] فقوله: ﴿أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وأهواؤهم: هو ما يهوونه، وما عليه المشركون من هديهم الظاهر، الذي هو من موجبات دينهم الباطل، وتوابع ذلك، فهم يهوونه، وموافقتهم فيه، اتباع لما يهوونه، ولهذا: يفرح الكافرون بموافقة المسلمين في بعض أمورهم، ويسرون به ويودون أن لو بذلوا عظيما ليحصل ذلك. ولو فرض أن ليس الفعل من اتباع أهوائهم فلا ريب أن مخالفتهم في ذلك أحسم لمادة متابعتهم وأعون على حصول مرضاة اللَّه في تركها، وأن موافقتهم في ذلك قد تكون ذريعة إلى موافقتهم في غيره، فإن من حام حول الحمى أوشك أن يواقعه وأي الأمرين كان، حصل المقصود في الجملة، وإن كان الأول أظهر(٣).

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٤٨٧ لابن تيمية.
(٢) المصدر السابق ١/ ١٧١ .
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٨٥ .

ثم هذا الذي دلّ عليه الكتاب: من مشابهة بعض هذه الأمة للقرون الماضية في الدنيا وفي الدين، وذم من يفعل ذلك، دلّت عليه أيضا سنة رسول اللّه ﷺ.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لتأخذن كما أخذت الأمم من قبلكم: ذراعا بذراع، وشبراً بشبر، وباعاً بباع، حتى لو أن أحداً من أولئك دخل جحر ضب لدخلتموه» قال أبو هريرة: «اقرؤوا - إن شئتم- ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾ [التوبة: ٦٩]. قالوا: يا رسول اللّه كما صنعت فارس والروم وأهل الكتاب؟ قال: فهل الناس إلا هم؟[(١)].

وعن ابن عباس رضي الله عنه في هذه الآية، أنه قال: «ما أشبه الليلة بالبارحة هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم»[(٢)].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «أنتم أشبه الأمم ببني إسرائيل سمتاً وهدياً تتبعون عملهم حذو القذة بالقذة، غير أني لا أدري أتعبدون العجل أم لا؟!»[(٣)].

وقوله: «أو أن يترضوا عن شيء من دين الكفار الباطل»

ش: قال تعالى في سورة الكافرون: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون].

فإن مقصود السورة براءته ﷺ من دينهم ومعبودهم، هذا هو لبها ومغزاها، وجاء ذكر براءتهم من دينه ومعبوده بالقصد الثاني، مكملا لبراءته ومحققا لها، فلما كان المقصود براءته من دينهم بدأ به في أول السورة ثم جاء قوله ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ مطابقا لهذا المعنى، أي لا أشارككم في دينكم، ولا أوافقكم عليه، بل هو دين باطل تختصون أنتم به ولا أشارككم فيه أبدا. فطابق آخر السورة أولها. فتأمل.

(١) هذا الحديث له شواهد في الصحيحين والسنن والمسانيد. انظر صحيح الجامع ٥٠٦٣ للألباني.
(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره.
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية ص ١٠٧ تحقيق: د. ناصر بن عبدالكريم العقل.



وأما المسألة الأخرى، وهي: أن هذا الإخبار بأن لهم دينهم وله دينه. هل هو إقرار؟ فيكون منسوخا، أولًا نسخٌ في الآية ولا تخصيص؟

فهذه مسألة شريفة من أهم المسائل المذكورة، وقد غلط في السورة خلائق وظنوها منسوخة بآية السيف، لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم، وظنّ آخرون أنها مخصوصة بمن يُقّرون على دينهم وهم أهل الكتاب، وكلا القولين غلط محض، فلا نسخ في السورة ولا تخصيص، بل هي محكمة، وعمومها نصّ محفوظ، وهي من السّور التي يستحيل دخول النسخ في مضمونها، فإن فيها أحكام التوحيد، ولهذا تُسمّى سورة الإخلاص كما تقدم.

ومنشأ الغلط: ظنّهم أن الآيةِ اقتضت إقرارهم على دينهم، ثم رأوا أن هذا الإقرار زال بالسيف، فقالوا: «هو منسوخ».

وقالت طائفة: «زال عن بعض الكفار، هم من لا كتاب له». فقالوا: «هذا مخصوص بأهل الكتاب».

ومعاذ اللَّه أن تكون الآية اقتضت تقريراً لهم أو إقراراً على دينهم أبداً، فلم يزل رسول اللَّه ﷺ من أول الأمر وأشده عليه وعلى أصحابه أشد في الإنكار عليهم، وعيب دينهم، وتقبيحه والنهي عنه، والتهديد والوعيد لهم كل وقت وفي كل ناد، وقد سألوه أن يكف عن ذكر آلهتهم. وعيب دينهم، ويتركونه وشأنه، فأبى إلا مُضِياً على الإنكار عليهم وعيب دينهم، فكيف يقال: أن الآية اقتضت تقريره لهم؟ معاذ اللَّه من هذا الزعم الباطل، إنما اقتضت براءته المحضة كما تقدم، وأن ما أنتم عليه من الدين لا نوافقكم عليه أبداً، فإنه دين باطل، فهو مختص بكم، لا نشارككم فيه، ولا أنتم تشاركوننا في ديننا الحق. وهذا غاية البراءة والتنصل من موافقتهم في دينهم، فأين الإقرار؟ حتى يدّعوا النسخ أو التخصيص؟

أفترى إذا جوهدوا بالسّيف كما جوهدوا بالحجة لا يصح أن يقال: ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]؟ بل هذه آية قائمة محكمة ثابتة بين المؤمنين والكافرين إلى أن يُطهر اللَّه



منهم عباده وبلاده.

وكذلك حكم هذه البراءة بين أتباع رسول اللَّه ﷺ أهل سنته وبين أهل البدع المخالفين لما جاء به، الداعين إلى غير سنته، إذا قال لهم خلفاء الرسول وورثته:

لكم دينكم ولنا ديننا. لا يقتضي هذا إقرارهم على بدعتهم(١).

وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٠- ١٢١].

قال ابن جرير: يعني بقوله جل ثناؤه ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ وليست اليهود يا محمد ولا النصارى براضية عنك أبداً، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأَقْبِل على طلب رضا اللَّه في دعائهم إلى ما بعثك اللَّه به من الحق(٢). ففي هذه الآية النهي العظيم، عن اتباع أهواء اليهود والنصارى، والتشبه بهم فيما يختص به دينهم، والخطاب - وإن كان لرسول اللَّه ﷺ - فإن أمته داخلة في ذلك، لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب، كما أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب(٣).

وقال تعالى فيه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، فهذا فيه النهي العظيم، عن إتباع اليهود والنصارى، والتشبه بهم فيما يختص به دينهم، الخطاب وإن كان لرسول اللَّه ﷺ فإن أمته داخلة في ذلك.

* * *

---

(١) التفسير القيم لابن القيم ٥٣٣ - ٥٣٤ .
(٢) ابن كثير ١/ ٢٣٤ .
(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٤ .



القضية الثالثة عشر بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«لا يجوز مصالحة الكفار واستنزالهم على حكم اللَّه وحكم رسوله ﷺ وإنما على حكم إمام المسلمين وحكم من معه»

قوله: «لا يجوز مصالحة الكفار واستنزالهم على حكم اللَّه وحكم رسوله ﷺ»

الشرح: أقول لعلّ الأَوْلى أن نقول: ولا يجوز عند مصالحة الكفار استنزالهم على حكم اللَّه وحكم رسوله ﷺ.

لأن (المُصَنِّف) حفظه اللَّه قد بين سابقا[١]، أنه يجوز مصالحة الكفار.

(والمُصَنِّف) يشير لحديث سليمان بن بريدة عن أبيه رضي اله عنهما قال: «كان رسول اللَّه ﷺ إذا أمّر أميرا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى اللَّه ومَن معه من المسلمين خيرا»، ثم قال: «اغزوا باسم اللَّه، في سبيل اللَّه، قاتلوا مَن كفر باللَّه، اغزوا ولا تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيت عدوّك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال «أو خلال» فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكُفّ عنهم ثم ادعُهُم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين[٢]، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أَبَوَا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم اللَّه الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم من الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فَسَلْهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن باللَّه وقاتلهم وإذا حاصرت[٣] أهل الحصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة اللَّه وذمة نبيه،

---

(١) من الفقرة ١١١ .

(٢) أي إلى المدينة، وهذا الحكم قد نُسخ بعد فتح مكة حيث قال رسول اللَّه ﷺ «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية . . .».

(٣) قال الخطابي: وهذه هي الخصلة الثالثة.

فلا تجعل لهم ذمة اللّه، ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة اللّه وذمة رسوله، وإذا حاصرت أهل الحصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم اللّه، فلا تنزلهم على حكم اللّه ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب حكم اللّه فيهم أم لا؟»[١] .

وفي لفظ أبو داود: «. . . فلا تُنزِلُهم فإنكم لا تدرون ما يحكم اللّه فيهم، ولكن أنزلوهُم على حُكمِكُم ثم اقضوا فيهم بعدُ ما شئتم».

قال العلماء: «الذِّمة هنا العهد»، و(تُخفروا) بضم التاء، يقال: «أخفرت الرجل، إذا انقضت عهده، وخفرته: أمّنته وحميته»، قالوا: وهذا نهي تنزيه أي لا تجعل لهم ذمة اللّه، فإنه قد ينقضها من لا يعرف حقها، وينتهك حرمتها بعض الأعراب وسواد الجيش[٢] وقوله ﷺ «وإذا حاصرت أهل الحصن فأرادوك . . . .» الحديث.

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي من الكفار (فأرادوك) أي طلبوا منك، (على حكم اللّه) أي على ما يحكم اللّه فيهم. (بعدُ) مبنى على الضم: أي بعد إنزالهم[٣]

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا النهي أيضا على التنزيه والاحتياط، فيه حجة لمن يقول: «ليس كل مجتهد مصيبا، بل المصيب واحد، وهو الموافق لحكم اللّه تعالى في نفس الأمر»[٤] .

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيه حجة ظاهرة على أنه لا يسوغ إطلاق حكم اللّه على ما لا يعلم العبد أن اللّه حَكَم به يقينا من مسائل الاجتهاد، كما قال بعض السلف: «ليتق أحدُكم أن يقول: أحلَّ اللّه كذا، أو حرّم كذا»، فيقول اللّه له: «كذبت ! لم أُحلّ كذا ولم أُحرِّمه». وهكذا لا يسوغ أن يقول: «قال رسول اللّه ﷺ» لما لا يعلم صحته ولا

(١) رواه مسلم وأحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذي واللفظ لمسلم.
(٢) مسلم بشرح النووي ١٢/ ٣٩ .
(٣) عون المعبود شرح سنن أبو داود ٧/ ٢٧٣ .
(٤) مسلم بشرح النووي ١٢/ ٤٠ .

ثقة رواته»[١].

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن ظروف الحرب تختلف من حرب إلى أخرى، ففي بعض الحروب يكون الأولى (في رأي الإمام ومن معه من قادة الجيش) أن يُقتّل الأسرى كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الأنفال: ٦٧].

وفي حالة يكون المسلمون بحاجة إلى مال فيكون الفداء من الأسرى، وفي حالة أخرى يكون المنّ عليهم إذا رأوا أن هناك حكمة وطمع في إسلامهم أو مصلحة معينة. ويتبع هذا أيضا بعضا من أحكام الصلح وغيرها.

* * *

(١) أحكام أهل الذّمة ١/ ٣٢.



القضية الرابعة عشر بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«المسلمون مأمورون بالقتال والجهاد حتى تكون كلمة اللَّه هي العليا في الأرض كلها».

الشرح:

(القتال): وأصل القتل إزالة الروح عن الجسد كالموت، لكن إذا اعتبر بفعل المُتولّي لذلك يقال: قتل، وإذا اعتبر بفوت الحياة يقال موت.

قال تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ [آل عمران: ١٤٤](١).

«الجهاد»: وأصلها جهد، والجهد الطاقة والمشقة. والجهاد المجاهدة واستفراغ الوسْع في مدافعة العدوّ(٢).

القرآن:

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وهذا إيجاب من اللَّه تعالى للجهاد على المسلمين أن يكفوا شَرَّ الأعداء عن حوزة الإسلام(٣).

وقد أمر سبحانه بالإعداد حتى لا يأخذنا العدو على غرّة قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال رسول اللَّه ﷺ في تفسير هذه الآية من حديث عقبة بن عامر: «ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»(٤).

---

(١) المفردات ٣٩٣.
(٢) المصدر السابق ١٠١.
(٣) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٧٠.
(٤) رواه مسلم.



وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ أي يكون دين اللّه هو الظاهر العالي على سائر الأديان(١).

قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]. فهذا إخبار عن اللّه تعالى بمحبته عباده المؤمنين إذا صفّوا مواجهين لأعداء اللّه في حومة الوغى، يقاتلون في سبيل اللّه من كفر باللّه لتكون كلمة اللّه هي العليا(٢).

وقال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ الصف: ٤] وهذا يكون بالمال والألسن والأنفس وأن يكون المقصود هو إعلاء كلمة اللّه تعالى.

السنة:

١- قال رسول اللّه ﷺ: «تكفّل اللّهُ لمن جاهد في سبيله لا يخرجُهُ من بيته إلا الجهاد في سبيله، وتصديق كلماته، بأن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة»(٣).

٢- وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سُئل رسول اللّه ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل اللّه؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة اللّه هي العليا فهو في سبيل اللّه»(٤).

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم ٢٤٣/١.
(٢) المصدر السابق ٣٧٨/٤.
(٣) متفق عليه.
(٤) متفق عليه.

القضية الخامسة عشر بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«والسياسة الشرعية مع غير المسلمين واجبة الاتباع».

قوله: «والسياسة الشرعية»

الشرح:

السِّياسة: من «ساس» الناس - سياسة: تولى رياستهم وقيادتهم، والأمورَ دبرها وقام وبإصلاحها، فهو سائس والجمع ساسة.

ومنه (سوس) كما في الحديث: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم أنبياؤهم» أي تتولى أمورهم كما تفعل الأمراء والولاة بالرعية. والسياسة: تدبير أمور الدولة.

فالسياسة: القيام على الشيء بما يصلحه[(١)].

والضابط لهذا الإصلاح هو الشرع. ولهذا قيل: السياسة الشرعية.

والشرع: «هو ما شرعه اللَّه لعباده في الدِّين: أي سنَّه لهم وافترضه عليهم»[(٢)] **فالسياسة الشرعية:** هي القيام بما يصلح شئون الناس وفق الضوابط الشرعية. سواء كان هؤلاء الناس مسلمون أم غير مسلمين.

قوله: «مع غير المسلمين»

ش: المقصود بهم الكفار الأصلين. فالكفار ينقسمون إلى قسمين:

أولًا: كفار أهل الحرب.

ثانياً: كفار أهل العهد وهم ثلاثة أصناف:

١- أهل الذِّمة ٢- أهل الهدنة ٣- أهل الأمان

---

(١) المعجم الوجيز ٣٢٨، والنهاية ٢/ ٤٢١ لابن الأثير.

(٢) النهاية لابن الأثير ٢/ ٤٦٠ .



تعريف الذِّمَّة:

والذِّمّة في اللغة: العهد. قال تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠].

وإلّا: بمعنى القرابة، والذِّمة: بمعنى العهد(١). وفي السنة: من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه قال ﷺ: «إذا حاصرت أهل حصن فأرادوا أن تجعل لهم ذمة اللّه وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة اللّه ولا ذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تخفروا ذممكم أهون من أن تخفروا ذمة اللّه وذمة رسوله»(٢).

الذِّمة اصطلاحاً: هي إقرار «إبقاء» بعض الكفار على كفرهم، بشرط بذل الجزية، والتزام أحكام الملة، أي: ما حكمت به الشريعة الإسلامية عليهم(٣).

أصناف الكفار من أهل العهد:

الصنف الأول أهل الذِّمة:

هم الكفار الذين يستوطنون بلاد الإسلام أي يتخذوها وطناً بالتزام دفع الجزية، وجريان أحكام الإسلام عليهم. فهم رعايا الدول الإسلامية من غير المسلمين.

والأصل في عقد الذمة قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ١٠]. ولا يعقد عقد الذمة إلا الإمام أو الأمير العام والرئيس العام للدولة أو نائبه كقائد الجيش أو الوزير، أو من يوليهم الإمامُ مثل هذا العقد وذلك لأنه يترتب عليه أحكام كثيرة من أهمها: أنه عقد مؤبد ليس فيه تقدير بمدة معينة.

---

(١) قاله ابن عباس والضحاك والسدي.

(٢) رواه مسلم.

(٣) انظر الشرح الممتع عل الزاد ٨/ ٦٠-٦١ للشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله.

أحكام أهل الذَّمة:

ولأهل الذمة أحكام كثيرة من حقوق، وواجبات قررتها الشريعة الإسلامية:

حقوق أهل الذمة:

أولًا: حُرمة دمائهم وأموالهم وأعراضهم فإنهم متى ما بذلوا الواجب عليهم وجب قبولهم وحرُم قتالهم. فلا يجوز لنا أن نرجع في هذا العقد، ونقول: لا نقبل منكم إلا الإسلام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١]. وقال ﷺ: «ذِّمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة اللّه والملائكة والناس أجمعين لا يقبل اللّه منه صرفاً ولا عدلًا»[(١)] وقال ﷺ: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وأن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً»[(٢)].

قال ﷺ: «لا يُقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهد في عهده»[(٣)].

قال تعالى في حكم من قتل كافراً من أهل الذمة: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ﴾ [النساء: ٩٢].

أي فإن كان القتيل أولياؤه أهل ذمة أو هدنة أو عهد فلهم ديّة قتيلهم ويجب أيضاً على القاتل تحرير رقبة مؤمنة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، لا إفطار بينهم، بل يسرد صومهما إلى آخرهما. هذا إذا كان قتل الكافر الذي له أمان وعهد خطأً. فكيف إذا قُتل عمداً؟ فلا شك أن الجرم يكون أعظم، والإثم يكون أكبر. ولهذا ذهب الإمام مالك وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما اللّه إلى أن المسلم إذا قتل الذمي غيلة - أي في حال الأمن على سبيل الخديعة - فإنه يُقتل به.

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه أحمد والبخاري من حديث عبد اللّه بن عمرو.

(٣) رواه بن ماجه من حيث بن عباس رضي الله عنه ، وحسنه الألباني رحمه الله وفي رواية «لا يُقتل مسلم بكافر» رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني رحمه الله .

وورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «أُوصي من بعدي بذمة رسول اللَّه ﷺ خيراً، وأن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتَل مِن ورائهم، وألا يُكَلفوا فوق طاقتهم»(١).

وخاطب ابن تيمية رحمه الله قازان(٢) في إطلاق الأسرى. فقال قازان لأبن تيمية: «لكن معنا نصارى أخذناهم من القدس، فهؤلاء لا يُطلقون».

فرد عليه ابن تيمية: «بل جميع مَن معك من اليهود والنصارى والذين هم من أهل ذمتنا فإنّا نفكُّهم ولا ندع أسيراً، لا من أهل المِلَّة، ولا من أهل الذمة»، وأطلقوا من النصارى من شاء اللَّه(٣).

ثانيا: حمايتهم:

١- قال الماوردي: «ويلتزم (الإمام) لهم (أهل الذِّمة) ببذلهما حقان أحدهما: الكفُّ عنهم. والثاني: الحماية لهم، ليكونوا بالكفِّ آمنين وبالحماية محروسين»(٤).

٢- لا يحل تكليفهم ما لا يقدرون عليه، ولا تعذيبهم على أداء الجزية، ولا حبسهم وضربهم. وعلى هذا فلو كان فيهم من لا يقدر على بعض دينار «جزء من الجزية» لوجب قبولُه منه بحسب قدرته. ولو عجز أحدهم عن دينار، لحطّه من ذلك، حتى قد روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أجرى على شيخ منهم من بيت مال المسلمين، وذلك أنه مُرّ به وهو يسأل على الأبواب. وفعله عمر بن عبدالعزيز، فعن هشام بن حكيم بن حزام أنه مرّ على قوم يُعذبون في الجزية بفلسطين، فقال هشام: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إن اللَّه يعذب يوم القيامة الذين يعذبون الناس في الدنيا»(٥).

٣- قال الشيرازي رحمه الله: وإن أغار أهل الحرب على أهل الذّمة، وأخذوا أموالهم

(١) الأموال: لأبي عبيد ٦٢، والخراج: لأبي يوسف ١٣٥ .
(٢) قازان محمود (١٢٩١- ١٣٠٤) سلطان المغول، اعتنق الإسلام.
(٣) الرسالة القبرصية ٢٤٧ .
(٤) الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٤٣ .
(٥) رواه أحمد ومسلم وأبو داود.

ثم ظفر الإمام بهم، واسترجع ما أخذوه من أهل الذّمة، وجب على الإمام ردُّه عليهم[١].

٤- قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذا عَقَدَ الذِّمَّةَ - يعني الإمام - فعليه حمايتهم من المسلمين، وأهل الحرب، وأهل الذّمة، لأنه التزم بالعهد بحفظهم»[٢].

٥- وقال الإمام محمد بن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «يجب نصرة أهل الذمة إن قُهِروا، إن قوينا على نصرتهم»[٣].

واجبات أهل الذِّمة:

١- **الالتزام بأحكام الإسلام** بالنفس والمال والعرض. أي إن قَتلَوا قُتِلوا وإن سرقوا أو قذفوا أحد بالزنا أقيم عليهم الحد، وعليهم كذلك الالتزام بالجزية.

٢- **ترك ما فيه ضرر على المسلمين في** أنفسهم وأموالهم. كتهديد المسلمين بضرب أو غيره.

٣- **التَّميّز عن المسلمين في الحياة،** بأن تكون ملابسهم مميزة عن أهل الإسلام وبعد الممات بأن تكون قبورهم منفردة، فلا يُقبرون مع المسلمين.

٤- **تحاشي ما فيه غضاضة على المسلمين،** أو استفزاز لهم، كذكر الإسلام أو القرآن أو الرسول ﷺ بما لا ينبغي.

٥- **تجنّب ما فيه إظهار منكر** كشرب الخمر أو إظهار للَّصليب في الأماكن العامة للمسلمين[٤].

---

(١) المهذب للشيرازي ٢/١٥٦ .
(٢) المغني لا بن قدامة ١٠/٦٢٣ .
(٣) السير الكبير وشرحه للإمام محمد بن حسن والسرخس ٢/٦٨٨ .
(٤) انظر المغني لا بن قدامة ١٠/٦٠٦-٦١٨ .



الصنف الثاني: أهل الهدنة(١):

ويُسمّون: أهل الهدنة وأهل العهد، وأهل الصّلح: وهم الكفار الذين صالحوا المسلمين على أن يكونوا في دارهم، سواء كان الصلح على مال أو غير مال، وهؤلاء لا تجري عليهم أحكام الإسلام، فإذا دخلوا دار الإسلام للإقامة المؤقتة بموجب الصلح صاروا تحت ولاية الإمام(٢). ومن صوره اليوم الاشتراك في منظمات دولية يلتزم أعضاؤها عدم تعرض بعضهم لبعض أو عقد الاتفاقيات الثنائية.

وأهل الهدنة ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من غَدَر بنا، فإنه قد انتقض عهده، ولا عهد له كما قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢].

كما غدر بنو بكر وهم حلفاء قريش في عهد الحديبية بقبيلة خزاعة وهم حلفاء النبي ﷺ فانتقض عهد الحديبية، وسار إليهم النبي ﷺ لفتح مكة في رمضان سنة ٨ هـ.

القسم الثاني: من استقام لنا، فإننا نستقيم له، ويبقى على عهده لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]. أي مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم، فتمسكوا أنتم كذلك بالعهد.

القسم الثالث: من خيف منه الغدر، فإننا ننبذ إليه العهد، ونخبره بأنه لا عهد بيننا وبينه، لنكون نحن وإياه على سواء كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]، يقول تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ قد عاهدتموهم، ﴿خِيَانَةً﴾ أي نقضاً لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود. ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أي عهدهن، ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم، حتى يبقى علمك

(١) راجع الفقرة ١١١ فقد تم بحث هذه المسألة بحثا مفصّلا.
(٢) أحكام أهل الذمة لابن القيم ٢/ ٤٧٥ .

وعلمهم، بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على سواء، أي: تستوي أنت وهم في ذلك(١).

الصنف الثالث: أهل الأمان.

والمستأمنون:- وهم الكفار الحربيون، الذين يَقْدمون إلى بلاد المسلمين من غير استيطان لها ؛ ويصح الأمان من كل مسلم، عاقل، مختار، ذَكَراً كان أو أنثى(٢)، ويجوز الأمان مطلقاً غير مقيد بمدة(٣).

ومن أمثلة المستأمنين:

الرُسُل: كالسفراء، وأعضاء البعثات الدبلوماسية، كما جاء إلى رسول اللَّه ﷺ يوم الحديبية جماعة من الرُسل من قريش، منهم عروة بن مسعود ومكرز بن حفص، وسهيل بن عمرو وغيرهم، واحداً بعد واحد، يترددون في القضية بينه وبين المشركين. وكذلك لما قدِم رسولُ مسيلمة الكذاب على رسول اللَّه ﷺ قال له: «أتشهد أن مسيلمة رسول اللَّه؟» قال: «نعم»، فقال رسول اللَّه ﷺ: «لولا أن الرسل لا تُقتل لضربت عنقك»(٤). أو من يحملون الجزية للإمام. والتجار: الذين جاءوا للتجارة سواءً بيعاً أو شراءً، والمستجيرون: الذين يريدون معرفة الإسلام، حتى يُعرض عليهم الإسلام والقرآن كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦]، يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أمرتك بقتالهم وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم، ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ أي: استأمنك فأجبه إلى طلبته، حتى يسمع كلام اللَّه أي: القرآن تقرؤه عليه، وتذكر له شيئاً من أمر الدين، تُقيم به عليه

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/٤٢٣ ابن كثير.

(٢) كما قال ﷺ لأم هانئ وقد أجارت أحد المشركين: «لقد أجرنا من أجرتِ يا أم هانئ»

(٣) وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية (٨/٥٣) انظر الشرح على الزاد.

(٤) رواه أحمد والطبراني، وصححه الألباني الجامع ٥٣٢٠، ورواه أحمد وأبو داود والحاكم برواية قريبة، وصححها الألباني الجامع ٥٣٢٨ .

حجة اللّه ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦] أي وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين اللّه وتنتشر دعوة اللّه في عباده(١).

فهذا يُعطى أماناً ما دام متردداً في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه، لكن قال العلماء: «لا يجوز أن يُمكَّن من الإقامة في دار الإسلام سنة، ويجوز أن يُمكِّن من الإقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك، فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة، قولان عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء رحمهم اللّه»(٢).

وكذلك من أراد زيارة قريب أو غيره، كما جاءت أم أسماء تزورها فأذن لها النبي ﷺ، أو كمن جاء ليعمل كالخدم ونحوهم.

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٤٥ لا بن كثير.
(٢) المصدر السابق.

القضية السادسة عشر بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«وعلى حكام المسلمين عدم اتخاذ بطانة من الكفار».

الشرح:

لقد نهى الإسلام أتباعه (سواء كانوا حكام أو محكومين) اتخاذ بطانة من الكفار.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

والبطانة: مصدر يُسمى به الواحد والجمع.

وبطانة الرجل هم خاصة أهله الذين يطّلعون على داخله وخارجه، والذين يستبطنون أمره، وأصله من البطن الذي هو خلاف الظهر. وبطن فلان بفلان يُبطن بطونا وبطانة إذا كان خاصا به.

قال الشاعر:

أولئك خلصائي نَعْم وبِطانتي   وهم عيبتي من دون كل قريبِ

وهذا تحذير من اللَّه تعالى لعباده المؤمنين أن يتخذوا من دونهم أي المنافقين وأهل الأهواء، دُخلاء ووُلجاء، يفاوضونهم في الآراء، ويسندون إليهم أمورهم.

وفسَّر الحسن هذه الآية فقال: «لا تستشيروا المشركين في أموركم» فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «ما بعث اللَّه من نبي، ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتحضّه عليه، وبطانة تأمره بالسوء وتحضّه عليه، والمعصوم من عصمه اللَّه»(١).

---

(١) رواه البخاري.



ورُوي أنَّ أبا موسى الأشعري رضي الله عنه استكتب[١] ذميا. فكتب إليه عمر يُعنِّفه وتلا هذه الآية.

وقدِم أبو موسى الأشعري على عمر رضي الله عنه بحساب، فرفعه إلى عمر فأعجبه، وجاء عمر كتاب، فقال لأبي موسى: أين كاتبك يقرأ هذا الكتاب على الناس؟

فقال: إنه لا يدخل المسجد. فقال: لِمَ! أجُنُب هو؟ قال: إنه نصراني؛ فانتهره وقال: لا تُدنهم، وقد أقصاهم اللّه.

وعن عمر رضي الله عنه قال: لا تستعملوا أهل الكتاب فإن يستحلون الرُّشا[٢]، واستعينوا على أموركم وعلى رعيتكم بالذين يخشون اللّه تعالى.

وقيل لعمر رضي الله عنه: إن ههنا رجلا من نصارى الحيرة لا أحَد أكْتَبُ منه، ولا أخط بقلم، أفلا يكتب عنك؟ فقال: لا آخذ بطانة من دون المؤمنين.

وقال القرطبي رحمه الله: وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كتبة وأمُناء، وتسوَّدوا بذلك عند الجهلة الأغبياء من الولاة والأمراء[٣].

ثم بين اللّه تعالى الأمور الموجبة للبراءة من اتخاذهم بطانة:

١- ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾: لا يقصرون فيما فيه الفساد عليكم (والخبال) الفساد، الذي قد يكون في الأفعال والأبدان والعقول.

٢- ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ أي ما يشق ويصعُب عليكم. والعنت المشقة.

٣- ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ يعني ظهرت العداوة والتكذيب لكم من أفواههم وفلتات ألسنتهم. «والبغضاء»: البغض وهو ضدّ الحُبِّ.

٤- ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨] وهذا إعلام من اللّه تعالى علّام

---

(١) أي جعله كاتباً له.
(٢) الربا.
(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي المجلد الثاني الجزء الرابع صفحة ١٧٨ .

الغيوب بأنهم يبطنون من البغضاء أكثر مما يُظهرون بأفواههم، ثم قال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فإن كانت لكم فهوم وعقول، فقد وضَّح اللَّه لكم أَمْرَهم مالا يخفى مثله على لبيب عاقل.

وأيضا، فما الموجب لمحبتهم واتخاذهم أولياء وبطانة، وقد تعلمون منهم الانحراف العظيم في الدين وفي مقابله إحسانكم[١].

* * *

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي م٢ج٤/١٧٨ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٥٢٨ وتيسير الكريم الرحمن لابن سعدي ١٦٢ .



القضية السابعة عشر بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«وموالاة الكفار المحاربين بالمحبة، أو النصرة على المسلمين أو الرضى(١) عن دينهم الباطل، أو التنازل(٢) لهم عن شيء من الإسلام كفر وردة».

الشرح:

والموالاة هي النصرة والتأييد وقد نهى اللَّه تعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين باتخاذهم أولياء يُسرّون إليهم بالمودة من دون المؤمنين كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨] قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا نهى اللَّه المؤمنين أن يلاطفوا الكفار فيتخذوهم أولياء(٣) فهذه من صفات المنافقين الذين قال اللَّه فيهم: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨- ١٣٩] فقد بشر اللَّه المنافقين الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر بأقبح بشارة وأسوأها، وهو العذاب الأليم. وذلك بسبب محبتهم للكفار وموالاتهم، ونصرتهم، وتركهم لموالاة المؤمنين. فأي شيء حملهم على ذلك؟ أيبتغون عندهم العزة؟ «أي الغلبة» وهذا هو الواقع من أحوال المنافقين. ساء ظنهم باللَّه، وضعف يقينهم بنصر اللَّه لعباده المؤمنين. ولحظوا بعض الأسباب التي عند الكافرين، وقصر نظرهم عمّا وراء ذلك. فاتخذوا الكافرين أولياء، يتعزون بهم ويستنصرون. ففي هذه الآية الترهيب العظيم من موالاة الكافرين، وترك موالاة المؤمنين(٤).

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير الآية: «. . . . . . أما قوله جل ثناؤه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]. فهذه

---

(١) انظر الفقرة ١١٩ .
(٢) انظر الفقرة ١١٢ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي م ٢ ج ٤/ ٥٧ .
(٤) تيسير الكريم الرحمن بن سعدي ٢٥٠ .

من صفة المنافقين، يقول اللَّه لنبيه: يا محمد، بشر المنافقين الذين يتخذون أهل الكفر بي، والإلحاد في ديني أولياءَ يعني أنصارا وأخلاء - من دون المؤمنين - يعني من غير المؤمنين، أيبتغون عندهم العزة أيطلبون عندهم المنعة والقوة باتخاذهم إياهم أولياء من دون أهل الإيمان بي؟، فإن العزة للَّه جميعا. يقول: فإن الذين اتخذوهم من الكافرين أولياء ابتغاء العزة عندهم هم الأذلاء الأقلاء...»(١).

وهذا كقول اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧]. فهذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله من الكتابيين والمشركين، الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون: وهي شرائع الإسلام المطهّرة المحكمة، المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي، يتخذونها «هزوا» يستهزئون بها، «ولعبا» يعتقدون أنها من اللعب في نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد.

كما قال القائل:

وكم من عائب قولا صحيحا   وآفته من الفهم السقيم(٢)

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١]. وهذه الآية فيها النهي الشديد عن موالاة الكفار من المشركين وغيرهم، وإلقاء المودة إليهم، وأن ذلك مُنافٍ للإيمان، ومخالف لملة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ومناقض للعقل الذي يوجب الحذر كل الحذر.

«تلقون إليهم بالمودة» أي: تسارعون في مودتهم والسعي في أسبابها، فإن المودة إذا حصلت، تبعتها النصرة والموالاة، فخرج العبد من الإيمان، وصار من جملة أهل الكفران.

---

(١) تفسير الطبري ٩/٣١٩ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ص ٣/١٤٠ .



وهذه من أخص صفات المنافقين، فهم في الظاهر مع المؤمنين، لكنهم في الحقيقة مع الكفار عيونا وأعواناً، يكشفون لهم عورات المسلمين وأسرارهم ويتربصون بالمؤمنين الدوائر.

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ، بعد ما ذكر الخلاف في المعنى بهذه الآية: «والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن اللَّه تعالى ذكره، نهى المؤمنين جميعا أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصارا وخلفاء على أهل الإيمان باللَّه ورسوله، وأخبر أنه من اتخذهم نصيرا وحليفا ووليا من دون اللَّه ورسوله والمؤمنين، فإنه منهم في التحزب على اللَّه وعلى رسوله والمؤمنين، وأن اللَّه ورسوله بريئان»[1].

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ ومن يتول اليهود والنصارى دون المؤمنين فإنه منهم، يقول: «فإن من تولاهم ونصرهم على المؤمنين، فهو من أهل دينهم وملّتهم، فإنه لا يتولى أحداً إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راضٍ، وإذا رضيه ورضي دينَه، فقد عادى ما خلافه وسَخِطَه وصار حكمُه حكمَه...»[2]، وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [المائدة: ٥٢].

بعدما ذكر الخلاف فيمن عني بهذه الآية: «والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن ذلك من اللَّه خبر عن ناسٍ من المنافقين كانوا يوالون اليهود والنصارى ويغشّون المؤمنين، ويقولون: نخشى أن تدور دوائر - إما لليهود والنصارى، وإما لأهل الشرك من عبدة الأوثان، أو غيرهم - على أهل الإسلام أو تنزل بهؤلاء المنافقين نازلة، فيكون بنا إليهم حاجة، وقد يجوز أن يكون ذلك كان من قول عبد اللَّه بن أُبي، ويجوز أن يكون كان من قول غيره، غير أنه لا شك أنه من قول المنافقين»[3]. ولهذا فالمتخِذ الكافرَ وليا عادم المروءة أيضا، فإنه كيف يوالي أعدى أعدائه الذين لا يريد له إلا الشر ويخالف ربه، ووليه الذي يريد به الخير، ويأمره

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٣٩٨ .
(٢) نفسه ١٠/ ٤٠ .
(٣) نفسه ١٠/ ٤٠٤، وانظر تفسير الطبري ٦/ ٢١٦ - ٢١٨، وتفسير ابن كثير ٢/ ٦٨، ٦٩ .

به، ويحثه عليه؟ ومما يدعو المؤمن أيضا إلى معاداة الكفار، أنهم قد كفروا بما جاء المؤمنين من الحق، ولا أعظم من هذه المخالفة والمشاقة فإنهم قد كفروا بأصل دينكم، وزعموا أنكم ضُلّال على غير هدى[(١)].

ومعلوم أن موالاة الكفار مراتب مختلفة[(٢)]، ومنها ما يصل إلى درجة الكفر الأكبر، ومنها دون ذلك، وما يشير إليه هو الموالاة المُخْرِجة من الملة التامة لهم بالرضى عن دينهم، أو تصحيح مذهبهم، ونحو ذلك، يقول الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ مبينا ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: ٢٨].

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهرا وأنصارا توالونهم على دينهم وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدلّونهم على عوراتهم، فإنه من يفعل ذلك فليس من اللَّه في شيء، يعني بذلك: فقد برئ اللَّه منه، بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر...»[(٣)].

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ، ضمن نواقض الإسلام: والناقض الثامن: مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين.

والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١][(٤)]
ويقول ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لأن التولي التام، يوجب الانتقال إلى دينهم.

والتولي القليل، يدعو إلى الكثير، ثم يتدرج شيئا فشيئا حتى يكون العبد منهم»[(٥)].

ويقول أيضا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ١١٩٠ - ١١٩١ لابن سعدي.
(٢) انظر الولاء والبراء، د. محمد القحطاني ٢٣١ - ٢٤٧ .
(٣) تفسير الطبري ٦/٣١٣ .
(٤) الرسائل الشخصية ٢١٣ .
(٥) تيسير الكريم الرحمن ٣١ .



«وذلك الظلم يكون بحسب التولي، فإن كان تولّياً تاماً، كان ذلك كفراً مخرجا من دائرة الإسلام، وتحت ذلك من المراتب، ما هو غليظ، وما هو دونه»(١).

ولا شكُ، فإن هذه الموالاة تدل على فساد في اعتقاد صاحبها من جهة منافاتها لعمل القلب من الحب والبغض - كما هو معلوم - وهذا أصل الولاء والبراء فمحبة المؤمنين تقتضي موالاتهم، وبغض الكافرين يقتضي البراءة منهم ومن مذاهبهم وعداوتهم ومحاربتهم، فإذا عادى المرءُ المؤمنين وأبغضهم، ووالى الكافرين وناصرهم على المؤمنين فقد نَقَضَ أصل إيمانه.

وتجدر الإشارة بأن عدم البِّر والصِلة مع الكفار، المقصود به هم الكفار المحاربين أما غير المحاربين فهؤلاء الموقف يختلف معهم كما قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

أي لا ينهاكم اللَّه عن البر والصلة، والمكافأة بالمعروف والقسط للمشركين، من أقاربكم وغيرهم، حيث كانوا بحال لم ينصبوا لقتالكم في الدين، والإخراج من دياركم. «كقبيلة خزاعة الذين صالحوا النبي ﷺ على ألا يقاتلوه، ولا يعينوا عليه أحدا» فليس عليكم جناح أن تصلوهم، فإن صلتهم في هذه الحالة، لا محذور فيها ولا تبعة.

كما قال تعالى في الأبوين الكافرين إذا كان ولدهما مسلما: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: ١٥].

وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق ﵄ قالت: «قدمت عليّ أمي(٢) وهي مشركة في عهد رسول اللَّه ﷺ، فاستفتيت رسول اللَّه ﷺ قلت: «قدمت عليّ أمي وهي راغبة(٣)، أَفَأَصِلُ أمي؟ قال نعم صِلي أمّك» »(٤).

---

(١) تفسير الكريم الرحمن ١٢٠٨ .
(٢) واسمها قُتيلة، طلقها أبو بكر في الجاهلية. فقدمت عليها في الفترة التي كانت فيها المهادنة بين رسول اللَّه ﷺ وكفار قريش في الحديبية.
(٣) راغبة: أي طامعة بما عندي تسألني شيئا.
(٤) متفق عليه.

القضية الثامنة عشر بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«والكافر غير المحارب يستحب صلته والإحسان إليه والبر به»

الشرح:

والأصل في هذه المسألة قولُه تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

والبرّ: هو التوسع في فعل الخير. وقد اختلف أهل التأويل في الذين عنوا بهذه الآية:

١- فقال بعضهم: عُني بها الذين كانوا آمنوا بمكة ولم يهاجروا. فأذن اللَّه للمؤمنين برّهم والإحسان إليهم. روى هذا عن مجاهد.

٢- وقال آخرون: عُني بها في غير أهل مكة مَن لم يهاجر. روي هذا عن عبد اللَّه ابن الزبير.

٣- وقال آخرون: بل عُني بها من مشركي مكة ومَن لم يقاتل المؤمنين، ولم يخرجوهم من ديارهم؛ قال: ونسخ اللَّه ذلك بعد بالأمر بقتالهم. روي هذا عن ابن زيد وقتادة وقالوا نسختها: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.

٤- وقيل كان هذا الحكم لِعِلة وهو الصّلح، فلما زال الصّلح بفتح مكة نُسخ الحكم وبقي الرسم يتلى[١].

٥- وقيل هي: مخصوصة في حلفاء النبي ﷺ ومَن بينه وبينه عهد لم ينقضه. روي عن الحسن، والكلبي وأبي صالح.

٦- وقيل: يعني به النساء والصبيان لأنهم ممن لا يقاتِل، فأذن اللَّه في برّهم.

٧- وقال أكثر أهل التأويل: هي محكمة، قاله القرطبي.

---

(١) وهذا من قسم نسخ الحكم وبقاء التلاوة.

وقال الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عُني بذلك في جميع أصناف المِلل والأديان أن تبرّوهم وتصلوهم، وتقسطوا إليهم، إن اللَّه عزَّ وجلَّ عمّ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾جميع من كان ذلك صفته، فلم يخصص به بعضا دون بعض، ولا معنى لقول من قال: «ذلك منسوخ، لأن برّ المؤمن من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب، أو ممن لا قرابة بينه وبينه ولا نسب غير محرّم، ولا منهيّ عنه، إذا لم يكن في ذلك دلالة له، أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام، أو تقوية لهم بكراع[١]، أو سلاح».

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ يقول: إن اللَّه يحب المنصفين الذين ينصفون الناس، ويعطونهم الحق والعدل من أنفسهم، فيبرّون من برّهم، ويُحسنون إلى من أحسن إليهم[٢].

ولما نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١]، المهيجة على عداوة الكافرين، وقعت من المؤمنين كل موقع، وقاموا بها أتم القيام. وتأثموا من صلة بعض أقاربهم المشركين وظنوا أن ذلك داخل فيما نهى اللَّه عنه.

فأخبرهم اللَّه أن ذلك لا يدخل في المحرم، فقال: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، أي لا ينهاكم اللَّه عن البر والصلة، والمكافأة بالمعروف، والقسط للمشركين، من أقاربكم وغيرهم حيث كانوا بحال لم ينصبوا لقتالكم في الدين، والإخراج من دياركم.

فليس عليكم جناح أن تصلوهم، فإن صلتهم في هذه الحالة، لا محذور فيها[٣].

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: «قدِمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ

---

(١) الكراع: اسم لجميع الخيل (النهاية لابن الأثير ٤/ ١٦٥).
(٢) انظر جامع البيان للطبري ٢٨/ ٩٥ - ٩٦، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨/ ٥٩ .
(٣) تيسير الكريم الرحمن ١١٩٣ .

عاهدوا [١]، فاستشرت النبي ﷺ فقلت: «يا رسول اللّه ! إن أمي قدِمت وهي راغبة، أفأصلها؟» قال: «نعم، صِلي أُمَّكِ»[٢].

وفي رواية عبد اللّه بن الزبير رضي الله عنهما قال: قدِمت «قتيلة» على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا صناب وأقط وسمن، وهي مشركة، فأبت أسماء أن تقبل هديتها وأن تدخلها بيتها.

فسألت عائشة النبي ﷺ، فأنزل اللّه تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ إلى آخر الآية، فأمرها أن تقبل هديتها وأن تدخلها بيتها [٣].

وروى القرطبي أن إسماعيل بن إسحاق القاضي: دخل عليه ذمّي فأكرمه، فأخذ عليه الحاضرون في ذلك ؛ فتلا هذه الآية عليهم.[٤]

وقال الخطابي: في الحديث «حديث أسماء» أن الرحم الكافرة توصل من المال ونحوه كما توصل المسلمة، ويُستنبط منه وجوب نفقة الأب الكافر والأم الكافرة وإن كان الولد مسلما[٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥]، نزلت في سعد بن مالك بن أبي وقاص قال: «كنت رجلا بَرا بأمي، فلما أسلمتُ قالت: يا سعد ! ما هذا الذي أراك قد أحدثت؟ لتدعن دينك هذا، أولا آكل ولا أشرب حتى أموتُ فتُعيَّر بي، فيقال: يا قاتل أمه !» فقلتُ: «لا تفعلي يا أمه ! فإني لا أدع ديني هذا لشيء».

فمكثتْ يوما وليلة لم تأكل، فأصبحتْ قد جهدت، فمكثتْ يوما وليلة أخرى لا

---

(١) صلح الحديبية.
(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم.
(٣) رواه أحمد في مسنده.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٦٠ .
(٥) فتح الباري ٥/ ٢٣٤ .

تأكل، فأصبحتْ قد اشتد جهدها، فلما رأيتُ ذلك قلت: «يا أُمه، تعلمين واللّه لو كانت لك مائة نفس، فخرجت نفسا نفسا، ما تركتُ ديني هذا لشيء، فإن شئت فكُلي، وإن شئت لا تأكلي»، فأكلت[1].

قال القرطبي: «الآية دليل على صِلة الأبوين الكافرين بما أمكن من المال إن كانا فقيرين، والقول والدعاء إلى الإسلام برفق». وقال الطبري: «وصاحبهما في الدنيا بالطاعة لهما فيما لا تبعة عليك منه فيما بينك وبين ربك ولا إثم»[2].

وقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦].

والجار الجنب، قال نوف البكالي: «يعني اليهودي والنصراني».

* * *

---

(١) رواه أحمد وابن جرير الطبري في تفسيره.
(٢) الجامع للطبري ٢١/٧١ .

القضية التاسعة عشر بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«ومقام الدعوة إلى اللَّه يقتضي اللين والرفق، ومقام القتال يستلزم الغلظة والشِّدة».

قوله: «ومقام الدعوة إلى اللَّه تعالى»

الشرح: ومقام الدعوة إلى اللَّه من أشرف، وأنبل المقامات ولهذا أمر اللَّه به وحثّ عليه المؤمنين في كل الأمم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧].

فالأمم قبلنا كانوا ملزمين بتغيير المنكر كإلزامنا بذلك، كما جاء في حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «ما من نبي بعثه اللَّه في أُمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»(١).

وإمام الدعاة وقدوتهم: هو نبينا ورسولنا وقدوتنا محمد ﷺ الذي وصفه اللَّه بأنه رؤوف رحيم، كما قال تعالى ممتناً على هذه الأمة بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقد بلغ تميّزه بالتحلّي بتلك الصفات السامية الكريمة حتى جاء ذكرها في التوراة كصفات بارزة ومميزة له.

فعن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فقلت: «أخبرني عن صفة رسول اللَّه ﷺ في التوراة». قال: «أجل واللَّه! إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: «ياأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزا

---

(١) رواه أحمد ومسلم.



للأُميين، أنت عبدي ورسولي، سمّيتك المتوكِّل، ليس بفظّ ولا غليظ، ولا سخاب[١] في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر...»[٢].

وقوله: «يقتضي اللين والرفق»

ش: المراد بـ «**اللين**»: اللين ضد الخشونة، ويستعمل ذلك في الأجسام ثم يُستعار للخُلق وغيره من المعاني[٣]. (واللِّين) يتضّمن لين الجانب، وحُسن الخلق وكثرة الاحتمال، وعدم الإسراع بالغضب والتعنيف إذا بدر من المسلمين خطأ.

والمراد بـ «**الرِفق**»: هو ليِّن الجانب بالقول والفعل، والأخذ بالأسهل وهو ضد العنف[٤]، وقيل: هو لين الجانب ولطافة الفعل[٥].

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فاللَّه يخاطب رسوله ﷺ ممتناً عليه وعلى المؤمنين فيما آلان به قَلْبَه على أمته المتبعين لأمره، التاركين لزجره. وهذا خُلق الرسول ﷺ الذي بعثه اللَّه به. بل هو خُلق جميع الأنبياء.

مثل هذه الآية، قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وكقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٢- ٤٤].

وهذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة اللَّه من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أُمر أن لا يخاطب فرعونُ إلا بالملاطفة واللّين، كما قال يزيد الرقاشي عند قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤].

---

(١) سخاب: من السخب: وهو رفع الصوت بالخصام (انظر فتح الباري ٤/ ٣٤٣).
(٢) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كراهية السَخَب في الأسواق، جزء من الحديث ٢١٢٥، ٤/ ٢٤١- ٢٤٣.
(٣) المفردات في غريب القرآن ٤٥٧ للراغب الأصفهاني.
(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٢٦٤ للإمام ابن الأثير.
(٥) أساس البلاغة للزمخشري ١٧١.

يا من يتحبب إلى من يعاديه فكيف بمن يتولاه ويناديه؟

حتى إنه قال بعض أهل التفسير كسفيان الثوري: «أي أن يُكنّيه». أي يقول له: «يا أبا مُرَّة». والحاصل أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق، لينٍّ، سهل، ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجح كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال ﷺ: «إن اللَّه رفيق يحب الرفق في الأمر كله»[(١)(٢)]. وقال أيضا: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا يُنزع من شيء إلا شانه»[(٣)].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «ألا أُخبركم بمن يحرم على النار - أو بمن تحرم عليه النار؟ - تحرم على كل قريب هيِّن ليِّن سهل»[(٤)].

والمقصود باللّيِّن والرفق: «المداراة»، أي: أن تكون دعوته خالية من العنف والخشونة، والقسْوة، والشِّدة، والجفاء، أو بعبارة أخرى: أن تكون عنده «مداراة» وهي من أقوى أسباب الأُلفة، ومنها: الرِفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله.

فلا نقصد إذاً بقولنا بأن يتحلى الداعي باللّيِّن والرفق: أي أن يكون مداهناً للفسقه، وأن يرى منكراً فلا ينكره بوسائله المشروعة والمتاحة، وذلك لأن المداهنة أمر محرَّم، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٨-٩].

قال ابن عباس ﷺ: «لو تُرخِّص لهم فيرخصون». وقال مجاهد: «تركن لآلهتم وتترك ما أنت عليه من الحق»[(٥)].

(١) تفسير القرآن ٣/ ١٨١٤ لابن كثير.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه الترمذي وقال: حديث حسن والطبراني، وصححه الألباني في الصحيحة رقم ٩٣٨ - ٢/ ٦١١ .
(٥) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٨٩٦ لابن كثير.



فالمداهنة: «هي أن تُظهر شيئاً وتستر باطنه». وفسَّرها بعض العلماء: بأنها معاشرة الفاسق، وإظهار الرضا بما هو منه من غير إنكار عليه.

وقال النبي ﷺ: «مثل المداهن[١] في حدود اللّه والواقع فيها مثل قوم استهموا[٢] سفينة، فصار بعضهم في أسفلها، وصار بعضهم في أعلاها. فكان الذي في أسفلها يمرّون بالماء على الذين في أعلاها، فتأذوا به، فأخذ فأساً فجعل ينقر[٣] أسفل السفينة، فأتوه، فقالوا: «مالك؟» قال: «تأذيتم ولا بدّ لي من الماء «فإن أخذوا على يديه[٤]، أنجوه ونجوّا أنفسهم، وأن تركوه أُهلكوا، وأهلكوا أنفسَهم»[٥].

حثّ الإسلام على الليّن والرِفق:

١ - **وصيّته بالرِفق**: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال ﷺ: «اللّهم من رفق بأمتي فارفق به، ومن شقّ عليهم فشقّ عليه»[٦].

فالداعية مِن أَوْلى الناس بالحرص على نيل دعاء النبي الكريم ﷺ، وذلك بالرفق بأمته من خلال الدعوة إلى اللّه تعالى.

٢ - **التيسير والتبشير**: ومما يدل على ضرورة تحلّي الداعية بالرفق واللين أن الرؤوف الرحيم لما بعث أبا موسى الأشعري ومعاذَ بن جبل رضي الله عنهما إلى اليمن أوصاهما بالتيسير والتبشير ونهاهم عن التعسير والتنفير.

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: لما بعثه رسول اللّه ﷺ ومعاذ بن جبل قال لهما: «يسِّرا ولا تُعسِّرا، وبشِّرا، ولا تُنفرا، وتطاوعا»[٧].

---

(١) المداهن: من الإدهان وهو المحاباة في غير حق، وهو الذي يرائي، ويضيع الحقوق ولا يغير المنكر.
(٢) استهموا سفينة: اقترعوها. أي أخذ كل واحد منهم سهماً أي نصيباً من السفينة بالقرعة.
(٣) ينقر: يحفر يخرقها.
(٤) أخذوا على يديه: منعوه من النقر.
(٥) رواه البخاري رقم ٢٥٤٠ .
(٦) رواه أحمد في مسنده. ووكيع بن الجراح في كتاب الزهد، وأصله في صحيح مسلم.
(٧) متفق عليه.

٣ - **رفقة ﷺ بمن كانت يده تطيش في الصحفة**، وأثر ذلك عن عمر بن أبي سلمة يقول: «كنت غلاماً[١] في حجر[٢] رسول اللَّه ﷺ، وكانت يدي تطيش[٣]. في الصحفة[٤]، فقال لي رسول اللَّه ﷺ: «يا غلام ! سمّ اللَّه، وَكُلْ بيمينك، وكل مما يليك»[٥]، وفي رواية عند أبي داود أنه ﷺ قال له: «أدْن منّي، فسمِّ اللَّه وكل بيمينك، وكل مما يليك»[٦]. إن تفضّله ﷺ على عمر رضي الله عنه بإدنان من نفسه الكريمة، ثم مخاطبته بـ «بُنيَّ» ليزيد الرفق لطفاً وكرماً. وكيف كان أثر هذه الدعوة المقرونة بالرفق واللطف والكرم؟ فلنسمع ما يقوله عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه نفسه: «فما زالت تلك طِعمتي بعد»[٧][٨].

٤ - **لُطفه ﷺ بمن تحدّث في الصلاة وثمرته:**

عن معاوية بن الحكم السُلمي رضي الله عنه قال: بينا أنا أصلّي مع رسول اللَّه ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: «يرحمك اللَّه»، فرماني القوم بأبصارهم فقلت: «واثكل

---

(١) غلاماً: أي دون سن البلوغ. يُقال للصبي من حين يُولد إلى أن يبلغ غلام (عمدة القارئ ٢١/ ٢٩).
(٢) (حَجْر رسول اللَّه ﷺ): بفتح الحاء المهملة وسكون الجيم، أي في تربيته وتحت نظره، وأنه يربّيه في حضنه تربية الوالد فتح (الباري ٩/ ٥٢١).
(٣) تطيش: تتحرك، وتمتد إلى نواحي الصحفة، ولا تقتصر على موضع واحد (شرح النووي ١٣/ ١٩٣).
(٤) الصحفة: ما تشبع خمسة ونحوها، وهي أكبر من القصعة (فتح الباري ٩/ ٥٢٢).
(٥) صحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامها، (رقم الحديث ٢٠٢٢، ٣/ ١٥٩٩).
(٦) انظر مختصر سنن أبي داود للمنذري، كتاب الأطعمة، باب الأكل باليمين، (رقم الحديث ٣٦٢٩، ٥/ ٣٠٤).
ورواه أيضا الإمام الترمذي. ولفظه: «ادن يا بُنَيَّ. .الحديث» بلفظ «يا» قبل «بنّي» (انظر صحيح سنن الترمذي) أبواب الأطعمة، باب ماجاء في التسمية على الطعام، (رقم الحديث ١٥١٢، ٢/ ١٦٧).
(٧) (فمازالت تلك طعمتي): بكسر الطاء، أي صفة أكلي أي: لزمت ذلك وصار عادة لي (فتح الباري ٩/ ٥٢٣).
(٨) صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، (رقم الحديث ٥٣٧٦، ٩/ ٥٢١).



أمياه[(١)] ما شأنكم تنظرون إليّ؟» فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم فلما رأيتهم يصّمتونني لكني سكتُ. فلما صلى النبي ﷺ فبأبي هو وأمي. ما رأيت معلِّماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه. فواللّه ! ماكهرني[(٢)] ولا ضربني ولا شتمني، قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس. إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن» أو كما قال رسول اللّه ﷺ.

وماذا كانت نتيجة الرِفق واللّطف مع الرجل؟

ولنقرأ بقية القصة، يحدثنا الرجل نفسه، قلت: «يا رسول اللّه ! إني حديث عهد بجاهلية[(٣)] وقد جاء اللّه بالإسلام، وإن منّا رجالًا يأتون الكهان». قال: «فلا تأتهم». قال «ومنّا رجال يتطيرون»[(٤)]. قال: «ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم»[(٥)]. قال: قلت: «ومنّا رجال يخطون» قال: «كان نبي من الأنبياء يخط، فمن وافق خطه فذاك»[(٦)(٧)].

---

(١) (واثُكْل أمياه): الثكل بضم الثاء وإسكان الكاف، وبفتحهما جميعاً لغتان، كالبُخْل والبَخَل، حكاهما الجوهري وغيره: وهو فقدان المرأة ولدها، وأمياه: بكسر الميم (انظر شرح النووي ٥/ ٢٠).

(٢) كهرني: القهر، والكهر، والنهر متقاربة: أي ما قهرني ولا نهرني (انظر تعليقات الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي على صحيح مسلم ١/ ٣٨١).

(٣) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته، رقم الحديث ٥٣٧، ١/ ٣٨١ -٣٨٢ .

(٤) ما أسرع الرفق أثراً ! ياليتنا نعي هذه الحقيقة ! عُومل الرجل بالرفق وفُهِّم باللين، فأدرك حقيقة تصرّفه ومنبعه ومنشأه وظهر ذلك في قوله: «يا رسول اللّه ! إني حديث عهد بالجاهلية».

(٥) (فلا يصدنهم): وفي رواية «فلا يصدنكم»: ومعناه: «أن الطيرة شيء تجدونه في نفوسكم ضرورة ولا عتب عليكم في ذلك، فإنه غير مكتسب لكم، ولكن لا تمتنعوا بسببه من التصرف في أموركم، فهذا هو الذي تقدرون عليه وهو مكتسب لكم» «شرح النووي ٥/ ٢١- ٢٣».

(٦) (فمن وافق خطه فذاك): معناه من وافق خطه فهو مباح له، ولكن لا طريق لنا إلى العلم اليقيني بالموافقة فلا يباح، والمقصود أنه حرام لأنه لا يباح إلا بيقين الموافقة وليس لنا يقين بها. (انظر شرح النووي ٥/ ٢٣) واتفق العلماء على النهي عنه الآن (انظر المرجع السابق ٥/ ٢٣).

(٧) صحيح مسلم ١/ ٣٨٣ .

قال: وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قِبل أُحُد والجوانية[١]. فاطَّلعت ذات يوم، فإذا الذيب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم آسف[٢] كما يأسفون لكنّي صككتها[٣] صكة. فأتيت رسول اللّه ﷺ فعظّم ذلك عليّ، قلت: يا رسول اللّه ! أفلا أعتقها؟. قال: «ائتني بها». فأتيته بها فقال لها: «أين اللّه»؟. قالت: «في السماء». قال: «من أنا»؟ قالت: «أنت رسول اللّه». قال: «أعتقها فإنها مؤمنة»[٤].

يقول الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ تعليقاً على الحديث الشريف: «فيه بيان ما كان عليه رسول اللّه ﷺ من عظيم الخلق الذي شهد اللّه تعالى له به، ورفقه بالجاهلُ ورأفته وشفقته عليه. وفيه التخلّق بخلقه ﷺ في الرفق بالجاهل، وحسن تعليمه، واللّطف به، وتقريب الصواب إلى فهمه»[٥].

٥ - لينه ﷺ بمن جاء يستأذن في الزّنا ونتيجته:

عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول اللّه ائذن لي بالزنا ! فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه. فقال: «ادنه». فدنا منه قريباً قال: فجلس قال: «أتحبه لأمك»؟ قال: «لا، واللّه! جعلني اللّه فداءك». قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم» قال: «أفتحّبه لابنتك»؟ قال: «لا. واللّه!يا رسول اللّه جعلني اللّه فداءك». قال: «ولا الناس يحبونه لا لبناتهم». قال: «أفتحبّه لأختك»؟. قال: «لا، واللّه ! جعلني اللّه فداءك». قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم».

قال: «أفتحبّه لعمتك»؟ قال: «لا، واللّه ! جعلني اللّه فداك».

قال: «ولا الناس يحبونهم لعماتهم». قال «أفتحبه لخالتك»؟.

---

(١) (الجوّانيّة): بفتح الجيم وتشديد الواو وبعد الألف ونون مكسورة ثم ياء مشددة. وهي مكان بقرب أحد شمالي المدينة المنورة (انظر شرح النووي ٥/ ٢٣).
(٢) آسف: بفتح السين أغضب «انظر شرح النووي ٥/ ٢٤».
(٣) (صككتها): أي لطمتها (انظر شرح النووي ٥/ ٢٤).
(٤) صحيح مسلم ١/ ٣٨ .
(٥) شرح مسلم للنووي ٥/ ٢٠ .

قال: «لا، واللَّه !جعلني اللَّه فداك». قال «ولا الناس يحبونه لحالاتهم».

قال: فوضع يده عليه، وقال: «اللَّهم اغفر ذنبه، وطهِّر قلبه، وحصِّن فرجه».

فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[(١)] وكيف أثر النصح بالرفق واللين على الشاب؟ لم يكن يلتفت الشاب إلى شيء بعد ذلك، وهو الذي كان قد جاء يستأذن في الزنا.

٦ - ملاطفته ﷺ مع ثمامة بن أثال رضي الله عنه وأثرها:

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ خيلًا قِبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: «ماذا عندك يا ثمامة؟». فقال: «عندي خير. يا محمد. إن تقتلني تقتل ذا دم وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت». فتركه حتى كان بعد الغد، قال له «ما عندك يا ثمامة»؟ فقال: «عندي ما قلت لك» فقال: «أطلقوا ثمامة»[(٢)].

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: «أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأشهد أن محمداً رسول اللَّه. يا محمد، واللَّه ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ. واللَّه ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إليّ. واللَّه ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إليّ. وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى»؟ فبشّره رسول اللَّه ﷺ وأمره أن يعتمر. فلما قدم مكة قال له قائل: «صبوت»؟ قال: لا واللَّه ولكن أسلمت مع محمد رسول اللَّه ﷺ ولا، واللَّه لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيه النبي ﷺ[(٣)].

---

(١) مسند الإمام أحمد ٥/ ٢٥٦-٢٥٧ وقال الشيخ زين الدين العراقي عن الحديث: رواه أحمد بإسناد جيد، رجاله رجال الصحيح (هامش إحياء علوم الدين ٢/ ٣٣٤).

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال رضي الله عنه، رقم الحديث ٤٣٧٢، ٨/ ٨٧ .

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٢/ ٨٩ .

يقول الإمام النووي: «قوله ﷺ: «ما عندك يا ثمامة؟» وكرّر ذلك ثلاثة أيام. هذا من تأليف القلوب وملاطفة لمن يُرجى إسلامه من الأشراف الذين يتبعهم على إسلامهم خلق كثير»(١). . ما أعظم لُطْفَ الرسول ﷺ ورِفْقَه مع عدو ! كان أثر ذلك على العدو البغيض.

هكذا كانت ثمرات الدعوة بالرفق واللطف واللين للنبي الكريمﷺ. وعلى الداعية الذي يقوم مقامه ﷺ في القيام بالمهمة الدعوية أن يجعل دعوته كذلك عسى اللّه تعالى أن يجعلها مثمرة ومفيدة أيضاً.

أقوال العلماء حول ضرورة تحلي الداعية بالرِفق واللّين:

قيل للإمام أحمد بن حنبل: «كيف ينبغي أن يأمر؟ قال: يأمر بالرفق والخضوع ثم قال: إن أسمعوه ما يكره لا يغضب فيكون يريد ينتصر لنفسه»(٢).

وقال الإمام سفيان: «لا يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر إلا من كان فيه خصال ثلاث: رفيق بما يأمر، رفيق بما ينهى، عدل بما يأمر، عدل بما ينهى، عالم بما يأمر، عالم بما ينهى»(٣).

وقال الشيخ عبد الرحمن بن نصر الشيزري أثناء حديثه عن آداب المحتسب: «وليكن من شيمته الرفق، ولين القول، وطلاقة الوجه، وسهولة الأخلاق عند أمره للناس ونهيه فإن ذلك أبلغ في استمالة القلوب، وحصول المقصود. قال اللّه عزّ وجلّ لنبيه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾[آل عمران: ١٥٩]. ولأن الإفراط في الزجر ربما أغرى بالمعصية والتعنيف بالموعظة تمجّه الأسماع»(٤).

---

(١) المرجع السابق ٨/ ٨٧ .
(٢) انظر كتاب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) لأبي بكر الخلال ص ٥٠ .
(٣) انظر المرجع السابق ص ٤٦ .
(٤) نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص٩ . ومثل ذلك قريباً قاله ابن الإخوة في كتابه «معالم القربة في أحكام الحسبة» ص ٦٠ ، وابن بسام المحتسب في كتابه «نهاية الرتبة في طلب الحسبة» ص ١٣ .



وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فلابد من هذه الثلاثة: العلم، والرفق، والصبر. العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده، وإن كان كل من الثلاثة لابد أن يكون مستصحباً في هذه الأحوال»(١).

وقال الإمام أحمد بن محمد المقدسي: «قال بعض السلف: لا يأمر بالمعروف إلا رفيق فيما يأمر به، رفيق بما ينهي عنه، حليم فيما يأمر به، حليم فيما ينهي عنه، فقيه فيما يأمر به، فقيه فيما ينهي عنه»(٢).

وقوله: «ومقام القتال يستلزم الغلظة والشدة...».

ش: ولهذا قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩]. فقوله تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ يشبه قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار، رحيماً براً بالأخيار. كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤]، وهذه فيها إرشاداً للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أي إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصداً بالسيوف ﴿حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ﴾ أي أهلكتموهم قتلاً(٣). وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال: ٥٧].

أي: تجدنهم في حالة المحاربة، بحيث لا يكون لهم عهد وميثاق ﴿فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾ والتشريد في اللغة: التبديد والتفريق. وقال الزجَّاج: افعل بهم فعلًا من القتل

(١) كتاب «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٣٠ .
(٢) مختصر منهاج القاصدين ص ١٣٨ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/٢٥٩٦ لابن كثير.

تفرِّق بهم مَن خلفهم. وقال الضحَّاك: نكِّل بهم غيرَهم، وأوقع بهم من العقوبة ما يصيرون به عبرة لمن بعدهم.

وهذه من فوائد العقوبات والحدود، المرتبة على المعاصي، أنها سبب لازدجار مَن لم يعمل المعاصي، بل وزجر لمن عملها أن لا يعاودها.

ودلَّ تقييد هذه العقوبات في الحرب، أن الكافر - ولو كان كثير الخيانة سريع الغدر - أنه إذا أُعطي عهداً، لا يجوز خيانته وعقوبته(١).

أمثلة من السيرة:

١ - عن سلمة رضي الله عنه قال: غزونا مع أبي بكر زمن النبي ﷺ فكان شعارنا: «أمِت أمِت»، وفي لفظ: أمَّر رسول اللَّه ﷺ علينا أبا بكر رضي الله عنه فغزونا ناساً من المشركين، فبيتناهم نقتلهم، وكان شعارنا تلك الليلة: «أمِت أمِت».

قال سلمة: فقتلت بيدي تلك الليلة سبعة أهل أبيات من المشركين(٢).

٢ - وقَاتَلَت أم عِمارة «نسيبة بنت كعب المازنية» قتالًا شديداً، وضربت عمرو بن قمة بالسيف، ضربات فوقته درعان كانتا عليه، وضربها عمرو بالسيف، فجرحها جرحاً شديداً على عاتقها(٣).

٣ - موقفه من يهود بني قريظة عندما نقضوا عهدهم معه، وتألبوا مع المشركين في غزوة الخندق. فعندما نزلوا على حُكم رسول اللَّه ﷺ، فقامت إليه الأوسُ فقالوا: «يا رسول اللَّه ! قد فعلت في بني قيْنُقَاع ما قد علمتَ، وهم حلفاء إخواننا الخزرج، وهؤلاء موالينا، فأحسن فيهم». فقال: «ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟»، قالوا: «بلى». قال: «فذاك إلى سعد بن معاذ». قالوا: «قد رضينا»، فأرسل إلى

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن مجلد ٤ جزء ٨/ ٣٠-٣١ للقرطبي تيسير الرحمن ٤٢١ .

(٢) صحيح سنن أبي داود (٢٢٦١، ٢٢٩٧).

(٣) ابن هشام وابن كثير في البداية ٤/ ٣٥ .

سعد بن معاذ، فلما انتهى إلى النبي ﷺ، قال للصحابة: «قوموا إلى سيدكم»، فلما أنزلوه قالوا: يا سعد ! «إن هؤلاء القوم قد نزلوا على حكمك»، قال: «وحُكمي نافذُ عليهم؟» قالوا: «نعم». قال: «وعلى المسلمين؟» قالوا: «نعم». قال: «وعلى من ها هنا؟» وأعرض بوجهه، وأشار إلى ناحية رسول اللَّه ﷺ إجلالًا له وتعظيماً.

قال: «نعم وعليّ».

قال: «فإني أحكم فيهم: أن يُقتل الرجال، وتُسبى الذرية وتقسَّم الأموال»، فقال رسول اللَّه ﷺ: «لقد حكمتَ فيهم بحكم اللَّه من فوق سبع سموات»[1].

فلما حكم فيهم بذلك أَمَرَ رسولُ اللَّه ﷺ بقتل كُل من جرت عليه الموسى منهم ومن لم ينبت أُلحق بالذرية[2]، فحفر لهم خنادق في سوق المدينة، فضُرِبت أعناقهم، وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة، وجعل يذهب بهم إلى الخنادق أرسالًا أرسالًا، فقالوا لرئيسهم كعب بن أسد: يا كعبُ! ما تراه يصنع بنا؟

فقال: «أفي كل موطن لا تعقلون؟!» أما ترون الدّاعي لا ينزع، والذاهَب منكم لا يرجعُ هو واللَّه القتلُ.

* * *

(١) أخرجه البخاري مختصراً (٣٠٤٣، ٣٨٠٤، ٤١٢١، ٦٢٦٢)، وأحمد مطولًا(٦/ ١٤١-٤٢، وصححه الألباني في الصحيحة (٦٧)، وانظر صحيح مسلم في الجهاد (كتاب ٣٢ حديث ٦٤، ٦٥)، وانظر نصوص حديثيه (ص٥١) و «إصلاح المساجد» (ص ١٤٠) كلاهما للألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) كما أخرجه النسائي (٣٤٢٩) وهو في صحيح سنن النسائي (٣٢٠٧).



عاشرا: أصول الفقه

القضية العشرون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«ونؤمن ونشهد أن الحكم في كل أمر وكل شأن هو للَّه تعالى وحده» ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧].

قوله: «أصول الفقه»

الشرح: وهو مركب من كلمتين، فنفسِّر كل كلمة على انفرادها، ثم نفسِّر المركَّب منهما.

الأصول في لغةً: جمع أصل: وهو ما منه الشيء(١).

وقيل: هو ما يُبنى عليه غيره(٢)، سواء كان الابتناء حسيا أو عقليا(٣).

الأصول اصطلاحا وترد بمعاني كثيرة منها:

١- **الدليل:** فيقال: «أصل هذه المسألة الكتاب والسنة» أي دليلها، أو أصل هذه المسألة الإجماع، أي دليلها الاجماع. وبهذا المعنى قيل: أصول الفقه أي أدلته(٤).

---

(١) كما تقول أصل الإنسان من طين، شرح مختصر الروضة ٢/ ٩٩ ونهاية السول ١/ ١٨ انظر تقريب الوصول إلى علم الأصول لأبي القاسم محمد بن أحمد بن جُزيّ الغرناطي المالكي ٦٩٣ - ٧٤١هـ تحقيق ودراسة وتعليق الدكتور محمد المختار بن الشيخ محمد الأمين الشنقيطي حفظه اللَّه.

(٢) إرشاد الفحول ٣ كما قال تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ [الحشر: ٥]. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

(٣) الوجيز في أصول الفقه ٨ . وقيل إن هناك معنى ثالث وهو أسفل الشيء. لسان العرب ١١/ ١٦ والقاموس المحيط ٣/ ٣٢٨، كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٤].

(٤) إرشاد الفحول ٣، نهاية السول شرح مناهج الأصول ٧، شرح الكوكب المنير ١/ ٣٩ وهو الذي رجحه الشوكاني في إرشاد الفحول.



٢- **الراجح**: كقولهم: الأصل في الكلام الحقيقة، أي الراجح في الكلام حمله على الحقيقة، لا المجاز[١].

٣- **القاعدة**: فيقال إباحة الميتة للمضطر على خلاف الأصل، أي على خلاف القاعدة العامة، وقولهم: «الأصل أن الفاعل مرفوع»، أي أن القاعدة العامة المستمرة: هي رفع الفاعل.

٤- **المُستصحب**: فيقال الأصل براءة الذِّمة [٢]، أي يستصحب خلو الذمة من الانشغال بشيء حتى يثبت خلافه [٣].

تعريف الفقه في اللغة:

والفقه في اللغة معناه الفهم، والعلم والفطنة [٤] ولكن استعماله في القرآن الكريم يرشد على أن المراد منه ليس مطلق العلم، بل دِقَّة الفهم، ولطف الإدراك، ومعرفة غرض المتكلم، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١]. وقوله تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٧٨].

وقوله ﷺ عن ابن عباس رضي الله عنه: «اللَّهم فقهه في الدّين وعلِّمه التأويل».

وقوله ﷺ: «مَن يُرد اللَّه به خيراً يُفقّه في الدِّين»[٥].

---

(١) شرح الكوكب ١/ ٣٩ .
(٢) وفي القوانين الوضعية: أن المتهم بريء حتى تثبت إدانته.
(٣) إرشاد الفحول ٣ و الوجيز في أصول الفقه ٨ .
(٤) انظر النهاية ٣/ ٤٦٥ .
(٥) رواه البخاري من حديث معاوية بن أبي سفيان.

الفقه في الاصطلاح:

معرفة الأحكام الشرعية العملية بأدلتها التفصيلية[١] .

شرح التعريف:

فقولهم «**المعرفة**»: ليشمل العلم والظن، لأنه يوجد مسائل كثيرة من أحكام الفقه ظنية.

وقولهم «**الأحكام**»: جمع حكم، وهو إثبات أمر لآخر إيجاباً أو سلباً مثل قولنا: الشمس مشرقة أو غير مشرقة.

والمراد هنا: ما يثبت لأفعال المكلفين من وجوب، أو ندب، أو حُرمة، أو كراهة، أو إباحة، أو صحة أو فساد، أو بطلان.

وقولهم «**الشرعية**»: وقيد الأحكام بكونها شرعية للدلالة على أنها منسوبة إلى الشرع، كالوجوب، والتحريم وخرج بذلك الأحكام العقلية «كالكل أكبر من الجزء».

وقولهم «**العملية**»: أي المتعلقة بأفعال المكلفين: كصلاتهم، وبيوعهم وأشربتهم، وجناياتهم، أي ما كان منها من العبادات والمعاملات، فلا يدخل فيها ما يتعلق بالعقيدة: وهي الأحكام الاعتقادية كالإيمان باللَّه وأسمائه وصفاته واليوم الآخر، ولا ما يتعلق منها بالأخلاق وهي الأحكام الأخلاقية: كوجوب الصدق، وحرمة الكذب.

وقولهم «**بأدلتها التفصيلية**»: هي الأدلة الجزئية التي يتعلق كل منها بمسألة خاصة وينص على حكم معيَّن لها مثل:

١- قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، فهذا دليل تفصيلي، أي دليل جزئي يتعلق بمسألة خاصة: وهي نكاح الأمهات، ويدل على حكم معيَّن: هو حُرمة نكاح الأمهات.

---

(١) إرشاد الفحول ٣ ومنهاج الأصول ٢٢ للبيضاوي، والإحكام في أصول الأحكام للآمدي، شرح الأصول من علم الأصول ٢٣ لابن عيثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ .



٢- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]. دليل جزئي يخص مسألة معيَّنة: وهي الزنى، ويدل على حكم خاص بها: وهو حرمة الزنى.

٣- وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، دليل جزئي يتعلق بمسألة معيَّنة: وهي إعداد القوة من قِبَل الدولة المسلمة، ويدل على حكم معيّن خاص بها، وهو وجوب إعداد القوة من قِبَل الدولة المسلمة لإرهاب العدو.

تعريف أصول الفقه: «هو العلم بأدلة الفقه الإجمالية، وكيفية الاستفادة منها وحالة المستفيد».

المراد «**بالأدلة**»: أي مصادر الأحكام الشرعية، كالكتاب والسنة، والإجماع والقياس، والعلم بها يكون من حيث العلم بحجّيتِها ومنزلتها في الاستدلال بها، ووجوه دِلالة النّص حسب اختلاف أحوال هذه الدلالة، ومعنى الإجماع وشروطه، وأنواع القياس وعلّته، وطرق التعرف على هذه العلة، وغير ذلك من الأبحاث المتعلقة بالقياس وبسائر الأدلة الإجمالية.

والمراد «**بالإجمالية**»: القواعد العامة، مثل قوله: الأمر للوجوب، والنهي للتحريم، والصحة تقتضي النفوذ، فخرج به الأدلة التفصيلية، فلا تُذكر في أصول الفقه إلا على سبيل التمثيل للقاعدة.

والمراد «**بكيفية الاستفادة منها**»: معرفة كيف يستفيد الأحكام من أدلتها بدراسة أحكام الألفاظ، ودلالاتها من عموم وخصوص، وإطلاق وتقييد، وناسخ ومنسوخ، وغير ذلك، فإنه بإدراكه يستفيد من أدلة الفقه أحكامها.

والمراد «**بحال المستفيد**»: معرفة حال المستفيد: وهو المجتهد ؛سُمّي مستفيداً لأنه يستفيد بنفسه الأحكام من أدلتها لبلوغه مرتبة الاجتهاد، فمعرفة المجتهد وشروط الاجتهاد وحكمه ونحو ذلك يبحث في أصول الفقه[1].

---

(١) شرح الأصول من علم الأصول لمحمد بن صالح العثيمين رحمه الله ٣٠ .



فالأصولي: يبحث عن الأدلة الإجمالية، من حيث دلالتها على الأحكام الشرعية من أدلتها الجزئية.

والفقية: يبحث في الأدلة الجزئية، ليستنبط الأحكام الجزئية منها مُستعيناً بالقواعد الأصولية [1] والإحاطة بالأدلة الإجمالية ومباحثها.

فائدة أصول الفقه:

إن أصول الفقه علم جليل القدر، بالغ الأهمية، غزير الفائدة، فائدته: التمكن من حصول قدرة يُستطاع بها استخراج الأحكام الشرعية العملية بوضع القواعد والمناهج الموصلة إليها من أدلتها على أسس سليمة، تمنع من الخطأ أو العثار.

فالفقه والأصول: يتفقان على أن غرضهما التوصل إلى الأحكام الشرعية.

فالأصول: تبيّن مناهج الوصول وطرق الاستنباط.

فالأصولي: ينظر إلى الأدلة التفصيلية ليستنبط قاعدة عامة متعدية.

والفقه: يستنبط الأحكام فعلًا على ضوء المناهج التي رسمها علم الأصول، وبتطبيق القواعد التي قررها.

فالفقيه: ينظر إلى استنباط الحُكم الجزئي العملي لكل مسألة من الأدلة التفصيلية مع التقيد بما وضعه الأصولي من قواعد عامة وضوابط... كالأمر يقتضي الوجوب، والنهي يقتضي التحريم.

---

(١) القواعد الأصولية هذه غير «القواعد الفقهية»: والتي هي عبارة عن ضوابط تجمع أفراداً من المسائل يجمعها معنى واحد تُردُّ إليه. «انظر القواعد في الفقه الإسلامي» للحافظ ابن الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي المتوفي سنة ٧٩٥ هـ ومن مثل هذه القواعد:
أ - شعر الحيوان في حكم المنفصل عنه لا في حكم المتصل ب- العقود الفاسدة هل هي منعقدة أو لا؟ ج- ينزل المجهول منزلة المعدوم. .... «راجع القواعد الفقهية لا بن رجب».



أول من جمع أصول الفقه:

وأوّل من جمعه كَفَنٍّ مستقل الإمام محمد بن إدريس الشافعي[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ بكتابه المُسمّى «بالرسالة» ثم تابعه العلماء في ذلك، فألَّفوا فيه التأليف المتنوعة، مابين منثور ومنظوم ومختصر ومبسوط، حتى صار فنًّا مستقلًا له كيانه ومميزاته[٢].

قوله: «الحكم في كل أمر وكل شأن هو للَّه تعالى وحده». ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[٣].

ش: وبهذا يشير المصنف على أن مصدر الأحكام الشرعية هو للَّه تعالى وحده، فلا حكم إلا ما حكم اللَّه به، ولا شرع إلا ما شرعه، فالحكم هو القضاء.

كما قصّ اللَّه علينا قول نبينا ﷺ لقومه المشركين: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧]، أي فكما أنه هو الذي حكم بالحكم الشرعي، فأمر ونهى، فإنه يحكم بالحكم الجزائي، فيثيب ويعاقب بحسب ما تقتضيه حكمته، فالاعتراض على حكمه مدفوع بعد أن أوضح السبيل الذي قطع به المعاذير.

وكذلك يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد أن أمر بنيه أن لا يدخلوا من بابٍ واحد بل من أبواب متفرقة، وأن هذه الوصية لن تمنع من قدر اللَّه من شيء: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧].

أي: أن القضاء قضاؤه والأمر أمره، فما قضاه وحكم به، لا بد أن يقع، فعليه

---

(١) المتوفي سنة ٢٠٤ هـ، صاحب المذهب المشهور المنسوب إليه (انظر إلى ما صرّح به (ابن خلكان) «وابن خلدون».

(٢) شرح الأصول من علم الأصول للشيخ ابن عثيمين والوجيز في أصول الفقه لعبد الكريم زيدان رحمهما اللَّه تعالى.

(٣) راجع فقرة ٣٢ .

اعتمدتُ لا على ما وصيتكم به من السبب.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢]، أي بعد الموت والحياة البرزخية، وما فيها من الخير والشر، ردوا إلى اللَّه مولاهم الحق الذي تولاهم بحكمه القدري، فنفذ فيهم ما شاء من أنواع التقدير، ثم تولاهم بأمره ونهيه الشرعي، فأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، ثم ردوا إليه ليتولى الحكم فيهم بالجزاء، ويثيبهم على ما عملوا من الخيرات ويعاقبهم على الشرور والسيئات، ولهذا قال ألا له الحكم وحده لا شريك له.

ولهذا نجد أن علماء أصول الفقه رحمهم اللَّه عندما يُعرِّفون الحكم الشرعي التكليفي وأقسامه يبدؤون بقولهم: بأنه خطاب اللَّه[1]، أو خطاب الشارع والذي يقصدون به الوحيين «الكتاب والسنة».

وهذا يبين أن الحكم الشرعي في كل أمر وشأن هو للَّه وحده سبحانه وتعالى.

* * *

(١) أي: ما اقتضاه خطاب الشرع من:
الإيجاب: وهو ما طلب الشارع فعله على وجه الحتم والإلزام.
الندب: وهو ما طلب الشارع فعله على غير وجه الحتم والإلزام.
التحريم: وهو ما طلب الشارع الكفّ عنه على سبيل الجزم والإلزام.
الكراهة: هو ما طلب الشارع الكفّ عنه على غير سبيل الجزم والإلزام.
الإباحة: وهي تخيير الشارع للمكلف بين الفعل والترك.

القضية الإحدى والعشرون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه الله:

«الرسول ﷺ مشرِّع بأمر الله، لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى. ولا يشرِّع من عند نفسه»(١).

قوله: «الرسول ﷺ مشرِّع بأمر الله»

الشرح: وهذا ما يُسمِّيه الفقهاء السنة وهي من الوحي والحكمة:

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣] أي ما يقول قولًا عن هوى وغرض ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤] أي إنما يقول ما أُمر به، يبلغه إلى الناس كاملًا موفوراً، من غير زيادة ولا نقصان(٢).

ولهذا جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «كنت أكتب كل شيء أَسْمَعُه من رسول الله ﷺ أريد حفظه»، فنهتني قريش، فقالوا: «إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب».

فأمسكتُ عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «اكتب! فو الذي نفسي بيده ما خرج مني(٣) إلا الحق»(٤).

وقال ابن حزم رحمه الله: «وضح لنا بذلك أن الوحي ينقسم من الله عزَّ وجلَّ إلى رسول الله ﷺ على قسمين.....» ثم ذكر القرآن والسنة(٥).

وقال تعالى ممتناً على الأمة الإسلامية بقوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم

---

(١) راجع الفقرة ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/٢٦٩١ .
(٣) وفي رواية: (ما يخرج منه إلا الحق) وأومأ بأصبعه على لسانه .
(٤) رواه أحمد وأبو داود وأبي بكر بن أبي شيبة والحاكم ١/ ١٠٤، ١٠٥، وصححه ووافقه الذهبي، وقال الحافظ في «فتح الباري» ١/ ٢٠٧ إن له طرقا يقوي بعضها بعض.
(٥) الإحكام في أصول الأحكام لأبي محمد علي بن حزم ١/١٠٨ .

﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقوله تعالى موجِّهاً خطابه لنساء النبي ﷺ: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤]. وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فسمعت مَن أرضى مِن أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول اللَّه ﷺ»[١] وكذلك قال القرطبي[٢]. فإذا كانت الحكمة معناها السنة، واللَّه تعالى قرن بين الكتاب والسنة في الإنزال، فهذا يقتضي كوَها من عند اللَّه تعالى.

وقال ﷺ: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه»[٣]، وقوله ﷺ: «إن الروح الأمين ألقى في رُوعي[٤] أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها، فأجملوا في الطلب»[٥] وقال حسَّان بن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان جبريل ينزل على النبي ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن ويعلمه إياها كما يعلمه القرآن[٦]. وقال أبو البقاء الحسيني[٧]: «والحاصل أن القرآن والحديث يتحدان في كونهما وحيا من عند اللَّه

بدليل قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[٨] إن القرآن والسنة كلاهما من عند اللَّه تعالى. والرسول ﷺ ليس إلا مبلغاً. وقد عصمه اللَّه من الخطأ في التبليغ إذ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]. لقد قام دليل النقل والعقل على عصمة النبي ﷺ

(١) الرسالة ٧٨ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ١٨٣ .
(٣) رواه أحمد ٤/ ١٣٠، ١٣١ وأبو داود ٥/ ١ -١٢ وابن حبان، وصححه الألباني.
(٤) رُوعي: أي قلبي.
(٥) رواه الإمام الشافعي في الرسالة ٩٣ وصحح إسناده الأستاذ أحمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ صـ٩٧ من حاشية الرسالة ورواه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤ والبيهقي في الجامع لشعب الإيمان ٣/ ٣٨١ والحلية لأبي نعيم، وصححه الألباني الجامع ٢٠٨٥ .
(٦) أبو داود في المراسيل ٣٦١ .
(٧) هو: أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي كان من قضاة الحنفية توفى بالقدس سنة ١٠٩٥هـ.
(٨) كليات أبي البغا ٢٨٨ .



عن الخطأ في الرسالة وهذا لا يستقيم إلا إذا كان ما يقوله في السنة فضلًا عن القرآن وحيا من عند اللَّه تعالى، لأن الدليل على العصمة قام من جهة كونه ﷺ مبلغا عن اللَّه تعالى لا من جهة أخرى[١]، كما في الآية السابقة.

السنة محفوظة

كون السنة من الوحي والحكمة. وأن الوحي محفوظ بحفظ اللَّه تعالى إياه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فصحّ بذلك أن كلامه ﷺ كله محفوظ بحفظ اللَّه عزَّ وجلَّ، مضمون لنا لا يضيع منه شيء، فهو منقول إلينا كله فللَّه الحجة علينا أبدا»[٢].

من ردّ السنة كَفرَ:

فالإجماع منعقد على أن من ردّ السنة النبوية فقد ارتدَّ عن الإسلام فلو أن امرءاً قال: «لا نأخذ إلّا بما وجدنا في القرآن» لكان كافراً بإجماع الأمة[٣] ولكونه ﷺ سنته وحياً معصوماً محفوظاً، باقياً، وأنه يشرِّع بأمر اللَّه، أمرنا اللَّه بطاعته واتباع سنته «القولية والفعلية، والتقريرية».

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، وأعاد الفعل إعلاماً بأن طاعة الرسول ﷺ تجب استقلالًا من غير عرض ما أمر به على الكتاب، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقا، سواء كان ما أُمر به في الكتاب أو لم يكن فيه[٤] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ﴾ [الأنفال: ٢٤]. روى

---

(١) منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عثمان بن علي حسن ١/ ٩٠ .
(٢) الإحكام لابن حزم ١/ ١١٠ .
(٣) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ١/ ١٠٩ .
(٤) إعلام الموقعين ١/ ٤٨ لابن القيم الجوزية.

البخاري عن أبي سعيد المعلى رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «كنت أصلي، فمر بي النبي ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت ثم أتيته»، فقال: «ما منعك أن تأتيني؟ ألم يقل اللّه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٤].

استقلالية السنة:

فقد اتفق السلف على أن النبي ﷺ قد يشرّع استقلالًا. لأننا أُمرنا بإتباعه مطلقاً لا فرق في ذلك بين السنة الموافقة أو المبينة للكتاب، وبين السنة الزائدة على ما في الكتاب[(١)]. قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد أمر اللّه عزَّ وجلَّ بطاعته، أي الرسول ﷺ واتباعه أمراً مطلقاً مجملًا، لم يقيد بشيء، كما أمرنا بإتباع كتاب اللّه، ولم يقل إذا وافق كتاب اللّه كما قال بعض أهل الزيغ»[(٢)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، بعد أن ذَكَرَ أقسام السنة مع القرآن: «فما كان منها زائداً على القرآن فهو تشريع مبتدأ من النبي ﷺ تجب طاعته فيه، ولا تحل معصيته».

وليس هذا تقديماً لها على كتاب اللّه، بل امتثال لما أمر اللّه به من طاعة رسوله ولو كان رسول اللّه ﷺ لا يُطاع في هذا القسم لم يكن لطاعته معنى، وسقطت طاعته المختصة به، وإنه إذا لم تجب طاعته إلا فيما وافق القرآن، لا فيما زاد عليه لم يكن له طاعة خاصة تختص به، وقد قال اللّه تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠]. وكيف يمكن لأحد من أهل العلم ألَّا يقبل حديثاً زائداً على كتاب اللّه؟[(٣)]

فلا يقبل مثلًا حديث تحريم «زواج» المرأة على عمتها ولا على خالتها[(٤)]، ولا حديث التحريم بالرضاعة لكل ما يحرُم من النّسب...»[(٥)].

---

(١) انظر الرسالة للإمام الشافعي، وإعلام الموقعين ١/٤٨، ٢/٣١٤ لابن القيم، وشرح العقيدة الطحاوية٤٠٢ لابن أبي العز الحنفي (رحمهم اللّه).

(٢) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٩٠، ١٩١ .

(٣) انظر صحيح البخاري ٩/ ١٦٠ رقم ٥١٠٨

(٤) انظر صحيح البخاري ٦/ ٢١١ رق ٣١٠٥ .

(٥) إعلام الموقعين ٢/ ٣٠٧، ٣٠٨ لابن القيم.

القضية الثانية والعشرون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«والدين الذي تعبدنا اللَّه به هو كلامه، وكلام رسول اللَّه ﷺ فقط».

قوله: «والدِّين»

الشرح:

حكى أهل اللغة: دِنْته بفعله دَينا «بفتح الدال» ودِينا «بكسرها» جزيته ومنه الدِيَّان في صفة الرب تعالى، أي المجازي والحاكم، والقاضي والقاهر، يقال دِنتهم فدنوا: أي قهرتهم فأطاعوا.

والدِّين يُطلق وله معاني كثيرة منها:

١- **الدِّين: هو العبادة** بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١].

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والأمر والنهي الذي هو دينه وجزاؤه يوم المعاد الثاني

٢- **الدِّين: الجزاء على الأعمال والحساب بها:**

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥]، أي حسابهم، وقال تعالى عن قول الكفار ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٣] أي مجزيون محاسبون.

٣- **الدِّين: الطاعة** ومنه حديث أبي طالب قال له رسول اللَّه ﷺ: «أُريدُ من قريش كلمة تدينُ لهم بها العرب» أي تطيعهم وتخضع لهم.

ومنه قول عمرو بن كلثوم:

وأيامِ لنا غُرٌّ طِوالِ عَصينا المَلكَ فيها أن نَدينا



٤- الدِّين: **العادة والشأن**، ومنه: «إنه عَلَيْهِ السَّلَامُ كان على دين قومه) ليس المراد به الشرْك الذي كانوا عليه، وإنما هو العادة يريد به: أخلاقهم في الكرم والشجاعة وغيرها».

٥- **الدِّين: سيرة الملك** قال زهير:

لئن حللَت بجوّ[1] في بني أسد   في دين عمرو وحالت بيننا فَدَكُ

٦- **والدِّين: الداء**[2].

٧- **الدِّين: القضاء**.

فإذاً هو لفظ مشترك، وقال ثعلب: دان الرجل إذا أطاع، ودان إذا عصى، ودان إذا عَزّ، ودان إذا ذلّ، ودان إذا قهر، فهو من الأضداد أيضاً.

قوله: «الذي تعبدنا اللّه به....»

ش: قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والعبادة: هي طاعة اللّه بامتثال ما أمر به على ألسنة الرسل»، وقال أيضاً: «العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة».

والعبادة تجمع أصلين: «غاية الحبّ، بغاية الذُّل والخضوع».

والعرب تقول: «طريق مُعَبد أي: مذلَّل، والتّعبّد: التذلل والخضوع، فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له، لم تكن عابداً له، ومن خضعتَ له بلا محبة، لم تكن عابداً له، حتى تكون مُحباً خاضعاً»[3].

قال القرطبي: «أصل العبادة التّذّلل والخضوع، وسُميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات لأنهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين متذللين للّه تعالى».

---

(١) جوّ: موضع في ديار بني أسد.

(٢) الجامع لأحكام القران ١/١٤٣ - ١٤٥ وانظر النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/١٤٨ للإمام مجد الدين أبي السعادات (ابن الاثير).

(٣) التفسير القيم للإمام ابن القيم ص ٦٥ .



والمقصود بـ (تعبدنا) هنا العبادة الشرعية، أو العبادة الخاصة، والتي يكون عليها مدار التكليف والثواب والعقاب.

فالعبودية نوعان:

عبودية عامة: وهي عبودية أهل السموات والأرض كلهم للَّه، برَّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فهذه عبودية القهر والملك، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، فهذه يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الفرقان: ١٧].

فسمّاهم عباده مع ضلالهم، لكنها تسمية مقيّدة بالإشارة.

عبودية خاصة: فهي عبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر، قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨].

وقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ لَا ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧- ١٨].

فالخلق كلهم عبيد ربوبيته، وأهل طاعته وولايته: هم عبيد إلهيته. ولا يجيء في القرآن إضافة العباد إليه مطلقاً إلا لهؤلاء(١).

والعبادة موزّعة على القلب واللّسان والجوارح.

فعبادة القلب: هو اعتقاد كل ما بيّنه لنا اللَّه تعالى، أو بيّنه لنا رسوله ﷺ وإخلاص العمل للَّه، بحسن التوجه والقبول والانقياد، وعدم الشّك والتّردد والارتياب.

وعِبادة اللسّان: من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكذلك بذكر اللسان.

وعِبادة الجوارح: بمتابعة الرسول ﷺ كالصلاة والحج والجهاد. وحتى تصح هذه العبادة وتكون مقبولة عند اللَّه، لا بد من أن تتوفر فيها شروط وهي:

---

(١) التفسير القيم للإمام ابن القيم ٩١- ٩٦ .



١- أن يكون صاحبها (القائم بالعبادة) موحِداً للّه غير مشرك به.

٢- أن تكون هذه العبادة خالصة للّه غير مراءٍ فيها.

٣- أن تكون هذه العبادة موافقة (متابعة) لسنة النبي ﷺ.

قوله: «. . . . هو كلام اللّه وكلام رسول اللّه ﷺ»

ش: المقصود بكلام اللّه وكلام رسوله ﷺ:

١- القرآن الكريم والسنّة النبوية الصحيحة هما مصدرا التلقي عند السّلف، لا العقل ولا الذّوق ولا الكشف ولا المنام.

٢- التّسليم المطلق للنصوص كلام اللّه تعالى وكلام رسوله ﷺ، لا يردُّون «السلف الصالح» منها شيئاً، ولا يعارضونها بشيء، لا بعقل، ولا قياس ولا غير ذلك.

بل يقفون حيث تقف بهم النصوص، ملتزمين قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

وقال الربيع بن خيثم رحمه الله: «يا عبد اللّه! ما علمك اللّه في كتابه من عِلم فاحمد اللّه، وما استأثر عليك به من عِلم فكِله إلى عالِمه، ولا تتكلّف، فإن اللّه يقول لنبيه: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]».

٣- أن هذا الأصل وحي من اللّه، فالقرآن الكريم كلامه سبحانه، والسنة النبوية بيانه ووحيه إلى رسوله ﷺ[1] قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣- ٤].

٤- أن هذا الأصل إنما بَلَغَنَا عن رسول اللّه ﷺ، لأنه لا سماع لنا من اللّه تعالى، ولا من جبريل عليه السلام، فالكتاب سُمع منه تبليغاً، والسنة تصدر عنه تبياناً[2] وقد قال

(١) انظر: الرسالة (٣٣) و«الصواعق المرسلة» (٣/ ٨٨٠) و «المدخل إلى مذهب الإمام أحمد».
(٢) انظر: «روضة الناظر» (١/ ١٧٨) و«مختصر الصواعق» (٤٦٣).



تعالى آمراً نبيه ﷺ أن يقول: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

٥- أن اللّه سبحانه وتعالى قد تكفّل بحفظ هذا الأصل، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واللّه تعالى قد ضَمِن حِفْظَ ما أوحاه إليه ﷺ وأنزل عليه ليقيم به حجته على العباد إلى آخر الدهر»(١).

٦- أن هذا الأصل هو حجّة اللّه التي أنزلها على خلقه:

قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... لأن اللّه جلّ ثناؤه أقام على خلقه الحجة من وجهين، أصلهما في الكتاب: كتابه ثم سُنة نبيه»(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن اللّه سبحانه قد أقام الحجة على خلقه بكتابه ورسله فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وقال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

فكل من بلغه هذا القرآن فقد أُنذر به وقامت عليه حجة اللّه به»(٣).

٧- وجوب الاتباع والتّسليم التام لهذا الأصل، ولزوم التمسك بما فيه وعدم الاعتراض عليه أو مخالفته بحال:

قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... وأنه لا يلزم قول بكل حال إلا بكتاب اللّه أو سنة رسوله ﷺ»(٤)، قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «.... فلهذا كانت الحجة الواجبة الاتباع: الكتاب والسنة والإجماع، فإن هذا حق لا باطل فيه، واجب الاتباع، لا يجوز تركه بحال، عام الوجوب لا يجوز ترك شيء مما دلّت عليه، وهي مبنية على أصلين:

---

(١) مختصر الصواعق (٤٦٣).
(٢) الرسالة ٢٢١ .
(٣) الصواعق المرسلة (٢/ ٧٣٥) على حسب الضوابط التي سبق ذِكرُها.
(٤) جامع بيان العلم وفضله (١١).

أحدهما: أن هذا جاء به الرسول.

والثاني: أن ما جاء به الرسول وجب اتباعه. وهذه الثانية إيمانية ضدها الكفر أو النفاق»[(١)].

وقال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللَّهُ: «باب تعظيم السنن والحث على التمسك بها، والتسليم لها، والانقياد إليها، وترك الاعتراض عليها»[(٢)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن المعارضة بين العقل ونصوص الوحي لا تتأتى على قواعد المسلمين المؤمنين بالنبوة حقاً ولا على أصول أحد من أهل الملل المصدقين بحقيقة النبوة، وليست هذه المعارضة من الإيمان بالنبوة في شيء، وإنما تتأتى هذه المعارضة ممن يقر بالنبوة على قواعد الفلسفة»[(٣)].

٨ - أن هذا الأصل به تفض المنازعات، وإليه تُرد الخلافات كما قال سبحانه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠].

قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن تنازع ممن بعد رسول اللَّه ردّ الأمر إلى قضاء اللَّه ثم قضاء رسوله، فإن لم يكن فيما تنازعوا فيه قضاء نصًّا فيهما، ولا في واحد منهما ردوه قياساً على أحدهما»[(٤)].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإذا تنازع المسلمون في مسألة وجب رد ما تنازعوا فيه إلى اللَّه والرسول، فأي القولين دلّ عليه الكتاب والسنة وجب اتباعه»[(٥)].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٥، ٦).
(٢) كتاب الفقيه والمتفقه.
(٣) الصواعق المرسلة (٢٠/ ١٢).
(٤) الرسالة (٨١).
(٥) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٢).

٩- أن هذا الأصل تمتنع معه الاستشارات وتسقط معه الاجتهادات وتبطل به الآراء، وأنه لا يُصار إلى الاستشارات و الاجتهادات والآراء إلا عند عدمه، كما لا يصار إلى التيمم إلا عند عدم الماء .

قال البخاري: «وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها.

فإذا وضح الكتاب والسنّة لم يتعدّوه إلى غيره ؛ اقتداءً بالنبي ﷺ»[١] .

١٠- أن هذا الأصل يوجب تغير الفتوى لمن أفتى بخلافه، والرجوع عن الرأي، وقد بوَّب الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢] لذلك في سننه فقال: «باب الرجل يفتي بشيء ثم يبلغه عن النبي ﷺ فيرجع إلى قول النبي ﷺ»[٣] .

وقد خصّص الخطيب البغدادي لذلك باباً في كتابه فقال: «ذكر ما روي من رجوع الصحابة عن آرائهم التي رأوها إلى أحاديث النبي ﷺ إذا سمعوها ووعوها»[٤] .

فهذا الأصل هو الإمام المقدَّم، وهو الميزان لمعرفة صحيح الآراء من سقيمها.

قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « . . . وأن يُجعل قول كل أحد وفعله أبداً تبعاً لكتاب اللّه ثم سنة رسوله ﷺ»[٥] .

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «واعلم يا أخي أن السنّة والقرآن هما أصل الرأي والعيار عليه، وليس الرأي بالعيار على السنّة، بل السنّة عيار عليه»[٦] .

---

(١) صحيح البخاري (١٣/ ٣٣٩).
(٢) هو عبد اللّه بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي التميمي، أبو محمد صاحب السنن، وكان ركناً من أركان الدين ممن أظهر السنة ودعا إليها وذبّ عنها . حدّث عنه مسلم وأبو داود والترمذي له كتاب في التفسير توفي سنة (٢٥٥هـ). انظر سير أعلام النبلاء (١٢/ ٢٢٤)و«شذرات الذهب» (٢/ ١٣٠).
(٣) كتاب الفقيه والمتفقه (١/ ١٣٥).
(٤) المصدر السابق (١/١٣٨).
(٥) الرسالة ١٩٨ .
(٦) جامع بيان العلم وفضله، (١-١٧٣).



وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد كان السَّلف يشتدُّ عليهم معارضة النصوص بآراء الرجال، ولا يقرون على ذلك»(١).

١١ - أن التّمسك بهذا الأصل ضروري لخير العباد وصلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة وفي مخالفته والاعتراض عنه الشقاء والضلال(٢).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والرسالة ضرورية في إصلاح العبد في معاشه ومعاده، فكما أنه لا صلاح له في آخرته إلا باتباع الرسالة، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة، فإن الإنسان مضطر إلى الشرع»(٣).

وقال أيضاً: «والرسالة ضرورية للعباد، لا بد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالَم ونوره وحياته، فأي صلاح للعالم إذا عُدم الروحَ والحياة والنور؟.

وقال ابن تيمية: «أصل جامع في الاعتصام بكتاب اللَّه ووجوب اتباعه، وبيان الاهتداء به في كل ما يحتاج إليه الناس في دينهم، وأن النجاة والسعادة في اتباعه والشقاء في مخالفته»(٤).

وقال أيضاً: «قاعدة نافعة في وجوب الاعتصام بالرسالة وبيان أن السعادة والهدى في متابعة الرسول ﷺ، وأن الضلال والشقاء في مخالفته، وأن كل خير في الوجود - إما عام وإما خاص - فمنشؤه من جهة الرسول، وأن كل شر في العالم مختص بالعبد فسببه مخالفة الرسول أو الجهل بما جاء به، وأن سعادة العباد في معاشهم ومعادهم باتباع الرسالة»(٥).

---

(١) مختصر الصواعق (١٣٩).
(٢) الرسالة (١٩) والشريعة للآجري (١٤) والصواعق المرسلة (١- ٨٣٧).
(٣) المصدر السابق (١/ ١٩٤).
(٤) مجموع الفتاوى (١٣/ ٧٦).
(٥) المصدر السابق (١٩/ ٩٣).

١٢- أن هذا الأصل لا بد له من تعظيم وتوقير وإجلال.

وقد بوَّب الدارمي في سننه لذلك بقوله: «باب تعجيل عقوبة مَنْ بَلَغَه عن النبي ﷺ حديث فلم يُعظِّمه ولم يوقِّره»[١]، وكذلك صَنَع الخطيب البغدادي في كتابه فقال: «باب تعظيم السنن...»[٢].

وبوَّب ابنُ عبد البر رحمه الله في جامعه قائلًا: «باب ذِكْر بعض من كان لا يحدِّث عن رسول اللَّه إلا وهو على وضوء»[٣].

* * *

(١) كتاب الفقيه والمتفقه (١/ ١١٦).
(٢) كتاب الفقيه والمتفقه (١/ ١٤٣).
(٣) جامع في بيان العلم وفضله (٢/ ١٩٤).

القضية الثالثة والعشرون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه الله:

«والإسلام صبغة عامة لحياة المسلمين جميعاً العَقَديّة والسياسية والاجتماعية والاقتصادية. والتزام تام بحدود الله وشريعته، وإيمان كامل بكل ما أخبرنا به».

قوله: «والإسلام»(١)

الشرح: وهو مجموع ما أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ من أحكام العقيدة والأخلاق والعبادات والمعاملات والإخبارات في القرآن والسنة المطهرة. وهو دين الله الذي هو الإسلام الذي ينبغي الخضوع والاستسلام فيه لله رب العالمين.

ويشترط فيه أن يكون هذا الاستسلام اختيارياً لا قسرياً، لأن الخضوع القسري لله رب العالمين، أي: لسنته الكونية أمر عام بالنسبة لجميع المخلوقات، ولا ثواب فيه ولا عقاب، قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

قوله: «صِبْغَةَ»

ش: قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

فقوله: «صبغة الله» منصوب بفعل محذوف تقديره الزموا صبغة الله، أي: دين الله عزَّ وجلَّ، فلا أحد أحسن صبغة من الله تعالى. وفيه إشارة إلى ما أوجده الله تعالى في الناس من العقل المُتَميِّز به عن البهائم كالفطرة(٢).

فسّمي الدِّين صبغة استعارة ومجازا من حيث تظهر أعماله وسمته على المتدين، كما يظهر أثر الصبغ في الثوب. وفي الآية من الفوائد:

---

(١) راجع ص ٦٧٣ .

(٢) وكانت النصارى إذا وُلد لهم ولد وبلغ السابع من عمره غمسوه «صبغوه» بماء أصفر يسمونه «المعمودية» يزعمون أنه الماء الذي وُلد فيه عيسى عليه السلام .



١- فضيلة ما نحن عليه من دين اللَّه (الإسلام)، حيث أضافه اللَّه إلى نفسه فقال: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾.

٢- إن أحسن شريعة يستمسِك بها الخَلق شريعة اللَّه عزّ وجلّ ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ﴾.

٣- وجوب إقرار العبد بأنه عبد للَّه، ومقتضى هذه العبودية أن يكون ممتثلًا لأمر اللَّه سبحانه وتعالى مجتنباً لنهيه، وإن العبودية مأخوذة من التعبُّد، وهو التذلل محبَّةً وتعظيماً[١].

فيجب على المسلم أن يصبغ حياته كلها بهذا الدين فلا يُرى عليه غيره[٢].

قوله: «... لحياة المسلمين جميعاً العقدية...»

ش: وعلى رأس هذه العقائد: الإيمان باللَّه وتوحيده. فالتوحيد في الإسلام هو أساس الدين، والقرآن كله يدور حول التوحيد، فآيات القرآن إما إخبار عن اللَّه وصفاته وخلقه وأفعاله وتدبيره، وإما أمر ونهي وهما من لوازم ربوبيته وقيوميته على خلقه، وإما بيان للثواب بأنواعه، وهو جزاء من أطاعه واتبع رسله الذين أرسلهم بشريعته القائمة على توحيده في الألوهية والربوبية، وإما بيان للعقاب بأنواعه وهو جزاء المخالفين لشرعه وإما إخبار عن أحوال المكذِّبين الماضين وهو بيان لمن خرج عن مقتضى توحيده وعبادته. فالتوحيد هو لب الإسلام وأساسه ومنه ينبثق سائر نظمه وأحكامه وأوامره ومنهاجه وكل ما فيه من عبادات وأحكام يرسخه ويقويه ويثبته في قلوب المؤمنين[٣].

---

(١) جامع الأحكام ٢/ ١٤٤ للقرطبي.
(٢) انظر روح المعاني (١/ ٦٢٥) للألوسي، والمفردات للراغب الأصفهاني ٢٧٤ والأحكام في القرآن الكريم ٥٠٢ للشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ جمع عبد الكريم بن صالح المقرن.
(٣) أصول الدعوة ٢٣ لعبد الكريم زيدان رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: «.. والسياسة...»

ش: تعريف السياسة:

السياسة مأخوذة من الفعل «ساس»: الرّعية يسوسها «سِياسة» بالكسر[١].

وهي القيام على الشيء بما يصلحه[٢]. ومنه قوله ﷺ: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم أنبياؤهم»[٣]، أي: تتولى أمورهم، كما تفعل الأُمراء والولاة بالرعية. والسياسة أول ما تعني نظام الحُكم.

المقصود من نظام الحُكم:

هو مجموعة من القواعد والأحكام التي تتعلق بالحاكم- أي رئيس الدولة[٤]- وتبين كيفية اختياره، ومركزه القانوني وعلاقة الأمة به، والأغراض التي يهدف إليها الحكم ونحو ذلك[٥].

مقومات نظام الحكم في الإسلام

ومن أهم مقومات نظام الحكم في الإسلام:

١- الخليفة ٢- الشورى ٣- الخضوع لسلطان الإسلام

وتحت كل منهما تفاصيل كثيرة ليس هنا مجال ذكرها، ويجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين بل لا قيام للدين إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس حتى قال ﷺ «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم»[٦]. فأوجب ﷺ تأمير الواحد في

---

(١) مختار الصحاح ٣٢١ محمد بن أبي بكر الرازي.
(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/٤٢١ لابن الأثير.
(٣) رواه البخاري.
(٤) راجع الفقرات ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦ .
(٥) أصول الدعوة لعبد الكريم زيدان رحمه الله.
(٦) رواه أبو داود وصححه الألباني (صحيح الجامع ٥٠٠).



الاجتماع القليل العارض في السفر تنبيها على سائر أنواع الاجتماع[١].

ويقول ابن خلدون:

إن المُلك الطبيعي: هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة.

والسياسي: هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار.

والخلافة: هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها: إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي -أي الخلافة - في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به[٢].

وبهذا يظهر الفرق بين القانون الوضعي والقانون - إن صح التعبير - السماوي الذي هو مفروض من اللَّه، فهو سبحانه مصدر التشريع.

قوله: «والاجتماعية. . .»:

ش: إن أساس نظام المجتمع في الإسلام هو العقيدة الإسلامية، فهي الموجه له في بناء المجتمع والنظام الذي يختاره له. ويترتب على ذلك أن كل من يحمل هذه

العقيدة ويدين بها ويلتزم بمقتضاها يكون أهلًا للانتماء إلى هذا المجتمع الإسلامي فيصبح عضواً فيه بصرف النظر عن الجنس أو القبيلة أو الإقليم. وينتج من اتخاذ العقيدة الإسلامية أساساً لنظام المجتمع:

١- الرباط الإيماني وأخوة الدِّين:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال ﷺ: «المسلم أخو

---

(١) السياسة الشرعية ١٣٨ - ١٣٩ لابن تيمية.

(٢) مقدمة ابن خلدون ١٧٩ انظر الخلافة والإمامة ديانة. . . وسياسة لعبد الكريم الخطيب.

المسلم»[١] فالإخوة الإيمانية أعظم الروابط بين المسلمين، وعلى أساسها تكون الموالاة، وقد يشترك المسلم مع أخيه بروابط أخرى: كرابطة النّسب أو الإقليم وهذه الروابط غير منكورة ولا مرفوضة في الإسلام، ولكن بشرط أن لا تحمل شيئاً من الباطل وأن لا تعلو على رابطة الإيمان ومستلزماتها.

والرابطة الإيمانية لا تقتضي اضطهاد غير المسلمين أو إيذاءهم. فإذا فات غير المسلم رابطة الإيمان وأخوة الدين فلن تفوته حماية المسلمين وعدل الإسلام، قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

٢ - تقوى اللّه هي ميزان التفاضل بين الناس:

لا مجرد الانتساب إلى القبائل والدول، فالانتساب: يُقصد به التعارف، وما يترتب عليه من تعاون أو تكاليف، قال تعالى: ﴿مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. وبهذا الميزان الدقيق أصبح المجال واسعاً للتنافس في الخير.

خصائص النظام الاجتماعي في الإسلام:

١ - مراعاة الأخلاق:

فالنظام الاجتماعي في الإسلام يمتاز بحرصه الشديد على طهارة المجتمع ونظافته من القبائح والرذائل، فالزّنا محرّم وعقوبته الجلّد والتغريب، أو الرجم. والقذف محرّم وعقوبته الجلّد، وكذلك السِّباب والقمار وشهادة الزور والتجسس والغيبة والنميمة وكل ما يوقع العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع، كل ذلك محظور. بل قد وضع الإسلام الكثير من الوسائل الوقائية، وسَّد كثيراً من المنافذ: فلم يجوز للمرأة أن تخلو برجل غير زوجها أو محارمها. وكذلك يجب أن تلتزم باللباس

---

(١) رواه مسلم.



الشرعي، إلى غير ذلك من احترام الكبير والشفقة على الصغير. والتعاون على الخير قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

٢ - الالتزام بالعدل:

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. وبالتالي فإن أي شفاعة أو جهد يُبذل لتعطيل سريان العدالة أو للانحراف بها عن مجراها المستقيم يعتبر حراماً في شرع الإسلام. كما قال ﷺ لأسامة عندما جاء ليشفع في المرأة المخزومية التي سرقت: «أتشفع في حد من حدود اللّه»؟![(١)].

٣ - العناية بالأسرة:

هي النواة الأولى للمجتمع، فإذا صلحت، صلح المجتمع وإذا فسدت، فسد المجتمع. والحفاظ عليها يدخل ضمن مقاصد الإسلام ألا وهو الحفاظ على الجنس، ولهذا حرم الزنا وشرع الزواج وحث عليه فقال ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[(٢)]. ولهذا وضع حقوقاً وواجباتٍ للزوج والزوجة والأبناء ووضع شروطاً وضوابطَ كثيرة لهذا العقد والرباط.

٤ - تحمل الفرد مسؤولية إصلاح المجتمع وإزالة الفساد منه على قدر الطاقة والوسع:

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

---

(١) رواه البخاري وأبو داود.
(٢) رواه مسلم.



وقد يسأل سائل: لماذا يُطالب الفرد في الإسلام بهذا الواجب مع مطالبته بإصلاح نفسه؟

لقد طالب الإسلام ذلك لأمور:

أ- تأثر الفرد بالمجتمع: إن الإنسان يتأثر بالمجتمع الذي يعيش فيه، لهذا جاء في الحديث: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يُهوّدانه أو ينصّرانه.....»(١) فالأبوان بالنسبة للصغير مجتمعه الأول الذي يؤثر فيه. وكذلك قول العالِم للذي قتل مائة نفس: «انطلق إلى أرض كذ وكذا فإن بها أُناساً يعبدون اللّه تعالى فاعبد اللّه معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء»(٢).

ب - قيام المجتمع الصالح: وهذا أهم هدف خُلِقَ الإنسان من أجله قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وكون العبادة: «هي اسم جامع لكل ما يحبه اللّه تعالى ويرضاه من الأقوال والأفعال والأحوال الظاهرة والباطنة»(٣) فهذا يقتضي أن يجعل المسلم أقواله وأفعاله وتصرفاته وعلاقاته مع الناس على وفق ما جاءت به الشريعة الإسلامية، والمسلم لا يستطيع أن يصوغ حياته هذه الصياغة الإسلامية إلا إذا كان المجتمع الذي يعيش فيه منظماً على نحو يسهل عليه الصياغة، أي أن يكون مجتمعاً إسلامياً صحيحاً، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، ولهذا يأمر الإسلام بالتحول من المجتمع الجاهلي إلى المجتمع الإسلامي، ما دام الفرد عاجزاً عن إزالة جاهليته قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

ج- النجاة من العقاب الجماعي:

إن قيام الأفراد بإصلاح المجتمع ينجيهم وينَّجي المجتمع من الهلاك الجماعي أو

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) مختصر فتاوى ابن تيمية ١٧٢ - ١٧٣ .

العقاب وإذا قدّر اللَّه هلاكَ المجتمع الفاسد فإنه ينَجّي المصلح، أو يبعثه على نيته وصلاحيته.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]، قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: «أمر اللَّه المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب»[١] وقال ﷺ «مثل القائم في حدود اللَّه والواقع فيها: كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء، مرّوا على من فوقهم، فقالوا: «لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا»، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا[٢].

ميزان وضابط صلاح المجتمع وفساده:

إن المجتمع الصالح هو المجتمع الإسلامي القائم على أساس العقيدة الإسلامية الصحيحة والتي ينبثق منها النظام الاجتماعي الإسلامي، الذي ينظم شؤونه المختلفة[٣].

قوله: «و الاقتصادية...»:

ش: أولًا: تعاريف:

أ - النشاط الاقتصادي: هو النشاط والجهد المبذول للحصول على وسائل العيش من طعام ولباس وسكن... وغير ذلك من الأمور الضرورية وغير الضرورية.

ب - النظام الاقتصادي: هو القواعد والأحكام التي تنظم النشاط الاقتصادي للأفراد في المجتمع.

---

(١) جامع أحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٣١٩).
(٢) رواه البخاري.
(٣) راجع أصول الدعوة لعبد الكريم زيدان رحمه الله.

ثانياً: المبادئ العامة للنظام الاقتصادي الإسلامي:

١- حرية العمل:

يحث الإسلام على العمل ويكره العجز والكسل قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]. وقال ﷺ: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي اللَّه داود كان يأكل من عمل يده»(١) وجعل اختيار العمل المناسب للفرد متروكاً له ولتقديره، فله أن يباشر ما يشاء من أوجه النشاط الاقتصادي دون إكراه أو إجبار أو منع. ولا شك إن تقرير هذا المبدأ يقوم على أساس من فطرة الإنسان. وحفظ كرامته وآدميته، ولِما من حرية العمل أيضاً من إنماء لمواهبه وكفاءته. وإذكاء روح المنافسة بين الأفراد وما ينعكس عليه من التعاون في الأرباح وثمرات الأعمال، نظراً لاختلاف المواهب والكفاءات ومقدار الجهد المبذول.

والإسلام يقر هذا التفاوت الطبيعي ما دام ناتجاً من أسباب مباحة مشروعة لأنه نتيجة لازمة لاختلاف الناس في مقدار ذكائهم ومعرفتهم ومواهبهم قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

٢- حق الملكية الفردية:

فقد أقرّ الإسلام للأفراد حق الملكية الفردية، وبهذا الإقرار أمكن للفرد أن يكون مالكاً. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ [يس: ٧١].

وقد رتب الإسلام على مبدأ حق الملكية الفردية التزاماً عاماً على الكافة احترامه وعدم المساس به إلا بوجه حق، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾

---

(١) أحمد والبخاري.



[البقرة: ١٨٨]، وقال ﷺ: «لا يحل مال امرئٍ مسلم إلا بطيب نفس منه»[١].

٣- حق الإرث:

ومن المبادئ المقررة في الشرع الإسلامي حق الإرث، فإذا مات الشخص وترك مالًا، ورثه أقرباؤه، الأقرب فالأقرب. فحق الإرث يقوم على أساس من الفطرة والعدل واحترام إرادة المالك، ويدفع إلى بذل المزيد من الجهد والنشاط ويحقق ضماناً اجتماعياً لأفراد الأُسرة الواحدة، ويفتت الثروات ويمنع تكديسها، فهو لهذا كله مبدأ عظيم من مبادئ النظام الاقتصادي الإسلامي.

ثالثاً: خصائص الاقتصاد الإسلامي:

إن لكل المذاهب الاقتصادية التي تسود العالم من الشيوعية، والرأسمالية، خصائصه التي تميِّزه عن المذاهب الأخرى، وإلا لما استحق أن يكون مذهباً. وإليك بيان خصائص الاقتصاد الإسلامي:

١- نظام ربَّاني:

إن الاقتصاد الإسلامي نظام ربَّاني، ليست أصوله من وضع البشر

٢- جزء من الإسلام الشامل:

وإذا كان جزءاً من الإسلام فإنه لا يمكن فصله عن بقية الأنظمة الإسلامية، من عقيدة وعبادة وأخلاق و. . . . . الخ

٣- اقتصاد عقدي[٢]:

لأنه منبثق من أصل العقيدة الإسلامية، ويتحاكم فيه إلى العقيدة، فالمسلم يلتزم بالتزامات: كالزكاة، والصدقات ونحوها، ولو فوَّت على نفسه بعض المصالح الدنيوية، آملًا بثواب اللَّه تعالى يوم القيامة، لأنه يعتقد بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا

(١) رواه أبو داود وصححه الألباني (صحيح الجامع ٧٦٦٢).
(٢) النظرية الاقتصادية في الإسلام ص ١٥٨ لفكري أحمد نعمان، نشر دار القلم بدبيّ ١٤٠٥ هـ.



ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١].

٤- اقتصاد تعبدي:

لقد قلنا: إن الاقتصاد الإسلامي نظام ربَّاني، وكل طاعةٍ لبندٍ من بنود هذا النظام هو طاعة للّه تعالى، وكل طاعة للّه هي عبادة، يقول اللّه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي: يطيعونني.

٥- اقتصاد خُلقي[١]:

إن الإسلام لا يتصور الفصل بين الأخلاق والاقتصاد، ولا يتصور قيامَ اقتصاد في ظلِّهِ بغير أخلاق، كالسّماحة قال رسول اللّه ﷺ: «رحم اللّه عبداً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا قضى، سمحاً إذا اقتضى»[٢].

٦- اقتصاد مرن:

ونعني بالمرونة: القدرة على التطور، وسبب هذه المرونة يعود إلى أن القرآن والسُنَّة - وهما المصدران الأساسيان للاقتصاد لم ينصّا إلا على الخطوط العريضة للاقتصاد الإسلامي، وأن الاجتهاد أداة لوضع الأحكام للفعاليات المستجدة للاقتصاد، كقولهم: «الأمورُ بمقاصِدِها»[٣]، وقولهم: «إذا زال المانعُ عاد الممنوع»[٤]، وقولهم: «يُتَحَمَّل الضررُ الخاص لرفع الضرر العام»[٥].

٧ - الموضوعية:

فردُ الأمانات مثلًا خير يجب أن يُتَمَسَّك به، سواء كان هذا الخير نائلًا المسلم أو الكافر، الصديقَ أو العدو، وسواء تحقَّق على يد مسلم أم كافر، عدو أم صديق، يقول

(١) انظر رابعاً.
(٢) رواه البخاري وابن ماجه.
(٣) مجلة الأحكام العدلية، المادة/ ٢ .
(٤) مجلة الأحكام العدلية، المادة/ ٢٤ .
(٥) شرح القواعد الفقهية ص ١٤٣ للشيخ أحمد الزرقاء، طبع دار الغرب الإسلامي ١٤٠٣ هـ.

اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

٨- الواقعية:

إن قرأته رأيته جميلًا، وإن طبقته في الواقع ازداد بهاءً وجمالًا نذكر مثلًا: نظرية الضرورة فيه[١]، التي عبرّ عنها الفقهاء بالقاعدة الفقهية «الضرورات تبيح المحظورات»[٢] ولو لم يبح الإسلام المحظورات بالضرورات لعنِتَ الناس، ولخالفوا الشريعة وإذا اضطر إنسان إلى شيءٍ أُبيحَ له أن يستعمل منه ما يدفع الضررَ عنه وليس أكثر ولذلك قالوا: «الضرورةُ تقدَّر بقدرِها»[٣].

٩- الهدف السامي:

منها زيادة الرفاهية المادية، وتحقيق السُّموِّ الروحي والتهذيب النفسي للإنسان، قال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٧- ١٨]. فالإنفاق هنا لتحقيق هدف تزكية النفس وقال جل شأنه: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الصف: ١١] فقد جعل الإسلام هدفَ الاقتصاد الثراء المعنوي إلى جانب الثراء المادي.

١٠ - اقتصاد بنَّاء:

يُحرِّم كل ما هو ضار بالفرد والمجتمع، فهو يحرم الربا والغش، ويحرم الكسب عن طريق الجريمة، والبغاء، والاتجارَ بالخمر والمخدِّرات ونحو ذلك، والأصل في ذلك قوله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»[٤].

١١ - اقتصاد متوازن:

وتوازنه هذا نجده في سائر المجالات، فهو قد وازن بين حق الفرد وحق المجتمع،

---

(١) انظر: الضرورة الشرعية مقارنة مع القانون الوضعي الدكتور وهبة الزحيلي، طبع مؤسسة الرسالة، طبعة ثانية ١٣٣٩ هـ.
(٢) المنثور في القواعد ٢/ ٣١٧ للزركشي، طبع وزارة الأوقاف الكويتية ١٤٠٢ هـ.
(٣) المرجع السابق ٢/ ٣٢٠ .
(٤) موطأ الإمام مالك ٢/ ٧٤٥ . وأحمد في مسنده وصححه الألباني في الإرواء رقم ٢٣٤٠ .

فلم يهدر حق الفرد لصالح المجتمع كما تفعل الشيوعية ولم يُطلق يدَ الفرد ولو كان ذلك على حساب المجتمع، كما هو الحال في الرأسمالية وقد عبَّر الفقهاء عن هذا بقولهم: «يُحتملُ الضررُ الخاص لدفع الضرر العام»(١) ووازن بين مطالب الدنيا وثواب الآخرة، ولم يرضَ بإهمال واحد منهما، فقال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧] ووازن بين مطالب الروح ومطالب الجسد، فقد قال سلمان الفارسي لأبي الدرداء وصدَّقه رسول اللَّه ﷺ فيما قال: «إن لربِّك عليك حقاً، وإن لنفسك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً، فأعطِ كل ذي حق حقه»(٢)، ووازن بين الإسراف والتقتير في الإنفاق فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

١٢ - **المال في الاقتصاد مُلكٌ للَّه تعالى**: بل كل شيء في هذا الكون ملك للَّه قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩]، وقال جل شأنه: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

١٣- ترشيد استخدام المال وذلك عن طريق(٣):

أ- الاعتدال في الإنفاق.

ب- عدم تمكين السفهاء من المال: قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥].

ج- عدم استعماله لترويج الباطل: قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

د- عدم استعماله استعمالاً مُضِراً بالغير: فلا يحلُّ لمن ملك مذياعاً أن يُعليَ صوته

---

(١) مجلة الأحكام العدلية، المادة ٢٦ وقواعد الفقه ص ١٣٩ للسيد محمد عميم الإحسان المجددي.

(٢) البخاري في الأدب، باب صنع الطعام والتكليف للضيف، والترمذي في الزهد، باب أعط كلَّ ذي حق حقه.

(٣) النظرية الاقتصادية في الإسلام ص ١٥٤ .

بشكل يمنع غيره من النوم أو المذاكرة أو العمل، وإن كان يتصرف في خالص ملكه وله منفعة بهذا التصرف[١].

رابعاً: الضوابط الخُلُقية للتعامل الاقتصادي في الإسلام:

أ - ضغط تكاليف الإنتاج: لما كانت السلعة المُنتجَة يحتاج إليها الغنيُّ والفقير والأرملة والمسكين فإنها يجب أن تُقدّم إليهم بأرخَصِ الأسعار، ولا يمكن ذلك إلا بخفض تكاليف الإنتاج، فحرّمَ الاحتكار لأنه يؤدي إلى إغلاء الأسعار، وكره السّمسَرَةَ، لأن أجرة السّمسار سيتحملها المستهلك في النهاية ولذلك قال ﷺ «لا يبع حاضرٌ لبادٍ»[٢] أي لا يكون له سمساراً، وكره أن يتخذ المرءُ نفسه تاجراً وسطاً دون الحاجة لذلك، لأن ذلك يُغلي السعر على المستهلك، فقد قال ﷺ: «لا تَلَقُّوا الرّكبان»[٣] أي لا تَخرجوا إلى مدخل المدن لتشتروا السّلع من جُلّابها ثم تأتوا بها السوق لتبيعوها فيه.

ب- عدم التدخل غير المشروع: الإسلام ربّى المؤمنين على الإيمان بالقضاء والقدر، وإن ما كتبه اللّه تعالى لك فلن يكون لغيرك، ولذلك اعتبر اختطاف العُقود ممن أوشك على إمضائها مجانبةً لأخلاقيات الاقتصاد الإسلامي، فقد قال ﷺ: «لا يَبع الرجل على بَيْع أخيه»[٤].

ج- عدم استغلال الحاجة للتحكم: «قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٣].

د- التسامح والتساهل: من أخلاق الإسلام التسامح بوجه عام، والتسامح في المعاملات الاقتصادية بوجه خاص، قال ﷺ: «رحم اللّه عبدا سمحاً إذا باع سمحا

---

(١) المادة ١١٩٢من مجلة الأحكام العدلية.

(٢) رواه مسلم في البيوع، باب تحريم بيع الحاضر للبادي، رواه البخاري في البيوع باب لا يشتري حاضرٌ لبادٍ بالسّمسرة.

(٣) رواه البخاري ومسلم في البيوع، باب بيع الحاضر للبادي.

(٤) البخاري ومسلم في البيوع، باب لا يبع على بيع أخيه.

إذا اشترى، سمحاً إذا قضى، سمحا إذا اقتضى»[(١)].

ومنها: إنظارُ المَدين المُعسر، قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، ومنها: إقالة العقد - أي الاستجابة إلى فسخه إذا رغب المشتري ذلك لظهور عدم احتياجه إلى المعقود عليه مثلًا - وفي ذلك يقول ﷺ: «من أقالَ مسلماً أقال اللّه عثرته»[(٢)]

هـ - **الصدقُ والأمانة**: وهما صفتان من صفات المؤمن بوجه عام، ومن صفات الذي يعمل في الميدان الاقتصادي بوجه خاص.

و- **عدم الحِلف**: الأصل أن الأيمانَ شرعت لإنهاء الخصومات بتأكيد وقوع تصرف أو نفيه، وبناء على ذلك فليس الحلفُ أداةً للكسب وترويج البضائع وإقناع المشتري بها، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «إياكم وكثرةَ الحَلِف في البيع فإنه يُنفِقُ ثم يَمحَق»[(٣)].

ي- **إتقان العمل**: ربّى الإسلام أتباعه على إتقان العمل والإخلاص فيه.

قال ﷺ: «إن اللّه يُحِبُّ إذا عمل أحدكم عملًا أن يُتْقِنه»[(٤)].

***

(١) البخاري في البيوع، وابن ماجه.

(٢) أبو داود في الإجازة، باب فضل الإقالة، وابن ماجة في التجارات وصححه الألباني في صحيح الترغيب ١٧٥٨ .

(٣) مسلم في المساقاة، باب النهي عن الحَلِف في البيع.

(٤) رواه البيهقي وحسّنه الألباني (صحيح الجامع ١٨٨٠) انظر مباحث في الاقتصاد الإسلامي للدكتور/ محمد رواس قلعجي.

القضية الرابعة والعشرون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«لا يكون مسلماً على الحقيقة إلا من أسلم قلبه، ووجهه، وجوارحه للَّه رب العالمين: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾».

قوله: «لا يكون مسلماً على الحقيقة. . .»

الشرح: والإسلام هو الدين الذي بُعث به محمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وأصله الخضوع والاستسلام والانقياد للَّه رب العالمين، وهذا الاستسلام والانقياد نوعان:

الأول: انقياد عام «الكوني القدري» لجميع المخلوقات وهذا لا ثواب فيه ولا عقاب، قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

الثاني: انقياد خاص (الشرعي) وهو الخضوع والانقياد الشرعي التام لشرع اللَّه، مع الرضا والقبول وهذا هو الإسلام الحقيقي الذي يريده اللَّه، ويثيب عليه قال تعالى: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢].

وقال تعالى عن إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: ٢٢].

فقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ أي انقادا لأمر اللَّه. وقرأ ابن مسعود وابن عباس وعليّ رضوان اللَّه عليهم «فلمَّا سلَّما» أي فوضا أمرهما إلى اللَّه. وقال ابن عباس: استسلما. وقال قتادة: أسلم أحدهما نفسه للَّه عزَّ وجلَّ وأسلم الآخر ابنه(١).

وكقوله تعالى عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضا: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ١٠٤ للقرطبي.



﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، قال ابن كيسان والكلبي: أي أخلص دينك للّه بالتوحيد، وقيل: «اخضع واخشع».

قال القرطبي: والإسلام هنا على أتم وجوهه. والإسلام في كلام العرب: الخضوع والانقياد للمستسلم. وليس كل إسلام إيمانا، وكل إيمان إسلامٌ، لأن من امن باللّه فقد استسلم وانقاد للّه. وليس كل من أسلم آمن باللّه، لأنه قد يتكلم فزعاً من السيف، ولا يكون ذلك إيمانا.

كما قال ﷺ لسعد بن أبي وقاص لما قال له: «أعط فلانا فإنه مؤمن»، فقال النبي ﷺ «أو مسلم»[1][2].

قوله: «. . . ووجهه. . .»

ش: قال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١- ١١٢].

فقوله تعالى: «بلى من أسلم وجهه للّه» أي: استسلم وخضع، وقيل أخلص عمله. وخص الوجه بالذكر لكونه أشرف ما يُرى من الإنسان، ولأنه موضع الحواس، ومنه يظهر العزّ والذُّل. والعرب تُخبر بالوجه عن جملة الشيء.

وقال:

أسلمتُ وجهي لمن أسلمت ... له المُزنُ تحمل عذباً زلالا

ويصح أن يكون الوجه في هذه الآية المقصد[3].

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ

(١) رواه مسلم.
(٢) الجامع لأحكام القرطبي.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ٧٤ .



ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

فقوله تعالى: ﴿أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ﴾ **وجهي**: بمعنى ذاتي، ومنه الحديث: «سجد وجهي للذي خلقه وصوره»(١).

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٢٠] يأمر اللّه تعالى نبيه محمد ﷺ أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير اللّه ويذبحون لغير أسمه أنه مخالف لهم في ذلك، فإن صلاته للّه، ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ [الكوثر: ٢]. أي أخلص له صلاتك، وذبحك فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لهم فأمره اللّه تعالى بمخالفتهم والانحراف عمّا هم فيه، والإقبال والنية والعزم على الإخلاص للّه تعالى(٢).

والنُسُكُ: العبادة، والناسك العابد، واختص بأعمال الحج، والمناسك مواقف النسك وأعمالها، والنسيكة مختصة بالذبيحة.

قال تعالى: ﴿فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ﴾ [الحج: ٦٧](٣).

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ والنسك: الذبيحة في الحج والعمرة، وقال الثوري عن السِّدي عن سعيد بن جبير «ونسكي»، قال: ذبحي، وكذا قال السِّدي والضّحاك. وقال الحسن «نسكي»: ديني.

وقال الزجَّاج: عبادتي، ومنه الناسك الذي يتقرب إلى اللّه بالعبادة، وقيل جميع أعمال البِّر والطاعات.

«ومحياي» أي ما أعمله في حياتي، «ومماتي» أي ما أوصي به بعد وفاتي «للّه رب

---

(١) رواه مسلم وأبو عوانة والطحاوي والدار قطني.
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١٠٩٣/٢ .
(٣) المفردات في غريب القرآن ٤٩٠ - ٤٩١ للراغب الأصفهاني.

العالمين» أي أفرده بالتقرب بها إليه.

أركان الإسلام: وأركان الإسلام خمسة كما جاء في حديث جبريل عندما سأل النبي ﷺ عن الإسلام فأجاب: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمداً رسول اللَّه وتقيم الصلاة، وتُؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا»(١).

ثم أجاب عن الإيمان بقوله: «أن تؤمن باللَّه وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الأخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»(٢) فقد فسَّر النبي ﷺ الإسلام بالإعمال الظاهرة والإيمان بالإعمال الباطنة. فليس لنا إذا جمعنا بينهما أن نجيب بغير ما أجاب النبي ﷺ، أما إذا أُفرد اسم الإيمان فإنه يتضمن الإسلام، وإذا أُفرد الإسلام فقد يكون مع الإسلام مؤمنا بلا نزاع، وهذا هو الواجب. وإنما وعد اللَّه بالجنة في القرآن وبالنجاة من النار باسم الإيمان كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٣].

وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١].

وأما اسم الإسلام مجرداً فما عُلِّق به في القرآن دخول الجنة.

لكنه فرضه وأخبر أنه دينه الذي لا يقبل من أحد سواه.

فالحاصل أن حالة اقتران الإسلام بالإيمان غير حالة إفراد أحدهما عن الآخر فمثل الإسلام من الإيمان، كمثل الشهادتين إحداهما من الأخرى، فشهادة الرسالة غير شهادة الوحدانية، فهما شيئان في الأعيان وإحداهما مرتبطة بالأخرى في المعنى والحكم كشيء واحد. كذلك الإسلام والإيمان، لا إيمان لمن لا إسلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان له إذ لا يخلو المؤمن من إسلام، به يتحقق إيمانه، ولا يخلو المسلم من

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.



إيمان، به يصح إسلامه ونظائر ذلك في كلام اللّه ورسوله وفي كلام الناس كثيرة، أعني في الإفراد والاقتران، منها لفظ الكفر والنفاق، فالكفر إذا ذُكر مفرداً في وعيد الآخرة دخل فيه المنافقون كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الحديد: ٥]. ونظائره كثيرة.

وإذا قرن بينهما كان الكافر من أظهر كفره والمنافق من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه.

وكذلك لفظ البر والتقوى، ولفظ الإثم والعدوان، ولفظ التوبة والاستغفار ولفظ الفقير والمسكين، وأمثال ذلك(١).

* * *

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ٣٤٨

القضية الخامسة والعشرون بعد المائة: قال المُصنِّف حفظه اللَّه:

«نشهد أن كتاب اللَّه «القرآن» هو كلام اللَّه المنزَّل على محمد ﷺ وهو معجزة الإسلام الحية، الخالدة الذي تعبدنا اللَّه بتلاوته، وهو الأساس الأول لدراسة الإسلام، وهو هذا القرآن الذي بين أيدينا في أقطار الأرض، ومن زعم غير ذلك أو أنه مخبوء عند أمام أو غيره فقد كفر».

قوله: «كتاب اللَّه القرآن».

الشرح: لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]. إلى قوله: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

والكتاب هو: «كلام اللَّه المنزل على محمد ﷺ المعجز بنفسه، المُتعبد بتلاوته».

قوله «كلام اللَّه»[١]:

ش: أي حقيقة، وهو اللفظ والمعنى جميعاً[٢].

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

قوله: «المنزل على محمد ﷺ»

ش: أي أنه منزَّل من عند اللَّه، نزل به جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ على محمد رسول اللَّه ﷺ ليكون من المنذرين قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٤].

وتقييد الكلام بكونه منزلًا ليس المقصود منه إثبات الكلام النفسي والاحتراز عنه كما ذهب الأشاعرة إلى ذلك[٣]، وقال أبو جعفر الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ وأن القرآن كلام اللَّه منه

---

(١) راجع الفقرة ٣٩ .

(٢) مجموع الفتاوى ١٢/٣٦، ٧٦، ١٧٣ .

(٣) قال الأسنوي «فخرج بالمنزَّل: الكلام النفساني وكلام البشر» نهاية السول ٢/٣ .



بدأ بلا كيفية قولًا، وأنزله على رسوله وحياً، وصدَّقه المؤمنون على ذلك حقاً، وأيقنوا أنه كلام اللَّه تعالى بالحقيقة(١).

قوله: «وهو معجزة الإسلام»(٢)

ش: وهناك أوجه يعرف بها إعجاز القرآن وهي باختصار:

١- وروده على مراتب البلاغة والإصابة في تسديد أوامره وزواجره وتحسين مواعظه.

٢- حسن انتظامه بتشاكل سوره وكلماته، وتشابه فصوله وآياته في براعته وفصاحته وعذوبة لفظه.

٣ - إخباره بالمغيبات، وإظهار ما تسره القلوب وتحقق هذه الأخبار.

٤- ظهوره على يد صاحب «الرسالة» وهو أمي لم يُعرف قط بدرس كتاب ولا نظر في حساب ولا تعلم للعلوم(٣).

قوله: «الذي تعبدنا اللَّه بتلاوته»(٤)

ش: وكونه متعبداً بتلاوته، فيخرج بذلك الآيات المنسوخة اللفظ، سواء بقي حكمها أم لا، لأنها صارت بعد النسخ غير القرآن، لسقوط التعبد بتلاوتها فلا تُعطى حكم القرآن(٥) وخرج بذلك السنة المطهرة لأنها وحي من اللَّه تعالى إلا أننا غير متعبدين بتلاوتها.

---

(١) شرح الطحاوية ١٦٨ .
(٢) راجع فقرة ٣٩ .
(٣) الحجة في بيان المحجة للأصفهاني ١/ ٣٥٠ تحقيق ودراسة محمد بن ربيع بن هادي المدخلي حفظه اللَّه.
(٤) راجع فقرة ٤٠ .
(٥) شرح الكوكب المنير ٢/ ٨ .

قوله: «**وهو الأساس الأول لدراسة الإسلام**»

ش: فإذا عرفنا أن القرآن من عند اللّه تعالى، علمنا أن مصدره ومشرع أحكامه ومناهجه هو الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦].

ثمرة اعتقادنا بأن القرآن من عند اللّه:

أولا: كماله وخلوه من النقائص والجهل والهوى والظلم، وذلك لأن صفات الصانع تظهر فيما يصنعه، ولمّا كان للّه تعالى الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله، فإن أثر هذا الكمال يظهر فيما يشرعه من أحكام ومناهج وقواعد.

ثانياً: ويترتب كونه من عند اللّه أنه يظهر بقدر كبير جداً من الهيبة والاحترام من قِبَل المؤمنين به، مهما كانت مراكزهم الاجتماعية وسلطاتهم الدنيوية وطاعة هذا الشرع طاعة اختيارية تنبعث من النفس وتقوم على الإيمان بالإضافة إلى، خصاله الشمولية والتي تشمل جميع شؤون الحياة وسلوك الإنسان وكذلك لعموميته حيث إنه جاء لعموم البشر ولم يأت لطائفة معينة أو جنس خاص قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

وبالتالي لا يُتصور هناك شخص يريد أن يدرس الإسلام ولا يضع نصب عينه القرآن الكريم.

قوله: «**من زعم غير ذلك أو أنه مخبوء عند إمام أو غير ذلك. . .**»

ش: الزعم أن هذا القرآن مخبوء عند إمام غائب كما تدعيه الرافضة:

١- كما ينسب هذا القول إلى أبي جعفر كما نقل عنه جابر أنه قال: «ما ادعى أحد من الناس أنه جمع القرآن كله إلا كذاب، وما جمعه وحفظه كما نزل إلا عليّ بن أبي



طالب والأئمة من بعده»[١]

٢- وعن علي بن سعيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «وعندنا مصحف فاطمة، ما فيه آية من كتاب الله، وإنه إملاء رسول الله صلوات الله عليه وآله وخط عليّ عليه السلام بيده»[٢].

٣- قال نعمة الله الجزائري: «رُوي في الأخبار: أنهم عليهم السلام أمروا شيعتهم بقراءة هذا الموجود في القرآن في الصلاة وغيرها والعمل بأحكامه حتى يظهر مولانا صاحب الزمان «أي المهدي» فيرتفع هذا القرآن من أيدي الناس إلى السماء ويخرج القرآن الذي ألفه أمير المؤمنين «عليّ» فيُقرأ ويُعمل بأحكامه»[٣].

٤- وقال أبو الحسن العاملي: «إن القرآن المحفوظ عما ذكر، الموافق لما أنزله الله تعالى ما جمعه علي (ع) وحفظه إلى أن وصل إلى ابنه الحسن (ع) وهكذا إلى أن وصل إلى القائم (ع) «المهدي» وهو اليوم عنده صلوات الله عليه»[٤].

فكيف يمكن لرسول الله ﷺ أن يكتم عن المسلمين جميعاً هذا القرآن؟ وكيف يمكن لأمير المؤمنين عليه السلام والأئمة من بعده أن يكتموه عن شيعتهم .

٥- قال الحاج كريم خان الكرماني الملقب «بمرشد الأنام»:

أن الإمام المهدي بعد ظهوره يتلو القرآن فيقول: «أيها المسلمون ! هذا والله هو القرآن الحقيقي الذي أنزله الله على محمد والذي حُرِّف وبُدِّل»[٥].

٦- وعن علي بن أبي حمزة عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: « . . . وعندنا مصحف فاطمة عليها السلام، أما والله ما فيه حرف من القرآن، ولكنه إملاءُ رسول الله ﷺ وخط عليّ»[٦].

---

(١) الكافي ١/ ٢٦ .
(٢) بحار الأنوار ٢٦/ ٤١ .
(٣) الأنوار النعمانية ٢/ ٣٦٠ .
(٤) المقدمة الثانية لتفسير مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار ٣٦ .
(٥) إرشاد العوام ٣/ ١٢١ فارسي نقلا عن كتاب الشيعة والسنة ١١٥ «إحسان إلهي ظهير» رحمه الله .
(٦) البحار ٢٦/ ٤٨ .

أما كفره فواضح وذلك:

١- لتكذيبه بالقرآن قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. أي هذا القرآن الذي فيه ذكر لكل شيء، فنحن حافظون له في حال إنزاله وبعد إنزاله فقد استودعه في قلوب أمته وحفظ اللّه ألفاظه من التغيير فيه والزيادة والنقص ومعانيه من التبديل فكيف يخبرنا اللّه بأمر وهو عاجز عن تنفيذه.

٢- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

٣- قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]. والقرآن من الذكر لقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]، والقرآن من أفضل الذِكر وقد نزله اللّه للتبيان وليس للكتمان حتى تقام به الحجة وتنقطع به المحجة.

٤- قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨]، فمن معجزات القرآن هو عجز شيء أن يأتوا بمثله فلا بد أن يكون المهتدي موجود وإلا فبأي شيء تحداهم اللّه. بعدم؟

٥- قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٩].

فأين هذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم؟ أتراه المخفي المزعوم؟!

٦- قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧]، أي غير ممكن ولا متصور أن يُفترى هذا القرآن على اللّه لأنه الكتاب العظيم فإن كان هذا الكتاب مُحرَّفاً وليس الذي أنزل على محمد ﷺ فأتوا بسورة من مثله.

٧- قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

فما المقصود بالقرآن الذي أمرنا أن تدبر آياته؟ أيأمر اللّه تعالى عباده بتدبر كتابه: وهو



التأمل في معانيه وتحديق الفكر فيه وفي مبادئه وعواقبه، وهو غير موجود بين أيديهم؟ أم كيف يأمرنا اللَّه بتدبر كتاب مُحرَّف؟ بل ليس فيه آية واحدة من عند اللَّه، كما يزعم أهل الضلال؟

ثم ماذا يستفيد الناس من كتاب مُخبأ مزعوم لا يستطيعون قراءته فضلًا عن تطبيقه؟

وكيف يعرف الناس الحلال من الحرام؟ ثم ما مصير من مات، ومن سيموت طيلة إخفاء هذا الكتاب؟ وكيف ستقوم عليهم الحجة؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

***



القضية السادسة والعشرون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«هذا الكتاب فصّل اللَّه فيه أحكام كل شيء مما يصلح أمر العباد في دنياهم وأخراهم ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]».

قوله: «هذا الكتاب فصّل اللَّه فيه أحكام كل شيء...»

الشرح:

في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين، وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبين فيه، أتم تبيين بألفاظ واضحة، ومعان جلية.

فلما كان هذا القرآن تبياناً لكل شيء، صار حجة اللَّه على العباد كلهم. فانقطعت به حجة الظالمين، وانتفع به المسلمون فصار هدى لهم،يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم.

وعن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال: «أُنزل في القرآن كل علم، وبُيّن لنا فيه كل شيء، ولكن عِلمنا يقصر عمّا بُيّن لنا في القرآن»(١)، وعنه أيضاً ﷺ قال: «من أراد العلم فعليه بالقرآن، فإن فيه خبر الأولين والآخرين».

قال البيهقي رَحِمَهُ اللَّهُ: أراد به أصول العلم وعنه ﷺ قال: «لعن اللَّه الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات لخلق اللَّه، فقالت له امرأة في ذلك فقال: «ومالي لا ألعن من لعن رسولُ ﷺ، وهو في كتاب اللَّه». فقالت: «لقد قرأت ما بَين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول!».

قال: «لئن قرأتيه لقد وجدتيه !» أما قرأت: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]. قالت: «بلى». قال: «فإنه قد نهى عنه»(٢).

---

(١) أخرجه بن جرير في جامع البيان ١٤/١٠٨ وأبي حاتم.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير حديث ٤٨٨٦ واللِّباس حديث ٥٩٣١،٥٩٤٣، ٥٩٤٨ .



وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «جميع ما تقوله الأُمة شرح للسنة، وجميع شرح السنة شرح للقرآن»، وقال الشافعي أيضاً: «جميع ما حكم به النبي ﷺ فهو مما فهمه من القرآن»، وقال أيضاً: «ليست تنزلُ بأحد في الدين نازلة إلا في كتاب اللّه الدليل على سبيل الهدى فيها».

فان قيل: «من الأحكام ما ثبت ابتداء بالسنة؟» قلنا: «ذلك مأخوذ من كتاب اللّه في الحقيقة، لأن كتاب اللّه أوجب علينا اتباع الرسول ﷺ، وفرض علينا الأخذ بقوله».

وقال أيضاً مرة بمكة: «سلوني عمّا شئتم، أخبْركم عنه من كتاب اللّه».

فقيل له: «ما تقول في المُحرِم يقتل الزنبور؟» فقال: بسم الله الرحمن الرحيم قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وعن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «انه أمر بقتل المُحرم الزنبور». وقال ابن برجان: «ما قال النبي ﷺ من شيء فهو في القرآن، أو في أصله قرب، أو بعد، فهمه من فهم، أو عمي عنه من عمي وكذا كل من حكم أو قضى به». وقال بعض السلف: «ما سمعت حديثاً إلا التمست له آية من كتاب اللّه».

وقال سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مابلغني حديث عن رسول اللّه ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه في كتاب اللّه»(١).

وقال المرسي: «جمع القرآن علوم الأولين والآخرين، بحيث لم يحط بها علماً حقيقة إلا المتكلم به، ثم الرسول ﷺ، خلا ما استأثر اللّه به سبحانه، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم، مثل الخلفاء الأربعة، ومثل ابن مسعود، وابن عباس» حتى قال: «لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب اللّه».

ثم ورث عنهم التابعون لهم بإحسان. ثم تقاصرت الهمم، وفترت العزائم، وتضاءل أهل العلم، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.



فنوعوا علومه، وقامت كل طائفة بفن من فنونه.

فاعتنى قوم بضبط لغاته، وتحرير كلماته، ومعرفة مخارج حروفه وعددها، وعدّ كلماته وآياته، وسوره وأجزائه، وأنصافه وأرباعه، وعدد سجداته إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة، والآيات المتماثلة، من غير تعرض لمعانيه، ولا تدبر لما أودع فيه، فسُموا القراء.

واعتنى النحاة بالمُعرب منه والمبني من الأسماء والأفعال، والحروف العاملة وغيرها وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها، وضروب الأفعال، واللازم والمتعدي، ورسوم خط الكلمات، وجميع ما يتعلق به، حتى إن بعضهم أعرب مشكله. وبعضهم أعربه كلمة كلمة.

واعتنى المفسرون بألفاظه، فوجدوا منه لفظاً يدل عل معنى واحد، ولفظا يدل على معنيين، ولفظاً يدل على أكثر، فأجروا الأول على حكمه، وأوضحوا الخفي منه، وخاضوا إلى ترجيح أحد احتمالات ذي المعنيين أو المعاني، وأعمل كل منهم فكره، وقال بما اقتضاه نظره.

واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية، والشواهد الأصلية والنظرية، مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية اللّه ووجوده، وبقائه وقدمه، وقدرته وعلمه، وتنزيهه عما لا يليق به، وسموا هذا العلم بـ «أصول الدين».

وتأملت طائفة معاني خطابه، فرأت منها ما يقتضي العموم، ومنها ما يقتضي الخصوص، إلى غير ذلك، فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز، وتكلموا في التخصيص والإضمار، والنّص والظّاهر، والمُجمل والمُحكم والمتشابه، والأمر والنهي والنسخ، إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة، واستصحاب الحال والاستقراء، وسموا هذا الفن «أصول الفقه».

وأحكمت طائفة صحيح النظر، وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام وسائر



الأحكام، فأسسوا أصوله وفروعه، وبسطوا القول في ذلك بسطاً حسناً، وسموه بـ (علم الفروع) وبـ «الفقه أيضا».

وتلمّحت طائفة ما فيه من قصص القرون السابقة، والأمم الخالية، ونقلوا أخبارهم، ودونوا آثارهم ووقائعهم حتى ذكروا بدء الدنيا، وأول الأشياء: وسمّوا ذلك بـ «التاريخ والقصص».

وتنبه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال، والمواعظ التي تقلقل قلوب الرجال، وتكاد تُدَك دك الجبال، فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد، والتحذير والتبشير، وذكر الموت والمعاد، والنشر والحشر، والحساب والعقاب، والجنة والنار فصولًا من المواعظ، وأصولا من الزواجر، فسموا بذلك «الخطباء والوعاظ».

واستنبط قوم مما فيه من أصول التعبير، مثل ماورد في قصة يوسف: من البقرات السِّمان، وفي منامي صاحبي السجن، وفي رؤية الشمس والقمر والنجوم ساجدات وسموه «تعبير الرؤيا»، واستنبطوا تفسير كل رؤيا من الكتاب، فإن عزّ عليهم إخراجها منه، فمن السنة التي هي شارحة الكتاب، فإن عَسُرَ فمن الحكم والأمثال.

وأخذ قوم مما في آيات المواريث من ذكر السِّهام وأربابها، وغير ذلك وسمّوه «علم الفرائض» واستنبطوا منها من ذكر النصف والثلث، والربع والسدس والثمن «حساب الفرائض» ومسائل العول، واستخرجوا منه أحكام الوصايا.

ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على الحكم الباهرة في الليل والنهار والشمس والقمر ومنازله، والنجوم والبروج، وغير ذلك اللَّهُمَّ فاستخرجوا «علم المواقيت».

ونظر الكتّاب والشعراء إلى مافيه من جزالة اللفظ وبديع النُظُم، وحسن السياق والمبادئ، والمقاطيع والمخالص والتلوين، والإطناب والإيجاز، وغير ذلك فاستنبطوا منه «علم المعاني والبيان والبديع».

هذه الفنون التي أخذتها المِلة الإسلامية منه. وقد احتوى على علوم أُخَر من علوم



الأوائل مثل: الطب والجدل والهيئة، والهندسة والجبر، والمقابلة والنجامة، وغير ذلك.

أما الطبّ، فمداره على حفظ نظام الصحة، واستحكام القوة، وذلك إنما يكون باعتدال المزاج تبعا للكيفيات المتضادة، وقد جمع ذلك في آية واحدة وهي:

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧](١).

وعرفنا فيه ما يعيد نظام الصحة بعد اختلاله، وحدوث الشفاء للبدن بعد اعتلاله في قول: ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩]، ثم زاد طب الأجساد بطب القلوب، وشفاء الصدور.

وأما الهيئة: ففي تضاعيف سوره من الآيات التي ذكر فيها من ملكوت السموات والأرض، ومابث في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات.

وأما الهندسة: ففي قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ [المرسلات: ٣٠- ٣١] فان فيه قاعدة هندسية، وهو أن الشكل المثلث لا ظل له.

وأما الجدل، فقد حوت آياته من البراهين والمقدمات والنتائج، والقول بالموجب والمعارضة، وغير ذلك شيئاً كثيراً، ومناظرة إبراهيم أصل في ذلك عظيم(٢).

* * *

---

(١) وقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١].
(٢) أضواء البيان ٣/ ٢٥٤ - ٢٥٦ للعلامة محمد الشنقيطي.



القضية السابعة والعشرون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللّه:

«ولا خلاف بين جزئياته بأي وجه من الوجوه، وآياته في المعنى الواحد لا يؤخذ الحكم في شيء منها منفردا بل يُضم بعضها إلى بعض».

الشرح: كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، يأمر اللّه تعالى بتدبر كتابه، وهو: التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه وفي مبادئه وعواقبه. فكلما ازداد العبد تأملًا فيه ازداد علماً، وعملًا وبصيرة.

ومن فوائد التدبر لكتاب اللّه: أنه بذلك يصل إلى درجة اليقين، والعلم بأنه كلام اللّه لأنه يراه، يصدق بعضه بعضاً، ويوافق بعضه بعضاً. فترى الحِكَم والقصة والأخبار، تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضاً.

فبذلك يُعلم كمال القرآن، وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾ أي لو كان مفتعلًا مختلقاً، كما يقوله من يقول من جهلة المشركين والمنافقين لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، فإنه ليس من متكلم يتكلم كلاماً كثيرا إلا وُجِد في كلامه اختلافٌ واضطراباً وتضادٌ كثيرٌ، إما في الوصف واللفظ وإما في جودة المعنى، وإما في التناقض وإما في الكذب وهذا «القرآن» سالم من الاختلاف.

فعن عمر بن شعيب عن أبيه، عن جده قال: «لقد جلستُ أنا وأخي مجلساً ما أحبّ أن لي به حُمر النّعم، أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخة من أصحاب رسول اللّه ﷺ على باب من أبوابه، فكرهنا أن نُفرّق بينهم، فجلسنا حَجْرَةً، إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول اللّه ﷺ مغضباً»، حتى احمر وجهه يرميهم بالتراب ويقول: «مهلًا يا قوم ! بهذا أُهلكت الأمم من قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينز ل يكذب بعضه بعضا إنما نزل يُصدق بعضه بعضا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه



فردوه إلى عالمه»[١].

والمراد به ما يوهم التعارض بين الآيات، وكلامه تعالى منزه عن ذلك كما قال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢][٢]، ولكن قد يقع للمبتدئ ما يوهم اختلافا وليس به في الحقيقة فاحتيج لإزالته، كما صُنِّف في مختلف الحديث، وبيان الجمع بين الأحاديث المتعارضة، وقد تكلم في ذلك ابن عباس، وحكي عنه في التوقف في بعضها.

قال عبد الرزاق في تفسيره: أنبأنا معمر عن رجل المنهال بن عمر عن سعيد بن جبير قال: «جاء رجل إلى ابن عباس فقال: رأيت أشياء تختلف عليّ من القرآن» فقال ابن عباس: «ما هو، أشكٌّ؟» قال: «ليس بشك، ولكنه اختلاف»، قال: «هات ما اُختلف عليك من ذلك» قال: أسمع اللّه يقول: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وقال: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾، فقد كتموا.

وأسمعه يقول: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾، ثم قال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾. وقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾، حتى بلغ: «طائعين» ثم قال في الآية الأخرى، ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾، ثم قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾.

وأسمعه يقول «وكان اللّه» ما شأنه يقول: «وكان اللّه؟».

فقال ابن عباس: أما قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فإنهم لما رأوا يوم القيامة وأن اللّه يغفر لأهل الإسلام ويغفر الذنوب ولا يغفر شركا ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره جحده المشركون رجاء أن يغفر لهم، فقالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾: فختم اللّه على أفواههم وتكلّمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون - فعندا ذلك يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تُسوّى بهم الأرض ولا يكتمون اللّه حديثاً.

(١) انظر تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٢١- ٢٢٣ لابن سعدي والجامع لأحكام القرآن للقرطبي مجلد ورواه أحمد ولبن حبان، وصححه شعيب والألباني في تعليقه على الطحاوية ١/ ٢١٨ .

(٢) الجزء ٥/ ٢٩٠ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير(١/ ٧٠٣ - ٧٠٤١) رواه أحمد ومسلم والنسائي وابن ماجه.



وأما قوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾، فإنه إذا نفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء اللَّه فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون. ثم نُفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون.

وأما قوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾، فإن الأرض خُلقت قبل السماء وكانت السماء دخاناً فسواهن سبع سموات في يومين بعد خلق الأرض.

وأما قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾، يقول: جعل فيها جبلًا وجعل فيها نهراً وجعل فيها شجراً وجعل فيها بحوراً.

وأما قوله – «كان اللَّه» – فإنا اللَّه كان ولم يزل كذالك وهو كذلك عزيز حكيم عليم قدير لم يزل كذلك، فما اختلف عليك من القرآن فهو يشبه ما ذكرت لك، فإن اللَّه لم ينزل شيئاً إلا وقد أصابه به الذي أراد – ولكن أكثر الناس لا يعلمون[(١)].

وقال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ، في شرحه: حاصل ما فيه السؤال عن أربعة مواضع:

الأول: نفي المسألة يوم القيامة وإثباتها.

الثاني: كتمان المشركين حالهم وإفشاؤه.

الثالث: خلق الأرض أو السماء أيهما تقدم.

الرابع: الإتيان بحرف «كان» الدالة على المضي مع أن الصفة لازمة، وحاصل جواب ابن عباس:

الأول: أن نفي المسألة فيما قبل النفخة الثانية وإثباتها فيما بعد ذلك.

وعن الثاني: أنهم يكتمون بألسنتهم فتنطق أيديهم وجوارحهم.

وعن الثالث: أنه بدأ خلق الأرض في يومين غير مدحوّة، ثم خلق السموات فسوّاهن في يومين، ثم دحا الأرض بعد ذلك وجعل فيها الرواسي وغيرها في يومين، فتلك أربعة أيام للأرض.

---

(١) أخرجه بطوله الحاكم في المستدرك وصححه، واصله في الصحيح.

وعن الرابع: بأن «كان» وإن كانت للماضي لكنها لا تستلزم الانقطاع بل المراد أنه لم يزل كذلك.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق سمّاك عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلا قال له: حدثني ما هؤلاء الآيات: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾و ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾ فقال: «يوم القيامة حساب خمسين ألف سنة»، والسموات في ستة أيام كل يوم يكون ألف سنة، ويدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة. قال: «ذلك مقدار السير». وذهب بعضهم إلى أن المراد بها يوم القيامة وأنه باعتبار حال المؤمن والكافر بدليل قوله: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾[1].

اسباب الاختلاف في فهم الآيات[2]:

أحدهما وقوع المُخبرَ به على أحوال مختلفة وتصويرات شتى كقوله في خلق آدم من تراب، ومرة من حمأ مسنون، ومرة من طين لازب ومرة من صلصال كالفخار، فهذه الألفاظ مختلفة ومعانيها في أحوال مختلفة، لأن الصلصال غير الحمأ، و الحمأ غير التراب، إلا أن مرجعها كلها إلى جوهر واحد، وهو التراب، ومن التراب درجت هذه الأحوال. كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ﴾، وفي موضع ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ والجانّ: الصغير من الحيات، والثعبان الكبير منها، وذلك لأن خلقها خلق الثعبان العظيم،واهتزازها وحركتها وخفتها كاهتزاز الجان وخفته.

الثاني: لاختلاف الموضع، كقوله: ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾، وقوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾، مع قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾، قال الحليمي: فتحمل الآية:

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣٦ - ٣٧ لجلال الدين السيوطي.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٢/ ٥١- ٦٥ للإمام بدر الدين الزركشي.



الأولى: على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل.

والآية الثانية: على ما يستلزمه الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه وحمله غيره على اختلاف الأماكن لأن في القيامة مواقف كثيرة ففي موضع يُسألون، وفي آخر لا يُسألون. وقيل إن السؤال المثبت سؤال تبكيت وتوبيخ، والمنفي سؤال المعذرة وبيان الحجة.

وكقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾، مع قوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾. فالأولى تُفهِم إمكان العدل، والثانية تنفيه. والجواب: أن الأولى في توفية الحقوق، والثانية في الميل القلبي، وليس في قدرة الإنسان وكقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾، مع قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾، فالأولى: في الأمر الشرعي.

والثانية: في الأمر الكوني، بمعنى القضاء والقدر.

الثالث: لاختلافهما في جهتي الفعل كقوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: ١٧]، أضيف القتل إليهم والرمي إليه ﷺ على جهة الكسب والمباشرة. ونفاه عنهم وعنه باعتبار التأثير.

الرابع: لاختلافهما في الحقيقة والمجاز، قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾، أي سكارى من الأهوال مجازاً لا من الشراب حقيقة.

الخامس: بوجهين واعتبارين كقوله: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ مع قوله: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾- قال قطرب: فبصرك أي علمك ومعرفتك بها قوية من قولهم بصر بكذا: أي اعلم وليس المراد رؤية العين. قال الفارسي: ويدل على ذلك قوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾.

وكقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، مع قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، فقد يظن أن الوجل خلاف الطمأنينة. وجوابه أن الطمأنينة تكون بانشراح الصدر بمعرفة التوحيد، والوجل يكون عند خوف الزيغ والذهاب عن الهدى فتوجل القلوب لذلك، وقد جمع بينهم في قوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ

﴿جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

وقال الخطابي: سمعت ابن أبي هريرة يحكى عن أبي العباس بن سريج قال: سأل رجل بعض العلماء عن قوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ فأخبر انه لا يقسم به، ثم أقسم به في قوله و﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ فقال: أيما أحب إليك أجيبك ثم أفظعك، أو أفظعك ثم أجيبك، فقال: «بل أفظعني ثم أجبني»، فقال له: «اعلم أن هذا القرآن نزل على رسول اللَّه ﷺ بحضرة رجال وبين ظهراني قوم، وكانوا أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغمزاً وعليه مطعنا، فلو كان هذا عندهم مناقضة لتعلقوا به وأسرعوا بالرد عليه، ولكن القوم عَلِموا وجهِلتَ، ولم ينكروا منه ما أنكرتَ. ثم قال له: إن العرب قد تدخل «لا» في أثناء كلامها وتلغي معناها وأنشد فيه أبياتا.

«تنبيه» قال الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا تعارضت الآي وتعذّر فيه الترتيب والجمع طُلب التاريخ، وترك المتقدم بالمتأخر ويكون ذلك نسخا، وإن لم يُعلم وكان الإجماع على العمل بإحدى الآيتين عُلم بإجماعهم أن الناسخ ما أجمعوا على العمل به. قال: «ولا يوجد في القرآن آيتان متعارضتان تخلوان عن هذين الوصفين».

وقال غيره: «وتعارض القراءتين بمنزلة تعارض الآيتين نحو «وأرجلكم» بالنصب والجر، ولهذا جُمع بينهما بحمل النّصب على الغُسل، والجر على مسح الخف».

وقال الصيرفي: «جماع الاختلاف والتناقض، أن كل كلام صح أن يضاف بعض ما وقع الاسم عليه إلى وجه من الوجوه فليس فيه تناقض، وإنما التناقض في اللفظ ما ضاده من كل جهة، ولا يوجد في الكتاب ولا السنة شيء من ذلك أبداً، وإنما يوجد فيه النسخ في وقتين». وقال القاضي أبو بكر: «لا يجوز تعارض آي القرآن والآثار وما يوجبه العقل، فلذلك لم يجعل قوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ معارضاً لقوله: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ﴾، لقيام الدليل العقلي أنه لا خالق غير اللَّه، فتعيّن تأويل ما عارضه فيؤول وتخلقون على تكذبون، وتخلق على تصوّر[1].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣٩-٤٠ لجلال الدين السيوطي.



«فائدة» قال الكرماني عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾، الاختلاف على وجهين: اختلاف تناقض وهو ما يدعو فيه أحد الشيئين إلى خلاف الآخر، وهذا هو الممتنع في القرآن.

واختلاف تلازم وهو ما يوافق الجانبين كاختلاف وجوه القرآن واختلاف مقادير السور والآيات واختلاف الأحكام من الناسخ والمنسوخ والأمر والنهي والوعد والوعيد(١).

بعض ما يعين على حلّ المعنى عند الإشكال:

الأول: دلالة السياق:

فإنها ترشد إلى تبين المجمل والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظيره، وغالط في مناظراته، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير !.

الثاني: ملاحظة النقل عن المعنى الأصلي:

وذلك أنه قد يستعار الشيء لمشابهه، ثم يستعار المشابه لمُشَابِهِ المُشَابِهِ، ويتباعد عن المسمى الحقيقي بدرجات، فيذهب عن الذهن الجهة المسوغة لنقله من الأول إلى

الآخر وطريق معرفة ذلك بالتدريج، كقوله﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وذلك أن أصل «دون» للمكان الذي هو أنزل من مكان غيره، ومنه الشيء الدون الحقير، ثم استعير للتفاوت في الأحوال والرتب، فقيل: «زيد دون عُمَرَ في العلم والشرف»، ثم اتُسع فيه، فاستعير في كل ما يتجاوز حداً إلى حد، وتخطى حكماً إلى حكم آخركما في الآية المذكورة، والتقدير: لا يتجاوز ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٤٠ لجلال الدين السيوطي.

الثالث: معرفة أسباب النزول:

وهو من أعظم المُعين على فهم المعنى، وكان الصحابة والسلف الصالح يعتمدونه وكان عروة ابن الزبير، قد فهم من قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]، أن السعي ليس بركن، فردت عليه عائشة رضي الله عنها ذلك وقالت: «لو كان كما قلت، لقال تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾»، وثبت أنه إنما أتى بهذه الصيغة، لأنه كان وقع فزع في قلوب طائفة من الناس كانوا يطوفون قبل ذلك بين الصفا والمروة للأصنام، فلما جاء الإسلام كرهوا الفعل الذي كانوا يشركون به، فرفع اللّه ذلك الجُناح من قلوبهم، وأمرهم بالطواف(١)، فثبت أنها نزلت رداً على من كان يمتنع من السعي.

الرابع: السلامة من التدافع:

كقوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، فإنه يحتمل أن الطوائف لا تنفر من أماكنها وبواديها جملة، بل بعضهم، لتحصيل التفقه بوفودهم على رسول اللّه ﷺ، وإذا رجعوا إلى قومهم أعلموا بما حصل لهم. والفائدة في كونهم لا ينفرون جميعاً عن بلادهم حصول المصلحة في حفظ من يتخلف من بعضهم ممن لا يمكن نفيره. ويحتمل أن يكون المراد بالفئة النافرة هي من تسير مع رسول اللّه ﷺ في مغازيه وسراياه والمعنى حينئذ أنه ما كان لهم أن ينفروا أجمعين مع رسول اللّه ﷺ في مغازيه لتحصيل المصالح المتعلقة ببقاء من يبقى في المدينة، والفئة النافرة مع رسول اللّه ﷺ تتفقه في الدين بسبب ما يُؤمرون به ويسمعونه منه ﷺ، فإذا رجعوا إلى من بقي بالمدينة أعلموهم بما حصل لهم في صحبته ﷺ من العلم.

هذان الاحتمالان قولان للمفسرين.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير وانظر تفسير ابن كثير لهذه الآية.



ملاحظة هامة للاحتراز من الوقوع في الإشكال[(١)]:

هناك أمور يجب على المُفسِّر أن يجتنبها في تفسيره حتى لا يقع في الخطأ أو الإشكال ويكون ممن قال في القرآن برأيه، وهذه الأمور هي ما يأتي:

أولًا: التهجّم على بيان مراد اللَّه من كلامه سبحانه مع الجهالة بقوانين وأصول الشريعة، وبدون أن يُحصِّل العلوم التي يجوز معها التفسير.

ثانياً: الخوض فيما استأثره اللَّه بعلمه، وذلك كالمتشابه الذي لا يعلمه إلا اللَّه سبحانه، فليس للمفسر أن يتهجم على الغيب بعد أن جعله اللَّه سراً من أسراره وحجبه عن عباده.

ثالثاً: السير مع الهوى والاستحسان، فلا يجوز أن يفسِّر بهواه، ولا يجوز أن يرجّح باستحسانه.

رابعاً: التفسير المقرر للمذهب الفاسد، بأن يجعل المذهب أصلًا والتفسير تابعاً فيحتال في التأويل حتى يصرفه إلى عقيدته، ويرده إلى مذهبه بأي طريقة أمكن وإن كان في غاية البُعد والغرابة.

خامساً: التفسير مع القطع بأن مراد اللَّه كذا وكذا من غير دليل وهذا منهي عنه شرعاً: لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩][(٢)].

* * *

(١) أصول التفسير وقواعده ٩٦-٩٨ الشيخ خالد عبد الرحمن العكّ نقلًا من البرهان ٢/ ١٩٩ .
(٢) أصول التفسير وقواعده ٩٨ - ٩٩ الشيخ خالد عبد الرحمن العك.

القضية الثامنة والعشرون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«وأنه لا يفهم القرآن إلا وفق معناه، وبيان الرسول ﷺ، وعمل سلف الأمة»

وقوله: «وأنه لا يُفهم القرآن إلا وفق معناه»

الشرح: أي معناه اللغوي، فقد نزل القرآن على نبي أُمي، وقوم أُميّين، وليس لهم إلا ألسنتهم وقلوبهم، وكانت لهم فنون من القول يذهبون فيها مذاهبهم ويتواردون عليها وكانت هذه الفنون لا تكاد تتجاوز ضروباً من الوصف، وأنواعاً من الحكم وطائفة من الأخبار والأنساب، وقليلًا مما يجرى هذا المجرى، وكان كلامهم مشتملًا على الحقيقة والمجاز، والتصريح والكناية. والإيجاز والإطناب.

وجرياً على سُنّة اللَّه تعالى في إرسال الرسل، نزل القرآن بلغة العرب وعلى أساليبهم في كلامهم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

فألفاظ القرآن عربية، إلا ألفاظاً قليلة، اختلفت فيها أنظار العلماء، فمن قائل: «إنها عُرِّبت وأُخذت من لغات أخرى، ولكن العرب هضمتها وأجرت عليها قوانينها فصارت عربية بالاستعمال».

ومن قائل: «أنها عربية بحتة غاية الأمر أنها مما تواردت عليه اللغات»، وعلى كلا القولين فهذه الألفاظ لا تُخرج القرآن عن كونه عربياً. استعمل القرآن في أسلوبه الحقيقة والمجاز، والتصريح والكناية، والإيجاز والإطناب، وعلى نمط العرب في كلامهم.

غير أن القرآن يعلو على غيره من الكلام العربي، بمعانيه الرائعة التي افتنَّ بها في غير مذاهبهم، ونزع منها إلى غير فنونهم، تحقيقاً لإعجازه، ولكونه من لدن حكيم عليم.

فهم النبي ﷺ والصحابة للقرآن:

وكان طبيعياً أن يفهم النبي ﷺ القرآن جملة وتفصيلًا، إذ تكفَّل اللَّه تعالى له بالحفظ والبيان: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧-١٩]،



كما كان طبيعياً أن يفهم أصحاب النبي ﷺ القرآن في جملته، أي بالنسبة لظاهره وأحكامه، أما فهمه تفصيلًا، ومعرفة دقائق باطنه، بحيث لا يغيب عنهم شاردة ولا واردة فهذا غير ميسور لهم بمجرد معرفتهم للغة القرآن، بل لا بد لهم من البحث والنظر والرجوع إلى النبي ﷺ فيما يشكل عليهم فهمه، وذلك لأن القرآن فيه المجمل، والمشكل، والمتشابه، وغير ذلك مما لا بد في معرفته من أمور أُخرى يُرجع إليها.

تفاوت الصحابة في فهم القرآن:

ولو أننا رجعنا إلى عهد الصحابة لوجدنا أنهم لم يكونوا في درجة واحدة بالنسبة لفهم معاني القرآن، بل تفاوتت مراتبهم، وأشكل على بعضهم ما ظهر لبعض آخر منهم وهذا يرجع إلى تفاوتهم في القوة العقلية، وتفاوتهم في معرفة ما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، وأكثر من هذا، أنهم كانوا لا يتساوون في معرفة المعاني التي وضعت لها المفردات، فمن مفردات القرآن ما خَفي معناه على بعض الصحابة، ولا ضير في هذا فإن اللغة لا يحيط بها إلا معصوم، ولم يدَّع أحد أن كل فرد من أُمَّة يعرف جميع ألفاظ لغتها.

ومما يشهد لهذا الذي ذهبنا إليه، ما أخرجه أبو عبيدة في الفضائل عن أنس: «أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾[عبس: ٣١]».

فقال: «هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأبّ؟». ثم رجع إلى نفسه فقال: «إن هذا لهو التكلف يا عمر»(١).

وما روى من أن عمر كان على المنبر فقرأ: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٧] ثم سأل عن معنى التخوف، فقال له رجل من هُذيل: التخوف عندنا التنقّص، ثم أنشده:

تخوّف الرَحْلُ منها تامكاً قَرِداً ... كما تخوَّف عُودُ النَبْعة السَّفَنُ(٢)

(١) الإتقان ٢/ ١١٣ .

(٢) الموافقات: ٢/ ٨٧-٨٨ . والتامك: السنام. والقرد: الذي تجعد شعره، فكان كأنه وقاية للسنام. والنبع: شجر للقسي والسهام. والسّفن: كل ما يُنحت به غيره.



وما أخرجه أبو عبيدة من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: «كنتُ لا أدري ما ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ حتى أتاني أعرابيان يتخاصمان في بئر»، فقال أحدهما: «أنا فطرتها»، والآخر يقول: «أنا ابتدأتها»(١).

فإذا كان عمر بن الخطاب يَخفى عليه معنى «الأبّ» ومعنى «التخوُّف» ويسأل عنهما غيره، وابن عباس - وهو ترجمان القرآن- لا يظهر له معنى «فاطر» إلا بعد سماعها من غيره، فكيف شأن غيرهما من الصحابة؟

لا شك أن كثيراً منهم كانوا يكتفون بالمعنى الإجمالي للآية، فيكفيهم - مثلًا- أن يعلموا من قوله: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ أنه تعداد للنِعَم التي أنعم اللَّه بها عليهم، ولا يلزمون أنفسهم بتفهم معنى الآية تفصيلًا ما دام المراد واضحاً جلياً(٢).

ويؤيده ما رواه البخاري، من أن عدي بن حاتم لم يفهم معنى قوله: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٧٨] وبلغ من أمره أن أخذ عقالًا أبيض وعقالًا أسود، فلما كان بعض الليل، نظر إليهما فلم يستبينا، فلما أصبح أخبر الرسول ﷺ بشأنه، فعرَّض بقلة فهمه، وأفهمه المراد(٣).

والحق أن الصحابة رضوان اللَّه عليهم أجمعين، كانوا يتفاوتون في القدرة على فهم القرآن وبيان معانيه المرادة منه، وذلك راجع - كما تقدّم - إلى اختلافهم في أدوات الفهم، فقد كانوا يتفاوتون في العلم بلغتهم، فمنهم من كان واسع الاطلاع فيها ملمًّا بغريبها، ومنهم دون ذلك، ومنهم من كان يلازم النبي ﷺ فيعرف من أسباب النزول مالا يعرفه غيره، أضف إلى هذا وذاك أن الصحابة لم يكونوا في درجتهم العلمية ومواهبهم العلمية سواء، بل كانوا مختلفين في ذلك اختلافاً عظيماً.

قال مسروق: «جالستُ أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ - يعني الغدير -

(١) الإتقان: ٢/ ١١٣ .
(٢) انظر ما كتبه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده عن قصة عمر في سؤاله عن معنى الأب في سورة عم من تفسيره لجزء عم ص ٢١ .
(٣) الحديث عند البخاري في باب التفسير: ٨/ ١٢٧ من فتح الباري.



فالإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة والإخاذ يروي المائة والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم»[١].

قال الزركشي في «البرهان»: «اعلم أن القرآن قسمان: قسم ورد تفسيره بالنقل وقسم لم يرد».

والأول: إما أن يرد عن النبي ﷺ، أو الصحابة، أو رؤوس التابعين فالأول يبحث فيه عن صحة السند.

والثاني: «ينظر في تفسير الصحابة، فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان فلا شك في اعتماده. أو شاهدوه من الأسباب والقرائن فلا شك فيه»[٢].

وقال الحافظ ابن كثير في مقدمة تفسيره: «. . . وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى قول الصحابة، فأنهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصموا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح والعمل الصالح لا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة، والخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين وعبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه »[٣] الذي قال: «والذي لا إله إلا هو ما نزلت آية في كتاب اللّه، إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحدٍ أعلم بكتاب اللّه مني تناله المطايا لأتيته».

وقال أيضاً: «كان الرجل مِنّا إذا تعلّم عشر آيات لم يتجاوزهن حتى يعلم معانيهن والعمل بهن»[٤].

قوله: «وعمل سلف الأمة»:

ش: وهو ما ثبت عمّن نزل عليه القرآن ﷺ، أو أحد صحابته، أو من بعدهم من

---

(١) التفسير والمفسرون ١/٢٨-٣٠ د. محمد حسين الذهبي رحمه الله.
(٢) البرهان في علوم القرآن ٢/١٧٢ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ١/١٣ .
(٤) أخرجه ابن جرير عن مسروق.

السلف الصالح في تفسير الآية.

وضرورة التفسير بأخبار الرسول ﷺ، وآثار السلف الصالح من الصحابة والتابعين من الأمور البدهية لا كلام فيها عند المفسرين من أهل السنة، والإعراض عنها وعدم الاهتمام بها يعد من مناهج وسمات أهل البدع والأهواء.

فعن عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «إنا نقتدي ولا نبتدي، ونتبع ولا نبتدع ولن نضل ما تمسكنا بالأثر»[1].

قال الإمام البربهاري[2] - مبيناً أهمية الأثر -: «وإذا سمعت الرجل يطعن على الآثار ولا يقبلها أو ينكر شيئاً من أخبار رسول اللّه ﷺ فاتهمه على الإسلام، فإنه رجل رديء المذهب والقول».

وقال أيضاً: «إذا سمعت الرجل تأتيه بالأثر فلا يريده، ويريد القرآن فلا تشك أنه رجل قد احتوى على الزندقة، فقم من عنده ودعه»[3].

وروى ابن عبد البر عن عبد اللّه بن المبارك أنه قال: «ليكن الذي تعتمد عليه الأثر وخذ من الرأي ما يفسر لك الحديث»[4].

***

---

(١) رواه اللالكائي: (١/ ٨٦).
(٢) البربهاري: نسبة إلى (بربهار) وهي من الأدوية التي تجلب من الهند، وهو: الحسن بن خلف البربهاري أبو محمد شيخ الحنابلة في وقته، كان عالماً زهداً، شديداً على أهل البدع والمعاصي. توفي رحمه الله سنة تسع وعشرين وثلاثمائة . انظر ترجمته: في السير (١٥/ ٩٠ - ٩١) و: المنهج الأحمد للعليمي (٢/ ٢١ - ٣٢).
(٣) شرح كتاب السنة للبربهاري: (ص: ٣٥، ٥٤) من طبعة الدار الرمادي، (ص: ٨٩، ١٢٢) من طبعة مكتبة الغرباء. وانظر - أيضاً - طبقات الحنابلة لابن لأبي يعلي (٢/ ٨١).
(٤) جامع بيان العلم وفضله: (٢/ ١٣٢).

القضية التاسعة والعشرون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«القرآن لا يخالف ظاهُره باطنَه ولا باطنُه ظاهَره، ومن آتاه اللَّه فهما في القرآن، وعلمه التأويل يأتي بما يوافق القرآن لا بما يناقضه».

قوله: «القرآن لا يخالف ظاهره باطنه ولا باطنه ظاهره»

الشرح: وهنا يرد سؤال هو: هل لنصوص القرآن ظاهر وباطن؟

لقد أجاب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، عن هذا السؤال بشيء من التفصيل يمكن إجماله فيما يلي:

إن دعوى الظاهر والباطن في النصوص فيها من الإجمال والإشكال ما يحتاج معه إلى التفصيل والبيان.

فالباطن إما أن يُراد به علم الأمور الباطنة، مثل: العلم بما في القلوب من المعارف والأحوال، والعلم بالغيوب التي أُخبرت بها الرسل.

وإما أن يُراد به العلم الباطن، أي: الذي يُبطن عن فهم أكثر الناس، أو عن فهم من وقف مع الظاهر ونحو ذلك.

فأما الأول: فلا ريب أن العلم منه ما يتعلق بالظاهر كأعمال الجوارح، ومنه ما يتعلق بالباطن كأعمال القلوب، ومنه ما هو علم بالشهادة وهو ما يشهده الناس بحواسهم ومنه ما يتعلق بالغيب، وهو ما غاب عن إحساسهم.

والناس متفاضلون في هذا العِلم تفاضلًا عظيماً، فلهذا كان في حقائق الإيمان الباطنة وحقائق الغيب التي أخبرت بها الرسل ما لا يعرفه إلا خواص الناس، فيكون هذا العلم باطناً من جهتين:

الأولى: من جهة كون المعلوم باطناً.

الثانية: من جهة كون هذا العلم باطنا لا يعرفه أكثر الناس. ثم إن الكلام في العلم



يدخل فيه من الحق والباطل ما لا يدخل في غيره، فما وافق الكتاب والسنة فهو حق وما خالف ذلك فهو باطل كالكلام في الأمور الظاهرة.

وأما الثاني: وهو أن يراد بالباطن العلم الخفي الذي يبطن فهمه عن أكثر الناس فهو على نوعين:

أحدهما: باطن يخالف العلم الظاهر.

الثاني: باطن لا يخالف العلم الظاهر.

أما الأول: فباطل، ومدَّعيه إما ملحد زنديق، أو جاهل ضال، وهو مثل ما يدّعيه الباطنية القرامطة من الإسماعيلية والنصيرية وأمثالهم ممن وافقهم من الفلاسفة وغلاة المتصوفة والمتكلمين.

وأما الثاني: وهو الباطن الذي لا يخالف العلم الظاهر، فالكلام فيه كالكلام في العلم الظاهر، وقد يكون حقاً وقد يكون باطلًا، ويُعرف ذلك بموافقته للكتاب والسنة، أو مخالفته لهما، فإن عُلِم أنه حق قُبِل، وإن عُلِم أنه باطل رُدّ وإلا أمسك عنه(١).

قال الإمام أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ - مع ولّوعه بالتّصوف-: «ويُعلم أنه لا يجوز التهاون بحفظ التفسير الظاهر أولًا، ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر. ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن يدعي البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب، أو يدّعي فهم مقاصد الأتراك من

كلامهم وهو لا يفهم لغة الترك، فإن ظاهر التفسير يجري مجرى تعليم اللغة التي لا بد منها للفهم»(٢).

وقال الإمام الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وحاصل هذا الكلام أن المراد بالظاهر هو المفهوم

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى: (١٣/ ٢٣٢ - ٢٣٦) وأيضا: الموافقات للشاطبي: (٤/ ٢٠٨) وما بعدها.

(٢) إحياء علوم الدين، كتاب أسرار تلاوة القرآن، الباب الرابع في فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل: (١/ ٣/ ١٣٨). ونقله السيوطي في الإتقان: (٢/ ١٨٤).



العربي، والباطن هو مراد اللّه تعالى من كلامه وخطابه، فإن كان مراد من أطلق هذه العبارة ما فُسِّر، فصحيح ولا نزاع فيه،وإن أرادوا غير ذلك فهو إثبات أمر زائد على ما كان معلوماً عند الصحابة ومن بعدهم، فلا بد من دليل قطعي يثبت هذه الدعوى، لأنها أصل يحكم به على تفسير الكتاب،فلا يكون ظنياً»(١).

شرطان أساسيان لصحة العِلم الباطن:

وذكر الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ شرطين أساسيين يستقر عليهما ما يعنيه بالباطن المراد للّه تعالى، وينزاح بتحققهما دعاوى الباطنية الزائغين الذين يدعون أن تأويلاتهم الفاسدة الزائفة هي مراد اللّه تعالى، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكون الباطن هو المراد من الخطاب»، قد ظهر أيضا مما تقدم في المسألة قبلها، ولكن يُشترط فيه شرطان:

أحدهما: أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب، ويجري على المقاصد العربية.

والثاني: أن يكون له شاهد نصاً أو ظاهراً في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض.

فأما ألأول: فظاهر من قاعدة كون القرآن عربياً، فإنه لو كان له فهم لا يقتضيه كلام العرب، لم يوصف بكونه عربيا بإطلاق، ولأنه مفهوم يلصق بالقرآن ليس في ألفاظه، ولا في معانيه ما يدل عليه، وما كان كذلك، فلا يصح أن ينسب إليه أصلًا،إذ ليست نسبته إليه على أن مدلوله أولى من نسبة ضدّه إليه، ولا مرجّح يدل على أحدهما، فإثبات أحدهما تحكّم وتقوّل على القرآن ظاهر، وعند ذلك يدخل قائله تحت إثم من قال في كتاب اللّه بغير علم، والأدلة المذكورة في أن القرآن عربي جارية هنا.

وأما الثاني: «فلأنه إن لم يكن له شاهد في محل آخر، أو كان له معارض صار من جملة الدعاوى التي تُدّعى على القرآن، والدعوى المجردة غير مقبولة باتفاق العلماء.

---

(١) الموافقات: (٤/ ٢١٠).



وبهذين الشرطين يتبين صحة ما تقدم أنه الباطن، لأنهما مُوفَّران فيه بخلاف ما فسّر به الباطنية، فإنه ليس من علم الباطن، كما أنه ليس من علم الظاهر...»[١].

فخلاصة موقف السلف من ظاهر النصوص وباطنها: أن كلمة الظاهر والباطن من الكلمات المُجملة التي تحتمل الحق والباطل، فإذا كان المقصود بـ «الظاهر» ظاهر الشرع من العبادات الظاهرة كإقامة الصلاة، وإعطاء الزكاة وصيام رمضان، وأداء فريضة الحج، والجهاد في سبيل اللَّه وغير ذلك من العبادات البدنية والمالية، فهو حق وصحيح، و كذلك إذا كان المراد بـ «الباطن» الأعمال الخفية المتعلقة بالقلوب ووجوب الإخلاص وتصحيح النيات والمقاصد، فهو مطلب شرعي.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن كل قول وعمل فلا بد له من ظاهر وباطن، فظاهر القول لفظ اللسان، وباطنه ما يقوم من حقائقه ومعانيه بالجنان، وظاهر العمل حركات الأبدان، وباطنه ما يقوم بالقلب من حقائقه، ومقاصد الإنسان، فالمنافق لما أتى بظاهر الإسلام دون حقائق الإيمان لم ينفعه ذلك، وكان من أهل الخسران، بل كان في الدرك الأسفل من النار»[٢].

وإذا قارنا هذا الفهم السّلفي بمفهوم الظاهر والباطن عند الباطنية ظهر لنا أن الباطنية سلكوا مسلكاً آخر واتخذوا من قضية الظاهر والباطن مطيّة لتنفيذ أغراضهم الفاسدة وتأويلاتهم الباطلة.

وأما الأحاديث والآثار التي تُذكر في إثبات الباطن للنصوص - بمفهومه الباطني - فهي موضوعة مختلقة، أو ضعيفة لا يقوم الاستدلال بها، أو صحيحة لكنها غير متجهة لم يُحمل معناها على المفهوم الصحيح[٣].

---

(١) انظر: المصدر السابق: (٤/ ٢٢٤).
(٢) مجموع الفتاوى: (١٣/ ٢٦٢).
(٣) انظر: كلام الأئمة في تلك الأحاديث في المصدر السابق الأول: (١٣/ ٢٣١، ٢٣٢، ٢٤٤، ٢٥٣) وميزان الاعتدال للذهبي: (٣/ ٤٠٩) ترجمة رقم: (٦٩٤٤)، ولسان الميزان لا بن حجر ترجمة رقم: (١٠٣٣).



ظاهر القرآن وباطنه عند الإمامية:

يقول الإمامية الإثنا عشرية: «إنَّ القرآن له ظاهر وباطن».

وهذه حقيقة نقرهم عليها ولا نعارضهم فيها بعد ما صح لدينا من الأحاديث التي تقرر هذا المبدأ في التفسير، غاية الأمر أن هؤلاء الإمامية لم يقفوا عند هذا الحد. بل تجاوزوا إلى القول بأن للقرآن سبعة وسبعين بطناً، ولم يقتصروا على ذلك بل تمادوا وادَّعوا أن اللَّه تعالى جعل ظاهر القرآن في الدعوة إلى التوحيد والنبوة والرسالة، وجعل باطنه في الدعوة الإمامية والولاية وما يتعلق بهما(١).

حرص الإمامية على التوفيق بين ظاهر القرآن وباطنه:

ولقد كان من أثر هذا الرأي في القرآن، أن اشتدّ حرص هؤلاء القائلين به على أن يعقدوا صلة بين المعاني الظاهرة والمعاني الباطنة للقرآن، ويعملوا بكل ما في وسعهم وطاقتهم على إيجاد مناسبة بينهما حتى يُقرِّبوا هذا المبدأ من عقول الناس ويجعلوه أمراً سائغاً مقبولًا.

ومن أمثلة هذا التوفيق والربط بين ظاهر القرآن وباطنه، قوله تعالى ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [محمد: ١٥]. فهم يقرون أن هذا الظاهر مراد اللَّه تعالى، ومراد له مع هذا الظاهر معنى آخر باطني هو علوم الأئمة عليهم السلام، ويقولون: «إن الجامع بين المعنيين هو الانتفاع بكل منهما»، وبمثل هذا يوّفقون بين المعاني الظاهرة والباطنة، حتى لا يكون مستبعداً إرادة اللَّه لمعنى خاص حسب ما يدل عليه ظاهر اللفظ، وإرادته لمعنى آخر بحسب ما يدل عليه باطن الأمر.

ولقد مكَّن لهم القول بباطن القرآن من أن يقولوا: «إن اللّفظ الذي يُراد به العموم ظاهراً، كثيراً ما يُراد به الخصوص بحسب المعنى الباطن».

---

(١) التفسير والمفسرون ٢/ ٢٢، ٢٣ للدكتور محمد حسين الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.



فمثلًا لفظ (الكافرين) الذي يُراد به العموم، يقولون: «هو في الباطن مخصوص بمن كفر بولاية عليٍّ».

كذلك مكَّنهم مبدأ ترك الظاهر أحياناً ليقولوا بالباطن وحده من إرجاع الضمير إلى ما لم يسبق له ذكر، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥]. . . حيث يفسرون «أو بدِّله» بمعنى أو بدِّل علياً. ومعلوم أن علياً لم يسبق له ذكر، ولم يكن الكلام مسوقاً في شأن خلافته وولايته.

بل وساغ لهم ما هو أكثر من ذلك فقالوا: «إن الآية الواحدة لها تأويلات كثيرة مختلفة متناقضة».

وقالوا: «إن الآية الواحدة يجوز أن يكون أولها في شيء وآخرها في شيء آخر. . .» ولا شك أن باب التأويل الباطني باب واسع يمكن لكل من ولجه أن يصل منه إلى كل ما يدور بخلده ويجيش بخاطره.

وليس لقائل أن يقول: «إن رسول اللَّه ﷺ صرَّح بأن للقرآن باطناً، وأن المفسِّرين جميعاً يعترفون بذلك ويقولون به، فكيف توجه اللّوم إلى الإمامية وحدهم؟».

ليس لقائل أن يقول ذلك، لأن الباطن الذي أشار إليه الحديث، وقال به جمهور المفسِّرين هو عبارة عن التأويل الذي يحتمله اللفظ القرآني، ويمكن أن يكون من مدلولاته. أما الباطن الذي يقول به الشيعة فشيء يتفق مع أذواقهم ومشاربهم وليس في اللّفظ القرآني الكريم ما يدل عليه ولو بالإشارة.

مُخلِّص الإمامية من تناقض أقوالهم في التفسير:

ثم إن الإمامية الاثني عشرية، أحسّوا بخطر موقفهم وتحرّجه عندما جوَّزوا أن يكون للآية الواحدة أكثر من تفسيرٍ واحد مع التناقض والاختلاف بين هذه التفاسير فأخذوا يموِّهون على العامة ويضللونهم، فقرروا من المبادئ ما أوجبوا الاعتقاد به أولًا على الناس ليصلوا بعد ذلك إلى مخلِّص يتخلصون به من هذه المأزق الحرج، فكان من هذه المبادئ التي قرروا الاعتقاد بها ما يأتي:



أولًا: أن الإمام مفوَّض من قِبَل اللَّه في تفسير القرآن.

ثانياً: أن الإمام مفوَّض في سياسة الأُمة.

ثالثا: التَّقيّة.

وكل واحد من هذه الثلاثة يمكن أن يكون مُخلّصاً للخروج من هذا التناقض الذي وقع في تفاسيرهم التي يروونها عن أئمتهم، فكون الإمام مفوَّضاً من قِبَل اللَّه في تفسير القرآن مخلص لهم، لأن باب التفويض واسع وكونه مفوَّضاً في سياسة الأُمة مخلص أيضاً، لأن الإمام أعلم بالتنزيل والتأويل، وأعلم بما فيه صلاح السائل والسّامع، فهو يجيب كل إنسان على حسب ما يرى فيه صلاح حاله والقول بالتقيّة مخلّص أوسع من سابقيه، لأن الإمام له أن يسكت ولا يجيب، تقية منه. قيل عند الباقر: «إن الحسن البصري يزعم أن الذين يكتمون العلم تؤذي ريح بطونهم أهل النار»، فقال الباقر: «فهلك إذن مؤمن آل فرعون، مازال العلم مكتوماً منذ بعث اللَّه نوحاً، فليذهب الحسن يميناً وشمالًا، ولا يوجد العلم إلا ههنا... وأشار إلى صدره»[(١)].

أمثلة من تفسير الإمامية الاثني عشرية[(٢)]:

١- فسّر أحد من مفسرِيهم بعض الآيات من سورة الرحمن في قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ١٩- ٢٢].

حيث قال: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ عليّ وفاطمة عليهما السلام ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ محمد ﷺ، ﴿مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾؟ الحسن والحسين عليهما السلام[(٣)].

---

(١) الوشيعة في نقد عقائد الشيعة ص (٨٠) انظر التفسير والمفسرون ٢/٢(١)٢٦ للدكتور محمد حسين الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) هم فِرقة من غلاة الشيعة، يقولون باثني عشر إماماً، يعتقدون فيهم العصمة من الخطأ والنسيان وعن اقتراف الكبائر والصغائر، ويطعنون في الخلفاء الثلاثة وكبار الصحابة.

(٣) تفسير نور الثقلين، للحويزي (٥/١٩١) وتفسير الميزان، للطبطبائي (١٩/١٠٣).

٢- وقال أحدهم عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١]. والغسل عند لقاء كل إمام(١).

٣- وفسّر قول اللَّه تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ﴾ [التحريم: ١٠]: «مثل ضربه اللَّه لعائشة وحفصة أن تظاهرتا على رسول اللَّه وأفشتا سِره»(٢).

٤- وقال عن قول اللَّه تعالى: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]. «نحن وجه اللَّه»(٣).

٥- ونقل أحدهم عن كبيرهم قوله في تفسير قول اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [البقرة: ٢٠٨]. أنه قال: «أتدري ما السِّلم؟». قلت: «أنت أعلم»، قال: «ولاية عليّ والأئمة والأوصياء من بعده» قال: «وخطوات الشيطان واللَّه ولاية الأول والثاني»(٤).

أمثلة من تفاسير الباطنية الإسماعيلية(٥):

١- حمل أحدهم قول اللَّه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ﴾ [البقرة: ١٨٩] على معتقده الفاسد بأن علياً رضي الله عنه هو باب العِلم حيث قال: «الباب هو عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، لقوله ﷺ: «أنا مدينة العِلم وعليّ بابها فمن

---

(١) المصدر السابق الأخير (٨/ ٩٥).
(٢) المصدر السابق: (١٩/ ٣٤٦).
(٣) نور الثقلين: (٤/ ١٤٦)، وتفسير الميزان: (١٩/ ١٠٣).
(٤) تفسير العياشي: (١/ ١٠٢)، والصافي: (١/ ١٨٢) يقصد بولاية بالأول خلافة أبو بكر والثانية عمر رضي الله عنهما.
(٥) هم فرقة رافضية يعتقدون بإمامه إسماعيل بن جعفر الصادق، وقد مات قبل أبيه، فاعتقد بعضهم أنه حي ولم يمت وبعضهم قال: إنه مات واعتقدوا فيه الرجعة، ولهم دعوة في كل زمان، ومقالة جديدة بكل لسان، ويلقبون بالباطنية والقرامطة وغيرها، انظر الملل والنحل: «١/ ١٩٦ - ٢٢٦» واعتقاد فرق المسلمين والمشركين: « ص: ٦٥» وكتاب الإسماعيلية للأستاذ إحسان إلهي ظهير رحمه الله.



أراد العِلم فليأت الباب»(١).

واستدل بالآية المذكورة»(٢).

٢- وأوّل قول اللّه تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١-٢] إلخ.

بقوله الباطني: «تأويل (القبور) في الباطن: أهل الضلال(٣).

(وزيارتهم): الرجوع إليهم واتباع سبيلهم.

وسؤالهم (عن النعيم): سؤالهم عن الأئمة وما أضاعوه من حقهم»(٤).

***

(١) الحديث أخرجه الترمذي في سننه: كتاب المناقب، باب ٢١: (٥/٥٩٦) برقم: (٣٧٢٣) عن عليّ بن أبي طالب ﷺ مرفوعاً بلفظ: «أنا دار الحكمة وعليّ بابها»، وقال: «هذا حديث غريب منكر» وذكره ابن الجوزي في «الموضوعات»: (١/ ٣٣٩ - ٣٥٥) وتكلّم عن طرقه وألفاظه وحكم عليه بالوضع، وكذلك شيخ الإسلام في منهاج السنة: (٧/ ٥١٥)، والذهبي في «تلخيص المستدرك»: (٣/ ١٢٦) حيث صححه الحاكم، ونقل السيوطي في «اللآلئ المصنوعة» (١/ ٣٣٤) عن الحافظ ابن حجر في بعض فتاواه قوله: «هذا الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك وقال: أنه صحيح، وخالفه أبو الفرج ابن الجوزي فذكره في الموضوعات، وقال: إنه كذب والصواب خلاف قولهما معاً، وأن الحديث من قسم الحسن»، ونقل هذا الكلام الشوكاني في «الفوائد المجموعة» (ص: ٣٤٩)، وقال: «هذا هو»، وقال: الألباني في «ضعيف الجامع» برقم: (١٤١٦): «موضوع»، وهو الصواب.

(٢) الحركات الباطنية: (ص: ١٠٢).

(٣) يعني غير الباطنيين.

(٤) تأويل الدعائم، للقاضي النعمان بن محمد الباطني: (٢/ ٨١).



القضية الثلاثون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللّه:

«وقد حُفِظ كتابه من التغيير والتبديل، والزيادة أو النقصان إلى آخر الدنيا» ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾».

الشرح:

وهذا الحفظ هو حفظ كوني قدري. فلم يحفظ سبحانه كتاباً من الكتب كما حفظ القرآن، بل استحفظها جلّ وعلا الربانيين والأحبار، فبّدلوا وغيروا، فوقع فيها ما وقع، وتولى حفظ القرآن بنفسه سبحانه، فلم يزل محفوظاً أولًا وآخراً، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ أي نحن بعظم شأننا وعلو جانبنا نزلنا الذي أنكروه وأنكروا نزوله عليك، وقالوا فيك لادعائه ما قالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. بعظمتنا وإن رَغِمت أنوف الحاسدين، فنحن الحافظون له من كل ما يقدح فيه: كالتحريف[(١)]، والتغير وأن يزاد فيه باطل ما ليس منه، أو ينقص منه ما هو منه من أحكامه وحدوده.

وقال الحسن: «حفظه بإبقاء شريعته إلى يوم القيامة». وجوّز غير واحد أن يُراد حفظه بالإعجاز والمختار أن حفظ القرآن وإبقاءه كما نزل حتى يأتي أمر اللّه تعالى، بالإعجاز وغيره مما شاء اللّه عزَّ وجلَّ، ومن ذلك توفيق الصحابة ﷺ لجمعة[(٢)].

وقال قتادة وثابت البناني: «حفظه اللّه من أن يزيد فيه الشيطان باطلًا أو يُنقص منه حقاً[(٣)] وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. والباطل: نقيض الحق، وهو: ما لا ثبات له عند الفحص عنه كما قال

---

(١) تحريف الشيء: إمالته كتحريف القلم، وتحريف الكلام أن تجعله على حرف من الاحتمال يمكن حمله على الوجهين، قال عز وجل: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣]. ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥] [المفردات في غريب القرآن ١١٤ للراغب الأصفهاني].

(٢) روح المعاني ٨/ ٢٤ - ٢٥ للألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٣) جامع الأحكام للقرطبي مجلد ٥ جزء ٩/ ٥ .



تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ وقد يقال ذلك في الاعتبار إلى المقال والفِعال.

يقال: بطل:[١] أي لا يقربه شيطان من شياطين الإنس والجنّ، لا بسرقة ولا بإدخال ما ليس منه به، ولا بزيادة ولا نقص، فهو محفوظ في تنزيله، محفوظة ألفاظه ومعانيه، قد تكفَّل من أنزله بحفظه[٢].

وقال تعالى: عن الكافرين المكذبين وتعنتهم، إذا تتلى عليهم آيات اللّه القرآنية المبينة للحق، أعرضوا عنها وقالوا جراءة منهم وظلماً: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥]. والإبدال والتَّبديل والتَّبدّل والاستبدال: «جعل شيء مكان آخر». والتبديل قد يقال: «للتغيير مطلقاً وإن لم يأت ببدله»[٣].

فالكفار يقولون لنبيهم: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ أي رُدَّ هذا، أو جئنا بغيره من نمط آخر، أو بدله إلى وضع آخر، قال اللّه تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي ليس هذا إليَّ، إنما أنا عبد مأمور ورسول مُبلِّغ عن اللّه: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٤].

ونفي النبي ﷺ عن نفسه الأسهل وهو التبديل دالٌّ على أنّ الإتيان بقرآن غيره أعجز وهو من باب أولى.

ويروى أنّه كان للمأمون - وهو أمير إذ ذاك - مجلس نظر، فدخل في جملة الناس رجل يهودي حسن الثياب، حسن الوجه، طيب الرائحة، قال: فتكلَّم فأحسن الكلام

---

(١) [المفردات في غريب القرآن (٥١) لأبي القاسم الراغب الأصفهاني].
(٢) تيسير الكريم الرحمن ١٠٤١ للعلامة عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله.
(٣) المفردات في غريب القرآن ٣٩ للراغب الأصفهاني.
(٤) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤١٠) لابن كثير.

والعبارة، قال: «فلما أن تقوّض المجلس، دعاه المأمون»، فقال له: «إسرائيلي؟».

قال: «نعم». قال له: «أسلِم حتى أفعل بك وأصنع»، ووعده، فقال: «ديني ودين آبائي»! وانصرف. قال: «فلما كان بعد سنة جاءنا مسلِماً» قال: «فتكلَّم على الفقه فأحسن الكلام»، فلما تقوّض المجلس، دعاه المأمون وقال: «ألستَ صاحبنا بالأمس؟» قال له: «بلى». قال: «فما كان سبب إسلامك؟» قال: «انصرفتُ من حضرتك فأحببتُ أن أمتحن هذه الأديان. وأنت مع ما تراني حسن الخط، فعمدتُ إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقَّصتُ، وأدخلتها الكنيسة فاشتُريت مني وعمدتُ إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدتُ فيها ونقَّصتُ، وأدخلتها البيعة فاشتُريت مِنّي، وعمدتُ إلى القرآن فعملتُ ثلاث نسخ وزدت فيها ونقَّصتُ، وأدخلتها الورَّاقين فتصفحوها، فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها، فعلمتُ أن هذا كتاب محفوظ فكان هذا سبب إسلامي».

قال: يحيى بن أكثم: «. . . فحججتُ تلك السنة، فلقيت سفيان بن عيينة فذكرت له الخبر فقال لي: «مصداق هذا في كتاب اللّه عزَّ وجلَّ» قال قلتُ: «في أي موضع؟» قال: «في قول اللّه تبارك وتعالى في التوراة والإنجيل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، فجعل حفظه إليهم فضاع، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ فحفظه اللّه عزَّ وجلَّ علينا فلم يضِع»[١].

تحريف القرآن وتبديله:

ومن الذين قالوا بتحريف القرآن وتبديله هم: الإمامية الاثنا عشرية

فقد قالوا: «إن القرآن الذي جمعه عليّ عليه السلام، وتوارثه الأئمة من بعده هو القرآن

(١) جامع أحكام القرآن مجلد ٥ جزء ٩/٥ .



الصحيح! الذي لم يتطّرق إليه تحريف ولا تبديل، أما ما عداه فمحرَّف ومبدَّل، حُذف منه كل ما ورد صريحاً في فضائل آل البيت، وكل ما ورد صريحاً في مثالب أعدائهم ومخالفيهم.

وأخبار التّحريف متواترة عند الشيعة، ولهم في ذلك روايات كثيرة يروونها عن (آل البيت)، وهم منها براء وهذه بعضها:

١- يروي الكافي عن الصادق: أن القرآن الذي نزل به جبريل على محمد ﷺ سبعة عشر ألف آية، والتي بأيدينا منها ستة آلاف ومائتان وثلاث وستون آية والبواقي مخزونة عند أهل البيت فيما جمعه عليّ(١).

٢- قال نعمة اللّه الجزائري: «إن تسليم تواتره عن الوحي الإلهي، وكون الكُل قد نزل به الروح الأمين، يفضي إلى طرح الأخبار المستفيضة، بل المتواترة، الدّالة بصريحها على وقوع التحريف في القرآن كلاما، ومادة، وإعراباً، مع أن أصحابنا قد أطبقوا على صحتها والتصديق بها»(٢).

٣- وقال أبو الحسن العاملي: «وعندي في وضوح صحة هذا القول تحريف القرآن وتغيره بعد تتبع الأخبار وتفحص الآثار، بحيث يمكن الحكم بكونه من ضروريات مذهب التّشيّع وأنه من أكبر مقاصد غصب الخلافة»(٣).

٤- وقال العلامة الحجة السيد عدنان البحراني: «وكونه: أي القول بالتّحريف من ضروريات مذهبهم»، أي الشيعة(٤).

النقص في القرآن:

١- وعند تفسير الكُليني(٥) لقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا

(١) الوشيعة ٢٣ .
(٢) الأنوار النعمانية ٢/٣٥٧ .
(٣) المقدمة الثانية الفصل الرابع لتفسير مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار وطبعت كمقدمة لتفسير (البرهان) للبحراني.
(٤) مشارق الشموس الدرية ص ١٢٦ منشورات المكتبة العدنانية - البحرين.
(٥) أبي جعفر الكليني صاحب الكافي طبع في إيران سنة ١٣٨٤ هـ الناشر مكتبة الصدوق.



﴿وَءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَءَالَ عِمْرَانَ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، قال ما نصّه: «الشيخ في أماليه عن أبي محمد الفحّام قال: حدثني محمد بن عيسى عن هارون قال: حدثني جعفر بن محمد عليه السلام يقرأ [هكذا]: » إن اللّه اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران وآل محمد على العالمين»، قال: «هكذا نُزِلت». قال العالِم علي بن إبراهيم: «نزل «آل عمران، وآل محمد على العالمين» فأسقطوا آل محمد من الكتاب»[1].

وفي صحيفة الرضا عليه السلام قال: «ليس في القرآن آية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إلا في حقنا».

٢- **عن أبي جعفر** في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

قال: «إن رسول اللّه ﷺ عقد عليهم لعليّ عليه السلام بالخلافة في عشرة مواطن، ثم أنزل اللّه: «يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود التي عقدت عليكم لأمير المؤمنين عليه السلام»[2].

٣- **عن أحمد بن محمد بن أبي النصر** قال: «دَفع إليّ أبو الحسن عليه السلام مصحفاً وقال: لا تنظر فيه، ففتحته وقرأت فيه: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ «يقصد سورة البينة»، فوجدتُ فيها اسم سبعين رجلًا من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم، وقال فبعث إليّ: «ابعث إليّ بالمصحف»[3].

٤- **وقال الشيخ المُفيد**: «إن الأخبار قد جاءت مستفيضة عن أئمة الهدى من آل محمد ﷺ باختلاف القرآن وما أحدثه بعض الظالمين فيه من الحذف والنقصان»[4].

٥- **وقال أبو الحسن العاملي**: «اعلم أن الحق الذي لا محيص عنه بحسب الأخبار المتواترة الآتية وغيرها أن هذا القرآن الذي في أيدينا قد وقع فيه بعد رسول اللّه ﷺ

---

(١) الكافي ١/ ٢٧٧ .
(٢) الكافي ١/ ٤٣١ .
(٣) الكافي ٢/ ٦٣١ .
(٤) أوائل المقالات ص ٩١ .

شيء من التغيرات، وأسقط الذين جمعوه بعده كثيراً من الكلمات والآيات»[١].

٦- **وعن محمد باقر المجلسي** في معرض شرحه لحديث هشام بن سالم **عن أبي عبد الله** عليه السلام قال: «إن القرآن الذي جاء به جبرائيل عليه السلام إلى محمد ﷺ سبعة عشر ألف آية»، قال هذا الحديث: «موثّق»، وفي بعض النسخ عن هشام بن سالم موضع هارون بن سالم، فالخبر صحيح.

ولا يخفى أن هذا الخبر وكثير من الأخبار الصحيحة صريحة في نقص القرآن وتغييره وعندي أن الأخبار في هذا الباب متواترة معنى، وطرح جميعها يوجب رفع الاعتماد عن الأخبار رأساً، بل ظني أن الأخبار في هذا الباب لا يقتصر عن أخبار الإمامية فكيف يثبتونها بالخبر؟[٢] أي كيف يثبتون الإمامة بالخبر إذا طرحوا أخبار التحريف؟

أين القرآن الكامل الذي لم يُحرّف؟[٣]

وأخف ما لهم في هذا الموضوع هو: «أن جميع ما في المصحف كلام اللّه، إلا أنه بعض ما نُزِل. والباقي مما نزل عند «المستحفظ» لم يُضع منه شيء، وإذا قام «القائم» يقرؤه الناس كما أنزل اللّه، على ما جمعه أمير المؤمنين عليّ»[٤].

ومنها ما رواه القُمّي بإسناده عن سالم بن سلمة قال: قرأ رجل على أبي عبد اللّه وأنا أستمع - حروفاً من القرآن ليس على ما يقرؤها الناس، فقال أبو عبداللّه: «كُفَّ عن هذه القراءة! اقرأ كما يقرأ الناس حتى يقوم القائم، فإذا قام اقرأ كتاب اللّه تعالى على حدّه، وأخرج المصحف الذي كتبه عليّ عليه السلام إلى الناس حين فزع منه وكتبه، فقال لهم: «هذا كتاب اللّه كما أنزله اللّه على محمد ﷺ وقد جمعته بين اللّوحين».

فقالوا: «هو ذا عندنا مصحف جامع فيه القرآن لا حاجة لنا فيه»، فقال: «أما واللّه ما

(١) المقدمة الثانية لتفسير مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار ص ٣٦ وطبعت كمقدمة لتفسير (البرهان) للبحراني.
(٢) مرآة العقول الجزء الثاني عشر ص ٥٢٥ .
(٣) راجع الفقرة ١٢٥ .
(٤) الوشيعة ٢٧ .



ترونه بعد يومكم هذا أبداً، إنما كان عليّ أن أخبركم حين جمعته لقراءته»(١) وإليك أخبار بعض علمائهم حول هذه القضية:

١- **قال نعمة اللَّه الجزائري**: «روي في الأخبار أنهم عليهم السلام أمروا شيعتهم بقراءة هذا الموجود من القرآن في الصلاة وغيرها والعمل بأحكامه حتى يظهر مولانا صاحب الزمان فيرتفع هذا القرآن من أيدي الناس إلى السماء ويخرج القرآن الذي ألفه أمير المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيقرأ ويعمل بأحكامه»(٢).

٢- **أبو الحسن العاملي** قال: «أن القرآن المحفوظ عمّا ذُكر الموافق لما أنزله اللَّه تعالى، ما جمعه عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وحفظه إلى أن وصل إلى ابنه الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ وهكذا إلى أن وصل إلى القائم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «المهدي» وهو اليوم عنده صلوات اللَّه عليه(٣).

٣- **الحاج كريم خان الكرماني الملقب «بمرشد الأنام»** «قال: إن الإمام المهدي بعد ظهوره يتلو القرآن، فيقول أيها المسلمون هذا واللَّه هو القرآن الحقيقي الذي أنزله اللَّه على محمد ﷺ والذي حُرِّف وبُدِّل»(٤).

٤- **علي أصغر البرجردي** قال: «الواجب أن نعتقد أن القرآن الأصلي لم يقع فيه تغيير وتبديل مع أنه وقع التحريف والحذف من القرآن الذي ألفه بعض المنافقين، والقرآن الأصلي الحقيقي موجود عند إمام العصر عجّل اللَّه فرَجه»(٥).

٥- **محمد بن النعمان، المُلقّب** (بالمفيد) قال: «إن الخبر قد صحّ عن أئمتنا عليهم

---

(١) راجع التفسير والمفسرون ٢/ ٢٧، ٢٨، ١١٦، ١١٧ و ٣/ ١٦٥، ٢٢٣، ٢٢٤ للشيخ/ محمد حسين الذهبي (رَحِمَهُ اللَّهُ).

(٢) الأنوار النعمانية ج ٢ ص ٣٦٠ .

(٣) المقدمة الثانية لتفسير مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار ص ٣٦ وطبعت كمقدمة لتفسير (البرهان) للبحراني.

(٤) إرشاد العوام ص ١٢١ ج ٣ فارسي نقلا عن كتاب الشيعة والسنة ص١١٥ (إحسان إلهي رَحِمَهُ اللَّهُ).

(٥) (عقائد الشيعة) على البرجردي ص ٢٧ فارسي نقلًا عن كتاب الشيعة والسنة لاحسان إلهي رَحِمَهُ اللَّهُ .



السلام أنهم قد رأوا بقراءة مابين الدفتين وأن لا نتعداه إلى زيادة فيه ولا إلى نقصان منه إلى أن يقوم القائم رضي الله عنه فيقرئ الناس على ما أنزل اللّه تعالى وجمعه أمير المؤمنين رضي الله عنه »[١].

* * *

(١) المسائل السروية منشورات المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد ص ٧٨ - ٨١ وانظر أيضاً آراء حول القرآن لآية اللّه علي الفاني الأصفهاني ص١٣٥ .

القضية الحادية والثلاثون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللّه:

«النسخ واقع في القرآن للحكم دون التلاوة والتلاوة دون الحكم، وللحكم والتلاوة معاً».

قوله: «النّسخ....»

الشرح: وهو من أبرز علوم التفسير، قال الأئمة: لا يجوز لأحد أن يُفسِّر كتاب اللّه، إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ. وقال عليّ رضي الله عنه لقاضٍ: «أتعرف الناسخ من المنسوخ»؟ قال: «لا»، قال: «هلكت وأهلكت». والنسخ مما خصّ اللّه به هذه الأُمة لِحكَم منها: «التيسير، وقد أجمع المسلمون على جوازه»(١).

أولًا: تعريف النسخ:

النسخ في الغة(٢):

١- **الإزالة والإبطال:** يقال: «نسخت الشمس الظل، ونسخت الريح الأثر، ونسخ الشيب الشباب».

٢ - **نقل الشيء من مظانّه،** كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩]. وتقول: «نسخ زيد الكتاب، أي نقله».

النسخ عند السلف: «البيان أي: بيان المراد بغير ذلك اللّفظ، بل بأمر خارج عنه، كرفع الحكم بجملته تارة - وهو اصطلاح المتأخرين - ورفع دلالة العام والمطلق والظاهر وغيرها تارة، إما بتخصيص أو تقييد أو حمل مطلق على مُقيّد وتفسيره وتبيينه، حتى إنهم يُسمّون الاستثناء والشرط والصفة نسخاً لتضمن ذلك رفع الدلالة

---

(١) الفقيه والمتفقه ١/ ١٢٢ تفسير ابن كثير ١/ ١٥٦، وروضة الناظر ١/ ٢٠٠ .

(٢) لسان العرب لابن منظور في باب الخاء فصل النون، المصباح المنير ٢٠٦، ٦٠٣، الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٢٧ .



الظاهرة وبيان المراد»[١].

النسخ في الاصطلاح[٢]: «رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي آخر متراخياً عنه».

شرح التعريف:

قولهم: (**رفع الحكم الشرعي**): أي أن المرفوع «المنسوخ وهو الخطاب الأول» يجب أن يكون حكماً شرعياً ثابتاً، وليس رفعاً لحكم البراءة الأصلية.

وقولهم: «**بخطاب شرعي**»: أي أن الرافع (الناسخ وهو الخطاب الثاني) يجب أن يكون شرعياً كذلك) أي من الكتاب والسنة[٣].

وقولهم: «**آخر - أو ثانٍ - متراخ عنه**» أي أن يكون الخطاب الثاني متأخراً أما إذا اتصل الخطاب الثاني بالخطاب الأول ولم يتراخ عنه، فإنه يكون تخصيصاً ويباناً، ولا يكون ناسخاً كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. فالتقييد بالمستطيع ليس نسخاً لوجوب الحج على الناس وإنما استثناء وتخصيص[٤].

ما يقع فيه النسخ وما لا يقع:

ويجب أن يُعلم أن هناك أموراً لا يتطرق إليها النسخ وهي:

١- الأخبار المحضة: أي ما يتعلق بذات اللّه تعالى من أسماء وصفات وأفعال وكذلك آيات الوعد والوعيد، وقصص الأنبياء، لأنها أخبار، والأخبار لا تحتمل إلا الصدق أو الكذب. والشارع منزَّه عن الكذب.

---

(١) إعلام الموقعين ١/ ٣٥ لابن القيم .

(٢) انظر الفقيه والمتفقه ١/ ٨٠، وروضة الناظر ١/ ١٩٠ . والنسخ في القرآن ١/ ٥٧ - ٥٩ للدكتور مصطفى زيد.

(٣) أضواء البيان ٣/ ٣٦١ .

(٤) معالم أصول الفقه.

٢- الأحكام الكلية إذ الكليات ثابتة عادة، قال الإمام الشاطبي رحمه الله: «القواعد الكلية من الضروريات والحاجيات والتحسينيات لم يقع فيها نسخ[١]، ومن الأحكام الكلية الأحكام العقدية وأحكام الأخلاق[٢].

أما الأمور التي يتطرق إليها النسخ فهي الأحكام العملية كالعبادات. أو المعاملات أو الحدود[٣].

أقوال العلماء في النسخ:

قال الآمدي: اتفق العلماء على جواز نسخ التلاوة دون الحكم وبالعكس ونسخهما معاً خلافاً لطائفة شاذة من المعتزلة[٤].

وقال الغزالي: «مسألة: الآية إذا تضمنت حكماً يجوز نسخ تلاوتها دون حكمها، ونسخ حكمها دون تلاوتها ونسخهما جميعاً، وظن قوم استحالة ذلك.

وجاء في التقرير والتحبير «يُنسخ القرآن تلاوة وحكماً، أو أحدهما أي تلاوة لا حكماً، أو حكماً لا تلاوة»[٥].

وجاء في تيسير التحرير «نسخ جميع القرآن غير جائز بالإجماع، قاله الرازي وغيره، لأنه معجزة مستمرة على التأبيد، ونسخ بعضه جائز»[٦].

أنواع النسخ في القرآن

النسخ في القرآن على ثلاثة أنواع:

نسخ الحكم والتلاوة، ونسخ الحكم مع بقاء التلاوة، ونسخ التلاوة مع بقاء الحكم

---

(١) الموافقات ٣/١٧، ١١٨ .
(٢) النسخ بين الإثبات والنفي دكتور محمد محمود فرغلي ١/ ١٧٢ - ١٧٥ .
(٣) انظر المصدر السابق ١/١٧٣ ومباحث في علوم القرآن ٢٣٣ .
(٤) راجع الأحكام للآمدي ص ١٧٩ ج ٣ .
(٥) المستصفي ص ١٤٦ من النسخة المجردة.
(٦) راجع تيسير التحرير ٢/ ٢٠٤ .

النوع الأول: نسخ الحكم والتلاوة

١- كقول عائشة رضي الله عنها: «كان فيما أُنزل عشر رضعات معلومات يُحرِّمن فنُسخن بخمس معلومات، فتُوفي رسول اللَّه ﷺ وهنّ مما يُقرأ من القرآن[١]. وقال أبو موسى الأشعري: «نزلت ثم رُفعت. وقال مكي[٢]: وهذا المثال فيه المنسوخ غير متلوّ والناسخ أيضاً غير متلوّ، ولا أعلم له نظيراً»[٣].

ولعل ما جاء في آخر الحديث يجعل بعض الناس يتشكك فيه وهذا لا ينبغي، إذا فُهم على وجهه الصحيح، لأن ما يدل عليه الحديث أنه كان مما يُتلى عشر رضعات وهو مُنزَّل على رسول اللَّه ﷺ ثم نُسخ هذا الحكم وصار بدله خمس رضعات مُحرّمات، ثم نُسخ أيضاً تلاوة الخمس في آخر حياة النبيﷺ فمن لم يبلغه النسخ كان يقرؤها من القرآن، ومن المعلوم أن لا يُترك ما ثبت قرآنيته إلا بدليل يرفع ما ثبت. فمن وصله الدليل ثبت النسخ عنده، ومن لم يصله كان يقرأ ذلك ؛ لأنه الثابت عنده والأصل بقاء ما كان ما لم يرد ناسخ. فمن لم يصله الناسخ يجب أن يستمسك بما معه، حتى يثبت عنده ما يجعله يترك ما عنده إلى ما عند غيره.

قال ابن حزم: «وقد تعلل قوم في رد هذا الحديث بقول عائشة رضي الله عنها: «فتوفي رسول اللَّه ﷺ وإنها لمما يُقرأ من القرآن»، وهذا لا تعلل فيه، وإنما معناه: أنه لا يُقرا من القرآن الذي رسمه وإثباته في المصحف ولم تقل عائشة رضي الله عنها إنه من القرآن المتلو في المصحف فبطل تعللّهم»[٤].

هذا وقد تكلَّم العلماء رضوان اللَّه عليهم، في قول السيدة عائشة رضي الله عنها المتقدم:

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) القيسي القيرواني القرطبي،المقرئ، النحوي اللغوي الفقيه الأديب المتفنن، الإمام العلامة صاحب التصانيف، إمام القرآن في وقته، وخاتمة أئمة القرآن في زمنه بالأندلس.

(٣) الإتقان ٢/ ٢٨ .

(٤) راجع الحكام لابن حزم ٤/ ٦٢ .

«فتُوفي رسول اللّه ﷺ وهي مما يُقرأ من القرآن، لأن هذه المقالة ظاهرها يقتضي بأن هذه التلاوة باقية وليس كذلك».

فمن العلماء من أجاب بأن المراد من قولها: «فتوفي» أي قارب الوفاة، ومنهم من أجاب بأن التلاوة نُسخت أيضاً، ولم يبلغ ذلك كل الناس إلا بعد وفاة رسول اللّه ﷺ- فتوفي ﷺ وبعض الناس يقرؤها فتقصد أنه توفى وهي مما يُقرأ.

النوع الثاني: نسخ الحكم مع بقاء التلاوة

وللعلماء في نسخ الحكم دون التلاوة مذهبان.

المذهب الأول: وهو مذهب الجمهور من الأصوليين من أهل السنة والمعتزلة والشيعة والظاهرية[1] وهؤلاء يرون جوازه عقلًا ووقوعه سمعاً.

وقد استدل الجمهور بأدلة نقلية تثبت وقوع النسخ للحكم دون التلاوة منها:

١- قول اللّه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

فقد كان المقيم القادر مخيراً بين الصّوم والفدية، فنُسخ هذا الحكم وأصبح حكم المقيم القادر وجوب الصوم فقط بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. مع وجود هذه الآية التي تفيد التخيير في القرآن تتلى ومتعبد بتلاوتها.

٢- قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

فقد كان الواجب أولًا: الوصية للوالدين ثم نُسخ هذا الحكم.

(١) راجع المستصفى ص ١٤٦، والمحصول ١/١٤٦، والمعتمد ١/٤١٨، وإرشاد الفحول ص ١٦٧، والأحكام للآمدي ٢/١٧٩، والأحكام لابن حزم ٤/٦٠، ومناهل العرفان ١١٠، ٢/ ١١١.



وقيل: ناسخه آيات المواريث، أو الحديث القائل: «إن اللّه أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث»(١) وبقيت التلاوة للآية.

ونسخ وجوب تقديم الصدقة بين يدي مناجاة النبي ﷺ وبقيت الآية تتلى. فالآية المنسوخة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [المجادلة: ١٢].

والآية الناسخة قوله تعالى: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٣].

٣- ونسخ كل من الإيذاء باللسّان للزانيين الثابت بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٦].

وإمساك الزانيات في البيوت الثابت بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ١٥].

نُسخ ذلك كله بالجلد والرجم فيهما فقد أصبح حدّ الزنا للثيب الرجم. وأصبح حدّ الزنا للبكر الجلد. مع بقاء الآيتين المنسوختين حكماً في القرآن يُتعبد بتلاوتهما.

وهذا النوع كثير جداً في القرآن الكريم وأقوى مثال على ذلك: أن اللّه سبحانه وتعالى قد أوجب على المؤمن بادئ ذي بدء أن يثبت أمام العشرة من

الأعداء بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥].

ثم نسخ اللّه تعالى هذا الحكم رحمة بعباده، وجعل وجوب الثبات أمام الاثنين من

---

(١) رواه الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة ﷺ. والترمذي وصححه الألباني (صحيح الجامع ١٧٢٠).

الأعـداء بقوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦].

حكمة رفع الحكم وبقاء التلاوة:

فإن قلت: «ما الحكمة في رفع الحكم وبقاء التلاوة»؟ فالجواب من وجهين:

الأول: أن القرآن كما يتلى ليعرف الحكم منه والعمل به فكذلك يتلى لكونه كلام اللَّه فيُثاب عليه فبقيت التلاوة لهذه الحكمة.

والثاني: أن النسخ غالباً يكون للتخفيف، فأبقيت التلاوة تذكيرا للنعمة ورفع المشقة.

النوع الثالث: نسخ التلاوة دون الحكم:

ومعناه أن يُزال النّص الدال على الحكم، بصرف اللَّه تعالى عن حفظه، مع بقاء العمل بالحكم وفيه مذهبان أيضا:

مذهب الجمهور وهم القائلون بوقوع هذا النوع. ومنهم أبو الحسين البصري وابن حزم الظاهري والرازي والبزدوي والشوكاني والغزالي[1].

أدلة الجمهور:

لما روي عن عمر رضي الله عنه أنه خطب فقال: «إن اللَّه بعث محمداً بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أُنزل آية الرجم، قرأناها ووعيناها وعقلناها، فرجم رسول اللَّه ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: «ما نجد الرجم في كتاب اللَّه»، فيضل بترك فريضة أنزلها اللَّه، وإن الرجم حق في كتاب اللَّه على من زنى إذا أُحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحبل والاعتراف».

---

(١) راجع المعتمد ١/٤١٨، والأحكام لابن حزم ٦١، ٦٢، والأحكام للآمدي ٢/١٧٩ والمحصول ١/٧٦٠ وكشف الأسرار على أصول البزدوي ٣/٩٠٨، وإرشاد الفحول ص ١٩٧ والمستصفى ص ١٤٦ .



ويعني بآية الرجم ما روي من أنه كان فيما أُنزل: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة»[١].

كيف يُعرف الناسخ من المنسوخ؟

يُعرف الناسخ من المنسوخ بعدة أمور منها:

١- النقل الصريح عن النبي ﷺ أو عن صحابي كحديث: «كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها»[٢]. وقول أنس في قصة أصحاب بئر معونة وقولهم: «ونزل فيهم قرآن قرأناه حتى رُفع»[٣].

٢- إجماع الأُمة على أن هذا ناسخ وهذا منسوخ.

٣- معرفة المتقدم من المتأخر في التاريخ.

ولا يُعتمد في النسخ على الاجتهاد، أو قول المفسرين، أو التعارض بين الأدلة ظاهراً، أو تأخر أحد الروايتين[٤].

بعض الآيات الناسخة والمنسوخة في القرآن:

وقد ذكر الشوكاني هذه الآيات فقال: فمن سورة البقرة قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾: الآية منسوخة، قيل بآية المواريث وقيل بحديث «ألا، لا وصية لوارث»[٥]. وقيل بالإجماع حكاه ابن العربي.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ﴾ [البقرة: ١٨٤]، قيل منسوخة بقوله:

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه الحاكم. وصححه الألباني (صحيح الجامع) ٤٥٨٤ .

(٣) هم بعث من أصحاب رسول اللهﷺ إلى أهل نجد، فساروا حتى نزلوا ببئر معونة، فاستصرخ عليهم عامر بن الطفيل قبائل من بني سليم من عصية ورعل وذ كوان - وأحاطوا بهم وقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم.

(٤) مباحث في علوم القرآن/ لمناع القطان رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

(٥) رواه الدار قطني في السنن عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وصححه الألباني «الجامع ٧٤٤١ والإرواء ١٦٥٤».

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقيل محكمة ولا مقدرة. قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ﴾ [البقرة: ١٨٧]. ناسخة لقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣]. لأن مقتضاها الموافقة فيما كان عليهم من تحريم الأكل والوطء بعد النوم، ذكره ابن العربي. وحكى قولا آخر أنه نسخ لما كان بالسنة.

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، أخرجه ابن جرير عن عطاء بن ميسرة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٤] إلى قوله: ﴿مَّتَـٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾ [البقرة: ٢٤٠]. منسوخة بآية: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤].

والوصية منسوخة بالميراث، والسكنى ثابتة عند قوم منسوخة عند آخرين بحديث «ولا سكنى».

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، منسوخة بقوله بعده: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ومن آل عمرآن قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، قيل إنه منسوخ بقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ التغابن: ١٦]. وقيل: لا، بل هو مُحكم، وليس فيها آية يصح فيها دعوى النسخ غير هذه الآية. ومن النساء قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [النساء: ٣٣]، منسوخة بقوله: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨] قيل منسوخة، وقيل لا، ولكن تهاون الناس في العمل بها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّـٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ﴾ [النساء: ٨]، الآية منسوخة بآية النور من المائدة. وقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢]، منسوخة بإباحة القتال فيه. قوله تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢]، منسوخة بقوله



تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩] قوله تعالى: ﴿ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٦]. منسوخ بقوله: ﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٍ مِّنكُمۡ﴾ [الطلاق: ٢].

ومن الأنفال قوله تعالى: وإن يكن منكم عشرون صابرون﴾ [الأنفال: ٦٥]، الآية منسوخة بالآية التي بعدها ومن براءة قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]. منسوخة بآية العذر وهو قوله: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١].

وقوله: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ [التوبة: ٩١]. الآيتين، بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢].

ومن النور قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ [النور: ٣]. الآية منسوخة بقوله: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾ [النور: ٣٢]. وقوله تعالى: ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ [النور: ٥٨] الآية، قيل منسوخة وقيل لا ولكن تهاون الناس في العمل بها. ومن الأحزاب قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ [الأحزاب: ٥٢]. الآية منسوخة بقوله: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

ومن المجادلة قوله تعالى: ﴿إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ﴾ [المجادلة: ١٢]، الآية منسوخة بالآية التي بعدها. ومن الممتحنة قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾ [الممتحنة: ١١] قيل منسوخة بآية السيف، وقيل بآية الغنيمة وقيل محكمة. ومن المزمل قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٢] منسوخة بآخر السورة ثم نُسخ الآخر بالصلوات الخمس.

فهذه إحدى وعشرون آية منسوخة على خلاف في بعضها لا يصح دعوى النسخ في غيرها، والأصح في آية الاستئذان والقسمة الأحكام فصارت تسعة عشر. ويضم إليها قوله تعالى: ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ١١٥].

وذهب ابن عباس إلى أنها منسوخة:

بقوله: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ [البقرة: ١٤٤] الآية فتمت عشرين.

وقد نظمها الإمام السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أبيات فقال:

وقد أكثر الناس في المنسوخ مِنّ عدد ... وأدخلوا فيه آيا ليس تنحصرُ

وهاكَ تحريرَ آيٍ لا مزيدَ لها ... عشرين حررَّها الحذّاقُ والكبرُ

آيُ التوجهِ حيث المرءُ كان وأن ... يوصي لأهليهِ عند الموت محتضَر

وحرمةَ الأكل بعد النوم مع رفثٍ ... وفديةٌ لمطيقِ الصومِ مشتهر

وحقَّ تقواه فيما صحَّ في أثرٍ ... وفي الحرامِ قتالٌ للألُى كفروا

والاعتداد بحول مع وصيّتها ... وأن يدان حديثُ النفسِ والفِكَرُ

والحلفُ والحبسُ للزاني وتركُ أُولي ... كُفْرٍ وإِشْهادُهُم والصبرُ والنَفَرُ

ومنعُ عقدٍ لزانٍ أو لزانيةٍ ... وما على المصطفى في العقدِ محتظرُ

ودفعُ مهرٍ لمن جاءت وآية نجـ ... ـواهُ كذاك قيامُ الليلِ مستطر

وزِيَد آيةُ الاستئذان مَنْ مَلَكتْ ... وآيةُ القسمةِ الفُضلى لمن حضروا[1]

* * *

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٢٩ - ٣١ للسيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

القضية الثانية والثلاثون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللّه:

«والقرآن ينسخ السنة متواترة وآحاداً، والسنة كذلك تنسخ القرآن متواترة وآحاداً، وكلٌ واقعٌ من عند اللّه».

قوله: «والقرآن ينسخ السنة متواترة وآحاد...»

وهذا فيه مسائل:

أولًا: القرآن ينسخ السنة متواترة(١) وآحاداً(٢):

وقد ذهب جمهور الأصوليين إلى أنه يجوز نسخ السنة بالقرآن، وهذا اختيار ابن النجار الفتوحي، والأمين الشنقيطي(٣)، والذي قال: «وهذا (أي أن القرآن ينسخ السنة سواء متواترة وآحاداً» لا ينبغي أن يُختلف فيه لوقوعه(٤). ثم ذكر مثال نسخ السنة المتواترة بالقرآن:

التوجه إلى بيت المقدس وهو الثابت بالسنة (المتواترة)، بقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤].

ومثال نسخ السنة الثابتة «بالآحاد»، بالقرآن:

١- رد المسلمات إلى الكفار الذي وقع عليه الصلح في صلح الحديبية، في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠].

٢- أن الأكل والشرب والجماع كان محرماً بالسّنة بعد النوم في ليل رمضان. ثم

---

(١) متواترة: «هو ما رواه الجمع عن الجمع تحيل العادة تواطؤهم على الكذب».
(٢) آحاد: «هو ما لم يجمع شروط الحديث المتواتر».
(٣) شرح الكوكب المنير ٣/ ٥٥٩ وأضواء البيان ٣/ ٣٦٧ .
(٤) مذكرة أصول الفقه للشنقيطي ٨٤ .

نُسخ بقوله تعالى: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

٣- أن تأخير الصلاة إلى انجلاء القتال كان جائزاً بالسنة، ولهذا قال ﷺ يوم الخندق وقد أخّر الصلاة: «حبسونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس ملأ اللَّه قبورهم وبيوتهم أو أجوافهم - شك يحيى -ناراً»(١).

وقد نُسخ هذا الجواز بصلاة الخوف الواردة في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ١٠٢]، إلى غير ذلك من الصور، ولا أدل على الجواز من الوقوع كما يقولون.

وذهب الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢) «في إحدى روايتيه» إلى أن السنة لا ينسخها إلا سنة مثلها، وأن القرآن قد يأتي ناسخاً للسنة، لكن لا بد من مجيء سنة تدل على أن سنته الأولى منسوخة بسنته الأخرى.

ثانياً: السنة تنسخ القرآن متواترة وآحاداً

المبحث الأول: نسخ القرآن بالسنة المتواترة

وذهب جمهور الأصوليين إلى أنه يجوز نسخ القرآن بالسنة المتواترة(٣)، وقد أجازه مالك وأبو حنيفة وأحمد «في رواية»، لأن الكل وحي(٤).

وهو اختيار الأمين الشنقيطي(٥)، وحُجّة الجمهور أن الجميع وحي من اللَّه تعالى فالناسخ والمنسوخ من عند اللَّه، واللَّه هو الناسخ حقيقة، لكنه أظهر النّسخ على لسان رسوله ﷺ والتحقيق جواز نسخ القرآن بالسنة المتواترة ووقوعه، ومثاله:

---

(١) متفق عليه.
(٢) الرسالة ١١٠ .
(٣) شرح الكوكب المنير ٣/ ٥٦٣ .
(٤) مباحث في علوم القرآن ٢٣٧ لمناع القطان رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
(٥) مذكرة أصول الفقه ٨٥، أضواء البيان ٣/ ٣٦٧ .

١- نسخ آية خمس رضعات بالسنة المتواترة، كما روته عائشة ﵂ قالت: «كان فيما أُنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يُحرِّمن ثم نُسخن بخمس معلومات، فتوفي رسول اللَّه ﷺ وهنَّ فيما يُقرأ من القرآن»[١].

فهذه الرضعات الخمس والتي كانت آية من آيات القرآن قد نُسخت تلاوتها، وحكمها منسوخ بحديث عائشة ﵂ أنها قالت: «قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تُحرِّم المصَّة[٢] والمصَّتان»»[٣]. أي أن الرضاعة المحرمة هي ما يكون عددها من ثلاث فصاعد وإلى هذا ذهب أبو عبيدة، وأبو ثور وداود الظاهري، وابن المنذر، ورواية عن أحمد لمفهوم هذا الحديث، وللحديث الآخر بلفظ «لا تُحرِّم الإملاجةُ والإملاجتان»[٤]. فأفاد بمفهومه تحريم ما فوق الاثنتين، وقد خالف البعض، فقالوا: إن حديث الخمس رضعات منطوق، وهذا مفهوم فقالوا إن المنطوق مقدَّم على المفهوم[٥].

١- نسخ سورة الخَلع وسورة الحَفَد بالسنّة المتواترة[٦].

---

(١) رواه مسلم ١٠/٢٩ وهذا من نسخ التلاوة دون الحكم.
(٢) المصّة: من المص وهو أخذ اليسير من الشيء، شربته شرباً رفيقاً (الضياء والقاموس).
(٣) رواه أحمد ومسلم.
(٤) رواه أحمد ومسلم.
(٥) وقد ذهب إلى أن الخمس يُحرِّمن عبد اللَّه بن مسعود وعائشة في رواية لها وابن الزبير وعطاء وطاووس والشافعي وأحمد في ظاهر مذهبه وابن حزم وأكثر أهل الحديث (سبل السلام ٢/ ٣٢٦-٣٢٧، وفقه السنة ٢/ ٧٠، ٧١).
(٦) وكانتا من سورة القرآن ثم نسختا واصبحتا من أدعية القنوت، وكانتا في مصحف أبي بن كعب وابن عباس وقراءة أبي موسى الأشعري وقرأها عمر بن الخطاب في صلاته وكان ترتيبهما كما يلي: (... التكاثر ثم العصر ثم سورة الخَلع ثم سورة الحَفَد ثم الهمزة...). صيغتهما:
بسم اللَّه الرحمن الرحيم «اللهم إنّا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك الخير ولا نكفرك ونخلع ونتركُ من يفجرك...» (سورة الخلع).
«اللهم إيَّاك نعبد ولك نُصلّي ونسجد وإليك نسعي ونحفد نشخي عذابك ونرجو رحمتك إنَّ عذابك بالكفار ملحق...» (سورة الحفد).
انظر الدرر المنثور (٨/ ٦٩٥) والاتقان (١/ ١٧٦) للإمام السيوطي - والتحرير والتنوير (١/ ٤٦، ٥٠) لابن عشاور - ومناهل العرفان (١/ ١٨٩، ٢٤٩) للزرقاوي وحاشية الطحاوي على المراقي (٢/ ٦٧٤) ومذكر أصول الفقه ٨٥ للشنقيطي ﵀.

٢- نسخ سورة الحفد بالسنة المتواترة[١]. وذهب الإمام الشافعي [٢]، وأحمد [٣] إلى أنه لا يجوز نسخ القرآن بالسنة، بل لا ينسخ القرآن إلا قرآن مثله وهذا اختيار ابن قدامة وابن تيمية[٤]، والذي قال: «لأن السنّة لا تنسخ الكتاب، فلا يكون في القرآن شيء منسوخ بالسنّة».

المبحث الثاني: نسخ القرآن بالسنة الأحادية:

والجمهور على عدم جوازه، لأن القرآن متواتر وهو يفيد اليقين، والآحاد مظنون، ولا يصح رفع المعلوم بالمظنون [٥]،وقال العلامة ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأما نسخ القرآن والمتواتر من السنة بأخبار الآحاد فهو جائز عقلًا» إذ لا يمتنع أن يقول الشارع تعبدناكم بالنسخ بخبر الواحد[٦].

قال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والتحقيق الذي لا شك فيه هو جواز وقوع نسخ المتواتر بالآحاد الصحيحة الثابت تأخرها عنه والدليل الوقوع».

أما قولهم أن المتواتر أقوى من الآحاد والأقوى لا يرفع بما هو دونه فأنهم قد غلطوا فيه غلطاً عظيماً مع كثرتهم وعلمهم وإيضاح ذلك أنه لا تعارض البتة بين خبرين مختلفي التاريخ لإمكان صدق كل منهما في وقته، وقد أجمع جميع النظار أنه لا يلزم التناقض بين القضيتين إلا إذا اتحد زمنهما أما إن اختلفا فيجوز صدق كل منهما في وقتها فلو قلت: «النبي ﷺ صلى إلى بيت المقدس»، وقلت أيضا: لم يُصلِّ إلى بيت المقدس وعنيت بالأولى ما قبل النسخ وبالثانية ما بعده لكانت كل منهما صادقة في وقتها، ومثال نسخ القرآن بأخبار الآحاد الصحيحة الثابت تأخرها عنه:

---

(١) الرسالة ١٠٦ .
(٢) روضة الناظر ١/ ٢٢٤ والعدة لأبى يعلى ٣/ ٧٨٨ .
(٣) مجموع الفتاوى ١٧/ ١٩٥، ١٩٧، ١٩/ ٢٠٠ .
(٤) مباحث في علوم القرآن ٢٣٧ .
(٥) مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر للشنقيطي.
(٦) نهى رسول اللّه ﷺ عن آكل لُحوم الحُمرِ الأهلية (متفق عليه).

نسخ إباحة الحُمر الأهلية مثلا المنصوص عليه بالحصر الصريح في آية»: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، بالسنة الصحيحة الثابت تأخرها عنه لأن الآية من سورة الأنعام وهي مكية أي نازلة قبل الهجرة بلا خلاف وتحريم الحُمر الأهلية بالسنة[١] واقع بعد ذلك في خيبر ولا منافاة البتة بين آية الأنعام المذكورة وأحاديث تحريم الحُمر الأهلية لاختلاف زمنهما، فالآية وقت نزولها لم يكن محرماً إلا الأربعة المنصوصة فيها، وتحريم الحُمر الأهلية طارئ بعد ذلك والطروء ليس منافاة لما قبله وإنما تحصل المنافاة بينهما لو كان في الآية ما يدل على نفي تحريم شيء في المستقبل غير الأربعة[٢] المذكورة في الآية وهذا لم تتعرض له الآية، بل الصيغة فيها مختصة بالماضي لقوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، بصيغة الماضي ولم يقل فيما سيوحي إليّ في المستقبل وهو واضح كما ترى والله أعلم، أما آية الوصية للوالدين[٣] والأقربين فالتحقيق أنها منسوخة بآية المواريث[٤] والحديث بيان للناسخ.

---

(١) أ - الميتة، ب- الدم المسفوح، ج- لحم الخنزير، د - ما أهلَّ به لغير الله.

(٢) قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ۝١٨٠﴾ [البقرة: ١٨٠].

(٣) قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١١ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١١ - ١٢].

(٤) رواه أحمد والترمذي عن أبي أمامة وابن ماجة عن أنس وصححه الألباني صحيح الجامع ١٧٨٨، ١٧٨٩.

وبيان المتواتر لا يُشترط فيه التواتر كما تقدم والحديث يشير إلى أن الناسخ لها آيات المواريث لأن ترتيبه ﷺ نفى الوصية للوارث بالفاء على إعطاء كل ذي حق حقه يعني الميراث في قوله ﷺ: «أن اللَّه قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث»[(١)] يدل على ذلك.

وأما قول عمر رضي الله عنه: «لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لا ندري أحفظت أم نسيت»، فالحق في ذلك ليس معه رضي الله عنه بل مع المرأة المذكورة وهي فاطمة بنت قيس رضي الله عنها، التي قالت: أن زوجها طلقها ثلاث تطليقات فلم يجعل لها رسول اللَّه ﷺ نفقة ولا سُكنى وعندما سمعت قول عمر لا ندع كتاب ربنا لقول امرأة الخ. قالت بيني وبينكم كتاب اللَّه، قال اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١].

حتى قال: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ فأي أمر يحدث بعد الثلاث، وصرّح أئمة الحديث بأنه لم يثبت من السنة ما يخالف حديثها، فالسنة معها وكتاب اللَّه معها فلا وجه للاستدلال بمخالفة عمر لما سمعته من النبي ﷺ لأن من حفظ حجة على من لم يحفظ «والذي يظهر واللَّه تعالى أعلم أن عمر لم يخالفها ولكنه لم يثق في روايتها وعلى هذا فلا منافاة إذاً».

* * *

القضية الثالثة والثلاثون بعد المائة: قال المُصَنّف حفظه اللَّه:

«والسنة هي كل ما صدر عن الرسول ﷺ غير القرآن مما يُقصد به التشريع للأُمة من قول أو فعل أو تقرير».

الشرح: تعريف السُّنة

السنة في اللغة: الطريقة والسيرة(١)، حميدة كانت أو ذميمة.(٢) قال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]، وكما جاء في الحديث: «من سنّ في الإسلام سنة حسنة، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة»(٣).

وهي تختلف «تعريفاً» باختلاف أهل كل فنًّ:

فالسّنة عند أهل الفقه: يطلقونها على ما ليس بواجب(٤)، أي على المندوب أو المستحب، وقد تُطلق على ما يقابل البدعة كقولهم فلان من أهل السنة(٥).

السّنة عند المحدثين: هي كل ما أُثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل، أو تقرير أو صفة خلقية أو خُلقّية، أو سيرة، سواء أكان ذلك قبل البعثة كتحنثه في غار حراء أو بعدها(٦).

السنة في الشرع أو الاصطلاح: ما صدر عن رسول اللَّه ﷺ من قول أو فعل أو ترك أو تقرير من غير القرآن مما يُقصد به التشريع(٧).

---

(١) النهاية لابن الأثير ٢/٤٠٩ .
(٢) المصباح المنير ٢٩٢ وإرشاد الفحول ٣٣ .
(٣) رواه مسلم.
(٤) إرشاد الفحول ٣٣ والأمدي ١/٢٤١ .
(٥) إرشاد الفحول ٣٣ .
(٦) السّنة قبل التدوين للدكتور محمد عجاج الخطيب.
(٧) إرشاد الفحول ٣٣ والنهاية لابن الأثير ٢/٤٠٩ والفقيه والمتفقه ١/٨٦، والأمدي ١/٢٤١ .

أقسام السنة:

أولًا: السنة القولية: وهي الأقوال التي قالها الرسول ﷺ في مختلف الأغراض والمناسبات فترتب على ذلك حكم شرعي كقوله: «لا ضرر ولا ضرار»[(١)].
وكقوله: «إنما الأعمال بالنيّات»[(٢)] وغيرها.

ثانياً: السنة الفعلية: وقد قسمها العلماء إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول الأفعال الجِبِلّية: كالقيام والقعود والأكل والشرب وهي التي تصدر عنه بحسب الطبيعة البشرية.

القسم الثاني الأفعال الخاصة به ﷺ والتي ثبت بالدليل الصحيح اختصاصه بها ولا تشاركه الأُمة فيه، كالجمع بأكثر من أربعة نسوة وكالوصال بالصوم... فهذا لا يصح متابعة النبي ﷺ به.

القسم الثالث الأفعال البيانية: التي يقصد بها البيان والتشريع كأفعال الصلاة، والحج وكقطعه يد السارق، ورجم الزاني المحصن وغيرها.

ثالثاً: السنة التركية: وهي نوعان بالنسبة لنقل الصحابة رضي الله عنهم له:

١- التصريح بأنه ﷺ ترك كذا وكذا ولم يفعله، كقول الصحابي في صلاة العيد: «أن الرسول ﷺ صلى العيد بلا آذان ولا إقامة»[(٣)].

٢- عدم نقل الصحابة للفعل مع توفر هِممهم ودواعيهم لنقله، فحيث إنه لم ينقله واحد منهم عُلم أنه لم يكن.

وذلك كتركه ﷺ التلفظ بالنية عند دخوله في الصلاة، وكتركه تخصيص رجب بعبادة خاصة أو الاحتفال بمولده ﷺ[(٤)].

---

(١) رواه احمد وابن ماجة وصححه الألباني [الجامع ٧٣٩٣، والصحيحة ٢٥٠].
(٢) متفق عليه.
(٣) أخرجه أبو داود وصححه النووي وصححه الألباني على سنن أبي داود ١٧٩ رقم ١١٤٧ .
(٤) راجع الفقرة ١٣٠ .



رابعاً: السنة التقريرية: وهو أن يفعل أحدٌ من الصحابة بحضرته فعلًا أو يقول قولًا فيمسك ﷺ عن الإنكار ويسكت[١]، فهذا السكوت يدل على جواز الفعل وإباحته، لأن الرسول ﷺ لا يسكت عن باطل أو منكر[٢].

أو القاعدة الأصولية «لا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة»، ومثاله: إقراره ﷺ إنشاد الشعر المباح[٣]، ولعب الغلمان بالحراب في المسجد، وغناء الجاريتين بغناء حماسي في يوم عيد، وأكل خالد بن الوليد للضب بحضرته وغيرها.

* * *

---

(١) قواعد الأصول ٣٩ .

(٢) الوجيز في أصول الفقه لعبد الكريم زيدان ١٦٧ رحمه الله .

(٣) رواه البخاري.

القضية الرابعة والثلاثون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«لا تُقبل إلا بإسناد صحيح حسب القواعد التي وضعها علماء الحديث لذلك ولا يُحتج أو يُعمل بما لم يثبت عن النبي ﷺ».

قوله: «لا تقبل إلا بإسناد صحيح حسب القواعد التي وضعها علماء الحديث لذلك».

الشرح: لا تُقبل «السنة» إلا بإسناد صحيح، ولقد عنيت الأمة الإسلامية برواية الحديث النبوي وحفظ أسانيدها، وحاز حديث النبي ﷺ من الوقاية والمحافظة ما لم يكن قط لحديث نبي من الأنبياء، لكن الخصوصية الكبرى للأمة في نقل الحديث أنها لم تكن متأثرة بمجرد عاطفة النقل والرواية عن الرسول ﷺ بل كانت عنايتها العظمى تهدف لصيانة هذا التراث العظيم من التحريف منه والدخيل وذلك باتباع قوانين الرواية وأصولها العلمية الصحيحة منذ العهد الأول لهذه الأمة والزمان الأسبق لها وهكذا في سائر عصورها وأيامها[(١)].

تعريف الإسناد:

أولًا: الإسناد له معنيان:

١ - عَزْو الحديث إلى قائله مسنداً.

٢- سلسلة الرجال الموصّلة للمتن، وهو بهذا المعنى مرادف للسّند[(٢)(٣)].

---

(١) مقدمة علوم الحديث لابن الصلاح. ٣ - ٤ نور الدين عتر (بتصرف).

(٢) قال ابن جماعة: وأخذه إما من السند، وهو ما أرتفع وعلا من سفح الجبل لأن المسند يرفعه إلى قائله، أو من قولهم: فلان سند، أي معتمد، فهي الإخبار عن طريق المتن سنداً لاعتماد والحافظ في صححه الحديث ومتفق عليه (تدريب الراوي ١/ ٤٢١).

(٣) تدريب الراوي ١/ ٤٢ قول ابن جماعة.



ثانياً السّند:

السند لغةً: المعتمد، وسُمّي كذلك لأن الحديث يُستند إليه ويعتمد عليه.

السند اصطلاحاً: سلسلة الرجال الموصلة للمتن[١].

متى يكون الإسناد صحيحاً؟

يكون الإسناد صحيحاً إذا توفرت فيه ثلاثة شروط هي:

١- **اتصال السند:** ومعناه أن كل راو من رواته قد أخذه مباشرة عمَّن فوقه من أول السند إلى متنهاه[٢].

٢- **عدالة الرواة:** أي أن كل راوٍ من رواته اتصف بكونه مسلماً عاقلًا غير فاسق وغير مخروم المروءة.

٣- **ضبط الرواة:** أي أن كل راوٍ من رواته كان تام الضبط إما ضبط صدر أو ضبط كتاب.

وقوله: «إلا بإسناد صحيح»

ش: وصحة السند هي: أحد شروط صحة الحديث بالإضافة إلى ما ذُكر سابقا، ويقول ابن صلاح رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قولهم: «هذا حديث صحيح الإسناد أو حسن الإسناد» دون قولهم «هذا حديث صحيح أو حديث حسن».

لأنه قد يُقال: «هذا حديث صحيح الإسناد» ولا يصح، لكونه شاذاً أو معللًا غير أن المصنف المعتمد منهم إذا اقتصر على قوله: «إنه صحيح الإسناد». ولم يذكر له علة، ولم يقدح فيه، فالظاهر منه الحكم له بأنه صحيح في نفسه، لأن عدم العلة والقدح هو الأصل والظاهر والله أعلم[٣].

---

(١) تيسير مصطلح الحديث للدكتور محمود الطحان ١٦ .
(٢) ويسمى كذلك المسند (انظر علوم الحديث لا بن الصلاح ٣٩) ويسمى كذلك المتصل.
(٣) علوم الحديث لابن صلاح ٣٥ .

الترهيب من الكذِب على النبي ﷺ:

١- عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن كذبا عليَّ ليس ككذب على أحد، من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[١].

٢- وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ «إن من أعظم الفرى أن يدّعي الرجل إلى غير أبيه، أو يرى عينه مالم تر،أو يقول على رسول اللّه ﷺ مالم يقل»[٢].

٣- وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من حدَّث عني بحديث يُرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين»[٣].

وقال السخّاوي: «وكفى بهذه الجملة وعيداً شديداً في حق من روى الحديث وهو يظن أنه كذب، فضلا أن يتحقق ذلك ولا يبينه، لأنه ﷺ جعل المحدِّث بذلك مشاركاً لكذبه في وصفه»[٤].

فإن لم يكن من أهل هذا الفن فعليه أن يفتش ويبحث عن ذلك في مظانه كالكتب المشهود لها بالصحة، أو من العلماء المعتبرين في هذا الفن حتى لا يتعرض للوعيد الشديد الصادر من فيه صلوات اللّه وسلامه عليه.

لأنه يترتب على الأحاديث الأحكام الشرعية والأمور العلمية والعملية، فإذا كان الحديث ضعيفاً فكيف يسوغ أن يُنسب ذلك القول إلى رسول اللّه ﷺ وهو لم يصدر عنه؟

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه مسلم وهو حديث متواتر ونقل النووي أنه جاء عن مائتين من الصحابة.
(٤) القول البديع ٢٥٦ .



تعريف الحديث الضعيف:

«هو كل حديث لم تجتمع فيه صفات الحديث الصحيح[١] ولا صفات الحديث الحسن»[٢].

وهو أنواع كثيرة[٣]، يمكن حصرها في ثلاثة أنواع:

الأول: الموضوع: وهو شرّ أنواع الضعيف، وهو ما قيل في إسناده كذَّاب أو وضَّاع.

الثاني: ما كان أخف منه: ولكنه شديد الضعف، وهو ما قيل فيه متَّهم أو مجمع على تركه أو هالك أو ليس بشيء أو ضعيف جداً.

الثالث: ما لم يكن الضعف فيه شديداً:

وينجبر بمثله، وهو ما كان في سنده سيء الحفظ أو له أوهام، أو مدلِّس أو مُعنعن أو مختلط أو ما قيل فيه ضعيف فقط أو لم أر فيه توثيقاً .ونحو ذلك.

فالنوع الأول والثاني لا ينجبران بالمتابعة، ولا ينتفعان بالشواهد، وأما الثالث فهو بعكس ذلك. وهو الذي وقع الخلاف فيه بالعمل به في حال تفرده[٤].

أضرار وأخطار رواية الأحاديث الضعيفة[٥] والعمل بها:

١- الكذب على الرسول ﷺ.

٢- يؤدي العمل بمقتضاها إلى زيادة في الدِّين أي الابتداع فيه.

٣- تؤدي إلى الاختلاف والشقاق والتنازع في الدِّين وقد أُمِرنا بالائتلاف وعدم التنازع.

٤- فتح ثغرات في الدِّين ينفذ منها أعداء اللَّه تعالى واستغلالها للنَّيل منه.

---

(١) راجع الفقرة ١٣٧، صـ١٢٢٤ .

(٢) المقدمة لابن صلاح ٢٠ أو هو كل حديث لم تتوافر فيه صفات القبول(النكت ٤٩٢).

(٣) أوصلها العراقي إلى اثنين وأربعين وابن حبان إلى تسعة وأربعين، وبلغ بها غيرهما إلى ثلاثة وستين نوعاً (راجع تدريب الراوي ١٠٥).

(٤) تحقيق القول بالعمل بالحديث الضعيف د. عبد العزيز بن عبد الرحمن العثيم ١٨ .

(٥) المقصود الأحاديث شديدة الضعف.

وقوله: «ولا يحتج أو يُعمل بما لم يثبت عن النبي ﷺ».

ش: وما لم يثبت عن النبي ﷺ متفاوت في الضعف - كما بُيِّن سابقا - فمنه الشديد جداً، ومنه ما قرب ضعفه. والقسم الأخير اختلف فيه العلماء قديماً وحديثاً فمن قائل يجوز العمل به مطلقاً، ومنهم المانع مطلقاً، ومنهم من فصَّل القول فيه ووضع له شروطاً وضوابط فهذه الأقوال الثلاثة وإليك تفصيلها:

أقوال العلماء في العمل بالحديث الضعيف:

القول الأول: «لا يعمل بالحديث الضعيف مطلقاً»

لا في الأحكام، ولا في الفضائل وقد قال به جماعة من الأئمة: كابن معين والبخاري ومسلم وأبي بكر بن العربي الفقيه وغيرهم[١]، ومنهم كذلك ابن حزم كما في الملل والنِحل[٢].

وقال شيخنا العلامة الألباني رحمه الله: «وهذا الذي أَدين اللّه به وأدعو الناس إليه، أن الحديث الضعيف لا يُعمل به مطلقاً، لا في الفضائل ولا المستحبات، ولا في غيرهما، ذلك لأن الحديث الضعيف، إنما يفيد الظن المرجوح بلا خلاف أعرفه بين العلماء، وإذا كان كذلك»، فكيف يقال:

«يجوز العمل به»، واللّه عزَّ وجلَّ ذمّه في غير ما آية في كتابه؟

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨] وقال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ وقال رسول اللّه ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظنَّ أكذبُ الحديث»[٣].

القول الثاني: «يُعمل بالحديث الضعيف مطلقاً»:

روي عن الإمام أحمد وأبي داود وغيرهما[٤]. وقال ابن تيمية رحمه الله: «ولا يجوز أن يُعتمد

---

(١) قواعد الحديث لجمال الدين القاسمي ١١٣ .

(٢) الفصل في الملل والنحل ٢/ ٨٣ .

(٣) متفق عليه.

(٤) انظر فتح المغيث ١/ ٢٦٧ .



في الشريعة على الأحاديث الضعيفة التي ليست صحيحة ولا حسنة ولكن أحمد بن حنبل رحمه الله وغيره من العلماء جوَّزوا أن يُروى في فضائل الأعمال مالم يُعلم أنه ثابت، إذا لم يُعلم أنه كذب، وذلك أن العمل إذا عُلِم أنه مشروع بدليل شرعي، وروي في فضله حديث لا يُعلم أنه كذب جاز أن يكون الثواب حقاً ولم يقل أحد من الأئمة، أنه يجوز أن يُجعل الشيء واجباً أو مستحباً بحديث ضعيف، ومن قال هذا فقد خالف الإجماع»[١].

وقال أيضاً: «وما كان أحمد بن حنبل، ولا أمثاله من الأئمة يعتمدون على مثل هذه الأحاديث في الشريعة، ومن نقل عن أحمد أنه كان يحتج بالحديث الضعيف الذي ليس بصحيح ولا حسن فقد غلط عليه»[٢].

وقال ابن القيم رحمه الله: «وليس المراد بالضعيف عنده «الإمام أحمد» الباطل، ولا المُنكَر ولا ما في روايته متّهم. بحيث لا يسوغ الذهاب إليه والعمل به، بل الحديث الضعيف عنده قسيم الصحيح وقسم من أقسام الحسن. ولم يكن يُقسِّم الحديث إلى صحيح وحسن وضعيف بل إلى صحيح وضعيف وللضعيف عنده مراتب، فإذا لم يجد في الباب أثراً يدفعه ولا قول صاحب ولا إجماعاً على خلافه

كان العمل به عنده أولى من القياس»[٣]. ثم إن الإمام أحمد وغيره مما نُقل عنه القول بجواز العمل بالحديث الضعيف مطلقا، نُقلت عنه روايات تدل على منع ذلك وإن ذلك مخصوص في فضائل الأعمال.

قال أحمد في رواية الميموني عنه: «أحاديث الرقائق يُحتمل أن يتساهل فيها حتى يجيء شيء فيه حكم»[٤].

وقال: في رواية عباس الدوري عنه «ابن إسحاق» رجل تُكتب عنه هذه الأحاديث «يعني المغازي ونحوها» وإذا جاء الحلال والحرام أردنا قوماً هكذا - وقبض أصابع

(١) القاعدة الجليلة ٨٤ .
(٢) المصدر السابق ٨٥ .
(٣) إعلام الموقعين ١/ ٣١ .
(٤) الكفاية ٢١٣ وراجع فتح المغيث ١/ ٢٦٧ .

يده الأربعة -[١]. ثم الذي يحمل تساهلهم المذكور على روايتهم إياها مقرونة بأسانيدها - كما هي عادتهم - هذه الأسانيد التي بها يمكن معرفة ضعف أحاديثها فيكون ذكر السّند، مُغنياً عن التصريح بالضعف.

القول الثالث: «يعمل بالحديث الضعيف في الفضائل والمستحبات» وله شروط هي:

١- أن يكون الضعف غير شديد فيخرج ما اشتدّ ضعفه كحديث الكذابين والمتهمين بالكذب ومن فَحُش غلطه وهذا الشرط متفق عليه[٢]. وهذا يدل على وجوب معرفة حال الحديث الذي يريد أحدهم أن يعمل به لكي يتجنب العمل به إذا كان شديد الضعف، وهذه المعرفة مما يصعب الوقوف عليها من جماهير الناس، ومن كل حديث ضعيف يريدون العمل به، لقلة العلماء بالحديث، لا سيّما في العصر الحاضر.

٢- أن يكون الحديث في الفضائل وما في معناها: ومن قال بهذا الإمام: النووي[٣] وابن المبارك[٤]. وابن حجر الهيثمي[٥].

٣- أن يندرج الحديث الضعيف تحت أصل معمول به: فيكون العمل في الحقيقة ليس بالحديث الضعيف، وإنما بالأصل العام، فالعمل به وارد، سواء وُجِد الحديث الضعيف أو لم يوجد، ولا عكس، أي: العمل بالحديث الضعيف إذا لم يوجد الأصل العام، فثبت أن العمل بالحديث الضعيف بهذا الشرط، شكليّ، غير حقيقي[٦].

٤- أن لا يعتقد عند العمل به بثبوته: بل يعتقد الاحتياط لئلا يُنسب إلى النبي ﷺ مالم يُقله[٧].

---

(١) فتح المغيث ١/ ٢٦٧ .
(٢) نقله العلائي انظر القول البديع ٢٥٥ .
(٣) فتح المغيث ١/ ٢٦٧ .
(٤) الجرح والتعديل ٢/ ٣٠ وشرح علل الترمذي ١٠٢ .
(٥) قواعد في علوم الحديث ٩١- ٩٣ .
(٦) المصدر السابق.
(٧) انظر تدريب الراوي ١٩٦ وقواعد التحديث ١١٦ فتح المغيث ١/ ٣٦٨ ومقدمة صحيح الجامع للألباني.



وهذا الشرط يلتقي مع الشرط الأول في ضرورة معرفة الحديث، لكي لا يعتقد بثبوته. علما بأن جماهير الذين يعملون في الفضائل بالأحاديث الضعيفة لا يعرفون ضعفها وهذه الشروط دقيقة وهامة جداً، لو التزمها العاملون بالأحاديث الضعيفة لكانت النتيجة أن تضيق دائرة العمل بها، أو تُلقى من أصلها، ولاشك أنه فيما ثبت من أحاديث المصطفى ﷺ غُنية ومنجاة من الوقوع في الكذب على النبي ﷺ[1].

والخلاصة:

أن أرجح هذه الأقوال عندي «واللّه أعلم» هو عدم رواية الحديث الضعيف إلا ببيان ضعفه. أما العمل فلا يُعمل به مطلقاً لا في الأحكام ولا في المواعظ. ونغلق هذا الباب الذي جاء منه شر كبير.

وهذا الكلام موجه للحديث الذي يعتقد راويه أو الذي يستدل به أنه ضعيف. ولا ينسحب على الأحاديث التي يرويها البعض أو يعمل بها وهي صحيحة عنده. واللّه أعلم.

* * *

---

(١) لقوله ﷺ: «كفى بالمرء كذباً أن يحدِّث بكل ما سمع» رواه مسلم.

القضية الخامسة والثلاثون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«والسنة بمنزلة كتاب اللَّه عزَّ وجلَّ في وجوب الإيمان والعمل بها، وفي الاعتقاد أنها من عند اللَّه سبحانه، إلا أن اللَّه تعبّدنا بمعناها فقط، وتعبّدنا بلفظ القرآن ومعناه».

الشرح:

والقرآن والسنة كلٌّ مُنزَّلٌ من عند اللَّه كما قال تعالى آمراً نساء النبي ﷺ: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤]. وقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] والحكمة عندما ترِد في القرآن مقرونة مع الكتاب فهي السنة بإجماع السلف[١].

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فسمعتُ من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول الحكمة: سنة رسوله ﷺ»[٢].

حُجيّة السنة:

١- قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

٢- وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

٣- وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

وقوله ﷺ: «يوشك أن يقعد الرجل متكئاً على أريكته، يُحَدِّثُ بحديث من حديثي فيقول: بيننا وبينكم كتاب اللَّه، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٢٥٣ ومجموع الفتاوى ٣/٣٦٦ .

(٢) الرسالة ٧٨ .



حرمٍ حرمناه، ألا وإن ما حرم رسول اللَّه مثل ما حرم اللَّه»[١].

ففي الآية الأولى بعد أن أمر اللَّه آمراً لكل أحد من خاص وعام بطاعة اللَّه ورسوله ثم بيَّن أن من خالف أمره كفر، واللَّه لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه يحب اللَّه ويتقرب إليه، حتى يتابع الرسول النبي الأميّ خاتم الرسل صلوات اللَّه وسلامه عليه، وفي الآية الثانية يحذِّر اللَّه تعالى من مخالفة أمر الرسولﷺ الذي هو سبيله، ومذهبه، وطريقته، وسنته وشريعته فتوزن الأقوال، والأعمال بأقواله وأعماله فما وافق ذلك قُبِل، وما خالفه فهو مردود على قائله[٢].

فالسنة النبوية من الوحي وبذلك نطق الكتاب العزيز قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]، أي لا يتبع إلا ما أوحي إليه، من الهدى والتقوى، وفي نفسه، وفي غيره.

ودل هذا على أن السنة وحي من اللَّه لرسوله ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣].

وأنه معصوم فيما يخبر به عن اللَّه تعالى وعن شرعه، لأن كلامه لا يصدر عن الهوى، وإنما يصدر عن وحي يوحى[٣].

فإذا عرفنا أنها وحي من عند اللَّه وإنها مثل القرآن وأن من أنكرها جملة أو أنكر حديثاً بعد ثبوته فإنه يكفر.

فالإيمان بها واجب وكذلك العمل يكون على حسب الحكم التشريعي الذي يُستخلص منه سواء كان واجبا، أو مستحباً، أو حراماً،أو مكروهاً، أو مباحاً.

قوله: «إلا أن اللَّه تعبدنا بمعناها فقط، وتعبدنا بلفظ القرآن ومعناه»

ش: وهذا أحد الفروق بين القرآن والحديث الشريف وهناك فروق أخرى منها:

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والحاكم من حديث المقداد، وصححه الألباني الجامع الصحيح ٨١٨٦ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ص ٦/ ٩٠ .
(٣) تيسير الكريم الرحمن ١١٣٩ .

أولًا: أن القرآن هو كلام اللَّه المنزَّل على رسوله محمد ﷺ وحياً ولفظاً ومعنىً أما السنة فهي وإن كانت وحياً بالمعنى العام فهي معنىً من اللَّه تعالى إلا أن لفظها من الرسول ﷺ.

ثانياً: أن القرآن قد تحدى اللَّه به العرب، بل الإنس والجن فعجزوا عن أن يأتوا بمثله أو حتى بسورة من مثله، فالإعجاز هو إعجاز في بيانه وبلاغته ونظمه، وفي ألفاظه وأسلوبه أما السنة فلم يتحدَّ اللَّه بها العرب. وهي وإن كان الرسول ﷺ قد أوتي جوامع الكلام إلا أن إعجاز السنة أقل ودون إعجاز القرآن.

ثالثاً: أن القرآن الكريم جميعه منقول إلينا بالتواتر، فهو قطعي الثبوت.

أما السنة «الأحاديث» فمنها المتواتر ومنها الآحاد وفيها الصحيح والضعيف.

رابعاً: أن القرآن الكريم متعبَّد بتلاوته ويقصد بالتعبد:

أ - أن الصلاة لا تصح دون قراءته فهو الذي تتعين القراءة به في الصلاة قال تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠].

ب- قراءته عبادة يُثيب اللَّه عليها كما جاء في الحديث: «من قرأ حرفا من كتاب اللَّه فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول «الم» حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف، وميم حرف»[1].

أما الحديث النبوي فلا يجزئ في الصلاة، ويثاب ثواباً عاماً على قراءته.

خامساً: أن القرآن الكريم لا يجوز روايته بالمعنى، أما الحديث النبوي فيجوز روايته بالمعنى.

سادسا: أن القرآن الكريم لا يجوز لمسه، أو قراءته إلا على طهارة، أما السنة فيجوز سواء لمسها و قراءتها دون طهارة.

* * *

(١) رواه الحاكم والبخاري في تاريخه، وصححه الألباني الجامع الصحيح ٦٤٦٩ .



القضية السادسة والثلاثون بعد المائة: قال المُصنِّف حفظه اللّه:

«والسنة لا تخالف القرآن لأنهما من مصدر واحد كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ - ٤] وقال أيضا: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥] فكل ما اجتهد فيه الرسول ﷺ من أمر الشريعة، فهو حق، لأن اللّه لا يقره على باطل أبدا».

الشرح: فكلاهما «القرآن والسنة» من الوحي الذي أوحاه اللّه لنبيه ﷺ فالسنة هي التطبيق العملي للقرآن الكريم، فالقرآن اقترن بالسنة، والعكس صحيح فكان التمسك بها كالتمسك بالقرآن وهجرها هجر له، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

فالقرآن والسنة كلاهما من عند اللّه تعالى والرسول ﷺ ليس إلا مبلغاً، وقد عصمه اللّه من الخطأ في التبليغ إذ قال اللّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

فاللّه قد عصم النبي ﷺ في أداء الرسالة بتعهده بحفظها فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. ولهذا فالسنة لا تخالف القرآن، والقرآن لا يخالف السنة، وذلك لأنهما من مصدر واحد فكل ما اجتهد فيه الرسول ﷺ من أمر الشريعة فهو حق، فإما أن يقره اللّه، فلا يقره اللّه على باطل، إمّا أن يرشده اللّه للصواب وإليك تفصيل ذلك:

أولًا: ما اجتهد فيه الرسول ﷺ فأقره اللّه ومن أمثلة ذلك[1]:

١- ما اجتهد فيه رسول اللّه ﷺ على اليهود بالرجم في الزنا:

فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: «إن اليهود جاؤوا إلى رسول اللّه ﷺ فذكروا أن رجلا منهم

---

(١) انظر أقضية رسول اللّه ﷺ للعلامة المحدّث أبو عبد اللّه محمد بن فرج المالكي القرطبي ٤٠١- ٤٩٧.

وامرأة قد زنيا»، فقال رسول اللّه ﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟» فقالوا: «نفضحهم، ويُجلدون»، فقال عبد اللّه بن سلام:

«كذِبتم! إن فيها آية الرجم» فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، ثم قرأ ما قبلها وما بعدها فقال له عبد اللّه: «ارفع يدك» فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول اللّه ﷺ فرجما، فقال عبد اللّه بن عمر: «فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة»[١].

٢- ما اجتهد فيه رسول اللّه ﷺ في الأمان عام الفتح:

فقد دخل رسول اللّه ﷺ مكة عام الفتح وعلى رأسه المغفر، فلما نزعه جاءه رجل فقال: «يا رسول اللّه ! عبد اللّه بن خطل، متعلق بأستار الكعبة» فقال الرسول ﷺ «أُقتلوه». وعند النسائي وغيره: أن رسول اللّه ﷺ قال: «من دخل الكعبة فهو آمن، ومن أغلق بيته فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، وآمن جميع الناس إلا: أربعة رجال وامرأتين وذكر ابن حبيب ستة رجال وأربع نسوة فقال أُقتلوهم وإن تعلّقوا بأستار الكعبة وهم على ما ذكره النسائي وغيره: «عبد اللّه بن خطل، وعكرمة بن أبي جهل، ومقيس بن صبابة، وعبد اللّه ابن سعد بن سرح، فأما عبد اللّه بن خطل فأُدرك وهو متعلق بأستار الكعبة فاستبق إليه سعيد بن حريث وعمار بن ياسر فسبق سعيد عماراً وكان أشف الرجلين فقتله، وأما مقيس بن صبابة فأدركه الناس في السوق فقتلوه ولم يتعرض النبي ﷺ لمال ابن خطل»، وذكر ابن هشام: «أن نميلة قتله، وهو رجل من قومه، وأن عبد اللّه ابن خطل قتله سعد بن حريث وأبو برزة الأسلمي اشتركا في دمه»[٢].

---

(١) رواه مالك والبخاري ومسلم.
(٢) رواه مالك والبخاري ومسلم والنسائي.



٣- ما اجتهد فيه رسول اللَّه ﷺ في اللُّقطة:

جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فسأله عن اللّقطة فقال: «اعرف عفاصها[١] ووكاءها[٢] ثم عرِّفها سنة، فإذا جاء صاحبها وإلا فشأنك بها»، قال: «فضالّةُ الغنم؟» قال: «لك أو لأخيك أو للذئب»، قال: «فضالّة الإبل؟» فغضب رسول اللَّه ﷺ حتى احمرت وجنتاه، واحمر وجهه «وفي رواية» فتغير وجهه، وقال: «مالك ولها! معها سقاؤها، وحذاؤها، ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها»[٣].

٤- ما اجتهد فيه رسول اللَّه ﷺ في طلاق الحائض:

عن ابن عمر رضي الله عنه قال: «أنه طلّق امرأته وهي حائض، على عهد رسول اللَّه ﷺ» فسأل عمر بن الخطاب عن ذلك رسول اللَّه ﷺ، فقال ﷺ: «مُره فليراجعها، ثم يمسكها، حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك وإن شاء طلَّق قبل أن يمس، فتلك العدة التي أمر اللَّه عزَّ وجلَّ أن يُطلق لها النساء»[٤].

وفي الحديث أن النبي ﷺ ألزم ابن عمر الطلقة الواحدة التي طلَّق في الحيض، لأن الرجعة لا تكون إلا في طلاق وقد قال ﷺ: «مُره فليراجعها»[٥].

٥- ما اجتهد فيه رسول اللَّه ﷺ في التفليس، وموت المبتاع قبل دفع الثمن:

عن النبي ﷺ قال: «أيما رجل أفلس فأدرك الرجل ماله بعينه فهو أحق به من غيره»[٦]، وقال رسول اللَّه ﷺ: «أيما رجل باع متاعاً فأفلس الذي ابتاعه منه ولم يقبض الذي باعه من ثمنه شيئاً، فوجده بعينه فهو أحق به، وإن مات الذي ابتاعه

---

(١) العفاص: الوعاء الذي يكون فيه النفقة من جلد أو خرقة أو غير ذلك.
(٢) . الوكاء: الربط يشد في السرة.
(٣) رواه مالك والبخاري ومسلم.
(٤) رواه مالك والبخاري ومسلم والنسائي.
(٥) متفق عليه.
(٦) رواه مالك والبخاري ومسلم والنسائي.

فصاحب المتاع أسوة الغرماء»(١).

٦- ما اجتهد فيه رسول الله ﷺ في الصُّلح:

تقاضى كعب بن مالك من عبد الله بن أبي حدرد ديناً كان عليه في عهد رسول الله ﷺ في المسجد، فارتفعت أصواتهما، حتى سمعها رسول الله ﷺ وهو في بيته، فخرج إليهما رسول الله ﷺ حتى كشف سقف حجرته، ونادى كعب بن مالك فقال: «لبيك يا رسول الله!» فأشار إليه بيده: «أن ضع الشطر(٢) من دينك»، فقال: «قد فعلتُ يا رسول الله»، قال: «قم فاقضيه»(٣).

ثانياً: ما اجتهد فيه رسول الله ﷺ قبل أن ينزل الوحي فنجد أن الوحي يستدرك عليه فيرشده إلى الصواب، ومثال ذلك:

١- حادثة ابن أم مكتوم رضي الله عنه وقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١-٢]. وجاء في سبب نزول هذه الآيات الكريمات أن رجلًا «ابن أم مكتوم» أعمى، جاء يسأل النبي ﷺ ويتعلم منه، وجاء رجل من الأغنياء وكان ﷺ حريصاً على هداية الخلق فمال ﷺ وأصغى إلى الغني، وصدّ عن الأعمى الفقير رجاء لهداية ذلك الغني، وطمعاً في تزكيته فعاتبه الله بهذا العتاب اللطيف(٤).

٢- فداء أسرى بدر:

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧- ٦٨]. فعن أنس رضي الله عنه قال: «استشار النبي ﷺ الناس في الأساري يوم بدر» فقال: «إن الله قد أمكنكم منهم»، فقام عمر بن الخطاب فقال: «يا رسول الله! اضرب

---

(١) رواه مالك في الموطأ.
(٢) أي النصف.
(٣) متفق عليه.
(٤) متفق عليه.



أعناقهم»، فاعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد رسول اللّه ﷺ فقال: «يا أيها الناس! إن اللّه قد أمكنكم منهم وإنما هم إخوانكم بالأمس» فقام عمر فقال: «يا رسول اللّه! اضرب أعناقهم» فأعرض عنه النبي ﷺ، فقال الناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال: «يا رسول اللّه! نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء»، قال: «فذهب عن وجه رسول اللّه ﷺ ما كان فيه من الغمَّ، فعفا عنهم وقَبِل منهم الفداء» قال: وأنزل اللّه عز وجل: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨][(١)].

٣- الإذن للمنافقين في التخلف عن غزوة تبوك:

قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

فعن عون قال: «هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ نداء بالعفو قبل المعاتبة» فقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ فعاتبه اللّه على هذه المسارعة إلى قبول اعتذارهم.

فقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ أي: سامحك وغفر لك ما أجريت «لم أذنت لهم» في التخلف قبل أن تمتحنهم، ليتبين لك الصادق من الكاذب فتعذر من يستحق العذر، ممن لا يستحق ذلك، وقال مجاهد: «نزلت هذه الآية في أُناس قالوا: «استأذنوا رسول اللّه ﷺ، فإن أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا»، ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ أي في إبداء الأعذار ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

يقول تعالى: هلّا تركتهم لما استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم في القعود لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك، من الكاذب فإنهم قد كانوا مُصَّرين على القعود عن الغزو وإن لم تأذن فيه[(٢)].

---

(١) رواه أحمد ومسلم والحاكم في مستدركه وقال صحيح الإسناد.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٦٠ .



٤- الصلاة على المنافقين:

قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤] فقد أمر اللَّه تعالى رسوله ﷺ بأن يبرأ من المنافقين، وأن لا يصلي على أحد منهم إذا مات، وأن لايقوم على قبره ليستغفر له، أو يدعو له لأنهم كفروا باللَّه ورسوله، وماتوا عليه، وهذا حكم عام في كل من عُرِف نفاقه، فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: «لما توفي عبد اللَّه بن أُبيّ جاء ابنه عبد اللَّه إلى رسول اللَّه ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يُكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه»، فقام رسول اللَّه ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول اللَّه ﷺ، فقال: «يا رسول اللَّه! تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه»؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «إنما خيرني اللَّه فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ﴾ وسأزيده على السبعين»، قال: «إنه منافق»، قال: «فصلى عليه رسول اللَّه ﷺ، فأنزل اللَّه عزَّ وجلَّ آية: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ﴾»[1].

٥- تحريم النبي ﷺ العسل على نفسه:

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . . . ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ١-٢].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يشرب عسلا عند زينب بنت جحش، ويمكث عندها، فتواطأت أنا وحفصة، على أيتنا دخل عليها فلتقل له: «أكلتَ مغافير[2]؟ إني أجد منك ريح «معافير»، قال: «لا، ولكني كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش، فلن أعود له وقد حلفتُ لا تخبري بذلك أحداً»[3].

---

(١) متفق عليه.

(٢) المغافير. بفتح الميم والغين المعجمة، جمع مغفور بضم الميم: شيء له رائحة كريهة ينضحه العرفط، وهو شجر أو نبات له ورق عريض، وقيل العرفط هو الصمغ.

(٣) متفق عليه.



والمراد بالتّحريم الامتناع: وذلك أن تحريم الحلال على وجهين:

الأول: اعتقاد ثبوت حكم التحريم فيه، وهو كاعتقاد ثبوت حكم التحليل في الحرام وهذا محظور يوجب الكفر، فلا يمكن صدوره من المعصوم أصلًا.

والثاني: الامتناع من الحلال مطلقاً، أو مؤكداً باليمين، مع اعتقاد حله، وهذا مباح صرف، وحلال محض، ولو كان ترك المباح والامتناع منه غير مباح لاستحالت حقيقة الحلال، وما وقع منه ﷺ كان من هذا النوع، وإنما عاتبه الله تعالى، عليه رفقاً به، وتنويهاً بقدره وإجلالًا لمنصبه ﷺ أن يراعي مرضاة أزواجه بما يشق عليه جرياً على ما ألف من لطف الله تعالى به[١].

* * *

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لمحمود الألوسي مجلد ١٥ - ص٢١٩ - ٢٢٠.



القضية السابعة والثلاثون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه الله:

«وكل ما ثبت عن رسول الله ﷺ بخبر العدل الضابط عن مثله إلى رسول الله ﷺ يجب اعتقاده والعمل به سواء جاءنا متواتراً أو آحادا».

قوله: «وكل ما ثبت عن رسول الله ﷺ بخبر العدل الضابط».

الشرح: لعل قوله وكل ما ثبت عن الرسول ﷺ بخبر العدل الضابط غير دقيق.

والأولى: عندي (والله أعلم)، أن تكون العبارة: «وكل ما ثبت عن الرسول ﷺ يجب اعتقاده والعمل به».

أو: «كل ما جاءنا عن الرسول ﷺ باتصال سنده عن طريق العدل الضابط[1] عن مثله إلى رسول الله ﷺ» وذلك لأن القول: (كل ما ثبت) يغني عن قولنا العدل الضابط لأن الحديث لا يثبت إلا بهما.

وإن كان هذا كذلك لا يفي بالغرض كاملًا فإن عدالة الراوي وضبطه ليستا كل شروط الحديث الصحيح فقد يكون فيه عِلّة أو شذوذاً فتعريف الحديث الصحيح: هو الحديث المُسند[2] المتصل إسناده بنقل العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه، ولا يكون شاذاً ولا معللًا.

قال البيقوني رَحِمَهُ اللَّهُ:

أولها الصحيح وهو ما اتصل ... إسناده ولم يُشذَّ أو يُعل
يرويه عدل ضابط عن مثله ... معُتمد في ضبطه ونقله

---

(١) ولو كان الراوي عدلًا خفيف الضبط قُبِل حديثه ويعتبر حسناً.
(٢) أي الذي ينتهي إلى رسول اللّه ﷺ.



فشروط الحديث الصحيح هي:

١- اتصال[١] السند[٢]: هو سماع راوٍ من الراوي الذي يليه.

٢- عدل الرواة.

٣- ضبط الرواة.

٤- عدم الشذوذ .الشذوذ في الحديث: هو مخالفة الثقة لمن هو أوثق منه.

٥- عدم العلة. العلة في الحديث: هي سبب غامض خفي يقدح في صحة الحديث مع أن ظاهرة السلامة منه والعلة تكون تارة في المتن وتارة في السند.

المقصود بعدالة الراوي[٣]

أي أن يكون الراوي مسلماً، بالغاً،[٤] عاقلًا، غير فاسق، وغير مخروم المروءة[٥] عند الناس، وقيل: «هي صفات تحمل صاحبها على التقوى، واجتناب الأدناس».

وتثبت العدالة للراوي: «بتنصيص» عدلين عليها أو بالاستفاضة، فمن اشتهرت عدالته بين أهل العلم، وشاع الثناء عليه بها كفي فيها، كمالك والسفيانين «الثوري وابن عيينة»، والأوزاعي، والشافعي وأحمد وأشباههم[٦].

---

(١) والمُتَّصل: ويشمل المرفوع إلى النبي ﷺ والموقوف على الصحابي أو من دونه [الباعث الحثيث ١/ ١٤٥ تحقيق الألباني وتدريب الراوي ١/ ١٨٣]

(٢) السند: هم رجال الحديث ورواته.

(٣) انظر مقدمة ابن الصلاح ٩٤، والمختصر في علم رجال الأثر ٤٣ لعبدالوهاب عبداللطيف.

(٤) قال السيوطي في تدريب الراوي: ولاصغير على الأصح، وقيل يقبل المميز إن لم يُجرب عليه الكذب (١/ ٣٠٠).

(٥) والمروءة بضم الميم والراء: وهي آداب نفسانية تحمل ملتزمها على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات وترجع معرفتها إلى العُرف وهو يختلف باختلاف البلدان والأشخاص (كما ذكره السخاوي).

(٦) تدريب الراوي ١/ ٣٠١ .



المقصود بضبط الراوي:

أي أن يكون الراوي تام الضبط: وهو قوة الحافظة والوعي الدقيق، وحسن الإدراك في تصريف الأمور، والثبات على الحفظ إن حدَّث من حفظه، ضابطاً لكتابه من التبديل.

والضبط نوعان:

١- **ضبط الصدر**: وهو أن يحفظ الراوي ما سمعه حفظاً يمكنه من استحضاره متى شاء.

٢- **ضبط الكتاب**: وهو أن يصون كتابه الذي كتب، منذ سمع منه وصحَّحه إلى أن يؤدي منه، ولا يدفعه إلى من لا يصونه، ويمكن أن يُغير فيه أو يبدِّل[١]، قال الشافعي: وقال سعد بن إبراهيم: «لا يحدَّث عن النبي ﷺ إلا الثقات»[٢].

وقال ابن سيرين: «إن هذا العلِم دين فانظروا عمّن تأخذون دينكم» وروى البيهقي عن النخعي قال: «كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى سمته وإلى صلاته وإلى حاله ثم يأخذون عنه».

قوله: «متواتراً»

ش: المتواتر في اللغة: «هو اسم فاعل، مشتق من التواتر أي: التتابع تقول: «تواتر المطر: أي تتابع نزوله، فالمتوتر المتتابع»[٣].

المتواتر في الاصطلاح: «هو ما رواه الجمع عن الجمع تحيل العادة تواطؤهم على الكذب» فتبيَّن من التعريف أن للحديث المتواتر أربعة شروط:

١- أن يرويه عدد كثير، وقد اختُلف في أقل الكثرة والمختار «عند أكثر علماء

---

(١) انظر مقدمة ابن الصلاح ٩٤، وتدريب الراوي ١/٣٠١.
(٢) اسنده مسلم في مقدمة صحيحه.
(٣) المصباح المنير ٦٤٧.



الحديث» أنه عشرة أشخاص.

٢- أن هذه الكثرة تكون في جميع طبقات السند.

٣- أن تُحيل العادة تواطؤهم على الكذب[١].

٤- أن يكون مستند خبرهم الحسّ[٢].

أقسام المتواتر

وينقسم المتواتر إلى قسمين:

١- **المتواتر اللفظي**: وهو المتواتر لفظاً ومعنىً.

مثل حديث: «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[٣] رواه بضعة وسبعون صحابياً.

٢- **المتواتر المعنوي**: وهو المتواتر معنىً دون اللفظ.

مثل أحاديث: رفع اليدين في الدعاء، فقد ورد عنه ﷺ نحو مائة حديث، كل حديث منها فيه أنه رفع يديه في الدعاء لكنها في قضايا مختلفة، فكل قضية منها لم تتواتر، والقدر المشترك بينهما - وهو الرفع عند الدعاء • تواتر باعتبار مجموع الطرق[٤].

وعدد الأحاديث المتواترة قليل جداً بالنسبة لأحاديث الآحاد فقد أوصلها بعضهم إلى ثلاثمائة وعشرة أحاديث[٥].

---

(١) وذلك بأن يكونوا من بلاد وأجناس ومذاهب مختلفة «راجع نظم المتناثر من الحديث المتواتر للكتاني».

(٢) كقولهم سمعنا أو رأينا أو لمسنا أو. . . . . .

(٣) متفق عليه.

(٤) تدريب الراوي ٢/ ١٨٠ .

(٥) نظم المتناثر للكتاني.

قوله: «أو آحاداً»

ش: الآحاد في اللغة: الآحاد جمع أحد بمعنى الواحد، وخبر الواحد هو ما يؤديه شخص واحد.

الآحاد في الاصطلاح: هو ما لم يجمع شروط الحديث المتواتر

أقسامه: ينقسم حديث الآحاد بالنسبة إلى عدد طرقه إلى ثلاثة أقسام:

المشهور: وهو ما رواه ثلاثة فأكثر - في كل طبقة - ما لم يبلغ حد التواتر العزيز: هو الذي لا يقل رواته عن اثنين في جميع طبقات السند.

الغريب: هو ما ينفرد بروايته راو واحدٌ.

قوله: «يجب اعتقاده والعمل به»

ش: وهذا هو القول الصحيح خلافاً للقائلين بأن حديث الآحاد لا نثبت به عقيدة، ويقولون في الوقت نفسه بأن الأحكام الشرعية تثبت بحديث الآحاد، وهم بهذا فرقوا بين العقائد والأحكام.

الأدلة على وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة:

أولًا: الدليل هو عدم الدليل على التفرقة بين الأحاديث النبوية أن هذا متواتر فنأخذ به في جميع الأمور، وذلك آحاد لا نأخذ به، هذا قول لا دليل عليه من القرآن أو السنة، أو إجماع الصحابة أو أقوال جمهورهم أو بعضهم وبالتالي فإنه لا يوجد سند شرعي لهذا التقسيم، خصوصاً وأن القرآن الكريم قد اعتدَّ بخبر الاثنين والأربعة وأخذ به في الحدود بما فيها من إزهاق النفس في القصاص أو غيره.

وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ١٠٦] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٦].



الدليل الثاني من القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٢].

والطائفة في لغة العرب تقع على الواحد فما فوق، فلولا أن الحجة تقوم بحديث الآحاد عقيدة وحكماً لما حضّ الله تعالى الطائفة على التبليغ حضاً عاماً، فالآية نص في أن خبر الآحاد حجة في التبليغ عقيدة وأحكاماً.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات: ٦]، وفي قراءة أخرى «فتثبتوا» فإنها تدل على أن العدل إذا جاء بخبر ما فالحجة قائمة به، وأنه لا يجب التثبت بل يؤخذ به حالّاً، ولذلك قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

«وهذا يدل على الجزم بقبول خبر الواحد وأنه لا يحتاج إلى التثبت ولو كان خبره لا يفيد العلم لأمر بالتثبت حتى يحصل العلم. . . .»(١).

الدليل الثالث في السنة:

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه «باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام ثم ساق أحاديث مستدلّاً بها على ما ذكر»:

أ - عن مالك بن الحويرث قال: «أتينا النبي ﷺ ونحن شببة(٢) متقاربون فأقمنا عنده نحوا من عشرين ليلة، وكان رسول اللّه ﷺ رحيماً رفيقاً، فلما ظن أنّا قد اشتهينا أهلينا أو قد اشتقنا، سألنا عمَّن تركنا بعدنا؟ فأخبرناه، قال: «ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم، وعلموهم ومروهم، وصلوا كما رأيتموني أصلي» (متفق عليه) فقد أمر ﷺ كل واحد من هؤلاء الشببة أن يُعلِّم كل واحد منهم أهله، والتعليم يعمّ العقيدة، بل هي أول ما يدخل في العموم، فلو لم يكن خبر الآحاد تقوم به الحجة لم يكن لهذا الأمر معنى.

---

(١) إعلام الموقعين ٢/ ٣٩٤ .
(٢) جمع شاب.

ب - وعن أنس بن مالك ﷺ أن أهل اليمن قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا: «ابعث معنا رجلا يعلمنا السنة والإسلام»، قال: فأخذ بيد أبي عبيدة فقال: «هذا أمين هذه الأمة»[١].

فلو لم تقم الحجة بخبر الواحد لم يبعث إليهم أبا عبيدة وحده، وقد فعل ذلك مراراً فقد بعث عليّ بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وأبا موسى الأشعري.

جـ - وعن عبد الله بن عمر ﷺ قال: «بينا الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت»، فقال: «إن رسول الله ﷺ قد أُنزل عليه الليلة قرآن، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة فاستقبِلوها، وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة»[٢].

فهذا نصّ على أن الصحابة ﷺ قبلوا خبر الواحد في نسخ ما كان مقطوعاً عندهم من وجوب استقبال «بيت المقدس»، فتركوا ذلك واستقبلوا الكعبة لخبره، فلو لا أنه حجة عندهم ما خالفوا المقطوع به عندهم من القبلة الأولى.

الدليل الرابع: أن أهل البلاد استقبلوا مبعوث النبي ﷺ وهو فرد واحد تلقوا عنه العقائد والأحكام، وظل السلف الصالح من بعدهم يقبلون خبر الآحاد في العقائد وغيرها فهذا الإمام الشافعي يقول «اجتمع المسلمون قديما وحديثاً على تثبيت خبر الواحد والانتهاء إليه»[٣].

وقال كذلك في كتابه الرسالة تحت عنوان: «الحجة في تثبيت خبر الواحد» وساق تحته أدلة كثيرة من الكتاب والسنة،[٤] ثم قال في نهاية البحث «وفي تثبيت خبر الواحد أحاديث يكفي بعض هذا منها، ولم يزل سبيل السلف والقرون بعدهم»، وقال أيضاً: «ولو جاز لأحد من الناس أن يقول في علم الخاصّة: أجمع المسلمون قديماً وحديثاً على تثبيت خبر الواحد والانتهاء إليه بأنه لم يُعلم من فقهاء المسلمين أحد إلا وقد ثبته جاز لي»[٥]، ولكن أقول:

(١) رواه البخاري ومسلم واللفظ له ٧/٢٩ .
(٢) متفق عليه.
(٣) الرسالة ١٠٦ - ١٢١ .
(٤) المصدر السابق ٤٠١ - ٤٥٣ .
(٥) الرسالة ٤٥٧ رقم ١٢٤٨ .

«لم أحفظ عن فقهاء المسلمين أنهم اختلفوا في تثبيت خبر الواحد»[١].

الدليل الخامس: أقوال السلف:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولهذا كان جمهور أهل العلم من جميع الطوائف على أن خبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول تصديقاً له أو عملًا به أنه يوجب العلم وهذا الذي ذكره المصنفون في أصول الفقه من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد إلا فرقة قليلة من المتأخرين، واتبعوا في ذلك طائفة من أهل الكلام»[٢] وقال أيضاً: «فهذا يفيد العلم اليقيني عند جماهير أمة محمد ﷺ من الأولين والآخرين، أما السلف فلم يكن بينهم في ذلك نزاع، وأما الخلف، فهذا مذهب الفقهاء الكبار من أصحاب الأئمة الأربعة، والمسألة منقولة في كتب الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة مثل السرخسي وأبي بكر الرازي من الحنفية، والشيخ أبي حامد وأبي الطيب والشيخ أبي إسحاق من الشافعية، وابن خويز منداد وغيره من المالكية، ومثل القاضي أبي يعلي وابن أبي موسى وأبي الخطاب وغيرهم من الحنبلية، ومثل أبي إسحاق الاسفرائيني وابن فورك وأبي إسحاق النظَّام من المتكلمين، وذكره ابن الصلاح وصححه واختاره..

وجميع أهل الحديث على ما ذكره الشيخ أبو عمرو «ابن الصلاح».

والحجة على قول الجمهور: أن تلقّي الأمة للخبر الواحد تصديقاً وعملا، إجماع منهم والأمة لا تجتمع على ضلالة، كما لو اجتمعت على موجب عموم، أو مطلق أو اسم حقيقة أو على موجب قياس، فإنها لا تجتمع على خطأ، وإن كان الواحد منهم لو جرد النظر إليه لم يؤمن عليه الخطأ فإن العصمة تثبت بالنسبة الإجماعية.

كما أن خبر التواتر يُجوِّز الخطأ والكذب على واحد من المخبرين بمفرده ولا يجوز على المجموع والأمة معصومة من الخطأ، في روايتها ورأيها[٣].

---

(١) المصدر السابق رقم ١٢٤٩ .
(٢) مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٥١ .
(٣) مختصر الصواعق للإمام ابن القيم ٢/ ٣٧٣ .

القضية الثامنة والثلاثون بعد المائة: قال المُصنِّف حفظه اللّه:

«إجماع جميع صحابة الرسول ﷺ لا يجوز خلافه البتة لأن الأُمة لا تجتمع على ضلالة».

قوله: «الإجماع»

الشرح: والإجماع في اللغة له معنيان:

الأول العزم: والتصميم على الشيء، قال تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١] وقال ﷺ: «لا صيام لمن لم يجمّع الصيام من الليل»[١].

الثاني الاتفاق: يقال: أجمع القوم على كذا أي اتفقوا عليه، وصاروا ذوي جمع[٢].

الإجماع عند الأصوليين «الاصطلاح»: «هو اتفاق مجتهدي لعصر من العصور من أمة محمد ﷺ على حكم شرعي بعد وفاته»[٣].

وينبني على التعريف الاصطلاحي ما يلي:

١- أن يصدر الاتفاق عن جميع المجتهدين[٤] لا بعضهم، ولا أكثرهم ومن باب أولى اتفاق واعتراض غير المجتهدين لا يعتدّ به.

٢- والمراد بالمجتهدين: هو من كان من أهل الاجتهاد في الوقت الذي حدثت فيه المسألة فلا يعتد بمن صار مجتهدا بعد حدوثها، فهذا هو المقصود في «عصر من العصور».

٣- لا بدَّ أن يكون المجتهدون من أمة محمد ﷺ: أي من المسلمين، وبالتالي خروج اتفاق الأمم السابقة.

---

(١) رواه ابن ماجة من حديث حفصة رضي الله عنها وصححه الألباني الجامع ٧٣٩٢ والإرواء ٨٩٦ .
(٢) إرشاد الفحول ٧١ الوجيز في أصول الفقه ١٧٩، المعجم الوجيز ١٣٥ .
(٣) الشوكاني (إرشاد الفحول ٧٣، الآمدي ٤/ ١١٥، معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة).
(٤) الاجتهاد شروطه راجع الفقرة ١٥١ .

٤- يشترط أن يكون اتفاق المجتهدين على حكم شرعي، ويخرج بذلك الأمور الدنيوية كالرياضية أو الطبية أو اللغوية.

٥- ويشترط لهذا الإجماع حتى يكون حجة أن يقع بعد وفاة النبي ﷺ(١).

حجية إجماع الصحابة وأقوالهم:

١- قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فوجه الدلالة أن اللّه تعالى أثنى على من اتبعهم فإذا قالوا قولا فاتبعهم متبع عليه قبل أن يعرف صحته فهو متبع لهم، فيجب أن يكون محمودا على ذلك وأن يستحق الرضوان ولو كان اتباعُهم تقليداً محضا كتقليد بعض المفتين لم يستحق من اتبعهم الرضوان إلا أن يكون عاميا فأما العلماء المجتهدون فلا يجوز لهم اتباعهم حينئذن يكون (٢).

٢- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] قال ابن القيم رحمه الله، قال غير واحد من السلف: «هم أصحاب محمد ﷺ»، ولا ريب أنهم أئمة الصادقين، وكل صادق بعدهم فبهم يأتم في صدقه بل حقيقة صدقه اتباعه لهم وكونه معهم، ومعلوم أن من خالفهم في شيء - وأن وافقهم في غيره -لم يكن معهم فيما خالفهم فيه، وحينئذ فيصدق عليه أنه ليس معهم(٣).

٣- وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، ووجه الدلالة بهذه الآية: أن اللّه توعّد من اتبع غير سبيل المؤمنين فدلّ أنه حرام، فيكون اتباع سبيل

(١) إرشاد الفحول ٧١ - مذكرة الشنقيطي ١٥١ .
(٢) إعلام الموقعين ٤/١٢٣/١٢٤ .
(٣) المصدر السابق ١٣٢ وقد ذكر ابن القيم اثنتي عشر دليلًا من القرآن وانظر إعلام الموقعين ١٢٤ - ١٣٥ .

المؤمنين واجباً، إذ ليس هناك قسم ثالث .

٤- ما ثبت عن النبي ﷺ قوله: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي من بعدهم قوم يتسمَّنون، ويحبون السِّمن، يُعطُون الشهادة قبل أن يُسألوها»[١]، وذلك يقتضي تقديمهم من كل باب من أبواب الخير، وإلا لو كانوا خيراً من بعض الوجوه، فلا يكونون خير القرون مطلقاً، فلو جاز أن يخطئ الرجل منهم في حكم، وسائرهم لم يُفتوا بالصواب، وإنما ظفر بالصواب من بعدهم وأخطؤوا هم، لزم أن يكون ذلك القرن خيرا منهم في ذلك[٢].

٥- وعن عبد اللّه بن مسعود ﷺ قال: «من كان متأسياً فليتأسَّ بأصحاب رسول اللّه ﷺ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علما،وأقلها تكلفا، وأقومها هديا، وأحسنها حالًا، قوم اختارهم اللّه لصحبة نبيه وإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوا آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم»[٣]. وقال ابن القيم رحمه الله: «ومن المحال أن يحرم اللّه أبرَّ هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما، وأقلها تكلفا وأقومها هديا، الصواب في أحكامه، ويوفق له من بعدهم»[٤].

أقوال العلماء:

١- الإمام الشوكاني: «إجماع الصحابة حجة بلا خلاف. وهو القول الذي لا يجوز خلافه، لأن الإجماع يكون عن توقيف والصحابة هم الذين شهدوا التوقيف».

٢- داود الظاهري، وابن حبان، والإمام أحمد بن حنبل: «الإجماع أن يتبع ما جاء من النبي ﷺ وعن أصحابه وهو في التابعين مخيرّ «وهذا محمول على آحاد التابعين لا على جماعتهم»».

---

(١) رواه الترمذي الحاكم وصححه الألباني الجامع ٣٢٩٤ .
(٢) إعلام الموقعين ١٣٦ .
(٣) رواه احمد وغيره.
(٤) إعلام الموقعين ١٣٩/٤ ،وذكر ابن القيم أوجهاً كثيرة وأدله.

٣- قال أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا أجمعت الصحابة على شيء سَلّمنا».

٤- قال ابن وهب: «ذهب داود وأصحابنا إلى أن الإجماع إنما هو إجماع الصحابة فقط»(١).

٥- قال أبو محمد «ابن حزم» قال سليمان وكثير من أصحابنا: «لا إجماع إلا إجماع الصحابة»، واحتج في ذلك بأنهم شهدوا التوقيف من رسول اللَّه ﷺ. وقد صح أنه لا إجماع إلا عن توقيف، وأيضا فإنهم كانوا جميع المؤمنين، لا مؤمن من الناس سواهم، ومن هذه صفته فإجماعهم: هو إجماع المؤمنين، وهو الإجماع المقطوع به(٢).

٦- وقال أبو حاتم الرازي: «العلم عندنا ما كان عن اللَّه تعالى من كتاب ناطق ناسخ غير منسوخ، وما صحّت به الأخبار عن رسول اللَّه ﷺ مما لا معارض له، وما جاء عن الألبّاء من الصحابة ما اتفقوا عليه»(٣).

«فصل» إذا كان الصحابة منفردين حجة فإذا اجتمعوا أولى، ومنه:

١- إذا قال الصحابي قولا، لا مجال للرأي والاجتهاد فيه: فهذا له حكم الرفع إلى النبي ﷺ في الاستدلال والاحتجاج به، بمعنى أن الرسول ﷺ بيّن لهم معاني القرآن وفسره لهم كما وصفه اللَّه تعالى بقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤](٤).

٢- وكذلك قول الصحابي إذا أشتهر وانتشر ولم يُعلم له مخالف من الصحابة، فهذا صار إجماعاً وحجة عند جماهير العلماء(٥)، بل إن قول الصحابي وإن لم يُشْتَهر قوله أو لم يُعلم هل اشتُهِر أو لا، فالذي عليه جمهور الأُمة أنه حُجة فهذا قول جمهور الحنفية، صرّح به محمد بن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وذكر عن أبي حنيفة نصاً، وهو مذهب مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(١) إرشاد الفحول للشوكاني ٨١-٨٢ .
(٢) الأحكام لا بن حزم ٤/ ٥٠٩ .
(٣) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي المجلد الأول ج٥/ ١٧١ .
(٤) إعلام الموقعين ٤/ ١٥٣ - المسودة ٣٣٨ وقيد ذلك بعض العلماء بألا يعرف عن الصحابي الأخذ من الاسرائليات.
(٥) إعلام الموقعين ٤/ ١٢٠ - المسودة ٣٣٥ ومجموع الفتاوى لا بن تيمية ٢/ ١٤ .



وأصحابه وتصرفه في موطّئه دليل عليه، وهو قول إسحاق بن راهويه وأبي عبيد، وهو منصوص عن الإمام أحمد في غير موضع عنه، واختيار جمهور أصحابه، وهو منصوص الشافعي في القديم والجديد رحمهم اللّه تعالى[١].

* * *

(١) إعلام الموقعين ٤/ ١٢٠ .



القضية التاسعة والثلاثون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«وسنة الخلفاء الراشدين واجبة الاتباع ما لم تخالف نصاً من الكتاب والسنة».

الشرح:

والسنة: هي الطريقة، فقد أخبر ﷺ بما سيقع في أمته من بعده من كثرة الاختلاف في أصول الدين وفروعه وفي الأقوال والأعمال والاعتقادات وبيّن أن العاصم منها هو التمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده كما جاء في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: «وعَظَنَا رسول اللَّه ﷺ موعظة وجِلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول اللَّه كأنها موعظة مُودِّع فأوصنا، قال: «أوصيكم بتقوى اللَّه عزَّ وجلَّ والسَّمع والطاعة وإن تأمَّر عليكم عبد؛... فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كُلَّ بدعة ضلالة...» الحديث[1].

و«الخلفاء»: جمع خليفة وهو من قام مقام غيره.

و«الراشدين»: جمع راشد وهو من عرف الحق واتَّبعه.

والمراد بهم أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي اللَّه تعالى عنهم.

فقد ورد عنه ﷺ قوله: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون مُلكاً»[2]. قال سفينة رضي الله عنه: «أمسك «أي احسب» خلافة: أبي بكر رضي الله عنه سنتين، وخلافة عمر رضي الله عنه عشر سنين، وخلافة عثمان رضي الله عنه اثنتي عشرة سنة، وخلافة علي رضي الله عنه ست سنين»[3]. وفي

---

(١) رواه أحمد وأصحاب السنن وغيرهم وقال الترمذي حسن صحيح وصححه الألباني برقم ٢٥٤٦.

(٢) رواه أحمد وأبو داود وابن أبي عاصم والطبراني في الكبير من حديث سفينة رضي الله عنه. وصححه الألباني الصحيحة رقم ٤٦٠ ١/١٩٨.

(٣) المصدر السابق. وبعض العلماء ضمّ إلى هذه الخلافة الراشدة الحسن بن علي رضي الله عنه. فوفاة النبي ﷺ كانت في شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة هجرية حتى إصلاح الحسن رضي الله عنه بين فئتين =

أمره ﷺ باتباع سنته وسنة خلفائه الراشدين بعد أمره بالسمع والطاعة لولاة الأمور عموماً دليل على أن سنة الخلفاء الراشدين متبَعة كاتباع سنته بخلاف غيرهم من ولاة الأمور[١] وقد خصَّ النبي ﷺ بعضاً منهم بأحاديث كما جاء من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ جلوساً فقال «إني لا أدري ما قدر بقائي فيكم فاقتدوا باللذين من بعدي»، أبى بكر وعمر.. الحديث[٢].

من سنن الخلفاء الراشدين:

١- جمع القرآن في عهد الخليفة الراشد الأول أبى بكر الصديق رضي الله عنه.

فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أُرسل إلى أبى بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر ابن الخطاب عنده فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بِقُراء القرآن، وإني أخشى أن يستحَّر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أريد أن تأمر بجمع القرآن فقلتُ لعمر: «كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول اللَّه ﷺ؟» قال عمر: «هو واللَّه خير»، فلم يزل يراجعني حتى شرح اللَّه صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر.

قال زيد: قال أبو بكر: «إنك شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنتَ تكتب الوحي لرسول اللَّه ﷺ، فتتبّع القرآن فاجمعه»!، فو اللَّه لو كلّفوني نقل جبل من الجبال ماكان أثقل مما أمرني به من جمع القرآن، : قلتُ: «كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول اللَّه ﷺ؟» قال: «هو واللَّه خير»، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح اللَّه صدري للذي شرح اللَّه له

= من المؤمنين بنزوله عن الأمر، عام واحد وأربعين في شهر جمادى الآخرة، وسمّي عام الجماعة لاجتماع الناس على معاوية، وهو أول الملوك.
[المصدر السابق ٢٠٠].

(١) جامع العلوم والحكم للخطيب البغدادي ٢/ ١٢١ . والمقصود بسنتهم طريقتهم ومنهجهم فهذا لا يخالف الكتاب والسنة.

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وصححه الألباني برقم ٢٥٠٧ .

صدر أبي بكر وعمر، فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُبخ[١] واللِّخاف[٢] وصدور الرجال[٣]، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره «لقد جاءكم رسول من أنفسكم» حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه اللَّه، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر».

وقد راعى زيد بن ثابت نهاية التثبت، فكان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة وقوله في الحديث: «ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره» لا ينافي هذا ولا يعني أنها ليست متواترة، وإنما المراد أنه لم يجدها مكتوبة عند غيره، وكان زيد يحفظها، وكان كثير من الصحابة يحفظونها كذلك، لأن زيداً كان يعتمد على الحفظ والكتابة معاً[٤].

٢- جمع المصحف بلسان قريش في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه:

فعن أنس رضي الله عنه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان رضي الله عنه وكان يغازي أهل الشام في أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال لعثمان: «أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى». فأرسل إلى حفصة: «أن أرسلي إلينا الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليكِ» فأرسلت بها حفصه إلى عثمان - فأمر زيد ابن ثابت وعبد اللَّه بن الزبير وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم»، ففعلوا. حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردَّ عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أُفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحَّرق، قال زيد: «آية من الأحزاب حين نسخنا

---

(١) العسب: جريدة من النَّخل. وهي السّعفة مما لا ينبت عليه الخوص.
(٢) اللخاف: جمع لخفة، وهي حجارة بيض رِقاق.
(٣) صدور الرجال: أي حفظهم عن ظهر قلب.
(٤) رواه البخاري.

المصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، فالتمسناها فوجدناها مع أبي خزيمة بن ثابت الأنصاري ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]. فألحقناها في سورتها في المصحف[١].

٣- الأذان الأول[٢] يوم الجمعة:

فعن السائب بن يزيد رضي الله عنه قال كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فلما كان عثمان رضي الله عنه - وكثر الناس - «زاد النداء الثالث على الزوراء»[٣] والزوراء بالمدينة عند السوق وفي رواية: «فثبت ذلك حتى الساعة» وفي لفظ: «فثبت الأمر كذلك» قال ابن حجر رحمه الله: «والذي يظهر أن الناس أخذوا بفعل عثمان في جميع البلاد آنذاك بكونه خليفة مطاع الأمر.

وتبين بما مضى أن عثمان أحدثه لإعلام الناس بدخول وقت الصلاة قياساً على بقية الصلوات، فألحق الجمعة بها وأبقى خصوصيتها بالأذان بين يدي الخطيب، وأما ما أحدث الناس قبل وقت الجمعة من الدعاء إليها بالذكر والصلاة على النبي ﷺ فهو في بعض البلاد دون بعض واتباع السلف الصالح أولى[٤] قال في عمدة القاري: الأذان الثالث الذي هو الأول في الوجود، لكنه ثالثاً باعتبار شرعيته باجتهاد عثمان وموافقة سائر الصحابة له بالسكوت وعدم الإنكار فصار إجماعا سكوتياً[٥].

* * *

---

(١) رواه البخاري.
(٢) أي بالنسبة للأذان الثاني الذي يكون عند جلوس الإمام على المنبر والبعض يسميه الثالث يريد بالنسبة للأذان والإقامة يعني تغليبا أو لاشتراكهما في الإعلام (فتح الباري ابن حجر ٢/ ٣٩٣).
(٣) رواه البخاري برقم ٩١٢ .
(٤) فتح الباري ٢/ ٣٩٤ .
(٥) عون المعبود شرح سنن أبى داود ٣/ ٤٣٠ للعلامة أبي الطيب محمد شمس الحق عبد العظيم أبادي مع شرح ابن قيم الجوزية.



القضية الأربعون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللّه:

«ونفهم الإسلام كما فهمه السلف الصالح وهم الصحابة على وجه الخصوص لأنهم أعلم بالتنزيل وأفقه للغة العرب وقد شاهدوا الوقائع».

قوله: «ونفهم»

الشرح: والفهم هيئة للإنسان بها يتحقق معاني ما يحسن يقال فهمت كذا، وقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩]. وذلك إما بأن جعل اللّه له من فضل قوة الفهم ما أدرك به ذلك. وإما بأن ألقى ذلك في روعه، أو بأن أوحى إليه وخصَّه.

و أفهمته: إذا قلت له حتى تصوره(١).

أهمية الفهم الصحيح للأدلة:

أن حسن الفهم مقدمة لصحة العمل، إذ إن الجهل بدلالات النصوص والفهم الخاطئ، لها سبب لسوء التطبيق ومخالفة مراد الشارع من وضع الأحكام. ويقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «صحة الفهم، وحسن القصد، من أعظم نعم اللّه التي أنعم بها على عبده، بل ما أُعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجلّ منهما، بل هما ساقا الإسلام، وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم، ويصير من المُنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم الذين أُمرنا أن نسأل اللّه أن يهدينا صراطهم في كل صلاة.

وصحة الفهم نور يقذفه اللّه في قلب العبد يميز به بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد ويمده حسن القصد وتحري الحق وتقوى الربّ في السِر والعلانية، ويقطع مادته اتباع الهوى وإيثار الدنيا وطلب

---

(١) المفردات في غريب القرآن ٣٨٦ للراغب الأصفهاني.

مَحْمدة الخلق وترك التقوى[١].

قوله: «كما فهمه السّلف الصالح».

ش: السلف لغة: سلف الإنسان من تقدمه بالموت من آبائه وذوي قرابته قال تعالى عن فرعون: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦][٢].

وقال ﷺ: «إن اللّه إذا أراد رحمة أمة قبض نبيها قبلها فجعله لها فرطاً وسلفاً بين يديها»[٣].

السّلف اصطلاحاً: ويراد بهم الصحابة ﷺ، والتابعون لهم بإحسان وتابعوهم وأئمة الإسلام العدول، ممن اتفقت الأمة على إمامتهم وعِظَم شأنهم في الدين، وتلقى المسلمون كلامهم خلفا عن السلف بالقبول، دون من رمُي ببدعة أو لقب غير مرضي: كالخوارج والرافضة والناصبة والقدرية والمرجئة والأشعرية والجهمية ونحوهم[٤] كما قال رسول اللّه ﷺ «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم»[٥].

وهؤلاء هم السّلف تاريخاً وزمانا وهو المدلول الخاص، وأخصهم الصحابة رضوان اللّه عليهم وقد يُطلق السّلف ويقصد به كل من التزم طريقة القرون الثلاثة وسار على منهجهم، وهؤلاء هم السّلف منهجاً وحالًا واقتداءً، وهو المدلول العام.

ما هي السلفية؟

السّلفية: هي المنهج الذي اعتمده وسار عليه السلف الصالح في اعتقادهم ومعاملاتهم وأحكامهم وتربيتهم ودعوتهم وتزكية نفوسهم.

---

(١) إعلام الموقعين ١/ ٨٧ .
(٢) انظر المفردات (٣٣٩) للراغب ومختار الصحاح باب السين (٢٦٤).
(٣) رواه مسلم ٢٢٨٨ .
(٤) لوامع الأنوار البهية ٢/ ٢٠ .
(٥) رواه أحمد ومسلم.



من هو السلفي؟

السلفي: هو من كان على مذهب السّلف[(١)].

وجوب التمسك بمنهج السّلف:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وقوله ﷺ في الحديث السابق «خير الناس قرني»[(٢)]

وقال عبد اللّٰه بن مسعود رضي الله عنه: «من كان متأسياً فليتأس بأصحاب رسول اللّٰه ﷺ: فإنهم كانوا أبرّ هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً وأقومها هدياً، وأحسنها حالًا، قوم اختارهم اللّٰه لصحبة نبيه وإقامة دينه فأعرفوا لهم فضلهم، واتبعوا آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم»[(٣)].

لماذا فهم السلف «الصحابة» بالذّات؟

لاشك أن فهوم وآراء الصحابة أولى بالأخذ بها من فهوم وآراء المتأخرين وفتاويهم[(٤)] وأن قربها إلى الصواب بحسب قرب أهلها من عصر الرسول ﷺ.

ويقول ابن القيم: «ومن المحال أن يَحْرِم اللّٰه أبرّ هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفا وأقومها هديا للصواب في أحكامه ويوفق من بعدهم»[(٥)].

فهذا هو مجتمع الصحابة الذين أختارهم اللّٰه لصحبة نبيه ﷺ ميدانا للعمل المتواصل

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢ للحافظ الذهبي.
(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم.
(٣) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٩٧ لابن عبد البر ومشكاة المصابيح للتبريزي ١٩٣ من طريق قتادة عنه. وقال محققه الألباني رحمه الله منقطع. وذكره ابن القيم في أعلام الموقعين ٤/ ١٣٩ وعزاه للإمام أحمد رحمه الله.
(٤) وذكر ابن القيم أكثر من أربعين وجهاً يرجِّح فيها فتاوى الصحابة على غيرهم. انظر إعلام الموقعين ٤/ ١٢٣ - ١٥٣ .
(٥) إعلام الموقعين ٤/ ١٣٩ .

في تثبيت العقيدة وتطبيق الشريعة تطبيقاً عمليا، يقوم به الرسول ﷺ ويتابعه أصحابه في ميدان من ميادين الحياة في العبادات والمعاملات في الصلاة والزكاة، والصوم والحج، وفي البيوع والأنكحة والمواريث، وما يتعلق بها، وفي الجهاد والحدود والقصاص والأقضية المختلفة حتى أكمل اللّه شريعته، وأتم نعمته ورضي لعباده الإسلام ديناً هذه النخبة، كانت أقرب الناس إليه وأشدهم تأسياً بأحواله واقتداءً بآثاره وترسماً لخطاه واتباعاً لنهجه.

فقد شاهدوه في مواطن كثيرة، شاهدوه قائدا، وحكما وقاضياً ومشيراً ومستشيراً، ومعلما رحيما يستشفون هديه في حركاته وسكناته ويدركون رضاه وغضبه في ملامحه فيسارعون إلى مرضاته وهذه المواطن لها من القرائن والملابسات آثار في حياة الناس والنهج الذي يختارونه ويسيرون عليه، وفي كل هذه الميادين، تتعهدهم العناية النبوية بالتوجيه، وتعدهم إعدادً عمليا يمكنهم من مواجهة الحياة حين ينقطع وحي السماء، هذا فضلًا عن شهادته ودعائه لبعضهم كما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنه: «أنه وضع للنبي ﷺ وضوءاً، فقال: «من وضع هذا؟» قالوا: «ابن عباس»، فقال: «اللّهم فقهه في الدين»»[١].

قوله: «لأنهم أعلم بالتنزيل»

ش: قال ابن القيم رحمه الله عن الصحابة: وهم أعلم الناس بكتاب ربهم تعالى وسنة نبيهم ﷺ، وقد شاهدوا التنزيل وعرفوا التأويل. ونسبة من بعدهم في العلم إليهم كنسبتهم إليهم في الفضل والدين، كان الظن والحالة هذه بأن الصواب في جهتهم والحق في جانبهم من أقوى الظنون وهو أقوى من الظن المستفاد من كثير من الأقيسة[٢].

وإذا قيل: «فما تقولون في أقوالهم في تفسير القرآن؟ وهل هي حجة يجب المصير إليها». ؟

---

(١) رواه البخاري.

(٢) إعلام الموقعين ٤/ ١٤٧ .



قيل: «لا ريب أن أقوالهم في التفسير أصوب من أقوال من بعدهم، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن تفسيرهم في حُكم المرفوع، قال أبو عبد اللّه الحاكم رَحِمَهُ اللَّهُ في مستدركه: «وتفسير الصحابي عندنا في حكم المرفوع»(١)، ومراده أنه في حكمه في الاستدلال به والاحتجاج به. لا أنه إذا قال الصحابي في الآية قولًا فلنا أن نقول: هذا القول قول رسول اللّه ﷺ، أو قال ﷺ.

وله وجه آخر: وهو أن يكون في حكم المرفوع بمعنى: أن رسول اللّه ﷺ بيّن لهم معاني القرآن وفسرَّه لهم كما وصفه تعالى بقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

فبيَّن لهم القرآن بياناً شافيا كافيا، وكان إذا أُشكل على أحد منهم معنى سأله عنه، فأوضحه له، كما سأله الصِدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]فبين له معناها(٢).

فهم قد عاشوا مع النبي ﷺ وهو يتلقى هذا الوحي من ربه، فعرفوا مقاصد القرآن وأهدافه وشاهدوا تطبيقه، وعاشوا في جو تفسيره العملي، وباشروا الوقائع والنوازل،وعرفوا ملابسات الوحي: من بيان سبب النزول وناسخه ومنسوخه، وتفسير مبهمه وتوضيح غامضه وتبيُّن مُشكله وتفصيل مجمله.

فضلًا عن أنهم كانوا في زمن النبي ﷺ على عقيدة واحدة لأنهم أدركوا زمان الوحي وشرف الصحبة فأزال نور الصحبة عنهم ظلم الشكوك والأوهام(٣) واليك هذه الأمثلة:

---

(١) الحاكم في مستدركه ١/ ٢٧- ٢٨ [وخاصة في الأمور التي لا مجال للعقل فيها.]
(٢) إعلام الموقعين ٤/ ١٥٣ لابن القيم.
(٣) مفتاح دار السعادة ٢/ ١٤٣ لطاش كبرى زاده.

المثال الأول:

عن أسلم بن عمران قال: «حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه، ومعنا أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه، فقال ناس: «ألقى بيده إلى التهلكة»، فقال أبو أيوب «نحن أعلم بهذه الآية، إنما نزلت فينا، صحبنا رسول اللّه ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه فلما فشا الإسلام وظهر اجتمعنا معشر الأنصار (نجياً») فقلنا: «قد أكرمنا اللّه بصحبة نبيه ﷺ ونصره حتى فشا الإسلام وكثر أهله، وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد وقد وضعت الحرب أوزارها، فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما، فنزل فينا: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد»[(١)].

المثال الثاني:

عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: «يا أمير المؤمنين، إنكم تقرؤون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً»، قال: «وأي آية؟» قال قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٣]، فقال عمر رضي الله عنه: «واللّه إني لأعلم اليوم الذي أنزلت على رسول اللّه ﷺ والساعة التي نزلت فيها، نزلت على رسول اللّه ﷺ «عشية عرفة يوم جمعة»»[(٢)].

قوله: «وأفقه للغة العرب»

ش: فاللغة العربية هي لغة القرآن قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]. وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]. وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٥]، والصحابة رضي الله عنهم

---

(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وصححه الألباني في صحيح أبو داود ٢١٩٣ والسلسلة الصحيحة رقم ١٣ .

(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم.



أفقه بقواعد اللغة العربية من غيرهم.

فما المقصود بقواعد اللغة العربية المطلوبة في فهم النصوص الشرعية؟

يقول الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا أعني بذلك النحو وحده، ولا التصريف وحده ولا اللغة، ولا علم المعاني، ولا غير ذلك من أنواع العلوم المتعلقة باللّسان، بل المراد جملة علم اللسان، وألفاظ أو معاني كيف تُصوّرت»[(١)].

فاللغة العربية المراد منها معرفة مقاصد العرب من كلامهم، وأدب لغتهم سواء حصلت تلك المعرفة بالسجية والسليقة كالمعرفة الحاصلة للعرب الذين نزل القرآن بين ظهرانيهم، أم حصلت بالتلقي والتعلم، كالمعرفة الحاصلة للمولدين الذين شافهوا بقية العرب ومارسوهم.

وكما أن الجهل بقواعد هذه اللغة خطأ في باب التفسير، حيث يوقع صاحبه في الهلكة والورطة والمضايق الصعبة التي يصعب تصحيحها إلا بإزالة ذلك الجهل، فإن الاعتماد على مجرد اللغة في التفسير خطأ فاحش:

١- قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومما ينبغي أن يُعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عُرف تفسيرها وما أُريد بها من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم[(٢)] وقال أيضا: «.فهذا منشأ الغلط من الغالطين لاسيمًا كثير ممن يتكلم فيه بالاحتمالات اللغوية»[(٣)]. وبيَّن طريقة أهل البدع في التفسير حيث قال: «..تجد المعتزلة والمرجئة والرافضة وغيرهم من أهل البدع يفسرون القرآن برأيهم ومعقولهم، وما تأولوه من اللغة ولهذا تجدهم لا يعتمدون على أحاديث النبي ﷺ والصحابة والتابعين وأئمة المسلمين، ولا على إجماع السلف وآثارهم، وإنما يعتمدون على العقل واللغة، وتجدهم لا يعتمدون على كتب التفسير بالمأثور والحديث وآثار السلف، وإنما يعتمدون على كتب الأدب

(١) الموافقات ٥/ ٥٢
(٢) مجموع الفتاوى ٧/ ٢٨٦ .
(٣) مجموع الفتاوى ١٥/ ٩٤ .

وكتب الكلام التي وضعتها رؤوسهم، وهذه طريقة الملاحدة أيضا، إنما يأخذون ما في كتب الفلسفة، وكتب الأدب واللغة، وأما القرآن والحديث والآثار فلا يلتفتون إليها»[١].

٢- وقال العلامة ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومما ينبغي أن يُتفطَّن هنا لأمر لابد منه، وهو أنه لا يجوز أن يُحمل كلام اللَّه عزَّ وجلَّ على المعاني القاصرة، ويفسر بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي الذي يحتمله تركيب الكلام، ويكون الكلام به له معنى ما، فإن هذا مقام غلط فيه أكثر المعْربين للقرآن. . فتتدبر هذه القاعدة ولتكن منك على بال فإنك تنتفع بها في معرفة ضعف كثير من أقوال المفسرين وزيفها وتقطع أنها ليست مراد المتكلم (تعالى) بكلامه فهذا أصل من أصول التفسير، بل هو من أهم أصوله[٢].

٣- قال الإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن ساق أقوال أهل اللغة، وحديث أبي سعيد رَحِمَهُ اللَّهُ، في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢]، وقد أغنانا اللَّه سبحانه في تفسير هذه الآية بما صح عن رسول اللَّه ﷺ[٣]. كما عرفت، وذلك لا يستلزم تجسيماً ولا تشبيهاً فليس كمثله شيء.

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمِنٌ في دينه كمُخاطر[٤]

٤- قال الشيخ جمال الدين القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد يقدر بعض النحاة ما يقتضيه علم النحو. لكن يمنع منه أدلة شرعية، فيترك ذلك التقدير ويقدر آخر يليق بالشرع»[٥].

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ١١٩ وكتابه الإيمان ١٠٧ .

(٢) انظر بدائع الفوائد ٣/ ٢٧ -٢٨ .

(٣) يشير لقول أبي سعيد رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد كل مؤمن ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد ظهره طبقاً واحداً» متفق عليه.

(٤) فتح القدير ٥/ ٢٧٨ .

(٥) تفسير القاسمي ١/ ٢٦٢ .



قوله: «وقد شاهدوا الوقائع».

ش: وليس الشاهد كالغائب وإليك هذا المثال:

عن عروة عن عائشة رضي الله عنها: قالت أرأيت قول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]. قلت: «فواللَّه ما على أحد جناح أن لا يَطَّوَّف بهما». فقالت عائشة: «بئسما قلتَ يا ابن أختي! إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت: «فلا جناح عليه أن لا يَطَّوَّف بهما»، ولكنها إنما أُنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يُسلموا كانوا يُهُلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل، وكان مَن أهلَّ لهما يتحَّرج أن يَطَّوَّف بالصفا والمروة، فسألوا عن ذلك رسول اللَّه ﷺ. فقالوا: «يا رسول اللَّه ! إنَّا كنّا نتحرّج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية، فأنزل اللَّه عزوجل: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ قالت عائشة: «ثم قد سنَّ رسول اللَّه ﷺ الطواف بهما فليس لأحد أن يدع الطواف بهما»[١].

قاعدة: «إذا اختلفت الحقيقة الشرعية والحقيقة اللغوية في تفسير كلام اللَّه تعالى قُدِمت الشرعية»[٢].

أي إذا اختلف الكلام بين المعنى الشرعي والمعنى اللغوي، أُخذ بما يقتضيه المسمّى الشرعي، لأن القرآن نزل لبيان الشرع لا لبيان اللغة، إلا أن يكون هناك دليل يترجح به المعنى اللغوي فيؤخذ به، فإن قام دليل تعين أحدهما فلا ترجيح إذاً بهذه القاعدة.

كما في حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. شقَّ ذلك على أصحاب رسول اللَّه ﷺ: فقالوا: «يا رسول اللَّه ! أينا لم يظلم نفسه؟» قال: «أنه ليس الذي

(١) رواه احمد والبخاري ومسلم.
(٢) قواعد الترجيح ٢/ ٤٠١ .



تَعنُون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح[١]: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] إنما هو الشرك»[٢].

فالصحابة شقّ عليهم ذلك لأنهم أخذوا الظلم بأحد معانيه اللغوية وهو ظلم الإنسان لنفسه، إلى أن بيّن لهم النبي ﷺ المعنى المراد في هذه الآية.

* * *

(١) أي لقمان رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٢) احمد والبخاري.



القضية الحادية والأربعون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«وجميع علماء المسلمين بعد رسول اللَّه ﷺ من الصحابة فمن دونهم يصيبون ويخطئون ولا يقبل قول قائل منهم يخالف نصا عن اللَّه أو عن رسوله ﷺ».

قوله: «وجميع علماء المسلمين»

الشرح: من هم العلماء؟ إن العلماء هم العارفون بشرع اللَّه تعالى المتفقهون في دينه العاملون بعلمهم على هدي وبصيرة.

إن العلماء هم الذين جعل اللَّه عزّ وجلّ عماد الناس عليهم في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا[١] هم ورثة الأنبياء، ورثوا عنهم العلم، فهم يحملونه في صدورهم فهم رأس الطائفة المنصورة ورأس الجماعة، هم الحضور وإن غابوا.

كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «العلماء باقون ما بقِي الدهر، أعيانهم مفقودة، وآثارهم في القلوب موجودة»[٢].

هم فقهاء الإسلام ومن دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام الذين خُصّوا باستنباط الأحكام وعنوا بضبط قواعد الحلال من الحرام[٣].

العلماء يصيبون ويخطئون:

إن معرفة فضل أئمة الإسلام ومقاديرهم وحقوقهم ومراتبهم لا تجعلهم معصومين أو يوجب قبول كل ما قالوه.

وما وقع في قلوبهم من المسائل التي خفي عليهم ما جاء به الرسول ﷺ فقالوا بمبلغ علمهم والحق في خلافها لا يوجب اطراح أقوالهم جملة وتنقصهم والوقيعة فيهم فهذان طرفان جائران عن القصد، وقصد السبيل بينهما فلا نُؤَثِّم ولا نَعْصِم.

---

(١) انظر الطبري (جامع البيان) ٣/ ٣٢٧ .
(٢) رواه ابن عبد البر (جامع بيان العلم وفضله) ١/ ٦٨ .
(٣) إعلام الموقعين ١/ ٧ ابن القيم.



ولا نسلك بهم مسلك الرافضة في عليّ رضي الله عنه ولا مسلكهم في الشيخين «أبي بكر وعمر رضي الله عنهما».

قال عبدالله بن المبارك: «كنت بالكوفة فناظروني في النبيذ المختلف فيه» فقلت لهم: «تعالوا فليحتج المحتج منكم عمن شاء من أصحاب النبي ﷺ بالرخصة فإن لم يبيّن الرد عليه عن ذلك الرجل بسند صحت عنه فاحتجوا فما جاء عن أحد برخصة إلا جئناهم بسند، فلما لم يبق في يد أحد منهم إلا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وليس احتجاجهم عنه في شدة النبيذ بشيء يصح عنه، إنما يصح عنه أنه لم يُنتبذ له في الجرِّ الأخضر.

قال ابن المبارك: فقلت للمحتج عنه في الرخصة: يا أحمق، عُدّ أن ابن مسعود لو كان ههنا جالساً فقال: «هو لك حلال»، وما وصفنا عن النبي ﷺ وأصحابه في الشَّدة كان ينبغي لك أن تحذر وتخشى.

فقال قائل: يا أبا عبدالرحمن فالنخعي والشعبي - وسمى عدة معهما - كانوا يشربون الحرام[1].

فقلت لهم: «دعوا عند المناظرة تسمية الرجال فربَّ رجل في الإسلام مناقبه كذا وكذا، وعسى أن تكون منه زلة، أفيجوز لأحد أن يحتج بها؟ فإن أبيتم فما قولكم في عطاء وطاوس وجابر بن زيد وسعيد بن جبير وعكرمة»؟ قالوا: «كانوا خياراً»، قلت: «فما قولكم في الدرهم بالدرهمين يداً بيد؟»».

قالوا: «حرام» فقلت: «إنَّ هؤلاء رأوه حلالا أفماتوا وهم يأكلون الحرام؟» فبُهتوا وانقطعت حجتهم قال ابن المبارك: «ولقد أخبرني المعتمر بن سليمان» قال: «رآني أبي وأنا أنشد الشعر» فقال: «يابني لا تنشد الشعر»، فقلت: «يا أبت ! كان الحسن ينشد الشعر، وكان ابن سيرين ينشد». فقال: «أي بني ! إن أخذت بشر ما في الحَسن وبشرِّ ما في ابن سيرين، اجتمع فيك الشر كله»!

(١) في نسخة «يشربون الخمر» انظر أعلام الموقعين ط فرج الله زكي الكردي ٣٠ س ٢٢٠ .



قال شيخ الإسلام: «وهذا الذي ذكره ابن المبارك متفق عليه بين العلماء فإنه ما من أحد من أعيان الأئمة من السابقين الأولين ومن بعدهم إلا وله أقوال وأفعال خفي عليهم فيها السنة».

وقال شيخ الإسلام: «وهذا باب واسع لا يحصى، مع أن ذلك لا يغض من أقدارهم، ولا يسوغ اتِّباعهم فيها، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ قال مجاهد والحكَم بن عتيبة ومالك وغيرهم: «ليس أحد من خلق اللَّه إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ»، وقال سليمان التيمي: «إن أخذت برخصة كل عالم اجتمع فيك الشرُّ كلُّه»، وقال ابن عبدالبر: «هذا إجماع لا أعلم فيه خلافاً» وقد روي عن النبي ﷺ وأصحابه في هذا المعنى ما ينبغي تأمله، فقال زياد بن حدرد: قال عمر: «ثلاث يهدِمن الدين: «زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، وأئمة مضلون».

وقال الحسن: قال أبو الدرداء: «إن مما أخشى عليكم زلة العالِم، وجدال المنافق بالقرآن، والقرآن حق، وعلى القرآن منار كأعلام الطريق».

وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول في خطبته كل يوم، قلما يخطئه أن يقول ذلك: «اللَّه حَكَم قسط، هلك المرتابون، إن وراءكم فتناً يكثر فيها المال، ويُفتح فيها القرآن، حتى يقرأه المؤمن والمنافق، والمرأة والصبي»، والأسود والأحمر فيوشك أحدهم أن يقول: «قد قرأتُ القرآن فما أظن أن يتبعوني حتى أبتدع لهم غيره ! فإياكم وما ابتُدع، فإن كل بدعة ضلالة، وإياكم وزيغة الحكيم فإن الشيطان قد يتكلّم على لسان الحكيم بكلمة الضلالة، وإن المنافق قد يقول كلمة الحق فتلقوا الحق عمن جاء به، فإن على الحق نوراً»، قالوا: «كيف زيغة الحكيم؟»

قال: «هي كلمة تروعكم وتنكرونها، وتقولون ما هذه؟ فاحذروا زيغته، ولا تصدنكم عنه، فإنه يوشك أن يفيء ويراجع الحق، وإن العلم والإيمان مكانهما إلى يوم القيامة، فمن ابتغاهما وجدهما».

وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: «كيف أنتم عند ثلاث: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن ودنيا تقطع أعناقكم؟ فأما زلة العالِم فإن اهتدى فلا تقلدوه دينكم وتقولون نصنع مثل ما يصنع فلان، وإن أخطأ فلا تقطعوا إياسكم منه فتعينوا عليه الشيطان. وأما مجادلة منافق بالقرآن فإن للقرآن مناراً كمنار الطريق، فما عرفتم منه فخذوا، وما لم تعرفوا فكِلوه إلى اللّه تعالى، وإما دنيا تقطع أعناقكم فانظروا إلى من هو دونكم، ولاتنظروا إلى من هو فوقكم».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «ويل للأتباع من عثرات العالِم»، قيل: «كيف ذلك؟» قال: «يقول العالِم شيئاً برأيه ثم يجد من هو أعلم منه برسول اللّه ﷺ فيترك قوله ثم يمضي الأتباع»، ذكر أبو عمر هذه الآثار كلها وغيره[1].

كما لا يُقبل قول قائل من العلماء يخالف نصاً عن اللّه أو عن رسوله ﷺ كأن يُسأل: «عن رجل أكل في رمضان أو شرب ناسياً هل يتم صومه؟» فيقول: «لا يتم صومه»، وصاحب الشرع يقول: «فليتم صومه»[2].

ومثل: «أن يُسأل هل تجزي صلاة من لا يقيم من ركوعه وسجوده؟» فيقول: «تجزيه صلاته»، وصاحب الشرع ﷺ يقول: «لا تجزئ صلاة لا يقيم الرجل فيها صلبه بين ركوعه وسجوده»[3].

ومثل: «أن يُسأل عن قتل المسلم بالكافر»، فيقول: «نعم يُقتل المسلم بالكافر». وصاحب الشرع يقول: «لا يُقتل مسلمٌ بكافرٍ»[4].

ومثل أن يُسأل: «هل يصح تعليق الولاية بالشرط؟» فيقول: «لا يصح» وصاحب الشرع يقول: «أميركم زيد، فإن قُتِل فجعفر، فإن قُتِل فعبداللّه بن رواحة»[5].

---

(١) أعلام الموقعين ٣/ ٢٨٣ - ٢٨٦ ابن القيم.
(٢) متفق عليه.
(٣) أحمد والنسائي وابن ماجه وصححه الألباني ٧١٠٢ .
(٤) أحمد والترمذي وابن ماجه وصححه الألباني ٧٦٢٩ .
(٥) البخاري في المغازي برقم ٤٢٦١ وأحمد ١/ ٢٥٦، ٣٠٤، والحاكم ٣/ ٢١٢ وأبن سعد ٤/ ١/ ٢٦ .

ومثل أن يُسأل: «عن رجل عض يد رجل فانتزعها من فيه فسقطت أسنانه؟» فيقول: «له ديتها»، وقد قال رسول اللّه (ﷺ): «لا دية له»[١].

أو يُسأل عن امرأة أنكحت نفسها بدون إذن وليها؟»، فيقول: «نكاحها صحيح»، وصاحب الشرع يقول: «فنكاحها باطل، باطل، باطل»[٢].

أو يُسأل: «عن المطلقة المبتوتة: هل لها نفقة وسكنى؟» فيقول: «نعم لها النفقة والسكنى»، وصاحب الشرع يقول: «لا نفقة لها ولا سكنى»[٣].

أو يُسأل: «عمَّن رفع يديه عند الركوع والرفع منه: هل صلاته مكروهة أوهي ناقصة؟» فيقول: «نعم تكره صلاته أو هي ناقصة، وربما غلا فقال: باطلة».

وقد روى بضعة وعشرون نفساً عن النبي ﷺ: «أنه كان يرفع يديه، عند الافتتاح، وعند الركوع، وعند الرفع منه»[٤] بأسانيد صحيحة لا مطعن فيها.

أو يُسأل: «عن بيع الرطب بالتمر: هل يجوز؟» فيقول: «نعم يجوز» وصاحب الشرع يُسأل عنه فيقول: «لا آذنُ» ؛ أو يُسأل عن القرعة: «هل هي جائزة أم باطلة؟» فيقول: «لا، بل هي باطلة، وهي من أحكام الجاهلية» «وقد أقرع رسول اللّه ﷺوأمر بالقرعة في غير موضع»[٥].

أو يُسأل: «هل للرجل رخصة في ترك الجماعة من غير عذر؟»

فيقول: «نعم له رخصة»، ورسول اللّه ﷺ يقول: «لا أجد لك رخصة»[٦].

---

(١) النسائي وصححه الألباني في صحيح النسائي.
(٢) أحمد وأبوداود والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه الألباني ٢٧٠٦ .
(٣) رواه مسلم (١٤٨٠) .
(٤) متفق عليه وهذا متواتر عنه وهو مذهب الأئمة الثلاثة وغيرهم «أنظر صفة صلاة النبي ﷺ للألباني ١٠٩».
(٥) البخاري باب الهبة ١٥، جهاد ٦٤ وشهادات ٣٠، مناقب الأنصار ٤٦، ومسلم أيمان ٥٦ .
(٦) وفي رواية (فأجب) رواه مسلم (١٤٨٦) ١٥٨/٣ . قال لابن أم مكتوم رضي الله عنه وكان رجلا أعمى.

ونظائر ذلك كثيرة جداً، وقد كان السلف الطيب يشتد نكيرهم وغضبهم على من عارض حديث رسول اللّه ﷺ برأي أو قياس أو استحسان أو قول أحد من الناس كائناً من كان، ويهجرون فاعل ذلك، وينكرون على من يضرب له الأمثال ولا يسوغون غير الانقياد له والتسليم بالتلقي بالسمع والطاعة، ولا يخطر بقلوبهم التوقف في قبوله حتى يشهد له عمل أو قياس أو يوافق قول فلان وفلان.

بل كانوا عاملين بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وبقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وبقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣] وأمثالها، فدُفعنا إلى زمان إذا قيل لأحدهم: «ثبت عن النبي ﷺ أنه قال كذا وكذا»، يقول: «من قال بهذا؟»، ويجعل هذا دفعاً في صدر الحديث، أو يجعل جهله بالقائل به حجة له في مخالفته وترك العمل به، ولو نصح نفسه لعلم أن هذا الكلام من أعظم الباطل، وأنه لا يحل له دفع سنن رسول اللّه ﷺ بمثل هذا الجهل.

وأقبح من ذلك عذره في جهله، إذ يعتقد أن الإجماع منعقد على مخالفة سنة رسول اللّه ﷺ، وأقبح من ذلك عذره في دعوى هذا الإجماع وهو جهله وعدم علمه بمن قال بالحديث فعاد الأمر إلى تقديم جهله على السنة واللّه المستعان(١).

* * *

(١) إعلام الموقعين ٤/ ٢٣٩ - ٢٤٥ ابن القيم.



القضية الثانية والأربعون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«والحكام والعلماء والفقهاء والآباء والمربون والأزواج والأولياء لا طاعة لأحد منهم إلا فيما وافق أمر اللَّه ومرضاته «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»».

قوله: «والحكام والعلماء والفقهاء والآباء والمربون والأزواج»

الشرح: فجميع هؤلاء وإن كان لهم شيء من الحق والولاية إلا أن ولايتهم وطاعتهم تبع لطاعة اللَّه ورسوله ﷺ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

فطاعة اللَّه تعالى طاعة مطلقه تجب استقلالًا، وطاعة رسوله ﷺ طاعة مطلقة تجب استقلالًا أيضاً لأنه معصوم بعصمة اللَّه له، ومسدد بتسديد اللَّه له أما غيره فهو يطاع طاعة مقيده ولهذا حذف الفعل وجعل طاعتهم ضمن طاعة الرسول ﷺ الذي قال «إنما الطاعة في المعروف»[(١)] وعن ابن عمر رضي الله عنه عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يُؤمر بمعصية، فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[(٢)]. وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول اللَّه ﷺ على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله»، قال: «إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من اللَّه برهان»[(٣)].

فهذه الأحاديث وغيرها يعمل بها في الطاعة المقيدة بطاعة اللَّه ورسوله ﷺ أولم تكن بمعصية شرعه.

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود واللفظ له.
(٣) متفق عليه.



الترهيب من طاعة العلماء والأمراء. . . . فما يخالف الحق.

ولهذا سمّى اللَّه تعالى طاعة من سوى اللَّه ورسوله كالأحبار[١] والرهبان [٢] بالعبادة قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، فجعلوهم أرباباً أي: مشرِّعين في تحليل ما حرّم اللَّه وتحريم ما أحلّ اللَّه وهذا مثل قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

فبيّن اللَّه تعالى أن موافقة المشركين وطاعتهم في هذه الشبهة شرك حيث عدلتم عن أمر اللَّه لكم وشرعه إلى قول غيره، فهذا هو الشرك[٣].

وقال تعالى عن الآباء «الوالدين»:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨]. يقول تعالى آمراً عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحثّ على التمسك بالتوحيد، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق ولهذا قال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣- ٢٤].

ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما في مقابلة إحسانهما المتقدم قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ [العنكبوت: ٨]. أي: وإن حرصا عليك أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين، فإياك وإياهما، فلا تطعهما في ذلك فإن مرجعكم إليَّ يوم القيامة، فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك على دينك، وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك، وإن كنت أقرب الناس إليهما في

(١) الأحبار: هم العلماء.

(٢) العبّاد والزّهاد.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/١٠٥٨ .

الدنيا، فإن المرء إنما يُحشر يوم القيامة مع من أحب أي: حباً دينيا[١].

وكما قد تكون الفتنة بالأبوين كذلك قد تكون بالأولاد والزوجات كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، قال ابن عباس: «نزلت في عوف بن مالك الأشجعي كان ذا أهل وولد»، وكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورققوه فقالوا: «إلى من تدعنا؟» فيرق فيقيم، فنزلت الآيات، وقيل: «إن مثل هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم»[٢]. أن يأتوا النبي ﷺ، فلما أتوا النبي ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين، همّوا أن يعاقبوهم، فأنزل اللّه تعالى الآية، ولما كان الأزواج أقرب عداوه من الأولاد قدمهن.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: فهذا يبين وجه العداوة، فإن العدو لم يكن عدواً لذاته وإنما كان عدواً بفعله، فإذا فعل الزوج والولد فِعْلَ العدو كان عدواً، ولا فِعْلَ أقبحُ من الحيلولة بين العبد وبين الطاعة، كما جاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان قعد لابن آدم في طريق الإيمان فقال له: «أتؤمن وتذر دينك ودين آبائك؟» فخالفه فآمن، ثم قعد له على طريق الهجرة فقال له: «أتُهاجر وتترك مالك وأهلك؟» فخالفه فهاجر، ثم قعد له على طريق الجهاد، فقال له: «أتُجاهد فتقتل نفسك، فتُنكَح نساؤك ويُقسم مالك؟ فخالفه فجاهد فقتل فحق على اللّه أن يدخله الجنة»»[٣].

وقعود الشيطان يكون بوجهين: أحدهما: يكون بالوسوسة.

والثاني: بأن يحمل على ما يريد من ذلك الزوج والولد والصاحب.

وكما أن الرجل يكون له ولده وزوجه عدوا كذلك المرأة يكون لها زوجها وولدها عدواً بهذا المعنى بعينه.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ابن كثير ٣/ ٢١٤٣ .
(٢) وقالوا صبرنا على إسلامكم، فلا نصبر على فراقكم فأطاعوهم وتركوا الجهاد.
(٣) رواه البخاري.



وعموم قوله: «من أزواجكم» يدخل فيه الذكر والأنثى لدخولهما في كل آية. وقوله «فاحذروهم» معناه على أنفسكم، والحذر على النفس يكون بوجهين: إما الضرر في البدن، وإما الضرر في الدين، وضرر البدن يتعلق بالدنيا، وضرر الدين يتعلق بالآخرة لشغلهم لكم عن الدين أو لغير ذلك من جمع المال من الحرام وتحصيل الجاه لأجلهم والتعاون بالنهي عن المنكر(١).

وذكر اللّه عن بعض أحوالهم يوم القيامة فقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦- ٦٨].

يذكر اللّه حالهم حين يُسحبون في النار على وجوههم، وتكوى وجوههم على جهنم يقولون وهم كذلك يتمنون أن لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع اللّه وأطاع الرسول كما أخبر اللّه عنهم في حال العرصات بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧- ٢٩].

وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا اللّه وأطاعوا الرسول في الدنيا، وقال طاووس: «سادتنا» يعني: الأشراف، «كبراءنا» يعني: العلماء، أي اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئا وأنهم على شيء، فإذا هم ليسوا على شيء: «ربنا آتهم ضعفين من العذاب» أي بكفرهم وإغوائهم إيانا «والعنهم لعناً كبيراً».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والتحقيق أن الأمراء إنما يُطاعون إذا أمُروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول ﷺ، فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء»(٢).

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨/ ١٤٠ - ١٤٢ ونظم الدرر للبقاعي ٨/ ١٨ وتفسير البغوي ٤/ ٣٥٤ .

(٢) أعلاه الموقعين ١/ ١٠ .



ولهذا قال ﷺ في ولاة الأمور: «من أمركم منهم بمعصية اللّه فلا سمع له ولا طاعة»[١] وقد أخبر ﷺ عن الذين أرادوا دخول النار لما أمرهم أميرهم بدخولها: «إنهم لو دخلوا لما خرجوا منها»، مع أنهم إنما كانوا سيدخلونها طاعة لأميرهم، وظناً أن ذلك واجب عليهم، ولكن لما قصَّروا في الاجتهاد وبادروا إلى طاعة من أمر بمعصية اللّه وحملوا عموم الأمر بالطاعة، بما لم يرده الآمر ﷺ، وما قد عُلم من دينه إرادة خلافه، فقصرَّوا في الاجتهاد وأقدموا على تعذيب أنفسهم وإهلاكها من غير تثبت وتبين هل ذلك طاعة للّه ورسوله أم لا، فما الظن بمن أطاع غيره في صريح مخالفة ما بعث اللّه به رسوله ﷺ[٢] من المربّين والأزواج والأولياء.

❋ ❋ ❋

(١) متفق عليه.
(٢) إعلام الموقعين ابن القيم ١/ ٤٨ .

القضية الثالثة والأربعون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«والآراء العارية عن الدليل متساوية ويجوز العمل بأي واحد منها إذا اطمأن إليه قلب المكلف، والتعصب لواحد منها ضلال».

الشرح: والآراء جمع رأي: والرأي في الأصل مصدر رأى الشيء يراه رأياً، ثم غلب استعماله على المرئي نفسه، من باب استعمال المصدر في المفعول. والعرب تفَرِق بين مصادر فعل الرؤية بحسب محالها، فتقول: رأي كذا في النوم رؤيا، ورأه في اليقظة رؤية، ورأى كذا - لما يُعلم بالقلب ولايُرى بالعين - رأياً ولكنهم خصّوه بما يراه القلب بعد فكر وتأمل وطلب لمعرفة وجه الصواب مما تتعارض فيه الأمارات، فلا يقال لمن رأى بقلبه أمرا غائباً عنه مما يحس به: «أنه رأيه»، ولا يقال أيضا للأمر المعقول الذي لا تختلف فيه العقول ولا تتعارض فيه الأمارات: «إنه رأي» وإن احتاج إلى فكر وتأمل كدقائق الحساب ونحوها[(١)].

أقسام الرأي:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الرأي ثلاثة أقسام[(٢)].

١- قسم باطل بلا ريب ٢- قسم صحيح ٣- قسم هو موضع الاشتباه والأقسام الثلاثة قد أشار إليها السّلف.

فاستعملوا الرأي الصحيح وعملوا به و أفتوا به وسوّغوا القول به.

ومن أنواع الرأي المحمود: هو الذي يفسر النصوص ويُبَيّن وجه الدلالة منها ومثال هذا رأي الصحابة:

فعن الشعبي قال: «سُئل أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن الكلالة» فقال: «إني سأقـول فيها برأي، فإن يكن صوابا فمن اللَّه، وإن يك خطأ فمني ومن الشيطان أراه ما خلا

---

(١) إعلام الموقعين ابن القيم الجوزية ١/ ٦٦ .

(٢) المصدر السابق ٦٧- ٨٥ .



الولد والوالد».

فلما أُستخلف عمر رضي الله عنه قال: «إني لأستحي من اللّه أن أردَّ شيئاً قاله أبو بكر»[١].
وعن شريح القاضي قال: قال لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أن أقضي بما استبان لك من قضاء رسول اللّه ﷺ، فإن لم تعلم كل أقضية رسول اللّه ﷺ فاقضِ بما استبان لك من أئمة المهتدين، فإن لم تعلم كل ما قضت به أئمة المهتدين فاجتهد رأيك واستشر أهل العلم والصلاح»[٢].

وعن عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه أنه أُتي برجل تزوج امرأة ولم يفرض لها صداقاً فمات قبل أن يدخل بها فأتوا ابن مسعود فقال: «التمسوا فلعلكم أن تجدوا في ذلك أثرا» فاتوا ابن مسعود رضي الله عنه، فقالوا: قد التمسنا فلم نجد، فقال ابن مسعود رضي الله عنه: «أقول فيها برأيي فإن كان صواباً فمن اللّه: أرى لها مثل صداق نسائها لاوكس ولاشطط، وعليها العدة، ولها الميراث» فقام أبو سنان الاشجعي فقال: «قضى رسول اللّه ﷺ في امرأة منا يقال لها «بروع بنت واشق» بمثل ما قلتَ»، ففرح عبد اللّه بموافقته قضاء رسول اللّه ﷺ[٣].

ومثال هذا كثير من أراء الصحابة كرأيهم في توريث المبتوتة[٤]. في مرض الموت ورأيهم في المحرِم يقع على أهله بفساد حجه ووجوب المضيّ فيه والقضاء والهدي من قابل، ورأيهم في الحائض تطهر قبل طلوع الفجر تصلي المغرب والعشاء وإن طهرت قبل الغروب صلت الظهر والعصر وغير ذلك.

فالرأي المحمود كما قال ابن القيم رحمه الله: يكون بعد طلب علم الواقعة من القرآن فإن لم يجدها في القرآن ففي السنة، فإن لم يجده في السنة فبما قضى به الخلفاء الراشدون أو اثنان منهم أو واحد فإن لم يجدها فبما قاله واحد من الصحابة رضي الله عنهم

---

(١) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ١/ ١٩٩ .
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق ٢٠٢ .
(٤) المطلقة طلاقاً بائناً ببينونة كُبرى.

فإن لم يجده اجتهد رأيه ونظر إلى أقرب ذلك من كتاب اللّه وسنة رسول اللّه ﷺ وأقضية أصحابه، فهذا هو الرأي الذي سوّغه الصحابة واستعملوه وأقرَّ بعضهم بعضاً عليه[١].

وذمّوا الرأي الباطل ومَنعوا من العمل والفتيا والقضاء به وأطلقوا ألسنتهم بذمّه وذم أهلة وقد قسَّمه ابن القيم إلى أنواع:

١- الرأي المخالف للنّص. فهذا فاسد وباطل ولاتحل الفتيابه ولا القضاء. ٢- الكلام في الدين بالخرص والظن مع التفريط والتقصير في معرفة النصوص وفهمها واستنباط الاحكام منها.

٣- الرأي المتضمن تعطيل أسماء الرب، وصفاته، وأفعاله بالمقاييس الباطلة التي وضعها أهل البدع والضلال من الجهمية والمعتزلة والقدرية ومن ضاهاهم.

٤- الرأي الذي أُحدثت به البدع، وغُيّرت به السنن، عمّ به البلاء، وتربى عليه الصغير وهرم به الكبير.

فهذه الأنواع الأربعة في الرأي الذي اتفق سلف الأمة وأئمتها على ذمه وإخراجه من الدين[٢].

قال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ

دين النبي محمد آثار نعم المطيَّة للفتى الأخبار
لا تخدعن عن الحديث وأهله فالرأي ليل والحديث نهار
ولربما جهل الفتى طُرق الهدى والشمس طالعة لها أنوار

والقسم الثالث [٣] «وهو مقصود المُصَنِّف»: وهو الذي سوّغوا العمل والفتيا والقضاء به عند الا ضطرار إليه، حيث لا يوجد منه بُدّ، ولم يُلزموا أحداً العمل به، ولم يُحرموا

(١) أعلام الموقعين ١/ ٨٥ .
(٢) إعلام الموقعين ١/ ٦٧ - ٦٩ .
(٣) وهو الرأي موضع الاشتباه.

مخالفته ولا جعلوا مخالفه مخالِفاً للدين بل غايته أنهم خيروا بين قبوله وردّه فهو بمنزلة ما أُبيح للمضطر من الطعام والشراب الذي يحرم عند عدم الضرورة إليه، كما قال الإمام أحمد: «سألت الشافعي عن القياس» فقال لي: «عند الضرورة». فلم يفرطوا فيه ويفرعوه ويولدوه ويوسعوه كما صنع المتأخرون بحيث اعتاضوا به عن النصوص والآثار.

أما النوع الثالث من الرأي «موضع الاشتباه» فهو الذي يقرب إلى مسائل الاجتهاد، والتي من الأحكام المترتبة عليه:

١- أنه لا يجوز الإنكار على المخالف، فضلًا عن تفسيقه أو تأثيمه أو تكفيره أو تبديعه.

٢- إن كان هناك إنكار فيكون ببيان الحجة وإيضاح المحجة.

٣- كما أنه ليس لمن تبنى رأيا من هذه الآراء إلزام غيره باتباع رأيه فضلًا عن التعصب له.

٤- لا يصح للمجتهد أن يقطع بصواب قوله وخطأ من خالفه فيما إذا كانت المسألة محتملة وخاصة أنها ظنية في الغالب فالخلاف في هذه المسائل وتبني بعض الآراء[١] المختلفة لا تُخرج أصحابها من دائرة الإيمان إذا ردّوا ما تنازعوا فيه إلى اللّٰه ورسوله ﷺ[٢].

***

---

(١) بالضوابط المذكورة سابقاً.

(٢) انظر مجموع الفتاوى «٢٠/ ٢٠٧، ٣٠/ ٧٩/ ٨٠، ٣٥/ ٢٣٢/ ٢٣٣» وإعلام الموقعين (١/ ٤٩، ٣/ ٢٨٨/ ٢٨٩) وشرح الكوكب المنير ٤/ ٤٩٢».



القضية الرابعة والأربعون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللّه:

«وطاعة ولي الأمر المسلم فيما يجتهد فيه لمصالح المسلمين واجبة والنصح له واجب، ولا يجوز مخالفته إلا إذا أمر أمراً صريحاً بمعصية اللّه عزوجل، ويجوز الإفتاء بغير ما يراه إذا كان الدليل بخلاف رأيه، وطاعته في الأمور العامة إذا كان مجتهداً متأولا، واجبة».

الشرح: وهذه فيها أربع مسائل:

الأولى: طاعة[١] ولي الأمر المسلم فيما يجتهد فيه لمصالح المسلمين واجبة.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

فطاعة ولاة الأمور واجبة لأمر اللّه بطاعتهم وقال النبي ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع اللّه ومن عصاني فقد عصى اللّه، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعصِ الأمير فقد عصاني»[٢]. وقوله ﷺ: «من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات، فميتته جاهلية»[٣]. وعن سهل بن عبداللّه التستري: «أطيعوا السلطان في سبعة: ضرب الدراهم والدنانير، والمكاييل والأوزان، والأحكام، والحجج، والجمعة والعيدين، والجهاد»[٤]. الشاهد أنه يجب على الرعية أن يُطيعوا ولاة الأمر طاعة للّه وتعبداً له.

ومن كان لا يطيعهم إلا لما يأخذه من الولاية والمال فإن أعطوه أطاعهم، وإن منعوه عصاهم، فماله في الآخرة من خلاق فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: أنه قال: «ثلاثة لا يكلمهم اللّه يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم:

---

(١) وحقيقة الطاعة امتثال الأمر، كما أن المعصية ضدها وفي مخالفة الأمر والطاعة مأخوذة من أطاع إذا انقاد، والمعصية مأخوذة من عصى: إذا اشتد.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) الجامع القرآني للقرطبي مجلد ٣ الجزء ٥ صفحة ٢٥٩ .

«رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع رجلًا بسلعة بعد العصر فحلف له باللَّه لأخذها بكذا وكذا، فصّدقه وهو غير ذلك، ورجل بايع إماماً لا يبايعه إلا لدنيا، فأن أعطاه منها وفَّى، وإن لم يعطه منها لم يفِ»»(١).

وقد دَّلت نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة على أن ولي الأمر، وإمام الصلاة، والحاكم، وأمير الحرب، وعامل الصدقة يطاع في مواضع الاجتهاد وليس عليه أن يطيع أتباعه في موارد الاجتهاد، بل عليهم طاعته في ذلك وترك رأيهم لرأيه، فإن مصلحة الجماعة والائتلاف ومفسدة الفرقة والاختلاف، أعظم من أمر المسائل الجزئية. ولهذا يجوز للحكام أن ينقض بعضهم حكم بعض والصواب المقطوع به صحة صلاة بعض هؤلاء خلف بعض.

يروى عن أبي يوسف: أنه لما حجّ مع هارون الرشيد، فاحتجم الخليفة وأفتاه «مالك» رَحِمَهُ اللَّهُ بأن لا يتوضأ، وصلى بالناس، فقيل لأبي يوسف: «أصليت خلفه؟» قال: «سبحان اللَّه ! أمير المؤمنين».

يريد بذلك أن ترك الصلاة خلف ولاة الأمور من فعل أهل البدع.

وحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «يُصلون لكم، فإن أصابوا فلكم ولهم، وإن أخطؤوا فلكم وعليهم»(٢).

فهذا نص صحيح صريح في أن الإمام إذا أخطأ فخطؤه عليه، لاعلى المأموم، والمجتهد غايته أنه أخطأ بترك واجبٍ اعتقد أنه ليس بواجب أو فعل محظورٍ اعتقد أنه ليس محظوراً، فإن الإجتماع والائتلاف مما يجب رعايته وترك الخلاف المفضي إلى الفساد(٣).

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه أحمد والبخاري.
(٣) شرح العقيدة الطحاوية لأبن أبي العز الحنفي ٣٧٦ - ٣٧٧ .

الثانية: النصح له واجب:

لحديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: «بابعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم»(١).

ولحديث أبي رقية تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة» ثلاثاً قلنا: «لمن؟» قال: «للّه ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»(٢). ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن اللّه يرضى لكم ثلاثاً: يرضي لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل اللّه جميعاً ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه اللّه أمركم»(٣).

ومن حديث جُبير بن مُطعِم رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في خطبته بالخيف من منى: «ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم: - إخلاص العمل للّه، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين»(٤) ومناصحة أئمة المسلمين وولاة أمورهم تكون بمعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وتذكيرهم به وتنبههم في رفق ولطف ومجانبة الوثوب عليهم، والدعاء لهم بالتوفيق وحث الأغيار على ذلك وأداء الزكاة إليهم وامتثال أمرهم في غير معصية اللّه.

وقد سُئل ابن عباس رضي الله عنهما عن أمر السلطان بالمعروف، ونهيه عن المنكر، فقال: «إن كنت فاعلا ولابد، ففيما بينك وبينه»(٥).

الثالثة: ولا يجوز مخالفته إلا إذا أمر أمراً صريحاً بمعصية اللّه عزّ وجل(٦)

قال أبو جعفر الطحاوي رحمه الله: «ونرى طاعتهم من طاعة اللّه عزوجل فريضة، ما لم

(١) متفق عليه.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم ١٧١٥ .
(٤) أحمد والدارمي وابن أبي عاصم في سننه وصححه الألباني في ظلال الجنة. وفي رواية (ثلاث لا يفل).
(٥) انظر جامع العلوم والحاكم ابن رجب الحنبلي ١/٢١٧ - ٢٢٥ والجواهر اللولؤية محمد الدمياطي ٨٨٠ - ٩١ .
(٦) راجع الفقرة ١٤٢ .



يأمروا بمعصية وندعو لهم بالصلاح والمعافاة»[١]، وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يُؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[٢].

قال رسول اللَّه ﷺ: «من أراد أن ينصح لسطان بأمر فلا يُبد له علانية، ولكن ليأخذ بيده، فيخلوا به، فإن قبل منه فذاك وإلا كان قد أدى الذي عليه له»[٣]، وقال عمر بن الخطاب «أيتها الرعية إن لنا عليكم حقاً، النصيحة بالغيب، والمعاونة على الخير».

وقال سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله: «ليس من منهج السلف التشهير بعيوب الولاة وذكر ذلك على المنابر لأن ذلك يفضي إلى الانقلابات وعدم السمع والطاعة في المعروف ويفضي إلى الخروج الذي يضر ولا ينفع، ولكن الطريقة المتبعة عند السلف النصيحة فيما بينهم وبين السلطان والكتابة إليه أو الاتصال بالعلماء الذين يتصلون به حتى يوجه للخير»[٤].

وقال كذلك العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله: «فإن مخالفة السلطان فيما ليس من ضروريات الدين وإنكار ذلك عليه في المحافل والمساجد والصحف ومواضع الوعظ وغير ذلك ليس من باب النصيحة في شيء فلا تغتر بمن يفعل ذلك وإن كان عن حسن نية فإنه خلاف ما عليه السلف الصالح المهتدى بهم».

الرابعة: ويجوز الإفتاء بغير ما يراه إذا كان الدليل بخلاف رأيه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وولي الأمر إن عرف ما جاء به الكتاب والسنة حكم بين الناس به، وإن لم يعرفه وأمكنه أن يعلم ما يقول هذا وما يقول هذا حتى يعرف الحق حكم به، وإن لم يمكنه لاهذا ولاهذا ترك المسلمين على ماهم عليه كل

(١) متن الطحاوية.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه الحاكم وابن أبي العاصم وصححه الألباني في ظلال الجنة ٢/ ٥٢١- ٥٢٢ .
(٤) المعلوم من واجب العلاقة بين الحاكم والمحكوم ٢٧ - ٢٨ .

يعبد اللّه على حسب اجتهاده، وليس له أن يلزم أحداً بقبول قول غيره وإن كان حاكماً[١] ولقد ضرب لنا عمر مثالًا رائعاً كما جاء في حديث سعيد بن عبدالرحمن بن أبزى، عن أبيه، أن رجلا أتى عمر فقال: «إني اجنبت فلم أجد ماء»، فقال: «لا تُصلِ»، فقال عمار: «ما تذكر، يا أمير المؤمنين ! إذ أنا وأنت في سرية فأجنبنا، فلم نجد ماء، فأما أنت فلم تصل، وأما أنا فتيممت في التراب وصليت»، فقال النبي ﷺ: «إنما كان يكفيك أن تضرب بيديك الأرض ثم تنفخ ثم تمسح بهما وجهك وكفيك» فقال عمر: «اتق اللّه يا عمار»[٢] قال عمار: «يا أمير المؤمنين ! إن شئتَ لما جعل اللّه عليّ من حقكَ لا أُحدث به أحداً» فقال عمر: «نوليك ما توليت»[٣]. فنجد أن عمر رضي الله عنه قد أذن لعمار بأن يحدِّث بهذا الحديث مع مخالفته لما ذهب إليه.

وفي نفس الوقت نجد التزام عمار رضي الله عنه واستعداده بأن لا يحدث بهذا الحديث إن لم يأذن له أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وكان في مسائل النزاع مثل: مسائل الفرائض والطلاق يرى «عمر بن الخطاب رضي الله عنه» رأيا ويرى عليّ بن أبي طالب رأيا، ويرى عبد اللّه بن مسعود رأيا ويرى زيد بن ثابت رأيا، فلم يلزم أحداً أن يأخذ بقوله، بل كل منهم يفتي بقوله وعمر رضي الله عنه إمام الأمة كلها، وأعلمهم، وأدينهم، وأفضلهم[٤].

ولكن إن رأى الحاكم أن هناك مصلحة في عدم الإفتاء إلا من فلان فيجب طاعته، قال سهل بن عبداللّه التستري: «وإذا نهى السلطان العالمِ، أن يفتي من فليس له أن يفتي فإن أفتى فهو عاصٍ وإن كان أميراً جائراً»[٥].

* * *

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣٥/ ٣٨٨ .
(٢) أي فيما ترويه وثبت فلعلك نسيت أو اشتبه عليك.
(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم واللفظ له.
(٤) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣٥/ ٣٨٨ .
(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي مجلد ٣ - ٥/ ٢٥٩ .

القضية الخامسة والأربعون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه الله:

«ولا يجوز للحاكم المسلم أن يحكم في أمر من مصالح المسلمين إلا بعد مشورتهم، ويجب عليه الإذعان لرأيهم إذا اتفقت كلمتهم».

الشرح:

الشورى في اللغة: «تدور بين جَنْي العسل من مواضعه إلى الحُسن والهيئة واللباس والاختبار والتقليب والنظر إلى التبيّن والاستنارة والأمر وطلب الرأي..»(١). والشورى أحد أركان الحكم الأساسية ومن قواعد الشريعة وعزائم الأحكام.

حُكم الشورى: قال ابن عطية: «من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب» وكذلك قال ابن خويز منداد: «واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون، وفيما أَشكل عليهم من أمور الدين ووجوه الكُتَّاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها»(٢).

قال تعالى آمراً نبيه ﷺ بعد غزوة أُحد: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. فإذا كان هذا مما خاطب به الرسول ﷺ وهو المؤيد بالوحي فغيره من باب أولى وأحرى وقال تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٦- ٣٨]. أي يتشاورون في الأمور. فكانت الأنصار قبل قدوم النبي ﷺ إليهم إذا أرادوا أمراً تشاوروا فيه ثم عملوا عليه، فمدح الله المشاورة في الأمور بمدح القوم الذين كانوا يمتثلون ذلك(٣).

---

(١) انظر تاج العروس للزبيدي ومعجم مقاييس اللغة.
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي مجلد ٢ج٤/٢٤٩-٢٥٠.
(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.

أمثلة من تطبيق النبي ﷺ لمبدأ الشورى:

١ - قبل غزوة بدر حين استشار الناس وأخبرهم عن قريش فتكلم أبو بكر ثم عمر ثم المقداد بن عمرو رضي الله عنهم فأحسنوا، فقال الرسول ﷺ خيراً ودعا لهم ثم قال: «أشيروا عليّ أيها الناس»، وكان يريد الأنصار فتكلّم سعد بن معاذ رضي الله عنه.

وكذلك استشارهم أيضاً أين المنزل، حتى أشار عليه الحُبَاب بن المنذر بن عمرو بالتقدم إلى أمام القوم، ويترك مياه بدر خلفه لئلا يستفيد منها المشركون فقبل مشورته[(١)]. وشاورهم كذلك في أُحد بأن يقعد في المدينة والتحصّن فيها «وكانت المدينة قد شبكت بالبنيان فهي كالحصن»[(٢)] أو الخروج لملاقاة جيش قريش، فقال ناس من أصحابه من الأنصار: «يا نبي اللّه! إنا نكره أن نُقاتل في طرق المدينة فانطلق رسول اللّه ﷺ فلبس لأمته[(٣)]، واستجاب للصحابة مع تراجعهم عن رأيهم لرأيه فيما بعد.

فالرسول ﷺ عوَّد الصحابة على التصريح بآرائهم عند مشاورته لهم حتى لو خالفت رأيه، فهو إنما يشاورهم فيما لا نصّ فيه، تعويداً لهم على التفكير في الأمور العامة ومعالجة مشاكل الأمة، فلا فائدة من المشورة إذا لم تُقترن بحرية إبداء الرأي ولم يحدث أن لام الرسول ﷺ أحداً لأنه أخطأ في اجتهاده ولم يوفّق في رأيه وكذلك فإن الأخذ بالشورى ملزم للإمام. وهنا يظهر كذلك الوعي السياسي عند الصحابة رضوان اللّه عليهم، فرغم أن لهم إبداء الرأي إلا أنه ليس لهم فرضه على القائد فحسبهم أن يبينوا رأيهم ويتركوا للقائد حرية اختيار ما يترجح لديه من الآراء[(٤)].

---

(١) ورد بسند حسن إلى عروة ولكنه مرسل إلى الحباب بن المنذر «انظر الإصابة لابن حجر ١/ ٣٠٢ والحاكم في مستدركه ٣/ ٤٢٦-٤٢٧ وقال الذهبي منكر». (واللّه أعلم).

(٢) المصنف لعبد الرزاق الصنعاني ٥/ ٣٦٣.

(٣) اللأمة: الدرع الحصينة.

(٤) السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم العمري ٢/ ٣٨٠.

٣ - غزوة الخندق «الأحزاب» حيث أشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق[١] في المنطقة الشمالية في المدينة.

وكذلك لما رأى النبي ﷺ كثرة الأحزاب، رأى أن يُخفِّض الضغط عن المدينة بأن يصالح «غطفان» وذلك بأن يُعطيهم ثلث ثمار المدينة لعام، لكنه لما شاور سعد بن معاذ زعيم الأوس، وسعد بن عبادة زعيم الخزرج، قالا: (يا رسول اللَّه! أوحيٌ من السماء فالتسليم لأمر اللَّه، أو عن رأيك أو هواك؟ فرأينا تبع هواك ورأيك، فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا، فو اللَّه لقد رأيتنا وإياهم على سواء ما ينالون منّا ثمرة إلا شراء أو قِرى. فقطع رسول اللَّه ﷺ المفاوضة مع الأعراب وكان يمثلهم الحارث الغطفاني قائد بني مرة»[٢].

٤ - واستشار الناس في قصة الإفك، فقد استشار عليّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهما حين استلبث الوحي، واستشارهما في فِراق أهله، ثم استشار بريرة. ثم قام رسول اللَّه ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد اللَّه بن أبي سلول، فقال وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي»[٣].

وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «المستشار مؤتمن»[٤] وسار أصحابه رضي الله عنهم على هذا المنهج «الشورى» وأول ما تشاور فيه الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ الخلافة، وتشاوروا في أهل الردّة، فاستقر رأي أبي بكر رضي الله عنه على القتال. وتشاوروا في الجدّ والميراث وفي حدّ الخمر وغيرها.

وللشورى فوائد وأهداف كثيرة نوجزها فيما يلي[٥]:

---

(١) السيرة لابن هشام ٢/ ٢٢٤، المغازي: للواقدي ٢/ ٤٤٥ بدون إسناد وفتح الباري ٧/ ٣٩٣.
(٢) كشف الأستار ١/ ٣٣٢ والبزار بإسناد حسن ورواه والطبراني.
(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم وابن إسحاق.
(٤) رواه أحمد وأصحاب السنن وصححه الألباني (رحمه الله) صحيح الجامع برقم ٦٥٧٦.
(٥) انظر الشورى وممارستها الإيمانية للدكتور عدنان علي رضا المبخوتي.

أهداف وفوائد الشورى:

١ - **إستجابة وطاعة للّه تعالى.** لأن الشورى أمر من عند اللّه تعالى ونهج طبقه وسار عليه رسول اللّه ﷺ.

٢ - **البحث عن الحق،** والوصول إلى الصواب، أو أقرب النتائج والقرارات إليه قال الحسن: «ما تشاور قوم قط إلا هُدوا لأرشد أمورهم». فإن المشاوِر لا يكاد يخطئ في رأي، وإن أخطأ، أو لم يتم له مطلوبه، فليس بملوم.

٣ - **اكتشاف القدرات والمواهب** ومعادن الرجال، فالشورى محك واختبار لأراء الرجال ومسبار للعقول.

٤ - **جمع القلوب وتآلفها** وتطيبها قال ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: الشورى أُلفة للجماعة. وأذهب لأضغانها وتسميحاً لخواطرها وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث.

٥ - **التدريب والإعداد،** والتربية والبناء من خلال الممارسة الصحيحة لمبدأ الشورى سواء على مستوى الأسرة أو الدولة.

٦ - **جمع الجهود** «بعد جمع القلوب» وتنسيقها وعدم تبعثرها، وبذلك تقوى الأمة ويزداد خيرها إن الشورى تجمع ولا تفرق، وتستفيد ولا تضيع، وتبني ولا تهدم وتتألف ولا تنفر.

٧ - **إغلاق باب من أبواب الإشاعة المؤذية،** والفتنة القاتلة، فإن مبدأ الشورى إذا شمل وساد في حياة الأمة: انهزمت الكلمة المريضة والنجوى الآثمة، واختفت خفافيش الظلام.

٨ - **ربط جميع مستويات الأمة** بعضها ببعض، فيرتبط الرأي العام بالدولة والدولة بالرأي العام، فتظل الأمة صفاً متراصاً واحداً، فلا يجد العدو له ثغرة ينفذ منها.

يقول ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلا يستبد أحد منهم برأيه، في أمر من الأمور المشتركة بينهم، وهذا لا يكون إلا فرعاً عن اجتماعهم، وتوالفهم، وتوادهم، وتحابهم فمن



كمال عقولهم، أنهم إذا أرادوا أمراً من الأمور التي تحتاج إلى إعمال الفكر والرأي اجتمعوا له، وتشاوروا. . حتى إذا تبينت المصلحة انتهزوها. . . . كالرأي في الغزو والجهاد وتولية الموظفين لإمارة، أو قضاء أو غيرها[١].

فإن من له الأمر على الناس إذا جمع أهل الرأي والفضل، وشاورهم في حادثة من الحوادث أطمأنت إليه نفوسهم وأحبوه وعلموا أنه ليس يستبد عليهم، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع».

فبذلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته، لعلمهم بسعيه في مصالح العموم، بخلاف من ليس كذلك، فإنهم لا يكادون يحبونه محبة صادقة، ولا يطيعونه، وإن أطاعوه فطاعة غير تامة[٢]. وبالتالي تتحمل الأمة أمانة الكلمة ونتائجها[٣].

تنظيم الشورى في العصر الحديث:

إن الشريعة الإسلامية لم تنص على كيفية خاصة لتحقيق مبدأ الشورى ومعنى ذلك أنها تركت تنظيم الشورى للأمة الإسلامية على النحو الذي يلائم ظروفها وأحوالها ويحقق مقصود الشورى ومعرفة رأي الأمة.

وهذا في الحقيقة من حسنات الشريعة واحتياطها للمستقبل.

وعلى هذا فيبدو، أن ما يوافق العصر الحاضر أن تقوم الأمة بانتخاب أهل الشورى الذين يشاورهم رئيس الدولة ويعتبرون بنفس الوقت أهل العقد والحل، على أن يكون لرئيس الدولة الحق في مشاورة أهل الاختصاص في موضوع اختصاصهم، وأن يكون له الحق في استفتاء الأمة في المسائل الخطيرة، وأن يوضع نظام مُفصَّل لكل هذه المسائل

---

(١) تيسير الكريم الرحمن لابن سعدي ١٠٥٥ .
(٢) تيسير الكريم الرحمن لابن سعدي ١٧٣ .
(٣) ومع الأسف فكم عانت الأمة (ولا زالت تعاني) من اختفاء هذا المبدأ نسأل اللّه تعالى أن يهدي الأمة حكاماً ومحكومين للأخذ بمبدأ الشورى على مستوى الأفراد والجماعات والشعوب والحكام «آمين».

وغيرها مما له علاقة في موضوع الشورى في ضوء قواعد الشريعة ومبادئها وأحكامها في نظام الحكم.

كما يجب توفير حرية الرأي للمواطنين لإبداء آرائهم في شؤون الدولة في الحدود الشرعية، فلا يجوز مثلا التشهير والطّعن والسباب، وفاحش الكلام والافتراء والتضليل بحجة إبداء الرأي.

فليس من حق أحد أن يشيع الفساد بحجة إبداء الرأي.

والواقع أن مجرد وضع الأنظمة لا يكفي لتحقيق الانتخاب السليم ولا لتحديد حدود المباح الخالص من الغش والدجل وإنما الذي يفيد كثيراً في هذا الباب - مع وضع الأنظمة اللازمة- إشاعة المفاهيم الإسلامية والأخلاق الإسلامية، وتربية الأفراد على معاني العقيدة الإسلامية ومخافة اللّه وتقواه في السِّر والعلن.

فبهذا يقف الإنسان عند الحدود الشرعية ويقوم بواجبه على الوجه المرضي سواء كان هذا الواجب في انتخاب أعضاء مجلس الشورى أو في قيام هؤلاء بإبداء آرائهم أو في إبداء آحاد الناس آراءهم فيما يرونه من وجوه المصلحة[١].

* * *

(١) أصول الدعوة ٢١٦ للدكتور عبد الكريم زيدان رحمه الله.



القضية السادسة والأربعون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«ورجوع الإمام إلى رأي الأغلبية المسلمة سنة ثابتة ومصلحة شرعية».

قوله: «ورجوع الإمام»

الشرح:

تعريف الإمام: أم القوم، وأم بهم: تقدمهم، وهي: الإمامة، والإمام كل من ائتَمَّ به قوم واقتدوا بقوله، أو فِعله من رئيس وغيره، والجمع أئمة، كانوا على الصراط المستقيم أو كانوا ضالين، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١][(١)].

ومقصود الإمامة: هي قيادة الأمة وحُكمها. ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «من صار له قدرة وسلطان يفعل بها مقصود الولاية: فهو من أولي الأمر الذين أمر اللَّه بطاعتهم ما لم يأمروا بمعصية»[(٢)].

قوله: «إلى رأي الأغلبية المسلمة، ثابتة ومصلحة شرعية»

ش: وهذه الجملة تابعة للفقرة السابقة[(٣)] والتي تكلَّمت عن مبدأ الشورى، والمقصود رجوع الإمام إلى رأي الأغلبية بعد مشورتهم «نتائج الشورى» هل هو ملزِمٌ له أم مُعلِم؟

أراء العلماء حول نتائج الشورى:

الرأي الأول: أن الشورى ملزمة للإمام وعليه الانقياد للغالبية منهم[(٤)].

وإليك أدلة هذا الرأي:

١- قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

---

(١) لسان العرب لابن منظور ومفردات غريب القرآن للراغب الأصفهاني.
(٢) منهاج السنة ١/١٤١ لابن تيمية.
(٣) فقرة ١٤٥ .
(٤) وهو ما ذهب إليه المُصَنِّف حفظه اللَّه انظر كتابه الشورى في ظل الحكم الإسلامي.

قالوا: فالعزم هو الأخذ برأي الأكثرية أو هو دال على الأخذ برأي الأكثرية[١] ويدلُّ على ذلك قوله ﷺ في الحديث الذي رواه أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه قال: «سُئل رسول اللَّه ﷺ عن العزم، فقال: مشاورة أهل الرأي ثم اتباعهم»[٢].

وما روي عن خالد بن معدان وعبد الرحمن بن أبي حسين أن رجلا قال: «يا رسول اللَّه! ما العزم؟ قال: أن تشاور ذا رأي ثم تطيعه»[٣] قال الجصاص: «وفي ذكر العزيمة عقيب المشاورة دلالة على أنها صدرت عن المشورة»[٤].

٢- وقال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]. فقالوا: «الآية تفيد الوجوب، ولو كان أخذ الشورى بمجرد الرأي فقط دون التقيد برأي الأكثرية لما كان الأمر شورى حقا»[٥] ولما كان للمشورة فائدة.

٣- وقال ﷺ: «لو أنكما تتفقان - يعني أبابكر وعمر - على أمر واحد ما عصيتكما في مشورة أبدا»[٦]. قالوا: فالحديث دال على رجحان رأي الاثنين على الواحد، ومن ثم رجحان رأي الأكثرية على الأقلية[٧].

٤- واستدلوا بالسنة الفعلية حيث قالوا: «إنه لم يثبت أن النبي ﷺ شاور أصحابه ثم

---

(١) الشورى وأثرها في الديمقراطية ص ١٩٣ .

(٢) عزاه ابن كثير في تفسيره لابن مردويه (٢/ ١٢٩) وكذلك السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٩٠) ولم يذكرا له سندا ولم يحكما عليه.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي كتاب آداب القاضي (١٠/ ١١٢) وأخرجه أبو داود في المراسيل ٢٣٤ تحقيق عبد العزيز السيروان
الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٩٠) وهو مرسل. وهو من أقسام الحديث الضعيف.

(٤) أحكام القرآن ٢/ ٣٣١ .

(٥) الشورى وأثرها في الديمقراطية ص ١٩٣ .

(٦) رواه أحمد عن شهر بن حوشب ٤/ ٢٢٧ . ورواه الطبراني في الأوسط وفيه حبيب ابن أبي حبيب كاتب مالك وهو متروك كما قال الهيثمي في المجمع ٩/ ٥٢ وضعفه الألباني رحمه الله في السلسلة ٣/ ٥٩ برقم ١٠٠٨ .

(٧) الشورى وأثرها في الديمقراطية ص ١٩٦ .



أعرض عن رأي الغالبية»[١].

قال الإمام الغزالي: «إنهم - أهل الحل والعقد - لو اختلفوا في مبدأ الأمور وجب الترجيح بالكثرة»، وقال أيضاً: «والكثرة. . .أقوى مسلك من مسالك الترجيح» وقد يكون والله أعلم بأن من الأسباب كذلك التي دفعت بعض العلماء للذهاب إلى هذا الرأي بالإضافة إلى ما سبق:

أ- هو الممارسة الخاطئة لمبدأ الشورى كالابتلاء ببعض الحكام الظلمة الذين يستبدون ويتعسفون في حكمهم وهو ما يسمى «بالحكم الدكتاتوري» فهم إما لا يستشيرون وإما أنهم يشكلون مجلس شورى صوري ولا يلتزمون بقراراته.

ب- أنه لم ترد «حادثه واحدة تدل على أن الرسول ﷺ تمسَّك برأيه في أمر شورى»[٢].

جـ- التأثر والانبهار بديمقراطيات الغرب الوثنية، فهم يحاولون أن يثبتوا مثل هذا الموضوع حتى يقال لهم: «إن ما عندكم في الديمقراطية هو عندنا في الإسلام، أو في «ديمقراطية الإسلام»كما يحلو لبعضهم أن يسميها !!»

ومن ثم فلا فرق بيننا وبين الغرب !! وشتان بين الشورى في الإسلام والديمقراطية عند الغرب.

الرأي الثاني: أن الشورى مُعلِمة للإمام غير ملزمة له، فعندما يشاور الإمام أهل الرأي ينظر إلى آرائهم، ثم يختار منها ما يظنه أقرب للصواب، سواء وافق ذلك رأي الأغلبية أم لا.

أدلة القائلين بعدم إلزامية الشورى للإمام وإنما هي مُعلِمة:

١- قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾

---

(١) الشورى في ظل نظام الحكم الإسلامي - الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق حفظه الله.
(٢) الشورى في ظل نظام الحكم الإسلامي - الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق حفظه الله.

[آل عمران: ١٥٩]. فالآية قال الطبري فيها: «فإذا صحّ عزمك بتثبيتنا إياك وتسديدنا لك فيما نابك وحزبك من أمر دينك ودنياك فامضِ لما أمرناك به، وافق ذلك آراء أصحابك وما أشاروا به عليك أو خالفها، وتوكل فيما تأتي من أمورك أو تدع وتحاول أو تزاول على اللَّه فثق به في كل ذلك. وارض بقضائه في جميعه دون آراء سائر خلقه ومعونتهم فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وهم الراضون بقضائه، والمستسلمون لحكمة فيهم، وافق ذلك منهم هوى أو خالفه»[١].

٢- واستدلوا أيضاً بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]. فينبغي أن يستخرج من كل منهم رأيه، فأي الآراء أشبه بكتاب اللَّه وسنة رسوله عمل به[٢] لا بقول الأكثرية ولا الأقلية، أما في المسائل المباحة الاجتهادية فنحن ملزمون بطاعتهم بنص الآية «فكيف يأمرنا اللَّه بطاعة الخليفة، وتقضي الشورى بمخالفته !»[٣].

كما استدلوا بحوادث من السيرة لم يلتزم الرسول ﷺ برأي الأغلبية، مثل بعض المواقف في صلح الحديبية[٤] وكذلك الخلفاء الراشدين من بعده، مثل موقف أبي بكر من حروب الرِّدة، وإصرار أبي بكر رضي الله عنه على رأيه، وفي تنفيذه لجيش أسامة وقد كان الصحابة يشيرون عليه بعدم إنفاذه لخطورة الموقف[٥]، ولم يأخذ عثمان رضي الله عنه بمشورة الصحابة الذين أشاروا عليهه باستعمال الشدة مع أصحاب الإشاعات وكذلك أبى على الصحابة أن يدافعوا عنه وقت الفتنة وأمرهم بالخروج عنه حتى قُتِل

(١) تفسير القرطبي ٧/٣٤٦ تحقيق: أحمد شاكر وأخيه. وقد سرد الدكتور عبد الحميد إسماعيل الأنصاري أقوال خمسة عشر مفسرا كلها تدور حول هذا المعنى. الشورى وأثرها في الديمقراطية صـ١١١- ١١٦ .
(٢) السياسة الشرعية ص ١٥٨ .
(٣) الشورى في الإسلام د. حسن هويدي ص ١٩ .
(٤) رواه البخاري في أكثر من موضع من صحيحه ومنها المغازي الباب ٣٥ .
(٥) البخاري كتاب الزكاة الباب ١ ومسلم كتاب الإيمان ح/ ٣٢

رضي الله عنه [١]، وكذلك عليّ رضي الله عنه فقد سارع بعد توليه الخلافة إلى عزل ولاة الأمصار ولم يسمع لمشورة الصحابة بأن لا يتعجل بنزعهم حتى يتمّ له أمره، ويستقر حكمه وكذلك بالخروج إلى العراق [٢].

٣- ومن الأدلة أيضاً أن الخليفة مكتمل الشروط ويكون في الغالب مجتهداً والمجتهد يحرم عليه التقليد، فإن رأى رأياً صواباً وخالفه فيه الأكثرية من أهل الشورى فهل يجوز له شرعاً أن يرجع عن رأيه الصواب فيقلّدهم في رأيهم الذي يراه خطأ؟ [٣] كما أن الإمام مسؤول مسؤولية كاملة عن أعماله فلا يجوز إلزامه بتنفيذ رأي غيره إن لم يقتنع بصوابه لأن كون الإنسان مسؤولا عن عمله يعني أنه يعمله باختياره ورأيه، لا أن يعمل وينفذ رأي غيره على وجه الإلزام وهو كاره له غير مقتنع به، ثم يُسأل هو عن هذا الرأي ونتائجه، قال شارح الطحاوية: «وقد

دلَّت نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة على أن: ولي الأمر وإمام الصلاة، والحاكم وأمير الحرب، وعامل الصدقة يطاع في مواضع الاجتهاد، وليس عليه أن يطيع أتباعه في موارد الاجتهاد، بل عليهم طاعته في ذلك وترك رأيهم لرأيه» [٤] كما بيَّن إمام الحرمين: «أن الإمام متبوع من قِبَل الأمة وليس تابعاً لها لأن كون الإمام تابعاً للأمة يناقض ويعارض منصب الإمامة، فإن الإمام هو الذي يأتم الناس به ويتابعونه، وليس هو الذي يأتم بالناس ويتابعهم»، وهذا يرد بقوة على أولئك الذين ينادون أو يزعمون أن إمام المسلمين ينبغي أن يكون تابعاً في مواضع الاجتهاد لأغلبية آراء الناس أو من يستشيرهم ناسبين ذلك إلى أدلة الشريعة [٥].

٤- إن الكثرة ليست مناطا للصواب ولا دليلا قاطعاً أو راجحاً عليه، إذ إن صواب

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٣٨٩ .
(٢) مبدأ الشورى في الإسلام للمليجي ص ١٢١٠- ١٢٦ .
(٣) الشورى في الإسلام ص ٢٢ .
(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٦٢ ط ثالثة.
(٥) الطريق إلى الخلافة اختصار غياث الأمم في التياث الظلم لإمام الحرمين أبي المعالي لجويني. اختصره وعلق عليه أبو عمار محمد بن حامد الحسيني ٣٥ .

الرأي أو خطأه يستمدان من ذات الرأي لا من كثرة أو قلة القائلين[١] فالإسلام لا يجعل كثرة العدد ميزاناً للحق والباطل.

الرأي الثالث: أن الأمر متروك للأمة فهي: التي تقرر ما تراه مناسباً، فإن شاءت جعلت الأمر للأكثرية، وإن شاءت جعلت الاختيار للإمام أي «توزيع الصلاحيات».

وذلك لأن المسألة اجتهادية لا فرض فيها، بل إن الشورى كلها بصفتها قاعدة عامة للحكم ليس فيها تفصيل، فيُترك أمر تطبيقها تفصيلًا للأمة بحسب الظروف[٢].

الرأي الرابع: لا يوجد حكم عام لهذه المسألة: إن من الخطأ إصدار حكم عام على مسائل مختلفة مثل هذه ونقول: إن الشورى ملزمة للإمام أو غير ملزمة على الإطلاق، خاصة أن الآراء وأدلتها ليس منها شيء ظاهر الدلالة صريح، فالآية الكريمة ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ليس فيها إلا توجيه بالاعتماد على اللّٰه عند العزيمة على الرشد، وأما ما هو المعزوم عليه أهو الأكثرية، أم رأي المستشير؟ فهذا محتمل وإن وجد ظاهر الدلالة صريحاً، وجدناه غير صحيح كحديث «الحزم أن تشاور ذا رأي ثم تطيعه»، وحديثه لأبي بكر وعمر «لو اتفقتما على رأي لم أخالفكما»[٣].

وكذلك دعوى: أنه لم ترد حادثة واحدة تدل على أن الرسولﷺ تمسك برأيه في أمور الشورى. فهذه دعوى تحتاج إلى البرهان، ومن يستقرئ سيرة النبي ﷺ يجد فيها ألوانا شتى من الاستشارات، فقد يستشير أفراداً، وقد يستشير مجموعات، وربما يستشير الصحابة كلهم، وفي أكثرها يوافق الناس وقد يكون في الأخذ برأيهم لأنه رأى ذلك، لا لأن الأخذ برأي الأكثرية ملزم له، وفي بعضها كان يخالفهم لنزول الوحي عليه بذلك، وفي بعض منها ربما خالفهم وليس ثمة وحي إلا أن يكون

(١) أصول الدعوة د. عبدالكريم زيدان ص ٢١٣ .
(٢) دراسة في منهاج الإسلام السياسي ٦٨١ للشيخ سعدي أبو حبيب وينظر مبادئ نظام الحكم في الإسلام ٢٤١- ٢٥٠ .
(٣) سبق تخريجه.



إلهاماً لم يصرح به النبي ﷺ كما في صلح الحديبية[١].

وإليك تفصيل هذا الرأي باختصار:

١- **إذا كان في الأمر المطروح للمشاورة حكم شرعي**، ولم يعرف الإمام حكمه فحينئذ يجب عليه المشاورة فيه وسؤال أهل العلم حتى يتبين له الدليل فيحكم به وإذا اتضح له الدليل وجب عليه الالتزام به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

أما إذا لم يكن في المسألة دليل صريح فإنه في هذه الحال يأخذ من كلٍّ رأيه، ثم يعرضها على الكتاب والسنة، فما كان أشبه بهما أخذ به،ووجب على الناس طاعته، كما كان الخلفاء ﭫ يفعلونه، مثل ما حصل في ميراث الجدة وإملاص المرأة. وهو في هذه الحال غير ملزم برأي معين من هذه الآراء سواء عليه الأكثر أم الأقل.

٢- **أما الأحكام والقضايا الاجتهادية التي لم يرد فيها دليل** ولا شبهة دليل، وإنما هي من مسائل الاجتهاد المفوضة، ففي هذه المسألة على الإمام أن يُعْمِل رأيه، ثم يعزم على ما يؤديه إليه اجتهاده، وينبغي له في مثل هذه الحال أن يستنير بآراء العلماء وذوي الخبرة ويستشيرهم. وفي مثل هذه الحال لا يُلْزَم برأي معين من آراء المستشارين قَلُّوا أو كَثُروا، بل يكون اجتهاده الذي عزم عليه واجب الطاعة لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]. وهذا لا يكون إلا في الأمور التي لا نصّ فيها.

٣- **أما القضايا الفنية التي يختص بمعرفتها ذوو الخبرات** والاختصاصات فهذه ينبغي للإمام ألا يشاور فيها إلا ذوي الاختصاص، وأن يتّبع الصواب ولو من واحد، إذا اتضح له أو ترجح عنده أن هذا هو الصواب، ولا يُعَرِّج على الكثرة والقلة، وذلك كما فعل النبي ﷺ يوم بدر عندما أراد النزول فأخبره صاحب الخبرة الاستراتيجية العسكرية - بلغة العصر - الحباب بن المنذر ﵁ بالمكان المناسب للنزول، فوافقه النبي ﷺ

(١) أهل الحل والعقد ١٤٦ للأستاذ الدكتور عبد الله بن إبراهيم الطريقي.



على رأيه ونحوه قصة سليمان الفارسي وحفر الخندق.

٤- **أما ما سوى ذلك من الأمور العامة**، فإنه ينبغي للإمام أن يستشير فيها ويكثر من ذلك كما دلَّت على ذلك النصوص السابقة، ولا بأس أن يجعل المرجِّح هو رأي الأغلبية كما فعل النبي ﷺ يوم أُحُد حينما ألحَّ عليه بالخروج الصحابة الذين لم يشاركوا في بدر طلبا للشهادة، وقد كان يرى عدم الخروج هو وبعض كبار الصحابة وكما حصل عند حصاره للطائف لما همَّ بالرجوع والانسحاب فرأى القوم يكرهونه فتركهم حتى اتضح له منهم الرغبة في الانسحاب، فضحك منهم النبي ﷺ وأمر بالرحيل[١].

أما إذا أصرَّ على رأيه فعلى الرعية الطاعة والانقياد له في غير معصية، وقد يقال فما الفائدة إذاً من الشورى؟ والجواب: أن فائدة الشورى تظهر في ظهور الرأي الصواب، والمظنون في الخليفة مكتمل الشروط أن يأخذ بالصواب وما فيه مصلحة لا بهواه وشهوته، وليس معنى وجود كثير من الحوادث في السيرة وفيها يرجع الإمام عن رأيه ويأخذ برأي المستشارين ما يدل على إلزاميتها له، فهذا لا حجة فيه بل المفروض في الخليفة وغيره من أهل النصيحة أن يتَّبع الحق حيثما ظهر وذلك كثير في تاريخنا، وهو من ثمرات الشورى الطيبة فقد يرجع عن رأيه إلى رأيهم، وقد يرجعون عن رأيهم إلى رأيه، وإلا فلا فائدة للشورى أصلًا ويكون تشريعاً عبثا، لذلك فتلك الحوادث لا تدل على إلزامية الشورى للإمام واللّه أعلم[٢].

***

(١) رواه مسلم ومر تخريجه ص ٤١٤ .

(٢) انظر النظرية السياسية للدكتور محمد ضياء الدين الريس ٣٦٨، ومنهج السنة في العلاقة بين الحاكم والمحكوم للدكتور يحي إسماعيل ٣٦٠-٣٦٤ .



القضية السابعة والأربعون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«والعبادات على التحريم، ولا يجوز إحداث عبادة لم يشرعها اللَّه سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ، وكل عمل ليس عليه أمر الرسول ﷺ فهو رد».

الشرح: والعبادات: جمع عبادة.

العبادة في اللغة: التذلل والخضوع، يُقال طريق مُعبَّد أي مذّلل.

العبادة في الشرع: هي طاعة اللَّه، بامتثال ما أمر اللَّه به على ألسنة رُسُله **أو:**

هي اسم جامع لكل ما يحبه اللَّه ويرضاه من الأعمال والأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة.

أركان العبادة: ولا بد للعبادة من ركنين أساسيين:

الأول: نهاية الخضوع والذل. الثاني: غاية المحبة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «... لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب فهي تتضمن غاية الذل للَّه تعالى بغاية المحبة له. فمن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة اللَّه، بل يجب أن يكون اللَّه أحبّ إلى العبد من كل شيء، وأن اللَّه أعظم عنده من كل شيء بل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا اللَّه. وما أُحب لغير اللَّه فمحبته فاسدة. وما عُظّم لغير اللَّه فتعظيمه باطل. قال اللَّه تعالى ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]»[١].

(١) العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية.



فالأصل في العبادة التحريم كما قال تعالى:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن تصرفات العباد من الأقوال والأفعال نوعان:

عبادات: يصلح بها دينهم، **وعادات**: يحتاجون إليها في دنياهم».

فباستقراء أصول الشريعة نعلم أن العبادات: التي أوجبها اللَّه أو أحبها، لا يثبت الأمر بها إلا بالشرع وأما العادات فهي في ما اعتاده الناس في دنياهم مما يحتاجون إليه والأصل فيه عدم الحظر فلا يُحظر منه إلا ما حظره اللَّه سبحانه. وذلك لأن الأمر والنهي هما شرع اللَّه.

والعبادة لا بد أن تكون مأموراً بها. فما لم يثبت أنه مأمور به كيف يحكم عليه أنه عبادة؟! وما لم يثبت من العبادات أنه منهي عنه كيف يحكم على أنه محظور؟!

ولهذا كان أحمد وغيره من فقهاء أهل الحديث يقولون: «إن الأصل في العبادات التوقيف، فلا يشرع منها إلا ما شرعه اللَّه تعالى»، وإلا دخلنا في معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

ولهذا ذمَّ اللَّه المشركين الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به اللَّه وحرَّموا ما لم يُحرمه. قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦-١٣٧] فذكر ما ابتدعوه من العبادات ومن التحريمات.

وكذلك ما جاء من حديث عياض بن حمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «قال اللَّه تعالى: إني خلقتُ عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين. وحرَّمت عليهم ما أحللتُ



لهم. وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أُنزل به سلطانا»(١).

قوله: «وكل عمل ليس عليه أمر الرسول ﷺ فهو رد»

ش: يشير لحديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»(٢). فهذا الحديث ضابط لعمل الظاهر، كما أن حديث «إنما الأعمال بالنيات» ضابط لعمل الباطن.

قال تعالى آمراً بمتابعة رسول الله ﷺ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، ويقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وفي المقابل ينهى عن مخالفته وأن مخالفة الرسول ﷺ سبب للفتنة والعذاب، فيقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] وعن جابر بن عبد اللّه رضي الله عنه قال: إن النبي ﷺ كان يقول إذا خطب: «أما بعد، فإن خير الحديث كتاب اللّه، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة»(٣).

تعريف البدعة لغة: هي الشيء المخترع على غير مثال سابق(٤).

البدعة اصطلاحاً: «هي طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشريعة، يُقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد للّه سبحانه»(٥).

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه أحمد ومسلم.
(٣) رواه مسلم ج٢ص٥٩٢ حديث رقم ٨٦٧ .
(٤) لسان العرب لابن منظور ٩/٣٥١-٣٥٢ .
(٥) الاعتصام للإمام الشاطبي ١/٣٧ .

ذمُّ البدع والنهي عنها:

عن العرباض بن سارية ﵁ قال: «صلّى بنا رسول اللّه ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب» فقال قائل: «يا رسول اللّه! كأنها موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟» قال: «أوصيكم بتقوى اللّه والسمع والطاعة، وإن عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي، وسُنة الخلفاء الراشدين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»(١).

تقسيم البدعة إلى بدعة حقيقية، وبدعة إضافية:

أ - البدعة الحقيقية: هي التي لم يدل عليها دليل شرعي لا من الكتاب ولا سُنة ولا إجماع، ولا استدلال معتبر عند أهل العلم، لا في الجملة ولا التفصيل ومن أمثلتها تحريم الحلال، كمن يُحرِّم على نفسه نوعاً معيناً من الطعام أو اللباس(٢).

كما جاء من حديث عبد اللّه بن مسعود ﵁ قال: «كنا نغزو مع النبي ﷺ، وليس معنا نساء»، فقلنا: «ألا نختصي؟ فنهانا عن ذلك»(٣).

وكذلك حديث قيس بن أبي حازم قال: «دخل أبو بكر على امرأة من «أحمس» يقال لها: زينب، فرأها لا تتكلم، فقال: ما لها لا تتكلم؟»

قالوا: «حجَّت مصمته»فقال لها: «تكلمي فإن هذا لا يحلّ، هذا عمل الجاهلية» فتكلمت، فقالت: «من أنت؟» قال: «امرؤ من المهاجرين»(٤).

---

(١) رواه أحمد ٤/١٢٦ وأبو داود ٥/١٣ والترمذي وقال حسن صحيح وابن ماجة والدارمي وصحح سنده الألباني ﵀.

(٢) انظر الاعتصام للشاطبي ١/٢٨٦.

(٣) رواه البخاري فتح الباري ٨/٢٧٦ رقم الحديث ٤٦١.

(٤) رواه البخاري فتح الباري ٧/١٤٧ رقم الحديث ٣٨٣٤.

ب - **البدعة الإضافية**: ولها جانبان:

الأول: ما يكون لها من الأدلة متعلق فلا تكون من تلك الجهة بدعة.

الثاني: ليس لها متعلق إلا مثل ما للبدعة الحقيقية.

ومن أمثلتها: لو قال شخص: «أنا أصوم الدهر فلا أُفطر»، فالصوم من حيث هو مشروع، ومن حيث الوصال به إلى كل الدهر بدعة. وكذلك الذِكر بكيفية أو هيئة معينة كالاجتماع على صوت واحد.

من مضار البدعة وأثارها على صاحبها:

١- **عدم قبول عمل المبتدع**: لان من شروط قبول العمل: الإخلاص والمتابعة. والمبتدع أخلّ بشرط الإتباع.

ويقصد بعدم القبول:

أ- عدم قبول أعمال المبتدع مطلقاً سواء منها ما خالف السنة أو وافقها كما جاء من حديث ابن عمر في القدرية حيث قال لمن سأل عنهم فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برأء مني. والذي يحلف به عبد اللّه بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه، ما قَبِل اللّه منه حتى يؤمن بالقدر. ثم استشهد بحديث جبريل(١).

ب - أو يكون المراد بعدم قبول أعمالهم أي ما ابتدعوه خاصة دون غيره لحديث: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد»(٢).

٢- **عدم توفيق المبتدع للتوبة**: كما جاء من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن اللّه حجز - أو قال حجب - التوبة عن كل صاحب بدعة»(٣)(٤).

---

(١) رواه مسلم.
(٢) متفق عليه.
(٣) كتاب السنة لأبن أبي عاصم ١/ ١٢قال الألباني صحيح بشواهده.
(٤) ويفصَّل ابن تيمية هذا الكلام فيقول: «ومعنى قوله إن البدعة لا يتاب منها: ان المبتدع الذي =

٣- **الطرد عن حوض النبي ﷺ** فعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إني فرطكم على الحوض، من مرَّ بي شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدا، وليردّن عليَّ أقوام اعرفهم ويعرفوني، ثم يُحال بيني وبينهم»، فأقول: «إنهم مني»، فيقال: «إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»، فأقول: «سُحقاُ، سحقاً لمن بدَّل بعدي»[(١)].

لا يُبدَّع أحد من أهل السُنّة أو يحكم بخروجه من دائرة أهل السُنّة بمجرد خطئه في الاجتهاد:

لا يُحكم على أحد من علماء أهل السنة ونظّارهم أو حكامهم بأنه مبتدع أو خارج عن أهل السنة والجماعة، بسبب خطئه في الاجتهاد سواء كان ذلك الاجتهاد في مسألة من مسائل العقيدة والتوحيد، أو في مسائل الحلال والحرام مما كثر فيه الاختلاف بين علماء الأمة. لأنه إنما قصد الحق وطلبه، وهذا الذي أداه إليه اجتهاده فهو معذور في ذلك بل مأجور على اجتهاده،فكيف يقال بتبديعه أو تفسيقه؟.

وقد دلّت الأدلة من الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة على هذه المسألة وأن المسلم يعذر بجهله وخطئه ونسيانه، وأنه غير مؤاخذ بكل ذلك إذا قصد الخير وطلّب الحق، وكذلك أقوال السلف وأفعالهم، دلّت على عذر بعضهم بعضاً في اجتهاداتهم، ولم يُبدَّع أو يفسَّق بعضهم بعضاً مع اختلافهم في مسائل عظيمة فكانوا لا يذكرون بعضهم إلا بخير مع استغفار كل واحد منهم لأخيه وهذا من عظيم فقههم رضوان اللّه عليهم أجمعين.

فإذا تقرر هذا الأصل العظيم، وهو أن العالم إذا اجتهد فأخطأ أنه معذور في خطئه مأجور على اجتهاده، سواء كان ذلك الاجتهاد في مسألة علمية كمسائل التوحيد والاعتقاد أو مسالة كمسائل الحلال والحرام وجب الوقوف عنده والالتزام به وتطبيقه

= يتخذ دينا لم يشرعه اللّه ولا رسوله، قد زُيِّن له سوء عمله فرآه حسنا فهو لا يتوب مادام يراه حسنا، لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيء ليتوب منه، أو بأنه ترك حسنا مأموراً به أمر إيجاب أو استحباب ليتوب ويفعله، فما دام برى فعله حسنا وهو سيء في نفس الأمر فإنه لا يتوب» الفتاوى ١٠/ ٩ .

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم.



في حياتنا اليوم، وعدم التعرّض لأحد من العلماء أو طلاب العلم المعروفين بسلامة العقيدة والمتابعة لهدي سلف الأمة الصالح بشيء من التأثيم أو التفسيق أو التبديع بمجرد قول أداهم إليه اجتهادهم في مسألة شرعية، ما دام أن الخلاف في تلك المسألة سائغ والاجتهاد فيها مقبول.

فإن المتابعة في هذا الباب وتوظيفه على ما أراد اللّه ورسوله عزيزة.

وذلك لكثرة الصوارف النفسية المصاحبة لتحقيقه، وعظم تلبيس الشيطان على كثير من أهل العلم فيه، والمعصوم في ذلك من عصمه اللّه ووقاه شر نفسه وشر الشيطان وشركه. ووفقه للإخلاص وحسن المتابعة في كل ما يأتي ويذر(١).

آثار البدعة على الدِّين والمجتمع:

١- إماتة السنة:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ما يأتي على الناس من عام أحدثوا فيه بدعة وأماتوا فيه سنة، حتى تحيا البدعة وتموت السنن»(٢).

٢- التفرّق والاختلاف:

وما ينتج عنها من العداوة والبغضاء. وقد نهانا اللّه عن التفرق والاختلاف، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

٣- الفتن:

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥].

---

(١) موقف أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع د. ابراهيم بن عامر الرحيلي ١/ ٦١-٧٢ (باختصار).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ٣١٩.

القضية الثامنة والأربعون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«والأصل في الأشياء والمعاملات الإباحة إلا ما جاء النص بتحريمه».

الشرح:

أولًا: التعريف: «الإباحة» أو المباح ويُسمَّى الحلال: وهو ما خيّر الشارع المكلَّف بين فعله وتركه، ولا مدح ولا ذمّ على الفعل والترك(١).

ثانيا: ألفاظ الإباحة، وتُعرف بأمور:

أ- النّص من الشارع بالحِل، كقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ﴾ [المائدة: ٥].

ب- النّص من الشارع على نفي الإثم كقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

ج- النّص من الشارع على نفي الجناح كقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

د- النص من الشارع على نفي الحرج كقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾ [النور: ٦١]

هـ- التعبير بصيغة الأمر مع وجود قرينة صارفة من الوجوب إلى الإباحة كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ﴾ [المائدة: ٢].

---

(١) انظر منهاج السنة النبوية ٤/ ١٧٣ ابن تيمية، روضة الناظر ١/ ١١٦، ابن قدامه والشاطبي ١/ ٤٠، الوجيز في أصول الفقه لعبد الكريم زيدان ٤٧ .



ثالثاً: أقسام الإباحة

الإباحة قسمان:

أ- إباحة شرعية: «وهي كما سبق، ما كان بالنّصوص الشرعية».

ب- إباحة عقلية: وهي ما تُسمى اصطلاحاً «بالبراءة الأصلية»أو الاستصحاب.

الاستصحاب لغة: «طلب المصاحبة واستمرارها»[١].

الاستصحاب اصطلاحاً: «استدامة إثبات ما كان ثابتاً، أو نفي ما كان منفياً»[٢].
أو هو: بقاء الأمر على ما كان عليه، ما لم يوجد ما يغيره[٣].

وبالاستصحاب تقررت جملة قواعد ومبادئ قامت وتفرعت عليه ومنها:

أولًا: أن الأصل في الأشياء الإباحة، وقد تفرَّع عن هذا الأصل بأن العقود والتصرفات، وشتى المعاملات بين الناس، حكمها الإباحة، إلا إذا وُجد النّص بالتحريم. قال ابن عباس رضي الله عنه «ما سُكت عنه فهو مما عفا عنه»[٤]، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والعادات الأصل فيها العفو، فلا يُحضر منها إلا ما حرَّمه...»[٥].

ثانياً: الأصل براءة الذَّمة، أو الأصل في الذِّمة البراءة: ومنه أن المتهم بريء حتى تثبت إدانته.

والخلاصة: أن الأشياء النافعة من طعام أو شراب أو حيوان أو نبات أو جماد إذا لم يوجد دليل على تحريمها، فهي مباحة، لأن الإباحة هي الحكم الأصلي لموجودات الكون، وإنما يحرم ما يحرم منها بدليل من الشارع لمضرتها.

---

(١) القاموس المحيط ١/ ٩٥ .
(٢) اعلام الموقعين ١/ ٣٣٩ ابن القيم.
(٣) ارشاد الفحول للشوكاني ٢٠ .
(٤) رواه أبو داود ٣/ ٣٥٤ رقم ٣٨٠٠ . والحاكم في مستدركه ٤/ ١١٥ وصححه ووافقه الذهبي.
(٥) مجموع الفتاوى ٢٩/ ١٧ وانظر ٤/ ١٩٦ .

والدليل على الحكم الأصلي للأشياء النافعة هو الإباحة:

قوله تعالى ممتناً على عباده: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩][(١)].

فقد دلَّت آيات من كتاب اللَّه على أن استصحاب العدم الأصلي حجة على عدم المؤاخذة بالفعل، حتى يرد دليل ناقل عن العدم الأصلي، من ذلك: أنهم كانوا يتعاملون بالربا. فلما نزل تحريم الربا، خافوا من أكل الأموال الحاصلة منه بأيديهم قبل تحريم الربا، فأنزل اللَّه في ذلك: «فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى اللَّه» فدلّ على أن ما تعاملوا به من الربا، على حكم البراءة الأصلية فبل نزول التحريم لا مؤاخذة عليهم به.. ونظير ذلك قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ﴾، قبل التحريم على حكم البراءة الأصلية، فهو عفو ونظائر هذا في القرآن الكريم كثيرة ومن أصرح الآيات في ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ﴾ [التوبة: ١١٥].

فإنهم لما استغفروا لموتاهم المشركين فنزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِي قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣]. ندموا على استغفارهم للمشركين، فأنزل اللَّه الآية مبينة أن ما فعلوه من الاستغفار لهم على حكم البراءة الأصلية قبل نزول التحريم، لا مؤاخذة عليهم به حتى يحصل بيان ما ينهى عنه[(٢)].

* * *

(١) الوجيز في أصول الفقه لعبد الكريم ذيدان ٢٦٨ .

(٢) مذكرة أصول الفقه للعلامة الشيخ محمد الأمين المختار الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ على روضة الناظر لأبن قدامة ١٩ .



القضية التاسعة والأربعون بعد المائة: قال المُصنِّف حفظه اللَّه:

«وإثم من حرَّم ما أحلّ اللَّه، كإثم من أحلّ ما حرَّم اللَّه».

الشرح:

وذلك لأن التشريع حق خالص لله وحده فهو من خصائص الربوبية

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] فبعد أن بيَّن اللَّه تعالى أنه الخالق للسموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على عرشه العظيم وجاء بنعمة الليل المظلم والنهار المضيء وسخر الشمس والقمر، قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ أي: كما أنه الخالق وحده الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويها، وسفليها أعيانها وأوصافها وأفعالها، فكذلك له الأمر وحده المتضمن للشرائع والنبوات.

فالخلق: يتضمن أحكامه الكونية القدرية، والأمر: يتضمن أحكامه الدينية الشرعية، ومن ثم أحكام الجزاء(١).

وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]. من الشرك والبدع وتحريم ما أحلّ اللَّه، وتحليل ما حرمّ اللَّه ونحو ذلك مما اقتضته أهواؤهم، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

فقد نهى اللَّه تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرموا بمجرد ما وصفوه واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك.

---

(١) يسير الكريم الرحمن لابن سعدي ٣٧٠ (بتصرف).

ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلل شيئاً مما حرَّم اللَّه، أو حرَّم شيئاً مما أباح اللَّه بمجرد رأيه وتشهيه. ثم توعدهم الله بقوله «لا يفلحون» لا في الدنيا ولا في الآخرة وكقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]. و قال تعالى: منكراً على من تعنَّت وحرّم ما أحلّ اللَّه من الطيبات ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢] أي: من هذا الذي يقدم على تحريم ما أنعم اللَّه على العباد ومن ذا الذي يُضيِّق عليهم ما وسعه اللَّه من أنواع اللباس على اختلاف أصناف الطيبات من الرزق، من مأكل ومشرب؟!! فعن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبر فقال رجل: «إن الرجل يُحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة»، قال: «إن اللَّه جميل يحب الجمال الكِبر بطر الحق وغمط الناس»(١). وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧]. فقد نهى اللَّه عباده المؤمنين أن يُحرِّموا على أنفسهم الطيبات من المطاعم والمشارب فإنها نِعم من نِعم اللَّه تعالى فاحمدوه، واشكروه، ولا تردوا نعمته بكفرها، أو عدم قبولها، أو اعتقاد تحريمها.

فتجمعوا بذلك بين قول الكذب على اللَّه، وكفر النعمة، واعتقاد الحلال الطيب حراما خبيثاً، فإن هذا من الاعتداء.

وقد عاتب اللَّه تعالى رسوله محمد ﷺ حين حرَّم على نفسه سريته (مارية) أو شرب العسل، مراعاة لخاطر بعض زوجاته فأنزل اللَّه تعالى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم: ١]. وهذا تصريح بأن اللَّه قد غفر لرسوله ﷺ، ورفع عنه اللّوم، ورحمه وصار ذلك التحريم الصادر منه سببا لشرع حكم عام لجميع الأمة.

---

(١) رواه مسلم.



فإذا كان هذا موقف الشرع مع من حرم شيئاً على نفسه ولم ينسبه إلى اللَّه فما بالك لو حرّم شيئاً على الأمة ونسبه إلى اللَّه ودينه وشرعه؟ أو جعل هذا الحق الذي هو خالص للَّه، جعل معه شريكاً من العلماء؟ كما جاء في حديث عدي بن حاتم الطائي(١) الذي دخل على رسول اللَّه ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة وهو يقرأ هـذه الآيـة: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]، قال: فقلت: «إنهم لم يعبدوهم»، فقال: «بلى إنهم حرّموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم»(٢).

وقال عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنه: «إنهم اتبعوهم فيما حلّلوا وحرّموا» وقال السدِّي: «استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب اللَّه وراء ظهورهم»(٣).

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في قوله تعالى: « ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي مشاركين للَّه عزَّ وجلَّ في التشريع ؛ لأنهم يُحلون ما حرم اللَّه، فيحله هؤلاء الأتباع، ويحرِّمون ما أحلّ اللَّه، فيحرِّمه الأتباع»(٤)(٥).

---

(١) الذي فرَّ إلى الشام عندما بلغته دعوة الرسول ﷺ. وكان عدي قد تنَّصر وبعد أن منَّ الرسول ﷺ على أخته بالفكاك بعد أسرها فرغبته في الإسلام وفي القدوم على رسول اللَّه ﷺ.

(٢) رواه أحمد والترمذي وغيرهما وحسنه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب الإيمان ص٦٤ .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير/ ٤٥٩-٤٦٠ .

(٤) القول المفيد على كتاب التوحيد ٢/ ٢٦٠ .

(٥) واعلم أن اتبّاع العلماء أو الأمراء في تحليل ما حرّم اللَّه أو العكس ينقسم إلى ثلاثة أقسام:
الأول: أن يتابعهم في ذلك راضياً بقولهم مقدماً له ساخطاً لحكم اللَّه، فهو كافر ؛ لأنه كره ما أنزل اللَّه فأحبط اللَّه عمله ولا تحبط الأعمال إلا بالكفر، فكل من كره ما أنزل اللَّه فهو كافر.
الثاني: أن يتبعهم في ذلك راضياً في حكم اللَّه وعالماً بأنه أمثل وأصلح للعباد والبلاد ولكن لهوى في نفسه اختاره كأن يريد مثلًا وظيفة، فهذا لا يكفر ولكنه فاسق.
الثالث: أن يتبعهم جاهلًا فيظن أن ذلك حكم اللَّه فينقسم إلى قسمين:
أ- أن يمكنه أن يعرف الحق بنفسه فهو مفرِّط أو مقصِّر فهو آثم ؛ لأن اللَّه أمر بسؤال أهل العلم عند عدم العلم.
ب- أن لا يكون عالماً ولا يمكنه التعلم فيتابعهم تقليداً ويظن أن هذا هو الحق فهذا لاشيء عليه =

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في معنى هذه الآية: «هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون اللّه حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم اللّه» وتحريم ما أحل اللّه يكونون على وجهين:

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدّلوا دين اللّه فيتبعونهم على التبديل فيعتقدون تحليل ما حرَّم اللّه وتحريم ما أحلّ اللّه اتباعاً لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرُسل فهذا كفر وقد جعله اللّه و رسوله شركاً وإن لم يكونوا يُصلون لهم ويسجدون لهم فكان من اتبع غيره في خلاف الدين واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله اللّه ورسوله مشركاً مثل هؤلاء.

الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتاً لكنهم أطاعوهم في معصية اللّه كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي. فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا طاعة لأحد في معصية اللّه إنما الطاعة في المعروف»[(١)][(٢)]. وبدأ بتحريم الحلال، لأنه أعظم من تحليل الحرام وكلاهم محرم.

وكثير من ذوي الغيرة من الناس تجدهم يميلون إلى تحريم ما أحلّ اللّه أكثر من تحليل الحرام، وكلاهم خطأ.

ومع ذلك فإن تحليل الحرام أهون من تحريم الحلال لأن تحليل الحرام إذا لم يتبين تحريمه فهو مبني على الأصل وهو الحل ورحمة اللّه سبحانه سبقت غضبه فلا يمكن أن

= لأنه فعل ما أمر اللّه به وكان معذوراً بذلك ولذلك ورد عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «أن من أُفتى بغير علم فإنما إثمه على من أفتاه» «أخرجه الإمام أحمد، وأبو داود والحاكم وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولا أعرف له علة» ووافقه الذهبي وحسنه الألباني رقم «٥٩٤١- ٥٩٤٥». ولو قلنا بإثمه بخطأ غيره للزم من ذلك الحرج والمشقة ولم يثق الناس بأحد لاحتمال خطئه «ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ القول المفيد».

(١) متفق عليه.

(٢) مجموع الفتاوى ٧/ ٧٠ لابن تيمية (رَحِمَهُ اللَّهُ).



يُحرَّم إلا ما تبين تحريمه ؛ ولأنه أضيق وأشد والأصل أن تبقى الأمور على الحل والسعة حتى يتبين التحريم.

أما في العبادات فيشدد، لأن الأصل المنع والتحريم حتى يبينه الشرع والأصل في الأشياء الحِل، فلا تمنع وتحَّرم إلا بإذن الشارع[١].

* * *

(١) انظر القول المفيد على كتاب التوحيد ٢/ ٢٥٦ .

القضية الخمسون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللّٰه:

«والقياس الشرعي بشرائطه حق والدين الحكيم لا يفرق بين متماثلين ولا يجمع بين مختلفين في حكم واحد»

قوله: «والقياس[١] الشرعي بشرائطه حق»

الشرح: وهذا فيه خمسة مباحث:

أولا: تعريف:

القياس في اللغة: «هو بمعنى تقدير الشيء على مثاله، ومنه قست الثوب بالذراع إذا قدرته به. ومن هنا سمّي المقدار مقياسا»[٢].

القياس في اصطلاح الأصوليين: «هو حمل فرع على أصل في حكم بجامع بينهما»[٣].

ثانيا: أركان القياس: من التعاريف السابقة يتضح أن للقياس أربعة أركان:

الركن الأول: الأصل، وهو المقيس عليه، أو ما ورد بحكمه نص، أو المشبه به.

الركن الثاني: الفرع المقيس، وهو المراد إلحاقه بالأصل المقيس عليه وحمله عليه، أو هو ما لم يرد بحكمه نص أو المشبه.

---

(١) والناس في القياس ثلاثة أقسام طرفان ووسط. فأحد الطرفين من ينفي العلل والمعاني والأوصاف المؤثرة، ويجوز ورود الشريعة بالفرق بين المتساويين والجمع بين المختلفين ولا يثبت أن اللّٰه سبحانه شرع الأحكام لعلل ومصالح. وقسم وسط وهو مذهب السلف، وقوم أفرطوا فيه، وتوسعوا جدا، وجمعوا بين الشيئين اللذين فرق بينهما بأدنى جامع من شبيه أو طرد أو وصف يتخيلونه علة يمكن أن يكون علته وأن لا يكون فيجعلونه هو السبب الذي خلق اللّٰه رسوله بالخرص والظن «إعلام الموقعين ١/ ٢٠٠».

(٢) لسان العرب ٥/ ٣٧٩٣، مذكرة أصول الفقه للشنقيطي على روضة الناظر ٢٤٣ الإحكام للآمدي ٣/ ١٦٧ .

(٣) مذكرة الشنقيطي ٢٤٣ .



الركن الثالث: حكم الأصل، وهو الحكم الشرعي الذي ورد به النص في الأصل، ويراد أن يكون حكما للفرع.

الركن الرابع: العِلّة وهو الوصف الجامع بين الأصل والفرع، أو هو الذي بُني عليه حكم الأصل، وبناء على وجوده في الفرع يسوّى بالأصل حكمه[١].

ثالثاً: أقسام القياس

ينقسم القياس إلى أقسام متعددة بعدة اعتبارات

أولًا: باعتبار قوته وضعفه، ينقسم إلى جليّ وخفيّ[٢].

فالقياس الجلي: ما ثبتت علته بنص أو إجماع أو كان مقطوعاً فيه بنفي الفارق بين الأصل والفرع.

مثال ما ثبتت عِلّته بالنّص: قياس المنع من الاستجمار بالدم النجس الجاف على المنع من الاستجمار بالروثة فإن علة حكم الأصل ثابتة بالنص حيث أتى ابن مسعود رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بحجرين وروثة ليستنجي بهن فأخذ الحجرين وألقى الروثة وقال هذا ركس[٣] والركس النجس.

ومثال ما ثبتت علته بالإجماع: نهي النبي ﷺ أن يقضي القاضي وهو غضبان[٤]، فقياس منع الحاقن[٥] من القضاء على منع الغضبان منه من القياس الجلي لثبوت علة الأصل بالإجماع وهو تشويش الفكر وانشغال القلب.

---

(١) الفقيه والمتفقه (٢/ ٢١٠)، مذكرة الشنقيطي ٢٤٣، ٢٧١ علم أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف ٦٠ .

(٢) الرسالة ٥١٣ للشافعي رحمه الله، ومجموع الفتاوى ٢١/ ٢٠٧، الأصول من علم الأصول لا بن عثيمين رحمه الله.

(٣) رواه البخاري.

(٤) متفق عليه.

(٥) الحاقن: وأصله الضِّيق أي تضايق لرغبته بالبول أو قضاء الحاجة.

ومثال ما كان مقطوعاً فيه بنفي الفارق بين الأصل والفرع: **قياس تحريم إتلاف مال** اليتيم باللّبس أو الإحراق أو الإغراق على تحريم إتلافه بالأكل، **الثابتة في قوله تعالى**: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] للقطع بنفي الفارق بينهما، وهذا النوع من القياس متفق عليه وهو أقوى أنواع القياس لكونه مقطوعا به.

القياس الخفي: وهو ما ثبتت علته باستنباط ولم يجزم فيه بنفي الفارق بين الأصل والفرع.

مثاله: قياس الأشنان[١] على البرُ في تحريم الربا بجامع الكيل، فإن التعليل بالكيل لم يثبت بنص ولا إجماع ولم يُقطع فيه بنفي الفارق بين الأصل والفرع إذ من الجائز أن يُفرِّق بينهما بأن البُر مطعوم بخلاف الأشنان.

ثانياً: باعتبار الصحة والبطلان ينقسم إلى صحيح وفاسد ومتردد:

فالصحيح هو ما جاءت به الشريعة في الكتاب والسنة، وهو الجمع بين المتماثلين، مثل أن تكون العِلّة موجودة في الفرع من غير معارض يمنع حكمها، ومثل القياس بإلغاء الفارق.

والفاسد ما يضاده[٢] قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكل قياس دلّ النص على فساده فهو فاسد، وكل من ألحق منصوصاً بمنصوص يخالف حكمه فقياسه فاسد. وكل من سوَّى بين شيئين أو فرّق بين شيئين بغير الأوصاف المعتبرة في حكم اللّه ورسوله فقياسه فاسد»[٣].

والمتردد بين الصحة والفساد: وهو الذي لا يُقطع بصحته ولا بفساده، فهذا يُتوقف فيه حتى يتبين الحال فيقوم الدليل على الصحة أو الفساد[٤].

---

(١) الأشنان: قيل هو من الحمض، قال الأزهري شجر الأُشنان يقال له الحرْض وهو من الحمض ومنه يُسَوَّى القلْيُ الذي تغتسل به الثياب، [لسان العرب ١٠/٤٢٦].

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ٢٠/٥٠٤، ٥٠٥، وإعلام الموقعين ١/١٣٣، ٢/٣ .

(٣) مجموع الفتاوى ١٩/٢٨٧، ٢٨٨ .

(٤) انظر المصدر السابق ١٩/٢٨٨ .



فلفظ القياس إذن لفظ مُجمل يدخل فيه الصحيح والفاسد[١].

لذلك لا يصح إطلاق القول بصحته أو ببطلانه[٢].

ولهذا أيضاً تجد في كلام السلف ذم القياس وأنه ليس من الدين، وتجد في كلامهم أيضاً استعماله والاستدلال به، وهذا حق وهذا حق.

فمراد مَن ذمه القياس الباطل، ومراد مَنْ استعمله واستدل به القياس الصحيح.

ولهذا أيضاً لم يجئ في القرآن الكريم مدحُه ولا ذمُّة، ولا الأمرُ به ولا النهيُ عنه فإنه مورد تقسيم إلى صحيح وفاسد[٣][٤].

رابعاً: حجية القياس

قد استدل الجمهور بحجية القياس بالكتاب والسنة والإجماع:

الدليل من الكتاب:

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحشر: ٢]، وفي هذه الآية بعد أن بيّن اللّه سبحانه وتعالى ما حلَّ بيهود بني النضير، مبيناً سبب ذلك، أراد أن يلفت نظر غيرهم من أهل الشر والعداوة لرسول اللّه ﷺ وصحبه، إلى أنهم سيلقون نفس المصير، إلحاقاً للنظير بالنظير.

قال الإمام الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ووجه الاستدلال في قوله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحشر: ٢]، أي فاتعظوا بما جرى عليهم من الأمور الهائلة على وجه لا

(١) انظر: المصدر السابق (٢٠/ ٥٠٤) وإعلام الموقعين ٢/ ٣، وملحق القياس من مذكرة الشنقيطي ٣٥٤ وما بعدها.
(٢) انظر مجموع الفتاوى ١٩/ ٢٨٨ .
(٣) انظر إعلام الموقعين ١/ ١٣٣ .
(٤) انظر معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة للدكتور محمد بن حسين بن حسن الجيزاني.

تكاد تهتدي إليه الأفكار. . . . .» إلى أن قال: «واشتهر الاستدلال بالآية على مشروعية العمل بالقياس الشرعي»، وقالوا: «إنه تعالى أمر فيها بالاعتبار وهو العبور والانتقال من الشيء إلى غيره، وذلك متحقق في القياس إذ فيه نقل الحكم من الأصل إلى الفرع»(١).

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، فالقياس في ضرب الأمثال من خاصة العقل، وقد ركّز اللَّه في فطر الناس وعقولهم التسوية بين المتماثلين، وإنكار التفريق بينهما والفرق بين المختلفين وإنكار الجمع بينهما(٢).

قال: «فأما قياس العلة فقد جاء في كتاب اللَّه عزَّ وجلَّ في مواضع: منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فأخبر تعالى أن عيسى نظير آدم في التكوين بجامع ما يشتركان فيه من المعنى الذي تعلق به وجود سائر المخلوقات، وهو مجيئها طوعا لمشيئته وتكوينه، ، فكيف يُستنكر وجود عيسى من غير أب من يُقر بوجود آدم من غير أب ولا أم، ووجود حواء من غير أم؟ فآدم وعيسى نظيران، يجمعهما المعنى الذي يصح تعليق الإيجاد والخلق به(٣).

الدليل من السنة:

ورد عن النبي ﷺ أنه قال لعمر رضي الله عنه لما سأله عن قُبلةِ الصائم من غير إنزال؟ «أرأيت لو تمضمضت بماء ثم مَجَجْتَهُ أكنتَ شاربهُ؟» فقال عمرُ: «لا» قال عليه الصلاة والسلام: «ففيم؟»(٤).

---

(١) روح المعاني ١٥/٥٩ .
(٢) إعلام الموقعين ١/١٤١ .
(٣) المصدر السابق.
(٤) رواه أحمد في مسنده: ١/٢١، الدارمي ٢/٣٤٥ وصحح اسناده شعيب الأرناؤوط ١/٢١ في تعليقه على المسند.



وجه الاستدلال بالحديث:

١- إن النبي ﷺ ألحق القُبلة التي تقع من الصائم - من غير أن ينزل - بالمضمضة في عدم الإفطار، والجامع بينهما: أن كلا الأمرين يعد مقدمة لا يترتب عليها المقصود، فالقبلة لم يترتب عليها الإنزال، والمضمضة لم يترتب عليها الشرب في الحديث، ووجه الاستدلال به مقال كثير يرجع إليه في البحوث المتخصصةبذلك(١).

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ جاءه أعرابي فقال: «يا رسول اللَّه! إن امرأتي ولدت غلاما أسود»، فقال: «هل لك من إبل؟». قال: «نعم» قال: «ما ألوانها». قال: «حُمر» قال: «هل فيها من أورق». قال: «نعم» قال: «فأنىّ كان ذلك». قال: «أراه عِرْق نزعه»، قال: «فلعل ابنك هذا نزعه عِرْق»(٢).

الإجماع:

مذهب الجمهور من الصحابة والتابعين والفقهاء إلى أنه أصل من أصول الشريعة يُستدل به على الأحكام التي يرد بها السمع(٣).

١- ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه أنه أنكر على زيد بن ثابت قوله: «الجدّ لا يحجب الإخوة»، فقال: «ألا يتقي اللَّه زيد بن ثابت؟ يجعل ابن الابن ابناً، ولا يجعل أب الأب أباً»(٤).

٢- ومنها: ما روي عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كتب في رسالته المشهورة إلى أبي موسى الأشعري، قوله: «اعرف الأشباه والنظائر، وقس الأمور برأيك»(٥).

---

(١) انظر: المحصول: ج٢، ق: ٦٧-٧٢، البرهان ٢/ ٧٦٩، نبراس العقول: ٨٧-٨٨، الفقيه والمتفقه: ١/ ١٩٢ .

(٢) متفق عليه.

(٣) إرشاد الفحول ١٩٩ .

(٤) أورد ابن عبد البر في جامع بيان فضل العلم وفضله هذا الأثر، انظر: ٢/ ١٠٧ .

(٥) انظر الفقه والمتفقه ١/ ٢٠٠، وقد أورده البيهقي بلفظ قريب مما ذكرنا في باب: إنصاف الخصمين في المدخل: ١٠/ ١٣٥، وانظر: إعلام الموقعين ١/ ٨١- ٨٦ .

٣- وإجماع الصحابة على تولية أبي بكر الصديق رضي الله عنه الخلافة، وقولهم في ذلك: «لقد رضيه رسول اللَّه ﷺ لديننا أفلا نرضاه لدنيانا؟»، فقد قاسوا الإمامة العظمى على إمامة الصلاة.

٤- ومنها: ما روي عن عليّ رضي الله عنه أنه قال في حدّ شارب الخمر: «إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى، فعليه حد المفتري»، فقد قاس شارب الخمر على القاذف[(١)].

٥- وعن الحسن بن عبيد اللَّه النُخعي قال: «قلت لإبراهيم (النُخعي): أكُل ما أسمعك تفتي به سمعته؟» فقال: «لا»، فقلتُ: «تفتي بما لم تسمع؟» فقال: «سمعتُ الذي سمعتُ، وجاءني مالم أسمع فقسته بالذي سمعتُ»[(٢)].

استدلال الجمهور بالمعقول:

يقول في ذلك الإسنوي: «أن المجتهد إذا غلب على ظنه كون الحكم في الأصل معللًا بالعلة الفلانية ثم وجد تلك العلة بعينها في الفرع - يحصل له بالضرورة ظن ثبوت ذلك الحكم في الفرع، وحصول الظن بالشيء مستلزم لحصول الوهم بنقيضه، وحينئذٍ فلا يمكنه أن يعمل بالظن والوهم، لاستلزامه اجتماع النقيضين، ولا أن يترك العمل بهما، لاستلزامه ارتفاع النقيضين، ولا أن يعمل بالوهم دون الظن، لأن العمل بالمرجوح مع وجود الراجح ممتنع شرعاً وعقلًا، فتعين العمل بالظن، ولا معنى لوجوب العمل بالقياس إلا ذاك»[(٣)].

خامساً: شروط القياس

وللقياس شروط منها:

١- أن لا يُصادم دليلًا أقوى منه فلا اعتبار بقياس يصادم النّص أو الإجماع أو أقوال

---

(١) الحديث: انظر عنه الموطأ للإمام مالك: كتاب الأشربة.
(٢) كتاب الفقيه والمتفقه ٢٠٣ .
(٣) انظر: نهاية السول بتعليقات الشيخ بخيت: ٤/ ١٩، وانظر المحصول: ج٢، ق٢: ٨٤ .



الصحابة، إذا قلنا قول الصحابي حجة ويسمى القياس المصادم لما ذُكر «فاسد الاعتبار».

مثاله: أن يقال يصح أن تزوج المرأة الرشيدة نفسها بغير ولي، قياساً على صحة بيعها مالها بغير ولي. فهذا قياس فاسد الاعتبار لمصادمته النص وهو قوله ﷺ لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل(١).

٢- **أن يكون حكم الأصل ثابتاً بنص أو إجماع** فإن كان ثابتاً بقياس لم يصح القياس عليه وإنما يقاس على الأصل الأول لأن الرجوع إليه أولى ولأن قياس الفرع عليه الذي جعل أصلًا قد يكون غير صحيح ولأن القياس على الفرع ثم الفرع على الأصل تطويل بلا فائدة.

مثال ذلك: «أن يقال يجري الربا في الذرة قياساً على الرز ويجري في الرز قياساً على البر فالقياس هكذا غير صحيح ولكن يقال يجري الربا في الذرة قياساً على البر ليقاس على أصل ثابت بنص».

٣- **أن يكون لحكم الأصل علة معلومة** ليمكن الجمع بين الأصل والفرع فيها فإن حكم الأصل تعبدياً محضاً لم يصح القياس عليه.

مثاله: أن يقال لحم النعامة ينقض الوضوء قياساً على لحم البعير لمشابهتها له

فيقال هذا القياس غير صحيح لأن حكم الأصل ليس له علة معلومة وإنما هو تعبدي محض على المشهور.

٤- **أن تكون العلة مشتملة على معنى مناسب للحكم** يُعلم من قواعد الشرع اعتباره كالإسكار في الخمر.

---

(١) وفي رواية «والسلطان وليّ من لا ولي له» وفي رواية وشاهدين، أخرجه الخمسة إلا النسائي وصححه ابن حبان والحاكم وصححه الألباني صحيح الجامع ٧٥٥٧ .



فإن كان المعنى وصفاً طردياً لا مناسبة فيه لم يصح التعليل به كالسواد والبياض مثلا.

مثال ذلك: حديث ابن عباس: «أن بريرة خُيّرت على زوجها حين عُتقت، قال: وكان زوجها عبداً أسود[1]، فقوله أسود وصف طردي لا مناسبة فيه للحكم ولذلك يثبت الخيار للأمة إذا عُتِقَت تحت عبد وإن كان أبيض، ولا يثبت لها إذا عُتِقَت تحت حر وإن كان أسود».

٥- **أن تكون العلة موجودة في الفرع كوجودها في الأصل:** كالإيذاء في ضرب الوالدين المقيس على التأفيف فإن لم تكن العلة موجودة في الفرع لم يصح القياس.

مثال ذلك: أن يقال العلة في تحريم الربا في البُر كونه مكيلًا، ثم يقال يجري الربا في التفاح قياسا على البر، فهذا القياس غير صحيح لأن العلة غير موجودة في الفرع إذ التفاح غير مكيل.

قوله: «والدين الحكيم لا يُفرِّق بين متماثلين، ولا يجمع بين مختلفين في حكم واحد».

ش: وأحكامه الأمرية الشرعية سبحانه وتعالى كلها هكذا، تجدها مشتملة على التسوية بين المتماثلين، وإلحاق النظير بنظيره، واعتبار الشيء بمثله، والتفريق بين المختلفين، وعدم تسوية أحدهما بالآخر، وشريعته سبحانه منزهة أن تنهى عن شيء لمفسدة فيها ثم تُبيح ما هو مشتمل على تلك المفسدة أو مثلها أو أزيد منها فمن جوّز ذلك على الشريعة فما عرفها حق معرفتها، ولا قدرها حق قدرها وكيف يُظن بالشريعة أنها تُبيح شيئاً لحاجة المكلف إليه ومصلحته، ثم تحرِّم ما هو أحوج إليه والمصلحة في إباحته أظهر، وهذا من أمحل المحال، ولذلك كان من المستحيل أن يشرع اللّه ورسوله من الحيل ما يُسقط به ما أوجبه، أو يُبيح به ما حرَّمه، ولعن

---

(١) رواه البخاري.



فاعله وآذنه بحربه وحرب رسوله، وشدد فيه الوعيد، لما تضمنه من المفسدة في الدنيا والدين، ثم بعد ذلك يسوغ التوصل إليه بأدنى حيلة، ولو أن المريض اعتمد هذا فيما يحميه منه الطبيب ويمنعه منه لكان معينا على نفسه، ساعياً في ضرره وعُد سفيها مفرطا، وقد فطر اللّه سبحانه عباده على أن حكم النظير حكم نظيره وحكم الشيء حكم مثله، وعلى إنكار التفريق بين المتماثلين وعلى إنكار الجمع بين المختلفين والعقل والميزان الذي أنزله اللّه سبحانه شرعاً وقدراً يأبى ذلك(١).

* * *

(١) إعلام الموقعين لا بن القيم ١/١٩١- ١٩٦.

القضية الحادية والخمسون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«والاجتهاد، والاستنباط والفقه، والعلم باق في الأُمة إلى قيام الساعة وليس كل من حمل علما فقيها، فمن يُرد اللَّه به خيراً يفقهه في الدين».

قوله: « والاجتهاد، والاستنباط، والفقه، والعلم باق في الأمة إلى قيام الساعة»

الشرح: «الاجتهاد»[١] وهو اصطلاحاً: «بذل الوسع في النظر في الأدلة الشرعية لاستنباط الأحكام الشرعية»[٢].

«الاستنباط»: أصله من نبط قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ النساء: ٨٣] أي: يستخرجونه منهم. وهو استفعال من أنبطت كذا. والاستنباط: الاستخراج[٣].

«الفقه» الفقه في اللغة: الفهم، ويطلق على العلم، وعلى الفطنة[٤].

وهو: التوصّل إلى علم غائب بعلم شاهد فهو أخص من العلم[٥].

الفقه اصطلاحاً: العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية[٦].

وأن الاجتهاد والاستنباط والفقه والعلم في هذه الأمة إلى قيام الساعة حتى تقام الحجة للَّه على خلقه .

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة»[٧].

---

(١) وسيأتي مزيد تفصيل للاجتهاد في الفقرة (١٥٥).
(٢) الفقيه والمتفقه (١/ ١٧٨) وروضة الناظر (٢/ ٤٠١) ومجموع الفتاوى (١١/ ٢٦٤).
(٣) المفردات للراغب الأصفهاني ٤٨١ والنهاية لابن الأثير ٥/ ٨ .
(٤) لسان العرب ١٣/ ٥٢٢، ٥٢٣ .
(٥) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ٣٨٤ .
(٦) المدخل إلى فقه الإمام أحمد ٥٨ .
(٧) رواه الحاكم والدارمي وأبو داود الطيالسي وصححه الألباني (الجامع ٧١٦٤ والصحيحة ٢٧٠، ١٩٥٦ .



وعن معاوية ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر اللَّه لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر اللَّه وهم ظاهرون على الناس»(١).

وذهبت الحنابلة بأسرهم إلى أنه لا يجوز خلو الزمان عن مجتهد لقوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر اللَّه»(٢).

وقال غيرهم: لأن الاجتهاد فرض كفاية فيستلزم انتفاؤه اتفاق المسلمين على الباطل وذلك محال لعظمة الأمة عن اجتماعها على الباطل.

قال الزركشي: «ولم ينفرد بذلك الحنابلة بل جزم به أيضاً جماعة من أصحابنا منهم الأستاذ أبو إسحاق والزبيدي في المسكت»(٣).

أما الأستاذ أبو إسحاق فقال: وتحت قول الفقهاء لا يُخلي اللَّه زمانا من قائم للَّه بالحجة سر عظيم، وكأن اللَّه تعالى ألهمهم ذلك، ومعناه: أن اللَّه تعالى لو خلّى زماناً من قائم بالحجة لزال التكليف، إذ التكليف لا يثبت إلا بالحجة الظاهرة وإذا زال التكليف بطلت الشريعة.

وعن معاذ بن جبل ﷺ قال: «أيها الناس، لا تعجلوا بالبلاء قبل نزوله فيذهب بكم ها هنا، وإنكم إن لم تعجلوا بالبلاء قبل نزوله، لم ينفك، المسلمون أن يكون فيهم من إذا سئُل سُدد، وإذا قال وُفّق(٤).

وقال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «والأرض لا تخلو من قائم للَّه بالحجة والأمة الشريفة

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد. وقوله: « «حتى يأتي أمر اللَّه»أي الريح التي تقبض روح كل من في قلبه شيء من الإيمان ويبقى الناس، فعليهم تقوم الساعة» «ابن حجر فتح الباري ١/ ١٦٤».
(٢) متفق عليه.
(٣) البحر للزركشي.
(٤) رواه الدارمي والبيهقي.

لا بد منها من سالك إلى الحق على توضيح المحَجَّة، إلى أن يأتي أمر اللَّه في أشراط الساعة الكبرى»(١).

وقال الفخر الرازي: «ولو بقي من المجتهدين - «والعياذ باللَّه» واحد كان قوله حجة فاستعاذتهم تدل على بقاء الاجتهاد في عصرهم»(٢).

وقال الإمام أبو المعالي الجويني إمام الحرمين: «ذهب بعض الأصوليين إلى أنه لا يجوز انحطاط عدد مجتهدي العصر عن مبلغ التواتر فإنهم ورثة المِلة، وحفظة الشريعة، وقد ضمن اللَّه تعالى قيامها ودوامها وحفظها إلى قيام الساعة، ولو عاد المجتهدون إلى عدد لا يبعد منهم التواطؤ فلا يتأتى منهم الاستقلال بالحفظ»(٣).

وقال الزركشي(٤) قال الأستاذ أبو إسحاق: «يجوز أن لا يبقى في الدهر إلا مجتهد واحد، ولو اتفق ذلك، فقوله حجة كالإجماع، ويجوز أن يقال للواحد أمة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] ونقل «الهندي» عن الأكثرين وبه جزم «ابن شُريح» في كتاب الودائع فقال: «وحقيقة الإجماع هو القول بالحق فإذا حصل القول بالحق من واحد فهو إجماع»(٥). وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فذهب جمع إلى أنه لا يجوز خلو الزمان من مجتهد قائم بحجج اللَّه يبين للناس ما نُزّل إليهم. قال بعضهم ولا بدّ أن يكون في كل قِطر من يقوم به الكفاية لأن الاجتهاد من فروض الكفايات»(٦).

ثم ذكر الشوكاني بعضاً من مجتهدي الشافعية بعد أن ردّ على المقلدة القائلين بأن رتبة الاجتهاد قد انتهت: «وإذا أمعنت النظر وجدت هؤلاء المنكرين إنما أُتوا من

---

(١) شرح الإلمام.
(٢) المحصول ٢ القسم ١/ ٢٨٣ .
(٣) البرهان ١/ ٦٩٠ .
(٤) في البحر الرائق للزركشي.
(٥) كتاب الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض للإمام جلال الدين السيوطي.
(٦) إرشاد الفحول ٢٥٣ .



قِبل أنفسهم فإنهم لما عكفوا على التقليد، واشتغلوا بغير علم الكتاب والسنة حكموا على غيرهم بما وقعوا فيه واستصعبنا ما سهله اللَّه على من رزقه العلم والفهم وأفاض على قلبه أنواع علوم الكتاب والسنة، ولما كان هؤلاء الذين صرّحوا بعدم وجود المجتهدين شافعية، فها نحن نُصرِّح لك من وجد من الشافعية بعد عصرهم ممن لا يخالف مخالف في أنه جمع أضعاف علوم الاجتهاد فمنهم ابن عبد السلام وتلميذه ابن دقيق العيد ثم تلميذه ابن سيد الناس ثم تلميذه زين الدين العراقي ثم تلميذه ابن حجر العسقلاني ثم تلميذه السيوطي، فهؤلاء ستة أعلام كل واحد منهم تلميذ من قبله قد بلغوا من المعارف العلمية ما يعرفه من يعرف مصنفاتهم حق معرفتها وكل واحد منهم إمام كبير في الكتاب والسنة، محيط بعلوم الاجتهاد»[١].

قوله: «وليس كل من حمل علماً: فقيهاً. . . . .»

ش: يشير لحديث معاوية رضي الله عنه: «الذي يقول: أنه سمع النبيﷺ يقول: «من يُرد اللَّه به خيراً يُفقِّه في الدين»»[٢].

قال ابن حجر رحمه الله: «وفيه إثبات الخير لمن تفقه في دين اللَّه، وأن ذلك لا يكون باكتساب فقط، بل لمن يفتح اللَّه عليه به وأن من يفتح اللَّه عليه بذلك لا يزال موجوداً حتى يأتي أمر اللَّه وقد جزم البخاري بأن المراد بهم أهل العلم بالآثار».

وقال أحمد بن حنبل رحمه الله: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم». وقال النووي رحمه الله: «يحتمل أن تكون هذه الطائفة فرقة من أنواع المؤمنين ممن يقيم أمر اللَّه تعالى: من مجاهد، وفقيه، ومحدث، وزاهد، وآمر بالمعروف وغير ذلك من أنواع الخير ولا يلزم اجتماعهم في مكان واحد».

---

(١) إرشاد الفحول ٢٥٤ .

(٢) رواه البخاري.



وقوله: «يفقهه»

ش: أي يُفهمه، وهي ساكنة الهاء لأنها جواب الشرط، يقال فقُه بالضم إذا صار الفقه له سجية، وفقَه بالفتح إذا سبق غيره إلى الفهم، وفقِه بالكسر: إذا فهم. ونكّرَ «خيراً» ليشمل القليل والكثير، والتنكير للتعظيم لأن المقام يقتضيه[(١)].

وقد بوب البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بباب قوله ﷺ: «رُبَّ مُبلّغ أوعى من سامع» ثم ساق بسنده إلى أبي بكرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وذكر أن النبي ﷺ قعد على بعيره «يوم عرفة» وأمسك إنسان بخطامه - أو بزمامه - قال: «أيُّ يوم هذا؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيُسمِّيه سوى اسمه.

قال: «أليس يوم النَّحر؟» قلنا: «بلى».

قال: «فأيُّ شهر هذا؟» فسكتنا حتى ظننا أنه سيُسمِّيه بغير اسمه، فقال: «أليس بذي الحجة؟» قلنا: «بلى».

قال: «فإن دماءكم، وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ليُبلغ الشاهد الغائب، فإن الشاهد عسى أن يُبلغ من هو أوعى له منه»[(٢)].

وفي رواية: «فلعلَ بعض من يبلُغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه» وقال ابن حجر في شرحه لهذا الحديث والمراد: «رب مبلغ عني أوعى - أي أفهم - لما أقول من سامع مني.

وصرّح بذلك أبو القاسم بن منده في روايته ولفظه: «فإنه عسى أن يكون بعض من لم يشهد أوعى لما أقول من بعض من شهد»[(٣)] ومنه دعاء النبي ﷺ لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بقوله: «اللّهم فقهّه في الدين وعلِمه التأويل» «أي فهمه»[(٤)].

---

(١) فتح الباري١/ ١٦٤ - ١٦٥ .
(٢) رواه البخاري من كتاب العلم ٦٧ .
(٣) فتح الباري ١/ ١٥٨ .
(٤) النهاية لابن الأثير ٣/ ٤٦٥ .

القضية الثانية والخمسون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«والاجتهاد والاستنباط للأحكام الشرعية فرض كفاية على المسلمين وذلك لضبط أعمال الناس وأقضياتهم وما يستجد لهم حسب النصوص الشرعية ومقاصد الدين»

قوله: «والاجتهاد والاستنباط[١] للأحكام الشرعية فرض كفاية على المسلمين. . .»

الشرح: وقد ذكر العلماء على أن الاجتهاد في كل عصر فرض من فروض الكفايات، وأنه لا يجوز شرعاً إخلاء العصر منه والمقصود بالاجتهاد وهو المجتهد المطلق كما سيأتي بيانه:[٢] وهذا ما قرره جمع من العلماء:

* **الإمام السيوطي**: «لما لم يكن بد ممن يعرف حكم اللَّه في الوقائع وتعرف ذلك بالنظر غير واجب على التعيين، فلا بد أن يكون وجود المجتهد من فروض الكفاية، ولا بد أن يكون في كل قُطْر من تقوم به الكفاية، ولهذا قالوا: «إن الاجتهاد من فروض الكفايات».

* **القاضي أبو حسن علي بن عمر البغدادي المعروف «بابن القصار»** وهو من أئمة المالكية[٣]. فمذهب مالك وجمهور العلماء على وجوبه وإبطال التقليد لقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

* **الشهرستاني**[٤]: وبالجملة نعلم قطعاً ويقيناً أن الحوادث والوقائع في العبادات والتصرفات مما لا يقبل الحصر والعد، ونعلم قطعاً أيضاً أنه لم يرد في كل حادثة نص، ولا يُتصور ذلك أيضاً، والنصوص إذا كانت متناهية، فإن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار حتى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد. ثم بعد أن ذكر شروط الاجتهاد

---

(١) سبق تعريف كلٍّ من الاجتهاد والاستنباط في الفقرة السابقة.
(٢) سيأتي مزيد إيضاح في الفقرة ١٥٤ .
(٣) في كتابه «المقدمة في أصول الفقه» الباب التاسع عشر في الاجتهاد فيه تسعة فصول.
(٤) وهو أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهر ستاني وهو أحد الأئمة الأعلام [الملل والنحل الفصل السابع ٨٦، ٨٩].

قال: «ثم الاجتهاد من فروض الكفايات، لا من فروض الأعيان حتى إذا اشتغل بتحصيله واحد سقط الفرض عن الجميع وإن قَصَّر فيه أهل عصر عصوا بتركه، وأشرفوا على خطر عظيم، فإن الأحكام الاجتهادية إذا كانت مرتّبة على الاجتهاد، ترتيب المسبب على السبب، ولم يوجد السبب ؛ كانت الأحكام عاطلة، والآراء كلها فائلة فلا بد إذن من مجتهد».

* **قال الإمام محي السنة «أبو محمد البغوي»**[1]: العلم ينقسم إلى فرض عين وفرض كفاية، وذكر العين ثم قال: «وفرض الكفاية هو أن يتعلم ما يبلغ رتبة الاجتهاد ومحل الفتوى والقضاء، ويخرج من عداد المقلدين، فعلى كافة الناس القيام بتعلمه، غير أنه إذا قام من كل ناحية واحد أو اثنان سقط الفرض عن الباقين، فإذا قعد الكل عن تعلمه عصوا جميعاً لما فيه من تعطيل أحكام الشرع». قال اللّه تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢].

* **الإمام الشافعي** رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد نقل المزني في مختصره عن الإمام الشافعي: «أنه نهى عن تقليده، وتقليد غيره، ولا شك أنه لا يمكن نهي الخلق بأسرهم عن التقليد لأن العوام يجوز لهم التقليد بالإجماع، وإنما نهى الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ أن يطبق أهل العصر كلهم على التقليد، لأن فيه تعطيل فرض من فروض الكفايات وهو الاجتهاد فحثّ على الاجتهاد ليكون في كل عصر من يقوم بهذا الفرض.

* **وقال أبو المعالي الجويني «إمام الحرمين»**: «بعد أن قسّم العلم إلى قسمين فرض عين وفرض كفاية: وأما ما يقع فرضاً على الكفاية فهو ما يزيد على المتعيّن إلى بلوغ رتبة الاجتهاد، فإن قوام الشرع بالمجتهدين».

* **قال الإمام تقي الدين أبو عمر بن الصلاح** رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: المجتهد المطلق: هو الذي يتأدى به فرض الكفاية.

---

(١) في كتابه التهذيب.
(٢) كتاب (أدب الفتيا).



قال الإمام محي الدين النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:[١]

المجتهد المطلق: هو الذي يتأدى به فرض الكفاية. وقال في (الروضة): «من فروض الكفاية أن ينتهي في معرفة الأحكام إلى حيث يصلح للفتوى والقضاء».

وقال كذلك في «المنهاج»: ومن فروض الكفاية القيام بإقامة الحجج، وحل المشكلات من الدين، وبعلوم الشرع، كتفسير وحديث، والفروع بحيث يصلح للقضاء[٢].

❋ ❋ ❋

---

(١) شرح المهذب.

(٢) راجع فيما سبق كتاب الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض للإمام السيوطي.

القضية الثالثة والخمسون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«ولا يجتهد[١] إلا من هو أهل لذلك، وأجرأ الناس على الفتيا أجرؤهم على النار»

قوله: «ولا يجتهد إلا من هو أهل لذلك»

الشرح: أهلية الاجتهاد

أولًا: أن يكون بالغاً: قال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أول أوصاف المفتي الذي يلزم قبول فتواه يكون بالغاً، لأن الصبي لا حكم لقوله».

ثانياً: أن يكون عاقلًا: لأن العلم مرفوع عن المجنون لعدم عقله.

ثالثا: أن يكون عدلًا ثقة: لأن علماء المسلمين لم يختلفوا في أن الفاسق غير مقبول الفتوى في أحكام الدين وإن كان بصيرا بها، وسواء كان حراً أو عبداً لأن الحرية ليست شرطاً في صحة الفتوى.

رابعاً: أن يكون عالماً بالأحكام الشرعية: وعلمه بها يشتمل على معرفته بأصولها والارتياض بفروعها.

وأصول الأحكام في الشريعة أربعة:

أ - العلم بكتاب اللَّه على الوجه الذي تتضح به معرفة ما تضمنه من الأحكام، محكماً ومتشابهاً وعموماً وخصوصاً، مجملًا ومفسراً، ناسخاً ومنسوخا.

ب - العلم بسنة رسول اللَّه ﷺ الثابتة من أقواله، وأفعاله، وطرق مجيئها في التواتر والآحاد، والصحة والفساد، وما كان منها على سبب أو إطلاق.

ت - العلم بأقاويل السّلف فيما أجمعوا عليه واختلفوا فيه ليتبع الأحكام ويجتهد في الرأي مع الاختلاف.

---

(١) سيأتي مزيد شرح على شروطه الاجتهاد في الفقرة (١٥٤) إن شاء اللَّه.
ونقصد بالمجتهد: هو المجتهد المطلق.



ث - العلم بالقياس الموجب ليرد الفروع المسكوت عنها إلى الأصول المنطوق بها والمجمع عليها حتى يجد المفتي طريقا إلى العلم بأحكام النوازل، وتمييز الحق من الباطل. فهذا مالا مندوحة للمفتي عنه ولا يجوز له الإخلال بشيء منه[(١)].

وقيل للإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما تقول في الرجل يُسأل عن الشيء فيجيب بما في الحديث، وليس بعالم الفتيا؟» قال: «ينبغي للرجل إذا حمل نفسه على الفتيا أن يكون عارفاً بالسنن، عالماً بوجوه القرآن، عالما بالأسانيد الصحيحة، وإنما جاء خلاف ممن خالف لقلة معرفتهم، بما جاء عن النبي ﷺ»[(٢)].

وقال الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما أجبتُ في الفتوى حتى سألت من هو أعلم مني»: «هل تراني موضعاً لذلك؟» سألت ربيعة، وسألت يحيى بن سعيد فأمراني بذلك. فقيل له: «يا أبا عبد اللَّه لو نهوك؟» قال: «كنتُ أنتهي، لا ينبغي لرجل أن يرى نفسه أهلًا حتى يُسلِّم له من هو أعلم منه»[(٣)].

قوله: «وأجرأ الناس على الفتيا أجرؤهم على النار»

ش: قال تعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]، وقال تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٨].

قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وكان الصحابة وهم سادة الأُمة وأئمتها وقادتها، فهم سادات المفتين والعلماء ومع هذا لا يكاد الصحابة يُفتون إلا فيما نزل، ثقة منهم بأن اللَّه تعالى يوفق عند نزول الحادثة للجواب عنها، وكان كل واحد منهم يَوَد أن صاحبه كفاه الفتوى.

فعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رأيت ثلاثمائة من أهل بدر، ما منهم من أحد إلا وهو يحب أن يكفيه صاحبه الفتوى».

---

(١) الفقيه والمتفقه ٢/١٥٦ .

(٢) الفقيه والمتفقه ٢/١٥٧ .

(٣) المصدر السابق ٢/ ١٥٤ .



وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما رأيت أحداً جمع اللَّه فيه آلة الفتيا ما جمع في «ابن عيينة»[١]، أسْكَتْ عن الفتيا منه».

وعن إسحاق بن راهويه رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «قال ابن عيينه: «أعلم الناس بالفتوى أسكتهم فيها، وأجهل الناس بالفتوى أنطقهم فيها».

وكان الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ إذا سئُل عن مسألة كأنه واقف بين الجنة والنار.

وعن عبد اللَّه بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «يا أيها الناس من علِم منكم علما فليقل به، ومن لم يعلم فيقول: «لا أعلم. واللَّه أعلم. فإن من علِم المرء أن يقول: لما لا يعلم: «اللَّه أعلم». وقد قال اللَّه تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

وعن عقبة بن مسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «سُئل عن شيء فقال: «لا أدري»، ثم اتبعها فقال: «أتريدون أن تجعلوا ظهورنا لكم جسورا في جهنم أن تقولوا: أفتانا ابن عمر بهذا»».

وعن مالك بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت ابن عجلان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «إذا أخطأ العالم لا أدري، أُصيبت مقاتله».

وعن مجالد قال: سُئل الشعبي عن شيء فقال: «لا أدري». فقيل له: «أما تستحي من قولك لا أدري وأنت فقيه أهل العراقين؟» قال: «لكن الملائكة لم تستح حين قالت: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]»[٢].

* * *

---

(١) سفيان بن عيينة بن ميمون العلامة الحافظ شيخ الإسلام محدث الحرم ولد سنة ١٠٧ هـ.
قال أحمد: ما رأيت أعلم بالسنن منه، اتفقت الأئمة على الاحتجاج به لحفظه وأمانته، حج سبعين سنة. مات في جمادي الآخرة سنة ١٩٨ هـ [تذكرة الحفاظ ١/ ٢٦٤ للذهبي].

(٢) الفقيه والمتفقه ٢/ ١٦١- ١٧٥ (باختصار).



القضية الرابعة والخمسون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«وتتحقق أهلية الاجتهاد[١] لمن كان عالماً بالكتاب والسنة ولغة العرب وأصول الفقه وواقع الناس، مع عقل راجح وحكمة وعلم بمقاصد التشريع وتقوى للَّه».

قوله: «وتتحقق أهلية الاجتهاد»

الشرح: وقد قسَّم العلماء المجتهدين إلى قسمين:

الأول المجتهد المطلق: وهو العالِم بكتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ وأقوال الصحابة؛ فهو المجتهد في أحكام النوازل ويقصد موافقة الأدلة الشرعية حيث كانت، ولا ينافي اجتهاده تقليده لغيره أحياناً، فلا تجد أحدا من الأئمة إلا وهو مُقلِّد من هو أعلم منه في بعض الأحكام.

وقد قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ، في موضع من الحج: «قلته تقليداً لعطاء؛ فهذا النوع الذي يسوغ لهم الإفتاء، ويسوغ استفتاؤهم ويتأدى بهم فرض الاجتهاد»، وهم الذين قال فيهم النبي: ﷺ «إن اللَّه يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[٢].

وهم غرس اللَّه الذين لايزال يغرسهم في دينه، وهم الذين قال فيهم علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لن تخلو الأرض من قائم للَّه بحجته»[٣].

الثاني المجتهد الجزئي[٤]: قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيكون الرجل مجتهداً في نوع من العلم مقلداً في غيره، أو في باب من أبوابه، كمن استفرغ وُسعه في نوع العلم بالفرائض وأدلتها واستنباطها من الكتاب والسنة دون غيرها من العلوم، أو في باب الجهاد أو

---

(١) راجع فقرة ١٥٣ .
(٢) رواه أبو داود والحاكم والبيهقي وصححه الألباني (صحيح الجامع) ١٨٧٤ والصحيحة ٥٩٩ .
(٣) إعلام الموقعين ٤/ ٢١٢ .
(٤) وذهب أكثر أهل العلم إلى أن الاجتهاد حالة تقبل التجرؤ وممن ذهب إل هذا العلامة ابن القيم (إعلام الموقعين ٤/ ٢١٦) والغزالي في المستصفى ٢/ ١٥٣ .



الحج، أو غير ذلك ؛ فهذا ليس له الفتوى فيما لم يجتهد فيه، ولا تكون معرفته بما اجتهد فيه مُسوغة له الإفتاء بما لا يعلم في غيره، وهل له أن يفتي في النوع الذي اجتهد فيه؟ له ثلاثة أوجه: أصحها الجواز، بل هو الصواب المقطوع به».

وحجة الجواز أنه قد عرف الحق بدليله، وقد بذل جهده في معرفة الصواب ؛ فحكمه في ذلك حكم المجتهد المطلق في سائر الأنواع.

وهذه الأهلية تتحقق بشروط وضوابط وضعها العلماء.

شروط وأهلية الاجتهاد:

١- المعرفة بالقرآن الكريم: والمراد أن يكون على علم تام بما في القرآن من أحكام ويتحقق ذلك بآيات الأحكام وهي ما يقارب خمسمائة آية كما ذكر ذلك ابن قدامة والغزالي وابن العربي والماوردي وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنما أرادوا الظاهر لا الحصر،» وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيما رواه عنه الخطيب البغدادي»: «لا يحل لأحد أن يُفتي في دين اللَّه إلا رجلًا عارفاً بكتاب اللَّه وبناسخه ومنسوخه، ومُحكمه ومتشابهه، وتأويله وتنزيله، ومكية ومدنيه وما أُريد به».

وكذلك ما يتصل به من أسباب النزول. وذهب البعض إلى أنه يشترط أن يكون حافظاً للقرآن الكريم كله، لأن الحافظ أضبط لمعانيه من الناظر فيه. ويقول أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لن ينفعه كل الفقه حتى يقرأ القران على وجوه كثيرة».

٢- المعرفة بالسنة:

أن يكون عالماً بنصوص السّنة وما يتعلق بها من أحكام، سواء كانت: قولية أو فعلية، أو تقريرية. ومعرفة بالحديث سواءً متنه، أو سنده، ومقدرة على تميز الحديث الصحيح من الضعيف، خاصة فيما يتعلق بالأحكام وهي وإن كانت زائدة على ألوف فهي محصورة وفيها التخفيفان المذكوران، إذ لا يلزمه معرفة ما يتعلق من الأحاديث بالمواعظ وأحكام الآخرة وغيرها، والثاني لا يلزمه حفظها عن ظهر قلب، بل أن يكون عنده أصل صحيح لجميع الأحاديث المتعلقة بالأحكام وكذلك



أن يعرف مواقع كل باب فيراجعه وقت الحاجة للفتوى، وإن كان يقدر على حفظه فهو أحسن وأكمل. واختلفوا في القدر الذي يكفي المجتهد حفظه من السّنة، فقال ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هي ثلاثة آلاف،» وقال أبو علي الضرير قلتُ لأحمد بن حنبل: «كم يكفي الرجل من الحديث حتى يُمكنه أن يفتي؟: «يكفيه مائة ألف؟» قال: «لا»، قلتُ: «ثلاثمائة ألف؟»، قال: «لا»، قلتُ: «أربعمائة ألف؟»، قال: «لا»، قلتُ: «خمسمائة ألف؟» قال: «أرجو». قال بعض أصحابه: «هذا محمول على الاحتياط والتغليظ في الفتيا، أو أراد وصف أكمل الفقهاء، فأما ما لا بد منه فقد قال أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ:» الأصول التي يدور عليها العلم عند النبي ﷺ: «ينبغي أن تكون ألفاً ومائتين».

وقال أبو بكر الرازي: «لا يُشترط استحضار جميع ما ورد في ذلك الباب إذ لا يمكن الإحاطة به، ولو تصوّر لما حضر في ذهنه عند الاجتهاد جميع ما روى.

وكذلك الحال بالنسبة للرجال: فالمعتبر أن يتمكن بالبحث في كتب الجرح والتعديل من معرفة حال الرجال مع كونه ممن له معرفة تامة بما يوجب الجرح وما لا يوجبه»[1].

٣- معرفة الناسخ من المنسوخ:

وذلك بمعرفة الناسخ من المنسوخ من الكتاب والسنة وذلك في آيات وأحاديث مخصوصة، والتخفيف فيه أنه لا يُشترط أن يكون جميعه على حفظه، بل كل واقعة يفتي فيها بآية أو حديث فينبغي أن يعلم أن ذلك الحديث وتلك الآية ليست من جملة المنسوخ، وهذا يعمّ الكتاب والسنة. وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يحل لأحد أن يُفتي في دين اللَّه إلا رجلًا عارفاً بكتاب اللَّه بناسخه ومنسوخه»[2].

---

(١) المستصفى للغزالي ٢/ ٣٥١، وإرشاد الفحول ٢٥١ للشوكاني.
(٢) المستصفى للغزالي ٢/ ٣٥٢، وإرشاد الفحول ٢٥٣، وإعلام الموقعين ١/ ٤٦ .



٤- معرفة المسائل المُجمع عليها والمختلف فيها:

أي أن يكون عارفاً بمسائل الإجماع حتى لا يُفتي بخلاف ما وقع الإجماع عليه. فالحادثة التي عرفها المجتهدون السابقون وأعطوها حكماً ثم أجمعوا عليه، فهذه الحادثة لا يجوز لمن يأتي بعدهم من المجتهدين أن يعطيها حكماً مخالفاً للحكم المجمع عليه، وإلا كان خرقاً للإجماع وهو غير جائز.

حتى إن جمهور العلماء قالوا: «إذا اختلف العصر الأول على قولين فلا يجوز

لمن بعدهم إحداث قول ثالث عند الأكثرين. وقال الإمام أحمد: «أحب أن يتعلم الرجل «المجتهد» كل ما تكلم فيه الناس وليس من اللازم أن يحفظ جميع مواقع الإجماع، بل في كل مسألة يفتي فيها ينبغي أن يعلم أن فتواه ليست مخالفة للإجماع.

وكذلك المختلف فيه، كما قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يمتنع من الاستماع بمن خالفه، لأنه قد يتنبه بالاستماع لترك الفعلة، ويزداد به تثبيتاً فيما اعتقد من الصواب، وعليه في ذلك بلوغ غاية جهده، والإنصاف من نفسه، حتى يعرف من أين قال، ما يقول».

وقال الفتوحي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويشترط أن يكون عالماً بالمجمع عليه والمختلف فيه»[(١)].

والحاصل أن دراسة أقوال العلماء والفقهاء والمذاهب خاصة من الصحابة والتابعين ومن جاء بعد، تُولد لدى المجتهد وتنمي مَلَكَة الاجتهاد والفحص والنقد، ومن الكتب التي جمعت اختلاف الصحابة والعلماء: بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد، والمجموع بشرح المهذب للنووي، والمُحلى لابن حزم، والمغني لابن قدامة المقدسي، وفتاوى ابن تيمية، ونيل الأوطار للإمام الشوكاني رحمهم اللّه جميعاً.

٥- المعرفة باللغة العربية:

أي أن يكون عالماً بلسان العرب بحيث يمكنه تفسير ما ورد في الكتاب والسنة من

---

(١) إرشاد الفحول ٢٥١، مختصر المنار «لزين الدين الحلبي الحنفي» (٨٣) [متون أصوليه مهمه في المذاهب الأربعة] الرسالة للشافعي ٥١٠، الاجتهاد فيما لا نص فيه ٢٥، شرح الكوكب المنير للفتوحي ٢٩٥، وإعلام الموقعين ٤/ ٢٠٥ .



الغريب ونحوه، ولا يُشترط أن يكون حافظاً لها عن ظهر قلب، بل المعتبر أن يكون متمكناً من استخراجها من مؤلفات الأئمة المشتغلين بذلك.

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يجب على كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما يُبلِّغه جهده في أداء فرائضه».

وقال الغزالي بالنسبة لعلم اللغة والنحو: «أي بالقدر الذي يفهم به خطاب العرب وعاداتهم في الاستعمال إلى حد يميز به صريح الكلام وظاهره ومجمله... والتخفيف فيه أنه لا يشترط أن يبلغ درجة الخليل[١] والمبرد[٢]وأن يعرف جميع اللغة ويتعمق في النحو، بل بالقدر الذي يتعلق بالكتاب والسنة، ويستولي به على مواقع الخطاب ودرك حقائق المقاصد منه»[٣].

٦- معرفة أصول الفقه:

أن يكون عالماً بعلم أصول الفقه لاشتماله على نفس الحاجة إليه، وعليه أن يطول الباع فيه، ويطلّع على مختصراته ومطولاته بما تبلغ به طاقته، فإن هذا العلم هو عماد فسطاط الاجتهاد، وأساسه الذي تقوم عليه أركان بنائه وقال الفخر الرزاي في المحصول: وما أحسن من قال: «إن أهم العلوم للمجتهد علم أصول الفقه».

وقال الغزالي: «إن أعظم علوم الاجتهاد يشتمل على ثلاثة فنون: «الحديث واللغة وأصول الفقه»[٤].

---

(١) الخليل بن أحمد الأزدى الفراهيدى، و يقال الباهلى، أبو عبد الرحمن البصري النحوي «صاحب العروض و صاحب كتاب «العين» » من كبار أتباع التابعين رحمهم اللَّه الوفاة: بعد ١٦٠ هـ و قيل ١٧٠ هـ أو بعدها قال ابن حجر: صدوق عالم عابد.

(٢) المبرد: محمد بن يزيد بن عبد الأكبر المعروف بالمبرد شيخ أهل النحو وحافظ علم العربية وكان عالما فاضلاموثوقا به في الرواية. وكان إسماعيل القاضي يقول: «ما رأى المبرد مثل نفسه».

(٣) المستصفي ٢/ ٣٥٢، إرشاد الفحول ٢٥١ .

(٤) إرشاد الفحول ٢٥٢ وبعض العلماء أفرد القياس وجعله شرطاً مستقلًا وارى أنه يمكن إدراجه تحت أصول الفقه «واللَّه أعلم».

قوله: «وواقع الناس ومشاكلهم مع عقل راجح وحكمة. . .»

ش: وقال الإمام ابن القيم عن معرفة واقع الناس بالنسبة للمفتي والمجتهد[١] «في تعليقه على قول الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ. . . معرفة الناس»، فهذا أصل عظيم يحتاج إليه المفتي والحاكم، فإن لم يكن فقيها فيه، فقيها في الأمر والنهي ثم يُطبِق أحدهما على الآخر، وإلا كان ما يُفسد أكثر مما يُصلح، فإنه إذا لم يكن فقيهاً في الأمر، له معرفة بالناس، تصوّر له الظالم بصورة المظلوم وعكسه، والمحق بصورة المُبطل وعكسه، وراج عليه المكر والخداع والاحتيال، وتصور له الزنديق في صورة الصديق، والكاذب في صورة الصادق ولَبِس كل مُبطل ثوبَ زور تحته الإثم والكذب والفجور، وهو لجهله بالناس وأحوالهم وعوائدهم وعُرْفيَّاتهم، لا يميز هذا من هذا، بل ينبغي له أن يكون فقيهاً في معرفة مكر الناس وخداعهم واحتيالهم وعوائدهم وعرفياتهم، فإن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والعوائد والأحوال، وذلك كله من دين اللّه[٢].

وكذلك جودة القريحة واليقظة فلا تصلح فتيا الغبي والمغفل، ولا من كثر غلطه، وعبرّ عنه السبكي[٣] بكونه «فقيه النفس» أي أن يكون بطبعه شديد الفهم لمقاصد الكلام.

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «. . . وتكون له قريحة وقّادة. . .» ومعرفة واقع الناس تحصل بملابسة الناس ومخالطتهم وممارسة الحياة معهم في السفر والحضر لتتكشف له طباعهم ودخائل نفوسهم، وإلا انطلت عليه الحيل والافتراءات.

قوله: «وعلم بمقاصد التشريع»

ش: أي بأن يفهم المجتهد مقاصد الشارع العامة من تشريع الأحكام وأن يكون عارفاً

---

(١) «بل وحتى الداعي إلى اللّه تعالى».
(٢) إعلام الموقعين ٤/ ٢٠٤ .
(٣) جمع الجوامع ٢/ ٣٨٢ .
(٤) فتاوى شرعية للشيخ حسن مخلوف نقلًا عن الفتيا ومناهج الإفتاء للشيخ الفاضل محمد سليمان الأشقر حفظه اللّه.



بمصالح الناس وأحوالهم وأعرافهم وعاداتهم. لأن فهم النصوص وتطبيقها على الوقائع والنوازل متوقف على معرفة هذه المقاصد كما أن الأدلة الفرعية قد تتعارض مع بعضها فيأخذ بما هو الأوفق مع قصد الشارع، كما أن هناك وقائع جديدة لا يُعرف حكمها بالنصوص الشرعية فيلجأ على الاستحسان أو المصلحة المرسلة. . . وذلك بواسطة مقاصد الشريعة العامة من التشريع. ومن هذه المقاصد التي جاء الإسلام لحفظها هي:

١- حفظ الدين ٢- وحفظ المال ٣- وحفظ العقل ٤- وحفظ الأنفس (الدماء) ٥- وحفظ النسل.

فمعرفة هذه الأمور وغيرها من المقاصد ضروري حتى لا يحمل المستفتي على التشديد إن كان في الأمر يسر، ولا يفتح له باب الخفة المفضي إلى التحلل من أحكام الشرع، كما ردَّ ﷺ على عثمان بن مضعون التبتل[١].

وكذلك قوله لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين أطال في الصلاة «الفرض وهو إمام»:

«أفتان أنت يا معاذ»[٢] وكذلك قال: «إن منكم منفِّرين»[٣] مما يدل على أن الشريعة قد بُنيت على القصد والاعتدال[٤].

قوله: «. . . وتقوى للّه»

ش: يجب على المجتهد أن يتعلم العلم يبتغي بذلك وجه اللّه تعالى لقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات. . .»[٥] لا يبتغي من وراء اجتهاده إلا الوصول إلى الحق

(١) المصدر السابق ٥٤، الفقيه والمتفقه ٢/ ١٥٨ ولهذا نجد الرسول ﷺ يأتيه الرجل ويقول: أوصني «فيقول: «لا تغضب، ويأتيه الآخر فيقول: «أوصني» فيقول: لا يزل لسانك رطباً بذكر اللّه. «ويأتيه رجل يسأله عن الساعة فيقول: «إذا ضُيعت الأمانة فانتظر الساعة». ويأتيه آخر ويسأله عن الساعة. فيقول: وما أعددت لها». . . وهكذا».
(٢) البخاري ومسلم.
(٣) البخاري.
(٤) رواه البخاري.
(٥) رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦١٥٨).



وهداية العامة، إلى طريق الإرشاد والعمل بأحكام هذا الدين الحنيف، فلا يُدخله رياءً أو عجباً. فالإخلاص في طلب الحق يجعل صاحبه أطوع إلى الحق إن وجده كما قال أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا أحسن ما وصلنا إليه. ومن يصل إلى أحسن منه فليتبعه».

ولهذا قال رسول اللَّه ﷺ: «من تعلم العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه، أدخله اللَّه جهنم»[(١)]، وقوله ﷺ: «من تعلم علماً مما يُبتغى به وجه اللَّه، لا يتعلمه إلا ليُصيب به عَرَضاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة».

وقال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن صفات المجتهد الخُلقية: «. . . حافظاً لدينه مشفقاً على أهل ملته، مواظباً على مروءته. حريصاً على استطابة مأكله، فإن ذلك أول أسباب التوفيق، متورعاً عن الشبهات»[(٢)].

وعن عليّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ألا أخبركم بالفقيه كل الفقيه؟ من لم يؤيّس الناس من رحمة اللَّه، ولم يُرخِّص لهم معاصي اللَّه. ألا لا خير في علم لا فقه فيه، ولا خير في فقه لا ورع فيه»[(٣)].

وعن سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «ما من الناس أعزّ، من فقيه ورع»[(٤)]. وعن ابن عون قال: «سئُل الحسن عن رجل فقال رجل، يا أبا سعيد: «الرجل الفقيه». قال (أبو سعيد): «وهل رأيت بعينيك فقيهاً قط؟ إنما الفقيه الذي يخشى اللَّه عزَّ وجلَّ»، وقال مرةً: «هل تدري ما الفقيه؟ الفقيه: الورع، الزاهد الذي لا يسخر ممن أسفل منه، ولا يهمز من فوقه،ولا يأخذ على علم علَّمه حَطِاماً»[(٥)].

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦١٥٩ .
(٢) الفقيه والمتفقه ٢/ ١٥٨ .
(٣) المصدر السابق ١٦٠ .
(٤) الفقيه والمتفقه ٢/ ١٦١ .
(٥) المصدر السابق ٢/ ١٦٢ .



القضية الخامسة والخمسون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«والاجتهاد هو بذل الوسع والجهد للوصول إلى حكم اللَّه في قضية ما أو ما نظن أنه حكم اللَّه»

الشرح:

الاجتهاد لغةً: مأخوذ من الجَهد وهو المشقة والطاقة، فيختص بما فيه مشقة لُيخرج منه ما لا مشقة فيه، فالاجتهاد إذاً: هو استفراغ «بذل» الوسع والطاقة في أي فعل كان، يُقال استفرغ وسعه في حمل الثقيل، ولا يقال استفرغ وسعه في حمل النواة[(١)].

ويُقال: اجتهد في حمل الرحى، ولا يُقال: اجتهد في حمل النواة[(٢)].

الاجتهاد اصطلاحاً: «هو بذل الوسع في النظر في الأدلة الشرعية، لاستنباط الأحكام الشرعية»[(٣)].

فقولهم «بذل الوسع» يخرج ما يحصل مع التقصير، فإن معنى بذل الوسع أن يحس المجتهد من نفسه العجز عن مزيد طلب. وكذلك فهو أعم من القياس إذ القياس هو إلحاق الفرع بالأصل، أما الاجتهاد فيشتمل القياس وغيره.

وقولهم: «النظر في الأدلة الشرعية»: يخرج بالشرعية الأدلة اللغوية والعقلية والحسية، فلا يُسمى من بذل وسعه في تحصيلها مجتهداً اصطلاحاً، وكذلك بذل الوسع في تحصيل الحكم العلمي فإنه لا يُسمى اجتهاداً عند الفقهاء وإن كان يُسمى اجتهاداً عن المتكلمين.

وقولهم: «لاستنباط الأحكام الشرعية»

---

(١) إرشاد الفحول للشوكاني ٢٥٠ .
(٢) مذكرة الشنقيطي على روضة الناظر ٣١١ .
(٣) الفقيه والمتفقه ١/ ١٧٨ ومذكرة الشنقيطي على روضة الناظر ٣١١ ومجموع الفتاوى ١١/ ٢٦٤ إرشاد الفحول ٢٥٠ .



يخرج بطريق الاستنباط الوصول إلى الأحكام عن طريق النصوص ظاهراً أو حفظ المسائل أو استعلامها من المفتي أو بالكشف عنها في كتب العلم، فإن ذلك وإن كان يصدق عليه الاجتهاد اللغوي، فإنه لا يصْدق عليه الاجتهاد الاصطلاحي.

وكذلك قيد «الاستنباط» ينتج عنه أن حكم الاجتهاد قد يفيد القطع وقد يفيد الظن، كما أن قيد «الاستنباط» فيه بيان أن الأجتهاد إنما هو رأي المجتهد واجتهاده، وذلك محاولة منه لكشف حكم اللّه، ولا يُسمى ذلك تشريعاً ؛ فإن التشريع هو الكتاب والسنة، أما الاجتهاد فهو رأي الفقيه أو حكم الحاكم.

قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: وزاد بعض الأصوليين في هذا الحد «تعريف الاجتهاد» لفظ الفقيه فقال: «بذل الفقيه الوسع» ولا بد من ذلك فإن بذل غير الفقيه وسعه لا يُسمى اجتهاداً واصطلاحاً.

وعلى هذا فالاجتهاد لا يجوز إلا من فقيه، عالم بالأدلة وكيفية الاستنباط منها ؛ إذ النظر في الأدلة لا يتأتى إلا ممن كان أهلًا لذلك[1].

***

(١) إرشاد الفحول ٢٥٠، مجموع الفتاوى ١١/ ٢٦٤، ومعالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة ٤٧٠ «بتصرف».



القضية السادسة والخمسون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«والناس في الاجتهاد[١] ثلاث طبقات:

(أ) العامي «الأمي»: وعليه أن يتَّبع من غلب على ظنه أنه من أهل العلم والدين. وأنه أفتاه بحكم رب العالمين.

(ب) وطالب علم لديه بعض العلم والفهم فعليه اتباع العلماء وطلب الدليل وتحري الحق.

(ج) وعالم استوفى شروط الاجتهاد فعليه أن يتعرف على الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية»

الشرح:

والناس في بذل الجهد للوصول إلى حكم اللَّه أو أقرب الأقوال لحكم اللَّه سبحانه وتعالى مما تبرأ به الذمة ثلاث طبقات.

وقول العلماء ثلاث طبقات أو مراتب فهي على الجملة. وإلا فإن كل طبقة تحتوي على طبقات[٢] كثيرة من حيث التفصيل، فنسبة التحصيل العلمي تتفاوت من عالم لآخر وإن كانا في نفس الطبقة.

طبقات الناس في الاجتهاد:

الطبقة الأولى: العامي (الأُمي) وهي الطبقة الأدنى من حيث التحصيل الشرعي والفقه في الدين فهذا عليه أن يُقلد «ولا نقول يتبع» لأنه تتساوى عنده الأدلة فهذا لا نقول أنه يجتهد في الوصول إلى الدليل لأن هذا فوق طاقته ولم يكلفه اللَّه بهذا. ولكن اجتهاده يكمن في بذل الجهد للوصول إلى من يثق في دينه وعلمه وأمانته وهنا يحسن بنا أن نُعِّرف التقليد في اللغة والاصطلاح وحكمه.

---

(١) تم تفصيل الاجتهاد وما يتعلق به في الفقرات ١٥٣ ,١٥٢ ,١٥١ .
(٢) انظر إعلام الموقعين لابن القيم ٤/٢١٢، ٢١٤ .

التقليد في اللغة: هو جعل القلادة في العنق(1).

التقليد في الاصطلاح: هو أخذ قول الغير من غير معرفة دليله (2).

حُكم التقليد: والتقليد جائز في الجملة للعامة الذين لا قدرة لهم على النظر في الأدلة واستنباط الأحكام.

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: ولم تختلف العلماء أن العامة عليهم تقليد علمائهم وأنهم المرادون بقول اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والذي عليه جماهير الأمة أن الاجتهاد جائز في الجملة. والتقليد جائز في الجملة ولا يوجبون الاجتهاد على كل أحد ويحرمون التقليد، ولا يوجبون التقليد على كل أحد ويحرمون الاجتهاد»(3).

ويجوز للمرء أن يقلد في الحالات التالية:

١- أن يكون المقلد جاهلًا، عاجزاً عن معرفة حكم اللَّه ورسوله .

٢- أن يُقلد من عُرف بالعلم والاجتهاد من أهل الدين والصلاح.

٣- ألا يتبين للمقلد الحق، بأن يكون قول غير مقلده أرجح.

٤- ألا يكون في التقليد مخالفة واضحة للنصوص الشرعية أو لإجماع الأمة.

٥ - ألا يلتزم المقلد مذهب إمام بعينه في كل المسائل، بل عليه تحري الحق ويأخذ بالأقرب للصواب. وليس معنى هذا أن يتنقل بين المذاهب تتبعاً للرخص وبحثاً عن الأسهل.

---

(١) المصباح المنير ٥١٢ .
(٢) مجموع الفتاوى ٣٥/٢٣٣، روضة النظائر ٢/ ٤٥٠ .
(٣) مجموع الفتاوى ٢٠/٢٠١- ٢٠٤ .



هل يلزم العامي التمذهب؟

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ : «لايلزمه وهو الصواب المقطوع به، إذ لا واجب إلا ما أوجبه اللَّه ورسوله». ولم يوجب اللَّه ورسوله على أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب رجل من الأئمة فيقلده دينه دون غيره[١] مع عدم الالتزام بمذهب دون غيره هو الأصل ويستثنى منه:

١- إذا لم يستطع العبد أن يتعلم دينه إلا بالالتزام بمذهب معين[٢].

٢- ما يترتب على التزامه بمذهب معين دفع فساد عظيم لا يتحقق دفعه إلا بذلك[٣].

الطبقة الثانية: المتَّبع: هو في درجة دون المجتهد وفوق العامي المقلد، فهو طالب علم، ولديه قدر من الفهم، فهذا عليه اتباع العلماء. كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: " فإن الاتباع سلوك طريق المتبع والإتيان بمثل ما أتى به[٤]، وقال أبو عبد اللَّه بن خواز منداد البصري المالكي: «والاتباع: ما ثبت عليه حجة» [٥].

وقال كذلك: وكل من أوجب الدليل، عليك اتباع قوله فأنت متبعه وقول علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «يا كميل بن زياد ! احفظ ما أقول لك. القلوب أوعية خيرها أوعاها، الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة...»[٦].

وهو الطالب بتعلمه، والقاصد به رفع الجهل عن نفسه ونجاته من التفريط في تضيع الفروض الواجبة عليه والرغبة بنفسه عن إهمالها».

(١) إعلام الموقعين ٤/ ٢٦١-٢٦٢ .
(٢) مجموع الفتاوى ١١/ ٥١١- ٢٠/ ٢٠٩ .
(٣) المصدر السابق.
(٤) إعلام الموقعين ٢/ ١٩٠ .
(٥) إعلام الموقعين ٢/ ١٩٠ .
(٦) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ١/ ٥٠ .

قوله: «فعليه اتباع العلماء وطلب الدليل»

ش: لأنه هو الأصل الذي تبرأ به الذمة حتى يرتبط الناس بالدليل لكن دون تعنت بل عليه التوسط المحمود في طلب الدليل، فيقول محدث الشام الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ «ترى الرجل العامي الذي لا يفهم شيئاً إذا سأل العالم عن مسألة ما، ما حكمها؟ سواء أكان الجواب نفياً ومنعاً بادر بمطالبته: ما الدليل؟

وليس بإمكان العالم - أحياناً - إقامة الدليل، خاصة إذا كان الدليل مستنبطاً ومقتبساً اقتباساً، وليس منصوصاً عليه في الكتاب والسنة حتى تورد الدليل ففي مثل هذه المسألة لا ينبغي على السائل أن يتعمّق ويقول: «ما الدليل؟» ويجب أن يعرف نفسه: هل هو من أهل الدليل أم لا؟ هل عنده مشاركة في معرفة العام والخاص، المطلق والمقيَّد، والناسخ والمنسوخ؟

وهو لا يفقه شيئاً من هذا، فهل يفيده قوله: ما هو الدليل؟ وعلى ماذا؟!» ثم قال: «ذكر الدليل واجب حينما يقتضيه واقع الأمر، لكن ليس الواجب عليه كلما سُئل سؤالًا أن يقول: قال اللَّه تعالى كذا، أو قال رسول اللَّه ﷺ كذا، وبخاصة إذا كانت المسألة من دقائق المسائل الفقهية المختلف فيها.

وقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] هو أولًا على الإطلاق، فما عليك إلا أن تسأل من تظنَّ أنه من أهل العلم فإذا سمعت الجواب فعليك بالاتباع، إلا إذا كانت عندك شبهة سمعتها من عالم آخر، لا بأس من أن توردها، فحينئذ من الواجب على العالم أن يسعى بما عنده لإزالة الشبهة التي عرضت لهذا السائل»[١].

الطبقة الثالثة: المجتهد المطلق: وهو الذي بلغ رتبة الاجتهاد بحيث يمكنه النظر في جميع المسائل.

فهو العالم بكتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ وأقوال الصحابة؛ هو المجتهد في أحكام

---

(١) مجلة الأصالة العدد الثامن ص٧٦ نقلًا من كتاب المنهج السلفي عند الشيخ ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ لعمرو عبد المنعم سليم ٢٠٣ - ٢٠٤ .



النوازل، يقصد فيها موافقة الأدلة الشرعية حيث كانت، ولا ينافي اجتهاده تقليده لغيره أحيانا، فلا تجد أحدا من الأئمة إلا وهو مقلد من هو أعلم منه في بعض الأحكام وقد قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موضع من الحج: «قلته تقليداً لعطاء» فهذا النوع الذي يسوغ لهم الإفتاء، ويسوغ استفتاؤهم ويتأدى بهم فرض الاجتهاد.

شروط الاجتهاد[(١)]:

أولاً: الإحاطة بأدلة الأحكام الشرعية وهي الكتاب والسنة والإجماع والقياس والاستصحاب وغيرها ومعرفة الناسخ والمنسوخ ومسائل الإجماع والخلاف وصحيح الحديث وضعيفه ومعرفة بمقاصد الشريعة.

ثانياً: العلم بلسان العرب، ويكفيه في ذلك القدر اللازم لفهم الكلام.

ثالثاً: المعرفة بدلالات الألفاظ وطرق استنباط الأحكام كالمعرفة بالمحكم والمتشابه وبالعام والخاص والمطلق والمقيد والمجمل والمبين، والمنطوق والمفهوم والأمر والنهي.

رابعاً: بذل الجهد قدر استطاعته للوصول إلى حكم اللّٰه تعالى وأن يكون اجتهاده مستنداً فيه إلى أصل ودليل يرجع إليه.

خامساً: «أن يكون عالماً بالواقع عارفاً بأحوال الناس قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فهذا أصل عظيم يحتاج إليه المفتي والحاكم فإن لم يكن فقيهاً فيه، فقيهاً في الأمر والنهي، ثم يُطبقِّ أحدهما على الآخر، وإلا كان ما يفسد أكثر مما يصلح، فإنه إذا لم يكن فقيها في الأمر، له معرفة بالناس تصَّور له الظالم بصورة المظلوم وعكسه والمحق بصورة المبطل وعكسه وراج عليه المكر والخداع والاحتيال...»[(٢)].

سادساً: ينبغي للمفتي أن يذكر دليل الحاكم ومأخذه ما أمكنه من ذلك قال ابن القيم

---

(١) مجلة الأصالة العدد الثامن ص٧٦ نقلًا من كتاب المنهج السلفي عند الشيخ ناصر الدين الألباني لعمرو عبد المنعم سليم ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٢) إعلام الموقعين لابن القيم ٤/ ٢١٢، راجع فقرة ١٥٤ .

رَحِمَهُ اللَّهُ : ومن تأمل فتاوى النبي ﷺ الذي قوله حجة بنفسه رآها مشتملة على التنبيه على حكمة الحكم ونظيره ووجه مشروعيته، وهذا كما سُئل عن بيع الرطب بالتمر فقال: «أينقص الرطب إذا جف؟» قالوا: «نعم»، فزجر عنه.

ومن المعلوم أنه كان يعلم نقصانه بالجفاف، ولكن نبههم على علة التحريم وسببه. ومن هذا قوله لعمر وقد سأله عن قُبلة امرأته وهو صائم، فقال: «أرأيت لو تمضمضت ثم مججته، أكان يضر شيئاً؟» قال: «لا»، فنبه على أن مقدمة المحظور لا يلزم أن تكون محظورة؛ فإن غاية القُبلة أنها مقدمة الجماع، فلا يلزم من تحريمه تحريم مقدمته، كما أن وضع الماء في الفم مقدمة شربه، وليست المقدمة محرمة.

ومن هذا قوله ﷺ: «لا تُنكحُ المرأة على عمتها ولا على خالتها، فإنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم» فذكر لهم الحكم ونبههم على علة التحريم. ومن ذلك قوله لأبي النعمان بن بشير وقد خصّ بعض ولده بغلام نَحَلَه إياه فقال: «أيسرك أن يكونوا لك في البر سواء؟» قال: «نعم»، قال: «فاتقوا اللَّه واعدلوا بين أولادكم»، وفي لفظ «إن هذا لا يصلح»، وفي لفظ «إني لا أشهد على جور»، وفي لفظ «أشهِد على هذا غيري» تهديداً، لا إيذاناً، فإنه لا يأذن في الجور قطعاً، وفي لفظ: «رده» والمقصود أنه نبهه على علة الحكم.

ومن هذا قوله ﷺ لرافع بن خديج وقد قال له: «إنا لاقو العدو غداً، وليس معنا مُدًى، أفنذبح بالقَصَب؟» فقال: «ما أنهر الدم وذُكر اسم اللَّه عليه فكل ليس السن والظفر؛ وسأحدثك عن ذلك، أما السن فعظم، وأما الظفر فمُدى الحبشة»، فنبه على علة المنع من التذكية بهما بكون أحدهما عظماً، وهذا تنبيه على عدم التذكية بالعظام إما لنجاسة بعضها وإما لتنجيسه على مؤمن الجن، ولكن الآخر مدى الحبشة ففي التذكية بها تشبه بالكفار»[1].

* * *

---

(١) إعلام الموقعين ٤/ ١٦١ - ١٦٢ .



القضية السابعة والخمسون بعد المائة: قال المُصنِّف حفظه الله:

«وكل خلاف ينشأ بين المسلمين يجب أن نردّه إلى كلام الله ورسوله ﷺ»

الشرح:

لما كان الخلاف من طبائع النفوس، لم يتركنا الله تعالى لهواها بل وضع لنا حكماً نلجأ إليه، ويشبه هذا وصية رسول الله ﷺ للصحابة حين قال «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن تأمّر عليكم عبد «حبشي» وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كبيراً. «ثم بيَّن النبي ﷺ المخرج من هذا الاختلاف فقال " فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»(١)، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

«والنزاع»: هو الجذب، والمنازعة: مجاذبة الحجج، فكأن كل واحد ينتزع حجة الآخر ويُذهبها(٢).

فقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ فشيء: نكرة في سياق الشرط تعم كلَّ ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين دِقّه وجُلّه، جَلِيه وخَفيه، ولو لم يكن في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بيان حكم ما تنازعوا فيه، أو لم يكن كافيا لم يأمر الله بالرد إليه، إذ من الممتنع أن يأمر تعالى بالرد عند النزاع إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع.

ومنها: أن الناس أجمعوا أن الردّ إلى الله سبحانه هو الردّ إلى كتابه، والرد إلى الرسول ﷺ هو الرد إليه نفسه في حياته وإلى سنته بعد وفاته ﷺ(٣).

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح صححه الألباني عن حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه (رياض الصالحين ٨٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥/ ٢٦١ .

(٣) أعلام الموقعين لابن القيم ١/ ٤٩-٥٠ .

وقال مجاهد والأعمش وقتادة وميمون بن مهران وغير واحد من السلف أي: إلى كتاب الله تعالى، ورسوله ﷺ بالسؤال في حياته، وبالنظر إلى سننه بعد وفاته ﷺ.

وهذا أمر من الله عزوجل بأن كل شيء تُنوزع فيه من أصول الدين وفروعه أن يُرد التنازع في ذلك إلى كتاب الله والسنة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ١٠].

فما حَكَم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال ولهذا قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء: ٥٩]، أي ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله، فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ فدلّ على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمناً بالله واليوم الآخر، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٌ﴾ أي التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، والرجوع إليهما في فصل النزاع(١).

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٨٩-٦٩٠، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥/ ٢٦١-٢٦٢، والجامع لبيان العلم ومطلقه لابن عبد البر ٢/ ٢٢٩ .



القضية الثامنة والخمسون بعد المائة: قال المُصَنِّف حفظه اللَّه:

«والخلاف شر، ولكنه من طبائع البشر، ويستحيل أن يجتمع المسلمون على رأي واحد في كل مسائل الدين، ولذلك يلزم منها الحرص على الجماعة وإسداء النصيحة، وترك السرائر إلى اللَّه سبحانه وتعالى».

قوله: «والخلاف شر....»

الشرح: أولًا التعريف:

الخلاف في اللغة:

يعني عدم الاتفاق على الشيء، بأن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخرين في حاله، أو قوله، أو رأيه، والخلاف هو المضادة.

وقد خالفه، مخالفة، وخلافاً: فهو يدل على ما يدل عليه لفظ الاختلاف وأن كان معناه أعم، إذ هو من الضد، ولا يلزم من كل مختلفين أن يكونا ضدين، وأن كان كل ضدين مختلفين[1].

الخلاف في اصطلاح الفقهاء:

يعني الاختلاف في الآراء والنِحل والأديان والمعتقدات، بما يسعد الإنسان به أو يشقى في الآخرة والدنيا [2].

ثانياً: الخلاف كوناً وقدراً:

حين نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول اللَّه ﷺ: «أعوذ بوجهك» قال: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: «أعوذ بوجهك» قال: ﴿أَوْ

---

(١) لسان العرب ١/ ٤٣٠ - والمفردات للراغب الأصفهاني.

(٢) الموافقات للشاطبي ٤/ ١١٠ - ١٤٤ والاعتصام ٢/ ١٦٦ وما بعدها.

﴿يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال رسول الله ﷺ «هذا أهون، أو هذا أيسر»[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ معقباً على هذا الحديث: «وهذا لأنه لا بد أن تقع الذنوب في هذه الأمة، ولابد أن يختلفوا، فإن هذا من لوازم الطبع البشري»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨- ١١٩] يُخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس أُمة واحدة من إيمان أو كفر، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ﴾ [يونس: ٩٩]. فإن مشيئته غير قاصرة، ولا يمتنع عليه شيء، ولكنه اقتضت حكمته أن لا يزالوا مختلفين «من يهود ونصارى ومجوس وغيرهم من الديانات والمِلل الباطلة» مخالفين للصراط المستقيم، متبعين للسُّبل الموصلة إلى النار ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ﴾ فهداهم إلى العلم بالحق والعمل به، والاتفاق عليه، ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ أي اقتضت حكمته، أنه خلقهم ليكون منهم السعداء والأشقياء، والمتفقون والمختلفون.

ولكن كون الخلاف والاختلاف قضية كونية قدرية حتمية لا يعني ذلك شرعيتها أو الاستسلام لها، دون بذل النصح وتضييق دائرتها بقدر المستطاع.

ثالثاً الخلاف شرعاً:

لقد نهى الإسلام عن الخلاف وأمر بالاجتماع والائتلاف. قال تعالى:

لقد أمر الله بالاعتصام بدينه قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ﴾ فإن في اجتماع المسلمين على دِينهم ائتلاف قلوبهم يصلح دينهم ودنياهم فبالاجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدّها.

---

(١) رواه اليخاري برقم ٤٦٢٨ .

(٢) مجموع الفتاوى ١٤/ ١٥٠ - ١٥١ .



كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم، وتنقطع روابطهم كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]. فقد نهى الله هذه الأمة أن يكونوا كالأمم الماضين في افتراقهم، واختلافهم، ومن العجائب أن اختلافهم كان بعد العلم، والبينات الموجبة لعدم التفرق والاختلاف.

بل نجد أن الله أمر نبيه بأن يتبرأ ممن كانت هذه صفته، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. فالله يتوعد الذين فرقوا دينهم أي شتتوه وتفرقوا فيه ولقد حثّ رسول الله ﷺ على عكس ذلك، فقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويسخط لكم ثلاثا: يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم...» الحديث(١).

وقوله ﷺ: «إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة وأن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين مِلة «يعني الأهواء» كلها في النار، إلا واحدة وهي الجماعة»(٢).

رابعاً: والبشر مختلفون في إشكالهم وصورهم وألوانهم اختلافاً هائلًا بحيث يستحيل أن نجد اثنين متماثلين تمام المماثلة في كل ما يخص أجسامهم وإشكالهم. وهذا الاختلاف في الحقيقة من أعظم الآيات الدالة على عظيم قدرة الله تبارك وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢] وبمقدار هذا الاختلاف في الأشكال والألوان يكون الاختلاف في الطِّباع والميول والأفكار، بحيث لا تجد اثنان متطابقان في كل شيء.

خامساً: الحرص على جماعة المسلمين ووحدتها بإسداء النصيحة:

والنصيحة من أبرز صفات الأنبياء والدعاة فهذا نوح عليه السلام يقول لقومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه أبو داود وابن ماجة وصححه الألباني.



﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢]، وهذا هود عليه السلام يقول لقومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨].

ومن حديث أبي رقيه تميم بن أوس الداري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة» قلنا: «لمن؟» قال: «للَّه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[١] وعن جرير بن عبداللَّه ﷺ قال بايعت رسول اللَّه ﷺ: «على أقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم»[٢] ثم أن الرسول ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعاً: «أيها الناس إنكم مسئولون عني فما أنتم قائلون؟» قالوا: «نشهد أنك قد بلغت، وأدّيت ونصحت»، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ويقول «اللَّهم اشهد اللَّهم اشهد»[٣].

فمع الأسف لقد غاب عن الكثير منّا، فقه الأولويات، ونسي أو تناسى أنه قد تُترك بعض السنن أو المستحبات، إن كان فعلها سيترتب عليه بعض الأضرار التي قد تؤدي إلى ضعف وحدة الجماعة.

قال ابن تيمية رحمه الله: «ويُستحب للرجل أن يقصد إلى تأليف القلوب بترك هذه المستحبات، لأن مصلحة التأليف في الدين أعظم من مصلحة فعل مثل هذا، كما ترك النبي ﷺ تغيير بناء البيت «الكعبة» لِما في إبقائه من تأليف القلوب، وكما أنكر ابن مسعود رضي الله عنه على عثمان رضي الله عنه إتمام الصلاة في السفر، ثم صلى خلفه متماً، وقال: الخلاف شر»[٤].

سادساً: الأخذ بالظاهر واللَّه يتولى السرائر:

أن الشريعة الإسلامية أقامت أحكامها في الدنيا على ظواهر الناس، لأن الغيب وخفايا القلوب لا يعلمها إلا اللَّه تعالى، ولم نُكلَّف بما لا نطيق، وهذا معنى قوله

---

(١) رواه مسلم.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه مسلم.
(٤) الفتاوى ٢٢/٤٠٧ .



«ﷺ» في كلمة «لا إله إلا اللّه» «... فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقها وحسابه على اللّه»(١). وقوله لخالد بن الوليد رضي الله عنه في الرجل الذي اعترض على قسمة الغنائم فاستأذن خالد رضي الله عنه رسول اللّه ﷺ في ضرب عنقه قال ﷺ: «لعلّه أن يكون يصلي» فقال خالد: «وكم مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه»، قال ﷺ: «إني لم أُؤمر أن أُنقّب قلوب الناس، ولا أشق بطونهم»(٢).

وقال ﷺ: «من صلّى صلاتنا واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة اللّه وذمة رسوله»(٣).

يقول ابن حجر رحمه الله: «وفيه أن أمور الناس محمولة على الظاهر، فمن أظهر شعار الدين، أُجريت عليه أحكام أهله، ما لم يظهر منه خلاف ذلك»(٤).

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول بعد انقطاع الوحي بوفاة رسول اللّه ﷺ: «إنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيراً أمّناه وقربّناه»، وليس إلينا من سريرته شيء، اللّه يحاسب سر يرته، ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه ولم نصّدقه وإن قال: «إن سريرته حسنة»(٥).

سُبل تضييق سبل دائرة الخلاف:

وحتى نستطيع تضييق دائرة الخلاف، ولا أقول نقضي عليها يمكن اتباع بعض هذه السبل:

١- حصر مصدر التلقي على الكتاب والسنة الصحيحة بفهم السلف الصالح رضي الله عنهم.

٢- الاتفاق على تعريف اللفظ قبل الاختلاف حوله، فالتعريف ضابط قوي ومانع من

---

(١) صحيح البخاري رقم ١٣٩٩.
(٢) صحيح البخاري برم ٤٣٥١.
(٣) المصدر السابق رقم ٣٩١.
(٤) فتح الباري ١/ ٦٥٤ وشرح حديث ٣٩١.
(٥) صحيح البخاري كتاب الشهادة باب ٥ رقم الحديث ٣٦٤١.

الخلاف: وهذا يحدث كثير فلو اتفقنا على التعريف بداية لزال كثير من الخلاف، ومن تلك الألفاظ التى قد يحدث الخلاف حولها: «السنة، البدعة، التوحيد، الشرك، العبادة، الكفر، الإيمان، الجاهلية، التطرف، الإرهاب، أهل الذمة..».

٣- الاتفاق على القاعدة قبل الاختلاف حول المثال: وهذا كذلك يجب الرجوع إلى القاعدة والاتفاق عليها أولًا قبل الخوض في الأمثلة ومنها: الحكم بغير ما أنزل الله وصوره، مولاة أعداء الله.....

٤- التشخيص الكامل للمشكلة قبل الاختلاف في حل المشكلة: وهذا كالطبيب الذي يبادر إلى علاج المريض قبل التشخيص الكامل فالقصور في التشخيص يصاحبه قصور في العلاج ومن أمثلة ذلك:

علاج أوضاع الأمة الآن: فمن القائل مشكلتنا عقائدية، وقيل بل سببه الفساد السياسي، وقيل الفساد الاقتصادي، وقيل الفساد الإداري، وقيل الفساد الاجتماعي، ومن قائل انتشار الجهل، ومن قائل بل المؤامرات الخارجية من صهيونية....

٥- الاتفاق على ميزان التقويم قبل الاختلاف على التقويم: مثال ذلك عندما نطلق على إحدى الدول أنها متقدمة أو متحضرة وأخرى بأنها متخلِّفة، أو أن هذا الداعي فاشل، أو هذا نائب جيد، أو أن هذه الدعوة فاشلة، أو هذا المجلس فاشل قبل الاتفاق على ميزان التقويم.

٦- مناقشة الفكرة المطروحة للبحث قبل الاختلاف حول شخصية من طرحها، وذلك أننا قد نقبل أو نرفض طرحاً معيناً لا لأن الفكرة سيئة أو جيدة بل لأن من طرحها هو فلان. بحيث لو أن مَن طرحها كان شخصاً آخر لقُبلت.





الخـــاتمـــة

فبعد الانتهاء من كتابة هذه القضايا المهمة يسرني أن أذكر أهم النتائج والقضايا التي يمكن استخلاصها من البحث والذي شمل ثمان وخمسين ومائة قضية تناولت عامة المسائل العقدية موزعه على الفصول الآتية:

أولًا: مسائل الإيمان

١- مسائل الإيمان تتلقى عن طريق الوحيين الكتاب والسنة الصحيحة.

٢- مسائل الإيمان لا مجال للعقل المجرد أو الكشف والإلهام لإثباتها.

٣- مسائل الإيمان تُفهم كما فهمها السلف الصالح وهم الصحابة ومن تبعهم بإحسان.

٤- نقاء وصفاء وسهولة مسائل الإيمان.

٥- خطورة الخلل والانحراف في مسائل الإيمان.

٦- مسائل الإيمان هي أول قضايا الدين التي يجب أن يهتم بها ويتربى عليها الصغير والكبير والذكر والأنثى والعالِم والعامي.

٧- مسائل الإيمان هي التي يجب أن يُبدأ بها الداعي دعوته.

٨- أهم مسألة من مسائل الإيمان: هي الإيمان باللّه تعالى وتوحيده فعليها تتوقف جميع المسائل مهما بلغت مكانتها من الدين. بل يتوقف عليها دخول الجنة والنجاة من النار.

٩- إن مسائل الإيمان عليها تتوحد الأمة، أو تتفرق.

١٠- على مسائل الإيمان تقوم عقيدة الولاء والبراء.

ثانياً: الأمة الإسلامية

١- إن مفهوم الأمة الإسلامية[١] لا يختزل ببعض القرون، بل هو يمتد من آدم عليه السلام إلى آخر رجل مسلم على هذه الأرض.

٢- أن أفضل هذه الأمم بعد الأنبياء والرسل هم صحابة رسولنا الكريم محمد ﷺ رضوان اللَّه عليهم أجمعين.

٣- أن الأمة الإسلامية[٢] هي خير الأمم وأعظمها قدراً وأكثرها عدداً ممن يدخل الجنة.

٤- لا نُخرج أحد من هذه الأمة إلا بيقين، كما أننا لا نُدخِله إلا بيقين.

٥- نبذ كل ما ينقض أو يضعف هذه الوحدة والائتلاف .

ثالثاً: أصول الدعوة إلى اللَّه سبحانه وتعالى

١- الأمة تبع لرسولها في الدعوة إلى اللَّه تعالى.

٢- الأصل في أسلوب الدعوة اللِّين والرفق، وفي وسائلها موافقة الشرع.

٣- الجماعات الدعوية عليها الالتزام بالكتاب والسنة على منهج سلف هذه الأمة

رابعاً: الموقف من غير المسلمين

١- الناس بعد بعثة النبي عليه الصلاة والسلام لا يسعهم الخروج عن هديه وشرعه

٢- غير المسلمين ليسوا صنفاً واحداً بل أصناف ولكل صنف موقف خاص به يختلف عن الصنف الآخر.

٣- هناك ثوابت في الدين لا يجوز التفاوض فيها أو التنازل عنها.

---

(١) بالمفهوم والمعنى العام: وهو الاستسلام للَّه ظاهراً وباطناً

(٢) المفهوم والمعنى الخاص: وهو الدين والشريعة التي بعث اللَّه بها نبينا محمد ﷺ.



٤- الجهاد والغزو فريضة ماضية إلى قيام الساعة مع البرّ والفاجر.

٥- ضعف الأمة وما تمر به في بعض مراحلها، وغلبت الأعداء عليها لا يعني انتهاءها بل المستقبل لها بإذن اللّه.

خامساً أصول الفقه:

١- التشريع حق للّه وحده سبحانه وتعالى.

٢- القرآن محفوظ بحفظ اللّه له، فلا زيادة فيه ولا نقصان ولا تبديل.

٣- والسنة من الوحي الذي تكفّل اللّه بحفظه «بشكل عام» وهي المصدر الثاني للتشريع.

٤- الأصل في العبادات التوقف والتحريم، والأصل في العادات الإباحة.

٥- باب الاجتهاد مفتوح لمن ملك أهليته.

هذا ما تيسر جمعه وإعداده والذي أسأل اللّه تعالى أن يكون خالصاً لوجهه الكريم وأن يكون في ميزان حسناتي يوم القيامة وأن يغفر لي ولوالدي ولأصحاب الحقوق عليّ.

والحمد للّه رب العالمين واصلي وأُسلّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



الفهرس













ثانيا: الإيمان بالملائكة

ثالثاً: الإيمان بكُتب الله



رابعاً: الإيمان برسل اللَّه




رفع
المسيّهمّ



الخامسة: الإيمان باليوم الآخر







سادساً: الإيمان بالقضاء والقدر

سابعاً: الأمة الإسلامية









ثامناً: اصول الدعوة إلى اللَّه سبحانه وتعالى















عاشراً: أصول الفقه

ونؤمن ونشهد أن:



















تم الصف والإخراج
بشركة غراس للطباعة
هاتف: ٤٨١٩٠٣٧ - فاكس: ٤٨٣٨٤٩٥

